تاريخ العرب والعالم

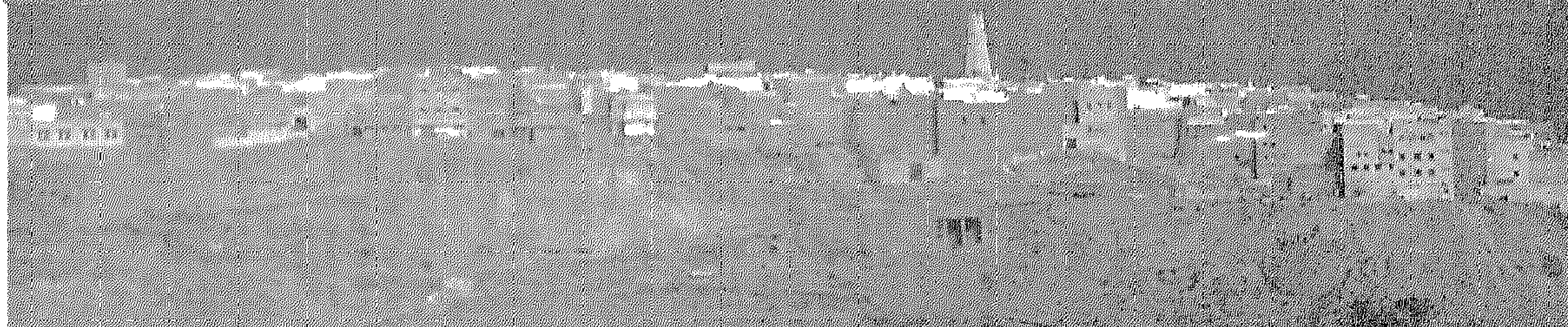
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الخامسة • العدد ٥١ • كانون الثاني ١٩٨٣ م. • الموافق ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ.

وعاء الأرنب
العهد السلجوقي



زوبعـة في الصّحرَاء



تاريخ العرب والعالم

العدد ٥١ ـ كانون الثاني ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

أمين التحرير : د. محمد أمين فرشوخ

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١,٥ دينار

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٢٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الاشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 5 No. 51, Jan. 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION: $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■

جبل طارق (الحلقة الأولى) جبل الفتح

معقل إسلامي عبر القرون الوسطى (٩٢-٨٦٦هـ / ٧١١-١٤٦٢م)

د. أمين توفيق الطيبي



نظراً للنقص الذي نعانيه في المشرق العربي في ميدان الدراسات التاريخية المتعلقة بالمغرب العربي، ورغبة في سد هذا النقص بالنسبة للقارىء الشرقي، فاننا نستأذن مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي في ان نقتبس الدراسة القيمة للدكتور أمين توفيق الطيبي في موضوع جبل طارق عن مجلة المركز: «مجلة البحوث التاريخية»، العدد الأول، يناير ١٩٧٩ م وان نعيد نشرها في مجلة «تاريخ العرب والعالم»، وذلك تعميماً للفائدة واسهاماً في توسيع نطاق قراءة الدراسات التاريخية عن المغرب العربي.

عرض تاريخي



منذ ان نزل المسلمون في جبل طارق عام ٩٢هـ = ٧١١م الى ان احتله الاسبان النصارى عام ٨٦٦هـ = ١٤٦٢م اتخذته الدول الاسلامية المتعاقبة في الأندلس والمغرب قاعدة عسكرية ومعقلاً مهماً باعتباره مفتاحاً لشبه جزيرة ايبرية من الجنوب ونقطة تتحكم في حركة الملاحة عبر مضيق جبل طارق او بحر الزقاق، سواء أكان العبور من عدوة المغرب الى الأندلس او بالعكس. وكان الجبل اول بقعة اسبانية نزلها الفاتح الشهير طارق بن زياد، ومن الجبل بدأ الفتح العربي

«بوابة العبور» الى جبل طارق الذي مايزال
تحت السيطرة البريطانية

المظفر للأندلس. كما ان الموحدين فيما بعد (القرن السادس الهجري = الثاني عشر الميلادي) اتخذوه قاعدة عسكرية لتثبيت سلطانهم في الأندلس والعمل على استرداد ما فقده المسلمون من ارض هناك. وعلى حافة الجبل الغربية، امر اول سلاطين الموحدين عبد المؤمن بن علي ببناء مدينة الفتح، وقام بتحصينها، كما اعاد تسمية الجبل فسماه جبل الفتح تيمناً بما كان يزمع القيام به من جهاد واسع النطاق في الأندلس. وقد ازدادت اهمية الجبل الحربية في القرن الثامن الهجري = الرابع عشر الميلادي ايام بني مرين سلاطين المغرب وبني الأحمر ملوك غرناطة حينما تقلصت ممتلكات المسلمين في الأندلس واحتل ملك قشتالة مينائي طريف والجزيرة الخضراء على بحر الزقاق — وهما مفتاحا الأندلس من العدوة[1] — مهدداً بذلك مواصلات المسلمين البحرية، فأصبحت لجبل طارق بالتالي اهمية دفاعية خاصة لتأمين الاتصال بين المغرب ومملكة غرناطة. ولذلك، فان السلطان المريني أبا الحسن وابنه ابا عنان حرصا على تعزيز تحصينات الجبل، فأحيط الجبل برمته بسور «إحاطة الهالة بالهلال» على حد قول ابن مرزوق[2].

وفي هذا العرض التاريخي سنتناول، اعتماداً على المصادر العربية الأصلية في المقام الأول، تاريخ جبل طارق (جبل الفتح) طوال الفترة التي كان فيها هذا المعقل تحت سيادة المسلمين، والتي دامت سبعة قرون ونيفاً.

جبل طارق شبه جزيرة[3] في اقصى الطرف الجنوبي من اسبانيا. ويبلغ طول شبه الجزيرة نحو أربعة كيلومترات ونصف الكيلومتر، وعرضها نحو كيلومتر ونصف الكيلومتر، وتبلغ مساحتها حوالي خمسة كيلومترات مربعة، ويبلغ ارتفاع اعلى نقطة في الجبل ٤٢٥ متراً عن سطح البحر.

وفي الخليج الواقع غربي جبل طارق، المعروف بخليج جبل طارق او خليج الجزيرة الخضراء، كان يقوم قديماً عمود هرقل (Pillar of hercules) في الجانب الأوروبي من المضيق، ويقابله في الجانب الافريقي عمود آخر حيث تقع مدينة سبتة. وكان يطلق على الجبل قبل الفتح الاسلامي الاسم الفنيقي الأصل (جبل كالبي Mont Calpe) ومعناه تجويف، وذلك لوجود كهف معروف في سفح الجبل[4].

ويسيطر جبل طارق من ناحية الشمال الشرقي على المضيق الذي يفصل اوروبا عن افريقيا، والبحر المتوسط عن المحيط الأطلسي، وكان يعرف هذا المضيق في التاريخ القديم باسم مضيق قادس او مضيق هرقل. اما في العهود الاسلامية، فقد عرف المضيق باسم الزقاق او بحر الزقاق، كما عرف ايضاً باسم المجاز، لكونه المعبر او طريق الجواز الى الأندلس من المغرب (العدوة)[5]. ونظراً الى قلة عرض المضيق — حوالي ١٥ كم — فان بحر الزقاق لم يعق يوماً الاتصال بين اسبانيا وافريقيا، وكثيراً ما كان معبراً سهلاً للفاتحين من العدوتين. وكان القدامى يعتبرون مضيق جبل طارق نهاية العالم من ناحية الغرب، وقد جرى على ذلك الجغرافيون المسلمون فسموا المحيط الأطلسي بحر الظلمة[6] او الظلمات او البحر المحيط.

من الفتح العربي حتى قيام دولة الموحدين:

من المعروف ان الاسم الحديث لجبل طارق (Gibraltar) او مختصراً (Gib) مشتق، بشيء من التحريف، من اسم الفاتح طارق بن زياد، مولى موسى بن نصير، والوالي الأموي على افريقية، كما درج المصنفون العرب على الاشارة الى الجبل احياناً باسم الصخرة، وحذا الأوروبيون حذوهم في ذلك، فالجبل يعرف بالانجليزية باسم (The Rock). وكان نزول طارق عند حافة الجبل في رمضان (رجب) سنة ٩٢هـ = ابريل — يوليو ٧١١م، على رأس قوة تقدر بسبعة آلاف رجل[7]. ويحدثنا صاحب (أخبار مجموعة) عن هذا النزول فيقول: «وضمهم طارق الى جبل على شط البحر منيع فنزله، والمراكب تختلف حتى توافي جميع اصحابه»[8]. ويذكر الأدريسي ان المسلمين تحصنوا بالجبل، وعمد طارق الى احراق المراكب التي جاز البحر فيها لكي يعزز ثقة جنده به



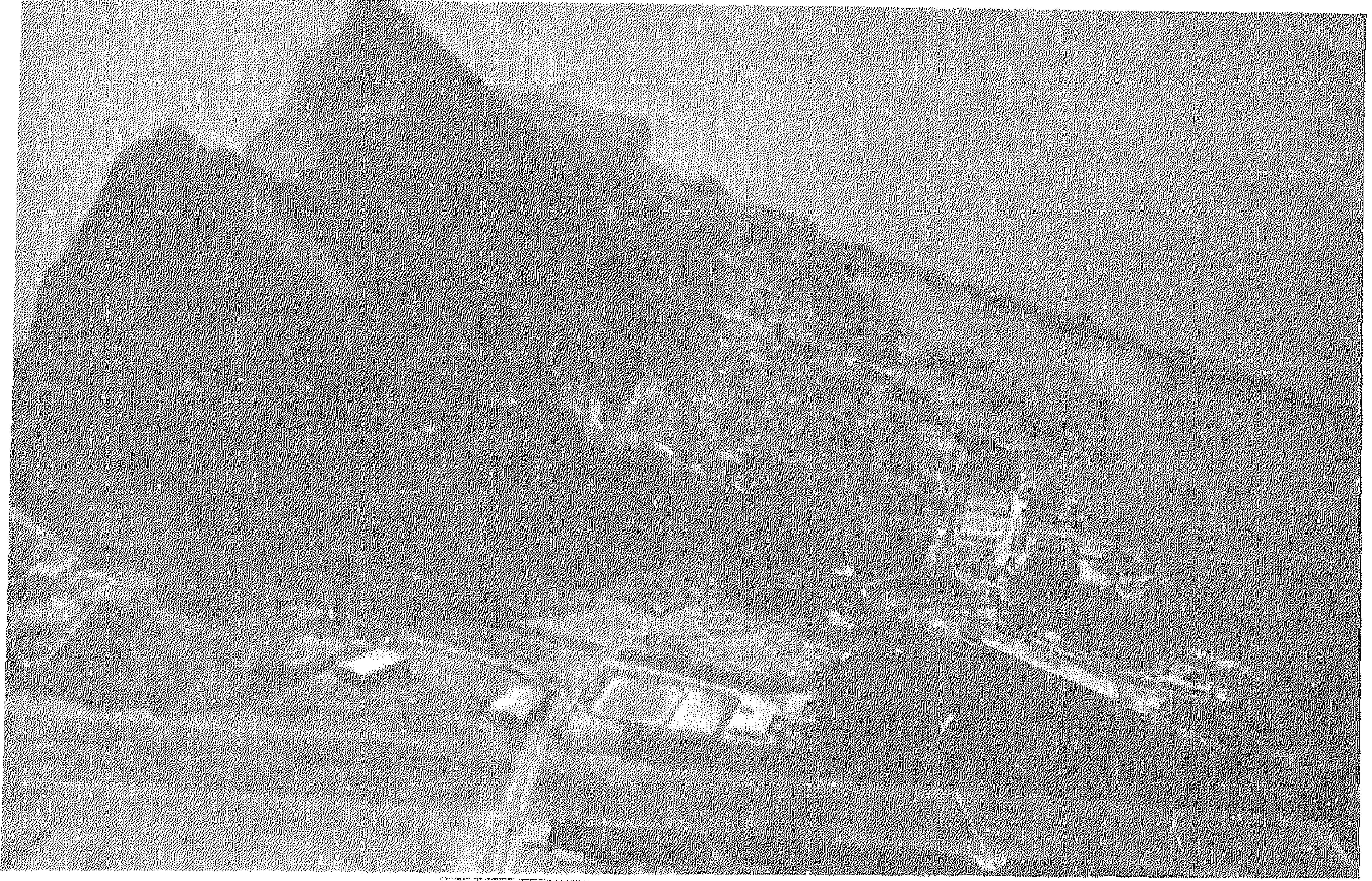
القائد «بيلاج» الذي انتصر على العرب في معركة «كوفادونكا» عام ٧١٨م

ويدفعهم على الاستماتة في الجهاد[٩]. ويقول ابن عذاري ان المسلمين حاولوا الطلوع في الجبل، وهو حجارة حرش، فوطأوا للدواب بالبراذع وطلعوا عليها، فلما حصلوا في الجبل، بنوا سوراً على انفسهم يسمى سور العرب، وقيل انهم فتحوا حصن قرطاجنة، وكان في سفح هذا الجبل من نظرة الجزيرة الخضراء[١٠]. ويقول ابن الأثير ان طارقاً نزل من الجبل الى الصحراء[١١] وافتتح الجزيرة الخضراء وفارق الحصن الذي في الجبل[١٢]. ويبدو ان المسلمين نزلوا على سفح الجبل، واتخذوا لأنفسهم مرصداً او نقطة مراقبة في اعلاه، حيث يتسنى للمرء الرؤية لمسافات بعيدة براً وبحراً، وذلك تحوطاً من هجوم مباغت قد يشنه القوط. اما قرطاجنة التي يذكرها ابن عذاري فهي تحريف لاسم قارطية (Carteya)، المستوطنة الفنيقية القديمة، والتي يشير اليها الحميري باسم قرطاجنة الجزيرة (تمييزاً لها عن قرطاجنة الحلفاء على الساحل بشرق الأندلس) ويقول انها تقع «عند جبل طارق» وهي مدينة للأول غير مسكونة... وتعرف بقرطاجنة الجزيرة»[١٣]. ويتحدث الادريسي عن جبل طارق فيقول انه «جبل منقطع مستدير، في اسفله من ناحية البحر كهوف وفيها مياه قاطرة جارية»[١٤]. ويضيف الحميري بأن «جبل طارق مرسى يكن من كل ريح»[١٥].

عند نزول طارق بن زياد في الجبل الذي عرف باسمه وخلده منه نزوله، كان ملك القوط رودريك يقود حملة في شمال اسبانيا ضد قبائل الباسك (البشكنس) فتوجه جنوباً فور سماعه بنزول المسلمين، وفي ٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ = ١٩ يوليو سنة ٧١١م تم اللقاء بجيش طارق على ضفة وادي لكة/ بكة (Gnadalete) ما بين شريش ومدينة شذونة[١٦] واحرز المسلمون نصراً حاسماً، وقتل رودريك في ساحة القتال او اختفى ولم يعثر له على اثر. وتقدم طارق بعد ذلك نحو قرطبة وحاصرها، واوقع بالنصارى هزيمة عند استجة، ثم قصد طليطلة عاصمة القوط واستولى عليها، وواصل زحفه شمالاً في اتجاه سرقسطة ثم عاد لتمضية الشتاء في طليطلة. وحسبنا ان نذكر هنا انه بعد الانتصارات الباهرة السريعة التي احرزها طارق بن زياد سرعان ما توطدت اقدام المسلمين في شبه الجزيرة، ولم تنقض اكثر من خمس سنوات على نزول طارق في الجبل الذي يحمل اسمه (٩٢ ـ ٩٦هـ = ٧١١ ـ ٧١٦م) حتى اصبحت كل شبه جزيرة ايبرية تقريباً تحت سيطرة المسلمين[١٧].

تعتبر الفترة بين نزول طارق بن زياد في جبل طارق عام ٩٢هـ = ٧١١م وتشييد مدينة الفتح بأمر من الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، من اكثر الفترات غموضاً في تاريخ جبل طارق: فهل استوطن المسلمون الجبل في هذه الفترة التي امتدت اربعة قرون ونصف القرن[١٨]؟ كما ان المكان الذي نزل فيه طارق غير معروف تماماً على وجه التحديد، إذ ان ما ذكره المؤرخون والجغرافيون العرب لا يعين على تحديده، وهم متفقون على اية حال على ان طارقاً تحصن في الجبل بعد نزوله، ثم ارسل قوة للاستيلاء على مدينة قرطاجنة الجزيرة (قرطبة Carteya). ولا شك في ان جبل طارق لعب طوال الفترة الاسلامية دوراً هاماً كحصن منيع، ومرسى امين للمراكب، بينما نمت مدينة الجزيرة الخضراء (Algeciras)، واصبحت قاعدة كورة في الطرف الجنوبي من الأندلس، يتبعها جبل طارق.

وفي فترة ملوك الطوائف (القرن الخامس



صخرة جبل طارق كما تبدو من الجو

الهجري = الحادي عشر الميلادي) ـ اي بعد ثلاثة قرون من الفتح العربي للأندلس ـ يرد ذكر جبل طارق وقت ان كان يشكل جزءاً من مملكة بني عباد، وكان ملحقاً بكورة الجزيرة الخضراء.

والمعروف ان صاحب اشبيلية المعتضد بن عباد (حكم في الفترة ٤٣٣ ـ ٤٦١هـ = ١٠٤٢ ـ ١٠٦٨م) كان دائماً يخشى على ملكه من اعداء قادمين من المغرب، فلما وصله كتاب سقوت البرغواطي، صاحب طنجة وسبتة، يذكر فيه ان المرابطين قد بلغوا موضع مراكش، قال المعتضد لوزيره الذي اخذ يهوّن امرهم ويشير الى بعدهم «هو والله الذي اتوقعه واخشاه... اكتب الى فلان ـ يعني عامله على الجزيرة (الخضراء) ـ بحفظ جبل طارق حتى يأتيه امري»(١٩). وهذه الرواية انما تدل على اهمية جبل طارق استراتيجياً لغازٍ محتلٍ للأندلس من الجنوب، كما تدل على انّ الوالي على الجزيرة الخضراء كانت تشمل ولايته حصن جبل طارق.

ولما استفحل خطر ملك قشتالة الفونس السادس على ممالك الطوائف بالأندلس، استصرخ ملوكها السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين. وكان في جملة الوفد الأندلسي الذي توجه للاجتماع بابن تاشفين وزير المعتمد بن عباد (حكم في الفترة من ٤٦١ ـ ٤٨٤هـ = ١٠٦٨ ـ ١٠٩١م) ابو بكر بن زيدون، نجل الشاعر ابي الوليد بن زيدون.. وقد بحث الوفد مع السلطان المرابطي المكان الذي تنزله عساكر المرابطين «فاشار ابن زيدون بجبل طارق، وسئل الجزيرة الخضراء»(٢٠)، إلّا ان ابن تاشفين لم يقبل بهذا العرض. ويذكر الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، وكان معاصراً للأحداث مشاركاً فيها، ان المرابطين سرعان ما نزلوا في الجزيرة الخضراء واحتلوها «فأرسل المعتمد لابنه الراضي وكان والياً عليها في إخلائها لهم»... واراد [المعتمد] ان يضع ابنه الراضي بمرسية عوضاً عن الجزيرة»(٢١).

بناء الموحدين لمدينة الفتح في جبل الفتح

كان الموحدون اول من ادرك الأهمية الحربية لجبل طارق، فبادر اول خلفائهم عبد المؤمن بن

علي ببناء مدينة حصينة عند سفح الجبل (حيث تقوم حالياً مدينة جبل طارق) سماها مدينة الفتح كما سمى جبل طارق جبل الفتح، مدللاً بذلك على نيته في إعادة فتح ما فقده المسلمون من قواعد واراضٍ في الأندلس. ومنذ ذلك الحين (٥٥٥هـ = ١١٦٠م) اصبحت المدينة ومیناؤها وتحصيناتها معقلاً وقاعدة حيوية للمسلمين على بحر الزقاق.

في طريق عودته الى المغرب من حملته في افريقية حيث خلص المهدية والساحل من احتلال نورمان صقلية (٥٥٥هـ المعروفة بسنة الأخماس) بعث الخليفة الموحدي عبد المؤمن من مدينة قسنطينة بأوامره الى ولديه ــ وكانا واليي اشبيلية وغرناطة ــ بالشروع في بناء مدينة جديدة في جبل طارق، تكون قاعدة للقوات التي كان يزمع ارسالها للجهاد في الأندلس ضد النصارى الذين ما انفكوا يغيرون على اراضي قرطبة واشبيلية وغرناطة. ولندع عبد الملك بن صاحب الصلاة، وهو من مؤرخي دولة الموحدين وكان معاصراً للأحداث التي يرويها، يسرد علينا قصة بناء هذه المدينة الجديدة ــ مدينة الفتح ــ فهو يقول: «ووصل الأمر العزيز ببناء مدينة كبرى... بالجبل الميمون القديم البركة على جزيرة الأندلس، السامق الشاهق جبل طارق... تكون هذه المدينة منزلاً للأمر عند اجازة العساكر المنصورة، ومحلاً ريثما تتقدم الرايات المظفرة والأعلام المنشورة الى بلاد الروم. وكان في الكتاب امر جزم الى السيد الأجل ابي سعيد عثمان ابن الخليفة امير المؤمنين بالمشي من غرناطة [وكان والياً عليها] بنفسه واصحابه وجملة عسكره الى جبل طارق... [ومشاورة عدد من الأشخاص ذكرت اسماؤهم لتحديد موقع البناء]... ان يستنفروا جميع الفعلة من البنائين والجيارين والنجارين والعرفاء [اي المهندسين المعماريين] من جميع بلاد الأندلس التي تحت نظر الموحدين... ويستعجلوا بالوصول الى الجبل لامتثال الأمر الكريم...

وتقدم السيد الأجل ابو سعيد على ما امر به من موضعه بغرناطة اليه، ومشى من اشبيلية العريف احمد بن باسة[٢٢] بجميع البنائين... ونزلوا فيه وابتدأوا البناء... بسيف البحر مما يلاصقه. ويليه، وزادت آمال اهل الأندلس... وتحققوا اليمن والسعد والفتح في بنيان هذا الجبل... واحكم البناؤون فيه بناءً من القصور المشيدة والديار، واخترعوا في اسسها طيقاناً وحنايا لتعتدل بها الأرض...

وكان الحاج يعيش المهندس[٢٣] [من مالقة] مدة اقامته للبناء... قد صنع في اعلى الجبل رحى تطحن الأقوات بالريح، عاينها الثقات مدة البناء المذكور، فلما رجع الى مراكش عند اكتمال ما امر به فسدت الرحى لعدم الاهتمام بها. واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور بناء السور والباب المسمى باب الفتوح في الفرجة التي كان يدخل منها الى الجبل بين البحر المحدق به من كلا جانبيه، فجاء فرداً في المعاقل التي لا يتمكن لطامع فيها طمع»[٢٤]...

ويذكر الحميري بأنه حفرت «في سفح الجبل مواضع نبع فيها الماء، وجمع بعضها الى بعض حتى سال منها جدول عم المدينة... من اعذب الماء واطيبه، يصب في صحن عظيم اتخذ له، واجري الى الجنات المغترسة بها من امره، فللحين ما جاءت مدينة تفوق المدن حسناً وحصانة، لا يدخل اليها إلّا من موضع واحد [باب الفتوح الذي ذكره ابن صاحب الصلاة] قد حصن بسور منيع من البنيان الرفيع، وسميت بمدينة الفتح»[٢٥].

وكان ابتداء بناء مدينة الفتح في ٩ ربيع اول من سنة ٥٥٥هـ = ١٩ مارس ١١٦٠م، وتم البناء في ذي القعدة من نفس العام/ نوفمبر ١١٦٠م[٢٦] ــ اي ان بناء المدينة استغرق نحو ثمانية شهور. ولما تم بناء المدينة او كاد، عبر عبد المؤمن المجاز من سبتة ونزل في مرفأ جبل طارق، وذلك في شهر ذي القعدة عام ٥٥٥هـ = نوفمبر ١١٦٠م لينظر كيف يكون غزو الروم[٢٧]. ويذكر عبد الواحد المراكشي ان عبد المؤمن هو الذي سمى الجبل، جبل الفتح «وبنى هناك مدينة هي باقية الى اليوم [املي المراكشي كتاب «المعجب» سنة ٦٢١هـ = ١٢٢٤م]... ووفد عليه وجوه الأندلس للبيعة... وكان له بالجبل يوم عظيم... واستدعى الشعراء في هذا اليوم ابتداء، ولم يكن يستدعيهم قبل



علبة مجوهرات بالزخرفة الاسلاميه تعود الى حوالي عام ٩٦٨م

ذلك، انما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم»[٢٨].

وقد اشار الشعراء في قصائدهم الى جبل الفتح، ومايرجونه من جهاد مظفر للخليفة عبد المؤمن في الأندلس. فمن قصيدة القرشي المعروف بالطليق المرواني:

حدث عن الروم في اقطار اندلس
والبحر قد ملأ العبرين بالعرب
وطود طارق قد حل الامام به
كالطود كان لموسى أعين الرتب
منه عاود هذا الفتح ثانية
اضعاف ما حدّثوا في سالف الحقب[٢٩]

ومما انشده عبيد الله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي:

إلى جبلٍ قد كان للفتح منزلاً
ولأذ به بالفتح موسى وطارق[٣٠]

ومما انشده محمد بن غالب البلنسي المعروف بالرصافي:

لله ما جبل الفتحين من جبلٍ
معظم القدر في الأجيال مذكور
من شامخ الأنف في سحنائه طلس
له من الغيم جيب غير مزرور
أخلق به وجبال الأرض واجفة
ان يطمئن غداً من كل محذور[٣١]

وانشد أبو جعفر بن سعيد العنسي (من آل بني سعيد اصحاب القلعة المعروفة باسمهم قرب غرناطة) قصيدة منها:

وجدد فيها ذلك الخبر الخبر
اطل على اهل الجزيرة سعدها
ولا بن نصير لم يكن ذلك النصر
فما طارق إلاّ لذلك مطرق
كما حل عند التم بالهالة البرر[٣٢]
هما مهداها كي تحل بأفقها

وقد كان عبد المؤمن حين اراد العبور الى جزيرة الأندلس استنفر اهل المغرب عامة، فكان فيمن استنفره العرب الذين كانوا ببلاد بني حماد [شرق الجزائر] وهم قبائل من هلال بن عامر، وقد استجاب له من قبائل العرب جمع ضخم وزعهم في نواحي قرطبة واشبيلية وشريش «فهم بها باقون الى وقتنا هذا — وهو سنة ٦٢١هـ [١٢٢٤م] — وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلق كثير... فبالجزيرة اليوم من زغبة ورياح وجشم بن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرجالة»[٣٣].

وبعد هذا كان انصراف امير المؤمنين عبد المؤمن الى المغرب، في اول عام ٥٥٦هـ = اوائل يناير ١١٦١م، اي بعد ان امضى نحو شهرين في مدينة الفتح[٣٤]. ■

الهوامش

(١) ابن عذارى: «البيان المغرب». ٣٠٧/٢.
(٢) المقري: «نفح الطيب» ١٤١/٦. السلاطي: الاستقصاء ١٢٣/٣.
(٣) يدعوه المقدسي جزيرة طارق، كما درج العرب على تسمية شبه جزيرة العرب بجزيرة العرب، وعلى تسمية شبه جزيرة ايبرية بجزيرة الأندلس، (المقدسي: احسن التقسيم ٢٢٣).
(٤) الادريسي: «صفة جزيرة الأندلس»،... ص ١٧٧؛ الحميري: «الروض المعطار» ١٢١. انظر كذلك

التعليق رقم ٥، ص ٢٣٤، نفاضة الجراب، للمحقق أحمد مختار العبادي.

(٥) الادريسي: «صفة جزيرة الأندلس». ص ١٧٦؛ المراكشي: «المعجب» ٩.

(٦) الادريسي: «صفة جزيرة الأندلس». ص ١٧٦.

(٧) ابن القوطية: «تاريخ افتتاح الأندلس» ٣٣؛ مؤلف مجهول الاسم: «اخبار مجموعة» ٦؛ ابن عذاري: «البيان المغرب» ٨/٢؛ ابن الأثير: «الكامل في التاريخ» ١٢٢/٤.

(٨) مؤلف مجهول الاسم: «اخبار مجموعة» ٧.

(٩) الادريسي: «صفة جزيرة الأندلس»...، ص ١٧٧.

(١٠) ابن عذاري: ١٣/٢.

(١١) البادية في اصطلاح المغاربة والأندلسيين بمعنى الريف، وليس الصحراء اطلاقاً.

(١٢) ابن الأثير: «الكامل في التاريخ» ١٢٢/٤.

(١٣) الحميري: «الروض المعطار» ١٥١.

(١٤) الادريسي: «صفة جزيرة الأندلس»...، ص ١٧٧.

(١٥) الحميري: «الروض المعطار»، ١٢١.

(١٦) يرى المستشرق ليفي ــ بروفنسال ان المعركة درات رحاها على ضفاف نهر (Barbate) وبحيرة (La janda) قرب الساحل. انظر ليفي ــ بروفنسال: «تاريخ اسبانيا الاسلامية» (بالفرنسية) ١٩/١، وما بعدها.

(١٧) واط (Watt): A History of Islamie Spain، ص ١٤.

(١٨) نوريس (norris): The Early Islamic Settlement in Gibraltar: بمجلة: Journal of the Royal Arnthrgological institute مجلد ٩١، (جزء ١)، لعام ١٩٦١، ص ٣٩.

(١٩) ابن الآبار: «الحلة السيراء»، ٥١/٢.

(٢٠) نفس المصدر ٩٩/٢.

(٢١) عبد الله بن بلقين: «التبيان»، (مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين)، ١٠٣، ١٠٨.

(٢٢) كان احمد بن باسة «شيخ العرفاء» باشبيلية، وهو الذي تولى تشييد جامع اشبيلية الأعظم وصومعته الشهيرة المعروفة باسم (الدوارة Geralda). انظر تعليق المحقق رقم ٣، ص ١٣٩، وتعليقه رقم ٣، ص ٤٧٤، كتاب المن بالامامة، وكذلك متن الكتاب، ص ٢٠٦، ٤٦٧، ٤٧٤.

(٢٣) الحاج يعيش المالقي من اشهر المهندسين في عهد الموحدين، وهو الذي صنع بمدينة مراكش مقصورة في المسجد الجامع وضعت على حركات هندسية ترفع بها عند خروج الخليفة وتخفض لدخوله، كما قام في سنة ٥٦٧هـ = ١١٧٢م بتسريب الماء لسقي البحيرة الملكية وتوصيله الى داخل اشبيلية، وبنى كذلك خزاناً للماء لتزويد احياء مدينة اشبيلية به. انظر «الحلل الموشية»، ص ١١٩ ــ ١٢٠ و«المنّ بالامامة»، ص ٤٦٨ ــ ٤٦٩.

(٢٤) ابن صاحب الصلاة: «المنّ بالامامة»، ١٣٨ ــ ١٤٠، ١٤٣.

(٢٥) الحميري: «الروض المعطار»، ١٢١.

(٢٦) ابن ابي زرع: «روض القرطاس»، ١٩٩.

(٢٧) ابن صاحب الصلاة: «المنّ بالامامة»، ١٤٨.

(٢٨) المراكشي: «المعجب»، ٢١٣.

(٢٩) ابن صاحب الصلاة: «المنّ بالامامة»، ١٦٠ ــ ١٦١.

(٣٠) نفس المصدر، ص ١٦٥.

(٣١) المراكشي: «المعجب»، ٢١٩ ــ ٢٢٠.

(٣٢) ابن الخطيب: «الاحاطة» ٢٢٤/١؛ مؤلف مجهول الاسم: «الحلل الموشية»، ١٣٠.

(٣٣) المراكشي: «المعجب»، ٢٢٤، ٢٢٦.

(٣٤) ابن صاحب الصلاة: «المنّ بالامامة»، ١٧٢.

المراجع

١ ـ مصادر عربية:

ــ ابن أبي زرع الفاسي: «روض القرطاس»، الرباط، ١٩٧٣.

ــ ابن الأبار: «الحلة السيراء». الجزء الثاني، القاهرة ١٩٦٣.

ــ ابن الأثير: «الكامل في التاريخ». المجلد الرابع، بيروت ١٩٦٣.

ــ ابن بطوطة: «رحلة ابن بطوطة» (تحفة النظار في غرائب الأمصار)، بيروت ١٩٦٨.

ــ ابن بلقين: عبد الله: «التبيان» (مذكرات الأمير عبد الله)، القاهرة، ١٩٥٥.

ــ ابن الخطيب، لسان الدين: «اعمال الأعلام» (تاريخ اسبانيا الاسلامية)، بيروت، ١٩٥٦.

ــ «نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب»، القاهرة، ١٩٥٥.

ــ ابن خلدون، عبد الرحمن: «كتاب العبر وديون المبتدأ والخبر»، المجلد السابع، بيروت، ١٩٥٩.

ــ ابن صاحب الصلاة: «تاريخ المنّ بالامامة». بيروت، ١٩٦٤.

ــ ابن عذاري المراكشي: «البيان المغرب». الجزء الثاني، بيروت، ١٩٥٠.

ــ «البيان المغرب»، الجزء الثالث (تاريخ الموحدين)، تطوان، ١٩٦٠.

ــ ابن القوطية: «تاريخ افتتاح الأندلس. بيروت، ١٩٥٧.

ــ الأدريسي: «صفة افريقية والأندلس» (مستخرجة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، ليدن، ١٨٦٦.

ــ الحميري، ابن عبد المنعم: «صفة جزيرة الأندلس» (منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار)، القاهرة، ١٩٣٧.

ــ السلاوي، احمد الناصري: «الاستقصاء لأخبار دول المغـرب الأقصى»، الجزءان الثـالث والرابـع، الدار البيضاء، ٥٤ ــ ١٩٥٦.
ــ عنان، محمد عبد الله: «الآثار الأندلسية البـاقية في اسبانيا والبرتغال»، القاهرة، ١٩٦١.
ــ المـراكشي، عبد الواحـد: «المعجب في تلخيص اخبار المغرب». القاهرة، ١٩٤٩.
ــ المقدسي: «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم». ليدن، ١٩٠٦.
ــ المقري: «نفح الطيب من غصن الأنـدلس الرطيب»، الجزءان الأول والسادس، القاهرة، ١٩٤٩.
ــ مـؤلف مجهول الاسم: «أخبـار مجموعـة». مدريـد، ١٨٦٧.
ــ مـؤلف مجهـول الاسم: «الحلل المشيـة» (تحقـيق علوش)، الرباط، ١٩٣٦.
ــ النباهي، ابن الحسن: «كتاب المرقبة العليا (تاريـخ قضاة الأندلس)، بيروت (بدون تاريخ).

٢ ــ مراجع غير عربية:

— *Balbas, L. Torres:* Al Andalus (1942), Vol. VII. pp. 168-216.
— *Cattenoz, H. G.:* Tables de Concordance des Eres Chretienne et Hegirienne, Rabat, 1954.
— *El:* The Encyclopaedia of Islam (First Edition-English), Leiden, 1913-34; Vol. III, pp. 464-66, S. V. Merinids.
— *El²:* The Encyclopaedia of Islam (New Edition-English), Leiden-London, 1965; Vol. II, pp. 352-3, S. V. Djabal Tarik.
— *Highfield, R.:* Spain in the Fifteenth Century, Bristol, 1972.
— *Julien, Charles-Andre:* Historie de l'Afrique du Nord; English transiation: History of North Africa, London, 1970.
— *Lone-Poole, S.:* The Mohammedan Dynasties, Paris 1925.
— *Levi-Provencal, E.:* Historie de l'espagne Musulmane, Vol. I, ParisLeiden 1950.
— *Norris, H. T.:* The Early Islamic Settlement in Gibraltar, Journal of the Royal Anthropological Insitute, Vol. 91 (Part 1), London 1961, pp. 39-51.
— *O'Callaghan, J. F.:* A History of Medievale Spain, Cornell University Press, London 1975.
— *Watt, W. M.:* A History of Islamic Spain, Edinburg 1965.



العلم والملك

□ قدم هشام بن عبد الملك حاجاً الى بيت الله الحرام، فلما دخل الحرم قال ائتـوني برجـل من الصحابة، فقيل يا أمير المؤمنين قد تفانوا، قال: فمن التابعين، فأتي بطاوس اليماني، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم بأمير المؤمنين ولم يكنه وجلس الى جانبه بغير اذنه وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام من ذلك غضباً شديداً حتى هم بقتله! فقيل له: أنت يا أمير المؤمنين في حرم الله وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم لا يكون ذلك. فقال يا طاوس: ما حملك على ما صنعت؟ قال وما صنعت؟ قال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تسلم بأمير المؤمنين ولم تكنني وجلست بأزائي بغير اذن وقلت يا هشام كيف أنت، فقال له طاوس: أما خلع نعلي بحاشية بساطك فاني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاتبني ولا يغضب علي، وأما قولك لم تسلم علي بأمير المؤمنين فليس كل المؤمنين راضياً بأمرتك فخفت أن أكون كاذباً. وأما قولك لم تكنني فان الله عز وجل سمى أنبياءه فقال: يا داود يا يحيى يا عيسى، وكنى أعداءه فقال: تبت يدا أبي لهب. وأما قولك جلست بأزائي فاني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: إذا أردت أن تنظر الى رجل من أهل النار، فأنظر الى رجل جالس وحوله قوم قيام! فقال له: عظني! فقال: سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول: ان في جهنم حيات وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته! ثم قام طاوس فخرج وعينا هشام بالدمع مخضلتان.

الفكر العربي الإسلامي

أعلاماً ومؤلفات

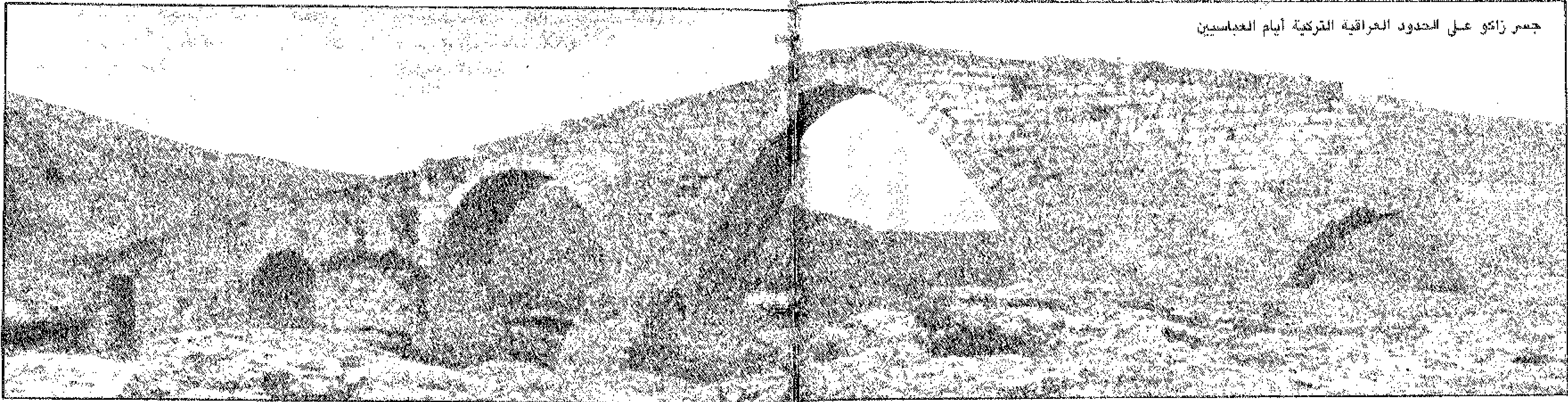
د. نقولا زيادة

المفكرون الثلاثة الذين تتناولهم هذه المقالة هم الطبري، أول المؤرخين الكبار في عالم العرب والاسلام، اذ أنه بعد أن وضع كتابه استقى القراء من غيره. والمسعودي الذي كان مؤرخاً جغرافياً رحالة. ولعله أول من تنبه، بين مفكري العرب، الى الارتباط القائم بين الأرض والانسان وأثر الأولى في تطور حياة الثاني. والادريسي أول من وضع خريطة للعالم مبنية على القياسين الرياضي والفلكي، مع أن ثمة من سبق في وضع مخططات للعالم العربي الاسلامي.

تاريخ الرسل والملوك والتفسير للطبري

ولد أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في آمل عاصمة اقليم طبرستان سنة ٢٢٥ للهجرة (أي ٨٣٩ للميلاد) وتوفي في بغداد سنة ٣١٠ هجرية (أي سنة ٩٢٣ ميلادية). وبين سنتي الميلاد والوفاة وموضعهما تنقل صاحبنا متعلماً في آمل وغيرها من مدن طبرستان ثم في الري ثم في البصرة ثم في واسط والكوفة وبغداد وبيروت ومصر ثم يعود صاحبنا الى بغداد مروراً بالشام فيحط رحاله في عاصمة العباسيين الى أن اختاره الله الى جواره. وهو في تنقله في طلب العلم ينهل من المنابع الثرة في الحديث والتفسير والقراءات والفقه والتاريخ، فيلمّ بهذه كلها في نواحيها المختلفة. فاذا انصرف الى العمل كاتباً ومؤلفاً أخرج كتاب التاريخ الكبير والتفسير المشهور وكتباً في الفقه لعل أوضحها في بيان مقدرته اختلاف الفقهاء.

الطبري من أهل القرن الثالث للهجرة أي القرن التاسع للميلاد، وهو القرن الذي اتصل فيه العرب والمسلمون بينابيع الفكر المختلفة من الشرق والغرب والقديم والحديث لكن الطبري لم يتجه نحو العلوم الفلسفية أو العلوم الطبيعية وان كنا لا نشك قط في أنه أطلع على


جسر زاكو على الحدود العراقية التركية أيام العباسيين

الكثير من معرفة ذلك العصر. ولكن الشيء الذي أثر فيه أكبر تأثير هو الحديث ــ رواية وإسناداً وضبطاً. ولذلك لما كتب حتى تاريخه كان أسلوبه أسلوب مصطلح الحديث فهو يروي الروايات المختلفة باسنادها الدقيق المتسلسل، وقد يرجح احداها، لكنه في الغالب يكتفي بالرواية. ومع ذلك فكتابه في التاريخ معلم في طريق الكتابة التاريخية العربية الاسلامية. ولسنا نقصد هنا الناحية الفنية، ولكننا نعني أنه كنز من كنوز المعرفة التاريخية الهامة.

فهو، اذا أخذناه من هذه الناحية، وجدنا أنه أول كتاب في التاريخ العام. كان تتمة من سبقه ومصدراً لمن جاء بعده. وقد جمع الكثير من أخبار العرب في الجاهلية وبذلك حفظت من الضياع. وما أكثر ما نقل عنه لاحقوه في هذا الباب. أما أخباره عن العصور الاسلامية الى أيامه فمن أثمن ما وصل الينا، خصوصاً وأن الكثير مما كتبه من سبقه ضاع. ولعله من الحق علينا أن نذكر أن تاريخ الفرس في الأزمنة السابقة للاسلام متوفر في كتاب الطبري، ولا يوجد له مصدر سواه. ويقول محمد أحمد الحوفي «قد تبين من البحث المفصل في تاريخ الروم أن الطبري دقيق فيما ذكره عنهم لأنه نقل عن نصارى الشام وسمع منهم وكانوا هم نقلوا من وثائق صحيحة وأدوها اليه بأمانة».

وتاريخ الطبري غني بالنصوص الادبية، فيها الشعر والخطب والمحاورات، التي قد لا توجد عند غيره.

وقد نقل عنه لاحقوه كمسكوية وابن الأثير وأبي الفداء وابن خلدون. ولعل من خير ما يمكن أن يقال في هذا ما جاء في مقدمة كتاب الكامل لابن الأثير، اذ قال «لقد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد. فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الامام أبو جعفر الطبري اذ هو الكتاب المعول عليه عند الكافة والرجوع اليه عند الاختلاف. فأخذت فيه جميع تراجمه. ولم أخل بترجمة واحدة. وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذات عدد كل رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها. وربما زاد الشيء اليسير أو نقصه، فقصدت أتم الروايات فنقلتها».

ولنا نحن رأي في كتاب تاريخ الطبري نود أن نعرضه هنا، وهو أمر لا يتعلق بأهمية الكتاب أو أسلوبه أو فنه. فتلك أمور متفق عليها. ولكننا نرى أن الطبري يمثل موقفاً خاصاً في الحياة الفكرية العربية الاسلامية. ذلك بأن الرجل كان يعيش في عصر أدرك فيه البعض الأهمية الخاصة للدولة العربية الاسلامية بمقارنتها بغيرها ممن سبقها أو عاصرها. وهذا الوعي بأهمية الدولة والمجتمع الذي كانت ترعاه ويحتضنها يمثله في رأينا الطبري الذي أراد أن

يسجل هذه المعجزة التاريخية فوضع كتابه الجليل. وحري بالذكر أن الجغرافيين العرب انصرفوا في أيام الطبري والقرن اللاحق بزمنه الى تسجيل شعورهم ووعيهم بدار الاسلام فوصفوها في كتبهم البلدانية بعد أن كانت الجغرافية قبل ذلك فلكية بطليموسية أو هندية، أساسها التقسيم الى الأقاليم السبعة ووضع الأزياج.

ونظر الطبري حوله فرأى أن الناس تشعبوا فرقاً كثيرة، وأنهم كلهم يعتمدون القرآن الكريم في اتخاذهم مواقف معينة، ولم يجد كتاباً شافياً وافياً في التفسير. فندب نفسه للأمر ووضع تفسيره الكبير. ومن الأمور التي حاولها أن يخلص التفسير من الاسرائيليات التي علقت به وكانت قد كثرت.

يقول الحوفي في توضيحه لقيمة التفسير «قد تبين من مصادره ومن منهجه (أي التفسير) أنه السجل الجامع الأمين لما روي عن النبي وعن الصحابة والتابعين من آراء في التفسير. وهو بهذه الصفة ينفرد بين كتب المفسرين، وينهض وحده باسعاف الباحثين اذا ما ارادوا التعرف على آراء السلف. وهو الى هذا حافل بآراء في اللغة والفقه والتاريخ والنحو والقراءات، وثري بأشعار من الجاهلية والاسلام. ومن الانصاف للطبري العظيم أن نشهد له بأنه لم يكن مسجل آراء وأسانيد فحسب، بل كان يشفع بهذا التسجيل رأيه ويدلل عليه فكان يرفض ويعلل لرفضه. وكان يرجح ويدلل على ترجيحه، وكان يؤيد ويبرهن على تأييده. واذا كان منهجه في كتاب التاريخ قد اتسم بالتسجيل المحايد، فان منهجه في كتاب التفسير قد اتسم بالتسجيل والتعليق وابداء الرأي.

وقد عرف القدامى قدر كتاب التفسير للطبري وعنوا به عناية كبرى. فكان الكتاب يحمل شرقاً وغرباً فيقرأه علماء الوقت. وللسيوطي، وهو عالم جليل لا يلقي الكلام على عواهنه، عبارة جميلة في تفسير الطبري وهي «كتاب الطبري في التفسير أجل التفاسير وأعظمها، فانه يتعرض لتوجيه الاقوال وترجيح بعضها على بعض. وللاعراب والاستنباط فهو يفوق بذلك تفاسير الأقدمين... والطبري رأس المفسرين على الاطلاق. وقد جمع في تفسيره بين الرواية والدراية، ولم يشاركه في ذلك أحد لا قبله ولا بعده». وأحرى بالذكر أن كلمات السيوطي هذه كتبت بعد وفاة الطبري بنحو خمسة قرون.

على أننا نجد الطبري يتميز في ناحية أخرى من نواحي العلوم الاسلامية وهي الناحية الفقهية. وليس غريباً على من يضع مثل هذا التفسير أن يكون مطلعاً على الفقه ومذاهبه.

ولنذكر أنفسنا بأن الصبغة العامة للفقه في القرنين الثاني والثالث للهجرة (أي في القرنين الثامن والتاسع للميلاد) أنه كان يعتمد على الاجتهاد وحرية الرأي. وفي أواخر القرن الثالث وفي القرن الرابع للهجرة (القرن العاشر للميلاد) جاءت مرحلة التقيد بواحد من المذاهب الأربعة. وصار الاجتهاد اجتهاد مذهب لا اجتهاداً مطلقاً.

والطبري درس المذاهب كلها ومع أنه سار مع المذهب الشافعي بعض الوقت، فانه لم يلبث أن استقل بمذهب اختاره لنفسه. وقد أوضح موقفه من ذلك في كتابه المسمى «لطيف القول في أحكام شرائع الاسلام». وقد روى ابن فرحون المالكي أنه كان للطبري تلاميذ في مذهبه يدافعون عنه. لكن ذلك انقطع بعد القرن الرابع (أي القرن العاشر). ومن سوء الحظ أن كتب الفقه التي ألفها الطبري في مذهبه فقدت ولم يسلم منها الا كتاب «اختلاف الفقهاء».

في هذا الكتاب تناول صاحبه عدداً من الأحكام الفقهية. وكان يورد بالنسبة الى كل مسألة آراء الفقهاء عامة وهم أبوحنيفة وأبويوسف الشافعي ومالك والأوزاعي وابن حنبل وغيرهم ممن سبقهم. وقد يورد آراءهم مفصلة. فاذا انتهى من ذلك أبدى، في بعض المواضع، رأيه هو.

وبين اختلاف الفقهاء وكل من التاريخ والتفسير فرق وهو أنه لم يورد الاسناد في الاختلاف، بل اكتفى بوضع الرواية أو الرأي. والمهم أن الطبري يبدو، في هذا الكتاب، صاحب معرفة بالفقه، كما بدا من قبل مؤرخاً ومفسراً.

الطبري قمة من قمم الفكر العربي الاسلامي الشوامخ. فهو مؤسس علم التاريخ وواضع الكتاب الرئيسي في التفسير.

■

مروج الذهب للمسعودي

كان من المألوف أن ينتقل طالبو العلم في الدولة العربية الاسلامية من مكان الى آخر لتلقي المعرفة والأخذ عن أهل العلم. ونحن اذا أخذنا أهل القرنين الثاني والثالث للهجرة (أي الثامن والتاسع للميلاد) لوجدنا أن الرحلة في طلب العلم كانت تقتصر على زيارة الحجاز وبغداد والشام ومصر والريّ وما اليهما. فقد كانت هذه هي المناطق التي يعثر فيها كل ما يشتهي، سواء في ذلك طلاب الفقه والفلسفة واللغة والأدب والطب وعلوم الطبيعة والرياضيات والفلك. وبمعنى آخر كانت الرحلة تقتصر على شرق المنطقة العربية الاسلامية والى هذه المراكز كانت تشد الرحال من المغرب والأندلس، الا اذا رحل بعض العلماء غرباً وأقام هناك. وحتى الجغرافيون الذين كتبوا وألفوا في ذينك القرنين وفي القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) اقتصروا على ديار الاسلام أو جزء منها فقط. وقد كان ثمة رحلة لأداء فريضة الحج، ولا شك أنه كان يرافق ذلك اهتمام بطلب العلم، لكن الأمر لم يكن يعدو ما ذكرناه من حيث الرقعة. وقد حفظ لنا التاريخ أسماء أفراد انتقلوا الى خارج ديار الاسلام في تجارة أو سفارة، لكن أكثرهم لم يدونوا ما شاهدوه. ويستثنى من ذلك سليمان التاجر ومواطنه أبوزيد السيرافي، وهما من أهل القرن الثالث (التاسع) اللذان دونا أخبار زيارة الى الهند والصين، وسليمان هو الأصل وأبوزيد هو المكمل للوصف لكن الوصف الذي نحصل عليه وصف عادي كتبه تاجر لم يكن من أهل العلم. وعندنا أيضاً رحلة لابن فضلان الذي سفر للخليفة المقتدر بالله العباسي في مطلع القرن الرابع (العاشر) وخلّف لنا وصفاً لبلاد الفولغا ومناطق من الروسيا.

لكن الرجل الذي قفز بالرحلة من الحج أو التجارة الى طلب العلم مشاهداً مجرباً مختبراً فهو المسعودي. وقد وسع نطاق رحلته بحيث زار، بالاضافة الى الشرق العربي الاسلامي، مناطق من الهند والصين والحبشة وكتب عن

البلاد التي زارها وعن شعوبها كتابة علمية.

وأبو الحسن علي بن حسين المسعودي ولد في بغداد سنة ٢٨٧ للهجرة و(٩٠٠ للميلاد) وتوفي في مصر سنة ٣٤٦ (أي سنة ٩٥٨) وبين هاتين السنتين قضى المسعودي ربع قرن وهو يتنقل بين الأقطار المختلفة. فزار الأطراف الشرقية من الدولة العباسية مثل فارس وكرمان وأذربيجان، وتجول في مدن الهند المختلفة، ووصل الى جزيرة سيلان ومنها انتقل الى جزيرة مدغشقر وشرق أفريقية. هذا فضلاً عن زيارة لجميع المدن الكبيرة في العراق والشام ومصر.

وشخصية المسعودي شخصية فذة في زمنها. فالرجل مؤرخ رحالة جغرافي، هذا الى أنه كان يلم بجميع فروع المعرفة التي تيسرت للعرب والمسلمين في أيامه. وكان المسعودي يقرأ ويتنقل وهو مفتح العين والذهن والأذن فضلاً عن أنه كان نقادة راغباً دوماً في الحصول على الأخبار الموثوق بها. ولذلك فالذي خلفه لنا المسعودي فيه شيء جديد اذا قيس بمن سبقه. شيء جديد لا من حيث المادة فحسب ولكنه كان جديداً في النظرة والأسلوب.

وقد فقدت كتب المسعودي الكبيرة مثل أخبار الزمان والكتاب الأوسط، الا اذا صح أن أجزاء ضئيلة منهما قد عثر عليها مؤخراً. كما ضاع الكثير من رسائله وكراساته الصغيرة نسبياً، والتي يبلغ عددها الثلاثين. ومع ذلك فللمسعودي كتابان هامان وصلا الينا وهما «التنبيه والاشراف» و«مروج الذهب». والأول القسم الأكبر منه يمكن أن يحسب بين كتب الجغرافية اذ أنه يتحدث فيه عن الأفلاك والنجوم والعناصر وقسمة الأزمنة والفصول والأرض وشكلها وعامرها وغامرها والأقاليم السبعة. وبعد ذلك يخص تاريخ العالم من آدم إلى أيام الرسول بقسط من الكتاب وينتقل بعدها ليؤرخ للرسول والبعثة والدول الاسلامية إلى سنة ٣٤٥ للهجرة (٩٥٧ للميلاد) أي قبل وفاته بعام واحد.

الا أننا نود أن نقف عند مروج الذهب وقفة أطول وقد عرف المسعودي كتابه هذا بقوله: «وقد سميت كتابي هذا بكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لنفاسة ما حواه وعظم خطر ما استولى عليه: من طوالع بوارع ما تضمنته كتبنا السالفة في معناه وغرر مؤلفاتنا في مغزاه، وجعلته تحفة للاشراف من الملوك وأهل الدرايات، لما قد ضمنته من جمل ما تدعو الحاجة اليه، وتتنازع النفوس الى علمه من دراية ما سلف وغبر في الزمان».

والمسعودي في الذي كتبه في التنبيه والاشراف وفي مروج الذهب اختط نهجاً جديداً في التاريخ والجغرافية بما في ذلك الرحلة. فقد كان المؤرخون قبله، وعلى رأسهم الطبري، يكتبون التاريخ حوليات أي يؤرخون الأحداث سنة بعد سنة. ولأنهم كانوا يعتمدون الرواية فقد كانت الأحداث والأخبار، بما في ذلك أخبار الرؤساء والمعارك، تكاد تحتكر القسم الأكبر من كتبهم، ولو أنهم كانوا يوردون أخباراً أخرى تتعلق بالأرضين والناس. أما المسعودي فلم يكن ينظر الى الأحداث، مهما عظمت على أنها مستقلة أو أنها أمور تجري في فراغ. لذلك اهتم بحضارات الأقوام السالفة والمعاصرة وأصبحت الشعوب، بالاضافة الى الخلفاء والملوك والأسر الحاكمة، محوراً لكتابة التاريخ عنده. وقد تجنب الحوليات. كما أنه كتب في مقدمة المروج نقداً لمصادره التاريخية.

ولأن المسعودي اعتمد على المشاهدة كثيراً، فقد كان باستطاعته أن يتحدث عن الشعوب وما مر بها حديث مجرب، مختبر. ونحن اذا أردنا أن نستعمل وصفاً منتزعاً من أيامنا للمسعودي قلنا عنه أنه كان أول مؤرخ جغرافي كتب بالعربية. ففضلاً عن أنه اهتم بالشعوب في تاريخه فقد ربط أيضاً بين الشعوب والأرض التي تقطنها. وهذا يبدو واضحاً من حديثه عن المجتمعات التي وصفها والحياة الاقتصادية التي كانت تلك المجتمعات تحياها. وكان علينا أن ننتظر حتى أيام ابن خلدون ليطلع علينا مؤرخ آخر يضع اصبعه على العلاقة بين الأرض والناس ويؤسس علم العمران.

ويمكن القول اجمالاً بأن المسعودي، في تنبيهه ومروجه، كان صاحب فلسفة في التاريخ، كما أنه استعمل النقد التاريخي للحكم على الأمور الماضية وحتى الخلفاء العباسيين الذين عاصرهم.

ولم يدون المسعودي أخبار رحلاته تدويناً زمنياً. فهو لم يرحل من أجل ذلك، وانما رحل وتنقل ليفهم العالم وما يدور فيه، ولذلك كان يفيد من هذه المعرفة حيث جاءت. وقد قال ابن خلدون عن المسعودي «فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخباره. وقد كان الناس يفردونه بالتأليف كما فعل المسعودي في كتاب مروج الذهب: شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلاثمائة غرباً وشرقاً، وذكر نحلهم وعوائدهم، ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك، والدول، وفرق شعوب العرب والعجم، فصار اماماً للمؤرخين يرجعون اليه، وأصلاً يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه».

ولعل حديث المسعودي نفسه عن رحلاته يستحق أن ينقل بعضه هنا، فقد كان في أسفاره على حد قوله يعاني من «... تقاذف الأسفار وقطع الأقفار، تارةً على متن البحر، وتارة على ظهر البر، مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة، كقطعنا بلاد السند والزنج والصين، وتقحمنا الشرق والغرب، فتارة بأقصى خراسان وتارة بوسائط أرمينية وأذربيجان والران والبيلقان، وطوراً بالعراق وطوراً بالشام. فسيرى في الآفاق سرى الشمس في الاشراق».

فالمسعودي يربط في كتاباته التاريخية والجغرافية بين الزمان والمكان والسكان. وهو في ذلك يصدر عن فكر ثاقب ونظر بعيد وتفكير عميق. ومن قوله بالنسبة الى ارتباط صور البشر وأخلاقهم بالبيئة الطبيعية ما يلي: «والأخلاق والصور تناسب البلد وتحاذيه وتقاربه وتوافقه وتضاهيه. وكل بلد اعتدل هواؤه وخف ماؤه ولطف غذاؤه، كانت صور أهله وخلائقهم تناسب البلد وتحاذيه، وتشاكل ما عليه أركانه وما أسس عليه بنيانه. وكل بلد يزول عن الاعتدال انتسب أهله الى سوء الحال».

والمسعودي المؤرخ الجغرافي الرحالة العالم عني بأمور النفس وكتب في تدبير العساكر والممالك وفي أصول الأحكام وأصول الملة وأصول الديانات. ومع أن أكثر هذه قد فقد، فان كثيراً من آرائه وارد في التنبيه والمروج. وصنف العلوم على أنها الارتماطيقي أي علم العدد والجومطريقي أي علم المسافة والهندسة والاسترونوميا وهو علم النجوم والموسيقى وهو علم تأليف الألحان. وكان للموسيقى في نفسه أثر كبير على ما يبدو مما قاله عنها في المروج.

هذا هو المسعودي العالم المحيط بفروع المعرفة والمركب لها.

■

خارطة العالم للادريسي

عرف العرب الجغرافية أول ما عرفوها عن اليونان والهنود، وكان بطليموس اليوناني حجتهم، كما كان قد سبق وكان حجة غيرهم قروناً طويلة. وكان الاتجاه الأول في علم الجغرافية عند العرب فلكياً من الجهة الواحدة ومتعمداً تقسيم الأرض الى أقاليمها السبعة من الوجهة الثانية. وأكثر الجغرافيين الذين ظهروا في القرنين الثاني والثالث للهجرة (أي القرنين الثامن والتاسع للميلاد) كانوا يعنون بوضع الأزياج وتقدير المسافات على سطح الأرض. كما كان أكثرهم يقدمون لكتبهم بأمور تتعلق بشكل الأرض ودوران الكون حولها اذا قبلوا ذلك. لكن منذ أواخر القرن الثالث وخاصة في القرن الرابع الهجري (أي القرن العاشر الميلادي) طرأ على الجغرافية العربية الاسلامية تطور كبير. فقد ظهر في هذه الفترة الجغرافيون البلدانيون وهم الذين عنوا بوصف الأقطار والتحدث عن المدن والأسواق والغلات والشعوب. ولذلك أصبحت هذه الكتب الموضوعة سائدة مفيدة. ولعل أشهر هؤلاء البلدانيين الاصطخري وابن رستة وابن حوقل والمقدسي.

والبلدانيون اهتموا بديار الاسلام أصلاً،



ابو عبد الله محمد الشريف الادريسي (٤٩٣ ــ ٥٦٢هـ) الموافق (١١٠٠ ــ ١١٦٦م)

فمنهم من تناولها كلها، ومنهم من اقتصر على جزء منها. وأكثرهم كتب عن مشاهدة وتدبر، وان كان ثمة بعض النقل. وقد كان المقدسي شديد النقد لمن سبقه لأنه نقل عن غيره وأوضح أنه هو تحمل وعثاد السفر وصعوبة العيش في تنقله حتى وضع كتابه أحسن التقاسيم. والمسعودي هو الوحيد من أهل تلك الفترة الذي تحدث عن بلاد خارج ديار الاسلام.

ولهؤلاء البلدانيين فضل آخر. فان كلا منهم وضع خرطاً للبلاد التي تحدث عنها، وان كان ضاع الكثير من هذه الخرط. لكن في واقع الأمر كان هؤلاء قد تخلوا عن العناية بالعروض والأطوال، فجاءت خرطهم مصورات تشير الى الاتجاهات العامة في الشواطىء واتجاه سلاسل الجبال ومجاري الأنهار، لكنها لا توضح هذه الأبعاد نسبياً بمعنى بعد المكان عن المكان درجات في الطول أو العرض.

وقد عرف القرن الخامس الهجري (أي القرن الحادي عشر الميلادي) جغرافيا عربياً مبرزاً هو البكري، وخاصة فيما كتبه عن الأجزاء الغربية من العالم الاسلامي. وفضلاً عن ذلك فقد وضع البكري قاموساً جغرافياً عن جزيرة العرب يعتبر من أدق ما وضع في أيامه.

لكن القرن السادس الهجري (أي القرن الثاني عشر الميلادي) ازدان بظهور جغرافي مبرز كان في عمله بلدانياً، بمعنى وصف الأقطار والمدن والناس ومعايشهم وما الى ذلك، وكان الى ذلك فلكي التفكير بمعنى أنه رسم خارطة على أساس الأطوال والعروض وبذلك كان له فضل كبير على الجغرافية والجغرافيين العرب والمسلمين وغيرهم. هذا هو الشريف الادريسي.

وهو أبو عبد الله محمد الشريف الادريسي، ويرتفع نسبه الى ادريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة في المغرب في عهد هرون الرشيد. ولد في سبتة بالمغرب سنة ٤٩٣ للهجرة (١١٠٠ للميلاد) حيث نشأ نشأة علم وتربية عالية. ولعله أتم دراسته بقرطبة، التي كانت مركزاً من مراكز العلم يومها. والذي عليه الباحثون هو أن ثقافته وتعليمه اشتملا على العلوم الرياضية والجغرافية والفلكية والطبية وما يتبع هذه من اهتمام بالنبات ومنافعها.

وأخذ الادريسي نفسه بالتنقل والرحلة، وهو بعد في شرخ الشباب فزار الشمال الافريقي والأندلس وجزءاً من فرنسا. واتجه شرقاً فزار آسية الصغرى ومصر والشام وقضى في الشرق بعضاً من الوقت. ويرى الاستاذ عبد الله كنون أن الادريسي أمل أن يجد له في المشرق مستقراً، لكن أمله خاب وقد عبر عن ذلك بأبيات من الشعر منها:

ان عيباً على المشارق أن أر
جع عنها الى ذويل المغارب
وعجيب يضيع فيها غريب
بعدما جاء فكره بالغرائب
ويقاسي الظما خلال أناس
قسموا بينهم هدايا السحائب

ثم يظهر الادريسي في بلاط روجار صاحب صقلية حيث ينتهي سنة ٥٤٨هـ (١١٥٤م) من وضع كتابه **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. واذا كان الادريسي عمل في الكتاب الخارطة خمس عشرة سنة فمعنى هذا أنه كان في أنحاء المغرب قرابة عشرين سنة قبل أن يستقر في بلاط روجار في بلرمو. ولا شك عندنا أن الرجل زاد معرفته وخبراته في هذه المدة.

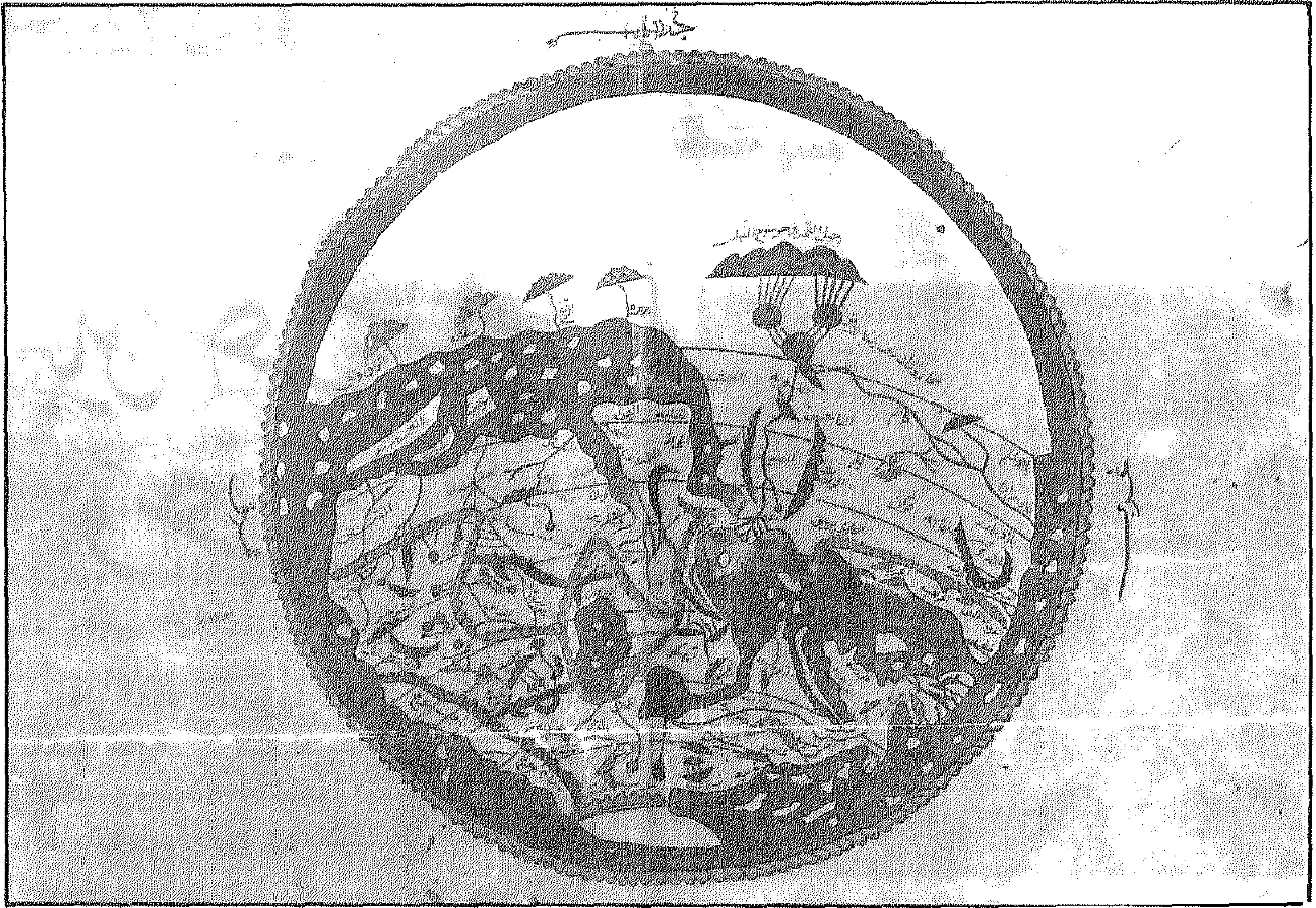
ذهب الادريسي الى صقلية بناء على دعوة من روجار ملكها. ومعنى هذا أن الرجل كان قد أصبح معروفاً عنه أنه مهتم بالشؤون الجغرافية والفلكية. وكان للملك رغبة في أن يؤلف له كتاب في وصف مملكته والممالك المجاورة لها والمتصلة بها. وكانت صقلية يومها ذات صلات تجارية وثيقة بشواطىء البحر المتوسط. وطلب روجار من الادريسي أن يقوم بذلك. فصادف الطلب هوى في نفسه، فانصرف اليه بكليته.

ويبدو أن عمل الادريسي كانت له مظاهر ثلاثة وهي: أولاً رسم مناطق العالم وأماكنه على أسس مواقعها من خطوط العرض والطول على دائرة عظيمة صنعت من الفضة الخالصة. وقد قدر ميلر مساحتها بثلاثة أمتار ونصف طولاً ومتر ونصف عرضاً، ثانياً أن ينقل عن هذه الدائرة الفضية الصور نفسها على الورق بحيث تتجمع لديه خارطة كبيرة للعالم. وثالثاً أن يصف هذا كله في كتاب. والذي نعتقده أن الادريسي عمل على هذه الجبهات الثلاث معاً.

وكان الادريسي يعتقد بكروية الأرض، وهي فكرة انقسم الناس بشأنها منذ أن بدأ الفلاسفة اليونان بالتفكير بشكل الأرض في القرن السادس ق.م. واستمر الانقسام عبر العصور بين الفلكيين والجغرافيين. وكان الادريسي يقبل الفكرة بأن المعمور من الأرض هو نصفها الشمالي فقط، وأن الجنوب لا حياة فيه. وكان يرى، كما كان غيره يقبل ذلك، أن خط الاستواء يقسم سطح الأرض الى قسمين متساويين. ولكن الادريسي لما أراد أن يضع منابع النيل على دائرته اضطر أن يصل الى درجة ١٦ جنوبي خط الاستواء.

فالخارطة الادريسية التي رسمها الجغرافي الكبير على الدائرة الفضية تشمل الجزء المعمور من الأرض المعروف يومها في آسية وأفريقية وأوروبة. وقد قسم هذا القسم المعمور الى سبعة أقاليم موازية لخط الاستواء كان أولها ينتهي بخط ٢٣ شمالاً والأقاليم الخمسة التالية يشغل كل منها ست درجات والاقليم السابع يشغل تسع درجات بحيث ينتهي عند الخط ٦٣ شمالاً. ثم قسم كل اقليم عشرة أقسام جزئية من الغرب الى الشرق. وهذا التقسيم قام عنده مقام خطوط الطول.

على الدائرة الفضية أثبت درجات العرض بقياس هندسي دقيق. وعين على هذه الدائرة الأقطار المختلفة بحيث أن الفرق بين ما فعله الادريسي وبين تعيين هذه الأقطار أربعة قرون بالنسبة لخطوط العرض الآن لا يختلف الا في أجزاء صغيرة من الدرجة. ولم يقتصر عمل الادريسي على نقش الأقطار على الدائرة الفضية، بل أنه نقش الخلجان والأنهار والمدن الكبرى.



«خارطة العالم» للادريسي تعود الى القرن الثاني عشرم

وهنا تظهر عبقرية الادريسي.

ورغبة منه في أن تكون الأخبار التي حصل عليها دقيقة فقد طلب الى روجار أن يمكنه من استقصاء المعلومات واستقائها من الرحالة المتجولين والتجار وأهل البحر. ولم يثبت منها الا ما كان عليه اتفاق.

والعمل الثاني هو أنه رسم لكل جزء من الأجزاء السبعين التي ظهرت على الدائرة الفضية خارطة خاصة به بحيث أعطى العالم أول خارطة عالمية دقيقة منتظمة. وضم أخيراً ما عنده من الأخبار الصادقة بعضها الى البعض الآخر وجعلها في كتاب هو «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

وقد أتلفت الدائرة الفضية في ثورة وقعت في بلرمو بعد الفراغ منها بمدة قصيرة. لكن الخارطة العالمية وصلت الينا وقد جمعها ورسمها البحاثة الألماني ميلر سنة ١٩٣١، ورسمها المجمع العلمي العراقي بشكل كبير ملون بالعربية سنة ١٩٥١. أما النزهة فبين أيدينا وها قد أخذت جماعة من العلماء بنشره نشرة علمية دقيقة.

ومع أن الباحثين وجدوا أن بعض الأخطاء قد تسربت الى النزهة، فلا يزال الكتاب يعتبر كنزاً جغرافياً، وحتى المعلومات التي يحويها الكتاب عن بلاد نائية مثل الهند والصين وما اليهما تتسم بالصحة على وجه العموم.

وهكذا فان المعرفة الجغرافية الفلكية والبلدانية التي دارت بين العرب والمسلمين أربعة قرون، وتقلبت أحوالها وصيغ التعبير عنها وتنوعت الاهتمامات بها، خرجت مجتمعة مكتنزة موضحة منظمة على يد الشريف الادريسي. هذه مأثرة هذا الرجل. هذا الى أسلوب عربي ناصع مبين وضع به كتابه.

ويبدو أن الادريسي برح به الشوق الى بلده بعد مدة، ولو أن غليوم بن روجار أكرمه كما أكرمه أبوه من قبل، فعاد الى سبتة حيث قضى بقية أيامه. ولعله اهتم وقتها بالنبات وخواصه الطبية. وقد توفي في سبتة سنة ٥٦٠ للهجرة (١١٦٤ للميلاد). ■

السفير د. حليم أبو عز الدين

بين عام وعام

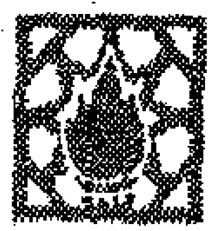
حفل العام المنصرم، ١٩٨٢، بأحداث جسام أناخت عليه، وتركت آثارها بارزة على شهوره وأيامه، ووسمته بطابعها المقيم، بل وانتقلت، بأكثريتها، بواقعها وعنائها، الى العام الحالي، الجديد.

هذه الأحداث، اخترنا منها للبحث في هذه الدراسة، ستة أحداث، ثلاثة منها عربية، وثلاث دولية.

الأحداث العربية هي، بالطبع: حرب لبنان، حرب الخليج، القمة العربية في فاس.

والأحداث الدولية تتناول: موت بريجنيف وصعود أندروبوف، ومتاعب بولونيا، وحرب جزر فوكلندز. ونبدأ، ولا شك، بحرب لبنان.

حرب اسرائيل في لبنان



في ٤ حزيران ١٩٨٢ قام الطيران الحربي الاسرائيلي بغارات جوية هي الأولى منذ تموز ١٩٨١ ــ على المنطقة الغربية في بيروت وعلى ضاحيتها الجنوبية، وعلى الجنوب اللبناني.

تمثلت هذه الغارات بتسع طلعات متتالية قصفت منشآت المدينة الرياضية، جنوبي بيروت، ومخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة وطريق المطار وبئر حسن، واستهدفت خاصة مواقع المقاومة الفلسطينية والتنظيمات اللبنانية في الحركة الوطنية وحركة أمل.



وشمل القصف أحياء سكنية ومؤسسات صحية وتربوية. وأصيبت منشآت المدينة الرياضية بأضرار جسيمة وتهدم القسم الأكبر منها. كذلك اصيبت المخيمات ومواقع بعض التنظيمات بالدمار.

هذه الغارات جرت قبل ثلاثة أيام من الموعد المقرر لوصول مبعوث الرئيس الاميركي الخاص الى منطقة الشرق الأوسط، السفير فيليب حبيب.

وهذا التوقيت لا يحير من تتبع بدقة مخططات السياسة الأميركية في الشرق الأوسط، ومثلها في الشرق الأقصى.

وعلى سبيل المثل والقياس التاريخي نذكر ــ وأتذكر جيدا إذ كنت عندها سفيراً في القاهرة ــ أنه عندما تصاعدت عمليات الحشود العسكرية المصرية والاسرائيلية على حدود سيناء في أوائل حزيران ١٩٦٧، عرضت حكومة الولايات المتحدة الأميركية، على عهد الرئيس ليندون ب. جونسون، ان توفد نائب الرئيس الاميركي الى القاهرة بداعي العمل على تهدئة الحال. فأجابت القاهرة بالقبول، بل انها اقترحت أن توفد هي نائب الرئيس عبد الناصر في ذلك الحين، زكريا محيي الدين ومستشار

الرئيس للشؤون الخارجية الدكتور محمود فوزي، الى واشنطن لبحث الوضع مع الحكومة الاميركية. وفعلاً تم الاتفاق على ذلك بين الفريقين، وتقرر أن يسافر محي الدين وفوزي إلى واشنطن في ٦ حزيران ١٩٦٧، بعد ان تعهدت الجمهورية العربية المتحدة ـ كما كانت تدعى مصر في ذلك الحين ـ بعدم البدء بالقتال.

وصباح يوم ٥ حزيران غزت القوات الاسرائيلية مصر براً وبحراً وجواً.

وهذا ما حدث في لبنان.

ولعل ذلك يعود الى عامل الصدفة!

ونعود الى حرب لبنان.

تقدم لبنان بشكوى الى مجلس الأمن على العدوان الجوي الاسرائيلي. وصدر، في اليوم التالي، أي في ٥ حزيران ، قرار مجلس الأمن رقم ٥٠٨ القاضي بـ «الحث» على وقف اطلاق النار.

ولكن اسرائيل، بدلاً من ان توقف اطلاق النار، بادرت في ٦ حزيران الى غزو لبنان بقوات معززة بالدبابات وناقلات الجند على ستة محاور في القطاعات الشرقي والأوسط والغربي، على جبهة عرضها تسعون كيلومتراً. وتجاوزت القوات الاسرائيلية مواقع القوات الدولية واشتبكت مع القوات المشتركة، من لبنانية وفلسطينية، التي تصدت لها ببسالة!

وفي نفس اليوم اصدر مجلس الأمن قراره رقم ٥٠٩ داعياً اسرائيل الى سحب قواتها فوراً، ومن دون شروط، الى ما وراء حدود لبنان المعترف بها دولياً.

ولم تأبه اسرائيل لهذين القرارين، بل زادت من عدوانها، وتقدمت كتل الحديد والنار الاسرائيلية في الأراضي اللبنانية، تساندها الطائرات من الجو والدوارع من البحر، تصب جام نيرانها على اللبنانيين والفلسطينيين.

وهنا لا بد للمتتبع المدقق من أن يتساءل: ألم يكن بامكان الولايات المتحدة أن تلجم اسرائيل. ولو حتى يستكمل السفير حبيب مهمته؟

أم أن واشنطن وجدت في الغزو الاسرائيلي مقدمة مثمرة لمهمة حبيب؟

هذه التساؤلات نتركها في ذهن القارىء، ولعلها مستقرة في ذهنه منذ ٤ حزيران!

وتقدمت جحافل اسرائيل في لبنان فاحتلت الجنوب ودخلت الجبل، ساحلاً وجرداً، ووصلت إلى طريق الشام، بل وتخطتها قرب الساحل. وتوقفت على مداخل القطاع الغربي من بيروت، وقام الوسيط الاميركي بنقل انذارات اسرائيل بوجوب اخلاء بيروت من القوات الفلسطينية والسورية.

وضمنت واشنطن عدم دخول اسرائيل غربي بيروت بعد خروج القوات الفلسطينية والسورية منها.

وخرجت تلك القوات استجابة لطلب لبنان.

وما أن غادرت تلك القوات بيروت حتى غزتها القوات الاسرائيلية بقضها وقضيضها.

وتجلت بذلك قيمة الوعود الاسرائيلية والضمانات الاميركية. وأنا أؤكد على ذلك تحذيراً لبني قومي وتقريراً للواقع.

وبعد ان كانت مهمة القوات الاسرائيلية في لبنان تأمين «سلامة الجليل» ـ وهو الاسم الذي اطلق على العملية ـ إذا باسرائيل تتوسع بالاحتلال، وترغي وتزبد، وتطالب بمعاهدة مع لبنان، وببعض المواقع الستراتيجية فيه، وبتطبيع العلاقات معه.

ولا يزال واقع الاحتلال الاسرائيلي على حاله حتى كتابة هذه السطور في آخر كانون الأول ١٩٨٢.

حرب الخليج

بين العراق وايران خلاف قديم على رسم الحدود بينهما، الحدود البحرية في منطقة شط العرب، والحدود البرية في بعض المناطق المتاخمة.

وكثيراً ما تأزمت العلاقات بين البلدين بسبب هذه الخلافات وغيرها مما يعود الى التاريخ.

وحدث ان التقى، في ٦ آذار ١٩٧٥، في الجزائر، نائب الرئيس العراقي (حينذاك) السيد صدام حسين، وشاه ايران السابق، في اجتماع عقدته الدول المنتجة للنفط. وبمبادرة من الرئيس الجزائري هواري بومدين ـ كما جاء في مقدمة اتفاق الجزائر ـ «أجريا محادثات

مطولة حول العلاقات بين العراق وايران. وقد اتسمت هذه المحادثات ببديع الصراحة الكاملة وبارادة مخلصة من الطرفين للوصول الى حل نهائي دائم لكل المشاكل القائمة بين بلديهما، وتطبيقاً لمبادىء سلامة التراب وحرمة الحدود، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية». واتفق الفريقان على «اجراء تخطيط نهائي لحدودهما البرية بناء على بروتوكول القسطنطينية للعام ١٩١٣، ومحاضر لجنة تحديد الحدود للعام ١٩١٤». كما اتفقا على «تحديد حدودهما النهرية حسب خط تالوك».

على أن الأمور ما لبثت ان تعقدت. واشتكى العراق من تلكؤ ايران في تطبيق ما يعود عليها من موجبات نص عليها اتفاق الجزائر.

وما لبث ان انفجر القتال بين البلدين في ١٤ ايلول ١٩٨٠. والرئيس الايراني بني صدر اعترف في ١٧ ايلول بان ايران لم تطبق اتفاق الجزائر.

وفي ذلك اليوم بالذات اعلن العراق انتهاء العمل باتفاق الجزائر بسبب تخلف ايران عن تطبيقه كما اعلن عودة شط العرب الى السيادة العراقية.

وقامت حرب شرسة بين البلدين. ودخلت القوات العراقية الأراضي الايرانية. ثم عادت فانكفأت الى الأراضي التي تطالب بها العراق.

وصدرت عدة قرارات عن مجلس الأمن بوقف اطلاق النار بين البلدين، وقبل العراق التقيد بتلك القرارات، ولكن ايران رفضتها.

كما قامت وفود عربية واسلامية ومن دول غير منحازة بمساع لوقف القتال في الخليج، ولكن بدون ان تتوصل الى نتيجة بسبب موقف ايران الرافض.

وفي ٢٠ حزيران ١٩٨٢ اعلن العراق «ان القطعات العراقية باشرت الانسحاب من داخل المدن والأراضي الايرانية حتى الحدود الدولية، وأن عمليات الانسحاب ستنتهي في مدة اقصاها عشرة ايام من هذا اليوم، وأن بغداد ستستمر في العمل مع هيئات مختلفة تولت الوساطة لانهاء النزاع بين العراق وايران بغية التوصل الى تسوية عادلة ومشرفة طالب بها العراق منذ بداية المعارك.

ولكن ايران استمرت في الرفض طالبة اعلان العراق دولة معتدية، والتعويض عن الخسائر التي لحقت بايران من جراء الحرب.

وفي ٢٩ حزيران اعلن العراق انهاء سحب قواته من الأراضي والمدن الايرانية التي كان يحتلها.

ولكن ايران اعلنت، في نفس اليوم، متابعة الحرب مع العراق. واستمرت حرب الخليج، ودخلت قوات ايرانية بعض الأراضي الحدودية في القطاعين الأوسط والجنوبي من العراق.

ولما تضع الحرب اوزارها بعد.

القمة العربية الثانية عشرة في فاس

هذه القمة العربية كانت ذات شقين.

الشق الأول انعقد في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٨١ ولكن اجتماعه الأول كان الأخير بسبب تغيب بعض الدول عنه، وبسبب بعض الصعوبات التي واجهها.

وعرضت على تلك القمة قضيتان اساسيتان هما قضية لبنان: «وضع ستراتيجية عربية شاملة تهدف الى منع اسرائيل من العدوان، ووضع تصور لمواجهة العدوان الاسرائيلي إذا ما وقع»، وكذلك عرض على القمة مشروع سعودي للسلام في الشرق الأوسط.

القمة وافقت على القرار الخاص بلبنان، وارجأت درس موضوع مشروع السلام السعودي الى دورة مقبلة وانفض اجتماع الشق الأول من القمة الثانية عشرة.

وعادت القمة العربية الثانية عشر الى الاجتماع ثانية في فاس في ٦ أيلول ١٩٨٢. واستمرت جلساتها حتى ٩ أيلول، وأصدرت قراراتها حول موضوعين رئيسيين هما حرب الخليج، ومبادرة السلام السعودية.

ففيما يتعلق بحرب الخليج دعت القمة الطرفين المتنازعين الى «ضرورة الالتزام الكامل بقراري مجلس الأمن رقم ٤٧٩ للعام ١٩٨٠، و٥١٤ للعام ١٩٨٢ (وقف اطلاق النار)، والعمل على تطبيقهما».

وفيما يعود الى مبادرةالسلام السعودية قررت القمة اعتماد المبادىء الآتية:

«١ ـــ انسحاب القوات الاسرائيلية من

جميع الأراضي التي احتلتها في العام ١٩٦٧، بما فيها القدس العربية.

٢ ــ ازالة المستعمرات التي اقامتها اسرائيل بعد العام ١٩٦٧ في الأراضي العربية.

٣ ــ ضمان حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية لجميع الأديان في الأماكن المقدسة.

٤ ــ تأكيد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وممارسة حقوقه الوطنية الثابتة غير القابلة للتصرف بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ممثله الشرعي والوحيد، وتعويض من لا يرغب في العودة.

٥ ــ تخضع الضفة العربية وقطاع غزة لفترة انتقالية تحت اشراف الأمم المتحدة ولمدة لا تزيد عن بضعة اشهر.

٦ ــ قيام الدولة الفلسطينية المستقلة بعاصمتها القدس.

٧ ــ يضع مجلس الأمن الدولي ضمانات سلام بين جميع دول المنطقة بما فيها الدولة الفلسطينية المستقلة.

٨ ــ يقوم مجلس الأمن الدولي بضمان تنفيذ تلك المبادىء».

وهنا لا بد لنا من الاشارة إلى ان الرئيس الاميركي ريغان كان، في اول ايلول ــ أي بضعة ايام قبيل قمة فاس ــ اطلق مبادرته لتسوية قضية الشرق الأوسط، وخلاصتها «ان حكماً ذاتياً من جانب الفلسطينيين للضفة الغربية وقطاع غزة، مرتبط بالأردن، يوفر افضل فرصة لسلام دائم وعادل وثابت».

على ان اسرائيل سارعت الى رفض مبادرة ريغان، كما رفضت، بالطبع، المشروع العربي.

واليوم يقوم الأردن باجراء اتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية من جهة، ومع الادارة الاميركية من جهة اخرى، في محاولة للتوصل الى تسوية بين الموقفين.

وفاة بريجنيف وصعود اندروبوف

ننتقل الآن الى الأحداث الدولية البارزة خلال العام ١٩٨٢.

ونبدأ بحادث موت بريجنيف، الأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي ورئيس مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي. ففي



١١ تشرين الثاني ١٩٨٢ اعلنت موسكو ــ متأخرة حوالي ٢٦ ساعة عن الحدث ــ وفاة ليونيد بريجنيف، بعد ان حكم الاتحاد السوفياتي حوالي ١٨ عاماً.

ولم تمض ٢٤ ساعة على الاعلان حتى اجتمعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي وانتخبت بالاجماع يوري اندروبوف، الرئيس السابق للمخابرات السوفياتية، اميناً عاماً للحزب، خلفاً لبريجنيف الذي كان يتولى ايضاً منصب رئاسة مجلس السوفيات الأعلى.

ورشح اندروبوف لهذا المركز أبرز منافسيه قسطنطين تشيرنينكو.

الزعيم السوفياتي الجديد شدد، في اول خطاب له، على التزام سياسة بريجنيف، وعلى بناء القوة العسكرية للاتحاد السوفياتي. وقال: «اننا نعرف جيدا ان السلام لا يستجدى من الامبرياليين، ولا يمكن الذود عنه الا بالاعتماد على القوة المنيعة للقوات المسلحة السوفياتية. وكان ليونيد ايليتش بريجنيف، بصفة كونه قائداً للحزب والدولة وكرئيس لمجلس الدفاع، يبدي عناية على الدوام بأن تكون القدرة الدفاعية للبلاد في مستوى متطلبات العصر».

المراقبون رأوا ان القيادة السوفياتية الجديدة ستتمسك بالخطوط العريضة لسياسة بريجنيف على الصعيدين الداخلي والخارجي. وانه ما زال من المبكر الكلام عن احتمال قيام

اندروبوف بمراجعة لهذه السياسة، غير انهم يتوقعون ان يحظى الوضع الاقتصادي باهتمام استثنائي.

كما رأى محللون أن القيادة الجديدة ستعمد الى اعادة تشكيل الهيئات القيادية، وانها قد تلجأ الى «ترقيات استثنائية» تجاوز التقليد الذي كان متبعاً حتى الآن.

ويرى هؤلاء المحللون ان عملية اعادة تشكيل القيادات تنطلق من هم مزدوج: الأول ضرورة ايجاد توازن افضل في قمة الهرم بين القوميات المختلفة في البلاد، والآخر اشراك عناصر شابة في الهيئات القيادية التي تضم عدداً كبيراً من المسنين.

وفي الواقع، فقد أجرت اللجنة لمركزية للحزب الشيوعي السوفياتي تعديلاً على تشكيل المكتب السياسي للحزب الشيوعي صار بموجبه حيدر علييف الرجل الثاني في المكتب السياسي بعد اندروبوف. وكان علييف من أقرب معاوني اندروبوف في لجنة امن الدولة العليا.

ولكن مجلس السوفيات الأعلى ختم دورته في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٨٢ من دون انتخاب رئيس جديد للدولة خلفاً لبريجنيف. وكان المرشحون لهذا المنصب ثلاثة هم اندروبوف نفسه، وتشيرنينكو، وغروميكو.

وترك عدم انتخاب رئيس الدولة تساؤلات لم تتضح عليها عليه بعد.

أحداث بولونيا

وننتقل من الاتحاد السوفياتي الى بولونيا الخلاف بين الحزب الشيوعي البولوني والحكومة البولونية من جهة، ونقابات «التضامن» العمالية من جهة أخرى اشتد وبات ينذر بعواقب وخيمة.

وكانت فئة منشقة من نقابيي الحزب الشيوعي البولوني، وعلى رأسها ليش فاليسا، قد قامت بعدة اضرابات في مصانع السفن البولونية في غدانسك، وتمكنت من مواجهة السلطة البولونية لدرجة انها أقدمت على تأسيس نقابات جديدة، خارجة عن نطاق الحزب الشيوعي البولوني، دعتها نقابات «التضامن». السلطة البولونية اعترفت بهذه النقابات، ولكن ليس عن رضى. ولهذا بقيت العلاقات بين الفريقين متوترة وقابلة للانفجار في أي وقت.



وفعلاً قامت الحكومة البولونية، في ١٣ كانون الأول ١٩٨١، واستبقت مواجهة مع نقابات «التضامن»، بعد انقطاع الحوار بينهما، واعلنت «حالة الطوارىء» واضعة البلاد تحت حكم عسكري بعد نحو ١٥ شهراً من الاضرابات والاضطرابات العمالية.

وشكلت الحكومة «المجلس العسكري للانقاذ الوطني»، واتخذت اجراءات فيها تقييد للحريات العامة، والقت القبض على عدد من المسؤولين السابقين في الحزب وفي النقابات ورئيس «التضامن»، ليش فاليسا.

وأعربت موسكو عن ارتياحها الى الخطوة التي اقدمت عليها الحكومة البولونية، واعتبرت ان القلاقل التي وقعت في بولونيا سببتها محاولات بعض الأوساط في الغرب للتدخل في الشؤون البولونية.

هذه الاجراءات الصارمة قابلها زعماء «التضامن» الذين بقوا خارج المعتقلات بالرفض مما ادى الى انتشار القلاقل في بولونيا. ولكن السلطة والجيش ما لبثا ان امسكا بالموقف.

ثم اعلنت الحكومة البولونية ان لا عودة بعد الى نقابات «التضامن».

وقد أطلقت السلطات سبيل زعيم التضامن ليش فاليسا في آخر العام ١٩٨٢ ولكنها وضعته تحت الرقابة المشددة. ولا تزال الأوضاع في بولونيا قلقة.

حرب الفوكلندز

ونأتي في الختام الى الحديث عن حرب «جزر فوكلندن» وهي مجموعة من الجزر قابعة جنوبي المحيط الأطلسي تجاه شواطىء الأرجنتين.

هذه الجزر تحتلها بريطانيا منذ اكثر من قرن ونصف. وسبق ان احتلتها فرنسا، كما كانت جزءاً من الأرجنتين.

ولم تعترف الأرجنتين بالاحتلال البريطاني لهذه الجزر، وظلت تطالب بملكيتها طوال تلك السنين.

وبقيت العلاقات بين بريطانيا والأرجنتين، بسبب مشكلة هذه الجزر، بين مد وجزر.

وظلت الأرجنتين تطالب باستعادة الجزر، ولكن بلا فائدة.

واشتد الخلاف بين البلدين.

ولم تعتقد بريطانيا ان الأرجنتين ستجرؤ على غزو الجزر، لذلك لم تعزز قواتها الطفيفة فيها.

وفوجئت بريطانيا، والعالم، في ٢ نيسان ١٩٨٢، بقوة ارجنتينية أطلقها الحكم العسكري في بوينس ايرس لاحتلال الجزر.

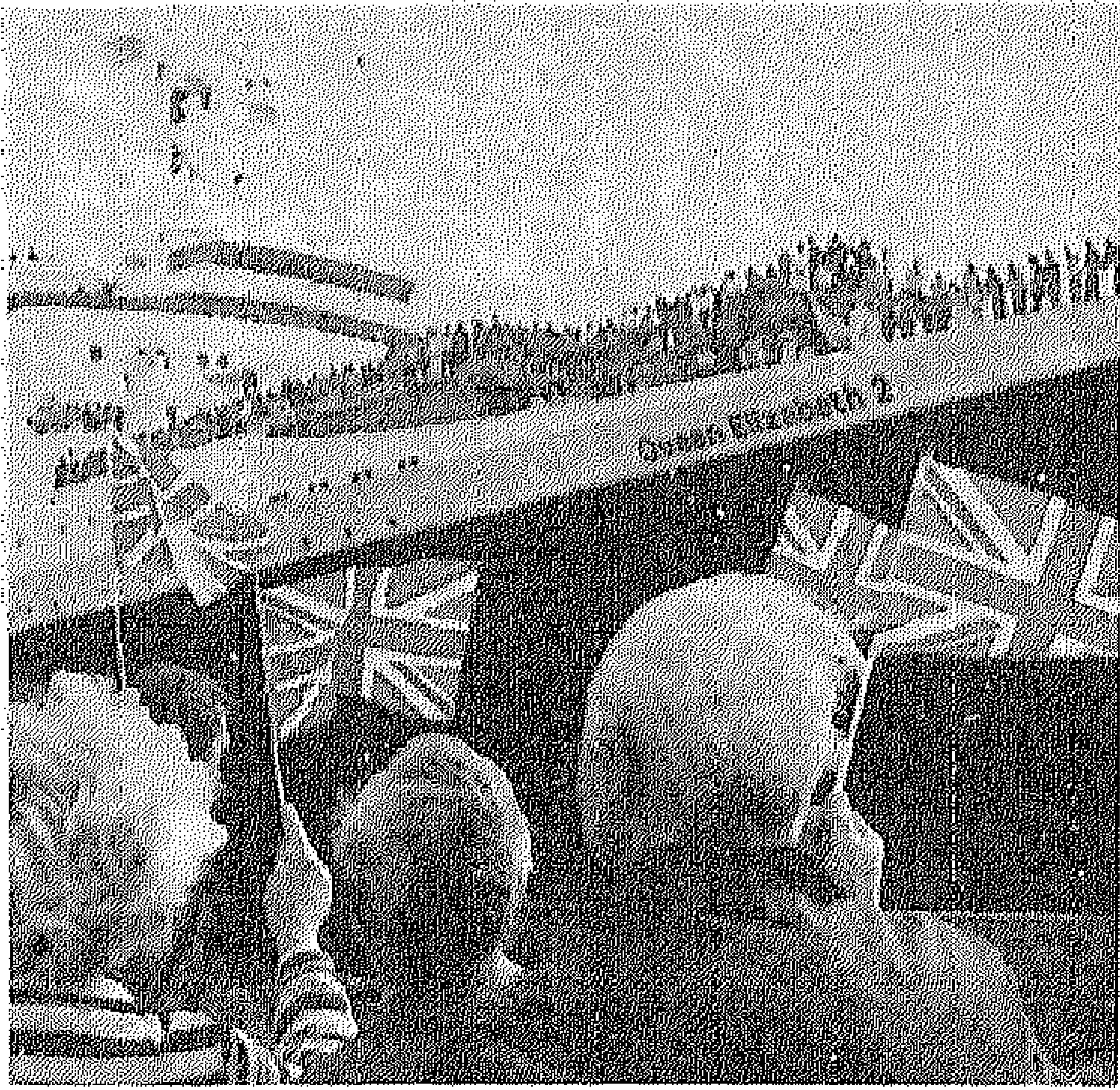
ونزلت هذه القوة على اراضي الجزر برغم مقاومة الحامية البريطانية الصغيرة فيها.

بريطانيا شكت الأمر لمجلس الأمن ثم انذرت الأرجنتين بوجوب اخلاء الجزر حالاً، وعمدت الى اعداد قوة بحرية كافية لاسترداد الجزر الواقعة على بعد آلاف الأميال منها.

واعلنت لندن في ٤ حزيران انها ستحرر جزر فوكلندز من الاحتلال الأرجنتيني اذا لم تعمد الأرجنتين فوراً الى سحب قواتها منها.

ولكن الأرجنتين سدرت في احتلالها. وفي ٥ حزيران، تحركت قوة بحرية بريطانية باتجاه الجزر وبدأت واشنطن القيام بمساع ووساطة بين بريطانيا والأرجنتين. وفرضت اكثر دول اوروبا الغربية حظراً على ارسال الأسلحة الى الأرجنتين. أما الاتحاد السوفياتي فأعلن أن وجود بريطانيا في جزر فوكلندز يناقض مبادىء الأمم المتحدة وحق الشعوب في تقرير المصير.

وبدأ الأسطول البريطاني يقترب من الجزر، واشتدت الوساطة الأميركية للحؤول دون التصادم.



وفي ٢٥ نيسان قصفت طائرة عامودية بريطانية اقلعت من حاملة طائرات، غواصة ارجنتينية قرب جزيرة جورجيا جنوبي الفولكندز. وفي ٢٦ منه نزلت طلائع القوات البريطانية في جزيرة جورجيا. وفي ٣٠ اعلنت واشنطن، بعد ان رفضت الأرجنتين اقتراحاً اميركياً للسلام يقضي باقامة ادارة مشتركة بريطانية ـ ارجنتينية في فوكلندز، اعلنت تأييدها لبريطانيا، واعتبرت الأرجنتين معتدية.

وبادرت الأرجنتين اذ ذاك، الى اعلان قبولها قرار مجلس الأمن الذي يدعوها لاخلاء الجزر.

ومن ثم احاط الأسطول البريطاني بالجزر وبدأت الطائرات البريطانية بقصف مدرج مطار بورت ستانلي عاصمة الجزر لتعطيله وحرمان الأرجنتينيين من استعماله.

ونزلت احدى قوات «الكوماندو» البريطانية على الشاطىء. واشتدت المعارك براً وبحراً وجواً، بين الفريقين. وتقدم البريطانيون في الجزر وفصلوا بين مجموعتين منها. وطلبت الأرجنتين في ٢٥ أيار وقف اطلاق النار بلا شرط. واستسلمت القوات الأرجنتينية في الجزر.

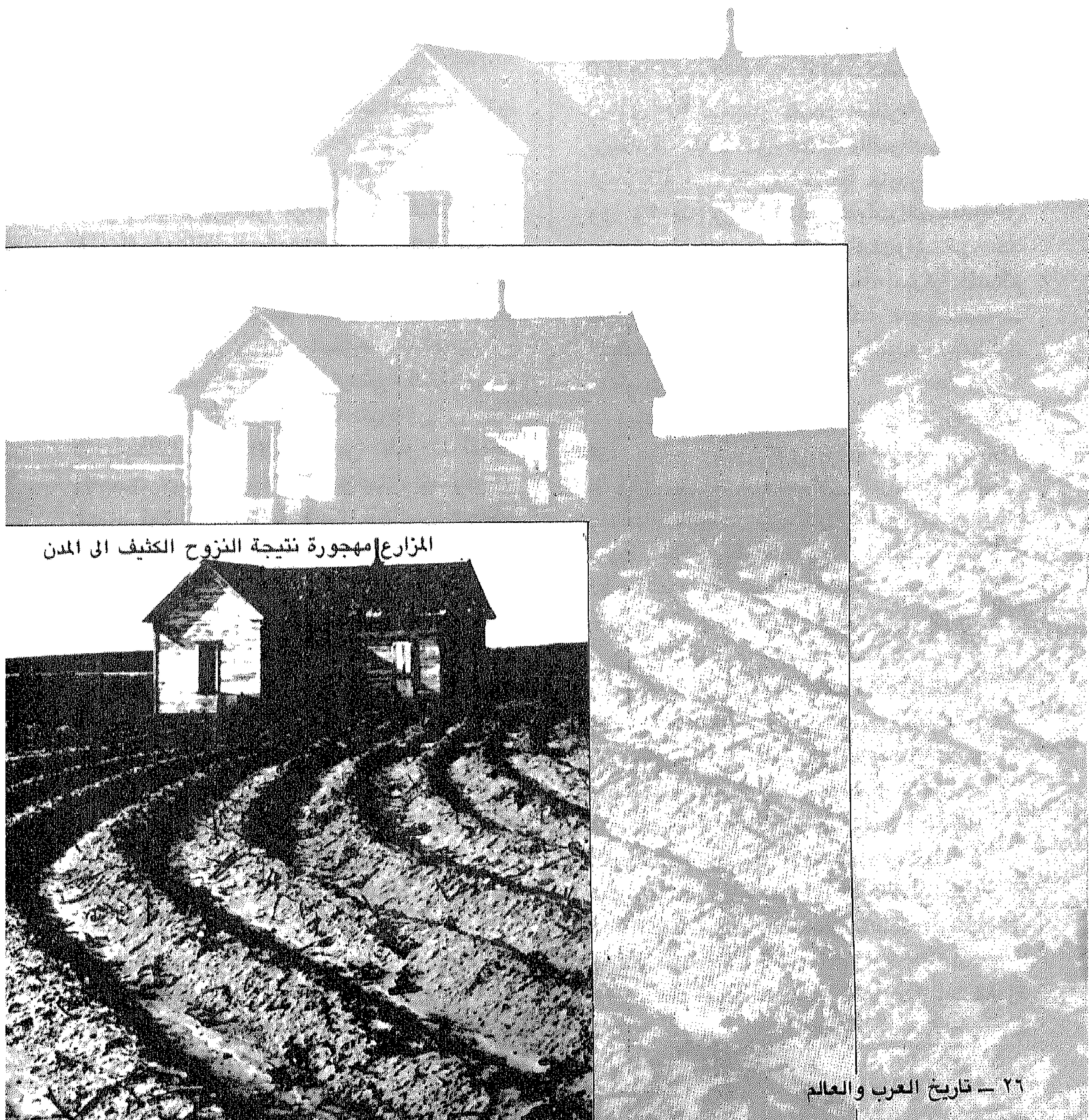
وأعادت بريطانيا احتلال الجزر، وأبقت على القوات الأرجنتينية في الأسر، ولكنها عادت فأفرجت عنها وأعادتها الى البر الأرجنتيني.

وانتهت حرب الفولكندز باعادة الوضع الى ما كان عليه.

وأكدت هذه الحرب، كغيرها، ان القوة لا تزال الوسيلة الفاعلة لحل النزاعات. ■

قصة الكساد الاقتصادي الكبير (١٩٢٩ - ١٩٣٣)

د. يوسف شبل



المزارع مهجورة نتيجة النزوح الكثيف الى المدن

ليس توقيت كتابة هذا المقال مجرد صدفة وان كان تاريخ الأحداث في مجلة متخصصة كمجلة «تاريخ العرب والعالم» لا يحتاج الى تبرير. غير ان الأحداث الاقتصادية الراهنة في العالم الصناعي وخصوصاً في الاقتصاد الأميركي، حيث ارتفعت البطالة الى حوالي ١١٪ من مجمل اليد العاملة، وحيث يخيم الركود الاقتصادي منذ مدة عامين في وقت اخفقت فيه معظم السياسات الاقتصادية، أعاد شبح الكساد الكبير الى اذهان المسؤولين ورجال الأعمال والمواطنين على حد سواء. لذلك فان سرد قصة الكساد الاقتصادي الكبير يكتسب اكثر من معنى.

لم تعرف البلدان الصناعية في تاريخها الاقتصادي الطويل فترة أقسى من فترة الكساد الكبير (Great Depression)، الذي عصف باقتصاد البلدان الصناعية وخصوصاً الولايات المتحدة الأميركية واوروبا الغربية خلال فترة اربعة اعوام بدأت في نهاية عام ١٩٢٩ واستمرت حتى عام ١٩٣٣. وقد تركت هذه الأزمة الاقتصادية الخانقة آثاراً وبصمات لا تنسى من ذهن المسؤولين والمواطنين كما انها غيرت النظرة كلياً الى مسار الاقتصاد الرأسمالي ودور الدولة في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية. واخيراً افرزت نظرية اقتصادية جديدة للعمالة والأسعار والانتاج صاغها الاقتصادي البريطاني الشهير «جون ماريرد كينز» في عام ١٩٣٦ وقد اصبحت لفترة طويلة من الزمن اساساً لجميع السياسات الاقتصادية في معظم البلدان الصناعية خارج الاتحاد السوفياتي.

ولكن ما هي قصة وأسباب هذا الكساد الكبير؟ هذا ما سنحاول ايجازه في هذا المقال.

خلال الفترة ١٩٢١ ــ ١٩٢٩ كان الاقتصاد الأميركي قد وصل الى اوج ازدهاره ونضوجه. فقد ظهرت صناعة السيارات على نطاق واسع بعد ان قام جون فورد بصنع اول سيارة في التاريخ كما ارتفع انتاج القطاع الزراعي بشكل كثيف نتيجة ادخال المكننة والأسمدة الكيمياوية على نطاق واسع. وساهم في هذا الازدهار اتساع حجم السوق الأميركي وارتباط مختلف انحاء الولايات المتحدة بشبكة حديثة من مختلف انواع المواصلات.

اما سوق الأوراق المالية البورصة في نيويورك) فقد وصل الى ذروة نشاطه وازدهاره حيث ارتفعت قيمة الأسهم بشكل دراماتيكي بحيث جنى كثر من المستثمرين ارباحاً طائلة وكونوا ثروات هائلة. واندفع المستثمرون الاميركيون في موجة مضاربة هائلة نتيجة تفاؤل عارم حول مستقبل اسعار الأسهم ومسيرة الاقتصاد الأميركي.

غير انه في شهر تشرين الأول من عام ١٩٢٩ بدأت تظهر في الاقتصاد الأميركي بوادر ازمة سيولة، حيث شعرت فيها المصارف التجارية نتيجة إقدام البنك الاتحادي الفيدرالي على خفض حجم الكتلة النقدية بحوالي ٤٠٪.. والكتلة النقدية تتألف من النقد المتداول مضافاً اليها الودائع تحت الطلب. وقد ادت هذه الظاهرة الى وقوع المصارف التجارية في ازمة سيولة خانقة ادت الى إفلاس كثير منها واغلاق ابوابها.

وكان رئيس الولايات المتحدة آنذاك هربرت هوفر (Hoover) الذي انتخب في عام ١٩٣٠ قد بذل جهوداً ورسم سياسات اقتصادية ضمن تصور تقليدي لمسيرة الاقتصاد الرأسمالي حيث يقتصر دور الدولة على ضمان اجواء المنافسة بينما يقوم القطاع الخاص بكافة اعمال التثمير والانتاج والتوزيع في الاقتصاد. غير ان انهيار الثقة بالمؤسسات والمصارف العاملة قد عطل جميع السياسات الاقتصادية الموضوعة.

وفي رأي الاقتصادي الشهير «جون كينيث غالبريث» الذي الف كتاباً بعنوان «الحطام الكبير» (Great Crash) في عام ١٩٥٥، ان هنالك خمسة اسباب وعوامل رئيسية وراء الكساد الكبير وهي على النحو التالي:

(أ) النظام المصرفي في الولايات المتحدة الذي كان يضم مصارف عديدة صغيرة الحجم نسبياً والتي كانت معرضة لأي نكسة بمجرد تهافت المودعين على سحب اموالهم من هذه المصارف.

(ب) سوء توزيع الثروات والدخل في الولايات المتحدة الذي حد من اتساع السوق الاستهلاكي وجعل الاستثمار والانفاق على السلع الانتاجية معرضاً للهبوط السريع.

(ج) قيام بعض المؤسسات التجارية والصناعية بخداع الجمهور والمواطنين عن وضعها المالي الحقيقي الأمر الذي جعلها غير قادرة فعلاً على تحمل أي هزة او نكسة مالية.

(د) تراكم الديون الأوروبية في الولايات المتحدة ولجوء الأخيرة الى اتباع سياسة اقراض خاطئة، ولجوء حكومة الولايات المتحدة الى وضع تعرفة جمركية مرتفعة في وجه السلع الأوروبية مما جعل الدول الأوروبية المدينة غير قادرة على الوفاء بالتزاماتها عن طريق زيادة صادراتها للسوق الأميركي.

(هـ) عدم وجود سياسة اقتصادية على مستوى التحديات الاقتصادية التي واجهت الاقتصاد الأميركي.

كان الهبوط المريع في اسعار الأسهم في بورصة نيويورك العالمية اول مؤشر عن بدء الكساد الكبير. فخلال الفترة الواقعة بين ١٩٢١ ــ ١٩٢٩ اندفع المستثمرون الأميركيون من جميع الفئات: رجال الأعمال، الأساتذة، الأطباء، المهندسون، الطلاب، العمال في موجة مضاربة هائلة على شراء الأسهم. وكان يكفي آنذاك ان يدفع المستثمر ٢٠٪ من قيمة السهم وتقسيط الباقي لقاء رهن السهم حتى يتأكد من انه سيحقق أضعاف اضعاف الفائدة والعمولة التي يدفعها على رهن السهم. ويصف الاقتصادي الشهير «بول ساميلسون» حامل جائزة نوبل في علم الاقتصاد هذه الفترة بأن جميع الذين ضاربوا على اسعار الأسهم حققوا ارباحاً اكثرها «ورقيّ» وهذه الأرباح تتلاشى بمجرد ان يحاول كل فرد ان يقبض ثمنها. ويصف سلوك هذا النوع من المضاربة بقوله: «حين يصبح العالم بامكانه مختلاً يصبح التعقل ضرباً من الجنون»!.

وفجأة بدأ السوق المالي في الانهيار وبدأت اسعار الأسهم بالهبوط السريع بشكل دراماتيكي حتى ان كثيراً من الأسهم المضمونة شهرة وربحاً هبطت ما بين ٧٠ ــ ٨٠٪ من قيمتها الأمر الذي اوقع خسائر هائلة ودفع بعض المستثمرين الى الانهيار وبعضهم اقدم على الانتحار فعلاً.

انتقلت عدوى هبوط اسعار الأسهم الى المصارف التجارية التي بدأت تتعرض لضغوطات سحب كثيفة من المودعين مما ادى الى اغلاق كثير من البنوك واعلان عدم قدرتها على الوفاء بالتزاماتها. فالبنوك بطبيعتها لا تحتفظ بأكثر من نسبة مئوية ضئيلة يحددها القانون على شكل ودائع سائلة. وفي مثل هذه الحالة فان استرداد التسليفات المقدمة يصبح عملية مستحيلة نظراً لأن معظم المؤسسات والشركات غير قادرة على دفع ديونها في وقت هبطت فيها المبيعات وتدنت الأسعار بشكل كبير. لذلك اقدم كثير من المصارف على إغلاق ابوابه كما حدث خلال ازمة إنترا الشهيرة في لبنان.

انتشر الكساد الكبير كالنار في الهشيم وبدأت كثير من الشركات في إعلان افلاسها وتصفية موجوداتها وارتفعت البطالة حتى وصلت الى ٣٥٪ (١٢ مليون عاطل عن العمل) من مجمل القوى العاملة واشرفت كثير من الطبقات الفقيرة على المجاعة وقامت مظاهرات صاخبة في كثير من المدن الأميركية مثل نيويورك وديترويت (مركز صناعة السيارات) وفيلادلفيا وبلتمور وغيرها تطالب الحكومة الفيدرالية بالتحرك السريع لايجاد فرص عمل للعاطلين واعطاء معونات تقدير لمواجهة متطلبات الحياة. ومن المشاهد المألوفة آنذاك وقوف المواطنين في طوابير طويلة للحصول على الغذاء والمعونات المالية.

ومما زاد الأمور تعقيداً انهيار «نظام قاعدة الذهب»، الذي كان معمولاً به في البلدان الصناعية. وقد حدث هذا الانهيار في خريف عام ١٩٣١. وبموجب هذا النظام كانت الدول الصناعية تعلن عن سعر تبادل لعملتها تجاه الذهب وتلتزم بالدفاع عنه. فاذا حقق هذا البلد فائضاً في الميزان التجاري فان ذلك يعني تدفق

الذهب الى داخل الاقتصاد. واذا حقق عجزاً فانه يسدد هذا العجز بما قيمته ذهباً. وهذه الميكانيكية في العمل تؤدي الى إحداث تغيير في مستوى الأسعار العام بحيث ترتفع في البلد الذي يتسلم الذهب وتنخفض في البلد الذي يخسر رصيداً من ذهبه. وهذا التأثير يحصل من خلال التأثير على حجم الكتلة النقدية. وعندما انهار نظام قاعدة الذهب لم يعد هنالك ثقة كافية في قيمة العملة الورقية مثل الدولار والاسترليني والمارك الالماني وغيرها من عملات البلدان الصناعية.

في وجه هذا التدهور حاول الرئيس «هوفر» معالجة الكساد الكبير عن طريق تقديم مساعدات للمزارعين والعاطلين عن العمل. وقد الف «هوفر» «مؤسسة اعادة الاعمار» لتقديم قروض الى المصارف والشركات الواقعة في مشكلة سيولة مالية، غير ان جميع هذه الاجراءات لم تحقق شيئاً حتى وصول «فرانكلين روزفلت» الى رئاسة الولايات المتحدة في عام ١٩٣٣. وعندما استلم روزفلت الحكم كان القطاع المصرفي قد شارف على الانهيار الكامل كما ان ٩٠,٠٠٠ شركة كانت قد اغلقت ابوابها وحوالي ١٥ مليون عامل عاطلين عن العمل. لقد اهتز كيان الاقتصاد الأميركي واصبح النظام الرأسمالي بأسره على شفير الهاوية. ومما زاد الأمور تعقيداً ان السياسة النقدية التي اتبعها البنك الاتحادي الفيدرالي ادت الى خفض حجم الكتلة النقدية بـ٤٠٪ عما كانت عليه عام ١٩٢٩. وكانت السياسة الاقتصادية ترتكز على اساس عدم التدخل في الشؤون الاقتصادية والاكتفاء بدور الحكم والمراقب. وقد اضطر روزفلت الى اعلان عطلة مفتوحة للمصارف حتى يتمكن من اعادة الثقة الى النظام المصرفي.

وعندما باشر «روزفلت» صلاحياته اعلن عن «البرنامج الجديد» (New Deal)، الذي ارتكز على اساس برنامج انعاش ضخم عهد به الى عدد كبير من المؤسسات الحكومية. وشمل البرنامج سياسة دعم الأسعار للمنتجات الزراعية ومنح إعانات مالية وشق الطرق واقامة الجسور وتقديم العون المالي للمؤسسات



ذهول وشرود نتيجة البطالة على وجه مواطن اميركي


صورة عن الفقر خلال فترة الكساد الكبير

المحتاجة. وقد ادى ذلك الى اتباع سياسة انفاقية ترتكز على حصول عجز في الميزانية العامة للدولة. كما اقدمت الولايات المتحدة على الانسحاب من نظام قاعدة الذهب بعد ان سبقتها بريطانيا في الانسحاب.

بدأ التحسن طفيفاً ابتداء من عام ١٩٣٤ غير انه في عام ١٩٣٧ حصلت نكسة اقتصادية عندما هبط الانفاق الحكومي ولم تتحسن الأمور إلا في مطلع الاربعينات عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية.

ولم تكن الولايات المتحدة وحدها ضحية الكساد الكبير. فالمانيا تعرضت بدورها لكساد كبير تمثل في هبوط في الدخل القومي ما بين ١٩٢٩ ــ ١٩٣٢ قدره ٤٠٪ وارتفعت البطالة الى مستوى لم تعرفه المانيا من قبل، حيث كان هنالك ستة ملايين عاطل عن العمل. وقد وقعت المانيا فريسة للديون الخارجية. وفي كانون الثاني من عام ١٩٣٣ وصل «ادولف هتلر» على رأس الحركة النازية حيث عمد الى الغاء جميع نقابات العمال والأحزاب السياسية، وبدأت الحكومة في اتباع سياسة انفاق واسع لمحاولة محاربة البطالة خصوصاً شق الطرق والاتوسترادات الواسعة وبناء قوة عسكرية كبيرة في محاولة للقضاء على «معاهدة فرساي» التي وقعتها المانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. وقد انفق «هتلر» مبالغ طائلة

لتقوية الترسانة العسكرية عن طريق السيطرة على المزيد من الموارد المالية التي اقتطعها من القطاع الخاص في المانيا. ويمكن القول بأن «هتلر» نجح في إيصال الاقتصاد الالماني الى مستوى العمالة الكاملة، ولكن عن طريق بناء اقتصاد حربي توطئة لشن هجومه المنتظر على جيرانه في اوروبا.

على ضوء ما تقدم يمكن القول بأن كلا من الاقتصاد الأميركي والاقتصاد الالماني لم يخرجا فعلاً من حالة الكساد الكبير إلاّ في اواخر الثلاثينات عندما بدأت الحرب العالمية الثانية وان كانت الفترة الواقعة بين ١٩٣٤ ـ ١٩٣٩ يمكن وصفها بفترة الركود الاقتصادي اكثر منها بفترة الكساد الكبير نظراً للتحسن الطفيف الذي طرأ على مستويات الدخل والانتاج والعمالة والأسعار والأرباح.

والواقع ان الكساد الكبير قد طرح على الأنظمة الاقتصادية الرأسمالية تحدياً جديداً. فلم يعد مضموناً استقرار اقتصاديات هذه البلدان على مستوى العمالة الكاملة كما كانت تبشر بذلك النظرية الكلاسيكية. ولا شك ان حجم الصدمة وعمق الأزمة قد دفع بالاقتصاديين لاعادة النظر في ميكانيكية الأسواق وفي قدرة القطاع الخاص على ان يوفر فرصاً للعمل لجميع المواطنين الذين يريدون الحصول على وظيفة أو مصدر رزق. لذلك اتجهت الأنظار الى ضرورة اعطاء القطاع العام دوراً متزايداً في عملية توزيع الموارد المتاحة بهدف تدعيم جهود القطاع الخاص. وكانت الدول الصناعية حتى وقوع الكساد الكبير غير راغبة في إدخال الدولة الى مجال الحياة الاقتصادية إلاّ من زاوية كونها مراقبة لمجرى الحياة الاقتصادية للتأكد من ان التبادل والانتاج التجاري يتم في اجواء تنافسية مثالية. غير ان التغيير الهيكلي الذي ضرب اعماق الاقتصاد الأميركي واقتصادات اوروبا الغربية خلق تحديات فكرية لمعالجة الخلل الحاصل وكانت حصيلة ذلك ظهور «نظرية كينز» عام ١٩٣٦ للانتاج والدخل والعمالة. وقد دعت هذه النظرية الى تدخل متزايد للدولة في الشؤون الاقتصادية عن طريق تنفيذ مشاريع واسعة ومن خلال التحكم بحجم الانفاق والاستثمار من خلال سياسات مالية ونقدية وضرائبية متنوعة لمساعدة الاقتصاد الوطني للوصول الى حالة العمالة الكاملة.

وفعلاً بدأت الدول الصناعية في اعتناق السياسات الكينزية ابتداء من عام ١٩٣٨، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية لتزيد من حجم الانتاج والعمالة لمواجهة الجهد العسكري المطلوب لكسب الحرب. وبعد انتهاء الحرب وانحسار الانفاق العسكري بدأ الانفاق الاستهلاكي يتعاظم وظهرت سلع استهلاكية رفيعة المستوى لم يعرفها الانسان في حياته من قبل. وبدأت الاختراعات والتطورات التكنولوجية تتوالى بحيث ادت الى زيادة الانتاج وتخفيض كلفة الانتاج وأوجدت حالة من الرفاهية الواسعة.

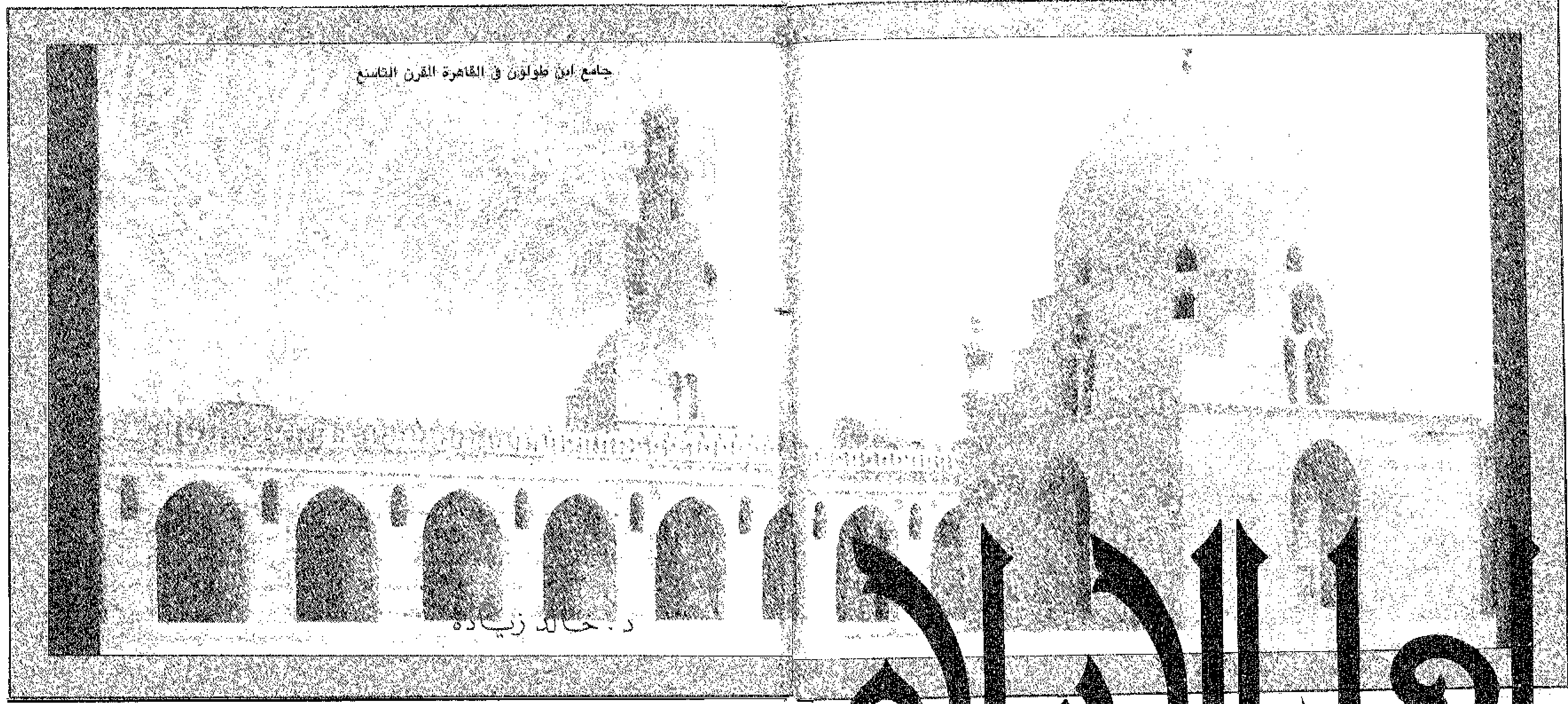
واخيراً هل يعيد التاريخ الاقتصادي نفسه في البلدان الصناعية؟

اغلب الظن لا. نظراً لتوفير منبتات آلية داخل اقتصادات البلدان الصناعية التي تمنع تحول الركود الاقتصادي الى كساد اقتصادي كبير. ولا شك ان عام ١٩٨٣ سيكون له القول الفاصل في هذا الموضوع. ■



اعرابي وحمل

□ مر الأصمعي على اعرابي يأكل حملاً مطبوخاً بشراهة، فقال له: ياهذا على رسلك أراك تأكل بشماتة كأنما أم الحمل نطحتك، فأجابه الأعرابي: وأنا أراك تحنو عليه كأن أمه أرضعتك. فضحك الأصمعي وانصرف.



جامع ابن طولون في القاهرة القرن التاسع

أهل الإسلام

قليلة هي المؤلفات التي تستطيع أن تجمع الجهد العلمي الى التعاطف الصبور على غرار كتاب أهل الإسلام (Les Hommes de L'islam)، للويس غارديه الذي صدر قبل خمس سنوات عن دار هاشيت في باريس، والذي صدرت ترجمته قبل أشهر قليلة في دمشق.

فهذا الكتاب الذي أخرجه مؤلفه بعد أن تجاوز السبعين من العمر يعتبر خلاصة مكثفة لذلك التعاطي الذي أقامه رجل من الغرب خلال عقود مع الإسلام، يكمل من خلاله مؤلفه السابق «المدينة الإسلامية» الذي يعتبر بحد ذاته أحد الأعمال البارزة في الدراسات الإسلامية التي أخرجتها المدرسة الفرنسية.

ويمكن أن نعتبر «أهل الاسلام» للويس غارديه محاولة للتعرف إلى هذا الإسلام، والتعريف به لدى جمهور غربي أساء الفهم باستناده إلى معلومات ضئيلة أو بالية لم يسع إلى تجديدها. هذا ما يذكره المؤلف أكثر من مرة في سياق كتابه. كذلك فإن الغرب لم يتعرف إلى المسلم الكلاسيكي، بل إلى المسلم الذي صيرته وصنعته قرون الانحطاط، وهذا يبين لنا مدى الالتباسات البعيدة عن أن تكون بددت جميعاً، كما يقول المؤلف (ص ٣٠٢، ترجمة عربية). كذلك المسلم الراهن لا يجابه الإسلام الذي كان بل اسلام الانحطاط والتصلب وهو ما يحاول الابتعاد عنه.

ثمة رغبة إذاً عند المؤلف في التعرف إلى ذلك الاسلام عبر سيرورته التاريخية دون إهمال جانب من الجوانب خشية الوقوع في الخطأ أو إساءة التفسير، وخشية أن يفسر عمله بسوء القصد والنية.

من هنا يجهد غارديه الى تكوين صورة متكاملة تجمع الاجتماعي الى الفكري إذا جاز التعبير. فهنا جهد يبغي إلى تفهم فئات الشعب في المدينة، أو تكون التنظيمات الحرفية ليضعها ازاء تأويلات الأشعري أو اخفاقات المعتزلة السابقة لأجل استخراج المغزى المشترك، أو لتفهم تلك السيرورة الممتدة أربعة عشر قرناً عبر الزمن.


الزخرفة الاسلامية الرائعة في جامع «الجمعة» في اصفهان، ١٣١٠م

إنه جهد تركيبي لا يخلو من الصعوبة ولم يعدم التوفيق، الا ان عملاً كهذا، مثل كل الأعمال التركيبية، تكتنفه عاهة أساسية تتلخص في محاولة استخلاص جميع النتائج التي ينطوي عليها تاريخ ما، في عدد — مهما كثر — محدود من الصفحات.

ما هي العقلية الاسلامية، وهل بالامكان الحديث عن عقلية مشتركة ذات مميزات مشتركة؟ ذلك هو التساؤل الأول الذي يطرحه المؤلف الذي يبحث عن جذور هذه العقلية عند العرب قبل الاسلام في قوة الكلمة: «لنقل بقوة سحر الخطاب الذي لا يقتضى فيه أن يبتكر مواضيع جديدة قدر ما يقتضي أن يكرر أن يذكر المواضيع القديمة المستديمة.. وكأن هناك انعكاساً على الصعيد الثقافي لملكة الكلام السامية لقدرة التحقيق للكلمة الملفوظة» (ص ٢٨). وكذلك الأمر في خصال العرب، في أعظم المزايا تقديراً «الحلم» الذي يجهد المؤلف لايصال معناه إلى قراء الفرنسية، في التضامن أو «العصبية» كما في الضيافة..

لكن ماذا تمثل هذه القيم العربية (الجاهلية) بالنسبة للاسلام. ثمة انقطاع وثمة استمرار. ففي العهد الأموي سيبقى المجتمع قريباً من منابعه العربية مع إدانة أجزاء من هذا الماضي بتأثير تعاليم القرآن. لكن الموالي ممن أسلموا وتعربوا خلال فترات زمنية متفاوتة لم يشاركوا في الذهنية العربية الجاهلية، وحين تطبعوا بتلك السمات العربية فقد أضافوا اليها تأثيرهم الخاص فساهموا في تصميمها على نطاق واسع.. ان أحد أهم الأسباب التي أدت الى سقوط الأمويين عدم استيعابهم لهذا الشمول المحتوى في دعوة الاسلام (ص ٤٢).

ويتحدث المؤلف في جزء ثان عن الانسان المسلم وعن الأمة الاسلامية وعن الشعور القوي بروح الجماعة. وبهذه التساؤلات ينهي القسم الأول من الكتاب لينتقل إلى القسم الثاني فيأخذ البحث طابع الدراسة الاجتماعية ليتحدث عن ثلاثة أصناف أو ثلاث فئات: غير المسلمين — النساء — الرقيق. وعند الحديث عن غير المسلمين سيحشد المؤلف غارديه — وهو راهب كاثوليكي — الكثير من المادة التاريخية محاولاً الخروج بموقف موضوعي قدر الامكان ليخلص إلى ثلاثة استنتاجات:

١ — قناعة المسلم بحقيقة وأفضلية الاسلام.

٢ — تسامح خالص في عهود الأوج يضرب جذوره في «الحلم» البدوي.

٣ ــ الحذر من توحيد «الذميين» لمصالحهم مع مصالح الدول الاسلامية.

لكن ما يحتاج إلى نقاش هو قول غارديه بأن الذميين كانوا مواطنين من الدرجة الثانية. وعند الحديث عن وضع النساء سنجد بعض التفاوت بين ما تحدده الشريعة وبين السيرورة الاجتماعية التي أبرزت قواعد صارمة بحق النساء. أما الرقيق فقد حظي بحقوق لم تقرها القوانين الرومانية ويلاحظ: أن خليط العبيد البيض والسود حال دون الوقوع في تمييز عنصري طائش. لقد ظل العبد كائناً انسانياً مساوياً لكل انسان على صعيد أحكام الله (ص ١١٠).

ويكمل صورة الحياة المدينية حين يتحدث في فصل مستقل عن الأصناف أو الفئات الاجتماعية الغالبة أو العليا، فيشير إلى رجال الحكم: الأمراء والسلاطين المحليين الذين يحيطون أنفسهم بالموظفين والوزراء القادة.. ويستأجرون لحسابهم جنداً من المرتزقة (ص ١٢١) ثم يتحدث عن رجال العلم والأدب، وقد كان علم شؤون الدين محاطاً باحترام عظيم وبحرص أن لا يدخله زيف (ص ١٣١)، وعن الأغنياء كالملاك العقاريين والتجار ويلاحظ بشأن الآخرين: كان هؤلاء التجار الحديثو النعمة ينجحون دائماً في ارتياد القصر وتجعل ثرواتهم منهم شخصيات في البلاط والمدينة. (ص ١٤٩).

أما شعب المدينة فيشمل عالم الطلاب بجوامعه وجامعاته، وأصحاب الحرف والدكاكين: «كان الباعة والحرفيون موزعين في الأزقة الضيقة المسقوفة للأسواق والبازرات، مجمعين حسب المهنة: سوق الحدادين، والنجارين والحاكة والصاغة والعطارين. أما سوق الدباغين، فبسبب رائحة الجلود المحضرة والمعطنة، وصفة النجاسة الملصقة بها، كانت مقامة في مداخل المدن. بينما كان سوق الكتبية في جوار الجامع ــ الجامعات والمدارس. وهذا التوزيع للمهن المدنية لا يزال موجوداً الى اليوم في المدن أو الأحياء الباقية على الطراز القديم (ص ١٦٠).

لكن المهن ليست واحدة فثمة مهن نظيفة وأخرى دنسة أو وضيعة ومن بين المهن الوضيعة في المدن الاسلامية. كان السقاؤون والحمالون والحمارون المكرون للتجوال في المدينة أو المكلفون بإزالة الفضلات من الأزقة. لكن المؤلف لا يطيل الحديث عن هذا التمييز بين المهن وعن أصوله، على عكس روبير برونشفيك (R. Brunschvig) الذي يخصص دراسة مسهبة عن المهن الخسيسة في الاسلام وعن أصول الموقف منها، نجدها في:

(R. Brunschig: Etudes D'islamologie, tome per. Paris 1976).

أما الأصناف المهنية فنجد أن المؤلف يقف بين وجهتي نظر بخصوصه، وجهة نظر ماسينيون الذي يعتقد أنها وجدت منذ القرن العاشر ميلادي، ووجهة نظر كلود كامن الذي يشك بوجودها بشكل مستقل عن التنظيمات الحكومية. ويترك الأمور معلقة بهذا الخصوص ليتحدث عن وظيفة «المحتسب» في الرقابة على الأسواق.

وبين شعب المدينة سنجد المتسولين: ويمكن التحدث في مدن العصر الكلاسيكي عن نقابات متسولين ذات رتبويات وتنظيم (ص ١٧١) وثمة العيارون، وهذه الكلمة تحمل معنى التشرد وعدم الاستقرار إضافة إلى الحيلة والمهارة في التخلص والعيار هو الرجل الذي ليس له وضع اجتماعي. الذي يكافح ليعيش والذي يتدبر أموره بوسائل غير أخلاقية في الغالب (١٧٢).

انها صورة مختصرة ولكن ناجحة ينقلها غارديه لعالم المدينة الاسلامية، يكملها بالحديث عن شعب الأرياف حيث يمكن الحديث بقوة عن الأعراف والعادات وعن رؤساء القرى والأعيان والشخصيات المحترمة أو الدهاقين حسب التعبير الساساني وعن ثورات الفلاحين الكبرى حيث تلتقي النزعات الاجتماعية مع النزعات الشعوبية ضد الفاتح العربي. تلك الثورات كانت تلقى قبولاً لدى الفلاحين: لكن انبعاث قوة المذاهب السنية في القرن الحادي عشر، واعادة السنة التي أجراها صلاح الدين ضد فاطميي القاهرة انعكسا على الأرياف. واكتسبت حياة القرى صفة انسانية.. (١٨٧).

إذا كانت هذه هي صورة عالم المدينة، بل عالم الاسلام، فكيف كان ينظر المسلم الى الاخر؟ لقد أبدى عالم المسلمين رغبة مستمرة في الاطلاع والتعرف وقد يكون ذلك ناتجاً عن توسع التجارة،

كما أن السفارات والبعثات الدبلوماسية أو السياسية قد ساهمت في تصريف معرفة المسلم بعالم غير المسلمين، مما أوجد أدباً خاصاً بالرحلة والسفر. ويستخلص المؤلف كعادته ثلاث سمات بارزة بخصوص كتب السفر:

(أ) رصانتها وموضوعيتها وابتعادها عن السرد الرومانسي.

(ب) الحفاظ على الموضوعية مع الاهتمام بالغريب والخرافي.

(ج) الاصالة المستمرة الى قيم الاسلام كمعيار سليم، (ص ١٩٤).

القسم الثالث من الكتاب يخصصه المؤلف للحديث عن تشعبات الاسلام الى فرق ومذاهب، يقول: «صحيح أن الفرق ستتناحر، بعنف احياناً، وبالسيف غالباً. لكن باسم صفاء وحقيقة الاسلام، إذن باسم القرآن وتعاليم النبي والدين العتيق» (٢١٣). وبداية الانقسامات مبكرة ومعروفة وترد الى معركة صفين (٣٧هـ/٦٥٧م) حين كانت المواجهة، كما يلاحظ المؤلف، بين العرب أنفسهم. وضمن هذا القسم سيتناول في فصول مستقلة الخوارج ـ الشيعة ـ السنة والتصوف. لكن ما يمكن الاشارة هنا بخصوص هذا المبحث هو دراسة غارديه للمذاهب والفرق على ضوء التطورات الاجتماعية والعرقية، لا على ضوء الفكر والتأمل الفلسفي فقط. وتستدعي بعض التصنيفات مزيداً من التأمل أو إعادة النظر: ما علاقة البربر بالخوارج وما علاقة الفرس بالشيعة؟ ويبدي المؤلف تعاطفاً مع السنة في أكثر من مجال: «أهل السنة هم الذين لم يخرجوا في صفين. ومن الخطأ أن يرى فيهم أنصار معاوية مثلما الشيعة هم أنصار علي» (ص ٢٦٥) و: «ليس الانتماء الى هذا المذهب الخاص أو ذاك هو الذي سيجعل المسلم سنياً. بل هو روح الاعتدال والتزام الوسط، وبالتالي سعي دائم التجدد لتمثل قيم من المصادر الأشد تنوعاً. (ص ٢٧٤).

وفي الأقسام الثلاثة الأولى تحدث غارديه على التوالي عن المسلم وعالمه ومعتقده، أما القسم الرابع والأخير فيخصصه للحديث عن: الذهنيات الاسلامية في العهدين الحديث والمعاصر. ويعطيه ربع حجم الكتاب تقريباً.

ما هو زمن الاسلام، يخضع غارديه هذا الزمن الى توقيت ثلاثي. في الوقت الأول عرف الاسلام مجده من الدعوة وحتى القرن الثالث عشر. في الوقت الثاني: من القرنين الخامس عشر والسادس عشر الى نهاية القرن التاسع عشر. بعد قرنين (أو قرنين ونصف) انتصرت فيهما القوة العسكرية العثمانية كانت حقبة طويلة من الجمود ثم الانحطاط رغم نجاحات حقيقية محدودة ظهرت في ايران الصفوية وفي الامبراطورية المغولية. أما الوقت الثالث فيمتد: منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر تأكد عزم وجهد للتجديد، في البلاد العربية والمستعربة، لكن أيضاً في تركيا وايران والهند، ثم الباكستان وأندونسيا.. (ص ٣٠١).

لكن غارديه الذي يرى أن فهم المسلم الراهن لا يتم إلا بالعودة الى الماضي الكلاسيكي وكذلك عصور الانحطاط، لا يوافق الفكرة السائدة والتي تحمل العثمانيين الأتراك كل مسؤولية الانحطاط، رافضاً ما يستشم منها من تنافس عنصري. ويذكر بأن الترك كانوا موجودين في عالم الاسلام في عهود أوجه.. وأن النخبة والعسكر التركيين شاركا بقسط كبير في حياة العهود الثقافية المجيدة..

وفي القرن السادس عشر كانت القوة العثمانية في ذروتها ومستوى الحياة في الريف والمدن متماثل ضمن حدود الدولة العثمانية واوروبا. لكن الغرب كان في طريقه نحو التصنيع بينما كانت البلاد الاسلامية تتجمد في نمط حياة ليس الاسلام مسؤولاً عن جموده بالضرورة، لماذا؟

«لم تساير البلاد الاسلامية اوروبا في نهضتها الصناعية، بل ان نظام العقود الزراعية، أو الحرفية المدنية، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كانت تشتد صرامة، ففي ذلك الحين وضعت «دساتير» النقابات المهنية. وبعض نواميس الفتوة. وعكفت الذهنيات الغالبة على صيانة وحماية مكاسب الماضي، بينما كان يستفحل تأثير الطرق». واستقر أدب وأسلوب حياة وسلوك كاملين في كل لا يتجزأ، وامتزجت، في الواقع، أعراف محلية كثيرة بالأحكام القرآنية، وكأن هذه الأحكام رتبتها في فهم جديد.. (٣١١).

ومهد هذا الوضع الى تحول مبدأ الأمان

الممنوح لغير المسلمين الى امتيازات تجارية وحصانات شخصية، وهذه الامتيازات هي بذرة المطامح الاستعمارية. وأفسحت هذه المجال لادراك ضرورة التحديث أو ما يسمى بالتنظيمات، لكن هذه التدابير لم تكن نتيجة لحركة المجتمع الداخلية، بقدر ما كانت: البلاد الاسلامية تتخلى عن قيمها الثقافية الخاصة كيما تتتلمذ على اوروبا. (٣١٣) وبدأ الاستعمار يقضم بلاد الاسلام منذ القرن الثامن عشر ابتداء من الهند.

لكن حسب غارديه فان نهب بغداد على يد المغول وسقوط الأندلس حدثان مهدا لأزمنة الانحطاط. أما الاستعمار وبفعل الصدمة التي أحدثها في الوعي، فنقطة انطلاق إرادة عميقة وعنيدة للتجديد سواء على الصعيد الثقافي أو على الصعيدين السياسي والاقتصادي.

وبعد أن يتحدث عن خلفيات الانحطاط الاقتصادية والذهنية يشير الى اتجاهات التحديث ونزع الاستعمار. ويشير الى التيار التحديثي الذي شمل كل مناطق العالم الاسلامي.. ولم يخل الأمر من دعوات تفرنج وانتساب الى الحضارة الاوروبية. لكن هذا التقبل(غير المتروي) للغرب سينتهي في ما بعد أمام حركات أمتن تنظيماً. لكن التحديث لم يخفق كقيمة، فثمة مفكرون أمثال العروي وجعيط يرون أن التحديث هو شرط محو الاستعمار وهم يسعون لتوضيح ودمج قيم الماضي الاسلامية (ص ٣٥١).

ان البحث عن الأصالة واعادة الاعتبار للماضي، واعادة فهم بل التساؤل عن الماضي تشكل معاناة مقلقة.

وتبقى مشكلة الاختيارات: اسلام أصولي أم حداثة علمانية؟ لكن خارج هذا التساؤل او الاختيار فان حركة الواقع تنم عن وجهات لا مناص منها، من ذلك الانتقال الواسع لسكان المدن الى أنماط حياة جديدة. ومن ذلك أيضاً الصراع بين الأجيال، ومسألة تثقيف المرأة واعطائها دورها، والتغيرات على الصعيد العائلي.

ويلخص في الخاتمة: «ان الحركة الجدلية المزدوجة التي التقيناها طوال بحثنا هي جواب بذاتها: الوحدة ــ التنوع؟ الاتصال ــ القطع.هذه الوحدة التي لا تنفك تجدد تبني التنوعات، دون العمل مطلقاً على محوها، تبقى، عبر الأمصار والقرون، واقع الاسلام الخاص..» (٤٠٣).

يمكننا بعد هذا الاستعراض الذي يشمل بعض أبرز ما أثاره المؤلف في كتابه، ان نبدي بعض الملاحظات. فقد أراد لويس غارديه في كتابه ان يلخص الاسلام قدر الامكان. وقد نجح في تأليف عناصر متعددة لاخراج عمل يستطيع أن يعرف هذا الاسلام عبر التاريخ وعبر امتداده العالمي ونجد خصوصياته المرافقة له. وفي سبيل هذه الغاية اعتمد المؤلف على نتائج أبحاث العديد من الباحثين الاوروبيين والمسلمين والعرب. وقد أعطى اهتماماً متعادلاً لمراحل تاريخية متباعدة، فبقدر اهتمامه بالحقبة السابقة للاسلام اهتم بالأمويين والعباسيين والعثمانيين والمغول. وقد أصغى لاولئك الذين ملكوا التأثير قديماً وحديثاً. فأصغى للغزالي والأشعري وابن عربي وغيرهم. بمقدار اصغائه للافغاني أو كمال أتاتورك أو سيد أمير علي. وبالنسبة للخطة الراهنة فقد استطاع غارديه أن يتابع انتاج المسلمين الشباب الذين نشروا انتاجهم قبل سنة أو سنتين فقط من نشر غارديه لكتابه.

ان القارىء يمكنه أن يتعاطف مع هذا الكتاب بقدر البحث عن الامتاع والفائدة. لكن القارىء الذي يبحث عن قضية بذاتها أو مسألة بعينها فانه لن يجد ثمة الشيء الكثير. وبهذا المعنى فان القارىء قد يخرج بالانطباع التالي: لقد قرأنا لا شيء تقريباً عن كل شيء تقريباً. على عكس الكتب التي تقول كل شيء تقريباً عن لا شيء تقريباً.

كلمة أخيرة يمكن ذكرها حول الترجمة العربية للكتاب، التي قام بها صلاح الدين برمدا، وهي ترجمة مرضية جداً وممتعة أيضاً إذا ما قورنت بالترجمات التي تطالعنا في هذه الأيام، لكن كان على المؤلف أن يتحرى الدقة في نقلها لبعض الأسماء. فأسماء المفكرين المغربيين التي ينقلها على التوالي على هذا النحو:

لروي ــ أجايت ــ بوهديبة ــ لهباوي هي أسماء لـ: عبد الله العروي ــ وهشام جعيط ــ وبو حديبة ــ ولحبابي.

إلا أن هذه الهفوات لا تؤثر إلا قليلاً على السياق العام. ■

ظاهرة ولادة النجوم واحتضارها والنّجوم المتغيّرة والمزدوجة

الأستاذ نقولا شاهين

للنجوم كما للكائنات الحية دورات حياتية معينة، فهي تولد وتمر في ادوار حياتها من الطفولة الى سن البلوغ ثم تحتضر، وكثيراً مايكون ذلك بشكل مثير يولد الدهشة والروعة في مشاعر من يتابع ذلك التطور. وليست ولادة الانسان والحيوان والنبات اقل تعقيداً او غرابة من ولادة النجوم، ولا يزال علماء الفلك يستنبطون النظرية تلو الأخرى في محاولة للتوصل الى مايمكن اعتباره حلاً جذرياً لكيفية ولادة النجوم، وبالتالي لتمكينهم من المضي في محاولاتهم الرامية الى معرفة الكثير عن هذا الكون الشاسع الذي لا يعلم حدوده إلّا بارئه ومبدعه سبحانه.

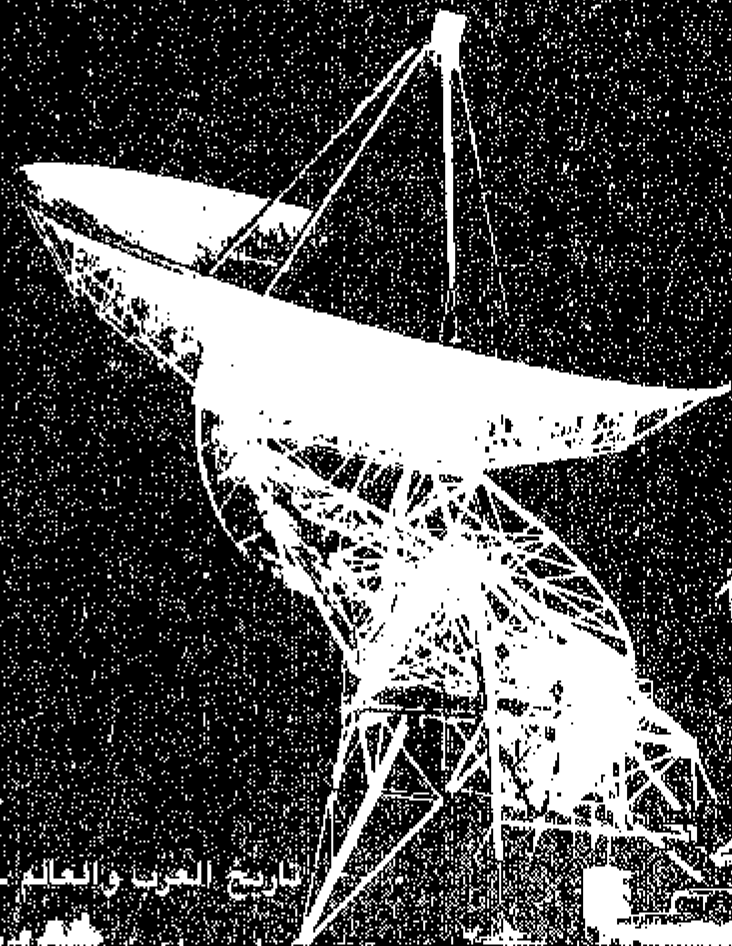
لقد عرف العلماء الكثير عن النجوم وعن ظواهرها الطبيعية في السنوات العشر الماضية، وذلك بفضل ابتكار مراقب حديثة من ضوئية وراديوية. لكن ظاهرة ولادة النجوم ظلت تتارجح بين آراء ونظريات متعددة مختلفة. ولم يكن من السهل ابداً لدى علماء الفيزياء والكيمياء وغيرهم من المتخصصين في العلوم التقدمية وضع صورة واضحة عما يجري في عالم المادة من تطورات وما يرافق الظواهر الطبيعية المختلفة من تغيرات، إلّا بعد نقاش طويل واختلاف في الرأي ففي عالم الحرارة وانتقالها من جسم الى آخر، وكذلك في القوى المغنطيسية وتأثيرها على بعض الأجسام، بالاضافة الى الشحنات الكهربائية في جسم ما وتأثيرها على جسم آخر دون ان يتلامس الجسمان، نجد ان نظريات علمية عديدة ساعدت على تفهم هذه الظواهر الطبيعية قبل ان يستقر الرأي على ما نعتبره اليوم تفسيراً وافياً.

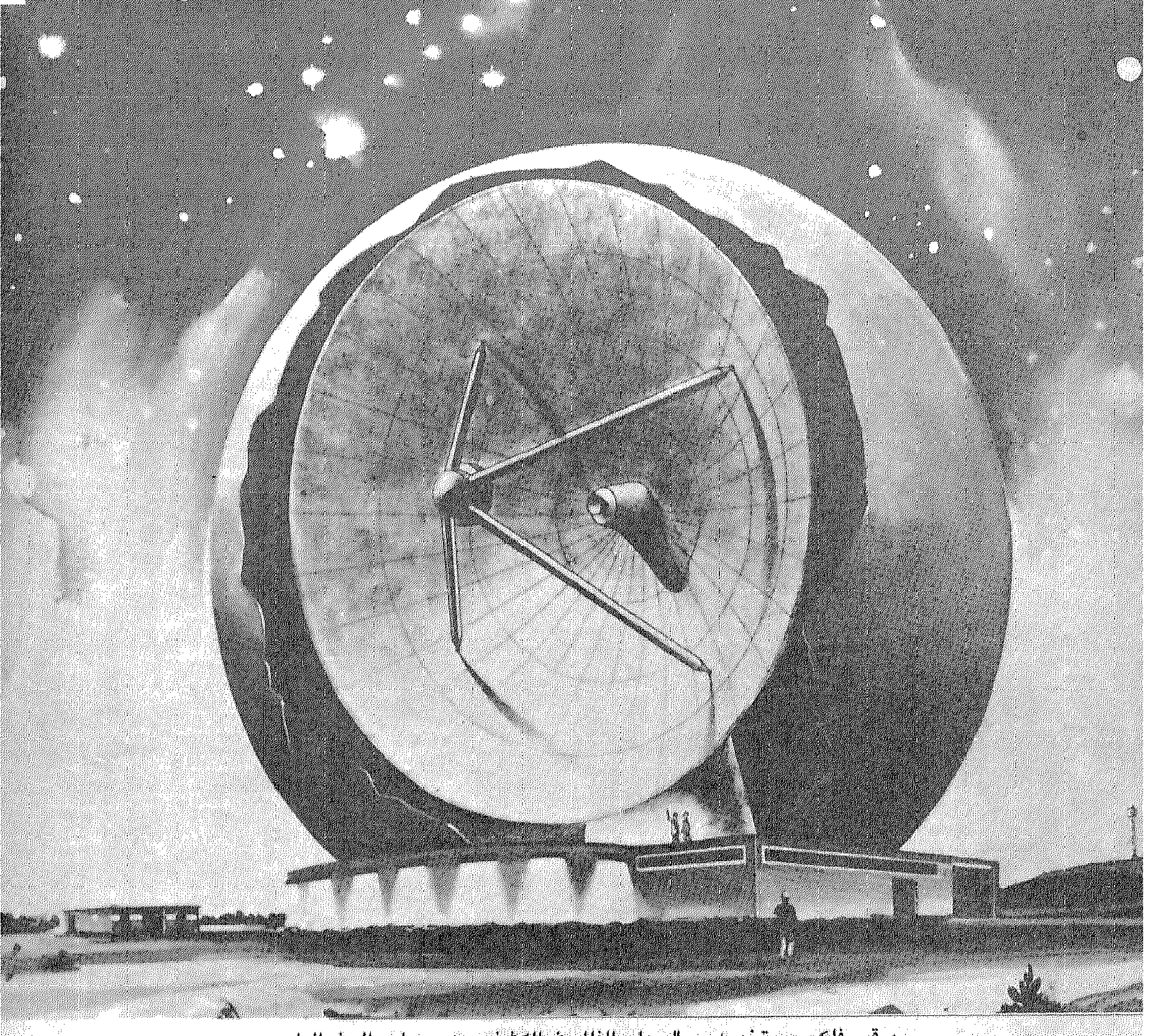
إن اختلافات الرأي في ظاهرة ولادة النجوم واحتضارها هو امر طبيعي، بالرغم من استنباط مراقب ضخمة قوية تقرب الأجسام البعيدة الى حد يساعد العلماء على رؤيتها وكأنها على بعد مئات الكيلومترات بينما هي في الواقع تكون على بعد ملايين الكيلومترات. وسنعرض فيما يلي الى بعض الآراء المختلفة بصدد اجرام سماوية مرت عليها بلايين السنين، تتفاعل في تكوينها عوامل ألفناها وعلى الأرض وفي المختبرات العلمية.

كيف تولد النجوم

بعد ابحاث وافية ودراسات مستفيضة توصل علماء الفلك الى نظرية كلاسيكية حول ظاهرة ولادة النجوم وما يرافق ذلك من تطورات. وقد تمكنت هذه النظرية من اماطة اللثام عن كثير من الغوامض العلمية، إلّا ان هناك اموراً اخرى بقيت دون تفسير. وبموجب هذه النظرية، يبدأ تكوين نجم عندما تفعل قوى الجاذبية في ذرات الايدروجين المنتشرة في الفضاء، الى درجة تجعلها تتجمع لتؤلف سحابة غازية. وبعد ان تصل الكثافة في القسم المضغوط الى الدرجة الحرجة، تتولد حرارة عالية فتندمج نوى الذرات لتنطلق مقادير هائلة من الطاقة على نمط ما يحدث عند انفجار قنبلة ايدروجينية.

واذا ألقينا نظرة على النجوم نجد ان كتلها تختلف كثيراً، فمنها ماتساوي كتلته جزءاً من مئة جزء من كتلة شمسنا، ومنها ماتبلغ كتلته كتلة مئة شمس. والنجوم التي تفوق كتلتها كتلة الشمس تحترق في مدة تساوي جزءاً من مليون جزء من عمر شمسنا.





مرقب فلكي يستخدمه رجال علم الفلك في الكشف عن مصادر البث الراديوي

إن اية سحابة من الغاز والغبار الكوني تعادل كتلتها كتلة الشمس تبدأ بالتقلص بفعل الجاذبية، وعندما تصبح هذه السحابة في حجم نظامنا الشمسي، فان حرارتها قد تصل الى ١٠٠٠ درجة مئوية، وينطلق منها إشعاع في نطاق ما هو دون الأحمر. ومع الازدياد في التقلص، يتبخر الغبار وتنحل الجزئيات الى ايونات، فيتولد بسبب ما استنفد من طاقة، نقص في ضغط الغاز، وهذا ما يزيد في سرعة التقلص. وفي اقل من سنة تصبح السحابة على شكل كرة لها حجم يساوي مئة ضعف حجم شمسنا، غير ان ظاهرة التقلص هذه تتوقف عندما يحدث توازن بين قوى الجاذبية من جهة والحرارة والضغط من جهة اخرى.

تبلغ حرارة سطح هذه الشمس نحو ٤٠٠٠ درجة مئوية، وهي ترسل نوراً أحمر ساطعاً واشراقاً قوياً يساوي مئة ضعف اشراق شمسنا الحالية، وتتابع تقلصها مع بقاء درجة حرارة سطحها ثابتة تقريباً، بينما ترتفع درجة حرارة باطنها. وبعد عشرين عاماً، تصل الحرارة الى ١٠ ملايين درجة مئوية، وعندها تبدأ البروتونات بالاندماج لتتحول الى نوى الهيليوم. وبفضل الحرارة المتولدة عن هذا التحول، تتوقف عملية التقلص، وتستقر الحرارة الباطنية عند ١٠ ملايين درجة. في هذه الأثناء، تنتقل الحرارة الى السطح بتحرك الغاز الحار وتستمر هذه العملية نحو ١٠٠ مليون سنة، وعندها تمر هذه الشمس في آخر مرحلة، لتنطلق مع نجوم اخرى

في احدى ذراعي المجرة، وتكون قد بلغت كامل نموها بحيث يبلغ قطرها نحو مليون ونصف مليون كيلومتر، وحرارتها حوالي ٦٠٠٠ درجة مئوية، كما هو معروف اليوم عن شمسنا.

هذا فيما يتعلق بتنسيق عملية ولادة نجم من النجوم كما تفرضه النظرية الكلاسيكية، متخذة قوة الجاذبية عاملاً اساسياً في تكتل الغاز والغبار في الفضاء الكوني. ولكن هناك نقطة ضعف في هذا الافتراض، إذ ان غاز الايدروجين في مجرتنا وربما في مجرات اخرى، رقيق للغاية، وان الجاذبية التي تلزم لتجمع جزئيات هذا الغاز على شكل سحابة، يجب ان تكون خمسة اضعاف الجاذبية المتيسرة، لذلك لجأ الفلكيون الى تفسيرات اخرى حول تكوين النجوم وولادتها.

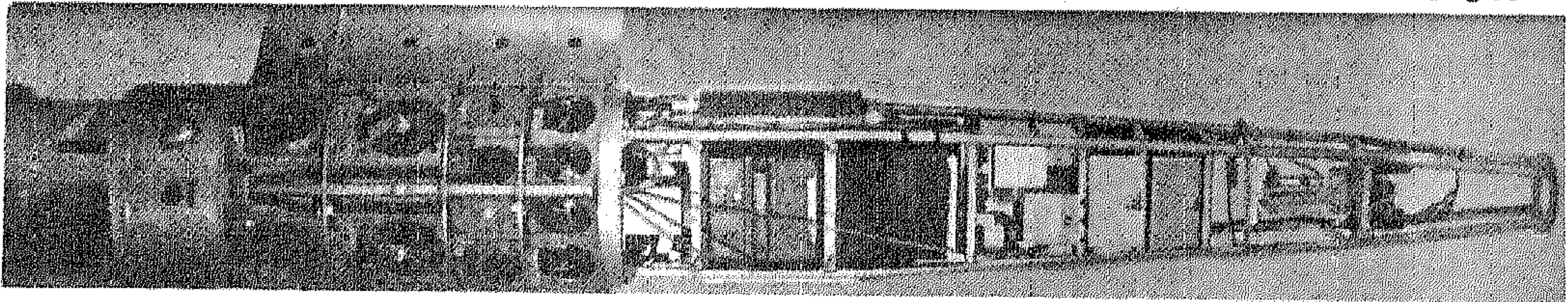
ففي عام ١٩٦٨، ظهرت نظرية جديدة في كيفية ولادة النجوم، قوامها دراسات في الأشعة الكونية وابحاث ترتكز على معلومات من اقمار اصطناعية وسوابر غاصت في الفضاء السحيق، لتكشف عن عمليات تجري في مجرتنا. وتقول هذه النظرية أن الأشعة الكونية وهي دقائق ذات طاقة عالية، تنطلق بسرعة تقرب من سرعة الضوء تقريباً، وتحدث اعوجاجاً في المجال المغنطيسي الذي ينتشر في المجرة. وبسبب الأشعة الكونية يتولد التواء في المجال المغنطيسي بحيث يبدو وكأنه قطعة من الأرض تتخللها وهاد عميقة ومرتفعات عالية. اما دقائق الغاز المشحونة بالكهرباء، فانها تتبع خطوط التنسيق المغنطيسي، فتجذبها قوة جاذبية المجرة وتنزلها من القمم المغنطيسية لتهبط الى اسفل الوهاد كما يهطل المطر على سفوح التلال منحدراً نحو الوادي. وعندما يتجمع عدد كاف من الدقائق ليؤلف سحابة من الغاز الكوني، تصبح قوة الجاذبية كافية لتكتل أجزاء هذه السحابة، ومن هنا تبدأ ظاهرة ولادة النجم. وهناك عدد كبير من الفلكيين يدعم هذه النظرية، لأن التجارب اثبتت صحتها. كما ان العمليات الحسابية بينت ان المسافة بين الوهاد في المجرة حيث يتجمع الغبار الكوني، تقارب من ٣٠٠ سنة ضوئية، وهذا يتفق مع المقاييس التي اجريت على المسافات بين سحب الغاز.

ظاهرة احتضار النجوم كنتيجة لنفاد وقودها وولادة الأقزام البيض

يتراوح عمر النجوم الحديثة ما بين عشرة ملايين وعشرين مليون سنة، ويرتفع هذا الرقم الى عشرين الف مليون سنة للمتقدمة في العمر. وعندما تبلغ هذه النجوم نصف عمرها، يحدث خطأ في الضوابط الحرارية الداخلية يجعل من المتعذر على نجم من النجوم الاستمرار في الاشراق بصورة منتظمة لتوليد ذرات ثقيلة. وعند ذلك تصبح النجوم التي ادركها الهرم في عداد ما يعرف بالأوساط الفلكية بـ «العمالقة الزرق». وهذه العمالقة، تتحول الى «العمالقة الحمر» ومن ثم الى «الأقزام البيض» وتبدأ ظاهرة التغيير هذه عندما ينخفض مقدار الايدروجين الذي يغذي النجم، وحينما يقترب النجم من الاضمحلال تحدث تغيرات في لونه واشراقه، ويحتمل ان يصبح نابضاً بصورة منتظمة.

فالأقزام البيض هي عبارة عن نجوم محتضرة غير مشرقة استهلكت وقودها النووي، واصبحت باردة لا نشاط فيها، شأنها في ذلك شأن بضع مئات من بين عشرات الوف النجوم في المناطق القريبة ضمن مجرتنا، مع العلم ان مجرتنا تحتوي على اكثر من ١٠٠ الف مليون نجم، ولكي ينتقل الضوء من طرف المجرة الى الطرف الآخر فانه يحتاج الى ١٠٠ الف سنة

صاروخ يحمل عداداً حساساً للأشعة السينية، اطلق عام ١٩٦٣، واكتشف بواسطته مصدران لهذه الأشعة



ضوئية. وقد تم اكتشاف اول قزم ابيض في عام ١٩١٥، وهو النجم المعروف بـ«رفيق الشعرى اليمانية» في صورة الكلب الأكبر. وهذا النجم تصعب رؤيته لأنه يعطي نوراً وحرارة من مقدار جزء من اربعمائة جزء مما ينطلق من الشمس، وفي الوقت نفسه، يتلاشى نوره تقريباً بسبب الاشراق الفائق المنبثق من رفيقه النجم المعروف بـ«الشعرى اليمانية». وقد تمكن الفلكيون بما لديهم من وسائل رصد ونواميس فلكية، من التوصل الى ان كتلة النجم «رفيق الشعرى» تعدل كتلة الشمس، وقطره يساوي جزءاً من ثلاثين جزءاً من قطرها، وكثافته تساوي ٢٠٠٠٠ ضعف كثافة الماء. وبعبارة اخرى يبلغ وزن السنتمتر المكعب من هذا القزم الأبيض ٢٠٠٠٠ غرام. اما سبب هذه الكثافة العالية فيعود الى تطاير الكهارب من ذرات النوى، والى قوة الجاذبية الداخلية بعد ان زال الضغط نحو الخارج الذي يعاكسها، وذلك بسبب نفاد الحرارة التي تولد هذا الضغط من الداخل بعد ان استهلك النجم وقوده، وبذلك تتجمع النوى في حيز ضيق جداً يساوي كسراً بسيطاً من حجم النجم الأصلي، وهذا هو السبب في ارتفاع الكثافة. وقد اكتشف الفلكيون اكثف قزم ابيض، تبلغ حرارة سطحه ٢٨٠٠٠ درجة مئوية، ومعدل كثافته نحو ٣٦ مليون ضعف كثافة الماء، اما كثافة باطنه فتساوي ١٠٠٠ مليون ضعف كثافة الماء.

يزداد اهتمام العلماء بهذا النوع من النجوم لكونها تساعد على فهم مسائل عديدة في علم الفيزياء الفلكية، وهي تؤلف بدورها نحو ٣ بالمئة من مجموع النجوم في مجرتنا. ولما كان اشراقها ضعيفاً جداً، فان الفلكيين لم يتمكنوا من الوقوف على معرفة تفاصيل اكثر من ٢٠٠ نجم منها. وقد كانت دراسة لونها والخطوط الظاهرة في اطيافها وسيلة لالقاء ضوء جديد على تحليل العناصر في النجوم الحديثة. ويعتقد علماء الفلك بأن بعض «الأقزام البيض» يحتوي على كمية عالية من الطاقة المغنطيسية. ويبنون اعتقادهم هذا على ان النجم الأصلي لا بد من ان يكون له مجال مغنطيسي ضعيف، فيتقلص هذا المجال اثناء انكماش كتلة النجم، وترتفع قوته الى درجة عالية، لكن احداً في الماضي لم يتمكن من اكتشاف مجال مغنطيسي في تلك النجوم. وفي عام ١٩٧٠ اكتشف عالمان من جامعة «اوريغون» الأميركية، «قزماً ابيض» في برج «التنين»، له مجال مغنطيسي لا تقل قوته عن ٢٠ مليون مرة قوة مجال الأرض، وهذا المجال هو اعلى قياس حصل عليه انسان حتى ذلك الوقت.

ويعد هذا الاكتشاف ذا اهمية كبيرة تتعدى نظرية «الأقزام البيض»، إذ ان الفلكيين كانوا قد اكتشفوا قبل ذلك بثلاث سنوات اجراماً سماوية اطلقوا عليها اسم «النوابض»، واتفقوا على انها نجوم نيوترونية، اي نجوم احتضرت وتقلصت بقوة هائلة، ثم تحولت الى كرة من النيوترونات لا يزيد قطرها على ١٦ كيلومترا. وباكتشاف مغنطيسية «الأقزام البيض»، اصبح لدى الفلكيين جهاز جديد يمكنهم من إثبات رأيهم في النوابض التي اعتبروها اجراماً نيوترونية اشد كثافة حتى من كثافة «الأقزام البيض». فاذا صح هذا فانه يمكن القول بوجود مجالات مغنطيسية سماوية اقوى من المجالات الموجودة حول «الأقزام البيض».

ظاهرة احتضار النجوم بسبب انفجار قوي

هناك بين الفلكيين من يقول ان احتضار نجم ما يتأتى عن انفجار قوي بسبب اصطدامه بنجم آخر. فمن وقت الى آخر يظهر في السماء ما يبدو وكأنه نجم لامع، يطلق عليه عادة اسم نجم جديد، لكنه ليس نجماً جديداً في الواقع، بل يبدو كشيء جديد في كبد السماء، لأن الانفجار مع ما يرافقه من تأجج وتوهج، يملأ الفضاء المحيط به باشعاعه الذي يرافق الاحتضار. ويحتمل جداً ان يكون ما اعتبروه نجماً جديداً، نجماً قديماً لا غير، يدفع بمادته في الفضاء على شكل غاز نجمي، تاركاً وراءه هيكله الذي يعتبر قزماً ابيض. وتحدث هذه الظاهرة احياناً مرة خلال بضع مئات السنين حيث يحدث انفجار عنيف في نجم تابع لاحدى المجرات، فيحدث ما يدعى نجماً جديداً جباراً «Supernova» فيزداد اشراق النجم نحو



منطقة سديمية غنية بالنجوم المتغيرة

١٠٠ مليون مرة، وينتج عن هذا الوميض او الوهج نور يفوق ما يصدر عن جميع ملايين النجوم التي تتألف منها المجرة.

يوجد في مجرتنا سديم السرطان وهو سحابة كبيرة من الغاز، تحتوي على بقايا نجم انفجر عام ١٠٥٤م. وقد ورد ذكره في سجلات الفلكيين الصينيين. وقد اكتشف العلماء حديثاً احد النوابض في هذا السديم يدور حول نفسه، ويعتقد انه نجم نيوتروني ذوكثافة عالية تولد نتيجة الانفجار، ولم يحصل اي انفجار لجائحة سماوية في مجرتنا منذ نحو ٣٥٠ سنة، كما لم يشاهد احد جائحة في عام ١٨٨٥ في مجرات اخرى، عندما اصبحت المراقب متمكنة من الكشف عن مثل هذه الأمور الطبيعية. .

وقد تبين من مخطوطة بالعربية وجدت في مكتبة «الاسكوريال» في اسبانيا، ان طالباً عربياً يدعى «علي بن رضوان» كان يسكن في الفسطاط مركز القاهرة القديم، كشف عن حدوث نجم جبار جديد في برج العقرب عام ١٠٠٦ ميلادي، وذلك قبل وفاته بخمس وخمسين سنة. وقد وصف الطالب العربي هذا النجم بأنه مستدير الشكل يبلغ حجمه ثلاثة اضعاف حجم كوكب الزهرة، ويرسل اشراقاً يعادل ربع إشراق القمر. وقد تتبع مترجم المخطوطة والمشرف عليها وهو استاذ في جامعة «ييل» الأميركية دراسة ما يتعلق بهذه المعلومات فوجد ان ذكر هذا النجم الجديد قد ورد في السجلات الصينية والسويسرية، لكن التفاصيل التي اوردها الطالب «علي بن رضوان» كانت ادق واشمل.

وفي شهر اكتوبر عام ١٩٧٢، قامت مراصد الفلك الأميركية بتحليل مفصل لنجم جبار تعرض لانفجار مريع منذ ١٠ ملايين سنة. اما علائم نهاية هذا النجم فقد وصلت الى الأرض في شهر مايو من السنة نفسها بعد ان انتقلت من احدى المجرات الشاسعة البعد بسرعة الضوء اي ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية، وذلك عندما ظهرت عبر مرقب «بالومار» في كاليفورنيا، وكان ذلك الانفجار المع ما اكتشف من هذا القبيل خلال ٣٥ سنة، وواحداً من المع اربعة انفجارات سجلت لمدة طويلة تصلح ان تكون اساساً لدراسة علمية.

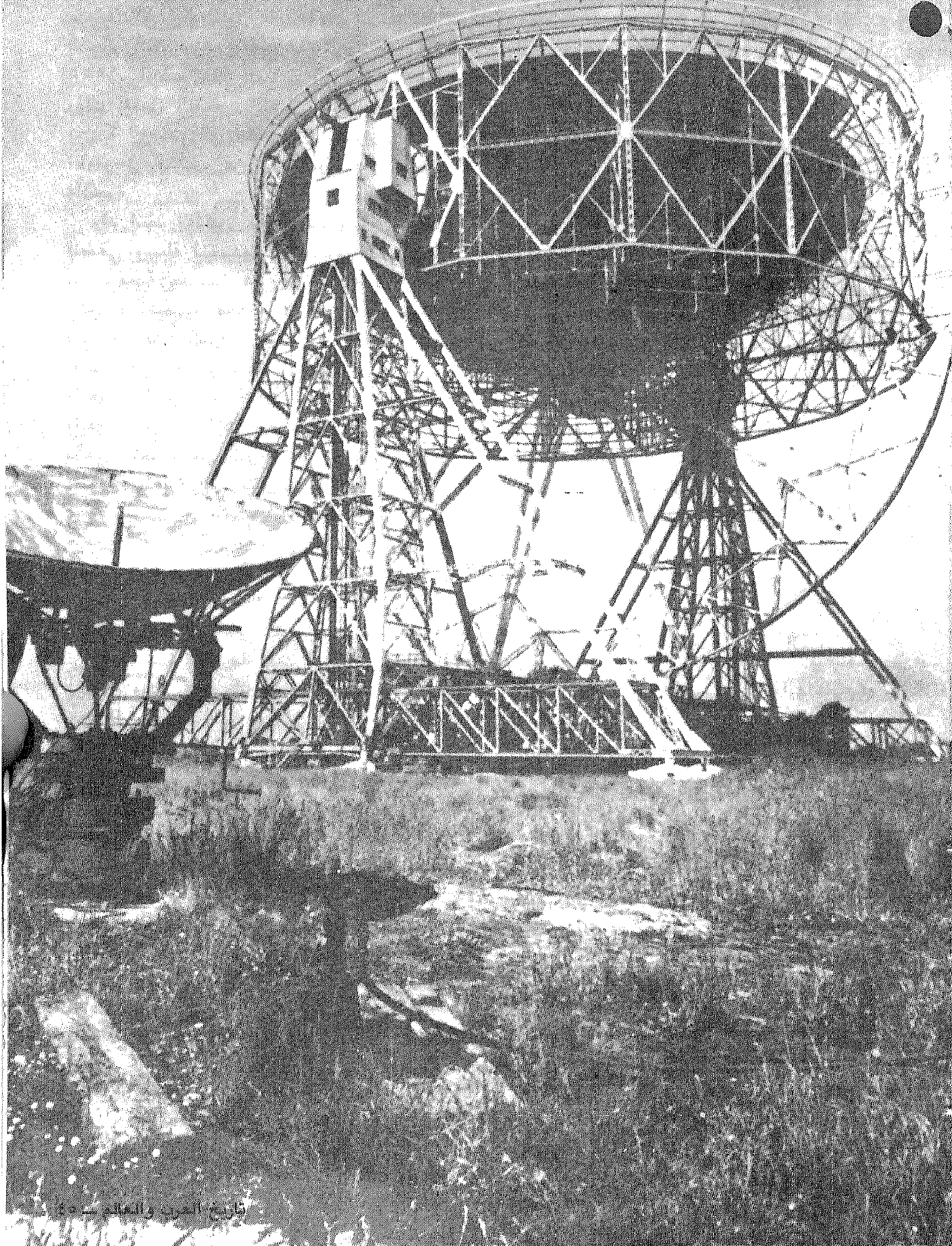
منذ تلك الليلة، انكب علماء الفلك على تصوير سحابة بقايا هذا الانفجار النجمي، وحاولوا ان يسجلوا طيفاً واسعاً لطاقة الاشعاع كمدخل لمعرفة التركيب الكيميائي للانفجار النجمي. وقد ضموا الى وسائلهم مركبتين فضائيتين ومراقب راديوية وصواريخ ومناطيد ترتفع الى ابعاد فائقة. وهذه الدراسات سوف تستغرق سنوات عديدة، ستتمكن بعدها من الاجابة عن اسئلة كونية عديدة، منها ما يحصل للنجم عند احتضاره او تقلصه، وما هو التركيب الكيميائي لما يقذفه من بقايا انفجاره، تلك البقايا التي تؤلف مادة لتكوين مجموعة جديدة من النجوم والكواكب السيارة. كما يأمل علماء الفلك، عن طريق هذه الدراسات ان يتوصلوا الى معرفة ما اذا كان بالامكان اتخاذ مثل هذه الانفجارات النجمية مقياساً لاتساع الكون.

وقد جاء في الأخبار العلمية السوفياتية ان الشابة «غالينا زايتسيفا» قد اكتشفت نجماً متوهجاً جديداً، سيكون ذا فائدة كبرى بالنسبة لعلماء الفلك. وتعتبر توهجات هذا النجم من اروع الظواهر التي يقوم برصدها الفلكيون. ويبث هذا النجم خلال توهجه الأقصى طاقة تفوق اية طاقة ناجمة عن النظام النجمي الذي يتوهج فيه، اي اكثر مما تبثه عشرات البلايين من النجوم. ويرى الفلكيون ان هذه التوهجات الشديدة انما هي مصدر الأشعة الكونية، بينما يبث السديم الذي ينشأ ويمتد بعد هذه التوهجات الاشعاع الشعاعي القوي. وهكذا تستمر الأبحاث العلمية حول هذا النجم، املاً في إحراز مزيد من النتائج التي تساعد في فهم ظاهرة اشراق هذه النجوم النادرة.

المتغيرات القيفاوية

ومن الظواهر العلمية المعروفة عن النجوم ان شدة التوهج المنبثق عنها تتفاوت بين مجموعة واخرى، فهناك نجوم يشتد وهج نورها احياناً ويتضاءل احياناً اخرى بصورة منتظمة، وقد اطلق على هذه المجموعة اسم «المتغيرات القيفاوية»، لأن اول نجم متغير عرف كان في برج قيفاوس. وقد ورد ذكر اول نجم متغير في

مرقب راديوي يستخدم في دراسة ظواهر النجوم والمجرات التي تشكل مصدراً للبث الراديوي



عام ١٥٩٦، والثاني في عام ١٦٧٢، والثالث في عام ١٧٨٤. ومع حلول عام ١٩١٥ اصبح عدد النجوم المتغيرة المعروفة ١٦٨٧ نجماً. وفي عام ١٩٥٥، ارتفع هذا العدد الى ١٣٧٤٥ نجماً وذلك بفضل التقدم والاتقان اللذين طرآ على اجهزة الرصد. هذا وقد كان للتصوير القسط الأوفر في الكشف عن هذا النوع من النجوم المتغيرة.

وقد اتخذ الفلكيون تغير الاشراق او الشذوذ الطيفي وسيلة لتحديد النجوم الحديثة او القديمة حسبما هو متفق عليه في نشوء الأجرام السماوية. فجميع النجوم القديمة جبارة كما ان عدداً كبيراً من النجوم المتغيرة هي ايضاً نجوم جبارة. ويمكننا القول بأن النجوم المتغيرة تشكل ٣ بالمئة من النجوم التي ترى بالعين المجردة. ولما كان معظم النجوم التي ترى بالعين المجردة من النوع الجبار، اصبح عدد النجوم المتغيرة اقل بكثير من ٣ بالمئة، وبعبارة اخرى يوجد بين كل مليون نجم، نجم واحد متغير.

ومن النجوم المتغيرة «الغول» الواقع في برج «فرساوس»، وهو في الغالب من القدر الثاني، ويتضاءل وهجه تدريجياً حتى يصبح من القدر الرابع في مدة مقدارها ثلاث ساعات ونصف الساعة، ويبقى على حاله هذه نحو ٢٠ دقيقة ثم يعود الى القدر الثاني في ثلاث ساعات ونصف الساعة ويبقى هكذا مدة معينة ثم يتضاءل نوره على النسق المذكور. وهناك نجم متغير يقع في برج «قيفاوس»، وهو نجم مزدوج، احدهما اصفر اللون والآخر ازرق سماوي، وفترة تغير كل منهما دقيقة ومنتظمة. وقد اجريت دراسات مفصلة للفئات المختلفة من النجوم المتغيرة، فنسب الفلكيون ما يحدث من تغير في اقدارها واحجامها وحرارتها واطيافها، سواء اكان ذلك بصورة منتظمة ام غير منتظمة، نسبوه الى تغيرات طبيعية تحدث في النجوم نفسها. وقد نسب بعضهم رؤية النجوم المتغيرة الى ظاهرة دورانها على محاورها، وان جانباً منها اقل نوراً من الجانب الآخر، واحياناً يتوسط جرم مظلم بيننا وبينها، وان لها جواً هوائياً وابخرة تحجب بعض نورها عنا احياناً. وقد رصدت هذه النجوم رصداً دقيقاً، نظراً لما تشكله من اهمية كبيرة في قياس الأبعاد الكونية الشاسعة.

وهناك نجوم وقتية تظهر مدة وجيزة لا تلبث ان تزول، منها واحد رصده «تيخوبراهي» في الفترة الواقعة بين نوفمبر عام ١٥٧٢م ومايو عام ١٥٧٤م، اي ١٧ شهراً، وقد فاق «الشعرى» و«الزهرة» لمعاناً، وظهر في النهار وانقلب بين ابيض واصفر واحمر ثم ابيض ثانية. وفي سنة ١٦٠٤م، ظهر نجم لامع مثل «الزهرة» في برج الحواء مدة ١٥ شهراً واتى على ذكره «كيبلر». وفي سنة ١٦٧٠م ظهر نجم لامع من القدر الثالث في برج «الدجاجة» وبقي مدة سنتين ثم تضاءل نوره تدريجياً حتى تلاشى تماماً...

وقد تأثر ابو العلاء المعري بما كان يسمعه عن النجوم المتغيرة، وظهورها بألوان مختلفة واشراقات ترفعها من قدر الى قدر، فأعطانا صورة شعرية جميلة لا تقل رونقاً عما نشاهده فعلاً بالعين المجردة، وذلك عندما قال:

رب ليل كأنه الصبح في الحسن
وان كان اسود الطيلسان
قد ركضنا فيه الى اللهو لما
وقف النجم وقفة الحيران
ليلتي هذه عروس من الزنج
عليها قلائد من جمان
هرب النوم عن جفوني فيها
هرب الأمن عن فؤاد الجبان
وكأن الهلال يهوى الثريا
فهما للوداع معتنقان
وسهيل كوجنة الحب في اللون
وقلب المحب في الخفقان
يسرع اللمح في احمرار كما تسرع
في اللمح مقلة الغضبان
ضرجته دما سيوف الأعادي
فبكت رحمة له الشعريان
ثم شاب الدجى وخف من الهجر
فغطى المشيب بالزعفران

اما الشعريان فهما «الشعرى اليمانية» او «الشعرى العبور» و«الشعرى الشامية» او «الغميضاء». ويعتبر الشعرى اليمانية اكثر

النجوم لمعاناً في صورة الكلب الأكبر، والشعرى الشامية في صورة الكلب الأصغر، وقد قيل ان «سهيلاً» تزوج بـ «الجوزاء» وكسر ظهرها فهرب نحو الجنوب خوفاً من ان يطالب بكسر الجوزاء. والشعريان هما اختاه. فعبرت «شعرى العبور» المجرة الى «سهيل» وبقيت «الشعرى الشامية» او «الغميضاء» في الشمال فبكت على «سهيل» واغمضت عيناها.

النجوم المزدوجة

لا شك في ان التقدم الذي طرأ على وسائل الرصد قد ساعد في كشف كثير من الظواهر العلمية في عالم الفلك، منها النجوم المزدوجة او المتعددة، اذ ان النجوم جميعها تظهر منفردة للعين المجردة، لكن اجهزة الرصد اثبتت خلاف ذلك. ولما شرع «وليم هرشل» عام ١٧٨٠م يبحث عن نجوم مزدوجة بواسطة نظارته الكبيرة، تبين له منها اربعة نجوم لا غير، لكنه كشف عن ٥٠٠ نجم مزدوج خلال مدة وجيزة، وعين مواقعها وسجلها. بعد ذلك كشف «يوحنا هرشل» وزميل له عن نجوم كثيرة من هذا النوع فبلغ عدد النجوم المعروفة منها ٦٠٠٠ نجم، بعضها يظهر من خلال المراقب التقليدية، والبعض الآخر لا يرى مزدوجاً إلا باستخدام المراقب الضخمة.

واذا وقع نجمان على استقامة واحدة، فانهما يبدوان للنظر نجماً واحداً مزدوجاً بالرغم من وجود مسافة تفصل بينهما او اي تعلق بينهما على الاطلاق. وليس ذلك النجم بمزدوج حقيقي، بل سمي مزدوجاً بصرياً. اما اذا كان بين النجمين علاقة، بحيث يدور الواحد حول الآخر، فهو نجم مزدوج حقيقي، وهذا النوع من النجوم يسمى ثنائياً. ومن هذه النجوم الثنائية واحد في صورة التوأم ومدته ٢٥٢,٦ سنة، وواحد في صورة الأسد ومدته ١٢٠٠ سنة، وواحد في صورة السنبلة ومدته ١٨٢,١ سنة. هذا وفي ذنب الدب الأكبر ثلاثة نجوم كبيرة تسمي العرب النجم الأوسط منها «ألعناق» وتقول ان فوقه نجماً صغيراً ملاصقاً له تسميه «السهى» وقد ورد ذكره في المثل «أريها السهى فتريني القمر». وقد يكون احد النجمين نجماً مزدوجاً، فتصبح تسمية النجم المزدوج غير صحيحة، فيطلق اسم النجوم المتعددة على ما زاد على نجمين، مرتبط احدهما بالآخر.

وقد ثبت علمياً ان نجم القطب مؤلف من ثلاثة نجوم يدور بعضها حول بعض، وهناك من النجوم ما هو رباعي او سداسي او سباعي. وفي كثير من النجوم الثنائية او المزدوجة يختلف لون النجم الواحد عن لون الآخر، وكثيراً ما يكون لون الواحد متمماً للون الآخر. وغالباً ما يكون لون اكبرهما احمر او برتقالياً اما الأصغر فأزرق او اخضر.

وفي نطاق بحثنا هذا في النجوم المزدوجة من ثنائية وغيرها، يرى الفلكيون انه لا بد من ان يكون في مجرتنا كواكب سيارة تدور حول نجم ما، كما هي الحال في نظامنا الشمسي ولم تثنهم الصعوبات التي تعترضهم، عن مشاهدة كواكب سيارة مظلمة صغيرة على مسافات بعيدة جداً. وقد بدأ الفلكي الشهير «بيتر كامب» منذ نحو ٣٠ سنة، يبحث عن رفاق لنجوم تعتبر قريبة نسبياً من الأرض. وقد توصل هذا العالم في عام ١٩٦٣م بعد دراسة طويلة، الى ان نجم «برنارد» يحظى بكوكبين يدوران حوله، على بعد ٥٠ بليون بليون كيلومتر من الأرض، في برج «الحواء». وقد تم ذلك بطريقة فلكية كلاسيكية تقوم على الاضطرابات التي تحدث في مسار جرم سماوي، والتي تحدث عادة بقوة جذب من رفيق نجمي مظلم غير منظور وكان علماء الفلك قد اكتشفوا بهذه الطريقة في عام ١٨٤٤، ان «الشعرى اليمانية» لها رفيق لا يرى بسبب ضعف نوره. ومن دراسة بعض الصور تبين لهذا العالم الفلكي ان نجم «برنارد» له كوكبان يدوران حوله، وان هناك احتمالاً كبيراً بوجود انظمة شمسية اخرى غير نظامنا الشمسي. ■

•■■■•

● من يدري؟ ربما كانت الحياة قد انقرضت في الكواكب الأخرى، لأن علماءها كانوا أكثر منا تقدما.. فنشبت فيها حرب ذرية منذ آلاف السنين!

(جون كنيدي)

صورة المرأة في



قيبكه فالتر

ألف ليلة وليلة

إعص النساء فتلك الطاعةُ الحسنة   فلن يفوز فتىً يُعطي النسا رَسَنَه
يَعقْنَ كل كمالٍ عن فضائله   ولو سَعى طالباً للعلم ألفَ سَنَه
إنّ النساء شياطينٌ خُلقن لنا   أعوذ بالله من كيد الشياطين
ومن بهنّ رماه العشقُ مُبتلياً   قد ضيّع الحَزمَ في دنيا وفي دين



وردت هاتان القطعتان من الشعر في حكايتين مصريتين متأخرتين من حكايات ألف ليلة وليلة. ويكاد أول أبيات القطعة الثانية أن يطابق معناه قولاً للأديب البافاري وأمين البلاط Aegidius Albertinus) (الذي عاش من ١٥٦٠ إلى ١٦٢٠). يقول ألبرتينس: «المرأة آلة وأداة طيّعة في يد الشيطان؛ بها جلب الى العالم كل الشرور والآثام، وبها جعل كثيراً من عقلاء الرجال وأتقيائهم مجانين فاسقين، إنها لئيمة وضيعة، ولذا فهي تتبع وحي الشيطان، وتقترن نفسها بارادته، وتحرّك العُزّاب إلى الشهوة والشبَق..» الخ[١].

وكما نستطيع أن نضم إلى أقوال هذا الأديب البافاري، الذي يمثل المناهضين لحركة الاصلاح الديني، كثيراً من الآراء المشابهة التي صرح بها معاصروه حول «المرأة الشريرة المتقلبة»، فاننا نستطيع أيضاً في يُسر أن نجمع من ألف ليلة طائفة من الأحكام المعادية للمرأة. ففيها يرد ذكر «غفلة النساء وسخافة عقولهن وسوء تدبيرهن (٣/٧/١٦٢). بل نُسب فيها الى الامام علي أنه أوصى المسلمين قائلاً: «إتّقوا أشرار النساء وكونوا منهن على حذر ولا تشاوروهن في أمر ولا تُضيّقوا عليهن في معروف حتى لا يطمعن في المكر» (١/٤٣١).

وجاء في حكاية أنه لا تُقرأ قصة من القصص إلّا «عند الأمراء والملوك والوزراء وأهل المعرفة من المفسرين وغيرهم».

ولكن لا تجوز روايتها على قارعة الطريق أو بمحضر النساء، والجواري والعبيد والسفهاء والصبيان (٣/٥٩٤). وهذا يعني أنه كان ثمة تصور لأفراد الصفوة الممتازة في المجتمع، وإن المرأة قد استبعدت من هذه الصفوة أصلاً.

ونظراً إلى أن مجموعة ألف ليلة وليلة ــ شأنها في ذلك شأن حكايات الأخوين جرم في المانيا ــ لا يعرفها كثير من الناس إلا في طبعات مختصرة أو مهذّبة، فان عامة القراء لا يعرفون تلك الأقوال المشار اليها آنفاً بقدر معرفتهم لشخصية شهرزاد الحكيمة، التي تنتصر بحلو حديثها وسحر حكاياتها على ما يُضمره الملك شهريار من عداوة للنساء بلغت حد المرض العُضال.

ومما يروى عن الوزير البرمكي الحسن بن سهل أنه، قال ما معناه أن البراعة والتفنن في قص الحكايات ليست مجرد واحدة من فضائل الأدب والتربية في قصر الخليفة، وانما هي رأس فضائل الأدب[٢]. فلم يكن بد اذن من اجادة فن الحكاية واحكامه لمن شاء أن يُقلّد المناصب العالية في قصور الخلفاء[٣]. ونحن ندين للأدب الشعبي بأنه بيّن لنا أن من النساء أيضاً من برعن غاية البراعة في هذا الفن.

ومن المعلوم اليوم أن القصة الخارجية في ألف ليلة وليلة، أعني بذلك قصة شهرزاد وشهريار، هي من أصل هندي. إن ألف ليلة وليلة مجموعة من عناصر مختلفة ومركّبة من طبقات متعددة على بعضها بعضاً ــ شأنها في ذلك شأن الثقافة العربية الإسلامية اجمالاً في العصور الوسطى ــ ولذلك فان هذه المجموعة ليست خلواً من المتناقضات. لقد أثرت فيها طائفة من أقطار الشرق الأدنى، هي الهند وفارس والعراق والشام ومصر وتركيا. ويتبين الخبير ذلك من خلال الأسماء التي ترد فيها. والرباط الذي يجمع بين كل هذه العناصر هو اللغة العربية، التي رويت لنا فيها هذه الحكايات، ثم ما سمّاه أنُولتمن ــ أشهر مترجمي هذه المجموعة الى الألمانية ــ «بالصيغة الإسلامية» من حمد الله «العلي القدير»،

والاشارة الى قضاء أو قدر محتوم لا مفر للانسان منه.

وتخبرنا مصادر عربية ترجع الى القرن العاشر للميلاد، أولها «مروج الذهب» للمسعودي، ومن بعده بعدة عقود «الفهرست» لابن النديم، أنه عُرفت[٤] حوالي ذلك الوقت في بغداد مجموعة حكايات فارسية الأصل، اسمها «هزار أفسانه» أي «ألف حكاية». وهي تشتمل على جزء من القصة الخارجية؛ وخلاصتها أن ابنة أحد الملوك، واسمها شهرزاد، قد حالت ببراعتها في رواية الحكايات بين زوجها الملك وبين قتلها بعد ليلة الزفاف، وهو ما جرت به عادته حتى ذلك الحين مع كل امرأة تزوجها. وفي ترفّع العالم المُنقطع واللغوي الجامد، يُصدر حُكمه فاتراً على المجموعة، فيقول: «وقد رأيته بتمامه دفعات وهو بالحقيقة كتاب نمث بارد الحديث»[٥].

غير أن حكمه هذا تفسره روح عصره. فقد كان ابن النديم ومعاصروه ومن خلفهم يقفون موقف الشك مما ينتجه الخيال الجامح، لا سيما إذا لم يكن مصوغاً في القالب اللغوي الفصيح ولغة الأدب العالية المحكمة. لقد كان على الأدب أن يُمتع الصفوة المثقفة ويوسّع من آفاقها، وذلك عن طريق الفن اللغوي أولاً، والاقتادر على استعمال التقاليد المأثورة وحذق الأساليب. أما الأدب الشعبي فكان مقصوراً على طبقات من الناس، كان يُنظر اليهم في شيء من استخفاف.

سبب التسمية:

ومن المؤكد أن العدد «ألف» في تسمية هذه المجموعة المشار اليها، قد قُصد به أولاً الاشارة الى طائفة كبيرة تفوق العدّ ولم يُقصد به معناه الحرفي. وفي عصر لاحق تطور عنه العنوان العربي «ألف ليلة وليلة»، ولعل السر في زيادة «ليلة» على الألف هو نوع من التطيرّ أو الخوف من العدد المُقفل. وقد يحتمل أيضاً أن يكون العدد «ألف وواحد» في هذه التسمية من تأثير اللغة التركية التي نلمح آثارها في بلدان الخلافة ابتداء من القرن الخامس الهجري وبيان ذلك أن العدد «ألف وواحد» في التركية [بن بر]، وفيه جناس استهلالي، يُفيد مجازاً كثرة العدد، أو المبالغة في الكمية. على أن الناس قد أخذوا من بعد يتمسكون بالمدلول الحرفي لهذا العدد. وفي ذلك العهد كانت مجموعة «ألف حكاية» الفارسية قد حُشيت بحكايات بغدادية، ثم أضيفت اليها من بعد حكايات قاهرية. والمجموعة معروفة هنا في القرن الثاني عشر للميلاد. ويظهر للوهلة الأولى أنه قد أدخلت اليها في القاهرة حكايات طريفة عن الخليفة هارون الرشيد.

نقلها الى الغرب:

ولم تعرف حكايات ألف ليلة وليلة نفسَها الطريق الى القارىء الأوروبي، الا بعد أن أصدر العلامة الفرنسي الذي زار الشرق (François Galland) (١٦٤٦ ــ ١٧١٥) ترجمة لها لأول مرة في لغة أوروبية؛ فأثارت في الأذهان بروعتها وبهجتها صور الكنوز المتألقة بجواهرها، والحوريات الحسان، وعفاريت الجن ببشاعة صورهم وان لم يكونوا دائماً أشراراً، وعجائب المصنوعات السحرية التي تُبدّل من عُسر الحياة يُسراً، مثل بساط الريح، والحصان الطائر، والمصباح السحري. ونسجت في خيال القارىء المبهور صورةً بديعةً للشرق. الا أننا نعلم منذ أبحاث (Nöldeke) و(Östrup) وفي المقام الأول (Enno Littmann) أن هذه المجموعة لا تشتمل على حكايات فحسب، وانما تضم كذلك روايات عن العشق والفرسان والشطّار، وأقاصيص، وخرافات، وأساطير ومُلح وطرائف. وليست الحدود بين هذه الأنواع قائمة ولا واضحة أحياناً.

اهتمام أوروبي:

ونعثر في أوروبا على آثار للقصة الخارجية لألف ليلة في قصة من عصر النهضة في ايطاليا، يرتقي تاريخها الى حوالي عام ١٤٠٠ للميلاد. على أن النصر الذي أحرزته هذه المجموعة بين الآداب الأوروبية يرجع الفضل فيه الى ترجمة (Galland)، إذ كان قصاصاً مطبوعاً وعبقرياً في إعادة الأداء مع إحساس دقيق بما كان يهواه قراء ذلك العهد. فظهر في ترجمته اثنا عشر مجلداً فيما بين ١٧٠٤ و١٧١٧؛ وكان

ظهور المجلدين الأخيرين منها بعد وفاته. وكان (Galland) قد وقع أول الأمر على قصة السندباد البحري. ثم حشا المجلدات الأخرى بحكايات مستمدة من مخطوط يرجع تاريخه الى القرن الخامس عشر. ومن بعد ذلك بما رواه له شفهياً وكتابةً ماروني من أهل حلب. هذا ولم يُعثر الى اليوم على أصل بعض ما قدّمه (Galland) الى القراء، ولكنه نُقل من ترجمته الى لغات أوروبية أخرى، ثم الى بعض اللغات الشرقية. على أن من أبناء الأجيال التالية لـ(Galland) من انتقد أسلوبه. ومن هؤلاء (Gottlieb August Bürger)، وهو يعلن عن ترجمته التي كاد يعفيها النسيان، فيذكر ترجمة (Galland) ويصفها بأنها «بضاعة جالان (Galland) العمياء البالية»(٦).

وفي الشرق ظهرت الطبعات الأولى من ألف ليلة وليلة بعد أن دخله فن الطباعة في الثلث الأول من القرن الماضي؛ وتُظهرنا هذه الطبعات على صورة لهذه المجموعة، ترجع الى القرن الثامن عشر.

ولقد أبدى العلماء في أوروبا اهتماماً بهذا الكتاب فترةً من الزمان، بعد أن نبّه (J.G. Herder) الأذهان في بداية القرن التاسع عشر الى قيمة الأدب الشعبي.

صورة المرأة:

وانني اذ أبحث فيما يلي عن صورة المرأة كما ترسُمها هذه المجموعة، التي تضم فضلاً عن الصور الواقعية للحياة اليومية طائفةً من الحكايات الأسطورية، فان منطلقي لذلك أن كل أسطورة تنطوي قليلاً أو كثيراً على عناصر من الواقع، وكما أن الأسطورة قد تعكس الواقع فانها تعبر أيضاً عن أحلام الانسان وأمانيه في تخفيف أثقال الحياة وعنتها والوسائل التي يتخيلها لتحقيق ذلك.

كيد المرأة:

إن النظرة المستأنية نوعاً ما في تاريخ البلاد الإسلامية وحضارتها تُبين لنا أنه كان ثمة دائماً نساء استطعن بما تمتعن به من فتنة وسحر وجمال وما انطوين عليه من دهاء وحيلة أن يمارسن نفوذهن من وراء الحُجُب، بل استطعن في بعض الأحيان تولي شؤون الحكم وادارة دفّته. ومن الطبيعي أن كل أولئك النساء كنّ بنات عصرهن ونتاجه. فقد كنّ في الأغلب ربّات دسائس ومكائد، شأنهن في ذلك شأن الرجال الذين كانوا من حولهن. ولولا أن الرجال كانوا أصحاب دسائس ومكائد، لما اضطرت النساء الى أن ينهجن نهجهم.

لا غرو اذن أن يُصبح كيد النساء موضوعاً أثيراً محبباً، ليس في ألف ليلة وليلة فحسب، بل في كتب الأدب أيضاً. فالمرأة الشعبية، والجارية المثقفة، وابنة الملك الجميلة، والشابة والعجوز، وهذه أكثر من تلك، كل هؤلاء يتمتعن بصفة، وهي أنهن صاحبات مكائد وحيل يُدبرنها لنفع الرجال أو ضررهم، بل أحياناً لخير شعوب بأكملها أو لشرها. ولذلك يجب على الرجل أن يتقيهن ويأخذ حذره منهن. جاء في حكاية الدليلة المحتالة «أما قلت لك أن بغداد فيها نساء تلعب على الرجال؟» (٣/٢٥٥).

ويبدو أن منشأ هذه الحكاية هو القاهرة، ويمكن أن تعتبر الدليلة هذه وابنتها زينب النصابة نموذجاً لكيد النساء في ألف ليلة وليلة؛ بل لقد قيل عنها: «وكان ابليس يتعلم منها المكر» (٤١٧/٣).

انها تستخدم كيدها بمثابة سلاح اجتماعي، ولكي تفوز بمركز أبيها المربح، وقد كان مربياً للحمام الزاجل عند الخليفة، تستغفل سيدات المجتمع البغدادي الراقي وساداته باصطناعها لسانين: «واللسان ناطق التسبيح، والقلب راقص في ميدان القبيح» (٤١٨/٣). وهي سريعة الخاطر، ماكرة، ولكنها نادراً ماتعبث بأحد في شر مستعينة في ذلك بآخر. ولبلاغة لسانها تفلت حتى من الصليب الذي صُلبت عليه عقاباً لها ما اقترفته من الخدع. وفي آخر الأمر، تحصل على منصب مُريح آخر، ليس على سبيل المكافأة، ولكن لكي تكفّ عن تدبير مكيدة جديدة، فتُعين بوابة ومشرفة على زهاء ٤٠ عبداً في خان الخليفة.

وكان الناس يجدون متعة ولذة فيما تصطنعه النساء من المكائد لصد عاشق ثقيل، وذلك كما في قصة امرأة التاجر التي كانت

تعرف، لتخلّص حبيبها، كيف تثير الرغبة في المقدّم، ثم القاضي ومن بعد الوزير وأخيراً الملك. فهي تدعوهم جميعاً الى دارها، واحداً بعد الآخر في اليوم نفسه، ثم تحبسهم في خزائن. وبرسالة من المقدم تُطلق سراح حبيبها لتفرّ معه بالثياب النفيسة لعشاقها. أما أولئك الذين انطلت عليهم حيلتها فيُخلصون من حبسهم بعد أن كادوا يموتون جوعاً؛ وعندئذ لا يسعهم الا أن يضحكوا لهذه الخدعة ولحماقتهم (١٥٨/٢ ــ ١٦٦).

ويبدو أيضاً أن صنوف الحيل التي راوغت بها النساء أزواجهن ليلتقين بعاشق أو أكثر قد جعلت جمهور المستعمين الى رواة الحكايات يتبسمون ويتغامزون. ويظهر لنا أن هذا السلوك ليس مُستغرباً، اذ أن الزواج كان يتم غالباً لاعتبارات عائلية وليس على أساس العواطف الشخصية للزوجين.

ان أمثال هذه الحكايات وغيرها مما في كتب الأدب، يمكن أيضاً اعتبارها دليلاً على أن عزل المرأة عن الحياة العامة لم يكن بنفس الصرامة في كل مكان وزمان، كما يصوره الرحالة الأوروبيون وكما تصوره كتب الأدب العربي المعاصر التي تصف مصر في مُستهل هذا القرن، هذا على الأقل بالنسبة للطبقات العليا والمتوسطة.

واذا قرأنا في أحد المواضع من ألف ليلة وليلة: «وقد تعلمت القبح من أولاد مصر» (٢٣٤/١) واذا جاء في حكاية زين الأصنام أنه «لم يستطع أن يعثر في القاهرة على فتاة بالغة العفة والحياء» (٢٩٩/٦(*)) ــ والحكايتان ترجعان فيما يُرجّح الى عصر المماليك ــ، فان ذلك من باب المبالغة، وان كان لابد أنها تنطوي على شيء من الحقيقة. لقد أدرج قسم من الحكايات حول الزوجات الخائنات في الاطار الخارجي لقصة «كيد النساء» (١١٧/٣ وما بعدها) لتلقى بذلك تقديراً سلبياً، ولتكون فيما يظهر عبرة لمن يعتبر. وفي هذه القصة لا تنال الجارية الماكرة عقاباً، مع أنها أرادت بدافع الانتقام أن يلقى ابنُ الملك حتفه. وفي حين أننا نألف في الأساطير الأوروبية أن ينال مُرتكب الشر في نهاية الأمر ما يستحقه من العقاب، نجد هنا، وان لم يكن دائماً، استعداداً للعفو والمغفرة. فاعتقاد أن الإنسان ليس مُخيّراً في أفعاله بقدر ما هو مُسيرّ، يُفضي الى التسامح والتغاضي (أنظر ١٨٦/٣). وعلى ذكر هذا، يؤخذ من قصة السندباد البحري أن هذا الاعتقاد في المكتوب والمقدّر على الانسان سلفاً، لم يحل دون اجتهاد الإنسان وبذله الجهد ــ على الأقل في عصر ازدهار الإسلام ــ، بل أنه نمّاه وشجّعه.

التعب والمكافأة:

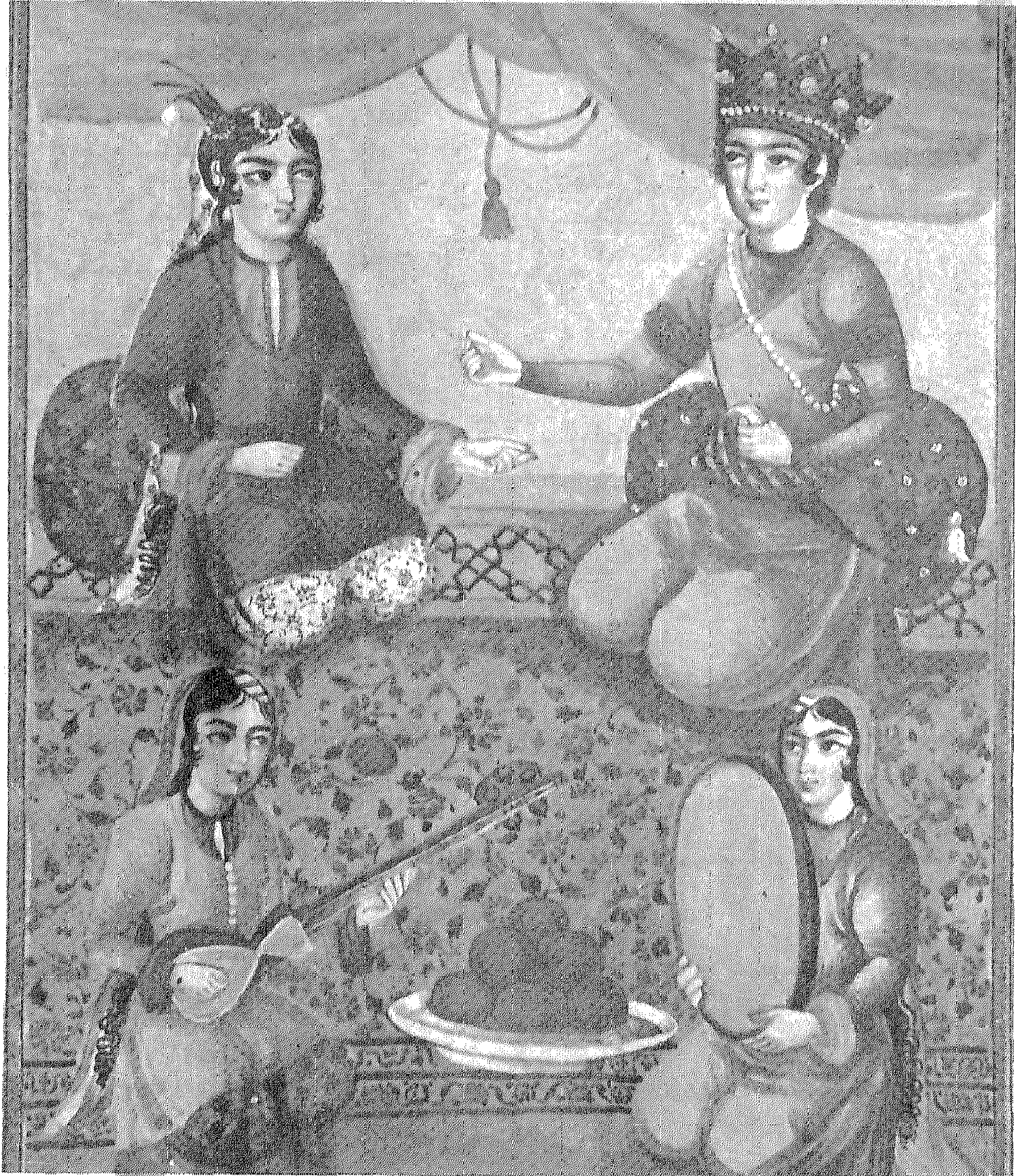
ان مبدأ فئة التجار الذي تنطُق به هذه الرواية، ولعلها نشأت في البصرة ابّان القرن الثالث، ينُصّ على أنه: «لا تعب دون مكافأة»، وهو مبدأ يمكن أن يعكس أيضاً فيكون «لا مكافأة دون تعب». فمن كان جريئاً بحيث يخاطر بحياته، ويتحلىّ فضلاً عن ذلك بما يلزم من الصبر، فان نصيبه آخر الأمر النجاح ان كان مقسوماً له، كما يؤخذ ذلك من حكاية الصائغ حسن البري. وهي حكاية تألفت من عناصر متباينة أشد التباين. أما من خاب سعيُه ومُني بالفشل، فان هذا الاعتقاد يحمله على الاقتناع بأنه لاذنب له في اخفاقه، لأن القدر لم يشأ غير ذلك. وقصة «قمر الزمان» التي نشأت في مصر في القرنين العاشر والحادي عشر، تبينّ لنا كيف كانوا يقيّمون خُلُقياً حوادث الخيانة الزوجية في القرون المتأخرة. من ذلك أن الصائغ البصري العجوز يلوي عنق زوجته الشابة، بعد أن يكتشف خيانتها له مع عشيقها الشاب الجميل، الذي كان يعتبره صديقاً له. هذا وتلقى جاريتها المذنبة معها نفس المصير. أما عشيقها القاهري الأصل، والذي شاركها راضياً كل مخازيها، ثم انسحب أخيراً من الأمر في جُبن وعدم اكتراث، فانه لا يسلم من الأذى فحسب خلافاً لعشيقته، بل أنه يُكافأ بأن يتزوج فتاة أبرع حُسناً وأكثر جمالاً. وفي الختام يُقارن بين القاهريات والحسناء البصرية الخائنة، «ان أبي لا زال يحكم عليّ ما دمت بكراً وحيث تزوجت فقد صار الحكم كله في يد بعلي فاني لا أخالفه» (٦٢٩/٤)، «ومن ظن أن

النساء كلهن سواء فان داء جنونه ليس له دواء» (٤/٦٣٠).

وبهذا يختم القاصّ حكايته. ومع أنه يُخيل الينا أن القاصّ كان يحلو له أن يُسهب في تفاصيل الانحرافات الزوجية وأنه أراد بذلك أن يلبي حاجة سامعيه الى شيء من الاثارة، فان القصة تسعى الى أن تجد مُسوّغاً، ولا بد، للموقف الاستبدادي للرجل في القرون المتأخرة.

نماذج الوفاء:

ولعل السبب في كثرة عدد القصص الفكاهية التي تدور على عدم وفاء النساء هو الميل الى التسليّ ببراعة النساء في كيدهن، وبالفكاهة اللاذعة في حد ذاتها: وذلك لأن المجموعة



خسرو وشرين مع عازفات الموسيقى. من منظومة «خسرو وشيرين» للشاعر الايراني نظامي

تشتمل أيضاً على قصص حول زوجات يُعتبرن نماذج للوفاء. فلدينا طريقتان مسليتان وكأنهما قصتان تعليميتان حول نساء ذكيات، يحاول أحد الملوك أن يصل اليهن فيُظهرن له قُبح فعله (٢/٤٢٧ ومابعدها، ٣٢/١١٧ ومابعدها). وفي قصة البدوي المُفتقر وامرأته الحسناء التي ينتزعها منه مروان بن الحكم، تثير الزوجة أيضاً اعجاب الخليفة الأموي معاوية الى حد أنه يريد الزواج منها. ولكنها ترفض السلطان والثراء وتتشبث بزوجها مُعلّلة ذلك بقولها: «ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان، ولا بغدرات الأيام وأنا له صحبة قديمة لا تُنسى ومحبة لا تُبلى، وأنا أحقّ من صبر معه في ضرّاء كما تنعمت معه في السراء» (٣/٤٠٣).

ورفض زوجها أيضاً أن يستبدلها بـ«ثلث جوار نمو أبقار كأنهن أقمار» (نفس المرجع) وبالمال والأملاك. وقد كافأ معاوية، المشهور بطيبته وحلمه، هذا الوفاء بجائزة سنية؛ ولا بد أن صنيع معاوية هذا قد أرضى شعور القاصّ وسامعيه بالعدالة والانصاف.

الشعر العذري:

من العجيب حقاً أن يلعب بكثرة الحب العارم بين الرجل والمرأة مثل هذا الدور في قصص نشأت في مجتمع، لم يكن تعدد الزوجات فيه هو القاعدة ولكنه كان على كل حال مُباحاً، ومنتشراً بين الطبقات العالية، مألوفاً فيها. ويذكرنا بعض هذا القصص بالشعر العذري الذي نشأ في القرن السابع. ولقد أصبح هذا النوع من الحب غير المُتحقق المثل الأعلى لمجتمع القصر في العراق ابتداء من القرن الثامن فصاعداً وقد كانت حقيقة التصور الخلقي عنده من نوع مغاير تماماً. ولهذا فاننا قد نتساءل فيما يتعلق بروايات الحب وأساطيره في ألف ليلة: أكانت هذه الروايات أو الحكايات، تمثل تصورات خيالية وأماني كانوا يتمنونها، أم كانت نوعاً من الأدب المضاد. ونظراً الى أن الأمر يتعلق الى حد بعيد بقصص شعبي، وأننا نعلم من كتب الرحلات في القرن الخامس عشر ومابعدها أن الزواج من واحدة كان هو السائد، فلعلنا نذهب الى أننا هنا بصدد تصورات مثالية وتعبير عما كان يتمنى الناس. لقد كانت الحياة الأسرية في الطبقتين العليا والمتوسطة خاضعة تماماً لسلطان الأب طيلة قرون، ونقف على التصور المثالي للزوجة المسلمة الصالحة في أبيات وردت بها قصة الجارية تودّد:

مهما لحظت تعلمت ما تبتغي
وحياً بدون اشارة وبيان
واذا نظرت الى بديع جمالها
أغنت محاسنها عن البستان

وكذلك أخلاقيات أقصوصة السقاء وامرأة الصائغ (٢/٣٩٨ ومابعدها) تطابق التصور الاسلامي تمام المطابقة. ففي هذه القصة يقرب السقاء فجأة امرأة الصائغ، الذي خدم السقاء بيته في اخلاص طوال ثلاثين عاماً، فتعتقد الزوجة بحق أن زوجها أيضاً فعل مثل ذلك مع امرأة أخرى وأن ماحدث لها هو العقاب العادل الذي فرضه القدر. وهي لا تدعو الله أن يغفر لزوجها فقط، وانما لها أيضاً مع أنها لا ذنب لها أبداً. ثم يختم القاص كلامه محذراً بقوله: «فينبغي للمرأة أن تكون مع زوجها ظاهراً وباطناً وتقنع منه بالقليل ان لم يقدر على الكثير وتقتدي بعائشة الصديقة وفاطمة الزهراء» (٢/٤٠٠).

الحب المتفاني:

ويبدو من السائغ تماماً في مجتمع كان على المرأة فيه أن تحتجب وتستتر، أن يكون سبب الحب العارم في بعض الأحيان نظرةً واحدةً أو أقل، وكثيراً مايكون مجرد صورة امرأة جميلة أو وصفاً لها. ويشهد بعض القصص أيضاً بأن كثيراً من النساء قد عرفن عن طريق إزاحة حجابهن أحياناً أن يبدين ماخفي من حسنهن، وذلك ليحملن بعض الرجال على تحقيق رغباتهن أو أن يؤدوا مايعهدن اليهم به من مهام وأمور.

والحب الذكي المتفاني الذي تكنّه المرأة للرجل في الأسطورة الألمانية له مثال مؤثر في قصة نساء الكرم. ذلك أنه حين طلب اليهن أثناء الحصار الذي ضرب على مدينتهن، أن ينسحبن ويأخذن معهن أعز مالهن؛ نجد أنهن يحملن أزواجهن على ظهورهن انقاذاً لحياتهم.



وفي قصص ألف ليلة نجد مثل هذا الحب، قبل كل شيء في قصص يصور العلائق بين جارية من الجواري ورجل من أحرار الناس. وقد كان وراء تلك القصص شيء من الحقيقة كما يتضح من كتب الأدب، ابتداء من القرن التاسع فصاعداً، حيث يصور فيها تفوق حب الرجال لجاريته على حبه لامرأة حرة، لا يجوز له أن يراها قبل الزواج ولو مرة واحدة. جاء في العقد الفريد لابن عبد ربه «الأمة تشترى بالعين وترد بالعيب، والحرة غل في عنق من صارت اليه»(٧)

ومن أمثلة ذلك قصة نور الدين، ابن التاجر، ومريم صانعة الأحزمة، ابنة أحد ملوك الافرنج. وهي قصة تظهر تأثير عصر الحروب الصليبية. فصاحب مريم يمنعها الحق في أن تختار بنفسها من يشتريها، لأنها شفته من مرض شديد الوطأة. ولما كان هذا كثير الورود في المجموعة، فلا بد أنه يعكس أوضاعاً حقيقية. وكل من أراد شراء مريم من الشيوخ أو أصحاب الملامح القبيحة، هجته بأبيات لاذعة موجعة، فضحت فيها عيوبه البدنية. وفي آخر الأمر تطلب الى الشاب الجميل نور الدين أن يمتلكها. ثم أنها لا تصبح له حبيبة وربة بيت فحسب، وانما تنهض أيضاً باعالته. ففي الليل، عندما يخلد الى النوم ليستجم من الحب، تطرز هي أحزمة رائعة، ليبيعها في اليوم التالي في السوق. وهي تعمل فيما بعد رباناً لسفينة، لأنها: كانت قوية القلب تعرف بأحوال سير المراكب في البحر المالح وتعرف الأهواء كلها واختلافها وتعرف جميع طرق البحر» (٢١٨/٤ ومابعد). وتقتل في غير رحمة كل المطاردين، وفيهم اخوتها أيضاً، الذين تعقبوها هي وحبيبها نور الدين في جيش جرار ليقتلوهما. انها تضحك في عطف وتسامح عندما يجيبها نور الدين على طلبها اليه بأن يساندها في القتال بوله: «ان ثباتي في النزال مثل ثبات الوتد في النخال» (٢٤٢/٤).

تنقذ سيدها:

ان الجارية الحسناء الذكية صاحبة الثقافة المتعددة الجوانب، والتي حظيت بأسنى مكانة في قصور الأعيان في القرنين الثاني والثالث كلما ازداد ابتعاد المرأة الحرة عن الحياة العامة، أن هذه الجارية يمكن عدها واحدة من الشخصيات النمطية في ألف ليلة وليلة وأشهر أمثلتها في المجموعة هي «تودد» في القصة التي تحمل اسمها. ومنشأ هذه القصة العراق في القرن الثالث على ما يرجح وقد عرفت أيضاً طريقها الى الأدب الاسباني. والجارية تودد تنقذ أيضاً سيدها من الفقر والضياع بحكمتها وجمالها. وقد كان صاحبها ابن أحد التجار الأثرياء، فبدد ماله واستسلم لليأس. فنصحته بأن يذهب بها الى هارون الرشيد ويعرض عليه أن يشتريها بعشرة آلاف دينار. ولم يكن بد من أن تجتاز امتحاناً تثبت فيه علمها ومعارفها أمام طائفة من أشهر علماء ذلك العصر. فيتبين لهم أنها موسوعة في العلوم الإسلامية للعصور الوسطى، من نحو وشعر وشريعة وتفسير وبلاغة وفرائض وخطابة وأخبار الأوائل وفلسفة وطب وهندسة وقياس الأرض وفلك. ويتضح أنها ليست متفوقة في كل هذه المعارف فحسب، بل هي أيضاً بارعة في لعب النرد. وأخيراً تسحر ألباب السامعين بغنائها وضربها على العود. غير أن خاتمة القصة تطلعنا على معايير التقييم الاجتماعي: فسيدها الجاهل يتقاضى مائة ألف دينار ثمناً لها، وترد هي نفسها اليه نزولاً على رجائها كهدية سخية من الخليفة وتصبح نديمة له. أما هي ذاتها فتكافأ بخمسة آلاف دينار.

بطلة قصة علي بابا:

أما مثال جواري أسر الطبقة المتوسطة فمرجانة التي جمعت أيضاً بين الذكاء والجمال. وهي البطلة الحقيقية لقصة «علي بابا والأربعين حرامي»، احدى القصص المصرية المتأخرة. ان هذه القصة التي ليس بها من العناصر الخارقة للطبيعة سوى الجملة السحرية «افتح يا سمسم!»، والتي تأسرنا ببنائها المنطقي، ليست أصلاً مجرد قصة الفقير الذي يصيبه الثراء على نحو معجز عجيب؛ بل انها قصة الأوغاد الذين يجدون من يلقنهم درساً، ولكنه ليس الرجل الطيب الفقير، وانما جاريته الذكية. ومغزى القصة، على ذلك، أن مكر النساء ودهاءهن يقهر حيل الرجال ويبطلها. فمرجانة



سيدة من مغل، الهند، القرن السادس عشر، متحف جويم، باريس

تخدع اللصوص وتضللهم بأن تنقش علامتهم على أبواب الجيران أيضاً، وكونها تخيط جثة الأخ الطماع أساساً لاستمرار أحداث القصة وهي تعد لذلك اعداداً طيباً، فتشيع أولاً أن الأخ مريض، وتبتاع لذلك أدوية ملائمة. ودون أن تطلب عوناً من أحد أو تولي أحداً ثقتها، تقتل غير هيابة ولا خائفة ٣٧ لصاً. ولعل الوحشية التي تم بها ذلك لم تفزع السامعين في ذلك الزمان، ولم تعد الوسيلة التي تصدم به الروايات البوليسية الحديثة قراءها. وبعد أن فرغت مرجانة مما فعلته تطلع سيدها على الأمر في حذر، مهدئة من روعه، وفي خلال ذلك تنعشه بحساء أعدته بنفسها. وهي أيضاً التي أفسدت الحيلة الجديدة لشيخ اللصوص، اذ هي الوحيدة التي ساورتها الشكوك عندما أبى أن يأكل الملح في بيت علي بابا؛ والملح علامة الصداقة بين المُضيف وضيفه. وهي تعرف بما لها من تنوع الجوانب، كيف تأسر الضيف برقصها مرتدية ثوباً يبرز مفاتنها، ثم تقتله في غير خوف أو وجل. وكما هو الحال في القصة البوليسية ــ وكذلك أيضاً في الحكاية تنتهي الأحداث نهاية سعيدة: فبعد أن ينال الاشرار ما يستحقون من عقاب، تزوج مرجانة من ابن علي بابا، مكافأة لها على وفائها واخلاصها. ومعنى ذلك أنها تصعد على السلم الاجتماعي بخطوة واسعة.

ومثل تودد في الجمال وتعدد المواهب والبراعة الجارية «قوت القلوب» التي تظهر في هذه الحكايات أكثر من مرة. فهي في حكاية خليفة الصياد والخليفة الصائد توصي أحد أغنياء التجار خيراً بالصياد الغشيم فتقول: لا تؤاخذه فانه رجل عامي (١٨٧/٤).

الجارية وسيط:

ومن المؤكد أن دور الوسيط الاجتماعي الذي قامت به الجارية ليس مجرد صدفة، لأن في ألف ليلة شواهد على أن مثل هؤلاء الجواري كن خاضعات لأمزجة أصحابهن، على الرغم مما لهن من ذكاء وجمال خلاب. وهكذا كان تعاطفهن مع المظلومين اجتماعياً أشد من تعاطفهن مع الطبقة العالية. وقد كانت الغاية من تعليمهن هو مسامرة هذه الطبقة العالية وتسليتها. هذا وتبين المجموعة أيضاً بأنه كان ثمة نساء حرائر، اشتغلن بمسائل العلم في عصرهن وبعلوم الدين، ولم يكن ذلك لداعي المسامرة والمنادمة في القصر فقط، ولكن من أجل العلم ذاته أيضاً. فيخبرنا القاص عن امرأة هي «سيدة المشايخ» بقوله أنه لم ير امرأة: «أذكى خاطراً وأحسن فطنة وأغزر علماً وأجود قريحة وأظرف أخلاقاً».

وقيل أن هذه المرأة كانت تعظ الناس في حماة بالشام في القرن السادس من فوق المنبر.

الملكة الذكية:

نقرأ عدداً من المرات في ألف ليلة عن ملكات ذكيات عادلات، كما لا يكون الا في الأساطير. من ذلك مثلاً ابنة الملك بدور، التي يختفي زوجها قمر الزمان في ظروف غامضة أثناء قيامه ببعض الأسفار. وحتى لا تضطرب الحاشية أو يستبد بها القلق، ترتدي بدور ثياب الملك وتمثل شخصيته. وفي قصة قمر الزمان هذه التي يبدو أنها نشأت في عصر متأخر بمصر، تضم بدور مملكة أخرى الى مملكتها وبعدها نسمع: «وجلست على كرسي المملكة وطلعت اليها الأمراء وجميع الرؤساء وأرباب الدولة وهنئوها بالملك وقبلوا الأرض بين يديها ودعوا لها فتبسمت وأقبلت عليهم وخلعت عليهم وزادت في اكرام الأمراء وأرباب الدولة واقطاعهم والجيوش فأحبوها ودعوا لها جميع الخلق بدوام الملك وهم يعتقدون أنها ذكر فأمرت ونهت وحكمت وأطلقت من في الحبوس وأبطلت المكوس ولم تزل قاعدة في مجلس الحكومة الى أن دخل الليل» (٨٨١/١) وهكذا كان تصور الشعب للحاكم العادل.

كانت بنات الأمراء يعتبرن بصورة عامة أعلى شأناً من أزواجهن الذين لم يرتفعوا الى المراتب العالية الا عن طريقهن. وهذا ما وصفه لنا الرحالة الأوروبيون فيما يتعلق مثلاً بفارس في عصر الصفويين أو تركيا العثمانية. فانزال المرأة اجتماعياً عن درجتها كان الى حد ما أمراً مرتبطاً بانتمائها الطبقي.

المرأة والحكم:

وابنة الملك التي فاقت في ذكائها من يحيط بها من الرجال، نجد لها مثالاً في قصة معروف الاسكافي الفكاهية، وفي قصة الأختين اللتين تحسدان أختهما. وهنا نجد أن الشبان الذين أنقذتهم هذه الأخيرة بشجاعتها وحصافتها، يعهدون اليها بالقيادة في رحلة عودتهم. ولكنها تجيب بروح اسلامية: «يا سادتي، لا يجوز لي وفقاً للشريعة أن أتقدمكم، ولكن ما دمتم قد أمرتموني، فليس لي الا الطاعة» (٥/١٩٣(*)).

ونقرأ في عدة مواضع من ألف ليلة (منها ٣/١٦٩ وما بعدها) أن الأميرات كثيراً ما يدققن في الاختيار ويشترطن ألواناً من الشروط عندما يتعلق الأمر بمن سيتزوجن منه. وهن على الجملة يأبين الخضوع لسلطان الزوج.

ولا بد أن عدداً من القصص بدت لسامعيها وكأنها صور لعالم مقلوب في تلك العصور الوسطى التي كانت فيها سلطة الأب في الأسرة وسيطرة الرجل في جميع نواحي الحياة تقريباً أموراً طبيعية. ولا يبعد أن تكون هذه القصص قد حفظت لنا بقايا من مظاهر نظام الأمومة، على ما كان موجوداً قبل دهر طويل في الشرق الأدنى.

وثمة حكاية من بلد تحكمه امرأة وتشغل فيه النساء وظائف الوزراء والقضاة، ومن يعين قواد الجيش والجند. وفي ذلك البلد ينهض الرجال بأعباء الزراعة فيحرثون ويبذرون ويحصدون ويشتغلون بعمارة الأرض وعمارة البلاد ومصالح الناس من سائر الصناعات.

ومع أن هذه الأوضاع لم تكن من الأمور الواقعة، الا أنها تدخل في نطاق المتصور(٨). ان جزر واق الواق ـ وهي التسمية العربية في العصور الوسطى لجزر اليابان ـ التي يصل اليها البطل الأسطوري حسن البصري ليسترد زوجته الغائبة، لا يحكمها الا النساء، وقد عرف هذا الزعم سبيله الى مؤلفات العرب في وصف البلدان. وكذلك عرفت الحكاية الشعبية صوراً أخرى من الأوتيبيا الاجتماعية.

فحكاية الأمير أحمد والجنية الجميلة بري بنو، وهي حكاية فارسية الأصل على ما يحتمل، تعبير عن الشوق الى تحرير المرأة، الذي لم يتحقق بعد ذلك بعدة قرون على حد سواء في كل مكان. ففي عالم الجن الذي تنتمي اليه بري بنو، تتمتع الفتاة بحرية اختيار شريك حياتها على وفق هواها لا هوى أبويها؛ ولذلك تصبح الزيجات هنالك سعيدة موفقة، بخلاف نظائرها في عالم الأنس. ففي عالم الجن تستطيع الفتيات أن تصارح الرجل الذي تهواه بغرامها، دون أن يفرض عليها الانتظار الى أن يخطب ودها «٣/٣٧ وما بعدها حسب ترجمة ليتمان».

وتظهر في ألف ليلة وليلة كائنات تفوق قدرتها طاقة البشر وجنيات طيبات وأخرى شريرات على ما هو مألوف في كل الأساطير عند سائر الأمم. وفي حين أن النساء اللاتي يتمتعن بقوى سحرية ويتعاطين السحر والشعبذة في الأساطير الأوروبية، عجائز بلغن الغاية في القبح وبشاعة المنظر، فاننا غالباً ما نجدهن في ألف ليلة شابات جميلات ذوات فتنة واغراء.

دهاء العجائز:

وتعتبر العجائز على الخصوص داهيات، واسعات الحيلة، لاسيما اذا قمن بدور الخاطبة، ولعل مرجع ذلك أيضاً الى تمتعهن بحرية الحركة الى حد بعيد نظراً الى سنهن. وهن يستخدمت مكائدهن لمصلحة شخصيات الحكاية وخيرهم، حتى وان كانت أسماؤهن تؤذن بالشر والأذى، مثل «شواهي ذات الدواهي»، مضافاً الى ذلك أمر يكاد يكون نذير سوء، وهو أنها ذات عينين زرقاوين (عمر بن النعمان، حسن البصري)، أعني بذلك زوجة معروف الاسكافي، التي ينم عليها اسمها، وهو «فاطمة العرة». فهي لا تضرب زوجها الطيب فحسب، وانما تكيل له التهم ظلماً وعدواناً ثلاث مرات عند عدد من القضاة الذين يضطرون الى الاصلاح بينهما. ويصلح أحد هؤلاء القضاة بينهما بكلام يمثل التصور الإسلامي لوضع الرجل والمرأة في الزواج. وقال «يا حرمة أطيعي زوجك، وأنت يا رجل ترفق بها» (٤/٦٨٠).

وتبين كذلك هذه الحكاية أن المرأة لم تكن بدون من يحامي عن حقوقها. فقد كان بوسعها



ام وطفلها، من عمل الفنان التركي اسماعيل جوبان (من مواليد عام ١٩٤٥م)

كما يتضح هنا، أن تستعين بالقاضي على زوجها دون أن تلزم باحضار شهود على دعواها. وهذا ما تؤيده أيضاً مشاهد من مقامات الحريري.

من المؤكد أن حكايات ألف ليلة لم تصور أصداء المواقع فحسب وانما مثلت أيضاً أماني وأحلاماً تتوق الى التغلب على الحاجة وكذلك على بعض التقاليد التي فرضتها عوامل مختلفة. وصورة المرأة في هذه المجموعة مطبوعة جزئياً فقط بطابع الرفض واستعلاء الرجل. وتبين لنا النساء الكثيرات اللاتي تمتعن بالذكاء وسعة الحيلة، أنه قد وجدت حتماً نساء كان لهن من عزم الرجال ما كفل لهن أن يفرضن أنفسهن، وأن الرجال لم يقابلوا هذا بالتسامح والتغاضي فحسب، بل أنهم قبلوا ذلك بنفس راضية.

فلا غرو أن تلقى هذه المجموعة منذ عدة عقود والى اليوم تقديراً كبيراً في الشرق. وقد

كانت شخصية شهرزاد الذكية مصدر وحي لبعض الكتاب مثل توفيق الحكيم وطه حسين. وقد أطلق الكاتب المصري يوسف الشاروني على ما انتخبه من قصص الكاتبات المصريات وأصدره في القاهرة سنة ١٩٧٥ اسم «الليلة الثانية بعد الألف» رابطاً هذه المختارات ربطاً واعياً بالمجموعة المشهورة، وفي المقام الأول بالشخصية الرئيسية للحكاية الخارجية، مع أن أكثر ما انتخبه ليس بينه وبين الحكايات الأسطورية سبب، وانما هي قصص تنقد نقداً مراً أوجه التقصير الاجتماعي في وضع المرأة المصرية المعاصرة.

هذا والمثال العراقي محمد غني، الذي يعني عناية بالغة بتحرير المرأة العراقية قد أقام في احدى الساحات الحديثة ببغداد، تمثالاً للجارية مرجانة، وهي بجلاء تدبيرها وقوة شكيمتها البطلة الحقيقية لحكاية علي بابا والأربعين حرامي.

الهوامش

(١) أخذت الشواهد كافة من طبعة ألف ليلة وليلة لوليم مكناطن ج ١ ــ ٤، كالكتا/ لندن ١٨٣٩ ــ ١٨٤٢.

(*) نقلاً عن الترجمة الألمانية لأنو ليتمان.

(٢) أنظر: Coupe W.W.: The German illustrated broad sheet in the seventeenth centuary. Vol. I. Baden-Baden 1966. (Bibliotheca Bibliographia Aureliana XVIII). S. 55.

(٣) أنظر: Goldziher. I.: Adab. in: Enzyklopaedie des Islam. Bd. I/1913. S. 129.

(٤) كتاب الفهرست. أصدره غ. غلوغل، لايبزيج ١٨٧١، ص ٣٠٤.

(٥) Göttingisches Magazin der Wissenschaften und Literatur II/1781. S. 305.

(٦) ابن عبد ربه: كتاب العقد الفريد، شرحه وضبطه وصححه أحمد أمين، ابراهيم الابياري وعبد السلام، هارون ج ٦، القاهرة ١٩٤٩، ص ١٢٩.

(٧) أحمد بن حنبل: مسند، مصر ١٣١٣، ج ٥، ص ٤٨، وأنظر نفسه ج ٥٠، ص ٣٨، ٤٢، ٤٥، ٥٠، ٥١.

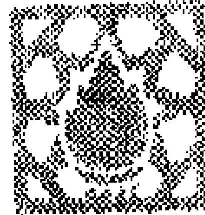
(٨) Göethe J.W.: Westöstlicher Diwan. Hgb. u. erl. v. E. Beutler. Leipzig 1943. (Sammlung Dieterich Bd. 125). S. 41:

Behandelt die Frauen mit Nachsicht!
Aus Krummer Rippe ward sie erschaffen.
Gott Konnte sie nicht gan grade machen.
Willst du sie biegen, sie bricht:
Läbr du sie ruhig, sie wird nich krümmer:
Du gutter Adam. was ist denn schlimmer?
Behandelt die Frauen mit Nachsicht:
Es ist nicht gut. dab euch eine Rippe bricht.

المراجع

— Gerhardt. M.I.: The Art of Story-Telling. A literary study of the Thousand and one nights. Leiden 1963.
— Heller. B.: Das hebräische Märchen. in: Bolte. J. und G. Polivka: Anmerkungen zu den Kinder und Hausmärchen der Brüder Grimm. Bd. IV. Leipzig 1930. S. 315-418.
— Kahlo. G.: Die Wahrheit des Märchens. Halle (Saale) 1954.
— Leyden. F. von der: Die Welt der Märchen. Bd. I. II. Düsseldorf 1953-1954.
— Littmann. E.: Alf laila wa-laila, in: The Encyclopedia of Islam. New ed. Vol. I. Leiden. London 1960.
— Littmann. E.: Zur Entstehung und Geschichte von Tausendundeiner Nacht, in: Die Erzählungen aus den tausendundein Nächten. Vollständige deutsche Ausgabe in sechs Bänden... übertr. v. E. Littmann. 3. Aufl. Leipzig o. J.. Bd. VI. S. 641-728.
— Oestrup. J.: Studien über tausendundeine Nacht. Aus dem Dän. nebst einigen Zusätzen V. O. Rescher. Stuttgart 1925.
— Rescher. O.: Studien über den Inhalt von tausendundeiner Nacht. in: Der Islam IX/1918. S. 1-94.

● **هذا المقال مأخوذ من مجلة «فكر وفن»، العدد ٣٦، ١٩٨١.**



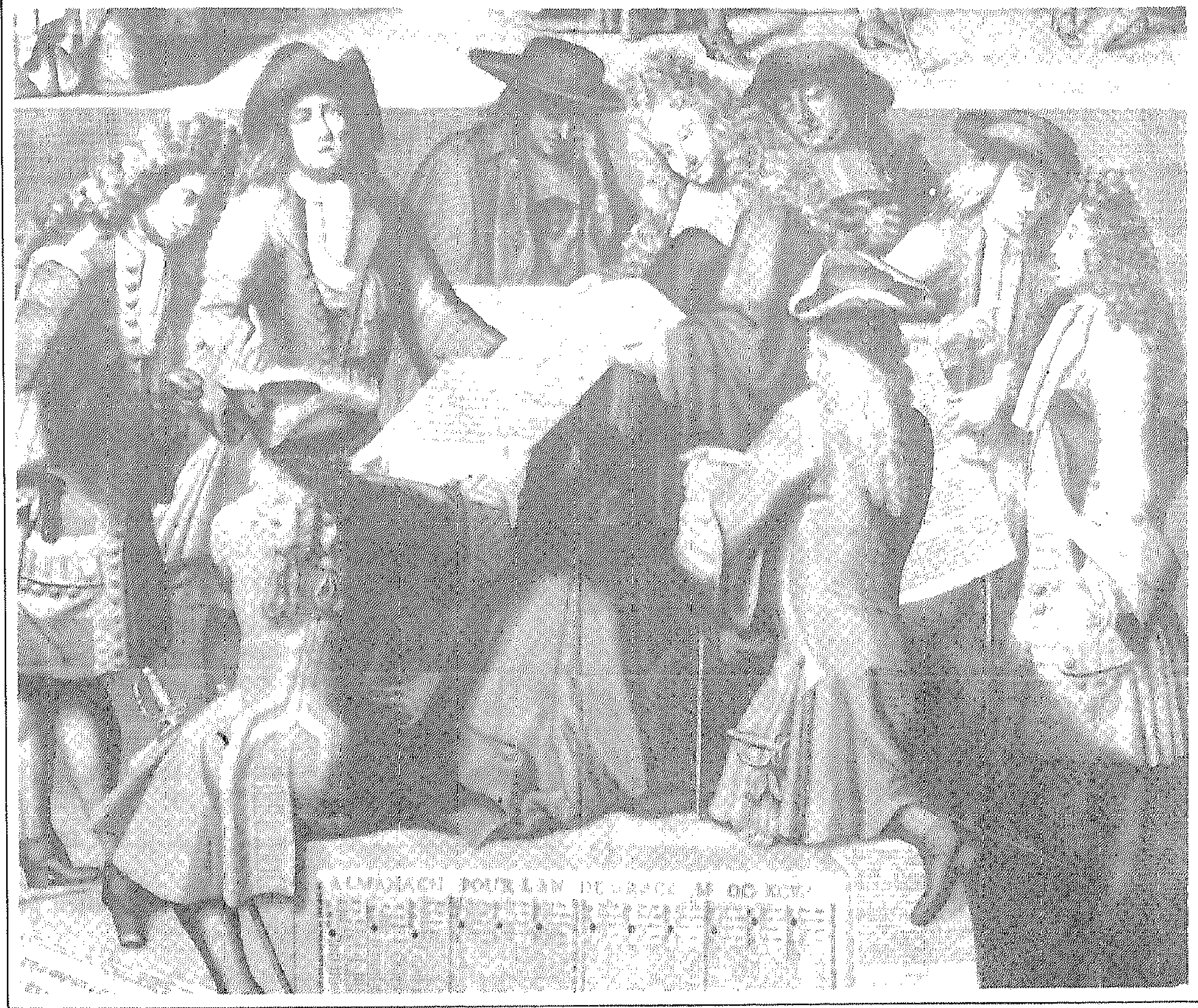
الأغنياء والفقراء

● **المال يستر رذيلة الأغنياء، والفقر يغطي فضيلة الفقراء.**

(علي بن أبي طالب)

مهنة الصحافة الخطرة في عهد النظام الملكي الفرنسي

د. رياض العالي



الجرائد «المكتوبة باليد» تتناقل من يد إلى يد

مسألة الإعلام مطروحة في كل الأنظمة، وتظل بنت الساعة، حتى في البلاد التي تؤمن بحرية النشر والرأي. ولقد كانت وظيفة الاعلام، والنقد والتعليق، في مطلق أحوال الحرية، مرفوضة لدى السلطات دائماً. فيجب ألا يقال كل شيء، وما قيل يجب أن يراقب. لم تكن الصحافة، في فرنسا حرة إلا منذ بدايات الجمهورية الثالثة. بينما كانت الرقابة تمارس بقسوة شديدة، أو متهاودة، مفسحة لتفتح صحافة معارضة، تحت الأرض.

ولكن لنعد قليلاً إلى الوراء.

عام ١٦٠٩، أطلق صاحب مطبعة، جريدة أسبوعية، بثماني صفحات، تحتوي معلومات متنوعة. في الوقت ذاته نشرت بعض الصحف في ألمانيا وسويسرا وانكلترا. وكان أول كتاب قد طبع عام ١٤٧٣ في ليون. ولم تكن تجربة الطباعة قد جاوزت مائة عام حين نشرت أولى الصحف.

والصحف التي حلت محل تلك التي كانت «تكتب باليد» لم تكن أكثر من نشرة أخبار. غير أن تطور البريد أتاح تطوراً نسبياً فحسب، في مجال الأخبار. ذلك أنه كان لا بد من انتظار أيام حتى يأتيك الخبر، وحتى تعلم ما يجري في المملكة. ولا بد من أسبوع حتى تعرف ما يجري في هولندا. وكان معظم الناشرين من باريس، وكان ثمة ناشرون في كان وليون وتولوز وروان.

وكانت معظم الأخبار تدور حول ما يجري في العالم، أو حول ولادة أمير أو موته، وحول الحرب أو السلم. ويمكن القول أن معظم الصحف كانت ظرفية، تصدر حسب وجود الأخبار أو نوعها. وكانت تروي أخبار الحروب والرحلات، وحياة البلاطات. وكانت تدعى «البط»(1). وقد ازدهرت خلال القرن السادس عشر، واعتبرتها السلطات غير مؤذية. وكان الموسيقيون الجوالون يبيعونها في الأسواق.

على أن ثمة صحفاً إلى جانب «البط» لفتت انتباه السلطات لأنها ساندت بعض الأطراف في الحروب الدينية: إنها صحف نضال. لذلك منعت السلطات بعضها. وأوقفت عدداً من مصدريها، وحرمت المكتبات بيعها. وأحرق صاحب مطبعة اسمه مارتان لوم، في ساحة موبير، وأحرق آخر عام ١٥٩٠ لأنه لم يطع الملك وأصدر صحيفة خلافاً للأوامر.

«البط»:

خضعت النشرات الدورية المنتظمة لاتجاهين أساسيين: الأول أن توجه من خلال الخبر وهي الصحف الملتزمة. والثاني أن تسلي وتحاكي الخيال، وتقترح على القراء نوعاً جديداً من الصحافة لا يتعب، بل تأخذ بلبه. وقد قرر ريشيليو أن يراقب الاتجاهين، وأن يخضع الصحافة لإرادة السلطة.

يجدر بنا القول أن عدداً كبيراً من الجرائد (البط) صدر في عهد وزارته، في باريس. وكانت تطبع على ورق رديء، وتطوى طياً سيئاً، ولكنها كانت مقروءة رغم رداءة الحبر. وكانت أغلاطها المطبعية كثيرة. وكان إخراجها سيئاً. وكانت رديئة جداً إلى حد أنها كانت تشبه بطة عرجاء.

كان عددها قرابة ثلاثمائة في مطلع القرن السابع عشر. وكانت تصدر في باريس، وتروي، وليون وروان وشامبري. ولم تكن تصدر بانتظام، حتى لا يضطر اصحاب المطابع الى استخدام عمال ثابتين. حتى أصحاب المطابع والبائعون الجوالون كانوا يصدرون صحفاً.

وكان باعتها من «حمّالي السلال»، يقفون أمام قصر البلدية في باريس، أو من الموسيقيين أو عازفي الكمان الذين يبيعونها في المعارض والأسواق. وكانت معظم أخبارها تدور حول: «معجزة، أو فيضان، أو طفل مات أربعاً وعشرين ساعة ثم عاد إلى الحياة.. أو انتحار عاشقين معاً..».

لم يكن البوليس يتدخل في بيع هذه الصحف. وقد يعاد طبع العدد إذا لقي نجاحاً. وقد يتجاوز بيعها حدود فرنسا إلى الدول المجاورة، ذلك أن بعض أنبائها كان ذا طابع غير محلي. كهذا الخبر «لقد قتل وحش ألماني ٩٦٤ شخصاً»، أو «الأبناء الذين قتلوا والدهم الذي شاء ألّا يورثهم، وقد أعدموا جميعاً»، أو «المرأة الأوكسونية التي قتلت زوجها بسبب الغيرة، وانتزعت لحيته، وفقرت عينيه وقطعت أعضاءه التناسلية».

وقد تنشر الجريدة أنباء خرافية: كالثعبان الضخم الذي ظهر عام ١٥٧٨ في سماء باريس. أو المذنب الذي ظهر في سماء روما، أو مطر الدماء الذي سقط على الزيتون في نيس. أو المسلح العملاق الذي ظهر في سماء سيدان يحمل رمحه.

أما الجرائد السياسية فكانت تلصق على الجدران ليستطيع كل الناس قراءتها. وكان

الملك يأمر باتلافها. وقد يحرق «المجرم» صاحب الجريدة. وكان عدد النسخ يتراوح بين خمسمائة وألف.

رينودو يحميه الكاردينال:

كان رد الكاردينال ضد الصحف عنيفاً، فلم يكن يريد صحفاً في البلاد(١). ولكنه لم يستطع القضاء على الصحف السرية، لأن الشعب كان راغباً في تداولها، رغم القمع السلطوي. لذلك عمد إلى اطلاق صحيفة تمثل سياسته، ويحارب بها الصحف الأخرى. لذلك موّل بعض الهجائين مثل فانكان وبول هيي، ليتصدوا للصحف المناوئة لسلطته. وعين أمين سره على رأس صحيفة «ميركور فرانسي» التي كانت أول صحيفة دورية منتظمة. وعام ١٦٣٩، حظي بصحافي بارع اسمه تيوفراست رينودو فأحله محل أمين سره في رئاسة تحرير «مركور فرانسي». وقد أصدر رينودو صحيفة «لاغازيت» التي غدت صحيفة السلطة الرسمية. وقد حصل من الكاردينال على إذن «بطباعة أو بيع أو تسويق ما شاء من الصحف، وبواسطة من شاء، أوب بأية وسيلة». وقد أصدر نسخة منها في إيطاليا باسم «غازيتا».

صيحة الحرب:

تعالت صيحة الحرب لدى الناشرين. فقد طالب جان مارتان، ولوي فاندوم، وفرنسوا بومّري بمنع «لاغازيت». وحصلوا على أمر باغلاقها، أصدره قاضي المحكمة الاقطاعية. ولكن الكاردينال تحرك بسرعة: وأرسل الملك ــ حسب نصيحته ــ تأنيباً شديدة اللهجة إلى القاضي، وطلب منه اعادة النظر في ما اتخذه حول امتيازات رينودو.

وكان أن جدد امتياز رينودو ومنع على كل أخصامه أن يطبعوا أو يبيعوا أية صحيفة، دون إذن الملك المسبق، موقعاً بخاتمه الخاص . وكل من اعترض على رينودو أو كتب ضده، يغرم بستة آلاف ليرة. بينما نال رينودو مكافأة ثمانمائة ليرة. وأصدر مجلس مستشاري الملك بياناً جاء فيه: «نحن نعلم كيف نميز بين ما يجب أن يصمت، وبين ما يجب أن يقدم للجمهور».

وهكذا أصبح بمقدور رينودو أن يبيع صحيفته بحرية وبمباركة الملك. ومع ذلك يعتبره بعض المؤرخين أبا الصحافة الفرنسية.

قانون المكتبات:

لقد صدرت القيود التعسفية على الطباعة والنشر في عهد لويس الرابع عشر. وكان الهدف منها التصدي لطباعة أي مؤلف مخالف للدين. ولم يكن القرن الثامن عشر متسامحاً مع الصحافة. فعام ١٧٢٣ صدر «قانون المكتبات» من ١٢٣ بنداً، مؤكداً على نظام الامتيازات. ومشدداً على عدم نشر أي شيء في فرنسا دون موافقة الملك الخطية.

وكان الحصول على امتياز صحيفة أو نشرة يلاقي صعوبات جمة. وفيما كان بعضهم يحصل على الامتياز بسهولة (لممالأته السلطة) كان الآخرون مضطرين إلى دفع عشرين ألف فرنك كل عام لقاء الامتياز. وقد منح «شوازول» محظيته امتيازاً دون ثمن. ولم يكن القضاء يتساهل في القوانين. وعام ١٧٤٤ منعت كل الصحف المناهضة لفرنسا من التداول في فرنسا خلال حرب خلافة الملك في النمسا.

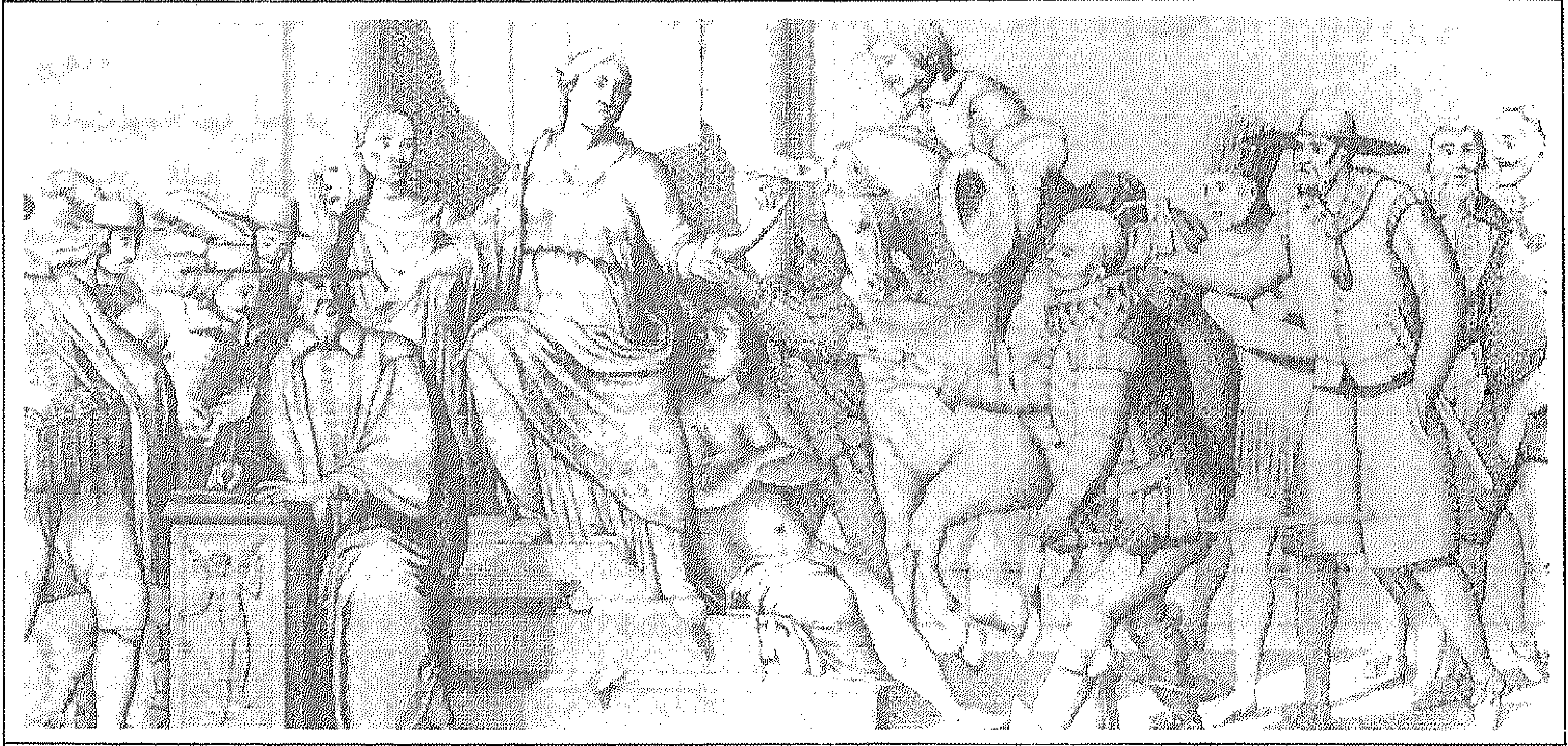
في «دير» السيدة دوبليه:

ــ لا تدع النار تنطفيء. (ذلك ما قالته امرأة حصيفة لأحد الشبان المتهورين). أنت تعلم أن السيد ماليرب يراقب كل شيء.

كانت السيدة عمة شوازول، وكان يخشاها، وكانت صحفية، وقد اشتهرت تلك الفترة، فهي السيدة دوبليه دوبرسان.

وكانت الرقابة شديدة فلا يسمح بالحديث عن الحرب، أو الضرائب، أو محظيات الملك، أو الخطب السياسية. بل لا يسمح بالكلام عن أي شيء. كان العمل الصحفي خطرا في عهد لويس الخامس عشر. ولهذا نشطت الصحافة المكتوبة باليد. فلم يكن صحفيوها بحاجة إلى طباعتها، أو بيعها في مخازن. ولكن، كان عليهم أن يواظبوا لأن تجارة الأخبار كانت مربحة، ذلك أن بورجوازيي باريس والريف كانوا يدفعون ثمنها جيداً.

غير ان الشرطة أوقفت عام ١٧٤٤ صحفياً



محفورة تمثل «لاغازيت» ورينودو صاحبها يتلقى الأخبار من مصادر مختلفة ويدونها

اسمـه جان كلود دورامبـو، وكـان من قبـل مستشاراً للملك، وعارفاً ببواطن الأمور. وكان يستخدم في مكتبة بشارع سان جاك أكثر من خمسين ناسخاً وناقلاً. وكان يغـذي الجرائـد «المكتـوبـة بـاليـد»، وكـان لديـه أكثـر من ٢٨٠ مشتركاً.

يجب الاحتفاظ دائماً بـالنار مشتعلة حـين تعمل في هذه المهنة. ولا بد من احراق النسخ في حال المداهمة. قضى أحد الصحفيين مسموماً ــ واسمه نانسيان شيفربيه ــ على احدى طرق هولندا. ومع أن المهنة خطرة، فقد كانت بعض الحسناوات تحاول اجتذاب بعض موظفي قصر الحكومة لتبعنهم الجرائد «المكتوبة باليد».

ولكن، لا بد لكتابة الصحف من مخبرين. ولم يكن ذلك صعباً فالسيـدة دوبليه جمعت أفضلهم، وقدمت إليهم خير الضمانات، وفتحت أمامهم أبواب اقتناص الأخبار في البلاط، بل استعانت بوزراء، ومدراء ورجال دين.

وكان شريكها، واسمه جيلبير، يجمع الأخبار يوماً بيوم، من ١٧٦٣ إلى ١٧٦٥. وهو الذي كشف مرض السيدة بـومبادور، والولادات في العائلات الكبرى، والثرثرات والشائعـات التي تتناقل في البلاط، ونشر أحداث الريف، واعتقال وحش «جـيـفـودان»... ونشر دعـوى «لالي ــ تولاندال» التي حكم عليهـا بالاعـدام. وأذاع أخبار قضية «كالا» التي شهرتها إحدى أهاجي فولتير، وخلافـات الدوق فيتز ــ جيمس مع برلمان تولوز، حول الضرائب.

وكـان «جيّـي» مسخـدمـاً لدى السيـدة «درجنتال» فاستخدمته السيدة دوبليه، وكلفته بنشر الأخبار في الريف، بينما تتولى نشرها في باريس. وقد سمت مكتبها «الدير» وكان يؤمها صحفيون كثر، أمثـال بيرون، لوي بـوتي دو باشومـون، المطران لو جـاندر، وأخـو السيدة دوبليه، والمطران دوبرني، كاردينال المستقبل، والكونت درجنتال وكان مستشار فولتير، والمركيز دوميرابو.

شوازول يرسل البوليس ليداهم بيت عمته:

كان «الديريون» يجتمعون كل يوم في بيت السيدة دوبليه. وكل منهم يحمل الأخبار التي اقتنصها من محيطه. وكـان المطران لوجـاندر يكتب الأخبـار في سجله، فيضـع الأخبـار «الموثوقـة» في صفحـة و«المشكوك» فيهـا، في صفحة. وفي نهاية الأسبوع «تكتب» الجريدة، فتدون فيها الأخبار الموثوقة فحسب.

كانت تلك الأخبار التي توزع «تحت المعطف» كبيرة الأثر. وكانت الرقابة تغمض عينها، لأن السيدة دوبليه عمة شوازول. ولكن البوليس كان يراقب ما يجري في «الدير». وذات يوم، لم يعد شوازول يحتمل، فقد تجاوزت عمتـه الحدود.

لذلك أرسل البوليس مع أوامر مشددة بتفتيش «ديرها».

قالت لزملائها: أحرقوا كل شيء.

وحين قدم إليها المكلف بالتفتيش الأمر الصادر من ابن أخيها، رضخت، وسمحت له بالتفتيش، ففتش «الدير» كله، ولم يجد أية قصاصة.

ما الذي كان يأخذه شوازول على عمته؟ لم تلتزم بأية حملة صحفية، ولم تكن من الحماقة بحيث تهاجم الملك، أو تنشر الاشاعات عن خليلاته.

كانت الحرب بين فرنسا وانكلترا قائمة. وما أزعج شوازول وأغضبه، خبر غير صادق نشرته عمته.

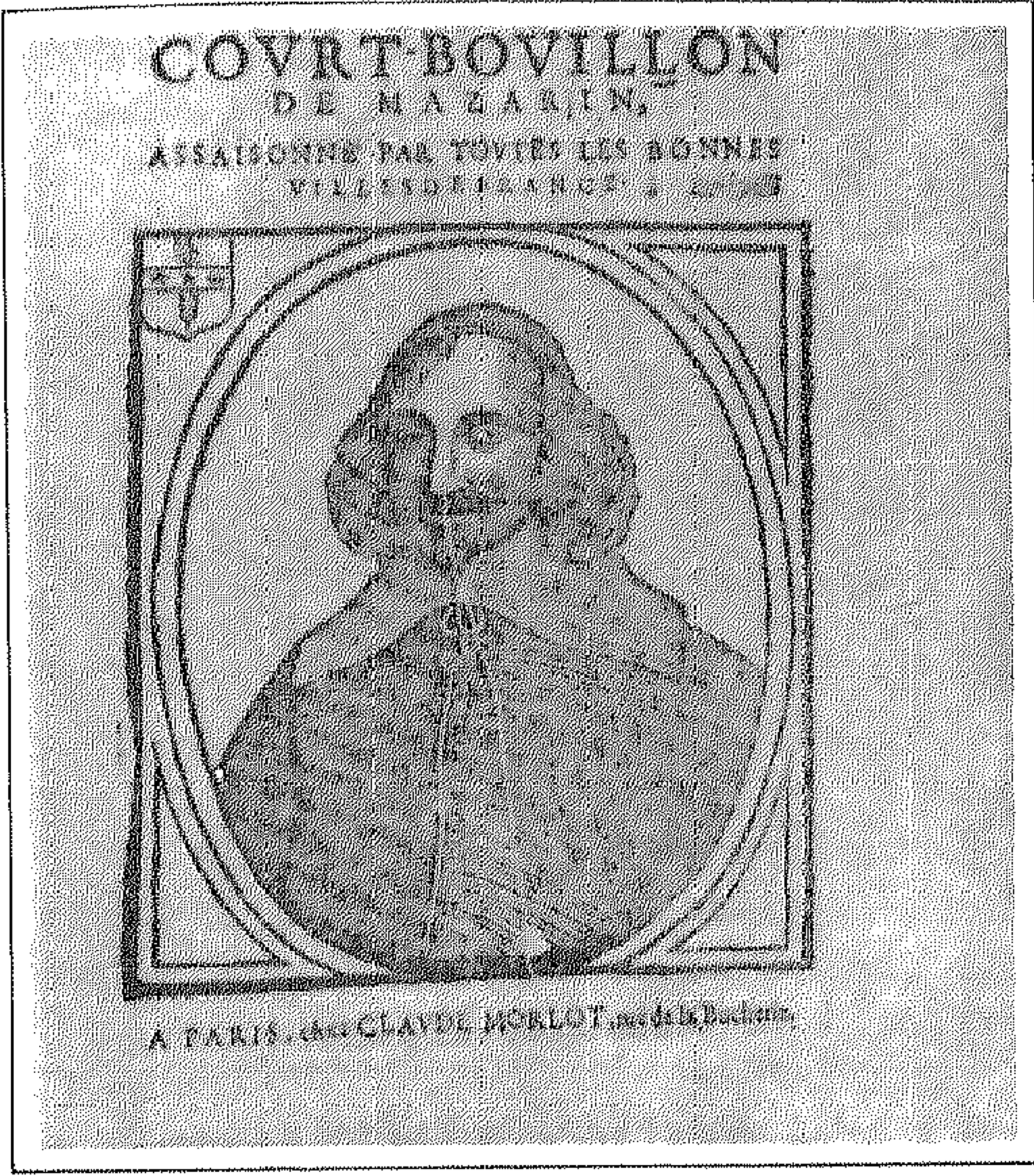
كتب شوازول بخطه إلى ضابط البوليس: «السيدة دوبليه، نشرت أمس خبراً يقول أن العدو سيطر على أسطول السيد دوبليناك. النبأ غير صحيح، ولا علم لي به مطلقاً. مع ذلك، ولما كانت مصائب كثيرة تصدر من «دكان» السيدة دوبليه، فإني لم أر بداً من اطلاع الملك على هذا العمل غير الحاذق، وعلى الأخبار التي تنشرها هذه السيدة، عمتي العزيزة. لذلك أمر جلالة الملك أن أكلفك بأن تقصد بيت السيدة دوبليه، وأن تبلغها أنه إذا صدر من بيتها أي خبر، بعد الآن، فان الملك سيأمر بحبسها في دير، حيث لن تستطيع توزيع أي خبر، ولو كان في خدمة المملكة».

الصحفيون في دير؟ لقد أربك ذلك الضابط. وخاف أن يسيء أو يعتقل عمة شوازول. ولكن السيدة دوبليه طمأنته:

ـــ قم بواجبك أيها السيد. ولكنك ترى أنه لا يمكن أن يتسرب من هنا أي خبر فيه عصيان أو تمرد. وليس لدينا ما نخفيه عن الملك.

وفي الوقت ذاته كان الفرن يحرق كل الأوراق، وكانت السجلات قد أخفيت. فليفتش ضابط البوليس، بعد أن اختفت كل الاثباتات. وخرج الضابط يائساً.

وماتت السيدة دوبليه بعد سنتين أو ثلاث. وفي مثل عمرها، آنذاك، لم يكن المرء ليخشى دخول الدير. لذلك استمرت في عملها اليومي،



الكاردينال مازاران الذي كان ملاك الرحمة بالقياس الى هجائيي عصره

كأنما لم يحدث شيء. ونسي شوازول الحادث. ولكنها وعدت نفسها ألا تذكر بواخر جلالة الملك بسوء. كانت صحافة «اليد» تستطيع السخرية من الملك، أو القضاء، أو الضرائب، أو مطران باريس، ولكن لايسمح لها أن تمس البحرية.

لا يمكن منع الأخبار من التسرب. ولم تستطع الرقابة الملكية أن تحكم على الصحفيين بالصمت. ولا يمكن منع فضول القراء. فاذا لوحقت الصحافة ازدهرت بالطرق السرية. لقد كان صحفيو السيدة دوبليه شرفاء، ولكن ذلك لا ينطبق على كل الصحفيين. كان بعضهم نصابين.

تعليقات ماروند المقلقة:

كانت بعض صحف «اليد» دورية، أو حدثية، (أي تصدر حسب الحدث وأهميته). وكانت متخصصة بالفضائح. وكانت تنشر شائعات خبيثة، وأخباراً كاذبة، ولكنها تخلق ضجات كبرى حول حياة البلاط، وكانت تنشر كذلك أشعاراً ضد الوزراء أو رجال البلاط. وإذا لم تمس الملك أو الملكة فقد كانت تشهر بالمحيطين بهما. ولم يكن صحفيو هذه الصحف الانتقادية، مثاليين، أو من تلاميذ روسو وفولتير. لقد كان بعضهم أنذالاً.

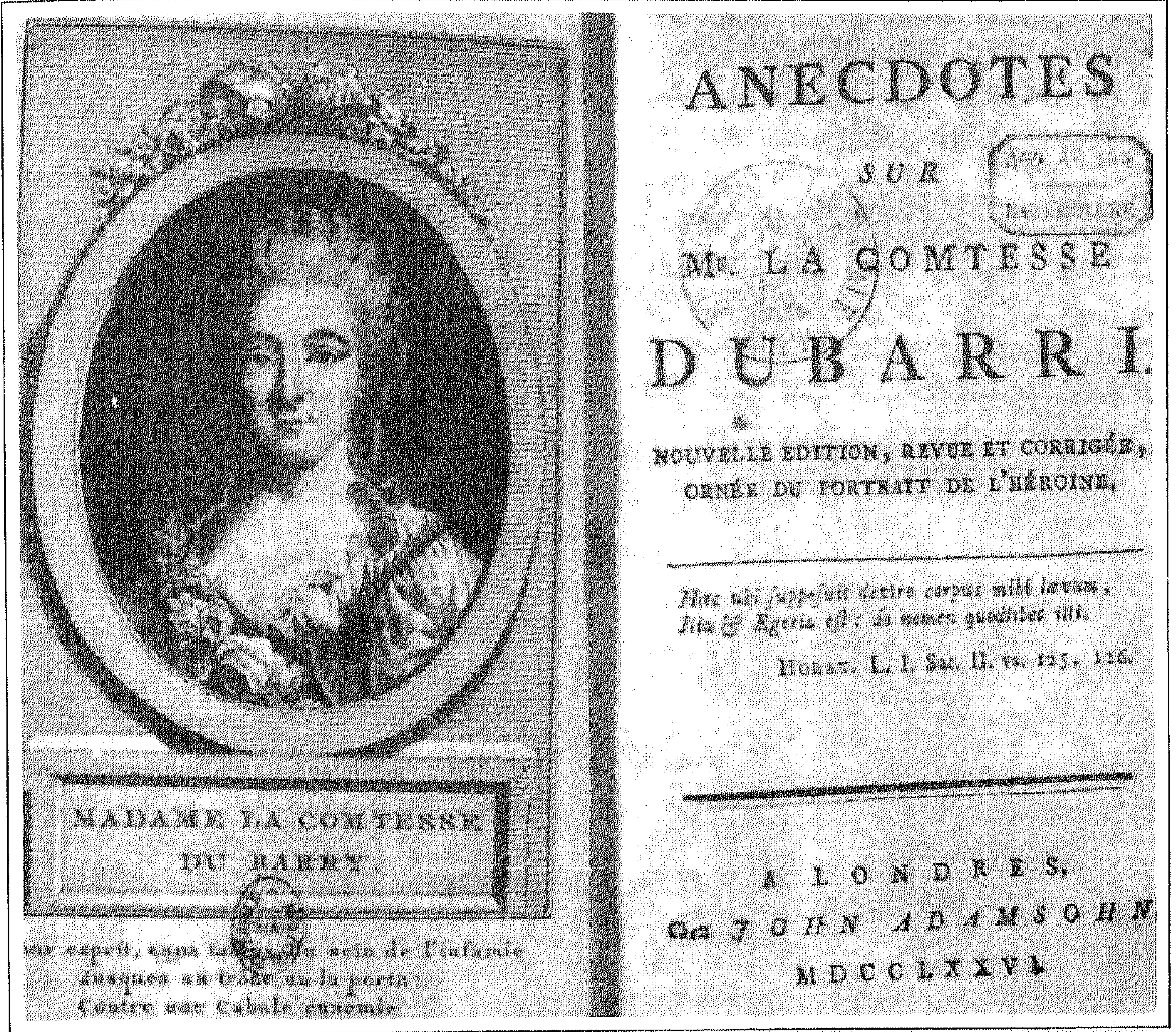
وقد عرف أحدهم شهرة كبيرة، واضطر للجوء إلى انكلترا. وقد تداول الناس كتاباته في باريس وفي فرساي، وكان من عائلة محترمة، وسمى نفسه ماروند. أما اسمه الحقيقي فهو شارل تيفولي، وهو ابن وكيل الملك في آرني لودوك، الذي أرسل ابنه الى ديجون ليدرس الحقوق، وليصبح كاتب عدل. ولكن الابن الشاب شارل كان يحب الخمر والنساء. التحق بالجيش، ثم فر الى باريس ليحيا حياة فوضوية. وليحظى بليال سعيدة، كان يعمد الى الغش في لعب الورق، أو الاحتيال على الآخرين.

كان ذلك صدمة لأبيه. فطلب من الملك أن يصدر أمراً باعتقاله دون تبيان الأسباب. فقد كان الملك يستطيع سجن أي كان، وساعة شاء، دون تبرير.

اعتقل شارل وسجن في «فور ديفيك»، ثم في «أرمانتير». وقضى سنتين في السجن. وحين خرج من السجن، ثار على كل شيء. لقد حبس دون محاكمة، وكانت عائلته من سجنه. ركب الى لندن حيث طلب اللجوء السياسي، بحجة أنه



السيدة دوبليه، الصحفية المرهوبة، مع أخيها المطران لوجاندر


MADAME LA COMTESSE
DU BARRY.

...ns esprit, sans talens, du sein de l'infamie
Jusques au trône on la porta:
Contre une Cabale ennemie

ANECDOTES
SUR
Me. LA COMTESSE
DUBARRI.

NOUVELLE EDITION, REVUE ET CORRIGÉE,
ORNÉE DU PORTRAIT DE L'HÉROINE.

Hac ubi supposuit dextro corpus mihi laevum,
Ilia & Egeria est: do nomen quodlibet illi.
HORAT. L. I. Sat. II. vs. 125, 126.

A LONDRES,
Chez JOHN ADAMSOHN.
MDCCLXXVI.

صورة مدام دوباري، وعناوين مقال لاذع ضدها

مضطهد. كان على وشك الافلاس. واكتشف انه قادر على الكتابة، فكتب هجائيات لاذعة، كانت تطبع في انكلترا وتوزع سراً في فرنسا. وقد لاقت إحدى مجموعاته رواجاً كبيراً، عام ١٧٧١. وأبدى النبلاء والبورجوازيون نهماً شديداً لقراءة نقده اللاذع، الذي أشاع الاشاعات حول رجال البلاط، وحول الفئة القليلة منهم التي تحظى بالمنافع الكثيرة بسبب وجودها في فرساي. وأرهق هذه الفئة بمجموعة مقالات عنها. ولما كان يعرف الكثير عن حياة بعض نساء البلاط السرية، فقد أضفى عليها تفصيلات جعلت منها قصصاً مسلية، رغم ما فيها من تحقير ونذالة. وكان يذكر الأسماء بصراحة، مما جعل قصصه قاسية جداً.

النصاب:

كان يعرف كيف يمزج الصحيح والخاطىء مزجاً دقيقاً فنياً. وكان يتصيد أحياناً الكاذب، ليصل إلى الحقيقي. وتكاثر قراؤه في انكلترا، خاصة في أوساط المثقفين، وفي ألمانيا وفرنسا. وقد استفاد موراند من أن معظم الأوروبيين المثقفين كانوا يجيدون الفرنسية.

كان يقرأ كما يقرأ فولتير: لنبرته اللاذعة، وسخريته الحادة. ولكن ما كان يناله من الناشرين لم يكن يكفي لحياته العابثة. لذلك فكر بالربح بطريقة أخرى. كان يكتب لضحاياه في كتاباته المقبلة أنه سيغض الطرف عنهم إن دفعوا له «الفدية». هكذا تحولت الصحافة لديه

وسيلة نصب واحتيال.

أخطأ موراند خطأه الكبير، إذ اختار فولتير ضحيته. فكتب اليه يطلب منه مالاً وإلا حطمه بقلمه، ونال منه ككاتب. واكتفى فولتير بنشر الكتاب.

وحاول ابتزاز الدوق برانكا. وهدده بالتشنيع عليه. فسافر الدوق إلى انكلترا مصحوباً ببعض رجاله. ولقي موراند وأجبره على توقيع وثيقة بأنه قبض منه «الفدية» وأنه يلتزم بنشر خبر في الصحف البريطانية يعلن فيها انه غشاش مزيف.

وحين حقر هذا التحقير، أراد أن يعيد اعتباره «بضربة» كبيرة. فقرر مهاجمة الملك. وأنبأ قصر فرساي أنه يملك إثباتات كافية لكتابة كتاب من ثلاثة أجزاء عن حياة مدام دوباري المنحطة. بل أشار إلى عنوان الكتاب: مذكرات امرأة مومس. ووعد أن يحرق مستنداته إذا دفع له خمسمائة لوي (اسم عملة) مقدماً وأربعة آلاف ليرة شهرياً. وطلب أن يدفع لعائلته الراتب بعد موته.

اغتاظ الملك لويس الخامس عشر كثيراً. وأرسل إلى الحكومة البريطانية يطالب، سراً، بنفي موراند، أو اضطر الى اتخاذ موقف. فكتبت الحكومة البريطانية تقول انها لا مانع لديها من عملية «اختطاف» سريعة.

أرسل الملك عملاءه لاختطاف موراند. ولكن موراند علم بالنبأ فاتخذ احتياطاته. وتصرف العملاء بحماقة، إذ حاولوا اختطافه في الشارع العام، فراح موراند يصرخ ويطلب النجدة.

تدخل الانكليز وساعدوه، فشرح لهم أن عملاء الملك الفرنسي يحاولون اختطافه لأنه معارض. فهرب عملاء الملك.

طبع ثلاثة آلاف نسخة من «مذكرات امرأة مومس». وخشيت فرساي أن توزع في كل اوروبا، فجن جنونها، وأرسل الملك بومارشي منشيء الفيغارو ليشتري النسخ مهما كلف الثمن.

التقى بومارشي موراند، ودفع له عشرين ألف ليرة، عدا راتب شهري له ولعائلته بعد موته، ومقداره أربعة آلاف ليرة. وأخذ بومارشي ٩٠٠ ليرة كمصاريف.

حرية مؤقتة:

عاد موراند إلى بلده آرني لودوك في فرنسا غنياً، وعين قاضياً. وكتب اليه بومارشي يقول: «لقد فعلت حسناً يا سيدي، وأثبت لي انك عدت نقي الضمير، يحدوك شعور الفرنسي الشريف، بعد أن أنبك ضميرك على الانحراف طويلاً».

كان الفلاسفة تلك الفترة ينادون بحرية الصحافة. وقد احتج ديدرو وروسو وفولتير على الرقابة. وكتب جوكور يقول: «كل بلاد لا تسمح بحرية التعبير والتفكير، محكوم عليها بالبلاهة والبربرية».

أواخر «العهد القديم» الخامس من تموز ١٧٨٨، صدر قرار عن المجلس الأعلى ينظم الصحافة، ويمنحها بعض التسهيلات. وصدرت عدة صحف دورية، حتى قبل بدء الثورة. وكتب ماليرب نفسه مقالاً حول حرية الصحافة.

وصدر في اعلان حقوق الانسان القرار التالي: «التعبير عن الأفكار والآراء من حقوق الانسان الثمينة. لكل مواطن الحق في الكلام والكتابة، والنشر بحرية، شرط ألا يتمادى في استخدام حريته فيخالف القوانين المرعية». ■

الهوامش

(١) كلمة (Canard) بالفرنسية تعني البط. وقد أطلقت على نوع خاص من الصحف فصار عامة الناس يستعملونها بمعنى الجريدة.

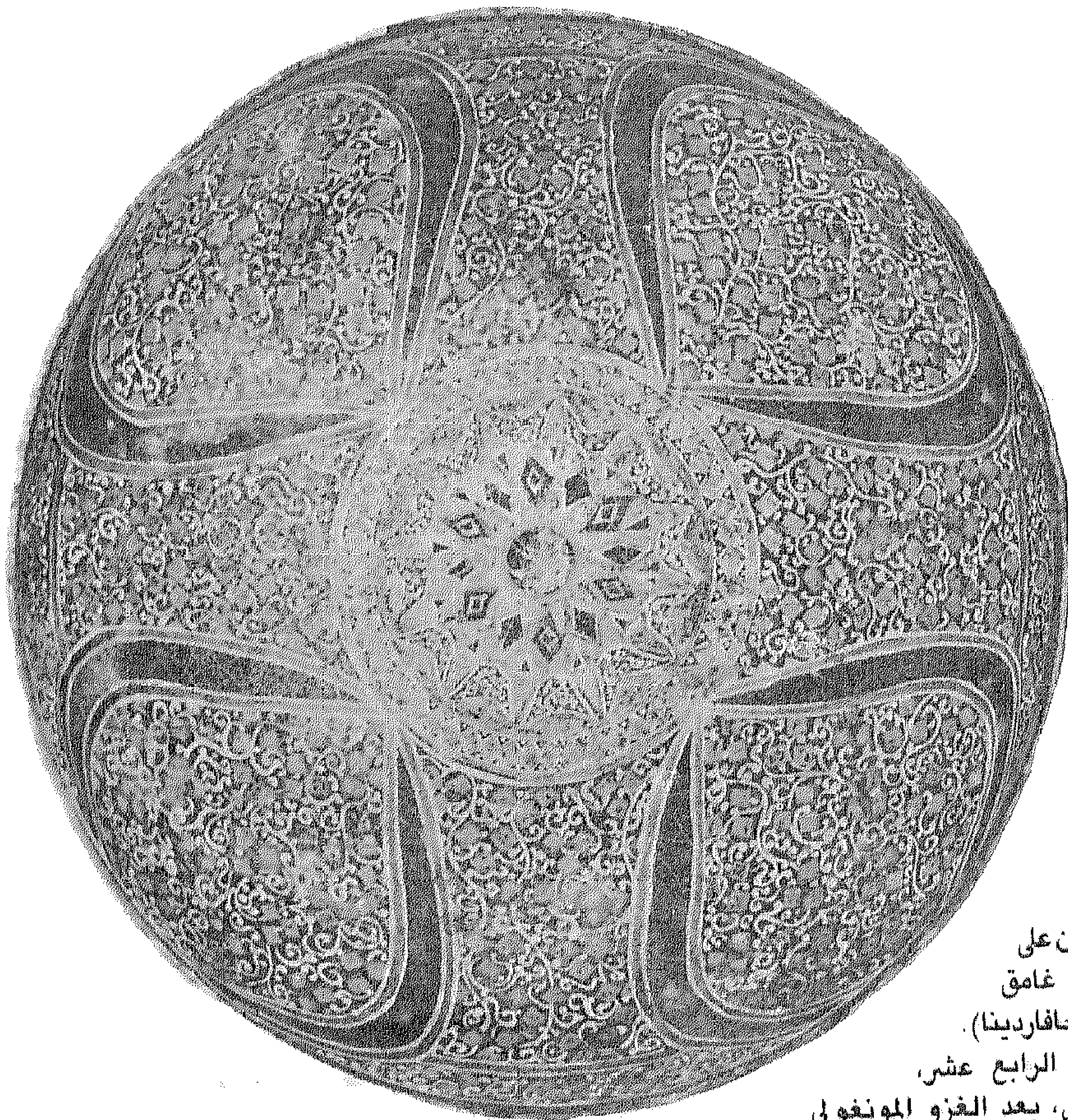
(١) بعض هذه الصحف كان انتقادياً.

الأمير والبيطار

□ استعرض هشام بن عبد الملك جنده ذات يوم فتقدم رجل حمصي بفرس كلما قدم يتأخر فقال له هشام: ما هذا؟ قال: ياسيدي انه فرس مقدام، ولكنه شبهك ببيطار كان يعالجه ففر! فضحك هشام وأمر له بجائزة.

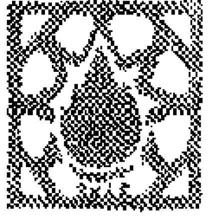
سيراميك الشرق المسلم

ترجمة د. سامي زكي



كأس
مزين بهالات
ونجوم. تزيين على
خزف ازرق غامق
من نمط (لاجافاردينا).
ايران. القرن الرابع عشر،
العهد الخاني، بعد الغزو المونغولي

تقول السيدتان: شاريتا، ومولييراك[1]، اللتان نقدم دراستهما هنا: «لا سبيل الى المقارنة بين السيراميك الاسلامي، والسيراميك الأوروبي. فالاسلامي يتميز بالتنوع، وحداثة تقنية، صانعي الأواني المسلمين، وغني الخزف، والتزيين، والفن الكامل الذي استوحاه العصر الأوروبي الوسيط، وعصر النهضة».



اقيم في باريس مؤخراً معرضان يلقيان ضوءاً شاملاً على مختلف مظاهر الفن الاسلامي: «فنون الاسلام من الأصول حتى ١٧٠٠» و«الاسلام في المجموعات العالمية»، ولكنها لا تقدم إلا عدداً محدوداً من الخزفيات، مع العلم ان السيراميك فن من الفنون الأساسية لهذه الحضارة الاسلامية، وهو جدير بدراسة استثنائية مخصصة له وحده.

يحتوي متحف اللوفر على مجموعة ذات شهرة عالمية، ولكن القليلين استطاعوا مشاهدتها بسبب عدم وجود مكان لعرضها، وهذا مؤسف حقاً.

من جهة ثانية، استطاع هذا القسم من المتحف ان يغني موجوداته بالشراء، او الهدايا، او الوصية. وثمة قطع عديدة، ذات قيمة خاصة، عرضت لأول مرة.

لقد حقق معرض متحف الفنون والتجارب امرين: الأول السماح للجمهور برؤية قسم كبير من المجموعة، واعطاء صورة عامة لمظاهر الفن الاسلامي، منظوراً اليه من زاوية تقنية، لا فنية واسلوبية. وكان لاسهام مختبر الأبحاث في متاحف فرنسا الفضل في التركيز على دراسة التقنيات الأساسية التي استخدمها صانعو الأواني.

اصل القيشاني:

لا بد من القول، بادىء ذي بدء، ان الخزافين المسلمين استلهموا القيشاني (الصيني) الذي شاع كثيراً ــ السيراميك المصنوع من عجينة فخارية مغطاة بخزف رصاصي، اذهبت شفافيته بحامض القصدير ــ واذا كانت بعض القرميدات المغطاة بالمينا، في



جرة من السيراميك، حفر ونقش. مابين النهرين، القرن العاشر

سوس، قد احتوت على رصاص وقصدير، فقد كان ذلك في اوائل العصر العباسي فحسب، القرن التاسع في ما بين النهرين، ذلك ان الخزافين ارادوا تقليد الخزف الصيني فبحثوا عن طريقة لصنع خزف غير شفاف على السيراميك.

وبعد تجارب عديدة حصلوا على نتائج مرضية، وذلك باضافة حامض القصدير الى خزف مرصص. بلغت هذه الطريقة مصر ثم اسبانيا وايطاليا، خلال قرون. ثمة نقطة ثانية جديرة بالانتباه: كانت مصر، ومابين النهرين، تعرفان ــ في العصور القديمة ــ استعمال المعجونة الصناعية، او المعجونة الصوانية (لأنها تحتوي على ٨٠ الى ٩٥ ٪ من (SiO_2)، بينما لا تحتوي المعجونة الفخارية اكثر من ٥٠ بالمائة).

هذه الطريقة، استخدمت في مصر في العهد الفاطمي، بعد محاولات وتجارب طويلة، واستخدمت كذلك في ايران في المرحلة السلجوقية، وسوريا العهد الأيوبي، والمرحلتين الصفوية والعثمانية. وقد تحقق، بنوع خاص من الشي في ايران مثلاً، خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، نوع من الخزف ذو ديمومة طويلة، زجاجي الى حد ما، شفاف، على قدر من السمك، وتلك خصائص يتميز بها عادة البورسلان الطري. هنا، كذلك، السيراميك الاسلامي متقدم عدة قرون على الانتاج المماثل الغربي، ولكن القيشاني يمكن تتبع مراحل انتشار اسسه، فيما توقف الانتاج الايراني،

(١) ماغي شاريا، وجان مولييراك: المكلفتان بالقسم الاسلامي من متحف اللوفر.

نتيجة التغيرات الكبيرة الناجمة عن الغزو المغولي، لذلك يمكن القول ان المعجونة الطرية الأوروبية لا تدين لتأثير الصناع المسلمين.

التقنيات التزيينية الأساسية:

دراسة التقنيات التزيينية الأساسية، هامة جداً لأنها تشير الى تنوع في التقنية، في استخدام المعجونة وطبيعتها، او الطلاء الخزفي، ووجود الدهان الفخاري، او عدمه، والمجموعة التزيينية، والأشكال المستعملة.

كان اللمعان المعدني والتزيين ذو الألوان الشبقة اهم التقنيات النادرة، واكثرها ذوقاً، فقد تميز بحرق ثان بعيداً عن اللهب المباشر.

التزيين اللامع:

لا نعرف اصوله على وجه التحديد. ويبدو انه طبق بادىء ذي بدء، في مصر وسوريا، على الزجاج. واقدم ما عرف منه كأس لحاكم مصر عام ٧٧٣، وجدت في حفريات الفسطاط. ثم استخدم على السيراميك، في ما بين النهرين. كما



شقف عليه رسم شخصي. لون واحد براق، على خزف ابيض قاتم.
مصر الفاطمية، XII°-XI°

ان الحفريات في سامراء، وسوس، والفسطاط، قدمت لنا عدة نماذج من القرن التاسع. فاللمعان يمنح القطع ذات الخزف الأصفر انعكاساً براقاً. ثم جرب الخزافون تعدد الألوان، مع تدرج لوني في الألوان البنية والصفراء والحمراء والخضراء، على ارضيات



دلو عليه قينات وفينيق. الري XIII°-XII°، من المينا □ صحن عليه رسوم اشخاص من المينا الري XIII°-XII°

بيضاء او رمادية. ثم استقروا على لمعان وحيد اللون، لسهولة تحقيقه دون ريب. اما طريقة الحصول عليه فسهلة: تخفيض اوكسيد النحاس، والفضة، في الفرن، او خليط من الاثنين، موضوع على سطح قطعة مخزفة ومشوية مرة من قبل: والشي الثاني يكون في افران خاصة، بعيداً عن اللهب المباشر، في حرارة اقل من ٦٥٠ درجة. يلين الخزف قليلاً، وتمتزج به القشرة المعدنية التي نحصل عليها من تخفيض الأوكسيد، لتشكل قشرة لامعة لا تبلى. كان لهذا النموذج موجة انتشار كبيرة وقد بلغ اسبانيا، كالقيشاني، مع السيراميك العربية ــ الاسبانية، وايطاليا.

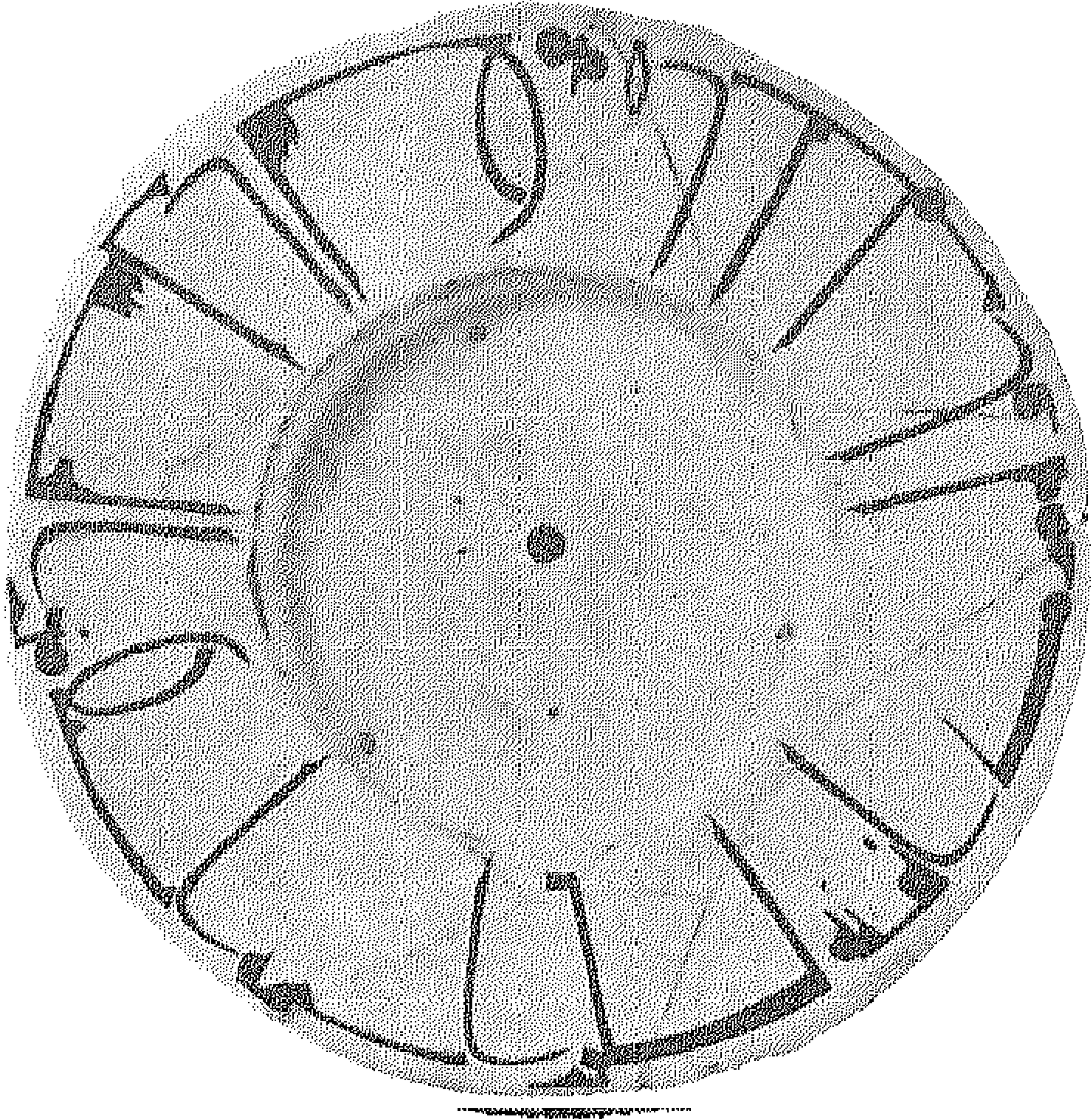
التزيين السباعي اللون:

هو تزيين ايراني ويدعى «المينا»، ويطبع بواسطة اوكسيدات معدنية، على خزف شوي وثبت، بشيّه مرة او مرتين بدرجة حرارة تقل عن ٦٠٠ درجة، بعيداً عن اللهب المباشر، ضمن غلاف فخاري، في جو اوكسيدي. هذا هو مبدأ النار الخفيفة المكتشف في اوروبا، القرن الثامن عشر، ولكنه عرف في ايران منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر. اما الألوان المستقلة اكثر من غيرها فهي الأزرق، والأسود، والأحمر القرميدي، والبنفسجي، والأبيض، والذهبي الموضوع بالورقة. هذه التقنية الدقيقة المكلفة، ظلت تستخدم زمناً بعد الغزو المونغولي (استخدام الوان محدودة) ثم تركت في نهاية القرن الرابع عشر.

هذه الأمثلة (القيشاني، المعجونة الطرية، والنار الخفيفة، والبريق المعدني) تدل على تقدم التقنية الاسلامية واهميتها لفهم السيراميك الأوروبي.

تاريخ الخزف الاسلامي الطويل:

منذ القرون الأولى للاسلام، نشأ فن جديد. قد يكون ورث حضارات سابقة (الساسانية في ايران، اليونانية والرومانية والبيزنطية في سوريا، والقبطية في مصر)، استقى منها الخزافون المسلمون، ولكن هذا الارث التقني الايقوني قد تجدد، وطور، فأتى بعمل فني مختلف وفريد.



صحن مزين بالخط رمادي على ابيض، فوقه طبقة خزف شفاف لا لون له. ايران، نيسابور، العهد السامانى X°-XI°

العصر العباسي: من القرن الثامن الى العاشر:

نجهل، مع الأسف، ماكان السيراميك في العهد الأموي. والعكس صحيح بالقياس الى العصر العباسي (القرون الثامن والتاسع والعاشر) فثمة صحاف فخارية او مطلية بالخزف، بلون واحد، ورسوم نخيل، او عقود، او اشرطة مرصعة، تذكر بمظهر المجوهرات، ومصنوعة بدقة. كذلك السيراميك اللامع، الذي استخدمت فيه الوان مختلفة، والذي ترك فيما بعد. تجد دائماً قاع الصحن أو الكأس مبطناً برسوم تجريدية او تمثيلية، وقد تلون الأطراف، بضربات ريشة، او ميداليات ضمنها سوق مرقطة، هي اغلب الظن (ماركة المحترف). اما التزيين فبلون الكوبالت الأزرق، او الأخضر او البني، على خزف عاتم ابيض او رمادي، يدهشنا بأسلوبه الذي يستخدم اشكالاً هندسية تصحبها احياناً جملة تمنيات، او توقيع.

اما السيراميك المطلي بخزف، المزين بالحفر تحت طلاء اخضر، او اصفر او بني، فيذكر بالانتاج الصيني من عصر «التانغ» دون ان ننسب الأسبقية لأحدهما.

من جهة ثانية، وجدت في المراكز المدنية



السـامانيـة في الشمـال الشـرقي من ايـران (سمـرقند، نيسـابـور) مجمـوعـة سيـراميـك استخدمت فيها تقنية خاصة: فالزينة مرسومة على ارضية فخارية لونهـا كريم، بفخـار بني او قـرميدي، عـلى ان افضل مـا فيه الكتـابة العربية. فثمة امثال، وحكم وجمل تعبر وسط الصحن، او تملأ حوافيه، كهذه «العلم، طعمه في البدء مر، ولكنه في النهاية عسل». احياناً تتحول الحـروف الى اشكال من الزهـور او الطيـور، تصعب معها قراءتها.

مهما يكن، فان هذه المرحلة تتميز بناحيتين: الكتـابة، والأرابسـك، الطبيعي او التجريـدي، فلا بدء له ولا نهاية.

مصر الفـاطمية بـين القرنـين العاشر والثاني عشر:

تـركت لنا مصر الفـاطمية مـا بين القـرنين العاشر والثاني عشر، عدة قطع مزينة، بحفـر تحت طلاء خـزفي شفاف ملون. وقـد انتجت خاصة قطع سيراميك رائعة براقة، على طلاء عاتم ابيض او ملون بلون خفيف. ويذكر نمطها الايقوني بسيراميك سامراء، ولكنه يذكر كذلك بالأنسجة القبـطية، ذات الرسـوم الحيوانيـة، او الوجوه ذات العيون الواسعة كثيراً المدورة.

وعاء كروي عليه كتابة، التزيين مرسوم بالاسود، تحت خزف شفاف توركواز. سوريا XII°-XIII°. العهد الايوبي

ويترك وسط الصحن لرسوم بارزة وفريدة نجد مثـل هذه الخـزفيـات في المتحف العـربي في القاهرة. وثمـة صحاف متقنـة، عليها رسـوم اغصان نباتية مورقة.

العصر الأيوبي:

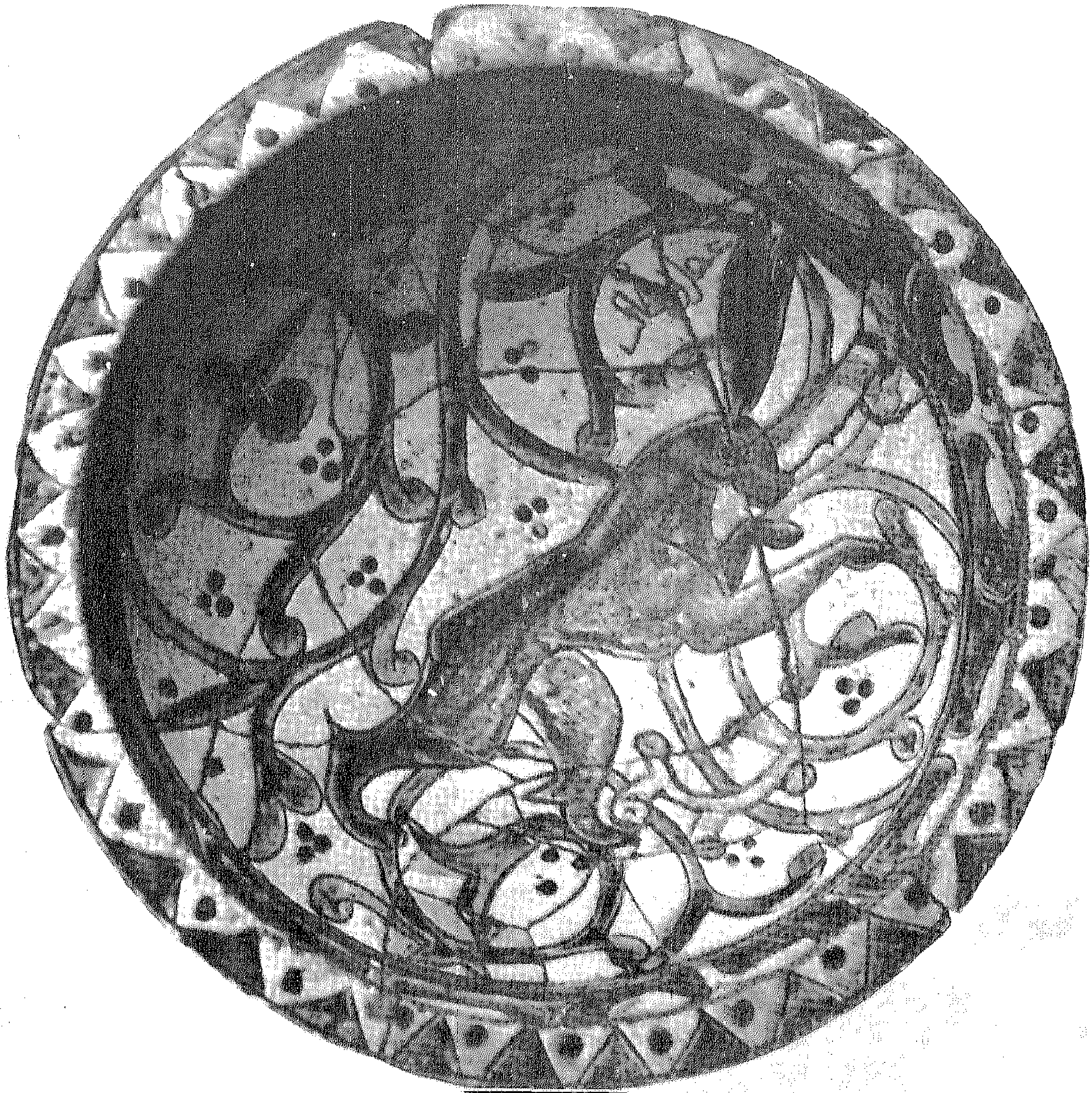
تطور هذا النموذج من السيراميك في العصر الأيوبي (١١٧١ ــ ١٢٥٠)، وتنوع انتاجه في سوريا، وخاصة الرقة. ففي القطع ذات التزيين اللامع، يشرك اللمعان بالأزرق، ويوضع فـوق خزف شفاف. وقد لونت عدة قطع سيراميـك بالأزرق والأسود تحت خزف شفاف لا لون له، او لونت بالأسود تحت خـزف لامع لازوردي. وقد اضيف احياناً الأحمر الى الأزرق والأسود خاصة شقف الخزف التي وجدت في حفريات الرصافة.

في قعر الصحون والكؤوس المزينة بتشكيلات من الأحرف والأغصان، تميل طبقة الخزف الى ان تبدو بقعة عريضة يغدو معها التزيين قاتماً.

اما مصطلح «السيراميك المتقاطع» فطبق على آخر انواع السيراميك، المثلومة التزيـين، فوق



صفحة من «كتاب الترياق» تمثل مسرح البلاط. الموصل، اواسط القرن الثالث عشر



«وعاء الارنب»، ايران. القرن الثاني عشر، العهد السلجوقي

دهـان فخاري، وتحت خـزف اخضر، واصفر، وبني، وهو مألوف في عدة مناطق حول المتوسط (سوريا، بيزنطة وقبرص).

ايـران السلجوقية: عصر السيراميـك الاسلامي الذهبي:

ثمة علاقة ثابتة بين اعمال الشرق الأدنى العـربي واعمال ايـران السلجوقيـة. فقد بلغ السيـراميـك الاسـلامي العصر الذهبي، وقـد تجسـد في تنوع الأشكـال، ونوع المعجـونـة، وابتكار زينات سطحية.

ولا بد من ذكر الانتاج الريفي وتمييزه عن نتـاج المدن. ففي الريف البعيـد، في المنطقـة الجبلية من زنجان، ملجأ اتباع زارادشت، كان الخزافون يستخدمون تزييناً خاصاً، مستمـداً من التقاليد قبل الاسلام، فالميناء على الدهان الفخاري، مغطى بخزف ملون، وقد نجد صوراً لحيوانات خـرافية بحجـوم غريبـة. ففي اطار اغكاند، تتميز الاطارات بمواضيع مرسومة على طبقـة فخـاريـة بيضـاء، ملونـة بلون الأرض الحمـراء. تنتسب الى هذه المـدرسـة الكـأس الموقعة بتـوقيع (ابي طالب) حيث رسم عليهـا ارنب ذوانين طويلتين ممتدتين بـين اغصان ملتفة.

امـا في ظل المـدن الأقـرب الى السلطة، فالسيراميك اكثر ذوقاً، ومختلف تماماً. فالقطع بيضاء جداً وقاسية جـداً، ومحفورة الأطراف او مثقفة، وتذكر بعهد السـونغ الصيني. وفي هذه الحال، نقل الخزافون مظهر البورسـلان (تقترب اشكالها من اشكال اواني المعدن) وقد حققوا احياناً انواعـاً من السيراميـك الناعم. ويمكن تفسير اثر التقنيات والأسلوب، اذ وجدت شقف صينيـة في سامـراء، ومـرافئ الخليـج العربي. ولدينا نصوص عربية تؤكد العلاقات الاقتصادية منذ العهد العباسي بين الشـرقين الأوسط والأقصى. مما يؤكد ان الخزفيات، رغم قـابليتها للكسر، ســافـرت كثيـراً منـذ اقـدم العصور.

وظهـر السيراميـك اللامـع، والسيـراميـك المشـوي على نـار خفيفة، عـلى بعض القـطع الصغيرة المعاصرة، ويسودهـا طابع ايقـوني، مصدره على الأغلب الموصل، وترجع الى بدايات القرن الثالث عشر. وتقع على نماذج من ذلك، في تزيينات كتـاب «الأغاني»، وكتـاب «الترياق»، الموجودين في مكتبـة باريس الوطنيـة، ومكتبة فيينا.

في هذه الفترة تظهر رسوم الراقصات والخدم والموسيقيـين محيـطين بـالملك عـلى عـرشـه، وهو يقبض على الكأس، او يقوم بالصيد. وتحيط بالوجوه هالات مدورة، اما الحواجب فـرفيعة وتصـل الى قاعـدة الأنف، فوق عيـون طويلة مكحلة كحلة ناعمة.

لا يمكن حتى اليوم تحديـد انتساب هـذه الأنواع، ولكن تذكـر مناطق كـاشان، والري، والصفا، وجرجان. فثمة قـطع كثيرة لم تمس (وضعت في جرار ابان الغزو المنغولي)، وجدت في جرجان، ولكن لا اثبات على مكان صنعها. اما الكتابات حول سلالات الخزف، المـوجودة على اوان استقدمت من كاشان، فلا تتيح لنا معرفة مصدرها. مع ذلك فان ملامحها وبعض الخطوط والتوقيعات، توحي ان مصدرها واحد.

المرحلة المونغولية الخانية:

يبـدو ان الغزو المـونغولي لم يـوقف نشاط معامل السيراميك الايرانية نهائياً. بعض المراكز



شقفة عليها رسم. تزيين بالمينا عـلى خزف قـاتم ابيض. ايران XIII-XII. العصر السلجوقي

مثل الري وجرجان ونيسابـور اختفت تمامـاً، ولكن مراكز اخرى ككاشان استمر نشاطها. على أن التقنيـات المستخـدمـة في الحقبة الخـانية (١٢٥٦ ــ ١٣٣٦) لم تكن متنـوعـة. فـقـد استخـدمت اساليب وتـزيينات مستـوحاة من الصين وآسيا الوسطى، وتغلب فيها صور التنين والفينيق، وطائر اسطوري طويل الذنب، وزهرة اللوتس، برعماً او متفتحة جداً.

امـا اللمعان فمـزيـج بـالأزرق. وقـد بقي مستخـدماً حتى نهـاية القـرن الرابـع عشر. واستعـين بـالنـار الخفيفـة، في قـطع تـدعى مجموعتها لاجـافاردينـا. اما مـواضيع الرسم فلونها اسود او احمر او ابيض، وتحتها اجزاء من اوراق ذهبية على دهان فخاري تـوركواز او ازرق غـامق. واستخـدمت انمـاط الشـرق الأقصى او الجدائل والأرابسك.

مع ذلك كان الانتاج الكبير في هذه المرحلة، رغم شكله الغليـظ، هو الانتـاج المنسـوب الى سلطان آباد. اما التزيين فتحت دهان فخاري



كاس مزين بمناظر طبيعية. لون واحد لامع. على خزف شفاف ازرق. ايران، القرن السابع عشر، السلالة الصفوية، التاثير الصيني من مرحلة مينغ واضح



زجاجة مزينة بمناظر طبيعيه. وهي مرسومه تحت خزف شفاف غير ملون. ايران نهاية القرن السابع عشر، السلالة الصفوية

لا لون له، على ارضية رمادية وبيج، مع طبقات من الدهان الأبيض المخطط بخطوط سوداء ميالة قليلاً الى الرمادي. اما المواضيع المرسومة فهي الأوراق المدورة ذات الشعيرات، كتلك التي نجدها على المنسوجات الحديثة.

مصر المماليك:

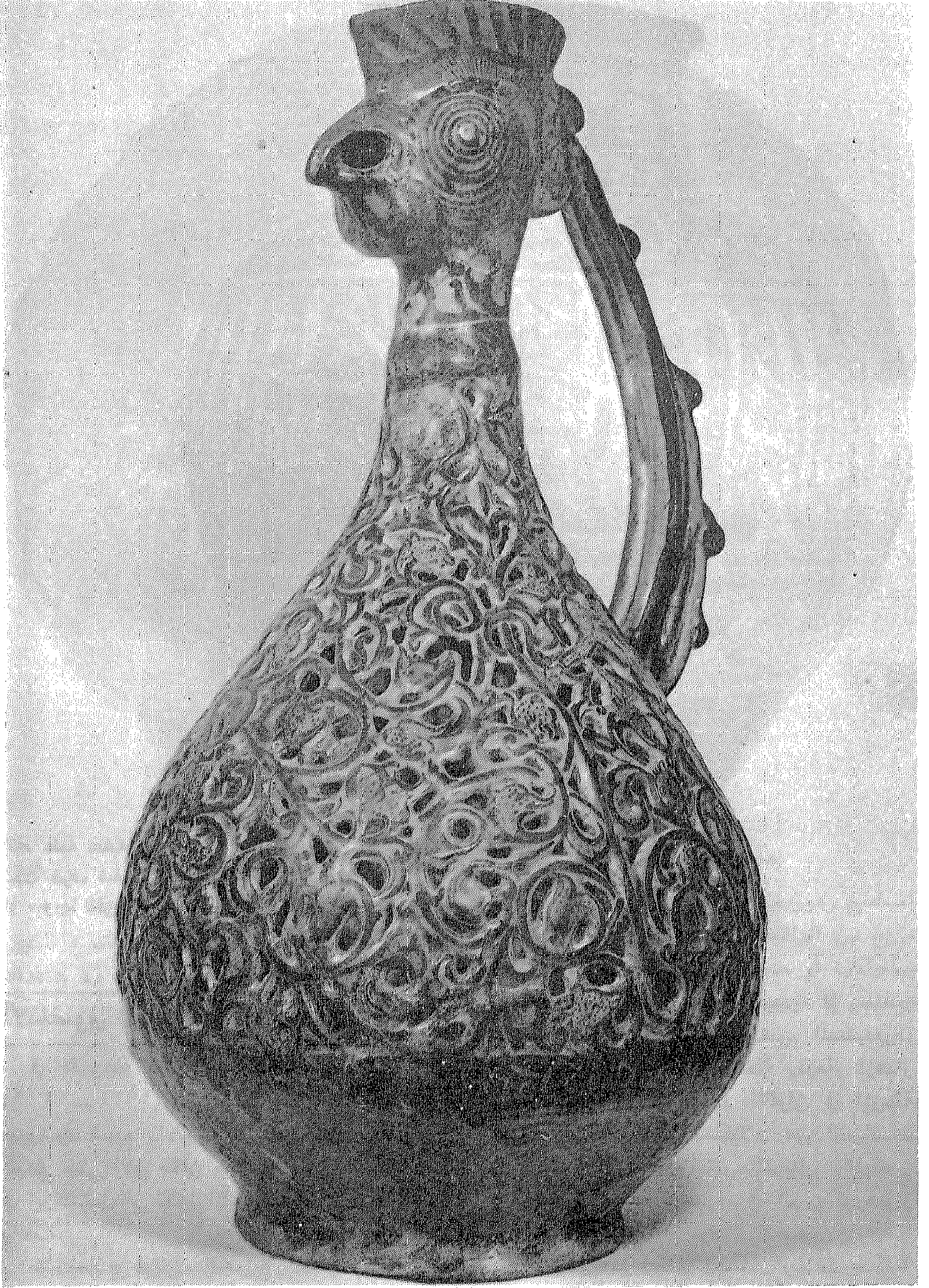
استخدمت مصر المماليك (١٢٥٠ ــ ١٥١٧) التقنيات ذاتها، مع ميل الى الكتابة في التزيين. ونلقى اهمية هذه الخطوط على قطع صفراء وبنية ذات اطراف مسننة، على دهان فخاري. وكانت تصنع احياناً حسب الطلبات الشخصية، لأنها تزين احياناً بألقاب او شعارات اعضاء العائلات العسكرية في السلطة.

من جهة ثانية، كشفت حفريات الفسطاط عن شقف ذات تزيين متعدد اللون، وشقف تقلد انماط البورسلان الأبيض والأزرق والأزرق الفاتح. كما وجدت قطع بورسلان مستوردة من الصين، تنتسب الى آخر نموذجين انتجا هناك.

السلالة الشيعية الصفوية في ايران:

في مطلع القرن السادس عشر، تسلم السلطة في ايران الصفوية (١٥٠١ ــ ١٧٣٦) التي انعشت الصناعات الفنية. ففي مجال السيراميك نجد الأنماط الصينية في كل الشرق الأدنى. فثمة مجموعة كبيرة زرقاء او بيضاء، مستوحاة من عهد مينغ.

ولكن كان خزافو هذا العهد يستخدمون تقنيات معروفة، بعضها افلس فنياً. لذلك اعطيت القطع لمعاناً جديداً، في خدمة اشكال مختلفة، وفي تزيين شديد الأناقة. فالبورسلان الطري عاد الى الظهور، خاصة في الكؤوس الصغيرة البيضاء، الشفافة تقريباً. كما وجدت قطع مزينة بمواضيع دقيقة، يفصل بينها قشرة من دهان فخاري ملون. واحياناً يرتسم التزيين فوق خزف شفاف، او يظهر البريق بعد قرنين من الانحسار. وقد ظهرت الزجاجات الطويلة العنق المستديرة البطن، المزينة بالحيوانات او الزهور او الغصون المورقة.



مشربية برأس ديك. سيراميك، مزين برسوم وحفر تحت الخزف. ايران، كاشان، مطلع القرن الثالث عشر، العصر السلجوقي



إناء عليه كتابة زين رسماً، وبطلاء فخاري تحت خزف شفاف لا لون له. مصر المماليك او سوريا القرن الرابع عشر

الأناضول العثمانية، انتاج مبدع:

في المرحلة ذاتها، ابدعت الأناضول (١٣٠١ ــ ١٩٢٤) التي ظلت حتى ١٥٠٠ تنتج سيراميك شبيهاً بالايراني، ابدعت نماذج نادرة. نجهل حتى الآن مكان صنعها، ولكن الحفريات في ايزنك تدل ان تطور الأساليب حدث في منطقة واحدة.

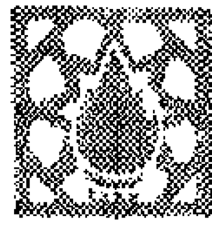
من نماذج ايزنيك النموذج المدعو (ابراهيم كوتاهية) (نهاية القرن الخامس عشر ومطالع السادس عشر)، وهو ازرق وابيض. والتزيين مرسوم احياناً بالأزرق على الأبيض، او يستعين بمواضيع صينية (اللوتس، الغيوم المستديرة) او المحلية (نخلة، نصف نخلة رفيعة، ازهار متنوعة). وقد حل تعدد الألوان في المرحلة التالية، واستخدمت تشكيلات من النباتات والتوليب، والورد، والزنبق، والقرنفل، واللوتس، مع غصون دقيقة مزهرة، في الوان توركواز او اخضر زيزفوني، او موف وبنفسجي.

وجاء الأحمر ليكمل القائمة. وخلقت سماكة «الوعاء الأرمني» انتفاخاً بسيطاً تحت الخزف الشفاف اللامع. ويزين ارضية الصحاف

صحن زينة نباتية. تركيا، ايزنك، منتصف السادس عشر. اناضول العثمانية

اضاميم زهور متحدة مع الأمواج والصخور، في مزيج من الواقعية والأسلوبية. وتندر التزيينات بالمراكب او حراشف السمك. هذه الأنماط مرغوبة في اوروبا، وقد اقتناها الفرنسيون في عصر النهضة على نحو مجموعات كاملة.

هذه خلاصة، ولكنها لا تفي بالتنوع الكبير، والتقنيات المختلفة، وروعة الابداع، ولا بد لذلك من دراسة اشمل. ■



● لا أمل للبشر في الحياة الا إذا أخرجوا الملح من مياه البحر!

(دكتور هـ. هاينمان)

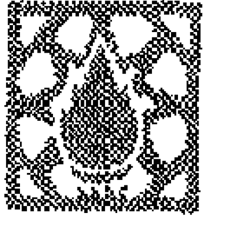
● إنني أحب كل الذين يكافحون من أجل حريتهم.. أقصد أولئك الأميركان الذين يهاجرن ليعيشوا في أوروبا!

(نانسي ميتفورد)



ميشال اسطفان

الطوابع ذات الموضوعات الخاصّة



لقد أصبحت هواية جمع الطوابع متفرِّعة كثيراً، خصوصاً بين الهواة في البلدان الأجنبية، فبات كثيرون لا يجمعون طوابع بلد معين، بل موضوعاً معيناً أو أكثر من الموضوعات التي يفضلون عن غيرها، مثل طوابع الطيور أو الأزهار أو اللوحات المشهورة إلى غير ذلك، لدرجة جعلت المؤسسات الطوابعية تصدر كتالوجات ومجلدات خاصة بها.

ولما تسرَّبت هذه النزوة إلى الهواة العرب أيضاً، رأينا أن نكتب عنها بصورة دورية، مبوَّبة ومصورة، لنسهل لهم عناء التفتيش عنها في الكتالوجات العالمية، التي يندر وجودها لدى معظم الهواة لارتفاع أثمانها.

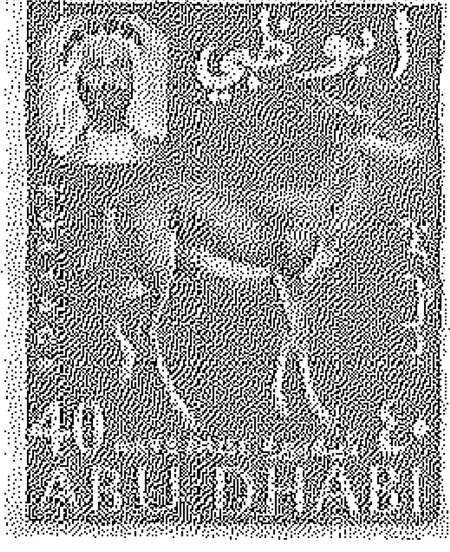
أبوظبي

١ ــ من ضمن مجموعة عادية، صدرت في ٣٠ آذار/ مارس ١٩٦٤، هناك ثلاثة طوابع تحمل صورة الغزال العربي من فئة ٤٠ و٥٠ و٧٥ نيابيزه. صورة ١ و٢ و٣.

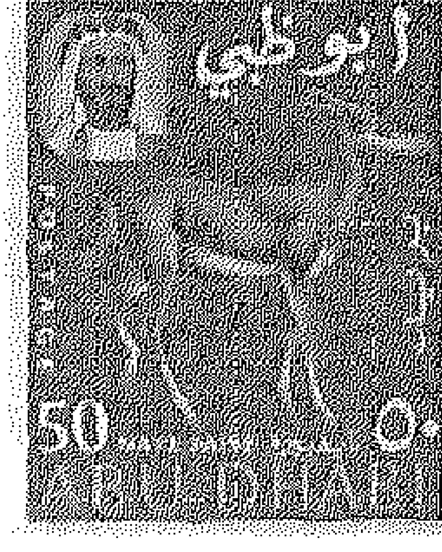
٢ ــ مجموعة الصقور، صدرت في ٣٠ آذار/ مارس ١٩٦٥، من فئة ٢٠ و٤٠ نيابيزه و٢ روبية. صورة ٤ و٥ و٦.

٣ ــ من ضمن مجموعة عادية بالعملة الجديدة، صدرت سنة ١٩٦٧، هناك طابعان يحملان صورة الغزال والصقر من فئة ١٢٥ فلس و٢٠٠ فلس. صورة ٧ و٨.

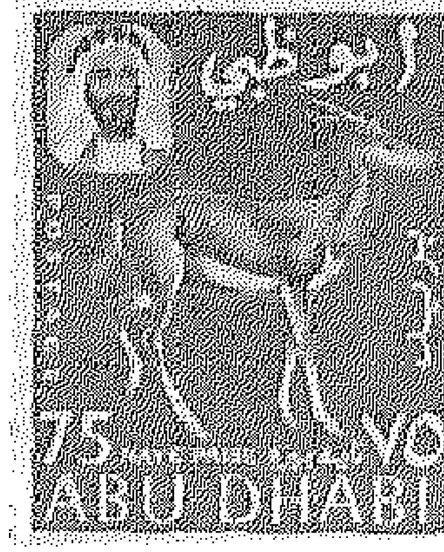
٤ ــ من ضمن مجموعة عادية، صدرت في أول كانون الثاني/ يناير ١٩٧٠، هناك طابعان يحملان صورة الحصان والغزال من فئة ١٢٥ و١٥٠ فلس. صورة ٩ و١٠.



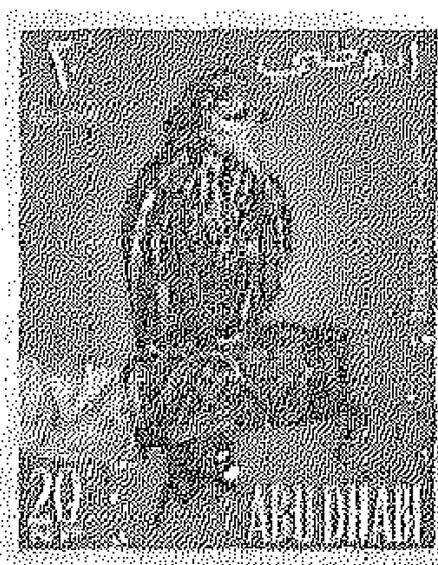
١



٢



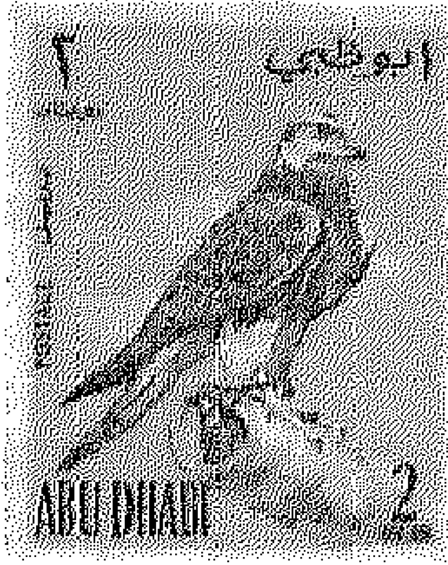
٣



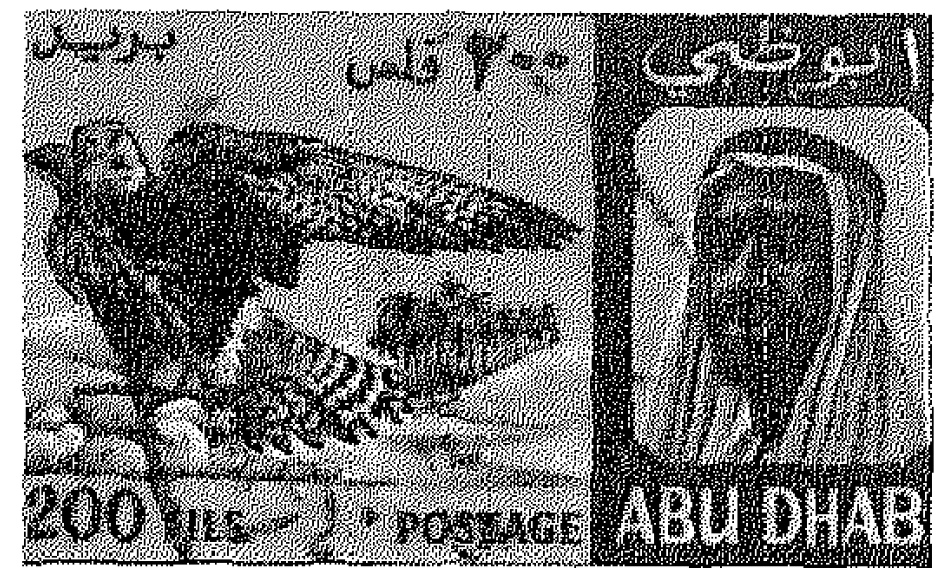
٤



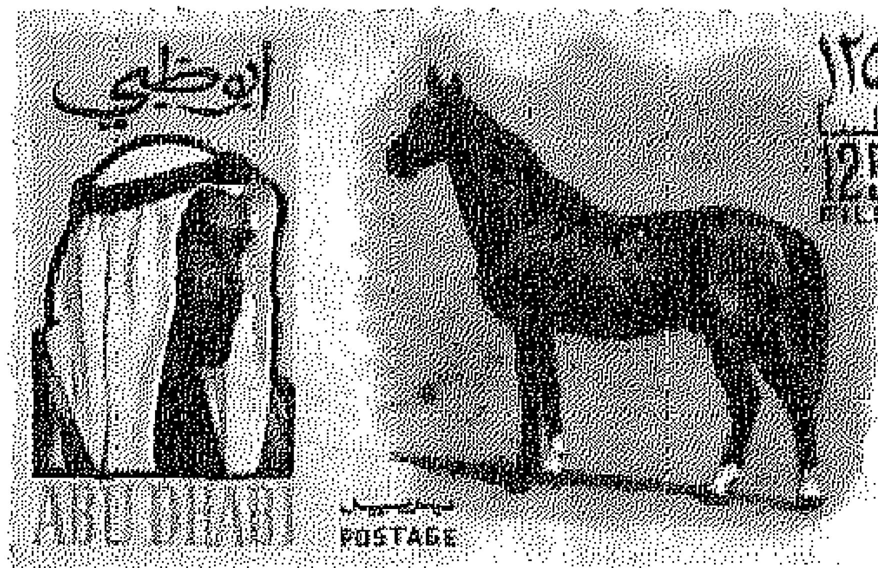
٥



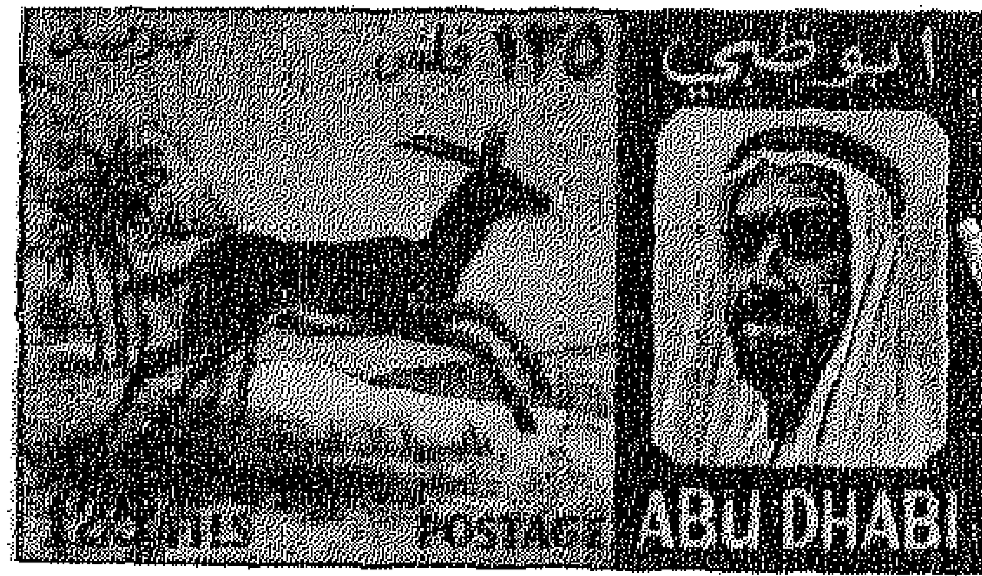
٦



٧



٨



٩

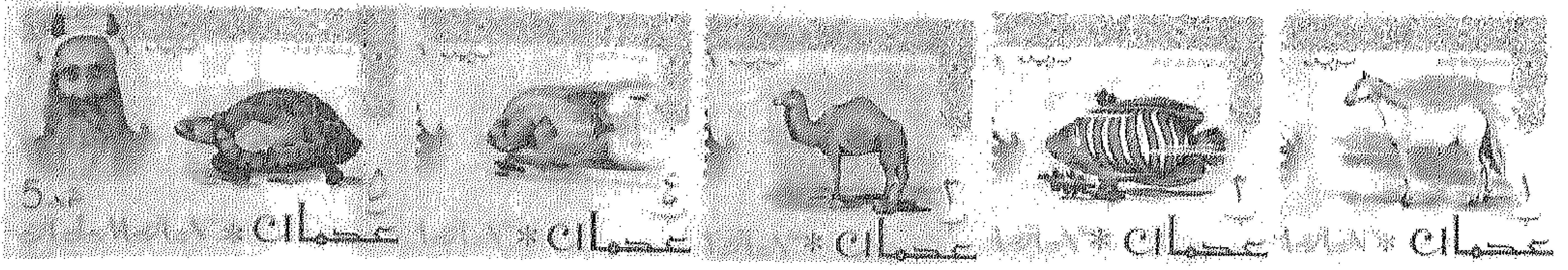


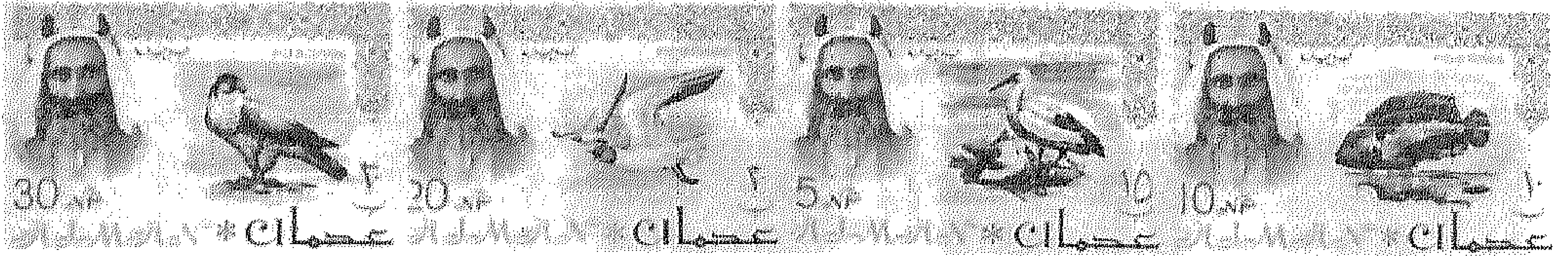
١٠

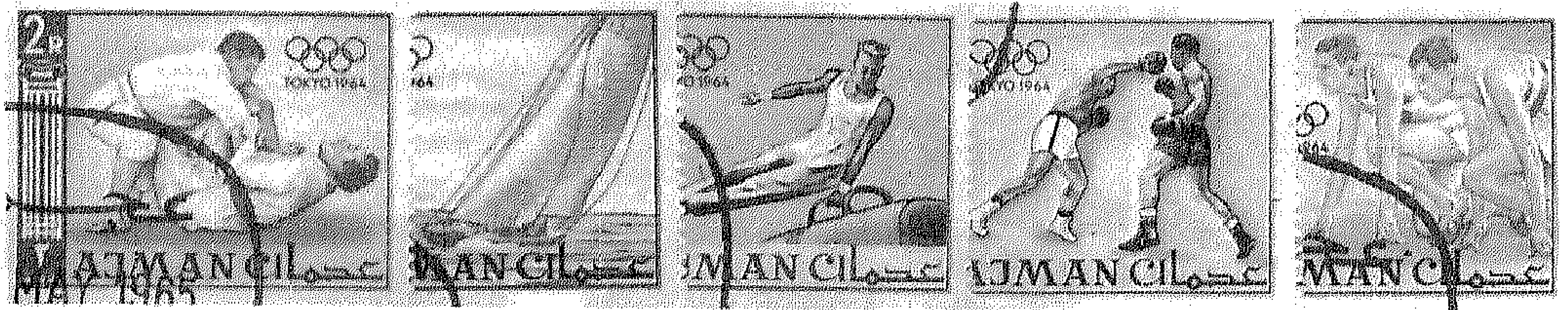
عجمان

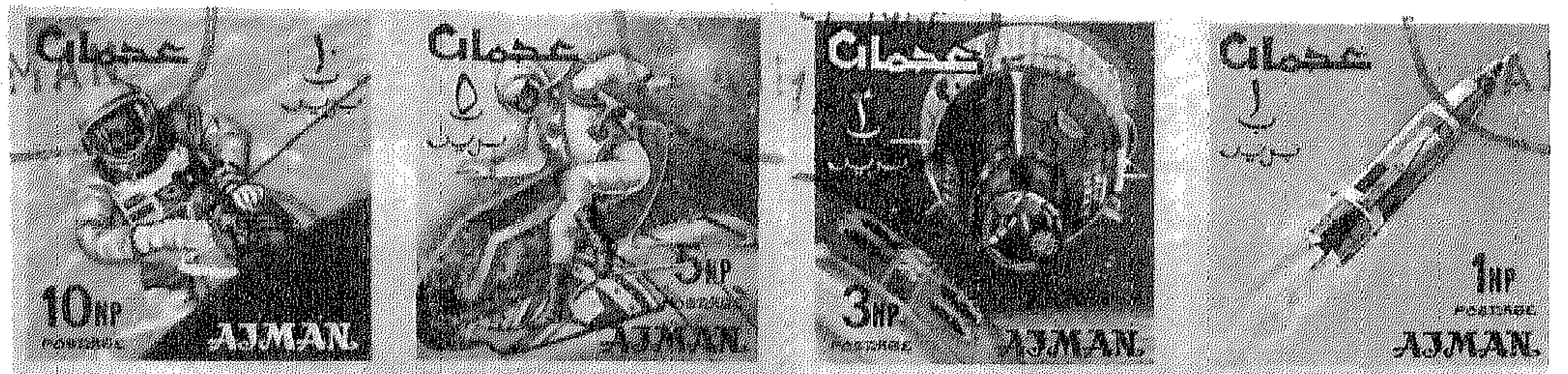
١ ــ مجموعة الطيور والحيوانات والأسماك، صدرت سنة ١٩٦٤، مؤلفة من ١٨ طابعاً. تسعة طوابع بالحجم العادي، صورة ١ إلى ٩، من فئة ١ إلى ٣٠ نيابيزه. وستة طوابع بحجم أكبر، الصورة مكررة، لفئات ٤٠ و٥٠ و٧٥ نيابيزه و١ و١½ و٢ روبية. وثلاثة طوابع بحجم أكبر من الطوابع السابقة، الصورة مكررة، لفئات ٣ و٥ و١٠ روبية. وقد تكررت الصور على تسعة طوابع لكلٍ من مجموعة للبريد الجوي وأخرى للبريد الرسمي، صدرتا سنة ١٩٦٥.

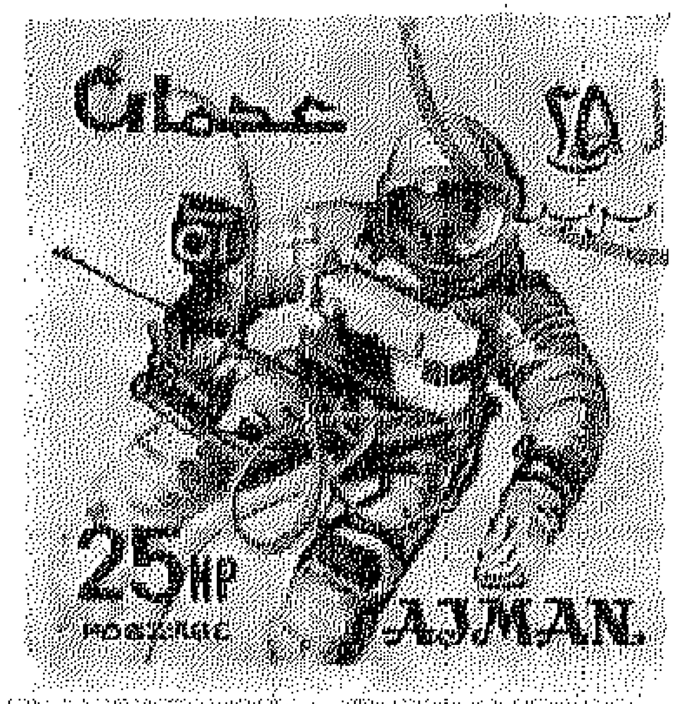
٢ ــ مجموعة اولمبياد طوكيو، صدرت في ١٢ كانون الثاني / يناير ١٩٦٥، مؤلفة من ١٠ طوابع تحمل صورة خمس ألعاب مختلفة، صورة ١٠ إلى ١٤، والفئات من ٥ إلى ٥٠ نيابيزه وروبية واحدة إلى ٥ روبيات.

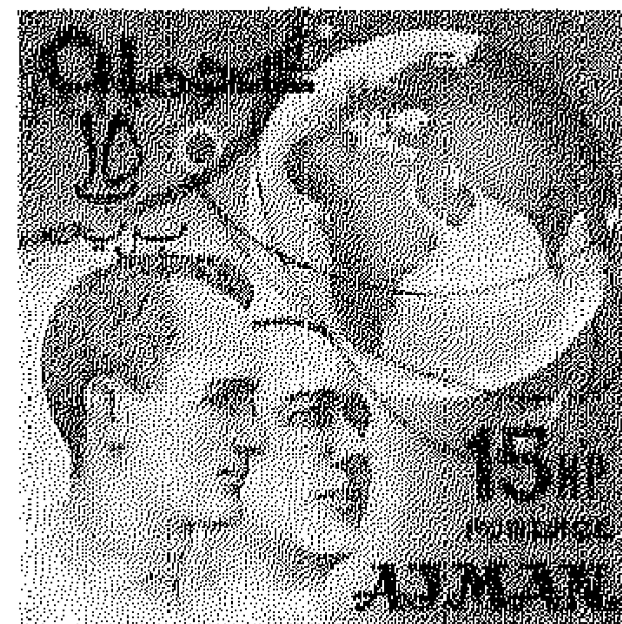








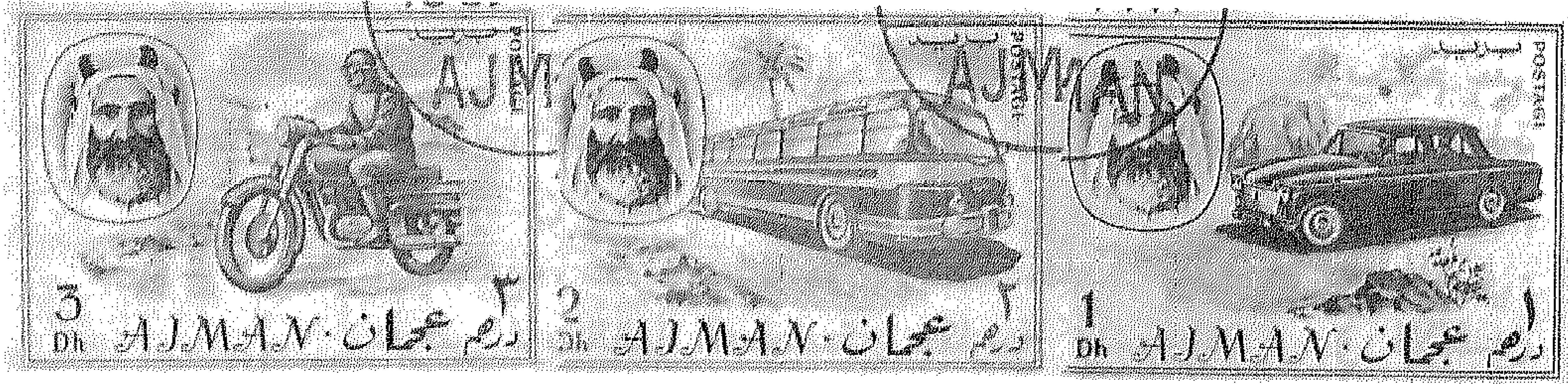


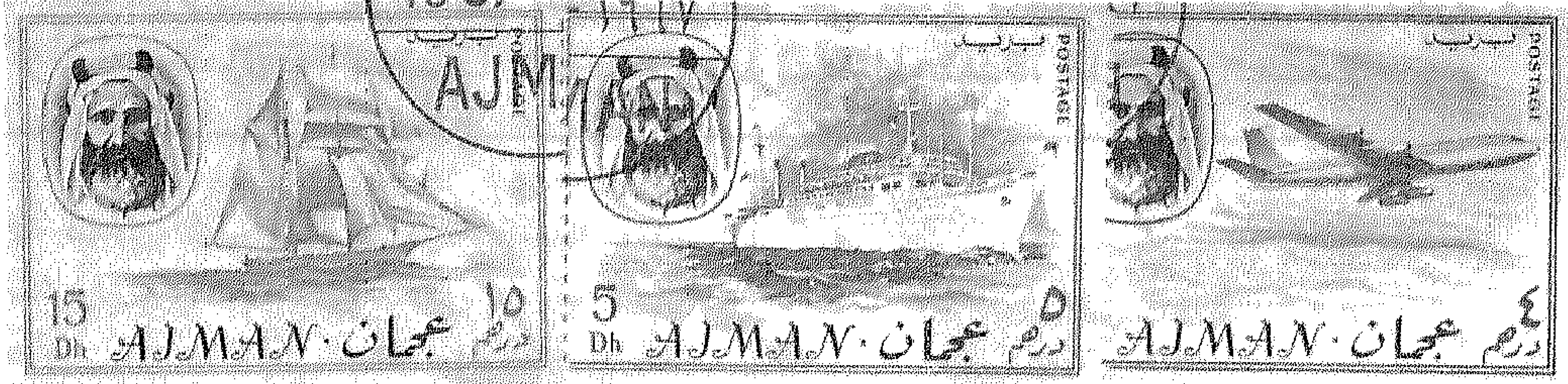


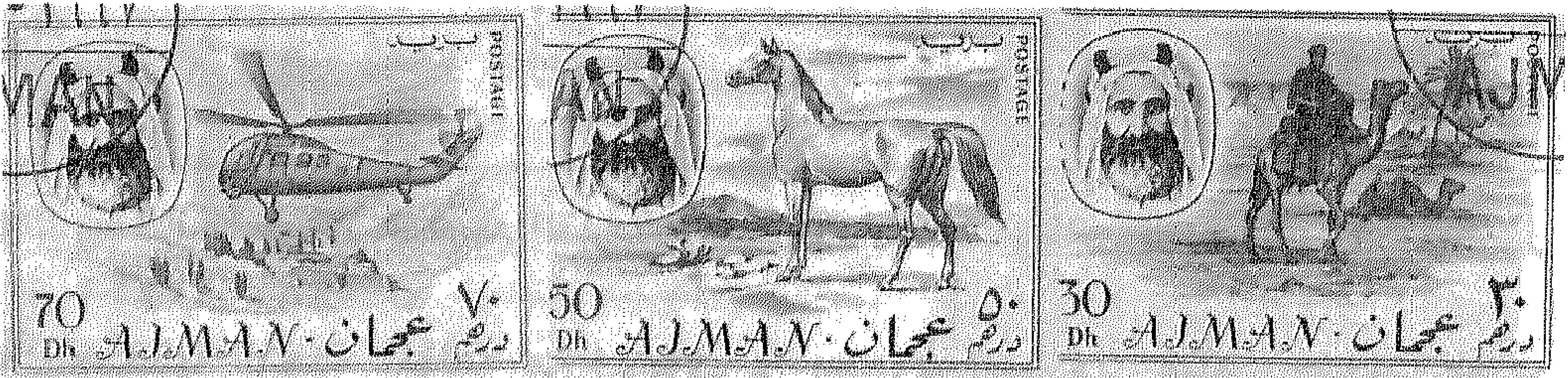
وبطاقة تحمل صورة أربعة طوابع من فئة ١ ½ و٢ و٣ و ٥ روبيات.

٣ ــ مجموعة الفضاء، صدرت سنة ١٩٦٦ مؤلفة من ١٠ طوابع تحمل صورة ستة مناظر رواد الفضاء، صورة ١٥ إلى ٢٠، والفئات من ١ إلى ٥٠ نيابيزه و١ و٣ و٥ روبيات. وبطاقة تحمل صورة الفئات ١٠ و١٥ نيابيزه بقيمة ١ و٣ روبيات.

٤ ــ مجموعة النقل المختلف، صدرت في ٢٠ نيسان / ابريل ١٩٦٧، مؤلفة من ١٤ طابعاً، تحمل صورة ٢١ إلى ٢٩، والفئات من ١ إلى ٧٠ درهم للبريد العادي و١ إلى ١٠ ريال للبريد الجوي.







المنتسبون إلى نادي الطوابع

٩ ــ علي أحمد حسن أبلان:
ص.ب. ٧٠٧٩ إب الجمهورية العربية اليمنية.
العمر ١٧ عاماً ــ طالب ثانوي ــ هاوي مبتدىء ومتخصص ــ يجمع طوابع جديدة ومختومة وغير مخرّمة وذات موضوعات خاصة من البلدان العربية والافريقية والأوروبية وللقارتين الأميركيتين واوستراليا وكذلك طوابع شرقية.

وتسلمنا أيضاً من مراسلنا السيد **عبد الغني شنن** من حلب سورية، نماذج من اصدارات الجمهورية العربية اليمنية الحديثة وهي:

١ ــ بتاريخ ١٩٨٢/١/٢٥ ــ صدرت مجموعة تذكارية بمناسبة الذكرة التاسعةعشرة لثورة السادس والعشرين من سبتمبر الخالدة، من الفئات ٧٥ و١٢٥ و٣٢٥ و٤٠٠ فلس، مع بطاقة من فئة ٣٢٥ فلس.

٢ ــ بتاريخ ١٩٨٢/٢/١ ــ صدرت مجموعة تذاكارية بمناسبة الذكرى الألفية للحسن أحمد الهمداني، من الفئات ١٢٥ و٣٢٥ فلس، مع بطاقة من فئة ٣٧٥ فلس.

٣ ــ بتاريخ ١٩٨٢/٣/١ ــ صدرت مجموعة تذكارية بمناسبة اليوم العالمي للأغذية من الفئات ٢٠ و٥٠ و٦٠ و٧٥ و١٠٠ و١٢٥ فلس.

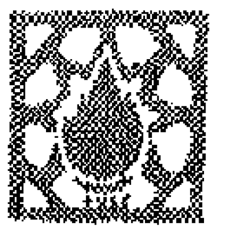


استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الآنسة «فاطمة هدايات عصافيري» عرض لرسالتها للماجستير «تاريخ مدينة ماري في الألفين الثالث والثاني ق.م». ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتاج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.

تاريخ مدينة ماري

في الألفين الثالث والثاني ق.م.

- **رسالة ماجستير ـ قسم التاريخ، كلية الآداب ـ الجامعة اللبنانية الفرع الأول ١٦/١٢/١٩٨١.**
- **منحتها اللجنة المؤلفة من المشرف د. محمود أمهز ود. منتهى صاغية تقدير «امتياز».**



لم يقتصر البحث في «تاريخ مدينة ماري في الألفين الثالث والثاني ق.م. على الناحية السياسية فقط، بل شمل جوانب أخرى مختلفة من اقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية وفنية. لأن دراسة التاريخ، كما ترى الباحثة، لا تقتصر في مفهومها الحديث على سرد الأحداث التاريخية فحسب، بل يجب أن تتناول مختلف النواحي الحضارية، وإلا لكان التاريخ عبارة عن أحداث ميتة. وانطلاقاً من مفهوم الباحثة لدراسة التاريخ، بذلت جهداً كبيراً لكي توضح من خلال بحثها ـ الذي جاء في (٣٢٥) صفحة ـ مكانة مدينة ماري، وما كان لها من أهمية تاريخية وأثرية وفنية في التاريخ القديم معتمدة على الوثائق الأصلية والمصادر والمراجع التي عادت اليها، فجاءت أهمية رسالتها انها الأولى من نوعها نظراً لما احتوته من دراسة تفصيلية شاملة لكل ما يتعلق بهذه المدينة، فتضمنت مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة مدعمة بالخرائط والوثائق وعدد كبير من الصور والرسوم واللوحات.

استهلت الباحثة، قبل البدء بالحديث عن ماري، بدراسة مختصرة أرادت منها اعطاء خلفية تاريخية لهذه المدينة، فتناولت الاطار الجغرافي العام والملامح الحضارية وتطورها في العصور السابقة للتاريخ وظهور المدن الكبرى في وادي الرافدين وخاتمة.

تضمنت المقدمة عرضاً موجزاً لتاريخ مدينة ماري إذ وجدت أن الفائدة منه مزدوجة في تحقيق هدفها. فقد قصدت أول الأمر تعريف القارىء بمدينة لعبت دوراً هاماً في التاريخ القديم

بعد أن كانت مجهولة، والأمر الثاني هو ابراز معالم هذه المدينة الأثرية محاولة ايجاز ذلك بقدر الامكان توفيراً للجهد يبذله القارىء في قراءة تفاصيل لا طائل منها، كما تناولت المقدمة شرحاً للصعوبات التي اعترضتها، أبرزها قلة المصادر والمراجع.

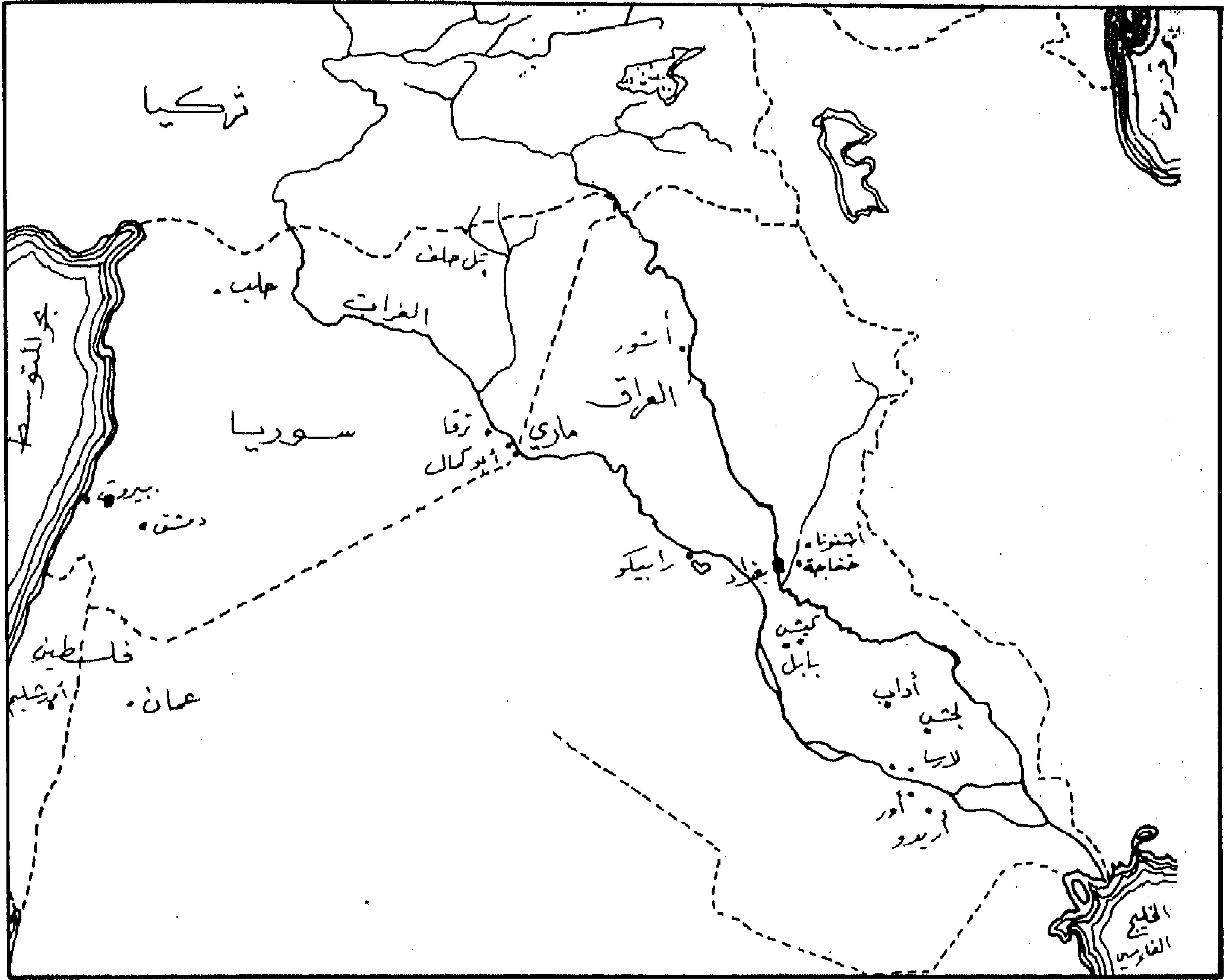
استهلت الباحثة الفصل الأول بالتعريف بمدينة ماري كذكر موقعها الجغرافي، وأصل تسميتها ومختلف آراء الباحثين والأثريين حول هذه التسمية وشرح الأسباب التي دعت اليها. ثم مدينة ماري قبل حفريات تل الحريري التي أظهرت هذه المدينة الى الوجود وذلك بفضل جهود البعثة الفرنسية المتواصلة برئاسة الأثري أندره «بارو» واكتشاف المدينة ومراحل التنقيب الأثري ونتائجه، وأنهت الفصل الأول بالحديث عن أهمية مدينة ماري الاستراتيجية والاقتصادية معللة ذلك بشرح الأسباب والنتائج.

أما الفصل الثاني فتناول التاريخ السياسي لمدينة ماري في الألفين الثالث والثاني ق. م. وتم تقسيمه الى العهود التي مرت بها خلال هذه الفترة الزمنية بدأ بالعهد السومري القديم حيث تناولت الباحثة بالحديث عن السلالة التي حكمت مدينة ماري والتي تألفت من ستة ملوك حكموا ١٣٦ سنة مع التعريف عنهم وذكر ألقابهم، ثم علاقات مدينة ماري مع المدن السومرية، منها السياسية، والتجارية، وعلاقات صداقة اتضحت بتبادل الهدايا بين ملوك ذلك العهد أمثال ميسانيبادا حاكم مدينة أور وغانسود حاكم مدينة ماري، فاستوضحت من ذلك العلاقة التاريخية بين ملوك ذلك العهد ومكانة ماري في الحقل السياسي في الألف الثالث ق.م. ثم تحدثت عن الحروب الطاحنة التي اشترك فيها ملوك مدينة ماري والتي عرضتها للدمار.

وبدأت العهد الأكادي بالحديث عن الملك سرجون وتوسعاته وسيطرته على مدينة ماري، مستشهدة بذلك بصور بعض الآثار الأكادية المنقوشة والتي تحمل أسماء ملوك أو أبناء ملوك هذا العهد. وفي العهد السومري الحديث استرجعت ماري سيادتها على وسط الفرات وذلك بفضل أحد حكامها المخلصين الذي استطاع أن يؤسس سلالة خاصة به.



«يوزور ــ عشتار» ملك ماري وقد ظهرت براعة النحات



مواقع بلاد ما بين النهرين وموضع ماري (تل الحريري) على الفرات

وتنـاولت القسم الرابع من الفصـل الثاني بالحديث عن الاحتلال الأشوري لماري وأسبابه وذكرت أهم الملوك أمثال شمش ـ اداد وأبنائهم وما كان لهم من دور فعال في تاريخ ماري خلال هذه الفترة.

وتناولت القسم الخامس من الفصل الثاني بالحديث عن رسائل ماري المتبادلة بين الملوك في فترة الحكم الأشوري مـع شرح واف لهـذه الرسائل مبينة ما كان لها من أهمية نظراً لما تضمنته من أمور ادارية وسياسية حيث كانت بمثابة مرجع وافر ومتنوع إذ تناولت كل جوانب حياة مملكة ماري في فترة الاحتلال الأشوري، هذا مع أدلة ثابتة بـالترجمـة الحرفيـة لهذه الرسائل.

وتحـدثت أيضاً عن المـراسلات السيـاسية والادارية التي تميز بها عهد زمري ليم آخر ملوك ماري، وفائدة هذه الرسـائل مـوضحـة مـدى اهتمامه بكـل ما يتعلق بـادارة مملكته، وهـذا ما يدلنا على قوة شخصيته وحنكته السياسيـة ومقدرته وحزمه مستنتجة أن هذا ما زاد في قوة مدينة ماري وازدهارها في عهده ومما لفت اليها أنظار الغزاة الفاتحين.

وتناولت القسم السادس في الفصل الثاني بالحديث عن العهد البابلي فوضحت أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط مدينة ماري في يد البابليين وشرحت بشكل تفصيلي الوسـائـل التي اتبعها حمورابي لبلوغ هدفه.

أما القسم السابع من الفصل الثاني فتناول نهاية مدينة ماري. وتتضح أهمية هذا القسم بما ضمنته الباحثة من آراء لبعض الأثريين حول خراب مدينة ماري أمثال الأثري جان (M. Ch. Jean) والأثري بارو (A. Parrot) وتوصلت الى القول، بعد أن ألقت نظرة شاملة حول التاريخ السياسي لماري، أن بيئتها الطبيعية كانت مصدر

قوتها وضعفها من حيث أن قوتها هذه كانت خاضعة لتأثيرات خارجية التي كانت تسعى للسيطرة على طرق المواصلات الطبيعية للمدينة بحكم موقعها الاستراتيجي. فموقعها هذا حدَّد سير تاريخها الذي ابتدأ بتطلع الطامحين للسيطرة عليها.

أما الفصل الثالث فقد خصص لدراسة المعالم الحضارية لماري ويتضمن سبعة أقسام: فتناولت الباحثة القسم الأول من هذا الفصل بالحديث عن الناحية الاقتصادية وما تضمنته من بحث في الزراعة والثروة الحيوانية والصناعة والمعادن والتجارة والعقود العقارية والمقايضة والأوزان والمكاييل ووسائل النقل والتنظيم الاداري في الأعمال والمكوس الجمركية ولم تنس ذكر الأسباب الرئيسية للدور الكبير الذي كانت تقوم به ماري في التبادل التجاري، وأسباب التحالفات التي كانت تقوم بها مع المدن المجاورة لها ونتائجها.

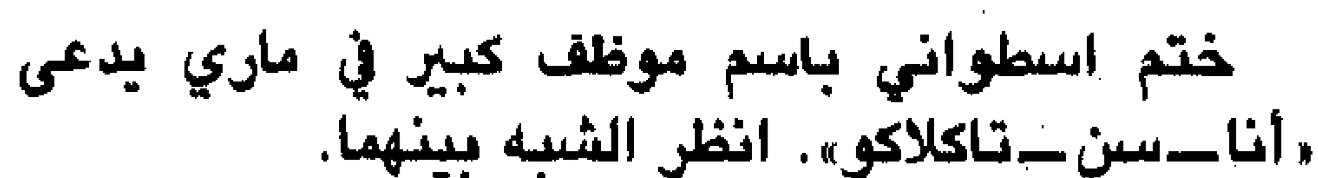
وتناولت القسم الثاني في هذا الفصل الناحية الدينية وما تضمنته من التعريف بالآلهة والطقوس والمعتقدات الدينية والمدافن المختلفة باختلاف العهود التي مرت بها ماري.

وبحثت في القسم الثالث في الناحية الاجتماعية، فتحدثت عن المجتمع والتجمعات البشرية والطبقات الاجتماعية والمرأة والأسرة والأنظمة القانونية واهتمام السلطة بتنظيم الأسرة والتبني والزواج والارث.

ويتضمن القسم الرابع الادارة المركزية وما تشمل من الأعمال الخارجية والقائمين بها والأعمال الداخلية والأنظمة القضائية.

ويأتي البحث في الناحية الفكرية في القسم الخامس من الفصل الثالث وتشمل الآداب واللغة.

ونتعرف في القسم السادس من الفصل الثالث على آثار مدينة ماري فتحدثت الباحثة أولاً وبشكل تفصيلي عن قصور ما قبل سرجون مبينة أن الهندسة البنائية لهذه القصور لا تزال في حالة سليمة من آلاف السنين والتي تشهد على تتالي ثلاث حقب (عهد زمري ــ ليم، عهد قصر ما قبل سرجون العلوي وعهد قصر ما قبل



ختم اسطواني باسم موظف كبير في ماري يدعى «أنا ــ سن ــ تاكلاكو». انظر الشبه بينهما.

سرجون السفلي)، وتوسعت بالحديث عن قصر زمري ــ ليم الذي اكتشف عام ١٩٣٠م والذي اعتبره علماء الآثار من أروع الاكتشافات التي اتحفنا بها تل الحريري. وتحدثت عن دمار هذا القصر وأسبابه ورأي علماء الآثار حول هذا الموضوع أمثال ثورو ــ دانجان وشارل جان، وهيلدا غارد لوي والأثري أندره بارو.

ثم تحدثت عن المعابد بشكل عام وتناولت بالحديث مفصلاً عن أهمها وهي كثيرة مثل معبد نينهورساغ ومعبد الأسود. مبينة أن ضخامة الهندسة المعمارية لهذه المعابد والآثار التي عثر عليها في داخلها دلت على أنها كانت على جانب كبير من الثراء الذي يمكن استنتاجه أيضاً في الفن المتقن الذي اتبع في نحت التماثيل ومن الأشياء الثمينة.

ثم تحدثت عن الوثائق التي يزيد عددها على العشرين ألف لوحة فذكرت أهميتها التاريخية والاجتماعية والجغرافية والادارية والاقتصادية والدبلوماسية، وقد اعتبرها المنقبون من أروع الاكتشافات التي تمت في ماري إذ ألقت ضوءاً ساطعاً على ماض كان يعتبر مجهولا. فأمام هذا المستند الوثائقي الذي كشفته الدراسات في ماري لا يسع القارىء إلا أن يبدي اعجابه بأولئك القوم الذين حفظوا تراثهم منذ أربعة آلاف سنة في وثائق ولم يهملوا حتى ذكر الأحداث البسيطة منها والتي ذكرتها الباحثة مفصلاً في الرسالة.

وتحدثت في القسم السابع من الفصل الثالث عن الفنون في ماري بشكل عام وكيف أنها تعرضت للسلب مع ذكر الأسباب، وتحدثت في هذا المجال أيضاً عن فن العمارة التي استهدفت المساكن والمعابد والقصور وما تميزت به هذه

ختم اسطواني باسم موظف كبير في ماري يدعى «موكانيشوم»

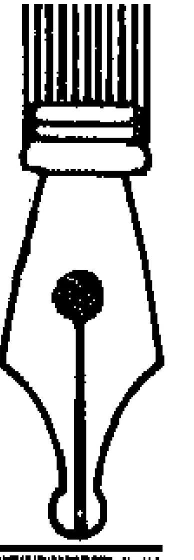


الانشاءات خلال الألفين الثالث والثاني ق.م. وفن النحت الذي ابتدعته مشاغل ماري وميزته وجوهره وأنواعه وأسبابه. ثم الاختلاف الفني في صنع التماثيل وأسبابه بشكل عام وتناولت بالحديث مفصلاً عن أهم هذه التماثيل وهي كثيرة العدد مع توضيح خاصتهم التقليدية وتمايز في النوعية ووضوح اتصالهم بالعهود السابقة وكل ذلك بدقة وتفصيل.

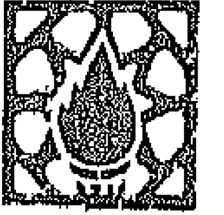
وتكلمت عن فن النقش عامة وبصورة خاصة عن الأختام على اختلاف أنواعها وعهودها ومكان العثور عليها بالختم الاسطواني المسمى ختم آنو مثلاً والذي عثر عليه سنة ١٩٥٣م. وما دلت عليه هذه الأختام من علاقات وثيقة بمعتقدات، ومنها تجارية بين ماري والبلدان المجاورة. مما يثبت للقارىء أنها كانت مركزاً فنياً مدهشاً منذ الألف الثالث ق.م. وبداية الألف الثاني ق.م. مع ذكر الأسباب وأنها كانت في عهد زمري ـ ليم مركزاً لمدرسة فنية كاملة وديناميكية بشكل مدهش.

وخصصت الباحثة الجزء الأخير في القسم السابع بالحديث عن الجدرانيات التي بدأ فيها فن النحت جلياً ومكان وجودها فشرحت الأسباب التي دعت الى الابقاء هذه الرسومات السريعة العطب والتي توالت عليها نوائب الزمان آلاف السنين، وشرح تفصيلي لبعض اللوحات التي تحمل رسوماً جدارية تصور مشاهد دلت على نماذج عقليتين حيث، على الرغم من اختلاف الأساليب، وجدت القساوة السومرية والنزعة الطبيعية جنباً إلى جنب في انسجام كلي. ثم تحدثت بالتفصيل عن التشابه بين جدرانيات كل من قصري ألالاخ وماري ووجه الاختلاف مدعمة ذلك بأقوال علماء الآثار أمثال وولي، وأسبقية ماري على كريت في الرسوم الجدارية مستندة في إثبات ذلك على التواريخ التي اعتمدها علماء الآثار.

وتتلخص الخاتمة بالقول إن مدينة ماري التي ماتت على يد رجال الألف الثاني ق.م. تحيا الآن من جديد بفضل جهود رجال القرن العشرين بعد الميلاد فأعيد الى الوجود عالم كان مدفوناً منذ آلاف السنين. وترى الباحثة أن السبب في دمارها كان موقعها الاستراتيجي الذي جعل منها عائقاً مزعجاً بالنسبة لمؤسسي الامبراطوريات المبنية على توحيد البلاد، وكان هذا سبباً هاماً إن لم يكن رئيساً في غاراتهم المتتالية عليها حيث كانوا يطمحون بضمها إلى امبراطوريتهم. ■



الأسر التنوخية الحاكمة في اللاذقية وجبلة



الأقوال كثيرة في التنوخيين، وهي على شيء من التباعد.

قال السمعاني في (الأنساب) تنوخ اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً بالبحرين وتحالفوا على التوازر ــ والتناصر، وأقاموا هناك فسموا تنوخاً والتنوخ الاقامة.

وقد أخذ ابن خلكان هذا الكلام وردده في (وفيات الأعيان) وأضاف: أن هذه القبيلة احدى القبائل الثلاث التي هي نصارى العرب وهم بهراء، تنوخ، وتغلب.

وقال سبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان) كذا العيني في (عقد الجمان) وابن تغري بردى في (النجوم الزاهرة) تنوخ قبيلة من اليمن ولم يزيدوا.

وقال ابن العديم في (الانصاف والتحري) قحطان هو مجتمع قبائل اليمن بأسرها، وتيم اللات مجتمع تنوخ بأسرها، وانما سموا تنوخاً لأنهم تنخوا بالشام، وقيل بالحيرة. أي أقاموا. والتنوخ هو المقام في الموضع وكانوا أقاموا على مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم اللات، ونزلوا معه الحيرة، فاختطوها وبنوا فيها الأبنية وعمروها. وهم أول من عمر الحيرة ونزلها...

وقال محمد أمين البغدادي الشهير بالسيودي في (سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب) بنو تنوخ قال الجوهري هم حي من اليمن يعني من القحطانية ولم يزد على ذلك. وذكر المؤيد صاحب حماه في تاريخه أنهم من قضاعة وقال أبو عبيد هم ثلاثة أبطن نزار والاجلاف وفهم سموا بذلك لأنهم حلفوا على المقام بمكان بالشام. والتنخ المقام. قال وانما تنخوا على مالك بن زهير بن عمرو بن فهم تيم الله ابن اسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان وعلى مالك بن فهم عم مالك بن زهير. قال ابن سعبذ ومن الناس من يطلق تنوخ على الضجاغمه ودوس الذين تنخوا بالبحرين. وذكر الحمداني أن المعرة من بلاد الشام هي صلبية تنوخ بمعنى أن بها جمعهم المستكثر.

وذكر حمزة الأصفهاني في (تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء) أنه لما حدث سيل العرم تمزقت عرب اليمن من مدينة مأرب الى العراق والشام، فكانت تنوخ وهم حي من أحياء الأزد ممن تمزق الى العراق، وذلك أنه اتفق مجيء مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان الأزدي من بني نصر بن الأزد في جمهور من الأزد، ومجيء مالك بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن قضاعة في جمهور من قضاعة، ولما افترقت قضاعة عن تهامة الى البحرين، فقال مالك بن فهم الأزدي لمالك بن القضاعي نقيم بالبحرين ونتحالف على نوانا فتحالفوا فسموا تنوخاً، وذلك أيام ملوك الطوائف، فنظروا الى العراق وعليها طائفة من ملوكها وهي شاغرة، فخرجوا عن البحرين وسارت الأزد الى العراق مع مالك بن فهم الأزدي. ثم سارت قضاعة الى


اللاذقية

الشام مع مالك بن فهم القضاعي...

وهكذا يتبين أن سكنى التنوخيين بلاد الشام قديمة جداً، حتى أن جبال اللاذقية كانت تسمى بهراء وتنوخ على ما يذكر الأصطخري في (كتاب الأقاليم).

ويستفاد مما ذكره أبو الفرج الملطي في (تاريخ الدول السرياني) أن التنوخيين كانوا في البدء مخيمين عند نهر قويق بحلب. وفي أيام المأمون ـ أي ما بين سنة ١٩٨ و٢٠٠ للهجرة ـ حشد ناصر الخارجي القيسيين وزحف بهم يريد التنوخيين المخيمين عند نهر قويق بحلب وقاتلهم عشرة أيام فخارت قواهم وارتحلوا رجالاً ونساء الى قنسرين ودخل القيسيون والحلبيون ونهبوا خيامهم الواسعة وهي حافلة بالأموال والبضائع.

لكن الامارة التنوخية في اللاذقية لم تبدأ الا سنة ٢٤٩هـ ومؤسسها يوسف بن ابراهيم التنوخي المعروف، بالفصيص. ففي سنة ٢٤٩ هـ وثب يوسف بالمعرة فجمع جموعاً من تنوخ، وصار الى مدينة قنسرين فتحصن بها، فلم يزل بها حتى قدم محمد المولد، مولى أمير المؤمنين، فاستماله واستمال غطيف بن نعمة، وصار اليه، ثم وثب بغطيف بن نعمة فقتله، وهرب الفصيص فصار الى جبل الأسود، واجتمعت قبائل كلب ـ بناحية حمص على الامتناع على المولد، فسار اليهم فواقعهم، فكانت عليهم، ثم وثبوا عليه، فهزموه، وقتلوا خلقاً عظيماً من أصحابه، وانصرف الى حلب في فله، ورجع الفصيص الى قنسرين، جرت بينه وبين كلب محاربة وعزل المولد وولى أبو الساج الأشروسني، وكتب الى الفصيص يؤمنه وصير اليه الطريق والبذرقة، ثم ولاه اللاذقية ونحوها(1).

ثم تعرضت الامارة التنوخية، بعد وفاة يوسف الى هزات، وخرج الحكم من أيدي بني الفصيص لبعض الوقت. ففي سنة ٣١٩هـ ولى مؤنس المظفر غلامه طريف بن عبد الله السكري أو السكبري على بعض الروايات فقام بمحاصرة بني الفصيص في حصونهم باللاذقية وغيرها، فحاربوه حرباً شديداً حتى نفذ جميع ما كان

عندهم من القوت والماء، فنزلوا على الأمان فوق لهم وأمر مهم، ودخلوا معه حلب مكرمين معظمين فأضيفت اليه حمص مع حلب(٢).

لكن التنوخيين سرعان ما استعادوا سيطرتهم على اللاذقية وأعادوها الى حكمهم من جديد على يد علي بن ابراهيم التنوخي ممدوح المتنبي، الذي سحق ثورة اللاذقيين كما يفهم من قصيدة المتنبي في مدحه والتي مطلعها:

أحاد أم سداس في أحاد
لليلتنا المنوطة بالتنادي

ومنها:

ويوم جلبتها شعث النواصي
معقدة السبائب للطراد
وحام بها الهلاك على أناس
لهم باللاذقية بغي عاد
فكان الغرب بحرا من مياه
وكان الشرق بحراً من جياد
وقد خفقت لك الرايات فيه
فظل يموج بالبيض الحداد
لقوك يا كبد الابل الابايا
فسقتهم وحد السيف حاد
وقد مزقت سيف الغي عنهم
وقد ألبستهم ثوب الرشاد
فما تركوا الامارة لاختيار
ولا انتحلوا ودادك من وداد
ولا استعلوا لزهد في التعالي
ولا انقادوا سروراً بانقياد
ولكن هب خوفك في حشاهم
هبوب الريح في رجل الجراد
وماتوا قبل موتهم فلما
مننت أعدتهم قبل المعاد

وكان علي المذكور شجاعاً داهية، استطاع بحنكته أن ينقذ اللاذقية من الدمار وذلك عندما دهمها الروم سنة ٣٥٧هـ ففي هذه السنة، خرج ملك الروم نقفور الى معرة النعمان ففتحها وأخرب جامعها وأكثر دورها وكذلك فعل بمعرة مصرين، ولكنه أمن أهلها من القتل، وكانوا الفا ومائتي نفس وأسرهم وسيرهم الى بلد الروم وسار الى كفر طاب وشيزر وأحرق جامعها ثم الى حماه ففعل كذلك، ثم الى حمص، وأسر من كان صار الى تلك الناحية من الجفلة. ووصل الى عرقة ففتحها وأسر أهلها، ثم نفذ الى طرابلس ففتحها، ومنها الى اللاذقية فانحدر اليه أبو الحسين علي بن ابراهيم بن يوسف الفصيص فوافقه على رهائن تدفع اليه منها، وانتسب له فعرف نقفور سلفه وجعله سردغوس وسلم أهل اللاذقية(٣).

وكان علي بن ابراهيم التنوخي آخر من حكم اللاذقية من التنوخيين ولا نعلم شيئاً عن حياته، ولا تاريخ وفاته سوى ما ذكره المتنبي عنه في قصائده.

وتجدر الاشارة الى أن المتنبي عندما قدم الى اللاذقية سنة نيف وعشرين وثلاثمائة، اتصل بأسرتين تنوخيتين كان لهما الصدارة هما آل اسحاق وعرفنا منهم محمد والحسين (رثى المتنبي الأول ومدح الثاني) وآل ابراهيم، وعرفنا منهم علي.

قال المتنبي في رثاء محمد بن اسحاق التنوخي:

اني لأعلم، واللبيب خبير
أن الحياة وان حرصت غرور

ومنها:

خرجوا به ولكل باك خلفه
صعقات موسى يوم دك الطور
والشمس في كبد السماء مريضة
والأرض واجفة تكاد تمور
وحفيف أجنحة الملائك حوله
وعيون أهل اللاذقية صور

وعندما استزاده بنو عم الميت قال:

صبراً بني اسحق عنه تكرما
ان العظيم على العظيم صبور

وقال أيضاً:

ألآل ابراهيم بعد محمد
الا حنين دائم وزفير

ومنها:

ولقد منحت أبا الحسين مودة
جودي بها لعدوه تبذير

وقال المتنبي في مدح الحسين بن اسحاق التنوخي:

هو البين حتى ما تأنى الحزائق
ويا قلب حتى أنت ممن أفارق

ومنها:

قضاعة

أسلم — جهينة
عمران — حلوان
عمرو
بهرا
بلي

سليح — معد — ضجعم — عوف — عمر
تزيد
ربان
تغلب — وبرة

النمر
أسد — تيم اللات — تنوخ
كلب — كنانة

هبولة — زياد
هبالة — داود اللثق

وما ترزق الأقدار من أنت حارم
ولا تحرم الأقدار من أنت رازق

ولا تفتق الأيام ما أنت راتق
ولا ترتق الأيام ما أنت فاتق

لك الخير غيري رام من غيرك الغنى
وغيري بغير اللاذقية لاحق

هي الغرض الأقصى ورؤيتك المنى
ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق

وقال أيضاً:

كأني دحوت الأرض من خبرتي بها
كأني بني الاسكندر السد من عزمي

لألقى ابن اسحق الذي دق فهمه
فأبدع حتى جل عن ذقة الفهم

ومنها:

وجدنا ابن اسحق الحسين كحده
على كثرة القتلى بريئاً من الاثم

أطعناك طوع الدهر يا بن يوسف
بشهوتنا والحاسدو لك بالرغم

وقد ألمح المتنبي في مدحه لتنوخي اللاذقية الى نسبهم. من ذلك قوله في الحسين بن اسحاق التنوخي:

يمين بني قحطان رأس قضاعة
وعرنينها بدر النجوم بني فهم

وهذا يدل على أن التنوخيين عرب أقحاح، من العرب العاربة. لأن العرب العاربة هم بنو قحطان وكانت مساكنهم بالحجاز ومنهم بنو عبد شمس الملقب بسبأ لكثرة سببه. ...ومنهم بنو قضاعة بن مالك بن حمير وبنو فهم حي من قضاعة.

والجدول أعلاه يوضح تفرع قبائل قضاعة باختصار(٤):

وتجدر الاشارة الى أن الأسرة التنوخية في اللاذقية ارتبطت مع الأسرة الأرسلانية في لبنان بربراط المصاهرة، فالأمير عز الدولة تيمي بن الأمير المنذر الأرسلاني (ت ٣٨٧هـ) تزوج من سعدى ابنة الأمير ابراهيم بن اسحق بن محمد بن ابراهيم التنوخي(٥):

أما حكم التنوخيين لجبلة فقد بدأ سنة ٤٧٣هـ، عندما استخلصها من أيدي الروم القاضي عبد الله بن منصور بن الحسين التنوخي المعروف بابن ضليعة أو صليحة، وذلك بمعاونة القاضي جلال الدين بن عمار صاحب طرابلس.

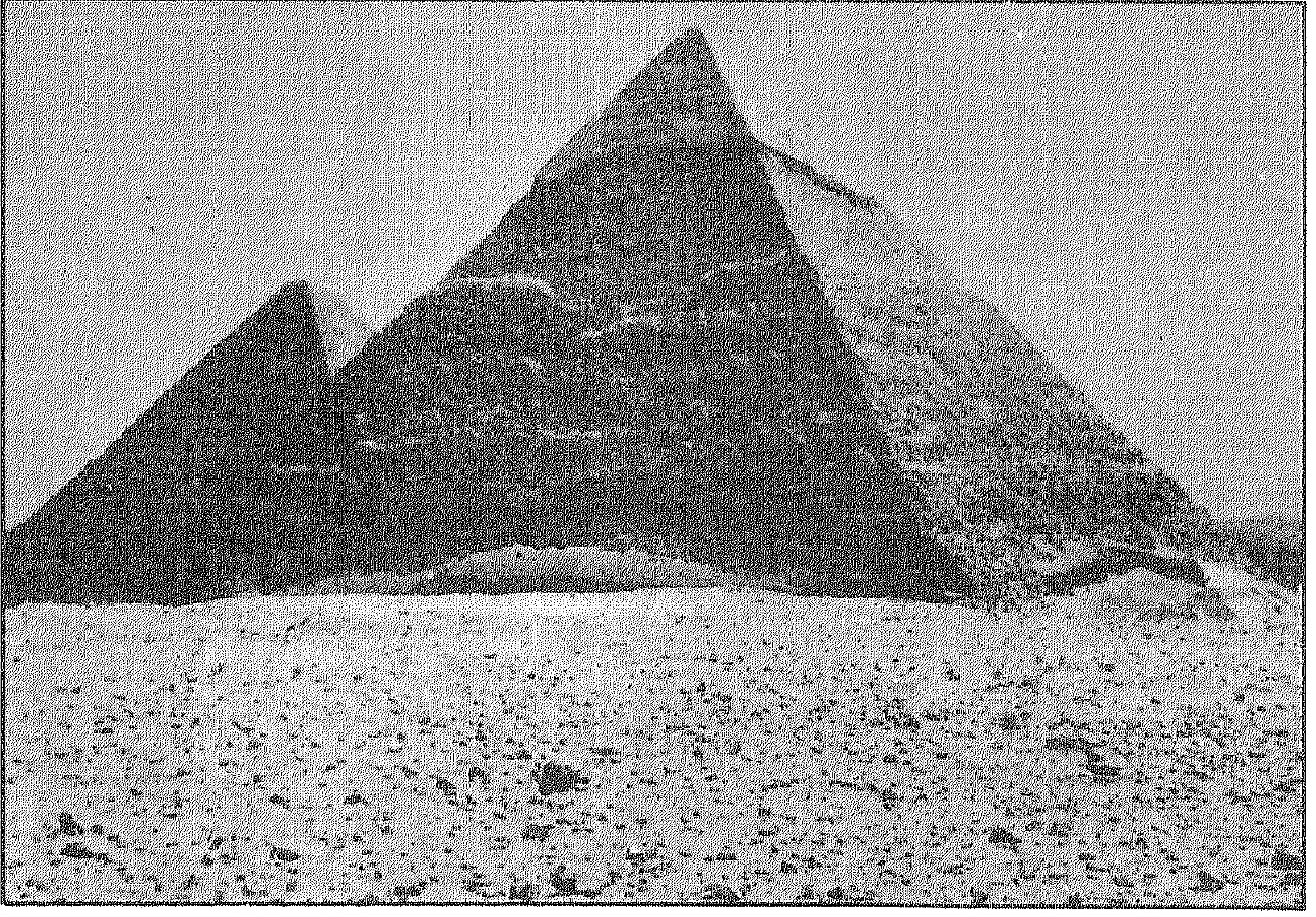
وظل ابن صليحة حاكماً لها قرابة احدى وعشرين سنة، من سنة ٤٧٣هـ الى سنة ٤٩٤هـ، ويبدو أنه آنس من نفسه عجزاً عن مقاومة الروم، وخشية أن تقع المدينة في أيديهم أرسل الى ظغتكين أتابك دقاق صاحب دمشق يلتمس منه انقاذ من يراه من ثقاته ليسلمها اليه، فانتدب طغتكين ولده تاج الملوك بوري أو توري فتسلمها منه، الا أن بوري أساء هو وأصحابه الى أهل جبلة وظلموهم، فشكوا حالهم الى ابن عمار صاحب طرابلس فأرسل اليهم عسكراً هزموا بوري وأصحابه وملك عسكر ابن عمار جبلة وأخذ توري أسيراً وحملوه الى طرابلس فأحسن اليه ابن عمار وسيره الى أبيه. وأما القاضي ابن صليحة فانه سار بماله وأهله الى دمشق ثم الى بغداد وبها بركيا روق وقد ضاقت يده فطلب من ابن صليحة ما لا فحمل اليه جملة طائلة.

وهكذا انتهى حكم التنوخيين للاذقية وجبلة.

المحامي هاشم عثمان
اللاذقية

الهوامش

(١) تاريخ اليعقوبي.
(٢) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب.
(٣) ابن العديم، زبدة الحلب.
(٤) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام.
(٥) روض الشقيق في الجزل الرقيق، نسيب أرسلان.



أهرامات الجيزة بالقاهرة

وهي العجيبة الوحيدة الباقية من تلك العجائب السبع في العالم وأهمها الهرم الأكبر أو هرم خوفو ويرجع تاريخ بناء هذه الأهرامات الى الفترة ما بين ٤٧٥٠ ــ ٣٠٠٠ ق.م وما زالت المهارة التي تم بها قطع الأحجار التي استخدمت في بناء الأهرامات ثم في رفعها الى هذا العلو الشاهق ووضعها في أماكنها الصحيحة على هذا النظام الهندسي العجيب وما زالت هذه المهارة مسألة تثير دهشة العالم حتى هذه الأيام اذ لم يعثر على أي أثر للأدوات التي كانت تستخدم لهذا الغرض.

وتقع أهرامات الجيزة على مسافة بضعة أميال من القاهرة في المكان الذي كان يعرف قديماً باسم «ممفيس».

يقول المثل المصري حديث «اضحك يا زمن من كل شيء، الا الأهرام تضحك منك يا زمن».

والمعنى الواضح هو ان الزمن له القدرة على اهلاك كل شيء الا الأهرام بأنها لا تزال قائمة بعد خمسين قرناً من الزمان.

هرم خوفو أو الهرم الأكبر: وصفه بعضهم بأنه جبل هائل من الأحجار، رفعه الشعب بأسره، من أجل رجل واحد.

وطبقاً لما رواه المؤرخ الأغريقي هيرودوت فان خوفو بدأ في هذا باغلاق جميع المعابد، ومنع تقديم كافة القرابين، ثم عمد بعد ذلك الى اكراه آلاف المصريين على العمل من أجله، وهكذا أخذ مائة ألف رجل يكدحون كدحاً متواصلاً وكان يستبدل بهم كل ثلاثة أشهر مجموعة جديدة واستغرق العمل برمته ٢٠ سنة.

كان ارتفاعه ١٤٦ متراً او ما يعادل ٤٨٢ قدماً ثم زالت قمته فأصبح ١٣٧ متراً ومساحة قاعدته ثلاثة عشر فداناً تقريباً وأوجهه مواجهة للجهات الأربع الأصلية. واضلاع القاعدة ٢٣٠ م، الوزن بالتقريب ٥,٥٠٠,٠٠٠ طن، كتل

الأحجار المستخدمة ٢,٣٠٠,٠٠٠ حجر بني هذا الهرم الأكبر قبل أكثر من ٤٦٠٠ سنة في عهد الأسرة الرابعة من أسر ملوك مصر القديمة أو فراعنتها.

واذا نظرت الى وجهه البحري رأيت المدخل واذا دخلته سرت في ممرات زلقة مبنية من الحجر الصوان ووصلت بعد جهد الى حجرتين الواحدة فوق الأخرى ويطلق على الحجرة العليا اسم حجرة الملك وهي متخذة من عدة أحجار ملتصق بعضها ببعض التصاقاً تاماً وفي هذه الحجرة نافذتان متصلتان بالخارج وتابوت من الصخر ليس به شيء وفوقها خمس حجرات صغيرة لتقليل الضغط الواقع على حجرة الملك، أما حجرة الملكة فتقع أسفل حجرة الملك وهي متخذة من الصوان أيضاً وكان هذا الهرم مكسواً بطبقة ملساء هي الحجر الجيري ولكنها زالت عنه على ممر الأيام.

عندما أراد خوفو بناء هرمه مهد طريقاً منحدرة من النيل الى هضبة الأهرام ثم رصفها وقضى في ذلك ١٠ سنوات ثم أخذ العمال يقطعون الأحجار من محاجر طره ويجرونها الى النيل ثم تحملها السفن الى الشاطىء الأيسر ثم تجر الى هضبة الأهرام وكانوا كلما بنوا صفاً من الحجارة وصلوا الطريق المنحدرة اليه كي يتمكنوا من جر الأحجار الضخمة ووضعها فوق هذا الصف بغير استعمال آلات لرفع الأحجار.

هرم خفرع او الهرم الأوسط: وخفرع هذا هو الذي ورث العرش بعد خوفو، كان ارتفاعه ١٤٣,٥ متراً ثم زالت قمته فأصبح ١٣٧ متراً، ولا تزال على قمته تلك الطبقة الحجرية الملساء التي كانت تغطي جميع سطحه..

ومن توابع هذا الهرم معبد واقع شرقيه، وهو الآن متهدم وكان متصلاً بالمعبد الثاني الموجود في الوادي. وهو معروف باسم معبد أبي الهول وكلا المعبدين تابع لهرم خفرع.

هرم منقرع أو الهرم الأصغر: ومنقرع هذا هو ابن خفرع ووريث عرشه، وبناؤه أقل الأهرام الثلاثة اتقاناً وارتفاعاً، ارتفاع هرم منقرع ٦٦,٥م. ومع ذلك فلم يتمكن الملك من اتمامه أيام حياته وتممته ملكة تسمى نيتو كريس، وكان له معبدان فتهدما.

أبو الهول: ذلك التمثال الضخم الذي يمثل مخلوقاً أسطورياً له جسم أسد ورأس انسان والذي يعبر عن فكرة الصمود لأهوال الدهر.

ارتفاعه من القاعدة الى أعلى رأسه عشرون متراً، وطوله ستة وأربعون متراً، وعرض وجهه أربعة أمتار، وطول أذنه متر وثلث، وطول أنفه متر ونصف، وطول فمه متران ونصف.

فلو ان رجلاً وقف على أذنه ورفع كلتا يديه لما وصلت أصابعه الى تاجه، وهذا الصنم رمز الشمس التي كان يعبدها المصريون ويسمونها هيرماخيس ولذا يوجد بين كفيه معبد يصعد اليه القوم بعدة درجات. واذا نظرت الى رأسه رأيت بقية التاج الذي كان عليه وآثار الحية المقدسة التي كانت على جبهته وهي رمز الملكية حينذاك.

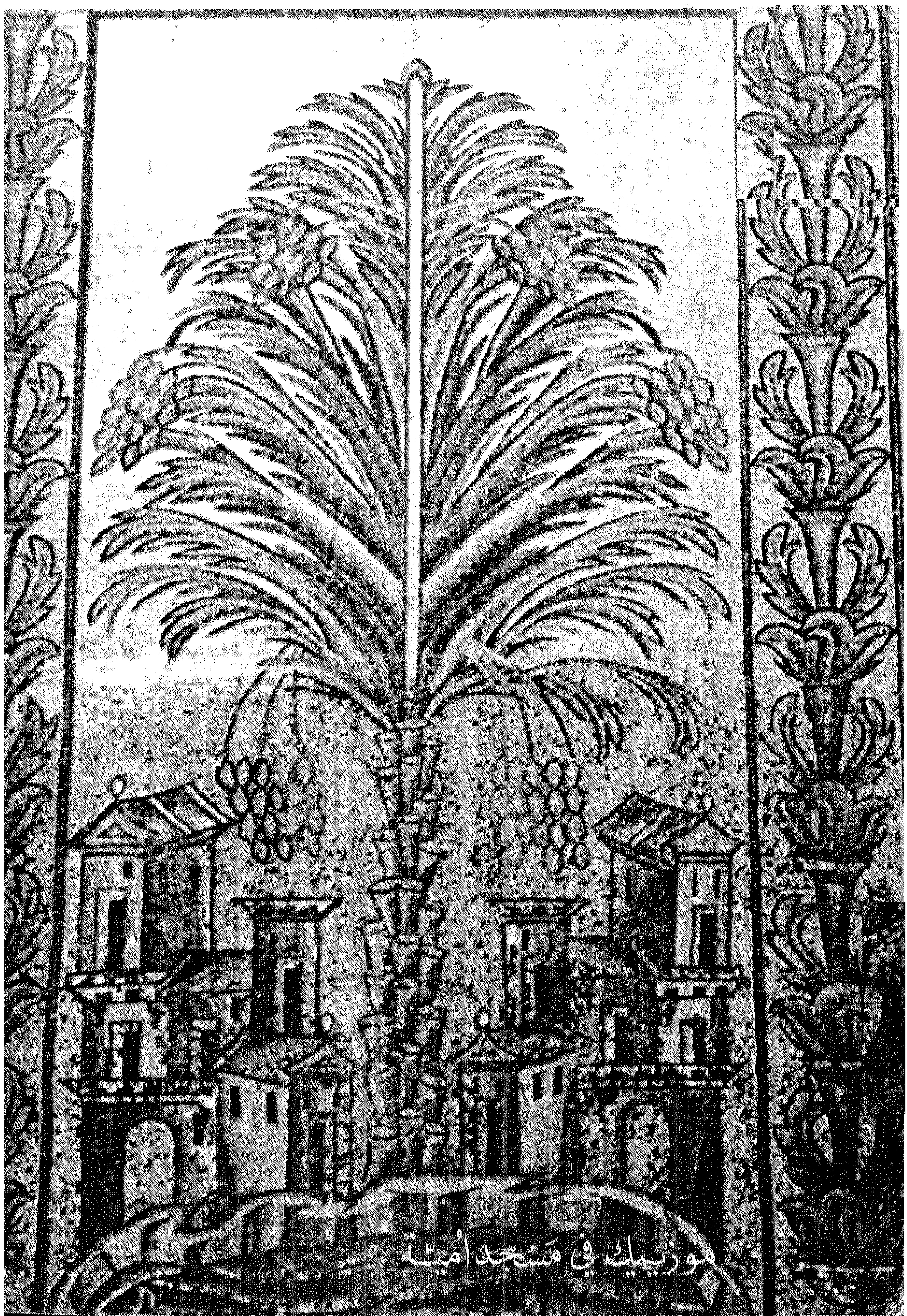
وترى أيضاً جزءاً من اللحية التي كانت أسفل ذقنه غير أن الحية واللحية قد سقطتا فنقلتا الى دار الآثار بلندن.

ولقد ضاع بهاء هذا التمثال الهائل وذلك لقدمه ولأن المماليك الذين حكموا مصر من عهد قريب جعلوه هدفاً يطلقون عليه القذائف من بنادقهم فكسروا أنفه، وشوهوا وجهه.

عبد الله محمد حاج عبدو
حلب ــ عفرين ــ كفر صفرة
الجمهورية العربية السورية

عجائب الدنيا السبع هي:

١ ــ أهرامات الجيزة بالقاهرة.
٢ ــ الجنائن المعلقة في بابل.
٣ ــ تمثال زيوس في المبيا.
٤ ــ معبد ارتميس في أفسوس.
٥ ــ ضريح هاليكار ناس في آسيا الصغرى.
٦ ــ تمثال عملاق رودوس.
٧ ــ منارة الاسكندرية.



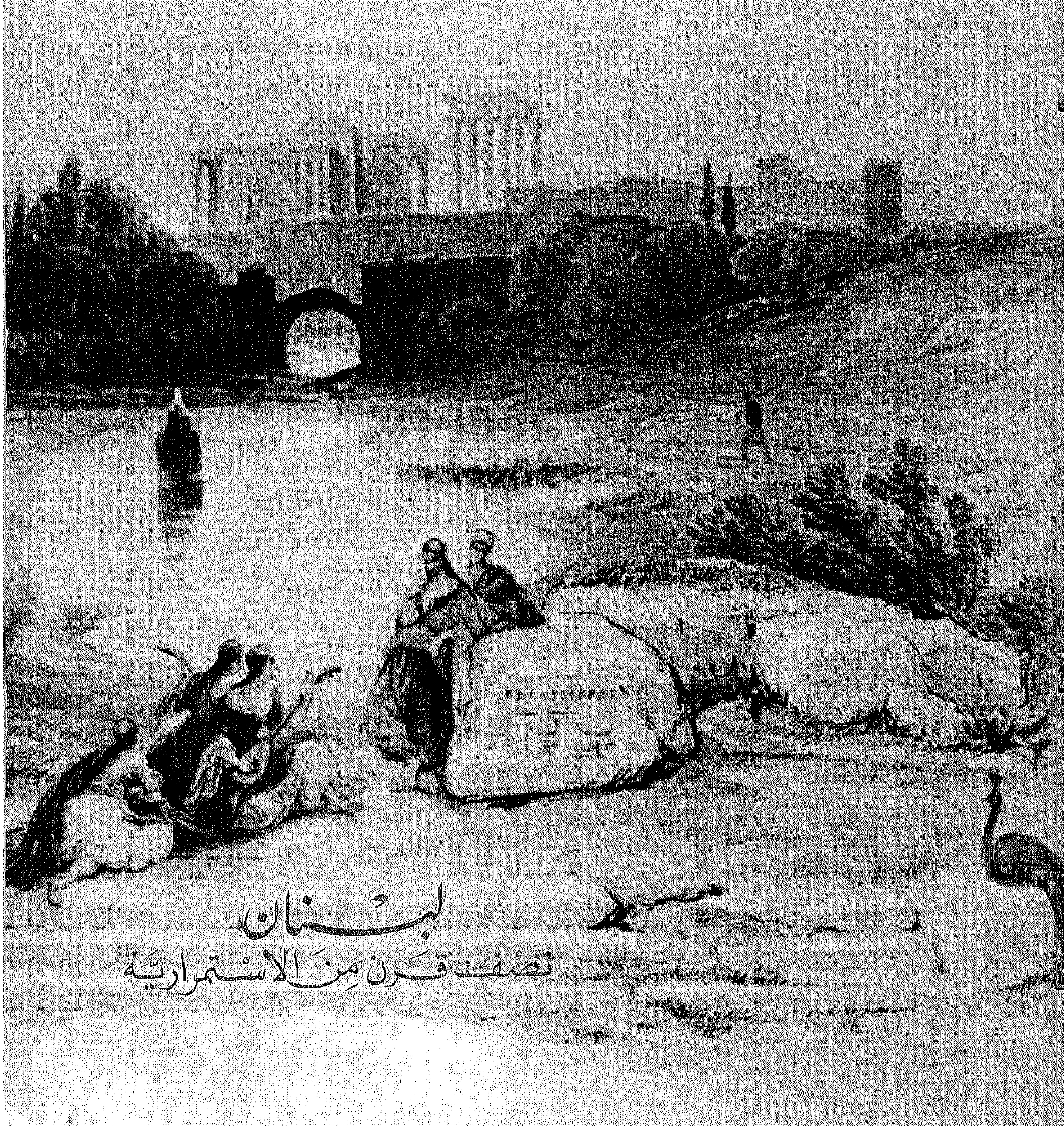
موزييك في مسجد اُميّة

عدد خاص

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

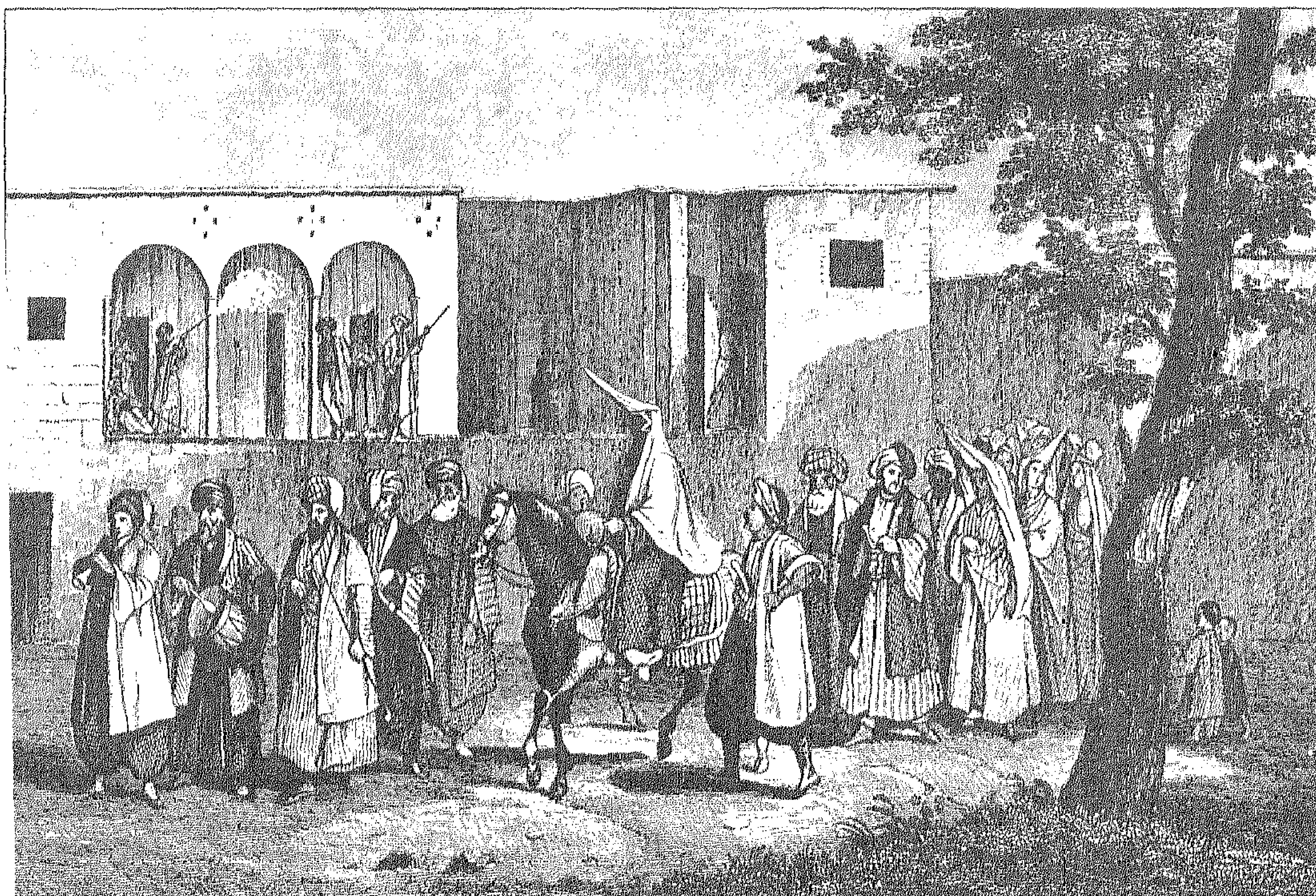
السنة الخامسة • العدد ٥٢ • شباط ١٩٨٣ م. الموافق جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ.



لبنان
نصف قرن من الاستمرارية



جبل لبنان للفنان «رانسونيت» من كتاب «جبل لبنان» لتشرشل، الجزء الثاني، الصفحة ٣



عرس في الجبل للفنان «رانسونيت» من كتاب «الدروز في لبنان» لشاسو، ص ١٤٣ ــ ١٤٤

تاريخ العرب والعالم

العدد ٥٢ ــ شباط ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١,٥ دينار

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٢٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الاشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية.

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 5 No. 52, Feb. 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION: $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■





صمود واستمرارية



غاية هذا العدد الخاص، هو تقديم صورة متكاملة، قدر الامكان، عن لبنان ومؤسساته ونضاله واستمراريته خلال نصف قرن.

لبنان الذي قاوم الانتداب الفرنسي وحقق الاستقلال.

لبنان الذي ساهم في انشاء جامعة الدول العربية.

لبنان الذي اشترك في مؤتمرات دول عدم الانحياز.

لبنان الذي استطاع أن يصمد أمام التحديات والمؤامرات. وعلى الرغم من كل الضغوط، استطاع أن يستمر مؤدياً رسالته ولعب دوره المميز ضمن الأسرة العربية.

لبنان الذي احتضن المقاومة الفلسطينية ودفع الثمن باهظاً.

ان الحرب اللبنانية تركت بصماتها على كل القلوب وفي كل المناطق والقطاعات، فدمرت البيوت والمحلات والمصانع، وشردت مئات الآلاف من المواطنين الأبرياء، وقتلت عشرات الآلاف من الأبرياء. ولكنها لم تمح الثوابت التاريخية والجغرافية ولا الجوامع الوطنية الأصيلة والعميقة الجذور.

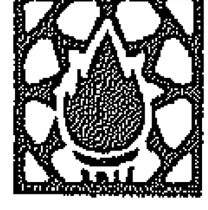
فهنالك استمرارية في العيش الواحد وفي مجابهة التحديات وفي الحرص على المؤسسات الجامعية.

هذه «الاستمرارية» اللبنانية، وعناصرها الموضوعية من مختلف القطاعات، هو ما تحاول مجلة «تاريخ العرب والعالم» إبرازه في هذا العدد الخاص في مرحلة تعتبر من أخطر مراحل تاريخنا المعاصر على الاطلاق.

فاروق البربير

في أساس الصمود

روجيه شيخاني
وزير العدل والاعلام



إذا قيس صمود الشعوب بمقياس ثوابتهم الوطنية ومكاسبهم التي تشكل عبر الزمان تراثهم الكبير وجامعهم الأول في وحدة المصير، لظهر أن بين اللبنانيين من عناصر الوحدة ما جعلهم يواجهون أشرس محنة عرفوها في تاريخهم المعاصر.

لبنان استمر، استمر كشعب وكقيم وكمؤسسات وبقيت شرعيته تمثل ذلك الوجه الأصيل لإرادة لبنان بالبقاء والاستمرار، بالرغم مما لحق بها من وهن وما حل بالمؤسسات من دمار معنوي ومادي، أصاب الدولة بالشلل والجمود، وأوحى بالكثير من المخاطر.

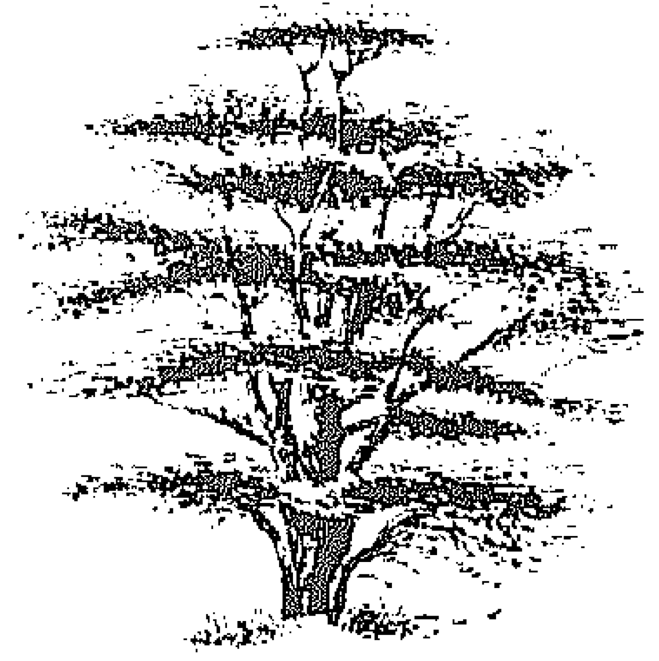
لكن الاستمرارية الدستورية، أثبتت فعاليتها في المحنة اللبنانية، وكانت ولا تزال مدخلنا الأساسي الى الخلاص. فالرئاسة الأولى تناقلت حسب الأصول، والحكومات ألفت حسب مقتضيات نظامنا، ومجلس النواب الذي كان قدره فريدا خلال السنوات الثماني الماضية، أدى دوره التاريخي، تشريعياً وسياسياً، حسبما تتطلبه القوانين والظروف. والادارة عادت الى العمل، والمؤسسات الأخرى انطلقت في حركة البناء الجديدة، وبخاصة بعد اعادة توحيد شطري العاصمة وزوال معظم العوائق المادية للعمل والانتاج.

إننا اليوم، ازاء مسيرة المستقبل، نتطلع الى الماضي بألم وأسف، ولكن بنوع من الارتياح أيضا، بسبب ما بذلناه من قدرة على الصمود، وما تمسكنا بـه من قيم ومبادىء، ساعدتنا على اجتياز محنة كادت، لولا وعي اللبنانيين الشامل وتحسسهم بوطنهم وبوحدته وبديمومته، أن تؤدي به الى طرق التفكك والزوال.

إن هذا الوعي تمثل في الأصل في الايمان بالشرعية، كوسيلة أساسية للجهد الوطني الفاعل والشامل. فتحقق الانتقال الدستوري من الرئيس الياس سركيس الى الرئيس المرحوم الشيخ بشير الجميل، الى الرئيس الشيخ أمين الجميل، في ظروف لعلها أدهشت العالم من حيث دقة انطباقها على النظم والأصول والتقاليد، بما ينم عن تراث ديمقراطي أصيل لدى اللبنانيين ساعدهم على مواجهة المحنة والتصدي لمحاولات التفكك والفراغ.

وعندما تسلم الرئيس الشيخ أمين الجميل زمام الحكم، تأكد للبنانيين أن هناك مسيرة حيوية جديدة هدفها الانقاذ، وهي الرسالة التي جعل منها الرئيس الجميل عنواناً أساسياً لمهمته في الحكم. فاتضح أن هناك اجماعاً لبنانياً وطنياً حول شخص الرئيس ومهمته، تمثل في كافة الفئات والمناطق والاتجاهات.

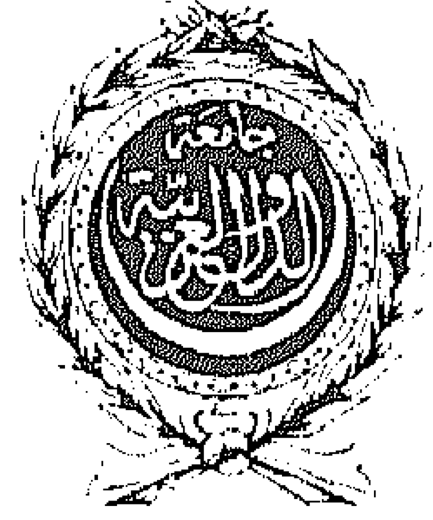
ويوم أطلق الرئيس كلمته المدوية من على منبر الأمم المتحدة: «أعطونا السلام، وخذوا منا ما يدهش العالم»، أدرك اللبنانيون أن لبنانهم المستعاد بات قريبا، وأن المستقبل قادم بأمل كامل، وأن البلد الذي عاش ستة آلاف سنة ليس قدره الزوال والاندثار.



لبنان



والسياسة الخارجية



جوزف أبو خاطر



لم تكن للبنان قبل الاستقلال عام ١٩٤٣ سياسة خارجية بالمعنى المتعارف عليه، ولم يكن في وضع استقلالي يسمح بانتهاج أية سياسة خارجية. ولا يمكن حتى التوقف إلا بقدر عند عهدي الأمير فخر الدين والأمير بشير الثاني. فالعلاقة بين الأول ومقاطعة توسكانا الايطالية كادت أن يغلب عليها الطابع الشخصي البحت سوى محاولات منه لدى الكرسي الرسولي وسواه لتمتين الوضع في لبنان! وكان هكذا أمر الأمير بشير مع ابراهيم باشا المصري نجل محمد علي الكبير الذي حاول أن يخرج مصر نهائيا من الامبراطورية العثمانية بعد أن توغل الجيش المصري بقيادة ابنه باتجاه الأناضول وأوشك أن يصل إلى عاصمة السلطنة لولا تدخل الدول الأوروبية الفاعلة يوم ذاك. وكان التزاحم قد بدأ بينها على اقتسام تركة الرجل «المريض» الذي طال احتضاره ولم يلفظ النفس الأخير إلا بعد اندحاره في الحرب العالمية الأولى التي خاضها إلى جانب امبرطوريتي المانيا والنمسا.

وجاء العهد المتصرفي في لبنان إثر أحداث ١٨٦٠ المعروفة وعاش البلد في ظل نظام البرتوكول الذي ألزمت به أوروبا الباب العالي. وامتد حتى بدء الحرب الكبرى عام ١٩١٤ ومن أبرز مقوماته أن الحكم آل إلى متصرف تعينه السلطنة من بين رعاياها المسيحيين غير اللبنانيين. وكان المتصرف يملك صلاحيات جد واسعة في تسيير شؤون البلد الداخلية فقط دون أن تبدو أية ملامح سياسة خارجية سوى انتماءات ضمنية إلى دول أجنبية توزعتها الطوائف الدينية فمكنت إحداها علاقة قديمة بفرنسا ومالت ثانية إلى بريطانيا العظمى، التي أولتها بعض الحماية وثالثة إلى روسيا القيصرية ورابعة رنت بالأبصار شطر الامبراطورية النمساوية وظل فريق آخر وهو مزيج من اللبنانيين على بعض الولاء للسلطنة إلى أن بدأت

■ جوزف أبو خاطر، سفير سابق في المكسيك واميركا الوسطى وروما وفيينا والقاهرة، مندوب دائم لدى الجامعة العربية، رأس الوفد اللبناني لمؤتمر منظمة الاونسكو العام في مكسيكو وفي بيروت، ثم عين أميناً عاماً للخارجية، نائب دائرة زحلة وبعلبك ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢، ثم وزيراً للتربية، ثم وزيراً للدولة لمدى سنتين في عهد الرئيس الياس سركيس. رأس الوفد اللبناني لمؤتمر القمة العربي في فاس.



عندما رفع العلم اللبناني في قلعة راشيا

حركات وانتفاضات التحرر العربي فانصهرت في بوتقتها فئات عديدة من اللبنانيين الذين أسهموا فيها إسهاما واسعا ورفعوا حيثما نزلوا لواء النهضة القومية في شتى الحقول.

وبعد تفكك السلطنة العثمانية في أعقاب حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ بدأ العالم العربي يشهد بزوغ فجر جديد شدد في النفوس الأمل بتحقيق الحرية والاستقلال الذين منتها بهما الدول الظافرة جزاء وقوفها في الحرب إلى جانبها. وسرعان ما تبخرت الأماني والآمال فقد اقتسم الحلفاء المنتصرون بقية تركة السلطنة العثمانية وكان حال العرب معهم ما قال في وصفه شاعرنا الأخطل الصغير:

قد رجونا من الغنيمة حظا
ووردنا الوغى فكنا الغنائم

وكان على العرب الذين جاهدوا الحكم العثماني بغية التخلص من ربقته العاتية، أن يخوضوا ضد المستعمرين الجدد حروبا فعلية امتدت إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ التي أسفرت عن تقاسم الجبارين الجديدين واشنطن وموسكو العالم مناطق نفوذ في مؤتمر يالطا عام ١٩٤٥.



الأمير فخر الدين المعني

وكان من أهداف الدولتين الكبيرتين شد أزر الشعوب الطامعة الى الاستقلال ورأت أن من مصلحتها القضاء على الوجود الأوروبي في آسيا وأفريقيا وكان من نتيجة هذا التبدل العميق أن استقلت دول العالم الثالث بأسرها وأن سارعت الدول الكبرى إلى خطب ودها تأمينا للمواقع الاستراتيجية الهامة ورغبة في الافادة من مواردها الطبيعية التي فجرتها أرضها خيرات وكنوزا وفي طليعتها البترول الذي يرتبط به الاقتصاد العالمي في حالتي السلم والحرب.

وقد أفادت البلاد العربية من هذا الواقع الجديد، فنالت جميعها استقلالها الفعلي في شؤونها الداخلية والخارجية، وبدأت تلعب دورا

الأمير بشير الشهابي



على الصعيد العالمي سواء في هيئة الأمم المتحدة أم عن طريق جامعة الدول العربية.

وسأعود في سياق الكتابة إلى موضوعي الجامعة والقضية الفلسطينية.

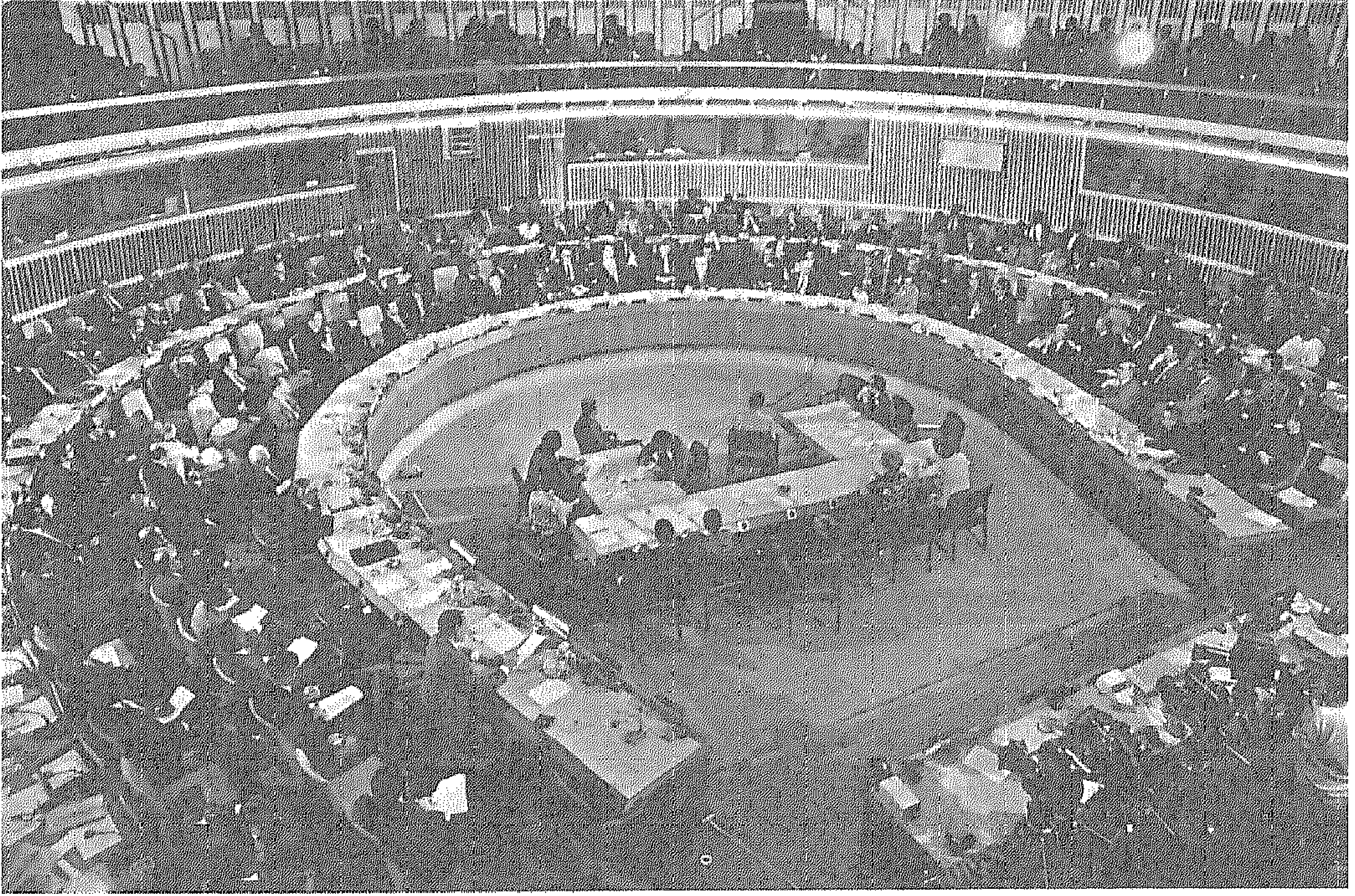
لبنان الرسمي في الخارج

فور أن ظفر لبنان باستقلاله عام ١٩٤٣ بادر إلى إنشاء تمثيل ديبلوماسي وقنصلي في الخارج اتسع تدريجيا إلى أن شمل اليوم معظم دول العالم في جميع القارات. وقد أقول أننا أغرقنا في ذلك وحملنا البلد ما يفوق قدراته المالية، وأحيانا دون أي فائدة أو نفع وثمة أمثال عديدة على ذلك لا أرغب أن أعرض لها الآن. ومع بدء قيام التمثيل الخارجي اتجهت السياسة اللبنانية شطر دول معينة ساعدت على نيل الاستقلال وفي طليعتها بريطانيا وقد آزرتنا رغبة في تقليص النفوذ الفرنسي في بلاد المشرق التي ظلت طويلا ميدان تزاحم بين الدولتين الغربيتين يرجع إلى البعيد من الأزمنة وغالبا ما رجحت فيه كفة الانكليز. وجاء انتقاء معظم الوزراء المفوضين إلى ترأس البعثات اللبنانية إلى الخارج في عهد الرئيس الشيخ بشارة الخوري، فأناط التمثيل اللبناني في لندن وباريس وواشنطن وسواها من العواصم الكبرى ذات التأثير في مصائر الكون بأشخاص من خيرة رجالات لبنان علما وتمرسا بالقضايا العامة من بينهم الدكتور شارل مالك الذي سرعان ما أهلته مواهبه العلمية الفذة وثقافته العالية إلى الصف الأول فتبوأ أعلى المراكز في الأمم المتحدة من رئاسة المجلس الاقتصادي والاجتماعي إلى رئاسة لجنة حقوق الانسان التي أسهم في وضع شرعتها إلى رئاسة الدورة العامة للمنظمة وكان فيها وفي الأوساط الأميركية العليا محط الأنظار وموضع التقدير.

وقد أخذ البعض على الدكتور مالك ما أسمي انحيازا إلى خط الولايات المتحدة، ولا أعتقد أن موقفه إذا صح يكون قد أضر بالمصلحة اللبنانية فاستعراض الواقع الدولي والعربي اليوم يثبت أن معظم الدول بما فيها العديد من بلاد العالم الثالث وحتى من دول عدم الانحياز بالذات اضطرت أن تكون في صف هذا المعسكر أو ذاك من المعسكرين الجبارين حفاظا على مصالحها وأحيانا على مصيرها نفسه ومجرد توقف عند الوضع العربي الحاضر نرى أن عددا من دول الجامعة تملكه الاعتقاد أن لا تسوية لمشاكل منطقة الشرق الأوسط وأهمها القضية الفلسطينية إلا بمساعدة واشنطن حتى أن الرئيس الراحل أنور السادات كان يصرح أن حل هذه القضية هو اليوم بنسبة ٩٥٪. بيد الولايات المتحدة، وإذا رأى البعض أن في هذا التقدير مغالاة فثمة حقيقة تتمثل في وضع لبنان اليوم الذي لم يجد أية وسيلة لمحاولة إنهاء الاحتلال الاسرائيلي الا تدخل الولايات المتحدة في الأمر، وهو يسهل دونما ريب، إنهاء هذا الوجود وبالتالي جلاء القوات الأخرى عن لبنان وعودة السيادة على كامل أرضه إلى الدولة اللبنانية.

وبديهي، أن الحرص على صداقة واشنطن لا يمكن أن يعني في أية حال، إهمالا للفريق العالمي الآخر، ولا يمكن أن يعني إضعاف العلاقات مع موسكو وحلفائها، بل قد يكون من الغباء أن نتجاهل ما يمثل هذا الفريق من قوة ومن سلطان ومن مصلحة لبنان السير بتؤدة وترو حيال كل التيارات فيضمن أمنه وسلامته ولا يجعل من أرضه ميدانا لأية صراعات عقائدية ولا ينسى واقعه وامكاناته المحدودة. وقد يمكن أن أعرض الآن دونما طويل إسهاب إلى بعض الخطوط العامة في سياستنا الخارجية.

لقد انطلق لبنان في ميدان السياسة الخارجية بحماسة واندفاع فاتتهما أحيانا صحة الرؤية والحذر، فانغمس في متاهات السياسات العربية وحاول أن يلعب على صعيدها دورا خطر المزالق واذا كان بعض البريق واللمعان قد رافق الخطوات اللبنانية الأولى واذا وجب الاعتراف أيضا أن لبنان بما تتمتع النخبة فيه



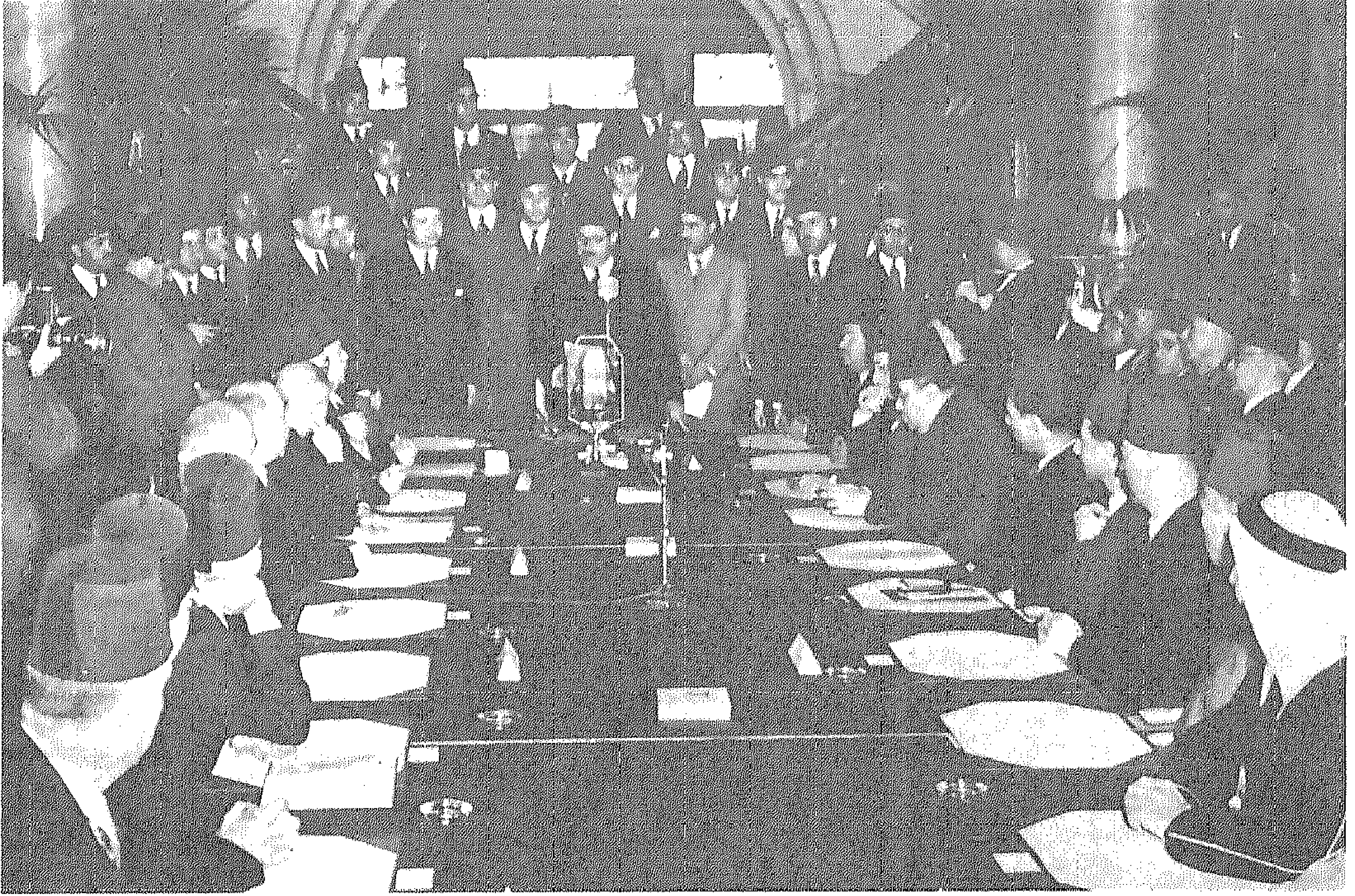
لبنان ساهم مساهمة فعالة في هيئة الأمم المتحدة

من ثقافة أهلته لدور لامع في محيطه العربي، فهو إلى جانب ذلك قد جنح أحيانا إلى بعض التطرف الذي أخذ به العرب والذي أضر كثيرا بهم وبقضاياهم القومية الكبرى.

ولعلي إذ أعرض الآن لماما إلى جامعة الدول العربية وسياستها وإلى القضية الفلسطينية سألقي في ذلك أضواء على مجمل جوانب سياسة لبنان الخارجية.

لبنان في الجامعة

كان لبنان من مؤسسي جامعة الدول العربية إلى جانب ست دول أخرى هي مصر والمملكة العربية السعودية وسوريا والعراق والأردن واليمن، وما ان بدأت أعمالها حتى برز النشاط اللبناني وسط تيارات داخل المنظمة قادتها أحيانا إلى أقصى حدود التطرف اللامسؤول وعرضتها إلى معاداة ومناوأة العديد من الدول فكانت قرارات الجامعة تتوالى مصاغة بعنف وبتهديد موجه إلى العالم وبتحذيرات كيفما شاءت وكلما شاءت وكانت التهديدات تأتي على ألسنة هذا المسؤول فيها أو ذاك وطالما واجه لبنان وسواه من الدول المعتدلة مواقف وقرارات كانت تؤدي بالبعض إلى الامتناع عن الاقتراع وحتى أحيانا الى الانفراد في الرفض. والقرارات التي توالت والتي تغص بها ادراج وخزائن الجامعة لم يكتب لها أن تنفذ إلا بقدر ضئيل أمام انعدام القدرة على ذلك. وكان لبنان وسط موجات العنف الكلامي وتياراته يجنح إلى الاعتدال وينتهي الأمر بأن يصغى إلى رأيه ويؤخذ به بل كان الكثيرون يستدرجونه لابداء الرأي ويمتدحون تصرفه العاقل ومع الوقت أدت المواقف المتناقضة الى تفكيك الاجماع العربي وإلى إضعاف الجامعة بل إلى الاضرار بالقضايا القومية والى إعطاء اسرائيل وسواها ذريعة لتشويه صورة العرب ولبنان. وكان لبنان وسط هذا الخضم يرفض أن يرتضي الموقف المتخاذل إلى أن أتت المحنة القاسية التي ما برحت تقض علينا المضاجع ويمكن الاعتراف الآن أن الأزمة الكبرى الحاضرة أفادت من حيث أراد مفجروها هدم البلد والقضاء عليه فاللبنانيون اليوم ومعهم شبه الاجماع العربي أدركوا خطر سياسات التطرف والامعان في



عقب الموافقة على ميثاق جامعة الدول العربية، وتوقيع الميثاق بقصر الزعفران بالقاهرة.. أعلن محمود فهمي النقراشي قيام الجامعة العربية في ٢٢ آذار (مارس) سنة ١٩٤٠. وكان لبنان من مؤسسي الجامعة.

التهديد والوعيد التي جعل منها العرب شرعة يتصرفون على ضوئها.

القضية الفلسطينية

لن أتحدث الآن إلا لماما عن القضية الفلسطينية التي بدت معالم نشوئها منذ وعد بلفور عام ١٩١٦. وقد أقر إنشاء وطن قومي وتطور فيما بعد فأدى عام ١٩٤٧ إلى تقسيم فلسطين بموجب قرار من هيئة الأمم المتحدة فتأسست الدولة العبرية على حساب العرب وحقوقهم والى احتلال أراضيهم بالقوة والى ما بدا ويبدو من مطامع توسعية بعيدة الغور.

لقد تحكمت طويلا القضية الفلسطينية بسياسة لبنان الخارجية تحكما كان شبه كامل والى التأثير في سياسة وتصرفات جميع الدول العربية دون استثناء. وكاد الجهد العربي في الخارج أن ينحصر بالقضية الفلسطينية فقاد العرب الى حروب قاسية استنزفت قواهم وكادت أن تشل كل نشاط لانماء بلادهم وتطويرها كما أدت إلى خلق خلافات حادة في صفوفهم ولو وقفنا عند نتائج وتأثير القضية الفلسطينية على الوضع اللبناني وحده لبدا فورا ما قاسى لبنان بسببها وأحيانا بفعلها من ويلات ونكبات كادت أن تقذف به إلى الهاوية دون أن يجني الفلسطينيون منها شيئا.

لقد تحمل لبنان ما يفوق قدراته إلى حد بعيد وما يفوق بكثير ما تحمل سوانا من الدول العربية إذا ما قورنت أوضاعها بأوضاع لبنان البشرية والمالية وسيقول التاريخ أن المحنة التي حاقت بلبنان وما تعرض ويتعرض له من ويلات وأهوال وما لحق به من تدمير معالمه الحضارية والاقتصادية وما سال على أرضه من دماء أبنائه وما أدى ذلك إلى خلافات داخلية مرده إلى الأزمة الفلسطينية وما زال يرزح تحت أعبائها دون أن يؤدي ذلك إلى فقدان تحسسه بعدالة القضية الفلسطينية والى التردد في متابعة نصرتها ما وجد إلى ذلك سبيلا. ايمانا منه

أيضا بأن الدول الكبرى في المعسكرين التي خلقت الدولة الاسرائيلية في قلب العالم العربي إنما ارتكبت ظلما فادحا لاسند له من تاريخ أو قانون أو واقع.

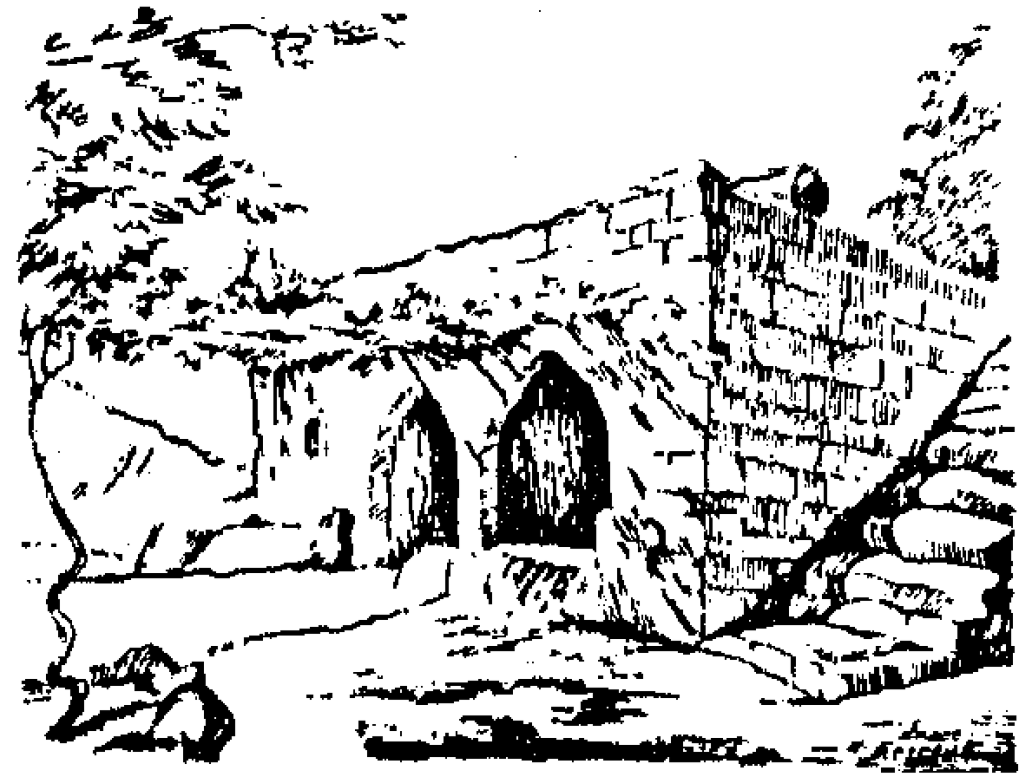
إن العرب شعروا دونما ريب مع الشعب اليهودي يوم اعتنقت النازية فكرة «الحل الأخير» أي إفناء الشعب اليهودي بكامله ولكنهم بذات الوقت يأبون على اسرائيل اغتصابها الحق العربي وذهابها في التصلب إلى حد رفض إعادة جزء من أرض فلسطين إلى أصحابها الشرعيين لاقامة وطن لهم عليها، وخلاصة القول في سياسة الخارجية اللبنانية اليوم انها تقوم على مبادىء ملزمة تتمثل بما يلي:

١ ــ الحفاظ على مايشدنا الى محيطنا العربي من روابط والتضامن معه في نصرة قضاياه، وهو تصرف يحتمه تركيب لبنان الانساني كما تحتمه عوامل ترتبط بمصير البلد وباقتصاده وأمنه وسلامته وذلك ضمن التمسك باستقلاله وسيادته المطلقة.

٢ ــ تمتين العلاقات بالولايات المتحدة مع الحرص على إبقاء العلاقات السوفياتية اللبنانية طيبة سليمة.

٣ ــ بين لبنان ودول معينة في أوروبا الغربية علاقات تاريخية تتعدد أسبابها من بينها تشبع لبنان بالثقافة الغربية، إلى جانب اللغة العربية والثقافة والتاريخ العربي. وقد كانت للبنان ولم تزل يد بارزة في هذه المجالات وفي تنمية ونشر الحضارة واللغة العربية حيثما نزل أبناؤه. ومنها أيضا العلاقة الوثيقة بالفاتيكان الذي تتمثل فيه دول عربية واسلامية عديدة والذي وقف في وزنه المعنوي الكبير إلى جانب قضايا الشعوب المظلومة والى جانب العرب في القضية الفلسطينية وهو حتى اليوم مابرح على رفضه تبادل أي تمثيل مع الدولة العبرية.

٤ ــ وأخيرا، قيل أن للبنان «امبراطورية في الخارج» وعلى ما في استعمال هذه العبارة من غلو لابد من ذكر مايشدنا من روابط إلى الأميركتين والى آسيا وأفريقيا وسواها التي يستقر فيها منذ أكثر من مائة عام أعداد ضخمة من اللبنانيين تفاعلت فيها ذرياتهم وقد قام ويقوم فيها في جميع الميادين نشاط لبناني أفاد منه الوطن كما أفادت دول الاغتراب. ●



قريتي ونفسي

بقلم : خليل تقي الدّين

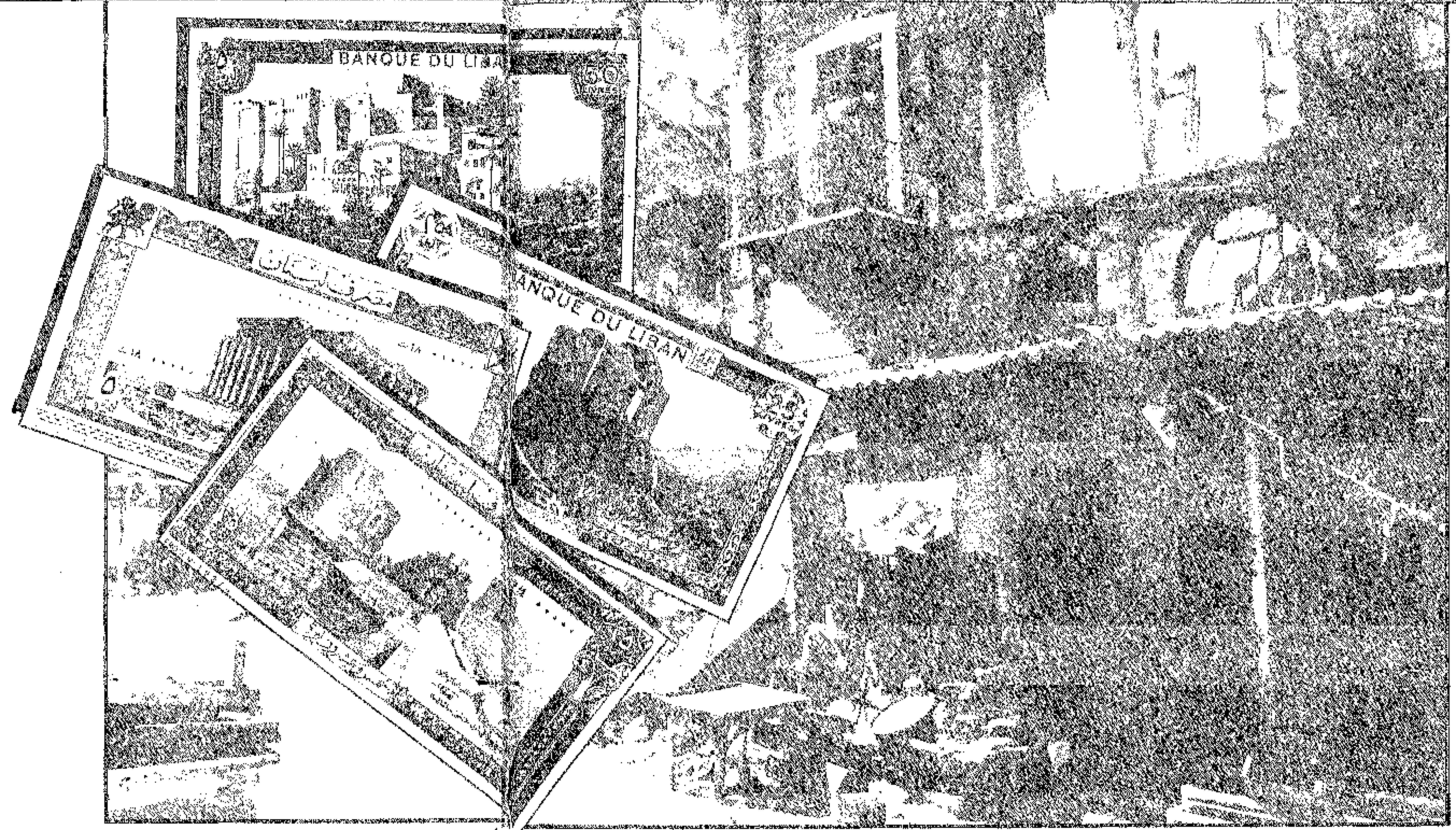
بالأمس كان لي قرية هادئة، ضائعة بين أشجار الزيتون والسنديان، رابضة على كتف صخر أزلي فوق هضبة من هضاب لبنان، سعيدة تفتح نوافذها للشمس، وصدرها للنسيم، وقلبها للحياة.

وفي ذات يوم خفرت عهد قريتي، ونسيت اني جُبلت من ترابها، ورضعت من ثديها، ودببت على أرضها، ونَمَوْت في جوها فرحلت عنها غير متلفت إلى الوراء.

ومنذ ذلك اليوم أضعت نفسي، فكأنني فقدتها في بعض الطريق.

... لقد قمنا برحلة طويلة أضعنا فيها نفوسنا في بعض الطريق. فمن استطاع منا الرجوع القهقرى والعودة إلى الأرض الحبيبة التي خلفها وراءه كان عظيمًا، وكان حكيمًا، وعرف معنى الحياة.

... الأعمال الكبرى
لبنان الشعب والدولة



ويخرج لبنان من محنته وقد أعطى البرهان الوافي على شيئين أساسيين: قدرته على التمسك بالحياة والصمود وأبراز حقه بالوجود العزيز الكريم من جهة، وامتلاؤه، من جهة ثانية، بالحيوية والعافية والتجدد لاستئناف السعي الحثيث من أجل تحقيق أكثر مما تتيح له موارده من تقدم اقتصادي، والانضمام إلى ركب البلاد التي تسير في طليعة التقدم الانساني.

وتكون قناعة اللبنانيين بهذين الشيئين واعتراف العالم بهما ثروة هائلة معنوية بامكانها تعبئة الموارد الوطنية وغير الوطنية من أجل تسريع عملية الاعمار واسهام كل اللبنانيين وأصدقائهم والذين يتعاملون معهم فيها.

ولكن نقطة الانطلاق في هذه العملية الكبرى تبدأ من لبنان: من الشعب ومن الدولة.

فما هو دور الدولة في عملية الاعمار؟

لقد أصاب الخراب كل لبنان وأصاب أول ما أصاب المرافق العامة بشكل مريع، ادى الى شلل معظمها وتعطل الحياة فيها، حتى كاد هذا البلد، الذي كان يفخر بتقدم المرافق العامة فيه بالنسبة الى كثير من البلدان التي تشابهه بمستوى الدخل، ان يصبح بلداً متخلفاً. وكانت دورات العنف المتوالية عليه تعمق جراحه وتراكمها، وتعقد المشاكل الناشئة عنها حتى أصبح الوضع يتطلب تعمقاً جذرياً في اعادة تأهيل المرافق، كما جعل كلفة هذا التأهيل تتزايد بشكل مرهق.

وتقع مهمة تأهيل المرافق العامة على الدولة. وهي مهمة لا يمكن تجييرها للقطاع الخاص ولا للقطاع الخارجي. كما انها مهمة لا يمكن تأجيلها بل ان انجازها شرط أساسي لعودة الحياة إلى دورتها الطبيعية في قطاعات البلد.

ولو أردنا على سبيل التذكير أن نسرد القطاعات التي تحتاج الى فعل الدولة حالا لما استثنينا قطاعا واحدا من المرافق العامة.

فالمدارس أصيبت في كل دورات العنف التي أصابت البلد وتقدر وزارة التربية عدد المدارس على كل أنواعها التي تحتاج الى اصلاح خلال العام الدراسي الحالي بما يفوق السبعمائة والخمسين مدرسة. وكان من آثار تمادي الضرر في أبنية المدارس وتجهيزاتها أن أصبحت صلاحية البناء المدرسي بشكل عام موضع الاهتمام الجدي الآن.

والمستوصفات والمستشفيات تعطلت أو تهدمت جزئيا او كليا أو أصابها الشلل من سوء الانضباط وتراخي الادارة بسبب الظروف التي كانت سائدة. وتراكم الخسارة في المؤسسات الاستشفائية لفت النظر الى التقصير السابق في إقامة هذه المؤسسات بما يتناسب مع حاجة

المواطنين في مثل هذا الزمن وهذا البلد.

وتعرضت شبكات توزيع مياه الشفة الى الدمار والخراب بشكل مستمر، مما أضاف الى العجز الملاحظ سابقا في هذه الشبكات الناشيء عن النمو السكاني والعمراني بعد الحرب العالمية الثانية عجزا جديد وجعل أمر اعادة التأهيل عملية جذرية تستدعي اعباء مالية كبيرة جدا.

وألحق الخراب المتمادي على ثمانية أعوام ضرراً كبيراً بشبكة الطرقات التي كان يفخر بها البلد على طول ما يقرب من السبعة آلاف ومائتي كيلومتر بسبب الاستعمال العنيف لها وعدم الصيانة المتراكم. مما يجعل استعادة هذه الشبكة عملية عالية الكلفة..

أما الاتصالات السلكية واللاسلكية التي تشكل في لبنان وسيلة من وسائل كسب العيش لأهمية قطاع الخدمات في الدخل الوطني فقد كانت بين القطاعات المستهدفة مما يجعل أمر اعادة تجهيزها وضبط ادارتها وتأمين التفوق لها مع خدمات البلدان المنافسة بنداً ملحاً في قائمة مشاريع إعادة الأعمار.

ويحتاج مرفأ بيروت الى مزيد من الجهد والمال لاستعادة أحواضه التي تعطلت وتجهيزها وتأهيلها للقيام بدورها الملحوظ في الاقتصاد اللبناني.

كما ان كلفة اعادة تأهيل المطار تزداد يوماً بعد يوم.

وتحتاج مؤسسة كهرباء لبنان الى دفق هائل من الرساميل لتعويض الطاقة المهدورة وزيادة الطاقة المركبة من أجل مواجهة حاجات البلد المتزايدة.

وكشف الدمار عجز أنظمة تصريف النفايات والمياه الآسنة ونتجت عنه أوضاع مأساوية تستدعي معالجة سريعة بالاضافة الى تسريع العمل في تنفيذ الخطة الوطنية التي وضعت خلال السنتين الماضيتين والتي يحتاج تنفيذها الى عشرين سنة بالاضافة الى الأموال الطائلة التي ستستهلكها.

ويجب أن نذكر أيضاً مشاريع الري التي تعطلت أو توقف انجازها مع كل آثار ذلك على الانتاج الوطني ومداخيل الأفراد.

ويبقى بعد ذلك وسط مدينة بيروت وعصبها التجاري والمالي والثقافي، الذي أضيفت اليه أوساط اخرى في مدن أخرى مثل الدامور وصيدا وصور والنبطية والعيشية والخيام، ويجري العمل حثيثاً الآن على اضافة أوساط جديدة الى اللائحة.

كما يجب ألا ننسى في استعراض العبء الواقع على عاتق الدولة اهتمامها بالقطاع الخاص وذلك في اتجاهين:

اتجاه قطاع الانفاق: ويتمثل جهد الدولة المطلوب في مؤازرة المواطنين على ترميم بيوتهم التي تضررت أو تهدمت كليا او جزئيا، وفي تسهيل اقتناء المنازل لأصحاب المداخيل التي لا تتعدى المتوسط الاحصائي وفي حل مشكلة المهجرين الذين لا يستفيدون من التسليف لعدم توفر البيت المملوك أو المستأجر أو لعدم توفر الدخل الذي يعتبر قاعدة التسليف الطويل الأجل الميسر. لقد كانت مشكلة الاسكان من أهم المشاكل الاقتصادية والاجتماعية خلال العقدين الماضيين وجاءت محنة لبنان لتزيد تفاقمها وتجعلها أصعب المشاكل التي يواجهها البلد في العقدين القادمين.

واتجاه قطاع الانتاج: وكل الانتاج الوطني في القطاع الخاص. وكان تفوق القطاع الخاص ونشاطه والمعيته وقدرته على أخذ المخاطر والتجديد والاقدام أكثر ما يميز لبنان بين البلدان التي بدأت انطلاقها في طريق النمو السريع. ولكن نشاط هذا القطاع قد تعطل أو انتقل الى أسواق اخرى في المنطقة وغيرها. ويحتاج في عودته الى ممارسة تفوقه في البلد الى التغلب على أسباب الشك والحوار والتردد وعظم كلفة الانتقال بالاضافة الى القناعة بعودة الأمن والاستقرار.

ويترتب على الدولة في هذه المرحلة، وبطلب من القطاع الخاص، ولفترة تتراوح بين السنتين والثلاث من أعمار شامل مقنع، أن تمديد العون الى مؤسسات القطاع الخاص عن طريق التسليف الميسر لتدعم توظيفاتها الجديدة وتسرعها.

ويجب على الدولة ان تسرع برامج التدريب والتأهيل التقني والمهني لاستئناف التفوق



مطار بيروت الدولي

النسبي الذي يتمتع به لبنان في ميدان التأهيل البشري. ويعتبر أهم الأعمدة في تركيبه الاقتصادي القائم على توفير الكفاءة البشرية المناسبة لحاجاته وحاجات البلاد التي ما زالت تقدر تفوقه في هذا الميدان.

ولقد كان من دروس المحنة الكبيرة التي أصابت البلد تحقق اللبنانيين لحاجاتهم الى جيش يكون بسياج الوطن وقالبا يصهر المواطنين على المبادىء الوطنية، والى قوى أمن تحفظ أسباب الاستقرار والاطمئنان. وتحقيق هذين الأمرين الأساسيين في البنية الوطنية اللبنانية يحتاج الى تعبئة الناس وأموال الناس بشكل لم يتعوده اللبنانيون من قبل.

ويندرج كل ما ورد ذكره حتى الآن وما يمكن الاستمرار في سرده تحت عنوان الاستبدال أي اعادة انشاء ما هدم أو حرق أو تفتت. وهو عمل كبير وكلفته عظيمة.

ولكنه ليس كل ما يتوجب على الدولة القيام به.

بل ان عليها أن تقوم بالتعويض عن الانماء الضائع وهو التقدم في كل هذه المرافق والنشاطات التي تعود الى الدولة، الذي كان يجب أن يتم فيما لو أن أحوال البلد استمرت في التطور على النسق الذي كانت تتبعه في أواخر سنة ١٩٧٤. وهو نسق تميز بنسبة نمو تلفت الأنظار وببدء التحسس بضرورة تمرس الدولة بكثير من الوظائف الجديدة التي تعود الى الدولة الحديثة ولاسيما في ميدان الخدمات الاجتماعية والاقتصادية.

ويبدو التعويض عن الخراب والتعويض عن الانماء الضائع خلال عقد كامل مجمل مهام الدولة التي يمكن ترجمة كلفتها الى أرقام في العقد القادم تحت افتراضات متحفظة او في نصف العقد القادم تحت افتراضات أكثر طموحا.

يطلب من الدولة في لبنان اليوم أن تكون المؤتمنة على الاستقرار وأن تكون المحركة للأعمار.

وإذا لم تقم الدولة بواجباتها في اعادة أعمار البنية التحتية للحياة الاقتصادية والاجتماعية لا يقوم بهذا الدور غيرها.

وإذا لم تمد الدولة يدها الى قطاع المنازل وقطاع الانتاج يصعب تحقيق الأعمار المنتظر في القطاع الخاص.

وهذه مهمة صعبة على دولة قادرة فكيف بها إذا طلبت من دولة فقدت معظم مواردها وأضعفت كل مؤسساتها.

بل يمكن القول ان الدولة اللبنانية كانت

الخاسر الوحيد الأكبر خلال محنة لبنان.

فقد خسرت الدولة معظم وارداتها لضعف المؤسسات الخاصة التي تترتب عليها ضرائب الدخل وما شابهها. وفقدان السيطرة على المرافق المنتجة للمداخيل مثل الاتصالات السلكية واللاسلكية والجمارك وغيرها. أما من ناحية النفقات فلم يكن بوسعها التصرف مثل تصرف مؤسسات القطاع الخاص فتلجأ الى الصرف من الخدمة أو الحسم من الرواتب، بل كان عليها التمسك بكل واجباتها تجاه موظفيها سواء عملوا او لم يعملوا، وزيادة رواتبهم بسبب غلاء المعيشة في ظل الترقية المترتبة على القدم، بل وزيادة عددهم تحت وطأة الالحاح في الطلب على التوسع بالخدمات الاجتماعية في ظل الحاجة المتزايدة اليها مع ازدياد آلام المواطنين بسبب الظروف القاسية السائدة. واذا كانت نوعية خدمات الدولة قد انخفضت خلال المحنة فان كلفة هذه الخدمات قد ازدادت ازدياداً ملحوظاً، كما أن دعم بعض السلع والخدمات لم يتوقف بل ازداد في بعض الحالات.

ونتج عن هذا التباين بين الواردات والنفقات لجوء مضطرد الى التمويل بالعجز، مما جعل عجز الخزينة المتراكم شيئاً رهيباً في الوقت الحاضر.

ولو نظرنا الى حال اللبنانيين، وكلهم أصيبوا بأرزاقهم وأرواحهم وأرواح ذويهم، لرأينا الكثير منهم قد حسن أوضاعه المالية بسبب المداخيل غير الاعتيادية أو النشاطات الخارجية أو تحسن الأسعار الذي شمل كل الموجودات في لبنان. ولكن الدولة اللبنانية لم تفد من تحسن أوضاع اللبنانيين بشكل مباشر أو غير مباشر. وقد يصح وصف وضع المالية العامة اليوم بأنها دولة فقيرة لشعب ميسور.

يطلب من الدولة لكي تقوم بمهمتها الاعمارية أن تضيف الى نفقاتها في الموازنة العادية نفقات الأعمار التي تكاد أن تكون مساوية لنفقات الموازنة طيلة خمس أو ثماني سنوات، فيما لا تغطي واردات الدولة الحالية أكثر من ثلث نفقاتها في الموازنة العادية. مما يعني أن على الدولة أن تؤمن ثلاثة أضعاف مواردها الحالية لتغطية نفقاتها الجارية لتستطيع بعد ذلك الاسهام في نفقات الاعمار.

ويوصلنا هذا الوضع الى ضرورة قيام الدولة بتعبئة موارد لبنان، في الداخل طبعا، ولكن في الخارج ايضا. وترجمة الروابط الأخوية والصداقات ووجود المؤسسات الدولية والاقليمية المتخصصة في شؤون التعاون الدولي الى دعم مكثف للموارد اللبنانية من أجل سد نفقات الاعمار في أوجز مدة ممكنة.

ولا ينقص لبنان التعاطف المطلوب لانجاح عملية التعبئة الخارجية.

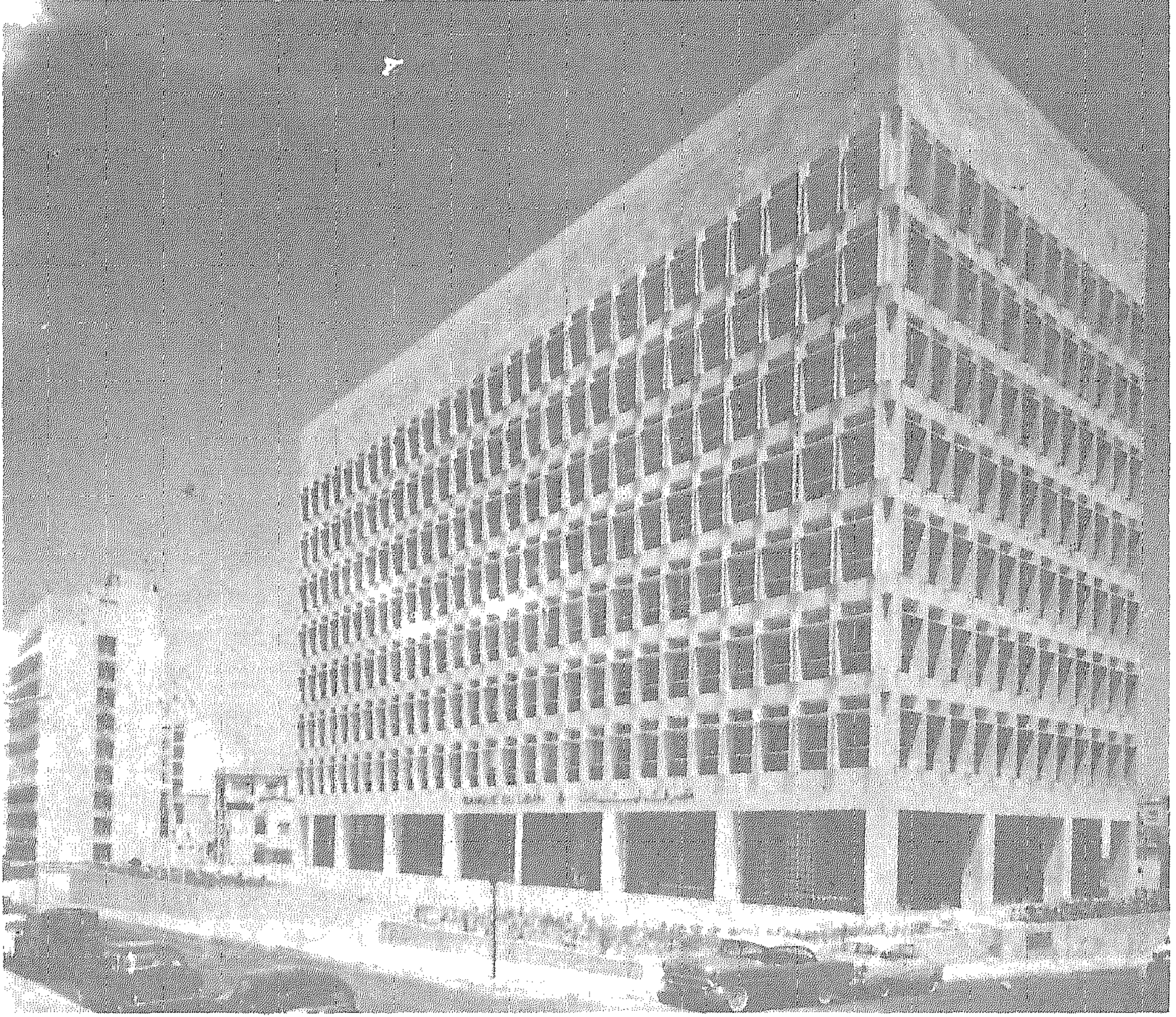
ولكن نجاح هذه العملية يحتاج الى اندفاع لبناني جارف للقيام بالعمل المطلوب من صاحب الشأن اولا، أي من الدولة ممثلة الشعب وقائدة مسيرته، والتفاف منيع من الشعب حولها.

ويجب ألا يغرب عن بالنا أن الدعم الخارجي الذي نطلبه هو بعد كل حساب اقتطاع من أموال الناس في تلك البلاد، أي اقتطاع من أرزاقها، وأسباب معيشتها. والناس ضنينة بهذا، حريصة أن توضع المساعدة في موضعها، تصل الى من يتوجب له ويستحق ويقدر. ويساعد لبنان كثيراً في اكتساب الرأي العام لدى الدول القادرة والراغبة في مساعدته إذا استطاع أن يجذب اهتمام الناس الى جهوده البطولية في اعادة الاعمار وتعويض العمر الضائع بقدر ما كانت تجذبهم أخبار الدمار والخراب والبلاء فيه.

ويتبين لنا من مراقبة نوايا الأشقاء والأصدقاء والمؤسسات المتخصصة كل نية طيبة في الاقدام على مساعدة لبنان وفي تكريس البرامج لدعم جهده الاعماري بشكل مقنع، مما يجعلنا أقرب الى الثقة بأن ما يطلبه لبنان من مساعدة الخارج له في الجهد اللازم للتغلب على محنته وارد وفي حدود المعقول، على عظمه واتساع مداه.

ويتوقف نجاح الدولة في نهاية المطاف على الجدارة التي تظهرها في ادارة عملية الاعمار.

وهي عملية كما رأينا حتى الآن، وكما يظهر لنا مع اتصال البحث، تتجاوز الأعمار بمفهومه الضيق أي بمعناه الاستبدالي البسيط لتكون عملية نهضة كبرى فيها من الاعمار بقدر ما لحق البلد من الدمار المتراكم طيلة ثماني



مصرف لبنان المركزي... دور جديد لمرحلة جديدة

سنوات، وفيها من الانماء بقدر ما خسر البلد من انماء خلال عقد من الزمان، وفيها من الطموح والتشوق بقدر الآلام التي أصابت اللبنانيين جميعاً وجعلتهم يتشبثون بتلابيب الحياة ويتطلعون الى الفرصة التي تمكنهم من اثبات قدرتهم على الوجود المجتمعي المتطور القادر على اللحاق بالركب الانساني المتقدم في كل أنحاء العالم، ذلك أن محنة لبنان قد زادت صفاته وميزاته صفاء ولمعاناً وكادت تنجح في كشف رماد الترهل والثقل عنها، وتطرحها في ميدان المنافسة الخلاقة بين الشعوب.

وتنجح الدولة في قيادة عملية الاعمار بحجمها الذي وصفناه إذا قدرت على رص الشعب من حولها في مغامرتها الانقاذية، لأنه إذا كانت الدولة حربة الشعب واداته فان الشعب غاية الاعمار ووسيلته في آن واحد. ولا تتم الشروط اللازمة لنجاح عملية الاعمار الكبرى إلا إذا عبرت خطط الدولة عن آمال الشعب، ودفع الشعب كل طاقاته لتحقيق الآمال الوطنية بقيادة الدولة.

تبدو هذه المقولة البديهية أمراً عظيماً في عيون اللبنانيين ومن يراقبون الشأن اللبناني، مع انها المعادلة التي لا تجوز مناقشتها في كل المجتمعات البشرية التي تخوض الحروب وحروب النمو. فقد أخذ الغير الحق في الظن بأن اللبنانيين غير قادرين على تنظيم شؤونهم العامة مثل كل شعوب البشر، وربوا القناعة بأن أجهزتهم، وفي طليعتها الدولة، لن تكون أبداً في مستوى طموحات الأفراد ولا بمستوى الحد الأدنى المطلوب في ظل الدولة الحديثة، لأن

اللبنانيين أعطوا أنفسهم الحق بالظهور على مدى أجيال طويلة بمظهر التفكك والعجز عن اقامة مؤسسات الوطن.

ولكننا نرجو أن يكون لبنان، وهو يخرج من محنته الفريدة، لم يعد يكفيه القول بأنه بلد التعايش، الصعب احياناً والمقبول احيانا اخرى، ولم يعد يرضي اللبنانيين أن يعرضوا في متاحف الشعوب على انهم فصيلة أو مجموعة فصائل بشرية تستأهل المحافظة عليها لندرتها وغرابتها. ونطمح الى أن يكون اللبنانيون قد أصبحوا مجموعة قادرة، بعد أن أعطوا البرهان على انهم أفراد فاعلون، خلاقون، نشيطون، وأن يكون باستطاعة اللبناني كمواطن حي، متقدم، أن يعطي البرهان على الجدارة والفرادة في آن معاً.

ويتوجب على الشعب في عملية الاعمار الكبرى، أول ما يتوجب، أن يؤمن بالدولة لأنها التعبير الأول عن ارادته ويتخلص من رواسب عصور الاحتلال والانتداب والتراخي التي صورت له الدولة طرفا غريبا يجب الاحتيال عليه بصورة دائمة وتقليص أعبائه، ما أمكن ذلك. ولا يكفي أن يكون ايمان الشعب بالدولة في هذا الظرف قبولاً بها أو تعاطياً معها أو تسامحاً أو اختياراً سلبياً لدورها، بل يجب أن يكون فعل ايمان يعطيها كل مستلزمات النهوض والقيام والتمرس بوظيفة التعبئة الشاملة لموارد الوطن: أي ناس الوطن أولا ومن بعد ذلك علاقاته بناس البلاد الأخرى الشقيقة والصديقة وناس المؤسسات الدولية والاقليمية. منا ومن هؤلاء جميعهم تتوفر العناصر التي تحتاجها عملية الاعمار الكبرى.

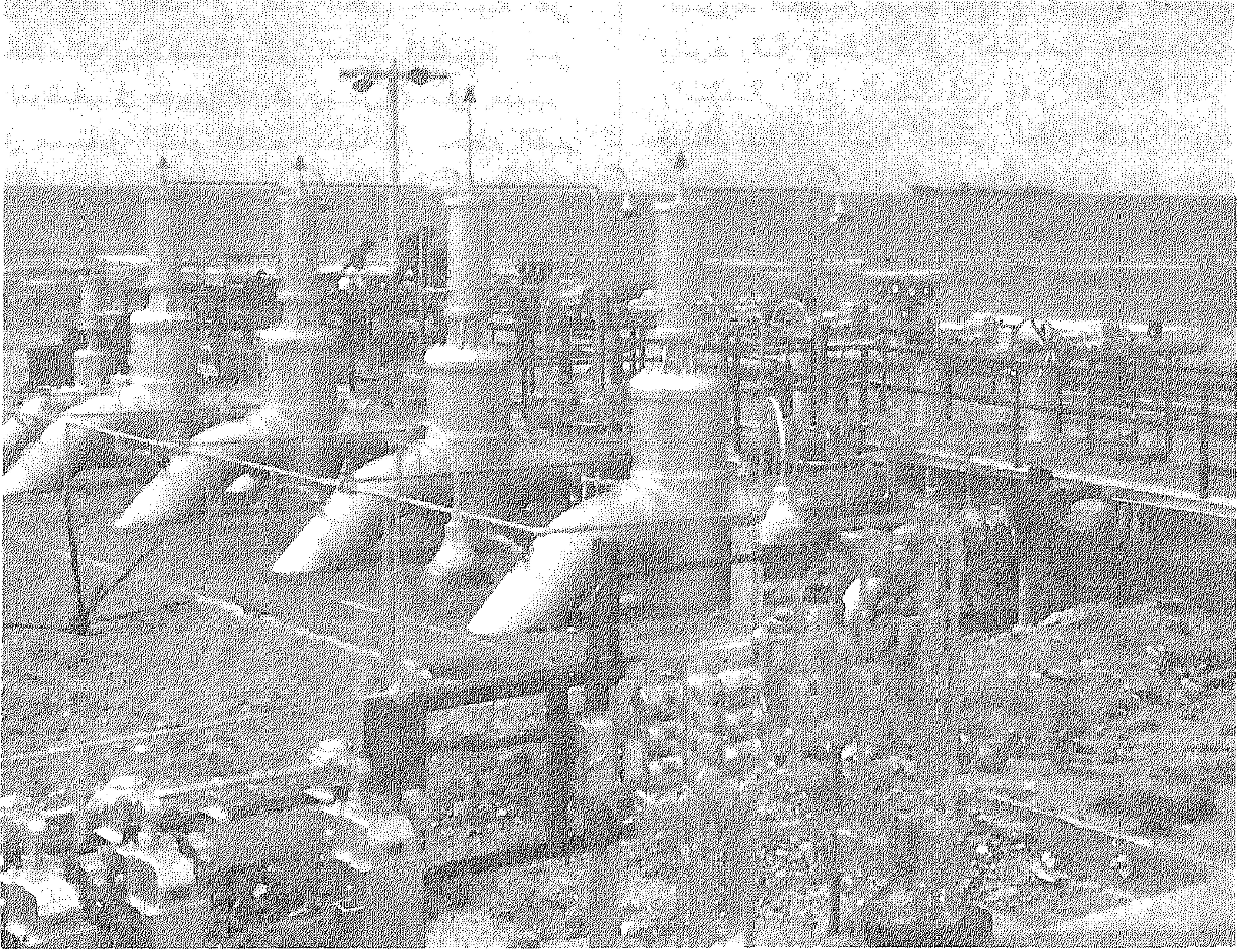
وما يجب أن يسعى اليه الشعب والدولة هو أن تتم اللحمة بين ارادة الشعب وعزم الدولة. بهذا يصبح كل شيء ممكناً، بما في ذلك ما لم يستطعه اللبناني حتى الآن.

وإذا كان دور الدولة في عملية الاعمار ينطلق من مبدأ اضطلاعها بوظيفتها الطبيعية لتكون المكون للتفاهم حول الأهداف الوطنية، والقائد لحركة الاعمار عن طريق القيام بما يقع على عاتقها أمر القيام به، وقد أصبح شأناً جليلاً حتى الآن، والمحرك لقوى الانتاج في القطاع الخاص، فما هو دور الشعب في عملية الاعمار.

يتميز الاقتصاد اللبناني باعتماده في تحقيق الانتاج على العنصر البشري بشكل يميزه تميزاً كبيراً عن خصائص التركيب الاقتصادي في المجتمعات غير المتقدمة. وهي ميزة نابعة من خصائص الموقع الجغرافي اللبناني، والتطور التاريخي في لبنان، والتركيب السكاني وخصائص أخرى ليس أقلها الثقافة والتنوع والانفتاح على العالم. وقد نتج عن هذه الميزة أمران: الأول هو ان أكثر من ثلثي الناتج الوطني يتحقق في قطاع الخدمات والثاني هو ان كل مراكز الانتاج تقع في القطاع الخاص أي تخرج عن حوزة الدولة. وإذا كان هذا الأمر يعكس تفوق المبادرة الفردية النادر الذي امتاز به لبنان، فانه يعكس حقيقة تحرر الانتاج كله في لبنان من سلطة الدولة.

ولقد رأينا فيما سبق ما نالته البنية التحتية في لبنان من دمار وخراب رتب على الدولة مجهوداً اعمارياً استثنائياً تنوء به مواردها التقليدية والحالية والمرتقبة. ان الخراب الذي نال مراكز الانتاج في لبنان هو من الشمول والكمال والعمق بحيث جعل أمر التعويض عنه غير وارد في أي اعتبار. وإذا كان جل ما ينتظره القطاع الخاص من الدولة هو إعادة أعمار المرافق العامة مع العون التسليفي لتوظيفات القطاع الخاص بشكل متواضع ولمدة محدودة، فان ما يطلبه لبنان من قطاعاته الانتاجية هو الطفرة الكبرى التي تعوض الخسارة الفادحة التي أصابت الدخل الوطني والموجودات الوطنية كما تعوض المراوحة ان لم نقل التقهقر في النمو خلال العقد الأخير.

لو قدر للبنان أن ينجو من محنته المتمادية في أواسط السبعينات لاستطاع ان يضاعف ناتجه الوطني على أقل تقدير، كما استطاع اللبناني أن يزيد مرة ونصف المرة استهلاكه خلال هذه المدة. ومطلوب من القطاع الخاص اللبناني أن يصل بلبنان في أواخر الثمانيات الى نقطة من التقدم هي النقطة التي كان واصلاً اليها حتما لو تابع نموذج النمو الذي كان يعيشه في أواسط السبعينات. وهي مهمة كبيرة، مجهدة مربحة.



منشآت بترولية

ولو حاولنا سرد نقاط السلب ونقاط الايجاب التي يواجهها القطاع الخاص في هذه المهمة لتبين لنا ما يلي:

في باب السلب:

يواجه القطاع الخاص حالة من الشك والحذر وقلة الثقة والتحسب مفهومة بعد طول العناء والشقاء. ويساعد على استمرار هذه الحالة بعد التقدم الملحوظ الذي حققه البلد في طريق العودة الى الأحوال الطبيعية في أواخر الصيف، دخول الدولة في مساع صعبة لتخليصه من الاحتلال وعدم التقدم المقنع نحو حل لأزمة المنطقة. كما أن تردي أحوال المرافق العامة يجعل استئناف العمل أمراً صعباً ومكلفاً وغير مربح. ويلاحظ بقلق تردد مؤسسات القطاع الخاص الأجنبية في العودة الى ممارسة أعمالها في البلد بعد اندفاعها الأولي الذي ما لبث أن تلاشى. كما يلاحظ ارتباك سوق العمل وسوق التجارة بسبب الأوضاع الأمنية الداخلية التي لم تضطرد في تحسنها الذي بدأته في الأشهر الماضية. وعقدة النقص في هذه الملاحظات السلبية كلها هي الموقف السياسي والعسكري الذي يكفي أن يتحرك قليلاً نحو الأحسن حتى تتبعه كلها في نفس الاتجاه.

في باب الإيجاب:

وبصورة أعمق، يرى القطاع الخاص بحق، أن الميزات التي جعلت لبنان سوقاً ذا خصائص ينفرد بها في الماضي ما زالت قائمة بكليتها: وان أحداث السنوات الماضية على عنفها وضراوتها لم تفقد هذا السوق شيئاً من خصائصه بل على العكس من ذلك فقد كانت تزداد تألقاً في نظر اللبنانيين ونظر الذين يتعاملون معهم في المنطقة والعالم كلما زادت عليها عاديات الزمان. كما يلاحظ أن قدرة هؤلاء المتعاملين قد زادت وزاد بالتالي طلبهم على خدمات لبنان وتسهيلاته.

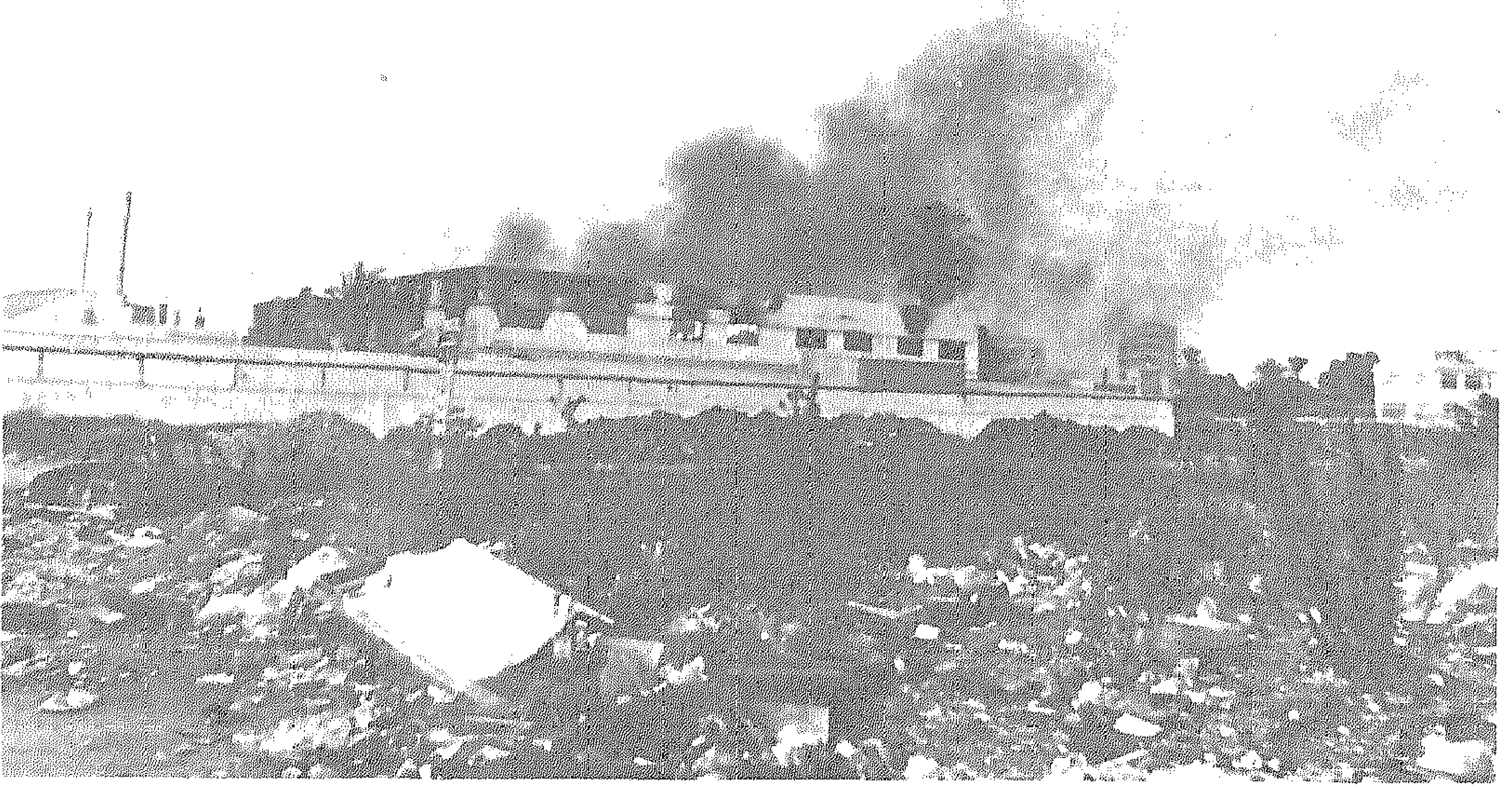
ويلاحظ أيضاً أن هذا الطلب المكبوت على خدماته بالاضافة الى الطلب المكبوت على التوظيف في موجوداته قد يشكل عنصراً متفجراً في مستقبل الأيام القادمة سيما وان معظم القيم المادية فيه تدنت أسعارها بالنسبة الى أسعار مثيلاتها في البلدان التي يتعامل معها البلد بعد ان كانت تتحكم تاريخياً بأسعار أرفع من الأسعار السائدة في تلك البلدان. ويلاحظ أخيراً أن فترة الكساد الاقتصادي التي تشمل العالم المتقدم في هذه الأيام تلفت النظر بشكل درامي الى امكانيات العمل التي يقدمها سوق لبنان الصغير بلا شك، ولكن الكبير في ظل الظروف السائدة وفي ظل الطلب المكبوت من الماضي الأليم والطلب الطموح في آتي الأيام.

وإذا تركنا الظروف العامة التي يعيشها القطاع الخاص في اداء دوره في عملية الاعمار الكبرى، وتدرجنا الى التخصيص نلاحظ أن مشروع الدولة الاعماري الهادف إلى اعادة تأهيل المرافق العامة وتسليف القطاع الخاص يترجم بجملته الى عقود تنفذها مؤسسات القطاع الخاص، لأن الدولة لا تملك القدرة التنفيذية الخاصة ولا تنوي تطويرها بل تعتمد في تنفيذ مشاريعها على مؤسسات القطاع الخاص. ويشكل هذا الانفاق الحكومي الكبير خلال فترة الاعمار جعبة هامة من الأعمال لمؤسسات القطاع الخاص يمكنها من بدء العمل أو استئنافه بدرجة كبيرة من الطمأنينة الى استمراره خلال مدة حرجة تستطيع فيها هذه المؤسسات من ارساء قواعد عملها على المدى الطويل. وتمثل العقود التي ستتحول اليها مشاريع اعادة اعمار المدارس والمستشفيات والطرقات والمرافىء والمطار والاتصالات السلكية واللاسلكية والماء والكهرباء واعادة تعمير وسط مدينة بيروت فرصا ذهبية لكبريات المؤسسات اللبنانية والتي هي أقل كبراً لكي تمارس وحدها أو بالتعاون مع المؤسسات العالمية الكبرى الاسهام الذي يطلب منها في عملية الاعمار.

كما ان التسليفات الميسرة التي سيزداد وضعها في تصرف أصحاب مداخيل معينة من أجل اقتناء المنازل سيوسع الطلب بشكل لم يسبق له مثيل على المنازل التي تتوفر فيها الشروط الحديثة من جاذبية واتقان في التقطيع والزخرفة وسهولة في الصيانة والخدمة واستعمال أمثل للمساحات. وهي الفرصة التي تنتظر قطاع البناء اللبناني ليقود هذه الثورة السكنية ويحقق منها أرباحاً مزجية على فترة طويلة من الزمان. كما ان التسليف لقطاع الانتاج سيزيد الطلب بشكل محسوس على الانفاق التثميري في المباني الصناعية والآلات والمعدات مما يحرك قطاعات عديدة بشكل ملموس في فترة الاعمار الأولى.

ولكن كل هذا، على عظمه، لا يمثل الا المدخل الى الطفرة الكبرى التي ينتظرها لبنان من قطاعه الخاص أي القطاع الذي ينظم قدرات الشعب الابداعية والانتاجية ورأسماله الوطني. وهي الطفرة التي ستخلق لنا لبنان الجديد الذي هو على قدنا وعلى ذوقنا وبمستوى طموحاتنا. لقد علمتنا دورس السنوات الآفلة أن نتشبث ببلدنا وكأننا نحظى به لأول مرة. وستعلمنا دروس الأيام القادمة أن لا شيء مضمون في دنيا المنافسة بين الشعوب. وان على المرء أن يقفز قفزات كبيرة في طريق التقدم ليحرز بعض التقدم أو حتى يراوح مكانه.

وتنتظر قطاعات الخدمات التقليدية في لبنان، وهي القطاعات التي يحقق فيها البلد معظم دخله ويتوقع أن يستمر كذلك إلى أمد طويل، توظيفات عظيمة في التنظيم والعدد والعديد حتى تكون في وضع يمكنها من المحافظة على موقعها من الذين يطلبون خدماتها في سوق الداخل أو سوق الخارج. فقد حققت هذه القطاعات تقدما تقنيا لا مثيل له خلال العقد الذي تلهى فيه لبنان عن الدنيا حوله. يعرف ذلك معرفة جيدة الكثير من أبنائه الذين فرضت عليهم الهجرة الى أسواق العمل في الخارج. وفيما أصاب مؤسساته الترهل أخذت مؤسسات البلدان الأخرى تنبض بالحيوية والتجدد. ولا يسع مؤسسات لبنان في قطاع الخدمات الا القفز سريعاً أمام مؤسسات المنافسة، سواء كان ذلك في قطاع التجارة أو السياحة والاصطياف أو الاستشفاء أو التعليم أو الخدمات المصرفية والمالية.



المصانع تحترق أثناء الحرب

وما كان يبدو مجازفة أو مبالغة في باب التثمير في هذه المجالات قد لا يفي بالمطلوب الآن. ودور الوسيط أو المرافق الذي كان يكفي اللبناني في الماضي أصبح لاغياً في الفترة التي غاب فيها لبنان عن أسواقه وتدفقت عليها خدمات العالم بأجمعه مستخدمة الأساليب الكبيرة التي يعجز عنها اللبناني. ولكن مزج التقدم التقني بالخصائص اللبنانية الجذابة قد تكون المعادلة الوافية في فترة الطفرة المطلوبة الآن. ولعل أهم ما يجب أن يرافق الحركة الناشطة لنقل التكنولوجيا والأساليب المتطورة الحديثة، هو ارتقاء اللبنانيين أنفسهم الى الاضطلاع بمسؤوليات الادارة الكبيرة والاداء التقني المتقدم بدل السهولة التي كانت تعتمد على استقدام هذه التطورات مع أصحابها.

وقد يكون التحدي الكبير الذي يواجه قطاع الخدمات اللبناني في العقدين القادمين هو دخول البلدان المتقدمة سوق التصدير من بابه الواسع في هذا القطاع بعد ان كانت تقتصر منافستها وسيطرتها على أسواق التصدير الصناعي. ولابد أن تجد العبقرية اللبنانية الأسباب التي تجعل هذا التيار في جانبها بدل أن يكون ضد مصلحتها. ويتوجب لها عند الدولة كل أسباب الدعم المشروع ولاسيما عن طريق المحافظة على مستوى رفيع من الخدمات العامة يحتاجه البلد لأسباب أخرى في كل حال. كما أن برامج التأهيل والاعداد التقني والمهني يجب أن ترفع جدارتها وطاقتها لمواجهة تحديات المستقبل.

وإذا تركنا جانب التحديات وجدنا أن امكانات النمو هائلة في كل مجال من مجالات الخدمات اللبنانية مما يفتح أمامها أبواب مستقبل عامر باضطراد التقدم.

فلم تستطع قطاعات السياحة والاصطياف والاشتاء اللبنانية أن تحقق حتى الآن، وبسبب ظروف المنطقة في العقدين الأخيرين التطور المهيئة له والتي تمتعت به هذه القطاعات في بلدان أخرى لا تتفوق بمواردها على لبنان. كما ان التعليم والاستشفاء اللبنانيين اللذين استطاعا أن يصمدا خلال النكبة يعجان بالقدرات التي لم يتم استثمارها بالشكل الذي يناسب ظروف المنطقة الحاضرة والتطورات المنتظرة فيها مستقبلاً. والسوق المالية والمصرفية على صمودها واستقرارها لم تحقق التطور في العمق بعد التوسع السطحي، ولم تستطع الاستمرار في محاولتها في هذا الاتجاه التي بدأتها قبل اندلاع الشر في البلد بوقت قصير.

وتمثل الطاقة الكبيرة الكامنة في قطاع الخدمات فرصة كبيرة لمغامرة فذة تستطيع أن تنقل لبنان الى الصفوف الأولى في المنطقة والعالم إذا توفرت لها أسباب الأخذ بالمخاطر والتأهيل والتنظيم والقدرة على اكتساب مهارات التسويق الحديثة، أي توفر لها الرأسمال المتفتح والعقل النير، وتجنب الوقوع في الجمود في كل التحديات الجديدة.

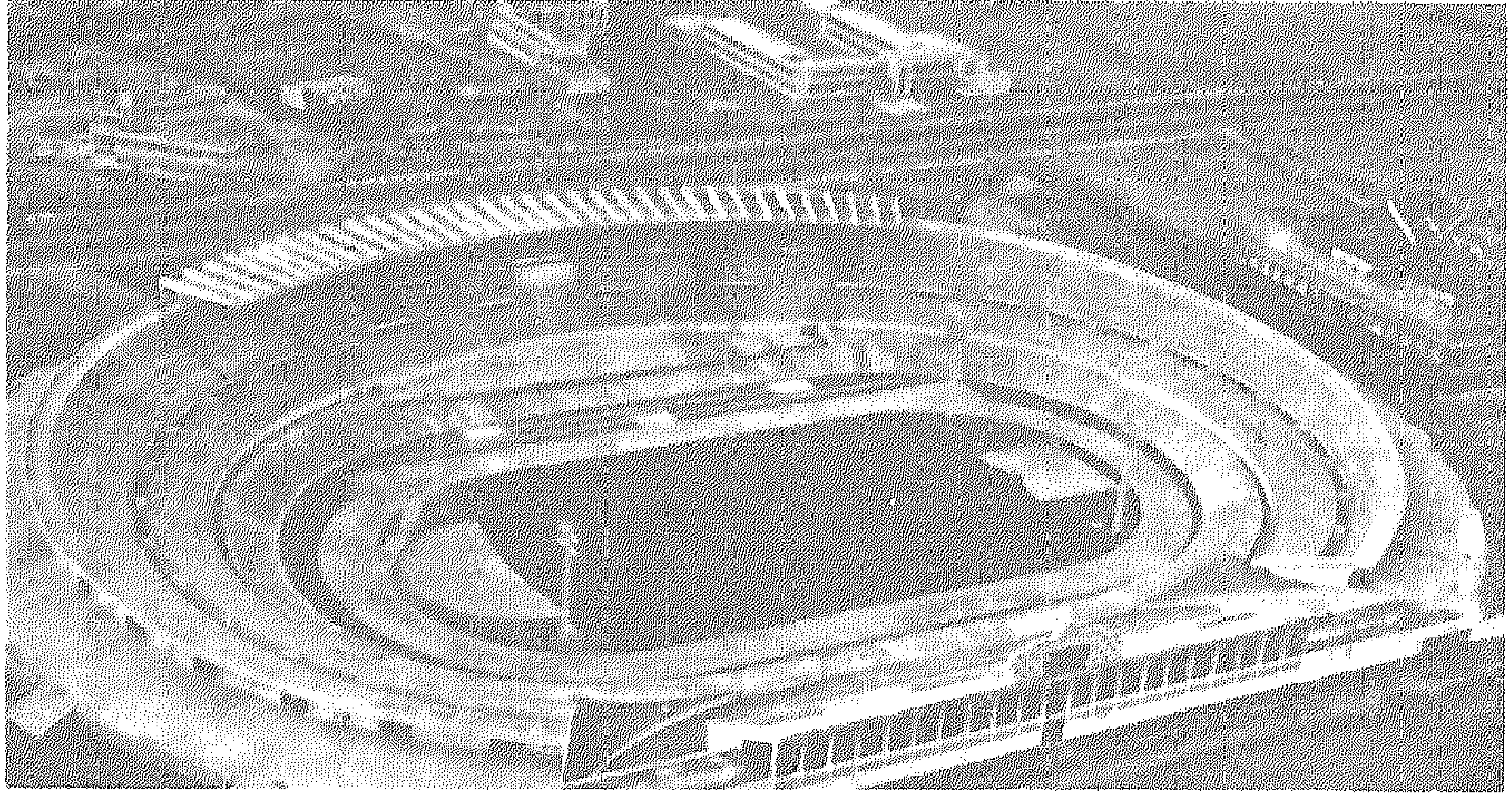
أما قطاع الزراعة فبدأ يبرز كمشكلة في ظل الارتفاع الهائل في أسعار الأراضي واشتداد المنافسة من مصادر الانتاج الرخيص نسبيا، فقد تكون مناسبة اعادة اعماره الفرصة الذهبية لاستغلال خصائص هامة تتواجد في وضع الزراعة اللبنانية في وقت واحد: فالأرض اللبنانية على ضيقها تتميز بتنوع التربة وتنوع الخصائص وتنوع المناخ، واليد العاملة اللبنانية تتميز بسرعة اكتساب المهارات والتكيف، والسوق المالية اللبنانية توفر التسليف الملائم أو يجب أن توفره.

وهذه فرصة للانتقال بالزراعة اللبنانية إلى مرحلة من التطور تتناسب مع الخصائص المتوفرة وتجعل الاستثمار الزراعي أقرب الى الانتاج الصناعي المتخصص والمتوجه في انتاجه الى حقول «الداخل» المتد حتى بلاد الصين مع ما يحتاجه من بذور جديدة تحسن الانتاجية والربحية. ان الزراعة اللبنانية محكومة بالانقراض إذا استمرت باتجاهات التوسع المدني والسكني الحاضرة. وقد يكون في اعطاء الزراعة اللبنانية توجيها جديدا ضمان لمستقبلها. وهذه المرحلة هي الفرصة السانحة لتفكير جذري من هذا النوع بمناسبة الحاجة الى إعادة المؤسسات الزراعية. وقد يكون القطاع الزراعي أكثر القطاعات الانتاجية اللبنانية تهيؤا للأفكار الجذرية لصعوبة ما يعانيه من مشاكل لا تقتصر على المشاكل التي سببتها العمليات العسكرية خلال السنوات الماضية. وقد يتوضح هذا النمو في التفكير أكثر إذا ما قارناه بالمشكلة الأساسية في تركيب المجتمع اللبناني أي مشكلة العلاقة بين القرية والمدينة، أي مشكلة الصهر الاجتماعي للشعب اللبناني.

وتشكل الطفرة التي يتوقعها لبنان من قطاعه الخاص المنتج مناسبة لامعان التفكير في توجه الصناعة اللبنانية، لأن الانجازات الجليلة التي حققها هذا النشاط في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية اثبات للمقدرة اللبنانية تجاه أقسى الظروف الصعبة. فلبنان مثل تقليدي على البلد الذي لا يتمتع بالشروط الأساسية للتطور الصناعي لضيق سوقه وعدم توفر المعادن او مصادر الطاقة الرخيصة فيه. ومع ذلك استطاعت الصناعة اللبنانية ان تسد جزءاً من حاجة البلد وتوجه جزءاً هاماً من انتاجها الى أسواق التصدير وتوفر العمالة لعدد كثير من اللبنانيين. وكان لابد للنهضة الصناعية التي تطورت بشكل درامي منذ الستينات أن تجرف في طياتها بعض الظواهر غير الصحية التي بدأت تظهر في أواسط السبعينات. ويجب أن يكون مطلب الصناعيين بمناسبة إعادة الأعمار التفهم الدقيق لحقائق السوق في الداخل والخارج، والاصرار على التثمير الحصيف في الصناعات التي يمكن أن يتوفر لها أفضليات خاصة في لبنان سواء من الناحية البشرية أو التسويقية أو التمويلية، كي لا تنقلب المؤسسات الصناعية إلى مؤسسات اجتماعية ومن ثم إلى مشاكل للمجتمع. وقد يكون الوقت قد حان لربط الصناعة اللبنانية بالنشاطات الصناعية المتقدمة في البلاد الصناعية مثل الالكترونيات والكهربائيات وقطعها وغيرها من النشاطات التي تعتمد على توفر اليد العاملة المؤهلة. وفي اعتقادنا أن مثل هذه النشاطات التي تعتمد على التفوق اللبناني في المهارات تستطيع حالا أن تستفيد من مجموعة الكفاءات اللبنانية المتخصصة التي لا تجد لكفاءاتها سوقاً في لبنان مع رغبتها في العودة إليه، كما أنها تستفيد من الاتجاه الى تفريع مراكز الانتاج في المؤسسات المتعددة الجنسيات واللجوء بفروعها الى حيث تتوفر هذه البركة من الكفاءات أو الى حيث يمكن توفرها. ويشكل هذا النوع من التفكير في القطاع الصناعي اللبناني ارتفاعاً الى مستوى التحدي الحاضر.

يتبين من مجمل الملاحظات عن دور القطاع الخاص ان الخيط الذي يربطها هو الافادة من

المدينة الرياضية



الدمار لتخطي آثاره وتحقيق القفزة التي تفرضها الظروف المتغيرة في داخل الوطن وعلى حدوده وفي الخارج. وفي يقيننا أن الافتراضات التي تنطوي عليها هذه الملاحظات لا تغيب عن اللبناني الذي استقوى بالحكمة الناتجة عن الآلام التي عاناها بالاضافة إلى الألمعية التي أعطتها. وسيكون تفريطاً كبيراً ألا يستخلص الشعب المنتج في لبنان دروس هذه المرحلة بشق طريقه الى المستقبل بالدراية والعزم الكافيين.

هذا عن دور الشعب المنتج.

فماذا عن دور الشعب الجندي، والشعب الموظف، والشعب الطالب، والشعب ربة المنزل؟

سنتجاوز هذه السؤالات في هذه المناسبة، على أهميتها، وأهميتها تنبع من أن كل مواجهة في عالمنا مواجهة حضارية تتنافس فيها على المدى الطويل الكفاءات التي تختزنها فئات الشعب التي ذكرناها. وتجاوز هذه الأسئلة نابع من أننا في مرحلة التعبئة الشاملة لمغامرة كبيرة دعيت البلد الى خوضها. وتقتضي التعبئة قبول كل الطاقات المتوفرة على أن يتم صقلها ومزجها وهي تؤدي المهمة.

ولكننا لا نستطيع في هذا المجال تجاوز دور المكلف اللبناني.

أي دور كل الشعب اللبناني ويجب أن يتحمل في نهاية المطاف كل كلفة عملية الأعمار الكبرى التي يطالب بها ويدعى اليها.

فالمكلف اللبناني هو الذي سيقوم بالدور الأول في سد عجز الدولة اللبنانية مقتطعا لذلك جزءاً متزايداً من دخله.

وسيطلب منه الاسهام في تغطية جزء من نفقات مشروع الاعمار الذي تنفذه الدولة، وهو الذي ستستحق عليه الفوائد والأقساط على القروض الميسرة التي توفرها للدولة المصادر الشقيقة والصديقة والدولية والاقليمية.

وهو الذي سيطوق عنقه عرفان الجميل المتوجب للمصادر التي تمنح الهبات للجهد الاعماري. كل ما يجري، منه ولحساب.

ولقد جرب المكلف اللبناني طويلا طريق الإخلال بأصول اللعبة، فتهرب من حقها عليه وأهمل الطلب بواجباتها نحوه، فدفع الثمن غالياً من روحه ورزقه، وصغر في عينه كل ما يمكن أن ينجزه ولا يحظى بحماية الدولة.

ويبدو أن المكلف اللبناني قد أصبح قابلاً للأخذ بأصول اللعبة، فيقوم بما عليه نحوها ويجري الحساب العسير معها.

وكلما اعتاد على احترام هذه الأصول وأخذ الدولة مأخذ الجد في باب اداء الواجب وباب اجراء الحساب كلما سار خطوة كبيرة في الطريق الذي تسير عليه كل المجتمعات البشرية التي ترى في الدولة أداتها وحربتها وتحرص على أن تكون الأداة جيدة والحربة مسلولة لتنفيذ الأهداف الوطنية.

إن اللحمة بين الشعب والدولة هي شرط نجاح عملية الاعمار الكبرى، بل هي شرط قيام الوطن.

●

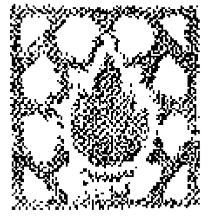
نشـأة السِّيَاحَة اللبنَانية ومَـرَاحِل تطوّرهَـا

الشيخ حبيب كيروز

رئيس المجلس الوطني لانماء السياحة

قبيل الحرب العالمية الأولى وفي عهد الانتداب الفرنسي عرفت السياحة في لبنان من خلال أمجاده التاريخية وآثاره الخالدة.

ومن وسائل الايواء التي يسرت قدوم النذر القليل من السياح وفي طليعتهم امبراطور المانيا الذي زار بعلبك وأقام في فندق بالميرا في أواخر القرن التاسع عشر، كما عرف ايضا فندق بسول وفندق اوروبا وسواهما في بيروت. وفنادق ثلاثة في منطقة جزين.



وفي الثلاثينات صدرت بعض المنشورات التي تبرز معالم لبنان وأرزه وتسرد مقتطفات عن تاريخها، أعدتها في حينه السلطات المحلية بالتعاون مع جمعية تنشيط السياحة والاصطياف التي أشرف عليها نخبة من رجالات البلاد وكان لها اليد الطولى في تشجيع الحركة السياحية في تلك الحقبة من الزمن بالاضافة إلى فنادق حديثة في بيروت وبعض المصايف انشئت وساعدت على دعم العمل السياحي، حتى ان فندق سان جورج كان بمثابة مدرسة فندقية لتخريج العديد من ذوي الخبرة في صناعة الفنادق.

وبفضل المبادرة الفردية ومجازفة اللبناني برأسماله، وطموحاته، قامت فنادق كبرى نسبياً، في سوق الغرب وعاليه وصوفر وشتوره وزحله وفي بيت مري وضهور الشوير وبكفيا وبرمانا وبعض قرى كسروان والشمال منها: بشري الأرز واهدن. هذه الفنادق كانت الحافز الأكبر على اقبال المصطافين العرب، وأول من اصطاف في لبنان كان أثرياء مصر وسورية، ثم أبناء العراق الذين بفضل توافدهم بالآلاف، حمل السلطات في عام ١٩٤٢ على انشاء أول جهاز



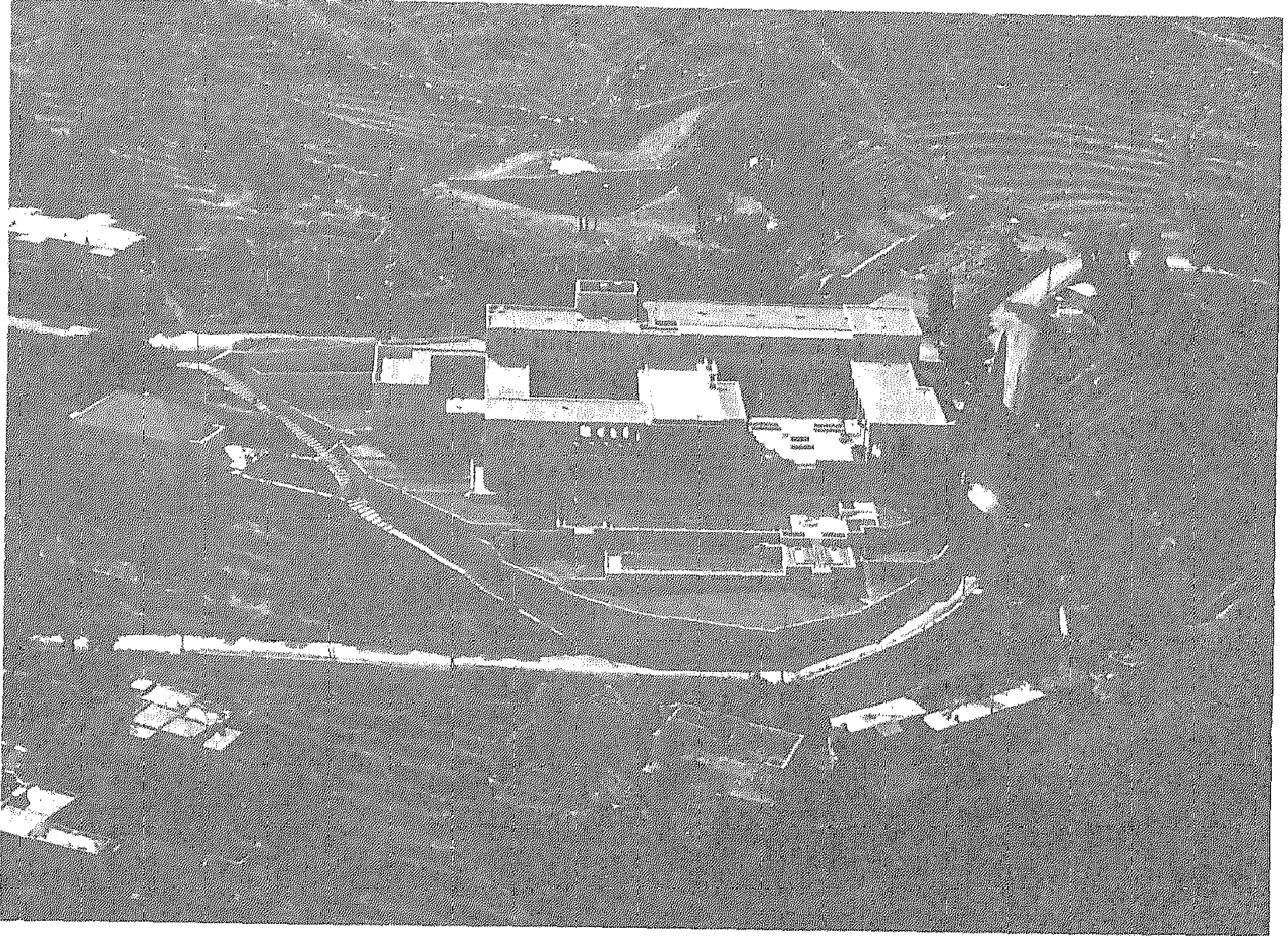
فندق السان جورج

اداري في ملاك وزارة التجارة والصناعة حمل اسم مصلحة السياحة والاصطياف. فوضعت أسس تنظيم السياحة، في الداخل لجهة التشريع ولضبط انشاء المؤسسات الفندقية وما يتفرع عنها من مطاعم وملاه وتحديد شروط استثمارها ومراقبتها وانتاج المنشورات الدعائية، وفي الخارج القيام بحملات اعلامية بقصد تعريف لبنان، خاصة في البلدان العربية. وتلا ذلك انشاء مطار بيروت وتوفير وسائل النقل جوا وبرا وبحرا بشكل منتظم مما شجع ابناء المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربي على زيارة لبنان والاصطياف في ربوعه.

وكان للتطور في الصناعة الفندقية بنقاباتها والعاملين فيها وتقديم الخدمات بتفوق تقني، الأثر الملموس في ازدياد اعداد المصطافين مع اقبال السياح الأجانب.

وفي الفترة ذاتها برز موسم الاشتاء بفضل مركز الأرز لممارسة رياضة التزلج، وقد جمع عناصر هذه الرياضة الهامة من فنادق وشاليهات وأندية تدريب ومباريات منها عالمية في أكثر الأحيان، فكانت تجتذب هواة التزلج من مختلف أنحاء العالم.

وهذا النمو البارز وسعة انتشار مراكز الاصطياف بوفرة فنادقها وملاهيها وتنوع مناخاتها وبسمة أهاليها، كل ذلك ساهم في ادخال موارد جديدة طائلة عززت من مكانة الاقتصاد الوطني ودعم الدخل القومي، الأمر الذي حدا بالسلطات المختصة لتوسيع الادارة السياحية وذلك بانشاء جهاز موسع كبير خلال عام ١٩٤٨ حمل اسم المفوضية العامة للسياحة والاصطياف والاشتاء، خص بموازنة محترمة. فأخذ على عاتقه، تعديل وتحديث الأنظمة والقوانين السياحية بشكل يجاري تطور السياحة في البلاد. وقد حققت المفوضية انجازات منها انشاء المدرسة الفندقية واستقدام الخبراء الأجانب في صناعة السياحة للتدريب وتخريج دفعات من المختصين في المهنة، واحداث الشرطة السياحية واصدار مطبوعات ووسائل



قصر الأمير أمين في بيت الدين

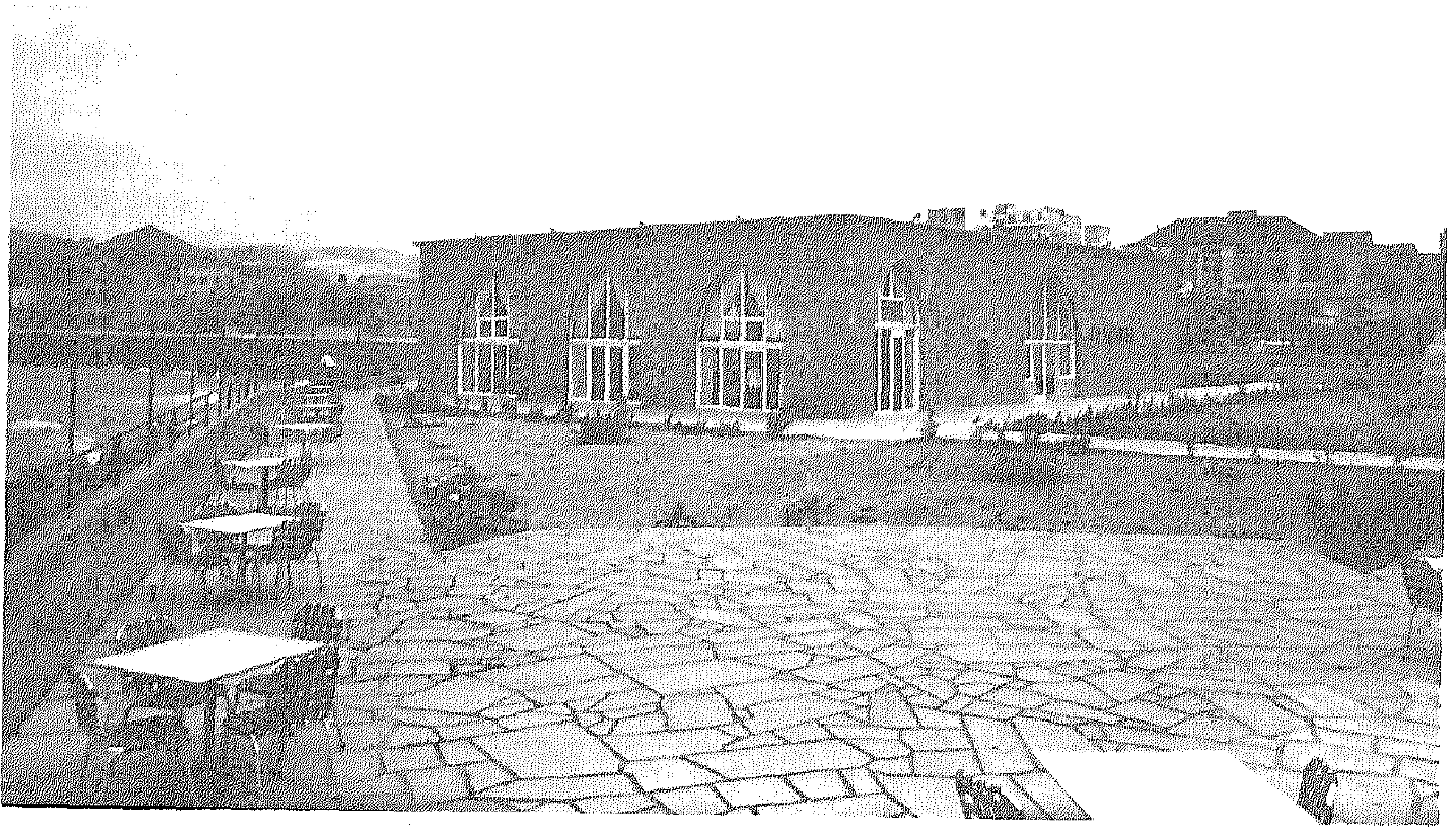
دعائية حديثة وتشجيع المصطافين بدفع جزء من نفقات انتقالهم الى لبنان وحصر ألعاب القمار في أندية مجازة رسمياً على أن تعود رسوم الترخيص لتحسينات سياحية عامة.

ومن أعمال المفوضية العامة للسياحة تنظيم وتصنيف مراكز السياحة والاصطياف والاشتاء والاشراف على ضبط المهن السياحية بصورة شاملة.

وكان لها جولات في الخارج بقصد الترويج والتسويق، فشاركت في نشاطات المنظمات السياحية العالمية والدولية وأنشأت مكتبين سياحيين في مصر والعراق وأعلنت عام ١٩٥٥ سنة سياحية عالمية في لبنان.

دُعيت اليه أهم الفرق الفنية من موسيقية وغنائية واستعراضية ومسرحية، لعبت على مدار السنة واستقطبت أنظار العالم، فأمته أفواج السياح العرب والأجانب. وخلال هذه الحقبة من العمل السياحي الوطني نشطت المديرية العامة للآثار وهي احدى دعائم الأجهزة السياحية الرسمية فضاعفت جهودها في أواخر الأربعينات وطوال الخمسينات لأعمال صيانة الآثار وابراز المواقع الطبيعية بشكل ساعد كثيراً على تعريف لبنان في الخارج ولعل من الانصاف أن نخص القيمين على هذا الجهاز بالتقدير، لأعماله المجيدة في حقل الاكتشافات وابراز كنوزنا الأثرية الغالية.

وفي أواخر عام ١٩٥٤ استرعى انتباه الدولة موضوع ألعاب القمار الذي أخذ بالانتشار وساعد على قيام فنادق حديثة للافادة من موارده. وللحد من كل تجاوز أو ممارسة وحفاظا على المبادىء الأخلاقية والاجتماعية وضعت قانون القمار الذي حصرت بموجبه شروط ممارسة الألعاب في كازينو وحيد على أن توزع عائداته على الفنادق خارج مدينة بيروت، بقصد تشجيعها على التحسين وكذلك على البلديات الصغرى والمشاريع الاجتماعية والانشاءات التي من شأنها تشجيع وتحسين السياحة والاصطياف والاشتاء.



الاستراحة السياحية في صيدا

وبذلك أوجدت الدولة كازينو لبنان الذي افتتح عام ١٩٥٩ وقدم دعما للمؤسسات والمشاريع السياحية فضلا عن التشويق والترفيه لدى بعض الأثرياء والمتمولين الأجانب كما انشأت ايضا لجنة مهرجانات بعلبك الدولية التي عملت وتعمل الكثير في مجالات الترفيه عن السياح والمصطافين.

وعندما أصبحت السياحة سلعة تباع وتشرى ومادة تدرس في المعاهد المختصة ومحط أنظار العالم. وجدت الدولة أنه لابد من انشاء جهاز خاص بالسياحة مستقل تمام الاستقلال عن المؤسسات الرسمية التي تعمل ضمن قيود معينة وروتين يحول دون حرية التصرف السليم.

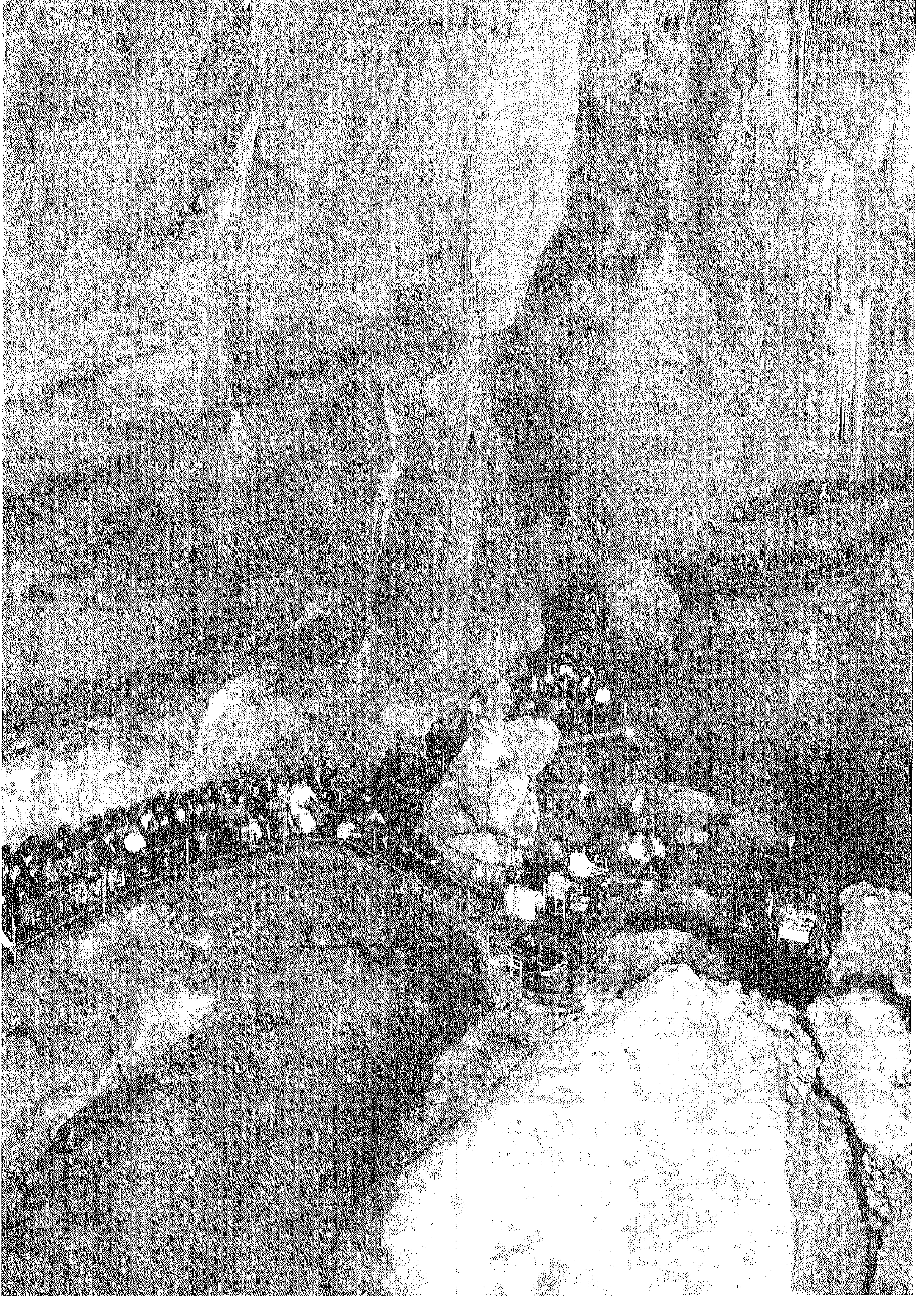
وجرياً على ما هو متبع في كبريات الدول المعنية بالشأن السياحي. أقدمت الدولة عام ١٩٦٢ على انشاء المجلس الوطني لانماء السياحة في لبنان، على شكل جمعية خاصة ذات منفعة عامة لها أنظمتها وكيانها وموازنتها المدعومة من الدولة، وجعلت منها جهازاً مستقلاً متحركاً متحرراً من قيود العمل الرسمي داخلاً وخارجاً.

شرع هذا المجلس بوضع تصاميم وخطط عمله السياحي مستفيداً من خبرة القيمين على شانه ومن اتصالاته في الخارج واستقدام ذوي الكفاءة والخبرة في المجال السياحي، سواء على صعيد التجهيز في الداخل او الترغيب والتسويق في الخارج.

فأنشأ مكاتب سياحية في معظم العواصم الكبرى في العالم. واستعمل أحدث الوسائل والأساليب في الدعاية، وأنتج أجود وأتقن المنشورات والأفلام والملصقات وسائر الأدوات الاعلامية المشوقة.

كما برز في كل حدث سياحي كبير سواء في المعارض والمؤتمرات والمنظمات الدولية المختصة واستفاد من كل المناسبات التي تتيح له إظهار وجه لبنان السياحي.

ولم يفته العمل في الداخل بحيث قام بانشاء



مغارة جعيتا

الاستراحات السياحية الحديثة في الأماكن التي لا تتواجد فيها المؤسسات الخاصة، لتعذر تأمين المردود اللازم منها. علماً بأن هذه الأماكن الأثرية والسياحية تتطلب وجود الاستراحات فيها. كما ساهم باكتشاف مغارة جعيتا العليا وقام بكل التجهيزات اللازمة لهذا المركز السياحي المشوق.

وحول قصر الأمير أمين في بيت الدين وهو من القصور الشهيرة في المنطقة الى مؤسسة فندقية من الدرجة الممتازة حازت على ارتياح زوارها الكبار. الى جانب كل هذا تناول اهتمامه ناحية التخصيص والتدريب فطالب بتطوير المدرسة الفندقية الى جامعة سياحية تعنى بتخريج العاملين في مختلف فئات القطاع السياحي الخاص، بحيث لم يعد من الجائز بعد هذا المستوى الذي بلغته السياحة في لبنان ألا تكون الخدمات في المستوى الفني والعملي الرفيع والحديث.

وعندما اكتملت في لبنان عناصر النجاح في مضمار السياحة واصبح رائداً من روادها في العالم أجمع.

أخذ المجلس الوطني لانماء السياحة يتطلع الى تطوير الشأن السياحي الرسمي بايجاد صوت له في داخل الحكومة يعبر عن ارادة السياحة في الاجراءات اللازمة لتوفير التسهيلات ووسائل التشجيع للمضي في التدرج نحو الأفضل.

فانشئت وزارة السياحة عام ١٩٦٦ لتضم اليها جهاز المديرية العامة للآثار البالغ الأهمية بالنسبة لتكوين لبنان السياحي، الى جانب جهاز اداري يتولى تطبيق القوانين والأنظمة السياحية، النافذة والاهتمام بكل ما يؤول لتحسين وضبط أوضاع المؤسسات السياحية والعاملين فيها.

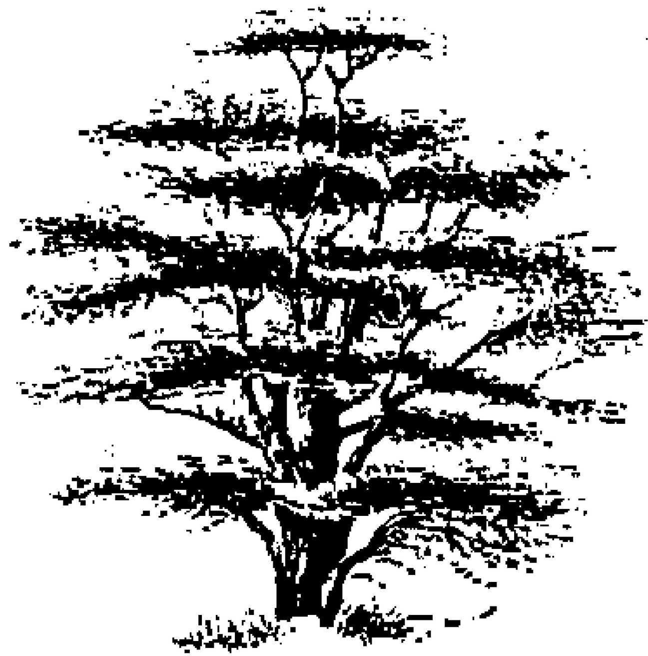
ويبقى على المجلس الوطني لانماء السياحة القيام بالأعباء التي تولاها قبلاً والتي كلف بها بموجب نظام وزارة السياحة وأنيط به الاضطلاع بأعمال الانماء السياحي كافة، منها في الداخل، التجهيز والانتاج الدعائي واستثمار المشاريع السياحية التي يعدها او يساهم بها. الى جانب كل ما له علاقة بالانماء السياحي خارج لبنان من تشويق وتسويق وعلاقات عامة ومكاتب ومعارض ومؤتمرات الخ.. ولدى المجلس من امكانات التصرف وحرية العمل التجاري والتحرك السريع ما يؤهله لتحمل الأعباء المشار اليها وتأدية المهام وفقاً لمتطلبات التطور السياحي واقتباس الأساليب الأكثر حداثة وتأثيراً في هذا العمل المتخصص.

وخلال الحرب بسنواته الثمانية حافظ المجلس على استمرارية السياحة اللبنانية والظهور في المحافل والمناسبات العالمية بحيث تبقى صورة لبنان ماثلة في الأنظار والأذهان.

وكان المجلس طوال هذه الحقبة يمارس دور ضابط الاتصال بين لبنان والعالم فينقل اليه ما تبقى من صوره السلمية في التعايش والتغلب على المآسي والنكبات والتطلع بأمل ورجاء الى انقشاع الأهوال والعودة إلى صفاء الحياة. وكانت النشرة السياحية الدورية التي ثابر على اصدارها رغم كل الصعاب بمثابة نشرة طيبة عن لبنان بما في ذلك من معلومات قد يحتاج اليها الزائر والأجنبي في الخارج.

واليوم يحاول المجلس بما تبقى في لبنان من مقومات السياحة وخاصة الفنادق ان يجتذب اليه رجال الأعمال والمغتربين واذا أمكن بعض المصطافين العرب. في حال اجتياز المرحلة الصعبة التي جابهتنا مؤخراً في المناطق الجبلية.

وكل المساعي والجهود المبذولة في المجال السياحي داخلاً وخارجاً تتوقف إلى حد كبير على مدى الاستقرار السياسي والأمني وأملنا وطيد بأن نبلغ شاطىء الأمان ونستعيد حياتنا ودورنا الحضاري في العالم. ●



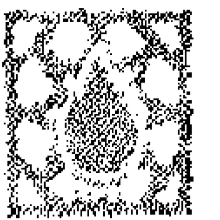
دور الإعلام في لبنان الجديد



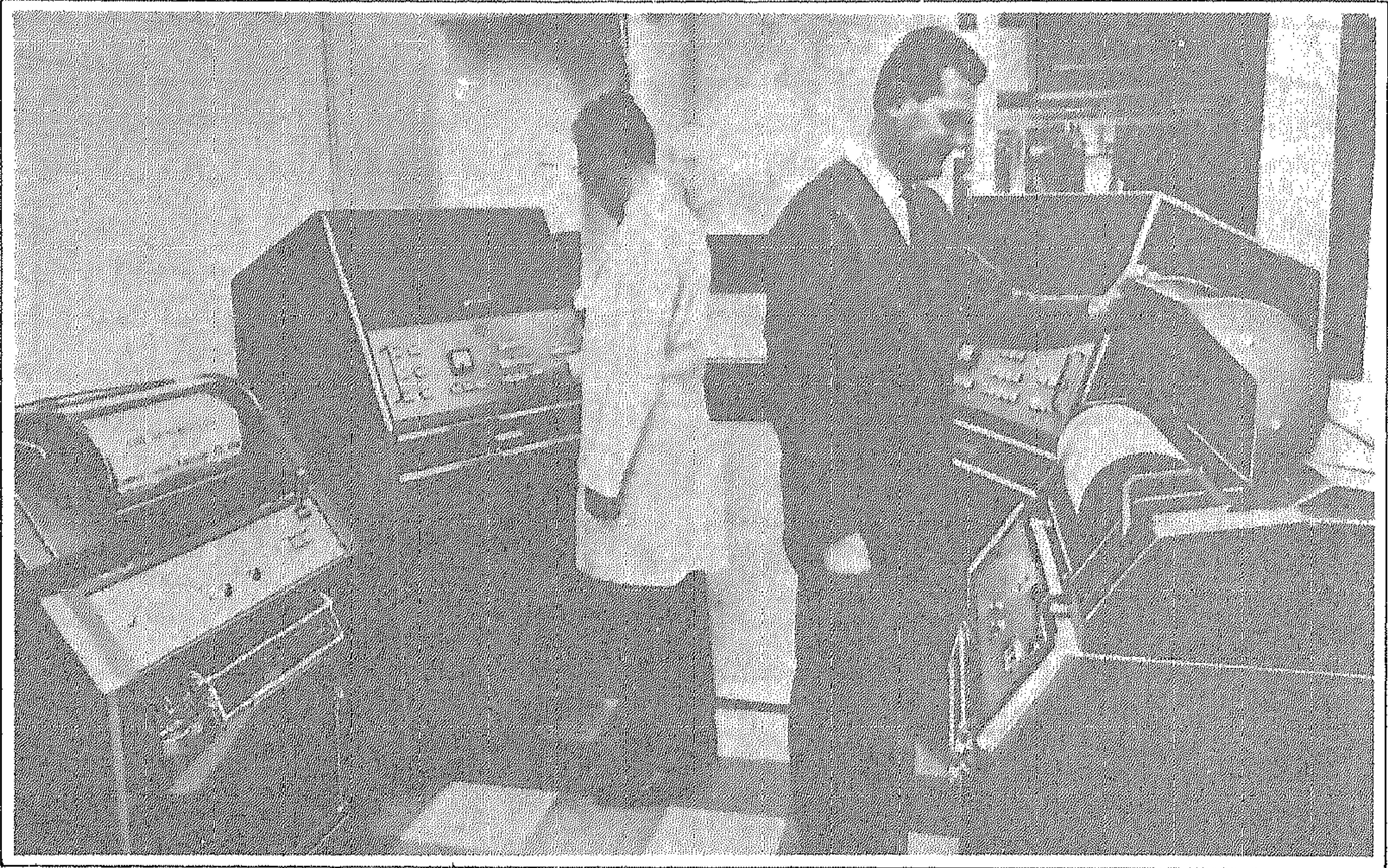
محمّد البعلبكي
نقيب الصحافة اللبنانية

إذا كان للأعلام من دور في اقامة لبنان الجديد، فانما هو دور نابع من رسالة الاعلام بوجه عام، ومن رسالة الاعلام اللبناني بوجه خاص.

فالاعلام، بما هو وسيلة مميزة من وسائل التواصل البشري، مدعو الى الالتزام بالحقيقة، بحثا وتحريا واستقصاء ونشرا على الناس، تنويرا لهم وتجنيبا لعقولهم من الوقوع في متاهات الخطأ والضلالة، وصيانة للانسان بالتالي من كل النتائج المؤذية له في حياته اليومية وفي مستقبله ومصيره ان هو لم يعرف الحقيقة كل الحقيقة، يتخبط في الخطأ ويضل ضلاله في الاستنتاج ويضل ضلاله في الحكم على الأشياء ويضل ضلاله في اتخاذ المواقف.



والحقيقة لا تتجزأ، ولا تتعرف، في تجردها وسموها في المطلق، على أي عامل يمكن أن يشوه سمتها هذه فيقزمها شر تقزيم وهي هي التي تأبى إلا أن تتعملق. انها تترفع على كل الأغراض العابرة أو الآنية، كما تترفع على كل الأحقاد وحزازات الصدور، وعن كل ما قد يجنح بها عن وجهها الأرحب من قيود مذهبية او سلاسل اقليمية او ظروف الزمان والمكان. ومن هنا أن السعي لمعرفة الحقيقة، والعمل على نشر الحقيقة كل الحقيقة يتطلبان انقى مراتب الضمير الانساني كما يتطلبان أعلى درجات الشجاعة والاقدام في آن، ومن هنا ايضا ان الاعلام الذي جعل هذا دوره واتخذه درباً له وغاية، هو اعلام رسولي بكل ما في هذه الكلمة من معنى، والحاملون أعباءه لابد أن يكونوا من أولي العزم الذين لا يبالون ببذل أغلى التضحيات، بل لا يبالون حتى بالاستشهاد، على مذبح معرفة الحقيقة ونشرها وهما أنبل مهمة يمكن أن يضطلع بها انسان.



الكمبيوتر أصبح ضرورة للاعلام الناجح

ولبنان الجديد لكي يكون جديدا لابد ان يبنى على الحقيقة، بكل ما تقود اليه الحقيقة من صدق في القول، وصدق في الرؤية وصدق في التعامل. فما بني على الخطأ باطل، وما بني على الزيف باطل، وما بني على الخداع باطل، وما بني على الكذب أو التكاذب باطل. وقد أثبتت محنتنا الدامية ان الآفة الأصيلة للبنان الذي انهار انهياره العظيم، هي أن بنيانه لم يكن يخلو من شيء من الخطأ، ومن شيء من الزيف، ومن كثير من الخداع والكذب والتكاذب.

وههنا دور الاعلام في اقامة لبنان الجديد، كاعلام عام وعلى وجه الاطلاق، اما دور الاعلام، كاعلام لبناني، فيتمثل بالاضافة الى ذلك في مهمة رئيسية تنبثق في رأيي من رسالة الاعلام اللبناني التاريخية، وهي الدعوة الى اقامة لبنان الجديد على مفهوم الحرية الأقدس: حرية الرأي والفكر والعقيدة وحق الانسان في لبنان هذا بممارسة هذه الحرية من غير أي قيد يحد من انسانيته أو يلحق بها، أي انتقاص أو تشويه. فلا معنى للبنان، بل لا مجال ولا مبرر لوجود لبنان، ان لم يكن في هذا الشرق هو قلعة الحرية وحصن الديمقراطية الحقيقية التي يفكر الانسان في ظلها كما يريد، ويؤمن بما يريد، ويعرب عن فكره وايمانه بمختلف وسائل التعبير المشروعة كما يريد، ويصارع الفكر الآخر والايمان الآخر بالحجة والبرهان وضمن حدود الاحترام المتبادل ما شاء الصراع حتى يحصحص الحق ويتبين الرشد من الغي من غيرما ارهاب ولا قمع ولا اكراه، ومن غيرما تمييز بين انسان وانسان، أياً كان دينه أو مذهبه أو عقيدته أو نسبه أو اقليمه، بل في تساو في الحقوق وفي الواجبات تجاه الوطن الذي يضمن للجميع العيش في ظل الحرية والكرامة والمساهمة المشتركة في بناء المستقبل الأفضل.

مثل هذا «اللبنان الجديد»، لابد أن يجد في ذاته بذور تجدده الدائم الذي ينجيه من خطر التجمد او «الاستنقاع» في صيغ ان كانت، تبدو حسنة في ظرف من الظروف فانها لا تلبث أن تغدو غير مجدية ان لم نقل عبئا معوقا عن مواصلة النهوض حين تنقلب الى ما يشبه القوالب الجامدة التي ينعدم ضمنها مجال التحرك تطلعا الى ما هو أفضل. وما كان التاريخ يوما الا فعل صيرورة مستمرة ان لم يندفع في

موكبها شعب من الشعوب لأي علة من العلل، عاد القهقري في مختلف وجوه حياته وتقطعت به الأسباب وعاقبت عليه المحن والكوارث.

قلت أن دور الاعلام اللبناني هذا في اقامة لبنان الجديد ينبثق من الرسالة التي حملها عبر تاريخه، وخصوصاً عبر الصحافة اللبنانية التي كانت وما تزال أهم وسائله وأبعدها أثراً وخطراً. فهو اذن يبقى منسجما في اضطلاعه بهذا الدور مع نفسه ومع كل ما تميزت به مسيرته الطويلة من نضال مستميت لارساء قواعد الحرية في المجتمع، وجعلها الرئة الحقيقية التي يتنفس بواسطتها لا لبنان وحده، بل العالم العربي بأسره. وقد قدم خلال هذه المسيرة العديد من الشهداء الخالدين، ولابد ان يبقى على استعداد دائم لتقديم المزيد منهم حتى تبلغ المسيرة غايتها المرجوة بقيام لبنان الجديد على قاعدة الحرية الحقيقية والديمقراطية التي لا يأتيها الزيف من بين يديها ولا من خلفها، مثالا حيا على احترام القيم النهائية للإنسان، مثالاً يدعو العالم الثالث ــ بما فيه العالم العربي ــ بل يدعو العالم كله الى الاحتذاء به، ويكون بذلك مدعاة عز وافتخار لكل من قال أنا لبناني.

لبنان الجديد هذا، إذ يقوم، لابد أن يجد من جميع أبنائه الولاء المطلق، لأنه سيكون مستحقا لهذا الولاء النابع آنذاك من صميم ذات اللبناني من غير ما فرض أو اكراه، ومن غيرما وهن أو تردد.

وفي ظل هذا الولاء، تصبح وحدة لبنان وكل حبة تراب في أرضه، ويصبح استقلال لبنان وتصبح سيادة لبنان مقدسات مستوجبة الفداء بالروح وبكل ما هو غال عزيز عند كل مواطن، فلا تقوى بعدئذ على هذا الوطن أعاصير أو زعازع الأهواء.. ولا تقوى عليه حتى أبواب الجحيم.

ودور الاعلام اللبناني، إذ يقوم لبنان الجديد على هذا النحو الذي يريده جميع اللبنانيين هو دور القيمومة المستمرة.

فالاعلام اللبناني يجب أن يبقى هو القيم أبداً على دعائم لبنان الجديد.

وأبرز هذه الدعائم ثلاث، كل منها لا ينفصل عن الآخر، فاذا أصاب الوهن احداها أصاب الأخرى، وإذا انهارت احداها انهار البنيان كله.

هذه الدعائم الثلاث هي: الحرية، والولاء الوطني، والخلق الوطني.

فلا هوادة في صيانة هذه الدعائم. ان كل تعطيل للحرية يعني الغاء لبنان الجديد، وكل ضعف في الولاء الوطني يستتبع ضعفا في لبنان الجديد، وكل وهن في الخلق الوطني هو افساد للبنان الجديد.

وإذا ما استمرت هذه الدعائم قوية راسخة استمر لبنان الواحد السيد المستقل، المنفتح أبداً على الشرق والغرب، قوياً راسخاً يواصل تأدية رسالته الحضارية ازاء نفسه وازاء العروبة وازاء العالم كله دون انكماش أو خوف أو عقدة من عقد النقص.

ودور الاعلام في صيانة هذه الدعائم مزدوج. فهو اولا مدعو لأن يرسخ معانيها في ضمير الشعب اللبناني بمستمر التوعية، معتمدا الكلمة الايجابية المتوهجة بالحب، الكلمة الطيبة التي هي كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين، وان لم يبد للناس أنها قريبة الجنى.

وهو ثانية لابد أن يكون العين الساهرة والشهاب الثاقب الذي يكشف أي قول أو عمل أو مسلك يزعزع هذه الدعائم، أياً كان مصدر هذا القول أو العمل أو المسلك، ودون اي اغضاء أو تحيز أو محاباة لحساب مصالح شخصية أو آنية على حساب المصلحة الوطنية العامة.

وطبيعي أن الاضطلاع بدور القيمومة هذا يفترض أن يكون متوفرا لدى الاعلام ذاته ما يندب نفسه للقيمومة عليه في البلاد، أي توفر الحرية والولاء الوطني والخلق الوطني على أرفع مستوى ممكن، باعتبار أن فاقد الشيء لا يعطيه. حتى أننا لنكاد نقول أن مسيرة لبنان الجديد تتوقف إلى حد بعيد على صورة الاعلام فيه، لأن دور القيمومة يضع هذا الاعلام في مقام المسؤول لا عن حاضر لبنان فحسب، بل عن مستقبله وكامل مصيره ايضا. وانها لمسؤولية تاريخية ذات أبعاد تتصل في بعض شأوها بمصير الحضارة الانسانية بالذات. ●



التلاحم اللبناني
أساس صموده

المؤسسات النيابية في لبنان

د. بهيج طبارة

لبنان، في دستوره وفي قوانينه الأساسية، دولة جمهورية تعتمد الديمقراطية بمعناها التقليدي أساساً للحكم ـ أي تعتبر أن السيادة الوطنية تكمن في الشعب. فالشعب يختار حكامه عن طريق الانتخاب، ومن الشعب يستمد الحاكم شرعية السلطة التي يمارسها باسمه ولمصلحته. هذا في حين تكفل الدولة للمواطنين الحقوق والحريات الأساسية: المساواة أمام القانون، الحرية الشخصية، حرية المعتقد، حرية التعليم، حرية الرأي والقول والاجتماع ـ كل ذلك ضمن الحدود ووفق الشروط التي تنص عليها القوانين.

■ د. بهيج طباره: ليسانس في الحقوق من جامعة باريس (١٩٤٩)، دكتوراه في الحقوق من جامعة غرنوبل (١٩٥٤)، وزير الاقتصاد والتجارة في لبنان (١٩٧٣)، يمارس مهنة المحاماة منذ عام (١٩٥٢)، تعاطى تدريس القانون المدني وقانون العمل والضمان الاجتماعي في كليتي الحقوق في اليسوعية والجامعة اللبنانية (بيروت) عدة سنوات منذ عام ١٩٥٥.

أما نظام الحكم في لبنان، فهو نظام برلماني يرتكز على مبدأ التفريق بين وظائف الدولة السياسية، بحيث يعهد بممارسة كل منها الى هيئة مختلفة، على أن يقوم بين أجهزة الحكم تعاون وتوازن، يتجلى بصورة أساسية في مسؤولية الحكومة السياسية أمام المجلس النيابي الذي يملك حق إسقاطها بنزع الثقة عنها.

ذلك هو الاطار الدستوري للمؤسسات السياسية القائمة بخطوطه العريضة. فما هي خصائص النظام السياسي اللبناني، وما هو الواقع العملي الذي تعبر عنه الممارسة الفعلية؟

إن نظرية التمثيل الديمقراطي تنطلق من ان الشعب هو مصدر السلطات جميعا الا ان تولي الشعب، مباشرة وبالذات، مهام الحكم يصطدم بعقبات عديدة منها اتساع الدول، وازدياد عدد سكانها، وتشعب مشاكلها. لذلك كان لابد من أن تتجلى إرادة الشعب وتبرز الى حيز الوجود من خلال أجهزة وممثلين يختارهم الشعب ليكونوا صوته وإرادته. فالمجلس النيابي هو وسيلة الشعب، هو أداته للتعبير عن الارادة الكامنة فيه. من هنا ضرورة أن تتمثل الارادة الشعبية تمثيلا صحيحا، وأن تنعكس بصورة أمينة ومعبرة في أجهزة الحكم وفي أشخاص الفئة الحاكمة ـ أي ضرورة أن يلعب الانتخاب الدور الخطير المفترض أن يلعبه في كل نظام ديمقراطي.

من المعلوم أنه، بنتيجة الظروف التي مرت بلبنان، لم تجر انتخابات نيابية في المواعيد المحددة لها، وان مجلس النواب المنتخب عام ١٩٧٢ ما زال يمدد ولايته بنفسه تأميناً لاستمرارية المؤسسة وتجنباً للفراغ. ان التغييرات التي لابد ان تكون طرأت على القاعدة الشعبية خلال هذه الفترة الطويلة، فضلاً عن تلك التي استجدت بنتيجة الأحداث، تثير التساؤل، بدون شك، حول مصداقية التمثيل النيابي وأمانته في التعبير عن مختلف اتجاهات الرأي العام.

هذا بالاضافة الى أن العملية الانتخابية تنطوي بطبيعتها على عيوب ونواقص تؤثر مباشرة على الدور المطلوب منها. ذلك أن أحداً لا يعتقد بأنه كلما أتيح للشعب أن يقترع، فإن نتيجة العملية الانتخابية تعبر تعبيراً كاملاً وصحيحاً عن الارادة الشعبية. إذ كثيراً ما تكون ورقة الاقتراع نتيجة غسل دماغ سابق، وكثيراً ما تحمل هذه الورقة أثراً من خوف، أو أثراً من جهل، أو أثراً من حاجة.

إن ثمة أسباباً عديدة، بمعزل عن حالات التزوير المادي، تفسد الانتخابات، وفي طليعتها الدور الذي يلعبه عنصر المال الذي يمكن أن يرتقي الى مصاف أفعل القوى السياسية في الحياة العامة. ان المال ـ إذا ما تيسر له ولوج باب الانتخابات، يعطل إرادة الناخب في أكثر من مجال. فهو يؤدي إلى حصر الترشيح عملياً بفئة ضئيلة هي الفئة الميسورة، كما انه يشكل عامل رشوة

وتأثير مباشر على مجموعة لا يستهان بها من الناخبين.

ان الانتخابات الحرة تفترض مشاركة واعية من المواطن في الحياة العامة، مشاركة متحررة من سائر القيود التي تلجم إرادته. ولعل الطائفية في لبنان هي ــ من بين هذه القيود ــ أبعدها أثراً وأخطرها نتيجة.

فالطوائف الدينية عندنا ليست فقط مجموعة من الأفراد ينتسبون الى مذهب معين، بل هي أيضاً مؤسسات عامة ذات شأن هام في السياسة بحيث يتعذر تفهم الوضع السياسي في لبنان، أو الكلام على المؤسسات السياسية، دون التطرق الى حديث الطوائف الدينية.

إن الطوائف تشكل، ضمن الكيان اللبناني، كيانات قائمة بذاتها، قائمة بقوانينها ومحاكمها الخاصة، بسلطاتها التسلسلية، بمدارسها ومستشفياتها.

وقد نص الدستور بصورة مؤقتة ــ التماساً للعدل والوفاق ــ على قاعدة تمثيل الطوائف المعترف بها بصورة عادلة في الوظائف العامة وفي تشكيل الحكومات. ثم ان القوانين الانتخابية وزعت المقاعد النيابية بين مختلف الطوائف وفقا لنسب معينة.

أما الميثاق غير المكتوب الذي تم التوافق عليه عام ١٩٤٣ فقد أوجد من جهة تفاهما بين الطائفتين الكبريين في حينه (السنة والموارنة)، وكرس من جهة أخرى صيغة للتعايش بين الطوائف الدينية ــ فتوزعت المناصب السياسية الكبرى بين الطوائف الأكبر عددا: رئاسة الجمهورية للموارنة، رئاسة المجلس النيابي للشيعة ورئاسة الحكومة للسنة.

وقد أصبح هذا التنظيم يعرف بالطائفية السياسية.

ترتب على ذلك وعلى الممارسات التي تلته ان استقطبت الطوائف ولاء أفرادها، فقامت بين أبناء المجتمع الواحد الذين تربطهم مصالح واحدة، حواجز مصطنعة، وبات الولاء لمصلحة الوطن يأتي، في المرتبة، بعد الولاء للطائفة، ومن خلاله.

فإذا أضفنا الى ذلك ما كان يتمتع به الاقطاع السياسي في بعض المناطق من نفوذ، لا يعود مستغربا أن لا تقوم في لبنان، فيما خلا بعض الاستثناءات، أحزاب سياسية قوية قادرة على أن تتوجه الى اللبنانيين من مختلف الطوائف والمناطق.

إن غياب الأحزاب السياسية الشاملة هو مظهر من مظاهر الفردية التي تتميز بها الحياة العامة في لبنان، ونتيجة للحواجز المصطنعة التي تفسخ المجتمع الواحد وتباعد بين أبنائه وقد أدى الى افتقار النظام الديمقراطي لبعض مقوماته الأساسية.

ذلك أن الأحزاب تخلق الرأي العام بقدر ما تعبر عنه. وظيفتها هي، في آن معاً، أن توضح الآراء الشخصية، أن تنميها وأن تثبتها، ثم أن تقرب ما بين الاتجاهات المتشابهة منها وأن تصهرها وأن تبرزها بشكل منظم وموحد.

* * *

ان الدستور اللبناني في معرض تنظيمه للسلطات، ولعلاقة كل منها بالأخرى، يركّز على وجود سلطات ثلاث: سلطة مشترعة ــ هي المجلس النيابي المنتخب من الشعب ــ وسلطة تنفيذية يتولاها رئيس الجمهورية بمعاونة الوزراء، وأخيرا سلطة قضائية تتولاها المحاكم على اختلاف درجاتها واختصاصاتها. وان الغرض من هذا التفريق بين وظائف الدولة، ومن توزيع ممارستها بين هيئات مختلفة، هو الحؤول دون تجمع السلطة بين يدي جهاز واحد، مع ما ينطوي عليه ذلك من مخاطر بالنسبة لحرية الأفراد، ومن اغراء للحاكم بالتسلط والاستبداد.

عدد من الذين شاركوا في وضع الدستور اللبناني واقراره عام ١٩٢٦، من اليمين: الدكتور جميل تلحوق، الفونس ايوب، شبل دموس، الياس طعمه السكاف، اوغست باشا اديب، ابراهيم حيدر، الشيخ محمد الجسر، عبد اللطيف الأسعد، صبحي حيدر، موسى نمور، حبيب باشا السعد، المير جميل شهاب، سليم تقلا، نجيب ابو صوان، ميشال نحاس، روكز ابو ناضر.

وقد استوحى الدستور، من هذه الناحية، الى حد بعيد، أحكام القوانين الدستورية لعام ١٨٧٥ التي كانت ترعى وتنظم الجمهورية الثالثة في فرنسا.

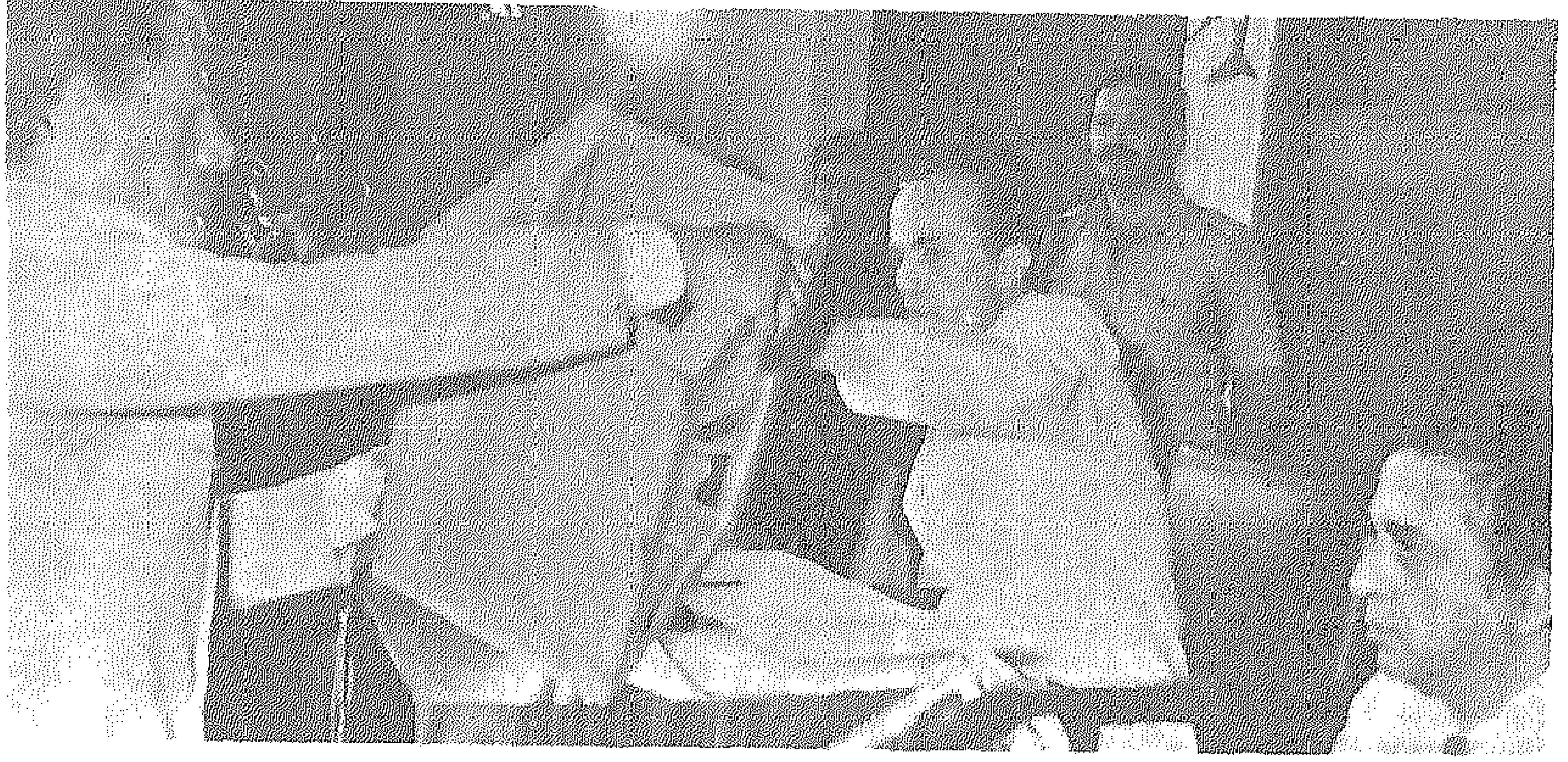
من مراقبة تطبيق هذا النظام في لبنان منذ عهد الاستقلال يتبين بأنه أدى الى واقع تميز بتلاشي المجلس النيابي أمام السلطة التنفيذية الممثلة برئيس الدولة الذي تتمركز فيه القوة الحقيقية.

هذا في حين ان رؤساء الجمهورية الثالثة في فرنسا ــ بمعزل عن شخصياتهم ــ لعبوا في السياسة الفرنسية أدواراً هامشية، لدرجة انه كان يقال بأن مهمة رئيس الجمهورية الفرنسية الرئيسية آنذاك هي في افتتاح معارض الزهور.

من العبث، في رأينا، التفتيش عن أسباب السلطان الفعلي الذي يتمتع به رئيس الجمهورية في لبنان في النصوص الدستورية. ففي ظل الجمهورية الفرنسية الثالثة، كان رئيس الجمهورية يتمتع، مع بعض الفوارق البسيطة، بالصلاحيات ذاتها المناطة بالرئيس في الدستور اللبناني. فهو يدعو مجلس النواب للانعقاد، ويرجىء جلساته ويتمتع بحق حله. وله مبادرة اقتراح القوانين. وهو يمارس السلطة الاجرائية، مع حق إعادة القوانين إلى المجلس مرة واحدة، كما يتولى قيادة القوات المسلحة ويمثل الدولة في الداخل والخارج. ويقوم بالمفاوضة ويبرم المعاهدات ويتمتع بحق منح العفو الخاص. فضلا عن أنه يعين الوزراء ويقيلهم. يضاف الى ذلك أن الدستور الفرنسي كان ينص على عدم مسؤولية رئيس الجمهورية فيما خلا حالة الخيانة العظمى.

أما رئيس الحكومة، فلم يكن له ذكر في الدستور الفرنسي، بل ان هذا المركز كان وليد العرف الدستوري نظراً لحاجة مجلس الوزراء الى رئيس ينسق بين الادارات المختلفة، ويمثله لدى المجلس النيابي وأمام الرأي العام. إلا أنه لم يكن يتمتع، قانوناً، بأي امتياز بالنسبة لباقي الوزراء الذين يرئس كل منهم الادارة الموكولة إليه.

لذلك ينبغي التحري عن أسباب هيمنة رؤساء الدولة في لبنان خارج النصوص الدستورية. إذ



استمرار السلطة التشريعية في تادية دورها الدستوري، يعني استمرار وصمود لبنان...

لا يعقل أن يفرز النص المماثل رئيساً ضعيفاً في فرنسا يرئس ولا يحكم، رئيساً قوياً في لبنان تتمركز فيه القوة الحقيقية.

ولعل أهم أسباب هذه الظاهرة يكمن في تشتت القوى السياسية في لبنان وعدم انتظامها ضمن أحزاب واضحة المعالم، بحيث أن رئيس الجمهورية، المنتخب لمدة ست سنوات، يصبح عاملاً أساسياً لاستقرار الدولة واستمرارها، وقاسماً مشتركاً تلتقي في شخصه أو تحتكم إليه مختلف التيارات والاتجاهات. ويصبح، شئنا أم أبينا، زعيم الأكثرية النيابية.

فبغير مساعدته، يصعب على رئيس الحكومة أن يحصل على ثقة النواب. وما لم يظهر لصالح الرئيس الذي يختاره الأكثرية التي يتزعمها، يكون من العسير على رئيس الحكومة — أي رئيس — أن يجمع حوله الأكثرية اللازمة له للحكم.

إن محك التجربة اللبنانية هو في توفير جو الحوار المتوازن، المتكافىء، المفترض قيامه بين القيادة الحكومية والتمثيل الشعبي. ذلك ان اصالة هذه التجربة هي في كونها تهدف الى تأمين امكانات العمل للدولة في جو من الحرية الشخصية والسياسية وضمن اطار المؤسسات الديمقراطية، وتطمح الى تقديم البينة على ان حكما قويا يمكن أن يبقى ديمقراطيا، وان مجلسا منتخبا يمكن أن يقوم بدوره بصورة فعالة ومجدية.

ذلك انه إذا كانت الحكومة هي المحرك الأول والطبيعي في الحياة العامة بما ينبغي أن تتمتع به من سلطات واسعة، فإن المجالس النيابية يجب أن تبقى الضوابط التي تمنع التجاوز وتصون الحريات.

ان النظام الطائفي الذي قام على أساس ظروف ومعطيات معينة أبقى لبنان متأرجحا فوق حبل مشدود.

غير أن هذه الظروف والمعطيات تغيرت، لاسيما بعد أن دخلت المنطقة بأسرها فترة من التوتر والاضطرابات. فكان الانقسام الطائفي، وانعدام اللحمة بين الفئات التي يتألف منها المجتمع اللبناني، من أخطر نقاط الضعف في مواجهة الأحداث.

ان هذا النظام لا يصح أن يكون حلا دائما، إذ ان استمرار العمل به يؤدي الى مزيد من الفرقة بين أبناء الوطن الواحد والى مزيد من الانقسام. ان الدستور لحظ الطائفية السياسية والادارية كتدبير مؤقت بانتظار انصهار الفئات المختلفة في مجتمع واحد.

وان الخيار أمام اللبنانيين اليوم هو بين الابقاء على عوامل الانقسام فتتجه كل طائفة الى العيش في ظل حكم ديني مستقل، وبين ارتضاء الديمقراطية بكل مقوماتها، بما فيها العلمنة التي تترك للأفراد حرية المعتقد وحرية ممارسة شعائرهم الدينية لكنها تطبق عليهم أحكاما قانونية موحدة — بحيث يعيش اللبنانيون في ظل حكم يكفل المساواة فيما بينهم، بقطع النظر عن انتماءاتهم الطائفية.

ان التوجه في هذه المرحلة الدقيقة لابد أن يكون نحو التأسيس لبناء الوطن الحقيقي الذي يكون الولاء فيه للدولة لا للطائفة، وطن الشعب الواحد، والمصير الواحد. ●

لبنان

لبنانُ كم للحسن فيكَ قصيدةٌ
نثرتْ مباسمَها عليها الأنجمُ

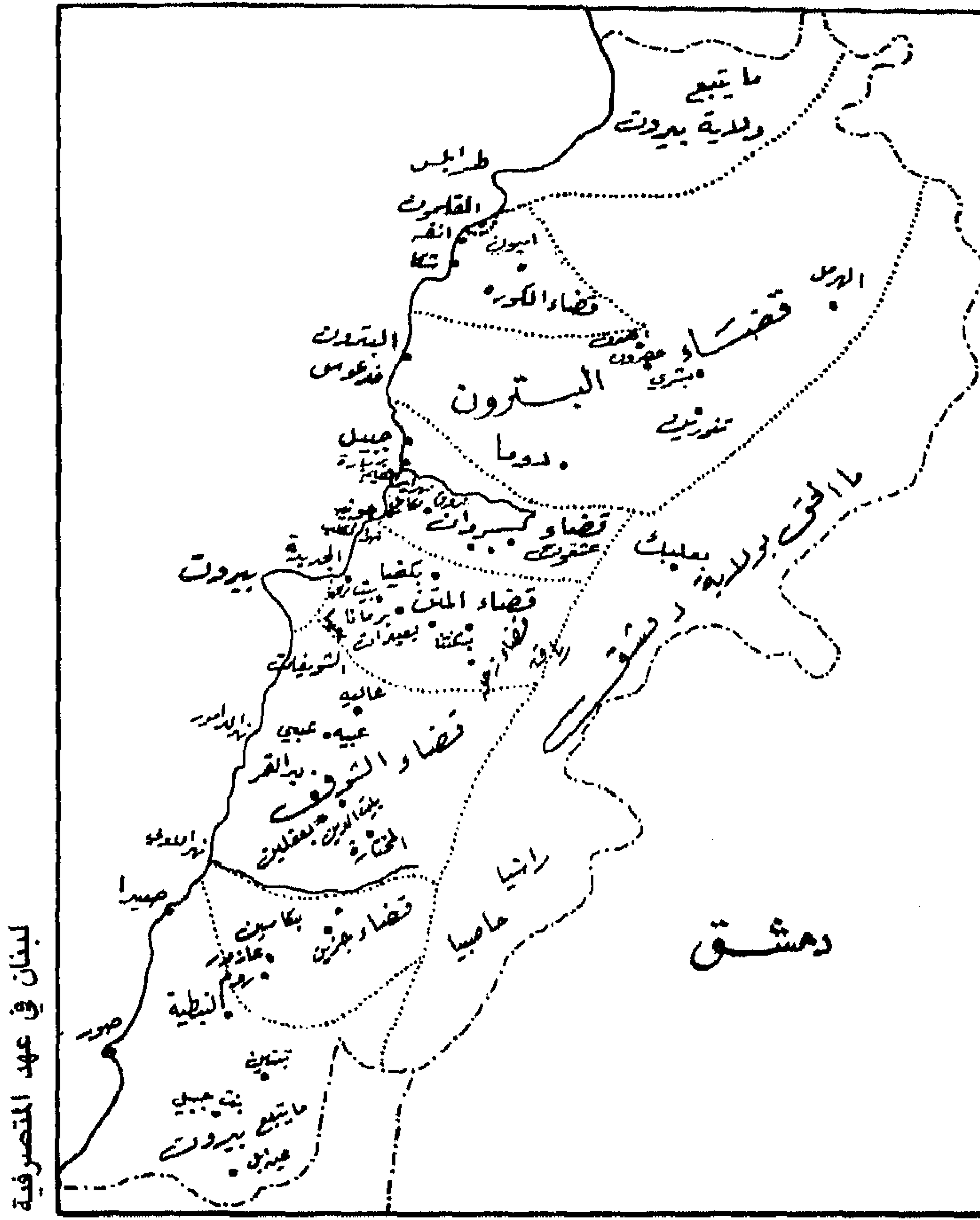
كيفَ التفتَّ فجدولٌ متأوّهٌ
تحتَ الغصونِ وربوةٌ تتبسّمُ

وطنُ الجميعِ على خدودِ رياضهِ
تختالُ فاطمةٌ وتنعمُ مريمُ

أكماتهِ البيضاءِ تحتَ سمائهِ
الزّرقاءِ أطفالٌ تنامُ وتحلمُ

تتصاعدُ القبلاتُ من أنفاسهِ
وتمرُّ بالوادي الوديعِ وتلثمُ

الأخطل الصغير



لبنان في عهد المتصرفية

من المتصرفية إلى الجمهورية

د. نقولا زيادة

في سنة ١٨٦١ أنشئت متصرفية جبل لبنان (وقد عدل نظامها الأساسي سنة ١٨٦٤). وهي من حيث تكوينها الاداري متصرفية مرتبطة بالباب العالي مباشرة (أي لا علاقة لوزير الداخلية العثماني بها)، متصرفها مسيحي عثماني التبعية ليس من أصل لبناني، يختاره السلطان وتوافق عليه الدول الاوروبية المعينة (فرنسا وبريطانية وبروسيا والنمسا والروسيا وايطالية). ولكن الذي كان يحدث في الحقيقة هو ان الدول كانت تختار الحاكم والسلطان يوافق على الاختيار.

أرادت الدولة العثمانية من القبول بانشاء المتصرفية حل المشكلة اللبنانية التي استعصت عليها. فهي بالنسبة للعثمانيين وحدة ادارية في اطار الدولة العثمانية مع استقلال داخلي. وأرادت الدول الاوروبية المتصرفية وحدة سياسية لتكون لمطامحها ممرا ومستقرا. وهذا الذي حدث. فقد نشطت الدول الاوروبية تجارة ومالية واقتصادا وتبشيرا وتثقيفاً (وفي هذين كان للأميركان يد طولى ايضا) فنشرت بضائعها وسككها الحديدية وشركاتها ومدارسها ومطابعها ومؤسساتها في البلاد.

أما المتصرف فهو الذي كان يجمع الضرائب ويعين الموظفين، بمن فيهم القضاة، ويشرف على

■ د. نقولا زيادة، رئيس دائرة التاريخ في الجامعة الاميركية سابقاً.

الأمن والنظام. وكان يعينه مجلس مؤلف من اثني عشر عضـواً يمثلون الطوائف الدينيـة المختلفة. أما رقعـة المتصرفيـة فكانت تشمـل الجزء الجبلي من لبنان ــ فلا البقاع ولا وادي التيم ولا بيروت ولا صيدا ولا طرابلس كانت أجزاء من المتصرفية. وقد قسم لبنان المتصرفية الى سبعة أقضية، على رأس إدارة كل قضاء قائمقام يعين من الطائفة صاحبة الأكثرية في القضـاء. أمـا قـوى الأمن فكـانت خـاصـة بالمتصرفيـة، ولم يكن يسمح للجنـود الأتراك بدخولها. ولما كانت الأجزاء الساحلية بين نهر بيـروت والبحصـاص (عنـد مـدخـل طرابلس الجنوبي) تابعة للمتصرفية، فان الجنود الأتراك إذا أرادوا الانتقال براً من بيروت إلى طرابلس كان عليهم أن يسلموا أسلحتهم للدرك اللبناني عند نهر بيروت ويتسلمونها عند البحصاص.

وقد تولى أمور متصرفية لبنان بين ١٨٦١ و١٩١٥ المتصرفون التالية اسماؤهم:

داود باشا (١٨٦١ ــ ١٨٦٨).
نصري فرنكو باشا (١٨٦٨ ــ ١٨٧٣).
رستم باشا (١٨٧٣ ــ ١٨٨٣).
واصة باشا (١٨٨٣ ــ ١٨٩٢).
نعوم باشا (١٨٩٢ ــ ١٩٠٢).
مظفر باشا (١٩٠٢ ــ ١٩٠٧).
يوسف فرنكـو باشـا (وهو ابن نصـري فرنكو باشا) (١٩٠٧ ــ ١٩١٢).
أوهـانس قيـومجيان بـاشـا (١٩١٢ ــ ١٩١٥).

وأقدر هؤلاء المتصرفين وأنزههم داود باشا ورستم باشا، يليهما نعوم باشا.

وقد تمت مشاريع هامة في عهد المتصرفية يمكن اجمالها فيما يلي:

١ ــ اتمام شق طريق العربات بين بيروت ودمشق. بـدىء العمل بـالطريق سنـة ١٨٥٨ ولكن الانجاز جاء سنة ١٨٦٣.

٢ ــ شق طريق للعربات يربط بيروت بدير القمر وعاصمة المتصرفية بتدين (بيت الدين).

٣ ــ ربـطت بيـروت بـطرابلس بـطريق للعربات، شق طريق مماثل بين بيروت وصيدا (كان الساحل بين بيروت وصيدا وبين بيروت وطرابلس تابعا للمتصرفية.


داود باشا

٤ ــ وصلت زحلة وجوارها بطريق عربات يتصل بطريق بيروت دمشق.

٥ ــ في سنة ١٨٩٥ أنجز بناء سكة حديد بيروت دمشق.

٦ ــ عني كل من داود باشا ورستم باشا بالزراعة والتحريج في المتصرفية.

ولعل خير ما نفعله في هذه المناسبة هو أن ننقـل رأي (الدكتور كمـال الصليبي في هـذا الموضوع قال:

«كان عهد المتصرفية في لبنـان، على وجـه العموم، عهد نمو وازدهار شامل، بل انه اشتهر باليقظة الفكرية التي قـامت حينئذ في البـلاد وتجلت في مختلف نـواحي الحيـاة. ومـع أن الفضل في هذه النهضة لا يعود مبـاشرة الى المتصرفين، بل الى نشاط الارساليات الاوروبية والأميركية والمبادرة اللبنانية الخاصة، إلا ان الأمن والنظام اللذين وطد المتصرفون دعائمهما جعل هذه اليقظة ممكنة الوجود. ثم انه كان للمتصـرفيـة في المجـالات الأخـرى إنجـازات لا يجوز نكرانها. فمنذ انشائها حتى الحـرب العالمية الأولى، ساد الاعتراف بأن جبل لبنان «خيـر بلدان الشرق الأدنى حكمـاً، وأكثرهـا ازدهاراً وأمناً وطمأنينة». فقد منحه حكامه طرقا وجسوراً جيدة، وأبنية حكومية رائعة، وعدداً من الخدمات العامة الصالحة، وأمناً عاماً ضرب به المثل. وتحت رقابة المتصرفين، انتعشت الزراعة،



تمثال يوسف بك كرم



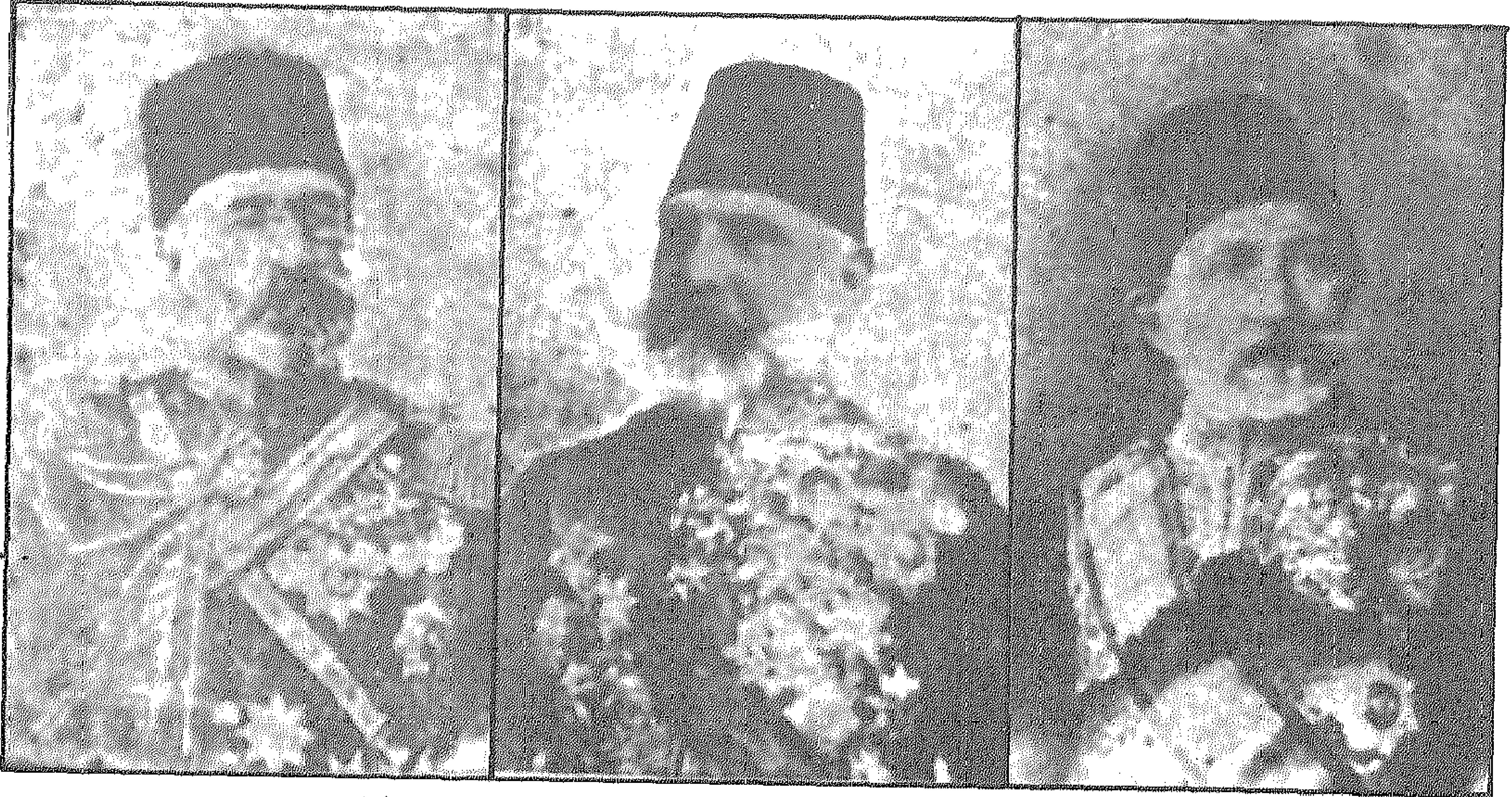
رستم باشا

وفي الأخص تربية دود القز التي أصبحت، بتشجيع شركات الحرير الفرنسية وإنشائها معامل محلية في عدد من القرى، صناعة مزدهرة. وسرعان ما نافس اللبنانيون الفرنسيين في صناعة الحرير، فأنشأوا لها معامل وطنية تشغل مئات الأيدي العاملة وتجعل من هذه الصناعة مرفقاً رئيسياً من مرافق الاقتصاد الوطني في تلك الأيام. وإذ ازداد عدد السكان، شيئاً فشيئاً، ازدادت هجرة اللبنانيين الى العالم الجديد، فبدأت، بجد، في أواخر القرن التاسع عشر. وما ان اقتربت نهاية عهد المتصرفية، حتى كان آلاف المغتربين اللبنانيين في شمال أميركا وجنوبها يرسلون الاعانات المالية إلى ذويهم في الوطن. بل ان بعض هؤلاء المهاجزين عادوا بما جنوه من ثروات الى لبنان، فبنوا المنازل الجميلة في القرى وأفادوا البلاد بأموالهم».

لكن لابد من الاشارة الى ناحية أخرى من تاريخ المتصرفية والمتصرفين في لبنان وهي معارضة الموارنة في شمال لبنان للمتصرفين. ولعل الباعث الأول على ذلك موقف يوسف كرم الذي كان يطمح في تولي المتصرفية، فأثار على داود باشا حربا شعواء في الدعاية ثم حاول فعلا نجدة أهل كسروان ضده. ولما نفي يوسف كرم الى أوروبة زادت نقمة الشماليين على المتصرفين، ولم يتعاونوا معهم إلا بالقدر اليسير.

على أن لبنان في القرن التاسع عشر، وفي نصفه الثاني بشكل خاص شهد تطوراً وتقدماً كبيراً في أكثر من حقل واحد. ولعل الحياة الثقافية في لبنان نالت الحظ الأكبر.

وفي يوم من أيام تموز (يوليو) سنة ١٩٠٨ صعق الناس عند سماعهم أن ضابطاً تركياً(١) اسمه نيازي قام بثورة مسلحة في استنبول وأرغم السلطان على اعلان إعادة دستور ١٨٧٦ واعادة الحياة البرلمانية. كان نيازي يمثل حزب تركيا الفتاة الذين كانوا يمثلون اليد الحديدية في جمعية سرية تدعى جمعية الاتحاد والترقي التي كانت تعمل سراً ضد الحكم الحميدي الرجعي وتطالب بالاصلاح في جهاز الحكم. وكان السلطان عبد الحميد قد أعلن في السنة الأولى من حكمه، بايعاز من مدحت باشا رئيس وزرائه، دستوراً جديداً وانشأ مجلس المبعوثان (البرلمان التركي) وكلاهما على منوال الدستور والبرلمان الفرنسي والبلجيكي. وكان هذا الدستور الجديد على غرار التنظيمات التي أعلنت من قبل، أي أنه كان يضمن الحرية والمساواة لجميع الرعايا العثمانيين ويضمن حرية الصحافة وتمثيل الشعب بواسطة مجلسين أعلى وأدنى. غير أن السلطان عبد الحميد نفى مدحت باشا في السنة التالية وحل مجلس المبعوثان.



واصه باشا — نعوم باشا — مظفر باشا

وكان من جملة الذين غادروا البلاد هرباً من بطش عبد الحميد لبناني اسمه خليل غانم (١٨٤٦ ــ ١٩٠٣) الذي كان أحد أعوان مدحت باشا. واستقر غانم في باريس حيث أصدر جريدة عربية: «البصير» وقفها في الدرجة الأولى لاظهار مساوىء عهد عبد الحميد وفضح أمر المذابح التي أنزلها بالأرمن. وكان يراسل جرائد فرنسية وتركية. ويبدو أن الخطوة التي اتخذها عبد الحميد كانت تهدف إلى المحافظة على سلطته. فانه كان يخشى أن يحد المجلس من صلاحياته المطلقة. وعاد ففرض المراقبة على الصحف، وألغى حرية القول، وانشأ جهازاً للتجسس، وحرص على أن يكبح جماح الموجة الغربية وما تحمله من أفكار عصرية. وأحاط نفسه بطغمة من الموظفين الرجعيين الخنوعين الذين يأتمرون بأمره وينفذون خططه. وكان يستغل الجامعة الاسلامية ليهدد بها الدول الغربية عند مفاوضته هذه الدول على الأمور التي تتعلق بالبلدان الاسلامية.

غير أن عبد الحميد سنة ١٩٠٨ لم يكن بأفضل من عبد الحميد سنة ١٨٧٦. فانه لم يكن ينوي الحفاظ على وعوده الخلابة في منحه رعاياه الحرية والمساواة. وفي سنة ١٩٠٩ بينما كان يعد العدة مع أعوانه للقيام بثورة رجعية يقضي بها على الروح العصرية الجديدة التي كانت تلهب مشاعر الأتراك الشباب الذين ينتمون الى حزب تركيا الفتاة نشبت الثورة التي أسفرت عن عزله. وأقاموا على العرش أخاه، محمد رشاد الخامس، الذي كان مسجوناً مدة طويلة.

وقد استبشر الناس خيراً بالثورة التي قام بها الشباب الأتراك وبلغ الحماس في جميع أنحاء السلطنة مبلغاً عظيماً. غير أن مجلس الادارة في لبنان رفض أن يستجيب الى دعوة استنبول بارسال ممثلين عنه في مجلس المبعوثان. لكن عالماً وأديباً لبنانياً هو سليمان البستاني (١٨٥٦ ــ ١٩٢٥) الذي ترجم الالياذة الى العربية، تقلد وظائف حكومية عالية بما في ذلك وزارة الزراعة. وكذلك تقلد لبناني آخر وظائف رفيعة في عهد عبد الحميد وهو سليم ملحمة (١٨٧٨ ــ ١٩٣٨) فانه كان وزير المناجم والتجارة وكان سليم صديق أبناء أحد ولاة بيروت. وعندما غادر الوالي بيروت الى استانبول ذهب معه سليم وكان له من العمر إذ ذاك سبع عشرة سنة. وفي هذه الفترة العصيبة لم يستطع الأتراك الشباب الذين قاموا بالثورة أن يسيروا دفة المركب الذي كانت تتلاطمه الأمواج من كل صوب. فقد كانت تجابههم مشاكل دولية ومحلية خطيرة لم يكونوا المسؤولين عن كثير منها. فاستحالت الحكومة

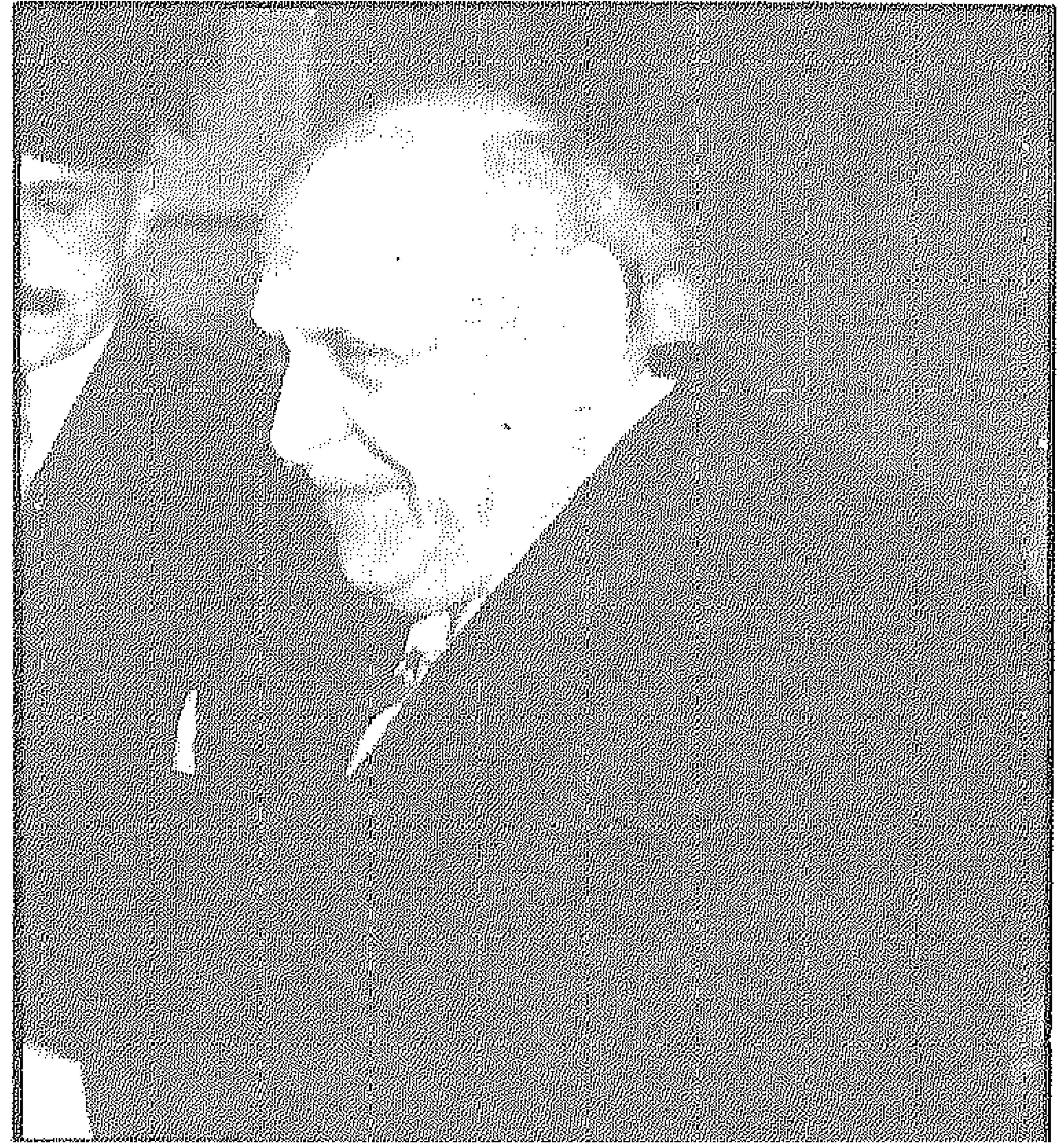


يوسف فرنكو باشا   أوهانس باشا

التي شكلوها الى ديكتاتورية حزبية كانت أشد سوءاً من الحكومة التي تخلصوا منها. وكان لمحاولتهم في خلق وحدة تشمل جميع رعايا السلطنة عن طريق حل الأحزاب والفئات وصهرها في بوتقة العثمانية رد فعل معاكس. فانها شجعت الأحزاب والفئات التي كانت تنادي بالانفصال عن الحكم العثماني. فان القومية العربية مثلا التي ظهرت كرد فعل لسوء الحكم العثماني ازدادت، بعد سنة ١٩٠٨، حدة وانتشاراً بين مختلف الطبقات. فانشئت جمعيات ومنظمات سرية وعلنية في سورية ولبنان ومصر واستنبول وباريس ونيويورك تعمل على استقلال الأقطار العربية. وفي الحرب العالمية الأولى انضم الأتراك الى المعسكر الالماني فكانت نهاية الدولة العثمانية ومعها الحركة العثمانية ليقوم مقامها بعد نهاية الحرب قومية تركية.

ولما دخلت تركية الحرب العالمية الأولى الى جانب الألمان (تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٩١٤) جاء جمال باشا قائدا أعلى للجيش (التركي) الرابع وحاكماً عسكرياً لبلاد الشام. فاحتل لبنان وألغى المتصرفية وأقام حكماً عسكرياً عنيفاً في المنطقة. وعين علي منيف بك حاكماً للبنان. وفي عاليه أقام جمال باشا مجلسا عرفيا للنظر في القضايا التي تتعلق بأمن البلاد. وقد قضى هذا المجلس بسجن كثيرين من زعماء سورية ولبنان ونفيهم، ثم حكم على شهداء الاستقلال بالاعدام (عيد الشهداء ٦ أيار ـ مايو). على أن آلاف الناس ماتوا من الجوع الذي فرض على بيروت وغيرها من المدن والقرى اللبنانية.

وجاء الحلفاء في خريف ١٩١٨ واحتلوا بلاد الشام. وفي شهر نيسان (ابريل) ١٩٢٠ قرر المجلس الأعلى للحلفاء الذي عقد في سان ريمو بايطالية فرض الانتداب الفرنسي على لبنان (وسورية). وكان أول ثلاثة مفوضين فرنسيين من رجال الجيش. وفي أول أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠ أعلن غورو، المفوض السامي الأول، دولة لبنان الكبير. ووضع للبنان دستور (١٩٢٦) وأصبح له مجلس تشريعي ورئيس جمهورية ومجلس وزراء. لكن كل هذا كان صوريا. فالسلطة كانت بيد المفوض السامي. وكان المستشارون الفرنسيون ـ سواء في ذلك الذين كانوا الى جانب الوزراء أو الذين كانوا إلى جانب القائمقامين ـ هم الذين يحكمون البلاد. وربطت العملة بالفرنك واخضعت جميع الأمور لمصلحة فرنسة يضاف الى هذا أن المفوض السامي كان، عندما يرى أن الحاجة تدعو الى ذلك في نظره، يعلق الدستور ويحكم البلاد حكماً مباشراً.



بشارة الخوري



رياض الصلح

وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩، لمناسبة قيام الحرب العالمية الثانية، أعلن المفوض السامي الأحكام العرفية وعلق الدستور وحل البرلمان وحكم البلاد حكماً مباشراً. ولما سقطت فرنسة في صيف ١٩٤٠، أعلنت الادارة الفرنسية والقيادة العسكرية في المشرق الولاء لحكومة فيشي. لكن الجيش البريطاني دخل لبنان من فلسطين (وكانت ترافقه فرقة من جيش فرنسة الحرة) في صيف ١٩٤١. وأعلن كاترو، نيابة عن ديغول، انتهاء الانتداب على لبنان (٢٦ تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ ١٩٤١). واعترفت بريطانية بذلك. لكن فرنسة جربت فيما بعد أن تتراجع وتستعيد سلطتها. وكانت الانتخابات النيابية قد أجريت في لبنان (خريف ١٩٤٣)، وانتخب الشيخ بشارة الخوري رئيساً للجمهورية وأصبح رياض الصلح رئيساً للوزارة.

وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ ألغى المجلس النيابي اللبناني من الدستور جميع المواد التي تعطي فرنسة سلطة في البلاد، فاعتقل رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة وبعض الوزراء والنواب، وأرسلوا الى قلعة راشيا. لكن



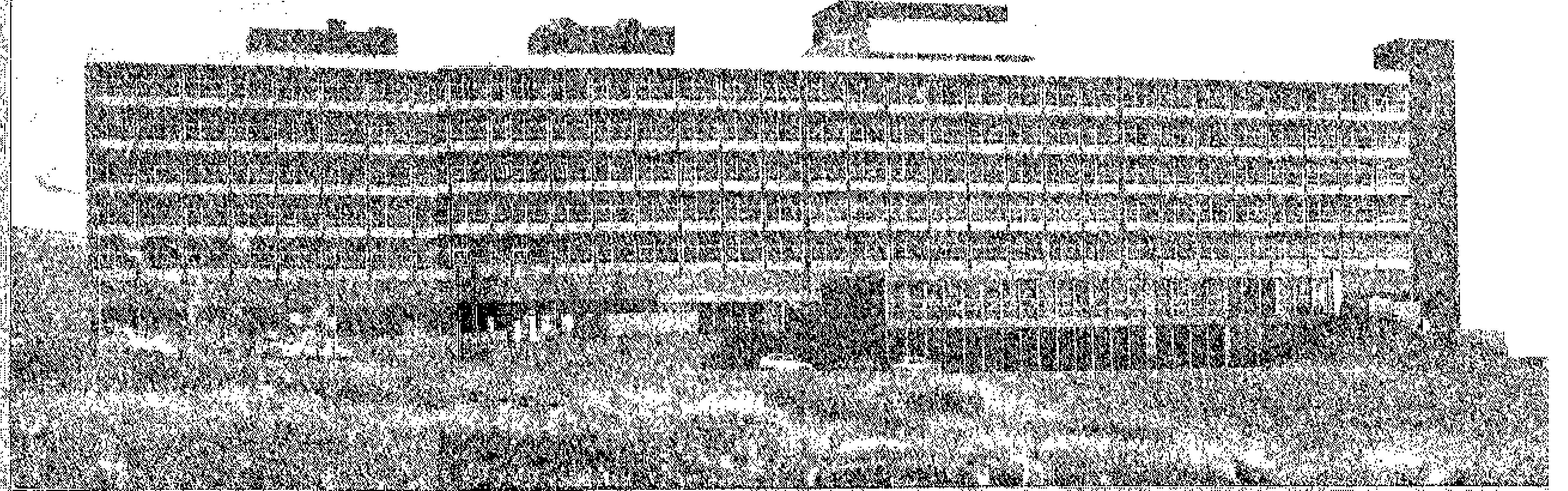
لوحة الجلاء التذكارية

الضغط الوطني والمؤازرة العربية والسعي البريطاني والأميركي أعاد المعتقلين الى مناصبهم في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣. وأصبح لبنان بلداً مستقلاً.

وقد تم جلاء جميع الجيوش الأجنبية عن لبنان في اليوم الأخير من عام ١٩٤٦. ●

الهوامش

(١) راجع فيليب حتي، لبنان في التاريخ (بيروت) ص: ٥٨٠ ــ ٥٨٧.



كلية العلوم ـــ الجامعة اللبنانية في الحدث

الجامعات في لبنان

د. محمد المجذوب

أصيب الفكر العربي، ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادي، بعجز أقعده وحال دون استمراره في مواكبة ركب الحضارة. وبقي مقعداً وعاجزاً حتى بداية القرن التاسع عشر. وكان لحملة نابليون على مصر والشام، التي دامت عدة أعوام، أثر كبير في التغير أو التطور الذي طرأ عليه. ولعل الاحتكاك المباشر الذي تم، خلال هذه الفترة القصيرة من الاحتلال الفرنسي، بين رجال الفكر من العرب ورجال العلم من الفرنسيين، كان من العوامل المباشرة التي ساعدت على صحوة الفكر العربي واستنهاض همته لاستعادة مكانته السابقة.

■ د. محمد المجذوب، استاذ في كلية الحقوق والعلوم السياسية في الجامعة اللبنانية.

وكانت بلادنا، آنذاك، مسرحاً للمنافسة بين القوى الغربية الكبرى، التي كانت تختلف في أمور كثيرة وتتفق على مسألة واحدة: الحيلولة دون عودة الروح والقدرة الابداعية للأمة العربية. وكان التبشير إحدى الوسائل التي لجأت إليها هذه القوى لبلوغ هذا الهدف والتحكم بمقدرات الأقطار العربية. وتاريخ النهضة التعليمية في لبنان وبقية أقطار المشرق العربي، يرتبط، إلى حد كبير، بتاريخ اهتمام الارساليات التبشيرية بهذه المنطقة. ففي عام ١٨٢٠، وصل إلى المشرق مبعوثان من المجلس الأميركي للارساليات بقصد التبشير للمذهب الانجيلي. وعندما علم البابا بالخبر صمم على رد التحدي، فأرسل، في عام ١٨٣١، مجموعة من الآباء اليسوعيين إلى لبنان، أسست معهداً للعلوم الدينية في عين ترين.

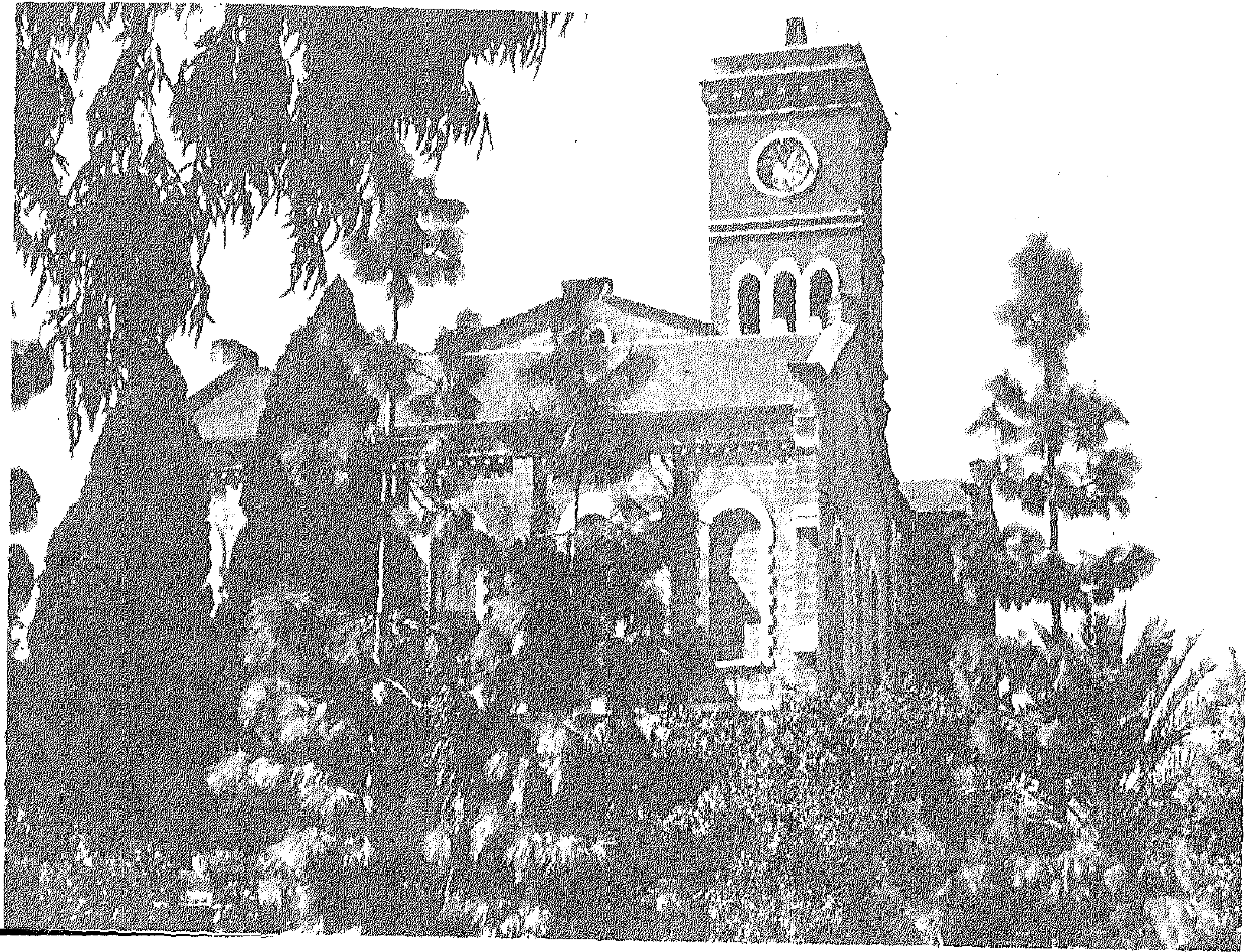
وكانت المدارس التي أنشأتها الارساليات الانجيلية تحرص على تلقين طلابها مبادىء الثورة الأميركية، في حين كانت مدارس الارساليات الكاثوليكية تغرس في نفوس طلابها مبادىء الثورة الفرنسية. وقد أسفرت حركة المنافسة بين الانجيليين واليسوعيين في لبنان عن إنشاء جامعتين: الكلية السورية الانجيلية في عام ١٨٦٦ (وسُميت، ابتداء من عام ١٩٢٠، الجامعة الأميركية)، وجامعة القديس يوسف في عام ١٨٧٥ (وتُعرف بالجامعة الفرنسية أو اليسوعية).

والناحية التي تسترعي الانتباه هي أن اللغة العربية بقيت لغة التدريس في جميع كليات الجامعة الأميركية حتى عام ١٨٨٠ (وحتى عام ١٨٨٢ بالنسبة إلى كلية الطب). وكانت حجة المسؤولين الذين أحلوا الانجليزية محلها تتلخص في الافتقار إلى الكتاب العربي، ورغبة الطلاب في التضلع من هذه اللغة، ووجود طلاب لا يُحسنون العربية. أما التدريس في الجامعة الفرنسية فكان يتم بالفرنسية واللاتينية. واذا كانت الجامعة الأميركية قد اتسمت، منذ إنشائها، بطابع علماني، فإن الجامعة الفرنسية قد اتسمت دائما بطابع لاهوتي يتجلى في تسلم الآباء اليسوعيين لمقاليد الادارة والتدريس فيها. وفي الوقت الذي كانت فيه الجامعة الأميركية تخصص للطلاب غير اللبنانيين نسبة من مقاعدها تتجاوز الثمانين بالمئة، كان الطلاب اللبنانيون يشكلون الغالبية العظمى في معاهد الجامعة الفرنسية.

وكانت فترة الانتداب الفرنسي على لبنان بمثابة العصر الذهبي للجامعة الفرنسية. غير أن ازدهار هذه الجامعة لم يحل دون تقدم الجامعة الأميركية ونموها. وتميز وجود الجامعتين، خلال هذه الفترة، بالأمور المهمة التالية:

أولا ـــ سد فراغ كبير في حقل التعليم الجامعي:

فلم يكن في لبنان إلا هاتان الجامعتان. والغالبية الساحقة من حملة الشهادات الجامعية، في لبنان والأقطار المجاورة، قد تلقّت العلم فيهما. ومعظم الشخصيات البارزة التي تربعت فوق عرش الحكم أو الادارة أو السياسة أو الفكر



الجامعة الأميركية في بيروت

كانت من طلابهما. وكانت كل منهما تضم جميع الفروع العلمية الأساسية تقريبا. إلا أن الجامعة الفرنسية تفردت بتعليم الحقوق.

ثانياً ـ اقتصار التعليم الجامعي على فئة معينة من المواطنين:

فأقساط التعليم فيهما كانت مرتفعة، ولهذا لم يتمكن من الانتساب اليهما إلا أبناء الطبقة الموسرة. والتعليم فيهما لم يكن حرا، بل كان يخضع لوسائل مختلفة من الاختيار والانتقاء. وكان للاقطاعية الرأسمالية والسياسية والزعامات الدينية والعشائرية دور ونفوذ في فرص الدخول إليهما. وكانت غالبية الطلاب فيهما تنتمي إلى طوائف معينة معدودة.

ثالثا ـ الاصرار على التعليم بالفرنسية أو الانجليزية:

واللغتان كانتا امتيازا لطبقة معينة. ومع أن الدستور اللبناني، الصادر في عام ١٩٢٦، قد نص على «أن اللغة العربية هي اللغة الوطنية الرسمية»، فقد أصرّت الجامعتان على التعليم باللغتين الأجنبيتين. ومع أن العربية كانت لغة القضاء والمحاماة والادارة، فان تعليم الحقوق في الجامعة الفرنسية كان (وما زال) يتم بالفرنسية.

رابعا ـ احتكار التعليم الجامعي ووأد كل محاولة لانشاء جامعة وطنية:

فأصحاب النفوذ وأنصارهم في الجامعتين كانوا يقفون بالمرصاد لكل رأي ينادي بوجوب انشاء جامعة وطنية في لبنان. وعلى الرغم من أن أقطارا عربية كانت تخضع للانتداب أو الحماية استطاعت انشاء جامعات وطنية فيها، فقد حرّم على لبنان مجرد التفكير في اقامة مشروع مماثل.

خامسا ـ تجزئة المعرفة وفصل العلم عن القيم الحضارية والقومية:

ولعل هذه الظاهرة هي من النتائج التي تترتب على انشاء الجامعات الأجنبية في الأقطار غير

المستقلة. فهذه الجامعات تؤدي خدمات لا تُنكر في حقل التعليم، ولكنها تسعى إلى إقامة حاجز صفيق بين العلم والقيم. انها تقدم للطلاب علما فقط وتمنع عنهم كل شيء يخرج عن العلم أو المعلومات الجاهزة أو المعلبة. انها تحوّل هؤلاء الطلاب إلى آلات صماء تُتقن وظيفتها ونقل المعلومات التي حفظتها إلى الناس دون أن تشعر برابطة عضوية تشدها الى المجتمع الذي تعيش فيه. إن عملية التفكير والتحليل والتشريح محرّمة على الطلاب. وكل محاولة للخروج من جزئيات الحياة إلى كلياتها ممنوعة. وبما أن الانسان لا يستطيع العيش دون قيم، فالجامعات الأجنبية تحاول، من خلال برامجها التعليمية، أن تبث في الطالب قيم بلادها وثقافتها، فتعزله بذلك عن تراث وطنه وقيمه وحضارته. واذا أضفنا إلى هذا الخلل تنوّع الثقافات الأجنبية، وتنازعها مناطق النفوذ، وتنافسها في استقطاب الأجيال وسلخها من بيئتها، أدركنا مدى الأخطار التي تعرّض لها شبابنا الذين تابعوا دراستهم في هذه الجامعات.

ولم يكد لبنان ينال استقلاله حتى ارتفعت أصوات مخلصة تطالب بانشاء جامعة وطنية واخضاع الجامعتين الأميركية والفرنسية لاشراف الدولة. واصطدم المطلبان بمعارضة شديدة على الصعيد الرسمي. ولكن عزيمة الشباب الذين تظاهروا واعتصموا في وزارة التربية وتعرضوا للقمع استطاعت، في النهاية، انتزاع المطلب الأول، فأنشئت الجامعة اللبنانية في عام ١٩٥٣، واقتصرت، حتى عام ١٩٥٩، على دار المعلمين العليا (التي أصبحت: معهد المعلمين العالي في عام ١٩٥٣، وكلية التربية في عام ١٩٦٧).

ومع أن الجميع يعرفون بأن الجامعة الوطنية في الدولة المستقلة مطلب تحرري وضرورة شعبية، فان الجامعة اللبنانية، خلال الثلاثين سنة من عمرها، قد عرفت، من المسؤولين والقيّمين، أنواعا شتى من الاهمال، مما دفع طلابها، وأحيانا أساتذتها، الى اللجوء إلى إعلان الاضراب والقيام بالمظاهرات والتعرض للاهانات، من أجل تحقيق بعض المطالب البديهية البسيطة (مثل المطالبة بسن قانون للجامعة، أو استحداث فروع علمية، أو المباشرة باقامة المبنى الموحّد للجامعة...).

ومن المؤسف أن نلاحظ أن هذه الجامعة، بعد بلوغها الثلاثين، وبعد إثبات نجاحها في أكثر من ميدان، وبعد حدوث تطورات في العالم تستلزم الأخذ بناصية العلم، ما زالت مقتصرة على الكليات النظرية تقريبا. ويبدو أن أصحاب النفوذ والامتيازات، بضغط أو تحريض خارجي، هم الذين يتصدون لكل محاولة خيرة تستهدف تطوير الجامعة وتزويدها بالفروع العلمية التطبيقية. ومع ذلك فان انشاء هذه الجامعة قد شكل حدثا تاريخيا في حياتنا الثقافية.

وفي عام ١٩٦١، انشئت جامعة بيروت العربية، كفرع لجامعة الاسكندرية، وضمت كليات الحقوق والآداب والتجارة والهندسة. والتقت مع الجامعة اللبنانية في أمرين مهمين كان لهما أثر كبير في التيار الداعي إلى ديموقراطية التعليم الجامعي:

الأمر الأول هو التعليم بالعربية: فليس من الوطنية والمنطق في شيء الاعتماد على اللغات الأجنبية في التدريس الجامعي، وخصوصا في تدريس العلوم الانسانية. إن استخدام العربية في التعليم الجامعي وسيلة فعّالة لربط الجامعة بالمجتمع ورفع المستوى العلمي والثقافي للأجيال والحفاظ على اللحمة بين التفكير والتعبير. وكل دعوة إلى بناء مجتمع متماسك ونشر ثقافة وطنية تبقى ضعيفة ما لم ترتكز على اللغة القومية. وكل تقصير أو اهمال في هذا المجال يؤدي إلى ابقاء المجتمع تحت رحمة السيطرة أو المخططات الأجنبية. وفي تقرير أعدّه خبراء منظمة اليونسكو، في عام ١٩٥١، عن قضية استخدام اللغات الوطنية في التعليم، وردت توصية باعتماد اللغة الأم في التعليم حتى أعلى مرحلة ممكنة، لأن الطالب يستوعب بسهولة ما يُكتب بلغته ويجد مشقة في فهم ما يُكتب بلغة أجنبية. ولهذا كان التعليم باللغة القومية أكثر إبداعا ومردودا منه باللغات الأجنبية. وهناك بعض الباحثين الذين يرون أن المجتمعات المتجانسة لغويا قادرة أكثر من غيرها على تحقيق التطور في كل مجال وتوفير قدر كبير من الهدوء والاستقرار لأبنائها. ولكن مستوى كل لغة يرتبط ارتباطا وثيقا بالمستوى



جامعة بيروت العربية

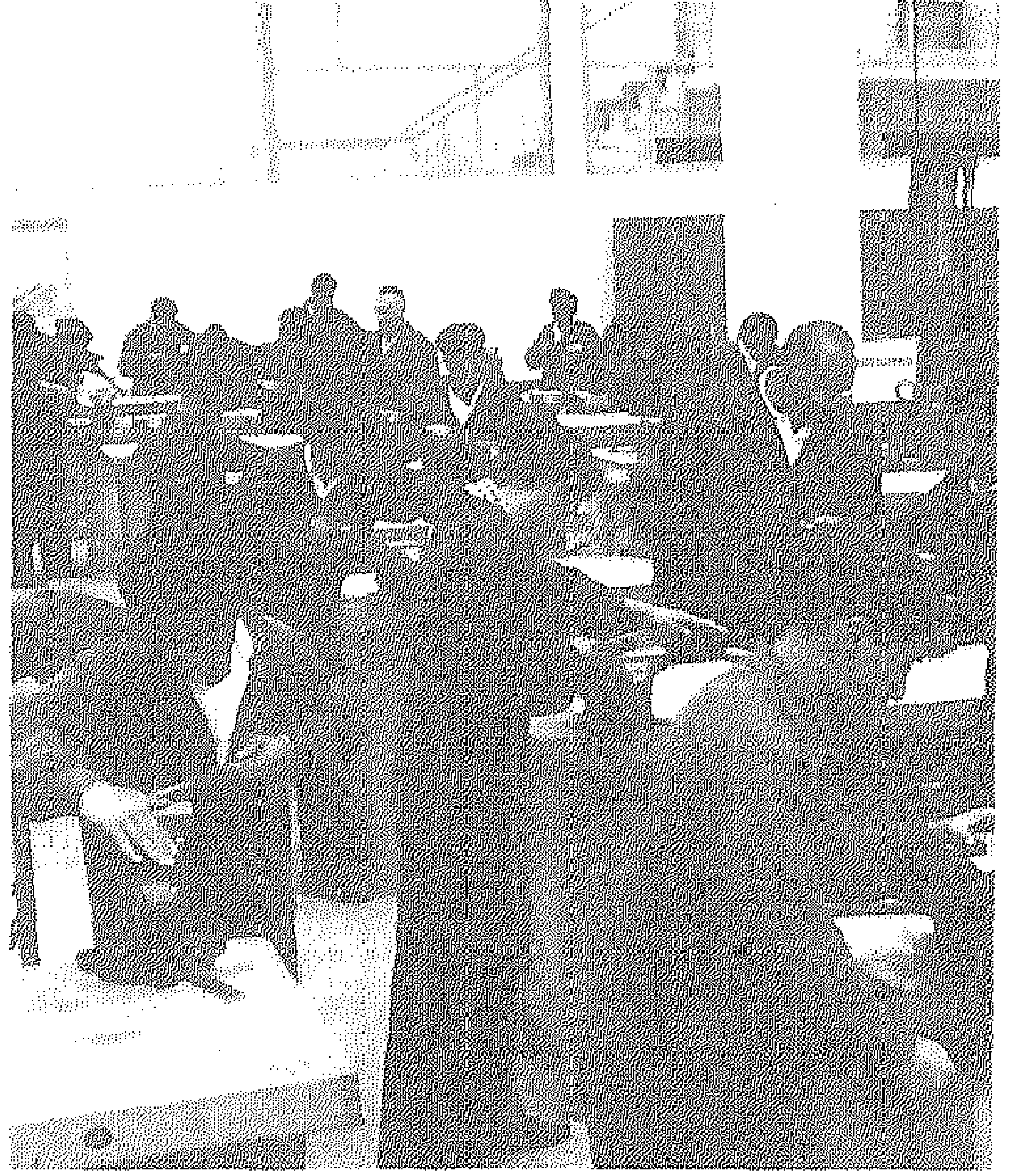
الحضاري للامة. ولهذا، فان لغتنا لن تتطور وتصبح لغة العلم الحديث الا اذا تقدمنا حضاريا وارتفعنا بمستوى جامعاتنا العلمي.

والأمر الثاني الذي تتميز به الجامعتان اللبنانية والعربية هو **جعل التعليم الجامعي ديموقراطيا وفي متناول أبناء الطبقات الشعبية**، ففي كل سنة ينتسب إلى الجامعتين عدد من الطلاب، اللبنانيين والعرب، يفوق بعشرات المرات عدد الطلاب المسجلين في الجامعتين الأميركية والفرنسية. ومن النتائج الحسنة التي تمخض عنها انشاء الجامعتين وفتح الأبواب الجامعية أمام كل راغب في العلم، ازدياد عدد المتخرجين من الطبقتين الفقيرة والمتوسطة، ووصولهم الى مناصب ومهن كانت حكرا لغيرهم، وحدوث تغير ملموس في موازين القوى الاجتماعية والتيارات السياسية والاتجاهات العقائدية في لبنان.

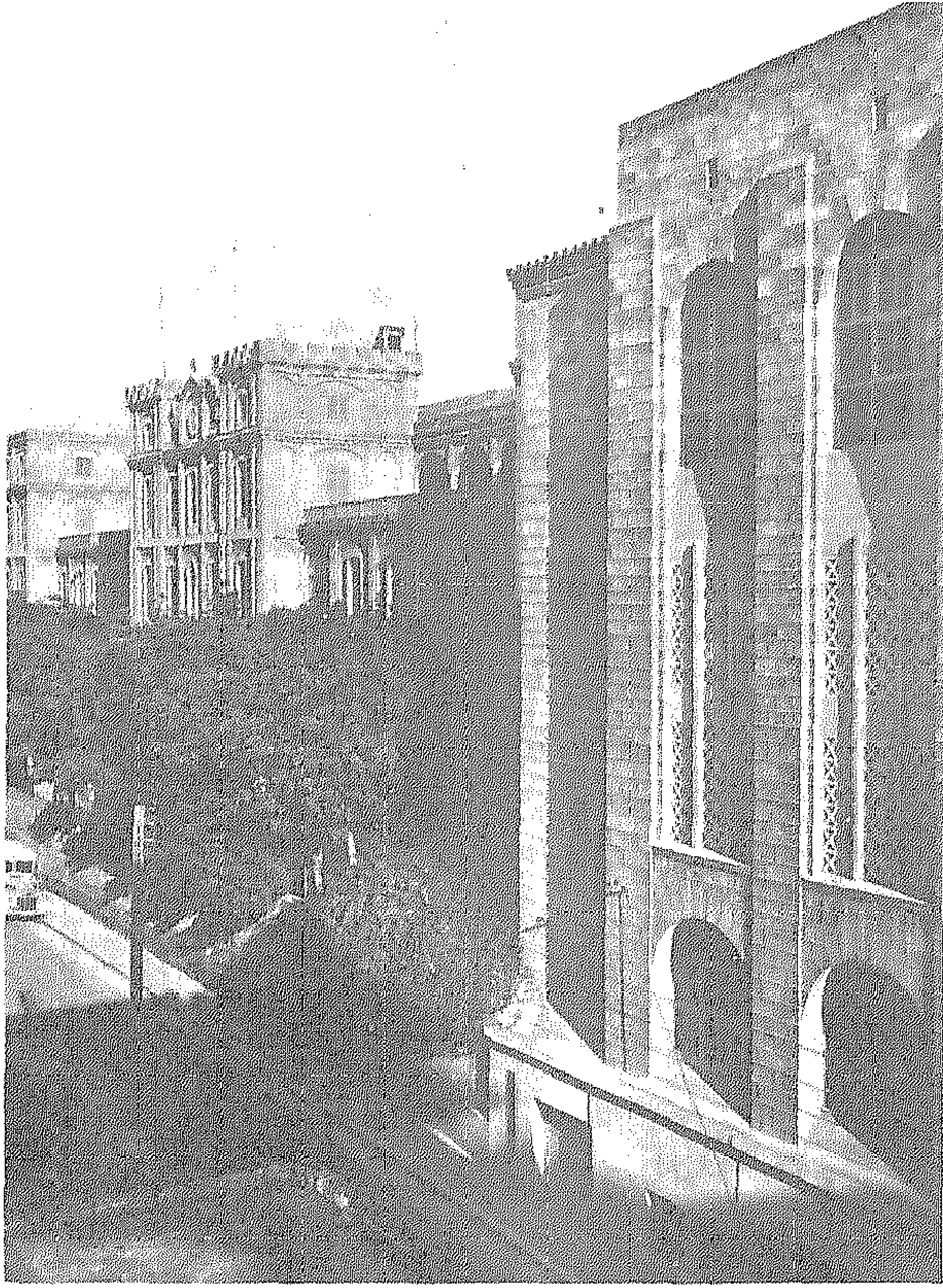
بالاضافة الى الجامعات الأربع الكبرى، فهناك جامعات ومعاهد جامعية أخرى نشأت في أوقات وظروف متفاوتة لتحقيق مقاصد وأغراض متباينة. ومن أهمها وأشهرها: كلية بيروت الجامعية، والأكاديمية اللبنانية، وكلية الحقوق في معهد الحكمة، وجامعة الكسليك...

ولكن الحكمة ليست في عدد الجامعات، بل في نوعيتها وفي الدور الذي تقوم به في المجتمع. فما هي، بأقصر بيان، وظيفة الجامعة؟ بامكاننا اجمالها بثلاث مهمات: التعليم، والبحث عن الحقيقة لانماء المعرفة، وتلبية حاجات المجتمع وتزويده بالعناصر البشرية المثقفة والمدربة التي يحتاج اليها.

فالجامعة ترتبط ارتباطا عضويا بالمجتمع، ولا وجود لها إلا بالمجتمع. والجامعة تتفاعل باستمرار مع مجتمعها: تتكيف به وتكيفه، تستمد منه خصائص وتمده بخصائص. والجامعة الحق، كما قال الدكتور قسطنطين زريق، هي التي تكون، أو تطمح إلى أن تكون، حرم العقل والضمير، تقف جهودها على تهذيب العقل وتنمية



المدرسة المهنية في الدكوانة



جامعة القديس يوسف
(اليسوعية) في بيروت

وبعث قدرته على الانتاج والابداع، وتسعى إلى تحصينه بمناعة خلقية وفضائل أدبية.

ومن أهم واجبات الجامعات في مجتمعنا العمل ضمن استراتيجية فعالة على التحديث الكلي للقيم والبنيات عندنا، أي العمل على استبدال قيمنا التقليدية المبتذلة بقيم حديثة تتلاءم وروح العصر. وهذه الاستراتيجية تقضي بنشر العقلية العلمية أو التفكير العلمي للاسهام في نقل مجتمعنا المتخلف من مرحلة الميثولوجيا الرومانطيقية إلى مرحلة الموضوعية العلمية والانتظام الفكري والابداع العقلي.

ان ولاء الجامعة للقيم الخلقية يدفعها إلى التحليق فوق مجتمعها للنظر اليه من عل، والتعرف الى نصيبه من الحقيقة التي يؤمن بها والقيم التي يعمل لها، وتنبيه الرأي العام الى الأخطاء والأخطار، وفضح الحكام اذا ما انحرفوا عن جادة الصواب واستهتروا بآمال الشعب وفرّطوا في مقدراته.

في عام ١٩٦٧، ألقى الأستاذ ك. اونوكا ديكيه (من جامعة أبدان في نيجيريا) محاضرة في الجامعة الأميركية، قال فيها: «ان الجامعات في الأقطار النامية تميل، وهي في غمار اهتمامها بالضرورات المادية، الى الأغضاء عن دورها باعتبارها ضمير الأمة، والناقد الجسور للسلطات القائمة، والمدافع عن الحق والعدالة. ففي المجتمعات النامية، حيث تكاد تنعدم ضوابط الرأي العام المستنير، وحيث يسود الجهل والفقر والمرض الكثرة الغالبة من الشعب، ويتدنى المستوى الخلقي، الفردي والعام، يقع على كاهل الجامعة دور عظيم في تنمية القدرات الخلقية والروحية...».

ان الجامعة التي كانت بالأمس القريب طليعة الثورة القومية التحررية يجب أن تصبح اليوم، في بلادنا النامية، طليعة الثورة العلمانية الاجتماعية القادرة على صنع أبطال التغيير ومواكبة الثورة العلمية التكنولوجية. ●

بيروت

ذكريات... وواقع

مقدمة: غسان تويني

تصوير: جبران تويني

بيروت عاصمة الصحراء ونقيضها، عروس البحر المتوسط، مدينة الحجارة الصلبة والتواريخ المتراكمة وملتقى الثقافات تطل في كتاب حمل عنوان «بيروت ذكريات... وواقع». تسعون صفحة حجم «ألبوم» هي عبارة عن صور تشهد للماضي في حركته الوادعة، وتؤرخ لانبعاث الحياة وألق الذكرى كإرث حضاري، وقلق الحاضر الحاضن هموم اللبنانيين ولبنان. الصور بعدسة جبران تويني وللكتاب مقدمة بقلم غسان تويني.

كتاب يحكي عن الشيء ونقيضه أو هو الشيء فيه يحكي ويحكي نقيضه. صورة تشهد ضد الأخرى، صورة تلغي الأخرى. صورة الإله الذي يبني ويرعى وصورة الآلهة التي ترقص على أوتار الرمل وآلات الدمار.

صور تواريخ وحالات ومراحل لذلك فالكتاب رواية ذكية لا تثرثر ولا تقول إلا الموحي والمعبر إنها تسجل أو تلتقط صوراً لمعابد المدينة وكاتدرائياتها ومساجدها وأبنيتها ومؤسساتها التي ترمز وتدل على حالة الحاضر المثقل والمطبوع بالألم، وحالة التطلع الذي يمتد بين ذاكرة الماضي المشحونة والمتحركة والنابضة بالحياة والتطور، وبين مستقبل كامن في روح الناس والأشياء.

صور تستبيح حرمة الذاكرة وحميميتها فتظهر ساحة الشهداء حيث نبت العشب البري تحت الزفت وعلى جدران أبنيتها المتهالكة والتي دمرتها الحرب.

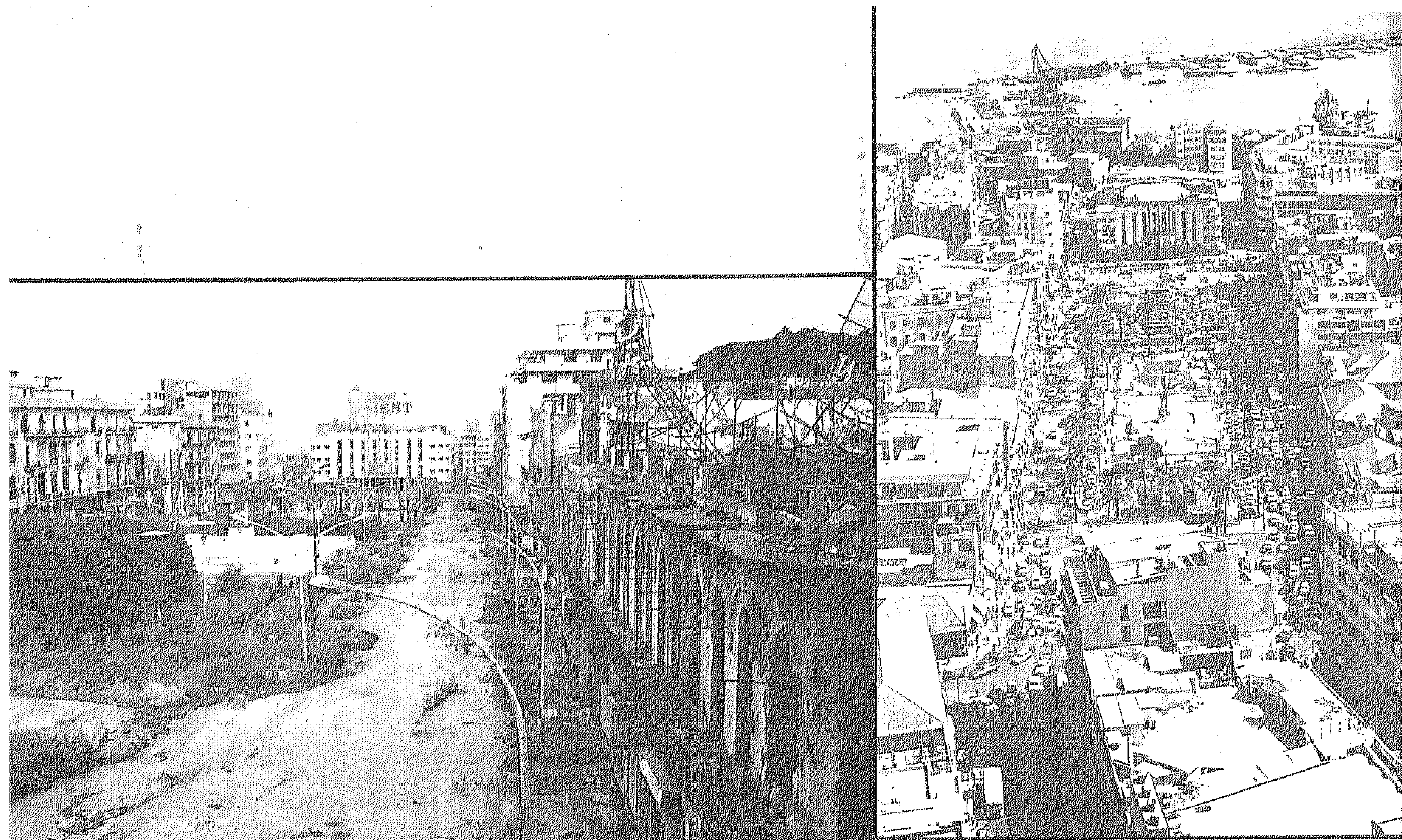
بيروت «ذكريات... وواقع» أمام الشرق والغرب كانت دائماً تتجاوز الحدود وتخترقها فكل شيء فيها «أصبح أداة اتصال وتواصل للحوار والتبادل» كما يقول غسان تويني في مقدمة الكتاب «إنها الجسر بين القارات، هذا الجسر الجغرافي أصبح نقطة تلاقي الأجيال التي تنازعت العالم والأبدية».

كلام يختصر المراحل وسلسلة التواريخ الطويلة. يحدد الدور كثابت، ويكثفه كمفهوم تاريخي، رائيا اليه من خلال قسوة التجربة والخلاصات التي قدمتها.

بين الصورة العينية التي خبأت عيناً هاجسة وحساسة، والكلمة المختصرة لمعاني التاريخ ودلالاته وخلاصاته، تستقيم أطراف المعادلة. يستمر الرمز في التواصل والوجود تستمر بيروت... أو رمز لبنان.

هـ. ق

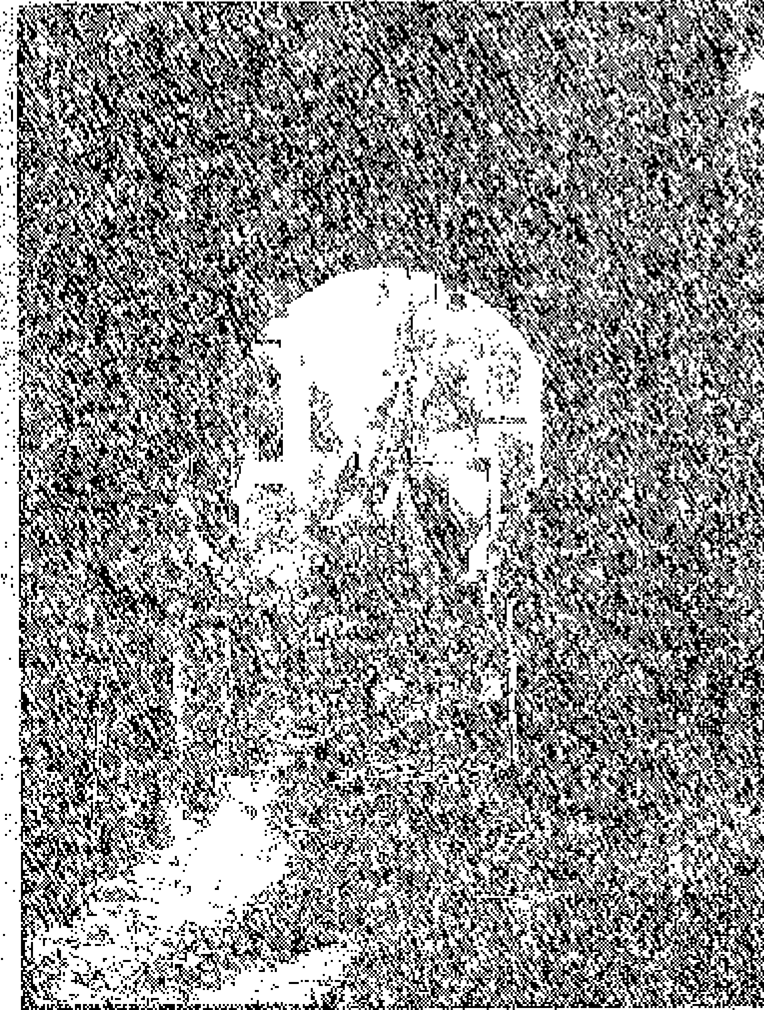
□ بيروت «ذكريات... وواقع» صادر عن دار «هاشيت» الفرنسية و«النهار العربي والدولي».



ساحة الشهداء في الخمسينات

ساحة الشهداء في الثمانينات

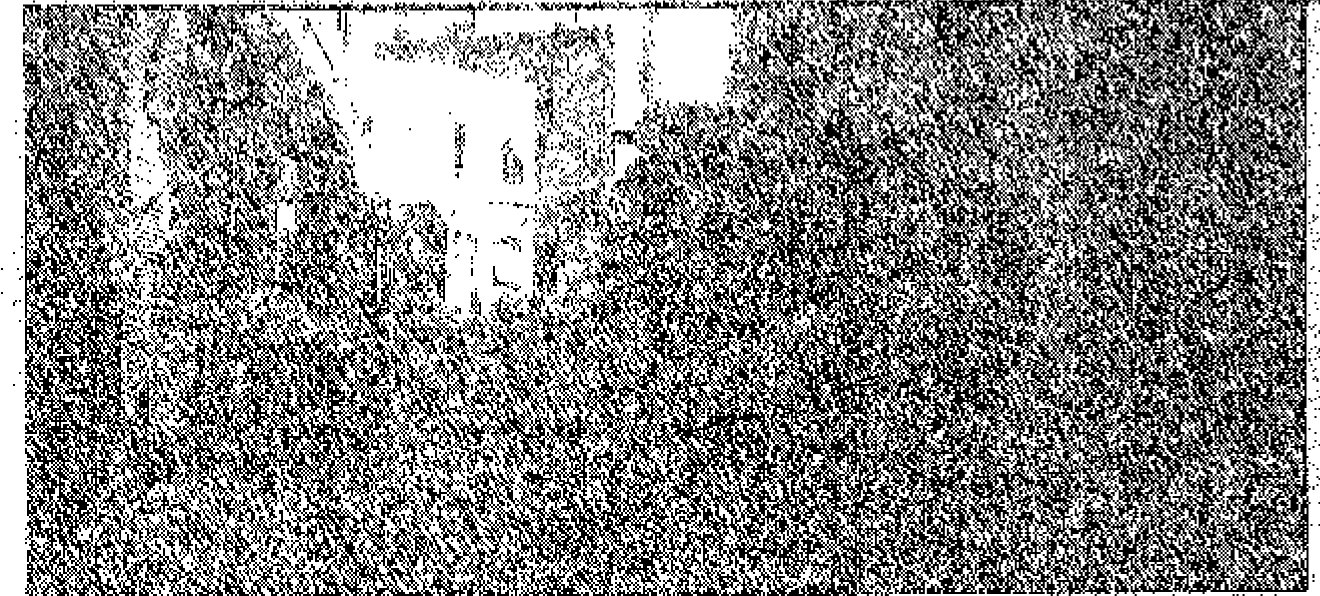
سوق الصاغة... كما كان



سوق الصاغة... اليوم

الأسواق التجارية... في الماضي





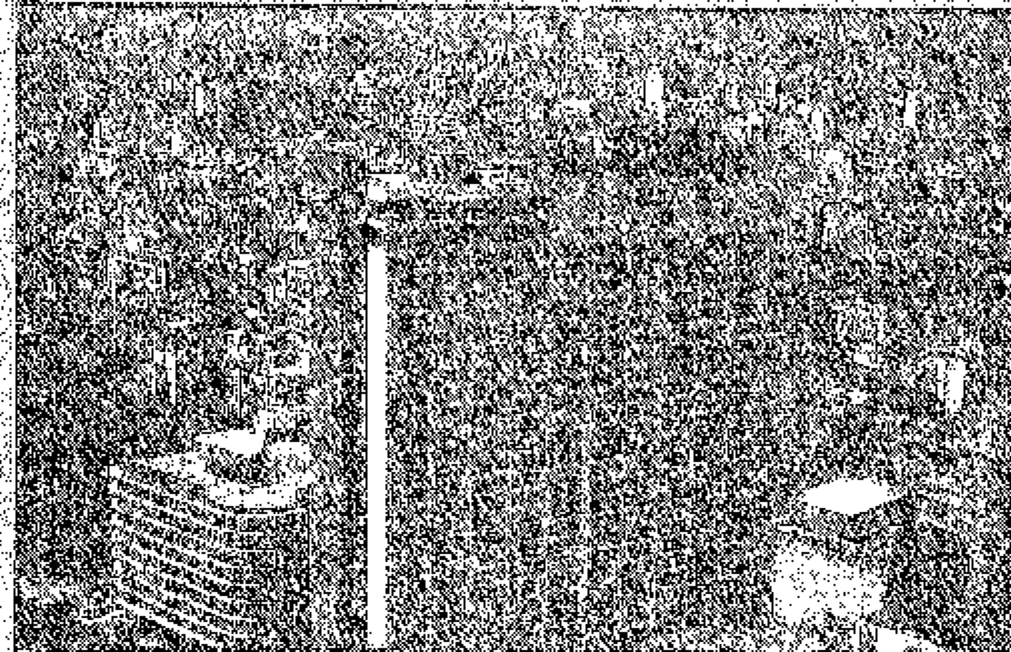
الأسواق التجارية... أطلال

باب ادريس... بعد الحرب





باب ادريس... أيام العز



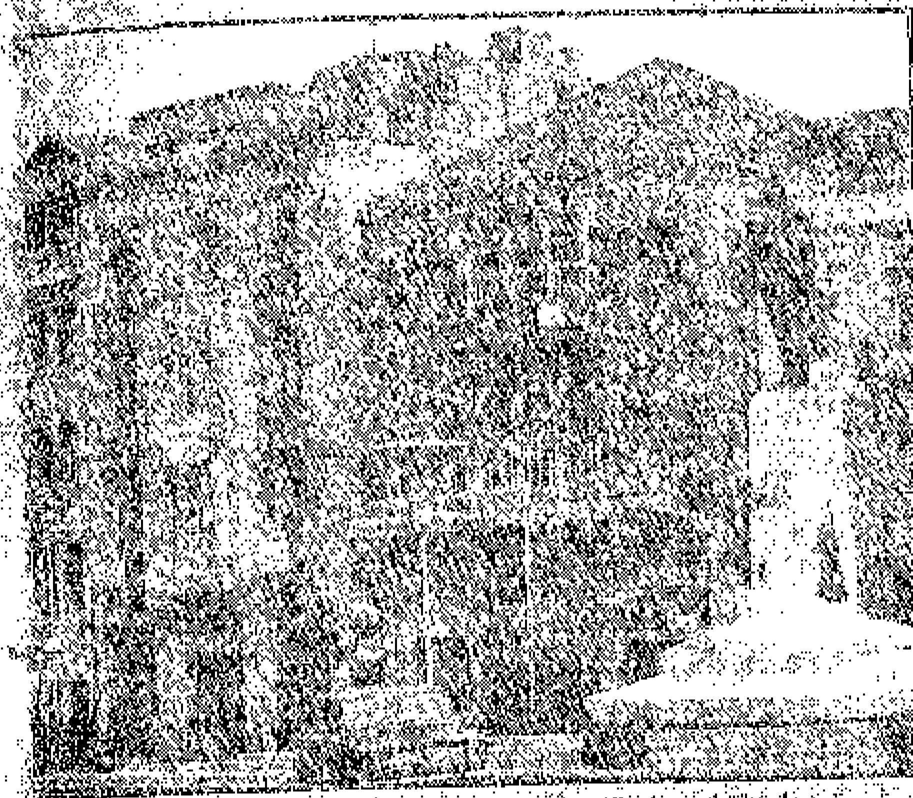
منطقة الفنادق...
فندق «هوليدي ان»



فندق «هوليدي ان»
أثناء احتراقه

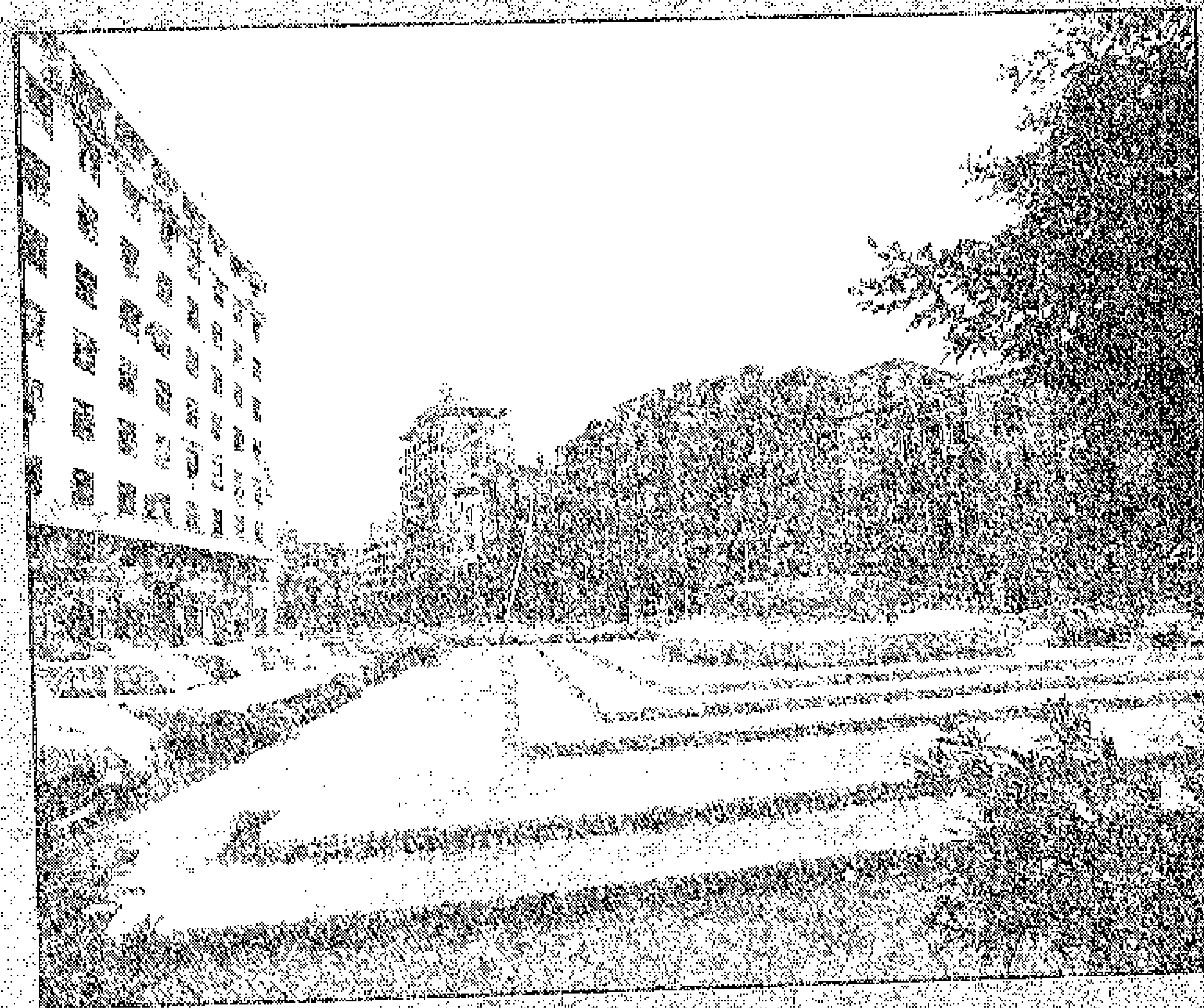
ساحة النجمة... في الثلاثينات





ثم تحولت إلى ساحة رياض الصلح...

واليوم..



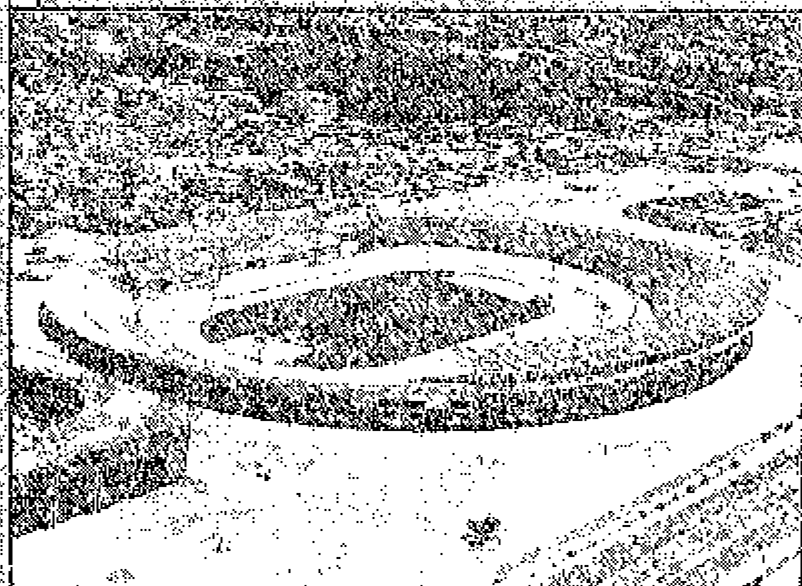


شارع المتنبي... أيام زمان

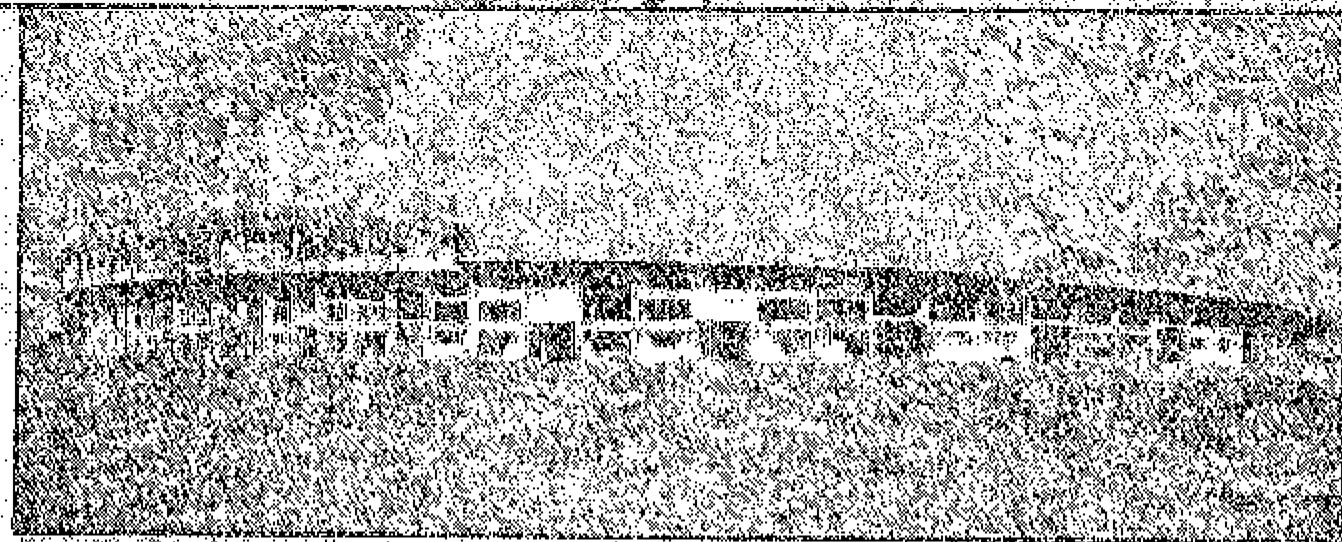


واليوم..

المدينة الرياضية... في الخمسينات



المدينة الرياضية... بعد أن تدمرت..



تضامن المجتمع اللبناني

العوامل والعناصر التي ساعدت في تمتين أسباب التضامن والانسجام بين اللبنانيين

د. باسم الجسر

بعد خمسين سنة ونيف، من الحياة الوطنية والسياسية والاقتصادية المشتركة، ضمن كيان جغرافي واحد وفي ظل سلطة مركزية واحدة، هل يمكننا أن نقول بأن هنالك «أمة» أو «شعباً» أو «إنساناً» أو «مجتمعاً لبنانياً»؟

بعض علماء الاجتماع يقولون: أن لبنان هو «فسيفساء» مجتمعات أكثر منه مجتمعاً تعددياً[1]. البعض الآخر يقول «أن هنالك شخصية لبنانية متميزة وشعباً مؤهلاً للاستمرار والاستقلال والحرية بسبب جغرافيته وتصرفه الشخصي والاجتماعي والديني، كذلك بسبب عاداته وتقاليده وأمانيه الأرضية والماورائية[2].

هذان الحكمان شبه المتناقضين، لهما مايبررهما. فلو لم يكن هنالك حد أدنى من العوامل والعناصر النفسانية ـ الاجتماعية المشتركة لما استطاعت الطوائف والمناطق والفئات اللبنانية من أن تتعايش وتتعاون وتحيا وتزدهر معاً طيلة نصف قرن.

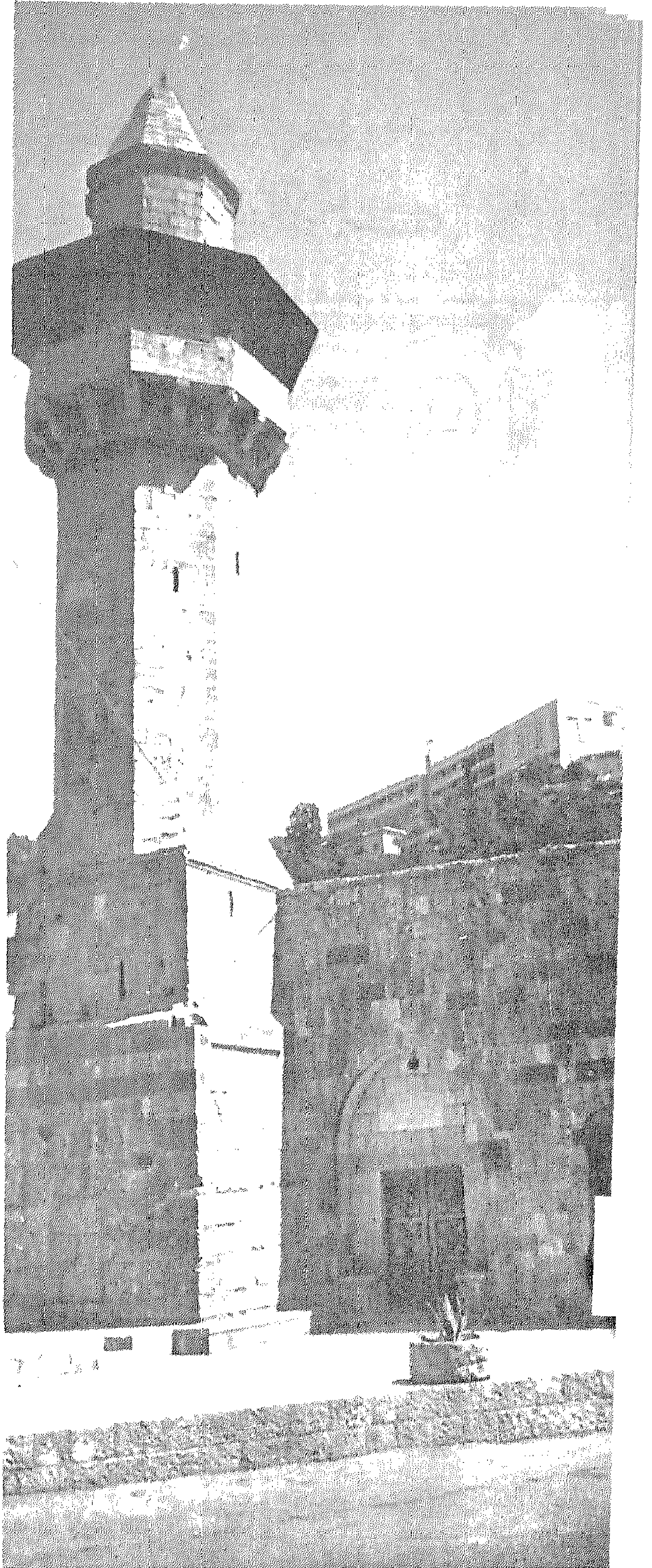
ولكن في الوقت نفسه، لو أن أسباب التضامن النفسانية الاجتماعية كانت حقيقية وعميقة الجذور، لما حصل ماحصل عام ١٩٥٨ ولما انهار كل شيء عام ١٩٧٥.

قبل أن نبحث في مسألية المصير اللبناني فلنحاول أن نظهر العوامل والعناصر النفسانية الاجتماعية المشتركة التي أنمت التضامن بين اللبنانيين منذ عام ١٩٢٠.

(أ) التدين والتعلق بالدين: (La Religiosité)

أياً كان معتقده الديني أو طائفته أو مذهبه ـ فان اللبناني ككل كائن سامي الأصل ظاهر التعلق بالدين. يجب التفريق، بالطبع بين «الايمان الديني» و«شعور الانتماء الطائفي». فالأول ظاهرة نفسانية والثاني ظاهرة اجتماعية كذلك يجب التفريق بين «الايمان» و«الممارسة الدينية» أو «التدين»[3] ولكن بصرف النظر عن هذه الفروقات فان اللبناني بوجه عام «يعيش ديانته أكثر من الشعوب الغربية التي يحاول تقليدها وبطريقة تختلف عن الشعوب العربية التي يشاطرها المصير الجيو ـ سياسي». هذا التعلق بالدين، أو هذا التدين الظاهر بل هذا التطلع لله يظهر عند اللبنانيين في احترامهم للمؤسسات الدينية؟ تلك التي تخص الطائفة التي ينتمي اليها أو تلك التي تخص الطوائف الأخرى. كما يظهر في روح التسامح التي تعلمها كل الأديان، وفي احترام الأهل والعائلة وفي قيم اجتماعية وأخلاقية مشتركة بين كل الأديان التي يدين بها اللبنانيون[4] فالدستور اللبناني يكاد يكون الوحيد بين الدساتير الذي

■ د. باسم الجسر، دكتور في الحقوق من جامعة باريس والسوربون. محام في الاستئناف في بيروت. استاذ القانون الدستوري وقانون الاعلام في كليتي الاعلام وإدارة الأعمال في الجامعة اللبنانية (١٩٧٠ ـ ١٩٧٤). مستشار في جامعة الدول العربية.



جامع دير القمر

ينص على «تأدية فروض الاجلال لله تعالى»[٥].

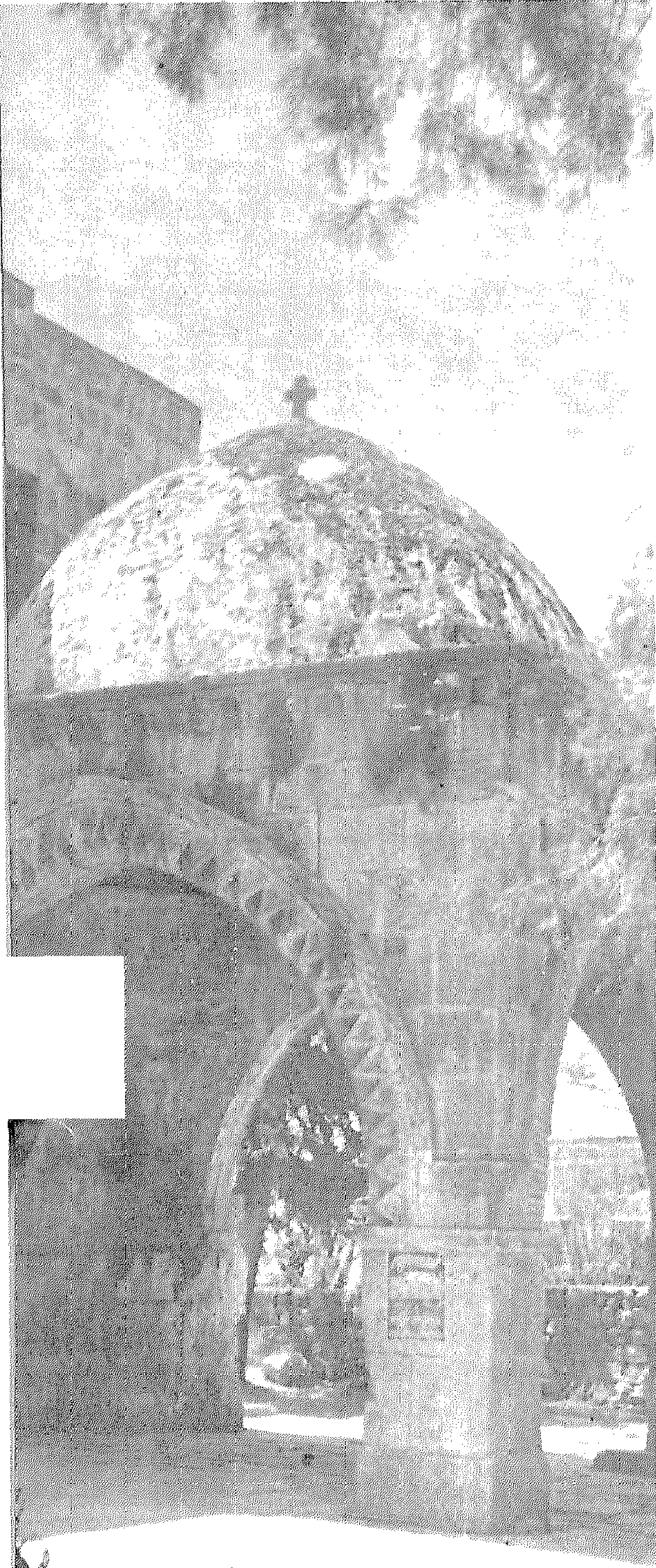
لسوء الحظ، شوهت الطائفية السياسية عند اللبنانيين التعبير عن شعور التدين فبعض الكوادر الدينية المسلمة والمسيحية، حولت التفكير الديني أحياناً الى تفكير جامد ومنتخلف[٦] ولكن هذا التشويه لم يعطل ما في هذا التدين من ايجابية بالنسبة للاندماج بين اللبنانيين.

اننا نخالف رأي المرحوم الدكتور كمال الحاج[٧] الذي كان يرى في الطائفية السياسية القاعدة الأساسية للوجود اللبناني ونشاطر رأي الفيلسوف الشخصاني رينه حبشي[٨] الذي رأى في ظاهرة «التدين» موقفاً جماعياً ايجابياً نظراً لما يبرزه من شخصية المجتمع ــ على اعتبار «أن التقاليد والتراث الثقافي والبوادر النفسانية والروحية تتجدد عندما تنهل من نبع ديني وتؤدي الى رسم معالم وجه الشعب».

ان ظاهرة التدين التي يطلق عليها رينه حبشي اسم « الطائفية المقربة» تتيح لقاء الآخرين وقبول خصائصهم[٩].

يجب بالطبع التفريق بين «العلمانية» أو «فصل الدين عن الدولة» وبين الألحاد. فتبني العلمانية وملاءمتها مع متطلبات التطور الاجتماعي والسياسي في لبنان، يشكل، ولا ريب، الحل الأفضل للنزاعات الطائفية. ولكن هذا لا يحول، من الناحية النظرية والعلمية، دون القول بأن التدين أو الايمان الحقيقي يمكن أن يشكلا عاملاً للاندماج. ولسنا بحاجة إلى أن ننتظر القرن العشرين لنتحقق من صحة ذلك. فالمسيحيون والمسلمون «اللبنانيون» عاشوا، قروناً، في سلام عندما كان، على رأسهم، حكام أو رجال دين، يعيشون حقاً ايمانهم ويمارسون القيم التي تعلمها تلك الأديان.

في الواقع ليس التدين، بحد ذاته، هو العامل الايجابي في عملية الاندماج بين اللبنانيين بمقدار ما هي القيم الأخلاقية والتقاليد التي تنبثق من الأديان، والتي هي مشتركة بين اللبنانيين، بصرف النظر عن انتمائهم الديني.



كنيسة سان جون في جبيل

(ب) الأخلاق والتقاليد والعادات المشتركة:

بالرغم من أن اللبنانيين يتحدرون من أثنيات (Ethnies) مختلفة ينتمون إلى أديان ومذاهب عديدة (١٧ طائفة معترف بها رسمياً)، وبالرغم من تنوع طبيعة الأرض اللبنانية (جبال، سهول، شواطيء) وتعدد الطبقات والفئات والمهن الاجتماعية (فلاحون، تجار، حرفيون، عمال، ملاكون صغار الخ...) فان للبنانيين أخلاقاً وعادات وتقاليد متشابهة ان لم نقل واحدة. وأنه لمن الصعب أن نسلم، مع بعض الكتاب الذين يتذرعون بنظريات عقائدية أو عرقية أو اجتماعية أو لغوية أو سياسية معينة، بأن هنالك «شخصية لبنانية» تختلف كلياً عن الشخصية السورية أوالعربية أو بأن هناك «شعباً لبنانياً مميزاً» أو «أمة لبنانية تامة» ولكنه من غير الجائز أيضاً أن ننكر ما كان لخمسين سنة من الحياة السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية المشتركة، من أثر تكوين طريقة مشتركة للعيش وعقلية وتصرف مشترك يميز اللبنانيين هذه المجموعة من ردود الفعل والتصرفات والمواقف الواحدة، أياً كانت أسبابها المباشرة أو العميقة، أوجدت بين اللبنانيين أسباب تضامن ملموسة.

هذا لا يعني أن التصرفات المتشابهة والعادات والتقاليد الواحدة أو المتضاربة قد ألغت الخصائص والنزاعات. ولكنها، ولا ريب، خلقت نوعاً من التقارب الحقيقي والأكيد، بين اللبنانيين يظهر بشكل واضح عندما يلتقي اللبنانيون خارج وطنهم.

ان حب الحرية وروح المغامرة والفردية وسرعة اكتساب اللغات الأجنبية والعقلية التجارية والرغبة في الكسب السريع والعفوية والتعلق بالعائلة وبالمنزل والحديث عن الأمور الجنسية وعن الأسرار والغرائب، هي صفات مشتركة بين كل اللبنانيين سواء كانوا من أبناء المدن أو جبليين، مسيحيين أم مسلمين، أغنياء أم فلاحين أم عمالاً(١٠). كذلك حب الضيافة

والرغبة في الظهور والاعجاب وحماية شرف العائلة وتبادل زيارات المجاملة و«الواجبات» والافتخار بالآباء والأجداد والأقرباء المشهورين هي أيضاً من خصائص معظم اللبنانيين.

هذه الخصائص والعيوب المشتركة لا يرجع عهدها بالطبع الى عام ١٩٢٠ وعلماء النفس والاجتماع يبررونها بأسباب لا علاقة للاطار السياسي والوطني بها. ولكن من المؤكد أن هذه الخصائص والصفات قد ازدادت نمواً منذ ما أصبحت المناطق والأهالي والطوائف المختلفة تؤلف مجتمعاً وطنياً واحداً تابعاً لكيان سياسي واحد مما اضطرهم الى مزيد من الالتقاء والتعاون والمشاركة في تقرير مصير واحد.

أنه بالرغم من استمرار الفروقات التي تشكل مصدراً للنزاعات، فالحياة المشتركة بين اللبنانيين استطاعت أن تنمي أسباباً تضامنية نفسانية واجتماعية ملموسة من شأنها تعزيز عملية الاندماج الاجتماعي الحقيقي وأهم مظاهر هذا التوحيد في العادات والتقاليد والأذواق هي التالية:

١ ـ الطعام وآداب المائدة:

ان المطبخ اللبناني هو مطبخ شرقي بالرغم مما أدخل اليه من أصناف أوروبية وأميركية أوجبتها ضرورة ارضاء السياح والأجانب أو فرضها تطور الحياة في المدينة (المأكولات الأميركية الجاهزة والسندويشات). فهو امتداد لما يمكن تسميته بالمطبخ العثماني العربي. ومعظم الأصناف اللبنانية تطبخ في سوريا والأردن وحتى في معظم الدول العربية ولكن نزوح مسيحيي الجبل نحو المدن في الشتاء وصعود مسلمي المدن الى الجبال لتمضية أشهر الصيف، ما لبثا أن مزجا المطبخين وآداب المائدة بين الطائفتين.

ثمة ظاهرة أخرى وهي أن الأجيال الجديدة ولا سيما هؤلاء الذين لا يزالون على مقاعد الدراسة، أصبح لهم عادات غذائية واحدة بصرف النظر عن انتمائها الطائفي أو الطبقي (كارتياد محلات السندويش والمأكولات الجاهزة المعلبة).



٢ ــ الغناء والموسيقى والفنون:



ظل الفن والموسيقى والغناء «مطيفين» في لبنان لمدة غير قصيرة بعد قيام كيانه الحديث واستقلاله. ذلك أن انفتاح المسيحيين، بوجه عام على الثقافة الأوروبية سبق انفتاح المسلمين عليها. كما أن تأثرهم بها، لأسباب واضحة ومعروفة، شجعت عليه الارسليات الثقافية الدينية منذ القرن التاسع عشر وعززته فترة الانتداب الفرنسي، كان أكثر من تأثر المسلمين الذين تمسكوا بثقافتهم الشرقية والعربية لأسباب طبيعية وكردة فعل وطنية ضد الاستعمار السياسي الأوروبي المحتجب وراء تلك الثقافية.

وهكذا فان هذا البلد الصغير شهد خلال الخمسين سنة الأولى من حياته نوعاً من التضاد الفني. فبينما كنا نرى الأوساط المسيحية تقبل على الموسيقى الأوروبية والغناء الأوروبي كانت الأوساط الإسلامية تردد الأغاني والموسيقى العربية وبنوع خاص المصرية.

الا أنه مع تطور المجتمع اللبناني وتوسع الطبقة الوسطى والبورجوازية الوطنية حصل تحولان هامان على الصعيد النفساني والاجتماعي. فالبورجوازية المسيحية مالبثت أن تحررت من عقدة الذوق الأوروبي كما تحررت البورجوازية الإسلامية من ردة الفعل الرافضة لكل ما هو غربي.

ولقد تعدت هذه العودة الى الأصالة، مع الاستفادة من التقنية الغربية، الى كل أنواع الفنون: فالعمارة اللبنانية أخذت تحاول المزج بين مايقتضيه تقدم فن البناء في الغرب وبين الستيل اللبناني أو العربي أو المتوسطي. وأخذ الكثيرون من أبناء البورجوازية المسيحية والإسلامية يدخلون الأثاث الشرقي أو العربي الى منازلهم بعد أن خلت منها أثناء الانتداب الفرنسي، ابان تحكم عقدة تقليد الغرب. حتى الملابس الشرقية عادت موضتها (القفطان المزركش والعباءة النسائية والرجالية) بعد أن



فيروز



مهرجانات بعلبك

أدخلت عليها لمسات عصرية. وكان لاختفاء الحجاب عن وجه الفتاة والسيدة المسلمة أثر في التقارب الاجتماعي بين الطوائف. ولا ريب في أن أبناء الجيل الجديد أياً كانت انتماءاتهم الطائفية أو الطبقية أصبحوا يرتدون الملابس العصرية ذاتها ويرتادون المقاهي والأندية ذاتها ويمتزجون امتزاجاً يومياً في أعمالهم وحياتهم ولهوهم.

ولقد ساعد انتشار التعليم الرسمي ونزوح أبناء الريف والمناطق نحو المدن وضواحيها على توسع الطبقة الوسطى مما أدى، مع نمو وسائل الاعلام (التلفزيون ــ السينما ــ الراديو ــ الصحف) الى توحيد الأذواق وأنماط العيش وأسباب اللهو بين اللبنانيين ولا سيما الذين هم دون الثلاثين.

وقد أدى هذا التقارب والتوحيد ــ بصورة لا شعورية ــ الى بروز بعض الظواهر الاندماجية المسترعية للانتباه. كاعطاء المواليد الجدد، مسيحيين كانوا أم مسلمين الأسماء ذاتها وكتعدد حالات الزواج المختلطة وكظهور الشخصية المميزة الى حد ما عن غيرها من الشخصيات العربية.

٣ ــ الأسماء المشتركة:

ان التأثر الثقافي والحضاري بثقافة وحضارة دولة خارجية هو أمر ملموس. فالموارنة تأثروا بالغرب وبفرنسا بنوع خاص ــ والأورثوذكس ما زالوا يحملون بذوراً ثقافية وحنيناً حضارياً لبيزنطيا وروسيا واليونان بالاضافة الى أصالتهم الشرقية والعربية. وبطبيعة الحال تأثروا بتأثر المسلمين اللبنانيين بالحضارة العربية الإسلامية.

ولقد ساعد انتشار الارساليات الدينية المسيحية على ازدياد تأثر المجتمع المسيحي بالغرب ومحاولة تقليده اجتماعياً وثقافياً. فاذا بجيل كامل من أبناء البورجوازية المسيحية لا يقرأون العربية ولا يكتبونها.

ومن بين نتائج هذا التأثر بالغرب أن أخذت العائلات المسيحية تطلق على أبنائها أسماء أجنبية: الفرد ــ اميل ــ ريمون ــ مرغريت ــ كلوفيس ــ لويس الخ.. حتى عندما كان أحد هذه الأسماء، له رديفه في اللغة العربية، كانت التسمية الأجنبية هي التي من قبيل التلطيف أو التودد(١١) أما المسلمون فقد احتفظوا

بالتقليد العربي الذي يقضي باعطاء الأبناء أسماء أجدادهم أو اختيارهم اسماً دينياً(١٢) وهكذا كان من السهل جداً منذ نصف قرن ولا يزال ممكناً حتى اليوم بنسبة كبيرة — التمييز بين المسلم والمسيحي من اسمه، بل بين طائفة وطائفة(١٣).

الا أنه منذ جيلين تقريباً — ظهرت معالم تحول أساسي في هذا المضمار. فظاهرة الحداثة وتداخل الثقافات والمدارس المشتركة مضافة الى التجاوز بين الطوائف، حملت الأهل على اعطاء أولادهم أسماء أقل دلالة على انتمائهم الطائفي — أي أسماء حيادية عربية ومن ثم سهلة اللفظ موسيقية الرنة(١٤).

ان من يراجع سجلات الأحوال الشخصية يلاحظ أن الأسماء الدينية القديمة أخذت تختفي تدريجياً وأن ثلاثين بالمائة من أسماء المواليد بعد عام ١٩٦٥ من بين أبناء العائلات البورجوازية والوسطى الإسلامية والمسيحية، هي ذاتها، أي أسماء قصيرة — عربية — لا مدلول طائفي لها(١٥).

ان هذه الظاهرة الثقافية أياً كانت أسبابها العميقة أو المباشرة — أو مبرراتها الاجتماعية أو السياسية، تدل على أن الأجيال اللبنانية الجديدة، تطمح من وراء هذه التسميات الى تجاوز مظاهر الانقسامات الطائفية أو ربما تجنب مضار النزاعات الطائفية. وربما كان من وراء هذه التسميات رغبة في العودة الى الاصالة العربية ولكن مع ادخال لمسات عصرية وعلمانية. أفلا يدل ذلك أيضاً على تبلور ارادة شعبية تتطلع الى الاندماج الاجتماعي والثقافي على أسس جديد؟

٤ — الزيجات المشتركة بين الطوائف:

في نهاية القرن التاسع عشر كاد خطف فتاة مارونية كسروانية من قبل شاب بيروتي مسلم يؤدي الى فتنة دامية. وقد اضطرت القوات المسلحة العثمانية الى التدخل لاخماد الفتنة واعادة الفتاة المخطوفة الى أهلها(١٦). وفي الثلاثينات أدى زواج بعض الفتيات المسلمات من شباب مسيحيين الى نبذهن من عائلاتهن وأحياناً الى قتلهن حتى الزواج بين الطوائف المسيحية المختلفة كان حدثاً مستغرباً وكثيراً ماكان أحد العريسين يضطر الى تغيير مذهبه ليتم الزواج.

لقد أدت القوانين العديدة التي سنت لرعاية الأحوال الشخصية الطائفية الى خلق عقبات في وجه الاندماج الاجتماعي عن طريق التزاوج بين الطوائف. وحتى الخمسينات لم تكن نسبة الزيجات المشتركة بين المسلمين والمسيحيين تتجاوز النصف بالمائة.

في السنوات الأخيرة، ولا سيما بعد الستينات، أصبحت الزيجات بين أبناء الطوائف المسيحية المختلفة (موارنة — كاثوليك — روم — بروتستنت) أكثر عدداً بل باتت أمراً طبيعياً. كذلك الزيجات المسيحية — الإسلامية أصبحت تلاقي معارضة أضعف من قبل الأهل وباتت مقبولة في الطبقات المتقاربة اجتماعياً ولا سيما البورجوازية الكبرى.

ان قوانين الأحوال الشخصية المتعددة، ولا سيما السلطات الروحية ومحاكمها، مازالت تشكل عقبة في وجه تعدد هذه الزيجات المشتركة. غير أن القانون اللبناني يعترف بالزواج الذي يعقده لبناني ولبنانية في بلد أجنبي بعد تسجيله في احدى القنصليات اللبنانية ومن ثم في سجل الأحوال الشخصية الرسمي. وقد أخذ اللبنانيون واللبنانيات يلجأون الى المخرج القانوني للزواج.

اننا لا نملك احصائيات دقيقة عن الزيجات المشتركة في لبنان، ولكن الأمر الثابت هو أن عدد هذه الزيجات هو في ازدياد وأن العائلات أصبحت أقل رفضاً ان لم نقل أكثر تقبلاً لهذه الزيجات المختلطة. ويرى علماء الاجتماع في هذه الظاهرة تأكيداً لخط اتجاه الأجيال الجديدة الراغبة في تجاوز الجدران الطائفية وفي الاندماج.

٥ — السحنة أو النموذج اللبناني (Physiologie et Type)

الحديث عن الإنسان اللبناني (Homo Libanicus) أو عن عرق لبناني مميز يبعد عن الروح العلمية والموضوعية. فالعلماء متفقون على أن اللبنانيين الحاليين يتحدرون من أجناس

وأعراق متعددة بالرغم من أن الحياة الطائفية عبر القرون حولت الطوائف الى شبه كيانات عرقية ــ اجتماعية منفصلة عن بعضها البعض.

ولقد أدى انقطاع المواصلات السهلة في القرون الماضية بين المناطق الجبلية وبين الجبال والمدن ــ الى انعزال الطوائف عن بعضها البعض بعد أن كانت قد استقرت كل واحدة في منطقتها ونمت فيها ابتداء من القرن الثالث عشر. حتى بعض المهن أصبحت متعاطاة من قبل بعض الطوائف أكثر من غيرها بفضل الوضع الجغرافي من جهة ودرجة انتشار العلم من ثانية، حتى أنه جاز القول بأن الشعب اللبناني مؤلف من «اثنيات» تميزها خصائص ثقافية ودينية ولها جذور تاريخية واجتماعية مختلفة وموزعة بوجه عام توزيعاً جغرافياً خاصاً ومؤلفة محيطات اجتماعية مميزة.

الا أنه بالرغم من كل هذه الفروقات والمميزات ــ لا يمكننا الا ملاحظة وجود «نموذج انساني لبناني».

هذا الإنسان اللبناني يمتاز «بتعبير وجه» خاص، بطريقة اختيار وارتداء ملابسه، بحركات يديه أثناء الحديث، بطريقة قص شعره، بتصرفه أثناء وجوده في مكان عام أو خارج بلاده. فسمرة اللبناني أشد من سمرة أبناء الضفاف الشمالية للبحر المتوسط ولكنها أقل من سمرة أبناء الضفاف الجنوبية. ثم أن ما يميزه، ليس شكل الرأس أو لون البشرة أو خصائص عرقية مختلفة عن خصائص السوري أو الأردني أو الفلسطيني، ولكن تعابير الوجه والحركات والمظهر الخارجي وربما طريقة السير في الطريق والجلوس في الأماكن العامة والمبالغة في الأناقة وسرعة اقتباس الموضة الأوروبية بالاضافة الى ترحيبه الحار بمن يتعرف اليهم وبلطفه المبالغ به أحياناً والذي لا يخلو من السطحية والنفعية. فهو لين العريكة يحب المجادلة والتسوية والمغامرة(١٧).

لقد كان من السهل في القرن التاسع عشر أو حتى النصف الأول من القرن العشرين تميز الفلاح الماروني عن الشيخ الدرزي وابن الجبل، بسرواله ولبادته، عن ابن المدينة بقمبازه وطربوشه، والمسلم عن المسيحي، بالتطلع الى لباس رأسه.

أما اليوم فان معظم هذه المظاهر المميزة قد تلاشت، اذ أصبحت الملابس واحدة أو متقاربة وزالت الطرابيش والعقالات واللبادات والحجاب.

لا يزال هناك بعض التمييز في مستوى المظهر الخارجي بين الطبقات الغنية والمتوسطة والفقيرة. ولكن توسع الطبقة الوسطى ونزوح أبناء الريف الى المدن وانتشار العلم والثقافة وتأثير وسائل الاعلام على الذوق وتوحد أسباب اللهو والسلوى بين جميع الطوائف والفئات والطبقات (التلفزيون، السيارة، السينما، المقاهي، المراقص الخ..) كل ذلك أدى الى زوال معظم الفروقات والمظاهر المميزة بين الطوائف. لا سيما بين أبناء الجيل الجديد. وحين يكون أكثر من نصف اللبنانيين هم دون الخامسة والعشرين وتكون نسبة الأمية قد تراجعت الى ١٠ أو ١٥ بالمائة يكون ثمانون بالمائة من اللبنانيين يعملون أو يعيشون في المدن الرئيسية (بيروت، طرابلس، صيدا، صور، زحلة، جونية، بعلبك، النبطية) لا يمكننا الانكار بأن ثمة توحيداً في المظهر والتصرف والشكل بين اللبنانيين قد تحقق. وأن من يدخل مسبحاً في الصيف أو أحد دور السينما (قبل حرب ١٩٧٥) لا يستطيع التمييز طائفياً أو طبقياً بين ثمانين بالمائة من الموجودين.

□ المظهر الثاني للاندماج: تنمية أسباب التضامن على الصعيدين السياسي والإداري

(أ) المؤسسات السياسية ودورها في تنمية أسباب التضامن والاندماج بين اللبنانيين.

ان النظام السياسي اللبناني ــ هو نظام برلماني مرتكز على مبدأ تمثيل الطوائف الدينية بنسبة أهميتها العددية.

ويمتاز نظام الانتخابات في لبنان بأنه لا يرتكز على مبدأ الحرص على تأمين تمثيل نسبي بين مختلف المناطق فحسب، بل بين مختلف الطوائف التي تتألف منها السكان.

ويمثل النائب اللبناني، وتلك ثالثة قواعد النظام التمثيلي، الأمة جمعاء.

لقد ظل لبنان مقسماً انتخابياً، منذ عام ١٩٢٦ الى عام ١٩٥٣، الى خمس دوائر كبرى (المحافظات). كان هذا التقسيم مجمد للتطرف الطائفي، باعتبار أن المرشح، أياً كان انتماؤه الطائفي، كان مضطراً الى التزام الاعتدال لينال أصوات الطوائف الأخرى في منطقته. وهذا ما أبعد المتطرفين عن المجلس.

هذا النظام الانتخابي الذي ظل متبعاً لمدة ثلاثين عاماً، خلق محالفات انتخابية وسياسية بين العائلات السياسية والاقطاعية التي كانت تتزعم بشكل عام طوائفها أو مناطقها والتي كانت تقدم في الوقت ذاته كبار الموظفين للدولة.

ولقد أدى ذلك، ولا ريب، الى اندماج وتلاحم على مستوى الزعماء السياسيين وانعكست مواقفهم على الجماهير بشكل ايجابي لا سيما في مرحلة النضال من أجل الاستقلال.

ان التحالفات الانتخابية والتكتلات السياسية ــ النيابية خففت من حدة الحزازات والانقسامات الطائفية.

أما العامل الثاني من عوامل الاندماج التي وفرها النظام السياسي فكان طريقة عمل المجلس النيابي وتأليف الحكومات.

لقد كان النواب، بعد انتخابهم، ينتظمون داخل المجلس في «كتل» ونادراً ما كانت الكتل النيابية مؤلفة من نواب ينتمون الى طائفة واحدة أو منطقة واحدة(١٨).

كان أساس تأليف الكتلة النيابية اما تحالف انتخابي واما تحالف للوصول الى الحكم، واما تحالف حول برنامج اصلاحي أو برنامج عقائدي، كانت الطائفية تلعب أحياناً دورها في تأليف الكتل أو في توجيه السياسة العامة لبعض الكتل، ولكن، في معظم الأحيان وباستثناء فترات الأزمات الحادة، كانت اعتبارات وعوامل أخرى، غير الطائفية هي الحاسمة. حتى كان يخيل للناس أحياناً أن لبنان قد تجاوز النزاعات الطائفية وبلغ نوعاً من الديمقراطية البرلمانية.

أما السلطة التنفيذية، المؤلفة من رئيس الجمهورية وحكومة، فكانت تؤلف المظهر الأبلغ للاندماج الوطني على الصعيد السياسي.

لقد أشار أكثر من محلل للواقع اللبناني الى ضعف وعدم استقرار النظام السياسي اللبناني(١٩). ولكن بالرغم من كل التحفظات والمظاهر السلبية. فانه يصعب انكار الحقائق التالية.

أولاً ــ أن النظام السياسي قد عزز التلاقي والتضامن بين اللبنانيين كما عزز وحدة الشعب اللبناني(٢٠).

ثانياً ــ باستثناء الفترات التي كان لبنان يجتاز فيها أزمة طائفية حادة، مرادفة أو نابعة عن أزمة اقليمية، فان النظام السياسي اللبناني، كان يعمل بشكل معقول موفراً الحد الأدنى من الحرية والديمقراطية الشكلية للبنانيين.

ثالثاً ــ ان النظام السياسي اللبناني كانت غايته تخفيف حدة النزاعات وضبطها. وقد نجح في ذلك «فاللبنانيون كما يقول العالم السياسي الأميركي ليونارد بايندر ــ «يعتقدون أن مؤسساتهم ليست مؤهلة لحل النزاعات» فبدلاً من استعمال هذه المؤسسات لحل النزاعات العميقة ــ يحاولون تحاشي اندلاع النزاعات العقائدية التي من شأنها تحطيم المؤسسات السياسية(٢١).

رابعاً ــ ان الأمثلة الأكثر دلالة على الاندماج السياسي، هي الأحزاب السياسية غير الطائفية التي لم تكف عن النمو وازدياد عدداً(٢٢).

(ب) دور الادارة والبنيات الفوقية في الاندماج الوطني:

ان الدور الذي لعبته الإدارات الرسمية والعامة في إنماء أسباب التضامن ومن ثم التلاحم والاندماج بين اللبنانيين، كان دوراً رئيسياً أو على الأقل دوراً بالغ الأهمية، فبعكس البنيات الفوقية السياسية التي كان يسيرها التوازن الطائفي، فان الإدارات الرسمية والعامة، على تأثرها بالطائفية السياسية، كانت بمثابة «مصهر» واقعي لكل اللبنانيين على اختلاف طوائفهم ومناطقهم، بل شكلت أساس الدولة التي وجدت قبل ولادة الوطن وأصبحت، فيما بعد، العمود الفقري، لوطن يضم فريقين طائفيين اجتماعيين ــ سياسيين متضادين.

ان مركزية الإدارة الرسمية وحصرها، لمدة طويلة، في بيروت ثم في المدن الرئيسية ــ جعلت عشرات الألوف من الموظفين وعائلاتهم، المنتمين الى مختلف المناطق والطوائف والفئات، يتلاقون ويتقاربون. كانت بيروت وطرابلس وصيدا وزحلة مراكز التقاء واندماج عائلات الموظفين والاجراء الذين مالبثوا أن شكلوا قطاعاً كبيراً من البورجوازية المتوسطة كما أن انحصار المدارس في هذه المدن، ساعد على مزيد من الاختلاط والاندماج بين أبناء الموظفين.

ثم أن مركزية الإدارة أدت الى تمركز الصناعات ومختلف نشاطات القطاع الثالث في بيروت وضواحيها. فأصبح ثلثا سكان لبنان يعيشون أو يعملون في منطقة جغرافية ممتدة جنوبي وشمالي وشرقي بيروت.

لا ريب في أن هذا الاكتظاظ السكاني حول بيروت كان من أهم أسباب تولد نزاعات جديدة (سوف تنفجر عام ١٩٧٥) غير أنه، في الوقت نفسه خلق مصالح مشتركة وبالتالي أسباباً للتضامن والاندماج بين عدد كبير من اللبنانيين الذين جمعتهم ظروف السكن أو العمل المشتركة.

ومن المظاهر الايجابية الأخرى، على صعيد دور الإدارات الحكومية في الاندماج الوطني، كون هذه الإدارات، قانونياً ورسمياً، غير طائفية. ذلك أنه بالرغم من روح الحزبية التي مارسها معظم رؤساء الجمهورية في تعيين الموظفين بل بالرغم من التوازن الطائفي الذي فرضه الدستور والقوانين، فان الإدارة اللبنانية عرفت موظفين عديدين خدموا المصلحة العامة أو المصلحة الوطنية بصرف النظر عن أي اعتبار آخر. فالجيش مثلاً استطاع حتى السبعينات، أن يرتفع فوق الانقسامات والحزازات الطائفية والحزبية السياسية والانقسامات العقائدية. وقوى الأمن الداخلية، بالرغم من تأثرها، بحكم طبيعة عملها، بالسياسة المحلية وأحياناً بالحزبية، استطاعت أيضاً أن تتجاوز العصبية الاقليمية أو الطائفية الضيقة وأن تمارس وظيفتها على مستوى الوعي الوطني والمدني.

وفي عام ١٩٥٩ أعطت المراسيم الاشتراعية للمصالح الحكومية، قانونياً ورسمياً دوراً اندماجياً، اذ حدد مهمة المصالح العامة «بخدمة الصالح العام والخير المشترك».

صحيح أن التوازن الطائفي في الإدارة كرس، قانونياً، عام ١٩٥٩ وأصبح يسبق بكثير من التشدد والدقة. ولكن الغاية من هذا التشدد كانت وضع حد للمزايدات الطائفية التي كان السياسيون يلجأون اليها لأسباب انتخابية وغوغائية انسجاماً مع غاية العهد الشهابي الرسمية والمعلنة التي كانت تنادي بتجاوز الطائفية وبناء الدولة الحديثة ومن أجل تحقيق العدالة الاجتماعية والانماء الاقتصادي والاجتماعي، قاعدتي أي اندماج مجتمعي حديث.

ان مركزية الإدارة اللبنانية ولا حزبيتها المبدئية، بالاضافة الى تركيبها على الطريقة الغربية[٢٣] أدى الى تعزيز الروابط بين عدة أجيال من اللبنانيين (١٩٢٠ ــ ١٩٧٥) ينتمي أبناؤها الى الطبقات الوسطى والبورجوازية فبالاضافة الى أسباب التضامن التي كان النظام السياسي قد أوجدها بين العائلات السياسية والاقطاعية والبورجوازية الكبرى، في مختلف المناطق، جاءت الإدارة الحكومية تخلق أسباباً أخرى للتضامن على صعيد الطبقات الوسطى.

□ المظهر الثالث للاندماج: تنمية أسباب التضامن على الصعيدين الاجتماعي ــ الاقتصادي والثقافي:

ان كل الاحصائيات الاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بالمجتمع اللبناني بعد الاستقلال، تدلنا على أن اللبنانيين كانوا سائرين بخطى بطيئة ولكن أكيدة، نحو الاندماج.

فميزانية الدولة التي كانت لا تتعدى الـ ٣٧ مليون ليرة عام ١٩٤٣ ارتفعت عام ١٩٥٨ الى ٢٢٥ مليوناً. وفي عام ١٩٦٨ بلغت ٥٧٤ مليوناً وأصبحت عام ١٩٧٣ ملياراً و ٢٢٥ مليون ليرة.

والدخل الوطني الذي كان يبلغ عام ١٩٤٥ الـ ٢٥٠ مليون ليرة. أصبح عام ١٩٧٥: ٧ مليارات أي بمعدل نمو سنوي تعدى الـ ١٠ بالمائة.


الحاضر قوة


والمستقبل أمل

الودائع المصرفية ارتفعت من ٢٢٠ مليون عام ١٩٥١ الى ٧٢٨ مليوناً عام ١٩٦١ الى ١٠ مليارات عام ١٩٧٤.

في عشر سنوات ارتفع عدد تلامذة المدارس الرسمية ثلاثة أضعاف. وهذه احصائيات تدل على الجهد الذي بذلته الدولة في حقل التعليم.

□ عام ١٩٦١ كان عدد المدارس الرسمية يبلغ:
٩٩٨ مدرسة ابتدائية.
١٩٥ مدرسة تكميلية وثانوية.

□ في عام ١٩٧١ أصبح عدد المدارس الرسمية يبلغ:
٧٧٠ مدرسة ابتدائية.
٥٤٠ مدرسة قانوية.

□ في عام ١٩٦١ كان عدد تلامذة المدارس الرسمية يبلغ:
١١٣٠٠٠ تلميذ في المدارس الابتدائية.
١٦٠٠٠ تلميذ في المدارس الثانوية.

□ في عام ١٩٧١ أصبح عدد تلامذة المدارس الرسمية يبلغ:
١٩٢٠٠٠ تلميذ في المدارس الابتدائية.
٧٥٠٠٠ تلميذ في المدارس الثانوية.

ثمة أرقام واحصائيات أخرى تدلنا على التطور الاجتماعي والاقتصادي الذي تحقق في غضون ثلاثين سنة من الاستقلال.

شبكة الطرقات كانت لا تتجاوز الـ ٣٠٠٠ كيلومتر طولاً عام ١٩٤٣ أصبحت تبلغ ٦٦٠٠ كيلومتر عام ١٩٦٥. ومن عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٧٣ وصلت الطرقات والماء والكهرباء الى أكثر من ألف قرية ودسكرة كانت محرومة منها.

□ في عام ١٩٤٣ كانت هنالك أقل من ١٠٠٠ مؤسسة خاصة تجارية أو صناعية.

□ في عام ١٩٧٣ بلغ عددها الـ ٧٠٠٠ وبلغ رأسمالها ١٤٠٠ مليون ليرة وصادراتها ٣٤٥ مليون ليرة وارتفع عدد الشركات المغفلة من ١٠٣ عام ١٩٤٣ الى ٢١٣٨ عام ١٩٧٣.

□ في عام ١٩٧٣ كان الانطباع بأن لبنان بدأ يقلع اقتصادياً واجتماعياً، انطباعاً حقيقياً. فمعدل دخل الفرد كان قد تعدى الألف دولار سنوياً. والصادرات اللبنانية كانت قد تجاوزت الثلاثمائة مليون ليرة.

وكانت الخطة الخمسية تلحظ نمواً في الدخل الوطني يتجاوز معدله الـ ٧ بالمائة كان هنالك أكثر من ٢٠٠ ألف سيارة (سيارة لكل ١٠ لبنانيين)، وكانت المصارف متخمة بالودائع. وكان عدد الطلاب الجامعيين في بيروت يتجاوز الـ ٣٠ ألف طالب وطالبة. وكان ثلث سكان

لبنان (أي حوالي ٢٣٥ ألف مضمون اجتماعياً وكان ٧٠٠ ألف من أفراد عائلاتهم يستفيدون من الضمانات الاجتماعية.

هذه الأرقام كانت تخفي وراءها نوعاً من الخلل الاقتصادي، الاجتماعي على مستوى التوزيع العادل للدخل الوطني. وكان هذا الخلل مصدراً للنزاعات. غير أن ذلك لا يحول دون الاعتراف بأن لبنان بعد ثلاثين سنة من الاستقلال، كان قد سار شوطاً لا بأس به على طريق الاندماج الاقتصادي الاجتماعي. فالطبقة الوسطى اللبنانية كانت تتسع وأبناء هذه الطبقة المؤلفة من الموظفين والاجراء والمستخدمين والحرفيين والعمال الماهرين الذين كانوا يدرسون في المعاهد الرسمية ـــ كانوا يشكلون نواة مجتمع لبناني وطني ـــ أقل ارتباطاً بمنطقته أو ولاء لطائفته وبالتالي أكثر ارتباطاً بالدولة وشعوراً بالمواطنية.

ان أصحاب المهن الحرة (أطباء ومحامون ومهندسون) كانوا يؤلفون مع نقابات العمال واتحادات المزارعين والحرفيين، هيكليات أفقية جديدة تتقاطع مع الهيكليات الطائفية العمودية، وتخفف من حدة التقاطعات الجغرافية والدينية. ولقد تولدت أسباب تضامن جديدة على صعيد المصالح المهنية والاقليمية والمحلية والاقتصادية والاعلامية، أقوى من غيرها في الحياة اليومية وفي الحياة السياسية[٢٤] فالأحزاب السياسية غير الطائفية كانت قد نجحت في نقل الصراع السياسي الى الصعيد الاجتماعي والاقتصادي. وكانت الاضرابات التي يقوم بها الطلاب والعمال والمستخدمون تدل على نشوء أسباب تضامن جديدة تتجاوز التضامن الطائفي أو الاقليمي.

خلاصة:

ان خمسين عاماً من الحياة في ظل دولة واحدة وثلاثين عاماً من الحياة الاستقلالية الوطنية أنمت أسباب تضامن نفسانية واجتماعية وسياسية واقتصادية بين الطبقات والمناطق اللبنانية. غير أن هذا التضامن لم يرتكز على بنيات مثبتة ليحل محل التضامن الطائفي أو التضامن العائلي اللذين بقيا في الواقع اليومي كما في الحياة العامة.

غير أن هذا الحكم يبقى حكماً عاماً وغير شامل لكل الخصائص.

يرى البرت حوراني أن العناصر السياسية التي يمكن الارتكاز عليها للحديث عن الاندماج بين اللبنانيين هي:

١ ـــ شعور خفيف ولكن أكيد ـــ بالروح المدنية (Civisme).
٢ ـــ مصالح مشتركة بين كل اللبنانيين.
٣ ـــ مجلس نيابي تتمثل فيه كل الطوائف وتعبر عن وجهة نظرها.
٤ ـــ رئيس للوزراء يستطيع أن يلعب دور الزعيم المسلم.
٥ ـــ رئيس للجمهورية هو المرجع الأخير لوحدة لبنان وطابعه المسيحي[٢٥].

أما بيار راندو[٢٦] فيقول «أن المؤسسات اللبنانية قد ساعدت على ضبط التجاور والتعاون المتوازن بين المسلمين والمسيحيين».

وتقول نجلا عطية في أطروحتها[٢٧] أن موقف المسلمين السلبي من الدولة اللبنانية قد تراجع بسبب الحياة المشتركة التي عاشوها مع المسيحيين (في الانتخابات والإدارة والمخالفات السياسية) وكذلك بسبب خفوت توهج فكرة الوحدة العربية، أما السبب الثالث لتبدل موقف المسلمين واندماجهم في الكيانة اللبنانية فيعود الى مشاريع الاصلاح الإداري والتنمية الاجتماعية التي قام بها عهد الرئيس فؤاد شهاب. ثمة سبب رابع في نظر نجلا عطية وهو أن لبنان تطور من دولة منازعات عام ١٩٤٣ الى دولة عقات ومشاركات حيث توزعت المصالح وانضبطت. وقد ساعد على موازنة المصالح تحسن أوضاع المسلمين المالي وتعريب لبنان المتزايد بعد الاستقلال ولا سيما بعد ظهور النفط.

أما أرنولد هوتنغر[٢٨] فيرى أن الاصلاح الاداري والانماء الاقتصادي المعطوف على العدالة الاجتماعية التي تجلت في عهد الرئيس شهاب والتي كانت غايتها احلال الدولة محل الزعماء الطائفيين أو التقليديين في تأمين مصالح المواطنين شكلت عوامل جدية للاندماج بين اللبنانيين بل كانت عوامل أفضل من التمثيل

الطائفي.

ويرى ايليا حريق: أن نظام الزعامة في لبنان كثيراً ما شوه وانتقد ظلماً فهذا النظام، في نظره، استطاع أن يلحق التطور وأن يتلاءم مع بروز طبقات جديدة. ففي كتابه «من يحكم لبنان»[٢٩] يقول «أن النواب الذين هم من أصل ارستقراطي ــ أصبحوا أقلية في المجلس النيابي عام ١٩٦٠ (١١ على ٩٩) بينما كانت نسبتهم عام ١٩٢٩ تبلغ ٢٢ بالمائة وفي عام ١٩٣٦: ٣٦٪ وفي عام ١٩٤٣: ٢٠٪ أما في عام ١٩٧٢ فكانت نسبتهم لا تتجاوز الـ ٧٪.

ويقول حريق أيضاً: أنه من أصل ١٥٤ وزيراً تعاقبوا على الحكم منذ عام ١٩٤٣ عشرة فقط هم من أصل ارستقراطي. فالنظام البرلماني اللبناني، كما كان يقول حريق، كان مجدياً في المحافظة على الانسجام الاجتماعي وساعد على الاندماج والاستقرار السياسيين كما أنه نجح في جعل الطائفية مؤسسة ثابتة.

مظهر آخر من مظاهر اندماج الطوائف الدينية هو تداخل مناطق سكنها، ان نظرة سريعة على المناطق اللبنانية تظهر لنا مدى التعايش الإسلامي المسيحي، وهذه بعض الاحصائيات والأرقام (عام ١٩٦٥) على أساس القضاء:

□ قضاء عكار ٢١٪ موارنة ــ ٢٦٪ ارثوذكس ــ ٤٤٪ سنة.

□ طرابلس: ٧٪ موارنة ــ ١١٪ ارثوذكس ــ ٧٥٪ سنة.

□ الكورة: ١٦٪ موارنة ــ ٧٠٪ ارثوذكس ــ ١١٪ سنة.

□ زغرتا ــ البترون: ٨٦٪ موارنة ــ ٨٪ ارثوذكس.

□ قضاء جبيل: ٨٧٪ موارنة ــ ٢٪ ارثوذكس ــ ٧٪ شيعة.

□ المتن: ٤٤٪ موارنة ــ ١٤٪ ارثوذكس ــ ٧٪ كاثوليك ــ ٢١٪ أرمن ــ ٣٪ سنة.

□ بعبدا: ٥١٪ موارنة ــ ٩٪ أرثوذكس ــ ٤٪ كاثوليك ــ ٨٪ سنة ــ ١٦٪ شيعة ــ ١٢٪ دروز.

□ عاليه: ٣٢٪ موارنة ــ ٢٥,٨٪ ارثوذكس ــ ٣,٨٪ كاثوليك ــ ٤٧٪ دروز ــ ٢٪ سنة.

□ الشوف: ٣٧٪ موارنة ــ ٢٢٪ سنة ــ ٣٠٪ دروز ــ ١٠٪ كاثوليك.

□ صيدا: النبطية: ١٠٪ موارنة ــ ١٠٪ كاثوليك ــ ٦٢٪ سنة ــ ٢٨٪ شيعة.

□ صور ــ بنت جبيل: ١٧٪ مسيحيون ــ ٨٢٪ شيعة.

□ جزين: ٦٧٪ موارنة ــ ١٦٪ ارثوذكس ــ ١٦٪ شيعة وسنة.

□ مرجعيون: ٨٪ موارنة ــ ١٦٪ ارثوذكس ــ ٥٪ كاثوليك ــ ٣٨٪ شيعة.

□ حاصبيا: ٩٪ موارنة ــ ٣٠٪ ارثوذكس ــ ٣٦٪ سنة ــ ٣٤٪ دروز.

□ زحلة: ٢١٪ موارنة ــ ١٠٪ ارثوذكس ــ ٢٥٪ كاثوليك ــ ٢٥٪ سنة ــ ٨٪ شيعة.

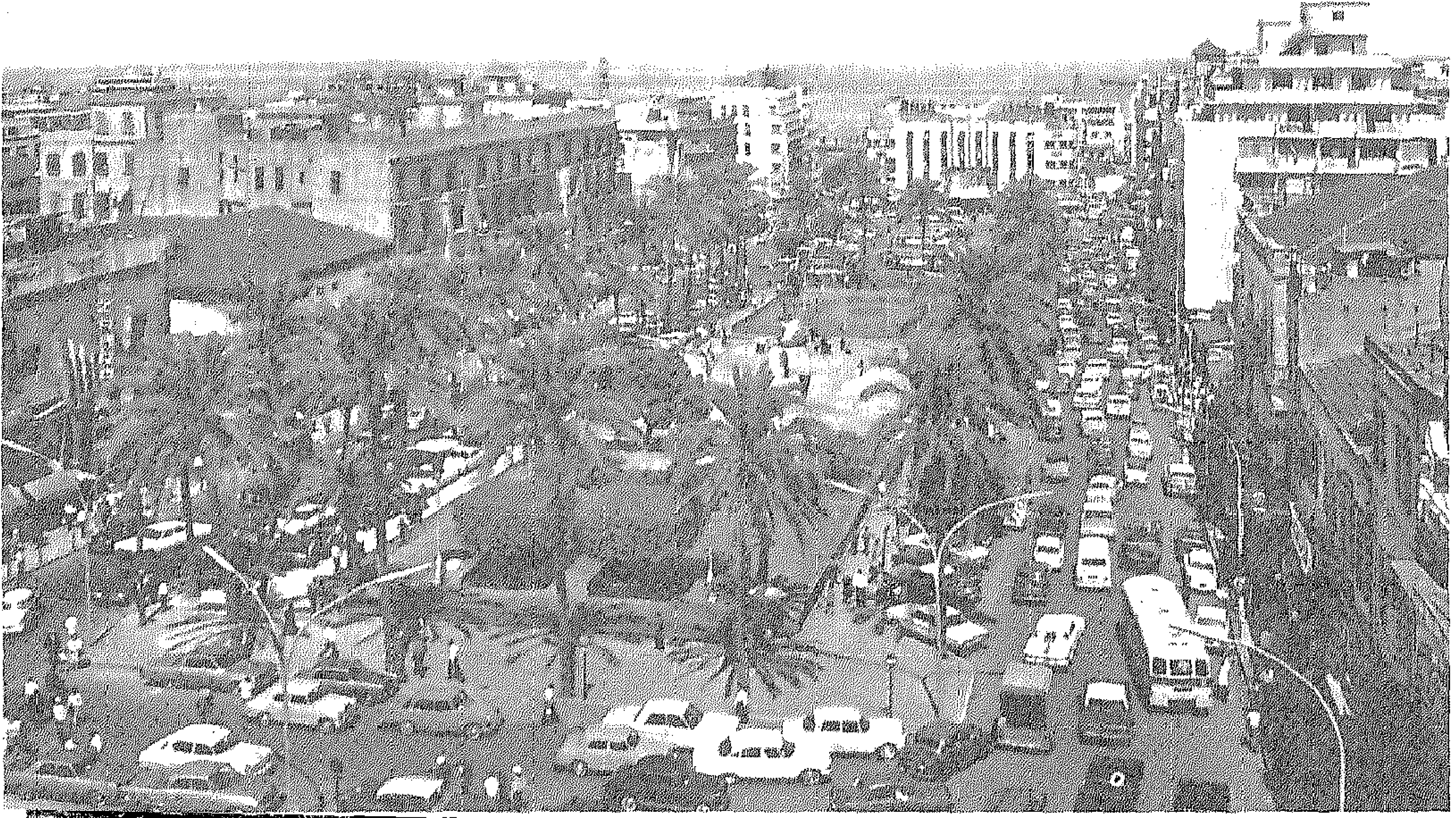
□ بعلبك ــ الهرمل: ١١٪ موارنة ــ ١٠٪ كاثوليك ــ ١٢٪ سنة ــ ٦٧٪ شيعة.

أرقام أخرى يمكن أن نستدل منها على بروز بنيات طائفية جديدة، كتلك التي تقدمها الاحصائيات حول التعليم والقوى العاملة في لبنان. فهنالك ٥١٪ من تلامذة الصفوف الابتدائية و٣٠٪ من تلامذة الصفوف الثانوية و٢٩٪ من الطلاب الجامعيين، ممن يتلقون دروسهم في المعاهد والكليات التابعة لوزارة التربية الوطنية. ٢٧٪ من مجموع القوى العاملة لها مصالح غير طائفية وهذه المصالح تشرف عليها ١١١ نقابة و١٥ اتحاداً عالمياً[٣٠].

ثمة شهادة هامة بالنسبة لنمو الاندماج السياسي بين اللبنانيين أدلى بها العالم السياسي الأميركي ليونارد بايندر في اختتامه للندوة التي عقدت في جامعة شيكاغو عام ١٩٦٥ وكان موضوعها: النظام السياسي اللبناني قال بايندر في محاضرته[٣١].

«ان المؤسسات السياسية اللبنانية ــ تسمح للسياسيين حل كل المشاكل في اطار النظام القائم فهذه المؤسسات تثبت الاستقرار وتتجنب الخضات».

«ان النظام السياسي اللبناني يتماشى مع الديمقراطية ولكنه ليس له هدف مشترك، عمله ينحصر في خيارات محدودة وفقاً لتسوية تقضي بأن لا تمس الخيارات الكبرى».



ساحة البرج

«بدلًا من الاعتماد على المؤسسات لحل النزاعات يحاول اللبنانيون تلافي النزاعات العقائدية التي من شأنها تهديم المؤسسات السياسية».

«ان طبقة جديدة من السياسيين قد ولدت مؤلفة من هؤلاء الذين انخرطوا في الأحزاب السياسية من الصحافيين وأساتذة الجامعات. هذه الطبقة تحاول خلق شعور جديد بالهوية الوطنية. انها تسعى إلى إضعاف الطائفية وبالتالي إلى تجاوز الطائفية».

«الا أن ما يربط المسلمين بالمسيحيين لا يزال محصوراً بالطبقات العليا من البورجوازية الاجتماعية والاقتصادية والفكرية...».

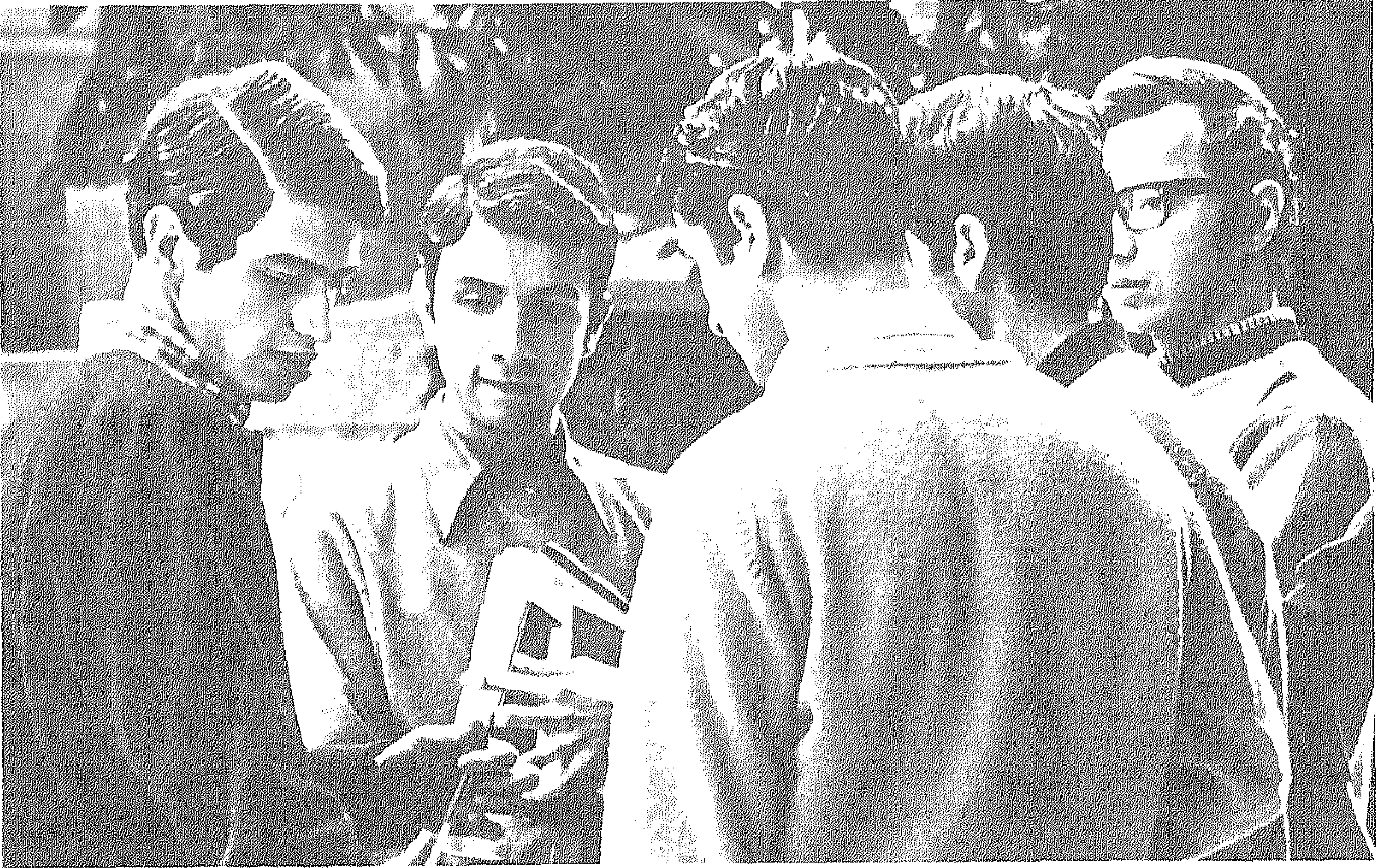
«ان النظام الطائفي، هو الذي يحول دون نشوء علاقات عضوية أساسية، وهذا ما يعطل الاندماج ويجعل تحقيقه صعباً مع استمرار النظام الطائفي...».

«ان الميثاق الوطني لا يمكن اعتباره غاية مقدسة». بل تسوية مؤقتة بين السياسيين. ان النظام السياسي سوف يضعف كلما نما الشعور الوطني وكلما قويت الدولة. أم العاملان اللذان من شأنهما تأخير أو تجميد انحطاط النظام السياسي الراهن، فهما: المؤسسات التي يرتكز عليها النظام وطعم الحرية...».

ان الاندماج أو الالتحام أو اللحمة بين اللبنانيين، يمكن، في النهاية أن تحدد وتقيم ويحكم عليها انطلاقاً من المعايير والعوامل والعناصر التالية:

أولاً ــ ان النظام السياسي الطائفي، مضافاً الى النظام الاقتصادي الحر قد أدى الى تلاقي والتحام العائلات الاقطاعية والبورجوازية الكبرى أياً كانت انتماءاتها الطائفية فعلى مستوى الخمسمائة عائلة السياسية ــ البورجوازية، كل النزاعات، كان يمكن حلها أو تسويتها. ان ارضاء مصالح هذه الطبقة هو الذي أتاح للنظام بأن يستمر وللكيان اللبناني بأن يبقى ملتحماً من فوق.

ثانياً ــ ان نمو المؤسسات العامة في شتى القطاعات والاصلاحات الإدارية المتعاقبة، بالاضافة الى النمو الاقتصادي للبلاد قد خلق طبقة وسطى واسعة النطاق(٣٣) هذه الطبقة لم يندمج أفرادها بعد اندماجاً تاماً ولم ينسجموا طائفياً. ولكن ارتكازها على شبكة واسعة وحقيقية من المصالح الاقتصادية



جيل المستقبل

والاجتماعية والثقافية المشتركة، دفعها نحو تبني نظرة جديدة الى الوطن الى التحسن بالمصلحة العامة، وربما الى تطلعات جديدة، بالنسبة لمفاهيم الحرية والحداثة والتقدم والتعايش الطائفي. على مستوى هذه الطبقة أو الطبقات الوسطى، ترتكز فكرة وامكانيات الاندماج الوطني على الوطنية والروح المدنية والانماء الاقتصادي الاجتماعي. ولا يزال هذا الاندماج في بدايته وغير ثابت.

ثالثاً ــ أما على مستوى الطبقات الفقيرة والمحرومة المؤلفة في أكثريتها من فلاحين وعمال عاديين ينتمون الى الطوائف الإسلامية، فان الاندماج يبدو ضعيفاً. ويرتكب السياسيون وعلماء السياسة خطأ كبيراً عندما لا يميزون، على مستوى هذه الطبقة ــ بين الانسلاب (Alienation) الاقتصادي ــ الاجتماعي والانسلاب الوطني والانسلاب الطائفي.

ان معظم المناطق الريفية التي تسكنها أكثرية المسلمين (شيعة أو سنة) كعكار والهرمل والجنوب، تشكو ولا تزال من التخلف بالنسبة للمناطق اللبنانية الأخرى. ولقد حاولت الدولة تنمية هذه المناطق بعد عام ١٩٦٠ غير أن التفاوت الاقتصادي والاجتماعي بينها وبين المناطق الأخرى ظل شاسعاً. ولعل مشكلة الاندماج أو عدمه قد طرحت، على أخطر ما طرحت، عندما نزح أبناء هذه الطبقة المحرومة الى ضواحي بيروت وأقاموا فيها. واختلطوا بفئات محرومة أخرى (أكراد ــ فلسطينيين) ولعل في قيام هذا الحزام البؤس حول بيروت ما شكل كبسولة الانفجار الذي حدث عام ١٩٧٥.

الا أنه من الضروري أن نشير هنا الى مشكلة الاندماج بين اللبنانيين المحرومين والفقراء فقد أسيء طرحها أو حرفت معطياتها، من قبل بعض العقائديين تحقيقاً لغاية حزبية أو عقائدية.

فثمة فريق يميني راح يعتبر مطالب الطبقات المحرومة خروجاً عن الولاء للبنان أو دليلاً على استحالة ايجاد مجتمع وطني متلاحم. أما بعض الأحزاب اليسارية فراحت تعتبر هذه المطالب سبباً لاعادة النظر بالنظام، وبامكانية هذا النظام في تحقيق الاندماج الوطني.

ولكن، أياً كانت الأسباب العميقة والتأويلات

والاستغلالات لهذا الواقع الاجتماعي والاقتصادي الذي تتخبط فيه المناطق أو الطبقات الفقيرة، فالأمر الثابت هو أن الالتحام الوطني على هذا المستوى كانت أوفر عدداً وأسهل للاستغلال واللاستثارة.

رابعاً — على مستوى الأجيال: هنا يبرز الاندماج الاجتماعي بصورة أكثر وضوحاً. فالحداثة في الذوق، بسبب وسائل الاعلام، قد خلقت جيلاً جديداً من اللبنانيين، يكاد يكون موحداً على صعيد اللباس واللهو والتصرف بوجه عام. الا أن الاندماج أو التوحد توقف عند حد المشاكل العقائدية والقومية التي كانت تقسم أبناء هذا الجيل. الا أنه من الخطأ اهمال ظاهرة الاندماج في الأجيال الصاعدة، رغم سطحية مظاهرها، لأنها تتمشى مع روح العصر أو بتعبير أكثر دقة، مع الموقف الواقعي والوجودي والاستمتاعي الذي يتخذه الشباب في مختلف أنحاء العالم. ان مطالب الأجيال الصاعدة، بصرف النظر عن المشاكل السياسية والعقائدية — الدينية، قد تحمل معها، بذور اندماجية — ذات أبعاد جديدة.

خامساً — ثمة مستوى أو مظهر آخر للاندماجية نلاحظه في «البنيات المتوسطية» أو العارضة. (Diagonales). ذلك أن اللبنانيين لا ينقسمون الى طبقات اقتصادية (أغنياء — متوسطي الحال — فقراء) فحسب ولا الى فئات طبقية (مسلمين — مسيحيين) ولا الى أبناء مناطق (أبناء مدن، أبناء شمال أو أبناء جنوب) بل ينقسمون أيضاً الى أصحاب مهن والى حزبيين والى نقابات وجمعيات. وهذه التجمعات تضم لبنانيين من مختلف الطوائف والطبقات والمناطق والأجيال. وتتداخل مع البنيات العمودية والأفقية، وهي تولد أسباباً للتضامن، داخل وخارج التكتلات الطائفية والعائلية. ولقد تمت هذه «التجمعات المتوسطية» في السنوات العشرين الأخيرة بحيث أنها باتت تشكل شبكة واسعة من المصالح الجديدة التي ترتسم عليها معالم لبنان جديد.

سادساً — ان النظام السياسي اللبناني قد نجح، رغم كل الاعتراضات والانتقادات، في ابقاء حد أدنى من الحريات العامة والخاصة ومن مظاهر الحياة الديمقراطية. صحيح أن اللبنانيين لا يتمتعون جميعهم، وبشكل متساو، بهذه المكاسب ولكنه من الصحيح أيضاً أن هذه المكاسب أصبحت بالنسبة لأكثرية اللبنانيين مبررات كافية بحد ذاتها لتبرير الولاء للبنان أو التمسك ببقائه وطناً مستقلاً.

ان الاستمتاع والتمسك بالحرية وبالديمقراطية يمكن اعتباره بعداً جديداً من أبعاد الاندماج بين اللبنانيين.

سابعاً — على الصعيد الثقافي: ان اللبنانيين قد خطوا في هذا المضمار خطوات كبيرة. فبالاضافة الى الأسماء العربية القصيرة و«الحيادية» المشتركة التي أخذ المسلمون والمسيحيون يطلقونها على مواليدهم بعد عام ١٩٦٠. نجد تقارباً بل شبه توحد في العادات والاحساس الفني والذوق وأسباب اللهو والطعام بين المسلمين والمسيحيين والجبليين وأبناء المدن، مما يدل على ارادة واعية لا شعورية — في الاندماج والتلاحم. صحيح أن هناك ظاهرة «التثاقف»[٣٣] التي لا تزال سطحية وتكاد تكون أحياناً تقليداً سريعاً وسطحياً للغرب[٣٤] ولكنه لا يجوز تجاهل وجود أرض مشتركة اجتماعية — ثقافية، أخذت الطوائف اللبنانية، عبر أجيالها الطالعة، تلتقي عليها وتنسجم وتندمج وتتلاحم فيها.

الهوامش

(١) راجع حليم بركات «الاندماج الاجتماعي والسياسي في لبنان» .Middle East Journal, 1973, XXVII, No. 13

(٢) راجع الأب جوزف مونس «العناصر البنوية في الشخصية اللبنانية (بالفرنسية جامعة روح القدس، الكسليك، ١٩٧٣، ص ٢٠.

(٣) نشرت مجلة الحوادث في عددها الصادر في ١٢ نيسان ١٩٧٢ دراسة يستدل منها أن نسبة الذين يصلون بشكل دائم في الكنائس والجوامع لا يتجاوز الـ ٢ الى ٥ بالمئة من اللبنانيين الذين هم دون الثلاثين.

(٤) هذه الحقائق كانت ملموسة قبل حرب ١٩٧٥ التي شوهت الكثير منها بيد أن ثمة مقولة بأن معظم أعمال العنف والتعصب والتعرض للمقدسات الدينية صدرت عن عناصر غير لبنانية أو بتحريض من أشخاص وقوى غير لبنانية

ولاغراض سياسية تفريقية مصممة من الخارج.

(٥) المادة ٩ من الدستور.

(٦) راجع الأب جوزف مونس المرجع المذكور سابقاً ص ١٣٩.

(٧) راجع فلسفة الميثاق الوطني ص ٤٠ ــ ٤٢.

(٨) راجع رينه حبشي «حضارتنا على المفترق» بيروت ١٩٥٨، ص ٤٤.

(٩) المرجع ذاته ص ٤٥.

(١٠) هذه الخصائص ذكرها وتحدث عنها طويلاً الأب جوزف مونس في كتابه «الشخصية اللبنانية» مرجع سبق ذكره (من الصفحة ٦٥ ــ ٩٣) فمع موافقتنا على قسم كبير من التحليل الا أنه لا يسعنا الا التحفظ بالنسبة لبعض الاستنتاجات السياسية.

(١١) مثلاً: انطوان (طوني أو انطوان) بطرس: (بيار) حنا: (جان أو جانو) جبرائيل: (غابي).

(١٢) الاسم الديني عند المسلمين هو أحد أسماء الأنبياء (اسماعيل ــ ابراهيم) أو احدى صفات الله مسبوقة بعبارة عبد أو أحد صحابة النبي محمد (كعمر أو عثمان).

(١٣) مارون وانطوان كانت أسماء مارونية. واسكندر وجبران ونقولا والياس أسماء ارثوذكسية وعمر وعبد الرحمن وأحمد سنية وعلي وحسين أسماء شيعية وقاسم وملحم أسماء درزية.

(١٤) فريد، كامل، سليمان، خليل، ابراهيم هي أسماء مشتركة بين كل الطوائف.

(١٥) مثلاً: كريم، نبيل، سمير، رامي، سامر، ندى، هدى، لينا، ريما، ليلى، وليد، منى، أمل، مالك، زينا الخ...

(١٦) يروي لحد خاطر في كتابه (في عهد المتصرفية) تفاصيل هذه الحادثة.

(١٧) راجع كتاب الشخصية اللبنانية للأب جوزف مؤنس مرجع سبق ذكره، ص ٥٥.

(١٨) في عام ١٩٦٤ كان في المجلس النيابي ١١ كتلة و٢٧ نائباً مستقلين. كتلة كرامي (١٤ نائباً مسلمين ومسيحيين (شهابيين) كتلة الأسعد (١٠ مسلمين ومسيحيين) كتلة جنبلاط (١٠ دروز ومسيحيين وسنيين) الكتلة الدستورية (٨ مسيحيين من مختلف المناطق كتلة سلام ــ فرنجية (٦ موارنة ومسلمين) كتلة حزب الطاشناق (٤ أرمن) الكتلة الوطنية (٢ موارنة وشيعي).

(١٩) راجع كتاب مايكل هدسون الجمهورية غير المستقرة (بالانكليزية).

(٢٠) راجع مقال «الأقليات في الشرق لبيار راندو مجلة «أفريقيا وآسيا» الحديثتين عام ١٩٧٥ العدد ١٠٧ ص ٢٣.

(٢١) راجع ليونارد بايندر، المرجع المذكور سابقاً، ص ٢٨٣.

(٢٢) في عام ١٩٧٠ كان هنالك عدة أحزاب غير طائفية: الحزب القومي السوري، الحزب الشيوعي، الحزب التقدمي الاشتراكي، حزب البعث والحزب الديمقراطي.

(٢٣) مجلس الخدمة المدنية، التفتيش المركزي، المجلس التأديبي، معهد الإدارة تعاونية الموظفين.

(٢٤) من أهم عوامل التضامن بين اللبنانيين عن طريق توحيد المشارب والآراء هي وسائل الاعلام. فوجود محطة تلفزيونية واذاعة وعدة صحف مستقلة ووزارة تخطيط وصندوق وطني للضمان الاجتماعي ومصلحة كهرباء واحدة ومصلحة مياه واحدة ومصلحة نقل واحدة لكل لبنان، كل ذلك يشكل شبكة من الاتصالات والمواصلات التي توحد وتدمج بين اللبنانيين على صعيد الحياة اليومية وكان صغر مساحة لبنان ومركزية المصالح الرسمية يسهلان عملية تخالط السكان اليومي.

(٢٥) راجع كتاب (Politics in Lebanon) بايندر، مرجع سبق ذكره، ص ٥٠.

(٢٦) المرجع السابق، ص ١٣٣.

(٢٧) «موقف المسلمين السنة من الكيان اللبناني» جامعة لندن، ١٩٧٣.

(٢٨) راجع كتاب بايندر، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٠.

(٢٩) منشورات دار النهار ١٩٧٢، بيروت.

(٣٠) راجع القوى العاملة في لبنان، منشورات مديرية الاحصاء، ص ١٣١.

(٣١) راجع كتاب (Politics in Lebanon) مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٣.

(٣٢) يعتقد بعض علماء الاجتماع أن مساحة الطبقة الوسطى في لبنان ٦٥٪ من السكان. المعايير الاقتصادية والاجتماعية لتحديد درجة الطبقة، تختلف، بالطبع، بين الغرب ولبنان. ففي لبنان يعتبر الموظف والعامل الماهر والحرفي والملاك الصغير والاخير في بعض القطاعات الخاصة طبقة وسطى، ومن هنا يبدو أن أرقام دراسة «ايرفد» التي جرت عام ١٩٦٠ بحاجة الى اعادة النظر. كذلك تفسيراتها. كما أن الحرب اللبنانية وارتفاع أسباب المعيشة السريع والكبير قد خلقا أوضاعاً جديدة تستحق الدراسة على حدة ومن شأنها التأثير على مجرى الاندماج أو النزاعات طبقياً وطائفياً.

(٣٣) Acculturation

(٣٤) راجع كتاب ناصيف نصار «نحو مجتمع جديد».

١٩٤٣ - ١٩٨٣

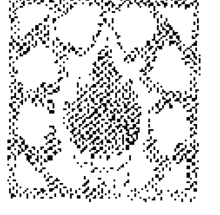
أربعون عاماً من الاستمرارية الدستورية

د. داود الصايغ
دكتور دولة في الحقوق
من جامعة باريس الثانية.



الدستور اللبناني هو أحد أقدم الدساتير المعمول بها في العالم. فهو يرجع الى عام ١٩٢٦، ولا يزال قيد العمل دون انقطاع منذ وضعه ـ في ما عدا حالتي تعليقه أيام الانتداب ـ وبالانسجام المعروف مع الميثاق الوطني.

وان هذه الاستمرارية الدستورية ساعدت لبنان على الصمود في أشرس محنة عرفها في تاريخه الحديث، وساعدت المؤسسات الدستورية على مثابرة العمل أحياناً باسم الشرعية وحدها، وان مجردة من أية قوة فعلية.



لم يكن من السهل تدمير المؤسسات في لبنان، عندما أتت الحرب على الكثير من معالم الحياة فيه، وعندما بدا ان لبنان نفسه تعرض للزوال في بعض مراحل الحرب وبعض الخطط، كما لم يعد مجهولاً.

سنوات المحنة واجهها اللبنانيون بالعديد من الوسائل، قد يكون من بينها، كما نشهد حالياً، ذلك الوعي الوطني الشامل الذي لم يسبق أن ظهر من قبل بهذا الوضوح وهذه القوة. وهو، ان قيس بكل سلبيات الماضي لبدا أنه العنصر الايجابي الوحيد بعد سنوات الحرب.

اللبنانيون تمسكوا بعدد من القيم والمبادىء ساعدتهم على مواجهة مؤامرة متعددة الوجوه والأساليب، فكان لهم من ماضيهم وحاضرهم تراث غني من الثوابت والمنجزات الأصيلة، سمح بابقاء الشرعية الدستورية قائمة، بالرغم من جميع محاولات شلها وتدميرها، مما فرض على جميع المتعاملين مع لبنان في سنوات المحنة، التعامل مع سلطته الشرعية بالدرجة الأولى، ومع المؤسسات الدستورية التي كان متيسراً لها أن تعمل.

فلبنان، بخلاف معظم البلدان التي ضربتها محن وهزات مشابهة، تمكن من الحفاظ على عنصر أساسي من عناصر وجوده ككيان، وهو الاستمرار الذي تجسد عمليا في شبه اجماع من قبل معظم الأطراف الفاعلة على الالتزام بنظام الحكم القائم، النظام الديموقراطي البرلماني، وان في دعوات متنوعة للتطوير أو التعديل، والى الاعتراف بالتالي بشرعية الحكم القائم، انطلاقاً من الأصول الواجب اتباعها في انتخاب رئيس الجمهورية، وفي تأليف الحكومات، وفي اصدار القوانين والمراسيم، وفي العمل الاداري والقضائي، وفي جميع القرارات الحكومية التي ثبت انها كانت الأساس في التحولات ناحية الحلول.

في الأساس: الاطار الدستوري

منذ بدء العمل بالدستور اللبناني في ٢٦ أيار ١٩٢٦ وحتى اليوم، لم ينقطع العمل بالدستور، ولم يتوقف سير المؤسسات المنبثقة منه إذ في ما عدا حالتي تعليق الدستور من قبل المفوض السامي عامي ١٩٣٢ و١٩٣٩، فان العمل الدستوري في لبنان لم ينقطع. وفي مطلق الأحوال، منذ الاستقلال وحتى اليوم لم يحصل ان خرج أي عهد او أي مجلس نيابي او أية حكومة أو أية مؤسسة أو إدارة عن واجب التقيد بالنصوص، حسب تسلسلها الهرمي المعروف كما في كل نظام دستوري برلماني.

منذ الاستقلال وحتى الآن تعاقب على رئاسة الجمهورية ثمانية رؤساء جمهورية هم: الشيخ بشارة الخوري (١٩٤٣ ـ ١٩٥٢) لم يكمل ولايته الثانية التي بدأت بعد التجديد له عام ١٩٤٩ فاستقال في أجواء أزمة في أيلول عام ١٩٥٢، والرئيس كميل شمعون (١٩٥٢ ـ ١٩٥٨) والرئيس فؤاد شهاب (١٩٥٨ ـ ١٩٦٤)، والرئيس شارل حلو (١٩٦٤ ـ ١٩٧٠)، والرئيس سليمان فرنجية (١٩٧٠ ـ ١٩٧٦)، والرئيس الياس سركيس (١٩٧٦ ـ ١٩٨٢)، والرئيس الشيخ بشير الجميل (انتخب في ٢٣ آب واستشهد في ١٤ أيلول ١٩٨٢) والرئيس الشيخ أمين الجميل الذي انتخب في ٢١ أيلول وتسلم سلطاته في الموعد الدستوري المحدد أي في ٢٣ أيلول ١٩٨٢.

مع هذه العهود تعاقبت ٥٤ وزارة، وثمانية مجالس نيابية انتخبت على أساس خمسة قوانين انتخابية متعاقبة.

الاستمرارية الأولى في لبنان وفي نظام الحكم تتمثل في ما يعرف بالانتقال الدستوري، أي في توالي ولايات الرؤساء بشكل طبيعي، بالانتخاب من قبل المجلس حسب الأصول الدستورية، وفي المهل الدستورية، وفي ما يعرف حسب التقليد بعملية التسلم والتسليم بين الرئيس القديم والرئيس الجديد.

هذا التقليد مورس باحترام من قبل الجميع، لأن عملية التغيير كلها تتم بتقيد دقيق بالنصوص، ونظراً لأهمية الحدث الذي يمكن مقارنته بتغيير الرؤساء في الولايات المتحدة وفي فرنسا، وتبعاً لاستمرارية السياسة نفسها او لتغيرها. فالرئيس اللبناني، في هذه الناحية، ولايته هي بين الولايتين الفرنسية والأميركية (الرئيس الفرنسي ينتخب لسبع سنوات والأميركي لأربع سنوات، واللبناني لست سنوات).

ولكن بخلاف النظم السياسية الأخرى، فان النظام اللبناني ينطوي على عدد من العناصر الذاتية مما يجعل الاستمرارية أمراً مقبولاً لدى الجميع فلبنان بلد صغير يبرز فيه عنصران أساسيان في الحياة السياسية هما الطائفية والوراثة السياسية. ولذلك فان الطبقة السياسية ــ الادارية قلما يصيبها تغير أساسي، فضلاً عن أن العلاقات القائمة بين الزعماء والسياسيين هي من القدم والتشعب والاستمرارية بشكل او بآخر، بحيث أنه قلما يطرأ تبدلات أساسية في مفاهيم الحكم الذي يستند، من ناحية أخرى، على ثوابت معينة في السياستين الداخلية والخارجية، تسهم في تثبيت الاستمرارية، حتى وان اتخذت أحياناً شكل الجمود.

ثم أن الأحزاب السياسية العقائدية لم تتمكن حتى الآن من التفاعل داخل الحياة السياسية اللبنانية او التأثير عليها بحيث أن التمثيل النيابي بقي في غالب الأحيان محصوراً ــ عبر المناطق والدوائر والطوائف ــ في وجوه تقليدية لم يكن من السهل حتى الآن استبدالها أو تغييرها على أساس عقائدي. ولكن الحياة النيابية في لبنان، بالرغم من هذا الجمود الظاهري، كانت ولا تزال محركاً أساسياً لمجمل الحياة السياسية اللبنانية، بكون المجلس النيابي ليس فقط هيئة تشريعية بل ملتقى لتجمع ممثلي الفئات والطوائف اللبنانية كافة. والمجلس النيابي الحالي أدى في مرحلة المحنة اللبنانية دوراً أساسياً وتاريخياً ثبتت فائدته الحاسمة في صيف ١٩٨٢، فانتخب رئيسين متواليين في وقت خشي فيه الكثيرون، في الداخل والخارج من الفراغ الدستوري، الذي لو كان حصل لوقع خطر تمزق البلاد الفعلي.

«قبل موعد انتهاء ولاية رئيس الجمهورية بمدة شهر على الأقل أو شهرين على الأكثر، يلتئم المجلس بناء على دعوة من رئيسه لانتخاب الرئيس الجديد وإذا لم يدع المجلس لهذا الغرض فانه يجتمع حكماً في اليوم العاشر الذي يسبق أجل انتهاء ولاية الرئيس» (المادة ٧٣ من الدستور).

اجتماع المجلس في اليوم العاشر حكماً يعني اعطاء مهلة قصوى قبل ــ وخلال ــ العشرة أيام التي تسبق انتهاء ولاية الرئيس. وهذه الحالة انطبقت على الوضع الاستثنائي بوفاة الرئيس المنتخب الشيخ بشير الجميل، قبل تسلمه سلطاته الرسمية، فكان لا يزال في الامكان تطبيق أحكام المادة ٧٣ من الدستور، وهذا ما حصل، فاجتمع المجلس وانتخب رئيساً جديداً تسلم سلطاته رسمياً في اليوم المحدد، في ٢٣ أيلول، وبعدما أقسم اليمين أمام المجلس حسب نص المادة ٥٠ من الدستور.

ان هذه الاستمرارية الدستورية على مستوى رئاسة الجمهورية، وفي أوقات الحرب بالذات، اعتبرت انجازاً أساسياً في تطور الأزمة اللبنانية كلها، وذلك في عامي ١٩٧٦ (انتخاب الرئيس سركيس) و١٩٨٢ (انتخاب الرئيسين بشير وأمين الجميل). وهو انجاز استتبعه ترجمات أخرى على صعيد الأعمال الحكومية والتشريعية والادارية والقضائية. إذ أصبح بالامكان تشكيل الحكومات وسن القوانين وتعيين الموظفين وتحريك الادارة.

الاستمرارية الحكومية

بين أيلول ١٩٤٣ وأيلول ١٩٨٢ تعاقب على رئاسة الحكومة في لبنان خمسة عشر شخصية



السراي «الصغير» القديم في ساحة البرج عام ١٩٢٥

منهم من تولى الرئاسة مرات عديدة، وهم على التوالي: رياض الصلح، عبد الحميد كرامي، سامي الصلح، سعدي المنلا، حسين العويني، عبد الله اليافي، صائب سلام، خالد شهاب، رشيد كرامي، أحمد الداعوق، أمين الحافظ، تقي الدين الصلح، رشيد الصلح، سليم الحص، شفيق الوزان. تسعة من هؤلاء الرؤساء ألفوا أكثر من وزارة: رياض الصلح في عهد الشيخ بشارة الخوري، عبد الله اليافي في عهود بشارة الخوري وكميل شمعون وشارل حلو (وألف وزارة له قبل الاستقلال)، وكذلك سامي الصلح الذي ألف وزارات في عهدي بشارة الخوري وكميل شمعون، وحسين العويني (في عهود بشارة الخوري وفؤاد شهاب وشارل حلو)، وصائب سلام (في عهود بشارة الخوري وكميل شمعون وفؤاد شهاب وسليمان فرنجية) ورشيد كرامي (في عهود كميل شمعون وفؤاد شهاب وشارل حلو وسليمان فرنجية)، وسليم الحص (حكومتان في عهد الياس سركيس) وشفيق الوزان (في عهدي الياس سركيس وأمين الجميل).

في آخر عهد الشيخ بشارة الخوري وخلال الأزمة السياسية التي أدت الى استقالته تألف ثلاثة وزارات مصغرة (من ثلاثة أعضاء) لم تعمر، ورئسها على التوالي ناظم عكاري وصائب سلام واللواء فؤاد شهاب. وبعد ذلك، بعد انتخاب الرئيس كميل شمعون، ألف الأمير خالد شهاب الوزارة، وكانت رباعية (خالد شهاب، موسى مبارك، سليم حيدر وجورج حكيم).

أما وزارة أحمد الداعوق عام ١٩٦٠ فقد تألفت للاشراف على الانتخابات. وهي لم تتقدم من المجلس ببيان وزاري. وأما وزارة الدكتور أمين الحافظ عام ١٩٧٣ فقد تبعها أزمة خطيرة أدت الى عدم تمكنها من الوصول الى المجلس فاستقالت. وحكومة نور الدين الرفاعي العسكرية فقد تألفت في ٢٣ أيار ١٩٧٥ واستقالت في أول تموز من العام نفسه، وقد حالت ظروف أمنية وسياسية دون استمرارها، وهي بالتالي لم تتقدم ببيان وزاري الى مجلس النواب.

الوزارات في لبنان راوح عدد أعضائها من ثلاثة إلى اثنين وعشرين (حكومة الرئيس تقي الدين الصلح عام ١٩٧٣). فعدد الوزارات ازداد والمهام الحكومية تضاعفت، وعملية تأليف الحكومات في لبنان باتت تنطوي على عدد من العناصر والاعتبارات التي لم تكن شديدة التأثير قبل عام ١٩٧٠. بعد ذلك التاريخ لم تعد المعطيات الداخلية وحدها كافية لارساء أسس الحكومة اللبنانية، ولذلك أصبح اختيار رئيس الحكومة والوزراء مسألة دقيقة.

لكن كل الاعتبارات الداخلية والخارجية لم تحل يوماً دون التقيد بالنصوص والأصول. فاستمرت الاستشارات كتقليد يتمسك به رئيس الجمهورية قبل التكليف، والرئيس المكلف قبل التأليف. هذا فضلاً عن مواجهة المجلس ببيان

في الأعمال النيابية

المجلس النيابي، حين يعود بعد قليل الى ساحة النجمة، انما يوصل بالمكان والزمان، تراثاً سياسياً قومياً لم ينقطع وأن غير طريقه في غفلة من عين القدر. المجلس الحالي الذي انتخب عام ١٩٧٢ جدد له حتى الآن بواسطة ثلاثة قوانين: في ١٣ آذار ١٩٧٦ وفي ٢٠ شباط ١٩٧٨ وفي ٢ حزيران ١٩٨٠. فمدته التي كانت ستنتهي في ربيع عام ١٩٧٦ (أربع سنوات) صادفت للمرة الأولى وقوع «حرب السنتين»، ثم تبين بعد ذلك أنه لن يكون من السهل اجراء انتخابات نيابية جديدة طالما أن البلاد في حالة أمنية متأزمة، وان قوات وجيوشاً أجنبية موجودة على الأراضي اللبنانية بشكل أو بآخر.

وهكذا استمر مجلس ١٩٧٢ حتى اليوم، فانتخب ثلاثة رؤساء للجمهورية، وأعطى الثقة لثماني حكومات (حكومة صائب سلام في أيار ١٩٧٢، حكومة تقي الدين الصلح في تموز ١٩٧٣، حكومة رشيد الصلح في تشرين الثاني ١٩٧٤، حكومة رشيد كرامي في تموز ١٩٧٥، حكومة سليم الحص في كانون الأول ١٩٧٦، وحكومته الثانية في تموز ١٩٧٩، حكومة شفيق الوزان الأولى في تشرين الثاني ١٩٨٠، والثانية في تشرين الثاني ١٩٨٢).

وهذا المجلس الذي يرأسه منذ انتخابه الرئيس كامل الأسعد، فوض الحكومة حق التشريع بمراسيم اشتراعية في ثلاث مناسبات، (مرتان لحكومة الرئيس سليم الحص الأولى في مطلع عهد الرئيس سركيس، ومرة لحكومة الوزارة الثانية في مطلع عهد الرئيس أمين الجميل).

فالمراسيم الاشتراعية التي صدرت بين ١/١/١٩٧٧ و٣٠/٦/١٩٧٧ والتي وافق عليها مجلس النواب تناولت الشؤون الأمنية والدفاعية، والانماء والتعمير، والاقتصاد والشؤون الاجتماعية والتربوية والاعلامية، وشؤونا أخرى مختلفة.

ولكن مجلس النواب في لبنان، مثله مثل سائر المجالس النيابية في العالم، عرف تباطئا في ممارساته التشريعية بسبب حاجة السلطات



مجلس النواب.. على الرغم من الدمار استمر في اعماله وانتقل إلى قصر منصور

وزاري حسب نص المادة ٦٦ من الدستور: «يتحمل الوزراء إجمالياً تجاه المجلس تبعة سياسة الحكومة العامة، ويتحملون افرادياً تبعة أفعالهم الشخصية، ويعد بيان خطة الحكومة ويعرض على المجلس بواسطة رئيس الوزراء أو وزير يقوم مقامه».

فالديموقراطية البرلمانية كانت الأصل والمنطلق. والعالم كله شهد باعجاب إصرار اللبنانيين على التمسك بالديموقراطية كممارسة ملتصقة بالحرية التي لا يقوم الكيان اللبناني بدونها. ولذلك بنصوص الدستور، وباحكام الميثاق الوطني، وبأجواء الديموقراطية الحقيقية تم ويتم تأليف الحكومات في لبنان. فالمحنة لم تسقطنا في الامتحان في هذا المجال، لا في الجوهر ولا في الشكل، فالمراسيم تصدر انطباقاً للنصوص، والرئيس المكلف يقوم بزياراته التقليدية، وان بصورة مختصرة نتيجة للظروف الحاضرة، ولكن الشرعية ـ وهي ليست في النتيجة سوى مبدأ قانوني ـ بقيت مصانة، برضى الجميع وموافقتهم وان أحياناً بغير دعمهم الحقيقي.

التنفيذية الى التشريع السريع والمتخصص احيانا، والذي لا يتناسب احيانا مع الاجراءات البرلمانية الطويلة النفس. وهكذا بين حق اقتراح القانون (وهو المبادرة الصادرة عن أعضاء المجلس) وبين مشروع القانون (المبادرة الصادرة عن الحكومة) هناك فجوة كبرى لصالح مشاريع القوانين التي تقدم الى المجلس ليوافق عليها، وبينها عدد غير كبير من مشاريع القوانين المرسلة بصفة المعجل حسب المادة ٥٨ من الدستور، التي تجيز للحكومة حق نشر مشاريع القوانين بمراسيم تتخذ في مجلس الوزراء بعد أربعين يوماً من إرسالها الى المجلس بصفة المعجل، بموافقة مجلس الوزراء وخلال الدورات العادية.

وهكذا خلال عهد الرئيس فؤاد شهاب (١٩٥٨ ــ ١٩٦٤) صوت المجلس على ٦٧٥ قانونا بينها ١٢٠ من أصل برلماني، وذلك عدا القوانين المنشورة بمراسيم حسب المادة ٥٨ من الدستور وعددها ٢٣٥ مشروعاً، وعدا المراسيم الاشتراعية التي اتخذت آنذاك وعددها ١٥٦. فمجموع النصوص الاشتراعية التي أقرت في عهد الرئيس شهاب بلغت ١٠٧٥ نصا.

في عهد الرئيس حلو (١٩٦٤ ــ ١٩٧٠) أقر المجلس ٣٤٢ قانونا بينها ٤٣ من أصل نيابي بالاضافة الى ٧١ مرسوما اشتراعيا و٨١ مشروعاً معجلاً. أي ان ٤٩٤ نصاً قانونياً أقرت في عهد الرئيس حلو.

أما في عهد الرئيس فرنجية (١٩٧٠ ــ ١٩٧٦) فقد بلغ عدد القوانين ٣٨٦ قانوناً، ١٩٥ منها ذات أصل حكومي و٢٥ ذات أصل برلماني و١٩١ وضعت موضع التنفيذ بمرسوم.

أما في عهد الرئيس سركيس فان أعمال الدولة كانت في معظم الأحيان مجمدة، بحيث أن مجمل المراسيم (وليس القوانين) لم تتجاوز الخمسة آلاف.

على أن مجلس النواب في لبنان له مهمات أخرى، بالاضافة إلى صلاحياته التشريعية التي يوافق فيها على مشاريع القوانين المرسلة إليه من قبل الحكومة، أو يقر فيها الاقتراحات التي يتقدم بها أعضاؤه، أو يوافق على المراسيم الاشتراعية بصورة صريحة أو ضمنية، أو أنه يترك فترة الأربعين يوماً تنقضي، في حال المشاريع المعجلة، وبذلك يخول الحكومة حق إصدار القوانين بمراسيم. ولجانه البرلمانية هي لجان نشطة، وتقوم بمعظم العمل التشريعي.

فمجلس النواب ينتخب رئيس الجمهورية، وأمامه يقسم الرئيس الجديد اليمين الدستورية، وهو الذي يحق له الموافقة على تعديل الدستور، ويعطي الحكومة الثقة ويراقب أعمالها، كما ان له صلاحيات تتعلق بالموافقة على المعاهدات، وبمحاكمة الرؤساء والوزراء حسب المواد ٦٠ و٧٠ و٩٠ من الدستور (المحكمة العليا التي لم تنشأ).

وبالاضافة إلى كل ذلك فهو منبر وملتقى. انه منبر لجميع الآراء، وملتقى لجميع التيارات. فمهما اشتدت وطأة الكلام في الداخل، ومهما تضاربت الأفكار وعنفت الا انها تبقى ضمن اطار الحوار والكلام، وأقل ضرراً بكثير فيما لو خرجت الى الخارج. لذلك فان المتمسكين بالنظام البرلماني في لبنان، حريصون جداً على ابقاء دور المجلس التقليدي، وان بصيغ معدلة، وان بقانون انتخابي جديد يأخذ بالاعتبار متغيرات البلاد ومتطلباتها.

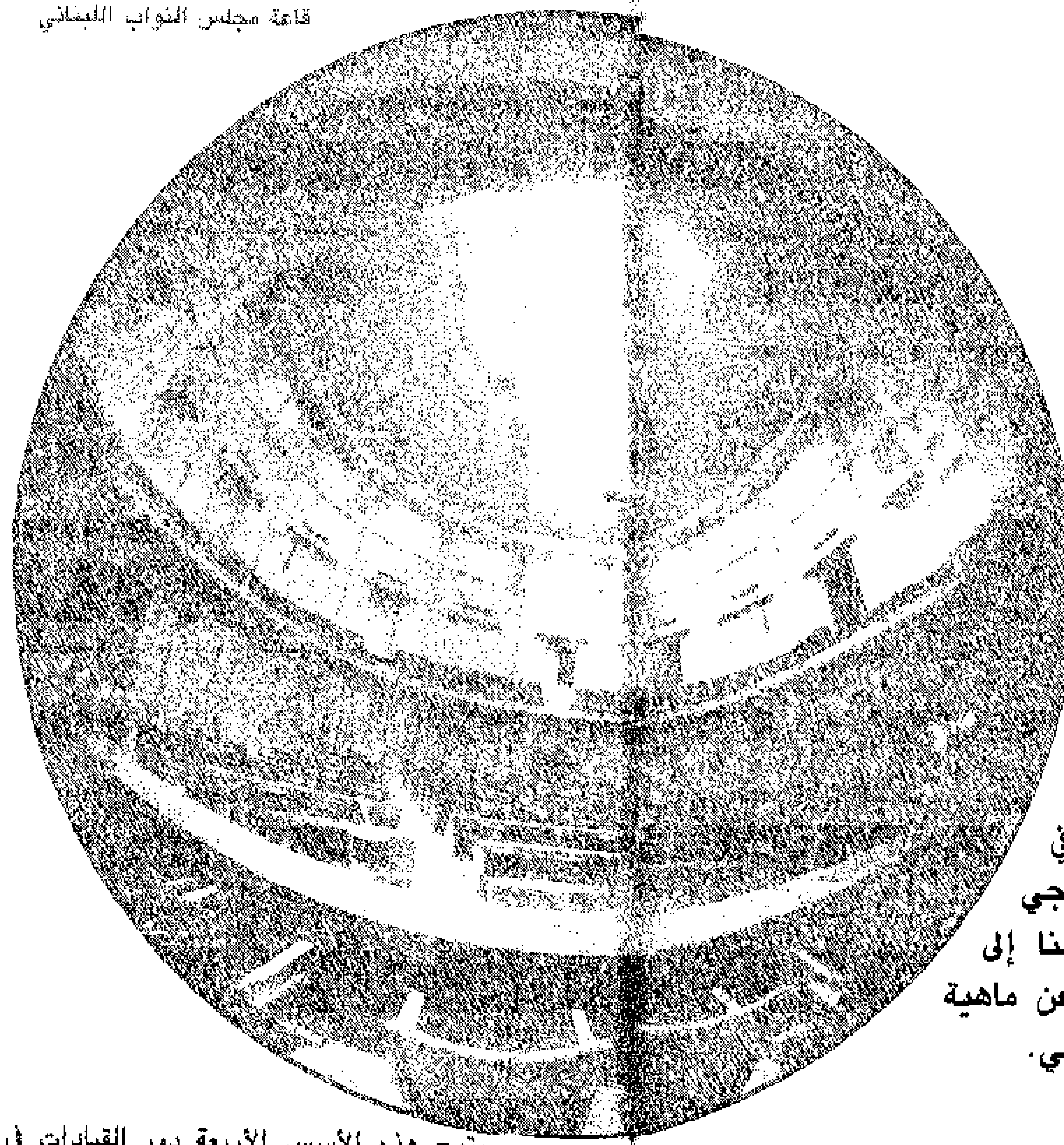
فالابقاء على الديموقراطية والحرية كانا من جملة المكاسب التي خرجت من دروس المحنة اللبنانية. ونظامنا الذي صمد في مختلف مرتكزاته بقي يعمل، وبقيت المؤسسات الدستورية شاهداً على ذلك الاستمرار، الذي ان وصف بالصمود أوبالعناد، إلا انه يمثل وجهاً من أوجه الحياة اللبنانية، ولعله أنبلها.

المراجع

ــ جان كلود دو وانس: المادة ٥٨ من الدستور اللبناني (مجلة الشرق الأوسط، ١٩٧٢، عدد ١٤).
ــ أنطوان عازار: لبنان أمام الغد (المكتبة الشرقية ــ ١٩٧٨).
ــ انور الخطيب: الدولة والنظم السياسية (١٩٧٠).
ــ أدمون رباط: التكوين السياسي والتاريخي والدستوري للبنان (المكتبة الشرقية ــ ١٩٧٣.
ــ سليم سليمان: البرلمان اللبناني (١٩٧٩).
ــ باسم الجسر: ميثاق ١٩٤٣ (بيروت ١٩٧٨).
ــ ندي تيان: السلطة التنفيذية في النظام اللبناني (١٩٧٠).
ــ شارل رزق: النظام السياسي اللبناني (١٩٦٦).

الثوابت في النظام السياسي اللبناني وفي المجالس النيابية : الهيئة الانتخابية الموحّدة

د. انطوان مسرّة


قاعة مجلس النواب اللبناني

إن دراسة التمثيل النيابي في لبنان تتطلب، انطلاقاً من قاعدة منهجية، مقارنة حول المجالس النيابية في المجتمعات الكثارية، لأن الاستقرار السياسي في هذه المجتمعات مرتبط بدور القيادات ومركزها الاستراتيجي في قلب كل فئة وفي علاقتها بباقي الفئات. هذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن كيفية تصنيف النظام السياسي اللبناني وعن ماهية التمثيل الذي يؤمن التجانس في المجتمع السياسي اللبناني.

الثوابت في التصنيف:

ليس النظام السياسي اللبناني «فريداً من نوعه» بل ينتمي الى نمط من الأنظمة يسمى الأنظمة التوافقية المطبقة حاليا، او في فترات تاريخية سابقة، في الديموقراطيات الاوروبية الصغرى (سويسرا، النمسا، بلجيكا، والبلاد المنخفضة) وفي بعض بلدان العالم الثالث (لبنان، ماليزيا، قبرص، نيجيريا، غانا، سورينام..) وهي تتميز بالمواصفات الأربع الآتية:

١ ــ الحكم بواسطة الائتلاف الواسع، مما يميز هذه الأنظمة عن النمط البريطاني حيث تحكم الأكثرية وتبقى المعارضة خارج الحكم.

٢ ــ اعتماد مبدأ النسبية بدلا من قاعدة الأكثرية في التمثيل وفي توزيع المناصب العليا.

٣ ــ الفيتو المتبادل الذي تمارسه احدى الأقليات كوسيلة للحفاظ على حقوقها.

٤ ــ الادارة الذاتية في بعض الشؤون التي هي في لبنان منذ العثمانيين، عملا بالمادتين ٩ و١٠ من الدستور، شؤون الأحوال الشخصية والتعليم.

يتوج هذه الأسس الأربعة دور القيادات في الحفاظ على استقرار النظام الذي لا ينطوي على شروط الاستقرار ذاتها كما في البلدان المتجانسة. يفترض هذا الدور نخبة واعية لطبيعة النظام وشروطه ولها مركز استراتيجي في قلب كل فئة وفي علاقتها بباقي الفئات. يتميز النظام اللبناني عن الأنظمة التوافقية الأخرى بتفاعله مع خصائص الدين الاسلامي وبمحيط خارجي لا توافقي أو مناقض للتوافقية. أما عبارة توافقية كترجمة لعبارة (Modéle Consociatif) فلا علاقة لها بالكلمة المتداولة حول ما يسمى «الوفاق» اذ التوافقية في علم السياسة المقارن وخاصة في مؤلفات أرنت ليبهارت (Arend Lijphart)[١] تصنيف ونمط مؤسسي من الأنظمة السياسية.

أساس الجدلية حول النظام اللبناني مرتبط بأسباب منهجية. من يستند مثلا الى بعض المفاهيم التقليدية يتوصل الى نتيجة أن الميثاق الوطني ظاهرة «شاذة» أو فيها «ازدواجية» أو «تناقض» مع الدستور بينما الدستور والميثاق يؤلفان معا النظام السياسي اللبناني كتعبير عن النموذج التوافقي ومبادئه الاساسية الأربعة ودور النخبة الاستراتيجي فيه.

يفترض النموذج شروطاً لنجاحه يتعلق أهمها: «بميزان القوى» وبتنظيم النخبة وبالحد من اللجوء الى الفيتو بتقليص الفروقات الاجتماعية والثقافية التي تشكل عامل استقطاب للنزاعات وشروطا اخرى حول العلاقات مع المحيط الخارجي. هذه الشروط مرتبطة بعوامل أربعة:

١ ــ انها مرتبطة بالبنيات الذهنية التي، من التجارب الثابتة والمؤلمة، تكسب القناعة بأن اللجوء الى العنف لتغيير الثوابت الاساسية باهظ الكلفة ونتائجه غير مضمونة، وان كانت مضمونة فهي زهيدة نسبة الى ضخامة الكلفة.

٢ ــ انها مرتبطة ايضا بالاعتراف بشرعية الفدرالية اللاجغرافية في لبنان وتكريسها مؤسسيا. ليست الدولة الموحدة مناقضة للدولة الفدرالية، كما سارت على شرحه النظرية الدستورية التقليدية. في المجتمعات المتنوعة يمكن تطبيق الفدرالية في اطار دولة موحدة كما الحال في لبنان بموجب المادتين ٩ و١٠ من الدستور اللتين تعطيان الطوائف الحق في ادارة أمورها في الاحوال الشخصية والتعليم. في المجتمعات المتنوعة تطبق الفدرالية على أساس جغرافي عندما تلتقي الفروقات الاجتماعية مع الحدود الجغرافية، وتطبق على أساس شخصي في البلدان حيث تمتزج الفروقات الثقافية جغرافيا. فالخريطة الطائفية اللبنانية تسمح باعتماد فدرالية لا جغرافية كما الحال منذ العثمانيين مع امكان إعادة تنظيم الادارة الذاتية إذا اقتضى الأمر.

٣ ــ استمرارية النموذج تقضي باعادة النظر في تنظيم العلاقة مع المحيط الخارجي انطلاقا

■ د. انطوان مسره، استاذ في الجامعة اللبنانية ــ كلية الاعلام والتوثيق ومعهد الحقوق والعلوم السياسية.



جلسة مجلس النواب لانتخاب رئيس الجمهورية عام ١٩٦٤.

من الدراسات حول وضع الدول الصغرى في النظام العالمي. فالسياسة الخارجية التي تؤمن استمرارية النموذج هي مزيج من «الانحياز» الواضح بين القطبين الاميركي والسوفياتي ومن «الحياد العربي» وإلا ظل النظام مسرحاً وضحية للحرب العالمية الثالثة التي تجري على أرض الآخرين وللحرب العربية الباردة.

٤ ـ ان استمرارية النموذج تفترض داخلياً توازناً للقوى للحفاظ على طبيعة النظام كي لا يسعى أي من الفرقاء للاستقواء على الآخر الى ان تتوصل الذهنيات الى العدول النهائي عن المسعى الى الاستقواء.

النموذج التوافقي يوفق بين ضرورة السلطة المركزية القوية للحد من المداخلات الخارجية ومن السعي الداخلي الى الهيمنة، وضرورة الحفاظ على الخصائص الاجتماعية والثقافية للمجتمع المتنوع. ونجاح التوافقية يسمح بتخطيها، لأنه نجاح يوفر الأمان النفسي للمجموعات التي يتألف منها المجتمع المتنوع».

الثوابت في التمثيل:

أما معضلة التمثيل النيابي في لبنان فانها تكمن في التوفيق بين التمثيل الوطني وتمثيل الطوائف. اعتمد النظام اللبناني لحلها مبدأ الهيئة الانتخابية الموحدة، الذي بموجبه يشترك ناخبون من طوائف مختلفة في انتخاب مرشحين من طوائف مختلفة، بدلاً من أن يشكل الناخبون في كل طائفة على حدة هيئة انتخابية منفردة لانتخاب ممثلين عنهم. تنص المادة ٣ من قانون الانتخاب تاريخ ٢٦ نيسان ١٩٦٠ في هذا الصدد على ما يلي:

«يحدد عدد نواب كل طائفة في كل دائرة وفقا للجدول الملحق بهذا القانون»، بينما تنص المادة ٤ بأن جميع الناخبين في الدائرة الانتخابية **على اختلاف طوائفهم** يقترعون للمرشحين عن تلك الدائرة. «الغاية من اعتماد ما نسميه مبدأ الدائرة الانتخابية الموحدة هو حمل المرشحين على التعاون والاعتدال، لأن

المرشح مرغم على الاعتماد على أصوات ناخبين لا ينتمون الى طائفته.

لا ينسجم مبدأ الهيئة الانتخابية الموحدة إلا مـع الدائرة الكبـرى التي بطبيعتهـا متعددة الطوائف. فكلما صغرت الدائـرة كلما انحصر تكوينها الطائفي وانحرف المبدأ عن روحيته. لذا فان حجم الدائرة الانتخابية موضوع رئيسي في العملية التمثيلية. يمكن التمييز بين ثلاث مراحل في موضوع حجم الدوائر الانتخابية ابتداء من الدائرة الكبرى على أساس المحافظة (١٩٣٤ ـ ١٩٥٠)، وانتقالا الى زيادة عـدد الدوائر الى تسع (١٩٥١ ـ ١٩٥٣) وانتهاء الى التصغير مـن ٣٣ الى ٢٦ دائـرة (١٩٥٣ ـ ١٩٥٧)، حسبما هو مفصل في البيان رقم ١.

مـرشحا لبيـروت الثانيـة أو الثالثـة. اظهـرت الأزمات في لبنان الطابع الشكلي للنص القانوني القائل بأن «عضو مجلس النواب يمثل الأمـة جمعا» (المادة ٢٧ من الدستور).

٢ ـ ينافس المجلس في دوره خلال الأزمات مجالس تمثل الطوائف مباشرة، أو «الشـارع» الذي هو مؤسسة فعلية تنتحل صفة تمثيـل الطوائف. انها الظاهرة السلبية لحسنات الهيئة الانتخابية الموحدة: حيث ان المبدأ يرغم على الاعتدال (وان كان ذلك نسبياً ضمن الدائرة المصغرة الحالية) فانه يعزل عن المجلس النيابي الممثـلين «الحقـيقـيـين» للطوائف، او الذيـن يعتبرون أنفسهم كذلك وينتحلون هذه الصفة، مما يؤدي خلال الأزمات الى ظهور قمم ومجالس

بيان رقم (١)
تطور الجغرافية الانتخابية في لبنان

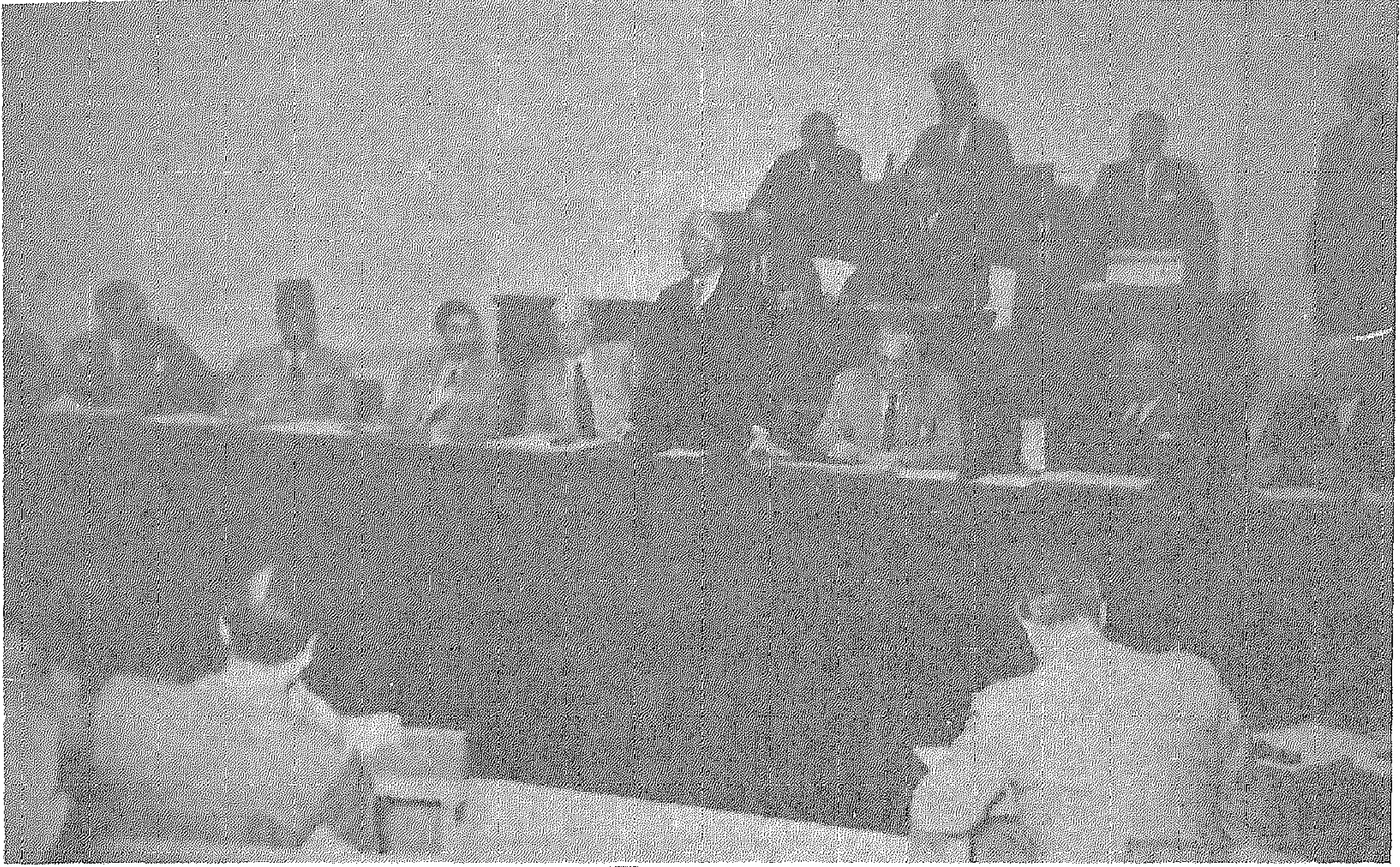
	السنة	عدد الدوائر	عدد المقاعد
الدائرة الكبرى	١٩٣٤ ـ ١٩٥٠ المجالس رقم ٣، ٤، ٥، ٦	٥	٢٥، ٦٣، ٥٥، ٥٥
الدائرة الكبرى نسبياً	١٩٥١ ـ ١٩٥٣ المجلس رقم ٧	٩	٧٧
الدائرة الصغرى	١٩٥٣ ـ ١٩٥٧ المجلس رقم ٨	٣٣	٩٩
	١٩٥٧ ـ ١٩٦٠ المجلس رقم ٩	٢٧	٩٩
	١٩٦٠ ـ ١٩٨٣ المجالس رقم ١٠، ١١، ١٢، ١٣	٢٦	٩٩

ما هي الثوابت في التجربة الانتخابية خلال نصف قرن في ما يتعلق بمبدأ الهيئة الانتخابية الموحدة وعلاقتها بحجم الدوائر؟ نستخلص من التجربة النتيجتين التاليتين:

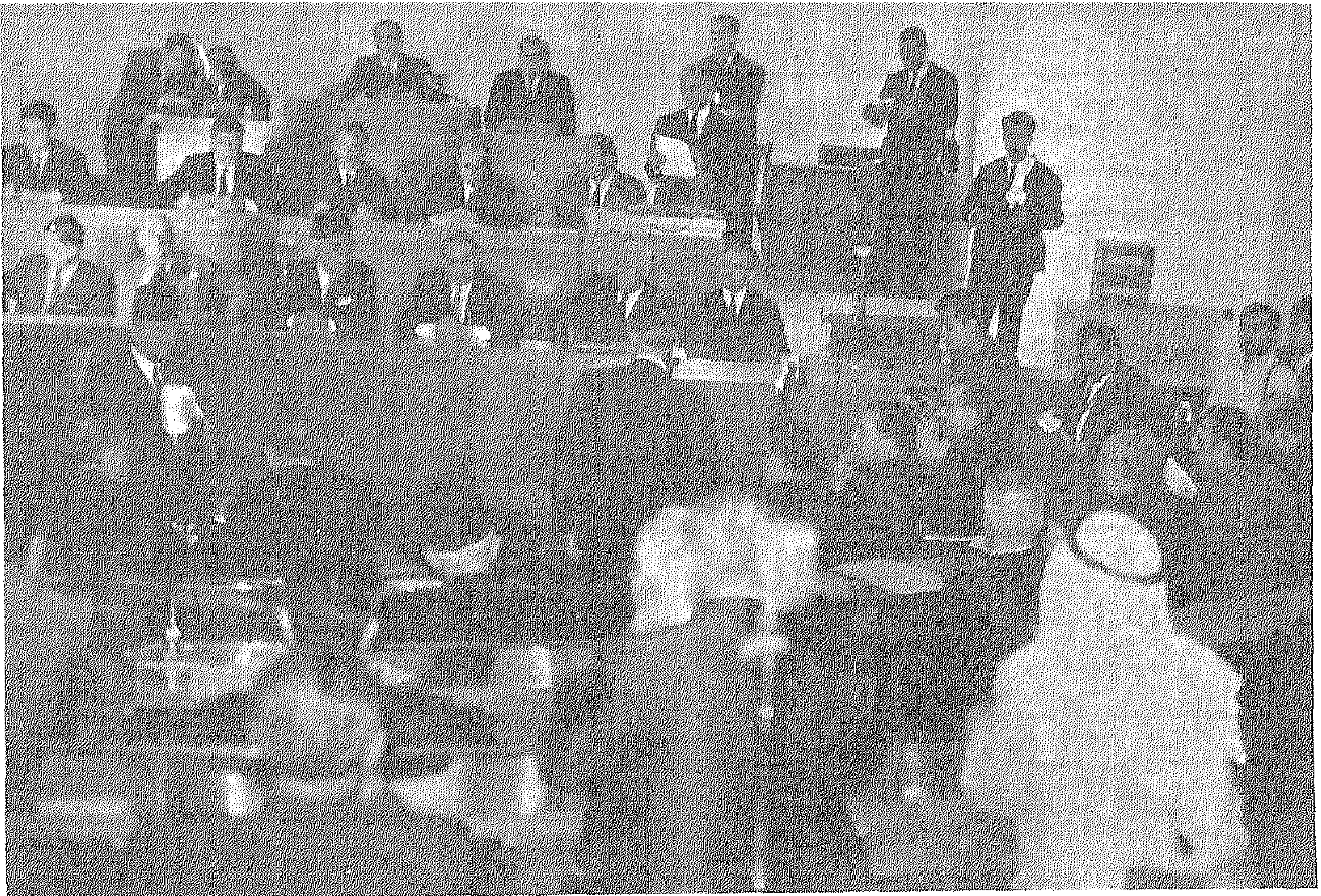
١ ـ لا ينسجم مبـدأ الهيئة الانتـخـابيـة الموحدة مع الدائرة الصغرى. يجعل هذا الحجم من النـائب منتخبا عمليـا من أبنـاء طائفتـه أو طوائف محددة. فمرشح البسطا، الذي كان يعتمد قبل ١٩٥٣ على ناخبي الأشرفية، اصبح

خارج المجلس تحد من دور المجلس النيـابي الشرعي. انها ظاهرة مستمرة ترتبط معالجتها بموضوع حجم الدائرة وبكيفية تمثيل الطوائف المؤسسي. ان جولة الرئيس رشيـد الصلح في نيسـان ١٩٧٥ بين رؤسـاء الطوائف لاحتواء النزاع هو مظهر من مـظاهر النـظام اللبناني خلال الأزمات.

حـين تحتاج البـلاد الى دور نيـابي دون منافس تسعى كل مجمـوعة من الطوائف الى



١٩٥١: أحمد الأسعد يرئس جلسة نيابية. في مقاعد الحكومة من اليمين: رشيد بيضون، فيليب تقلا، أميل لحود، عبد الله اليافي، فيليب بولس، رشيد كرامي، يوسف الهراوي، محمد صفي الدين وبشير الأعور.



١٩٦٠: الرئيس كامل الأسعد. في مقاعد الحكومة من اليمين: رضا وحيد، فؤاد عمون، شارل حلو، حسين العويني، جبران نحاس، وفؤاد نجار.



١٩٦٨: الرئيس صبري حماده. في مقاعد الوزراء «حكومة المجهولين» من اليمين: الياس سابا، جميل كبي، هنري اده، صائب سلام، غسان تويني، حسن مشرفية، منير حمدان، خليل أبو حمد، صائب جارودي، أميل بيطار، وجعفر شرف الدين.

التعبير عن ارادتها في **هيئات منفردة** من خلال من تعتبرهم القيادات الطبيعية. فيتحتم على السلطة التنفيذية اجراء مشاورات مع ممثلي الطوائف بين القوى السياسية أو الفعاليات. لم ينعدم دور المجالس النيابية في لبنان خلال التاريخ النيابي، ولكن منافسة القمم والشارع تحد من هذا الدور بالرغم من جهود رئاسة المجلس والكتل، إذ ان السبب هو بنيوي يكمن في مبدأ الهيئة الانتخابية الموحدة وطريقة ممارستها.

ان دراسة المجلس النيابي خلال الأزمات، وخاصة خلال الحرب منذ ١٩٧٥، وبالتالي دور القمم والتجمعات وهيئات الحوار والتنسيق، يحتم الاعتماد على تصنيف استنتاجي للنظام السياسي اللبناني وعلى مقاربة جديدة حول دور القيادات الاستراتيجي فيه.

السؤال المطروح، من خلال تجربة نصف قرن، هو كيفية تأمين قيادات فاعلة وذات مركز استراتيجي تنوب عن الشارع وعن **التجمعات شبه البرلمانية**. ان النظام اللبناني القائم على التفاوض من أجل احتواء النزاعات يقضي بايجاد صيغة تحافظ على مبدأ الهيئة الانتخابية الموحدة التي هي عنصر اعتدال وتضامن، ولكن بتصحيح احدى نتائجها باجراء تمثيل مباشر للطوائف ضمن **هيئة مصغرة** كمجلس شيوخ، أي بتكريس مؤسسي لما يجري في الواقع من انتحال صفة التمثيل ومن الحد من دور المجلس النيابي. ●

المراجع

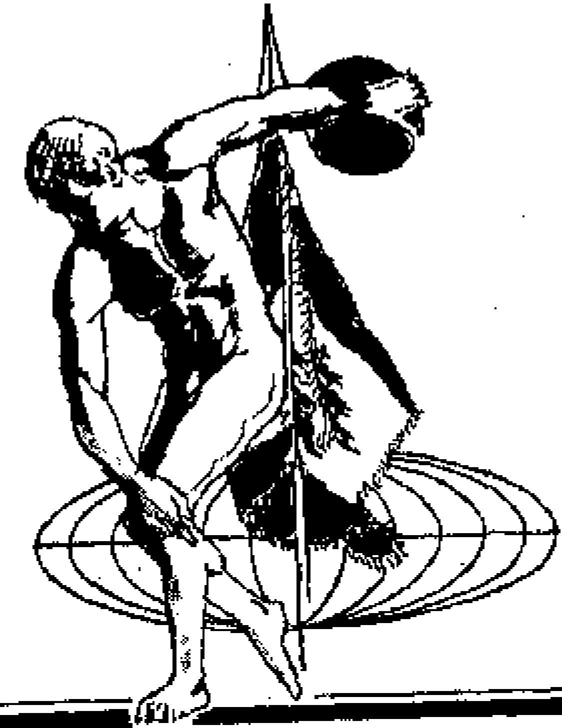
(1) Arend Lijphart, *Democracy in Plural Societies. A Comparative Exploration,* New Haven and London, Yale University Press, 1977, 248 p.

لمزيد من التفاصيل يراجع كتابنا:

Le Modéle Politique Libanais et sa Survie. Essai sur la Classification et L'aménagement d'un Systéme Consociatif, Beyrouth, 1982, 727 p. (Sous Presse).

وكتابنا حول «البنية الاجتماعية للمجلس النيابي اللبناني»:

La Structure Sociale du Parlement Libanais (1920-1976), Publications du Centre de Recherche de L'Institut des Sciences Sociales, n° 18, Université Libanaise, Beyrouth, Librairie Orientale, 1977, 381 p.



الرياضة في لبنان خلال نصف قرن

ناصيف مجدلاني

وفد الاتحاد الرياضي اللبناني للجامعات إلى بطولة العالم الجامعية «الأونفرسياد» التي أقيمت في بودابست سنة ١٩٦٥. ويبدو في المقدمة أحمد الطرابلسي، ووراءه من اليمين: دبس، كشلي، نصار، ومجدلاني

شاء القدر أن أعيش نهضة لبنان الرياضية، وأن أسجل وقائعها وتطورها في «الحياة الرياضية» التي أصدرتها في مطلع سنة ١٩٣١، بعدما عملت محرراً رياضياً أو بالأحرى «متطوعاً» لتغطية مباريات كرة القدم الكبيرة في «الأحوال» و«النداء» سنة ١٩٣٠. و«الحياة الرياضية» هي أول صحيفة رياضية متخصصة ظهرت في لبنان والعالم العربي.

وكتب لي الحظ أن اشاهد شارل حلو رئيس الجمهورية الأسبق يدافع عن مرمى فريق السركل اليسوعي في كرة القدم، والشيخ بيار الجميل، الذي قدم لوطنه رئيسين للجمهورية، يقود فريق السركل لاعباً مميزاً ورئيساً مطاعاً وحكماً محترماً واداريا فاعلاً، كما كتب لي الحظ ان التقي الرئيس صائب سلام، أول من أدخل قفازات الملاكمة الى لبنان، وأول من لعب مباراة ملاكمة مع رفيقه في الجامعة حسين سجعان وأن أرافق محيي الدين النصولي عندما كان رئيسا للكشاف المسلم واتحاد هواة الرياضة البدنية السوري ـ اللبناني وقبل أن يحترف الصحافة والسياسة ويصبح نائباً ووزيراً، وأواكب هنري فرعون بطلا في كرة المضرب وركنا في السياسة الوطنية، ومعروف سعد النائب الشهيد وبطل قذف الكرة الحديد ورمي القرص وكرة السلة، وأرى توفيق عساف النائب والوزير ينطلق من بساط المصارعة الى فنزويلا ليصارع مشاق الحياة وينتصر عليها، ويحمل جنى انتصاره الى وطنه.. وأصفق لأدمون ربيز رئيس فريق النهضة الرياضية وامير الكرة اللبنانية كما أسميته، لا لتفوقه الرياضي، وخلقه الرياضي وشعبيته الواسعة فحسب، وانما لمساهمته في تأسيس أول ناد وطني لكرة القدم، وشد جمهور اللعبة الشعبية في «الاونيون سبورتيف» الذي أسسه جورج ديمون أحد كبار موظفي المفوضية الفرنسية العليا في فرن الشباك الى نادي «الرينيسانس» المجاور لمار الياس بطينا في المصيطبة.

صور وأسماء عزيزة تعيش في ذاكرتي، أحببت عرضها قبل أن استعرض الرياضة اللبنانية في «٥٠ سنة» لأنها تعني الكثير بالنسبة للرياضة في لبنان وانطلاقتها الأولى وأبعادها وأهدافها، كما هي اطلالة مشرقة لكل حديث يتناول تاريخ الرياضة في لبنان.

وبعد، ماذا يمكن أن أرويه عن الرياضة اللبنانية في نصف قرن؟

القصة طويلة، وغنية بالعطاء اللبناني الفردي، والحماسة الوطنية، والانفتاح على الدنيا، والأحداث والتضحيات والتغييرات


الرئيس رياض الصلح


الرئيس شارل حلو


الرئيس صائب سلام

والمبادرات الجريئة، ولكني سأحاول أن أوجزها بقدر ما استطيع، واتوقف قليلاً عند المنعطفات المثيرة والتحولات الرائعة والانجازات الفذة في مسيرتنا الرياضية بدءاً من سنة ١٩٣٢، أي خلال ٥٠ سنة كما شاء الصديق العزيز والزميل الكريم فاروق بربير أحد حكامنا السابقين الناجحين في كرة السلة.

ملامح نهضتنا الرياضية في الثلاثينات

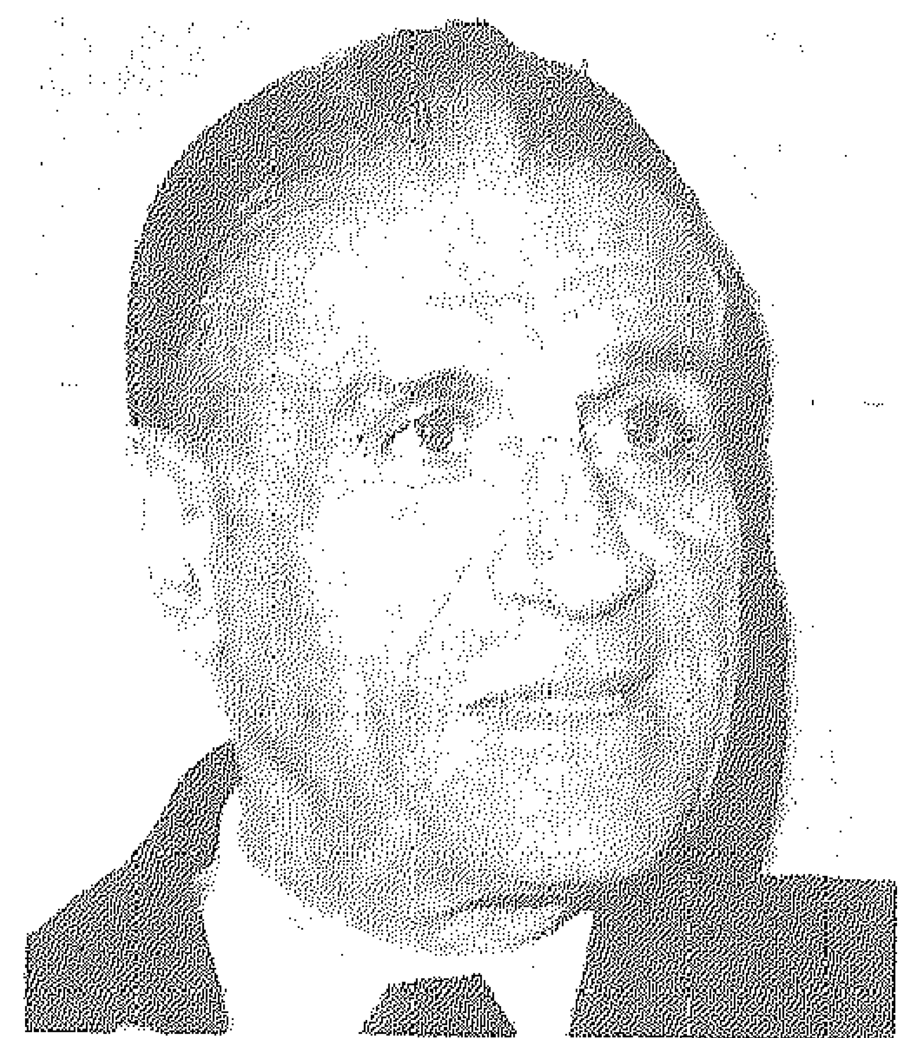
كان عدد الجمعيات الرياضية في لبنان في الثلاثينات محدوداً. وكانت كثرة الجمعيات تعمل في محافظة بيروت، وتعنى أكثر ما تعنى بكرة القدم التي لا تزال الرياضة الشعبية الأولى في لبنان شأنها في معظم بلدان العالم.

أما الألعاب التي كانت تستهوي اللبنانيين في الثلاثينات إضافة الى كرة القدم، ووجدت لها جمعيات مرخصة تهتم بها وتنظم لها مباريات ومسابقات بنسب متفاوتة فهي: كرة المضرب، ألعاب القوى، الجمباز، المصارعة، الملاكمة، رفع الأثقال، كرة الطاولة، الدراجات، السباحة والتزلج على الثلج.

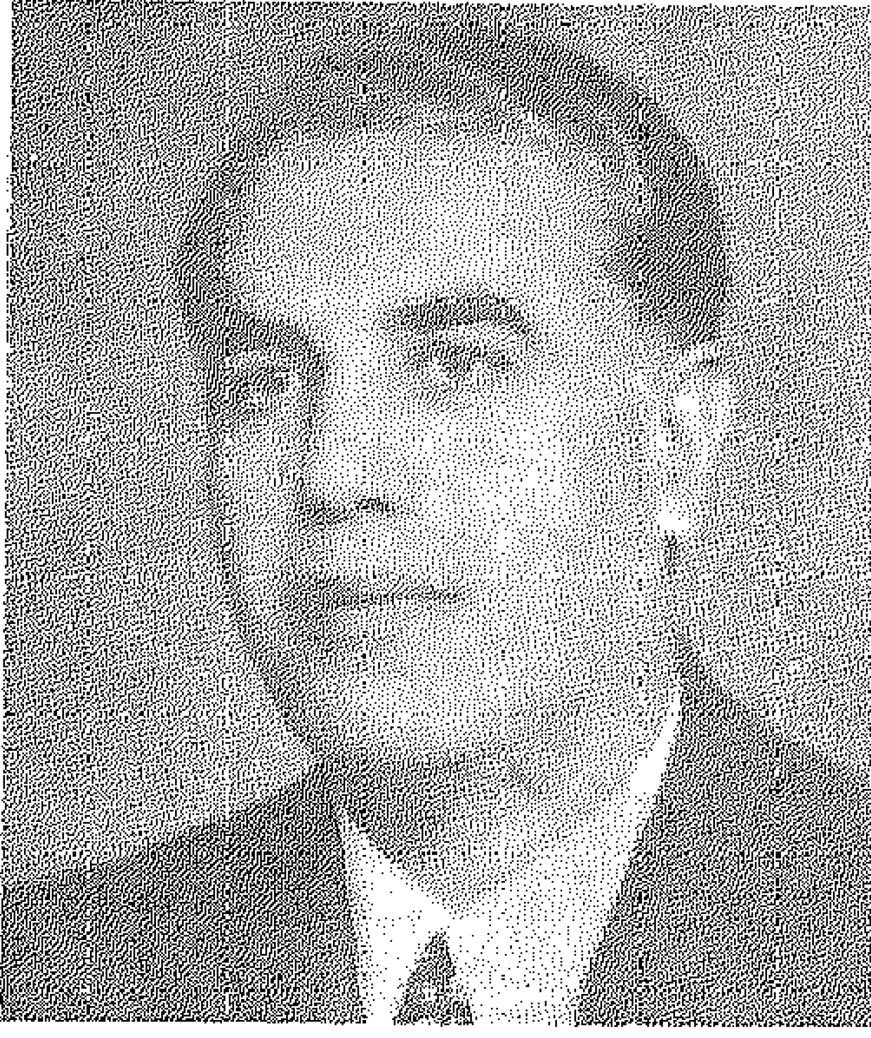
وقد سجل العقد الثلاثيني تصاعدا في شعبية كرة القدم وفي عدد هواتها ورواد ملاعبها، وكان لتأسيس اتحاد لها وانضمامه الى الاتحاد الدولي «الفيفا» سنة ١٩٣٣، وتنظيمه مسابقات رسمية لها (بطولة وكؤوس) واستضافة فرق سورية وفلسطينية ومصرية ويونانية ونمساوية ورومانية أثر كبير في تطوير اللعبة بالاضافة إلى ظهور نادي حلمي سبور وتعاقده مع المدرب المجري شامو زنجر، الى جانب النهضة الرياضية، والسكة و«الفارستي» والهومنتمان والهومنمن.

ومن سمات العقد الثلاثيني أذكر:

- بناء ملعب بيروت البلدي وافتتاحه سنة ١٩٣٦. وكان أكبر ملعب رياضي لا في العاصمة وانما في لبنان كله. وقد بناه الجيش الفرنسي على أرض مقدمة من بلدية بيروت وفق عقد يقضي بعودته الى البلدة بعد أن يستعمله الفريقان بالتساوي مدة ١٥ سنة.
- اطلاقي دعوة العرب الى اقامة أولمبياد عربي، وقيامي باتصالات واسعة بمختلف المراجع الرياضية والاعلامية وذلك سنة ١٩٣٧. وقد تحقق «الحلم» ولو باسم آخر سنة ١٩٥٣ ببادرة من جامعة الدول العربية.
- تأسيس ثاني اتحاد رياضي لبناني مرخص سنة ١٩٣٧، وهو «الاتحاد اللبناني» للمصارعة ورفع الأثقال، واقامة أول بطولة لبيروت ولبنان في كلتا اللعبتين.
- تأليف لجنة عليا للرياضة والتربية البدنية سنة ١٩٣٧ بقرار من وزير التربية الوطنية والفنون الجميلة حبيب أبو شهلا للنهوض بالحركة الرياضية، ولكن هذه اللجنة لم تعقد أي اجتماع لأنها ضمت أسماء أكثر مما ضمت فعاليات..
- اهتمام صحافي ملحوظ بالنشاط الرياضي في


الشيخ بيار الجميل


الشهيد معروف سعد


غبريال الجميل

الصحافة اللبنانية، وتخصيص صفحة رياضية أسبوعية في معظم الصحف السياسية اليومية.

● صدور أكثر من صحيفة رياضية اسبوعية إضافة الى «الحياة الرياضية» التي عطلتها السلطة أربع سنوات، وحلت محلها «الملاهي» الى أن تم الافراج عن «الحياة الرياضية» فاستأنفت الصدور ١٩٣٨ وغابت «الملاهي» مع «شقيقاتها» الصحف الرياضية.

● طلب انشاء نقابة للصحافة الرياضية و«وأد» الطلب في أدراج المسؤولين!

● اعلان الحرب العالمية الثانية في أول أيلول ١٩٣٩، واطفاء جذوة انطلاقة الرياضة اللبنانية، وانشغال اللبنانيين بتدابير الحرب الاستثنائية وتأثرهم بها، لأن فرنسا الدولة المنتدبة على لبنان، كانت مشاركة فيها.

● فوز جورج مانوكيان بالمرتبة الثالثة في بطولة اوروبا لكمال الأجسام التي جرت قبل اعلان الحرب العالمية الثانية.

انتفاضة لبنان الرياضية والتنظيم الرسمي للرياضة والاشتراك في الألعاب الاولمبية

كَوَت السنوات الخمس الأولى من الأربعينات العالم بنار حربها وعطلت نشاطات الانسان الخيرة، وطبيعي أن يتأثر لبنان وبالتالي حركته الرياضية بلهيب الحرب واجراءاتها للسبب الآنف الذكر.

وفي النصف الأول من شباط ١٩٤٢ دعا الشيخ بيار الجميل وحسين سجعان وجوزف فرام الهيئات الرياضية اللبنانية والصحافة الرياضية الى الاجتماع في مكتب الاتحاد اللبناني لكرة القدم للبحث في ما آلت اليه الحركة الرياضية في لبنان من جمود واتخاذ التدابير الناجعة لاعادة نشاطها وازدهارها السابقين. فلبى الجميع الدعوة وعقدوا اجتماعين: الأول في ١٦ شباط، والثاني ٢ آذار ١٩٤٢ وقد تم فيه بعث «اللجنة العليا للرياضة والتربية البدنية» وانتخاب لجنة جديدة بدل اللجنة «المعينة» قوامها: حسين سجعان، خليل حلمي، ويتولد راتنسكي، جميل مطر وناصيف مجدلاني، واعتمد وزير التربية الوطنية والفنون الجميلة رامز سركيس هذه اللجنة بقرار رقمه ٢٦٥ تاريخ ١٩٤٢/٣/٢١، وذلك للعمل على اعادة النشاط الى الحركة الرياضية.

افتتحت اللجنة عملها باقناع المسؤولين بتعيين خليل حلمي مفتشاً للرياضة. وهو أول موظف رياضي إداري في الدولة. ثم أسست ثالث اتحاد رياضي في لبنان وهو اتحاد السباحة والتزلج في ٨ حزيران ١٩٤٢، ونظم أول بطولة للبنان سنة ١٩٤٣.

وأقامت اللجنة العليا أول بطولة للبنان في كل من لعبتي كرة السلة وكرة المضرب ١٩٤٤ وكانت كرة السلة بدأت تحتل المركز الثاني، بعد كرة القدم، بين الألعاب الأكثر شعبية في لبنان.



السفير اللواء عبد الحميد غالب (سفير مصر)، اسحق حلمي أول عربي قطع بحر المانش عام ١٩٢٨، اللواء صبري رئيس الاتحاد العالمي لسباحة المسافات الطويلة، وفيق العجوز رئيس نادي الجزيرة منظم سباقات صيدا ــ بيروت علم ١٩٥٥.

ووضعت مع مفتش الرياضة الخطوط العريضة لأول مرسوم تنظيمي للرياضة اللبنانية الذي يحمل الرقم ٢٤٣٧ تاريخ ٧ كانون الأول ١٩٤٤.

وقد جرى دعم هذا المرسوم شعبياً في مؤتمر رياضي، عقد في بيت النجادة في ٤ كانون الأول ١٩٤٤ بدعوة من حسين سجعان وعبد الوهاب الرفاعي وناصيف مجدلاني، وكان في مقدمة الحاضرين رئيس مجلس الوزراء رياض الصلح ووزير التربية حبيب أبو شهلا.

وكانت السنوات الخمس الثانية من الاربعينات استكمالاً لبنيتنا الرياضية: لبنانياً وعربياً ودولياً، وانتفاضة شبيهة بانتفاضتنا الوطنية سنة ١٩٤٣، وقد شاركت الدولة فيها كما شارك الرياضيون في معركة الاستقلال. وأثمرت هذه المشاركة الانجازات التالية:

ــ الغاء الاتحادات الرياضية السابقة وتأسيس اتحادين رياضيين فقط لادارة الألعاب الرياضية في لبنان الأول باسم: «الاتحاد اللبناني لكرة القدم» والثاني يحمل اسم: «الاتحاد اللبناني للألعاب الرياضية»، والى هذا الاتحاد الذي تولى ادارة معظم الألعاب المعروفة عندنا في حينه، يرجع الفضل في انضمامنا الى اتحاداتها الدولية، وذلك سنة ١٩٤٥.

ــ انشاء اللجنة الاولمبية اللبنانية والانضمام الى اللجنة الاولمبية الدولية ١٩٤٧.

ــ الاشتراك في بطولة العالم للجامعات في باريس ١٩٤٧، واحراز المرتبة الثانية في الكرة الطائرة.

ــ الاشتراك في الألعاب الاولمبية الشتوية في سان موريتز (سويسرا) والألعاب الاولمبية الصيفية في لندن سنة ١٩٤٨، للمرة الأولى، وحصول اثنين من مصارعينا على نتيجتين مرموقتين وهما: شريف دمج الذي حل رابعاً في الوزن الخفيف وصافي طه الذي جاء سادساً في وزن الريشة.

ـــ تنظيم أول دورة رياضية عربية مدرسية في بيروت سنة ١٩٤٩. وقد اشتركت فيها سوريا والعراق ومصر بالاضافة الى لبنان، واقتصرت مسابقاتها على كرة القدم وكرة السلة والكرة الطائرة.

ـــ موافقة وزارة التربية الوطنية وبالتالي مجلس الوزراء على كتاب حسين سجعان الذي يطالب فيه الدولة بتحقيق انشاءات رياضية سميت في مابعد، «المدينة الرياضية» وتكليف لجنة قوامها حسين سجعان وخليل حلمي لاختيار قطعة أرض مناسبة للانشاءات الرياضية التي أزمعت وزارة التربية على انشائها.

ـــ مساهمة الصحافة الرياضية في تحقيق المدينة الرياضية، ومراجعة المسؤولين بهذا الشأن ومطالبتهم بشراء أرض المدينة قبل نهاية السنة لئلا يعود المبلغ المرصد في الموازنة لهذه الغاية، الى صندوق الدولة. وقد تم فعلاً شراء الأرض في الدكوانة في الأيام الأخيرة من عام ١٩٤٩.

المداليات الأولى للبنان في بطولة العالم للمصارعة والألعاب الاولمبية

كان عام ١٩٥٠ امتداداً للنصف الثاني من عام ١٩٤٩ فحفل بالمراسيم والقرارات التنظيمية وبالنشاطات الرياضية الكثيفة، لبنانياً وعربياً ودولياً. ولما كان المجال محدوداً، والقصة التي أرويها جد طويلة اكتفي بذكر أهم الأحداث التي اتسمت بها سنة ١٩٥٠.

● أحرز لبنان أول ميدالية في أول بطولة للعالم يشارك فيها. وهي بطولة المصارعة اليونانية ـــ الرومانية التي جرت في استوكهولم ١٩٥٠، حيث فاز صافي طه بالمدالية الفضية في وزن الريشة.

● شارك لبنان، أول مرة، ببطولة العالم للدراجات في بلجيكا ببطله جان نلتشيان، ولم يكمل السباق. وكان طارق أبو الذهب، أفضل حظاً، فاشترك خمس مرات ببطولة العالم: ٦٠،

البعثة اللبنانية الأولى إلى الألعاب الاولمبية (لندن ١٩٤٨) من اليمين: ميشال غاوي، ابراهيم محجوب، شريف دمج، بشارة أبو رجيلي.
الوقوف: خليل حلمي، صافي طه، سليم علي سلام، المدرب ابراهيم مصطفى، عبد الله صيداني، محمود القيسي، ناصيف مجدلاني



٦١، ٦٢، ٦٤، و١٩٦٧. وكانت أفضل نتيجة له فيها المركز ٦٠ بين ٢٠٠ متسابقاً في سباق ١٩٦٠ في براغ.

● اشترك لبنان في بطول العالم لرفع الأثقال وكمال الأجسام التي أقيمت في باريس سنة ١٩٥٠ بالرباع مصطفى اللحام (الوزن المتوسط) وابراهيم محجوب (أبولون لبنان).

● جزيء اتحاد الألعاب بمرسوم رقمه ٣٤٤٧ تاريخ ٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٠ الى خمسة اتحادات وهي: كرة السلة وكرة الطائرة. كرة المضرب وكرة الطاولة، المصارعة والملاكمة ورفع الأثقال، السباحة والتزلج، الدراجات والرماية وألعاب القوى وبقية الألعاب غير الوارد ذكرها (هكذا ورد اسمه في المرسوم)..

وعدلت المادة الأولى من المرسوم ٣٤٤٧ تاريخ ١٩٥٠/١١/٢٠ بمرسوم رقمه ٨٦٩٣ تاريخ ١٩٥٢/٦/١٦ أخضع انشاء الاتحادات الرياضية التي تشرف على لعبة أو أكثر لشروط يحددها وزير التربية الوطنية بقرار.

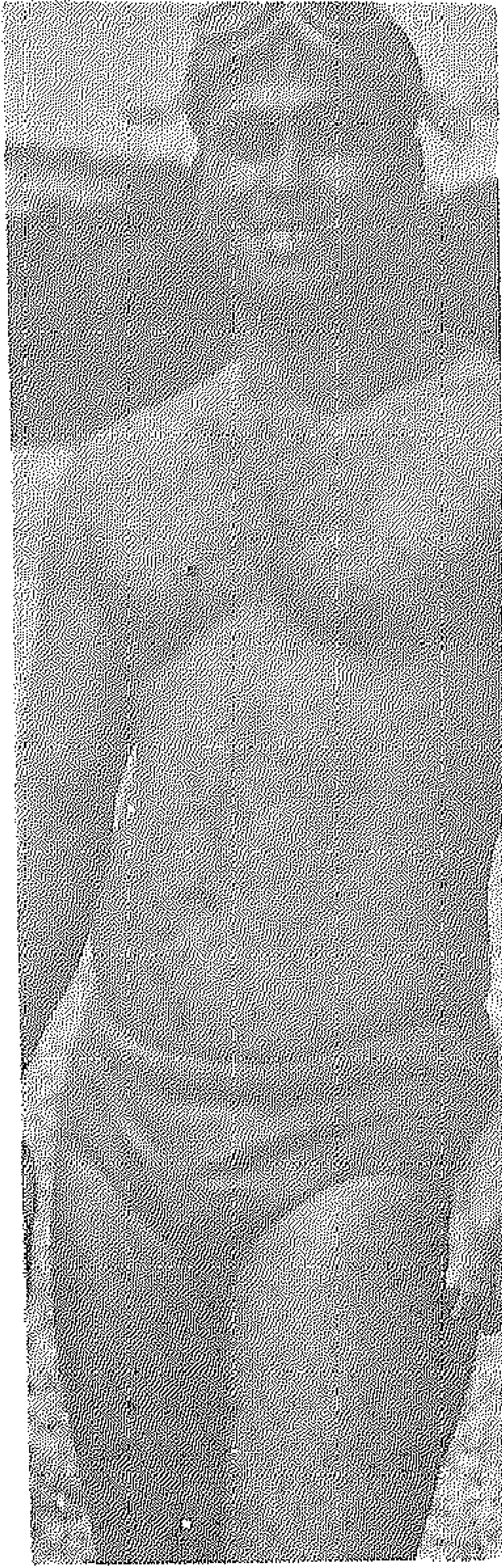
وصدر هذا القرار، ورقمه ٣٠٩٦ تاريخ ١٩٥٢/١١/٨ مشترطاً ألا يقل عدد الجمعيات الرياضية المجازة عن أربع جمعيات.

وهكذا بدأت الاتحادات تتفكك وتسرع كل لعبة الى انشاء اتحاد خاص بها فبلغ عدد الاتحادات اللبنانية الرياضية ٢١ اتحاداً (عدا اتحاد الجامعات الذي تأسس بمرسوم رقمه ١٤٠٦٤ تاريخ ١٩٤٩/١/٢). وجميع هذه الاتحادات منضمة الى الاتحادات الدولية لألعابها.

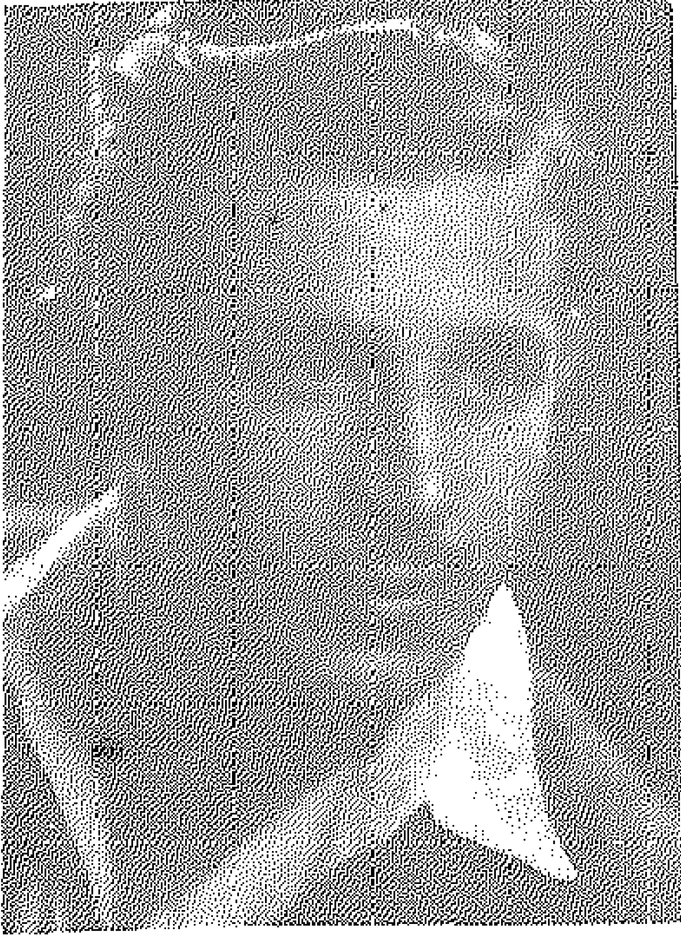
● الاشتراك في الدورة الأولى لألعاب البحر الأبيض المتوسط التي أقيمت في الاسكندرية ١٩٥١.

● انضمام الاتحاد اللبناني الرياضي العسكري الى المجلس الدولي للرياضة العسكرية في مؤتمره السادس المنعقد في أثينا ١٩٥٢، ومساهمته في نشاطات هذا المجلس منها اقامة بطولة العالم في التزلج في الأرز، وفوز العقيد غالب فحص بعضوية مكتبه التنفيذي ورئاسة مركز الارتباط للشرق الأوسط سنوات.

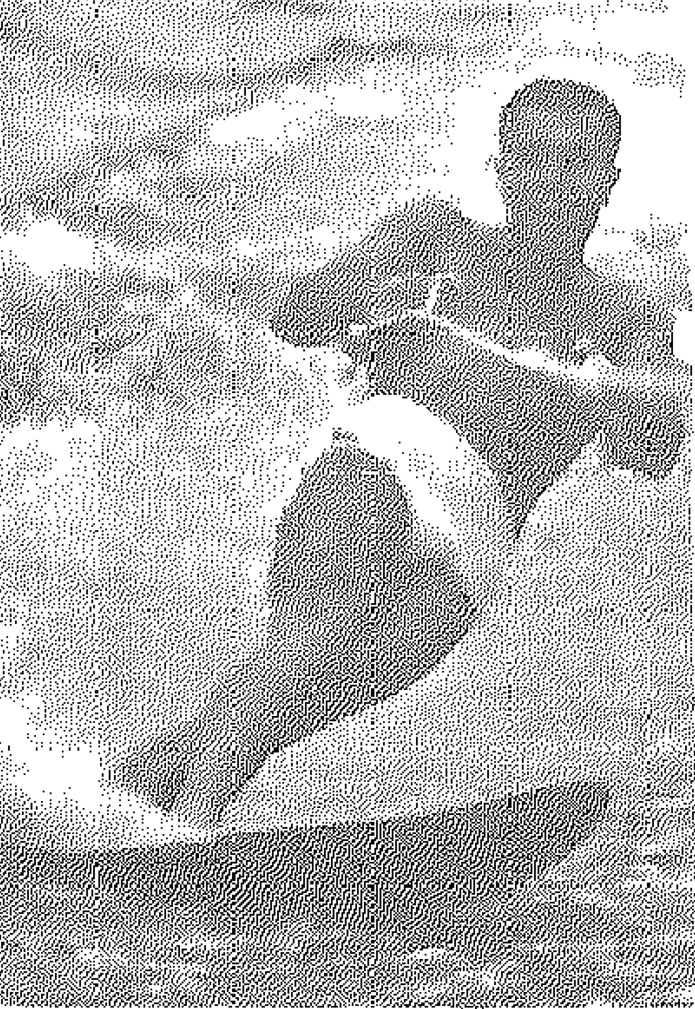
● الاشتراك في الألعاب الاولمبية الشتوية في أوسلو (اسوج) والألعاب الاولمبية الصيفية في



عبد المنعم فخر الدين



زكريا شهاب



سيمون خوري

هلسنكي (فنلندا) ١٩٥٢.

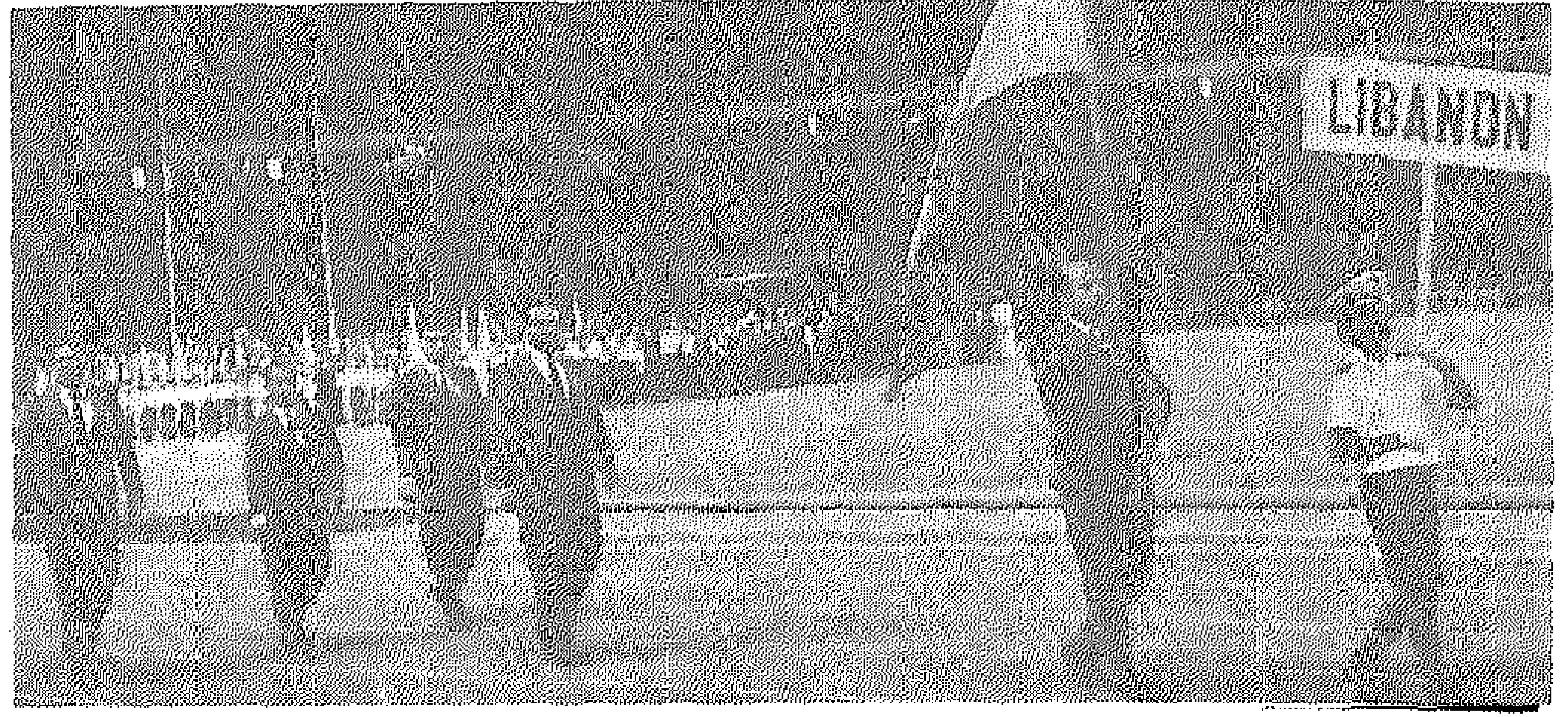
وقد أحرز لبنان في هلسنكي مداليتين اولمبيتين في المصارعة بواسطة زكريا شهاب (فضية في وزن الديك) وخليل طه (برونزية في الوزن الخفيف المتوسط). كما حقق فوزاً إدارياً، بانتخاب الشيخ كبريال رئيس اللجنة الأولمبية اللبنانية عضواً في اللجنة الاولمبية الدولية وناصيف مجدلاني رئيس الاتحاد اللبناني للمصارعة والملاكمة ورفع الأثقال عضواً في المكتب التنفيذي للاتحاد الدولي للمصارعة.

● الاشتراك في بطولة العالم للكرة الطائرة، للمرة الأولى، في موسكو ١٩٥٢.

● فوز سيمون خوري بالمركز الثاني في بطولتي اوروبا والعالم في التزلج المائي، ثم فوزه ببطولة اوروبا والعالم.

● الاشتراك في بطولة العالم للمصارعة في نابولي وفوزايلي نعسان بمدالية برونزية في وزن الريشة ١٩٥٣.

● عقد أول مؤتمر أولمبي في ضهور الشوير



وفد لبنان إلى دورة (الجانيفو) للدول الناهضة في جاكارتا سنة ١٩٦٣
ويبدو في المقدمة الرباع الدولي جورج لحمجيان يحمل علم لبنان.


ايلي نعسان

ببادرة من الشيخ كبريال الجميل، ووضع الخطوط العريضة لتنظيم الرياضة العربية ورفع مستواها وانشاء اتحاد للجان الاولمبية العربية ١٩٥٤.

- الاشتراك في الدورة الرياضية العربية الأولى في الاسكندرية ١٩٥٣.
- نجاح السباح اللبناني توفيق بليق في نهر المانش سنة ١٩٥٣، وهو أول لبناني يحقق هذه المأثرة وكررها، في مابعد، عثمان غندور وعبد المنعم فخر الدين.
- اشتراك لبنان سنة ١٩٥٤ في سباق النيل للسباحة وبطولة العالم للتزلج في أسوج ومسابقة «بو» الدولية في جنوب فرنسا واحتلال فوزي الحص المرتبة الثانية بين ١٤٩ فارساً ينتمون إلى مختلف بلدان العالم.
- بدأ لبنان يشارك في سباق كابري نابولي للسباحة الطويلة الذي هو بمثابة بطولة للعالم للسباحة الطويلة ١٩٥٦.
- فوز لبنان ببطولة اوروبا في الرماية على الأطباق فريقاً وللأفراد (موريس ثابت) ١٩٥٦ و١٩٥٧.
- بناء المدينة الرياضية، أجمل مجمع رياضي في الشرق الأوسط، وتدشينها باستضافة الدورة الرياضية العربية الثانية ١٩٥٧.
- تنظيم الدورة الثالثة لألعاب البحر الأبيض المتوسط ١٩٥٩ وانشاء اللجنة الدولية لهذه الألعاب التي ترأسها الشيخ كبريال الجميل ٢٠ سنة (١٩٥٩ ــ ١٩٧٩).
- وفي الخمسينات أحرز رزق الله الدواليبي المركز الثاني لبطولة العالم في الرماية على الحمام في مصر، وفازت أولغا نادر بالمرتبة الثانية لبطولة اوروبا والبحر المتوسط في التزلج المائي ونظم لبنان هذه البطولة في «السان جورج» وشارك لبنان في بطولة اوروبا لكرة السلة.

مديرية عامة للرياضة ورقم عالمي للطرابلسي وكأس العرب لكرة القدم

تابعت الحركة الرياضية في الستينات تقدمها وتطورها وتوسيع إطار نشاطها محلياً وعربياً واقليمياً وقارياً وعالمياً واولمبياً، وساعد وجود المدينة الرياضية ثم بناء ملاعب بلديات صيدا وطرابلس وبرج حمود وجونية وفرن الشباك على تكثيف الزيارات بين الفرق اللبنانية والفرق الخارجية والاشتراك في المسابقات العربية والدولية وتنظيمها في مختلف الألعاب الرياضية ومنها: كرة القدم والسباحة والتزلج على الثلج والتزلج المائي والسلاح، كما ساعدت الملاعب والزيارات المتبادلة والمسابقات الكبيرة التي نشارك فيها أو ننظمها على رفع المستوى الفني للرياضة في لبنان وازدياد عدد هواتها وروّاد الملاعب.

وإلى جانب حرص لبنان على عدم التخلف عن المؤتمرات والمسابقات العربية والدولية والأولمبية واستضافة العديد منها انشأ سنة ١٩٦٣ مسابقة كأس العرب للمنتخبات الوطنية في كرة القدم، ونظم، على ملعب المدينة الرياضية، أولى دوراتها، وعقدت اللجنة الاولمبية اللبنانية، لهذه المناسبة، مؤتمراً للجان الاولمبية العربية بعد أن علقت مؤتمراتها عقب مؤتمر



□ فريق النادي الرياضي الذي أحرز بطولة لبنان في كرةالسلة عام ١٩٥٤ للمرة الرابعة ضد أبناء نبتون ويبدو في الصورة في الصف الخلفي من اليسار: ابراهيم بلطجي، سمير ديب، ابراهيم دبوس، فاروق ميداني ، فاروج ازاديان ، احمد ادلبي، رئيس الفريق، خليل مكاوي، المدرب فاروق البربير. جلوساً: سمير بدوي، مصطفى طوسون، سعد الدين عيتاني، أحمد عبد العال، عدنان مكاوي.

الخرطوم ١٩٥٧، وتقرر تنفيذ مقررات العاصمة السودانية وتأليف لجنة عربية للرياضة بدلاً من اتحاد اللجان الاولمبية العربية، لعدم موافقة اللجنة الاولمبية الدولية على التسمية لتعارضها والشرعة الاولمبية، وقد تم انتخاب هذه اللجنة برئاسة الشيخ كبريال الجميل.

وشاهد عام ١٩٦٥ قيام المديرية العامة للشباب والرياضة التي حلت محل مصلحة الرياضة والكشفية في وزارة التربية التي انبثقت عن مفتشية الرياضة.

وبدأ في هذا العام اشتراك لبنان في بطولة آسيا لرفع الأثقال.

وفي سنة ١٩٦٨ حقق الرباع الفتي الفذ محمد طرابلسي أول رقم عالمي للبنان وله في الوزن الخفيف (فتيان) فخطف ١٢١ كيلوغراماً في احتفالات اليوم الأولمبي السبت في ١٩٦٨/٧/٦. وأحرز سيمون خوري بطولة العالم في التزلج المائي في الولايات المتحدة.

وعلى صعيد الاعلام الرياضي أنشئت سنة ١٩٦٣ جمعية المحررين الرياضيين اللبنانيين ببادرة شجاعة من نقيب محرري الصحافة اللبنانية الزميل ملحم كرم. وانضمت الجمعية الى الاتحاد الدولي للصحافة الرياضية سنة ١٩٦٨ في مؤتمر بوخارست، وعملت على تأسيس جمعيات مماثلة في البلاد العربية التي تتوافر فيها هذه الجمعيات والانضمام الى الاتحاد



اللواء عادل شهاب قائد الجيش السابق، يعلن افتتاح بطولة العالم العسكرية الحادية عشرة للسلاح في قاعة الاونيسكو

الدولي تمهيداً لتكوين اتحاد عربي للصحافة الرياضية وقد تم ذلك فعلاً في مؤتمر ميونيخ ١٩٧٠ وأبدل اسمه باسم: «الرابطة العربية للصحافة الرياضية» في اجتماع بغداد ١٩٧١.

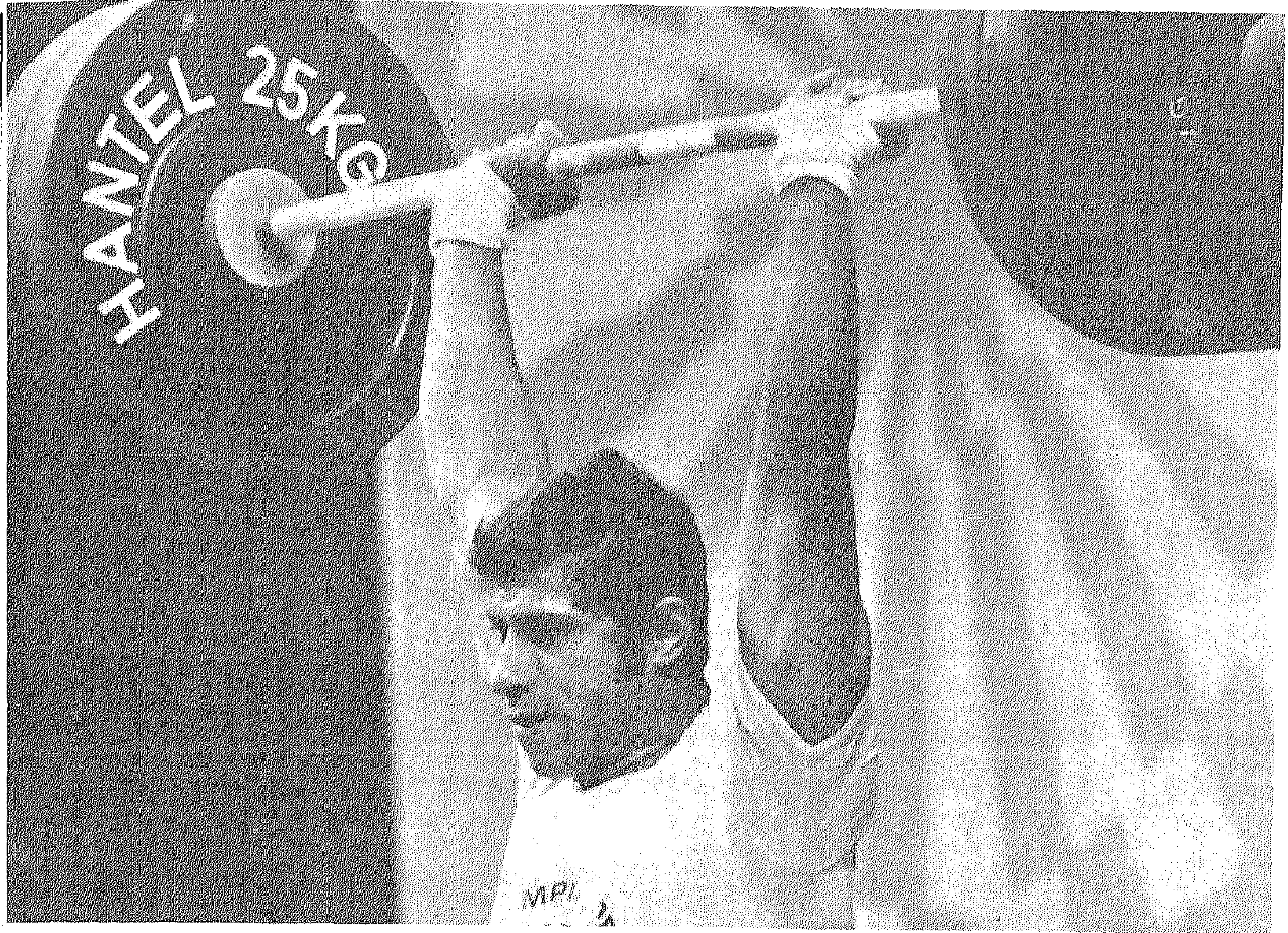
فضية أولمبية للطرابلسي وانتصار «النجمة» التاريخي على بطل الاتحاد السوفياتي

استقامت البنية الرياضية اللبنانية في السبعينات وتكاملت أجهزتها الادارية والفنية الرسمية والأهلية، ولكنها لم تنعم طويلاً بما حققته بالعرق والجهد المضني، ففي منتصف العقد السبعيني، وعقب عودة الوفد اللبناني من الجزائر بعد اشتراكه في دورة البحر المتوسط سنة ١٩٧٥، استقبلته الأحداث اللبنانية الأليمة التي لا نزال نعاني منها الأمرين.

وقبل وقوع المحنة، فاز محمد الطرابلسي (الوزن المتوسط) بميدالية فضية في دورة ميونيخ الأولمبية ١٩٧٢، وهي الأولى للبنان في رفع الأثقال، واستضاف لبنان الدورة الرياضية العربية المدرسية الخامسة للشباب والأولى للشابات. وسجل فريق النجمة بطل لبنان وحامل كأسه في كرة القدم حدث سنة ١٩٧٤ بفوزه على فريق ارارات يريفان بطل الاتحاد السوفياتي ١ – صفر يوم الأحد في ١٩٧٤/٢/٤ على ملعب المدينة الرياضية. وقد فجر فوز «النجمة» على «ارارات» المشاعر الوطنية وغمر الصدور بالاعتزاز والبهجة وغمر الرياضة ومعطياتها بهالات التقدير وتبارى رجالات لبنان في التنويه بانتصار البلد ذي الملايين الثلاثة على البلد الذي يبلغ تعداده ٢٥٠ مليوناً بكرة القدم وفي مقدمة هؤلاء الرئيس سليمان فرنجية الذي افتتح اجتماع مجلس الوزراء في ١٩٧٤/٢/٢٧ بنقل نبأ هذا الحدث الى الوزراء وأعلن أنه منح نادي النجمة رئيساً ولاعبين ومدربين أوسمة تقديرية.

وأنشأ لبنان سنة ١٩٧٥ مسابقة عربية جديدة هي البطولة العربية للغولف «ونظم دورتها الأولى في النادي اللبناني للغولف/ الأوزاعي – بيروت».

ورغم ظروف لبنان المؤلمة وتأثر لبنان واللبنانيين، جميع اللبنانيين بها، وفي طليعتهم الرياضيون شارك لبنان رمزياً، بالدورة الرياضية العربية السادسة في دمشق ١٩٧٦، وفي الألعاب



محمد خير الطرابلسي

الآسيوية الثامنة في بانكوك (تايلند) ١٩٧٨ وفي دورة المتوسط الثامنة في سبليت (يوغوسلافيا).

وأحرز سنة ١٩٧٩ سمير بنوت بطولة العالم في كمال الأجسام في الوزن الخفيف الثقيل في الولايات المتحدة. وشاركت فريدة رحمة في أولمبياد ٧٦ وبطولة العالم ١٩٧٨ في التزلج على الثلج.

«الأنصار» يغلب حامل كأس فرنسا بكرة القدم ومدالية أولمبية بالمصارعة

ورغم أننا لا نزال في أوائل الثمانينات، ولبنان لا يزال ينزف، وحركته الرياضية تفقد أكثر فأكثر مما كسبته خلال ٥٠ سنة. فقد شارك في اولمبياد موسكو سنة ١٩٨٠، وأحرز مصارعه البطل في وزن فوق الثقيل حسن بشارة مدالية برونزية، وكانت المدالية الوحيدة التي أحرزها الرياضيون العرب في الأولمبياد المذكور.

وسجل فريق الأنصار ثاني أكبر انتصار لبناني في كرة القدم، بعد انتصار النجمة على ارارات، إذ فاز على فريق باستيا حامل كأس فرنسا ٢ ـ ١ على ملعبه في مدينة باستيا الكورسيكية في تموز ١٩٨١. وكان قد استضافه في ١٨/١/٨١ وخسر أمامه صفر ـ ١ على ملعب بيروت البلدي.

و«الأنصار» هو أول ناد يستقدم فريقاً فرنسياً بكرة القدم ويرد له الزيارة في تاريخ الكرة اللبنانية.

وفي السنة المنصرمة شاركنا للمرة الثانية في الألعاب الاسيوية التاسعة التي أقيمت في نيودلهي (الهند)، وفاز «الطرابلسي» فيها بمدالية مذهبة ومدالية فضية في الوزن الخفيف الثقيل. والطرابلسي يحافظ على بطولته الدولية منذ ١٤ سنة، وهو حدث في حد ذاته، ومؤشر على أن لبنان لن يتخلى عن دوره الحضاري في جميع النشاطات الانسانية، وأنه سيعمر بانسانه مما



رئيس الاتحاد السيد طانيوس المير يقدم كأساً فضياً للفائز الأول طارق أبو الذهب في السباق الأول لبطولة لبنان للدراجات في ١١ حزيران ١٩٧٢

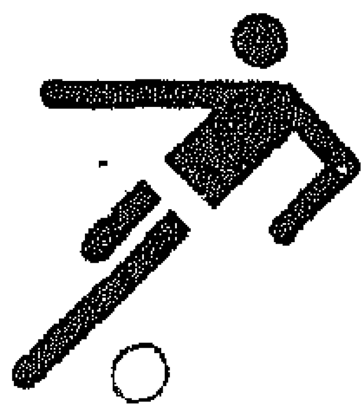
دمرته وتدمره المؤامرات في مرافقه الحيوية ومنها منشآته الرياضية.

الرياضة اللبنانية: رسالة إنسانية ومحبة وحرية واخوة وفرح وسلام

أخيراً، في سنة ١٩٣٢، أي منذ ٥٠ سنة، كان عدد الجمعيات الرياضية في لبنان معدودة، ومعظمها يهتم بلعبات لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة، ولم يكن عندنا أي اتحاد رياضي بمعناه الصحيح. وكانت زيارات فرقنا قاصرة على سوريا وفلسطين. أما اليوم فعدد جمعياتنا تجاوز الألف، واتحاداتنا الـ٢١ عدا الاتحاد الرياضي للجامعات، والاتحاد الرياضي العسكري، وجميع هذه الاتحادات أعضاء في الاتحادات الدولية وفي اللجنة الاولمبية اللبنانية. والألعاب التي يهتم بمزاولتها ولها اتحادات هي: كرة القدم، كرة السلة، الكرة الطائرة، كرة الطاولة، كرة المضرب، كرة اليد، المصارعة، الملاكمة، رفع الأثقال، السلاح، الرماية، الفروسية، ألعاب القوى، الدراجات، الجمباز، السباحة، التزلج المائي، التزلج على الثلج، اليخوت، التجذيف، الجودو والكاراتيه. إضافة إلى الغولف وكرة الريشة «البادمنتون» والسكواتش التي ليس لها اتحادات بعد لضآلة عدد جمعياتها.

والرياضيون اللبنانيون حملوا علم المستقبل الى قارات العالم الخمس وشاركوا في المباريات والمسابقات والبطولات والدورات ونظموا العديد منها، وكذلك كان شأنهم في المؤتمرات العربية والاقليمية والدولية والالمبية، وكانت صحافتهم الرياضية رائدة في نهجها الرياضي وحرصها على القيم الرياضية وفضائلها وانفتاحها على كل جديد في الكون.

ويتجند الرياضيون اللبنانيون اليوم، ويحشدون طاقاتهم لمعاودة نشاطهم ومرافقهم الرياضية لاستئناف مسيرتهم في الموكب الرياضي العربي والانساني مؤمنين بأن رسالتهم هي رسالة انسانية ومحبة وحرية وأخوة وفرح وسلام بقدر ما هي رسالة صحية وأخلاقية وأجتماعية ووطنية.



معهد الانماء العربي

انكليزي - عربي

اتصالات آثار احافير احصاء احياء الكترونيات

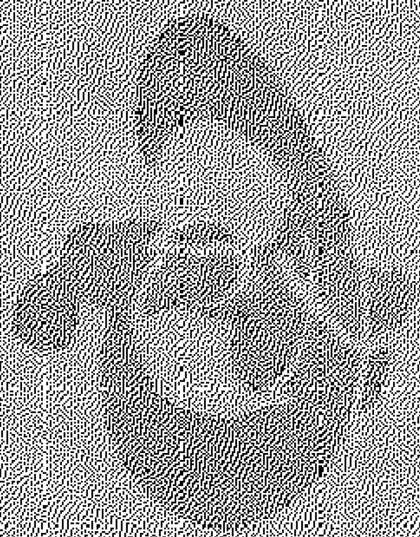
خلايا صوتيات بحار جيولوجيا معلوماتية

كهرباء جغرافيا صخر عمارة كهرمغنطيسية

كيمياء فلزيات فقاريات فطريات مناعة فلك

نباتات ملاحة صيدلة معادن مناخ نوويات

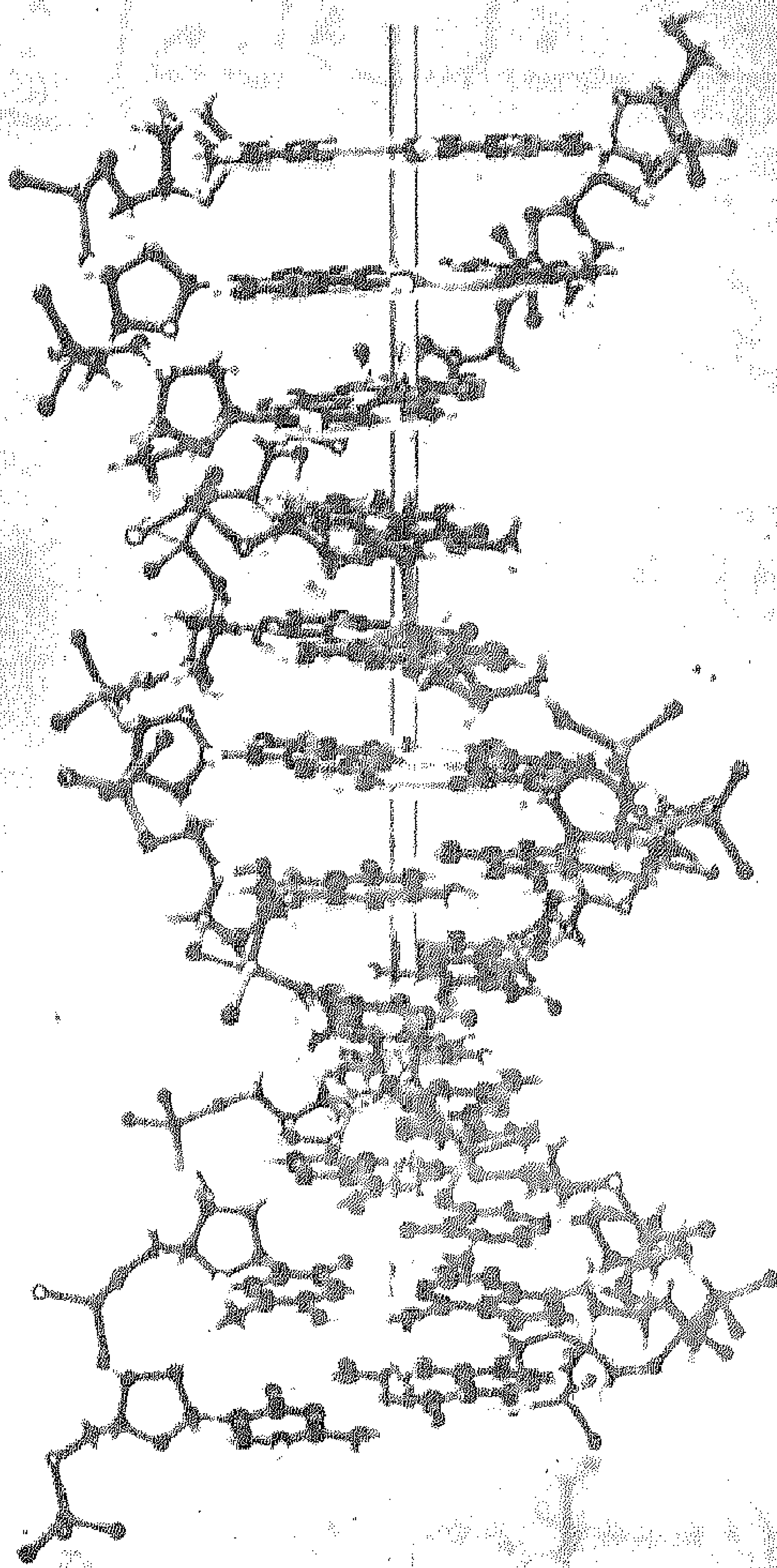
العدد الأول   السنة الأولى
حزيران - تموز/يونيو - يوليو 1982



العلوم والتكنولوجيا

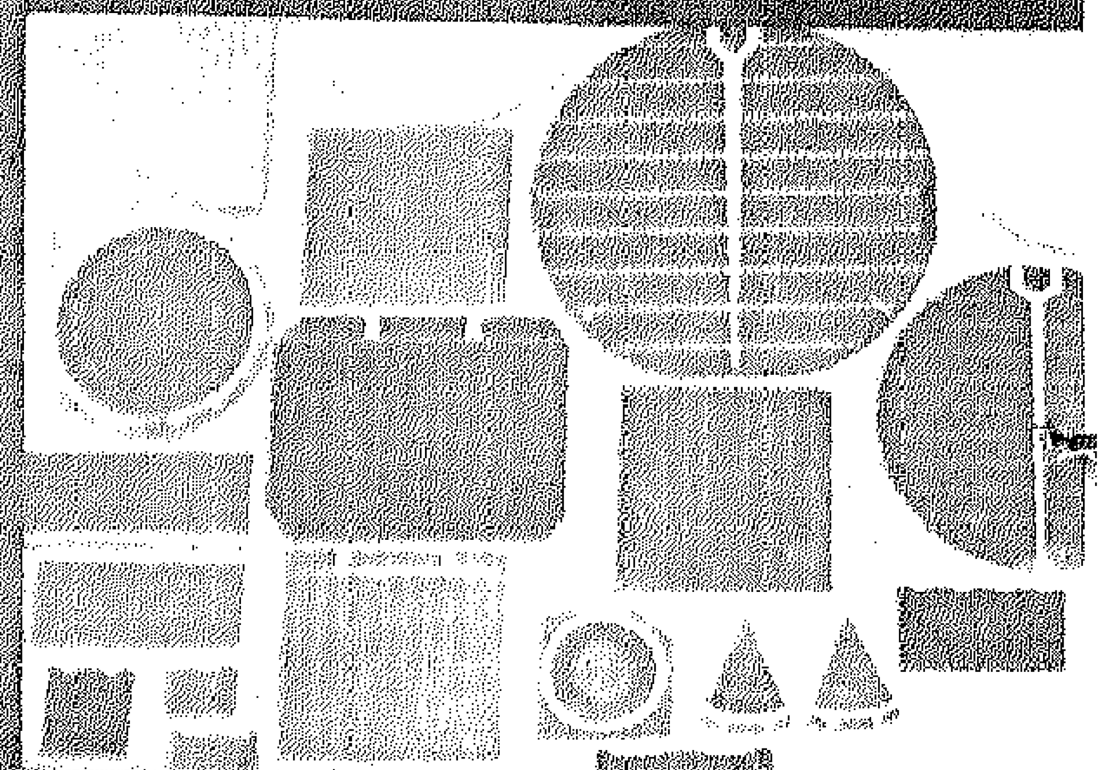
science & technology

No 1 June/July 1982



كيف نشأ الكون

الخلايا الكهرضوئية، توليد الكهرباء من الشمس



الاسس الجزيئية لنظرية الكود الوراثي

العددان ٢٩ - ٣٠

مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية

الفكر العربي

تشرين الأول • كانون الأول ١٩٨٢ • العددان التاسع والعشرون والثلاثون • السنة الرابعة

مسألة المدينة والمدينة العربية

تصدر عن : معهد الإنماء العربي - بيروت

بيــروت في أوائـل القــرن الحــالي من كتــاب (Wortabet, Syria and the Syrian, Ip. 67) للفنـان وودورد (Woodward)

الغلاف الأول



بعلبك للفنان روبرتس مأخوذة من كتابه «البلاد المقدسة»

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

الغلاف الأخير



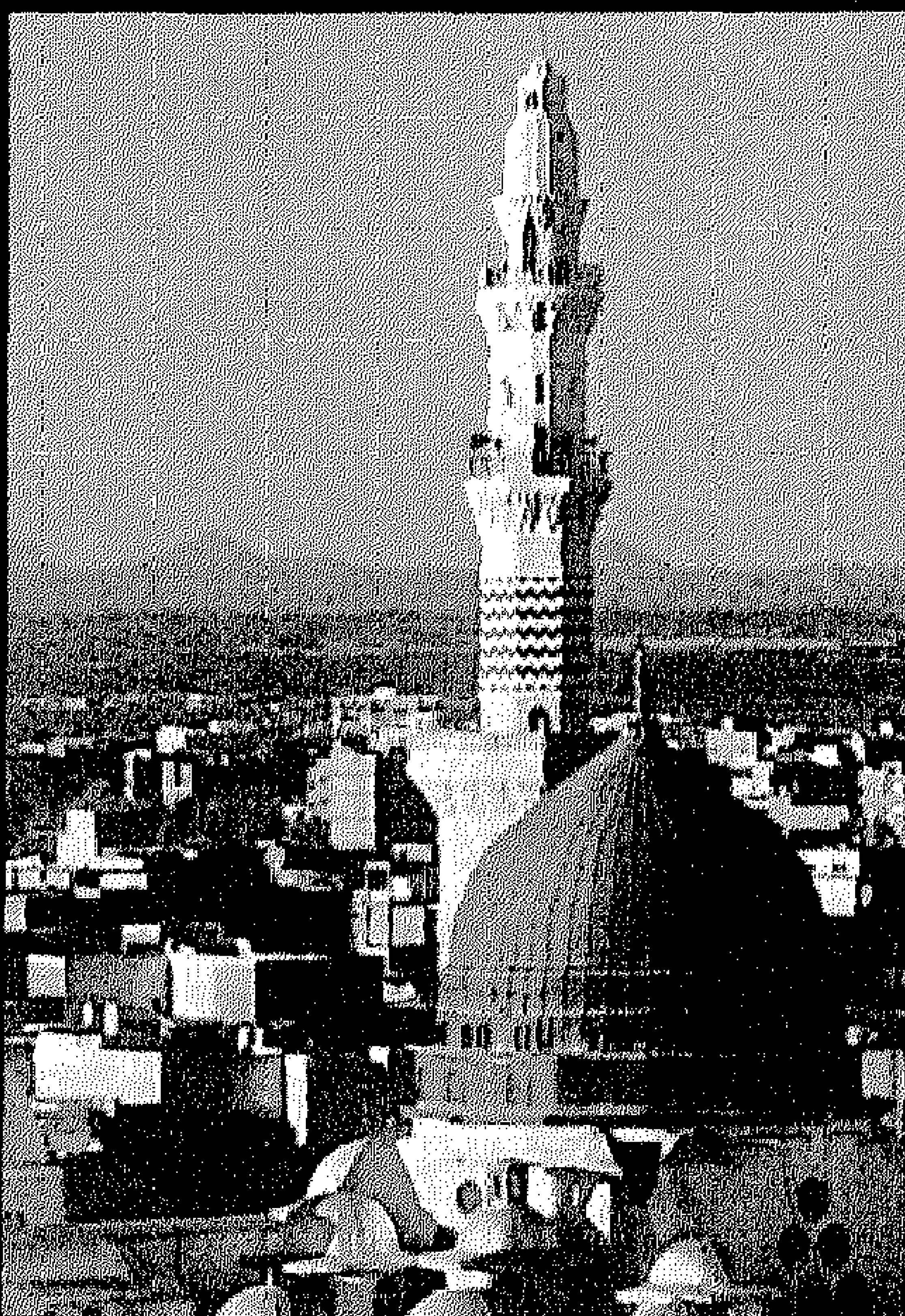
فتاتان لبنانيتان بالزي التقليدي القديم.

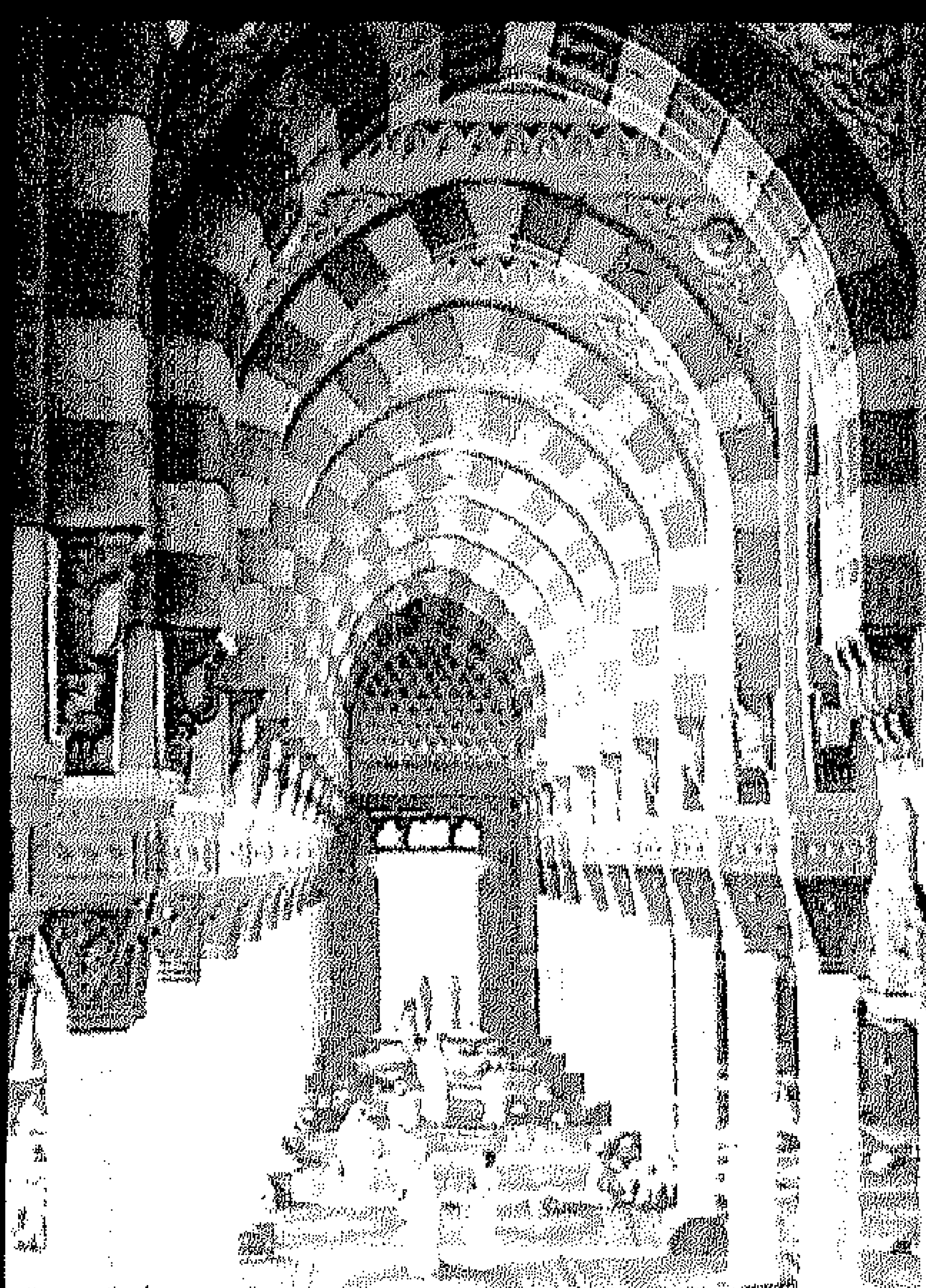


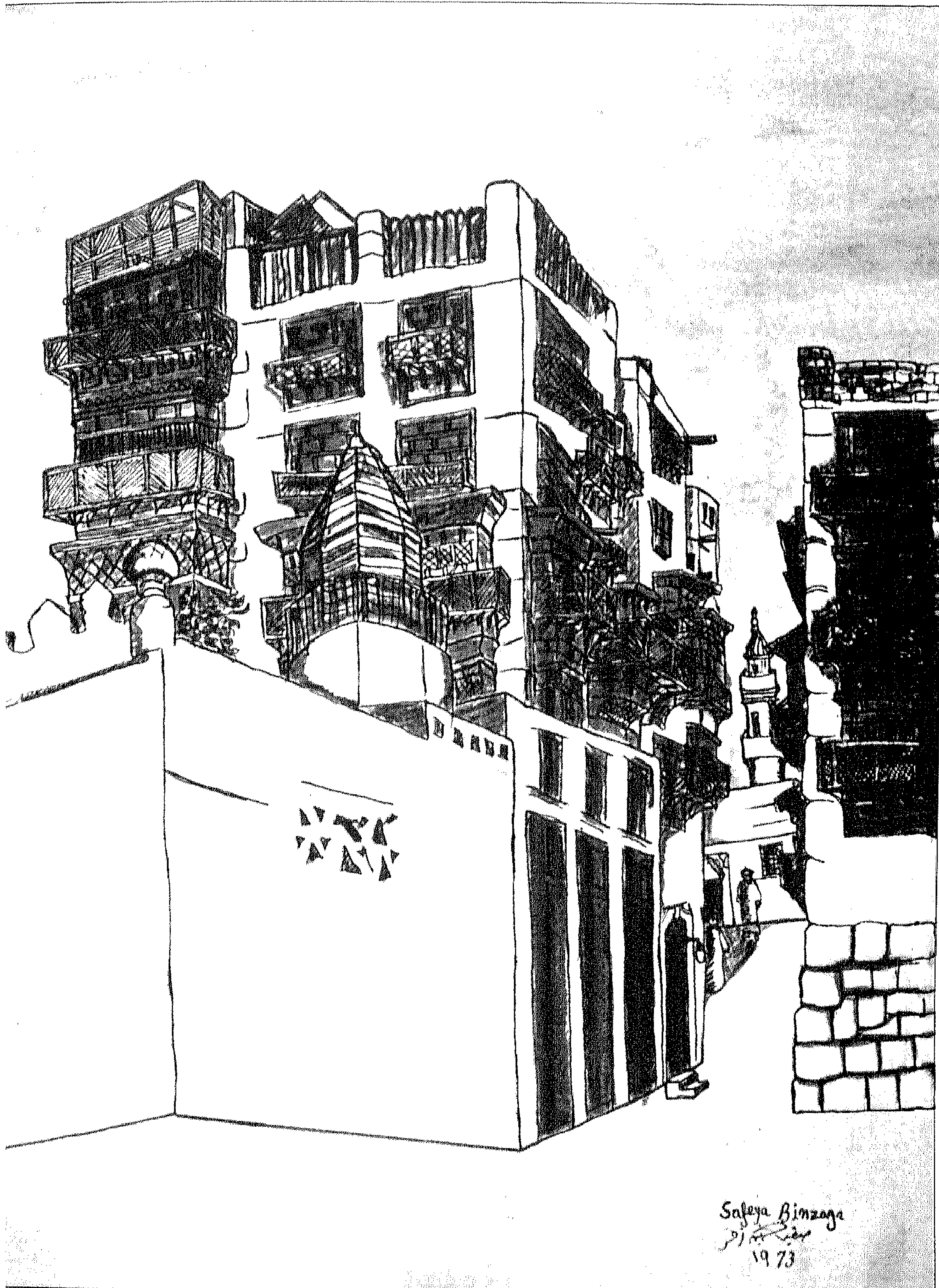
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الخامسة • العدد ٥٣ • آذار ١٩٨٣م. الموافق جمادى الآخرة ١٤٠٣ هـ.







البيوت القديمة في جدة
رسم السيدة «صفية بن زخر»، ١٩٧٣

تاريخ العرب والعالم

العدد ٥٣ ـ آذار ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٢٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 5, No. 53, MAR. 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة، ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

التماثيل والدمى المتحركة عند العرب

(الحلقة الأولى)

د. منى
سنجقدار
شعراني

انطلاقا من هذا الاعتقاد نشأت فكرة التماثيل والدمى المتحركة وبدأت تتطور ومشت في ركب الحضارات حتى بات من الصعب جدا التمييز بين عمل قام به انسان عادي واخر انجزه رجل الي.

لم يكن الانسان الاول يعرف بالطبع التماثيل المتحركة بمفهومها الحاضر، لكن معظم المراجع التاريخية تذكر وجود تماثيل او دمى متحركة على هيئة انسان او حيوان تجرها عربات او تحمل على بكر. اما التماثيل ذات المفاصل المتحركة (Statues articulées) والتي تعتبر النواة الاولى للدمى المتحركة (Les marionnettes) والالعاب الميكانيكية (Les jouets mécaniques) والتماثيل الآلية (Les automates) نجدها عند قدماء المصريين وقد لعبت دورا هاما في حياتهم. لقد ساد الاعتقاد بان تلك التماثيل تملك كل القدرات الالهية، انها تنبيء بالحياة والموت، تغفر الذنوب، تشفي المرضى، وكل حركة من حركاتها تعبر عن معنى من معاني الحياة. هذا، وان كل واحد من قدماء المصريين كان اسير الآلهة. انه لا يستطيع القيام باي عمل دون استشارتها. لذلك كان يلجأ في معظم اوقاته الى المعابد حيث يجد التماثيل فيتحاور معها ويتلقى الاجابة بقلب مفعم بالايمان.

اما وسائل الاجابة فمتعددة، من اصوات باطنية الى اصداء رنانة الى قوقعة خفية او الى



الشكل رقم (١١)

في هذا العصر عصر التقدم التقني، عصر الآلات الميكانيكية الاتوماتيكية، عصر الرجل الآلي، لابد لنا من كشف النقاب عن قصة التماثيل والدمى المتحركة ومدى مساهمة العرب في تطورها.

انها قصة طويلة تربط الماضي بالحاضر وتنبىء بالمستقبل. لقد بدأت مع الانسان وعايشته في جميع مراحل حياته وتطوراته الفكرية والصناعية حتى اصبحت وكأنها الحلم الوحيد الذي يراود مخيلته والذي يصبو دائما لتحقيقه معتقدا بانه اذا ما استطاع تقليد نفسه كشف عن سر وجوده ومظاهر حياته.

حركة مفصلية؛ جميعها طبعا كانت يقوم بها الكهنة الذين يسيطرون على الشعب. هم الذين يتكلمون في جوف التمثال وهم الذين يحركون اعضاءه بواسطة خيوط رفيعة غير منظورة كما هي الحال في الدمى المتحركة في عصرنا الحاضر.

ان الاشكال رقم (١ ــ ٢ ــ ٣ ــ ٤ و ٥) تعطي صورة واضحة عن بعض النماذج للتماثيل والدمى المتحركة القديمة العهد والتي لا تزال محفوظة في المتاحف الغربية.

لم تقتصر هيمنة التماثيل المتحركة على قدماء المصريين فحسب بل غزت العالم القديم باسره، من شرقه الى غربه ومن شماله الى جنوبه. يحدثنا المؤرخون عن وجود تماثيل متحركة في كل بقعة من العالم القديم والدليل الوحيد لدينا على صحة اقوالهم هو بعض تلك التماثيل التي وجدت بين الآثار والتي لا تزال محفوظة في المتاحف العامة يبين الشكل رقم (٦) اجزاء تمثال متحرك وجد في المكسيك ان الثقوب الواضحة في الاطراف تعبر عن حركة المفاصل.

اما المؤرخ والتر (Walter Fewkes) الذي عايش هنود الهوبي[١] (Hopi) في الفترة الواقعة ما بين (١٨٩٠ ــ ١٩٠٠) كشف لنا النقاب عن عاداتهم وتقاليدهم القديمة، لقد وصف في كتابه بعض الاحتفالات التي تقام في موسم الربيع، وكان معظمها يعتمد على الدمى المتحركة والتماثيل التي تظهر على اشكال مختلفة. ان الصورة رقم (٧) تظهر بعض مشاهد الاحتفالات على المسرح. (لاحظ وجود الدمى المتحركة في اخر المسرح).

والمعلوم بان كل دمية او تمثال كان يحركها شخص اخر من خلف الستار بواسطة خيوط رفيعة غير منظورة.

كذلك الشكل رقم (٨) فانه يمثل الافعى شعار الشتاء.

ويذكر المؤرخ ايضا، ان الهنود سكان الاسكا كانوا يعتمدون على الاقنعة المتحركة التي يوجد عدد وفير منها في متاحف نيويورك وان معظمها كان يعتمد على حركة العيون (راجع الشكل رقم (٩))، انه يمثل رأس نسر ذي فك متحرك وعيون متحركة.

ان التماثيل المتحركة ظهرت ايضا في مجاهل افريقيا (الشكل رقم (١٠)) اما الشكل رقم (١١) والموجود حاليا في متحف برلين، فهو آت من بلاد الكامرون. ان الطير يتحرك بواسطة خيوط رفيعة تمتد داخل جوف التمثال حيث يدخل العبد رأسه ليتكلم ويجيب على الاسئلة المطروحة عليه.

كذلك، فان المؤرخ كلابروت (Klaproth) ينقلنا الى الشرق الاقصى الى الصين حيث اخذت الدمى المتحركة مكانتها منذ زمن بعيد. ان الشعب الصيني الذى استطاع منذ القدم ان يبرهن وجود القوة المغناطيسية لم يتأخر عن اظهار نظريته الى حيز الوجود بتسيير عربات تخضع لهذه القوة وتحمل تماثيل متحركة.

ان التمثال المتحرك بواسطة العربة المغناطيسية (في الشكل رقم (١٢)) يشير دائما الى الجنوب[٢] كيفما توجهت العربة لذلك كانت تلك العربة تتقدم دائما موكب الامبراطور لتحدد وجهة السير.

تأثر قدماء اليونان وفلاسفتهم ايضا بالتماثيل والدمى المتحركة. يحدثنا هوميروس مثلا في الالياذة عن وجود تماثيل متحركة من الذهب تحرس الملك ليلا ونهاراً كذلك اريسطو رغم افكاره الفلسفية وترفعه عن عالم الحسيات الى عالم الفكر والخيال، لم يستطع الخروج عن هذا



الشكل رقم (١)

إله الموت رأس ابن آوى ذو فك متحرك (متحف اللوفر)، «قدماء المصريين»

التأثر. من أقواله: «اذا كانت كل الة تعمل من نفسها، واذا كانت القيثارة تعزف لحنها فان رب العمل لايحتاج الى عامل ولايحتاج السيد لخدمه».

لكن هذا الفن تطور تطورا هائلا مع اليونان الذين اشتهروا بفن النحت. تذكر بعض المراجع الأجنبية بان احد فناني اليونان قدم الى مدرسة النحت (٥٣٠ ـ ٤٦٠ق.م.) تمثالا يجيد حركة الايدي والارجل والعيون حتى ان الشاعر اليوناني اناكريون (Anacréon) صرخ قائلا عندما وقعت عيناه عليه «نعم، سيدي، هل ستتكلم».

هكذا سيطرت فكرة التماثيل المتحركة على العالم القديم بأسره لكنها لم تخضع للحركة الآلية ولا للقوة الميكانيكية لتحريكها بل بقيت بدائية جدا تعتمد في حركتها على البكر والخيوط.

ولم تظهر الحركة الآلية للتماثيل والدمى المتحركة الا في مدرسة الاسكندرية التي ضمت اعظم علماء علم الميكانيكا. نستطيع أن نذكر منهم مؤسسي تلك المدرسة كستبيوس (Chésibios) فيلون البيزنطي (Philon de Byzance) وهيرون الاسكندري (Héron d'Alexandrie) ترك كل عالم من هؤلاء ارثا ثمينا في حقل التماثيل والدمى المتحركة ولكن معظم مقالاتهم وكتبهم ضاعت وحرقت ويرجع الفضل الأكبر في حفظ ما تبقى للعرب الذين ترجموا قسما كبيرا منها.

لقد طور علماء اليونان فكرة التماثيل المتحركة وبعثوا فيها مظاهر الحياة بانشاء مسارح متحركة تعتمد بحركتها على الدواليب ذات الأسنان، قوة الماء، قوة الجاذبية وغيرها من النظريات العلمية التي وضع اسسها اقليدس وارخميدس وغيرهم من العلماء.

قبل ان ننتقل الى تطور التماثيل الآلية على ايد عربية، لا بد لنا من ذكر بعض النماذج اليونانية وفقا للتسلسل التاريخي لكي يتسنى لنا اظهار مدى اسهام العرب في تطور هذا الفن، ومدى تأثير هذا التطور على العالم الغربي.

ظهر اول تمثال متحرك بطريقة ميكانيكية في ساعة كستبيوس المائية التي وصفت في اكثر من مرجع. تظهر الصورة رقم (١٤) شكل الساعة من الخارج والداخل.

كيفية حركة التماثيل

يأتي الماء من حوض مركز داخل الساعة، يصعد في الأنبوب المثبت داخل تمثال (أ) ليجري من عيونه ثم ينصب في حوض صغير (م) ويجري من ثم في أنبوب (ج هـ د) إلى أنبوب أوسع يحوي قطعة من الفلين تطفو على سطح الماء. لقد ثبت في وسط قطعة الفلين قضيب معدني يحمل التمثال (ت) الذي يشير بعصاه للساعة. لما ارتفع مستوى الماء في الأنبوب الخارجي ارتفع بالداخل وارتفع معه التمثال ليشير بسهمه إلى الساعة المحددة. بعد مرور يوم كامل أي ٢٤ ساعة يمتلىء الأنبوب فيفيض من انبوب (هـ و) الملصق به لينصب على دولاب (ك) المؤلف من ستة جيوب فيدور



الشكل رقم (٢)

دمية ذات ارجل متحركة (متحف اللوفر)

الدولاب بفعل ثقل الماء عليه ويدور معه اللولب المركز على عاموده. بفعل دوران اللولب، تدور الدائرة ذات الاسنان لتدير لولبا اخر ودائرة اخرى ايضا ذات اسنان ثبت على عامودها الاسطوانة الكبيرة التي تحتوي على تقسيم الساعة. تتم دورة هذه الاسطوانة بـ ٣٦٦ يوما.

يتضح مما تقدم، بأن كستبيوس اعتمد في تحريك تمثاله على المبادىء العلمية والقوى الميكانيكية. لكن حركته هذه إجمالية ولا نستطيع ان نعتبره تمثالا اليا بالمعنى العلمي لأنه لا يحرك اعضاءه من تلقاء نفسه.

فيلون البيزنطي

لقد اهتم فيلون اهتماما بالغا بالتماثيل المتحركة واعطاها اشكالا مختلفة من هيئة انسان الى هيئة حيوان ضخم او عصفور صغير. وهنا حاول تطوير الحركة الاجمالية فحرك اجنحة الطيور وايدي التماثيل. له في هذا المجال كتاب ضخم (Les pneumatiques) ترجم الى عدة لغات منها العربية، لقد اخترنا منه نموذجين فقط.

النموذج الأول الشكل رقم (١٥)

يلاحظ في هذا الرسم ان الوحش ينحني ليشرب الماء، لكن وجود التمثال الذي امامه يمنعه من الشرب. لأن التمثال يرتكز على عامود متحرك فاذا ما ادار ظهره للوحش شرب الوحش باطمئنان مع إحداث صوت غريب يشبه زمجرة الاسد.

ان هذه الحيلة تعمل بفعل ضغط الماء في الأنبوب طاردا الهواء فيحدث بذلك صوتا.

هكذا يصف فيلون البيزنطي عدة حيل تحتوي على تماثيل متحركة بفعل قوة ضغط الماء. لكن الحركة تعتمد على تحريك الجسم بكامله. وعندما حاول تحريك اليد ايضا اعطى الحركة للجسم لا للمفصل. لكنه استطاع تطوير حركة اجنحة العصافير في مخطوطته هذه. يظهر الشكل رقم (١٦) عصفورا يستطيع رفرفة جناحيه.

هيرون الاسكندري

لهيرون الاسكندري الفضل الاكبر في تطوير حركة التماثيل المتحركة. انه لم يكتف بالتماثيل



الشكل رقم (٣)
دمية ذات أيد متحركة
(متحف اللوفر)

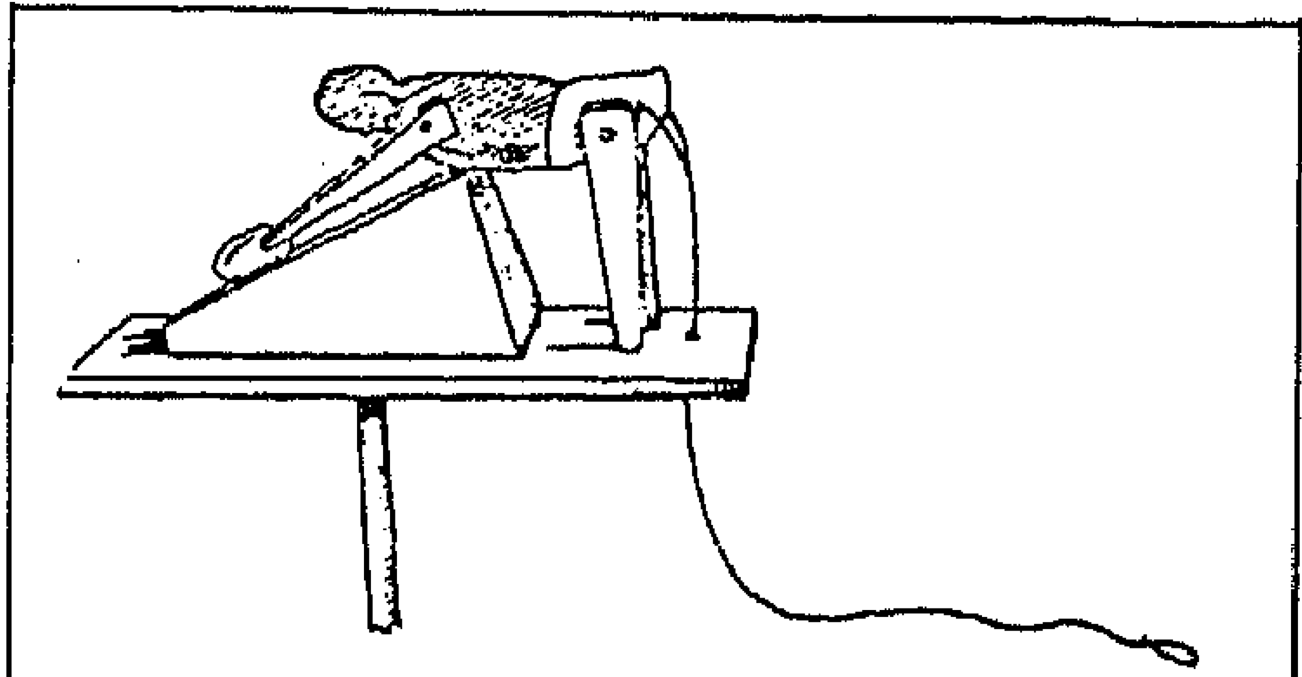
والدمى، بل انشأ المسارح المتحركة. لقد كتب عدة مؤلفات في هذا المضمار من اهمها (Les pneumatiques) الذي ترجم الى اللغة العربية.

في هذا الكتاب يعتمد هيرون كثيرا على سلفه فيلون ولكنه اعطى حياة اخرى لتماثيله وذلك عندما استطاع بواسطة الحبال والاسطوانة ذات الاسنان ان يحرك مفاصل التمثال. وكذلك فقد استطاع بنفس الواسطة ان يفتح ويغلق ابواب مسارحه المتحركة. ان هذه الحركة الآلية لم تظهر عند فيلون وان هيروت اول من طورها معتمدا بذلك على النظريات العلمية.

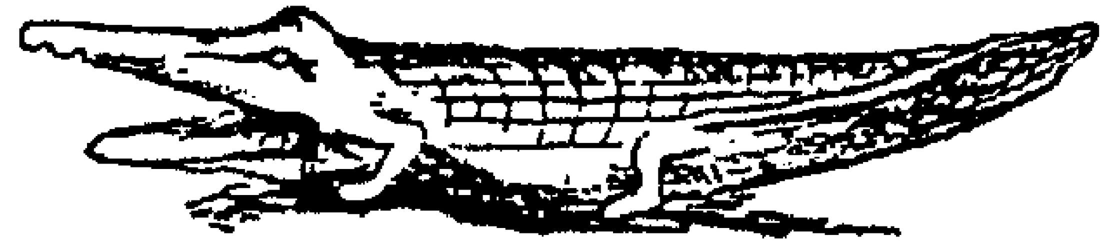
لقد اخترنا احد النماذج التي تتميز عن سلفه.

في هذا النموذج، يصف هيرون حركة ذاتية يقوم بها الحدادون الاربعة. اذ ان احدهم يحمل قطعة من الحديد يضعها في النار لتحمى ثم يضعها على السندان فيبدأ الآخرون بطرقها حتى تبرد. فتعاد تحميتها من جديد في حركة ذاتية ايضا (راجع الشكل رقم (١٧)). إن هذا الشكل يعبر بوضوح عن مدى تعقيد عملية تلك الحيلة، لاحظ وجود السلاسل التي تتحرك بواسطة الدوافع والتي تتصل مباشرة بارجل الحدادين. اما الحداد رقم (E) فانه يرتكز على عامود يدور بواسطة الحبل الملفوف عليه، وبفعل ضغط وزن

الماء على الدولاب الكبير. لكن ذلك يدل على مدى شوق اليونان لتطبيق نظرياتهم العلمية في اعمالهم اليومية. بعد ان بقيت مدة من الزمن تسبح مع الفلاسفة في عالم الخيال.



الشكل رقم (٤)
دمية متحركة بواسطة خيط رفيع (متحف ليدن)



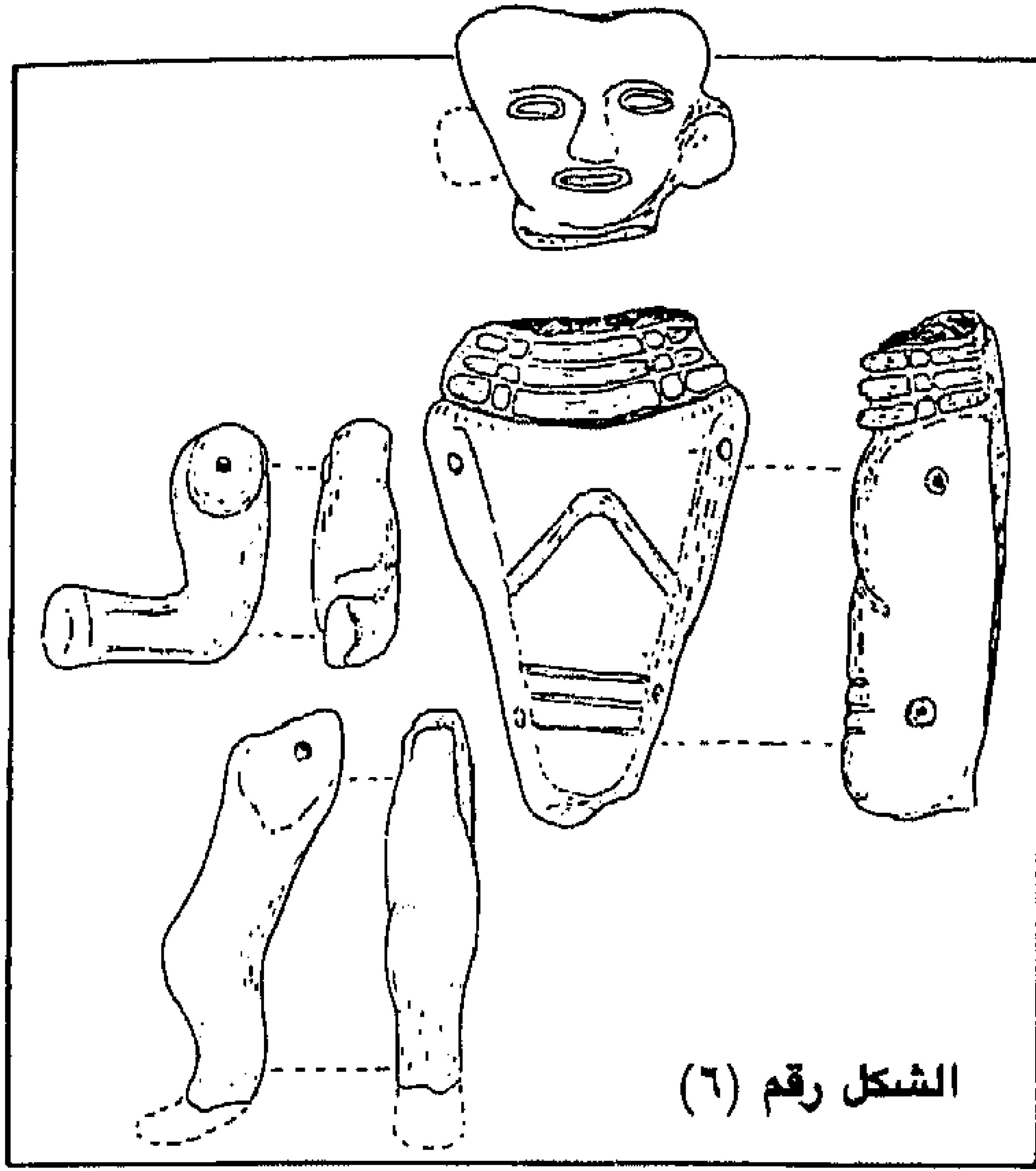
الشكل رقم (٥)
تمساح ذو فك متحرك (متحف ليدن)

كيفية حركة يد الحداد

يعتمد هيرون في اداء حركة اليد على الدوائر ذات الاسنان التي تدور بفعل الاثقال المتدلية على الحبال المثبتة على البكر، كما انه يعتمد نفس المبدأ عندما يصف كيفية فتح واغلاق ابواب المسارح (راجع الشكل رقم (١٨) و (١٩)).

خلاصة القول

ان التماثيل المتحركة اعتمدت في حركتها بادىء ذي بدء على تحريك الجسم بكامله بواسطة البكر او على تحريك بعض المفاصل بواسطة الخيوط ثم مالبثت ان تطورت تلك الحركة مع اليونان بحيث يلاحظ من النماذج السابقة بانهم اعتمدوا الحركة الآلية لتماثيلهم مرتكزين بذلك على النظريات العلمية البحتة في علم الميكانيك. من هذه المبادىء نذكر قوة ضغط الماء لطرد الهواء ـ قوة وزن الماء لادارة الدواليب ـ مبدأ الاجسام التي تطفو على سطح الماء ـ مبدأ دوران الدواليب والدوائر ذات الاسنان (Systeme d'engrenage) مبدأ المضخة المائية، كل ذلك اعطى بالطبع حياة جديدة لفن التماثيل المتحركة.



الشكل رقم (٦)

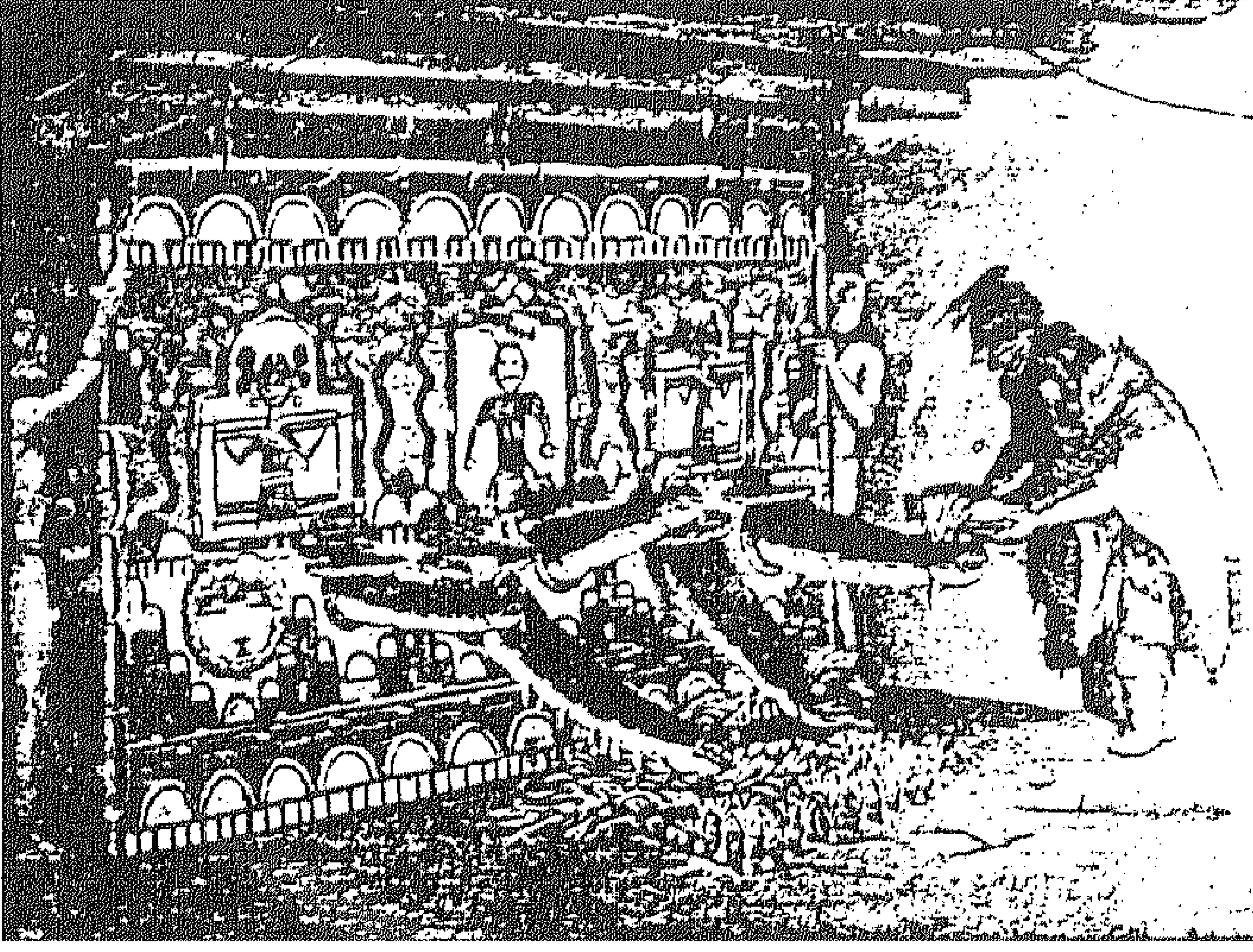
العرب والتماثيل المتحركة

لم يعبث العرب بهذا الارث الثمين الذي تركه لهم اسلافهم بل حافظوا عليه وترجموه الى لغتهم الام لكي يتسنى لكل باحث عربي الاطلاع عليه. لكنهم لم يكتفوا بهذا القدر، شأنهم في جميع العلوم، بل طوروا هذا الفن واحرزوا بتطوره تفوقا ملحوظا.

رغم ان تراثنا العربي ليس حافلا بالمخطوطات المتعددة في وصف التماثيل المتحركة ولكن ما تبقى لنا منه في هذا الحقل يعطينا فكرة واضحة عن مدى تطور هذا الفن عند اجدادنا ومدى تفوقهم على اسلافهم في الحيل الميكانيكية التي اعتمدوها لتحريك تماثيلهم. ان ما انجزه العرب في هذا المضمار يفوق الى حد بعيد ما ورثوه من اليونان والرومان والبيزنطيين. هذا مع العلم ان ما توصل اليه علماؤنا من النظريات العلمية الحديثة في هذا المجال سبقوا فيه علماء الغرب بعدة قرون.

لعبت التماثيل والدمى المتحركة دورا هاما في حياة الملوك العرب، وكان لها الأثر الاكبر في تطوير علم الحيل، لذلك لم يخل قصر من القصور أو منزل من منازل الخلفاء من تمثال يتحرك من تلقاء نفسه. هذا وان قصة الف ليلة وليلة مليئة بالاساطير التي تتكلم عن ظهور تماثيل تقوم باعمال الانسان. تحدثنا هذه القصة عن الملك شرفان عندما دخل قصر الملكة ابريزة اذ لفت

الشكل رقم (٧)



نظره صالة واسعة فرشت بالسجاد الخراساني وملئت بالتماثيل التي تحرك اطرافها وتغني.

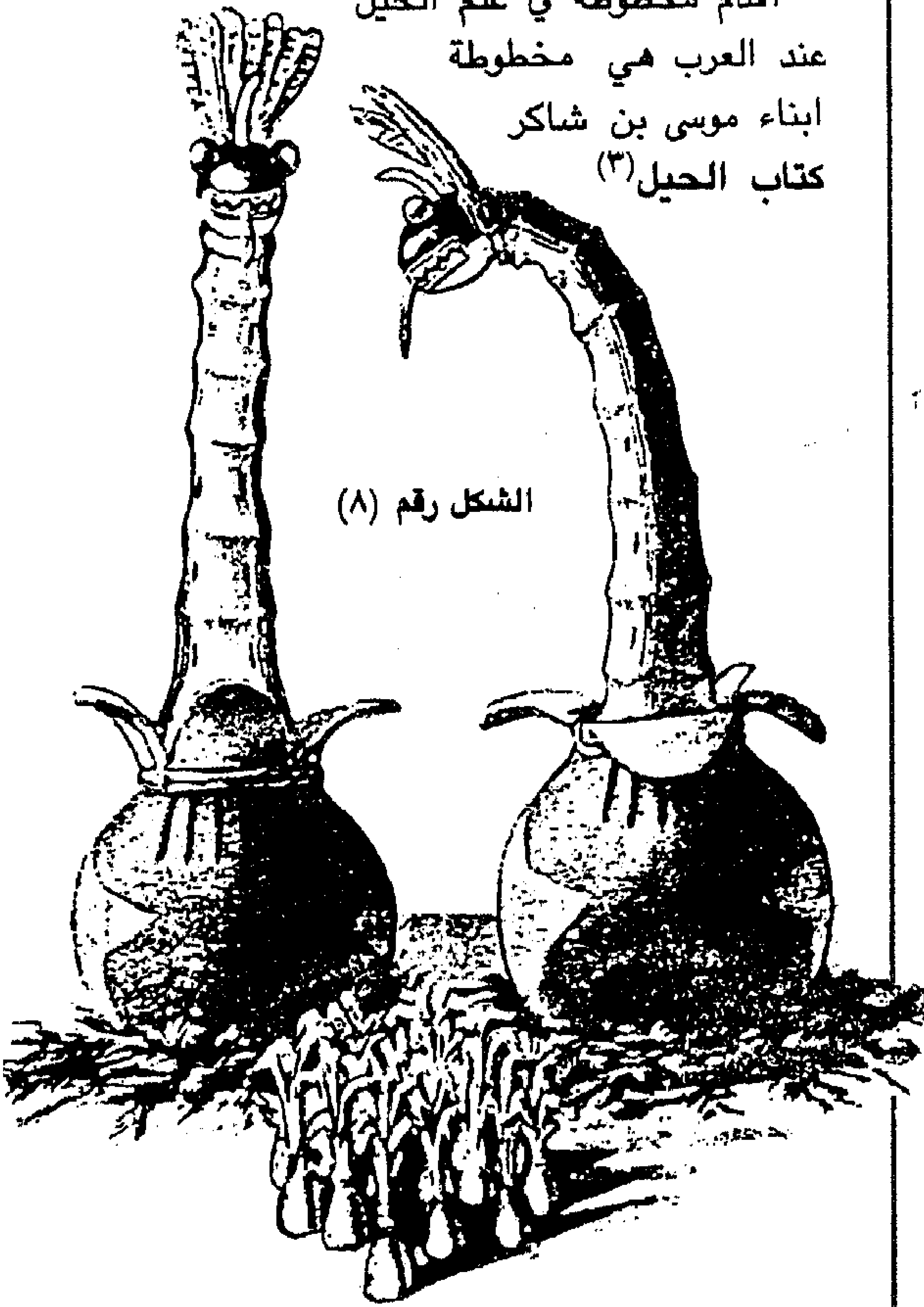
اما كتاب كليلة ودمنة، فانه غالبا ما يحدثنا عن الحصان الطائر ولم يخل من العبارات التي ترمز الى وجود التماثيل المتحركة كالعبارة التالية:

«ان يصنعوا خيلا من نحاس مجوفة عليها تماثيل من الرجال على بكر تجري اذا دفعت مرت سراعا».

وتحدثنا بعض المراجع عن الساعة المائية المهداة من هارون الرشيد الى الملك شارلمان. ان هذه الساعة تحمل اثني عشر تمثالا، عند منتصف النهار اي في الساعة الثانية عشرة تماما يظهر ١٢ خيالا من ١٢ شباكا بصورة تلقائية ليعبروا عن منتصف النهار. كما تحدثنا تلك المراجع ايضا عن ظهور التماثيل المتحركة في بغداد ايام الخلفاء حيث ان هؤلاء كانوا يستقبلون ضيوفهم في سامراء شمالي العاصمة ويعرضون امامهم اعدادا كبيرة من الطيور الميكانيكية ترفرف بجوانحها وتغرد.

ان التماثيل والدمى المتحركة عند العرب ظلت محفوظة بين صفحات الكتب والمجلات، تنتقل من صفحة الى اخرى على ألسنة المؤرخين ولم تستطع الظهور الى حيز الوجود الا في اواخر القرن الرابع عشر لان جميع المخطوطات التي تصفها وصفا حسيا او تصف كيفية عملها ضاعت ولم يبق منها سوى اثنين احدهما لابناء موسى بن شاكر واخرى لبديع الزمان ابن الرزار الجزري.

اقدم مخطوطة في علم الحيل عند العرب هي مخطوطة ابناء موسى بن شاكر **كتاب الحيل**[٣]



الشكل رقم (٨)

فقد اهتم الاخوة بعرض للاواني التي تستعمل في عصرهم بطريقة فنية وحيل غريبة تدهش الناظر اليها حتى يخيل اليه وكأنه امام مشعوذ ماهر.

اما المخطوطة الثانية، لهؤلاء الاخوة والتي تحتوي على اهم الاسس العلمية الحديثة للتماثيل المتحركة فهي مخطوطة **الآلة التي تزمر بنفسها**[٤]. لم يكتف ابناء موسى بوصف الآلة التي تزمرّ بل هناك مقطعان مهمان يصفان التماثيل المتحركة بصورة دقيقة حتى انهم استطاعوا تحريك اصابع التمثال لا يده بالاجمال فحسب كما فعل سلفهم هيرون الاسكندري وهنا يظهر التقدم التقني.

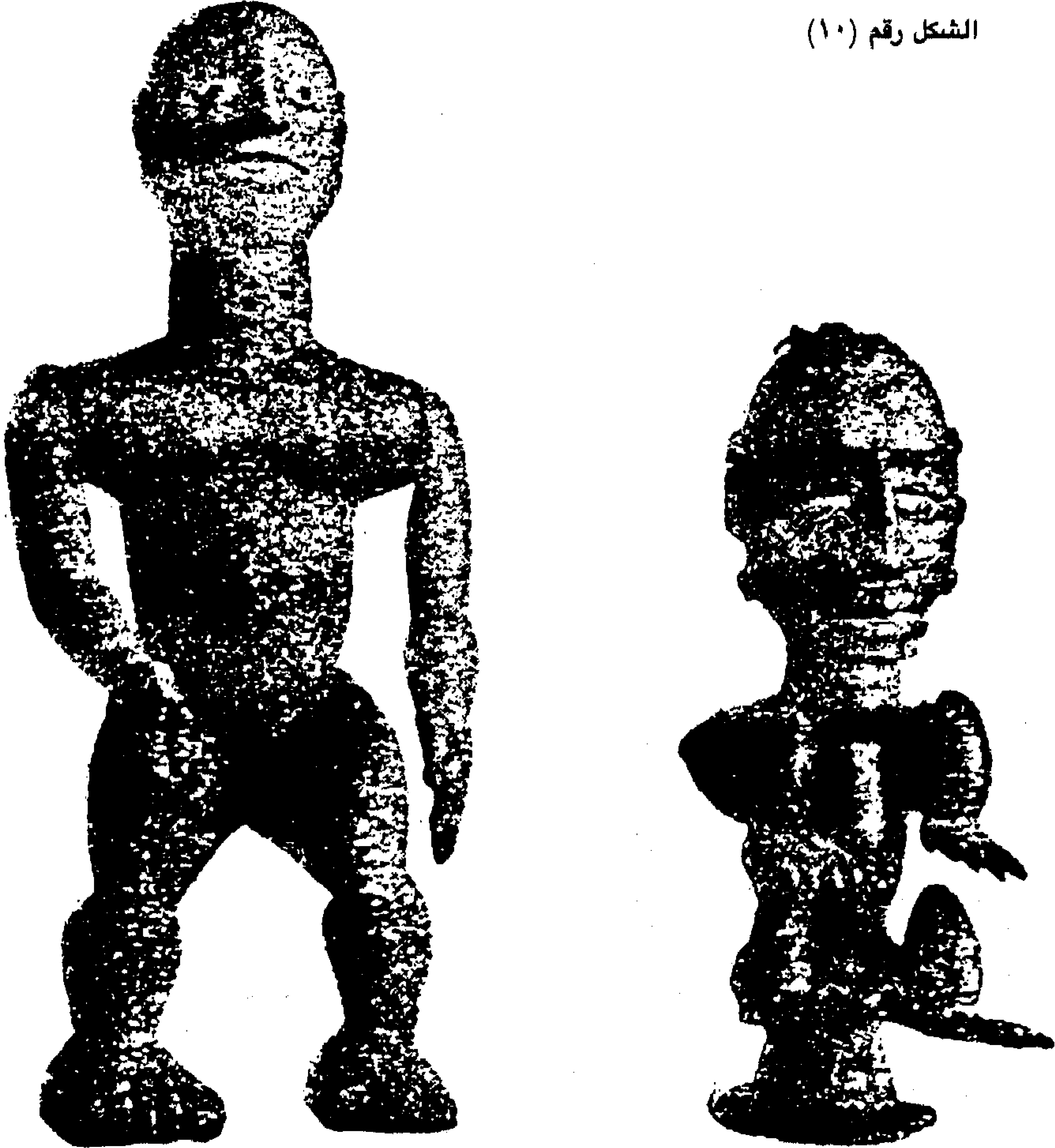
الشكل رقم (٩)

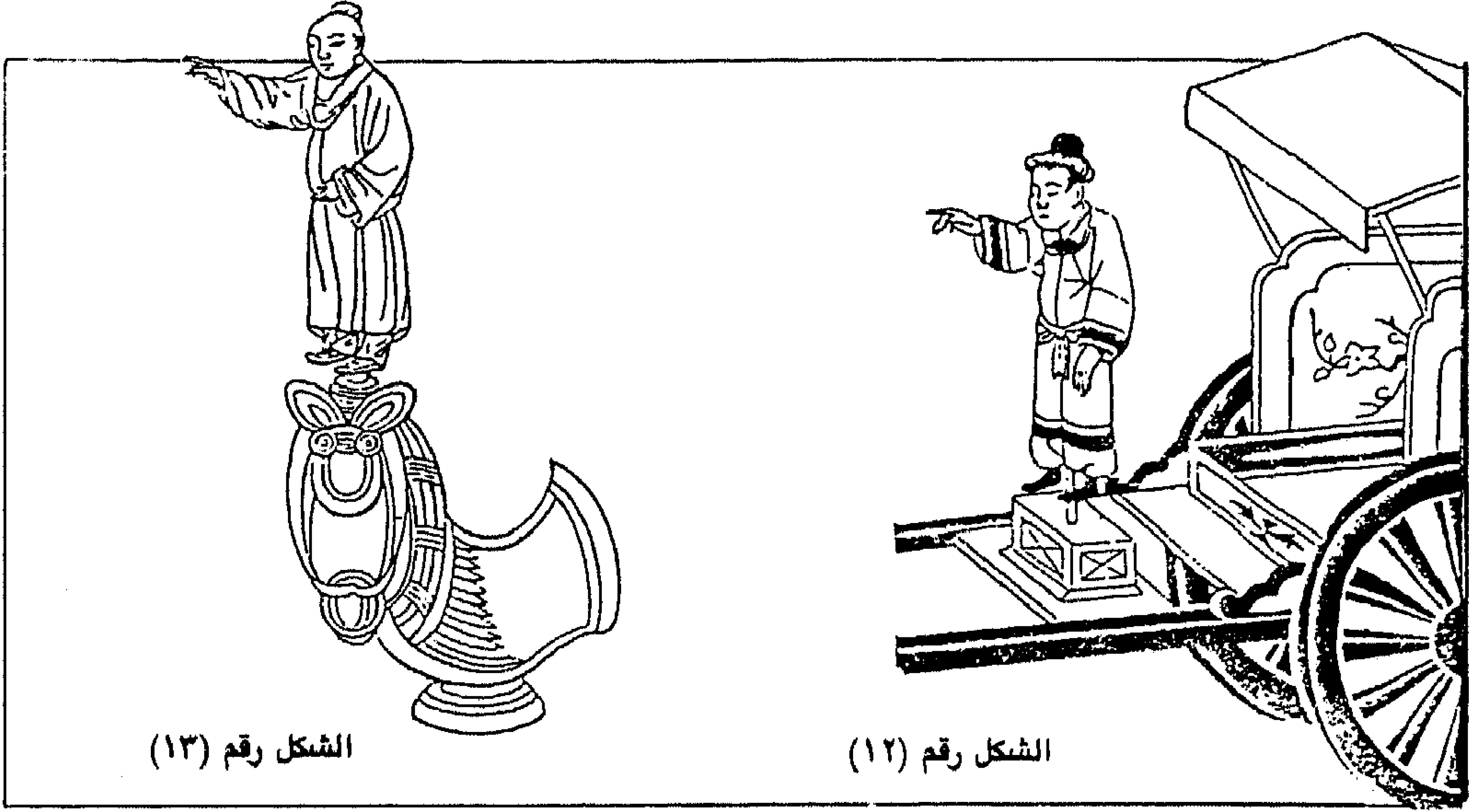


المقطع الأول

«واذا اردنا ان نتخذ ذلك في صورة انسان، فانا نصير هذه الآلة كلها مستورة في داخل بدن تمثال او في موضع اخر ويظهر السرناي وهو مركب في فم التمثال وتجعل تلك المساطر التي على طرفها الابواب وهي التي تسد وتفتح ثقب

الشكل رقم (١٠)





الشكل رقم (١٣)

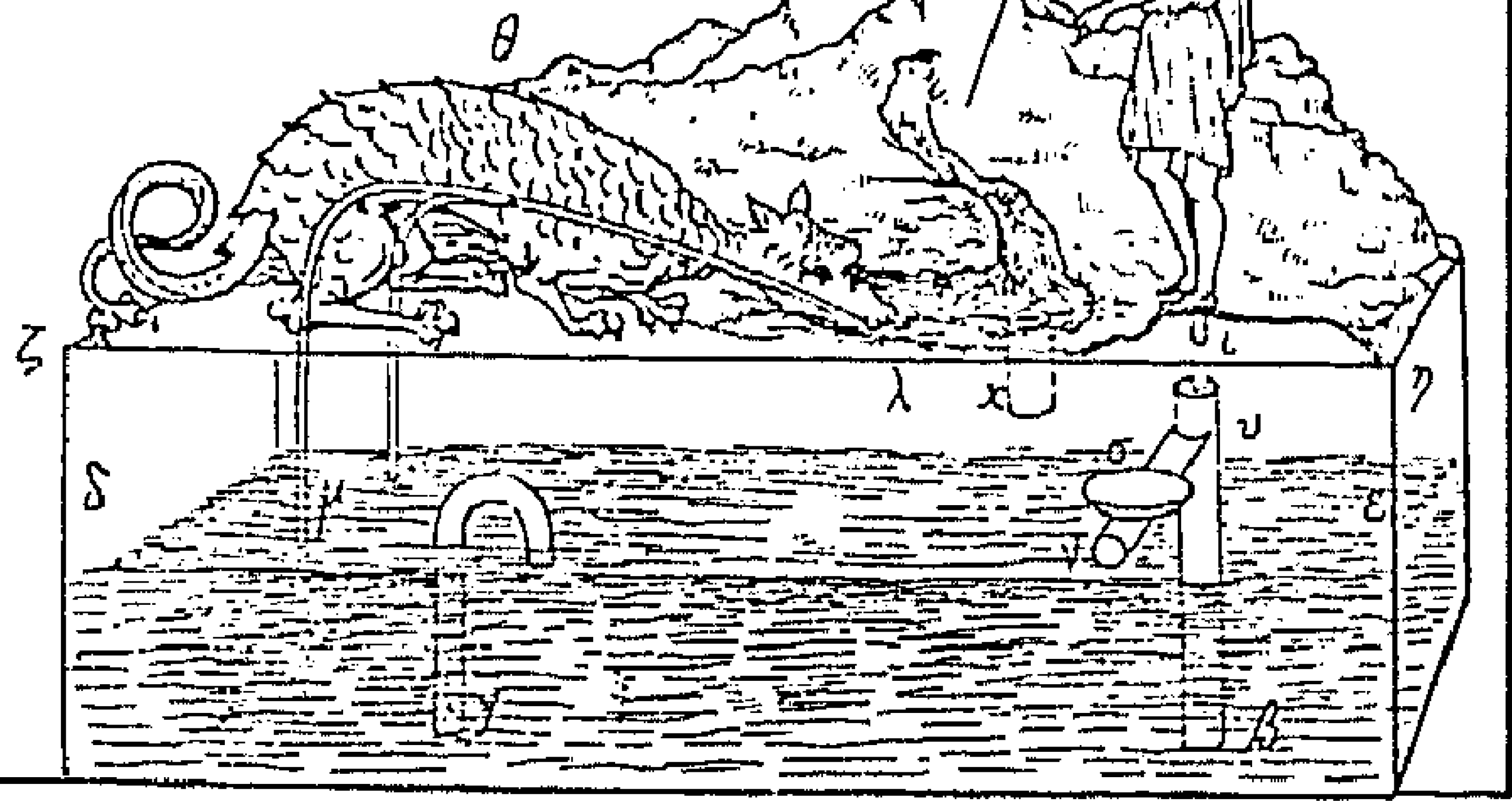
الشكل رقم (١٢)

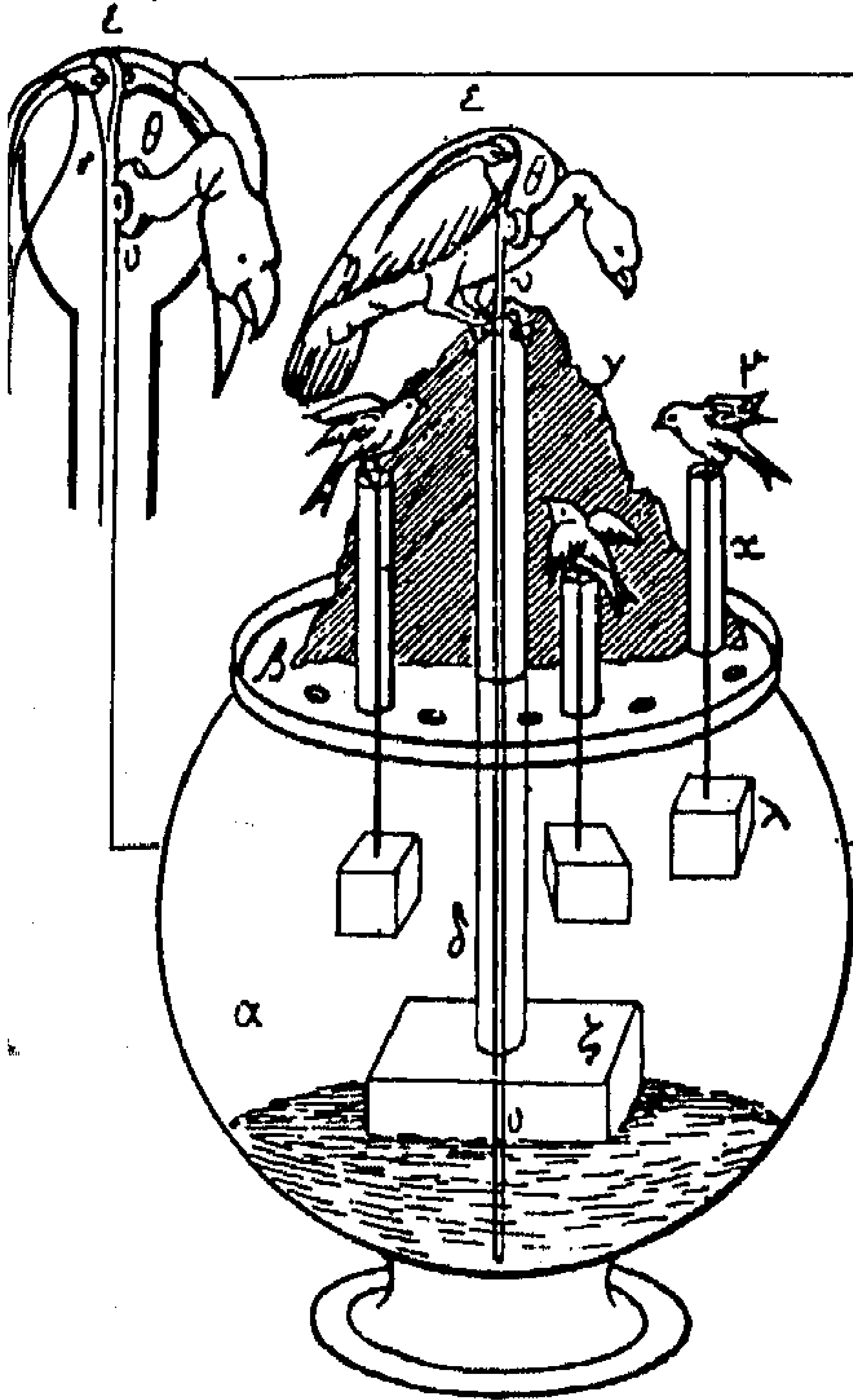
آ

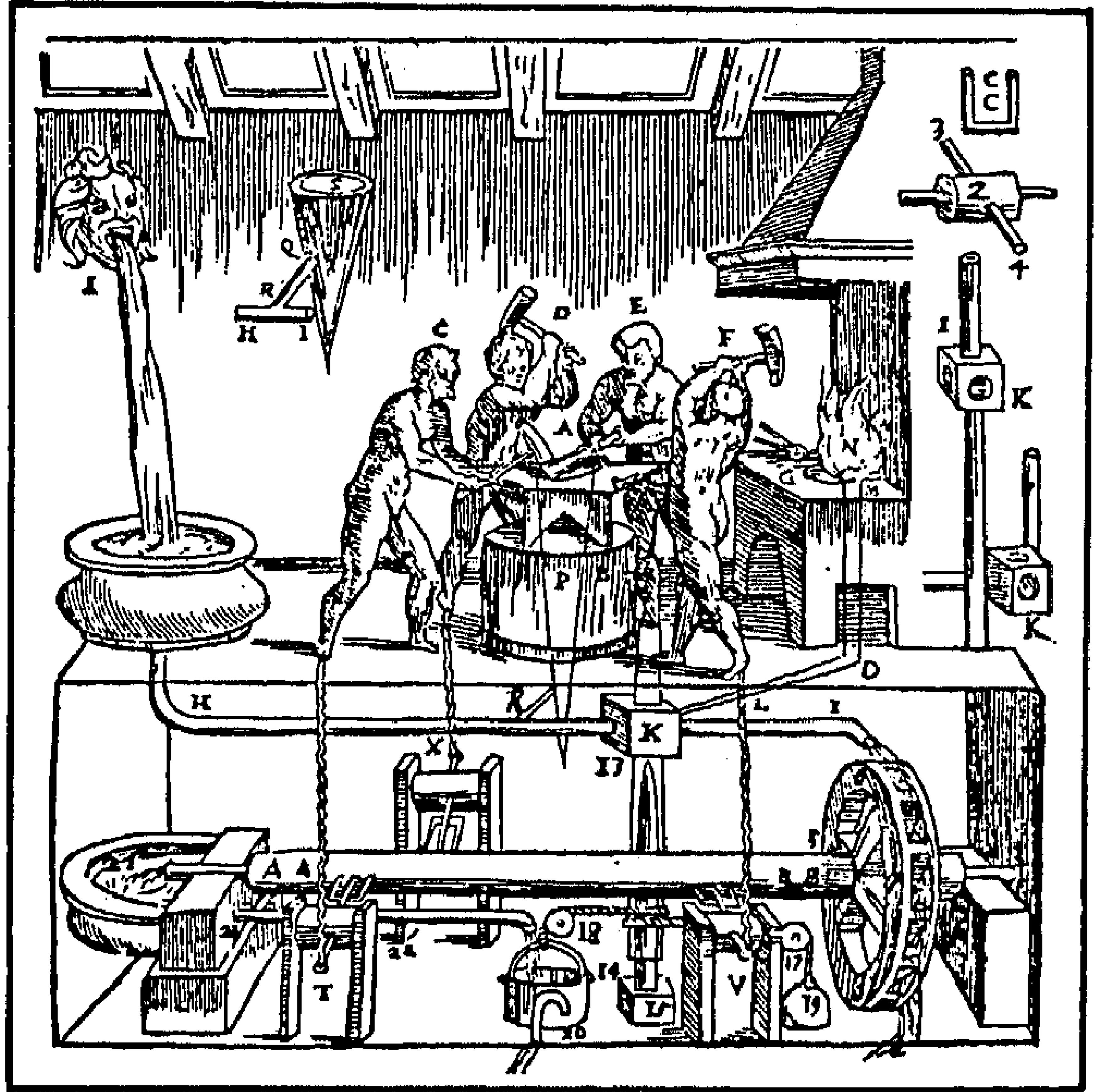
ب

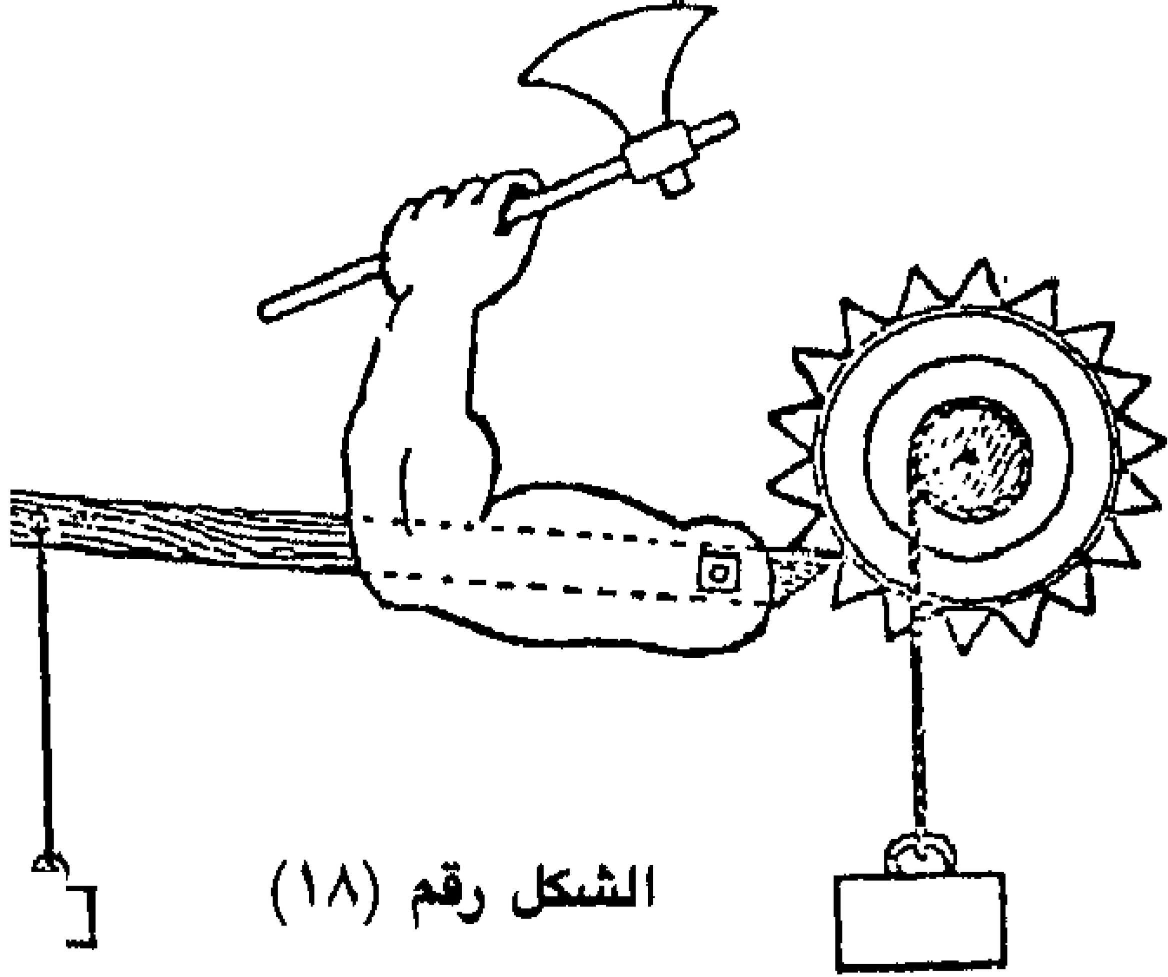
ب

الشكل رقم (١٤)


الشكل رقم (١٥)
(من كتاب فيلون البيزنطي)


الشكل رقم (١٦)

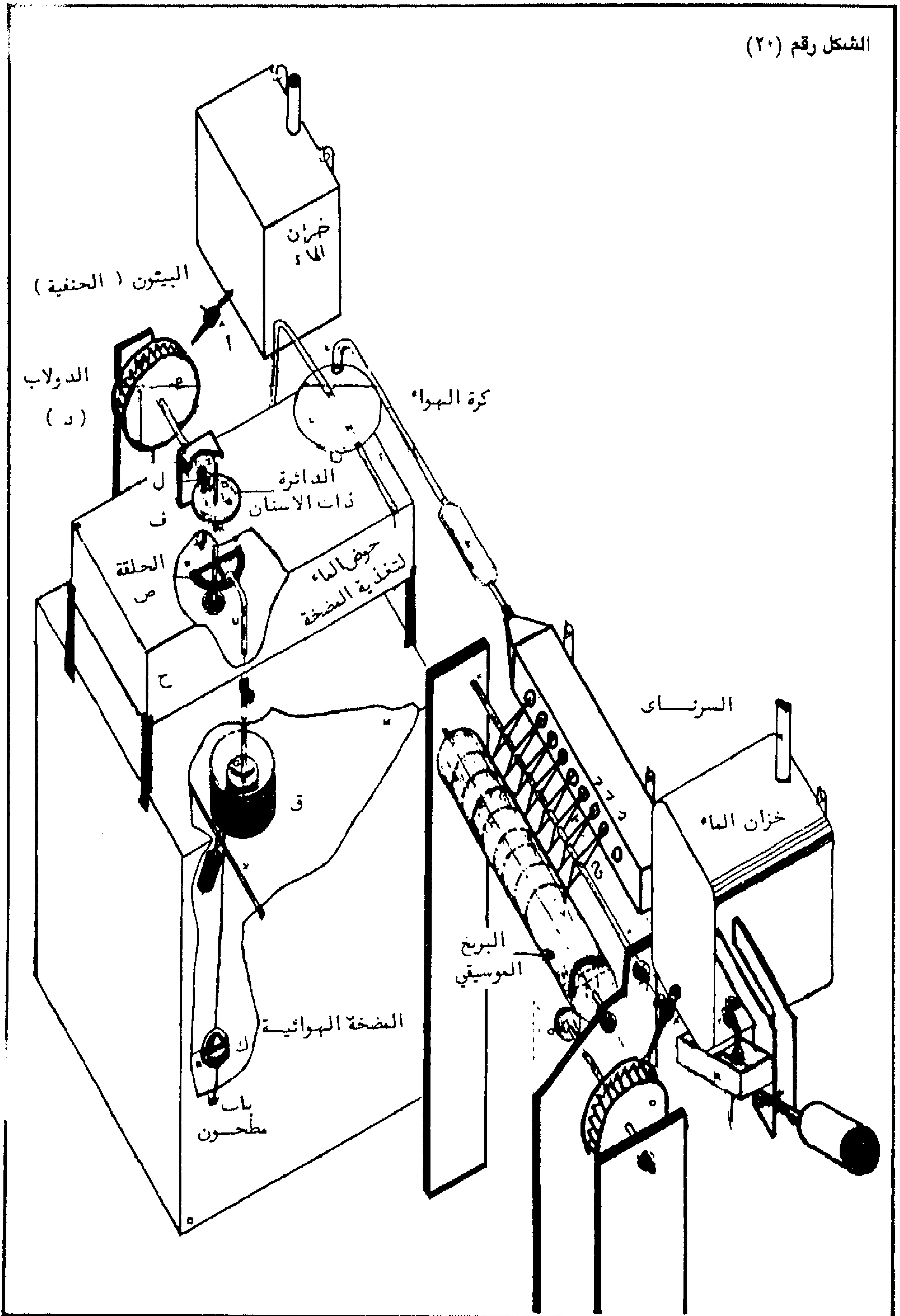

الشكل رقم (١٧)


الشكل رقم (١٨)

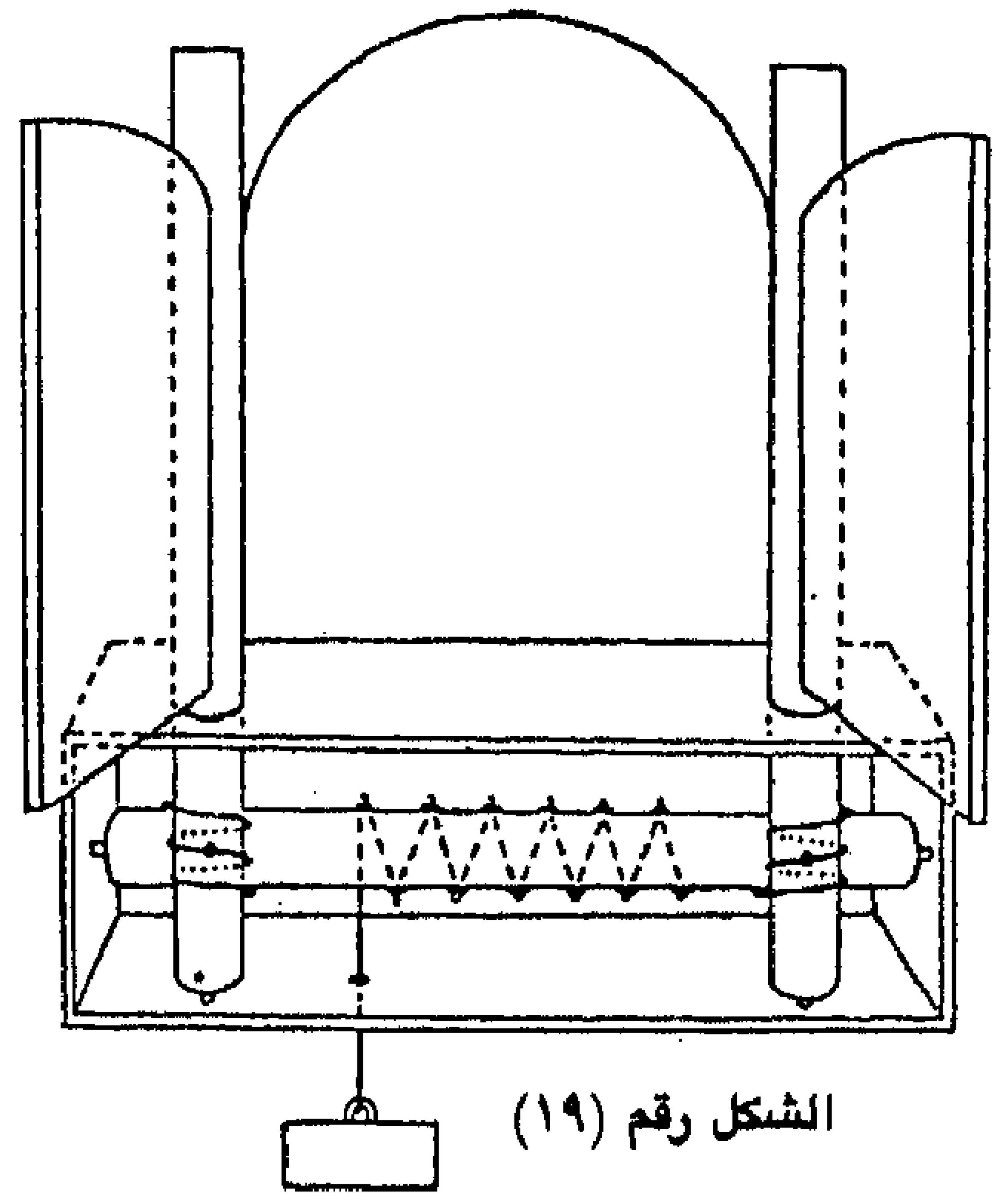
السرناي الثمانية هي اصابع التمثال وتعطف اطراف المساطر التي عليها (د) في داخل ساعدي التمثال حتى تنتهي الشظايا على بربخ (هـ) داخل التمثال لكي لا يظهر من جميع الآلة الا السرناي فقط واصابع التمثال المشكلة بالاصابع فاذا اطلقنا في الآلة الماء وصيرنا مسكن الريح الى فم التمثال وخرج من الحبة وادى الصوت في السرناي ثم تحركت الاصابع على الرناي كما وصفنا فقد زمر التمثال تلك الالحان التي الفناها كما يزمرها الانسان الزامر ويخفف ايضا ايقاع اللحن ويثقله وينتقل من لحن الى لحن كما وصفنا، وذلك ما أردنا أن نبين».

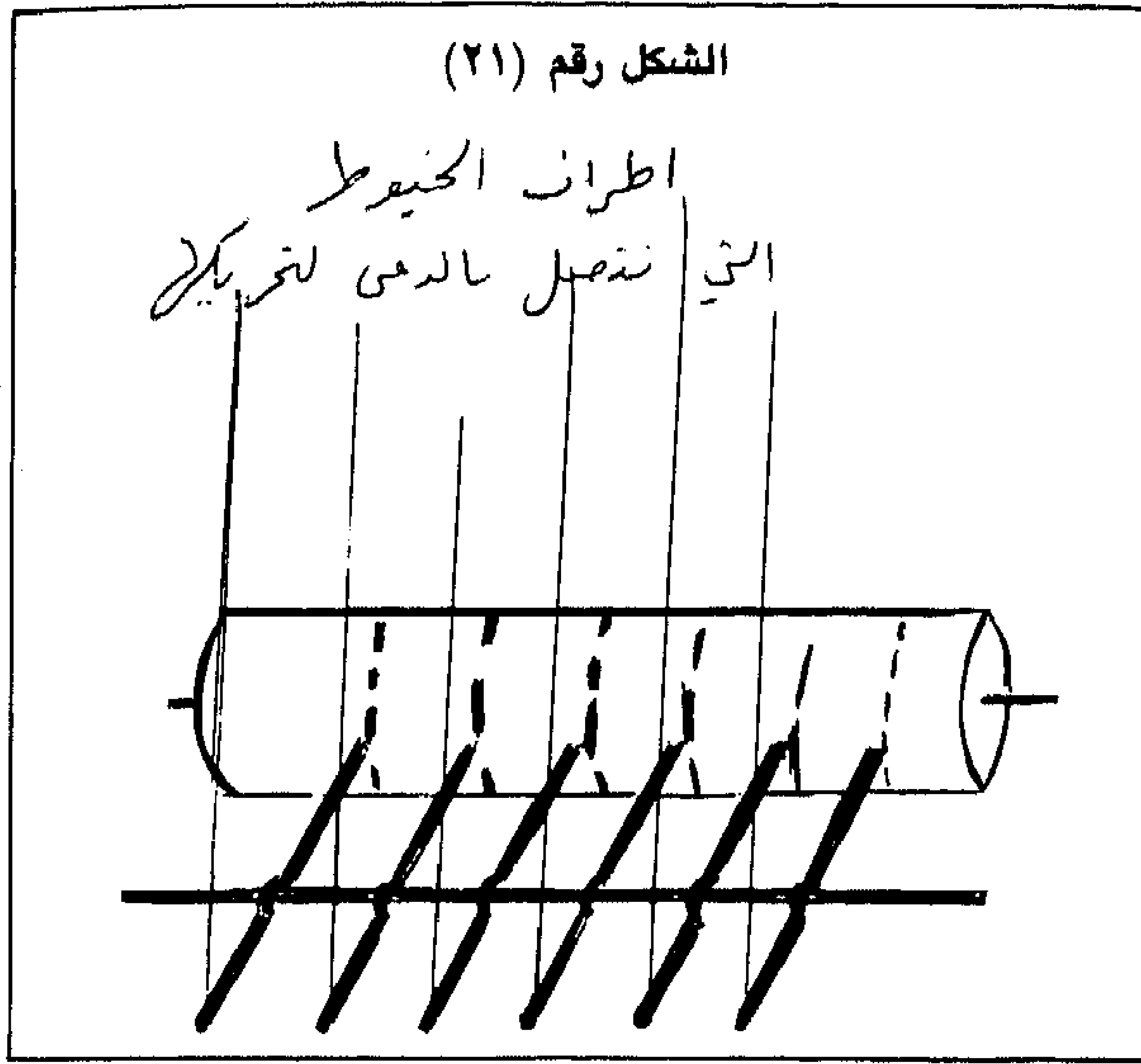
المقطع الثاني

«وعلى هذا المسلك بعينه، قد يستقيم ان نعمل صنما يضرب بالعود او بآلة ذات اوتار كالعازف فيتبع احد الصحنين الآخر ويتبع الزمر للوتر ويتبع الوتر للزمر ويجوز ايضا ان نتخذ تماثيل اصنام ترقص وتتبع هذا الزمر وهذه الاوتار والحيلة في ذلك اجمع كالحيلة في الزمر حتى تدوم النغمة الواحدة من الأوتار مع كل نغمة للزمر اذا انتهت النوبة.



الشكل رقم (٢٠)
خزان الماء
البيثون (الحنفية)
الدولاب
(د)
كرة الهواء
الدائرة
ذات الاسنان
حوض الماء
لتغذية المضخة
الحلقة
ص
ل
ف
ح
ق
السرنـــاى
خزان الماء
البريخ
الموسيقي
المضخة الهوائيـة
ك
باب
مطحـون


الشكل رقم (١٩)



الشكل رقم (٢١)

لقد ترجمنا المقطع الاول بالشكل رقم (٢٠) والمقطع الثاني بالشكل رقم (٢١).

وفي هذين الشكلين يظهر بوضوح التطور التقني الذي توصل اليه ابناء موسى بن شاكر في هذه المخطوطة. لتحديد هذا التطور واهميته لا بد لنا من مقارنة طريقة تحريك التماثيل عند هيرون وعند أبناء موسى.

ــ لقد استعمل هيرون لتحريك اعضاء واطراف تماثيله البربخ ذات الشظايا (Le Cylindre pointe) لكنه لم يستعمل معه المساطر التي تتحرك بواسطة الشظايا كما فعل ابناء موسى، بل اكتفى بالحبل والثقل المتدلي في طرفه.

ــ لقد ثبت هيرون عددا محددا جدا من الشظايا على البربخ واستعملها لتثبت الحبال بينما وزع ابناء موسى عددا كبيرا من هذه الشظايا بطريقة فنية وفقا لترتيب نغمة موسيقية معينة. فاصبحوا بذلك اول من استعمل البربخ الموسيقي الذي هو اساس الموسيقى الميكانيكية والمعروف حاليا بـ (Cylindre musical) والذي يستعمل في جميع العلب والدمى الموسيقية في عصرنا الحاضر.

ــ لقد اعتمد هيرون على الحبال والاثقال لادارة البربخ بينما استعان ابناء موسى بقوة ثقل الماء على الدولاب ذي الزردات الذي يدير البربخ بواسطة الدوائر ذات الاسنان (Systeme d'engrenage) فاصبحت بذلك حركة البربخ حركة دائرية بسرعة مستوية، هنا ايضا تظهر المقدرة التقنية عند هؤلاء الاخوة.

ــ لقد اعطى هيرون ليد الحداد حركة اجمالية اما ابناء موسى بن شاكر فقد اعطوا للزامر حركة مفصلية، اذ ان لكل اصبع حركته المناسبة وفقا لنغمة موسيقية معينة.

مجمل القول، ان ابناء موسى اظهروا في هذه المخطوطة مقدرة فنية وبراعة تقنية فاقوا بها جميع الحضارات التي سبقتهم.

هذا ما انجزه الاخوة الثلاثة في حقل التماثيل والدمى المتحركة في القرن التاسع الميلادي. ●

الهوامش

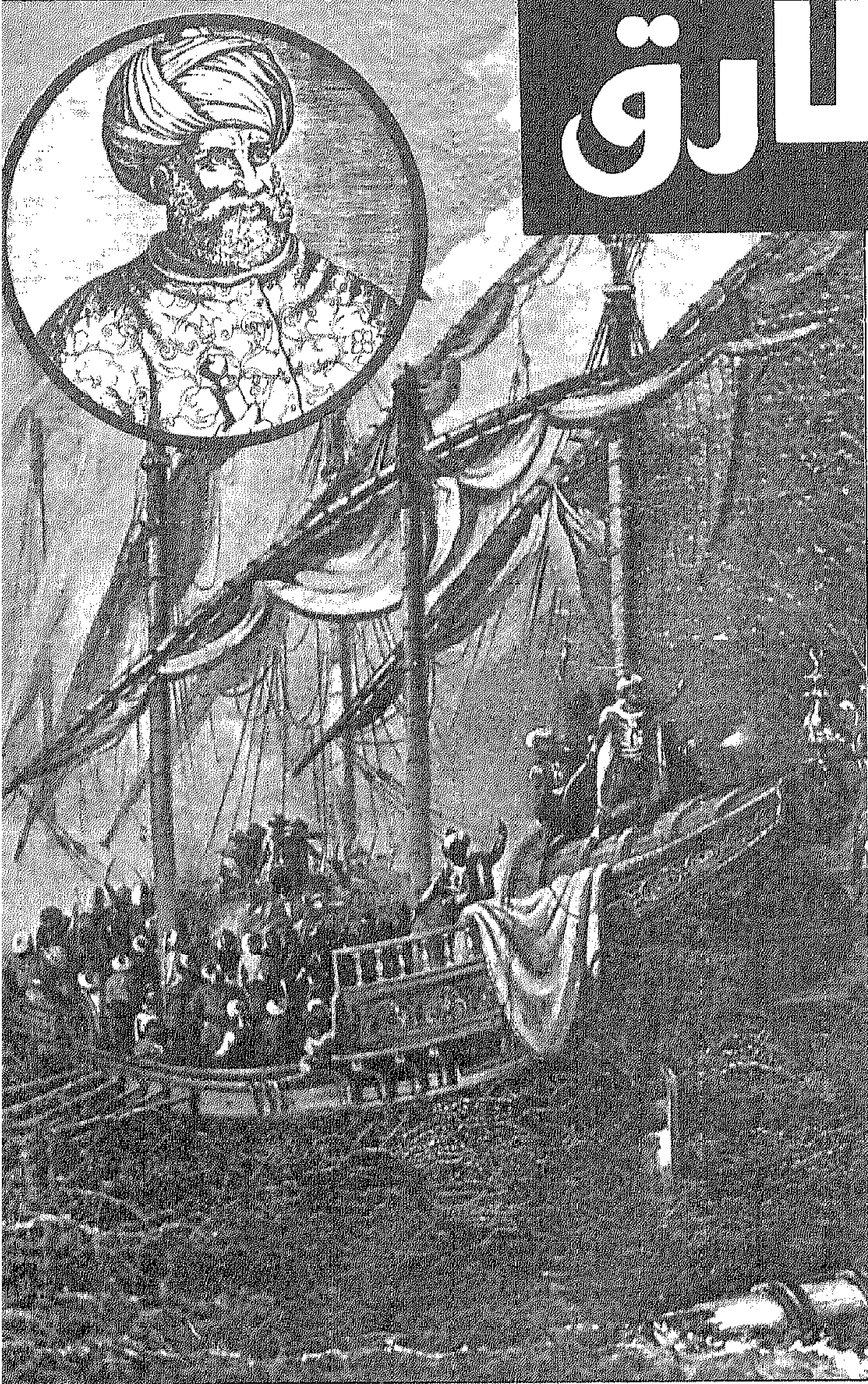
(١) هنود الهوبي (Hopi) سكان بلاد الاريزونا (Arizona) في الولايات المتحدة وهي ليست بالبعيدة عن الكولورادو (Colorado).

(٢) تذكر هنا ان في الخرائط الجغرافية القديمة لبلاد الصين سهمان يظهر الجنوب في اعلى الخارطة والشمال في اسفلها.

(٣) راجع العدد ٤٩، في هذه المجلة.

(٤) راجع العدد ٣٩، من هذه المجلة.

جبل طارق



خير الدين بربروسا.. مرّوع المتوسط.

جبل الفتح

مَعقل إسلامي عبر القرون الوُسطى

(٩٢ - ٨٦٦ هـ)
(٧١١ - ١٤٦٢ م)

الحلقة الثانية والأخيرة

د. أمين توفيق الطيبي

نظرا للنقص الذي نعانيه في المشرق العربي في ميدان الدراسات التاريخية المتعلقة بالمغرب العربي، ورغبة في سد هذا النقص بالنسبة للقارىء الشرقي، فاننا نستأذن «مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي» في ان نقتبس الدراسة القيمة للدكتور أمين توفيق الطيبي في موضوع جبل طارق عن مجلة المركز «مجلة البحوث التاريخية» العدد الأول، يناير ١٩٧٩م وان نعيد نشرها في مجلة «تاريخ العرب والعالم» وذلك تعميما للفائدة واسهاما في توسيع نطاق قراءة الدراسات التاريخية عن المغرب العربي.

جبل طارق في عهد بني مرين وبني الاحمر



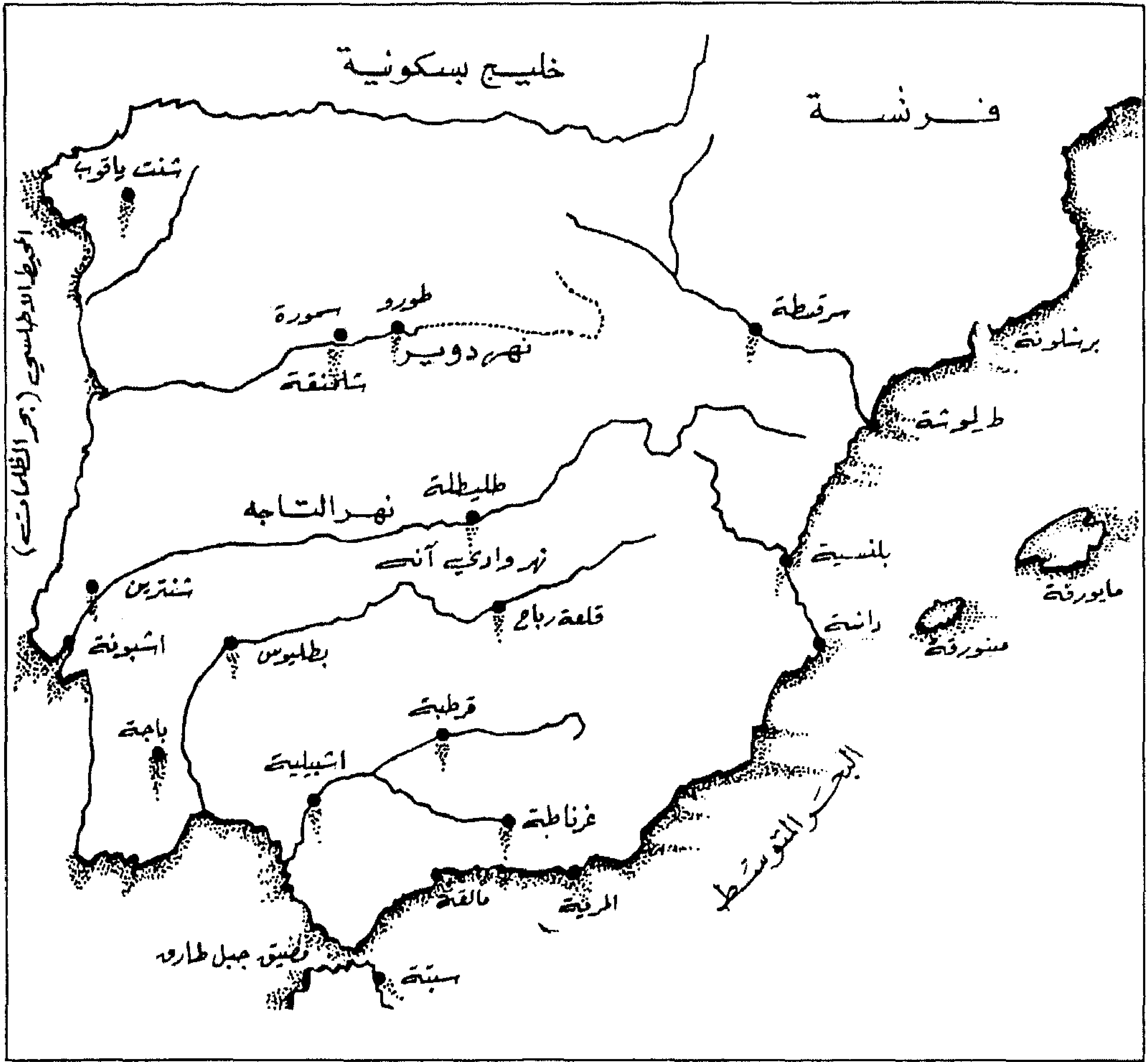
انتهى حكم الموحدين في الاندلس عمليا سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م، وظهر امراء مستقلون هنا وهناك، اهمهم ابن هود الذي تمكن في وقت ما من السيطرة على معظم شرق الاندلس وجنوبها. وفي شهر رجب سنة ٦٢٨هـ/ مايو ١٢٣١م «مَلَكَ ابن هود جبل الفتح والجزيرة الخضراء، ولم يَبْقَ للموحدين بالاندلس امر ولا نهي»(١). وفي هذه الاثناء، اتحدت مملكتا قشتالة وليون، فازداد النصارى قوة، وفي عهد ملكهم فيرناندو/ فرديناند الثالث، سقطت في ايديهم حواضر الاندلس وقواعدها الكبرى. كقرطبة واشبيلية وجيان، كما سقطت بلنسية في يد ملك اراجون جيمس الاول. وفي هذه الفترة الموءسية في تاريخ الاندلس، استقل في جيان بادىء الامر محمد بن يوسف بن نصر الملقب بالاحمر، ثم استولى على غرناطة واتخذها سنة ١٢٣٥م عاصمة له، وهو مؤسس اسرتها الحاكمة المعروفة ببني الاحمر او بني نصر. وكان ابن نصر هذا مضطرا لمداراة فرديناند الثالث للاحتفاظ بمملكته، لا بل وكان يدفع له ضريبة سنوية ويساعده في حروبه حتى ضد المسلمين. وظلت سياسة ملوك بني الاحمر ــ كملوك الطوائف من قبلهم ــ تقوم على ابقاء التوازن بين القوى المتصارعة في الاندلس للاحتفاظ بمملكتهم. فهم تارة يستعينون بسلاطين المغرب ضد النصارى اذا ازداد خطر هؤلاء عليهم، وتارة يستعينون بالنصارى ضد سلاطين المغرب اذا قوي هؤلاء وسيطروا على جزء من الاندلس.

ولما ازداد خطر النصارى على غرناطة اضطر سلطانها محمد الفقيه (حَكَم ٦٧١ ــ ٧٠١هـ/ ١٢٧٣ ــ ١٣٠٢م)، وبضغط من النازحين المسلمين من قشتالة، الى استدعاء السلطان المريني ابي يوسف يعقوب (حَكَم ٦٥٦ ــ ٦٨٥هـ/ ٥٨ ــ ١٢٨٦م). فعبر ابو يوسف بحر الزقاق اربع مرات، وكان جوازه الاول في شوال ٦٧٣هـ/ ابريل ١٢٧٥م، واستولى على الجزيرة الخضراء ثم احرز انتصارا كبيرا على القشتاليين قرب استجّة في ١٥ ربيع اول ٦٧٤هـ/ ٨ سبتمبر ١٢٧٥م. وعلى الاثر تبدل موقف سلطان غرناطة من السلطان المريني بعد ان احتفظ هذا بثغر طريف لاتخاذه قاعدة لنزول قواته، فتحالف مع النصارى ومع امير تلمسان يغمراسن الزياني، ليعمل هذا على اشغال المرينيين والحيلولة دون تدخلهم في شؤون الاندلس(٢).

ومما يُذكر، ان المسلمين اتخذوا جبل طارق اثناء عملياتهم الحربية ضد النصارى محطة لحمام الزاجل لنقل الاخبار على وجه السرعة. «وكان اهل الجزيرة... يحيط بهم العدو برا وبحرا... وانقطعت عنهم المداد وعميت عليهم الانباء الا ما يأتيهم به الحمام من جبل طارق... يحمل اليهم الكتاب ويرد عليه الجواب»(٣).

خلف ابا يوسف ابنه ابو يعقوب يوسف (حكم ٦٨٥ ــ ٧٠٦هـ/ ١٢٨٦ ــ ١٣٠٦م)، وفي عهده ساءت من جديد العلاقات بينه وبين السلطان محمد الفقيه الذي تحالف مع ملك قشتالة دون شانجة (Don Sancho)، وحاصر معه طريف التي اضطرت الى الاستسلام بعد حصار دام اربعة شهور (رمضان ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) واحتفظ بها ملك قشتالة ولم يُعِدْها لسلطان غرناطة كما كان قد وعده. فعاد سلطان غرناطة الى سياسته المتذبذبة، وتحالف مع أبي يعقوب ولكنهما لم ينجحا في استرداد طريف لانشغال السلطان المريني بمحاربة امير تلمسان.

واثر هجوم مباغت استولى ملك قشتالة فرديناند الرابع على جبل طارق (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، مع انه اضطر الى رفع الحصار الذي كان يضربه على الجزيرة الخضراء. يقول ابن خلدون: «وكان الطاغية قد اخذ جبل الفتح سنة تسع وسبعمائة [١٣٠٩م] وجاورت النصرانية به ثغور الفرضة، وصار شجى في صدرها، واهم المسلمين شأنه»(٤). وكان من نتيجة استيلاء النصارى على جبل طارق بعد استيلائهم على طريف قبل ذلك بعشرين عاما ان ابرم سلطان غرناطة نصر ابو الجيوش (حَكَم ٧٠٨ ــ ٧١٣هـ/ ١٣٠٩ ــ ١٣١٤م) معاهدة مع السلطان المريني ابي الربيع سليمان (حَكَم ٧٠٨ ــ ٧١٠هـ/ ١٣٠٨ ــ ١٣١٠م) تخلى له بموجبها عن الجزيرة الخضراء، في مقابل الحصول



على تعزيزات مغربية. وفي عامي ١٣٢٧م و ١٣٣٠م، استولى الفونش الحادي عشر على عدة معاقل غربي غرناطة، ففزع سلطان غرناطة لذلك، وتوجه بنفسه الى فاس للاستغاثة بأبي الحسن المريني، الذي هب لنجدته(٥)، وعن ذلك يحدثنا ابن خلدون فيقول: «فبادر السلطان محمد بن اسماعيل [الرابع] بن الأحمر بزيارة السلطان ابي الحسن في فاس سنة ٧٣٢ [١٣٣٢م] للمفاوضة في امر الجهاد... وشكا اليه حال الجبل واعتراضه شجى في صدور الثغور»(٦). فعقد ابو الحسن لابنه ابي مالك على خمسة الاف من انجاد بني مرين، وانفذهم مع ابن الاحمر لمنازلة جبل الفتح، «فنزل المسلمون بالجزيرة الخضراء، وزحفوا جميعا الى الجبل واحاطوا به ونازلوه، الى ان فتحوه [عنوة] سنة ٧٣٣

[١٣٣٣م] وشرع المسلمون في شحنه بالأقوات... ووصل الطاغية بعد ثلاث [ليال] من فتحه، فاناخ عليه وحاصره، وبرز ابو مالك بعساكره من الجزيرة فنزل بأزائه، وزحف ابن الأحمر فنزل بأزائه ايضا، ثم خاف ابن الأحمر عادية العدو، لقُرب العهد بارتجاع الجبل، وخفة مَنْ به من الحامية والسلاح، فبادر الى لقاء الطاغية... [فاجابه] الى ما سأل من الافراج عن هذا المعقل... وارتحل من فوره، وشرع أبو مالك في تحصين ذلك الثغر»(٧).

وكان استرجاع ابي الحسن المريني لجبل طارق من ايدي الروم بعد تملكهم له عشرين سنة ونيفا (٧٠٩ ــ ٧٣٣هـ/ ١٣٠٩ ــ ١٣٣٣م)، وكان فتحه بعد حصار ستة اشهر(٨). وكان على حد قول ابن خلدون «فتحا

طوّق دولة السلطان ابي الحسن قلادةَ الفخر اخر الايام»(٩).

لم ترضَ بعض العناصر المتنفذة في غرناطة عن عودة بني مرين واستيلائهم على جبل طارق، ونقمت تلك العناصر لذلك على السلطان محمد الرابع لدعوته لبني مرين الى الاندلس، فاغتيل السلطان ونُصب اخوه يوسف الاول مكانه.

وقد اكدت دروس الماضي اهمية غلق مضيق جبل طارق نهائيا، خصوصا وان المرينيين سيطروا الآن على جبل طارق والجزيرة الخضراء معا، واتموا في الوقت ذاته السيطرة على سجلماسة وتلمسان، واصبحوا يتأهبون لمعاودة الجهاد في الاندلس.

وفي خريف عام ١٣٣٩م، هُزم ابن السلطان المريني وقتل في ساحة القتال، الا ان اسطولا مغربيا نجح في العام التالي في تدمير اسطول قشتالي ارجوني مشترك في مضيق جبل طارق، وتمكن السلطان من نقل جيش لا يستهان به من العدوة الى الاندلس، وشرع ـ بمعاونة سلطان غرناطة يوسف الاول ـ في محاصرة ثغر المجاز الثالث طريف في شهر ذي الحجة ٧٤٠هـ/ يونيو ١٣٤٠م. وفي هذه الاثناء كان ملك قشتالة الفونس الحادي عشر يستغيث بالبابا لاعلان حملة صليبية ضد المسلمين، وتقديم العون المالي له، فاستجاب للدعوة فرسان كثيرون من نافارة (نبرّة) وارجون وفرنسا وبلدان شمال اوروبا. كان ذلك بعيد انتصار الاتراك العثمانيين في عدد من المواقع على الروم البيزنطيين وتهديدهم للقسطنطينية واستغاثة امبراطورها كذلك بالبابا ودول غرب اوروبا المسيحية ضد الاتراك.

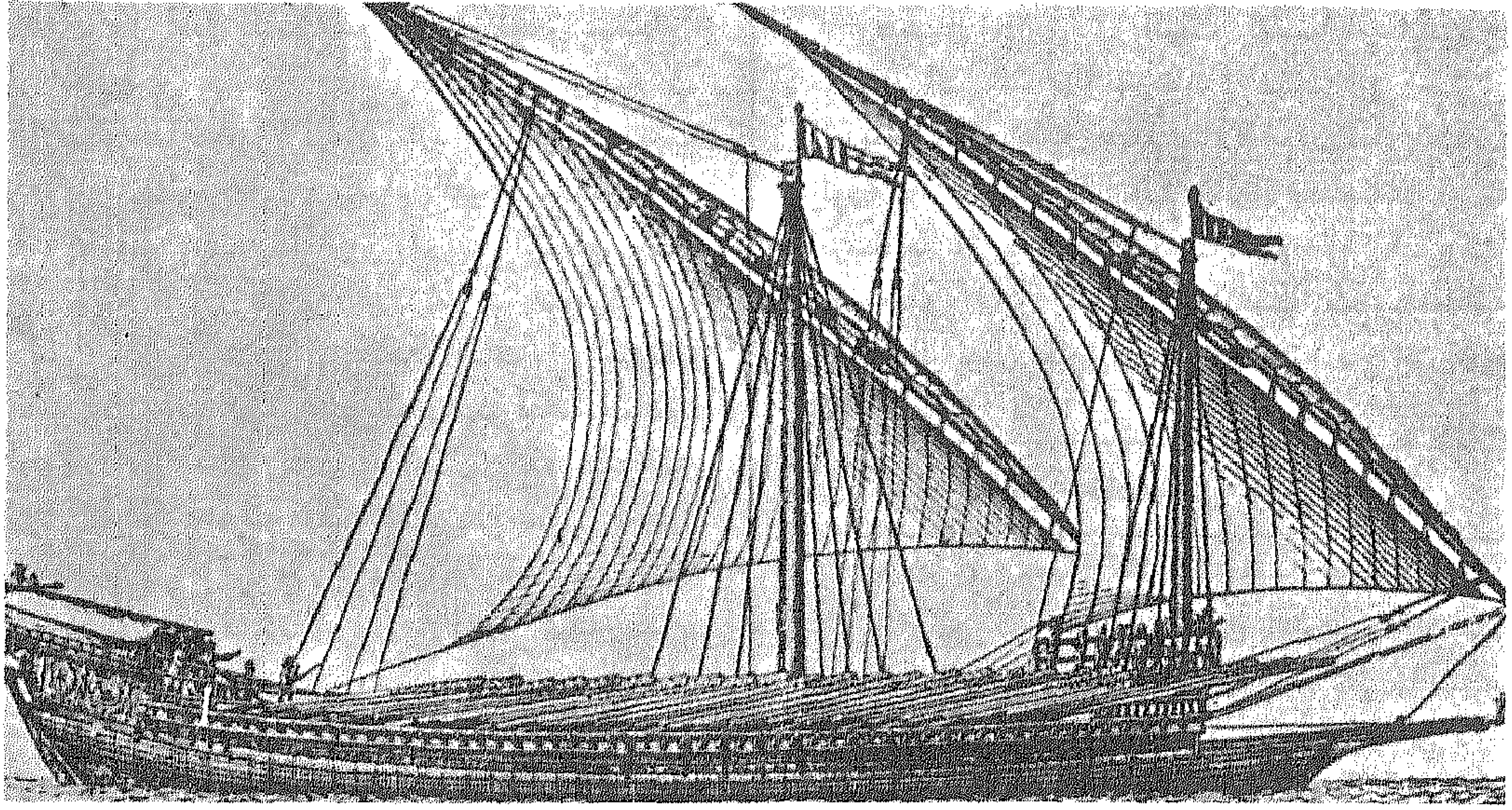
ولما تقدمت قوات النصارى لملاقاة المسلمين المحاصرين لطريف، فك هؤلاء الحصار ولاقوا العدو على ضفاف نهر سلادو (Salado) في ٢٧ ربيع الثاني ٧٤٠هـ/ ٣٠ اكتوبر ١٣٤٠م، واحرز النصارى في موقعة طريف هذه نصرا حاسما واعتبروه مضاهيا للنصر الكبير الذي كان النصارى قد احرزوه قبل قرن ونيف ضد الموحدين في وقعة العقاب (La Navas de Tolosa) سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م. وبعد هذه الهزيمة التي مُني بها المرينيون، لم يحاولوا القيام بحملة كبيرة في الاندلس. وينظر المؤرخون الاسبان الى وقعة طريف على انها تمثل نقطة تحول هامة في تاريخ ما يسمونه بحرب الاسترداد (Reconanista)، فان احتفاظهم بجبل طارق اصبح بعد وقعة طريف امرا حيويا، بعد فُقدانهم للجزيرة الخضراء وطريف، للاحتفاظ بخطوط مواصلاتهم بين المغرب والاندلس.

وعاود ملك قشتالة الفونس الحادي عشر حصار جبل طارق حصارا شديدا وكاد ان يستولي عليه، لولا هلاكه بالطاعون، وهو الوباء المعروف في التاريخ باسم (الموت الاسود) والذي اجتاح في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي منطقة حوض البحر المتوسط وغرب اوروبا محدثا خسائر جسيمة في الارواح ومخلفا اثارا اقتصادية سيئة. ويذكر الفقيه الغرناطي ابن الحسن النُباهي «هلاكَ ملك النصارى المسمى بألفُنس... وهو بظاهر جبل الفتح حاصرا له، وذلك في عاشر المحرم من عام خمسين وسبعمائة [٣١ مارس ١٣٤٩م]»(١١).

وقد بعث الوزير والاديب الغرناطي لسان الدين بن الخطيب برسالة باسم سلطانه [يوسف الاول] الى سلطان فاس ابي عنان فارس، ينقل اليه الخبر السار ومنها «نكث طاغية قشتالة العهد الذي عقده... وامل ان يستولي على جبل الفتح... فضيقه حصارا... ونزل الفرجُ القريب... وطرق الطاغية جند من جنود الله تولى اخذه اخذة رابية... فهلك على الجبل حتف انفه... فتفرقت جموعه واحزابه... ورأينا ان هذه البشارة انتم اولى مَنْ نُتحفه بطيب رياها»(١٢).

وكان السلطان ابو الحسن قد حصن سفح الجبل، بعد استرداد المسلمين له سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م، «بسور محيط من جميع جهاته، حتى لا يطمع عدو في منازلته... فأحاط بمجموعه احاطة الهالة بالهلال»(١٣).

وفي عام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م، زار جبل طارق الرحالة المعروف ابن بطوطة، وترك لنا في (الرحلة) وصفا شيقا لما كان عليه الجبل انذاك في عهد بني مرين. يقول ابن بطوطة: «واول بلد شاهدته من البلاد الاندلسية جبل الفتح... وتطوفت [صحبة قاضيه] على الجبل، فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن... واعد فيه من العُدد... وما زاد على ذلك مولانا



إحدى سفن بربروسا تمخر عباب المتوسط.

[ابو عنان]... ووددت أني كنت ممن رابط به الى نهاية العمر»[١٤]. ويتحدث ابن بطوطة عن تحصينات الجبل مما احدثه السلطان ابو الحسن علي وابنه السلطان ابو عنان فارس، فيقول: «وبقايا السور الذي بناه [طارق] ومن معه باقية الى الآن تسمى بسور العرب، شاهدتها ايام اقامتي به... ولم يكن حينئذ على ما هو الان عليه، فبنى به مولانا ابو الحسن، رحمة الله عليه، المأثرة العظمى بأعلى الحصن، وكانت قبل ذلك برجا صغيرا تهدم بأحجار المجانيق، فبنى في مكانه، وبنى دار الصناعة، اي صناعة السفن ولم يكن به دار صنعة، وبنى السور الأعظم المحيط بالتربة الحمراء المعروف اليوم بنفس الاسم (Red sands)... ثم جدد [ابنه] ابو عنان تحصينه وتحسينه، وزاد بناء السور بطرف الفتح[١٥] [المعروف اليوم باسم Entropa Point]، وهو اعظم اسواره غناء... وبعث اليه العدد الوافرة والاقوات والمرافق العامة»[١٦].

وبلغ من اهتمام السلطان ابي عنان فارس (حكم ٧٤٩ ــ ٧٥٩هـ/ ١٣٤٨ ــ ١٣٥٨م) بأمور الجبل «ان امر... ببناء شكل [نموذج] يُشبه شكل الجبل المذكور، فمثّل فيه اشكال اسواره وابراجه وحصنه وابوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده واهرية [مخازن] زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء فصُنع ذلك... فكان شكلا عجيبا اتقنه الصُنّاع اتقانا يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال»[١٧].

ولما فر الوزير ابن الخطيب من غرناطة لاجئا من مكائد خصومه الى المغرب عام ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م، كان جبل طارق ما يزال في ايدي سلاطين بني مرين، اذ يقول: «وتيسر اللحاق ببلاده [سلطان المغرب] والحصول بجبل الفتح من إيالته والجواز الى سبتة غرة جمادي الأخير من سنة ثلاثة وسبعين وسبعمائة [١٠ ديسمبر ١٣٧١م] في اسطوله»[١٨].

وبعد فرار ابن الخطيب بعامين، انتهز سلطان غرناطة محمد الغني بالله [محمد الخامس] نشوب خلافات داخلية حول وراثة العرش في المغرب، للتدخل في شؤون المغرب ولاجلاء الحامية المغربية عن جبل طارق. وفي عام ٨١٣هـ/ ١٤١٠م قامت ثورة بالجبل لصالح بني مرين، الا ان سلطان غرناطة ابا الحجاج يوسف [يوسف الثالث] تمكن من استرداده.

وفي سنة ١٤١٥م استولى البرتغاليون على سبتة، فاصبحت لهم اول قاعدة في افريقيا واصبح بامكانهم التوغل في القارة او شن هجوم على جبل طارق عبر بحر الزقاق.

وقد ظل جبل طارق مع ذلك في ايدي سلاطين غرناطة نحو خمسين عاما. الا ان الوضع في غرناطة منذ عام ١٤٣٩م ازداد سوءا بسبب المنازعات المستمرة بين افراد البيت المالك، فقرر ملك قشتالة هنري/ انريق الرابع التدخل وبدأ منذ ربيع ١٤٥٥م في شن غارات مدمرة على اراضي مملكة غرناطة، مؤملا بذلك ان ينهار اقتصاد المملكة، ثم انسحب وعهد لقادة مناطق الحدود بمواصلة الغارات. وكان اهم ما حققه قادة الحدود هؤلاء الاستيلاء على جبل طارق، وكان ذلك في ٢٤ ذي القعدة سنة ٨٦٦هـ/ ٢٠ اغسطس ١٤٦٢م، على يد الدوق جوزمان (Duke Guzman) صاحب مدينة شذونة[١٩].

وباستيلاء النصارى على جبل طارق، تمت لهم السيطرة على ثغور بحر الزقاق الثلاثة (طريف والجزيرة الخضراء وجبل طارق) فحال ذلك دون وصول اية قوات من المغرب لنجدة مملكة غرناطة، مما عجل في سقوطها في ايدي النصارى وفي انتهاء الوجود الاسلامي في الاندلس سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م. كما ان سيطرة الاسبان على مضيق جبل طارق ادت الى نمو التجارة بين موانئها على ساحلي البحر المتوسط والمحيط الاطلسي، ولعب اسطول جنوده دورا هاما في هذه المرحلة في معاونة قشتالة في المجالين الحربي والتجاري، خصوصا في استعمار الاسبان لجزر الخالدات (كناري) والازور ومـاديرا، التي اصبحت محطات لجلب الذهب من السنغال وساحل افريقيا الغربي، بعد ان كان الذهب يصل منهما قبلا الى غرناطة الاسلامية عن طريق تلمسان[٢٠].

وفي عام ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م شن غزاة البحر المسلمون العاملون تحت امرة امير البحر خير الدين بربروسا غارة على جبل طارق، وكـادوا يستولون عليه، ودمروا تحصيناته واستحوذوا على غنائم وفيرة، فعمد الاسبان بعد هذه الغارة، الى تعزيز تحصينات الجبل تحوطا[٢١].

وفي عام ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م نقلَ الاميرال دون خـوان دي مـنـدوزا (Don juan de mendoza) من ميناء جبل طارق المدجّنين المسلمين الذي اجلوا نهائيا عن اوطانهم في الأندلس الى ساحل المغرب[٢٢].

وجبـل طارق في الوقت الحـاضر احـدى مستعمرات التاج البـريطاني منـذ ان استولى البريطانيـون عليه عـام ١٧٠٤م، اثناء حـرب الوراثـة الاسبانيـة، وتم تنازل اسبـانيا عنـه لبريطانيا في معاهدة اترخْت عام ١٧١٣. وكما هو معلوم، فان اسبانيا ما انفكّت تلح بالمطالبة باسترداد جبل طارق، على انه جزء من الاراضي الاسبانية.

آثار عربية قائمة في جبل طارق

تـوجد في جبـل طارق حاليـا بعض الاثار الاسلامية، منها بقايا الحصن العربي (Castle the Moorish)، وهو حصن قائم على السفح الشمالي الغربي من الجبل. ويعتقد الأثريون بان الحصن يعود الى ايام الموحدين (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) او حتى الى ايام بني مرين (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي).

وثمة الحمامات العربية تحت مبنى متحف جبل طارق «وهي عبارة عن صفين من العقود العـربية يتكـون كل منهمـا من ثلاثـة عقود، وتجمعهـا قبة منخفضـة»[٢٣]. ويرى الاثـري الاسباني المعروف توريس بالباس انها من طراز غرناطي شبيه بطراز حمامات قصر الحمراء[٢٤].

اما ما تبقى من «سور العرب» فـوق اعلى الصخرة، فيبلغ طوله نحو ١٧٥٠قدما، ويشتمل عـلى ما لا يقـل عن ٦٠٠٠ يـاردة مكعبـة من الحجارة المقتطعة من الجبل[٢٥].

وفي بحث واف[٢٥] نشـره هـ.ت. نـوريس (H.T. Norris) بعنوان (الاستيطان الاسلامي المبكـر في جبل طارق) (The Early Islamic Settement in Gibraltar)، يعتقد الكاتب بأن طارق بن زياد لم يُقِم سوى نقطة رصد او مراقبة صغيرة على احدى قمم الجبل، ثم لم يلبث ان انتقل بعد نحو شهرين من نزوله لملاقاة جيش القـوط، ولذلك فان مـا تبقى من اثار الحصن والسور يعود الى عهود اسلامية تالية، ويستند نوريس في اعتقاده الى عدة نقاط نوجزها فيما يلي: قِصَر المدة التي امضاها طارق في الجبل، وعدم حاجته لتحصين الجبل بعد انتصاره، قلة عدد جنوده، وكان في حاجة مـاسة لهم جميعـا في



طارق بن زياد

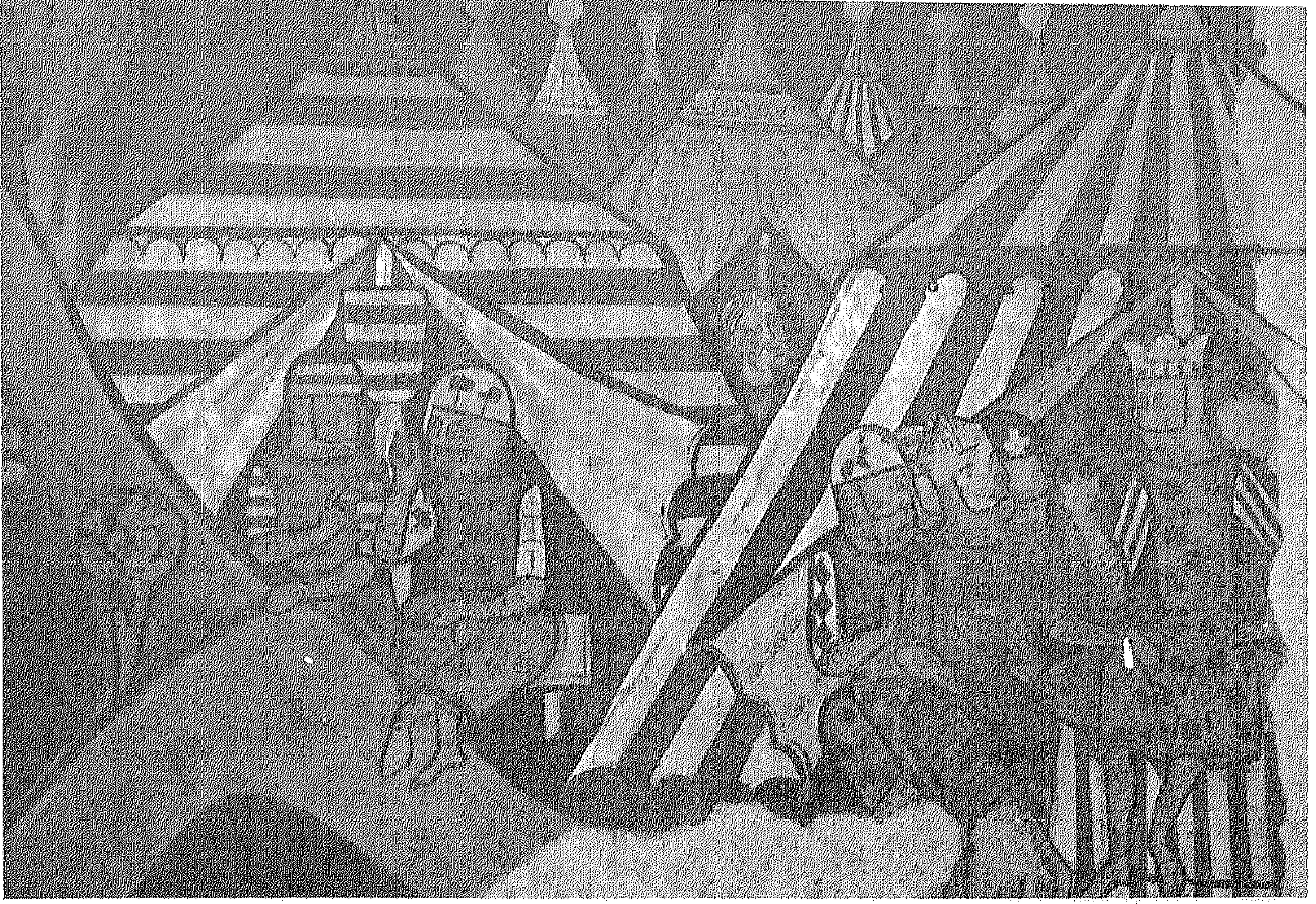
القتال. ثم ان ابن الأثير يقول صراحة «نزل طارق من الجبل الى الصحراء وافتتح الجزيرة الخضراء وغيرها وفارق الحصن الذي في الجبل»(٢٦). واذا اخذنا في الحسبان انحدار سطح ارض الجبل، وما يحتاج اليه من مواد بناء وعمال ومهندسين، وكذلك التشابه بين مواد بناء السور وبين مواد بناء سور تازا الموحدي، فان كل ذلك يدل على ان الحصن والسور في جبل طارق يعودان الى عهد الموحدين الذين شيدوا مدينة الفتح في مدة ثمانية شهور، وكان يتوفر لديهم الوقت والمهندسون والعمال(٢٧).

وقد قام سلاطين بني مرين بعد استردادهم للجبل من ايدي الاسبان عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م باعادة بناء تحصيناته وتقويتها. ولعل ابن بطوطة حينما زار الجبل وشاهد تحصيناته قرب القمة قيل له انها قديمة، وتسميتها بسور العرب انما كانت لمجرد التمييز بينها وبين بقية التحصينات المرينية المستحدثة(٢٨).

ويَخلُص نوريس الى ان كل البينات تشير الى ان جبل طارق لم يُستوطَنْ قبل عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، وانما اقتصر استعماله كقاعدة حربية ومرسى ونقطة لانزال الجنود(٢٩). ومما يؤيد ذلك، ما أمر به المعتضد بن عباد واليه على الجزيرة الخضراء من تحصين الجبل تحوطا من خطر نزول قوات المرابطين فيه، وكذلك ما عرضه المعتمد بن عباد عى المرابطين من النزول في جبل طارق دون الجزيرةالخضراء.

نقشان عربيان من جبل طارق

يذكر توماس جيمس (Thomas James) (تاريخ المضيق الهِرْقْلي The history of the Herculeam Straits) المنشور عام ١٧٧١م انه عُثر انذاك على نقشين كتابيين عربيين: احدهما فوق الباب الجنوبي للحصن، والثاني في جدار مسجد او رباط قرب برج قلهرة. وقد استعان جيمس باحد المغاربة من طنجة لقراءة



ملك «أراغون» المسيحي يحيط به جنده، يخططون لإحتلال «ميورقه».

الكتابة العربية في النقشين، واورد ترجمة انجليزية لها. ويبدو ان العبارة الاولى في النقش الاول هي: «النصر والتمييز من الله تعالى لمولانا ابي عبد الله امير المسلمين ابن أبي الحجاج يوسف أمير المسلمين ابن مولانا ابي الوليد أبقاه الله». أما بقية عبارة النقش فكتابتها غير مقروءة(٣٠). ويرى الأثري الاسباني المعروف نوريس بالباس ان السلطان المشار اليه هو دون شك سلطان غرناطة يوسف الاول ابو الحجاج بن أبي الوليد بن أبي سعيد فرج (حَكَم ٧٣٣ ـ ٧٥٥هـ/ ١٣٣٣ ـ ١٣٥٤م)(٣١).

وتدل اسماء سلاطين بني الاحمر الواردة في النقش الاول على مدى أثر غرناطة في عهد بني الاحمر على المنشآت العسكرية والمدنية في جبل طارق منذ ان استرده المسلمون من الاسبان سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م(٣٢).

اما النقش الثاني، وهو اقدم من الاول بكثير، كما يستدل من كتابة حروفه، فيشتمل على عبارة دينية تتعذر قراءتها، وقد اورد جيمس في كتابه ترجمة انجليزية لجزء منها وفي اخرها ترد عبارة لعلها: ولله العاقبة الباقية(٣٣).

والنقش الثاني اقدم نقش عربي يُعثر عليه حتى الآن في جبل طارق. ويُحتمل ان يكون المسجد او الرباط الذي وُجد النقش في جداره من بناء عبد المؤمن بن علي ايضا. ولعل السلطان المريني الذي احدث تغييرات كبيرة على تحصينات جبل طارق في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي احتفظ بالمسجد او الرباط دون مساس صونا لحرمته(٣٤).

الهوامش

(١) ابن ابي زرع: روض القرطاس ٢٧٥.
(٢) دائرة المعارف الاسلامية (EL)، الطبعة الاولى، المجلد الاول، ص ٤٦٤.
(٣) السلاوي: الاستقصا ٣/٥١؛ ابن ابي زرع: روض القرطاس ٣٣٠.
(٤) ابن خلدون: العبر ٧/٥٣٠.
(٥) اوكلاهن (O.Callaghan): تاريخ اسبانيا في العصر الوسيط (بالانجليزية)، ص ٤٠٣، ٤٠٩.
(٦) ابن خلدون: العبر ٧/٥٣٠؛ السلاوي: الاستقصا ٣/١٢١.

(٧) السلاوي: الاستقصا ٣/١٢١ ــ ١٢٢.
(٨) ابن بطوطة: الرحلة ٦٥١.
(٩) ابن خلدون: العبر ٧/٥٣٠.
(١٠) اوكلاهن (OCallaghan): تاريخ اسبانيا في العصر الوسيط ٤١٢ ــ ٤١٣.
(١١) ابن الحسن الباهي: المرتبة العليا (تاريخ قضاء الاندلس)، ص ١٥٦.
(١٢) المقري: نفح الطيب ٦/١٧٨.
(١٣) نفس المصدر ٦/١٤٠ ــ ١٤١، نقلا عن (المسند) لابن مرزوق؛ السلاوي: الاستقصا ٣/١٢٣.
(١٤) ابن بطوطة: الرحلة ٦٥١.
(١٥) يقول المراكسي إن لجبل الفتح طرفا خارجا «في البحر يسمى طرف الفتح، وعنده يلتقي البحران [البحر الشامي وبحر الزقاق] بجزيرة الاندلس». (المعجب، ص ٣٦٨).
(١٦) ابن بطوطة: الرحلة ٦٥١ ــ ٦٥٢.
(١٧) نفس المصدر، ص ٦٥٢، ٦٥٣.
(١٨) ابن الخطيب: اعمال الأعلام ٣١٨.
(١٩) دائرة المعارف الاسلامية (EL2) الطبعة طبعت بالانجليزية، المجلد الثاني، ص ٣٥٣.
(٢٠) هايفيد (Highfieid): اسبانيا في القرن الخامس عشر(بالانجليزية)، ص ٢٠، ٤٨ ــ ٤٩.
(٢١) دائرة المعارف الاسلامية (EL2)، الطبعة الثانية (بالانجليزية)، المجلد الثاني، ص ٣٥٣.
(٢٢) نفس المصدر والصفحة.
(٢٣) عنان: الآثار الاندلسية الباقية... ص ٢٩٢.
(٢٤) نفس المصدر والصفحة.
(٢٥) نوريس (Norris): (الاستيطان الاسلامي المبكر في جبل طارق)، مقالة نشرت في (مجلة المعهد الانثروبولوجي الملكي)، مجلد ٩١ (جزء ١) لعام ١٩٦١، ص ٤٣.
(٢٦) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٤/١٢٢.
(٢٧) نوريس: الاستيطان الاسلامي المبكر في جبل طارق، ٤٣.
(٢٨) نفس المصدر، ٤٤.
(٢٩) نفس المصدر، ٥٠.
(٣٠) نفس المصدر ٤٤.
(٣١) نفس المصدر ٤٦.
(٣٢) نفس المصدر ٤٦.
(٣٣) نفس المصدر ٤٦.
(٣٤) نفس المصدر ٤٨.



قيمة الدنيا

□ مر أمير المؤمنين الرشيد بشيخ الطريقة «الجنيد» وهو يتعبد في مغارة له، فوقف عليه وسلم ثم قال له: عظني. قال: ان لك في نفسك عظة! قال زد. قال: أرأيت يا أمير المؤمنين اذا سرت في صحراء قاحلة في يوم شديد الحر وانقطع عنك الماء وبلغ بك الظمأ مبلغه ويئست من وصوله اليك، فماذا تعطي لمن يأتيك بجرعة منه؟ قال: كنت أعطيه نصف ملكي. قال: أرأيت يا أمير المؤمنين اذا انحبس فيك البول واشتد الداء وعز الدواء وأوشكت النفس أن تزهق، فماذا كنت تعطي لمن يصرفه عنك؟ قال: كنت أعطيه ملكي كله وهو قليل. قال: فازهد في ملك نصفه يساوي جرعة، وهو كله لا يساوي بولة... فبكى الرشيد حتى اخضلت لحيته وراح يمرغ وجهه في التراب ويرفع يديه الى السماء وهو يقول: اللهم اغفر لي! قال الأصمعي فمررت به ومعى غلام لي صغير عرفه فنظر اليه وكذب عينيه ثم سألني: يا أبت، أليس هذا جبار الأرض الذي تخضع له الرقاب! فمم يبكي ولمن يتضرع؟ فقلت: يا بني، انه جبار الأرض يتضرع الى جبار السماء.

* * *

● قيام الحرب بالصدفة ممكن.. فلا أحد يذهب إلى الحرب مفتوح العينين.

(همرشولد)

العلاقة بين التراث الحضاري الإسلامي ونمو المدينة العربية

دارة الملك عبد العزيز

اصدر المعهد العربي لانماء المدن وفي طباعة راقية واخراج انيق وورق جميل مصقول وصور ملونة من المدن العربية كتابا نفيسا بعنوان:

«أبحاث من ندوة المدينة العربية: خصائصها وتراثها الحضاري الاسلامي».

ويقع الكتاب في جزئين ومجلدين: الجزء الاول (المجلد الاول) ويشمل الابحاث العربية والجزء الثاني (المجلد الثاني) ويتناول الأبحاث الملقاة باللغة الانجليزية وهي ابحاث مختارة من التي قدمت الى «ندوة المدينة العربية: خصائصها وتراثها الحضاري الاسلامي»، والتي كانت باكورة نشاطات المعهد العربي لانماء المدن حيث قام المعهد بتنظيمها بالاشتراك مع الامانة العامة لمنظمة المدن العربية.

والكتاب يحمل نفس العنوان الذي انعقدت الندوة تحته ندوة المدينة العربية: خصائصها وتراثها الحضاري الاسلامي.

ولقد اجتذبت الندوة اليها المئات من المختصين المهتمين بدراسة المدينة العربية في انحاء الوطن العربي وفي خارج الوطن العربي... وقد حاضر فيها علماء اختصاصيون من خيرة العلماء والاساتذة والمهندسين والمخططين الذين قدموا الى الندوة من قارات مختلفة في العالم وعبروا عن رغبتهم الملحة في الاهتمام بالمدينة العربية والحفاظ على خصائصها وتراثها الحضاري الاسلامي الخالد. نظرا لاهمية هذا الكتاب واهمية الابحاث التي نشرت فيه، فاننا نستأذن «المعهد العربي لانماء المدن» في أن نقتبس الدراسة القيمة «لدارة الملك عبد العزيز» عن العلاقة بين التراث الحضاري الاسلامي وعن المدينة وان نعيد نشرها في مجلة «تاريخ العرب والعالم» وذلك تعميما للفائدة واسهاما في توسيع نطاق قراءة ابحاث قيمة من هذا النوع.



ليست كل المدن العربية والإسلامية ينقصها التخطيط ولكن هناك مدناً نمت بعد الإسلام بصورة طبيعية وربما كانت هذه المدن أكثر من المدن التي خطط لتأسيسها. فلو نظرنا الى المدن العربية الإسلامية التي ظهرت للدنيا لما وجدنا اختلافاً في تخطيطها. فقد تشابهت هذه المدن في تخطيطها وتكوينها والى زمن قريب كان يصعب على الناظر الى صورها أن يفرق بينها. وقد تضافرت عدة عوامل أدت الى ظهور المدن الإسلامية وازدهارها منها الديني والعسكري والسياسي والاقتصادي.

تخطيط المدن العربية

ولكننا نجد نوعين لتخطيط المدينة. النوع الأول، وهو المدينة الدائرية، والثاني هو المدينة ذات المحاور المتعامدة ومع أن النوعين مختلفان شكلاً الا أن عناصرهما ومكوناتهما من ناحية التخطيط لا تختلف، فقد كان المسلمون يبدأون ببناية المسجد الجامع في وسط المدينة سواء الدائرية التخطيط أو ذات المحاور المتعامدة، وبعد بناء الجامع الذي يجتمعون فيه لأداء عبادة الصلاة الجماعية فيه كصلاة الجمعة والأعياد.

ولم يكن المسجد يؤدي لهذه الوظيفة فقط ولكنه كان ــ منذ أن بنى النبي ﷺ مسجده بالمدينة المنورة ــ مركزاً سياسياً واجتماعياً وحضارياً فقد كان عليه الصلاة والسلام يلتقي فيه برجاله وسفرائه. وكثيراً ما كانت المحاكم تعقد في المسجد ــ وكان المسجد مركزاً حضارياً لدراسة القرآن وحفظه والجامع كان من المراكز المهمة للحركة الفكرية كما كان في مساجد الكوفة والفسطاط والقاهرة.

بعد بناء الجامع يأتي دور السوق في المدينة وهي المركز التجاري الرئيسي حيث يلتقي فيه التجار والحرفيون ومنه يحصل السكان على حاجياتهم وقد كانت السوق مقسمة الى عدة

أقسـام، فنجد أن أصحـاب الحرفـة الواحدة والتجارة الواحدة مجتمعون في قسم واحد من السوق وذلك كنتيجة لتأثير اللجان المهنية ــ فقد كان أصحاب المهن المتشابهة منتمين الى لجنة خاصة تنظم نشاطاتهم ومعاملاتهم وكان من تأثير هذه اللجان المهنية تقارب ذوي المهنة الواحدة وتكتلهم ليسهـل الاتصـال ببعضهم وجـمـع الضـرائب منهم في وقت واحد ــ وكـان هذا التقارب والتكتل يفيد أصحاب المهنة الواحدة. فقد كان يفيدهم في مجال البيع والمنافسة فيما بينهم لتحسين مستوى حرفتهم وقد أصبحت ظاهرة التقريب بين أصحاب الحـرفة الواحدة أساساً لتخـطيط الأسـواق والمناطق التجـارية لفائدتها الاقتصادية العظيمة.

بعد السوق نجد **المنطقة السكنية** وكـانت المنطقة السكنيـة تحيط بـالسوق وتتصـل به بواسطة الشوارع الرئيسية في المدينة وكـانت الشـوارع في داخل المنـطقة السكنيـة ضيقة وملتوية وذلك لعدة أسباب منها:

ــ كان للنظام الاجتماعي القبلي أثر كبير فقد كان أفراد القبيلة الواحدة يسكنون في جهـة واحدة من المدينة أي لهم مساحة خاصة بهم في المدينة وكانت تجمع بينهم روابط قوية ففضلوا السكن قريباً من بعضهم فكانوا يشيدون دورهم متجاورة متلاصقة فنمت المدينة بذلك بطريقة غير نظامية.

ــ كان ضيق الشوارع يعطي للمدينة شكلاً محتشداً مما يساعدهم في الدفاع عن مدينتهم وأنفسهم ضد الغارات الخارجية.

ــ كـانت تلك الشوارع تستعمـل كمسالك للإنسان وممرات للحيوانات.

ــ جعلت تلك الشوارع ضيقة لتكون محمية من أشعـة الشـمس المحـرقـة في المنـاطق الصحراوية. مما يؤيد ذلك هو تغـطية بعض أجـزاء الشوارع عن قصـد بواسـطة تـلاقي الشرفات المتقابلة ــ وكانت هناك ظاهرة أخرى في المدينة وهي ظاهرة الأزقة غير السالكة أو المقفلة ويمكن تبـريـرهـا بسهـولة حصر الغـزاة اذا ما تعرضت المدينة لهجمات خارجية. وربما يبرر ذلك أيضاً صفة الشـوارع الملتويـة المتعرجـة والضيقة.

وكمـا أسلفنا فقـد كان هنـاك نوعـان من التخطيط يغلبان على المدن العربية الإسلاميـة ولكننا نجد أن الخطة الدائرية تغلب على المدن الإسلامية وذلك لأن الشكل الدائري يتناسب والأفكار الدينية الإسلامية، وذلك لأن الشكـل الدائري يسهل الدفاع عن المدينة ويكون مركز المدينة على أبعاد متساوية بالنسبة لأبراج المراقبة الموجودة في سور المدينة.

وكان للإسلام أثر كبير عـلى معظم المـدن العربية سواء التي كانت موجودة قبل الإسلام أو التي جدت بعد ظهوره.

المدن الإسلامية

بعد ظهور الإسلام وانتشاره بدأ المسلمون في بناء المدن في زمن مبكر اذ ما كـادوا يفتحون العـراق ومصر ويصلون الى تـونس من زمن عمر بن الخطاب حتى وضعوا أسساً لأربع مدن واستمروا في بناء المدن حتى العهود الإسلامية المتأخرة.

وقد كان الهدف والدافع الأول لبناء المدن الإسلامية هو الغاية الحربية في الدرجة الأولى وذلك لاقامة الجند وانزال الجـاليات العـربية المشتركة في الفتح. ولما استقر الحكم الإسلامي أصبحت المدينة اما حاضرة أو مركزاً للتجارة. وقد احتفظ العرب حتى بعد نزولهم في المدن وممارستهم الحياة المدنية بالتنظيم القبلي وظلوا ينتسبون الى القبيلة لا الى المدينة ولهذا كانت المدن تقسم عند تخطيطها الى أحياء خـاصة تسمى الخطط أو القطائـع ينزل في كـل خطة أو قطيعة قبيلة من القبائل. وسنتعرض فيما يلي لبعض المدن العربية الإسلامية الأولى.

الكوفة

الكوفة هي المدينة الإسلامية الثـانية بعـد البصـرة التي أسست في العراق بعـد الفتح العربي، وقد أسسها القائد سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، عام ١٧ هجرية بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهي تقع في الجانب الغربي من نهر الفرات وكان السبب الرئيسي لتأسيسها أن تكون قاعدة عسكرية للقسم الأوسط من العراق ولتكون دار هجرة وعاصمة

للمسلمين بدل المدائن. وكانت الكوفة منذ انشائها موطن المجاهدين العرب ومركز القوة الإسلامية كما رسم لها حين أنشائها ثم نمت بعد ذلك وكثر فيها العمران وازدهرت ازدهاراً كبيراً ووصلت الى أوج عظمتها في العصر الأموي. وأخذت الكوفة دورها الكبير في الحياة الإسلامية مما أدى الى ازدهارها وتناولتها أحداث الحياة المتلاحقة واحدة تلو الأخرى في بداية نشأتها. ثم تضاءلت وتحولت الى قرية بسيطة بعد أن كثر الوافدون عليها فأصبحت مركزاً للدسائس والمؤامرات الثورية الى نهاية العصر الأموي ويبدو أنه حين انتصرت الدعوة العباسية اتخذها العباسيون قاعدة لملكهم وان لم يقيموا فيها ومن المحتمل أنهم أحسوا أنها مركز للعلويين مما جر عليها الخراب.

وتعتبر الكوفة بصورة عامة ثغراً من ثغور البادية ومحلاً لتبادل التجارة بين الفرس من جهة والبدو من جهة أخرى كما كانت جسراً للاتصال بين الجماعات والقبائل العربية المنتشرة في البادية وأهل المدن والقرى التي تجاورها.

وقد بدىء بتخطيط الكوفة وتأسيسها بعد الفتح العربي للعراق وحاجة المسلمين الى الاستقرار. وكان قد استقر رأيهم في بادىء الأمر على المدائن عاصمة الدولة الساسانية لكن العرب قد فطروا على حب الصحراء ذات الفضاء الواسع والهواء النقي. وكانت المدائن محاطة بالمياه والمستنقعات مما يجعلها عرضة لأخطار الفيضانات وانتشار الحشرات ثم أن المدائن قريبة من الحدود الفارسية وبعيدة عن مركز الخلافة مما يهدد أمن المسلمين وسلامتهم. ثم أن احتلال هذا المكان المتوسط للعراق يضمن للمسلمين السيطرة على طول نهر الفرات وذلك لقربه من البادية المجاورة للصحراء وكذلك اتصاله بالطرق الرئيسية من جميع الاتجاهات علاوة على خلو المنطقة من العوارض الطبيعية التي تسهل للمسلمين الهجوم والانسحاب والتنقل في أثناء القتال بحرية كاملة.

وأرض الكوفة عبارة عن سهول عالية فوق مستوى سطح البحر بحوالي ٢٢ متراً وبذلك لا تهددها الفيضانات. وحيث أن موقعها بجانب النهر فتربتها خصبة صالحة للزراعة.

وكان بذلك موقعها منيعاً مأموناً بعيداً عن الأخطار فتحدها الصحراء من الغرب ويحدها نهر الفرات من الشرق حيث يمكن قطع الطرق على الأعداء القادمين من النهر وعرقلة تقدمهم. يضاف الى هذا كله وفرة المياه في نهر الفرات ووجود الأرض الخصبة الصالحة للزراعة والسكن وهذا كله مما جعل المدينة تنشأ وتنمو بسرعة وكان من الممكن استغلال الأراضي البعيدة عن النهر في حالة توسع المدينة وانتشار العمران وامتداده وذلك لأن المياه الجوفية ليست بعيدة عن سطح الأرض مما يسهل حفر الآبار واستغلال المياه للشرب أو الزراعة.

فالكوفة بذلك تقع في مكان حيوي يتوسط العراق ويمكن منها فرض السيطرة على طول منطقة نهر الفرات من الناحية الحربية ويجعلها ممراً هاماً في طريق القوافل التجارية ومحطة في طريق الحج الى مكة ويساعد موقعها هذا على أن تكون مركزاً للتجارة وسوقاً نشطة للتبادل التجاري. ومما يزيد من أهمية موقع الكوفة أنها منذ انشائها كانت ملتقى عدة طرق رئيسية وهامة وذلك لوقوعها على نهر الفرات من ناحية ومن ناحية أخرى توسطها للعراق. وكانت هذه الطرق تلتقي جميعاً في مركز المدينة وتتفرع من المدينة الى جهات أخرى.

ومن ناحية تخطيط مدينة الكوفة وبنائها فقد كانت على غرار مدينة البصرة التي سبقتها في التخطيط بعامين أو ثلاثة وكان المسجد الجامع ودار الامارة أول أبنيتها.

وقد التزم المشرفون على تخطيط مدينة الكوفة ببيان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الذي أرسله لسعد بن أبي وقاص لما ينبغي أن تكون عليه سكك الكوفة وطرقها وأزقتها حينما شرع سعد في تخطيط مدينة الكوفة فأمر عمر بن الخطاب أن تكون كل قطيعة أربعين ذراعاً وبين كل قطيعتين طريق عرضه عشرون ذراعاً.

وأما الأزقة فقد أمر عمر أن يكون كل منها سبعة أذرع. وبعد أن تم ذلك نزلت كل قبيلة في الموضع الذي خصص لها فنجد مثلاً أن أهل اليمن نزلوا في الجانب الشرقي من المسجد وقد كان الجانب الشرقي هذا خير المواضع في مدينة الكوفة لأنه يقع بين نهر الفرات والمسجد ولأن

أهل اليمن كانوا أكثر تعداداً من أي قبيلة أخرى فقد كان هذا الموضع ملائماً ومنطقياً لنزولهم. وخصص المشرفون على تخطيط المدينة قطائع فرعية دون القطائع الرئيسية في المساحة ولكنها تلاقيها من أطراف مختلفة وقد خطت وراء صحن المسجد وذلك لنزول المحاربين والقواد حتى عودتهم من الفتوح.

وأما بالنسبة لسكك مدينة الكوفة فقد راعى المشرفون في تخطيطها وتنظيمها أن يكون عرض السكة الواحدة خمسين ذراعاً من أذرع اليد وكانت تتخلل هذه السكك بعض الأزقة والدروب وكان بعض هذه السكك تنار أثناء الليل بالمشاعل.

وفي الواقع فان تخطيط مدينة الكوفة لم يقتصر على المسجد الجامع وحده بل خطت مساجد أخرى صغيرة للقبائل حسب مواضعها من التخطيط وذلك لتيسير العبادة على المصلين ولاجتماع المسلمين في صلاة الجمعة في المسجد الجامع وبذلك أصبحت كل خطة من خطط المدينة تشتمل على مسجد ــ وقد تهدمت جميع هذه المساجد القبلية ولم يبق الا مسجد السهلة الذي ما زال قائماً الى اليوم.

هذا وقد اشتملت بعض الأحياء القبلية بعد تخطيطها على بيع وأديرة لأهل الذمة الذين كانوا يعيشون في كنف الدولة الإسلامية وذلك لتمكينهم من أداء شعائرهم الدينية تحت كفالة الدولة.

كما كانت تتخلل هذه الخطط أيضاً بعض الحمامات التي كان يقصدها الناس.

ذلك ماكان من أمر تخطيط مدينة الكوفة تخطيطاً شاملاً لأبنيتها وقطائعها وسككها وأسواقها ومساجدها ومقابرها وأديرتها وحماماتها. ولننتقل الى مدينة أخرى من المدن الإسلامية.

مدينة بغداد ــ أو المدينة المدورة

في العهود الإسلامية المبكرة كان للعاصمة أهمية عظيمة من الناحيتين الإدارية والتنظيمية وذلك مما منح العواصم الإسلامية التي أصبحت بعد ذلك مراكز حضارية وعسكرية في آن واحد القوة والسيطرة وقد كانت هذه العواصم ذات ارتباطات وثيقة الصلة بالأسر الحاكمة التي تتابعت في حكم الدولة الإسلامية وذلك أمر بديهي لطبيعة الأسر العربية المسلمة الحاكمة كما يتعلق بالظروف السياسية التي جاءت فيها هذه الأسر الى الحكم.

وحينما تم النصر للعباسيين كان موضع اختيار عاصمة جديدة لهم من الأمور المهمة التي شغلت بال أبي العباس السفاح في أول عهد الدولة العباسية وقد تنقل أبو العباس السفاح بين عدة مراكز ولكنه كثيراً ما غير هذه المراكز لعدة أسباب وكان لقصر مدة خلافته الأثر الكبير في عدم حسم هذه القضية حسماً ناجزاً. ولما استخلف أبو جعفر المنصور انتقل أول الأمر الى منطقة الكوفة وبنى هناك مدينة الهاشمية ولكنه بعد أكثر من ثماني سنوات شرع في بناء مدينة بغداد المدورة ــ وأبو جعفر المنصور هو الذي أوجد المدينة المدورة كفكرة في أول الأمر ثم نفذها فأصبحت حقيقة واقعة تشهد بعظمة الدولة العباسية.

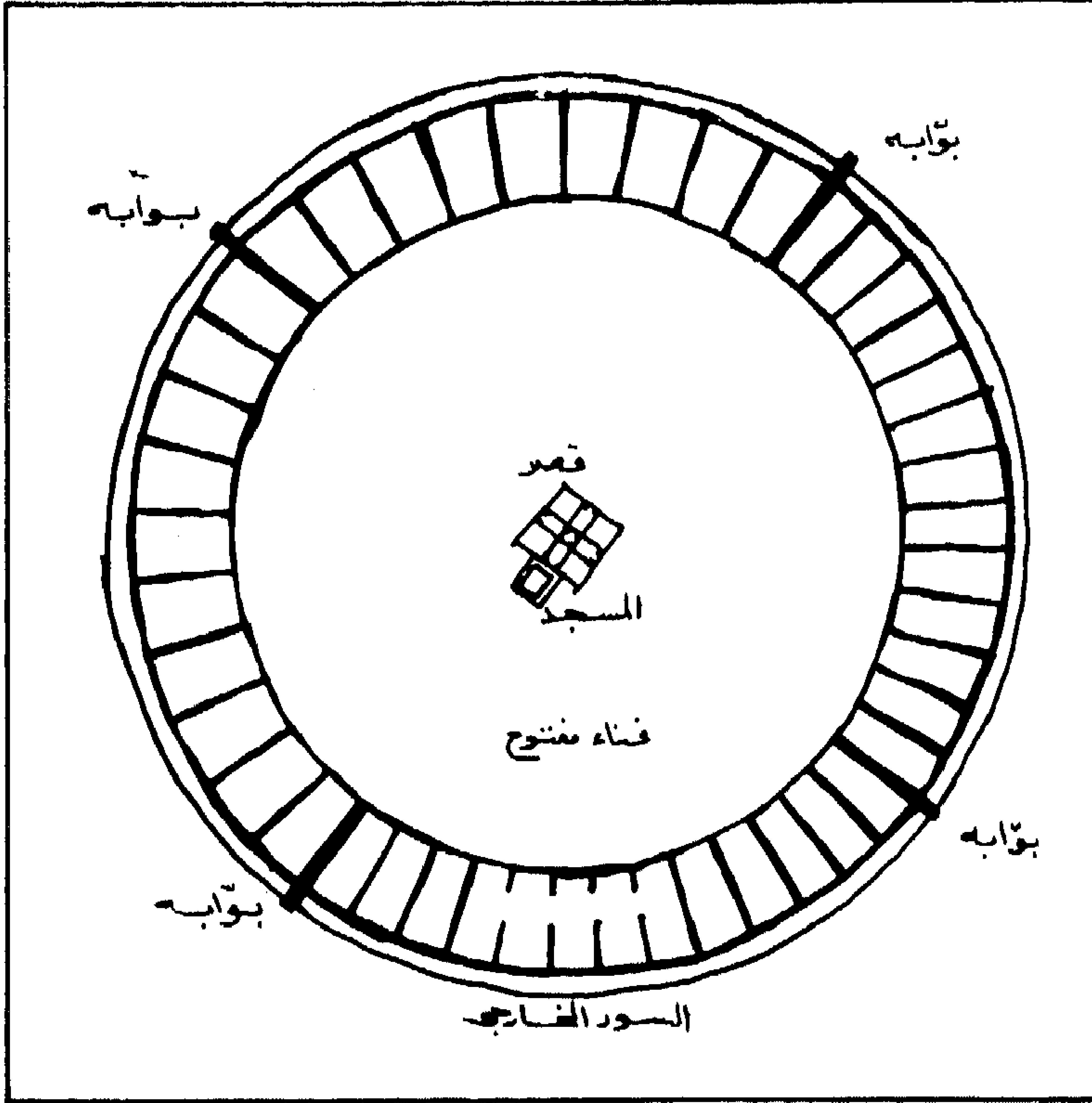
والسبب الذي حدا بالمنصور الى ايجاد بغداد هو ثورة الراوندية التي خشي المنصور من أن تتطور وتتضاعف وربما توقد ثورة كبيرة تذهب باستقرار دولته وأمنها وتؤدي بحياته وخلافته.

وتروي لنا المصادر التاريخية أن المنصور قد قسم مدينته عند بدء تخطيطها الى أربعة أقسام أناط المنصور الاشراف على قسم منها الى ثلاثة من رجاله أولهم قائد وثانيهم مولى وثالثهم مهندس وهكذا يتبين أن أربعة من المهندسين اشتركوا في بناء مدينة بغداد.

وقد بدىء في بناء المدينة المدورة عام ١٤٥هـ وهو أصح التواريخ التي أوردتها لنا المراجع التاريخية. وللمدينة عدة أقسام ومعالم:

ــ **الخندق**: كانت له سدتان وظيفتهما حماية السور وجدران المدينة من تسرب مياه الخندق اليها. ويحاذي السدة من الخارج السور الخارجي. وكان هذا السور أقل سمكاً وارتفاعاً من السور الثاني الذي يليه وله أربعة أبواب. وحسب رواية اليعقوبي أن المسافة بين كل باب والباب الذي يليه هي خمسة آلاف ذراع. ومن هذه الرواية يمكننا أن نحدد مساحة المدينة، لأنه لما كانت المسافة بين جميع الأبواب الأربعة متساوية فان محيط المدينة المدورة يكون عشرين

بغداد (القرن الثامن الميلادي) اقتباس من العمارة الاسلامية (كرزويل)



ألف ذراع وهو طول السور الخارجي ولما كان الذراع حوالي نصف متر فيكون محيط المدينة المدورة عشرة آلاف متر وهو طول السور الخارجي وبذلك تكون مساحة المدينة المدورة (٧٩٤٥٤٥٧) متراً مربعاً أي أن مساحتها حوالي ثمانية كيلومترات مربعة ــ وهناك روايات كثيرة عن مساحة المدينة.

أما أبواب المدينة المدورة فسماها المنصور: باب الكوفة، باب البصرة، باب خراسان، باب الشام.

ولهذه الأبواب ظاهرة معمارية فريدة هي أزورار مداخلها وهذا الطراز من الداخل يخفي وراءه أسلوباً عسكرياً يلاحظ فيه أن الغزاة بعد اقتحامهم البوابة يضطرون الى الانحراف الى اليسار للعبور من مدخل ثان وبذلك يتعرضون للسهام الموجهة اليهم ونستطيع القول أن المدخل المزور المستعمل في أبواب مدينة بغداد هو أقدم مثال للمدخل المزور.

وكان السور الخارجي والسور الذي يليه (السور الأعظم) يفصلهما مسافة خالية تسمى (الفصيل) وفائدة هذه المسافة تنحصر في الدفاع عن المدينة ــ وقد منع المنصور السكن في هذا الفصيل.

ــ **السور الأعظم**: هناك اختلاف في المصادر العربية لتحديد أبعاد هذا السور ولكن بناة المدينة حرصوا على جعل هذا السور بناء قوياً وضخماً حتى يستوفي بذلك شروط الدفاع والاستحكام وقد جعلوا له أبراجاً عظيمة وكان عند مدخل هذا السور دهليز عليه بابان من الحديد وكان فوق البوابة الرئيسية في هذا السور قبة عظيمة عالية ومذهبة وكانت مداخل هذا السور أبواب حديد عددها ثمانية أبواب يوجد بابان منها في كل مدخل من المداخل.

ــ **الفصيل الداخلي**: ينتهي الداخل بعد دهليز السور الأعظم الى رحبة مربعة ــ ويوجد طريقان واحد عن **يمينها** والثاني على يسارها. وهذا الفصيل مار بجميع الأبواب وعرضه حوالي (٢٥) ذراعاً ويؤدي بعد ذلك من الرحبة المربعة الى الطاقات وعدد الطاقات ثلاث وخمسون طاقة وهي غير طاقات المدخل. وفي رواية للخطيب يذكر

تخطيط الفسطاط والعسكر والقطائع

فيها عرض الطاقات بخمسة عشر ذراعاً وطولها من أول الرحبة الى الطاقات الصغرى مائة ذراع. وتمتد المنطقة السكنية خلف الطاقات من جهتي اليمين واليسار. والمنطقة السكنية تتضمن السكك والشوارع والدور وتنقسم إلى أربعة أقسام كل قسم منها يؤلف ربع دائرة وهي المنطقة السكنية الوحيدة للناس في المدينة وتقع هذه المنطقة السكنية بين الجدار الضخم للسور الأعظم والجدار المحيط بالمنطقة المركزية وكانت سكك المدينة تعرف بقواد المنصور ومواليه وبسكان كل سكة ــ وكانت الطاقات الموجودة بالمدينة بمثابة الأسواق لبغداد حتى عام ١٥٧هـ حينما انتقلت الأسواق الى خارج المدينة.

ــ **الرحبة العظمى**: يؤدي الدهليز العظيم الموجود عليه بابان من الحديد الى الرحبة العظمى. وتقع هذه الرحبة في وسط المدينة ويمكن لنا أن نسميها قلب المدينة وكان في هذه الرحبة قصر المنصور والمسجد الجامع ودار للحرس وسقيفتان أحداهما لصاحب الشرطة والأخرى لصاحب الحرس وكذلك توجد بها منازل أولاد المنصور الصغار والدواوين. ومن الجدير بالذكر أن المنصور كان لا يسمح لأحد من أتباعه أو حاشيته بالدخول الى الرحبة العظمى وهو راكب.

ــ **قصر المنصور (قصر باب الذهب)**: كان المسلمون قبل بناء بغداد اذا اختطوا مدينة بدأوا بالمسجد الجامع أولاً، أما في بغداد فان المنصور جعل قصره في وسطها وقصر باب الذهب عبارة عن مربع طول كل ضلع من أضلاعه الأربعة أربعمائه ذراع وفي صدر القصر ايوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون وفوق هذا الايوان مجلس آخر له نفس الأبعاد وفوق المجلس القبة الخضراء. وكان على رأس القبة الخضراء صورة فارس في يده رمح.

ــ **مسجد المنصور**: يعتبر مسجد المنصور أول مسجد شيد على أرض بغداد ويعد تخطيطه نموذجاً لتخطيط الجوامع التي بنيت بعد ذلك في بغداد ومن المؤسف أن معالم هذا المسجد قد زالت منذ سنين كثيرة. وقد بني المسجد ملاصقاً للجدار الشمالي الشرقي من قصر باب الذهب، وتم تنفيذ بناء المسجد على يد الخليفة المنصور عام ١٤٥هـ وكان عبارة عن مربع متساوي الأضلاع طول كل ضلع من أضلاعه حوالي مائتي ذراع وقد بني المسجد باللبن والطين وكانت أعمدته من الخشب أما قبلته فاحتاجت الى أن تحرف الى باب البصرة قليلاً ونشأ هذا الانحراف نتيجة لبناء المسجد ملاصقاً للقصر الذي كان غير مستقيم على القبلة.

هذا مايمكن قوله عن مدينة بغداد المدورة وعن تخطيطها وأقسامها الهامة المختلفة والتي بناها أبو جعفر المنصور لتكون عاصمة للعباسيين وحاضرة لهم.

القاهرة (قاهرة المعز)

ويرجع تاريخ قاهرة المعز الى ثلاث مراحل متتابعة أولها الشكل العسكري في زمن عمرو بن العاص (الفسطاط) ثم العسكر في عهد الأخشيديين ثم احتلال الفاطميين لها بقيادة جوهر الصقلي في زمن المعز لدين الله الفاطمي. ومنذ ذلك العهد بقيت بتسميتها قاهرة المعز أو القاهرة. **والفسطاط** مدينة الفتح العربي الإسلامي التي أنشأها عمرو بن العاص بعد أن فتح مصر ــ وأنشئت الفسطاط خارج مصر في الجهة الشرقية للنيل وقد اختط عمرو بن العاص الفسطاط عام ٢١هـ وبنى مسجدها الجامع ودار الإمارة المعروفة بدار الرمل وجعل الأسواق محيطة بالمسجد وقسم أرضها كالكوفة والبصرة خططاً للقبائل.

ويذكر المقريزي أن الذين تولوا تخطيط الفسطاط ثلاثة من العرب يرأسهم معاوية ابن حديج وكانت خطط الفسطاط كثيرة منها خطة أهل الراية وخطة لخم ومذحج وبني وائل وبني سبأ وغيرهم وسميت كل خطة بأسماء من نزلها من القبائل.

وقد شذت الفسطاط في تخطيطها عن البصرة والكوفة من ناحية بناء دار خاصة للإمارة فليس صحيحاً ماذكره اليعقوبي من أن عمرو بن العاص كان قد بنى داراً خصصها للإمارة بل أن عمرو بن العاص بنى لنفسه داراً اتخذها مقراً لحكمه وقد ذكر الدكتور أحمد فكري في مؤلفه «مساجد القاهرة ومدارسها» مامفاده أن ولاة مصر في أول الأمر لم يكن لهم مقر رسمي

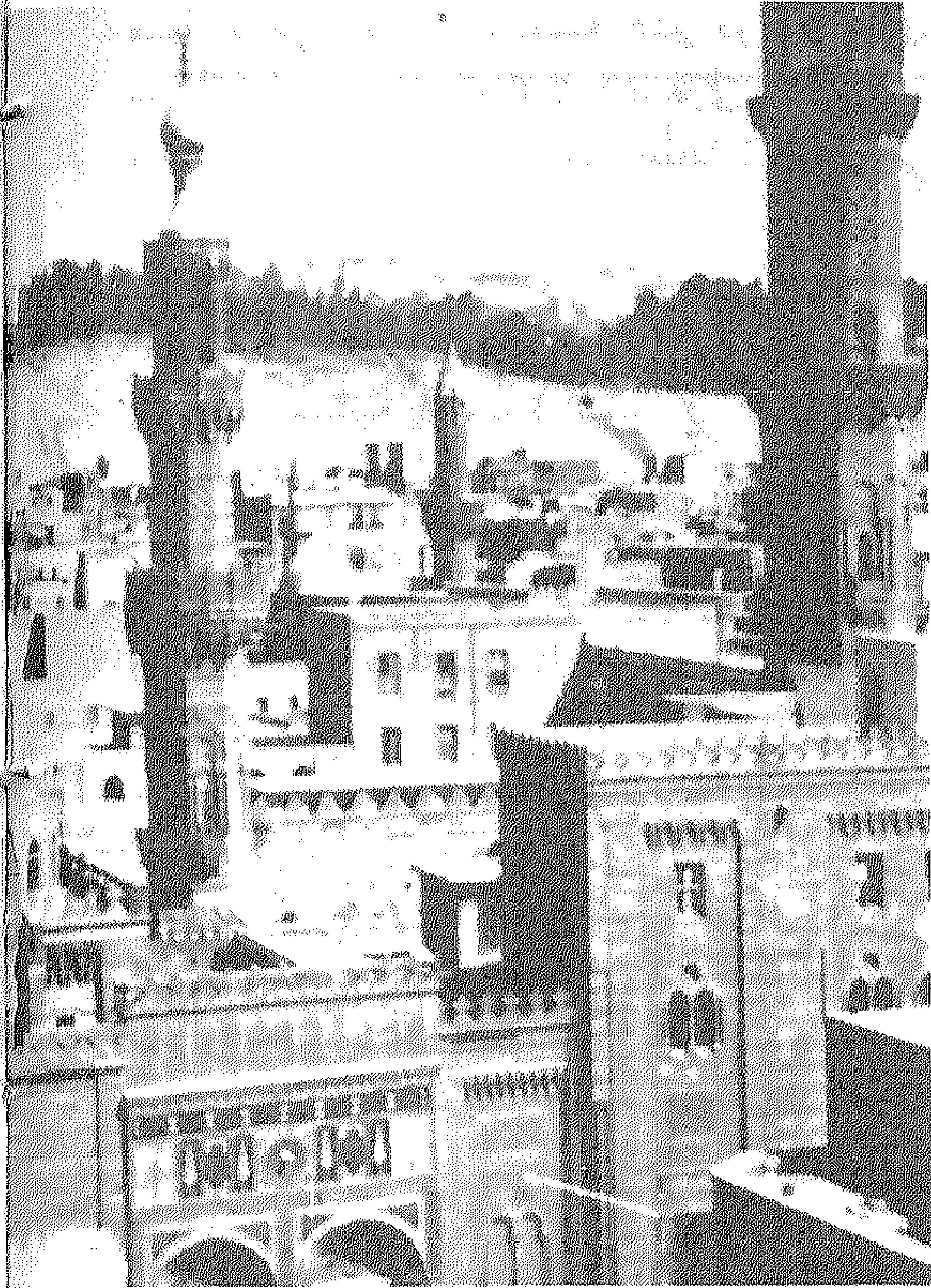
ولا دار للإمارة واتخذ عمرو بن العاص الدار التي أقامها لسكنه بالقرب من المسجد الجامع مقراً للحكم وصار الأمر هكذا بعده فكل وال من بعده كان يتخذ الدار التي يسكنها مقراً للإمارة واستمر الحال كذلك الى نهاية العصر الأموي.

وأخذت الفسطاط شكلاً منظماً شيئاً فشيئاً والتف العمران في شكل نصف دائري حول مسجد عمرو بن العاص. وبعد استتباب الأمر وانتظام العمران والتفافه حول مركز العمران السياسي والقيادي الا وهو المسجد ومع هذا الانتصار جاءت حرية اختيار الموقع الأنسب استراتيجياً والتمشي مع معطيات البيئة ولذلك جاءت **العسكر** والفسطاط بالقرب من مجرى النيل وعلى امتداد هذا المجرى وفي شكل دائري متكامل.

والجدير بالذكر أن **قطائع** أحمد بن طولون والمسجد المشهور الذي يحمل اسمه التفت في زمن تلا عصر أوج الفسطاط في شكل نسيج عمراني محدود ومنفصل عن الفسطاط وان كانت تعتبر حياً من أحياء الفسطاط الا أنه مهد لشكل القصر الحصين الذي ظهر واضحاً في الفترات التي تلت ذلك.

لتسمية **القاهرة** تفسيرات عديدة من أهمها أنها سميت نسبة لكونها حصناً يحصن القيادة السياسية وقتها والعبرة من اختيار ذلك الحصن هي احترام قيمة التضاريس والأهمية الاستراتيجية للموقع من حيث أنها أشرفت على الفسطاط والعسكر والقطائع والأودية الملاصقة للحصن.

ونستطيع القول أن القاهرة اسم لحصن وليست مدينة عمرانية النسيج وبذلك فان عاصمة مصر منذ الفتح العربي الإسلامي تكونت بشكل عمراني فريد اذ أنها عبارة عن مدن وحصون لقصور حكامها متلاصقة ــ وكان أساس هذا التسلسل في انشاء تلك المدن هو اختيار الموقع المناسب عمرانياً شيئاً فشيئاً. يبدأ بالمستوي ثم المتدرج ثم الشاهق، وكلما ارتفع موقع العمران ظهرت الحاجة الى ضخ مياه الشرب من النيل ومن الآبار وظهرت دراسات تحمل أسماء عديدة في هذا الموضوع منها مقياس النيل وعدة أماكن أظهرت تطور علم

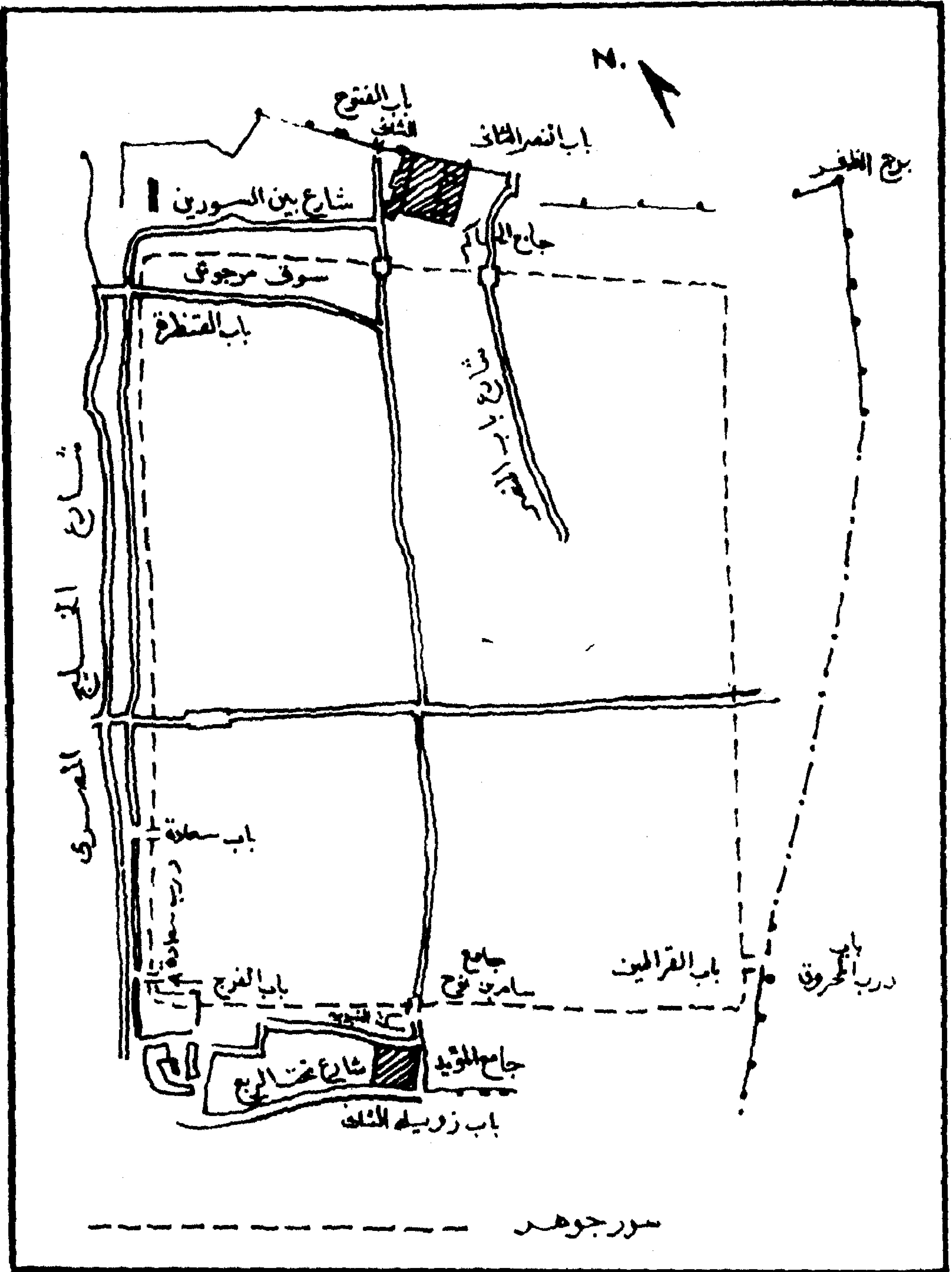


جامع الأزهر ــ القاهرة

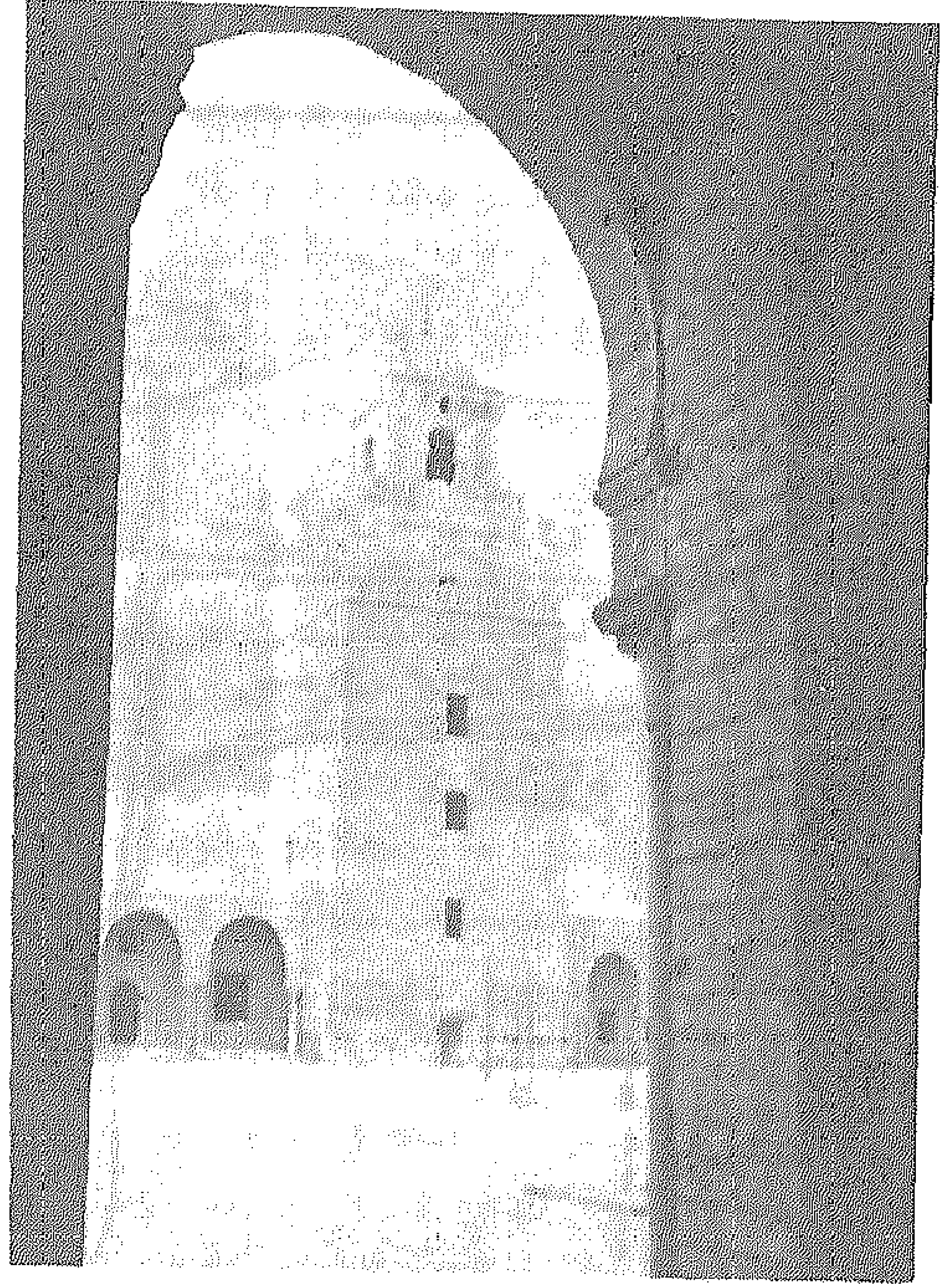
تخطيط المدن والبحث العلمي لتوفير مياه الشرب لسكان تلك العصور.

القيروان

أما مدينة القيروان فقد اختطها القائد عقبة بن نافع في تونس بشمال أفريقية عام٥٠هـ وكان أول ما اختط فيها هو دار الامارة والمسجد الجامع ولم يحدث فيه بناء وكان يصلي فيه وهو كذلك وبعد تحديد محراب المسجد اقتدى به الناس وبعد بناء المساجد والمساكن شد الناس اليها المطايا من كل بلد وعظم قدرها وكانت دار الامارة لها في قبلة المسجد وذلك قبل أن يخربها ابراهيم بن الأغلب. وكانت القيروان في وسط الصحراء بعيدة عن العمران وكانت بذلك آمنة من هجوم الأعداء ولم يمنعها انعزالها هذا من أن تنمو وتكبر. واذا كان عقبة بن نافع قد عزل عنها فترة من الزمن الا أنها استعادت عظمتها بعودته عام ٦١هـ وظلت ما يقرب من أربعمائة عام على رأس مدن أفريقية والمغرب وكان لها



القاهرة الفاطمية



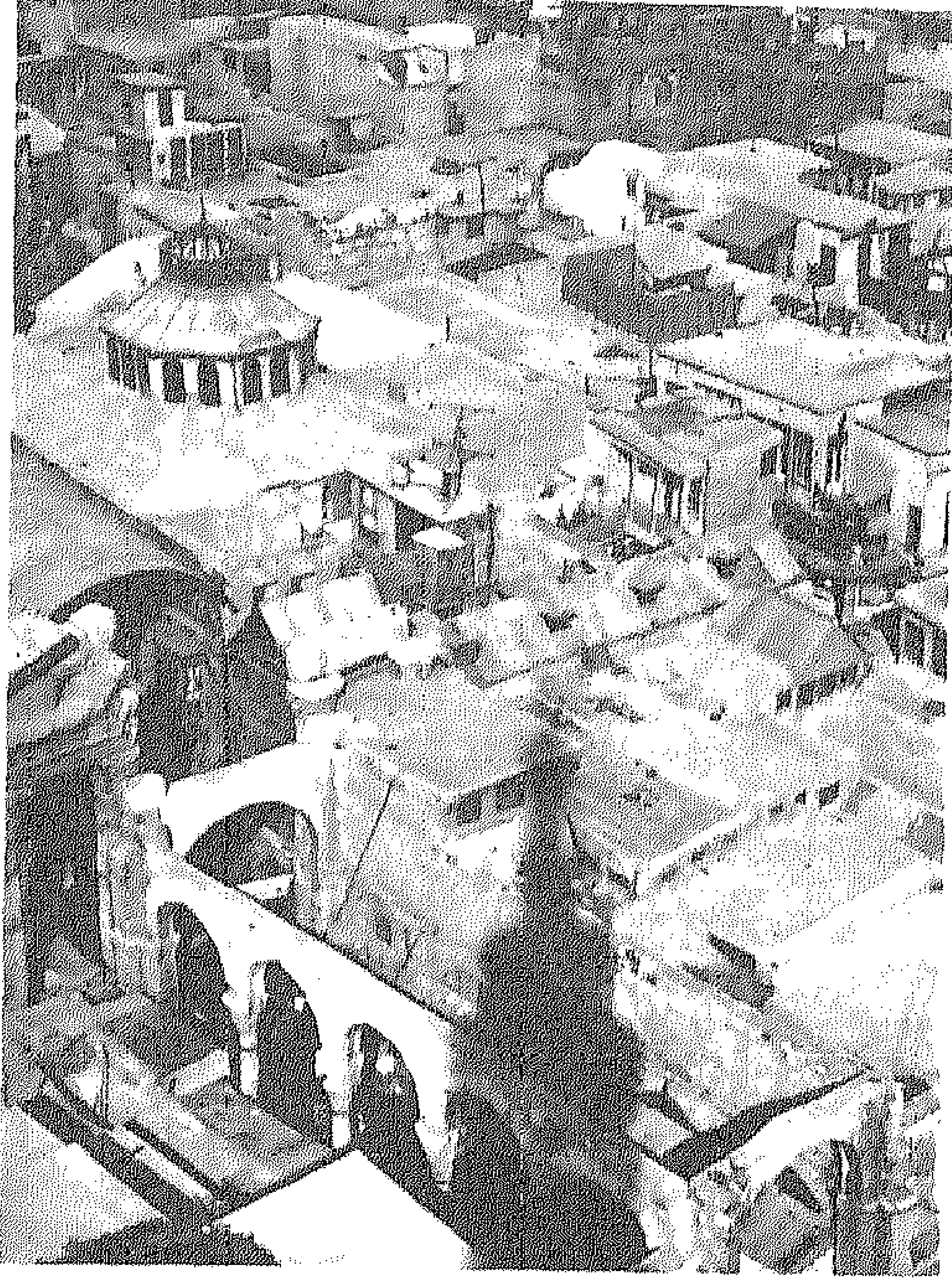
القيروان

سور له أربعة عشر باباً. وكانت سوقها متصلة بالمسجد من جهة القبلة وممتدة الى باب يعرف باسم باب الربيع وذكر البكري أنه كان لهذه السوق سطح متصلة به جميع المتاجر والصناعات وان هذا السطح قد تعرض لبعض التهدم. وأمر هشام بن عبد الملك بترميمه عام ١٠٥هـ.

وتختلف القيروان أيضاً عن المدن العربية في أن كل قبيلة نزلت بها لم تكن تختص بمكان معين من المدينة ربما لأن فتحها جاء متأخراً وربما لعدم حرص القبائل التي اشتركت في فتحها على أن تظل بمعزل عن القبائل الأخرى في سكنها كما حدث في المدن السابقة.

خاتمة

من كل ما تقدم يمكننا ملاحظة أن تخطيط المدن في العصور الإسلامية كان يختلف من مكان لآخر تبعاً للظروف والملابسات التي مر بها تاريخ البلاد التي اختطت بها هذه المدن ولا يتسع المجال لدراسة تخطيط كل مدينة على حدة وبالتفصيل، ولكن هذه المدن عند تخطيطها تبدأ على أي حال بتخطيط المسجد الجامع ودار



دمشق

الامارة ولم يشذ عن ذلك سوى الفسطاط حيث لم يكن بها دار للامارة بل كانت دار الوالي تقوم بهذه المهمة وهذا من أهم أجزاء النسيج العمراني الإسلامي الأول ويليه بعد ذلك السوق والمسكن والطرق والسكك.

ومما تقدم نجد أن هذا التشابه والتطابق بين المدن العربية والإسلامية الأولى مبرراته بسيطة وسهلة الاستنتاج والاستنباط. انها كلمة واحدة.. هي الإسلام. نعم الإسلام دين ودولة وشريعة ومنهاج وقاعدة وحكم وعلى الرغم من اختلاف المناخ من بلد لآخر واختلاف ألوان الشعوب ولغاتها الا أنها كانت تستقي من ماء واحد هو القرآن الكريم. تطبقه في حياتها وعملها فأخذت دورها القيادي للبشرية في الحضارة فكانت نهضتها الفكرية والعلمية وكان للمسلمين دور حضاري رائد في تشييد المدن وبناء الدور والمساجد والمكتبات على ضفاف دجلة والنيل وفي أقصى المغرب والأندلس حيث كانت في أوج القوة والازدهار وما من ريب في أن التقدم العمراني في مختلف أرجاء العالم الإسلامي إذ ذاك مظهر قوي لوعي الأمة الإسلامية وتطورها وتقدمها. ●

وَرَقــةٌ مِن تــارِيْخ الاستِشراق في المَـانيـا

إرنست ترمب
١٨٢٨ - ١٨٨٥

آنا ماري شيمل

ترجمة أحمد شركس

رسالة بخط ارنست ترمب، مؤرخة ٢٤ يناير ١٨٧٠، وهي محفوظة في مكتبة الجامعة في توبغن Md760,1079

رغم أن الاستشراق الالماني هو اكثر التيارات الاستشراقية الاوروبية جدية في معالجة موضوعات الشرق، ومن بينها موضوعات الاسلام والحضارة العربية، الا اننا نلحظ غيابا شبه كامل للاهتمام العربي بانجازاته. وقد يكون مرد ذلك الى قلة الملمين باللغة الالمانية من الباحثين العرب. ومع كل التحفظ الذي ينبغي ان نواجه به حركة الاستشراق عموما والاهداف السياسية لبعض اتجاهاتها في خدمة مخططات استعمارية وتوسعية، تبقى مهمة الاطلاع على النتاج الاستشراقي وأعلامه مهمة أساسية للباحث العربي، ان من ناحية تقنية البحث وأدواته او مضامينه، او نقد هذه المضامين.

وفيما يلي ننشر مقالة لآنا ماري شيمل، ترجمة أحمد شركس، اقتبسناها عن مجلة «فكر وفن» الالمانية والتي كانت تصدر باللغة العربية، عدد ١٨، ١٩٧١.

آنا ماري شيمل:

ولدت في ٧ نيسان عام ١٩٢٢ في مدينة ايرفورت الالمانية، نالت الدكتوراه في الفلسفة وتدرس في جامعة هارفرد، اختصاصها التصوف الاسلامي ولا سيما العربي والايراني والتركي والباكستاني، تكتب بشكل بسيط ولعامة الناس، ولها عدة ترجمات من اللغة العربية إلى الألمانية.

الحركة الألمانية الاستشراقية وسيرة حياته

تحفل الحركة الألمانية للدراسات الشرقية بأعلام كبار يعتبر أرنست ترمب أحد أقطابهم. لقد برع هذا العلامة في العديد من اللغات، وخلف آثاراً لم تقتصر في مضمونها على العربية وغيرها من اللغات السامية، بل شملت إلى جانب ذلك العديد من اللغات الأخرى. فترك لنا، دراسات وافرة في لغات الهند الحية، أو هي، وبتعبير أكثر دقة، لغات ذلك الجزء من شبه القارة الهندية الذي يعرف اليوم بباكستان الغربية. ولعل في إعادة نشر كتابين، من مجموعة مؤلفاته مؤخراً، أحدهما في نحو لغة الباشتو (Paschto) والآخر في نحو اللغة السندية، ما يدل على قيمة هذين المرجعين لدارس تينك اللغتين بالغتي الصعوبة. بل وعسى أن يكون في ذلك اشارة الى عدم ظهور ما يجاريهما جودة وأصالة على الرغم من مرور قرن من الزمان ونيف على نشرهما لأول مرة.

ويجد المرء، في حياة المترجم له، تفاصيل وطرائف هي غاية في الغرابة. ولد أرنست في اليوم الثالث عشر من شهر آذار لسنة ثمان وعشرين وثمانمائة وألف للميلاد، في قرية ايلسفلد (Ilsfeld) في مقاطعة (Württemberg) الشمالية، لأب مزارع امتهن النجارة. واتسم الوسط الذي نشأ فيه على وجه العموم بالعوز والفاقة. لم يكن ذلك حال قريته فحسب، بل حال القرى والمدن المجاورة أيضاً، مما حدا بقطاع كبير من السكان إلى الهجرة سعياً وراء الرزق. هذا وما زالت جماعات منهم تقطن جنوب روسيا، بلاد القوقاز على وجه التعيين، وما برحت فئة تعيش في ولاية تكساس الأميركية حتى يومنا هذا. وانعكست في شخصية أرنست سجيتان، امتاز بهما سكان جنوب غرب ألمانيا عموماً منذ عدة قرون، ألا وهما سجية الجلد وصفة التقوى. ولعل السجية الأخيرة قد نشأت وتطورت عن اعتناقهم للمذهب اللوثري والتي كانت تبلغ بهم حد التزمت أحياناً. بدأ أرنست حياته الدراسية في الرابعة من عمره. وظهرت بوادر ولعه الشديد



هيغل

باللغات واهتمامه بها، أول ما ظهرت، حين انبرى يحلل لغة بعض غجر كان قد صادفهم. بعد أن أنهى مرحلة الدراسة الثانوية، في سن السابعة عشرة، أرسل إلى جامعة توبينغن (Tübingen). ولما اتفقت رغبته وميوله، حينذاك، مع رغبة والديه وميولهما في أن يصبح الإبن قسيساً، التحق أرنست بكلية اللاهوت المعروفة بـ «شتيفت» (Stift). ولقد كانت تلك الكلية تتمتع بشهرة واسعة، اذ كانت مركز الاشعاع الثقافي، والمعقل الروحي للمذهب البروتستنتي في ذلك الجزء من البلاد. ومن نافلة القول أن نذكر هنا، أنه ولعدة عقود سبقت التحاق صاحبنا بتلك الكلية، فقط، كان كل من الفيلسوف الكبير هيجل (Hegel) والشاعر الملهم هولدرلين (Hölderlin) ينتظمان فيها. ونظراً لتعلق العبرية باللاهوت، شرع أرنست بدراستها، علماً بأنه كان قد أتقن اللاتينية واليونانية قبل مجيئه إلى هذه الكلية. راح بعد ذلك يدرس السنسكريتية واللغات السامية على يد كل من البروفسور روت (Roth) والبروفسور ايفالد (Ewald).

بيد أن عملية القمع والارهاب، التي مارستها حكومات الولايات الألمانية المختلفة ضد «دعاة

الحرية» عام ١٨٤٨، أدت إلى زج الكثيرين من المثقفين، أساتذة وطلاباً، في السجون، فقد انخرطت الطليعة المثقفة في هذه الحركة منذ عام ١٨٣٠ محاولة العمل على تغيير الأوضاع الألمانية، هادفة توحيد البلاد التي راحت تنقسم حينها إلى ممالك وإيالات ومقاطعات صغيرة وهكذا فما إن حلت سنة ١٨٤٨ حتى تكللت الجهود بأول اجتماع لمجلس الأمة الألماني. الا أنه سرعان ما انقلبت الحكومة وراحت تقوم بحركة قمع واسعة ضد «دعاة الحرية»، وانطلقت تزج بأتباعها في السجون. لم يستثن أرنست، بطبيعة الحال، من بين هؤلاء فألقي به في السجن لفترة من الزمن، انقطع خلالها عن الدراسة، لم يلبث حتى استأنفها وعمل على انهائها بعد الافراج عنه.

توجه العلامة الشاب، بعد أن أقام فترة وجيزة في بازل (Basel) الى لندن. ولما كان قد حصل هناك على وظيفة مساعد أمين مكتبة في «مركز الهند الشرقية» (East India House)، فقد تسنت له من خلال عمله هذا فرصة اثراء ثقافته بقضايا اللغات الهندية الحية وآدابها. ولم يفكر أرنست بالرجوع الى المانيا في تلك الأثناء، وذلك نظراً لما كانت تبعث عليه الحالة السياسية من الشعور بالقرف واليأس. وما أن عرضت عليه «الجمعية الكنسية للتبشير» (Church Mission Society) أمر الذهاب الى الهند للقيام بتأليف معاجم وكتب نحو في لغاتها الحية، حتى استجاب غير متردد. وقد شجعه على ذلك الوعد الذي قطعته الحكومة البريطانية على نفسها بنشر كل ما يقوم بتأليفه. ولا ريب بأن مثل هذا العرض ومثل ذلك الوعد ليدل على المكانة التي بلغها أرنست في ذلك العهد المبكر من حياته.

في الهند

تختلف الروايات حول تاريخ ارتحاله لأول مرة الى الهند. بيد أن سنة ١٨٥٤ هي أكثر السنوات قبولاً لدينا. نزل بادىء الأمر مدينة بومباي (Bombay). توجه بعدها الى كراتشي (Karachi) حيث مكث فيها عدة شهور. وفي مدة تدعو في قصرها الى العجب، أتقن أرنست اللغة السندية، تلك اللغة التي تتميز بالصعوبة المتناهية. كما أتقن في الوقت عينه اللغة الفارسية. وسرعان ما طبقت شهرته آفاق الأوساط السندية والبريطانية. فمنحه الفنستون (Elphinston) حاكم بومباي لقب مواطن شرف، كما رسم قسيساً للكنيسة الانجليكانية وذلك اعترافاً بفضله، اذ أنه قام وقتذاك بترجمة «كتاب المراسيم الدينية العامة» (Common Prayer Book) من الانجليزية الى الفارسية. الا أن الحال لم يلبث على ما هو عليه طويلاً، ودبت فيه علة خطيرة، علها الملاريا، فنقل على أثرها الى بيت المقدس، بفلسطين، للمعالجة. أقام أثناء وجوده في هذه المدينة بصحبة علم رائد من أعلام الاستشراق في القرن الماضي ألا وهو القنصل الألماني في ذلك الحين هناك جيورج روزن (Georg Rosen) (الذي قام بترجمة مجلدين من عمل جلال الدين الرومي «المثنوي المعنوي» الى الألمانية لأول مرة). كما انكب يعمل على تعميق درايته باللغة العربية. هذا وقد أتيح له هناك التعرف على شابة ظريفة هي باولين لندر (Pauline Linder) والتي راحت تشاركه حياته الزوجية منذ شهر تشرين الأول لسنة ١٨٥٦.

عاد أرنست، بعد قضاء فترة النقاهة وشهر العسل، قافلاً الى كراتشي تصحبه عروسه. وهناك وفي شهر أيلول من العام التالي للزواج (١٨٥٧)، من الباري عليهما بمولود ذكر، بيد أن الأم الشابة لم تلبث سوى ثلاثة أيام عقبت الميلاد حتى فارقت الحياة. وربما كان طقس كراتشي الرديء وراء هذا الحادث الأليم، أو عساه أن يكون أيضاً، الفزع والتوتر العصبي اللذان ألما بها مغبة وصول أنباء الثورة والاضطرابات العسكرية في الهند الشمالية، وعلى أثر ذلك لم يجد صاحبنا مخرجاً لمحنته سوى السفر إلى اوروبا يسعى لتوفير ظروف ملائمة للوليد. لم يمض عليه في سبيل ذلك طويلاً إذ واتته فرصة التعرف على آنسة تنحدر من أسرة كريمة، من مدينة شتوتجرت (Stuttgart) فتزوج منها، وكان قد بلغ من العمر ثلاثين عاماً.

قفل أرنست وعروسه الجديدة عائدين الى كراتشي. ثم قصدا من هنالك هدفهما المرسوم ألا وهو بيشاور (Peshawar) بالقرب من الحدود الأفغانية. كانت رحلتهما هذه عبارة عن مغامرة

شاقة كادت أن تودي بحياتهما. فلقد كان عليهما أن يبحرا خلال ذلك، لمدة ثلاثة وعشرين يوماً، في نهر «اندوس» (أو نهر السند) (Indus). وأن يركبا، ولثلاثة أيام، عربة تجرها الجاموس، الى لاهور (Lahore) ثم أنهما قد نقلا على محفة تناوب حملها اثنان وعشرون من الخدم الى أن وصلا بيشاور قاطعين بذلك خمسمائة كيلومتراً.

استقبل البريطانيون، والسكان المحليون، الباتان (Pathan)، صاحبنا وزوجته استقبالاً حاراً. وانبرى أرنست، في الحال يدرس لغة الباشتو (Pashto)، والتي لا تقل صعوبة عن اللغة السندية بشيء، فأتقنها بسرعة مدهشة بل انه راح يمارس الوعظ والإرشاد بها بأقرب فرصة ممكنة. وعلى الرغم من معاودة اصابته بين الفترة والأخرى بحمى الغب، لم يأل جهداً في محاولته البحث عن لغة حية جديدة. فما ان أتيحت له فرصة لقاء ثلاثة أشخاص من أهالي «كافرستان» حتى تعلق بهم واعتبرهم «عينات ممثلة لدراسة لغة أهالي تلك المنطقة». (لقد تغير اسم منطقتهم من كافرستان الى نورستان فيما بعد). انبرى صاحبنا يهيىء لهم الظروف الملائمة ويعمل على اغرائهم بالبقاء عنده مدة كافية تتسنى له خلالها دراسة لغتهم. ويصف لنا أرنست الموقف فيقول: «لقد كنت أحتفظ بهم ثلاث أو أربع ساعات كل يوم، مقدماً لهم بين الفترة والأخرى وجبات من الحلوى عاملاً على تسليتهم كي لا ينفد صبرهم». ويضيف قائلاً: «ان ظنه قد خاب» فيما يتعلق بمظهرهم. فقد توسم فيهم امتشاق القوام وبياض الوجه وملاحته، فوجدهم داكني البشرة، «رغم الحمرة التي راحت تكسو وجوههم والتي ان عادت الى أمر فانما عادت الى الخمر المعتق الذي راحوا يحتسونه». وحري بنا أن نشير هنا، الى أن توسم أرنست ما توسمه ارتكز على ما كان يشيع بين الناس من أن أهل «نورستان» ينحدرون من اليونانيين الذين صاحبوا الاسكندر الأكبر حين قدم هذه البلاد. ثم انطلق بعد ذلك يدرس لغة البراهوي (Brahui)، تلك اللغة التي تتكلمها أقلية تعيش في «بلوتشستان» ولقد نشر بحثاً قيماً في هذه اللغة عام ١٨٨٠. (ليس لهذه اللغة صلة بالإيرانية أو بلغات شمال الهند، كما هو الحال بالنسبة للباشتو والسندي، ولكنها تتصل بلغات جنوب الهند الغير آرية). كما أنه درس لغة ونحو كل من «الكشميري» و«النيبالي». هذا ولا زال كتابه في نحو اللغة الأخيرة مخطوطاً.

اضطر أرنست، على أثر معاودة المرض له، الى مغادرة بيشاور، مما خلف اللوعة والأسى في النفوس. ولما عادت له صحته، عكف في شتوتجارت (Stuttgart) يدرس المواد التي كان قد جمعها خلال وجوده في الباكستان. كان ذلك ما بين سنتي ١٨٦٠ ــ ١٨٦٣. ثم أخذ يعمل قسيساً في قرية فولينغن (Pfullingen)، التي تقع على مقربة من القرية التي شهدت مسقط رأسه، ما بين عامي ١٨٦٤ ــ ١٨٧٠. هذا ولم يتوقف خلال ذلك عن متابعة بحثه العلمي بل راح ينشر الكتب والمقالات العديدة، باللغتين الألمانية والإنجليزية. لم يكن أمر تعيين صاحبنا كأستاذ للغات الشرقية في جامعة توبينغن (Tübingen) التي نال منها درجة الدكتوراه، بمستهجن؛ بيد أنه ولما كان شريط الذكريات في أذهان زملائه في تلك الجامعة، ما انفك يسجل نشاط أرنست السياسي خلال ثورة ١٨٤٨، لهذا السبب بل ولأسباب أخرى نجهلها، فقد حيل دون بلوغه ذلك الهدف. فبقي هذا العلامة الأوروبي، علامة اللغات السامية واللغات الهندية الحية، يعمل قسيساً في تلك الأبرشية المتواضعة. ومع ذلك فيمكن القول بأن أرنست، ورغم كل الصعوبات، قد نعم خلال تلك الفترة، بحياة عائلية هنيئة.

وفي عام ١٨٧٠ عادت الحكومة البريطانية تعرب عن اهتمامها بخبرته، فطلبت منه العودة الى الهند ليقوم بترجمة كتاب السيك المقدس «آدي كَرانت» (Adi Granth) نظراً لما تتمتع به تلك الديانة من أهمية سياسية في حياة الهند. وما أن شرع في مهمته الجديدة حتى أدرك استحالة الاضطلاع بها دونما مساعدة من متكلمي تلك اللغة، فهي لغة معقدة عويصة. التفت الى جهابذة السيك ينشد امدادهم له، بمعرفتهم ولكن ظنه سرعان ما خاب بهم. فهم، على حد قوله «لم يستطيعوا أن يزودوني الا بتفسيرات تقليدية أثبتت مقارنتها بالنصوص المختلفة تناقضها وفسادها، بل انهم قد عجزوا،

في كثير من المناسبات، عن تقديم أي شرح أو تفسير». فلم يجد بداً حينها من التعويل على نفسه. فراح يعد بطاقات مفهرسة للكلمات وللقواعد النحوية القديمة ويقوم بدراستها وتمحيصها. كل ذلك بطبيعة الحال بهدف التمكن من دراسة واستيعاب ذلك الكتاب المقدس، والذي يزيد حجمه على حجم القرآن الكريم بعدة أضعاف. هذا ولعله من الطريف أن نذكر، في هذه العجالة، بأن السيك لم يأبهوا لعمل أرنست ولا ولم يقدروه حق قدره، بل وعلى النقيض من ذلك فانهم ما انفكوا يذكرون «سوء التصرف والإثم الكبير الذي كان يرتكبه بالتدخين بحضرة الكتاب المقدس»! غير أن السلطات في لاهور، ولا عجب، قد قدرت تلك الجهود حق قدرها. وعمل البريطانيون قصارى جهدهم لإقناعه بالبقاء.

لقد تكبد أرنست في تحليل خطوط كتاب السيك المقدس جهداً أعياه وأضعف عينيه، فلم يقو على البقاء في تلك البلاد. فلهذه الأسباب الصحية وبسبب حنينه الى الوطن، الذي راح يتأجج، قفل أرنست عائداً الى المانيا في سنة ١٨٧٢. وهناك عمل على انجاز ترجمة الكتاب، آنف الذكر، فنشر في مجلد ضخم عام ١٨٧٧. كما ألحقه بعدة دراسات عن ديانة السيك.

في التدريس

لم يبارح أمل الحصول على كرسي الأستاذية في جامعة توبينغن مخيلة صاحبنا. ولعل ما جاء في رسالة له مؤرخة في ١٨٧٣/١/٢٤ ما يعكس المرارة التي كان يعانيها وهو ما زال في سن الخامسة والأربعين، فهو يقول: «ولما كنت أعلم بأن الجهود كلها تبذل في سبيل اظهاري أمام الملأ بالعجز، فسأرفق بطلب استخدامي قائمة بالمؤلفات التي تمت طباعتها؛ كمثل كتاب قواعد السندية وكتاب قواعد الأفغانية... الخ؛ رغم مخالفة ذلك لطبيعتي».

بعد أن عمل أرنست كمحاضر (Privatdozent) في قسم اللغات السامية في جامعة توبينغن، ولفترة قصيرة، في أواخر العام المذكور سالفاً، انتقل الى جامعة ميونخ ليشغل كرسي الأستاذية في قسم اللغات السامية فيها. وأمل وقتذاك أن يتمكن من القيام بأعمال نافعة في كل من اللغة العربية والأثيوبية وسواهما. وهكذا فقد نشر، أثناء وجوده في ميونخ، «مقدمة لدراسة قواعد اللغة العربية». كما حقق وترجم «أجرومية» محمد بن داوود الى الألمانية، وكان ذلك عام ١٨٧٦. ويعد عمله هذا محاولة ممتازة حقيقة بالتقدير، رغم النقد الذي وجهه له، في حينه، الأستاذ فلايشر (H.L.Fleisher)، علامة اللغة العربية. (وقد ندر أن يفلت بحث في هذا الحقل من نقد الأستاذ المذكور، وذلك لبراعته وتفوقه فيه). كما قام أرنست بدراسة «كتاب المفصل» للزمخشري دراسة وافية، ظهرت في مقالتين طويلتين مفعمتين بالتعليقات والشروح، حري بدارس نحو العربية عدم اغفال الإطلاع عليها. كما راح ولعه بالأثيوبية يتبدى، وقد استمرأ لهجتها على وجه الخصوص. ففي خلال أقصر وقت بات يتقنها ويميز أدق دقائق اللحن فيها. ومن الطريف أن نذكر هنا، بأن تجربته انحصرت في هذا المجال، بدراسة رجل أثيوبي، كانت قد أحضرته احدى البعثات الدينية الى أوروبا. هذا وقد تمخضت تلك التجربة عن عدة مقالات تعالج الأبعاد المختلفة لتلك اللغة كتبها ما بين عامي ١٧٨٧ ــ ١٨٨١.

بيد أنه، ولما كان لكل أجل كتاب، ولكل طاقة حدود، لم يعد بمقدور أرنست أن يتحمل المزيد. فدراسة لغات شبه القارة الهندية العويصة، وقضاء ردح من الزمان يصارع صعوبات المناخ أثناء اقاماته المتقطعة فيها، ودأبه الحثيث على دراسة لغات أخرى كالعربية التي تتصف بتعقيدها وصعوبتها... كل ذلك عمل على ارهاق قوى صاحبنا واعياء صحته. فلم تلبث عيناه، التي قرأت وتفحصت الآلاف العديدة من الصفحات المختلفة، بما كنته بين ثناياها من غامض الخطوط ومعقدها، لم تلبث هاتان العينان حتى تردت في حمأة جحيم الظلمة، فحرم المسكين من نعمة البصر وحرم من القدرة على القراءة والكتابة، عدته وعتاده في الحياة. هذا ولم تفتأ الطامة الكبرى أن حلت حين راحت تلك الظلمة الدامسة تزحف الى عقله الجبار فتشله. وينتقل، على أثر ذلك، الى أحد المستشفيات يمضيها أياماً حزينة حتى يوافيه الأجل المحتوم. وهكذا يعود

wichtig für die richtige Auffassung der passiven Construction, wie wir gleich sehen werden.

Wie das فَاعِل so ist auch das نَائِبُ الفَاعِل doppelter Art, entweder مُظْهَر (ein offenbares Nomen), oder مُضْمَر (ein Pronomen); das leztere kann wieder مُنْفَصِل (absolutes Pronomen), oder مُتَّصِل (angehängt) sein, und als solches wieder بَارِز (offenbar,. wie in ضَرَبْتَ), oder مُسْتَتِر (verborgen, wie in ضَرَبَ).

Aus dem Bemerkten ergeben sich im einzelnen folgende Regeln:

I. Die passive Construction ist im Arabischen nur da anwendbar, wo der Thäter nicht genannt wird, z. B. ضُرِبَ زَيْدٌ, „Zaid wurde geschlagen".

Dadurch unterscheidet sich das Arabische speciell von seiner Schwestersprache, dem Aethiopischen, welches sich die Möglichkeit bewahrt hat, bei der passiven Construction auch das active Subject durch Hilfe von Praepositionen (wie በ, እምነ፡ etc.) einzufügen, z. B.: አሜሃ፡ ተፈጸመ፡ ዘተብህለ፡ በኤርምያስ፡ ነቢይ፡, „da wurde erfüllt, was gesagt worden war durch Jeremias, den Propheten" (Matth. 2, 17). Auch das Hebräische ist in dieser Hinsicht noch freier und kann das handelnde Subject, wo es nöthig ist, vermittelst einer Praeposition (לְ, stärker noch durch מִן) dem passiven Saze unterordnen, z. B.: מֵיְהוָה מִצְעֲדֵי גֶבֶר כּוֹנָנוּ, „von Jehovah werden die Schritte eines Mannes richtig gestellt" (Ps. 37, 23), während im Syrischen diese Construction (mit Hilfe

صحيفة عن مقالة ارنست ترمب عن النحو العربي:
Beitrage Zur arabischen, Sitzungsberichte der Kgl. Bayerischen Akademie der Wissenschaften, Philos.-philol. Classe, 5. Mai 1877.

أرنست، بعد تطوافه الكبير في عالم اللغات، وبعد حياة لم يكن للإستقرار فيها مكان، يعود الى دار الخلود، الى منزل السلام الدائم يوم عيد الفصح المجيد الذي وافق في الخامس من شهر نيسان لعام خمس وثمانين وثمانماية وألف للميلاد، بالغاً من العمر سبعاً وخمسين سنة.

مؤلفاته

اننا اليوم لنقف عاجزين عن الإحاطة بكل ما خلفه هذا المستشرق الكبير من آثار، وذلك لغزارته وتعدد جوانبه. لقد اهتم باللغات كلغات، وليس كآداب، وراح يسبر غور قطاع هام في عالم هذه اللغات، ألا وهو عالم شبه القارة الهندية، فعبد طريقه ومهد سبيله أمام اللاحقين من العلماء والذين راحوا يقتفون آثاره ويتبعون خطاه.

ونحن ان حاولنا استعراض جزء من أعمال هذا اللغوي العظيم، فانه يمكن القول بادىء ذي بدء، ان عشقه للسندية وتعلقه بها قد فاق تعلقه وولعه بسواها من اللغات الحية. لقد انطلق، كما تشير كتاباته، يتتبع آثارها في طول البلاد وعرضها. فهو يذكر، مثلاً، هضبة مكلي (Makli Hill) التي تقع بالقرب من العاصمة القديمة للسند، والتي تبعد مسافة ستين ميلاً عن كراتشي قائلاً: «لعل المعابد والأضرحة في هضبة مكلي أروع ما يمكن مشاهدته من الآثار في بلاد السند والهند. (ونحن هنا لا يسعنا الا أن نوافقه على ذلك، اذ أن هذه المقبرة، والتي تبلغ مساحتها عدة أميال مربعة، عبارة عن آية من جمال الهندسة المعمارية الإسلامية وكنز رائع من كنوزها، بنيت أضرحتها ما بين عامي ١٥٠٠ ـــ ١٧٥٠).

يعتبر «كتاب القراءة السندية» باكورة انتاج أرنست في هذه اللغة. وقد استعمل الحروف العربية والسنسكريتية في كتابته. ولا نعتقد أن هذا الكتاب قد نال تقدير أهل السند، وذلك لما يتضمنه من نصوص في اللاهوت المسيحي. فهو قد كتبه أصلاً ليستعمله المبشرون الذين يرغبون في الذهاب الى تلك الديار.

نشر بعد ذلك مقالات عديدة في «قواعد اللغة السندية». راح يقارن في هذه المقالات اللغة السندية باللغات الحية الأخرى التي تطورت عن البراكريت.

وفي أواخر عام ١٨٧٢ نشر كتابه الهام «قواعد اللغة السندية» والذي ألحت الحاجة اليه، فأعيد طبعه مؤخراً. ولما كان أرنست قد عاش البيئة السندية بأبعادها المختلفة، وعايش الناس على اختلاف مستوياتهم، فقد تسنى له التعرف على آدابهم الشعبية، وبالذات أغانيهم وأساطيرهم. وتمخضت معرفته وجهوده في هذا المضمار عن اثني عشر مجلد، ما برحت مخطوطة، لتلك الآداب. ويعتقد أرنست، كما يعتقد الرحالة البريطاني الشهير السير ريتشارد برتن (Richard Burton)، بأن السندية تملك أكبر مجموعة شعرية شعبية أصيلة بين لغات الهند، «ان حادي العيس في فيافي الصحراء، والزوج المكلوم الذي راح يقف وراء محراثه، ذلك المحراث الذي ان هو الا غصن شجرة انحنى طرفه، ليحفظا عن ظهر قلب أبياتاً وأبياتاً من ذلك الشعر، ينشدانها بين الفينة والأخرى عملاً على قطع ساعات النهار. ان استمرار وشيوع هذا النوع من الأدب الشعبي بين هؤلاء الناس، حتى يومنا هذا، ومنذ عهود هي غاية في القدم، أمر ساعد عليه تجوال أولئك المنشدين والشعراء القبليين عبر البلاد». الا أن أرنست نفسه، لم يستسغ قصائد ذلك التراث الهائل. فهو يقول، «ان الناس لا يحسنون سوى ترداد القوافي والتلاعب بالكلمات حتى ولو كان ذلك على حساب الاتساق المنطقي للأبيات»! هذا ولم يمقت في حياته أمراً كما مقت ذلك النثر «الجاف الممض» الذي جاء في أعمال المفكرين الدينيين من أمثال مخدوم محمد هاشم، الذي ما عتمت شهرة ترجمته لأجزاء من القرآن الكريم الى اللغة السندية ولأول مرة، في مطلع القرن الثامن عشر، تعم الأوساط السندية. انه كلغوي رفض تكرار استعمال الألفاظ العربية والفارسية في هذه النصوص. الا أن سعادته كانت تبلغ الذروة حين كان يصدف قصائد سندية خالصة.

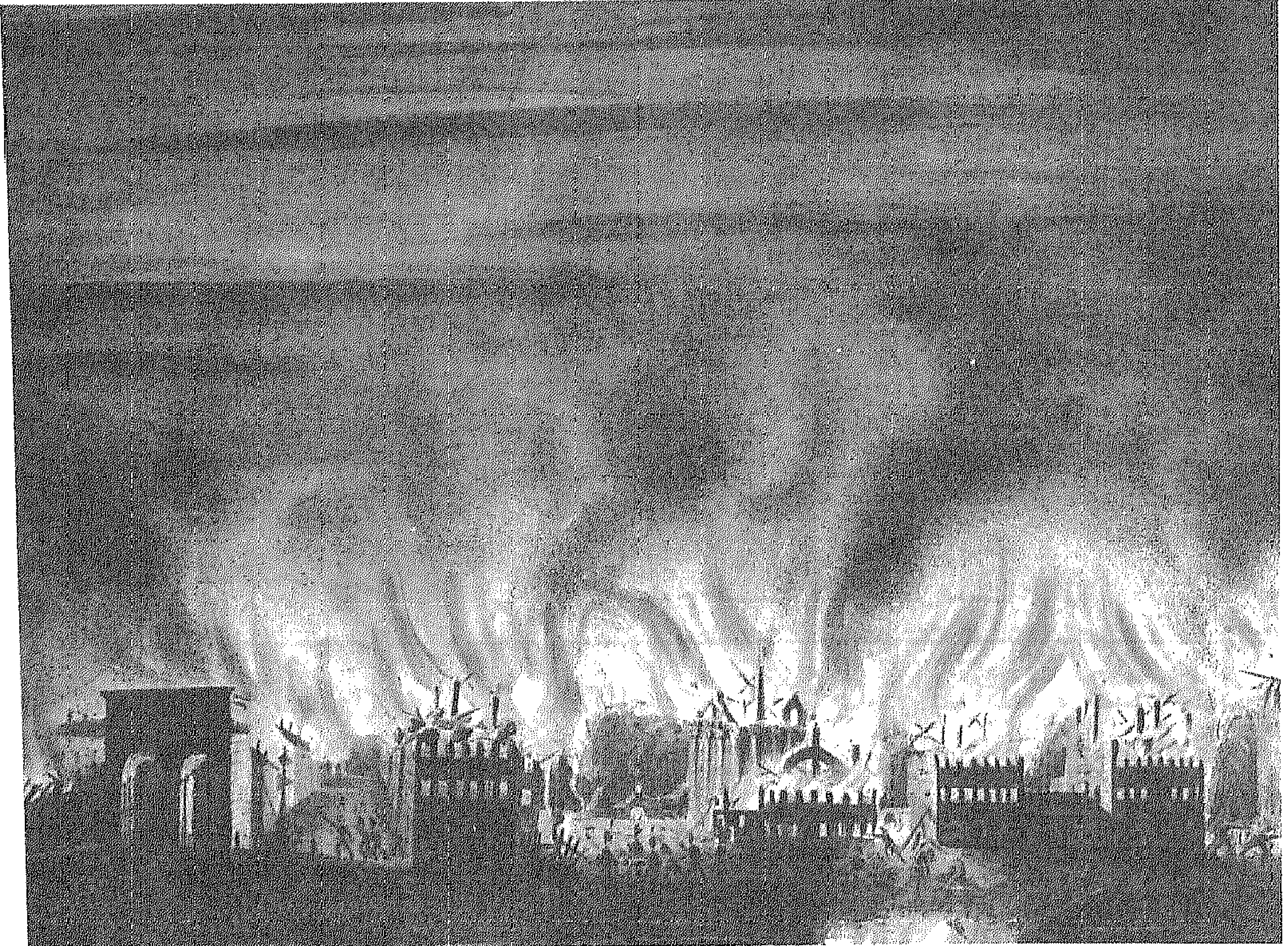
ويعتبر تحقيق «الأعمال الشعرية» لشاه عبد اللطيف، الإنجاز الرئيسي لأرنست في حقل الدراسات السندية. (ان أعمال هذا المتصوف الكبير وشاعر القرن الثامن عشر ما زالت

تستهـوي أفئدة النـاس في مختلف بقاع تلك الديار). ولقد اختار صاحبنا باديء ذي بدء احدى حكايات هذا العمـل الضخم، ألا وهي حكاية «سورات»، وراح يقدم للقاريء الألماني تحليـلاً لها، نشـرته احـدى المجلات العلميـة الألمانية. هذا ويبقى أمر اختياره لهذه الحكاية بالذات، والتي هي أقل أجزاء مجموعة «الرسالو» (Risalo) بهجـة، كما أن نصهـا قـد تشـوه وتقطعت أوصاله مما يصعب علينا فهمه. ثم أنه وكتـوطئة لتحقيق هـذا العمل، والذي اكتملت طباعته في ليبزيك عام ١٨٦٦، فقد ترجم «سر سورات» الى الألمانية. وكان ذلك في سنة ١٨٦٢. ولقد استعمل أرنست، في اخراج هذا الكتاب الى حيز الطباعة، الحروف الهجائية العربية بعد أن أجرى تعديلات طفيفة عليها. غير أن استعمال هـذه الحروف بمـا أجراه عليهـا أرنست من تعديلات، اتفقت وفهمه اللغوي، ليجعل أمر قراءة السنـدية أكثـر صعوبـة على الفـرد السندي المعاصر، علماً بأن حروف الهجاء العربية كان قد شاع استعمالها رسمياً منذ عام ١٨٥٢ في البلاد. ومع هذا فاننا لنتفق مع أرنست «بأن المرء الذي يجهد في قراءة أعمال شاه عبد اللطيف (في أي صورة كانت) سيجد جزاءه متعة يحظى بهـا بقراءة النصوص الجميلة المنتشرة في كل مكان». انه لمن الطريف أن نجد أرنست هنا، وقد أعرب عن استمرائه لشعر شاه عبد اللطيف. فهو في مناسبات أخرى راح يعمم ويصدر الأحكام بأن التناقض والتتابع المخطوء هي من صفات شعر السند. كما أنه اعتقد جازماً بأن ظاهرة التصوف ان هي الا تشويه لحقيقة الإسلام الحنيف متأثراً بعوامل هندية!

وإذا ما كان لأرنست الحق كـل الحق بأن يقول كل ما يريد، فان ذلك لا يعنى بحال أن نوافقه على كل ما يقول. فمما لا ريب فيه لدينا، هو أنه في أحكامه لم يخرج عن منطق ونظرة أولئك المبشرين البروتستنتيين الضيقة، والذين كانوا يرغبون عن أي شكل من أشكال التصوف. فكيف يكون الحال اذن حين راحوا يصدفونه وقد تطور الى أشكال وأنماط شعرية محملة بالرمزية، في ذلك الجزء الشرقي من ديار الإسلام؟ يضاف الى هذا حقيقة أن الالمام بتاريخ ظاهرة التصوف أمر لم يكن شائعاً في عهد صاحبنا. لا ولم يكن استخراج ودراسة المصادر الأولية قد جرى بعد. وما كان قد حقق حتى عهده لم يكن ليمت الى المصادر المتقدمة من تاريخ التصوف بصلة، مما حال دون الدراية بـآراء الكثيرين من أعـلام التصوف الأولين؛ أمثال الجنيد وتابعيه، كما حال دون التمكن من سبر غور التجربة الصوفية. وثمة حقيقة يجب ألا تغيب عن بالنا ألا وهي عدم تبحر أرنست نفسه في دراسة القرآن الكـريم أو تمكنـه من إدراك معانيـه. فهذه الأسبـاب مجتمعة كفيلة بأن تبرر لصاحبنا عجزه وترديه في مرارة الحيرة كلمـا كان يصـدف آية قـرآنية أو نصاً شعرياً تكتنفه الاستعارات والتشبيهات القرآنية. ولم يقف عجزه عند فهم القرآن الكريم فحسب بل امتد في أحيان كثيرة الى الأحاديث النبوية الشريفة الشائعة، هذا ان لم نذكر عجزه عن فهم كتاب «مثنوي» لجلال الدين الرومي.

وكتاب «نحو اللغة السنديـة»، والذي سبق ذكره، يعتبر خاتمة ثمرات أرنست في مجال اللغة السندية. ويضـاهي هذا العمـل كتابـه «نحو الباشتو» الذي تم نشره في سنة ١٨٧٣، والذي يشكـل أنموذجـاً حياً لعقلية أرنست الثـاقبة، وقدرته على فهم أدق دقائق نحو اللغة. هذا على الرغم من ربـطه للباشتـو باللغـات الهنـديـة لا بالإيرانيـة، وهي فكرة مـردودة، عفى عليها الزمان.

وثمة حقيقة تدعو للأسف الشديد ألا وهي أن عدداً من دراساته في لغات بعض قبائل جبال الهملايا ما زال مخطوطاً ولما يخرج الى حيز الطبع بعد. ينسحب هذا القول أيضاً على بحثه في نحو اللغـة النيباليـة. كما أني لعـلى ثقة من أنـه لو تحققت له، فرصة اخراج ذلك البحث، الذي أعرب، في احدى رسائله، عن رغبته الأكيـدة بالكتابة فيه، في اللهجة الإيرانية، لحظينا بأثر هو من الطرافة والقيمة بمكان كبير، ولشكل مدخلاً طيباً لدراسة لفظ اللغة الفارسية، كيف لا وهو الذي كان قد أتقنها في لهجتيها الإيرانية والهندية عن طريق الممارسة. كما قام بتدريسها، في صيف عام ١٨٧٣، في جامعة توبينغن. كمـا لم تكن الملاحظات التي أبداها وقتـذاك علامـة اللغة الفارسية خودسكو (Chodzko) حول لفظ هذه

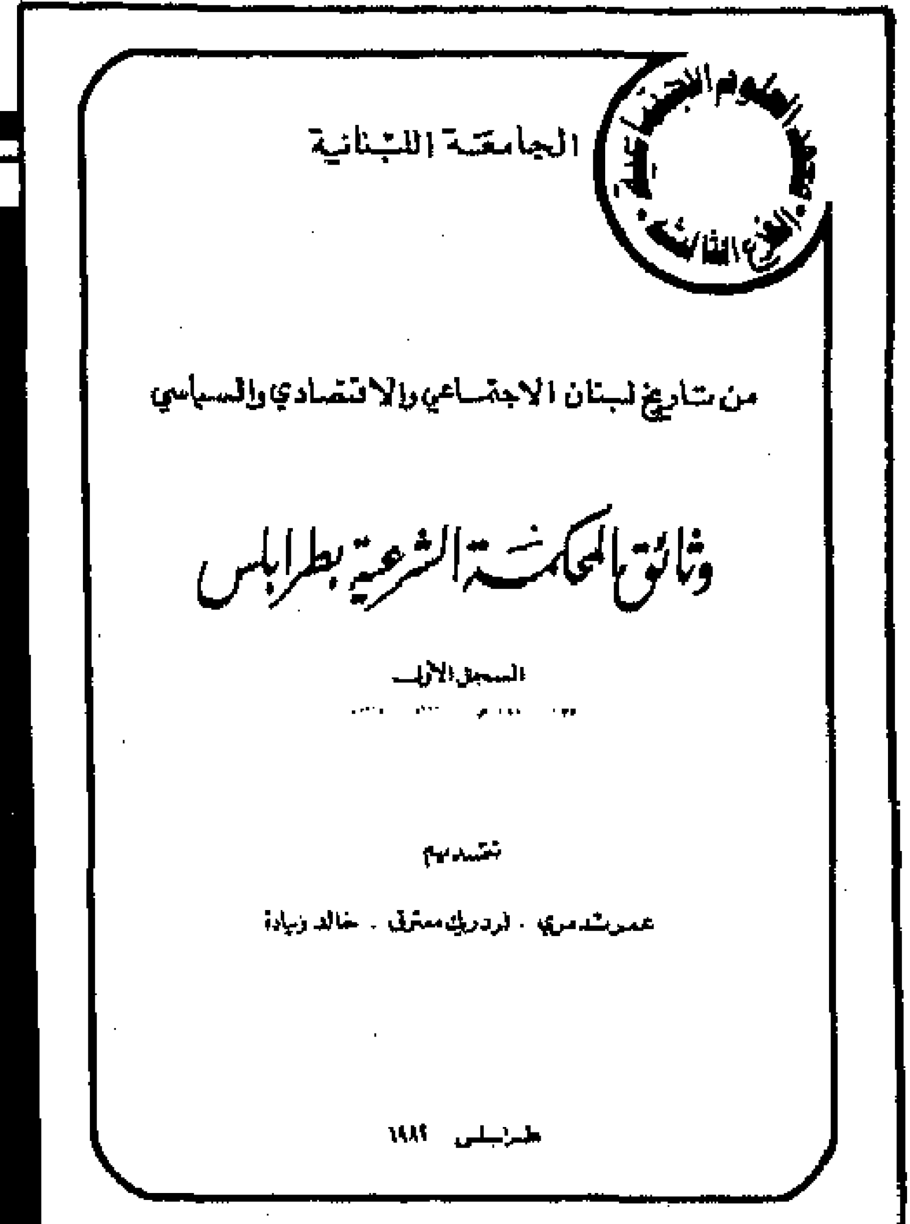


حريق ليوبولد ستراسه ١١ اكتوبر ١٨٤٨، بعد سقوط فيينا بايدي الجيش الملكي.

اللغة لتلقى قبولا أو قناعة لديه. وكان أرنست قد أعرب، في نفس الرسالة، أيضاً عن رغبته في متابعة دراسة نحو لغة البراكريت الوسيطة، أو الهندي القديم، تلك الدراسة التي كانت ستغطي منطقة شمال الهند في العصور الوسطى. وهو عمل لم يضطلع به أحد بعد، رغم مرور مئة عام على محاولة أرنست.

ولا يفوتنا، قبل أن نختتم هذه الترجمة العاجلة لحياة أرنست ترمب الأكاديمية، من أن نذكر أن الجهود التي بذلها، في السنوات الأخيرة من حياته، في دراسة اللغة الأثيوبية، لم تثمر عن نتائج فيها من ابداع وأصالة البحث ما تعودناه منه وماكان من شأن لغات الهند الحية، في منطقة باكستان الغربية على وجه التحديد.

لا ريب بأن مجال الترجمة الكاملة لحياة هذا المستشرق الكبير، والعرض النقدي الشامل لأعماله، هو غير هذا. فلقد انحصر هدفنا هنا في تقديم عرض سريع يتسنى من خلاله للقارىء المهتم التعرف وتكوين فكرة عاجلة عن أبعاد هذا العلامة المبدع، والإنسان المسؤول. لقد تفوق أرنست ترمب كعلامة لغة، ولقد زهد وتواضع في حياته كانسان كان يفضل عزلة العلم عن مخالطة الناس. هذا ولعل فيما كتبه يوم كان في ميونخ، وفي سنة ١٨٧٥ على وجه التحديد، ما يوضح لنا موقفه هذا، فهو يقول: «وحتى هنا، في ميونخ لا أخرج الى الناس ولا أختلط بأحد، وأنا لي الوقت أو القدرة العقلية لمثل ذلك...». ان من عرف عالمنا الكبير عن كثب ليؤكد لنا خصلة الخير فيه وشكيمة التواضع، فهو لم يغتر بعمله لا ولم يتردد في مساعدة المحتاج. لقد قام احساسه بالمسؤولية أصلاً على أساس من حياته الدينية وقوة ايمانه الروحي، ومن وحيها راح يتصرف. ان طبقات المثقفين في السند لن تنسى، ما حييت، فضل هذا العلامة، تماماً كما لن ينسى الهندوس فضل علامة الهندية الألماني ماكس موللر (Müller)، فاليهما يعود فضل السبق في تعريف الغرب على كنوز تراث تلك الديار.



حول وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس

د. حسين سلمان سليمان

أحدث نشر السجل الأول «لوثائق المحكمة الشرعية في طرابلس» ضجة كبيرة في أوساط المحققين والباحثين. فاذا كانت بعض الوثائق، أو الوثائق المتصلة بحقبة من الحقب، قد نشرت من قبل، فان هذه الوثائق تتناول مرحلة طويلة من تاريخ لبنان، بل تاريخ الأقطار المحيطة، في مجالات عدة، خاصة السياسية والاجتماعية، والاقتصادية.

واذا رحب كل الباحثين والمحققين بنشر هذه الوثائق، فقد كان لبعضهم مآخذ على طريقة النشر، مما لا يتصل بجوهر مضمون الوثائق.

ننشر هنا كلمتين حول تلك الوثائق ونشرها، الأولى للدكتور حسين سلمان سليمان، والثانية للاستاذ فاروق حبلص ثم ننشر ردا للدكتور عمر تدمري. وذلك مساهمة منا في تعريف قراء «تاريخ العرب والعالم» بقيمة وثائق المحكمة الشرعية في طرابلس.

شهدت السنوات الاخيرة اهتمام الباحثين والمؤرخين بنشر المصادر الاصلية لتاريخ لبنان الحديث، ولكنه لسوء الحظ يلاحظ المدقق لتلك المصادر المنشورة، ان قلة منها قد انجزت وفقا للاسلوب العلمي لنشر الوثائق والمخطوطات. فاغلب الذين خاضوا في هذا المجال، قد اعطونا عملا مجتزأ ومشوها ومتسرعا، دون ان يكلفوا انفسهم عناء تحقيق هذه المصادر تحقيقا علميا.

فرغم ان تلك الاصول التاريخية تعود الى العصر العثماني، ويغلب عليها استخدام الفاظ واسلوب الكتابة العامية اللبنانية المختلطة بالتراكيب العربية التي كانت سائدة خلال عصر المماليك، لان العثمانيين لم يحاولوا طبع الاراضي بالطابع العثماني، بل نقلوا الاطار الاداري القديم بمصطلحاته العربية الخاصة. لم يكلف الناشرون انفسهم مشقة تفسير تلك المصطلحات الادارية الفنية الخاصة بذلك العصر، بل نشروا المخطوطات كما هي دون شرح، وانما فقط بمقابلتها على نسخ اخرى، بالرغم من اهمية تلك المخطوطات للدارس في تاريخ بلاد الشام في العصر العثماني.

وبدلا من ان يتطور نحو الافضل ــ علم نشر الاصول والوثائق، لاحظنا منذ ما يقارب السنتين

بأنه بدأ يتدهور للغاية، وصار بعض الباحثين ممن لديهم مجموعات من الوثائق، يعمدون الى نشرها كما يرغبون وليس وفقا للمنهج العلمي السليم، وانما متبعين طرائق مختلفة عجيبة. فبعضهم يعمد الى شرح المفردات ضمن قوسين في المتن بدلا من الحاشية، ودون ان يتحقق من صحة الشرح الذي غالبا مايكون خطأ، وبدلا من ان يكتفي بتحديد الموقع الجغرافي لاسماء القرى والمدن التي ترد في النص، يتتبع اصل التسمية في اللغات القديمة وتاريخها والاثار المتبقية فيها وتطور نمو السكان، واضافة القاب التعظيم واوصاف التفخيم لبعض الشخصيات. ووصل الامر بالبعض الاخر الى تصوير الوثائق بحجمها الاصلي، رغم ان بعضها قد يكون مكتوبا في خط يصعب قراءته، ثم يعمد الى جمعها في كتاب ويضعها بين ايدي القراء.

فنشر المخطوطات والوثائق يتطلب تحقيقها، وغاية التحقيق تقديمها للقراء بحرف مطبوع وبصورة صحيحة كما وضعها مؤلفها دون شرح. وانما تكون الشروح والزيادات والمقارنات والترجمات وغيرها في الحواشي او في ملاحق خاصة، وليس في المتن نفسه، مما يساعد الباحث او القارىء على فهم النص وتقويمه في حالة الوقوع في التصحيف.

واذا لم يكن فيما مضى من اهتم بنقد هذه الاعمال، فقد اختلف الوضع الآن وصار لدينا نقاد يقيّمون كل الاعمال الفكرية، التي تطرحها المطابع في الاسواق العربية. واخر ما وصل الينا في ميدان نشر المصادر الاصلية، قيام مجموعة من اساتذة كلية العلوم الاجتماعية في الشمال، باصدار السجل الاول من سجلات وثائق محكمة طرابلس الشرعية العائدة للعصر العثماني، ويغطي هذا السجل الوثائق المدونة لسنتي ١٠٧٧ ــ ١٠٧٨/ ١٦٦٦ ــ ١٦٦٧م.

وحدد الاساتذة الاجلاء الدوافع التي حثتهم على طرح هذه السجلات قيد التداول: تسهيل وضع الوثائق التاريخية بين ايدي الباحثين، بعد ازدياد اهتمام المؤرخين العرب والاجانب ــ في السنوات الاخيرة ــ اعداد دراسات وابحاث اكاديمية على ضوء وثائق المحاكم الشرعية المتواجدة في المدن الاسلامية، الى جانب حفظ هذه الوثائق البالغة الاهمية من التلف الذي اصاب غيرها في بقية المدن الاسلامية. فعلى سبيل المثال، حاولت أثناء اعداد رسالتي للدكتوراه، العودة الى سجلات محكمة صيدا الشرعية، ولكن المسؤولين هناك أفادوني بان السجلات العائدة للفترة التاريخية السابقة لعام ١٧٧٣ قد نهبت، وبان سجلات المراحل التاريخية اللاحقة موجودة في النبطية.

وازاء صدور السجل الاول من «وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس» اجد نفسي ملزما كباحث ان ابرز النواحي الايجابية والسلبية في هذا العمل الى جانب التعليق على ما ورد في المقدمة.

اولا ــ الناحية الايجابية: الوحيدة في هذا العمل، ان الاساتذة الاجلاء ــ ولا نقول المحققين ــ وفروا مشاق وتكاليف الاقامة في طرابلس، لاي باحث يعد دراسة او بحثا يقتضي العودة الى وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس. ولكنه كان بامكانهم تأمين هذا الهدف لو قاموا بتصوير هذه الوثائق مكبرة ووزعوها على مكتبات الجامعات العاملة في لبنان.

ثانيا ــ النواحي السلبية:

(أ) ان الهدف الرئيسي من نشر المصادر الاصلية هو تبسيط وتوضيح وتسهيل وصول المعرفة الى اكبر قدر ممكن من القراء المهتمين بهذا النوع من الدراسات، فلا غنى للانسان باعتباره كائنا اجتماعيا من دراسة تاريخ تطوره وتاريخ اعماله واثاره، ولا يتم ذلك الا بالعودة الى ما تركه لنا الاجداد من اعمال فكرية وعمرانية. فالطريقة التي تم بها اصدار هذه الوثائق بعيدة كليا عن تحقيق هذه الغاية، ولم تجر وفقا لما تقتضي الشروط العلمية المتوجب توفرها عند نشر المصادر الاصلية. صحيح انهم ابقوا النصوص الوثائقية كما هي، ولكنه كان يتوجب عليهم ان ينشروها بحرف مطبوع، لكي تعم الفائدة الجميع فلا تبقى محصورة في فئة ضيقة للغاية، فقلة نادرة للغاية من القراء هي التي سوف تستطيع قراءة هذه الوثائق، التي لا تزال مدونة بأسلوب الكتابة الذي كان سائدا في القرن السابع عشر.

(ب) فهم النصوص التاريخية يوجب على القارىء معرفة لغة العصر الذي دونت فيه هذه النصوص، ذلك ان اللغة كائن حي ينمو ويتغير ويتطور تبعا لظروف المكان والزمان واختلاط الثقافات، فقد يدل اللفظ اللغوي على معنى محدد تماما، ومن الممكن ان يدل على معان نسبية او متغيرة او متضادة فمن اهم الواجبات الملقاة على عاتق الذين يقومون بنشر المصادر الاصلية، ان يقوموا بالكشف عن المعاني الغامضة وهو امر تجاهله الاساتذة الاجلاء، فهذه النصوص الوثائقية تعود الى ما يقارب الثلاثمئة سنة، وهي ذات ألفاظ وأسلوب في الكتابة العامية اللبنانية المختلطة بالتراكيب العربية، تخالف تماما الالفاظ والمصطلحات السائدة في الوقت الحاضر. فالقارىء ليس مضطراً العودة الى معاجم التفسير كلما استعصى عليه عبارة، فمن واجب من يقوم بنشر المصادر الاصلية ان يزيل اي غموض قد يعترض القارىء عن طريق تزويد النصوص بحواشي في اسفلها لشرح المفردات والتعابير والمصطلحات الغامضة، او على الاقل ان ينظم بها ملحقا يزود به المصدر المنشور.

(ج) خلت «وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس»، من عناوين موجزة تشير الى محتويات النص التاريخي، فالباحث عن موضوع معين ليس مضطرا أن ينقب في محتويات مئة واربعة وخمسين صفحة، مصور عليها وثائق مدونة باسلوب كتابة لم يعد سائدا، ويتطلب الاستفادة منها الجهد والصبر والوقت، وكنا نتمنى لو قاموا بتنظيم كشاف لرؤوس موضوعات وثائق السجلات المذكورة، لكانوا بذلك قدموا للباحثين خدمات جلى واغنوا المكتبة العربية.

(د) كان من المتوجب على الاساتذة الاجلاء ان يزودوا السجل الاول المذكور بفهارس للاسماء والاماكن، وطالما يستشهدون بمن سبقهم في هذا المجال مثل د. عبد العزيز نوار(١) ود. عادل اسماعيل فلماذا لم يحتذوا بهما؟

ثالثا ــ ورد في الصفحة رقم (و) من المقدمة ما يلي: «من الواضح ان الوثائق الاوروبية عامة، تعنى بالدرجة الاولى، بالمصالح الدبلوماسية، والتجارية، قبل اي شيء اخر، هذا اذا لم تشر الى نزعة العداء التي تفصح عنها هذه الوثائق».

يبدو لي من خلال ما ورد اعلاه، ان الزملاء الكرام لم يتمعنوا في دراسة «الوثائق الدبلوماسية والقنصلية» التي يقوم بنشرها الدكتور عادل اسماعيل ــ (صدر منها ٢٨ جزءا حتى الان). وانما اقتصرت مطالعتهم لحيز ضيق للغاية منها، واني لعلى يقين تام بانهم لم يكلفوا انفسهم بقراءة هذه المجلدات التي تتضمن التقارير الفرنسية الصادرة عن قنصلية طرابلس، والا لما اصدروا هذا الحكم عليها. ولكن لنا نظرة مخالفة لذلك تماما، فمن المتعارف عليه لدى الباحثين ان الحقيقة التي يصل اليها المؤرخ هي حقيقة صحيحة نسبيا، وكلما زادت نسبة الصدق فيها اقترب التاريخ من ان يصبح تاريخا بالمعنى الصحيح في حدود امكانه. ولا يمكن الوصول الى ذلك بالعودة الى مصدر واحد، وانما من مصادر متعددة اصلية، كلما كانت معاصرة للفترة موضوع البحث كلما ثبت صحتها وصحة معلوماتها، خاصة اذا كانت أصولاً ووثائق ومراسلات مستخرجة من دور الارشيف التاريخية، وثبت انها غير مزيفة، وان معلوماتها صحيحة، وانه لم يسبق نشرها، او على الاقل لم يسبق استخدامها بدرجة كافية. والمراسلات الدبلوماسية الصادرة عن المراكز القنصلية الفرنسية التي كانت متواجدة في بعض مدن الساحل والداخل السوري، والتي قام بنشر الجانب الاكبر منها حتى الان د. عادل اسماعيل، متابعا عمله باستمرارية ملحوظة، تنطبق عليها هذه الشروط، ولقد تحقق لنا ذلك من خلال تعاملنا لسنوات طويلة مع هذه المراسلات سواء ما نشر منها ام ما لم ينشر بعد، ومقابلتها ببقية الاصول والمصادر والمراجع، التي تغطي تاريخ بلاد الشام الجنوبية للفترة التاريخية الممتدة من مطلع القرن الثامن عشر ولغاية اواخر الربع الاول من القرن التاسع عشر، ويعود ذلك للاسباب التالية:

١ ــ هذه المراسلات في الاصل تقارير سرية، صادرة من المسؤولين في القنصليات الفرنسية التي كانت متواجدة في مدن الساحل والداخل السوري، الى رؤسائهم في باريس ومرسيليا. فقد كان من اهم واجبات موظفي القنصليات

المذكورة، ارسال تقارير دورية عن كل ما كان يجري في الدائرة التابعة لهم، سواء عند حالة التجارة والملاحة او الاوضاع السياسية.

٢ ــ اجادة القناصل للغة وعادات البلاد التي يعملون بها، والكثير منهم نشأ وتربى في المشرق، وتدرب على مختلف الاعمال القنصلية، وتنقل باستمرار من ولاية لاخرى لاستكمال معارفه، وحين تبرز كفاءاته كان يرشحه رؤساؤه لمنصب نائب قنصل او قنصل، وفي مكتبتي العديد من الوثائق التي تؤكد ذلك:

«... **اقترح ان يعين لولاية عكا قنصل واحد يقيم في بيروت، ارشح لهذا المنصب السيد (ديبون)، الذي يجيد لغة البلاد، وهما امران يكفيان لتسهيل اعماله، كما ادار سابقا بشكل مرض نيابة قنصلية اللاذقية...**»[٢].

«... **وصلنا تحريركم المتضمن موت والدكم فونسلوس طرابلس، وان بحسب القوانين المرتبة من جانب دولتكم ملتزمين تنوبوا بمكان والدكم وتتعاطوا وكالة القونسلية وابقيتم اخيكم في اللاذقية وكيلا بمكانكم والتمستم من طرفنا المساعدة جميع ذلك صار معلومنا...**»[٣].

٣ ــ كانت تربط القنصل الفرنسي علاقة وثيقة مع امراء جبل الدروز، مما كان يجعله على صلة دائمة بهم، فالامر يؤمن الحماية لسماسرة التجار الفرنسيين الذين كانوا يتنقلون في ارجاء الجبل لشراء محاصيل القطن والحرير من المنتجين الرئيسيين، في حين كان القنصل يستطيع بما له من نفوذ لدى سلطات الولاية، تجنيب الجبل ان امكن ويلات الحملات الحربية، حين تسوء العلاقة بين الامير الحاكم وباشاوات الولايات المتجاورة وهذا كان يتيح للقنصل معرفة كل ما يجري في الجبل وعواصم الولايات من تطورات سياسية، وفي حوزتنا الوثائق التي تثبت ذلك.

«... **الاحوال الكافية في هذه الاطراف كونها لم هي خافية مسامع سعادتكم، وان اقتضى توضيحها في ديوان سعادتكم فحضره افتخار امرا المسيحية وعمدة طايفة الفرنساوية جناب محبنا قنصل بك منصوب الدولة العلية**

في ايالت صيدا الذي هو في كمال فراسته وفهمه حاوي معرفة ساير الامور بالتدقيق ولم خافيه شيء فيقررها الى سعادتكم...»[٤].

«... **حضر الى عندي جميع نصارى كسروان لوقف الحملة التي تعد لاجتياح الجبل خشية تدمير الكنائس والاديرة في بلادهم... قمت بكل الجهود الممكنة لمنعه (اي سليمان باشا العظم والي دمشق) من تحقيق هدفه وجعل باشا صيدا يميل نحو السلم... واحاطته الامير علما عندما يسير بقواته للقاء والي دمشق...»**[٥].

٤ ــ تعطي هذه التقارير تفاصيل وافية عن كل التطورات السياسية التي شهدتها بلاد الشام، وتحدد تاريخها بدقة في اليوم والساعة احيانا «... عند الساعة التاسعة اختفى جميع خيالة الدولة الذين كانوا في السهل والجبل، واستولى ظاهر (اي العمر الزيداني) على المدافع والخيم وجميع امتعة الفارين... لم نكن نشاهد الا اناسا يفرون واخرون يطاردونهم...»[٦]، علماً بان القنصل الفرنسي كان له دور في بعضها. وطالما ان الحديث عن «الوثائق الدبلوماسية» وعن وثيقة تتحدث عن مصطفى اغا بربر، فسوف استشهد ببعض النصوص من «الوثائق» المذكورة، والتي ايضا تغطي التطورات السياسية التي رافقت تمرده في قلعة طرابلس، والتي لعب بها القنصل الفرنسي في طرابلس دورا بارزا، وفيما يلي حديث القنصل المذكور.

«... **طلب مني الباشا (اي يوسف باشا كنج والي دمشق) ان امده بخبراء مدفعية من قبرص، واسرع دينيو (قنصل فرنسا في قبرص) بارسال احدى عشر خبيرا بقيادة ضابط... علمنا من الفارين من القعلة... بانها تتلقى بدون انقطاع اعدادا كبيرة من المواشي...»**[٧].

«... **شاهدنا في السادس عشر من كانون الاول (ديسمبر) ضباطا يعلنون رحيل الباشا من المعسكر الذي اقامه على بعد سبع ساعات من طرابلس...»**[٨].

«... **وجدنا بها (اي قلعة طرابلس) مئتي برميل من البارود في حالة سليمة...»**[٩].

«... **المدافع التي نشاهدها حول الاسوار في فجوات تشبه الابواب...»**[١٠].

٥ ــ تزودنا بتفاصيل وافية عن الصراع على السلطة الذي كان ينشب بين باشاوات الولايات الشامية، والانعكاس الذي كان يتركه على عصبيات المنطقة.

«... **انتشار انباء متباينة في طرابلس بان يوسف باشا سوف تسند اليه ولاية حلب بالاضافة الى ولاية طرابلس، في حين يؤكد اخرون بان الباشا المذكور، يسعى لان تسند اليه ولاية حلب بدلا من دمشق... وبان انصار بربر وحاميه سليمان باشا يسعون لاجل ان يجمع الاخير تحت سلطته ولايتي طرابلس وصيدا...»**[١١].

٦ ــ تغطي المراسلات الدبلوماسية الفرنسية فجوة كبيرة في التاريخ الحديث لبلاد الشام الجنوبية، بسبب اختفاء الجانب الاكبر من الوثائق والحوليات والتراجم، التي كانت تغص بها مكتبات العائلات اللبنانية. سواء لاسباب سياسية امنية، او نتيجة الجهل بمقدار اهميتها فبيعت كسقط المتاع لاغراض رخيصة، او اخفيت لاسباب محلية او شخصية. وما تبقى من تلك الحوليات والتراجم ينقص اكثرها الصدق والدقة، وبعضها كتب في فترات لاحقة للمراحل التاريخية التي تروي احداثها. ويتفق اكثر الذين درسوا الحوليات اللبنانية ان مصدرها واحد، وقد نقل بعضهم عن البعض الاخر كما شبههم الدكتور عادل اسماعيل بقوله: «... داروا حول مائدة واحدة ومدوا ايديهم الى صحن واحد...»[١٢].

٧ ــ تصحح المراسلات الدبلوماسية وتكمل وتوضح اخطاء تاريخية كثيرة وردت لدى كتاب الحوليات، وسوف اكتفي بايراد بعض الامثلة على ذلك:

(أ) ارخ كتّاب الحوليات اللبنانية اسباب وتفاصيل معركة عين دارة سنة ١٧١١[١٣]، على عكس ما ورد في تقرير القنصل الفرنسي في صيدا المعاصر لهذا الحدث، كما نقرأ ذلك في المجلد الاول من سلسلة «الوثائق الدبلوماسية»[١٤].

(ب) خلاف الامير ملحم الشهابي (١٧٢٩ ــ ١٧٥٤) مع والي دمشق، اسعد باشا العظم عام ١٧٤٥، وقد ذكرها خطأ الامير حيدر

حالا اوليبي [illegible] ولدو غمز ايالت طرابلوس غربه ملحقاتندن اولان مقاطعه صافقا ناحيه سني بالالتزام مسطور و مقيد [illegible] سنك مارتي

اولان عوائد قديمه و رسومات سائره ايله التمش بيك تمشيه سنه سنك مارتي ابتداسندن تنكدبك [illegible]

ابتدا سنه وار [illegible] سنه تمامنه دك ضبط ايتمك اوزره اوده بش بيك [illegible] غروش زه ورلوب

قدوة الاماثل والاقران شيخ محمد و شيخ زيدان [illegible] ايله رضا [illegible] اولان

ور [illegible] سنه مزبور مارتي ابتداسندن سنه تمامنه دك ضبط و تصرف ايتمك اوزره اوده [illegible]

بيك [illegible] غروش [illegible] اولنوب مزبوران [illegible] التزام و قبول ايلديلر مزبورلر [illegible] و اغلر

[illegible] مال مذكوري [illegible] ايدوب جمله اموال و [illegible] ما [illegible] مقاطعه

متعهد [illegible] اولنوب [illegible] مقاطعه [illegible] اموال

مزبوري ضبط و تصرف ايدوب [illegible] تعرض ايلمیوب [illegible] ايليه

[illegible] اوله مزبوران طرابلوس غرب خزينه سنه

عليه [illegible] ايصال و تسليم ايلمكه [illegible] اولوب مال [illegible] متعلق خصوصات

[illegible] مقاطعه مزبوره رعايا و برايانك حمايت و صيانتنه [illegible] اولوب

مقاطعه [illegible] ايتمكه [illegible] مقيد [illegible] منع و رفع [illegible]

ايلمكه [illegible] احتراز اوزره اولوب مال مذكوري [illegible] زمانی [illegible]

وما عدا [illegible] سنه تمامنه [illegible] مقدمه [illegible] طرابلوس غرب خزينه سنه ادا و تسليم

ايليه [illegible] تسليمنه [illegible] اولدقده [illegible]

تذكره [illegible] محاسبه [illegible] قطع علاقه [illegible] اولوب [illegible] لازم

ايدر [illegible] تحريراً في غرة [illegible] الواقع ١٥ شهر رمضان المبارك لسنه [illegible]

الشهابي(١٥) عام ١٧٤٣ كما اخطأ ايضا في اسم الوالي.

(ج) تحالف زعماء الدروز مع الاميرين الشهابيين سيد احمد وافندي ملحم ضد شقيقهما الامير يوسف، ويؤرخ حيدر الشهابي(١٦) وكذلك طنوس الشدياق(١٧) الحادثة عام ١٧٨٢، كما يذكران السبب في هذا الخلاف هو الضريبة التي فرضها الامير يوسف الشهابي (١٧٧١ — ١٧٩١) على بيوض دود القز «ضريبة البزرية». وقد اتفق معهما حسين يوسف ابو شقرا(١٨) في تحديد تاريخ الحادثة وخالفهما في الاسباب، ذاكرا بانها بسبب «ضريبة الشاشية»(*). في حين نجد في «الوثائق الدبلوماسية» بان الخلاف لم يكن للاسباب التي ذكرها المؤرخون الثلاثة، وبأن هذا الخلاف بدأ في اواخر عام ١٧٨٠ وتطور عام ١٧٨١ كما اشار الى ذلك القنصل الفرنسي الشاهد المعاصر لهذه الاحداث والمتتبع اسبابها وتطوراتها(١٩).

هذه الامثلة ان هي الا نماذج بسيطة للاخطاء التي نجدها في الحوليات، والتي يقع فيها اي باحث يعتمد فقط على ماتورده هذه الحوليات والتراجم، دون الرجوع الى الوثائق التي دونها معاصرون بصرف النظر عن هوياتهم، والتي لا توفرها لنا سوى المراسلات الدبلوماسية.

٧ — الكتابة عن الاوضاع التعليمية المحلية او الاجنبية لا توجد في توسع كما توجد في «الوثائق الدبلوماسية».

٨ — المعاهدات والاتفاقات وصلتنا عن طريق التقارير الدبلوماسية بصورة خاصة، وهذه تكاد تكون معدومة في غير هذه المصادر.

٩ ــ صحيح ان للسفير او القنصل في بعض الأحيان وجهة نظر، لكنه من الضروري أن نعرف وجهة نظره، فاذا تكلم سفير اوقنصل فرنسي عن النصارى وكان موقفه مناقضا لمواقفهم، فهذا يعني ان لرأيه قيمة، وان كان في بعض الاحيان يمكن اخذها بعين الحذر عند كلامه عن طوائف اخرى، وتعدد وجهات النظر امر ضروري لكتابة التاريخ.

١٠ ــ تزودنا التقارير الدبلوماسية بمعلومات عن الحالة الدينية وتوزيع الطوائف في مختلف انحاء المقاطعات الشمالية والجنوبية وقدرات كل منها.

١١ ــ تضمنت عشرات الاحصاءات عن حجم ونوع السلع المصدرة والمستوردة، وانظمة البيع والشراء، واسباب تحول السكان عن انتاج احدى السلع الزراعية الى غيرها. علما بان العديد من التقارير كانت قد دونت استجابة لاستفهام المسؤولين في باريس ومرسيليا عن شؤون استراتيجية في بلادنا، وقد حرص السفراء والقناصل على نقل الحقيقة كما لمسوها، الى حد انهم يؤكدون احيانا ما ينقلون لرؤسائهم.

واخيرا، استطيع التأكيد باننا لايمكننا الاكتفاء بسجلات المحكمة الشرعية «كمصدر شبه وحيد» لاني لا اعتقد بانها تتضمن كل شيء، فهذا ما يرفضه كل منطق، وان نشر الوثائق المحلية ــ لكن بشرط ان يتم ذلك وفقا للاسلوب العلمي ــ الى جانب الاجنبية يعطي هذا العمل مادة كاملة لاعادة كتابة تاريخ هذه البلاد.

وفي الختام، لايسعني سوى ان اوجه شكري للزملاء الكرام، راجيا ان يتسع صدرهم لهذه الملاحظات، والعمل على اعادة النظر في منهجية اسلوب هذا النشر خدمة للعلم والتاريخ. ●

الهوامش

※ الشاشيه: ضريبة استحدثها الأمير يوسف الشهابي على مشايخ الدروز، بأن وزع شاشات للف العمائم وفرض عليهم شرائها بالسعر الذي حدده.

(١) خالد زيادة، عمر تدمري، فردريك معتوق: من تاريخ لبنان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس، السجل الاول ١٠٧٧ ــ ١٠٧٨هـ/ ١٦٦٦ ــ ١٦٦٧م، منشورات الجامعة اللبنانية، طرابلس، ١٩٨٢.

(٢) ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية، المراسلات التجارية والقنصلية مجموعة (C.C.C. Constantinomple) مجلد رقم ٨٣، تاريخ ١٨٢٧/٩/١٣، رقم ٤٥.

(٣) رسالة من سليمان باشا والي صيدا (١٨٠٥ ــ ١٨١٩) الى شارل غينر قنصل فرنسا في طرابلس، أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة المراسلات السياسية (C.p. Turquie) مجلد رقم ٣٢ تاريخ / ٢١ شوال ١٢٢٧هـ.

(٤) رسالة من امير جبل الدروز يوسف الشهابي (١٧٧١ ــ ١٧٩١) الى ملك فرنسا لويس السادس عشر (١٧٧٤ ــ ١٧٩١) من مجموعة دار الوثائق القومية في باريس (A.E.B1)، مجلد ١٠٣٦، قنصلية صيدا.

(٥) رسالة من القنصل الفرنسي في صيدا الى رؤسائه في باريس، مترجمة من الباحث، دار الوثائق القومية في باريس مجموعة (A.E.B1 Seyde) مجلد رقم ١٠٢٤ تاريخ ١٧٣٧/٢/١١.

(٦) رسالة من القنصل الفرنسي في صيدا الى رؤسائه في باريس، مترجمة من الباحث، دار الوثائق القومية في باريس، مجموعة (A.E.B1 Seyde) مجلد رقم ١٠٣٥ تاريخ ١٧٧٢/٦/٢٨.

(٧) A.Ismail, A, Documents... t.4. pp. (162-164).

(٨) ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية، مجموعة المراسلات التجارية والقنصلية (C.C.C. Tripoli: Le Nivose an 14 (25/12/1805))، مجلد رقم ١٣.

(٩) A. Ismail. Op.Cit., t. 4. pp. (202 et 361).

(١٠) Ibid. p. 165.

(١١) Ibid. p. 219.

(١٢) عادل اسماعيل: «تاريخ لبنان تغيرت المائدة والصحن»، جريدة النهار، تاريخ ١٩٧٧/٦/٥.

(١٣) الامير حيدر الشهابي: الغرر الحسان في أخبار ابناء الزمان، مخطوط نشره اسد رستم وفؤاد افرام البستاني تحت عنوان «لبنان في عهد الامراء الشهابيين، بيروت، الجامعة اللبنانية، ١٩٦٩ ٣ اجزاء، انظر ج ١ ص (١٣ ــ ١٤).

(١٤) A. Ismail. Op.Cit., t. 1 pp. (88-101).

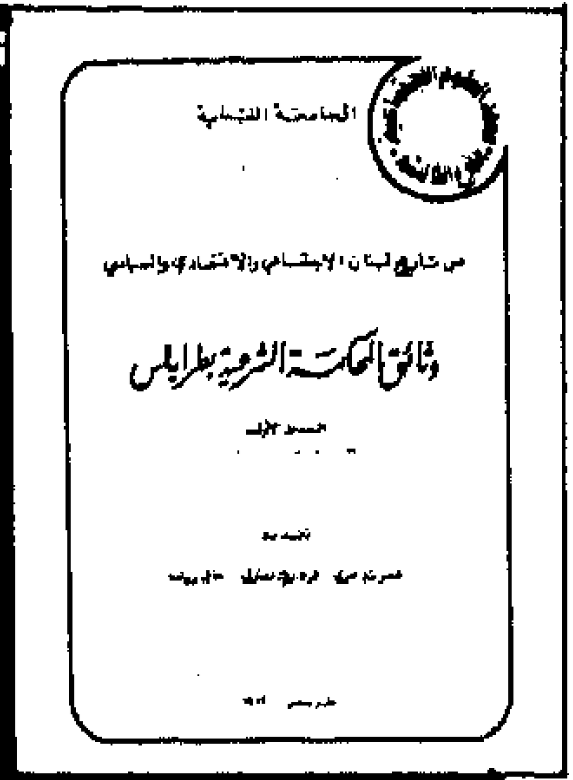
(١٥) الغرر الحسان، مصدر سابق، ص ٣٢.

(١٦) المصدر نفسه، ص (١٢٧ ــ ١٢٩).

(١٧) اخبار الاعيان في جبل لبنان، نشره فؤاد افرام البستاني، بيروت، الجامعة اللبنانية، سنة ١٩٧٠، جزءان، انظر ج ٢، ص ٣٤٠.

(١٨) الحركات في لبنان الى عهد المتصرفية، (لا.ب)، ١٩٥٢، انظر ص ٢٢.

(١٩) A. Ismail. Documents... op.cit., pp. (381-384).



أرشيف المحكمة الشرعية في طرابلس

فاروق حبلص ماجستير في تاريخ لبنان الحديث

عندما تشتدُّ المحن على الأمم، تنبري أقلام المفكرين على اختلاف مذاهبهم واختصاصاتهم، لتفند أسباب المحنة، وتخط الحلول المختلفة، أملاً في الوصول إلى شاطىء الخلاص وبر الأمان. وفي الآونة الأخيرة، بدا للعديد من المؤرخين، أن تسليط الأضواء على تاريخنا الاجتماعي والاقتصادي، من شأنه الكشف عن الجذور التاريخية العميقة لمسار تطور تاريخ بلادنا، وإزاحة الستار عن خلفيات مشاكلنا ومعضلاتنا الاجتماعية المستعصية، تمهيداً لاستئصالها من جذورها وتخليص المجتمع من براثن شرورها ومضار آفاتها. ومع تزايد عدد أتباع هذه المدرسة، تزايدت عملية التفتيش عن وثائق وأصول تكون الدعامة الأساسية لآرائهم، والمصادر الرئيسية لاستقصاء مادة حديثهم وكتاباتهم. ولما كانت سجلات المحاكم الشرعية، الموروثة عن العهود العثمانية، تضم العديد المنوع من وثائق التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فقد احتلت المركز الأول في سلم اهتمامات المؤرخين والباحثين الذين انكبوا عليها يستقرئون وثائقها لترفد أبحاثهم بدقائق الأمور وحقائق الوقائع. فظهر العديد من الدراسات التاريخية التي اعتمدت سجلات محاكم حلب ودمشق وصيدا، وكان من المبرزين في هذا المجال الدكتور انطوان عبد النور والدكتور عبد الكريم رافق.

ولم تنل محكمة طرابلس الشرعية قسطاً من الاهتمام كما نالت مثيلاتها في سائر مدن بلاد الشام، إلّا في السنوات الأربع الأخيرة، على أيدي طلبة الدراسات العليا في التاريخ. فقد قام بعض هؤلاء الطلبة باكتشاف المادة التاريخية الغزيرة التي تحويها سجلات هذه المحكمة، وتمكنوا بهدي وإرشاد الأساتذة المشرفين على رسائلهم، من رسم خطة واضحة لكيفية الاستفادة من هذه السجلات، فأتت أبحاثهم ناجحة، ونالت تقدير الجامعة اللبنانية التي منحتهم الشهادات العلمية نتيجة عملهم هذا. وأذكر في هذا المجال دراستي: «تاريخ طرابلس الاجتماعي والاقتصادي ١٨٩٠ ــ ١٩١٤»، ودراسة قاسم الصمد: «تاريخ الضنية»، ودراسة أنيس الأبيض: «الحركة العلمية في طرابلس»، ودراسة محمد جابر حسين: «مرفأ طرابلس في النصف الأول من القرن الثامن عشر». وتجدر الاشارة هنا، إلى أن سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس، لفتت اهتمام الدكتور أسد رستم، فأخذ صوراً عن السجل ٤٨ وأودعها مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، وهي لا تزال محفوظة فيها تحت رقم (Ms. 956. 9BLLLbA)؛ كما أن أغناطيوس الخوري قد اطلع على جزء يسير من هذه السجلات إبان كتابته تاريخ بربر آغا متسلم مدينة طرابلس (١٨٠٠ ــ ١٨٣٣م).

وعندما كنت عام ١٩٧٩ بصدد تحضير شهادة الماجستير حول تاريخ مدينة طرابلس، طلب مني الدكتور المشرف آنذاك، سمير الصيقلي، الذهاب إلى المحكمة الشرعية في المدينة، والتنقيب في سجلاتها القديمة العثمانية. فلبيت الطلب، وأطلعت على السجلات ولمست تردي حالتها، ورأيت وجوب العمل على انقاذها، لما وجدت فيها من معلومات تاريخية قيمة. فرأيت في الحاج فضل المقدم، الرجل المقدام لمثل هذه

المهمة، وبادرته الحديث بشأنها، فأبدى الغيرة والهمة اللازمتين، فرصد قيمة ألف ليرة لبنانية، ووعد بمبالغ أخرى يجمعها من ذوي الغيرة لتغطية نفقات المشروع. ثم تباحث مع رئيس المحكمة الشرعية فضيلة الشيخ ناصر بصفته المسؤول الأول عن السجلات، وبدوري طرحت عليه الفكرة، فأظهر اهتماماً واستعداداً للمشاركة في تأمين مستلزمات المشروع. وأخيراً عمل الحاج فضل ياسين المقدم على تشكيل رابطة إحياء التراث الفكري في مدينة طرابلس، للعمل على انجاز المشروع، وكانت له رئاستها، وللأساتذة د. عمر تدمري؛ وفريدريك معتوق ود. خالد زيادة عضويتها. فباشرت العمل في الصيف الماضي، وأنجزت تصوير قسم لابأس به من السجلات. وبعد ذلك تولى معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية الفرع الثالث، مهمة نشر مئات النسخ عن مصور السجل الأول، على شكل مجلد يضم مقدمة من وضع الدكاترة الثلاثة المذكورين، ووثائق السجل رقم ١. إلا ان هذا العمل لم يأت بالنتيجة المتوخاة؛ ونظراً لافتقاره إلى التدبير والتخطيط والاطلاع المسبق على محتويات السجلات، فقد اقتصر فقط على تصوير الوثائق وتجليدها على نحو ما هي عليه في السجلات الأساسية، حتى دون فهرستها. فالسجلات تحتاج إلى المزيد من الترتيب، حيث تتيسر الاستفادة منها على غرار ما نجده في سائر دوائر المحفوظات والأراشيف. فهي تنتظر قيام الذين عمقوا إطلاعهم في وثائقها بتصنيفها مجدداً بصورة مختلفة عما هي عليه، ولكن دون إلحاق الضرر بتسلسلها التاريخي. فتعطي كل فرمان مثلاً عنواناً يحمل اسم موضوعه، ثم تصنف الفرمانات والبيورلديات[1] الواردة في كل سجل في جزء واحد يحمل رقم هذا السجل، وتجمع الأجزاء كلها في مجلد واحد يأخذ إسم (مجلد الفرمانات والبيورلديات)، ثم يختتم المجلد بفهرسته للموضوعات. وهكذا يصار إلى العمل بشأن الحجج الأخرى، فتتضح المعلومات الواردة في هذه السجلات، ويسهل على الباحث الوصول إليها بالسرعة اللازمة والاستفادة منها، وإلا ما فائدة تصويرها؟. وكذلك يصار إلى شرح المفردات العامية التي ترد في وثائق هذه السجلات، وإعطائها مدلولاتها الحاضرة، حتى لا يقع الذين ينوون الاطلاع عليها في إشكالات تفسيرها.

ولكن ما هي محتويات أرشيف المحكمة الشرعية في طرابلس، وماذا تضم من مادة تاريخية لتمثل هذه الأهمية لدى المؤرخين والباحثين؟

كان أرشيف المحكمة الشرعية في طرابلس يحفظ كامل السجلات العائدة لفترة الحكم العثماني والمتعلقة بالمدينة وملحقاتها. إلا ان القسم الأكبر منها قد التهمته ألسنة اللهب أثناء حريق السراي الحكومي عام ١٩٧٦، فلم يبق منها إلا النذر القليل. وقد ذكر لي الشيخ عبد اللطيف الرفاعي، أحد موظفي المحكمة الشرعية في طرابلس، أن عدد سجلاتها قبل حريقها كان يفوق الحصر؛ كما شاهدت بأم عيني قسما كبيرا من السجلات المحروقة. وبفضل المولى عز وجل، استطاع بعض موظفي المحكمة الشرعية الغيورين، إنقاذ قسم كبير منها، فساهموا بذلك بأعظم ما يمكن أن يقوم به المحافظون على التراث، ونالوا التقدير والشكر والاكبار من طلبة العلم.

وسوف نسلط الأضواء على ما تبقى من هذه السجلات. فقد بقي منها (١٠٤) سجلات تغطي معظم مراحل تاريخ المدينة في المرحلة الممتدة بين الأعوام (١٠٧٧ ــ ١٣٣٩هـ) ــ (١٦٦٦ ــ ١٩١٨م)؛ هذا بالاضافة إلى سجل اعلامات الطلاق والدعاوي العائلية لسنة ١٣٢٧هـ ــ ١٩٠٩م وسجل الإذنامات الشرعية للأعوام ١٣٣٤ ــ ١٣٤١هـ. تتضمن هذه السجلات حججاً متفرقة متنوعة تتعلق برعايا الدولة العثمانية في طرابلس على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم، وتشرح أمور الطلاق والميراث والزواج والتوكيل والوقفيات وايجارات الأملاك المبنية والعقارات الزراعية والقسمة والافراز والبيع، هذا بالاضافة إلى ما تتضمنه من فرمانات وبيورلديات، وهي عبارة عن قوانين ومراسيم صادرة عن الباب العالي والمشيخة الاسلامية وولاة طرابلس. كما نجد فيها فرمانات تعيين الموظفين على اختلاف فئاتهم ورتبهم. وقد جاءت هذه الوثائق على تنوعها مبعثرة بين صحائف

السجلات دون أي ترتيب أو تصنيف. فقد نجد حجة إبراء فحجة بيع فحجة قسمة فحجة بيع، فحجة طلاق فحجة تحرير تركة، وقد يتوسط هذه الحجج حجة التزام أو فرمان أو ببورلدي. كما نجد هذه الحجج مذيلة بامضاء أصحاب العلاقة وبتصديق الشهود، مما يدل على أنها كانت تدون تباعاً، ولدى صدورها مباشرة، خاصة، وأنها احتفظت بأرقام تسلسلها في السجلات. فلو كان تدوينها يتم في وقت لاحق لصدورها، لوجدناها مصنفة على الأقل(٢). وقد نجد أحياناً فرماناً صادراً بتاريخ معين ومدونا في السجل بعد حجج لاحقة لتاريخ صدوره، لكن ذلك لا يعزى إلى تأخر مقصود في تدوينه، بقدر ما يمكن رده إلى تأخر وصوله الى طرابلس، نظراً لبعد المسافة وبطء المواصلات بينها وبين اسطنبول. وقد يتعذر أحياناً على الوالي دخول المدينة أثناء الثورات والانتفاضات، فيضطر عندها الى تدوين البيورلديات التي أصدرها والفرمانات التي تلقاها من الباب العالي أثناء غيابه عن المدينة في تواريخ لاحقة لتواريخ اصدارها.

وعلى الرغم من ذلك كله، تبقى هذه السجلات المصدر الأساسي الذي يحوي وثائق هامة تمكن الباحث المؤرخ بفضل غناها وشموليتها من أن يستخلص التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لمدينة طرابلس ابان القرون الثلاثة الأخيرة من مراحل الحكم العثماني فيها. فنلاحظ مثلا من خلال السجلات العلاقة التي ربطت ولاية طرابلس مع سائر ولايات بلاد الشام وخاصة ولايتي صيدا ودمشق. فقد ظلت طرابلس طيلة القرن الثامن عشر(٣) تشكل ولاية مستقلة(٤). وعلى إثر وفاة واليها حسن باشا عام ١٧٩٤م، ارتبطت طرابلس بولاية صيدا، بعد أن قام أحمد باشا الجزار ببسط نفوذه عليها وطلب من وجهائها اختيار متسلم عليها من قبله(٥). ثم ظلت تتأرجح في تبعيتها بين صيدا ودمشق طيلة الربع الأول من القرن التاسع عشر(٦) عندما عادت عام ١٨٢٤ لتشكل ولاية مستقلة تولى عليها علي باشا الأسعد(٧)، وظلت كذلك حتى عودة بربر آغا متسلماً عليها مع مجيء الحملة المصرية عام ١٨٣١(٨). وبعد عام ١٨٤٠ عادت طرابلس تتبع ولاية صيدا(٩) حتى عام ١٨٦٤ حيث ألحقت بولاية سورية(١٠). وفي عام ١٨٧٨ أنشئت ولاية بيروت وكانت طرابلس تشكل إحدى ملحقاتها(١١)، وظلت كذلك على تبعيتها لولاية بيروت حتى خروج العثمانيين من سوريا عام ١٩١٨م.

بالاضافة الى ذلك تقدم هذه السجلات مادة تاريخية غزيرة تمكن الباحث من اجراء دراسات في النواحي التالية:

١ ـ دراسة من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية لمدينة طرابلس.

٢ ـ دراسة مناطق البترون وجبيل واللاذقية وطرطوس وحذور والشعرا وتلكلخ وجبة بشري والزاوية والكورة من النواحي الادارية ومن حيث تطبيق نظامي الالتزام والاقطاع في هذه المناطق وبناءً على حجج التزام ضرائبها التي نجدها مدونة في سجلات المحكمة الشرعية. أما النواحي البشرية والاقتصادية والاجتماعية في هذه المناطق، فلا يمكن دراستها من سجلات طرابلس(١٢)؛ وذلك أنه منذ البداية كان للاذقية وطرطوس محاكمها الشرعية حيث تقاضى سكانها في أمورهم الشرعية، وحيث كانت تدون حجج الطلاق والميراث والقسمة والقضايا المدنية. وكذلك كان سكان جبيل والبترون وبشري والكورة والزاوية لا يتقاضون في طرابلس إلا نادراً، بل يكتفون بالتقاضي لدى مشايخهم ورجال الدين في مناطقهم. ولكن ارتباط هذه البلاد بطرابلس، مركز الولاية، يلقي الضوء على إدارتها وسياسة حكامها الذين كانوا يحصلون على بيورلديات تعيينهم في وظائفهم من واليها. أما الضنية وعكار، فقد ظلت السجلات تعكس أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما أصبح لكل منها محكمة شرعية كما يتضح من السجلات عينها(١٣).

٣ ـ أوضاع الزراعة عامة واختلاف أنواع المزروعات حسب مراحل التاريخ وأماكن انتشارها في مناطق عكار وطرابلس والضنية فقط.

٤ ـ الدخل اليومي للفرد وتوزيع الثروات الاقتصادية.

٥ ـ نشوء وتطور أشكال الملكيات الزراعية.

٦ ـ نشوء ونمو وانحطاط نفوذ بعض

العائلات في طرابلس وعكار والضنية.

٧ ــ الأوضاع القانونية والاجتماعية والاقتصادية لمختلف الطوائف في طرابلس وعكار والضنية.

٨ ــ إعطاء إحصاء تقريبي عن التوزيع الطائفي في طرابلس وعكار والضنية وعن أعداد السكان والعلاقة المتبادلة بين هذه الطوائف.

٩ ــ علاقة طرابلس مع التجار الأجانب، وعلاقاتها التجارية مع مصر وحلب ودمشق بصورة خاصة.

١٠ ــ النشاط الاقتصادي لرعايا الدول الأجنبية في طرابلس وخاصة الفرنسيين والبريطانيين.

١١ ــ علاقة بعض العائلات الطرابلسية مع جوار مدينتهم في جبل لبنان وخاصة ابان فترة حكم بربر آغا في طرابلس والأمير بشير الثاني في الجبل.

١٢ ــ إعطاء فكرة واضحة عن التوزيع الفئوي والعلاقة المتبادلة بين مختلف فئات السكان.

١٣ ــ إعطاء فكرة واضحة عن النشاطات الحرفية في طرابلس وكيفية تنظيم كل حرفة.

١٤ ــ إعطاء فكرة عن التطبيق العملي للقوانين والتنظيمات العثمانية، والوقوف على مقدار تمتع الفرد بحقوقه المشروعة وقسطه من العدالة والحرية والمساواة في هذه المناطق ابان الحكم العثماني.

وفي سبيل الاستفادة من هذه السجلات والتمكن من كتابة هذه المواضيع، يتوجب على المؤرخ الباحث أن يتبع منهجاً سليماً للتعامل مع ما ورد فيها من وثائق، مع الأخذ بعين الاعتبار الأمور التالية:

ــ تسلسل وثائقها من حيث تواريخها اليومية مما يساعده على ضبط تواريخ الظواهر والأحداث



التي يدرسها. إلا ان خطأ ترقيم السجلات يضطر الباحث الى اهمال أرقامها والاهتمام فقط بتواريخ صحائفها حتى لا يقع بإشكال تاريخي.

ــ إن وثائقها تتضمن التاريخ الخام وتقدم مادة تاريخية لا ريب بنزاهتها وخلوها من التزوير. وتبقى هذه الايجابيات مفيدة للمؤرخ شرط ابقائها في إطار حجمها حتى لا تقوده إلى التسليم المسبق بكل ما يرد في هذه الوثائق؛ فعليه التدقيق في الوثيقة قبل الاقرار بصحة ما يرد فيها، مع الأخذ بعين الاعتبار ثقافة كاتبها ومقصده، ووضع كلماتها في مدلولاتها التاريخية التي يمكن أن تخالف مدلولاتها الحاضرة. فنجد على سبيل المثال وثيقة في أحد هذه السجلات تأتي على ذكر «العونيات» و«زقاق الحمص» على انها محلات من طرابلس(١٤)، وقد تبنى البعض هذا التصنيف على علاته دون تحقيق ولا تدقيق(١٥). وهنا أرجح أن كاتب الوثيقة وقع في خطأ لا يجب أن يقودنا إليه، فزقاق الحمص والعونيات هي أحياء أو حارات من محلة الحدادين، وليست محلات قائمة بذاتها، إنما أوردها كاتب الوثيقة على انها أماكن ومحلات يختص كل منها بحرفة معينة.

تبقى إشارة أخيرة لابد من التوقف عندها ولو قليلاً. فهذه السجلات تمكن الباحث بما ورد فيها من وقائع وأحداث لا ريب بدقتها وصحتها، من تمثل الواقع المعاش آنذاك، ومن تلافي تحوير الحقائق والوقائع التي وردت عند بعض المؤرخين وكتبة المذكرات. إلا انها لا تكفي وحدها لمعرفة الخفايا المؤثرة في تاريخ المدينة، فهنالك مخططات الولاة والوجهاء والمتنفذين من أبناء المدينة، وهناك المؤامرات والدسائس التي حاكها ممثلو الدول الاوروبية في طرابلس، وغيرها من الأمور التي لا نجدها في السجلات، وإن وجد بعضها فهو لا يتعدى التلميح والاشارة العابرة. لذلك يجب علينا، لكي يأتي بحثنا محيطاً وشاملاً لجميع النواحي، البحث عن هذه الخفايا التي

تمكننا من تفهم ما ورد في السجلات، في مذكرات ذوي المكانة والمعرفة لمجريات عصرهم، الذين تمكنوا بطبيعة عملهم كموظفين كبار، من معرفة هذه الخفايا، كنوفل نوفل الطرابلسي مثلا الذي وضع مخطوطا بعنوان «كشف اللثام عن محيا الحكومة والحكام».. حيث أسهب في ذكر أحداث عصره. وكذلك علينا اللجوء إلى المحفوظات الملكية التي وضعها أسد رستم، والتي تحفل بذكر أحداث طرابلس طيلة مراحل الحكم المصري فيها. أما أقوال ومراسلات قناصل الدول الأجنبية في طرابلس، فهي حافلة بأحداث المدينة، وتمكن به الباحث، بما فيها من تعليلات، من الوقوف على وجهة نظر كل من الدول الغربية، فرنسا وروسيا وايطاليا وبريطانيا، في تاريخ طرابلس وسكانها. وقد قام الدكتور عادل إسماعيل بنشر جزء لابأس به من وثائق قناصل الدولة الفرنسية في سوريا بمصنف يضم واحداً وعشرين مجلداً تتحدث أغلبها عن مدينة طرابلس[١٦]، وتساعد الباحث بما تضم من احصائيات وجداول بأعداد السكان وأنواع المنتجات الزراعية والصناعية وبما تحوي من جداول بأنواع الصادرات والواردات من وإلى مرفأ طرابلس[١٧]. ●

الهوامش

(١) الفرمان يصدر عن السلطان وهو بمثابة مرسوم في يومنا الحاضر، أما البيورلدي فهو يصدر عن الوالي وهو بمثابة قرار في يومنا الحاضر.

(٢) ورد في مقدمة المصدر الأول لوثائق المحكمة الشرعية في طرابلس منشورات الجامعة اللبنانية معهد العلوم الاجتماعية الفرع الثالث، طرابلس ١٩٨٢، أن هذه الوثائق كانت تدون في وقت لاحق لصدورها ومتأخر عنه. ينظر الصفحة (ج) من هذا المصور.

(٣) ورد في مقدمة المصور الآنف الذكر أن طرابلس أصبحت في مطلع القرن الثامن عشر تابعة لولاية دمشق. ينظر الصفحة (أ) من المصور عينه.

(٤) سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس: سجل ٥ صفحة ٢٧ وسجل ٦ صفحة ١٧٥ وسجل ٧ صفحة ٨٧ وصفحة ٢٨٨ وسجل ٨ صفحة ١ وصفحة ٢١٦ وصفحة ٢٧٣ وسجل ٩ صفحة ١٦٢ وسجل ١٠ صفحة ٨٣ وسجل ١١ صفحة ٢٣٦ وسجل ١٣ صفحة ٣٠٨ وصفحة ٣ وصفحة ١١٠ وسجل ١٤ صفحة ١٣٠ وسجل ١٥ صفحة ٢٥ وسجل ١٩ صفحة ١٦٧ وسجل ٢٠ صفحة ٥٣ وسجل ٢٣ صفحة ١ وسجل ٢٥ صفحة ٣٠ وسجل ٢٦ صفحة ١٤ وسجل ٢٧ صفحة ١٥٣ وسجل ٣١ صفحة ٧٧ وسجل ٣٢ صفحة ١٢٥ وصفحة ١٢٦ وسجل ٣٣ صفحة ٢٠٠.

(٥) سنة ١٢٠٩هـ ــ ١٧٩٤م بعد وفاة حسن باشا والي طرابلس بسط الجزار نفوذه عليها وطلب من أبنائها أن يختاروا واحدا منهم ينصبونه متسلما عليها من قبل الجزار. السجل ٣٤ صفحة ١٦٦.

(٦) في عام ١٢١٦هـ ــ ١٨٠١م بسط عبد الله باشا والي الشام نفوذه على طرابلس. سجل ٣٦ صفحة ٣٢. ثم عادت طرابلس في عام ١٢١٨هـ ــ ١٨٠٣م لتتبع والي صيدا أحمد باشا الجزار. سجل ٣٦ صفحة ١٤.

(٧) سجل ٤٩ صفحة ٥٨. وأغناطيوس الخوري: مصطفى آغا بربر، مطبعة الرهبانيات المارونية، بيروت ١٩٥٧ صفحة ١٩٢.

(٨) سجل ٥٩ صفحة ١٠.

(٩) سجل ٥٦ صفحة ٣٠ وسجل ٥٨ صفحة ١٧١ وسجل ٦٩ صفحة ٣٥١.

(١٠) سجل ٧٢ صفحة ١٣١.

(١١) عبد العزيز عوض الادارة العثمانية في ولاية سوريا. دار المعارف بمصر، صفحة ٦١ ــ ٦٦.

(١٢) ورد في مقدمة المصور الأول الآنف الذكر أن سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس تمكننا من دراسة النواحي الاجتماعية والاقتصادية. ينظر الصفحة (ب) من هذا المصور.

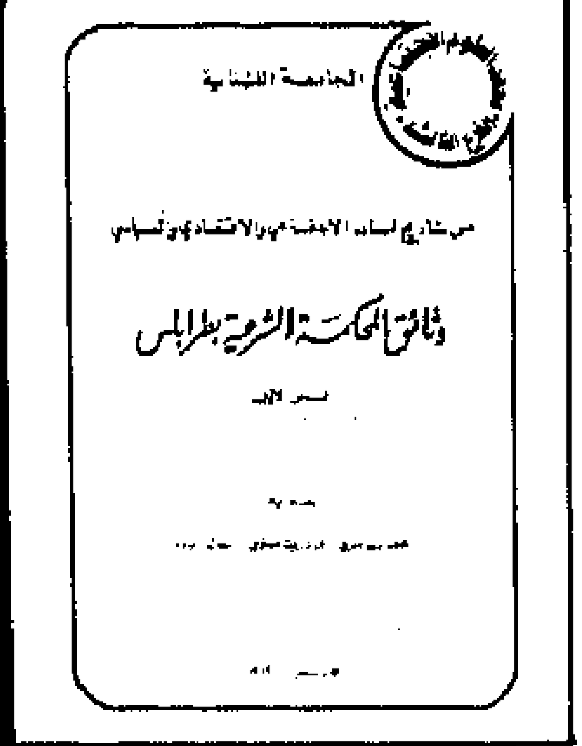
(١٣) سجل ٦٦ صفحة ٣٠٩ وسجل ٧٧ صفحة ٢٥٩ وصفحة ٣٥٥.

(١٤) سجل ٢ صفحة ٧٢.

(١٥) ورد في مقدمة المصور الآنف الذكر أن العونيات وزقاق الحمص هي محلات: ينظر الصفحة (ب) من هذا المصور.

(١٦) ورد في مقدمة المصور الآنف الذكر أن مجلدات وثائق القنصلية الفرنسية التي جمعها عادل اسماعيل لا تتحدث جميعها عن طرابلس، بل ان المجلدات الثالث والرابع والخامس فقط تتحدث عن المدينة في مرحلة القرن التاسع عشر. أما المجلدات التي تتناول تواريخ سابقة لهذا الزمن فلا تتحدث عن طرابلس على حد زعم واضعي المقدمة. ينظر الصفحة (و) من هذا المصور.

(١٧) Adel Ismail: Documents Diplomatiques et Consulaires Rélatifs à L'histoires du Liban. Beyrouth 1976. Tomes: 3- 4- 5- 6- 7- 8- 9- 10- 15- 16- 17- 19- 20.



حول نشر السجل الاول من وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس

د. عمر عبد السلام تدمري

منذ ان اصدر «معهد العلوم الاجتماعية ــ الفرع الثالث» في الجامعة اللبنانية، السجل الاول من سجلات محكمة طرابلس بعنوان «وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس» في اواخر السنة المنصرمة ١٩٨٢، بدأت التعليقات وردود الفعل تظهر عند الباحثين المهتمين بهذا النوع من الوثائق، ولم تنته بعد، فالتوقعات كثيرة، والمجال مفتوح لكل الناقدين والمنظرين والمحققين والباحثين. ومهما كانت ردود الفعل، سلبية كانت ام ايجابية، فان هذا يعني ان العمل وجه اليه الانظار، وهذه ظاهرة صحية ولا ريب، والمنطق يقول ان من يعمل عليه ان يتوقع النقد والثناء معا، ومن لا يعمل يظل قابعا خاملا في زوايا النسيان.

ولست هنا في معرض الرد والتعقيب على ما تفضل وادلى به السادة الباحثون والمهتمون بالدراسات الوثائقية، كتابة او مشافهة، حول نشر السجل الاول فلكل رأيه الذي احترمه، ولكن اود ان اشير الى النقطتين التاليتين:

١ ــ ان ناشري السجل لم يدعوا لانفسهم شرف «تحقيق ودراسة» السجل، بل قاموا بالـ«تقديم» بين يدي السجل المصور بمقدمة متواضعة لاعطاء فكرة عن اهمية وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس، ولذا لم يكن متوجبا عليهم التعريف بمعنى «تاسومه» و«منتان»!!

كما لم يدع الناشرون انهم سينشرون اكثر من مائة سجل ــ وليس سبعين سجلا ــ دون تحقيق، لا في وقت قريب او بعيد.

٢ ــ ان عملية نشر السجل الاول مصورا دون تحقيق، والتي اعتبرها السادة الناقدون خطأ، ليست جرما خطيرا يرتكب ضد التراث، ولا بدعة انفرد بها الناشرون. فقد سبق لهيئات علمية معروفة، ولكثير من كبار المستشرقين ان نشروا كتبا تراثية مصورة هي اقدم تاريخا من سجلات محكمة طرابلس دون اي تحقيق، اذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر: «كتاب الانساب» للسمعاني المتوفى سنة ٥٦٢هـ، نشره المستشرق «مرجليوث» مصورا عن النسخة الخطية دون اي تحقيق، رغم رداءة خطوطها، وهو كتاب متداول بين أيدي الباحثين يرجعون اليه كمصدر أساس في هذا الفن. وكتاب «تاريخ دمشق» لابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ، الذي نشر منه مجمع اللغة العربية بدمشق مجلدا كاملا في سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٨م. وجاء في كلمة رئيس المجمع الدكتور حسني سَبَح التي صدر بها المجلد المصور ما يلي نصه:

«... فقد عزم مجمع اللغة العربية على ان ينشر، بطريقة التصوير، بعض المخطوطات العربية القيمة. وقد اختار لذلك طائفة من مخطوطات دار الكتب الظاهرية، ومما تحويه خزانته من مصورات كتب التراث الادبي والعلمي، الجيدة الخط.

... ويرجو المجمع، وهو يلبي الحاجة الماسة الى تداول كتب التراث ان يكون هذا الاسلوب في النشر، سببا من اسباب الاقبال على التحقيق، وتيسير وسائله بين ايدي المهتمين بالثقافة العربية دراسة وتحقيقا. وهو بعد ذلك، وسيلة من افضل الوسائل للتعرف الى طريقة الكتابة العربية، وما التزمه المؤلفون والنساخ العرب في مؤلفاتهم وكتبهم من ضروب النقط والشكل، لضبط

النصوص وسلامتها من التحريف والتصحيف، مما يمهد امام الناشئة العربية صلة بكتب التراث اوثق واشمل». (انتهى).

كتاب «القول المُسْتَظْرَف في سفر مولانا الملك الاشـرف» لابن أبي الجيعـان، المتـوفي سنـة ٩٠٢هـ. وقـد نشره المستشـرق «ريـو دلفـو لانتزونه» في تورينو بايطالية سنة ١٨٧٨ مصورا عن النسخة الخطية مع مقدمة دون اي تحقيق...

ومثل ذلك كثير.

بقي ان اتوجه الى السادة الناقدين والمنظرين، لمجرد النقد والتنظير، ممن استفادوا من سجلات المحكمة بطرابلس في تحضير رسائلهم الجامعية في السنوات الاخيرة، وابقوا عليها مهملة معرضة للتلف والتشويه والضياع، للتخفيف من لهجة نقدهم وتحاملهم على الاساتذة ناشري السجل الاول، ولعدم التسرع في اتهامهم جزافا بانهم قاموا بتصوير بعض السجلات في فترة قصيرة دون دراسة او معرفة ما تحتويه من مادة علمية، اذ يكفي مـدير معهـد العلوم الاجتماعيـة في طرابلس الدكتور فردريك معتوق، والدكتور خالد زيادة الاستاذ في المعهد المذكور انهما تجنّدا في صيف الغزو الاسرائيلي للبنان، وعمـلا يوميـا وطيلة شهرين على تصوير الثُلُث الاقدم والاهم من سجلات محكمة طرابلس، دون الاستعانة بـأحد كـذلك يكفي معهد العلوم الاجتمـاعية بشخص مديره، وكلية الاداب والعلوم الانسانية في طرابلس بشخص مديرها الدكتور عبد المجيد نعنعي أنهما أسهما في تحمل معظم الاعباء المالية، مع رابطة احياء التراث الفكـري في طرابلس بشخص رئيسها واعضائها المؤسسين لتغطيـة هذا العمل الذي لم يتحرك احد لانجازه منذ وقت طويل.

اما القول بان الناشرين لم يدرسوا السجلات دراسة وافية قبل عملية التصوير الاخيرة، فاحيل قائله الى كتابنا «تاريخ واثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك» فقد كنا اول من درس «من الجـامعيين» تلك السجـلات ولفت انظار الباحثين اليها في سنة ١٩٧٢. ●

انفجار مدمّرة كيتشنر

عمليّة خيانة أم حادث طبيعي !

شذا عدرة



سكابا فلو، الخامس من حزيران ١٩١٦. الرياح شديدة، والمياه مضطربة. الساعة السادسة عشرة والدقيقة ٤٥، ظهرت البارجة هامبشاير والمدمرتان فيكتور وأونيتي. ضاعفت العاصفة من شدتها. واهتزت المدمرتان اهتزازا قويا لم تستطيعا معه متابعة الرحلة، فرجعتا الى قاعدتهما. اما البارجة فتابعت ابحارها الساعة ١٩ و ٤٠ دقيقة، اصطدمت بلغم واختفت خلال دقائق، تحت امواج بحر الشمال. بين القتلى الفيلد مارشال كيتشنر وزير الحربية. وقد اذهل النبأ الرأي العام البريطاني، الذي كان يعتبر كيتشنر بطلا قوميا. ثم سرت شائعات لم تكذب حتى الساعة، تقول ان كارثة البارجة هامبشاير ليست نتيجة صدفة من صدف الحرب، وانما هي عمل مدبر.

قبل كيتشنر، مع بداية عام ١٩١٦ ان يذهب الى روسيا، فقد كان مرهقا، وصارح بذلك الاميرال جلّيكو، ساعة صعوده الى البارجة. كان عمره ٦٦ عاما، وكان الطقس البريطاني يؤذيه، خاصة وانه مصاب بأدوار ملاريا وان جراحه القديمة تؤلمه. كما ان الصراع على السلطة كان يبدد قواه. لذلك كان بحاجة الى الراحة قبل ان يعود الى الصراع داخل مجلس الوزراء، وفي الواقع كان على كيتشنر أن يسترد هيبته التي أضاعها في مجالس الحكم.

كانت مهمة الذهاب الى روسيا سر مهرجين. فسفير الولايات المتحدة يبرق الى واشنطن: «ثمة امل هنا بان كيتشنر لن يعود من روسيا». فهل كان السفير يعلم اكثر مما ذكر في بريده



«بلادك تناديك» ملصق عليه صورة كيتشنر، استغلته الحكومة البريطانية لتشجيع الشباب للالتحاق بالجيش

الدبلوماسي؟ ومن كان في لندن يتمنى ألا يعود كيتشنر من روسيا؟

السين فين اولا (Le Sinn Fein)، فالمتطرفون الأيرلنديون، الذين كانوا يتعاونون مع الالمان، كان يعنيهم ان يقتل كيتشنر. كانت السين فين تعمل جاهدة على جمع مقتطفات من مذكرات خاصة، تزعم ان كيتشنر كان شاذا جنسيا. وكان

الهدف خلق ازمة وزارية تقسم البلاد، وتؤذي جهود الحكومة الحربية.

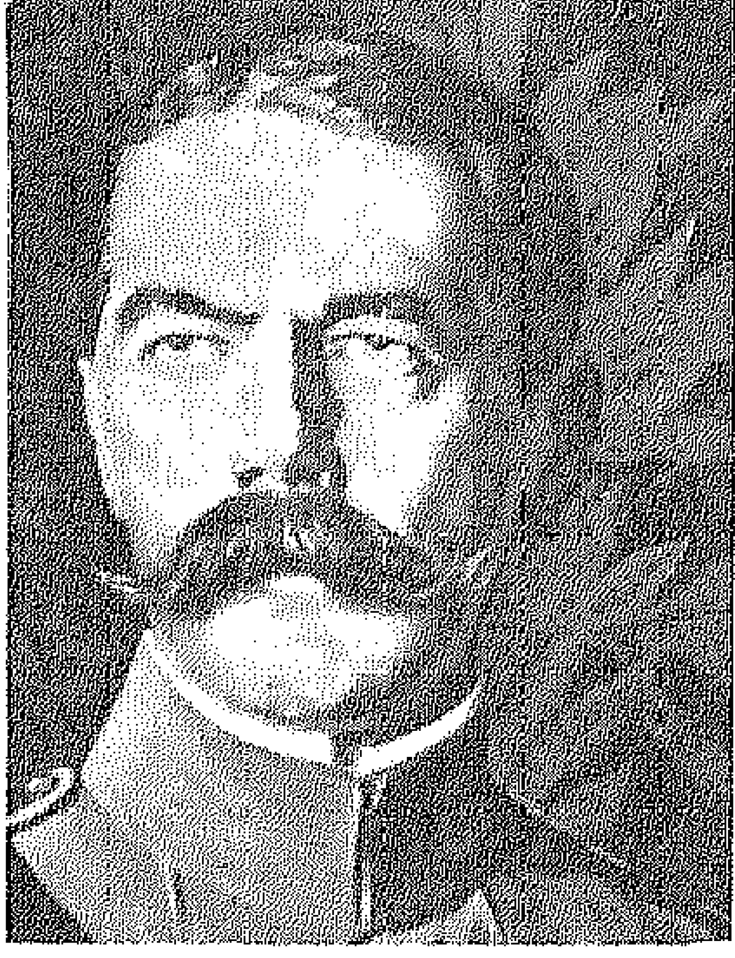
ولكن سكوتلنديارد افسدت اللعبة، وكانت تشرف، عن كثب، على الحمام اللندني، حيث يجتمع الجواسيس الالمان والايرلنديون، وهناك نقل احد عملاء السين فين الى جاسوس الماني نبأ المهمة الروسية، اي مهمة كيتشنر، محددا التاريخ ومكان الرحيل. كانت سكوتلانديارد على علم بالمسألة. وقد استجوب السير بازيل تومبسون العميل الذي حمل النبأ... ولكن، من اين كانت السين فين تستقي معلوماتها؟ حلفاؤها الالمان حاسمون في هذا المجال. وهم يؤكدون ان المصدر هو محيط لويد جورج.

كان دافيد لويد جورج يأمل في التخلص من كيتشنر، وان لا يعود من روسيا، فالرجلان اللذان لا يلتقيان على شيء، يكره بعضهما الاخر كرها شديدا. وكان لويد جورج يقود المعارضة ضد كيتشنر في قلب الحكومة. وكان قد حل محله في وزارة التسلح، ويطمح الى مكانه في وزارة الحربية، ويتطلع الى ان يخلف الوزير الاول في ١٠ داوننغ ستريت. وذاك ما لم يكن ليحدث ما دام كيتشنر حيا.

كان كيتشنر رمز ارادة الصراع لدى الشعب البريطاني، وكان ضروريا لكل تشكيلة وزارية، ولم يكن يقبل ان يدع مركزه للويد جورج، ولا أن يشترك في وزارة يرئسها، ومادام حيا فلا أمل للويد جورج ان يبلغ مركز السلطة.

من هنا كان الظن ان لويد جورج اسلم طوعا كيتشنر للالمان. مع العلم ان الوثائق الثبوتية غير ممكنة في هذا المجال، والتخمين من خلال الظواهر، هو الطريق الى الاتهام.

وكان لويد جورج، بطبيعة عمله في الوزارة، يعرف الكثير ولم يكن جديرا بكتمان الاسرار. وكان كيتشنر يقول عنه: «كل الوزراء يروون كل شيء لزوجاتهم، وللويد جورج العديد من النساء!». ولئن لم يكن ممكنا اتهام لويد جورج بمقتل كيتشنر فان من الواقع ان نقول انه لا يحفظ سرا.



من هو كيتشنر

هو هوراس هيربرت كيتشنر، ولد عام ١٨٥٠ قرب كيري في ايرلندا. درس في الكلية الفرنسية في جنيف، ثم التحق بكلية الهندسة الحربية في وولويش. كان الى جانب عائلته يوم اندلعت حرب ١٨٧٠، ومارس نشاطه العسكري الاول في فرقة الشواطىء الشمالية تحت امرة الفرنسيين.

جعل منه عمله كضابط متخصصا بالمعلومات المتصلة بالشرق الاوسط. عام ١٨٩٢ عين سيردارا، اي قائدا اعلى للجيش المصري. وكان عمره اثنتين واربعين سنة. ولم يكن هذا الجيش موجودا الا على الورق. وكان لا بد من انشائه بكل جزء من اجزائه. وقد قاده الى السودان لينتقم لمقتل غوردن باشا، الذي قتل في الخرطوم وهو يحارب المهدي. وانتهت الحملة بانتصار ام درمان الذي جعل من كيتشنر ابرز رجل جماهيري في بريطانيا.

كان يكره الاوساط السياسية، ويحب العزلة. حارب البوير في افريقيا الجنوبية، واعاد تشكيل جيش الهند، وشكل الجيش الاوسترالي، واصبح حاكم مصر.

عين ١٩١٤، وزيرا للحربية لم يكن الجيش البريطاني مستعدا للحرب العالمية الأولى. وخلال ثلاثة أشهر تطوع لديه اكثر من مليوني بريطاني، وبذل جهودا مضنية لجعل هذه الكمية من الرجال فاعلة، مزودة بالسلاح الضروري. وكان كيتشنر يصطدم كثيرا بالسياسيين الذين لم يغفروا له برودته، وحقه في السرية. وتوصلوا الى نزع وزارة التسلح منه، ومهام رئاسة الاركان، فكر في تقديم استقالته، ولكنه افهم انها سترفض.

كان طويلا نحيلا، حنطي اللون، وكان لون عينيه ازرق فاتحا، وكان شارباه كثين ضخمين، يعرف بهما من بين المئات.

لفتة بطولية في حي مستر كنغ

الاحد، الرابع من حزيران، ذهب كيتشنر إلى «كنغ كروس» ليركب القطار الى ثورسو، التي سيبحر منها الى سكابافلو. وقد تلقى موظف وزارة الخارجية، الذي كان سيسلمه رقما سريا، الامر، بالهاتف، ان يذهب الى مار ييلبون، حيث لن يجد احدا حتما. وفي وقت الانتظار، كان كيتشنر يتسلق الرصيف بين جمهور المسافرين. اريد جعل رحلته مكشوفة، وقد تبين فيما بعد، ان السين فين هي التي تلفنت لموظف الخارجية.

وحين صعد كيتشنر الى سطح الايرون ديوك، تغدى مع السير جون جليكو، اميرال الاسطول. اقترح عليه السير جون تأجيل السفر الى اليوم التالي. ولما كان البحر شديد الاضطراب فان الذين يلقون الالغام في البحر لم يتح لهم القاؤها، لأنهم لم يستطيعوا الابحار. ولم تحرس مخارج سكابافلو. وكفت اثنتا عشرة ساعة لفتح الممرات. رفض كيتشنر الاقتراح.

مع ذلك، التقط الالمان اشارة، كررت ثلاث مرات، تعلم الاميرالية في لندن، ان الممر غربي الاوركاد نظف تماما، وكان ذلك غير صحيح. من الملفت هنا ان تلك الاشارة الروتينية المحضة ــ فالممر تعبره سفن الشحن، وهو عادة محروس باستمرار ــ قد نقلت الى لندن وكررت ثلاث مرات. فهل القصد ان يلتقطها الالمان؟

ولا يستبعد ان البحرية الملكية جربت بذلك ان توحي بان الهمبشاير ستتجه غربا. والواقع ان جيليكو كان يفضل الممر الشرقي، ولكن كيتشنر كان يتألم اشد الالم من دوار البحر. والممر الغربي محمي اكثر من الرياح، والابحار فيه اكثر راحة. وفي اللحظة الاخيرة غير الاميرال الاتجاه واختار الممر الغربي.

في عرض الهارويك هيد، اصطدمت الهامبشاير بلغم. دمرت غرفة الآلات، واشتعلت النار في البارجة. وخاطر المسؤول عن الدفة، فقبض على المقود، ووجه البارجة بحيث تغمر المياه مكان حفظ البارود حتى لا ينفجر. وكان الوقت كافيا لاخلاء البارجة من ركابها. وفيما كان الركاب يستعدون لمغادرة البارجة، كان ثلاثة يلبسون الكاكي، يصعدون الى جسر البارجة. كانوا: كتشنر ومساعده الكولونيل فتزجرالد والمترجم العسكري، الليوتنان ماك فرسون.

كان كيتشنر هادئا جدا، ولكنه كان متعبا ومريضا.

لم يجب الضباط الثلاثة على نداءات البحارة الذين كانوا يضعون المراكب في الماء لتكون تحت تصرف الركاب. ويقال ان كيتشنر تذكر البصارة التي قالت له يوم كان صغيرا: «ستموت غرقا». فهل كان يفضل الموت بين عباب البحر، على انتظار الموت البطيء. لم يوجد جسد كيتشنر ابدا، ولكن فرانك بور، بعد عشر سنوات، زعم ان جثة كيتشنر موجودة في تابوت في النروج. واحضر النعش الى لندن، فلما فتح وجد فارغا.

لقد غرقت هامبشاير على بعد كيلومترين من السواحل الاوركادية، وقد ابلغ المسؤول عن الانقاذ جورج تومبسون ساعة حدوث الكارثة، وكان في مدينة سرومنس، اقرب مدينة الى مكان الحادث. اتصل بسكابافلو، فقيل له ان يعني بقضاياه الخاصة. الخ، فاغلقت القاعدة خط الهاتف في وجهه. اسرع تومبسون الى سكابافلو ليرى قائد القاعدة، الكابتن ووكر. حدق ووكر فيه، وافهمه ان حركة البواخر الحربية تظل دائما سرية. وحتى لو غرقت بارجة فالمدنيون لا حق لهم في معرفة ذلك، او التدخل. وهدد بوضع تومبسون في السجن.

خلال هذا الوقت، كان اوركاديون يتوجهون الى مسرح الكارثة رغبة في التقاط الناجين ممن يستطيعون بلوغ الشاطىء رغم العاصفة القوية. ولكن جنودا بريطانيين كانوا هناك والسلاح في ايديهم ليمنعوهم المرور. فقد كان مع الجنود امر باطلاق النار على كل من يخرج الى ظهر البحر. وهكذا مات عدد من الناجين من البرد والتعب، لانعدام محاولات الانقاذ.

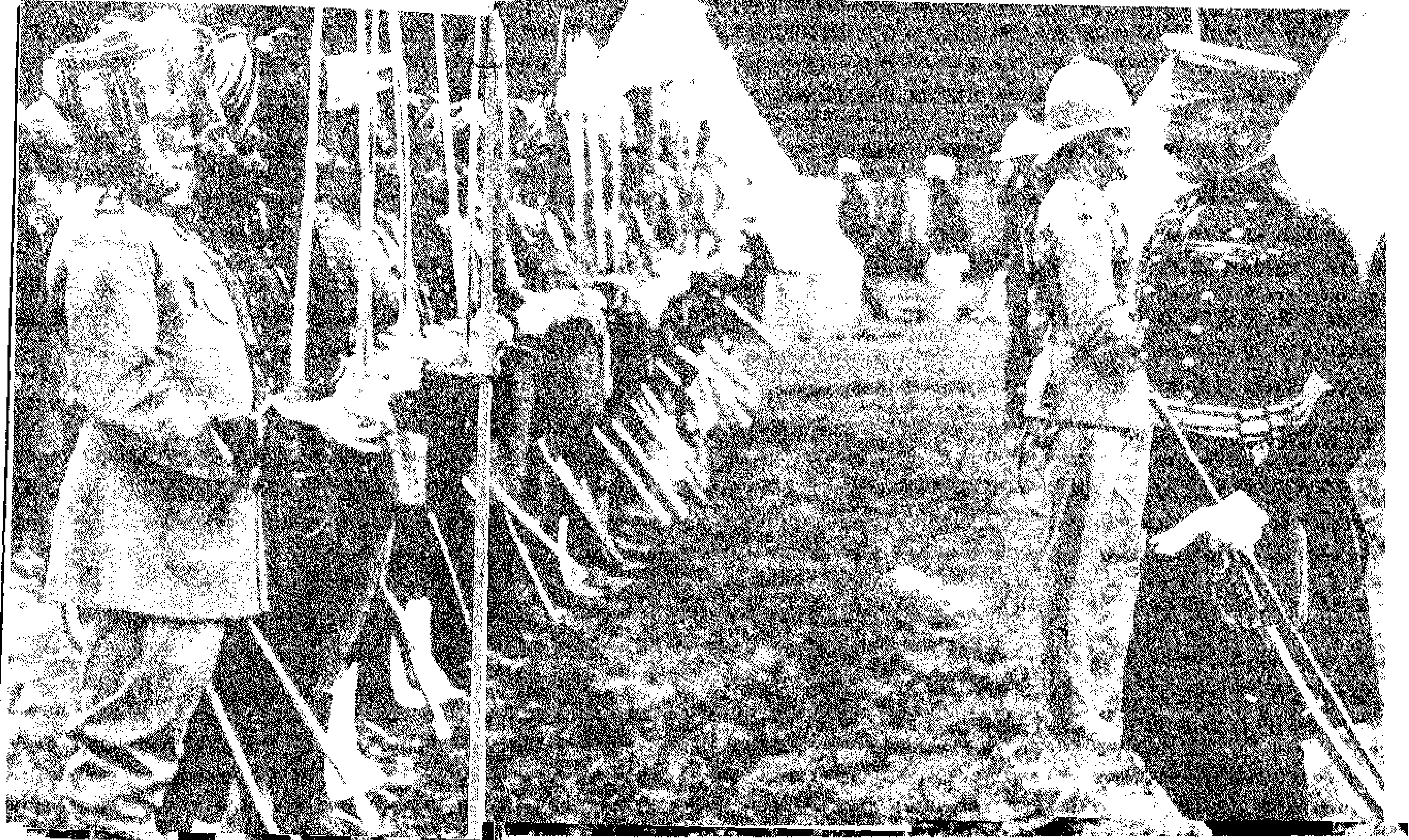
اذن، لم تنظم اية محاولة انقاذ. وجرى كل شيء كما لو كانت السلطات البحرية والعسكرية راغبة في التأكد من عدم بقاء احد على قيد الحياة.

عدم الجدارة... ام خيانة؟

ما زالت الاميرالية حتى اليوم تحتفظ بصمت مطبق حول كل ما يمس اخر رحلة لكيتشنر. اما



العدوان اللدودان لويد جورج وكيتشنر



كيتشنر يستعرض الجيش الذي جنده من الهنود، وزجه في الحرب العالمية الاولى، وكانت الهند مستعمرة بريطانية

الكتاب الابيض الذي وضع عام ١٩٢٦، ردا على بعض الحملات الصحفية التي قادها فرانك بور، فيتجنب المسائل الحقيقية. مع ذلك فالمسائل باقية، وهي الى ذلك مزعجة.

بماذا فكر السفير الاميركي حين كتب ان في لندن «املا، بل شعورا» بان كيتشنر لن يعود من روسيا؟

كانت سكوتلنديارد تعلم تماما ان الالمان على علم بالامر، فلماذا لم تتدخل؟

لماذا تلفن السين فين لتأخير رحلة الكينغ كروس؟

كيف نفسر الاشارة التي بحسبها كان المعبر الغربي منظفا، في وقت لم يكن فيه كذلك. وما تعني ردود الفعل لدى السلطات البحرية والجنود حين علموا بكارثة الهامبشاير.

تسري شائعة تقول ان السير جليكو، بعد برقيته الاولى التي اعلنت عن الكارثة، ارسل برقية أخرى عامرة بالتفاصيل التي لم تنشر ابدا على الملأ. والاميرالية لاتنكر ولا تؤكد هذه الشائعات، لماذا؟

ثمة افتراضان متعارضان: اما ان تكون الكارثة حادثا، واما ان تكون خيانة.

الافتراض الاول يعني أنها كانت عملا حربيا عاديا، ووجود كيتشنر على ظهر البارجة محض صدفة. وبالتالي فان العدو كان يعلم ان كيتشنر سيسافر ذلك النهار، ولكنه لم يكن يعلم ولا يستطيع ان يتنبأ ان بارجته ستمر غربا لان القرار بالاتجاه اتخذ في اخر لحظة. والاشارة تغيير حربي مفاجيء من اجل اعطاء معلومات خاطئة مضللة، وهو امر يفعله الاعداء عادة. وقد خدعت سكوتلنديارد، خدعها جاسوس مزدوج. ويمكن تفسير موقف السفير بفظاظة كيتشنر التي اشتهر بها، مع كل زملائه من الوزراء. وكانت السين فين تصطاد في الماء العكر. ولما كان البشر يحبون نشر الغسيل الوسخ، فقد قررت الاميرالية وسكوتلنديارد طمس الحادث نهائيا، أضف الى ذلك ان الالمان لم يدعوا القيام بالحادثة.

اما الافتراض الثاني، وهو ان الحادثة من تدبير الخيانة، فلها مبرراتها كذلك.

ولم يكن شيء يمنع الالمان من ادعاء قتل كيتشنر، وصمتهم لا يثبت شيئا. ولعل ادعاء قتله كان يمكن ان يكشف عملاءهم، ويعرقل نشاطهم.

جدار من الصمت

كذلك، لا يبرهن اختيار [illegible] الغربي المتأخر عن شيء. فلو كانت [illegible] اتجهت شرقا، فهل كانت ستجد [illegible] حرا؟ من يستطيع ان يبرهن ان مخارج سكابافلو لم تكن مراقبة؟

اذا صح هذا الافتراض فان لويد جورج او احدا من محيطه قد اعطى سر الرحلة الى السين فين، وهو على علم انها ستنقله الى الالمان. كان على لويد جورج نفسه ان يرحل الى روسيا، ولكنه اعتذر في اخر لحظة! هل كان السفير الاميركي على علم بالمؤامرة، ولم يفصح عنها الا بطريقة مغلفة؟ وهل كانت سكوتلانديارد تعلم، ولكن الاوامر صدرت اليها بأن تترك الامور تجري بطبيعتها، وحسب مارسم لها، فنقلت عميلها الذي كان يعلم الكثير. كان الكابتن ووكر ينفذ الاوامر التي صدرت اليه من اعلى مستوى، هل كان الهدف احاطة المسألة بالفراغ؟ وهل قضى المسؤولون على الخيانة البرقية الثانية التي ارسلها السير جون جليكو؟

الافتراضان ينقصهما البراهين الحسية. ثمة ظلال كثيرة تعمّي على الحقيقة. ولكن من المؤكد ان السلطات البريطانية لا يعنيها كشف الحقائق، بل هي معنية بطمس كل المعلومات عن الكارثة.

اذن العناصر تنقصنا لكشف سبب الصمت، فهل سببه التستر على خيانة، او على عدم كفاءة؟ الواقع ان الوجهين مذلان ومخجلان بالقياس الى الاميرالية وسكوتلانديارد.

على كل حال، لقد عاش كيتشنر لغزا في سلوكه وحياته الخاصة، ومات كذلك لغزا.

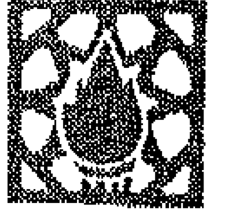


مِن تاريخ المسألة الشرقيّة

العلاقات بين فخر الدّين الثاني وتوسكانا

غادة المقدّم عدرة





ولد الامير فخر الدين الثاني نحو عام ١٥٧٢ وتوفي عام ١٦٣٥م، حكم الامير سنة ١٥٩٠ ــ ١٦٣٣، وكان اهتمامه الاكبر استقلال لبنان، فشرع اولا بضم الامراء اليه، فحالف يوسف سيفا في الشمال، والشهابيين في وادي التيم، واخضع آل حرفوش في البقاع، والزعيم علي الجنبلاط، ثم احتل كسروان ومدينتي بيروت وصيدا، وبذلك امتدت امارته حتى بلغت صفد وعجلون.

جمع فخر الدين مالا كثيرا فصرفه على تعزيز الجند وبناء الحصون وتجهيزها بالمؤن والذخائر مما خوّف الاتراك منه وبدأ الباب العالي ينسق لمحاربته فكانت مواجهة بينه وبين والي دمشق سنة ١٦٠٦ استطاع فخر الدين ان يهزمه بها. الا ان الباب العالي لم يصبر على وضع الطريق البرية بين مصر والجزيرة من جهة والاستانة من جهة اخرى تحت رحمة امير الجبل. هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى هذه التطورات اعطت الدول الاجنبية فرصة للتدخل وبصورة خاصة الدول التي تمسكت بالحروب الصليبية بشكلها التقليدي، مثل فلورنسا والفاتيكان، ولكن فخر الدين لم يتلق منها مساعدات فعلية لذلك آثر ان يغادر لبنان الى فلورنسا سنة ١٦١٣.

استقبل الامير في توسكانا بحفاوة بالغة ولكن التوسكانيين الحوا عليه بتغيير دينه، اذا أراد الحصول على معونة. هنا ادرك الامير كم كانت السياسة الاوروبية مغرضة، لذا فضّل الاتصال بالباب العالي وطلب العفو. ثم عاد ليتسلم امارته في سنة ١٦١٨ وقد استفاد من رحلته باطلاعه على الفنون والعلوم والافكار البناءة، وادرك حاجة اوروبا للحرير اللبناني فاهتم بتصديره اليها فدرت عليه ربحا كبيرا.

والامير فخر الدين رجل من التاريخ. ولمعرفة حقيقة تاريخه، يتحتم علينا الرجوع الى الوثائق التي تتعلق بعهده. فالتاريخ من صنع الوثائق، والوثائق هي الآثار التي تحمل افكار الرجال السابقين واعمالهم.

لذا فكل فكرة او حدث او عمل لم يترك اثرا مباشرا او غير مباشر سواء اختفت اثاره المنظورة والحسية هو ضياع للتاريخ وكأنه لم يحدث.

وبفقدان العديد من الوثائق تركت حقبات كبرى من ماضي الانسانية مبهما، وغير معروف، لأنه غير مثبت بالوثائق، وامحت آثاره، لذا يمكننا القول: لا وثائق، لا تاريخ. وتجدر الاشارة الى ان فخر الدين كان مثالا للتسامح الديني وقد حاولت كل الطوائف ارجاع نسبه اليها.

انطلاقا من هذه الفكرة، عمدت الى نشر بعض الوثائق المحفوظة في فلورنسا (Florence) بايطاليا والمتعلقة برحلة الامير فخر الدين المعني الثاني.

وعلى الرغم مما كتب عن تلك الحقبة ورغم ان الامير فخر الدين رجل دولة دون منازع واصلاحي من الطراز الاول، ورجل عمران ودهاء... لم يختلف المؤرخون في اعطائه حقه، رغم التناقض الكبير في سرد حياته وبصورة خاصة فيما يتعلق بعلاقاته واقامته في ايطاليا.

ولدى مطالعتي لأهم المراجع والكتب التاريخية لتلك الحقبة خاصة، ومنها على سبيل الذكر لا الحصر:

ــ كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان، للشدياق.

ــ تاريخ الأزمنة، للدويهي.

ــ لبنان في عهد الامير فخر الدين المعني الثاني، للصفدي (تحقيق د. أ. رستم، والبستاني).

ــ لبنان تاريخ شعب، د. عادل اسماعيل.

ــ اضواء توضيحية على تاريخ الموارنة، د. زكي النقاش.

ــ مختصر تاريخ سورية ولبنان، بقلم احد الاباء اليسوعيين.

ــ مؤرخو لبنان في الموارنة، كمال الصليبي.

هذه المراجع وغيرها مما درس هذه الحقبة لم تتفق على طبيعة رحلة فخر الدين لايطاليا واهدافها.

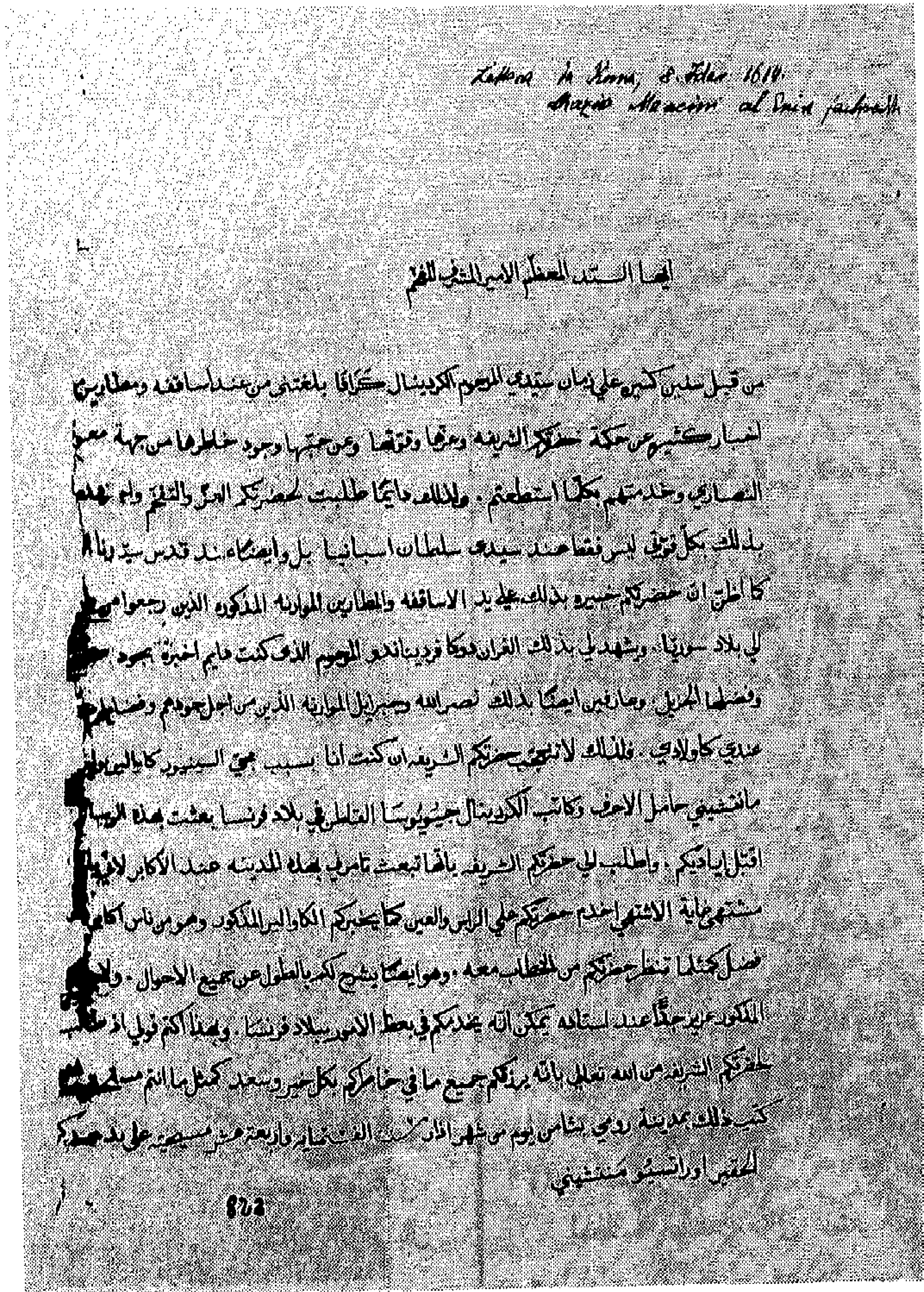
لذلك، عمدت الى نشر بعض الوثائق منها ما نشر سابقا، ومنها ما ينشر للمرة الاولى، واكتفي بنشرها دون الخوض في ابعادها تاركة للمؤرخين اعادة تركيبها.

الوثيقة الاولى

رسالة من روما ٨ آذار ١٦١٤ من اوراتسيو منتشيني للامير فخر الدين

١ ــ اسره ايطالية عريقة (واوراتسيو منتشيني) عمل لدى الكاردينال كرافا. الذي كان له الفضل في تمويل المدرسة المارونية في روما التي تأسست سنة ١٥٨٤ وقد أنشأها البابا غريغوريوس الثالث عشر لتعليم رجال الدين الموارنة ليعودوا للعمل بين طائفتهم، ومن أهم تلامذتها جبرايل الصهيوني الاهدني (١٥٧٧ ــ ١٦٤٨) ويوحنا الحصروني. (ت ١٦٢٦) وابراهيم الحاقلاني (١٦٠٤ ــ ١٦٦٥) وكذلك نصر الله سلق العاقوري (المتوفي ١٦٣٥) استاذ العربية والسريانية في كلية الحكمة في روما ومدير المطبعة العربية فيها.

تولى اوراتسيو مهمة كسب فخر الدين الثاني الى جانب الدول الاوروبية في عمل مشترك ضد الدولة العثمانية. وحاول جاهدا توطيد علاقته مع ملك فرنسا.



Lettera in Roma, 8 Adar 1614.
Orazio Mancini al Emir Fakhreddin

ايها السيد المعظم الامير الشريف الفخم

من قبل سنين كثيرة على زمان سيدي المرحوم الكردينال كرافا بلغتني من عند اساقفة ومطارين
لبنان كثير عن حكمة حضرتكم الشريفة وعزها وقوتها وعن حبتها وجود خاطرها من جهة معين
النصارى وخدمتهم بكلما استطعتم. ولذلك دايما طلبت لحضرتكم العز والتنعم ولم تهمل
بذلك بكل قوتي ليس فقط عند سيدي سلطان اسبانيا بل وايضا عند قدس سيدنا البابا
كما اظن ان حضرتكم خبيرة بذلك على يد الاساقفة والمطارين الموارنة المذكورة الذين رجعوا من هنا
الى بلاد سوريا. ويشهد لي بذلك القران هوكا وقرديناندو المرحوم الذي كنت دايم اخبره بجود [illegible]
وفضلها الجزيل. ويعارفين ايضا بذلك نصرالله وجبرايل الموارنة الذين من اجل جودهم وصلاحهم
عندي كاولادي. فلذلك لا تتعجب حضرتكم الشريفة ان كنت انا بسبب مجي السينيور كاباليير
مانتشيني حامل الاحرف وكاتب الكردينال جيويوسا القاطن في بلاد فرنسا بعثت بهذه الورقة
اقبل اياديكم. واطلب لي حضرتكم الشريفة بانها تبعث تامرني بهذه المدينة عند الاكابر لاني
مشتهي غاية الاشتهى اخدم حضرتكم على الراس والعين كما يخبركم الكاواليير المذكور وهو من ناس اكابر
فضل كثلما تنظر حضرتكم من الخطاب معه. وهو ايضا يشرح لكم بالطول عن جميع الاحوال. و[illegible]
المذكور عزيز جدا عند سلطانه يمكن انه يخدمكم في بعض الامور ببلاد فرنسا. وبهذا اكمل قولي اذ اطلب
لحضرتكم الشريفة من الله تعالى بانه يزيدكم جميع ما في خاطركم بكل خير وسعد كمثل ما انتم مستحقين
كتب ذلك بمدينة رومية بثامن يوم من شهر اذار سنة الف وستماية واربعة عشر مسيحية على يد عبدكم
الحقير اوراتسيو منتشيني

823

الوثيقة الثانية

الامير المكرم فخر الدين اشتها يقعد في بلدان الامير المعظم وتحت حمايته الشريفة مع حرمته وبنته وجوارها[1] وولدين صغار يخدموا الباب وستة أم سبعة من خدامه والحاج كيوان[2] مع باقي أرفاقه[3] الأوخار[4] الموجودين معه الآن يرجعوا لبلادهم ليعلموا ويخبروا أهله انه جالس في بلاد النصارى ليسعى بواسطة الامير المعظم معونة وقوة من البابا وباقي سلاطين النصارى ويرجع لبلاده بعمارة[5] قوية ولذلك طلب من حضرة الامير المعظم ينعم عليه بمهما يعتازه بذلك.

أما الأمير المعظم، اذ فهم خاطر الامير المكرم المذكور أراد يكمل طيبة خاطره معه انه بكل الأشياء الممكنة يقنعه ورضي بذلك وسهل احواله في كل بلدانه وبيريد يعطيه مساكن لايقة في مدينة فلورنسيا[6] وعربة لخدمته وخيل من خيله ومونة وعلوفة من شأنه ومن شأن جماعته النياقرش فلورنتية كل عام ولايمان ذلك ثبت ذلك بخط يده وختمه بمهره وعلمه بخط يا صجيه[7] نهار الثاني عشر من ايار سنة الف وستماية واربعة عشر مسيحية في مدينة بيسا[8].

ختم الامير فخر الدين ابن معن

الهوامش

(١) جواريها.
(٢) الحاج كيوان نعمه قتله فخر الدين ١٦٢٣.
(٣) رفاقه.
(٤) الآخرين.
(٥) سفن بحرية.
(٦) فلورنسة.
(٧) كاتبه.
(٨) المشهورة ببرجها العجائبي.

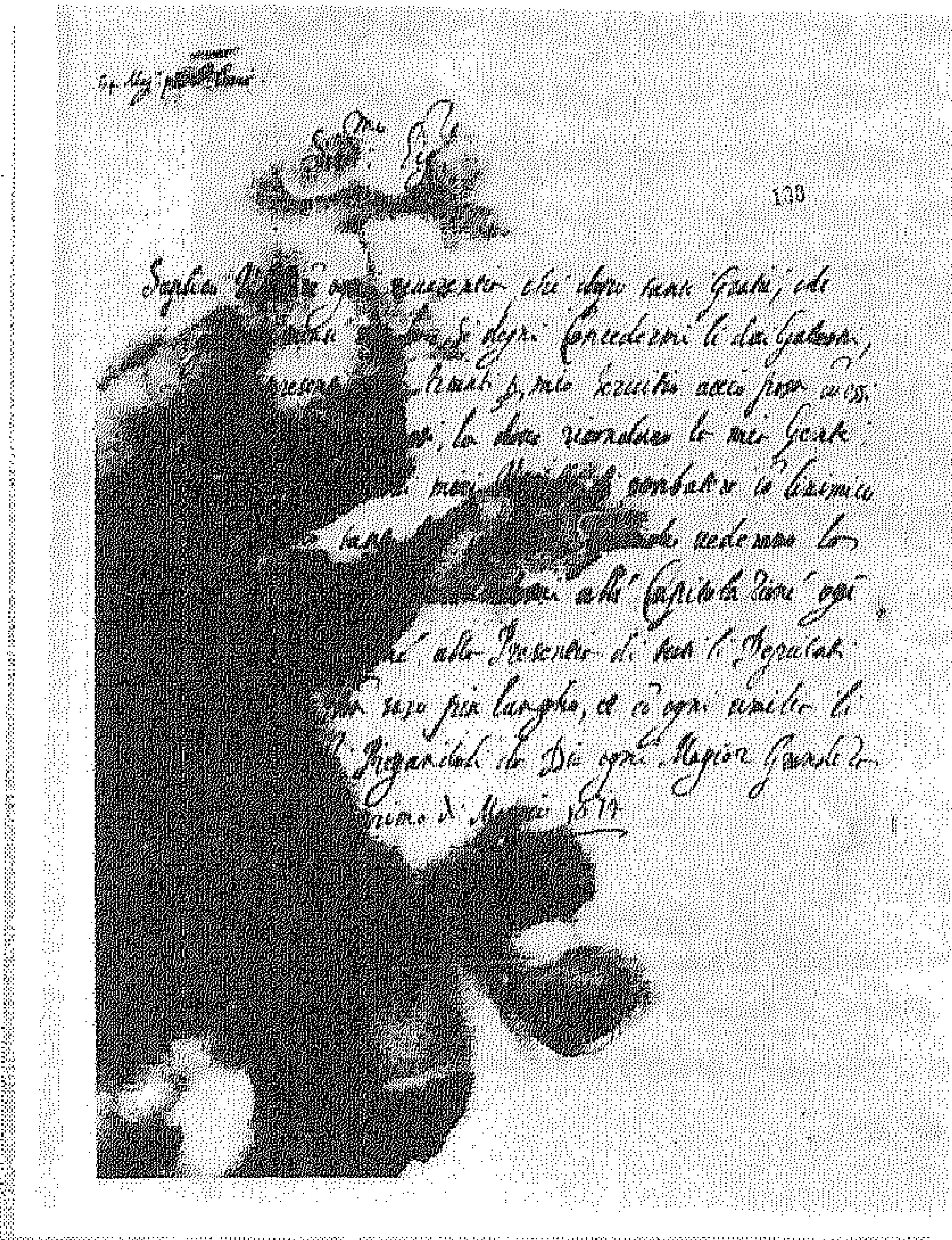
الوثيقة الثالثة

أول أيار ١٦١٧

وملخصها:

يرجو فيها الأمير فخر الدين اعطاؤه سفن بحرية مزودة بالسلاح بهدف الذهاب لبلاده حيث يراها رعاياه ولإذكاء الروح القتالية لديهم وخصوصا عندما يروا شخص الأمير... وفي النهاية وبكل احترام يقبل ثياب الدوق ويدعو الله الشكر الجزيل.

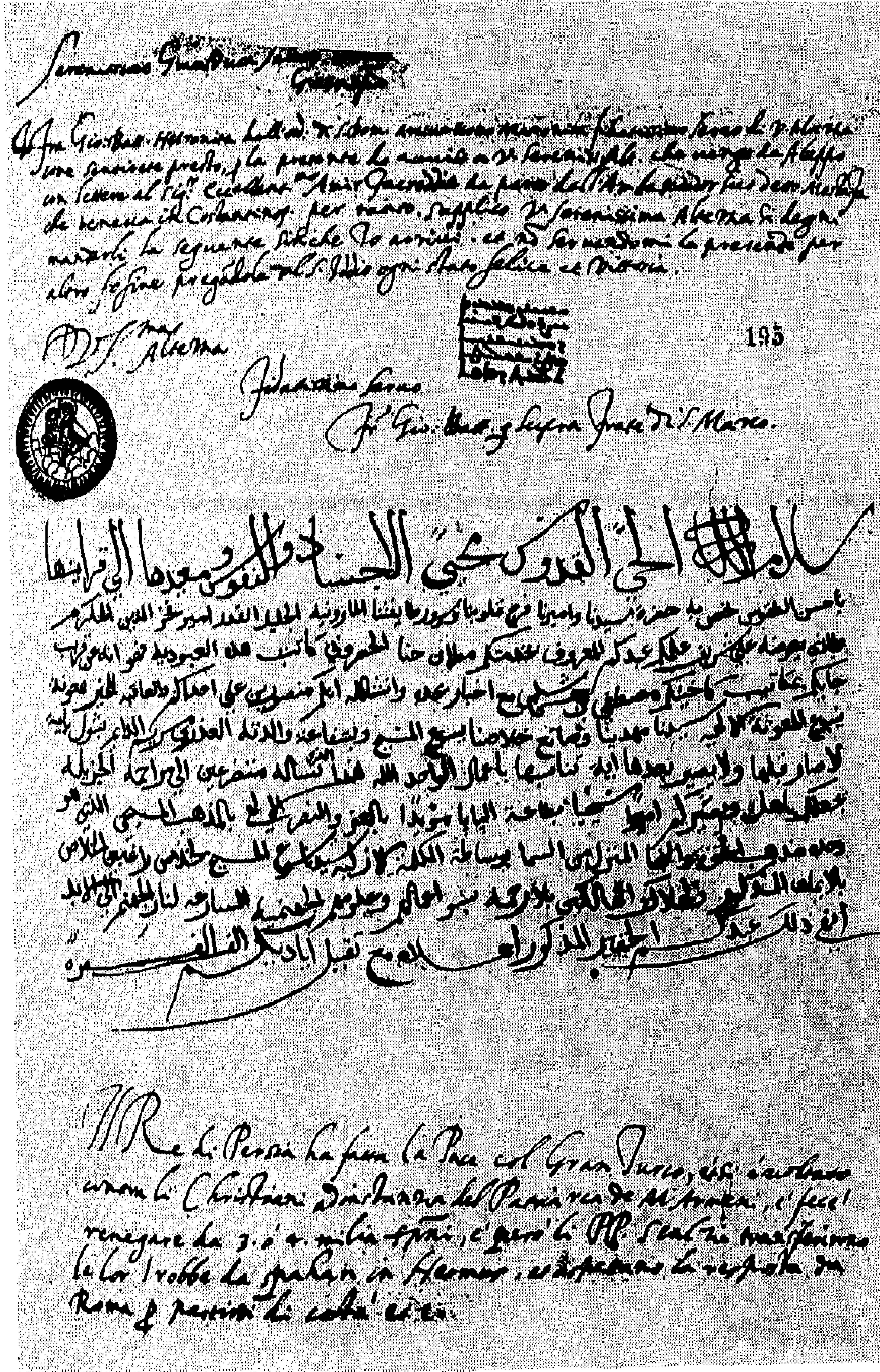
ليفرنو ١٠/ أيار ١٦١٧



الوثيقة الرابعة

رسالة من المطران حنا الحصروني يخبره برسائل من معاونه مصطفى بن حسن شلبي يتمنى له النصر على اعدائه بمعونة السيدة العذراء ويطلب من الله أن يصبح الامير اميرا مسيحيا بطاعة البابا مؤيدا بالعز والنصر الإلهي بالمذهب المسيحي الذي هو وحده مذهب الحق.

في ذيل الوثيقة كتب باللغة الايطالية القديمة وبدايتها ان ملك الفرس قد وقع الصلح مع الاتراك...



195

الوثيقة الخامسة

في سنة ١٦١٨، عاد فخر الدين الثاني من ايطالية فكان نشاطه واسعا اذ استقدم من ايطاليا الخباز والبناء والمهندس والحكيم والحلاق فنشطت التجارة وتحسنت الاحوال الاقتصادية في امارته فدرت له مالاً كثيرا أودع قسما منه مصرف جبل الرحمة باسمه واسم اولاده تحسبا لتقلبات الزمن. ومن المعروف أن حيدر الشهابي حفيد الأمير فخر الدين الذي طالب بتركة جده متخليا عن ثلثها لمجمع انتشار الايمان (Propagauda Christiana).

الوثيقة

في ربيع الثاني سنة ١٠٤٢هـ ١٦٣٢م.
ابراهيم الموراني: هو ابراهيم الحاقلاني مر ذكره.
اليسر: حب المسابح.
البربير: الحلاق.
معلم الجسر: المهندس الذي أتى به فخر الدين من ايطاليا.

خادمكم

فخر الدين بن معن

898

الي حضرة السينيور الغزندوكا والسنيورة مداما حفظهم الله تعالى انا سالتم عنا
وعن اولادنا الجميع بخير من الله وداعيين لكم ان الله يحفظكم مرادكم والشيخ ابراهيم
الموراني يصل لعندنا وهو داعي وشاكر من احسانكم الله تعالى يجعلكم دايمين وتذكرة
البنك بالدراهم حق الحرير وصلت الينا والمبلغ الذي باقي على يدكم حق اليسر
ما وصل الينا فيكون تنعموا على الشيخ ابراهيم في خلاص المبلغ ويشتري لنا برجوع
وقاتي على يده من قبلكم وتجيبوا معه واما المبلغ الذي في البنك وصل لنا
تسكة يقول باقي لنا في البنك هو وفايدته في كل سنة الي زمان نعشاره ونحنا
واولادنا نرسل اليهم بفايدته على قدر السنين الذي يقعد في البنك وفي كل
سنة تحسبوا فايدة الدراهم وتكملوها عندكم وتعطوها في البنك ملفا بره ولا
يضيع لنا شي لان خاطرنا طيب بالله وبكم ولا تعوقوا الشيخ ابراهيم يعاود
لعندنا بالجوخ والقاتي على قدر الدراهم الذي اعطاها خزداره من اجل اليسر
والدراهم الذي اعطيتوها الي البربير والي معلم الجسر والي الخباز سلمناها الي
تنصلكم على يدهم وكلنا لهم على الزمان المحدود عندنا مثل الكبير التاما
بقالهم عندنا شي ابدًا واما معلم الجسر بعده باقي عندنا وحتى ما تخلص شغله
نكمل له اجرته ونوجهه الي بلاده وخاطره فرحان ونحن واولادنا واهالينا
داعيين لكم دايمًا بالخير ومرادنا ان تكون عنا واولادنا داعيين في خاطركم
على المحبة والمصادقة الذي هي ما بيننا ومرادنا دايمًا على طول الايام والزمان
تحريرًا في شهر ربيع الثاني سنة الف اثنين واربعين هجرية



خادمكم
فخر الدين

الوثيقة السادسة

الى حضرة سنيور قان دوكا[١] وسنيورامراما[٢] حفظهم الله تعالى مرادنا منكم تأخذوا ثمن اليسرا من ابراهيم الموراني الذي في بلادنا من جبل لبنان فنخاف[٣] ان الدراهم اذا ضلوا[٤] معه في يد ابراهيم الموراني يضيعهم علينا اذا اخذتم الدراهم منه وصاروا عندكم بيطيب خاطرنا والحكيم والخباز والبنا اعطيناهم اجرتهم على قدر ما عينتم لنا في الزمن الذي قعدوه عندنا على قدر استحقاقهم على يد القنصل الذي كان عندنا من جماعتكم ونحن وأولادنا بخير يبوسو ايديكم ونحن اليوم في تعب قلب كثير الله يعيننا. كتب نهار الثلاثا يوم عشرين في محرم سنة ثلاثة وأربعين الف محمدية على صاحبها الصلاة والسلام.

سربتور[٥]

فخر الدين بن معن

(١) كران دوق.
(٢) السيدة زوجته.
(٣) نخاف.
(٤) ظلوا.
(٥) خادمكم.

□ **جميع الوثائق هي من أرشيف:**

Archivio di Stato Fereze Mediceo de principato, No. 4276.

أوروبا تحت الاحتلال

ابراهيم عامر



انتفاضة الشعب اليوغوسلافي

على طول سنوات الحرب العالمية الثانية، شهدت جميع دول اوروبا حركات المقاومة ضد العدوان النازي، وهي حركات لعبت ادوارا لا يمكن انكارها او تجاهلها في التعجيل بيوم النصر النهائي، وانشأت تراثا غنيا في تاريخ الانسان المعاصر لاساليب ووسائل وقوف الشعوب للدفاع عن كيانها وحريتها، كما كشفت عن مختلف الابعاد الوطنية والعقائدية والسياسية والاجتماعية والنفسية للمقاومة. ذلك ان المقاومة هي ـ في وقت واحد ـ موقف وطني ونضال عقائدي وصراع سياسي. وهذه الحوافز الثلاثة للمقاومة تختلف في اهميتها باختلاف الزمان والمكان، وبالتالي فان اساليب المقاومة ووسائلها تختلف باختلاف هذه الاهمية. لكن المحك النهائي لنوعية المقاومة ومعناها يتوقف على موقف كل فرد وكل فئة وكل طبقة، اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وفكريا من العدو، كما يتوقف على نوع العدو ومدى قدراتها في كل مرحلة من مراحل النضال ضده.



وفي الواقع، فان أوروبا عرفت المقاومة قبل الحرب العالمية الثانية، في الحركات المعادية للفاشية في ايطاليا منذ عام ١٩٢٢، وفي الحركات المعادية للنازية في المانيا منذ عام ١٩٣٤، وفي النمسا منذ ضمها الى المانيا في عام ١٩٣٨، وفي تشيكوسلوفاكيا منذ مارس ١٩٣٩.

وعندما بدأ الغزو الهتلري لاوروبا في سبتمبر ١٩٣٩، بدأت تتشكل حركات مقاومة في الأراضي المحتلة، وهي تحمل أسماء مختلفة ولكنها تقوم بمهمة واحدة هي: رفض الاستسلام والمساومة مع المعتدين والعمل لانزال الهزيمة بهم، ومساعدة القوات المسلحة النظامية على النصر النهائي. وأصبح الاختبار المطروح أمام كل مواطن في أوروبا ــ بصفته الفردية أولا وبصفته الاجتماعية ثانيا ــ هو: المقاومة أم الاستسلام؟

وفي البداية تقبل كثيرون من الناس في أوروبا هزيمتهم العسكرية أمام جحافل النازيين كأمر واقع. وظهر منهم من يدعو الى التعاون مع الغزاة او الوصول معهم الى حلول وسط. وكان البعض لا يرى في الحرب التي تجري من حوله الا مصدرا لبعض المضايقات، مثل نقص التموين وتوزيعه بالبطاقات، ومثل الافتقار الى بعض المواد المعتادة والكمالية، ومثل الاضطرار بسبب الحرب الى الانفصال عن الابن او الأب الذي في الميدان، او عن الأقارب والأحباب.

وكان كثيرون يدعون بصراحة الى موقف الانتظار والتروي، بل وقد غرتهم في البداية أساليب التعقل والتأدب التي تظاهر بها العدو وقواته في معاملاته وتصرفاته، او أثرت فيهم دعايات النازية عن قوة المانيا الهائلة، وحسن تدريب جنودها وضباطها، وحتمية انتصار أسلوب حياة «اوروبا الجديدة» في النهاية.

لكن ما ان مرت الأيام بعد الصدمة الأولى حتى تبين الكثيرون أبعاد المؤامرة النازية، وحتى أدركوا ان «أوروبا الجديدة» الهتلرية ليست سوى اوروبا المحرومة من الحرية، بل والمحرومة من حق الوجود، ولم يكن أمامهم سوى أن يقاوموا العدوان الهتلري عليهم بجميع الوسائل المتاحة، وان يطوروا مقاومتهم، حتى بلغت مبلغ التجربة التاريخية الشاملة التي يؤرخ لها المؤرخون حتى أيامنا هذه.

ويتضمن «تاريخ الحرب العالمية الثانية» الذي صدر في بريطانيا، فصولا كاملة من تاريخ المقاومة بمختلف أساليبها، نقدم منها ــ هنا ــ تلخيصاً جديراً بالدراسة والتفكير فيه والاستفادة منه.

السرية المطلقة

أول ما تلاحظه على حركات المقاومة الاوروبية، في ظل الاحتلال النازي، هو السرية، والسرية المطلقة.

وبعد ذلك نلاحظ ان المقاومة تبدأ بالكراهية السلبية للعدو، ثم تتطور إلى العداء النشط المنظم، ثم تبلغ ذروتها في النضال اليومي الدائب لكل مواطن ولكل فئة ولكل جماعة.

والحد الأدنى من المقاومة هو المقاومة السلبية.

وتتخذ المقاومة السلبية شكل ردود فعل فردية سلبية، أو شكل ردود فعل جماعية. وميزتها هي انها نوع من المقاومة المأمونة العواقب والتي



الفتيات والفتيان اشتركوا في تحرير باريس من الاحتلال الالماني

يستطيعها كل فرد دون أن يتعرض لخطر جسيم.

وفي اوروبا، وفي بداية الغزو النازي، اتخذت المقاومة السلبية عدة أشكال منها أبطاء الموظفين عمدا في اداء مهام وظائفهم، ووقوع المهندسين والعمال عمدا في أخطاء وعيوب أثناء عملية الانتاج وبدون ان يصل الأمر الى حد التخريب، والتكاسل والبلادة أو الحماس الأجوف الزائد على الحد، أو مجرد الغياب عن العمل، أو الامتناع من سماع دعايات العدو.

وإلى جانب المقاومة السلبية، توجد المقاومة النشيطة، أي المقاومة باستخدام جميع الاسلحة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنفسية.

ومن أساليب المقاومة النشيطة التي عرفتها اوروبا في ظل الاحتلال النازي، توزيع المنشورات والصحف السرية، والاستماع الى الاذاعات المعادية للعدو، ونشر كلمة «المقاومة» وضرورتها بين الناس، وتجميع المعلومات عن تحركات العدو وأعماله، ومساعدة الفدائيين الذين يتسللون إلى الأراضي المحتلة للقيام بعمليات التخريب والغارات المسلحة.

ولقد دلت تجربة المقاومة في اوروبا المحتلة على أن رجل المقاومة هو مثل الطيار: فكما ان الطيار يحتاج الى مساعدات أرضية متعددة، فان رجل المقاومة يحتاج الى كثيرين يساعدونه من وراء خط المقاومة.

على أن الهدف النهائي لجميع أشكال المقاومة السلبية والنشيطة كان دائماً ــ في اوروبا المحتلة ــ هو الوصول الى مرحلة المقاومة المسلحة الشعبية واعداد الأرض لعمليات القوات المسلحة النظامية في جهودها لانزال الهزيمة العسكرية النهائية بالعدو.

تجارب هامة

وإذا استعرضنا على هذا الأساس العام أهم سمات حركات المقاومة في مختلف البلاد الاوروبية فاننا نلاحظ:

في هولندا:

كانت المقاومة في البداية مقاومة فئات اجتماعية مختلفة: رجال الدين ــ الطلبة ــ

الأطباء ــ الشيوعيون. واتخذت المقاومة اساسا شكل الاضرابات العمالية، والمقاطعة الادارية، وأعمال المخابرات، وتوزيع المنشورات والصحف السرية، وذلك لصعوبة القيام بأعمال مقاومة مسلحة واسعة النطاق نتيجة لأن هولندا بلد سهل، والمواصلات بها عديدة، وكانت أبرز قوى المقاومة في صفوف الطبقة العاملة.

في فرنسا:

كانت شبكة المقاومة ممتدة شديدة التعقيد بسبب وجود منطقة غير محتلة عرفت باسم «منطقة حكومة فيشي الحرة» وكانت حكومة هذه المنطقة تساوم ضد المقاومة مستغلة بذلك سمعة الماريشال بيتان، كما كانت تستغل الكراهية التقليدية للفرنسيين تجاه الانجليز وخاصة بعد هجومهم على «المرسى الكبير».

لكن معظم الفرنسيين كانوا غاضبين على الجمهورية الثالثة. واستجابوا على الفور لنداء الجنرال ديجول بالمقاومة الذي أذاعه من لندن في ١٨ يونيو (حزيران) ١٩٤٠ واشتركت في حركة المقاومة الفرنسية أحزاب سياسية مختلفة: ديجوليون، وشيوعيون، وراديكاليون، واشتراكيون، وجمهوريون ومستقلون.

وكان من أبرز القوى المشتركة في المقاومة الطلبة الذين نظموا الاضرابات المتتالية، والعمال وخاصة عمال السكك الحديدية الذين شنوا على العدو حرباً خفية عرفت بعد ذلك باسم «حرب البيانات» حينما كانوا يقومون بوضع بيانات خاطئة على الصناديق الالمانية المشحونة بالقطار، فأحدثوا بلبلة وعرقلة ملموسة للمجهود الحربي الالماني. كما كانت فرق المقاومة المختلفة تقوم باغتيال الجنود الألمان واعدام من يتعاون معهم.

في بلجيكا:

أثرت سرعة الهزيمة العسكرية في مايو (أيار) ١٩٤٠ على البلجيكيين، فأصابت الكثيرين منهم بالبلبلة، كما تظاهر العدو بالتصرف المهذب تجاه الأهالي، ونجح في التأثير على عقول الكثيرين بزعمه أنه المنتصر.

وساعد على ذلك أيضاً وجود خلافات قومية بين البلجيكيين أنفسهم، وبقاء الملك ليوبولد في البلاد وتعاونه مع الالمان.

ومع هذا، فقد استطاع الشيوعيون البلجيكيون أن يكونوا جيش تحرير من مجموعة صغيرة كرست نفسها للمقاومة، واستيقظت في قلوب البلجيكيين روح التقاليد الوطنية العميقة الجذور، ودخلت قوى وطنية عديدة ميدان المقاومة، تخرب وتصدر الصحافة السرية وتقوم بأعمال المخابرات ضد العدو، كما ظهرت مقاومة مدنية في الجامعات والبيوت.

ونظراً لكل هذه الظروف، لم تنجح جميع الجهود التي بذلت في توحيد فرق ومجموعات المقاومة في بلجيكا حتى انتهاء الحرب.

في الدانمرك:

لم تعرف الدانمرك مقاومة للغزو النازي، إلا في شكل أعمال محدودة من أعمال المخابرات، وذلك بسبب نجاح الألمان في بلبلة الأفكار بحجج قانونية عن استقلال الدانمرك واستمرار نظامها الملكي.

في النرويج:

عرفت النرويج رئيسا للوزراء متعاملاً وعميلاً للالمان أصبح اسمه في التاريخ علما على كل خائن لوطنه وهو «كويسلنج» وقد قام كويسلنج هذا بضرب كل حركة مقاومة ظهرت، وبتحذير الشعب النرويجي لكي يتقبل نظام هتلر «الجديد».

مع هذا، فقد نشأت حركة مقاومة نرويجية صغيرة وسرية جدا، ألفها ــ اساساً ــ العسكريون، وقررت أن تتجنب الدخول في أي صدام عسكري مع العدو قبل الأوان، لكنها ساعدت ــ سراً ــ الغارات التي كانت تقوم بها قوات «الكوماندو» البريطانية على مراكز العدو المتطرفة.

في تشيكوسلوفاكيا:

بدأت المقاومة عقب اتفاقية ميونيخ التي عقدت في سبتمبر (أيلول) ١٩٣٨. وتميزت بوحدة الأحزاب اليمينية والشيوعيين، تحت قيادة الرئيس بنيش الذي كان موجوداً في لندن. كما تكونت حركة المقاومة من الضباط أساساً، وضمت سياسيين ومثقفين وعمالا.



فتاة هولندية تخفي آلة تصوير في حقيبتها، بينما وقفت زميلتها تراقب الطريق



ديغول

وكان أسلوب المقاومة في تشيكوسلوفاكيا هو أسلوب الاضرابات، والمنشورات والصحف السرية، واجتماعات التوعية الجماهيرية.

في البانيا واليونان:

اتخذت المقاومة في البانيا أسلوب التخريب، وعمليات «الانصار» اللاجئين في الجبال.

أما في اليونان، فقد عانت المقاومة من الانقسام الشديد في الرأي العام الوطني، ومن استمرار حدة الصدام داخل صفوف المقاومة بين الاتجاهات السياسة والعقائدية المختلفة.

في يوغوسلافيا:

كانت المقاومة معقدة بسبب تعقد قضية القوميات اليوغوسلافية: الصرب، والكروات، والسلوفيون، والمونتجريون، والمقدونيون، وبسبب تعدد قوى الاحتلال: الالمان والايطاليون والبلغاريون والمجريون، وبسبب قيام حكومتين «مستقلتين» عميلتين في كرواتيا وصربيا — الاوستاش والتشتنيك — وبسبب وقوف الفلاحين موقف سياسة الانتظار.

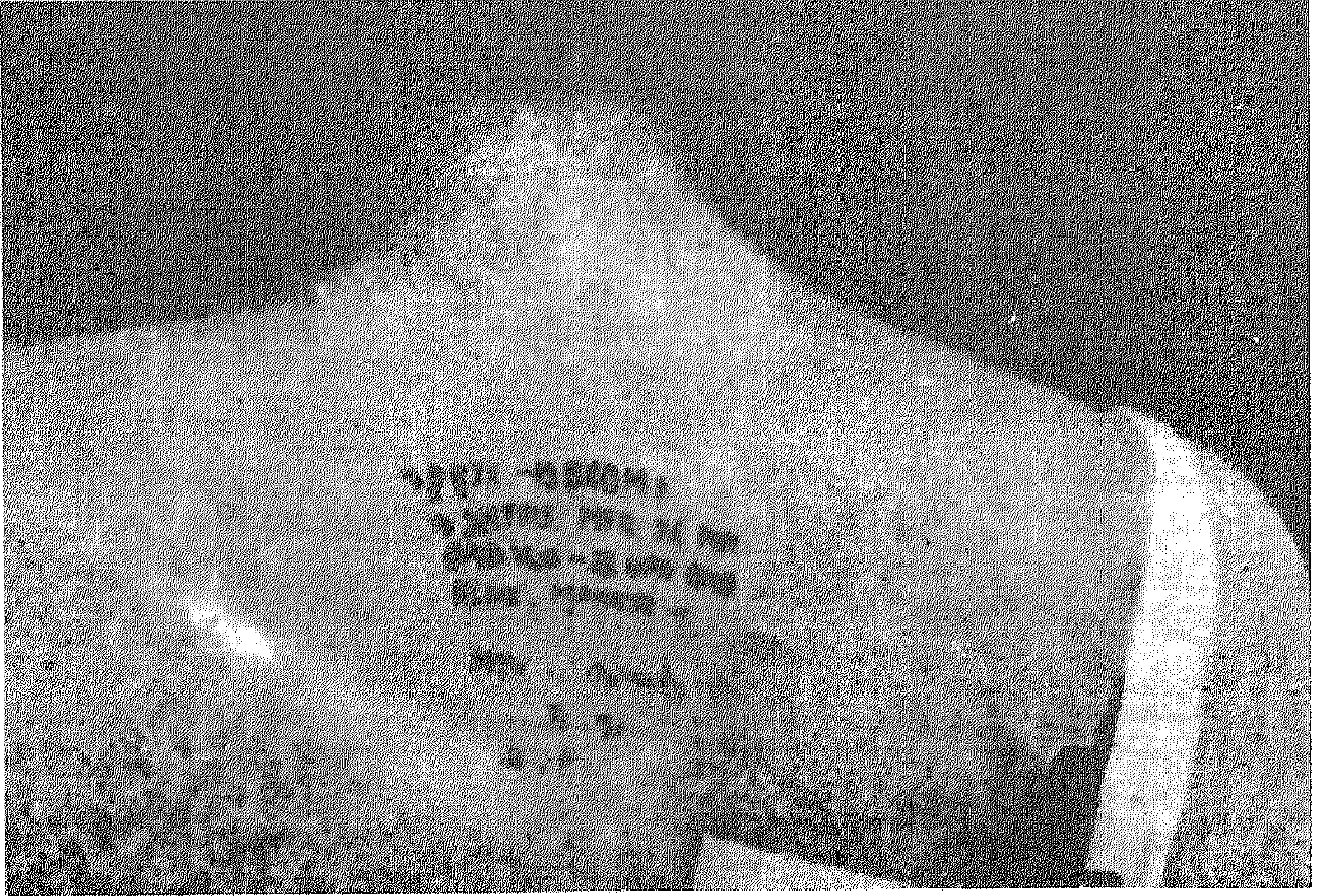
ومع هذا، فقد استطاعت حركة المقاومة، بقيادة جوزيف بروز، الذي أصبح معروفاً باسم «تيتو» أن تنمو، وان تخلص البلاد من الاحتلال الأجنبي.



تيتو

في بولندا:

لم تضع بولندا وقتا في تنظيم المقاومة، إذ سرعان ما ظهرت فيها مقاومة تلقائية نشيطة جماعية لأن شعب بولندا قد اعتاد منذ قرون طويلة على النضال من أجل حريته، وتعتبر حركات المقاومة السرية احد تقاليده الوطنية



شفرة بالحبر السري على ظهر احدى المشتركات في المقاومة السرية

التليدة. ولم تكن هناك ضرورة لاستثارة أي حوافز في صفوف شعب بولندا لكي يهب للنضال عن كيانه وحريته.

وضمت المقاومة جميع الطبقات والفئات في وحدة رائعة. وساعد على النجاح ضعف المواصلات، وكثرة الغابات والمستنقعات، وانضمام المثقفين والموظفين إلى حركة المقاومة، وعدم ظهور أي «كويسلنج» أو خائن.

ولم تكن قوات المقاومة في اوروبا المحتلة تحمل اسما واحدا. فلقد كانت هناك حركات «الجويريللا» وهو الاسم الذي أطلقته حركة المقاومة الاسبانية ضد غزو نابليون على نفسها. وكانت هناك فرق «البارتيزان» أو الأنصار. وكانت هناك فرق «الماكي». ثم كانت هناك فرق «الكوماندو».

وكانت فرق «الكوماندو» مجموعات صغيرة، لا يزيد عدد أفراد كل منها على مائة جندي نظامي، وجنودها مدربون.

وقد تميز جنود «الكوماندو» بالشجاعة، وشدة التحمل البدني، وروح المبادرة، ودقة الأحكام، والنشاط، والاعتماد على النفس، وروح الكراهية ضد العدو، والتخلص من كل خوف من الحرب أو الموت، والقدرة على العمل لساعات أطول وفي مهام أشق وبفترات راحة أقصر، مع خبرة واسعة في الاستطلاع من ملاحظة وتخف، والقدرة على الحركة فوق أي نوع من أنواع الأرض بالليل أو النهار.

وهكذا، فان حركات المقاومة، تحتل اليوم مكانة بارزة وجوهرية في تاريخ الشعوب في نضالها الدائب من أجل الدفاع عن كيانها وحريتها. وهي تمثل ـ على حد قول مؤرخي الحرب العالمية الثانية ـ أعظم مهمة يمكن أن يقوم بها المواطن والجندي، بدون روتين مكتبي، وبدون انتظار لعلاوة أو ترقية أو بدل. والنجاح في عمليات المقاومة يعتمد فقط على النفس وعلى الذين يشاركون فيها.

وكما يقول الدكتور جان ـ ليون شارل، في تاريخه للمقاومة الاوروبية، فان المقاومة ضد العدوان الأجنبي هي ذروة الثورية في كل زمان ومكان. ●

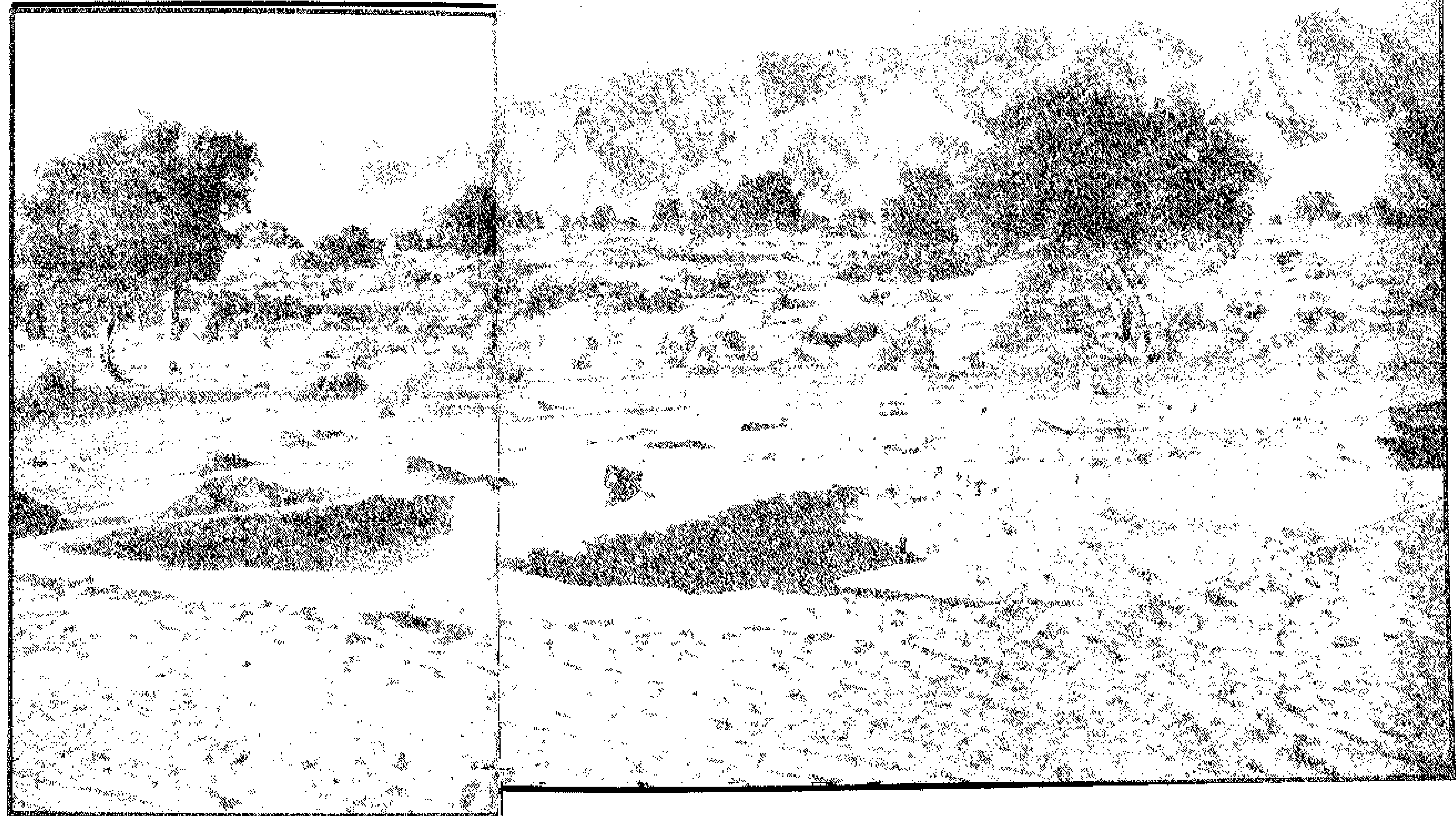
التنقيب في مليحة في إمارة الشارقة

دولة الامارات العربية المتحدة

قسم التوثيق والأبحاث

تقع مليحة على بعد ٢٠ كيلومترا الى الجنوب من منطقة الذيد التي تبعد ٥٠ كيلومترا الى الشرق من الشارقة ومنطقة مليحة من المناطق الصحراوية التي تكثر فيها روابي الرمال وأخاديد الوديان. وتحدها من الجهة الشرقية سلسلة جبال وعرة تمتد من الجنوب حتى تنتهي برؤوس الجبال الى الشمال من رأس الخيمة (جلفار). أما من الجهة الغربية فتحدها سلسلة جبلية ممتدة من الشمال الى الجنوب بطول عشرة كيلومترات تقريبا. وهذه السلسلة غنية بخامات الحديد وبالمواقع الدفاعية. ان عموم منطقة مليحة ترتبط ارتباطا وثيقا مع منطقة أثرية هامة تقع على بعد ١٢كم الى

موقع مليحة، الحارة الأولى اثناء بدء التنقيب.



الجنوب وتسمى المدام. وهذه الأراضي تكون سهلا ممتدا من الشمال الى الجنوب تكثر فيه النخيل والأشجار المثمرة والأشجار الطبيعية كالسمر اضافة الى الشجيرات. ان توفر المياه وخصوبة التربة وكذلك وجود خامات الحديد ساعدت على استيطان هذه المنطقة منذ أقدم العصور ووجود الروابي الأثرية العديدة ما هي إلا شاهد على ذلك.

يتكون هذا الموقع من امتدادات استيطانية متفرقة تتألف من روابي تنتشر فوقها بقايا أثرية يستدل عليها من الكسر الفخارية وقطع الحديد على شكل خامات وأجزاء لقطع مصنوعة بشكل سيوف ورؤوس حراب. ويمكن تقدير المساحة الكلية لهذا الموقع بصورة تقريبية، وذلك بحصرها في دائرة قطرها كيلومتر ونصف.

التنقيب

قامت البعثة العراقية الموفدة الى دولة الامارات العربية المتحدة والتي تولت التنقيب في موقع مليحة بعد أن درست ملتقطاته السطحية، باختيار نقاط متعددة من الموقع فعملت فيها مجسات اركيلوجية حيث تمكنت بهذه الوسيلة من اختيار أربع حارات للتنقيب. وفيما يلي أهم النتائج التي توصلت اليها البعثة خلال موسمها الأول لعام ١٩٧٣.

الحارة الأولى:

فتح في هذه الحارة الواقعة بالقرب من الطريق الترابي الواصل بين مزرعة مليحة ومقر المكائن الكهربائية حفرة مساحتها ١٠ × ١٠م ظهرت فيها بقايا غرف مشيدة باللبن لم يتبق منها سوى الأسس حيث اندثرت الأجزاء الأخرى. استعمل اللبن غير المنتظم والمعمول من طينة ممزوجة بفتات الكلس في بناء هذه الغرف ويقدر سمك كل لبنة بـ ١٥سم تقريبا. لقد أقيمت أسس هذه الأبنية فوق الرمال مباشرة حيث أن عوامل التعرية من أمطار ورياح سببت في إزالة أقسام كبيرة منها.

أما أهم اللقى الأثرية المكتشفة في هذا الجزء من التنقيب فلا تتعدى كسر الفخار حيث لم يعثر على نماذج كاملة منها إلا ان أشكالها معروفة في

الفترة الهلنستية وهي الفترة التي امتزجت بها الحضارة اليونانية بالحضارات الشرقية، وكان ذلك في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. وقد كان مثل هذه الفخاريات المكتشفة مستعملا للطبخ وخزن السوائل والحبوب.

الحارة الثانية:

تقع هذه الحارة شرق الحارة الأولى وهي عبارة عن رابية صغيرة قطرها ١٤ متر تقريبا وارتفاعها متران. فتح في هذه الرابية خندقا بعرض مترين ممتدا من الغرب الى الشرق. وقد أثبت الحفر هنا بأن هذه الرابية تتألف من مواد كلسية منقولة من مكان آخر استفيد منها في أغراض الدفاع. ومن الجدير ذكره بأن هذه الرابية خالية من المكتشفات الأثرية.

الحارة الثالثة:

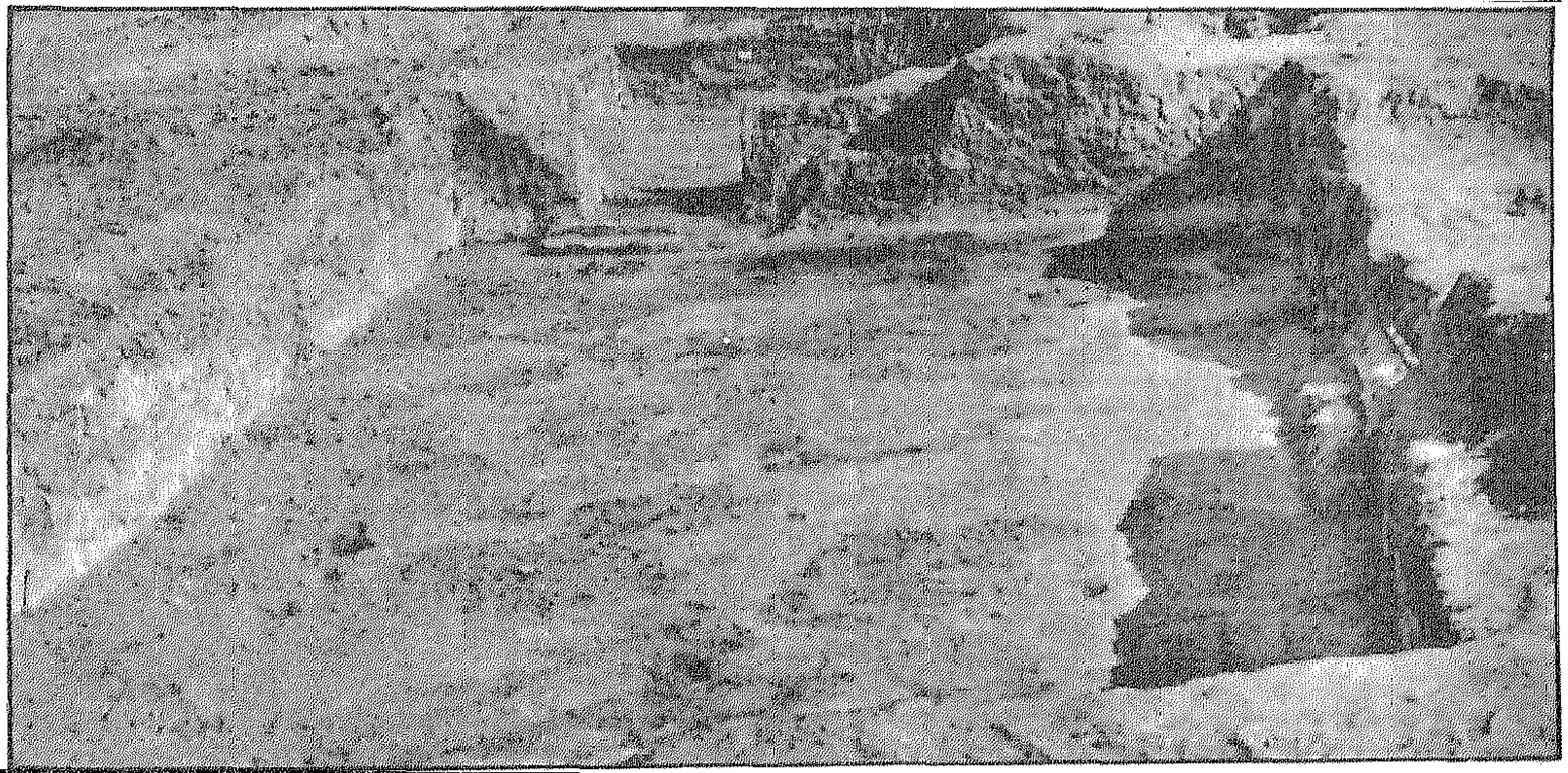
تقع هذه الحارة الى الشرق من الحارة السالفة الذكر، وقد كشف فيها عن قبر مربع الشكل (٣,٦٥ × ٣,٦٥ مترا) ذو جدران بسمك ٧٥ سم مشيدة بالطابوق المربع المصنوع من الجص ٤٥ × ٤٥ × ١٢ سم. اما جدران هذا القبر فتغور الى عمق ٣,٥ م ويبدو بأنه كان ظاهرا بارتفاع مترين فوق سطح الأرض. وللمكتشفات الأثرية التي عثر عليها في هذا القبر أهمية كبيرة، فقد عثر على ثلاث كسر لمقابض جرار من الفخار على أحداها طبعة ختم منبسط تتوسطه زهرة اللوتس محاطة بكتابة يونانية. أما الكسرتان الأخريان فعليهما كتابة يونانية أيضا تعود الى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. ومن المكتشفات الأخرى مجموعة كبيرة من بقايا السيوف والسهام الحديدية وكذلك أجزاء من جرار فخارية مزججة وجدت مبعثرة في أماكن مختلفة من القبر.

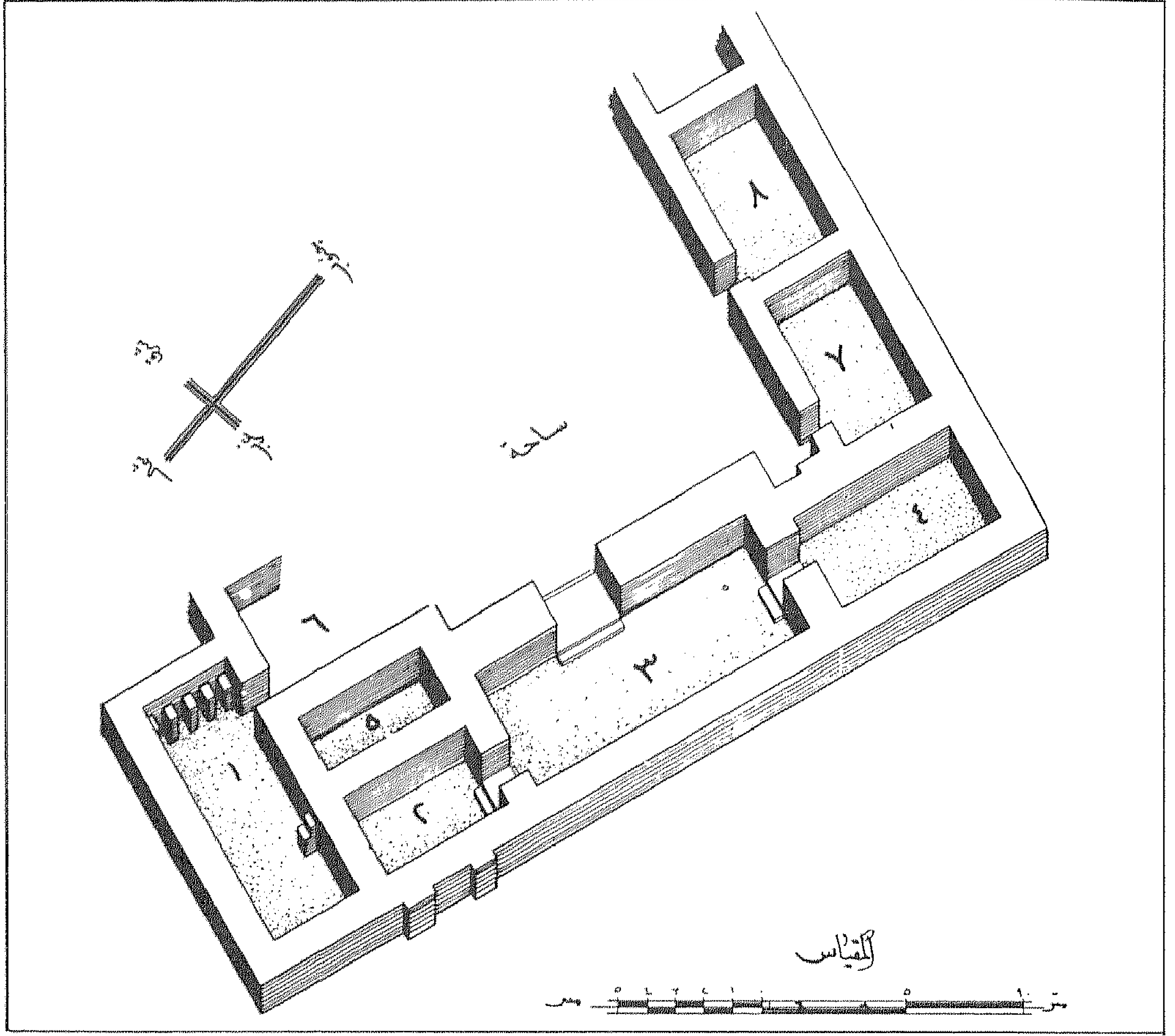
أما أرضية القبر فقد كشفت على عمق ٣,٥ م عن مستوى سطح الأرض وكشف في هذه الأرضية عن حفرة مستطيلة طولها ١,٢٥ وعرضها ١/٢ متر وعمقها ١/٢ متر كذلك. وقد عثر داخل هذه الحفرة على بقايا لكأس من النحاس وآخر من الزجاج مع بعض السهام ولم يعثر على أية بقايا عظمية إذ من المحتمل أن يكون قبراً رمزياً. ومن الجدير ذكره أن القبر كان قد تعرض إلى أعمال السرقة والتخريب. ومن المحتمل أن يكون السقف الذي لم يبق منه شيئاً يذكر بشكل مقبب أو مسنم على غرار القبور الأخمينية واليونانية.

الحارة الرابعة:

تقع بين الحارتين الثانية والثالثة وتعتبر من أكبر الحارات المنقبة. وهي عبارة عن مستوطن منبسط ترتفع أرضيته قليلاً عن مستوى الأرض

مليحة، قاعات اكتشفت في الحارة الرابعة، لاحظ الجدران والأرضية المطلية بالجص.





حفريات البعثة العراقية، منظور من الجو لمخطط البناء المكتشف في حفريات مليحة، الشارقة، دولة الامارات العربية المتحدة، الحارة الرابعة ١٩٧٣.

المجاورة، تنتشر عليه لقى أثرية متنوعة كالفخار والزجاج والحديد.

كشف في هذه الحارة عن قصركبير يتألف من غرف ومرافق متعددة مشيدة باللبن كسيت أرضيتها بطبقة من الجص. لقد أصاب هذا البناء حريق كبير حدث في الأزمنة القديمة حيث ان جميع الجدران والأرضيات وجدت محروقة بشدة.

وقد كشف التنقيب في الموسم الأول عن ثمان غرف ولا تزال غرف أخرى تنتظر يد المنقبين. وهذه الغرف تختلف من حيث السعة والاستعمال ويختلف سمك جدرانها من ٧٥ سم ــ ١,٧٠ م. وأكبر هذه الغرف رقم (٣) وتبلغ مساحتها ١٠,٨م × ٤,٤٠م ولها ثلاثة مداخل ذات عتبات. أما المدخل الرئيسي فيبلغ عرضه مترين ويقع في الضلع الشرقي من القاعة وينفذ إلى ساحة خارجية وقد أغلق هذا المدخل في أدوار متأخرة بواسطة أحجار غير مهندمة. أما المدخلان الآخران فهما جانبيان كل منهما ينفذ إلى غرفة احداها بقياس ٥ × ٣م والأخرى ٦,٣٠ × ٣م. وقد عثر في القاعة الكبيرة رقم (٣) على كثير من المواد الأثرية المحروقة منها كميات من الأطعمة كالتمر والحبوب. ويظهر بأن هذه المواد الغذائية كانت مخزونة بسلال من جريد النخل حيث عثر على نماذج منها. وقد عثر كذلك على كسر من الأخشاب والزجاج والعاج ووجدت بعض قطع القماش المحروق وكسر عديدة من أواني الفخار العادي وللزجج.



مليحة: مدخل إحدى القاعات المكتشفة في الحارة الرابعة. لاحظ الدكة عند بداية المدخل

نلي القاعة رقم (٣) من حيث السعة القاعة رقم (١) فمساحتها ٨,٥٥ × ٣,٤٥م كشف في ضلعها الشرقي أربع كوات للخزن، وقد عثر في احدى هذه الكوات على جـرة خزن متـوسطة الحجم وفي الكوة الثانية عثر على مجرمة من الحديد. أما الضلع الجنوبي من هذه القاعة فقد أقيمت في منتصفه دكة من اللبن ذات درجتين وجد فوق السفلى منها وعاء حجري ربما كان مسندا لجرة من الفخار. ومن الآثار البارزة التي عثر عليها في هذه القاعة جرة كرويـة من الفخار مزججة من الداخل والخارج ذات قبضة واحدة، إضافة إلى صحنين غير كاملين من الفخار وكأس صغير من النحاس.

أما الغرفة رقم (٥) فطولها ٤,٨٠م وعرضها ٢,١٠م عثر فيها على موقد للنار. أما الغرفتان ٧ و٨ فمتشابهتان من حيث الحجم إذ يبلغ طول كل واحدة ٥,٧٠م وعرضها ٣,٢٥م لكل منهما مدخل يطل على الساحة وعثر في داخل الغرفة رقم (٨) على مجموعة من كسر الزجاج وعدد من الخرز المعمول من الأحجار الكريمة وبعض العاجيات



مليحة: قاعة كبيرة من قاعات الحارة الرابعة. لاحظ كوات الخزن في نهاية القاعة

والصدف. أما الغرفة رقم (٧) فعثر بداخلها على سوار من الزجاج. وقد عثر في الغرفة رقم (٤) على نقد نحاسي تالف. أما الساحة التي تتوسط البناء فقد عثر فيها على صحن من الحجر ذو ثلاثة أرجل مع وعاء فخاري ذو قبضة شبيهة بقبضات السلال.

وختاما يجب أن نذكر بأن اللقى الأثرية التي عثر عليها في الحارة الرابعة تعـود الى العهد المعروف بالهلنستي والذي امتد كما يبدو الى منطقة الخليج ابان فتوحات الاسكندر الكبير التي بدأت في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد ويجب أن لا ننسى كذلك الصلات الحضارية لهذه المنطقة مع كل من الهند وبلاد وادي الرافدين في ذلك العهد.

●

□ **اعتمدنا في مقالنا عن مليحة على التقارير الشهرية المقدمة من قبل بعثة الآثار العراقية التي نقبت في مليحة وكذلك على مقالة الدكتور طارق مظلوم رئيس البعثة والمنشورة في مجلة سومر لسنة ١٩٧٣. وقد أعدنا نشر قسم من المخططات. لمزيـد من التفصيل يراجع العدد المذكور من سومر.**

الخطة العلميّة لعام ١٩٨٢-١٩٨٣

جامعة البصرة - مركز دراسات الخليج العربي

يقوم مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، بجهود مشكورة في مجال التخطيط العلمي، وقد قام مؤخرا مجلس المركز العلمي بوضع خطط علمية، ودراسات اقتصادية وسياسية واستراتيجية ولغوية وادبية، واجتماعية وفولكلورية، سيحاول المركز بمختلف شعبه تنفيذها خلال العام الدراسي، ١٩٨٢ ــ ١٩٨٣.

وقد تكرم المركز فبعث الينا بملخص لكل الدراسات والخطط الموضوعة، ونحن في المجلة اذ نشكر هذا الجهد، نقدم هنا ملخص خطة شعبة الدراسات الاقتصادية.

تحاول شعبة الدراسات الاقتصادية ان تنفذ خطتها العلمية للعام الدراسي ١٩٨٢/١٩٨٣ وذلك من خلال قسم الاقتصاد بكلية الادارة والاقتصاد/ جامعة البصرة وبالتعاون مع الاقتصاديين في المراكز والجامعات العراقية والخليجية.

تتناول الخطة ما يلي:

أولاً ــ البحوث والترجمة والاصدارات:

١ ــ اعداد كتاب عن مشاكل اقتصاديات الخليج العربي يتناول كل فصل منه موضوعا اقتصاديا عن قطر من أقطار الخليج العربي أو المنطقة يجري الاتفاق بين مشرف الشعبة الاقتصادية وباحثين من قسم الاقتصاد بجامعة البصرة والأقسام الناظرة في جامعات الخليج العربي لاختيار الموضوع والقطر (او المنطقة) على ان تكون من الموضوعات التي لم تطرق كثيرا من قبل الباحثين. سيحتوي الكتاب على ١٠ ــ ١٥ بحثا أصيلا بموضوعات مختلفة.

٢ ــ تأليف كتاب عن المنجزات الاقتصادية لثورة ١٧ ــ ٣٠ تموز الظافرة دراسة مقارنة لفترتي ما قبل الثورة وبعدها. من أجل إصدار الكتاب بصفة جهد علمي متميز سيشارك في التأليف ٢ ــ ٣ اقتصاديين من قسم الاقتصاد بجامعة البصرة من ذوي الكفاءة العلمية المتطلبة وباختصاصات مكملة لبعضها البعض.

٣ ــ اعداد كتاب عن اقتصاديات الخليج العربي قبل ظهور النفط يتناول كل قطر على حده مع دراسة شاملة للمنطقة جميعها ويتضمن تحليلاً لهيكل الاقتصاد والقطاعات الاقتصادية مع تحليل العلاقات بين القطاعات في القطر الواحد وبين القطاعات المتناظرة في الأقطار الخليجية.

٤ ــ تسهيلا لعمل الباحثين في الشؤون الاقتصادية لأقطار الخليج العربي تروم الشعبة أعداد فهرس البحوث الاقتصادية في الدوريات العلمية التي تتناول منطقة الخليج العربي أو أحد أقطارها. يتضمن الفهرس البحوث المنشورة في المجلات العلمية ذات الطابع التحليلي الأكاديمي يشمل الفهرس فترة الخمس سنوات ١٩٧٨ ــ ١٩٨٢ سينظم الفهرس حسب الموضوعات والأقطار مع نبذة مختصرة (٥ ــ ١٠) أسطر عن كل بحث لتعريف الباحثين بالبحث وموضوعه. ويعاد ترتيب البحوث (بدون

النبـذة) حسب الحـروف الأبجـديـة لأسمـاء الباحثين.

٥ ـ اعداد كراس يحوي جميع الاحصاءات الخاصة بأقطار الخليج العربي التي يحتاجها الباحث الاقتصادي. تغطي الاحصاءات فترة ١٥ سنة تنتهي بعام ١٩٨١. يقسم الكراس الى فصول يتناول كل منها موضوعاً اقتصادياً مثل احصاءات الدخل القومي: الزراعة، الصنـاعة، الأيدي العاملة.. الخ. تستخدم الأرقام المطلقة بالعملات المحلية لكل قطر، مع إضافة أرقـام قياسية للاحصاءات الرئيسية.

ثـانياً ـ المشـاركة في الكتـابة بمجلة الخليج العربي والدوريات والصحف:

ستحاول الشعبة الاقتصادية حث الباحثين في قسم الاقتصاد بجامعة البصرة على الاشتراك بما لا يقل عن بحث وعرض لكتاب وغيرها من الاسهامات بمجلة (الخليج العربي) الصادرة عن المركز، ومتابعتهم باستمرار. كما تحاول الشعبة بالتعاون مع قسم الاقتصاد تشجيع الباحثين بالقسم في الكتابة بالصحف المحلية والخليجية حول المسائل الاقتصادية الآنية.

ثالثاً ـ الحلقات العلمية:

الاشتراك في الحلقات العلمية التي ينظمها قسم الاقتصاد بجامعة البصرة لتعريف أعضاء القسم بنشاط الشعبة الاقتصادية ومشـاريعها العلميـة من أجل حثهم عـلى المساهمـة بهذه النشاطات والاتفاق مع القسم المذكور لتخصيص بعض حلقاته العلمية لموضوعات خطة الشعبة التي سيساهم بها أعضاء القسم.

رابعاً ـ الزيارات العلمية:

ستقوم الشعبة بدعوة شخصية أو أكثر من الشخصيات الاقتصاديـة المرمـوقة في منـطقة الخليـج العربي لالقـاء محاضـرات من خلال التعـاون مـع قسم الاقتصـاد بكليـة الادارة والاقتصاد لجامعة البصرة. تنسق الدعوة مع القسم المذكور.

خامساً ـ الاتفاقيات العلمية:

الاستفادة من بنود الاتفاقيات المعقودة بين المركز والجهات العلمية بما يخص عمل الشعبة وتحقيق أهدافها العلمية وتعريف تلك الجهات بنشاط الشعبة من جهة والتعرف على أنشطة تلك المؤسسات والحصـول على نتـاجاتهـا العلمية واستغلال بنود بعض الاتفاقيات فيمـا يخص الزيارات المتبادلة من أجل اشتراك أعضاء قسم الأقتصاد باعتبارهم باحثين مهتمين بنشـاطات الشعبة الاقتصادية للمركز.

سادساً ـ المكتبة:

تنوي الشعبة الاقتصادية إقامة جرد شامل للكتب والدوريات الاقتصادية باللغـة العربيـة واللغـات الأخرى بقصـد جعلها متكـاملة قدر الامكان عن طريق طلب الكتب والدوريات غير المـوجـودة في مكتبـة المـركـز والتي تتنـاول الموضوعـات الاقتصاديـة عن الخليج العـربي وأقطاره. سيقوم مشـرف الشعبة الاقتصـادية ومساعدوه في الشعبة بجرد المصادر الموجودة في فهارس الكتب والأبحاث للوقوف على ما صدر وغير متوفر بمكتبة المركز. ●



بين طاغية وامرأة

□ كانت امرأة تسمى الشجاء من الخوارج، فجيء بها الى زياد والي الكوفة، فقال لها: ما تقولين في أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه؟ قالت: ماذا أقول في رجل أنت خطيئة من خطاياه؟! قال بعض جلسائه: أيها الأمير أحرقها بالنار؛ وقال بعضهم: اقطع يديها ورجليها؛ وقال بعضهم: اسمل عينيها. فضحكت وقالت: عليكم لعنة الله! فقال لها زياد: مم تضحكين؟ قالت: كان جلساء فرعون خيراً من هؤلاء. قال لها: ولم؟ قالت: استشارهم في موسى فقالوا أرجه وأخاه، وهؤلاء يقولون: اقطع يديها ورجليها واقتلها؟. فضحك منها وخلى سبيلها.



رسائل الدكتوراه والماجستير

استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الأستاذ «منجد مصطفى بهجة» عرض لرسالته للدكتوراه «الاتجاه الاسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين». ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتاج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.



الإتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين

- **رسالة دكتوراه — قسم الأدب والنقد، كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، ٢٠/١/١٩٨٢.**
- **منحتها اللجنة المؤلفة من المشرف الدكتور عبد السلام أبي النجا سرحان مرتبة «الشرف الثانية».**

منجد مصطفى بهجة



جاءت الرسالة في مقدمة وتمهيد وثلاثة ابواب، وتضمنت ثلاثة عشر فصلا.

جعل التمهيد في فقرتين، الاولى عن عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، في ابرز معالمهما السياسية والاجتماعية والثقافية والادبية، وتناولت الثانية دراسة الاتجاه الاسلامي قبل هذين العهدين.

والباب الأول، في اربعة فصول تناولت روافد الاتجاه الاسلامي الاربعة، جاء الاول عن القرآن الكريم وعلومه، واما الثاني فعن الرافد الثاني وهو الحديث الشريف والمذاهب الفقهية، واما الثالث فتحدث عن السياسة والاضطرابات الداخلية، وانتهى الى الرافد الرابع الذي هو حركة الجهاد ومقاومة الفرنجة.

وجاء الباب الثاني اوسع أبواب الرسالة فتناول: الاغراض الاسلامية في الشعر الاندلسي، وكانت على التوالي: شعر الزهد والتصوف، وشعر الآداب والاخلاق الاسلامية، وشعر الجهاد والمعارك الاسلامية، وشعر رثاء المدن والممالك، وشعر النقد الاجتماعي، وأما الفصل السادس والاخير فقد خصص لشعر الاغراض التقليدية، وعني بغرضين مهمين هما شعر المديح وشعر الغزل.

كان الباب الثالث، مفردا لدراسة الخصائص الفنية للشعر الاسلامي، وهو في ثلاثة فصول،

تناول الاول منها الحديث عن الشعر الاندلسي بين نوازع الدنيا والدين، واما الثاني فقد عرضت فيه النزعة الاسلامية في النقد الاندلسي، وتناول في الثالث ابرز الملامح الفنية في القصيدة الاسلامية مجملة في اربع قضايا تتصل بالقصيدة العربية، هي: الافكار والمعاني، وشكل القصيدة واسلوبها والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، والتجربة الشعرية، وخلصت الرسالة الى عشر نتائج وردت في آخر الرسالة نذكر بعضها على سبيل الاختصار:

ان الرسالة جلت واوضحت غنى الاتجاه الاسلامي وثراءه، وكثرة شعرائه، وكانت المعالم الاسلامية مباشرة في كثير من الاحيان، وغير مباشرة في قليل منها على نحو ما فصلناه في فصول الباب الثاني، وحاولت الرسالة أن تستكمل صورة الشعر الأندلسي من خلال أضخم العينات الشعرية التي تفرقت في مصادر الأدب الاندلسي وتاريخه.

لقد خلصت الرسالة الى تحديد مفهوم واضح للشعر الاسلامي، وشجّبت ما زعم من النفور والتناقض — المفتعل — بين الفن والدين لأن كليهما يلتقيان بالنفس ويتوحدان في «فطرة الله التي فطر الناس عليها».

كان الشعر الاندلسي غنيا بالافكار ولم يكن فقيرا، فالمعاني الاسلامية شائعة في طوايا الشعر الاندلسي ممتزجة به، وشعر الزهد والتصوف تمثل — في اكثره — لدى شعراء مقلين لم يتفرغوا لقول الشعر، او تمثل الشعر في مرحلة من مراحل حياتهم، وتجلى في اشعار شعراء الزهد، التصور الاسلامي للحياة والموت والآخرة.

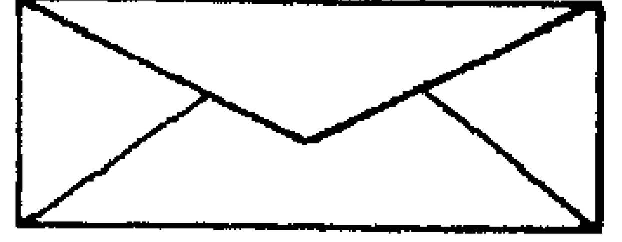
واستطاع الشعر الاندلسي ان ينحو منحى فريدا ومتميزا في تهذيب عاطفة الحب والارتقاء بها، إذ كان الاسلام اقوى العوامل في ظهور الغزل العفيف.

وانتهت الرسالة الى تحديد المعالم الشكلية للقصيدة الاسلامية في الشعر الاندلسي فقد تفاوتت القصيدة في تعداد أبياتها بين القصر والطول، وفق موضوعاتها، ولم تتميز بمنهج خاص في جزئيات القصيدة، وجاءت على درجة عالية في أساليبها، وصوغها وعاطفتها وخيالها.

وقد تنوعت مصادر الرسالة ومراجعها، وفق تنوع مناحي البحث والدراسة، فنافت على خمسين ومئتي مصدر ومرجع.

ان الشعراء الذين عرَضت لهم الرسالة ولاشعارهم بالدراسة، اكثر من مائة شاعر في القرن الخامس الهجري والنصف الاول من القرن السادس، فضلا عن الشعراء الذين تناولتهم الرسالة في التمهيد.

والحمد لله اولا واخرا والصلاة والسلام على نبيه الكريم. ●



شجرة الدر

جارية اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكانت ترافقه في معتقله بالكرك يوم أسره الناصر داود وقد شاطرته آلام المحنة والاعتقال بشجاعة وصبر، فما لبثت هذه الجارية ان غدت ملكة مرهوبة الجانب عظيمة الشأن.

لقد كانت جارية مغمورة لم يعرف المؤرخون لها نسباً، بل لم يستطيعوا التأكيد بأنها تركية أو أرمنية أو رومية..

وإن الملك الصالح نجم الدين أيوب لم يكد يتولى العرش حتى تألق نجم جاريته، فتبوأت في البلاط المكان الأسمى، وغدت مصدر النهي والأمر.

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب حين جلس على عرش مصر في الرابعة والثلاثين من عمره، وكانت شجرة الدر على ما توحي به سيرتها في حدود الخامسة والعشرين. وكان يحبها حباً عظيماً وقد رأى من سطوع مواهبها وما اشتهرت به من عفة وفضيلة، انها خليقة بأن تكون زوجة له، فأعتقها وتزوجها، فاكتسب نفوذها بذلك صفة شرعية، وأنشأت تسهم بنصيب أوفر في شؤون الدولة واعمال البر.

بلغت الحملة الصليبية السابعة المياه المصرية بل دمياط بالذات في أوائل حزيران (يونيه) سنة ١٢٤٩م ربيع الأول ٦٤٧هـ وعلى رأسها لويس التاسع بن لويس الثامن وحفيد فيليب اوغسطس (١٢٢٦ ــ ١٢٧٠). وكانت مع الحملة ايضاً زوجته الشابة. مرغريت دي بروفانس، وأخواه روبير دي أرتوا وشارل دي أنجو وعدد من الأمراء والفرسان، وكانت هذه الحملة فرنسية محضة. واشتركت انجلترة فيها بفرقة رمزية بقيادة وليم طويل السيف حاكم مقاطعة سالسبوري. وكان عدد وحدات البحرية لهذه الحملة نحو ألف وثمانمائة ١٨٠٠ قطعة، تحمل نحو خمسين ألف ٥٠,٠٠٠ مقاتل من مشاة وفرسان بكامل معداتهم وسلاحهم ومؤنهم وخيولهم، وبلغ من كثرة السفن انها كست البحر حتى لم يعد يُرى سوى الساريات وهي تعلو وتهبط فوق سطح الماء.

لما بلغت الحملة الصليبية السابعة المياه المصرية، وأرسل القديس لويس التاسع الى الملك الصالح نجم الدين ايوب يبلغه انه جاء بعسكر بعدد الحصى، ويحذره من المقاومة العقيمة، وينصحه بالخضوع والتسليم، كان الملك يعاني وطأة المرض، فتولته الحيرة والاضطراب، وجعل يقرأ الكتاب وعيناه مغرورقتان بالدمع، إلا أن شجرة الدر وقفت الى جانبه تبث فيه روح العزيمة والاباء، وتحضه على المقاومة المستميتة فتذرع بالشجاعة، وأجاب على كتاب القديس لويس التاسع بكتاب أنشأه كاتبه قاضي القضاة الشاعر بهاء الدين زهير.

وكذلك وقفت شجرة الدر الى جانب زوجها الملك الصالح نجم الدين ايوب خلال مرضه المقعد بعد سقوط دمياط وانتقاله الى المنصورة، تسهر عليه، وتقوي من عزيمته، وتسهم معه في تحصين المدينة، وحشد القوى، حتى اشتدت عليه وطأة المرض فمات في ١٥ شعبان سنة ٦٤٧هـ ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٢٤٩، وأوصى بالعرش لولده الملك العظيم تورانشاه نائبه في البلاد الشرقية، وكان يومئذ في حصن كيفا بديار بكر، فأرسلت شجرة الدر

فارس الدين اقطاي كبير المالك البحرية ليأتي به.

وما كاد السلطان يلفظ أنفاسه الأخيرة، حتى كفكفت دمعها وحبست نواحها، ونهضت من تحت نير الألم لتستدعي الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وجمال الدين محسن رئيس الخصيان، وهما كبيرا رجال الحاشية، وتوصيهما بكتمان وفاة الملك حتى يصل تورانشاه من حصن كيفا بديار بكر اتقاء للفتنة. فعمل الرجلان باشارتها.

وجمعت شجرة الدر امراء الجيش ورجال الدولة في اليوم التالي لوفاة السلطان وأبلغتهم مشيئته بأن يحلفوا له ولابنه الملك المعظم تورانشاه من بعده وللأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بقيادة الجيش وتدبير امور المملكة ففعلوا ما أمر به السلطان.

ثم أرسلت الى الأمير حسام الدين محمد نائب السلطان في القاهرة امراً ممهوراً بتوقيعه ليقوم بتحليف أكابر الدولة ومقدمي الجند على ما تقدم فأطاع حسام الدين امر الملك، وبدأ خطباء الجوامع يدعون لتورانشاه بعد الدعاء لأبيه.

ويبدو ان بعض الجند قد تهامس بموت السلطان، وان قادة الحملة الصليبية قد عرفوا بهذا النبأ، وأرادوا انتهاز الفرصة التي يتيحها لهم للقضاء على الجيش المصري قبل وصول تورانشاه. ثم كانت موقعة المنصورة.وبعد عشرة ايام، فأعلنت وفاة الملك الصالح للمرة الأولى، وتسلم ولي العهد مقاليد الملك، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وفيه صلابة وصلف وكبرياء.

وكان عهد تورانشاه في الحكم قصيراً جداً، لم يزد على خمسة أسابيع، ولكنه شهد انتصاراً عظيماً احرزه المسلمون على الفرنجة، ولم يسبق لهم ان احرزوا مثيلاً له منذ اثنين وستين عاما اي منذ انتصار حطين عام ١١٨٧م بقيادة صلاح الدين الأيوبي.

وكان لويس التاسع نفسه في عداد الأسرى، فحمل الى المنصورة حيث اعتقل مع شقيقه كونت انجو وكونت بواتيه في دار كاتب الانشاء القاضي فخر الدين بن لقمان وعهد بحراستهم الى الطواشي صبيح المعظمي.

هذا ما كان في عهد تورانشاه. أما ما كان منه فالبطش والبغي واللهو والسرف والتنكر لزوجة أبيه شجرة الدر التي صانت البلاد، وحفظت الملك، وأخذت العهد له تمهيداً لجلوسه على العرش.

وأرسل السلطان الى شجرة الدر يطالبها بتركة ابيه الراحل الملك الصالح ويسألها ان ترد اليه ما تحت يدها من جواهر ومال، ويهددها بالقتل ان هي تأخرت في اداء الحساب فكتبت الى زعماء المماليك تشكو امرها اليهم وتطلب حمايتهم.

وقيل ان المماليك كانوا يشعرون بأن السلطان يضمر لهم الكيد والغدر، وانه كان اذا سكر يصف الشموع امامه ويأخذ السيف بيده ويضرب به تلك الشموع وهو يقول: (هكذا أفعل بالمماليك البحرية.. هكذا افعل بفلان وفلان!..) فلما بلغ مماليك أبيه ذلك أضمروا له السوء، واتفقوا على قتله قبل ان يفتك بهم. وليس هناك ما يدل على ان شجرة الدر هي التي حرضتهم على ارتكاب هذه الجريمة، وانها اشتركت معهم في تدبيرها، على أن مجرد شكايتها اليهم واستنجادها بهم قد يعد تحريضا لهم.

وبعد مقتل تورانشاه على يد اثنين من زعماء المماليك البحرية هما بيبرس البندقداري وفارس الدين اقطاي في مساء يوم الاثنين ٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ ١٢٥٠م، أي بعد هزيمة الفرنج بنحو ثلاثة اسابيع، اجتمع زعماء المماليك وامراء الجيش ورجال الدولة واتفقوا على ان تكون شجرة الدر ملكة لمصر، وان تخرج التواقيع السلطانية باسمها، وأخذت البيعة لها في اليوم العاشر من صفر ٦٤٨هـ ١٢٥٠م ونقش اسمها على النقود: (المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين) وكان يخطب لها على منابر مصر بهذا الدعاء: (واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، ذات الحجاب الجميل والستر الجليل، والدة المرحوم خليل، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب).

وكانت اول امرأة تتبوأ العرش في مملكة اسلامية، وقد انتهت بتورانشاه دولة الأيوبيين في مصر، وبدأت بشجرة الدر دولة المماليك.

وقد قوبل اعتلاء شجرة الدر عرش المملكة المصرية بكثير من الدهش والاستنكار. فنعى

الخليفة العباسي السابع والثلاثون وآخرهم (المستعصم بالله بن المستظهر) على مصر ان تجلس عل عرشها امرأة وأرسل الى بلاط مصر يقول: (إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجالاً).

وأبى الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة في دمشق وكثير من الأمراء ان يقدموا الطاعة للملكة وأن يكونوا تحت سلطانها، وأرسلوا الى صاحب حلب الملك الناصر بن يوسف حفيد صلاح الدين يطلبون اليه القدوم الى دمشق لتسلم المدينة فجاء اليها وتسلمها. وجزعت شجرة الدر لهذه الأنباء، وعزّ عليها ان تكون سبباً لتمزيق المملكة التي عملت كثيراً لدعم قوتها ووحدتها، واعتقدت انها ان تزوجت الأمير عز الدين ايبك احد امراء جيشها، قوت مركزها وصانت سمعتها، ولم تلبث ان حققت هذه الفكرة أو هذه الرغبة، واتخذت الأمير عز الدين زوجاً لها في ١٩ ربيع الثاني سنة ٦٤٨هـ ١٢٥٠م.

ولكن ذلك لم يغير من نظرة الناس اليها، ولم يخفف من حملتهم عليها. فعمدت حينئذ الى الحل الوحيد الذي بقي لها، وتنازلت عن عرشها لزوجها الذي لقب بالمعز في آخر ربيع الثاني سنة ٦٤٨هـ ١٢٥٠م.

وقد دامت سلطنة شجرة الدر ثمانين يوماً، وكان ابرز الأعمال التي قامت بها اجلاء الفرنج نهائياً عن الأراضي المصرية.

لقد استيقظت في شجرة الدر، وهي في تلك السن التي جاوزت الأربعين، عاطفة الكبرياء على أقوى ما تعصف في نفس ملكة، وعاطفة الغيرة على أعنف ما تجيش في صدر امرأة.. فما هي الا سنوات قليلة حتى اخذت تخاصم زوجها الملك المعز لأتفه الأسباب ورانت على حبها المطامع وغشيته أهواء السياسة والمنافسة حتى تحولت حياتهما الى جحيم لا يطاق. وخطب المعز بنت الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكانت صبية رائعة الحسن. ثم قبض ذات يوم على عدد من المماليك، وساقهم الى القلعة لاعتقالهم في الجب. فلما وصلوا الى تحت النافذة التي تجلس فيها شجرة الدر، انحنى كبيرهم احتراماً وقال لها بالتركية انه لا ذنب له ورفاقه سوى انهم عاتبوا السلطان لأنه خطب ابنة صاحب الموصل، اذ لم يهن عليهم وهم خدمها الذين نشأوا في ظل نعمتها ان يتزوج من امرأة اخرى.

فأشارت اليه شجرة الدر اشارة تعني انها فهمت ما يريد أن يقول.. وقال الرجل لأصحابه (ان كان المعز قد حبسنا فاننا قتلناه!).

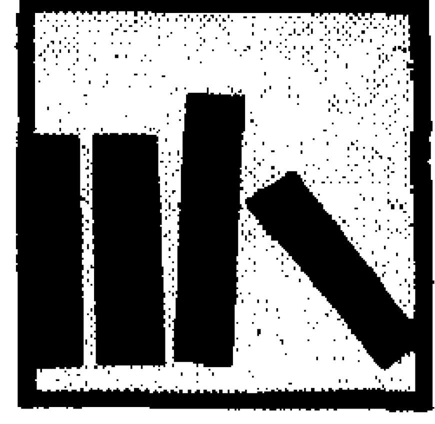
والواقع ان هذه الكلمات قد قتلت الملك المعز.. اذ ما لبثت شجرة الدر ان أرسلت اليه تلاطفه وتصالحه وتدعوه لزيارتها، فأمن لها ولبى دعوتها، فاستقبلته مرحبة باسمه، وقادته الى الحمام ليغتسل ولكنه ما كاد يخلع ثيابه حتى انقض عليه غلمانها وخنقوه تنفيذاً لخطتها.

ويقال ان المعز لما أحاط به الخدم وفي أيديهم السيوف، استغاث بشجرة الدر، فأدركتها رقة الأنثى حين سمعته يهتف باسمها، فأشارت لهم أن يتركوه، فأغلظ لها احدهم في الجواب وقال: (ان تركناه حيا فهو لا يبقي عليك ولا علينا). وهكذا قتل الملك المعز يوم الأربعاء في ١٥ ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ ١٢٥٧م على تلك الصورة لمروعة. بعد أن جلس على عرش مصر سبع سنين، وكان قد أشرف على الستين من عمره.

وأرسلت شجرة الدر الى عدد من امراء المماليك تعرض عليهم الملك فرفضوه كلهم مخافة كيدها. ولما تنفس الصبح وذاع النبأ المروع، ساد الذعر في القاهرة، وتولى العرش الملك المنصور علي بن الملك المعز وهو صبي لم يبلغ الحلم، وقام على أمره سيف الدين قطز، مملوك أبيه، فما لبث أن اعتقل شجرة الدر وسجنها في برج منيع.. ثم أمر بغلمانها فصلبوا على باب القلعة، وجيء بها الى ضرتها ام الملك المنصور التي كانت تطالب بدم الملك القتيل، وكان المعز قد طلقها ارضاء لشجرة الدر، فضربها جواريها بالقباقيب حتى ماتت، وألقينها من سور القلعة الى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص، فبقيت في الخندق أياماً.. ثم حملت في قفة ودفنت في تربة كانت قد اعدتها لنفسها بجوار بيت الحلفاء.

على هذه الصورة المفجعة الرهيبة قضت تلك المرأة (شجرة الدر) التي حكمت مصر ثمانية عشر عاماً، وجمعت في نفسها اشتات التناقضات.

عبد الله محمد حاج عبدو



الكتب المهداة إلى مجلة «تاريخ العرب والعالم»

□ **من تاريخ لبنان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي**
وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس ــ السجل الأول ١٩٨٢
١٠٧٧ ــ ١٠٧٨هـ، ١٦٦٦ ــ ١٦٦٧م ...... تقديم: عمر تدمري ــ فردريك معتوق ــ خالد زيادة

□ **ابحاث في ندوة المدينة العربية**
خصائصها وتراثها الحضاري الاسلامي
عقدت بالمدينة المنورة من ٢٤ ــ ٢٩ ربيع الثاني ١٤٠١هـ
الموافق ٢٨ فبراير ــ ٥ مارس ١٩٨١م ــ
«المعهد العربي لانماء المدن» .... اسماعيل سراج الدين وسمير الصادق

□ **The ARAB CITY**
Its character and Islamic Cultural Heritage
Proceeding of a Symposium Medina, Kingdom of Saudi Arabia: 24-29 Rabi II, 1401AH 28 Feb.-5Mar, 1981 AD.
The Arab Urban Development Institute.
Edited by: Ismail Serageldin, Samir EL-Sadek

□ **فلسطين في طوابع البريد (١٨٦٥ ــ ١٩٨١)**
دار الفتى العربي ــ الورشة التجريبية العربية
لكتب الأطفال (١٩٨١) ....

□ **معارك العرب وما اشبه الليلة بالبارحة**
دار النهار للنشر .... أحمد الشقيري

□ **اغنيات الصمت والاغتراب**
شعر، ١٩٨٢ .... محمود فضيل التل

□ **مؤتمر الساحل والاقضية الاربعة (١٩٣٦)**
الدار الجامعية للطباعة والنشر .... الدكتور حسان علي حلاّق

□ **التطور التاريخي للانظمة النقدية في الاقطار العربية**
مركز دراسات الوحدة العربية .... الدكتور عبد المنعم السيد علي

□ **كتب ومقالات: تعريفات ومستخلصات**
العدد الأول ــ نوفمبر ــ تشرين الثاني ١٩٨١
معهد الانماء العربي ــ وحدة التوثيق والتحرير .... علي ذو الفقار شاكر

□ **كتب ومقالات: تعريفات ومستخلصات**
العدد الثاني ــ فبراير ــ شباط ١٩٨٢
معهد الانماء العربي ــ وحدة التوثيق والتحرير .... علي ذو الفقار شاكر

□ **كتب ومقالات: تعريفات ومستخلصات**
العدد الثالث ــ نوفمبر ــ تشرين الثاني
معهد الانماء العربي ــ وحدة التوثيق والتحرير .... علي ذو الفقار شاكر

مراجعة كتاب

مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير

جمعه وحققه وقدم له: د. محمد مصطفى الأعظمي

إن من الأهداف الرئيسية التي أنشيء مكتب التربية العربي لدول الخليج من أجلها، العناية بالثقافة العربية الإسلامية، والمشاركة في نشر التراث العربي الإسلامي.

لذلك انصرفت وجهته صوب العناية بهذه الأهداف، وصولاً إلى خدمة الأمة العربية من خلال خدمة تراثها الخالد، فكانت من أولى خطاه نشر بعض الآثار التي تعنى بالفكر العربي الإسلامي، مشاركة منه في الاحتفاء بحلول القرن الخامس عشر الهجري، فتقدم إلى طائفة إلى الباحثين ليعضدوا خطوته هذه بتقديم ما لديهم من أصول في هذا الباب، فكان ممن حظي المكتب بنشر نتاجهم الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، أستاذ علم الحديث الشريف في الرياض وأحد المشتغلين بخدمة السيرة والحديث النبويين الشريفين، وقد سبق أن قام بنشر جملة من الدراسات واحياء بعض النصوص الحديثة، مؤرخاً لها ودارساً حيث أفاد المكتبة العربية الإسلامية بهذه الدراسات والنصوص، ومن جهوده المباركة التي تبناها مكتب التربية العربي لدول الخليج، ومشاركة منه بهذا الحدث الإسلامي الجليل، ...كتاب يضم «مغازي» رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم)، تأليف التابعي الجليل عروة بن الزبير المتوفي في سنة/ ٩٤هـ.

ويقوم عمل الدكتور الأعظمي على التقاط شذرات هذه المغازي،...

وأطلق على عمله: «مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم» لعروة بن الزبير، النسخة المستخرجة، وقد تلقف هذه النصوص من كتب السير والمغازي وبعض كتب الحديث، وجعل عمله هذا يدور في ثلاثة أقسام رئيسية هي:

١ ــ دراسة عامة للقرآن الكريم وأثره في النظرة التاريخية، ثم واقع الدراسة التاريخية في القرآن ودراسة السيرة ودور الصحابة فيه، ثم دور التابعين من بعدهم.. وأثر عروة بن الزبير في التأليف في السيرة والمغازي، ثم عرض لحياته وأخباره.. ثم «لمغازيه» ولمن رواه.. فعرض ترجمة أبي الأسود المعروف بيتيم عروة: محمد بن عبد الرحمن بن لهيعة بن عقبة الخضرمي (ت ــ ١٧٤هـ).. حيث أن مصادر هذه المغازي جاءت عن طريق رواية ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة..

٢ ــ الملاحق، وضمنها: كتابات عروة بن الزبير إلى عبد الملك، والوليد وغيرهما من رجالات بني أمية، والمتعلقة بالمغازي، .. وأسماء أهل (بدر) الذين لم يذكرهم عروة في مغازيه.. أو بالأحرى لم يستوفهم ابن حجر الهيثمي في «مجمع الزوائد» ونشر صفحة من: «سير أعلام النبلاء» وفيها ترجمة ابن الزبير وأبي الأسود.. علماً أن سير أعلام النبلاء «أحد الموسوعات التاريخية التي وضعها مؤرخ الإسلام الذهبي شمس الدين» (ت ــ ٧٤٨هـ). ونشر منها ثلاث مجلدات.. في القاهرة ثم توقف الطبع.. ومن هذا العرض الوجيز، تبين الجهد الطيب الذي قدمه الدكتور محمد مصطفى الأعظمي «أستاذ الحديث الشريف في جامعة الرياض» إلى عشاق التراث المحمدي.. حيث قد أضاف لبنة جديدة إلى صرح مكتبة «المغازي والسير» وهو عمل حميد، يذكر له فيشكر عليه.. ●

أبو سفيان عند هرقل*

قال أبو سفيان(1) بن حرب:

كنا قوماً تجاراً، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا. فلما كانت الهدنة ــ هدنة الحديبية ــ بيننا وبين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خرجت في نفر من قريش الى الشام، وكان وجه متجرنا منه غزة، فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من الفرس، فأخرجهم منها، وانتزع منهم صليبه الأعظم، وكانوا قد استلبوه إياه.

فلما بلغه ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ منهم، وكانت حمص منزله، خرج منها يمشي على قدميه شكراً لله حين رد عليه ما رد، ليصلي في بيت المقدس، تبسط له البسط وتلقى عليها الرياحين.

فلما انتهى الى ايلياء فقضى فيها صلاته، وكان معه بطارقته وأشراف الروم، أصبح ذات غدوة مهموماً يقلب طرفه الى السماء. فقال له بطارقته: والله لكأنك أصبحت الغداة مهموماً.

فقال: أجل! رأيت البارحة أن ملك الختان ظاهر. فقالوا: أيها الملك، ما نعلم أمة تختتن إلا اليهود، وهم في سلطانك وتحت يدك، فابعث الى كل من لك عليه سلطان في بلادك فمره فليضرب أعناق من تحت يدك منهم من يهود، واسترح من هذا الهم.

فوالله إنهم لفي ذلك من رأيهم يدبرونه إذا أتاه رسول صاحب بصرى(2) برجل من العرب يقوده ــ وكانت الملوك تتهادى الأخبار بينهم ــ فقال: أيها الملك؛ إن هذا رجل من العرب من أهل الشاء والابل يحدث عن أمر حدث فاسأله.

فلما انتهى به الى هرقل رسول صاحب بصرى؛ قال هرقل لمن جاء به: سله عن هذا الحديث الذي كان ببلده، فسأله، فقال: خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي، وقد اتبعه ناس فصدقوه وخالفه آخرون، وقد كانت ملاحم في مواطن كثيرة وتركتهم على ذلك!

فلما أخبره الخبر قال: جردوه؛ فإذا هو مختون. فقال: هذا والله النبي الذي رأيت، لا ما تقولون؛ أعطوه ثيابه وينطلق، ثم دعا صاحب شرطته فقال له: اقلب الشام ظهراً لبطن حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل.

فإنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته فقال: أنتم من قوم الحجاز؟ قلنا: نعم، قال: انطلقوا إلى الملك، فانطلقوا بنا. فلما انتهينا إليه قال: أنتم من رهط هذا الرجل الذي بالحجاز؟ قلنا: نعم. قال: فأيكم أمس به رحماً؟ قال أبو سفيان: قلت: أنا، قال: ادن، ثم أقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي، وقال لهم: إني سأسأله، فان كذب فردوا عليه.

قال: فوالله لقد علمت أن لو كذبت ما ردوا عليَّ، ولكني كنت امرأ سيداً أتبرم من الكذب، وعرفت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوه عليَّ؛ ثم يحدثوا به عني، فلم أكذبه.

وقال: أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعي ما يدعي. فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره، وأقول له: أيها الملك، ما يهمك من شأنه! إن أمره دون ما بلغك. فجعل لا يلتفت الى ذلك مني. ثم قال: أنبئني فيما أسألك عنه من شأنه. قلت: سل عما بدا لك.

قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: محض، هو أوسطنا(3) نسباً. قال: أخبرني، هل كان أحد من أهل بيته يقول ما يقول فهو يتشبه به؟ قلت: لا. قال: هل كان له فيكم ملك فسلبتموه إياه، فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه؟ قلت: لا. قال: أخبرني عن أتباعه منكم من هم؟ قلت: الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء، فأما ذوو الأسنان من الأشراف من

قومه فلم يتبعه منهم أحد. قال: أخبرني عمن يتبعه أيحبه ويلزمه، أم يقليه[٤] ويفارقه؟ قلت: قلما يتبعه أحد فيفارقه. قال: فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه؟ قلت: سجال يدال علينا وندال عليه[٥].

قال: فأخبرني هل يغدر؛ فلم أجد شيئاً أغتمز فيه غيرها؛ فقلت: لا، ونحن منه في مدته[٦] ولا نأمن غدره. قال: فوالله ما التفت إليها مني.

ثم كرر الحديث فقال: سألتك عن نسبه فيكم؛ فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً فكذلك يأخذ الله النبي لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً، وسألتك: هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل قوله فهو يتشبه به؟ فزعمت أن لا. وسألتك: هل كان له ملك فيكم فسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه؟ فزعمت أن لا. وسألتك عن أتباعه، فزعمت أنهم الضعفاء والأحداث والمساكين والنساء، وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان. وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه؟ فزعمت أنه لا يتبعه أحد فيفارقه، فكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلب رجل فتخرج منه.

وسألتك عن الحرب بينكم وبينه، فزعمت أنها سجال تدالون عليه ويدال عليكم، وكذلك حرب الأنبياء، ولهم تكون العاقبة. وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أن لا: فلئن كنت صدقتني عنه فليغلبن على ما تحت قدمي هاتين، ولو ددت أني عنده فأغسل قدميه! انطلق لشأنك.

فقمت من عنده وأنا أضرب بإحدى يدي على الأخرى وأقول: يا لعباد الله! لقد أمر[٧] أمر ابن أبي كبشة[٨]! أصبحت ملوك بني الأصفر[٩] يهابونه في ملكهم وسلطانهم!

الهوامش

(*) الأغاني: ٦ ـ ٣٤٥.

(١) هو صخر بن حرب، من سادات قريش في الجاهلية، كان من رؤساء المشركين يوم الأحزاب ويوم أحد. وأسلم يوم فتح مكة سنة ٨هـ. وتوفي سنة ٣١هـ.

(٢) بلد من أعمال دمشق.

(٣) أي خيرنا وأفضلنا نسباً.

(٤) يبغضه.

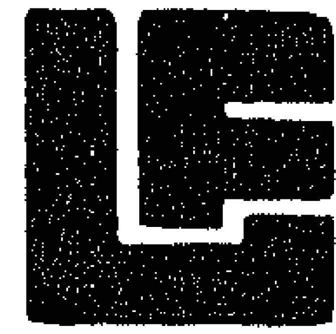
(٥) يدال علينا وندال عليه: أي نغلبه مرة ويغلبنا أخرى.

(٦) في مدة: يعني بها مدة صلح الحديبية.

(٧) أمر: عظم.

(٨) أبو كبشة: رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، وعبد الشعري العبور، فسمى المشركون النبي، صلى الله عليه وسلم، ابن أبي كبشة لخلافه إياهم إلى عبادة الله تعالى، تشبيهاً له بأبي كبشة الذي خالفهم إلى عبادة الشعر.

(٩) بنو الأصفر: لقب ملوك الروم.



البنك اللبناني الفرنسي ش.م.ل.

شركة مساهمة لبنانية ○ رأسمالها ١٥،٠٠٠،٠٠٠ ليرة لبنانية مدفوع بكامله ○ السجل التجاري ببيروت ١٩٦١٨
لائحة المصارف رقم ١٠

الميزانية المؤقتة بتاريخ ٣١ كانون الأول ١٩٨٢

الموجودات	ل.ل.
الصندوق والمصارف وسندات الخزينة	٢٠٩٢ ٧٣٥ ١١٧,٠٨
محفظة السندات التجارية	٣٧ ٦٢٦ ٥٢٦,٢٠
تسليفات وحسابات مدينة	١ ٥٩٧ ٠٨٦ ٦٧٧,٠١
محفظة السندات المالية	٤٧ ٦٥٢ ٢٨٦,٢٢
عقارات وأثاث	١٩ ١٠٣ ٥٩٢,١٨
الحسابات النظامية وحسابات التسوية	٢٣ ١٨٩ ١٠١,٤٧
المجموع	٣ ٨١٧ ٣٩٣ ٣٠٠,١٦

المطلوبات		ل.ل.
الودائع....................................		٣ ٢٣١ ٣٩٤ ٨٤١,٦٥
المصارف والعملاء		٢٨٥ ٦٤٥ ٢٤٩,٧٦
دائنون مختلفون		١٢٠ ٢٥٣ ٢٧٩,٢٩
الحسابات النظامية وحسابات التسوية		٥٥ ٩٥٩ ٠٣٥,٩٢
الأموال الخاصــــة		١٢٤ ١٤٠ ٨٩٣,٥٤
• راس المال	١٥ ٠٠٠ ٠٠٠	
• اموال احتياطية	٧٨ ٩٠٢ ٩٩٧	
• ارباح مدورة	٢٣٧ ٨٩٦	
• اموال احتياطية اخرى	٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠	
المجموع		٣ ٨١٧ ٣٩٣ ٣٠٠,١٦

خارج الميزانية	ل.ل.
سندات تجارية محسومة متداولة ومظهرة من قبلنا	–
قيم برسم القبض	١٥٢ ٦٤٦ ٢٤٨,٨٧
تعهدات بقبولات	–
تعهدات بكفالات وتكفلات	٤٨٦ ٨٣٤ ٩٧٦,٢٨
اعتمادات مثبتة مفتوحة	٢٠٦ ٧٨٦ ٢٤٢,٢٦
أسهم ضمانة اعضاء مجلس الادارة	٢٢٥ ٠٠٠,--

مجلس الادارة

معالي السيد فريد روفايل	رئيس مجلس ادارة ومدير عام	السيد برنار أغلوف	عضو
السيد جيل دوبرير	نائب رئيس	السيد أنطوان جانكور غالينياني	عضو
السيد برنار بو	عضو	السيد عادل قصار	عضو
السيد فيكتور قصير	عضو	السيد حبيب لطيف	عضو
		معالي الاستاذ سليمان الزين	عضو

مفوض المراقبة : السيد علي عواضة

FILIALE EN FRANCE



BANQUE LIBANO-FRANÇAISE (France)

SIEGE SOCIAL: 33, RUE DE MONCEAU, 75008 PARIS

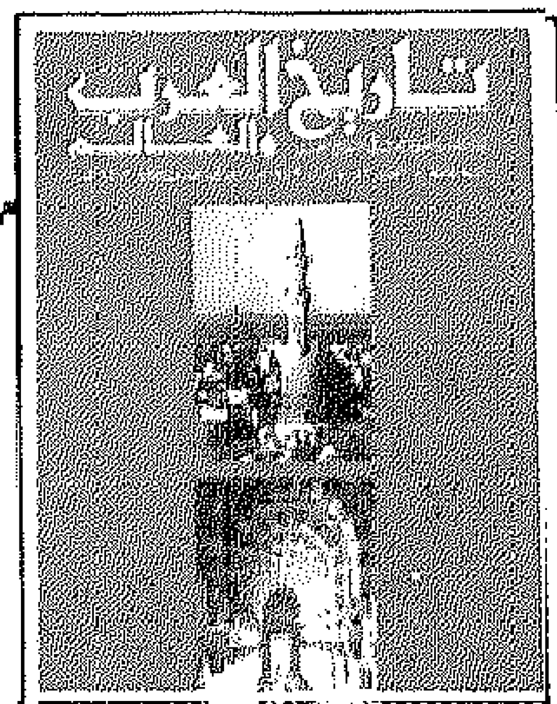
AGENCE A NICE: 5, Promenade des Anglais

AGENCE A MONTE CARLO (PRINCIPAUTE DE MONACO): 39, Avenue de la Princesse Grace

société anonyme française - capital 40.000.000 francs français entièrement versé

السوق القديم بطرابلس، لبنان

الغلاف الأول



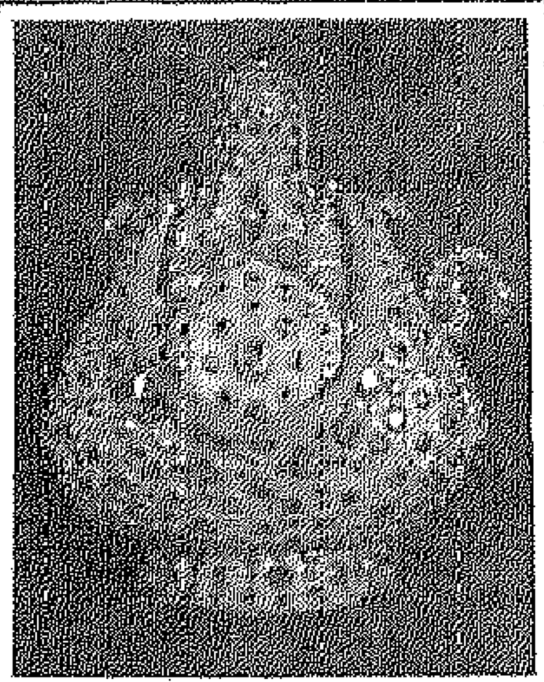
القبة الخضراء — المسجد النبوي الشريف

مسجد الرسول من الداخل

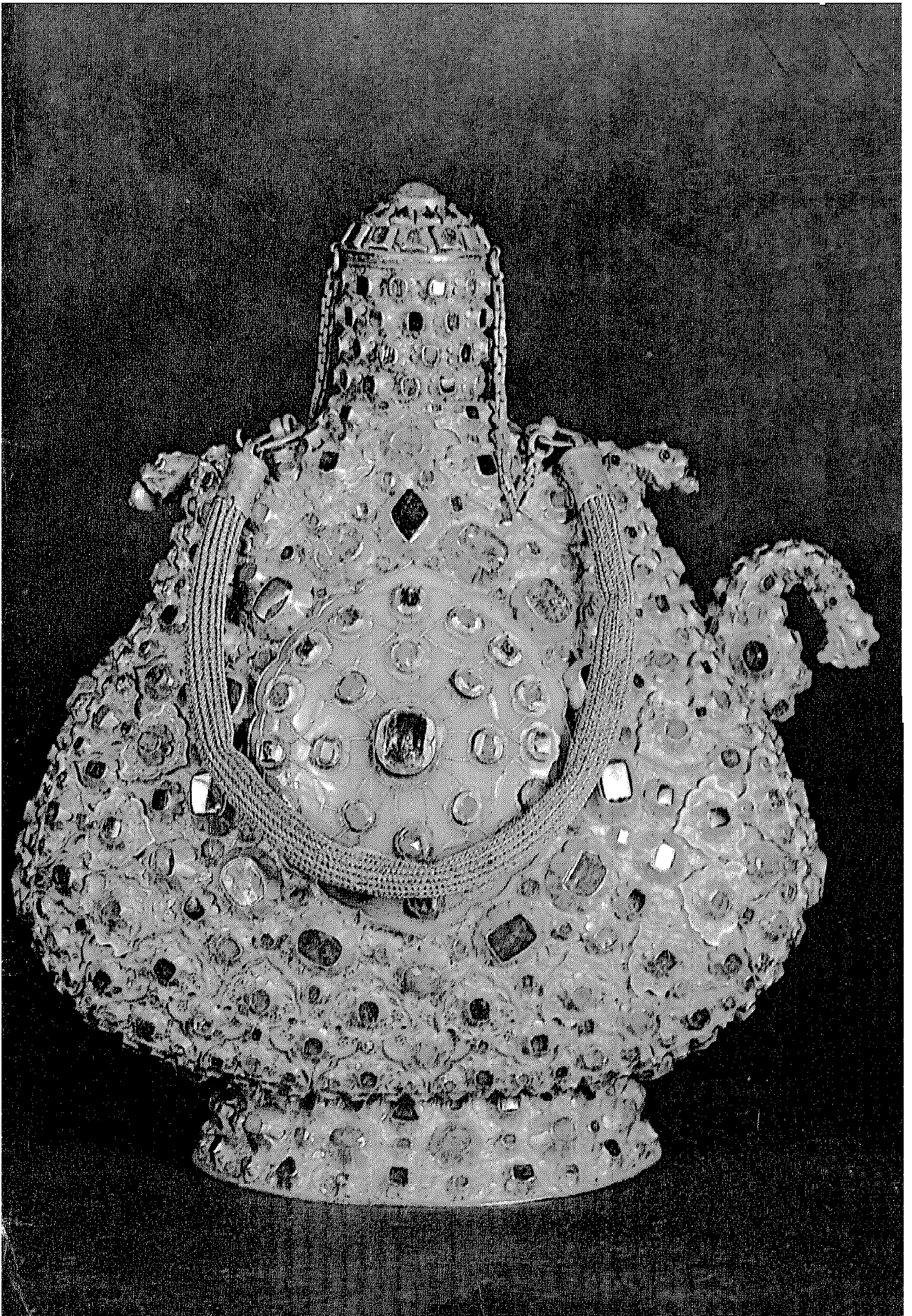
كتاب «ابحاث من ندوة المدينة العربية»

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

الغلاف الأخير



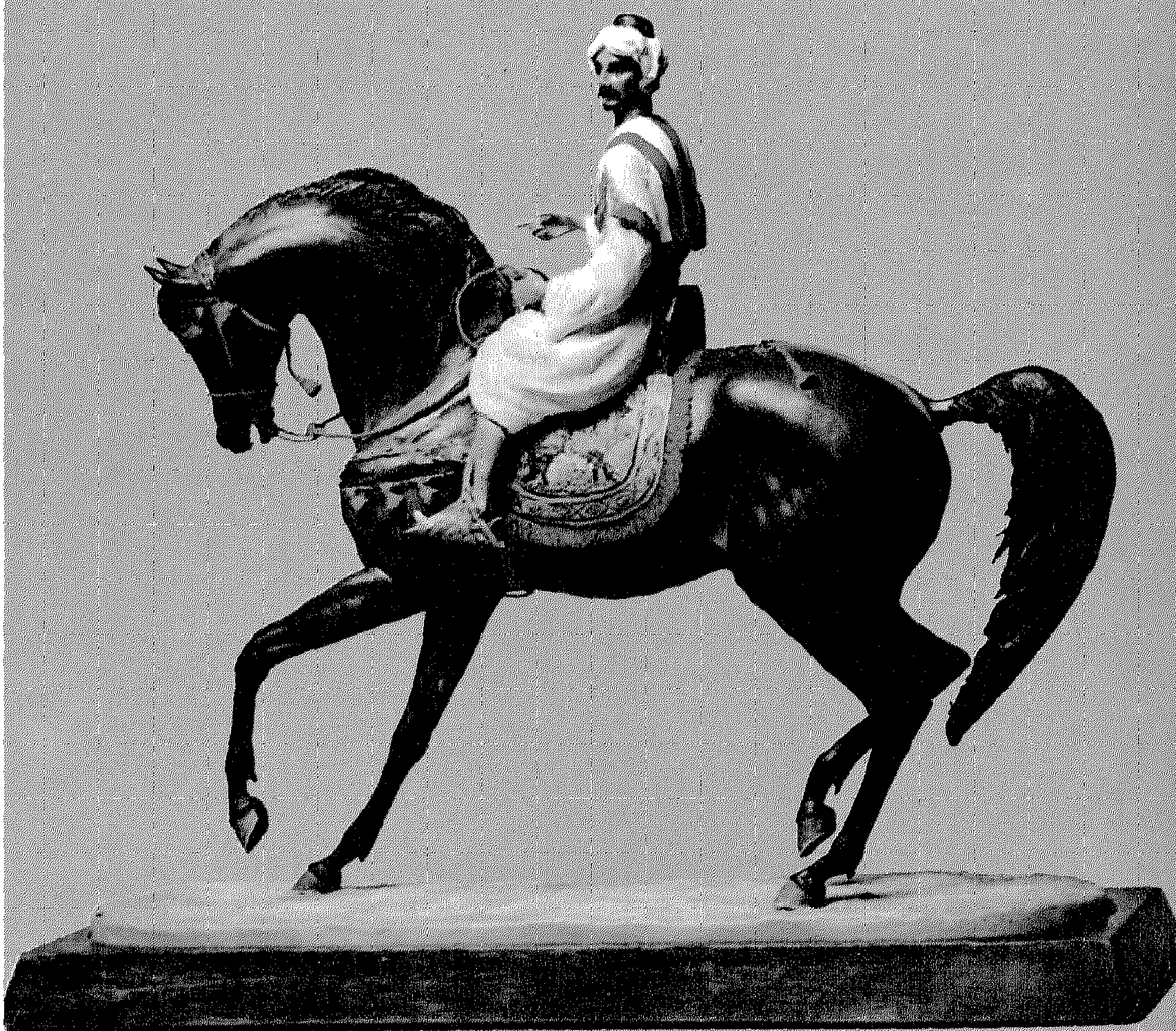
قارورة ماء مرصعة بالجواهر — العهد العثماني، النصف الثاني من القرن السادس عشر



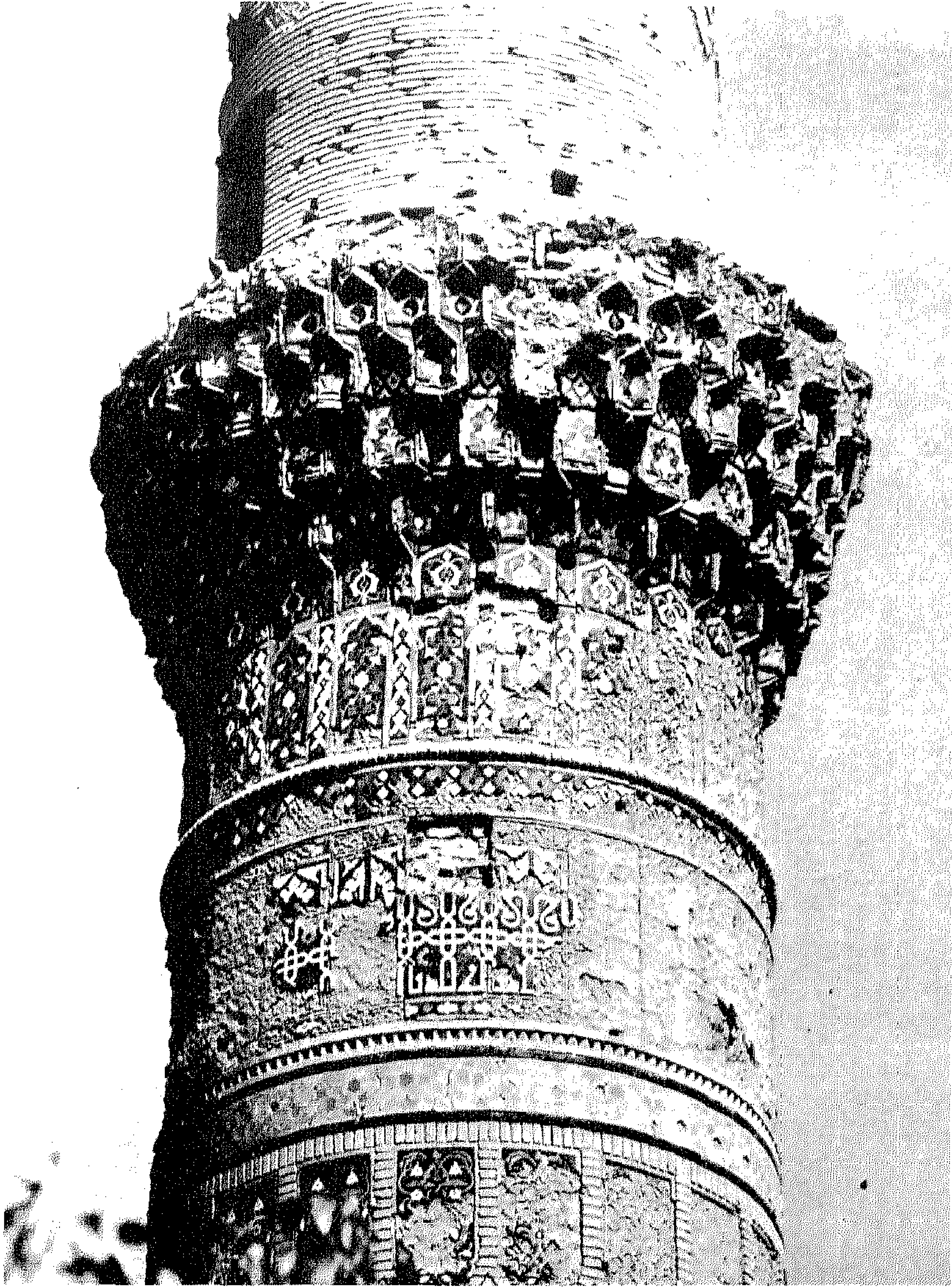
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

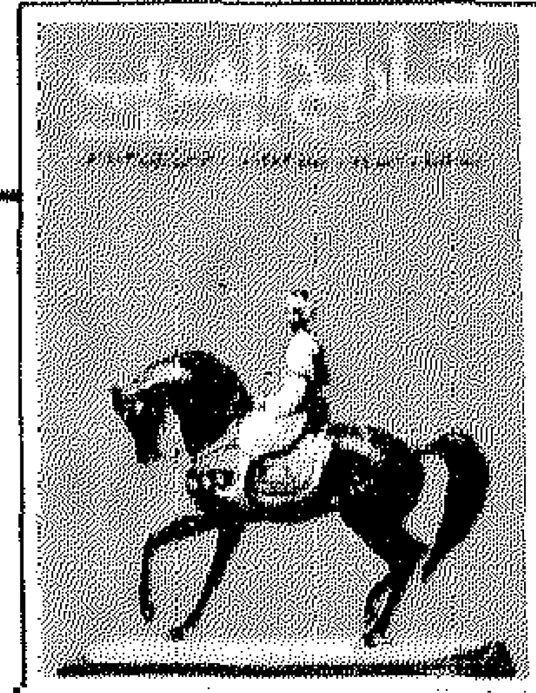
السنة الخامسة • العدد ٥٤ • نيسان ١٩٨٣ م . • الموافق رجب ١٤٠٣ هـ .



حيرات ــ مآذنة جامع مدراسا غاهور في تشاد



الغلاف الأول



الغودولفن العربي، لباميلا دو بولاي. الصورة من روزنامة «الحصان العربي» شركة «مدماك» ١٩٨٢م

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

الغلاف الأخير



صورة زجاجية للرازي في جامعة برنستون، تخليدا لما قدمه في علم الطب

تاريخ العرب والعالم

العدد ٥٤ ـــ نيسان ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٢٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 5, No. 54, APRIL 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION: $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة، ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

المشروع الإسرائيلي لشق قناة تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الميت

د. محمد المجذوب

نشر اتحاد الحقوقيين العرب دراسة قانونية للدكتور محمد المجذوب عن المشروع الاسرائيلي لربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الميت بواسطة قناة مائية تمتد من منطقة بحرية قريبة من غزة حتى سواحل البحر الميت. والدراسة قد أعدت بناء على طلب من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية لعرضها على مؤتمر (فاس) الأول. وننشر منها المقدمة التاريخية التي تنتهي بطرح السؤال الذي عالجته الدراسة بأسلوب علمي وموضوعي، والذي يتعلق بحدود صلاحيات دولة الاحتلال.

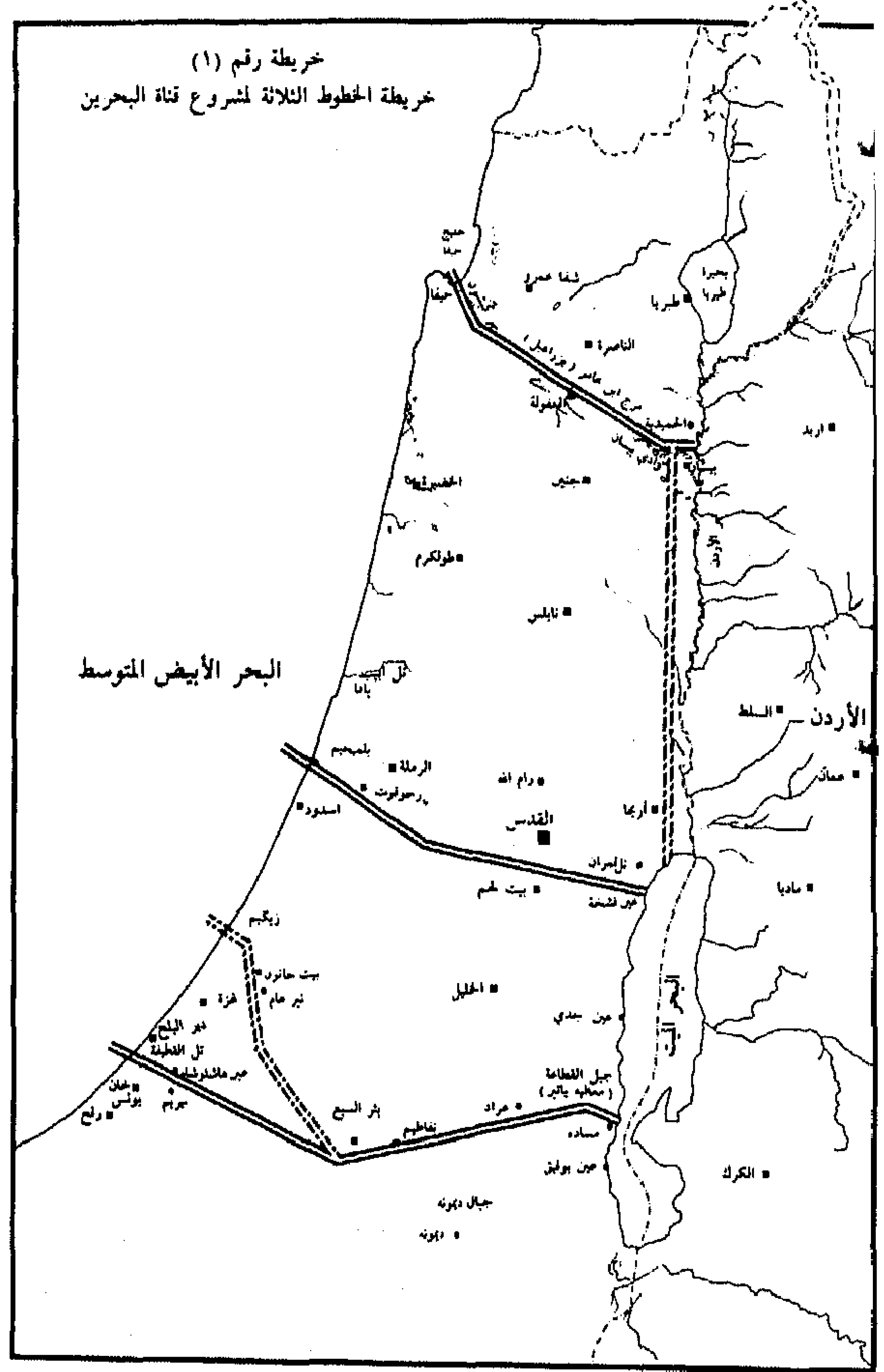


في ١٩٨٠/٨/٢٤، أقرت الحكومة الاسرائيلية مشروع شق القناة التي تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الميت، واعتمدت «الخط الجنوبي» الذي أطلق عليه (خط القطيف ــ مساده) لأنه يبدأ من تل القطيفة الذي يقع على شاطىء البحر المتوسط، جنوبي دير البلح وشمالي خان يونس في قطاع غزة، وينتهي في منطقة مساده بالقرب من البحر الميت، بعد مروره بالنقب الشمالي، جنوبي بئر السبع. وسيبلغ طول القناة نحواً من ١٠٨ كلم. وقدرت تكاليف تنفيذ المشروع بـ ٨٠٠ مليون دولار، حسب الأسعار السائدة في عام ١٩٨٠.

ووصفت الحكومة موافقتها على المشروع بأنها «مبدئية» و «لمقتضيات انتاج الكهرباء ولأغراض أخرى تتعلق بتطوير البلد»[1]. وقبل مرور شهر على الموافقة عين (يتسحاق موداعي)، وزير الطاقة والتجهيزات، اللواء الاحتياط (رحبعام زئيفي) مديرا لمشروع القناة[2]. وفي ١٩٨١/٥/٢٨، أزاح مناحيم بيغن، رئيس الوزراء، الستار عن لوحة تذكارية وأعلن عن افتتاح المشروع. ومن المؤكد أن الاسراع في عملية التدشين قد تم لتحقيق مكاسب انتخابية[3]. والبرهان أن التدشين جرى قبل تصديق المجلس القومي للتخطيط على بدء تنفيذ المشروع، وقبل استكمال التخطيط التفصيلي الذي يستغرق اعداده حوالي السنتين[4].

ومما لا شك فيه أن لتنفيذ هذا المشروع أبعادا سياسية واجتماعية وغايات اقتصادية واستعمارية. فاسرائيل، منذ قيامها، تتبع، عن طريق الاحتلال والتوسع وتكريس الأمر الواقع، سياسة «القضم» التدريجي للأراضي العربية. وقرارها بضم القطاع الشرقي من مدينة القدس واعتبارها عاصمة «أبدية» وقرارها بضم مرتفعات الجولان، ورفضها التخلي عن الضفة والقطاع... خير دليل على وجود هذه النزعة.

وفكرة ربط البحرين (المتوسط والميت) بقناة مائية، تمهيدا لربط البحر الميت بقناة تصل الى خليج العقبة فالبحر الأحمر، فكرة قديمة تعود الى منتصف القرن الماضي وتدخل في صميم السياسة الاستعمارية التي كانت الدول الكبرى تمارسها انذاك.



□ **خريطة رقم (١):**
خريطة الخطوط الثلاثة لمشروع قناة البحرين.

ففي هذه الفترة كان الصراع على أشده بين فرنسا وبريطانيا، وكانت فرنسا قد نجحت في اقناع السلطان العثماني والخديوي المصري بشق قناة السويس وبقدرة مهندسها (فرديناند دوليسبس) على تنفيذ المشروع. وخشيت بريطانيا أن تفقد السيطرة على طريق الهند والشرق الأقصى، فراحت تفكر في مشروع بديل أو مماثل. وفي عام ١٨٥٠، أرسلت الى فلسطين الكابتن (وليام ألن) لدراسة امكان وصل البحر المتوسط بالبحر الميت بواسطة قناة تربط خليج حيفا بوادي الأردن.

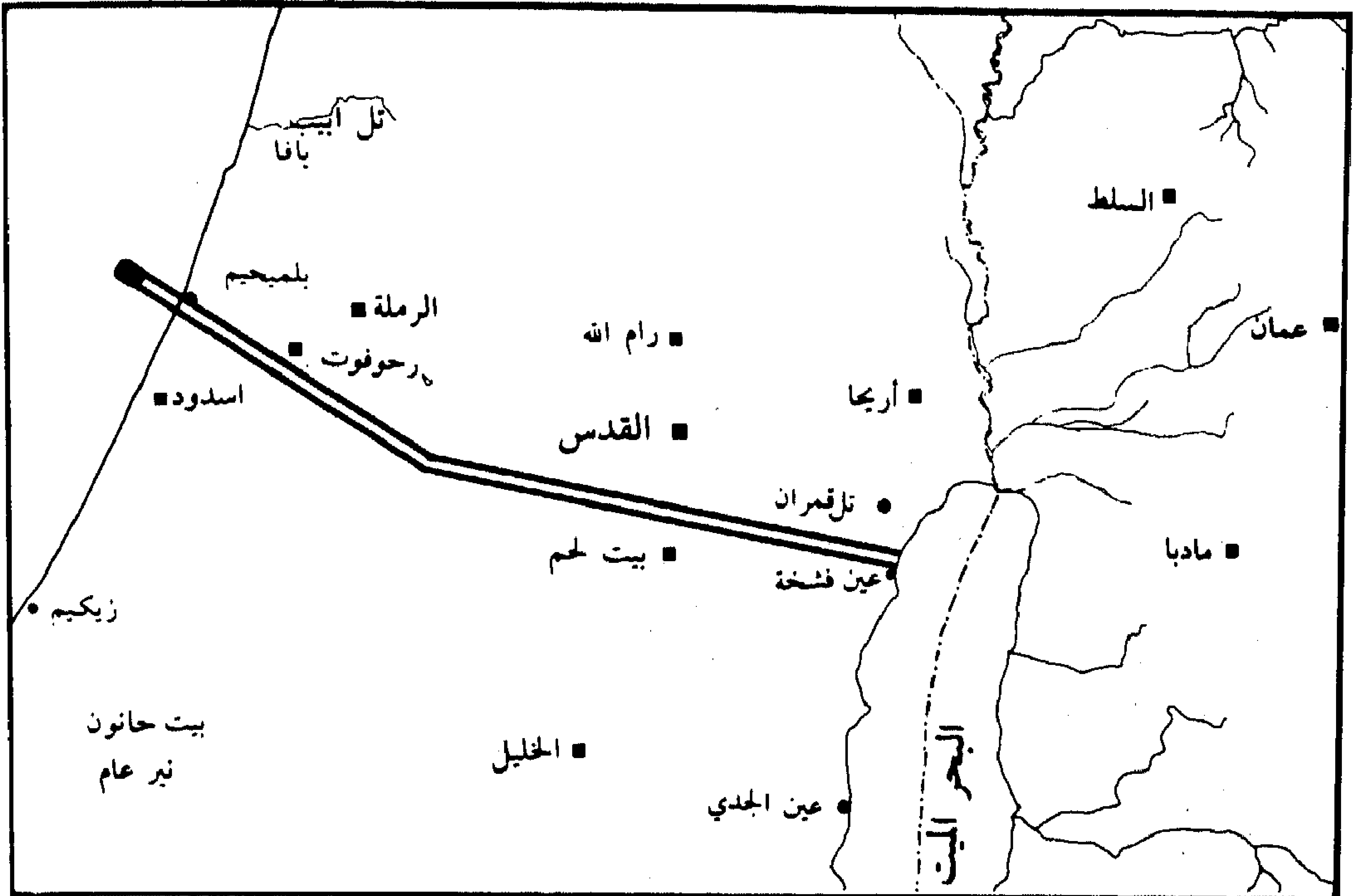
وأنجز الكابتن المهمة وقدم تقريرا الى الحكومة البريطانية نشر، فيما بعد، في كتاب بعنوان: «البحر الميت: طريق جديد الى الهند». وتضمن التقرير اقتراحا بشق قناة تربط خليج حيفا بوادي الأردن، بالقرب من بيسان، ثم بالبحر الميت، ثم بخليج العقبة، حيث يقام ميناء عميق، ومنه الى شرم الشيخ فالبحر الأحمر والمحيط الهندي. وكان الاقتراح يعتمد على ارتفاع منسوب المياه في البحر الميت وخليج العقبة بحيث يصبح من الممكن ابحار السفن من البحر المتوسط الى هذا الخليج.

غير أن المشروع أهمل لكلفته الباهظة ولتصميم بريطانيا على السيطرة على شركة قناة السويس. ومع أن هذه الدولة وفقت، بعد سنوات قليلة، في مسعاها وحصلت على الغالبية من أسهم القناة، فان نظرتها الى المستقبل بقيت تتسم بالخوف والقلق. لقد كانت تخشى عودة القناة الى مصر واحتمال حرمانها من فوائدها. ولهذا عادت من جديد تفكر في احياء مشروعها القديم.

وكان الجنرال (تشارلز غوردون Gordon، المشهور بدوردون باشا) حاكما للسودان ومن أصحاب الاختصاص، فأوفدته بريطانيا، ما بين عامي ١٨٧٣ و ١٨٧٥، الى فلسطين على رأس بعثة من الخبراء لدراسة الموضوع. فما كان منه الا أن طور مشروع سلفه بادخال بعض التحسينات عليه. وقد اعتقد بأن القناة ستستخدم كمانع مائي في وجه غزو روسي محتمل يأتي عن طريق العراق والأردن، وارتأى اغراق البحر الميت بمياه القناة التي ستجر من الشمال، فيرتفع بذلك منسوب المياه في البحر الميت الى منسوب سطح البحر المتوسط، مما يسمح للمياه بالتدفق جنوبا حتى خليج العقبة(٥).

واطلع تيودور هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية، على مختلف المشاريع التي ترمي إلى الاستفادة من تفاوت الارتفاع بين سطحي البحرين بوصلهما بقناة، فتبنى الفكرة وتحدث في كتابه «الأرض القديمة الجديدة»، الصادر في عام ١٩٠٣، عن قناة عرضها عشرة أمتار تربط البحرين، وعن طوربينات مائية قرب البحر الميت تديرها المياه المتساقطة فتولد تيارات كهربائية تغذي المنطقة الصناعية الجديدة التي ستقام على شاطىء البحر الميت(٦).

وفي عام ١٩٤٤، صدر لخبير عالمي في استصلاح الأراضي وريها، هو المهندس (والتر



□ خريطة رقم (٢): مشروع الخط الاوسط (تلميحيم ــ قمران).

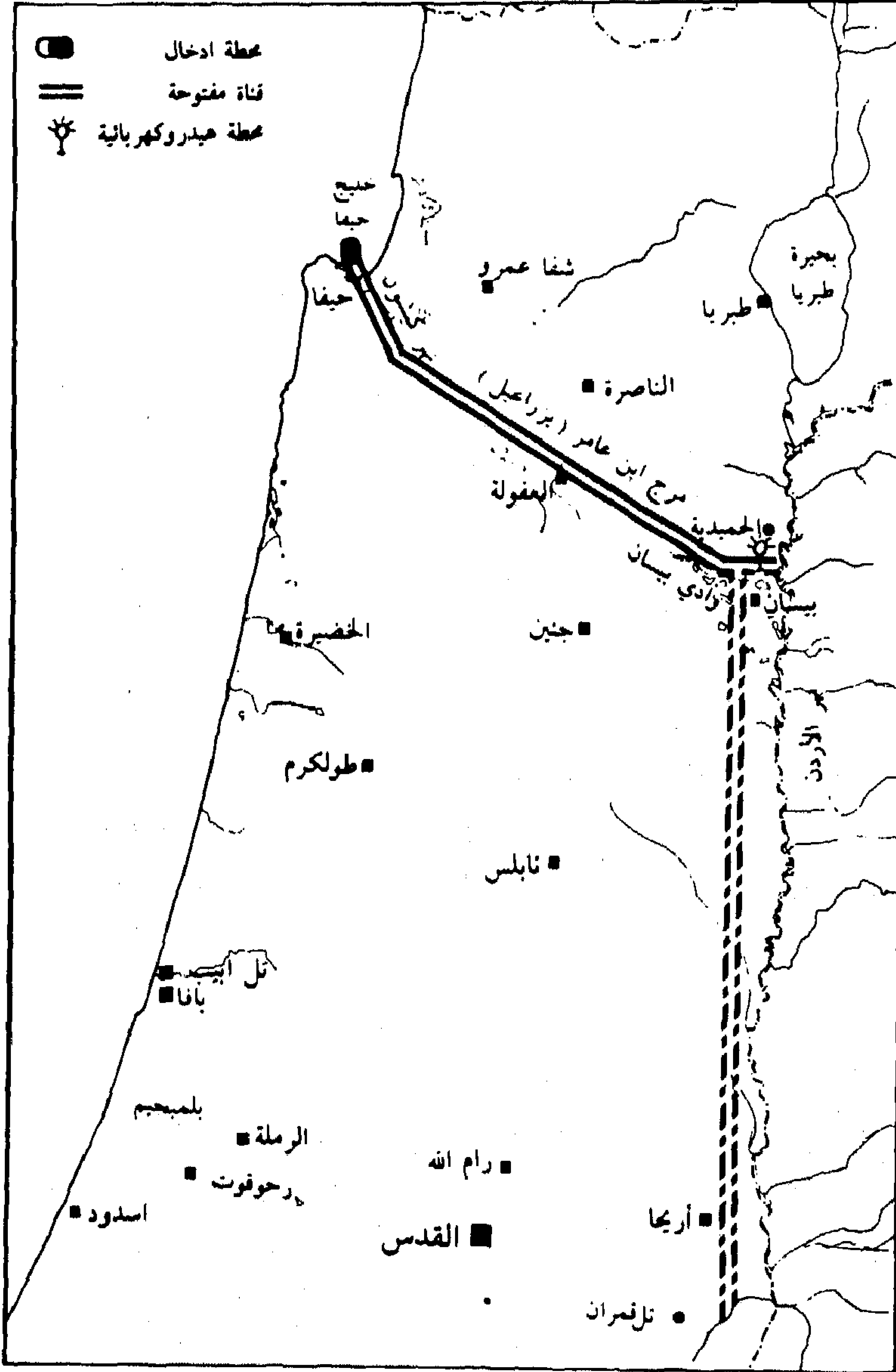
كلاي لاودرميلك)، كتاب بعنوان: «فلسطين أرض الميعاد»، تضمن أول مخطط شامل لتنمية الموارد المائية في فلسطين داخل الاطار السياسي والاقتصادي للمطامح الصهيونية في دولة يهودية. وقد ورد في الكتاب ما يلي:

«ان لفلسطين حاجتين رئيسيتين: المياه والطاقة. والمياه متوافرة من تدفق نهر الأردن. أما الطاقة الكامنة فمتوافرة في الانحدار السريع والهادر للنهر الى عمق البحر الميت. وهكذا فان الأهداف الأساسية لهيئة وادي الأردن هي تحويل المياه العذبة من الأردن وروافده لأغراض ري الأراضي القاحلة في وادي الأردن ومنحدراته، والانتفاع بالانحدار الشديد لقناة نهر الأردن لأغراض انماء الطاقة. ويتطلب برنامج الطاقة ادخال مياه البحر من البحر المتوسط الى داخل وادي الأردن لتحقيق الغرض المزدوج: تعويض البحر الميت من فقدان مياه الأردن المحولة، واستعمال مياه البحر لانماء الطاقة»(٧).

واشتمل الكتاب على مقترحات لمشاريع مائية تسمح، عند تنفيذها، باستيعاب أربعة ملايين من المهاجرين اليهود الجدد. ولم تكد الوكالة اليهودية تطلع على هذه المقترحات حتى سارعت الى الاستعانة بهيئة (وادي تينيسي) الأميركية لتجسيد مشاريع (لاودر ميلك) بدراسات وتصاميم تفصيلية، فكان مشروع (هيز) لعام ١٩٤٨، الذي ظل، لزمن طويل، المصدر الموجه الأول لجميع المشاريع المائية التي خطط لتنفيذها في اسرائيل(٨).

وعندما أخذ منسوب مياه البحر الميت ينخفض بفعل انحسار مياه نهر الأردن الذي كان نتيجة لضخ مياه بحيرة طبرية نحو النقب، تظاهر المسؤولون في اسرائيل بالهلع ودعوا الى انقاذ البحر الميت بشق قناة تصله بالبحر المتوسط. ولكن التنفيذ تأخر بسبب التمويل الضخم، واستمرار الحروب بين العرب والاسرائيليين، ووضع الضفة والقطاع اللذين بقيا، حتى عام ١٩٦٧، خارج نطاق الاحتلال الاسرائيلي.

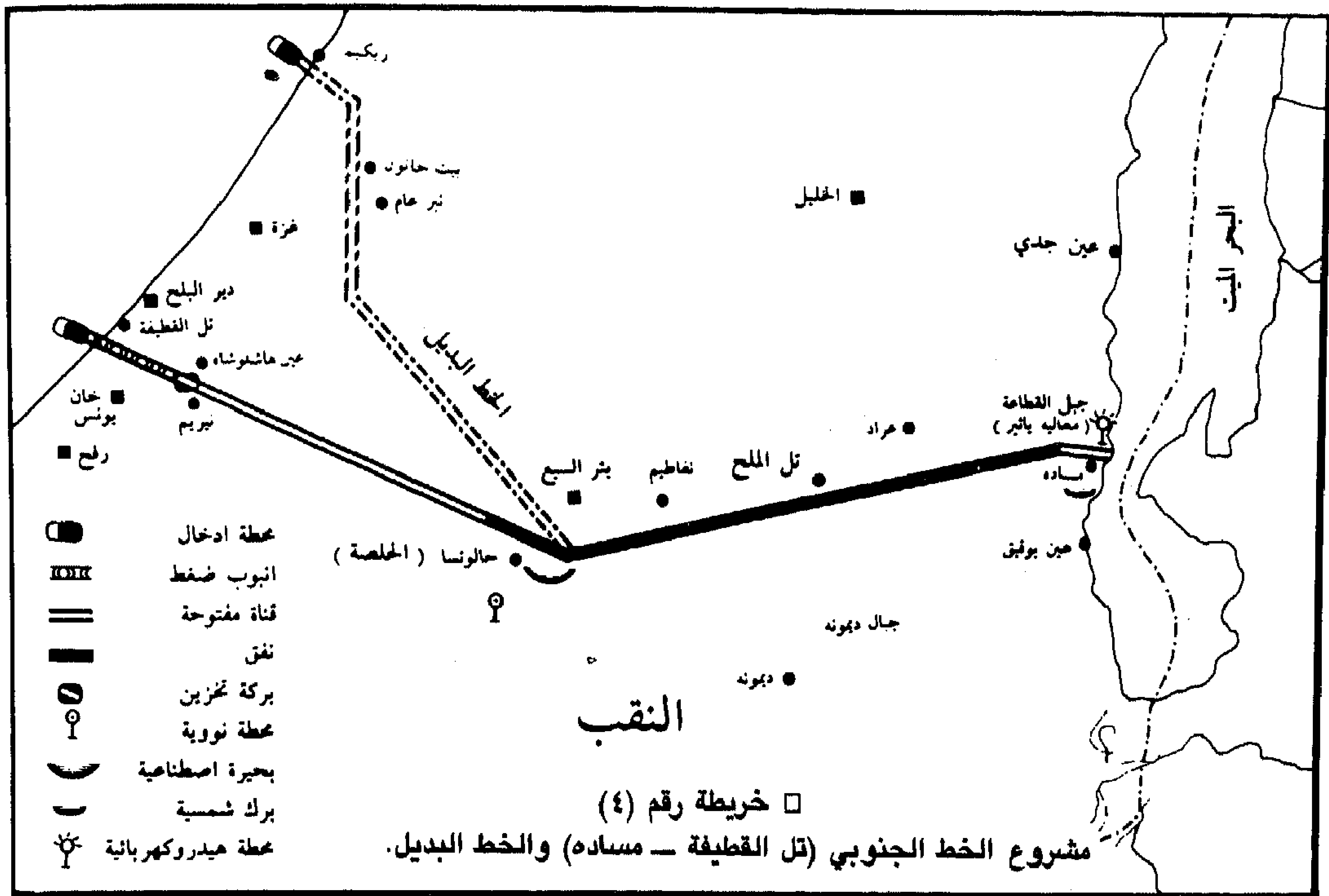
وبعد حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧، بدأت الاستعدادات الجدية للتنفيذ تظهر وتتبلور. وجاءت حرب أكتوبر (تشرين) ١٩٧٣ تثبت



□ خريطة رقم (٣): مشروع الخط الشمالي (مشروع غور).

لاسرائيل التي لا تملك ثروة نفطية وجوب العمل على تنويع مصادر الطاقة والاهتمام بقطاع الكهرباء. وفي عام ١٩٧٤، عينت الحكومة لجنة لدراسة الموضوع توصلت، بعد عام من الجهود المتواصلة، الى نتيجة مفادها أن تدفق المياه من المتوسط الى الميت يسمح بتشغيل محطة كهربائية بامكانها انتاج كميات ضخمة من الكهرباء ذات مردود اقتصادي كبير.

ولم يكد تجمع الليكود يتسلم، في مايو (أيار) ١٩٧٧، زمام السلطة في اسرائيل حتى سارع الى تشكيل لجنة برئاسة البروفسور يوفال نئمان (وهو عالم في الفيزياء النووية) للاهتمام بشكل نهائي بالمشروع. وقدمت اللجنة توصياتها في عام ١٩٨٠، فأقرتها الحكومة ووافقت على شق قناة تمتد من جنوبي دير البلح في قطاع غزة حتى منطقة مساده على البحر الميت. ومن المنتظر أن تكون القناة جاهزة وصالحة للعمل في بداية التسعينات من هذا القرن.



□ خريطة رقم (٤)

مشروع الخط الجنوبي (تل القطيفة ــ مساده) والخط البديل.

وعلى الرغم من استمرار الجدل في اسرائيل، على جميع المستويات، حول جدوى المشروع وما سيترتب على تنفيذه من انعكاسات ونتائج، وبغض النظر عن الكيفية التي سينفذ بها المشروع، والمدة التي سيتطلبها التنفيذ، والخط الجغرافي الذي ستمر به القناة (عبر قطاع غزة، أم عبر الضفة الغربية)، فان التصميم على شق القناة يطرح، في القانون الدولي العام، سؤالا واضحا: هل يجوز لدولة الاحتلال أن تتصرف بأراضي شعب خاضع للاحتلال، وتستغل، بطريقة غير مشروعة، ثرواته وموارده الطبيعية؟ ●

المراجع

(١) راجع صحيفة معاريف في ١٩٨٠/٨/٢٥. وراجع مقال (يوفال نئمان) بعنوان: «مياه حياة لا مياه نزاع» في الصحيفة المذكورة، في ١٩٨١/١٠/١. وقد اعتمدنا في نقل معظم المقتطفات العبرية على كتاب: قناة البحرين المتوسط والميت، لسمير جبور، ويولا البطل، ورنده حيدر. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨١.

(٢) صحيفة دافار، في ١٩٨٠/٩/١٩.

(٣) جرت الانتخابات النيابية لاختيار أعضاء الكنيست العاشر، في ١٩٨١/٦/٣٠، وتميزت بحصول تجمع الليكود، الذي يتزعمه بيغن، على أكبر نسبة من المقاعد.

(٤) انتقد المجلس القومي للتخطيط احتفال التدشين الذي سبق الانتخابات، وذكر أن المشروع لم يتم التصديق عليه بعد. راجع ما كتب في صحيفة (Jerusalem Post) في ١٩٨١/٥/٢٩.

(٥) راجع ملحق صحيفة هارتس، في ١٩٨٠/٧/٤.

(٦) نقلا عن مقال د. عبد القادر ياسين: المشروع الاسرائيلي لربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الميت. مجلة شؤون فلسطينية، العدد ١٣٢ ــ ١٣٣، نوفمبر ــ ديسمبر ١٩٨٢، ص ٩٠.

(٧) راجع مقال الباحثة مروة أديب جبر: مشروع اسرائيل لتوصيل البحر الأبيض بالبحر الميت. مجلة شؤون عربية، العدد ٣، مايو ١٩٨١، ص ٢٨٦.

(٨) راجع دراسة المهندس صبحي كحالة عن: المشكلة المائية في اسرائيل وانعكاساتها على الصراع العربي الاسرائيلي. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سلسلة: أوراق المؤسسة، رقم ٩، ص ١٠.

الخرائط من كتاب:

المشروع الاسرائيلي واخطاره ــ قناة البحرين المتوسط والميت

اعداد: سمير جبور ــ يولا البطل ــ رنده حيدر

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

الفكر العربي الاسلامي

أعلاماً ومؤلفات ٧

د. نقولا زيادة

كان الرازي أول طبيب عربي وضع ما يصح أن يسمى دليلا طبيا ينتفع به الطبيب وطالب الطب. وفصوله كذلك نقطة انطلاق في المجال العلاجي. أما ابن الهيثم فأول من وضع علم البصريات، على قواعد سليمة لا في دنيا العرب والاسلام فحسب، بل في دنيا العلم كله. والبيروني أول من شغل بالعلم عن قطر أجنبي بعد أن اتقن لغة أهله، اذ كان يعرف السنسكريتية مثلا.

المرشد والفصول، للرازي



عاش الرازي الطبيب في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة وأوائل القرن الرابع (أي في الثلث الأخير من القرن التاسع للميلاد والربع الأول للقرن العاشر). وهذه فترة، كما نعرف، من الفترات الغنية بالنتاج الفكري في العالم العربي الاسلامي. ونود أن نسمح لأنفسنا بتذكير القراء الكرام بما كان قد تم في حقل الترجمة في بغداد على الأقل في الوقت الذي تصدى الرازي فيه للطب أستاذا وطبيبا ممارسا وسريريا مشرفا على شؤون البيمارستان.

كانت الترجمة قد بدأت عملا افراديا في أواخر العصر الأموي وبدء الدولة العباسية، وكان أبو جعفر المنصور أول من جعل الترجمة عملا منظما. فقد كان في قصره مكتبة ثم أنه نقل عن الشعوب التي احتك العرب بها، فيما نقل، العناية بالكتاب والمترجمين. فلما ولي الأمر هارون الرشيد ولى يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب الطبية القديمة لما وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون، ووضعه أمينا على الترجمة ورتب له كتابا حاذقين يكتبون بين يديه.

وأنشأ ابنه المأمون بيت الحكمة في بغداد حيث كان يوحنا يقوم فيه بالعمل ولكن رئاسة بيت الحكمة عهد بها الى سلم الترجمان أو المترجم. وفي هذا البيت عمل عدد كبير من التراجمة في نقل كتب الطب والفلسفة وما اليها. فضلا عن ان بيت الحكمة أصبح مجمعا للبحث



الرازي يعالج
احد مرضاه.

العلمي. وقد أحيا المتوكل سنة المأمون فأعاد بيت الحكمة الى عزه سنة ٢٤٠ للهجرة (أي ٨٥٥ للميلاد) وعين حنين بن أسحق رئيسا للترجمة هناك. ومعنى هذا كله أنه حول منتصف القرن الثالث للهجرة (أي القرن التاسع للميلاد) كانت الكثرة المطلقة من الكتب الطبية، وغير الطبية طبعا، قد نقلت الى العربية وأصبحت في متناول الراغبين في العلوم الطبية.

والذي نراه أن القرن الثالث للهجرة (أي القرن التاسع للميلاد) يمثل في تاريخ الفكر العربي نقلة هامة وهي أن المشتغلين بالفلسفة والطب والعلوم الأخرى اتجهوا الى جعل هذه كلها علوما أصيلة. ففي الفلسفة، كما نعرف، عمل الكندي على خلق نزعة فلسفية عربية اسلامية بحيث لا تظل الفلسفة غريبة على العرب المسلمين.

ونعرف أن الطبري، وهو من أهل القرن نفسه نظم كتابة التاريخ على نطاق واسع كما أنه وضع تفسيره بحيث اختط في ذلك سبيلا سوياً للمفسرين. ويخيل الينا أن عمل الرازي في الطب كان شيئا مثل هذا، جعل الطب عربيا مطابقا للحاجات الجديدة التي كان المجتمع يتطلبها.

ولد أبو بكر محمد بن زكريا الرازي في الري سنة ٢٥١هـ (٨٦٥م) وفيها نشأ. واشتغل الرجل أول أمره بالنواحي الفلسفية والأدبية ثم انتقل الى الطب. والذي نعرفه أن الطب والفلسفة كانا موضوعين متلازمين عند العرب، بحيث يكاد يكون جميع الفلاسفة العرب من الكندي الى ابن رشد أطباء أيضا. لكن الأمر الحري بالعناية هو أن تغلب نزعة على الأخرى. فالرازي مثلا يمكن اعتباره طبيب الفلاسفة بينما يمكن أن نرى في ابن سينا فيلسوف الأطباء.

وانتقل الرازي الى بغداد، وأي عالم في تلك الأزمنة لم يزر بغداد أو لم يقم بها طويلا. وفي بغداد كان ساعورا أي ناظرا للبيمارستان هناك. ولكن الرازي كانت فيه رغبة للتنقل فقد قضى شطرا من حياته في جهات الري وعمل عند عدد من الأمراء طبيبا أو ناظرا للبيمارستان ان وجد. وقد أصاب الرازي العمى في اخر حياته ولما قيل له أن يقدح عينيه ليشفى قال انه رأى من الدنيا ما فيه الكفاية وتوفي وهو كفيف البصر في الري وذلك في سنة ٣١٣ للهجرة (٩٢٥ للميلاد) على أصح التقديرات.

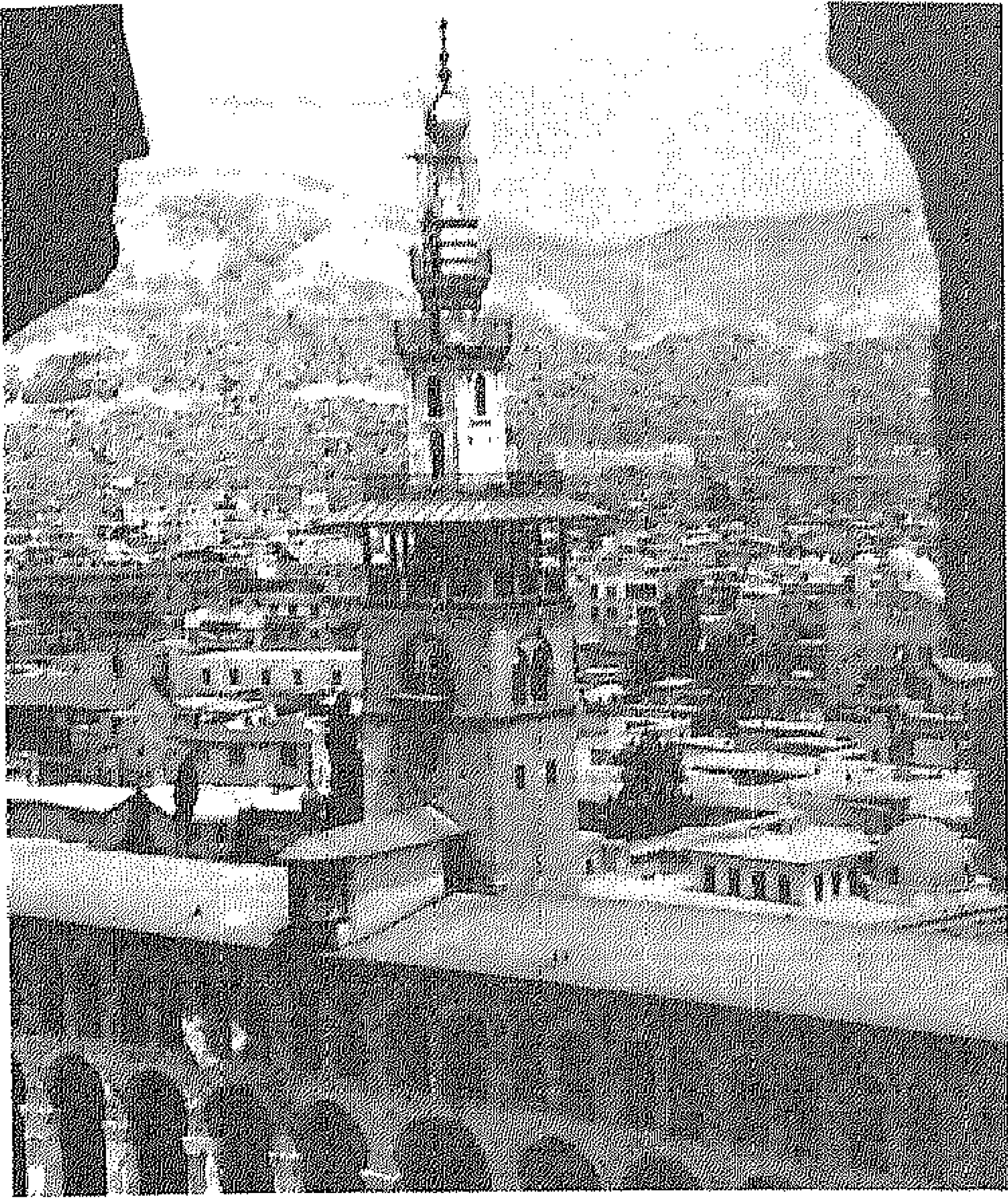
وللرازي مؤلفات كثيرة في الطب وغيره، ولكننا نكتفي هنا بالاشارة الى الأهم من كتبه الطبية وهي: المنصوري وقد وضعه بناء على رغبة الأمير منصور بن اسماعيل صاحب خراسان. والملوكي وقد ألفه لعلي بن صاحب طبرستان وعرض فيه للعلل وأعراض الأمراض كلها واصلاحها بالأغذية. والحاوي وهو، على ما يقول ابن أبي اصيبعه، أشهر كتبه. وقد روى هذا المؤرخ القاص ان ابن العميد، استاذ الصاحب بن عباد، كان السبب في اظهار كتاب الحاوي. «فقد طلبه بعد وفاة الرازي من أخت هذا، فأظهرت له مسودات الكتاب فجمع تلاميذه من الأطباء الذين

كانوا بالري حتى رتبوا الكتاب. وفي هذا الكتاب جمع الرازي كل ما وجده متفرقا في ذكر الأمراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين ومن أتى بعدهم الى زمانه ونسب فيه كل شيء نقله الى قائله. هذا مع أن الرازي توفي ولم يقسم له في الأجل أن يحرره. «وكثيرا ما يوجه النقد للرازي بسبب الفوضى في هذا الكتاب، ولكن يجب أن نذكر أن هذه كانت مذكرات خاصة جمعت فيها أمور كثيرة متعددة متنوعة ولم يقصد منها التأليف أصلا.

ولكن الرازي أبرز في كتبه الصغرى، والتي نجد فيها ما أشرنا اليه، انه رمى فيما وضع الى شيء من تنظيم المعرفة الطبية. فنحن نجد له كتبا في هيئة القلب والصماخ والمفاصل واقراباذين وكيفية الاغتذاء والأدوية المركبة. وغيرها كثير.

ولكن ثمة كتابين حريين باهتمامنا الخاص لأنهما يبرزان قيمة الرازي ويوضحان الدور الذي قام به كطبيب وكأستاذ وهما مقالة في الحصبة والجدري وكتاب المرشد أو الفصول. وقد كان الرازي أول من فرق بين مرضي الحصبة والجدري من الناحية السريرية، ولا تزال أمور كثيرة مما ذكرها صالحة الى يوم الناس هذا. فضلا عن أن هذه الرسالة هي «قطعة رائعة في أدب الطب».

أما المرشد أو الفصول فهو كتاب منظم وضعه الرازي بعد تجارب واختبارات وتدريس للطب ومعاناة ادارة البيمارستان مدة طويلة. لذلك لا نجد فيه التشويش الموجود في الحاوي. وقد رأينا أن ننقل للمستمعين شيئا مما جاء في هذا الكتاب. قال الرازي في فصل تركيب الأدوية: «لو أمكن في كل موضع علاج بدواء منفرد، لاستغني عن تركيب الأدوية، لكن يمنع من ذلك خلال. فمن هذه الخلال المحوجة الى تركيب الأدوية انه ربما كان الدواء الذي ينفع من علة ما، أو يقوي عضوا ما، يضر بأخرى، فنضطر أن نركب معه ما يمنع من ذلك... وتكون أدوية كلها نافعة لعلة ما، الا أن بعضها أنفع من بعض لبعض الأبدان والأمزاج. فيريد الطبيب أن يكون عنده دواء يصلح أن يستعمل في علل كثيرة للتخفيف عن نفسه في الاسفار ونحوها، فيضطر أن يركب ذلك الدواء من أدوية نافعة لعلل شتى،



دمشق، ومسجدها الأموي.

كالترياق مثلا. فانه بما فيه من سموم الأفاعي يوهن سمومها وبما فيه من الأدوية الأخر النافعة — كل واحدة منها من سم ما — ينفع من كثير من السموم، وبما فيه من الأفيون يعقل البطن ويمنع نفث الدم، وبما فيه للأدوية المدرة للبول والملطفة ينفع من أوجاع المفاصل والغليظة الى منافع أخر كثيرة. ومنها انه ربما احتيج أن يخرج من البدن أخلاطا مختلفة، فيحتاج أن يركب الدواء من أدوية كل واحدة منها يخرج خلطا من الأخلاط».

وفي الفصل الذي عقده بعنوان المرض والسبب والعرض يقول: «ما دام الجسم بأجمعه أو بعض أعضائه يفعل أفعاله التي تخصه بمقدار المادة الجارية له، وبلا وجع فهو سليم صحيح... والمرض هو أن لا يقدر العضو على فعله الذي يخصه البتة، أو يقدر عليه قدرة ضعيفة، أو يكون موجعا... وأجناس أسباب المرض الأول جنسان تغير الشكل وتغير المزاج... فالخلع والكسر في اليد تغيير في الشكل، وتغير المزاج ما قد يصيب الكبد أو القلب مثلا اذا صار أسخن أو أبرد مما كان... ويتبع ذلك أننا اذا أصبنا ضروب تغير الشكل والمزاج والأسباب المحدثة لها فقد أصبنا أجناس وأسباب الأمراض الأول».

هذا كتاب من كتب الرازي المرتبة والمنظمة لصناعة الطب. ونود أن نذكر هنا أيضا أن الرازي وضع تعابير ومصطلحات طبية دقيقة ليسترشد بها من يأتي بعده، فالمرض الغامض هو الذي يؤدي الى الموت فجأة، والمرض الكمين هو علة يشعر بها المريض عقب علة أكربته، وضربة أي مرة واحدة يقول ارتفعت الحمة ضربة، بديعة بمعنى غير مألوفة فعند تقطير البول تجد فيه أشياء بديعة أي غريبة، والدائرة الحمى التي تنوب. ومثل هذه عشراء عنده.

لعل الرازي لم يكن مبتكرا في الطب، باستثناء الحصبة والجدري، ولكنه كان «من غير شك رجلا تفرغ للعلم والدرس والتأليف والعلاج. وفي هذه كلها كان له فضل الايضاح والتطبيق الحسن والتنظيم العلمي».

فهو واحد من أولئك الذين ساعدوا على خلق العلم.

●

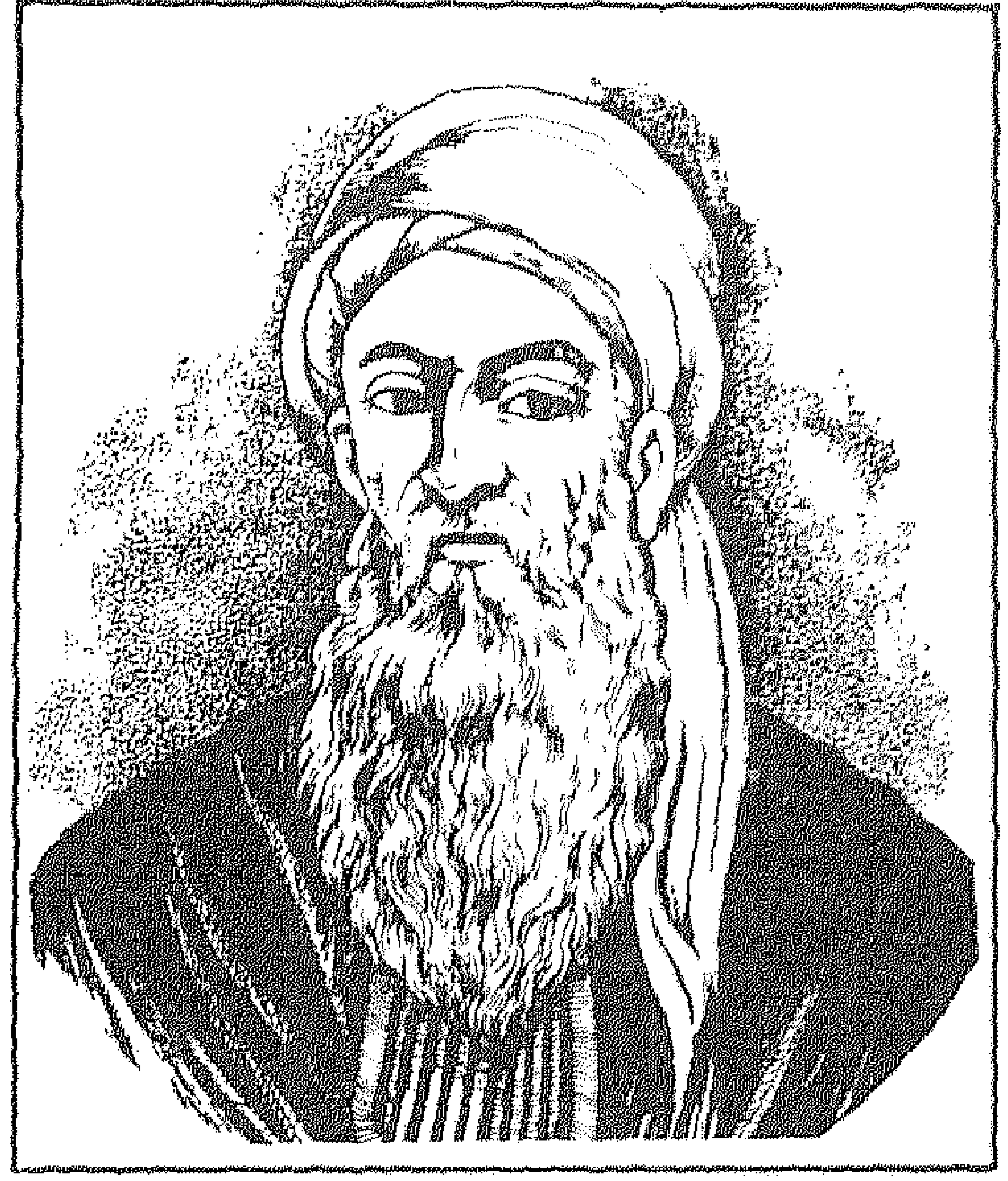
كتاب المناظر، لابن الهيثم

ولد الحسن أبو علي بن الحسن بن الهيثم في البصرة سنة ٣٥٤ للهجرة (حوالي سنة ٩٦٥ للميلاد) على الترجيح. ولكنه كان كثير الأسفار فلم يستقر بها. وتوفي سنة ٤٣٠ للهجرة (سنة ١٠٣٩ ميلادية) في القاهرة. فهو بذلك من أهل القرنين الرابع والخامس للهجرة (أي القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد).

واذا كان العرب، في بدء اتصالهم بالثقافات الأخرى، نقلوا عنهم الطب والفلسفة وعلم النجوم، فانهم لم يلبثوا أن انتقلوا الى ترجمة الكتب الاغريقية والهندية والفارسية في العلم الطبيعي والرياضي، من «هندسة ومخروطات وجبر وحساب مثلثات وارتماطيقي وما يتصل بها من بصريات هندسية ومرايا محرقة وفلك وميكانيكا، ما يتناول مراكز الاتصال ورفعها والحيل وما إلى ذلك». وأخذ الاسلاميون أنفسهم في شرح هذه المترجمات والتعليق عليها والاضافة بما يبتكرون ويبدعون. وفي خلال ذلك وعقبه ظهر بين العرب والمسلمين فلاسفة وعلماء وأطباء وأفذاذ كثيرون، هم الذين وضعوا العلوم والفلسفة في قالب عربي وصيروها فكرا عربيا اسلاميا. فابن الهيثم، الذي ولد في أواسط القرن الرابع للهجرة (أي القرن العاشر للميلاد)، على ما يقول عنه مصطفى نظيف «شهد عصرا صاخبا بجلبة الحركة الفكرية ذا المتدفقة، ومزدهرا بشتى الاراء لا في أمور الاعتقادات والمذاهب الشرعية، ولا في أمور اللغة والأدب فحسب، بل في الأمور الفلسفية والعقلية والعلوم التعليمية أيضا. فقضى في صبر ومثابرة مرحلة طويلة من حياته كانت بغيته فيها الالمام بنواحي النشاط الفكري السائد في ذلك العصر. وأخذ يدرس كل ما وقعت عليه يداه مما كان متوافرا من كتب المتقدمين. «ولكي ندرك مدى الجهد الشخصي الذي بذله ابن الهيثم يجب أن نذكر أنفسنا بأن أيامه لم تكن فيها مدارس يتلقى المرء فيها هذه العلوم. وحتى بيت الحكمة الذي عرف قبله بنحو قرن من الزمان كان قد عفى أثره.

ولم يكن ابن الهيثم يكتفي بقراءة هذه الكتب، بل كان يعد لها خلاصات، أو مذكرات كما نقول نحن اليوم، لكي يدرك دقائق المعاني الواردة فيها، وينتفع بها طلاب العلم. وقد قال ابن الهيثم نفسه في ذلك: وأنا، ما مدت لي الحياة، باذل جهدي ومستفرغ قوتي في مثل ذلك متوخياً منه أمورا ثلاثة: أحدها افادة من يطلب الحق ويؤثره في حياتي وبعد مماتي. والاخر انني جعلت ذلك ارتياضا لي بهذه الأمور في اثبات ما تصوره واتقنه فكري من تلك العلوم. والثالث أنني صيرته ذخيرة، وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم.

وهذه الخلاصات لم تكن تلخيصا لعلم الأقدمين والمعاصرين فحسب، بل ان صاحبها كان يضيف اليها ما يرتأيه. وقد بلغت هذه الكتب عشرات منها ثلاثة وأربعون في العلوم الفلسفية



ابن الهيثم: العالم العربي
الذي حل للعالم. مشكلة الأبصار.

والطبيعية، وخمسة وعشرون تتناول العلوم الرياضية وما اليها، وكتابان في الطب. ولنذكر على سبيل المثال قوله هو عن كتابين منها من وضعه.

الأول ـ الجامع في أصول الحساب الذي يقول عنه «واستخرجت أصوله لجميع أنواع الحساب من أوضاع أوقليدس في أصول الهندسة والعدد، وجعلت السولك في استخراج المسائل الحسابية بجبهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي. وعدلت فيه عن أوضاع الجبريين والمنجمين».

والثاني ـ كتابه في الأصول الهندسية والعددية، الذي يصفه بقوله: «كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والعددية من كتاب أوقليدس وأبولونيوس ونوعت فيه الأصول وقسمتها وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية، حتى انتظم ذلك، مع انتقاض توالي أوقليدس وأبولونيوس».

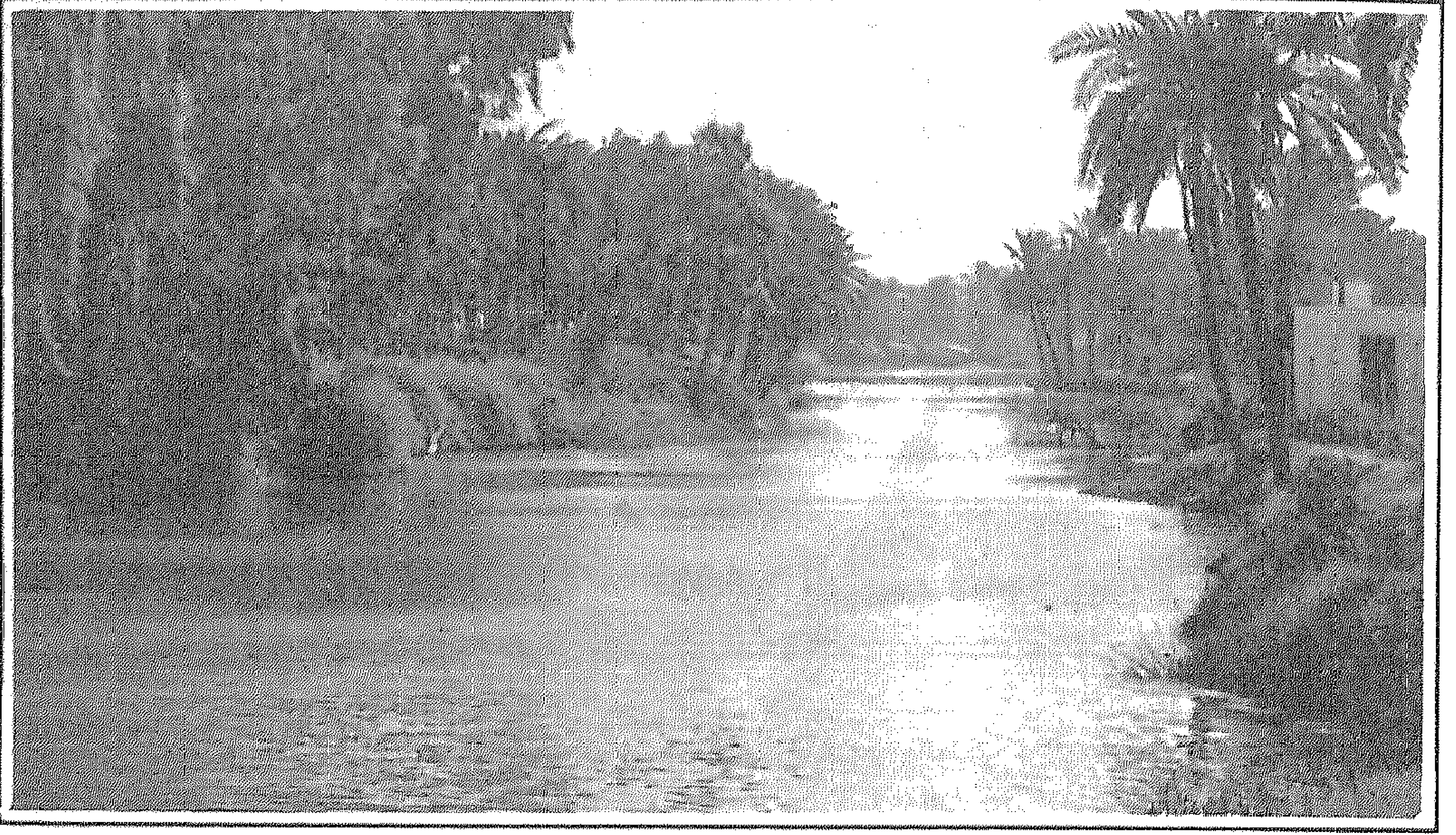
واذا كان ابن الهيثم عالما موسوعيا، فانه كان الى ذلك مهندسا عمليا. فقد وضع كتابين في ذلك أحدهما في عقود الأبنية والثاني في المساحة. وقد جاء في كتاب أرشاد القاصد الى اسنى المقاصد للانصاري عن علم عقود الأبنية والمساحة ما يلي:

«**الأول** ـ هو الذي يتعرف منه أحوال أوضاع الأبنية وكيفية شق الأنهار وتنقية القنى وسد البثوق وتنضيد المساكن. ومنفعته عظيمة في عمارة المدن والقلاع والمنازل وفي الفلاحة... (وعلم المساحة) علم يتعلم منه مقادير الخطوط والسطوح والأجسام، ما يقدرها من الخط والمربع والمكعب، ومنفعته جليلة في أمر الخراج وقسمة الأرضين وتقدير المساكن وغيرها».

عاصر ابن الهيثم الخليفة الحاكم بأمر الله، الذي كان يرعى العلماء في القاهرة والذي أنشأ دار الحكمة التي عرفت بدار العلم أيضا. وقد رغب الحاكم ابن الهيثم في الحضور الى مصر لما سمع به فجاء الى القاهرة. ولكن الأمور لم تجر هناك على ما اشتهى ابن الهيثم، فقد ولي منصبا اداريا بدل أن يضم الى بيت العلم. ولكن لما توفي الحاكم سنة ٤١١ هجرية (أي سنة ١٠٢٠ ميلادية)، عاد ابن الهيثم الى أعماله العلمية وبحوثه وقضى زهاء ثمانية عشر عاما في ذلك. وفي هذه الفترة وضع كتاب «المناظر» والكتاب قمة في تاريخ العلم، وصاحبه قمة في تاريخ الفكر العربي الاسلامي.

يقول المرحوم محمد كامل حسن أننا عندما نبحث في تاريخ العلوم عند العرب يجب أن نغير أسلوبنا. «فقد آن لنا أن نرجع الى المصادر الأولى لهذا العلم، وأن لا نأخذ بما قال الناس عنه قديما أو حديثا. ولدينا الكثير من مؤلفات العلماء العرب ومنها نستطيع أن نحدد أسلوبهم في التفكير وحظهم من العلم... ومن أجمل الأمثلة على أسلوب التاريخ العلمي الذي يقوم على الأصول ما فعله الأستاذ مصطفى نظيف بابن الهيثم. فقد درس مؤلفاته درسا عميقا، وأقام المجد العلمي لابن الهيثم على أسس لا شك فيها».

وكتاب مصطفى نظيف، الذي نشر سنة ١٨٤٢ في القاهرة، نموذج على ما يسمى في تاريخ العلم دراسة من الداخل. وعليه اعتمدنا في تلخيص الدور الذي قام به ابن الهيثم العالم في تاريخ الفكر العربي الاسلامي. وسنكتفي بالناحية العلمية تاركين الاتجاه الفلسفي في تفكير ابن الهيثم، الا حيث يكون هذا موضعا للأولى.



البصرة، مسقط رأس ابن الهيثم.

ابن الهيثم في بحوثه الطبيعية يجعل غرضه أولا الكشف عن أحكام أو قواعد أو قوانين، ثم يبني على ما ينكشف منها فهو لا شك يعتقد أن ظواهر الطبيعة تجري على نظام، ويتكرر حدوثها على نهج واحد يتوافر فيه التجانس والانسجام والتماثل. وفي كتاب المناظر الكبير، كما في دراساته الأصغر، كان ابن الهيثم يضع هذه القاعدة نصب عينيه. وليس المهم فقط أن ابن الهيثم اكتشف قواعد الضوء والبصر والنظر وما الى ذلك، ولكن المهم أيضا أن الرجل اتبع في الوصول الى ذلك طريقة علمية. والطريق العلمية التي اتبعها ابن الهيثم، على ما ارتآه مصطفى نظيف، تعتمد على العناصر الثلاثة الهامة وهي: الاستقراء والقياس والتمثيل.

جاء في مقدمة كتاب المناظر بيان الطريقة التي لجأ اليها ابن الهيثم في بحثه. فقد كان ثمة رأيان بين المتقدمين في كيفية الأبصار، أما بخروج اشعاع من البصر الى المبصر أو بورود صورة المبصر أو شبحه من المبصر الى البصر. يقول ابن الهيثم في ذلك:

«وكل مذهبين مختلفين أما أن يكون أحدهما صادقا والاخر كاذبا، وأما أن يكونا جميعا كاذبين والحق غيرهما جميعا، وأما أن يكونا جميعا يؤديان الى معنى واحد هو الحقيقة، ويكون كل واحد من الفريقين القائلين بذينك المذهبين قد قصر في البحث... ولما كان ذلك كذلك، وكانت الحقيقة هذا المعنى، مع اطراد الخلاف بين أهل النظر المتحققين بالبحث عنه على طول الدهر ملتبسة، وكيفية الأبصار غير متيقنة، رأينا أن نصرف الاهتمام الى هذا المعنى بغاية الامكان، ونخلص العناية به ونتأمله، ونوقع الجد في البحث عن حقيقته، ونستأنف النظر في مباديه مقدماته... ونبتدىء في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات، وتميز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الابصار، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس. ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب، مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الاراء... فلعلنا ننتهي بهذا الطريق الى الحق».

وقد استدل ابن الهيثم، في جميع بحوثه في الضوء، على القواعد أو القوانين الأساسية بتجارب. وفي جميع هذه التجارب اتخذ أجهزة

أو الات خاصة، جرى في استعمالها على نظام خاص... وعمله لم يكن مقصورا على مجرد اجراء التجارب، بل تضمن انشاء أجهزة أو الات استعملها في تلك البحوث، وان كان قد سبقه الى أمثال بعض الآلات التي استعملها بعض المتقدمين كبطليموس مثلا، فانه قد عدلها وغير تصميمها وأصلحها، بما جعلها قمينة أن تحقق الأغراض التي أرادها، ومنها ما كان معقد التركيب دقيق الأجزاء عسير الصنع. وهو لا يكتفي بمجرد وصفها، وبيان كيفية استعمالها، وانما يأتي في شرح مسهب بتفصيل كيفية صنع الأجزاء المختلفة التي تتركب منها الآلة، مفصلا ذلك غاية التفصيل.

هذا هو العالم العربي الذي حل للعالم مشكلة الابصار نهائيا، وذلك في القرن الخامس الهجري، (أي القرن الحادي عشر للميلاد). ●

القانون المسعودي وكتاب الهند، للبيروني

في الوقت نفسه الذي كان ابن الهيثم يعمل جاهدا في اكتشاف سر الأبصار، وقد تسلح بالمعرفة العلمية التي أهلته لذلك، وحذا في نفسه وسائل البحث وأساليبه، واهتدى الى صنع الآلات اللازمة لذلك — في الوقت نفسه كان عالم آخر يعمل جاهدا في توضيح قضايا فلكية، واصلاح أخطاء سابقة في الازياج. كان ابن الهيثم يعمل في القاهرة، وكان عالمنا الآخر، وهو البيروني، يعمل في فرغانة التي تقع في حدود أفغانستان اليوم. وليس المهم أن تكون اهتمامات الرجلين مختلفة، بل المهم أن يكون الأسلوب الذي سارا عليه فيه كثير من التشابه. اذ كان يقوم على اجراء التجارب والاستقراء والقياس. هذا مع العلم أن بين شخصيتي علمينا فرقا كبيرا فيما يتعلق بالحياة العامة، وان كانا يتفقان في تواضعهما، وصفاء خلقهما واخلاصهما للعلم والمعرفة.

ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني سنة ٣٦٢ للهجرة (أي سنة ٩٧٣ للميلاد) في خوارزم. والمرجح أن مولده كان في ضاحية من ضواحي كاث عاصمة خوارزم. ويبدو أن اسم الضاحية كان بيرون، وهو اسم أطلق على مكان كان التجار يقطنون فيه خارج أسوار العاصمة، للتخلص من دفع المكوس المترتبة عليهم. وقد عمل في مطلع عهده مع عالم من علماء النبات يجمع له الكثير منها ويرتبها، فأكسبه أنواع العلوم المختلفة، وخاصة فيما يتعلق بالعلوم الرياضية والفلكية والجغرافية. وكانت له رغبة شديدة في التاريخ أيضا. ومع أن البيروني لم يكتب، فيما نعلم، في شؤون الفلسفة شيئا مستقلا، فان الذي يقرأ ما كتبه عن أديان الهند وفلسفاتها يدرك تماما ان الرجل كان يعرف ما كان قد وصل الى العالم العربي الاسلامي، وأكثر قليلا، بسبب معرفته لليونانية والسريانية. كما أن ما ذكره في جماع كتبه عن الفرق المسيحية يدلنا على فهمه لملابساتها. ولعله من أوائل العلماء المسلمين الذين فهموا الأديان الأخرى فهم تعلم لا فهم مناقشة فحسب.

وقد كان بين الذين أعانوه على دراسة الفلك، قبل أن يتوغل فيه بحيث يصبح أحد أئمته استاذه أبو نصر منصور بن علي بن عراق. وقد اتصل البيروني بابن سينا.

كان البيروني يشترك في الحياة العامة أي في الحياة السياسية في بلاده. فقد كان في جماعة خوارزم شاه. فلما اغتيل الرجل، وجد البيروني أن الحيطة تقضي عليه بأن يغادر وطنه. ففعل ذلك سنة ٣٨٥ هجرية (١٠٠٤م) وذهب الى جرجان. وهناك التحق ببلاط السلطان أبي الحسن قابوس حيث قضى قرابة خمس عشرة سنة. وفي تلك الأثناء وضع كتابه المسمى الآثار الباقية عن القرون الخالية عن التقاويم والفلك وما عرفته الأمم السابقة من وسائل قياسات الزمن والازياج.

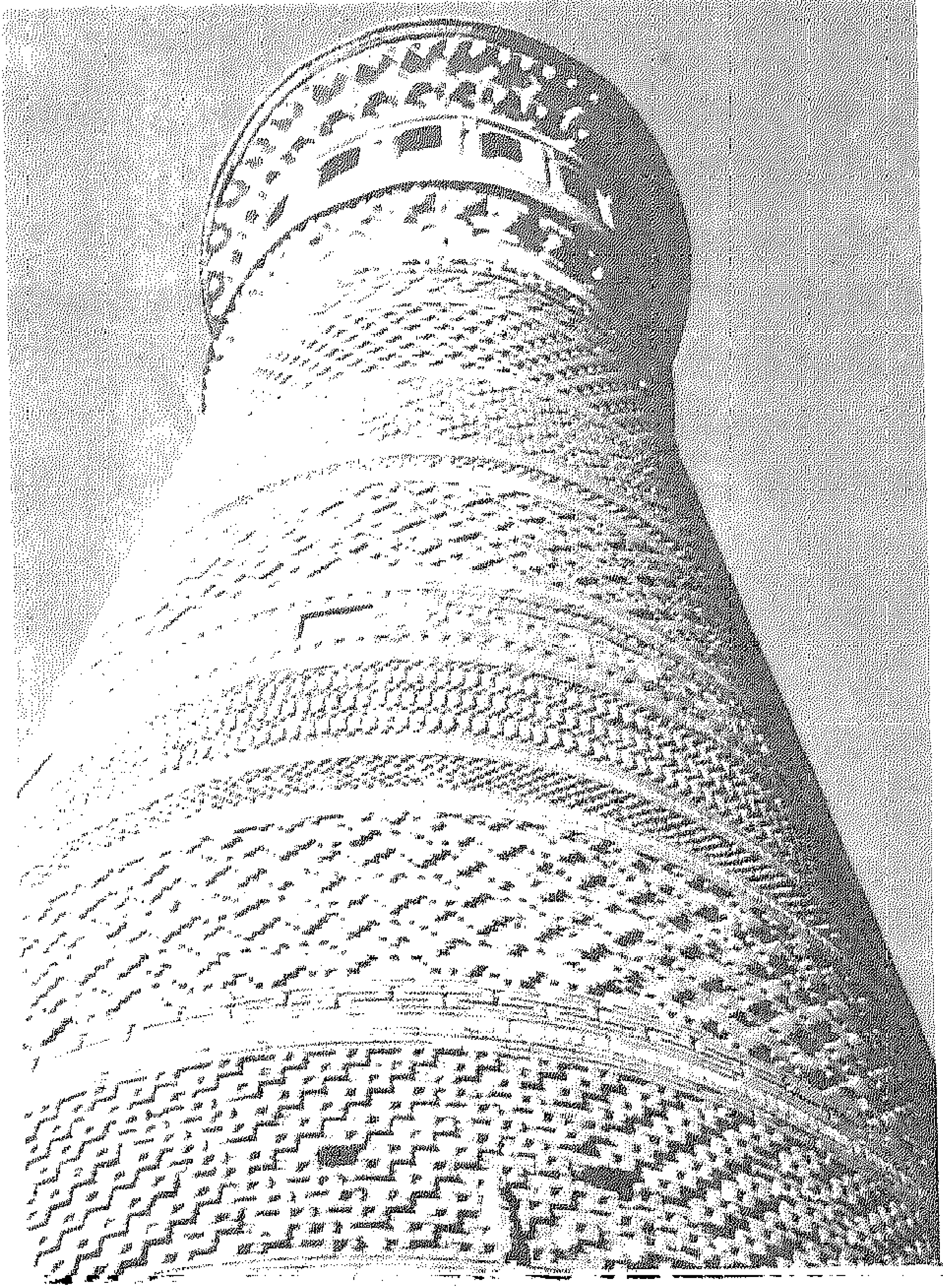


البيروني: صاحب اكثر من مائة مؤلف في الجغرافيا والتاريخ وعلم الفلك والحساب، وعلم الصيدلة.

وعاد الى وطنه بعد هذا الغياب الطويل، ولعله ضمن، قبل دعوته، أن الذين اغتالوا خوارزم شاه واستولوا على السلطة لن يمسوا البيروني بسوء. ولعلنا لا نعدو الصواب اذا حسبنا أن الأمير ابن مأمون رغب في أن يكون في بلاطه رجل في معرفة البيروني وشهرته. وقد كلفه فيما بعد، مهمات سياسية. ومع أنه كان في البلاط فقد استمر في بحوثه ودراساته، لكن الوقت الذي كان يمكن أن يعطيه لها كان أقل مما يجب. وفي سنة ٤٠٧ هجرية (١٠١٧م) غزا محمود بن سبكتكين خوارزم واحتلها وحمل علماءها الى غزنة. فلما توفي محمود وخلفه ابنه مسعود قرب البيروني وأحاطه بكل تقدير وعناية. وهنا كتب البيروني كتابه الموسوعي النفيس في الفلك فأسماه القانون المسعودي في الحياة والنجوم، نسبة الى مسعود نفسه.

وأخذ مسعود نفسه بغزو شمال غرب الهند، واصطحب البيروني في غزواته. وهنا تعلم عالمنا اللغة السنسكريتية وبذلك تمكن من الاطلاع على شؤون الهند بطريقة لم تتح لعالم مسلم قبله. وهنا فرق أساسي بينه وبين المسعودي الذي زار الهند طويلا وكتب عنها، لكنه لم يستطع أن يسبر غور الحضارة الهندية وأديان الهنود وفلسفاتهم. وعن الهند وضع البيروني كتابه المشهور «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة»، والذي يسمى كتاب الهند اختصارا. وظلت غزنة موطن البيروني الى أن توفاه الله في سنة ٤٤٠ للهجرة (أي سنة ١٠٤٨ للميلاد)، على أرجح الروايات.

كان البيروني مثـال العالم من حيث العلم للعلم. فقد روي أنه لما وضع القانون المسعودي أهداه السلطان مسعود حمل فيل من القـطع



بناء مدرج من الحجر الاحمر يرتفع إلى علو ٢٣٨ قدم. في دلهي الهند، يعود لعام ١١٩٣م.

الفضية، فاعتذر عن قبول الهدية لأنه كان العالم المخلص لعلمه لا يهمه المال الذي يعطى له مكافأة عن العلم.

كتب البيروني كثيرة، بحيث أنها تتجاوز العشرات. بعضها ضخم كبير كالتي ذكرنا أسماءها، وقسم منها لا يعدو كونه ورقات. وبعضها يشرح فيها البيروني أساليب استدلاله وطرق معالجته للموضوعات. فيما اقتصر في بعضها الآخر على ذكر قواعد أساسية فقط. وهذا من طبيعة الأمور. والمهم أن يذكر أن البيروني في كل ما كتب، كان مثال العالم البحاثة المدقق.

ونحن اذا أخذنا القانون المسعودي مثالا على عمل المؤلف العلمي. نجد أن الرجل غطى فيه جميع الأرصاد والنظريات الفلكية الى وقته مع نقد العالم المطلع، وتفنيد الآراء دون تحيز أو محاباة... واذا استشكل عليه أمر من الأمور كان يعيد الارصاد أو الحسابات بنفسه مرة أو مرات. يقول البيروني في مقدمة كتابه القانون المسعودي «ولم أسلك فيه مسلك من تقدمني من أفاضل المجتهدين ممن طالع أعمالهم واستعمل زيجاتهم على مطايا الترديد الى قضايا التقليد، باقتصارهم على القضايا الزيجية، وتعميتهم خير ما زاولوه من عمل، وطيهم عنه كيفية ما أصلوه من أصل حتى أحوجوا المتأخر عنهم في بعضها الى استئناف التعليل، وفي بعضها الى تكلف الانتقاد والتضليل، اذ كان خلد فيها كل سهو بدر منهم لسبب انسلاخه عن الحجة، وقلة اهتداء مستعمليها بعدهم الى المحجة. وانما فعلت ما هو واجب على كل انسان أن يعمله في صناعته من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمنة، وتصحيح خلل ان عثر عليه بلا حشمة. وخاصة فيما يمتنع ادراك صميم الحقيقة فيه من مقادير الحركات

وتخليد ما يلوح له فيها تذكرة لمن تأخر عنه في الزمان وأتى بعده. وقرنت بكل عمل في كل باب من علله، وذكر ما توليت من عمله ما يبعد المتأمل عن تقليدي فيه ويفتح له باب الاستصواب لما أصبت فيه، أو الاصلاح لما زللت عنه أو سهوت في حسابه».

وفي كتابه عن الهند أوضح البيروني كل ما وصل اليه علمه عن تلك البلاد وأهلها ـ اجتماعا واقتصادا وتاريخا ودينا، وفلسفة وتناسخ أرواح. وهو في هذا كله يصدر عن علم دقيق، ومعرفته باللغة يسرت له ذلك. وقد نقل البيروني بعض كتبهم الى العربية كما نقل شيئا من العربية الى السنسكريتية.

وقد كانت من عادة البيروني أن يوضح في مقدمة كل كتاب له الغاية من تأليفه والأسلوب الذي جرى له. وها نحن أولاء نقتطف من مقدمة كتابه عن الهند ما يأتي.

«انما صدق القائل: ليس الخبر كالعيان، لأن العيان ادراك عين الناظر عين المنظور اليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله. ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر، لقصورهما على الوجود الذي لا تتعداه آفات الزمان... فمن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسه، فيعظم بني جنسه ويزري بخلاف جنسه. وان كلا هذين من دواعي الشهرة والغضب المذمومين. ومن مخبر عن كذب في طبقة يحبهم لشكر أو يبغضهم لنكر، وهو مقارب للأول. ومن مخبر عن شيء متقربا الى خير بدناءة الطبع أو متقيا لشر من فشل أو فزع. ومن مخبر عن شيء طباعا كأنه محمول عليه، غير متمكن من غيره، ولذلك من دواعي الشرارة وخبث مخابيء الطبيعة. ومن مخبر عن شيء جهلا، وهو المقلد للمخبرين... وليس الكتاب هذا حجاجا وجدلا حتى استعمل فيه بابراز الخصوم ومناقشة الزائغ منهم عن الحق، وانما هو كتاب حكاية فأورد كلام الهنود على وجهه وأضيف اليه ما لليونان من مثله لتعريف المقارنة بينهم. فان فلاسفتهم وان تحروا التحقيق، فانهم لم يخرجوا فيما اتصل بعوامهم من رموز نحلتهم، وموضعات ناموسهم. ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم الا أن يكون للصوفية أو أحد أصناف النصارى، لتقارب الأمر بين جميعهم في الحلول والاتحاد».

كان البيروني يعرف من اللغات التركية الشرقية والعربية واليونانية والسريانية والسنسكريتية. وقد وصف اللسان أي اللغة والكتابة بقوله «ان اللسان مترجم للسامع عما يريده القائل، فلذلك قصر على رهن الزمان الشبيه بالان. واني كان يتيسر نقل الخبر من ماضي الزمان الى مستأنفه على الألسنة وخاصة عند تطاول الأزمنة، لولا ما أنتجته قوة المنطق في الانسان من ابداع الخط الذي يسري في الأمكنة سريان الرياح ومن الأزمنة الى الأزمنة سريان الأرواح».

أما رأيه في اللغة العربية فقد أوضحه في مقدمة كتابه في الصيدلة اذ قال ان اللغة الوحيدة التي كانت تصلح في زمانه للكتابة في العلم والفلسفة هي اللغة العربية. والرجل كان من أسياد القلم في تلك اللغة. ●



جزاء العدل

● عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

الحلقة الثانية والأخيرة

التماثيل والدمى المتحركة عند العرب

د. منى سنجقدار شعراني

في هذا العصر عصر التقدم التقني، عصر الآلات الميكانيكية الاتوماتيكية، عصر الرجل الآلي، لابد لنا من كشف النقاب عن قصة التماثيل والدمى المتحركة ومدى مساهمة العرب في تطورها.

انها قصة طويلة تربط الماضي بالحاضر وتنبىء بالمستقبل. لقد بدأت مع الانسان وعايشته في جميع مراحل حياته وتطوراته الفكرية والصناعية حتى اصبحت وكأنها الحلم الوحيد الذي يراود مخيلته والذي يصبو دائما لتحقيقه معتقدا بانه اذا ما استطاع تقليد نفسه كشف عن سر وجوده ومظاهر حياته.

والجدير بالذكر، أن هذا الفن بقي مندثرا مدة طويلة ولم تظهر أية مخطوطة عربية أو غربية، خلال الفترة الواقعة ما بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر الميلادي، اهتمت به أو حتى أتت على ذكره. لكنه ما لبث أن برز في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي عالم عربي أعاد مجد أجداده واشتهر بصناعة الأجهزة والآلات. انه بديع الزمان أبو العز اسماعيل الرزار الجزري.

نبذة عن حياته

ان كل ما نعرفه عن حياة هذا العالم الجليل، ما كتبه هو عن نفسه في مقدمة كتابه «الهيئة والاشكال» ــ مصور ــ وقد الف هذا السفر الثمين، وهو في خدمة نصير الدين الارطوقي ملك ديار بكر، حيث مكث نحو ٢٥ سنة في خدمة الاسرة المالكة. واول عهده بالخدمة سنة ٥٧٧هـ (١١٨١م ــ ١١٨٢م). وأتم تأليف كتابه خلال الفترة الممتدة بين عام ١٢٠٤ و١٢٠٦م.

وكان الأرطوقيون من اصل تركماني، انحدر من ارطوق قائد جيوش ملك شاه السلجوقي. ولقد زار ابن الرزار الجزيرة (التي اشتق منها اسم الجزري) سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) وذكر انها تميزت انئذ بالامن والسلام على الرغم مما كان يتعرض له المسافرون من اخطار بسبب غارات الاكراد.

يقول ابن الرزار انه درس كتب من سبقوه، ومن عاصروه، خصوصا اولئك الذين نبغوا في صناعة الآلات المائية والمتحركة. وبعد ان عكف طويلا على الدراسة والبحث انتقل الى مرحلة الكتابة والتأليف من اجل الوصول الى الحقيقة.

اهم مؤلفاته

اهم ما خلفه الرزار هو السفر الضخم المعروف باسم كتاب «الهيئة والاشكال» وهو يضم ثلاثة مجلدات ضخمة، منها نسخ في اوكسفورد وليدن واقدم نسخة هي من محفوظات مكتبة توب كابي باسطنبول تحت رقم ٣٤٧٢ ومقاساتها ٣٣ سم طولا ٢٥ سم عرضا ومن ٤ الى ٥ سم سمكا، ويحوي المخطوط على

٣٥٦ صفحة وهو كامل النص والالواح.

ويعرف هذا السفر الضخم ايضا بكتاب «الحيل الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل».

لقد كتب ابن الرزاز كتابه بحس مرهف وادراك تام لما وضع، حريصا في تفصيل كل دقة، امينا في نسب ما ذكره من مادة علمية، وتجربة عملية لغيره كما لنفسه. واضافة الى ثروته العلمية كان صاحب فن رفيع في الرسم والتعبير عن افكاره.

اهتم الجزري اهتماما بالغا بالتماثيل والدمى المتحركة حتى انه لا يخلو جهاز او آلة من دمية او تمثال. وقد تقدم كثيرا في هذا المجال، وانه لم يقتصر، كا فعل اسلافه ابناء موسى بن شاكر، على وصف الأباريق والجرار والحيل التي تحتويها بل ركز على الدمية المتحركة التي تستعمل تلك الابنية واظهر بحركتها فنا رفيعا معتمدا على الاسس العلمية والتجربة الحقيقية.

لقد صمم في كتابه انواعا عديدة من الآلات والاجهزة ذات الاهمية القصوى كما ركز ايضا على صنع الساعات المائية التي اشتهر بها. ولم تخل ساعة من ساعاته من تمثال او دمية تتحرك بصورة منتظمة في الوقت المناسب.

فيما يلي بعض فقرات من كلامه.

«... ان الملك الصالح، ضاعف الله صلاحه، كره ان يصب على يديه خادم او جارية ماء ليتوضأ به،واحب ان اصنع له آنية ينصب منها على يديه ماء ليتوضأ به، فعملت له ابريقا كبير الشكل، لطيف الصنعة، وله بلبلة مرتفعة الى فوق، ومعطوفة الى اسفل، وطرفها مصوب بقارب موازاة الافق. عند الحاجة اليه، يحضر الخادم ويضعه الى جانب الطشت، على كرسي لطيف، ليرفعه عن الارض وينفصل عنه فيصفر طائر على غطاء الابريق هنيهة ما ثم يبتدىء الماء ويجري في بلبلة فيتوضأ...».

ويقول في حديثه ايضا عن الدمى المتحركة: «... هو غلام كابن عشر سنين قائم على قدميه، وملبوسه فرجية مقصرة وتحتها قباء، وعلى رأسه قلنسوة، وفي يده اليمنى قدح من زجاج، واصابعه مستديرة حول اسفل القدح مرتفعات الى فوق يسيرا، ويده اليسرى على هذا الوضع، بل ارفع من القدح، وفي كفه سمكة من فضة، رأسها مرتفع عن القدح نحوا من اربع اصابع، وذنبها منحط، وهو قائم الى جنب الملك حتى يمضي من الزمان نحو من ثمن ساعة، فيميل رأس السمكة حتى يقارب القدح، وينصب من فيها شراب مروق الى القدح حتى يكاد يمتلىء...».

وهكذا فان المخطوط كتب بلغة واضحة وعبارات لا تخلو من التعقيد، لكنها تسهل لمن اعتاد دراستها وترجم عمليا ما تحويه من نظريات علمية.

لكي نرى عن كثب اهمية المخطوط لا بد لنا من دراسة بعض النماذج.

النموذج الاول

غلام يتقدم من سيده بعد الطعام ليصب له الماء (الشكل رقم (٢٢)) يمثل هذا الشكل صورة غلام يحمل بيده اليمنى ابريقا مليئا بالماء يقف على غطائه عصفور. اما في اليد اليسرى فانه يحمل منشفة.

الشكل رقم (٢٢)



كيف يعمل الغلام

عندما نشد الزر المركز في اعلى ظهره تتحرك يده اليمنى قليلا الى اسفل وينصب الماء من الابريق بينما يغرد العصفور في نفس الوقت ويسمع له زقزقة لطيفة. وما ان يفرغ الماء حتى يحني الغلام يده اليسرى ليقدم المنشفة لسيده.

النموذج الثاني

فتاة تخرج من صومعتها في وقت محدد لتقدم الخمرة ومنشفة. الشكل رقم (٢٣).

ان هذا النموذج يمثل صورة فتاة داخل صومعة بارتفاع سبعة اقدام. يعلو تلك الصومعة وعاء مليء بالخمر التي تجري نقطة نقطة الى وعاء اخر ركز على رافعة صغيرة فاذا ما امتلأ

الشكل رقم (٢٣)



هذا الوعاء صب الخمر في القدح الذي تحمله الفتاة بيدها اليمنى. فاذا ما امتلأ القدح تثقل اليد اليمنى فتفلت من الرافعة التي تثبت جسم الفتاة. عندئذ تنزلق الفتاة على الدواليب وتتقدم من الملك لتقدم له الخمر فاذا ما فرغ القدح انحنت اليد اليسرى لتقدم المنشفة.

النموذج الثالث

غلام يشرب ما تبقى من الخمر في القدح. انها نموذج لغلام يجلس القرفصاء ويرتدي جبة يشبه طفلا ابن خمسة اعوام. يحمل بيده اليمنى قدحا وبيده اليسرى زهرة. عندما يشرب الملك الخمرة يفرغ الساقي ما تبقى في قدح الغلام، ينساب الخمر من يد الغلام الى داخل جسمه فتتحرك اليد الى اعلى وتقرب من فم الغلام ويظهر للناظر وكأنه شرب الخمر ثم تعود الى مكانها بفعل وزنها. وبعد تكرار العملية عدة مرات يمتلىء الوعاء الموجود داخل جوف الغلام فيثقل هذا الوعاء ويتحرك الى اسفل فيحرر بذلك اليد اليسرى لتقدم الزهرة الى احد الضيوف. يطلب الملك من الضيف ان يحتضن الغلام فاذا ما فعل صب الملك الخمرة في القدح بكمية كافية عند ذلك تعمل المضخة الموجودة داخل التمثال فتنصب الخمر على الضيف.

الشكل رقم (٢٤)



النموذج الرابع

خيال يعين الشخص الذي يجب ان يشرب كأس الخمر. الشكل رقم (٢٥/أ ب و ج).

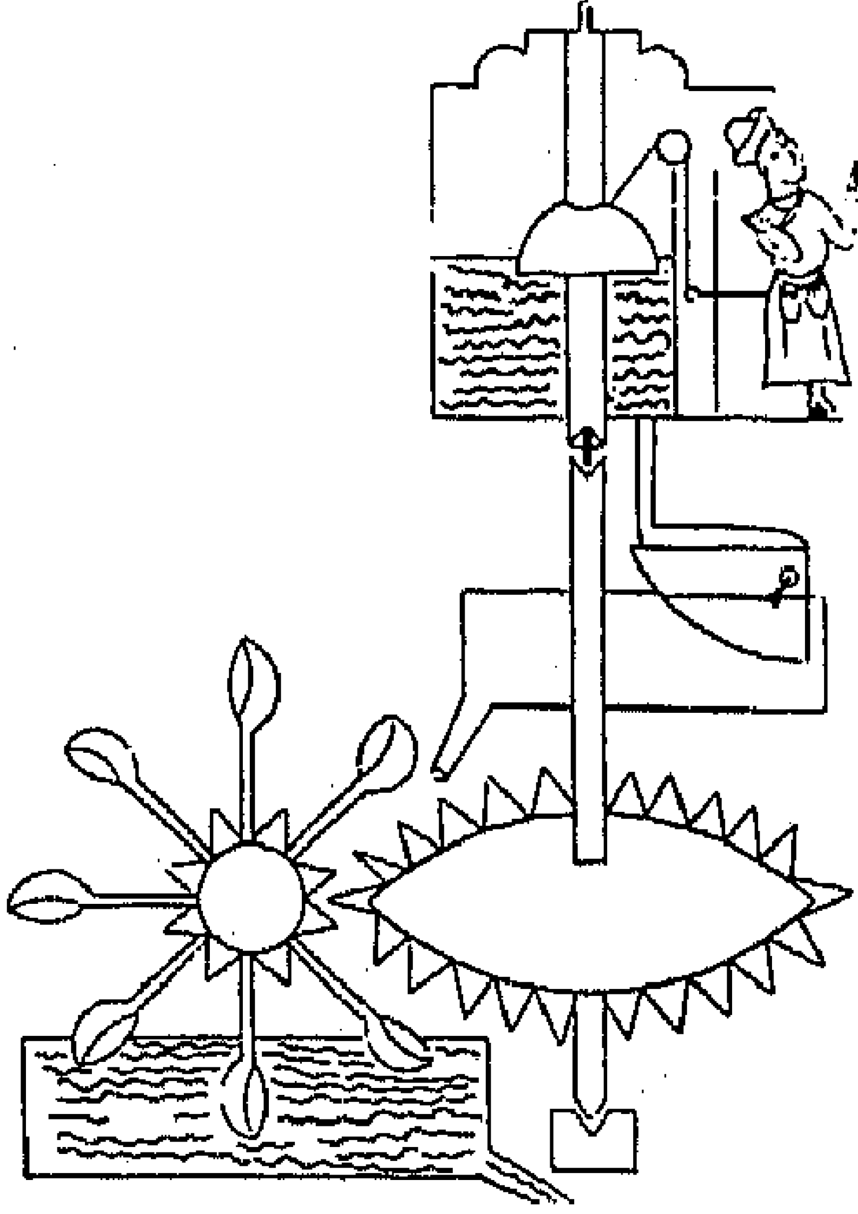
على قاعدة طولها من قدمين الى ثلاث اقدام تجلس امرأة تحمل بيدها قنينةوأمامهاوعاء سعة ليتر تقريبا. فوق رأسها على قاعدة اخرى اصطف اربعة موسيقيين او موسيقيات احداهن تعزف على المزمار والثانية على الدف، الثالثة على العود، والرابعة على الطبل. وفي مكان أرفع وقف راقص واخيرا في الاعلى ثبت خيال على صهوة جواده.

كيفية عمل تلك الحيلة

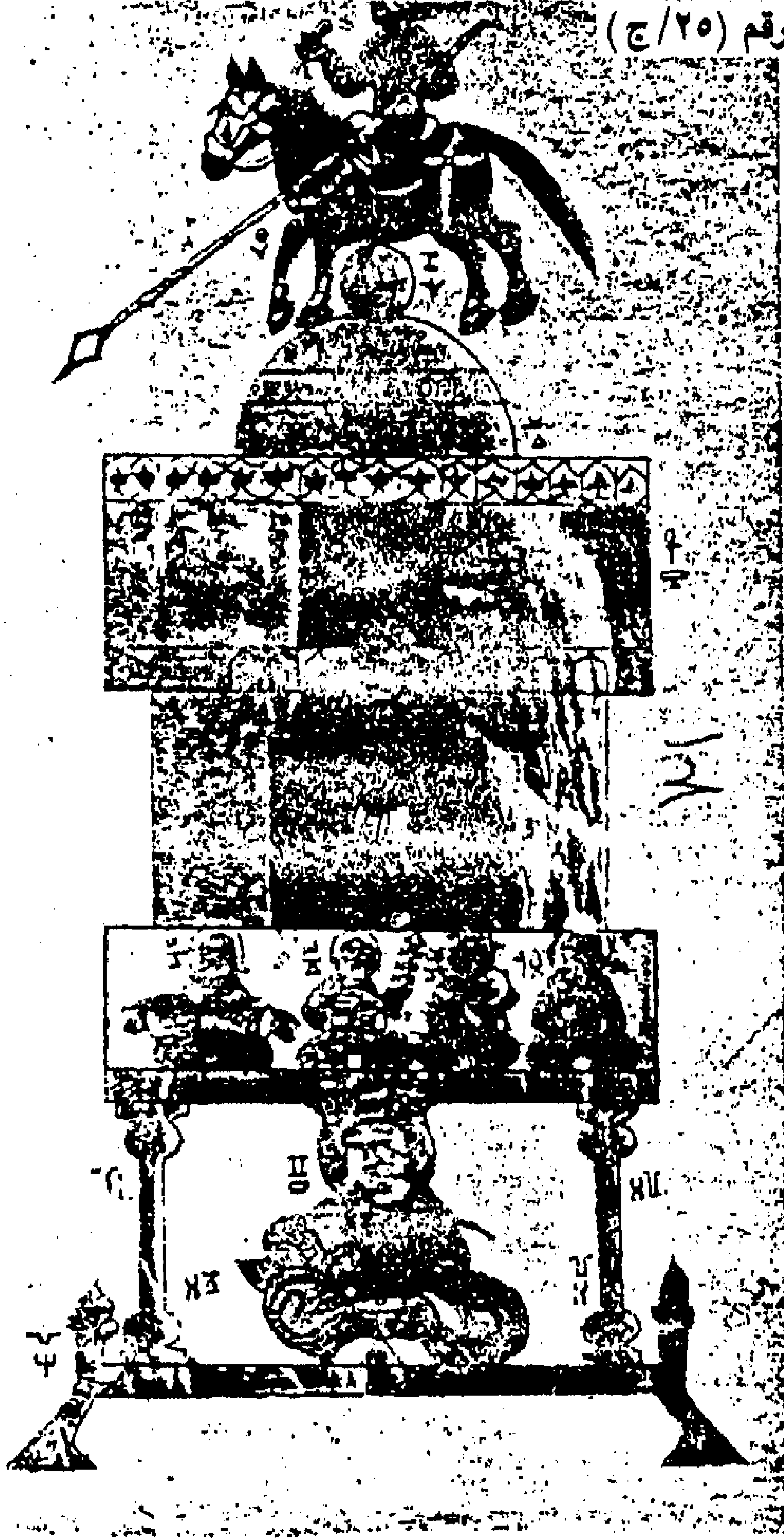
الشكل رقم (٢٥/ب)

تحت الخيال يوجد وعاء كبير فيه كمية من

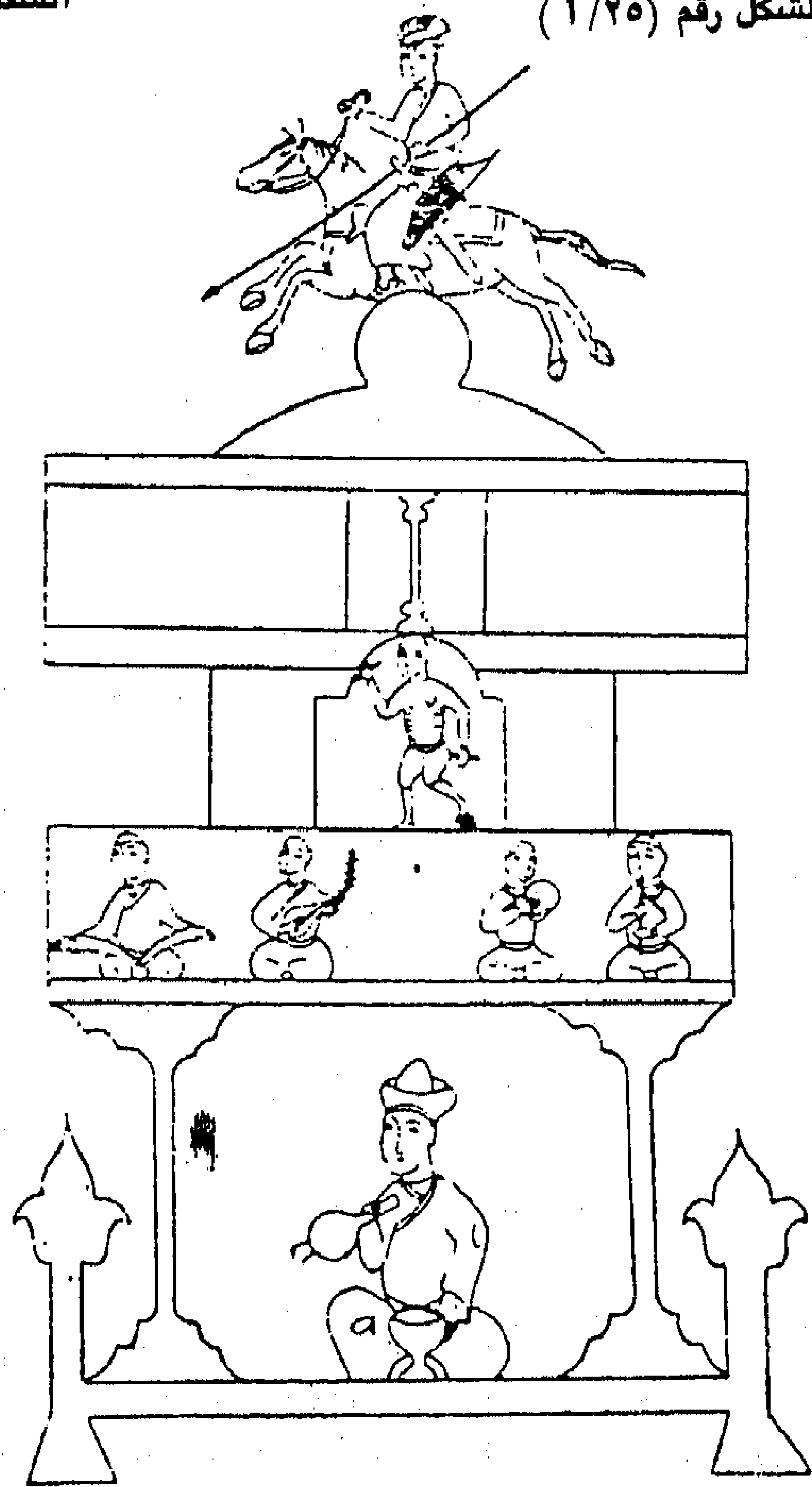
الشكل رقم (٢٥/ب)



الشكل رقم (٢٥/ج)



الشكل رقم (٢٥/١)



الخمر وله ثقب يسمح بانسياب السائل الى وعاء اخر ركز خلف الراقص. هذا الاخير يتحرك بواسطة حبل يرتبط بفواشة. ثم تنصب الخمر في وعاء صغير يتحرك حول محور ثابت فينفرغ كل عشرين دقيقة على دولاب ذي جيوب صغيرة. يدور هذا الدولاب وبفعل دورانه يدور العامود الافقي الذي ثبت عليه الخيال وحصانه والذي بدوره يعطي الحركة للموسيقيين. في نفس الوقت، ينساب السائل الى الاناء الذي تحمله الامرأة فينحني الاناء بفعل ثقل الخمر وينصب منه السائل في الوعاء الموجود امامها. عند ذلك على الضيف الذي يشير اليه الخيال ان يفرغ الوعاء.

لقد اضفى الرزار على حيلته جو الفكاهة والمرح مع مقدرة مذهلة في الاتقان والدقة فظهرت بذلك براعته الميكانيكية وذوقه الرفيع في هذا المضمار. لكن عبقريته الفذة في هذا الميدان تجلت في تماثيله المتحركة التي ركبها على ساعاته المائية بعد ان اعطى تلك الساعات اسماء التماثيل التي تحركها. لقد اسمى الساعة المائية (فنكان) ووصف في مخطوطته فنكان الطبالين، فنكان الفيل، فنكان السياف فنكان الكاتب وغيرها.

اننا نقتصر في دراستنا هذه على فنكان الطبالين لكي نظهر المبادىء العلمية التي اعتمدها الجزري لتحريك تماثيله ونقف على مدى تطور هذا الفن على يديه. اما دراسة انسياب الزمن وضبط الوقت من خلال ساعات الجزري فهي موضوع بحث اخر بعيد عن دراستنا هذه.

فنكان الطبالين

يعرف منه مضي ساعات زمانية وينقسم الى فصول خمسة:

الفصل الاول: في صفة ظاهر الصورة ومعناها.

الفصل الثاني: في كيفية عمل آلات الماء وعمل كفة تمتلىء وتتفرغ في كل ساعة.

الفصل الثالث: عمل العجلة والقماط لستر جامات الواجهة.

الفصل الرابع: في كيفية عمل الرجال في الابواب الاثني عشر.

الفصل الخامس: في كيفية عمل الوسايط المحركة لايدي الطبالين والصناج والة يخرج منها صوت البواقين.

اننا نقتصر على توضيح الفصل الخامس الذي يتعلق بالدمى المتحركة. ونعرض الفصل الاول الذي يتعلق بوصف الساعة الخارجي.

الفصل الاول

المظهر الخارجي، راجع الشكل رقم (٢٦).

تشبه هذه الساعة بيتا يرتفع عن الارض حوالي ٣,٣م ويظهر في اعلاه نصف دائرة تعرض ستة بروج في آن واحد من مجموع اثني عشر برجا واسفل دائرة البروج ـ ضمن دائرة متحدة المركز ـ يوجد قرص من ذهب يمثل الشمس واخر يمثل القمر ـ معمول من زجاج ـ على دائرة اخرى تلي الدائرة التي يتحرك فيها قرص الشمس. واسفل دائرة البروج يوجد اثنا عشر بابا لكل باب مصراعان اسفلها اثنا عشر بابا قوامها مصراع واحد تشكل افريزا يتحرك على بدايته قرص حركة افقية... واسفل الافريز والى الجانبين توجد حنية تشبه المحراب فيها طائر باسط جناحيه واقف على رجليه وامامه قنديل. وبين هاتين الحنيتين توجد اثنتا عشرة فتحة دائرية الشكل مغطاة بالزجاج ومرتبة على شكل نصف دائرة محدبها الى اعلى تظهر فيها اقمار ليلا. ويلي تلك الدائرة باب كبير من الخشب او الصفر طوله ١,٨ وعرضه متر واحد، واسفل الباب صور طبالين وبواقين وصناج.

كيفية عمل الاجزاء

فالقرص الذي يتحرك في الافريز حركة خفيفة منتظمة حينما يكون في المسافة الكائنة بين بابين يعمل على قلب احد الابواب المجاورة للقرص بحركة محورية وعلى وجه اخر ملون بلون مختلف عن سابقه. وكذلك تحدث في صف الابواب العليا حركة تعمل على فتح باب يعلو الباب المنقلب في الاسفل، ثم يخرج من بين مصراعي الباب الأعلى شخص يتطلع الى الامام. وفي اثناء تلك الحركة ينقض الطائران حتى يقاربا القنديلين ويطرحان من منقاريهما كرتين الى القنديلين فينشأ عن ذلك صوت يسمع من بعيد، ثم يعود الطائران الى مقامهما. وعندما تعلن الساعة السادسة يطبل



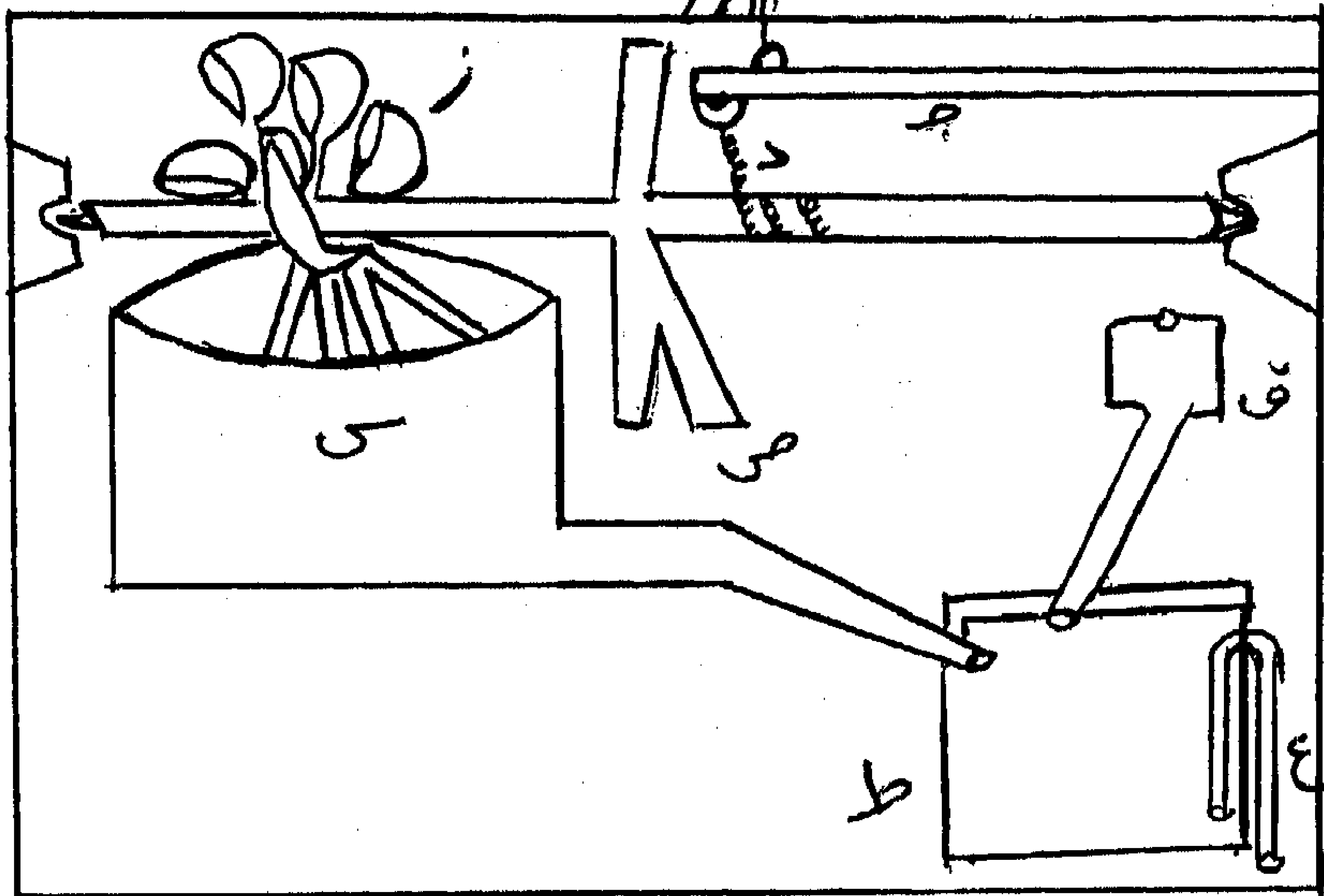
الشكل رقم (٢٦)
ساعة الطبالين (للجزري) ـــ الشكل الخارجي

الطبالون ويبوق البواقون ويلعب الصناج بالصنج لفترة من الزمن، ويتكرر ذلك في الساعة التاسعة والساعة الثانية عشرة. اما بالنسبة الى حركة الشمس فيتم ضبطها على القرص بحيث يكون ظهورها في خط شروق وغروب الساعة متفقا مع شروقها وغروبها الحقيقيين، أي تكون الشمس في الساعة على نفس الدرجات التي تكون عليها الشمس حقيقة لذلك اليوم، اما بالنسبة للقمر، في الساعة فيتم ضبطه بحيث يرى في برجه ودرجاته لتلك الليلة، في الدائرة التي تلي دائرة تحرك الشمس. اما الجامات الاثنتا عشرة الموزعة في نصف دائرة محدبها الى اعلى، فتمتلىء ضوءا الواحدة تلو الأخرى بعد مضي الساعات حتى انقضاء ساعات الليل.

الفصل الخامس

عمل الاجْزاء المحركة لايدي الطبالين والصناج وصوت البواقين (الشكل رقم (٢٧)) يتخذ من النحاس محور مجوف طوله بعد ما بين يد الصناج وايدي الطبالة واطول من ذلك بنصف شبر ويعمل قريبا من طرفه دولاب ذوكفات كالمغارف متى سال عليهن شيء من الماء دار الدولاب. ويتخذ قاعدتين ثابتتين تحت طرفي المحور حتى اذا ركب عليها المحور كان موازيا لايدي الطبالين ويد الصناج والدولاب خارج من اطراف مرافقهم بازاء كل يد شظية متى دار الدولاب كبست الشظية فاصل مرفق يد الطبال

الشكل رقم (٢٧)
الوسائط المحركة لأيدي الطبالين والصناج
وعمل آلة لصوت البواقين



(أ) قارع الطبل.
(ب) اليد المتحركة.
(ج) المسطرة.
(د) سلسلة شريط نحاس كما في المخطوط.
(هـ) المحور.
(ز) دولاب الكفات.
(س) الحوض.
(ص) ثلاث شظيات تولد حركتها نقرات الطبل.
(ط) القدر.
(ع) السيفون (المقلب).

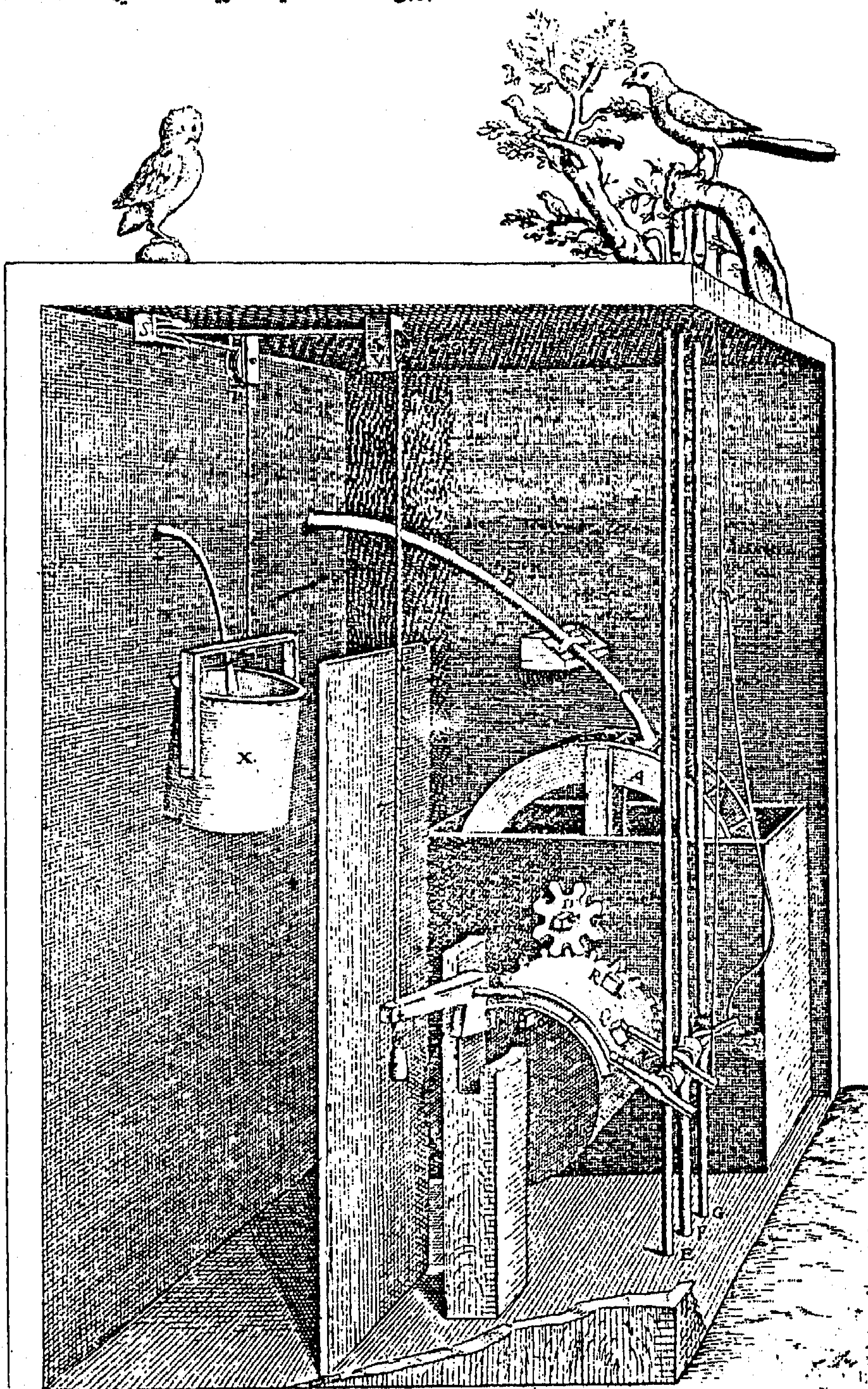
ثم تنفصل عن المرفق وقد تحركت اليد صاعدا عن الطبل ونازلة عليه وكذلك الصنج وليكن لليد اليمنى من الطبال شظيتان ولليسرى شظية واحدة لتختلف النقرات ويصح الايقاع وللصناج ثلاث شظيات اثنتان منهن متقاربتان. ثم تتخذ تحت الدولاب حوضا من نحاس مرتفعا عن الارض الى قريب من كفات الدولاب على قاعدة ثابتة ليكون ما ينصب على كفات الدولاب من الماء واقعا الى بعيد الحوض ثم يتخذ قدرا من نحاس ارتفاعها بقدر ارتفاع القاعدة التي تحت الحوض واستدارتها بقدر ماتسع من الماء الذي يخرج من الجذعة في مدة (ح)(٥) ساعات او السرطان ثم يتخذ انبوبا من نحاس دقيقا طوله ضعف ارتفاع هذا القدر ويحني هذا الانبوب من وسطه حتى تكاد تلتقي الطرفان منه وليكن احد طرفيه اطول من الاخر نحو نصف عقد واسمه مقلب... الخ.

نكتفي بهذا القدر من الفصل الخامس لاننا استطعنا الوقوف على كيفية تحريك يد الطبال، وذك يتم على النحو التالي: (راجع الشكل رقم (٢٧)).

يعلق بالمسطرة (ج) وفي الحلقة السفلى سلسلة تثبت بالمحور (هـ) واخرى بالحلقة العليا وتصل السلسلة الأخيرة عبر قدم الطبال الى يده. عندما تكبس الشظية (ص) طرف المسطرة تشد السلسلة النحاسية العالقة بيد الطبال فترفعها الى اعلى واذا ماجازت تلك الشظية اعيدت المسطرة الى مركزها الرئيسي وكذلك اليد التي تقرع على الطبل. اما الشظايا فانها مثبتة بمحور الدولاب. وتدور بفعل دورانه. اما سبب وجود الشظيتين المتقاربتين فذلك لتعجيل عملية القرع ولكي يكون هناك تفاوت في نقر الطبل. وبنفس الاسلوب تعمل شظايا لتحريك ايدي الطبالين الاخرين والصناج.

يتضح مما تقدم، ان الجزري استعمل الشظايا والمساطر لتحريك اطراف تماثيله وهذه الاداة ليست بالجديدة عند العرب فقد اعتنى بها ابناء موسى بن شاكر من قبله. لكن الفضل الاكبر

الشكل رقم (٢٨)
البربخ ذات الشطايا لتحريك العصافير عند (Causs)



والاهمية العظمى لمخطوطة الجزري في احياء فن الدمى المتحركة بأسلوب متقن وحياة مرحة وجذابة. فكلما طالعت حيلة من حيله تشغف لمعرفة المزيد منها. وهناك ناحية اخرى بالغة الاهمية في هذا المخطوط لم يسبق لعالم عربي ان عالجها من جميع جوانبها قبل الجزري الا وهي قياس الوقت بدقة متناهية.

ان ساعات الجزري المفصلة احسن تفصيل في هذه المخطوطات تعتبر الركن الاساسي لقياس الوقت وقد كان لها الاثر الاكبر في تطور آلات قياس الزمن. ولنا عودة لهذا الموضوع في بحث اخر ان شاء الله.

اثر التطور الذي احرزه العرب في علم الحيل الميكانيكية في البلاد الاوروبية

لقد سبق وذكرنا ان ابناء موسى بن شاكر اول من طور علم الحيل باستعمالهم البربخ ذا الشظايا لتحريك اعضاء ومفاصل تماثيلهم كما انهم استعملوه لاداء نغمة موسيقية منتظمة فاعطوا بذلك الاسس العلمية التي تعتمد عليها الموسيقى الميكانيكية في عصرنا الحاضر. لكن فن الدمى والتماثيل المتحركة والموسيقى الميكانيكية بقي محصورا في مخطوطات ابناء موسى ولم يحظ بالاهتمام من قبل علماء اخرين بل اهمل اهمالا كبيرا واندثر فترة طويلة من الزمن ما بين القرن التاسع والثاني عشر الميلادي. ومما يلفت الانتباه ان المؤرخين لم يذكروا اسم اي عالم عربي او غربي او عنوان مخطوطة اهتمت بهذا العلم او اشارة اليه في تلك الفترة. حتى جاء ابن الرزار في اواخر القرن الثاني عشر وكتب مخطوطته الآنفة الذكر. ثم مالبث هذا الفن ان اندثر من جديد ولم يحظ بعالم عربي او غربي يهتم به خلال الفترة الواقعة ما بين القرن الثاني عشر والسادس عشر الميلادي. لكن اثره ظهر في الغرب وبالتحديد على يد العالم الفرنسي (Sala-mon de Causs) (١٥٧٦م ـ ١٦٢٦). لقد صمم (Causs) ارغنا مائيا واعتمد في تركيبه على البربخ الموسيقي (Cylindre musical) او البربخ ذي الشظايا (Cylindre pointé). كما اعتمد نفس المبادىء العلمية لتحريك العصافير المركبة على الارغن. وهنا لابد لنا من الوقوف على جملة وردت في الموسوعة الفرنسية الكبيرة (La grande Encyclopédie Larousse) ما معناه بأن (Causs) اول من فكر في تصميم البربخ الموسيقي ولم يسبقه لذلك اي عالم اخر. لكن المخطوطات العربية برهنت عكس ذلك ويعتبر العرب مصممي هذا البربخ وهم بحق واضعو اسس الموسيقى الميكانيكية وان الفضل الاول والاخير يعود اليهم في هذا المجال كما هو الحال في عدة علوم اخرى.

●

الهوامش

(٥) هكذا وردت في المخطوط.

المراجع العربية

ـ ماجد عبد الله شمس: مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية.
ـ الموسوعة العربية المعرفة.

المراجع الاجنبية

— Causs Salamon, Les raisons des forces mouvantes avec des machines tant utiles que plaisantes, Paris 1624.
— Chapuis' Alfred, Histoire de la boite a musique et de la musique mécanique. Seriptar Lauzanne 1955.
— Chapuis A et Droz, Les automates, 1949.
— Devaux P Automates, Automatisme Automation, P.U.F. (Coll que Sais-je) 1967.
— Prasteau J les automates Grund 1968.
— Prou Victor Les théatres d'automates en grèce.
— Usher ABBOH, Paysan A history of mechanical inventions, Harvard university press. revised édition, 1962.

● الحكمة القائلة «إن في العجلة الندامة وفي التأني السلامة».. لم تعد تنفعنا في أفريقيا!

(كليمنت آتلي)

معهد الإنماء العربي

شكيب أرسلان

مقدمات الفكر السياسي

د. محمد شفيق شيّا

كتاب الفكر العربي ٤

جذور التفكير بالحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام (*)


ماريا تريزا.

د. حسين سلمان سليمان

منذ القرن الثامن عشر انتشرت في اوروبا مذكرات الرحالة الاوروبيين الذين زاروا المشرق. وكانت كلها تحث على ضرورة الاهتمام به. وتضمنت ابحاثا عن اهمية الطرق بين البحر المتوسط والبحر الاحمر، وبين المراقىء اللبنانية والخليج العربي عبر سوريا والعراق. وعن امكانية فتح قناة تربط البحر الاحمر بالبحر المتوسط.

وفي سنة ١٧٠٤ تبنت ملكة فرنسا ماريا تيريزا[١]، دراسة احتلال مصر وحفر ترعة تصل البحر الاحمر بالمتوسط، وأرسلت معتمدا سياسيا الى القاهرة لدراسة وسائل تنفيذ هذا المشروع.

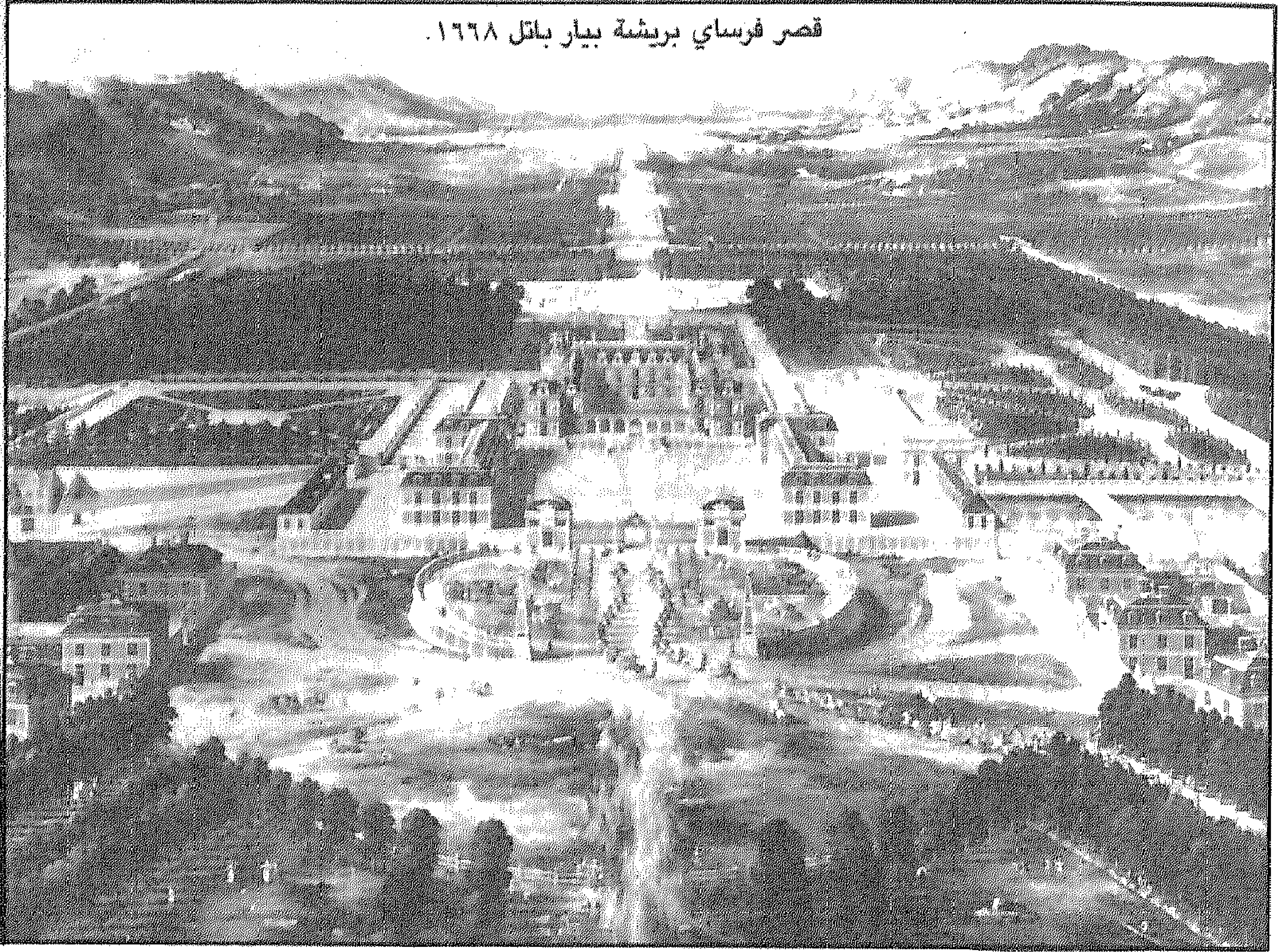
فأثار ذلك قلق بريطانيا، لكن سفيرها في الاستانة تمكن من رشوة أرباب الامر العثمانيين، بمبلغ ستماية ليرة ذهبية، لطرد هذا القنصل من مصر. ولم تكتف بريطانيا بهذا التدبير بل تطلعت الى احتلال مصر، لتعوض بها عن خسارة مستعمراتها الاميركية، كما ان نجاحها بذلك يساعدها ان تصل بين ممتلكاتها وتجارتها في الهند وبين اوروبا، بسلسلة مترابطة الحلقات من المستعمرات. وسعت الى اخراج هذه السياسة من حيز التفكير الى ميدان التنفيذ، فأرسلت عددا من المهندسين والجغرافيين لوصف سواحل مصر ووضع خرائط عنها وعن ضواحي مدنها.

ولم يكن الفكر الفرنسي بعيدا عن هذه التطلعات، فنتيجة للاضطراب الذي ساد بلاد الشام في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وما ترتب على ذلك من تدني حجم التجارة الفرنسية في تلك البلاد، ومن أجل الوصول الى الامان في الاساكل السورية.

اقترح القنصل الفرنسي في صيدا (توليز) في ٢٨ حزيران (يونيه) سنة ١٧٧٤ على وزير البحرية (الكونت ده بروبير) بان مصلحة فرنسا تقضي بأن تتعاون مع الباب العالي[٢] العثماني لاعادة مناطق الاضطراب الى الحكم العثماني المباشر، وسوف يؤدي ذلك الى مساعدة الفرنسيين على استعادة المكانة التي كانت لهم في المشرق، وسوف تحقق تجارتهم فوائد عظمى، وسوف يرى السكان وحكامهم بان للطائفة الفرنسية سيدا مستعدا دائما لحمايتها والانتقام لها[٣].

وفي سنة ١٧٧٦ كلف الملك الفرنسي لويس الرابع عشر الجنرال (ده توت) تحت شعار مفتش قنصليات فرنسا في المشرق، لكي يقوم بدرس امكانية حملة فرنسية، ووضع سطح للطرق

(*) مدرس التاريخ الحديث في جامعة بيروت العربية.


قصر فرساي بريشة بيار باتل ١٦٦٨.

السالكة خلال قناة السويس. ورافق الاخير في هذه الرحلة (باراديس)، الذي كان قد امضى سنوات طويلة في القنصلية الفرنسية في صيدا، وكتب الاخير تقريرا جاء فيه ان احتلال فرنسا للساحل السوري، سوف يلقى ترحيبا من الدروز والموارنة، الذين سينضمون مع امير جبل الدروز[٤] الى الفرنسيين[٥].

«سوف يمدنا هؤلاء بفرق فرسان كقوة مساعدة لغزو مصر، مما سوف يمكننا من استعمال ميناء بيروت..»[٦].

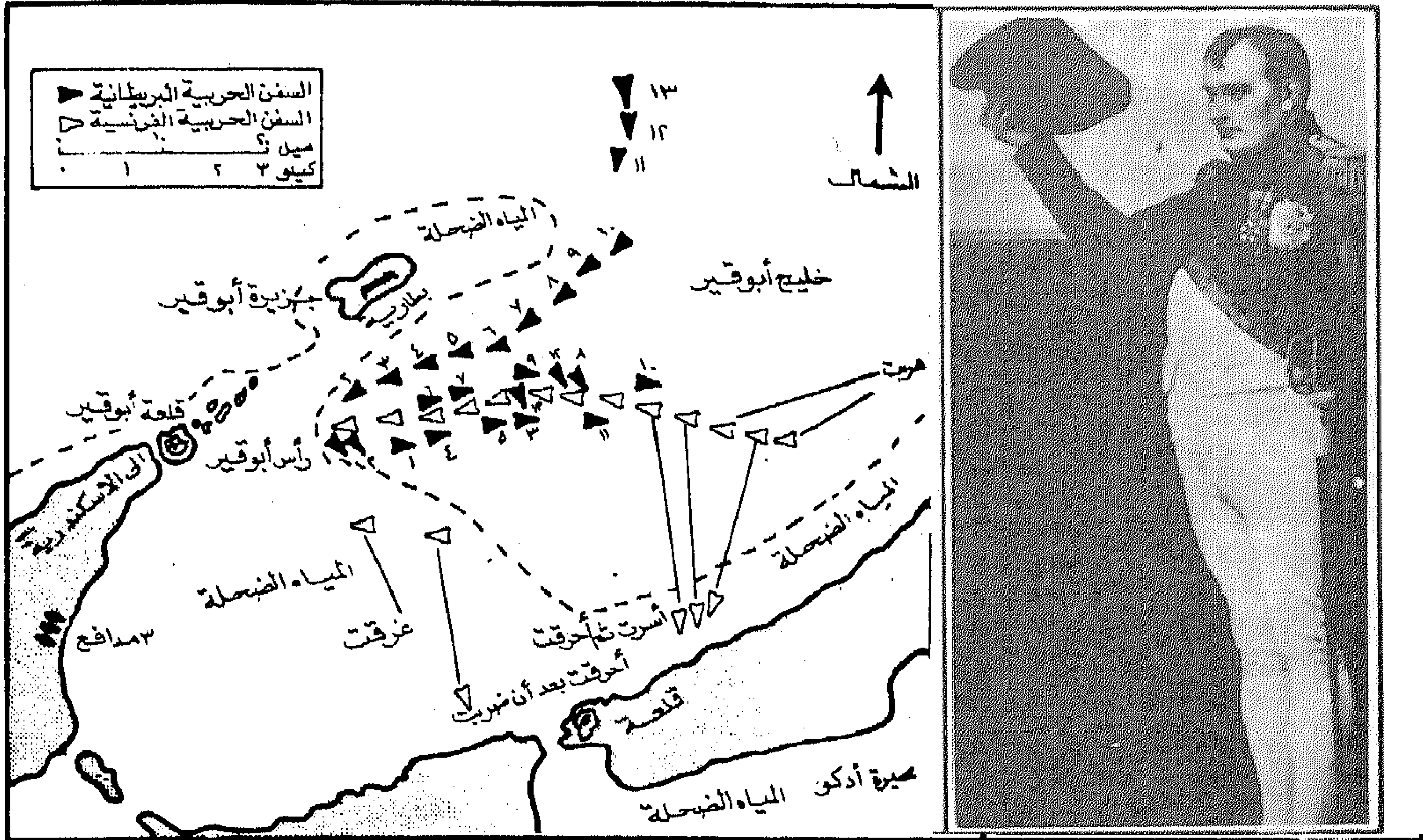
ودعا فرنسا اذا قررت غزو مصر الى محالفة الدروز، لان الروم الارثوذكس سوف يساندون روسيا، كما يكن الدروز والكاثوليك كراهية للاتراك[٧].

وأكد هذه النظرية (مور) القنصل الفرنسي في مصر، قائلا بأن سيطرة جيش فرنسي على مصر يتطلب تأمين الساحل السوري، وان بالامكان جذب والي صيدا أحمد باشا الجزار (١٧٧٦ ــ ١٨٠٤) لصالح الفرنسيين وقلبه على الأتراك[٨].

وتطلع قصر فرساي في السنوات التالية الى الاستفادة من اهمية الطرق التجارية للخليج العربي، فطلب من القنصل الفرنسي في بغداد ان يمده بمعلومات حول هذا الموضوع. فكان جواب الاخير بدعوة حكومته الى احتلال بغداد والتعاون مع الشاه كريم خان الذي يسعى الى استعادة بلاد الرافدين وديار بكر اولا، ومن ثم سوريا وفلسطين حيث سوف يجد مساعدة من طائفة الشيعة في تلك البلاد، وبأن كريم خان لن يلبث ان يتخلى عن سوريا وفلسطين للفرنسيين، فيستثمرون ارضها الخصبة التي سوف تعطي اضعافا مضاعفة، وباستعادة القدس سوف يجذب الملك الفرنسي نحوه ولاء كل المسيحيين، ويكون لذلك الصدى المسر في روما.

كما جاءت افكار مشابهة في مذكرات تعالج مشروع احتلال مصر، ومن اية جهة يمكن للحملة ان تواجه خطرا، وجاء فيها:

«... من سنخشى في مصر؟ الجزار الذي يسعى الى الاستقلال، لن يكون لديه لا الوسائل ولا النية لترك ولاياته سعيا وراء مصالح ضئيلة،



نابليون بونابرت.

معركة ابو قير (١٧٨٩) ـ الخريطة ماخوذة من الموسوعة العسكرية ـ الطبعة الاولى ١٩٧٧، ج١، ص ٢١.

والبحث عن عدو يخشاه للغاية، لن يحاربنا بل سوف يطلب مساعدتنا. وحتى اذا كان لديه نوايا عدوانية، تستطيع ان نجبره البقاء في ولاياته عن طريق احتلال المواقع التابعة له، ونقيم فيها حامية تفشل كل مخططاته، وتمد بالمساعدة الدروز والموارنة الذين يئنون من المظالم النازلة بهم، والتي لا يتحملونها الا على مضض، وهم مستعدون دائما للثورة ومهاجمة الاتراك، ومستاؤون من الجزار الذي اساء معاملتهم في حرب الشيخ ظاهر العمر...»[٩].

وفي ١٤ تموز (يوليو) سنة ١٧٨٩ دك شعب باريس الباستيل، فحد من سلطات الملك وأعلن الغاء نظام الاقطاع، وأعلن أن الملكية رسالة مستمدة من ارادة الامة لا هبة من العناية الالهية، مما أثار عليهم حكومات أوروبا الاوتوقراطية. وشهدت الفترة الممتدة منذ ذلك التاريخ انتفاضات داخلية، وحروبا خارجية مع ملوك اوروبا، وسعيا مستمرا لتوثيق العلاقة مع الباب العالي العثماني، لتأمين الوجود الفرنسي في المتوسط، والاعتراف العثماني بالثورة الفرنسية التي نجحت بالحصول عليه سنة ١٧٩٤[١٠].

وانعكس تأثير ذلك على بريطانيا، فكان رد الفعل بتعزيز قوتها البحرية، وتحريض بكوات مصر لمضايقة التجار الفرنسيين. ودفع هذا السلوك (ماجلان) قنصل فرنسا العام في مصر، الى تحريض حكومته على اقامة مستعمرة في تلك البلاد، وابعاد بريطانيا عن الهند بالقوة، بالغاء تجارتها مع تلك البلاد، كما ورد في احد التقارير معلومات عن مناخ وطوبوغرافية مصر وأفضل الاوقات لغزوها[١١]. لكن رجال الثورة استمروا في سياسة التعاون والتحالف مع الباب العالي.

وبعد احتلال بونابرت لايطاليا جمع من مكتباتها عددا كبيرا من المخطوطات البالغة الاهمية، تتضمن ابحاثا عن المشرق لوحظ ان الهوامش كانت مزودة بملاحظات عن مصر بخط يده. وأشار الضابط (سارجي) بانه احضر له من باريس مذكرات مخطوطة على جانب كبير من الاهمية، ومن ضمنها تقرير (ماجلان) الذي يدعو فيه حكومته الى غزو مصر وتدمير سلطة البكوات المماليك، واعادة سلطة السلطان العثماني بالاسم، وبأن تنفيذ ذلك أمر في غاية الاهمية، لانه يسهل بعدها التوجه من البحر الاحمر لضرب الانجليز في الهند. وهذا فعلا ما كان يدور في خلد بونابرت، ويبرز من خلال رسالة بعث بها

ملحق رقـــــم (١٠)

بونابرت يصرح لسكرتيره بوربيـــن أن باحتلال عكا سوف يستولى على ثروة الجزار ويقيم امبراطوريه فى الشرق ويعود الى باريس عن طريق القسطنطينيه

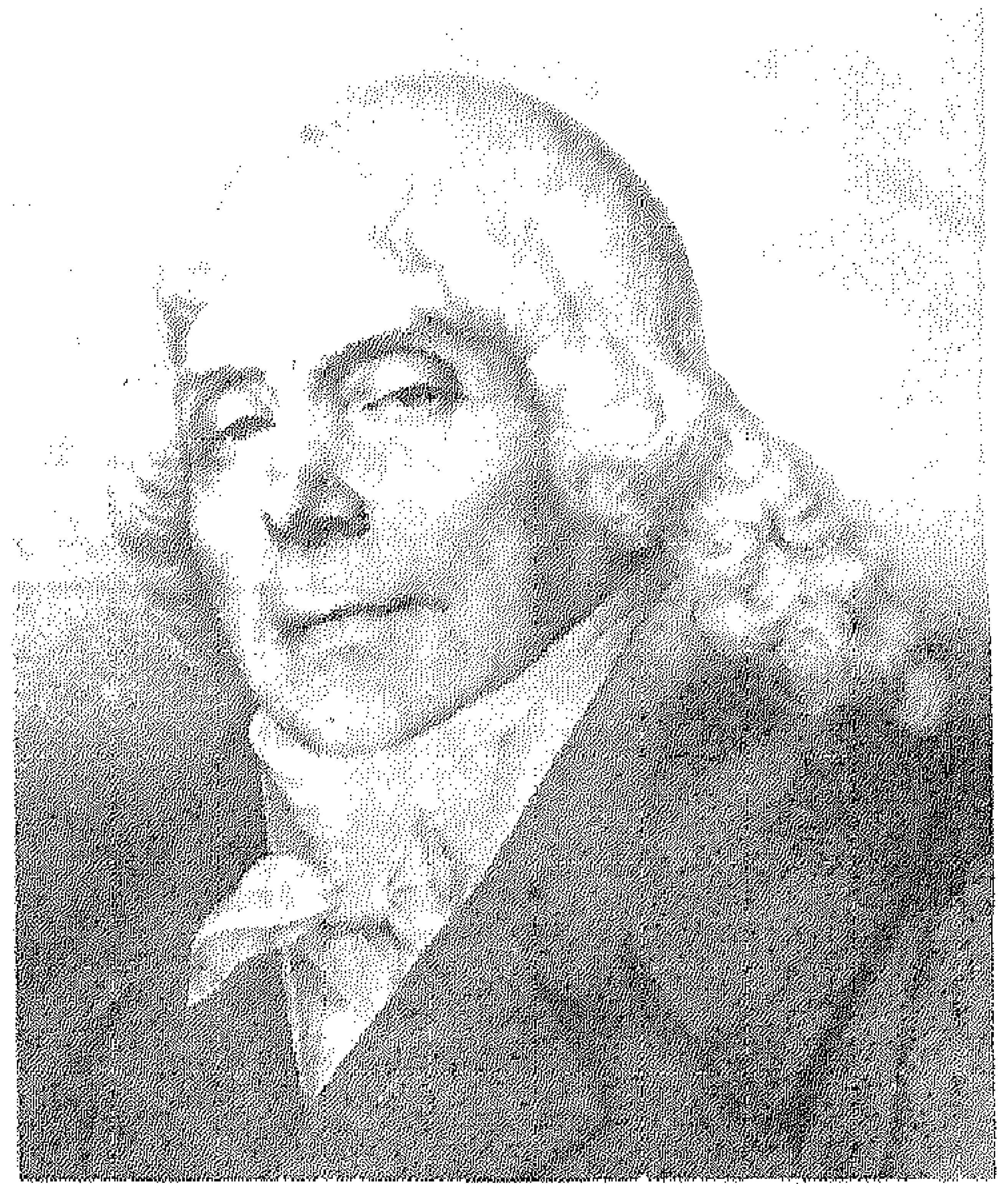
" Je vois que cette misérable bicoque n'a couté bien de monde et puis bien du temps;.mais les choses sont trop avanceés pour ne pas tenter un dernier effort. Si je reussis comme je le scais je trouverai dans cette ville les trésors du Pacha et des armes pour 300,000 hommes. Je souléve et s'arme toute la Syrie, qu'a tant indignee la ferocité de Djezzar dont vous avez vu que la population demande à chaque instant la chute à Dieu. Je marche sur Damas et Alep. Je grossi mon armeé en avançons dans le pays de tous les mécontens. J'annonce au peuple l'abolition de la servitude et du gouvernement tyranique de Pachas. J'arrive à Constantinople avec des masses armés; je renverse l'Empire turc, je fonde dans l'orient un nouvel et grand empire qui fixera nos place dans la postérité.et peut être retournai- je à Paris par Constantinople et Vienne,après avoir anéantir la maison d'Autrich.

" Si j'avais enlevé S't. Jean d'Acre, j'operais une revolution en orient. Les plus petites circonstances conduisent les plus grands événemens; j'aurais atteint Constantinople et les Indes; j'eusse changé la monde....

' Après la soumission de l'Egypt, il eut en 15,000 hommes à y laisser et 30,000 hommes disponible, il marchait sur l'Euphrote; il avait plusieurs fois dans la journeé l'attention fixé sur les déserts qu'il faut traverser pour arriver en Perse. "

(M.et D.) Turquie t.69 — من مجموعة ارشيف وزارة الخارجيه الفرنسيه

□ وثيقة من مجموعة ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية.



تاليران.
من مجموعة د. عادل اسماعيل «الوثائق الدبلوماسية والقنصلية»

الى حكومة الادارة في ١٦ آب (اغسطس) سنة ١٧٩٨ وجاء بها:

«... **الامبراطورية التركية تنهار يوميا، امتلاك الجزر (أي الأيونية) يؤمن لنا الاحتفاظ بها ما امكن ونتال نصيبنا، ولن يمضي وقت طويل لندرك ان تدمير بريطانيا الحقيقي يكون باحتلالنا لمصر. فالامبراطورية العثمانية تنهار يوميا، وهذا يجبرنا على التفكير لاتخاذ الاجراءات الكفيلة بحفظ تجارتنا في المشرق...**»[١٢].

وبفشل حكومة الادارة الفرنسية[١٣] في عقد معاهدة صلح مع بريطانيا، انهت في ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٧٩٧[١٤] حربها مع النمسا بمعاهدة (كمبو فورميو) التي اعادت حدود فرنسا وحققت لها انتصارا لم يسبق لفرنسا ان حققته في ظل اي نظام، وحققت لبونابرت نفوذا فعالا اثار خشية حكومة الادارة، فسعت لابعاده بحجة قيادة حملة لغزو بريطانيا.

وتظاهر بونابرت بتنفيذ أوامر رؤسائه رغم عدم اقتناعه بها، وتطلع الى التشبه بالاسكندر واحتذاء حذوه باقامة امبراطورية مشرقية، اذ لم تعد اوروبا تستهويه، ويبدو ذلك من خلال الحديث الذي اجراه مع سكرتيره (بوريين) في ٢٩ كانون الثاني (يناير) سنة ١٧٩٨:

«... **لم يعد عندي شيء أقوم به هنا، لم يعد عندي في اوروبا انتصارات يجب ان اذهب الى المشرق، الامجاد العظمى تأتي من هناك. سوف اقوم بنفسي بجولة على الشاطىء (اي المحيط الاطلسي) لاتأكد بنفسي ما يجب القيام به، اذا وجدت اي شك حول انزال بريطاني، في هذه الحالة سوف يكون جيش بريطانيا جيش المشرق...**»[١٥].

وبعد ان تجول بونابرت على شواطىء الاطلسي لمدة ثمانية أيام، أكد لمساعده (بوريين)[١٦] بان الغزو مخاطرة وبأنه سوف يذهب الى القاهرة. فعاد الى باريس وعكف على دراسة التقارير العلمية والعسكرية عن الحملة على مصر، وحدد هدف الحملة امام حكومة الادارة:

١ ــ ضرب التجارة البريطانية في الهند عن طريق البحر الاحمر.

٢ ــ تحويل البحر المتوسط الى بحيرة فرنسية[١٧].

ووقف (تاليران) وزير الخارجية الفرنسية الى جانب اراء بونابرت، وبين لاعضاء حكومة الادارة بأن مصلحة فرنسا تقضي بأن يكون لها مستعمرات غنية وقريبة منها بعد أن فقدت مستعمراتها في اميركا الشمالية وكندا والهند، وبأن الخطر بفقدان جزر الهند الغربية بات وشيكا، وبأن من الضروري تأمين مستعمرات تنتج المواد التي تستوردها فرنسا من تلك الجزر[١٨]. وبعد مناقشات مستفيضة وافق المجلس في الخامس من آذار (مارس) سنة ١٧٩٨ على خطة بونابرت القاضية، بخداع الانجليز بأن هدف الحملة القيام بانزال فرنسي على السواحل البريطانية، فيكثف هؤلاء قواتهم لصد الهجوم المتوقع عليهم، وفي هذا الوقت يحتل الفرنسيون مصر، ويقيمون فيها مستعمرة فرنسية ثم يعود بونابرت لضرب الممتلكات البريطانية في اوروبا[١٩]. وان تسعى الحكومة عند مسير الجيش بارسال سفير الى الاستانة، ليشرح للباب العالي ان احتلال مصر ليس عملا عدائيا ضد تركيا، ولكن ضد المماليك المتمردين على السلطان والمنفذين لاوامر الانجليز[٢٠]. وتم

الاتفاق على عدم افشاء سر وجهة الحملة اثناء التحضير لها. وان يختار بونابرت بنفسه الجنرالات. والضباط والعلماء والمهندسين والجغرافيين الذين سيرافقونه. وعرفت هذه الحملة باسم «جيش بريطانيا» في حين كانت في الواقع «جيش مصر»(٢١).

ولم تكن اوروبا غافلة عما يجري في فرنسا من تحضيرات، فقد كان في كل مكان ظنون، ولم يستطع جواسيس بريطانيا ان ينقلوا اليها سوى التوقعات، ولكنها بالمقابل تلقت تقارير عديدة تشير الى امكانية النزول الفرنسي الى الاسكندرية فأصدرت اوامر الى الاميرال (نلسن) بملاحقة الاسطول الفرنسي، وطلب وزير الحربية اعلام الباب العالي بذلك ومحالفة روسيا، ووضع قوات عند مدخل البحر الاحمر والخليج العربي، لمنع اي اتصال بين القوات الفرنسية والقارة الهندية(٢٢).

وهكذا تحدد مصير شعوب مصر وبلاد الشام، وتم حشد جيش نتيجة الصراع على السلطة بين بونابرت وحكومة الادارة. فقد قرر الاول تأجيل انقلابه السياسي، رغبة في تحقيق هدف عسكري يضعه خارج السلطة العليا. ولكن اذا انتصر فيه لا يعود لنفوذه من حدود، ولندن قريبة جدا من باريس، ولكي يهدد سواحلها يجب البقاء مدة تحت مراقبة حكومة قد تنتقم منه بالسر، كما ان الحملة تخدم مصالحه لان انتصار الابطال كان يرتبط بالشخصية. في حين كانت حكومة الادارة تسعى للتخلص من نفوذ بونابرت المتصاعد، فهي لم تخدع بخيال القائد، فقد كانت الحملة بنظرهم نفقات جنود وأموال ترمى في البعيد، دون نتيجة محتملة وانما تخلصا من القيصر الجديد الذي سيلقى مصيره، وهزيمته سوف تؤدي الى زوال ماله من تأثير على الرأي العام.



اقطاعي لبناني. الشيخ شاهين تلحوق حبيش. من مجموعة د. عادل اسماعيل «الوثائق الدبلوماسية والقنصلية»

وهكذا برز التفكير في الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وارتبط مصير البلدين ببعض في نظر الغزاة. فاذا كانت مصر بالنسبة لبونابرت مسرحا لتحقيق امجاده، وضرب الوجود البريطاني في الهند وانعاش التجارة الفرنسية عن طريق جعل ضفاف النيل مستودعا للبضائع الفرنسية. فان نجاحه في تحقيق هذه الاهداف ارتبط بضرورة تأمين حدود مصر الشمالية باحتلال بلاد الشام، وكان قناصلة فرنسا وسفراؤها في المشرق قد اشاعوا بأن تنفيذ ذلك لن يكون شاقا، نظرا لكراهية العصبيات المحلية للحكم العثماني واستعدادها للتعاون مع الفرنسيين.

●

الهوامش

(١) ابنة فيليب الرابع ملك اسبانيا وزوجة لويس الرابع عشر.

(٢) الباب العالي. كناية عن مبنى كبير الحجم أقيم في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٤٨ ــ ١٦٨٨)، خصص جناح منه ليقيم به الصدر الاعظم مع اسرته وخدمه وحرسه، وخصصت بقية الاجنحة لاجتماعات كبار موظفي الدولة الذين يقومون بتصريف مهامها. وغدا اسم هذا المبنى «باسكي قابيس» اي بوابة الباشا، و«بابي عالي» اي بوابة عليا، ثم اكتسب اسم الشهرة في التاريخ وهو الباب العالي.

(٣) Charles-Roux, F., La politique française en Syrie et en Palestine pp. (18-20).

(٤) جبل الدروز. اطلق جبل الدروز على القسم الجنوبي

من حوران بعد هجرة الدروز اليه، والمقصود هنا المرتفعات الغربية الممتدة على طول الساحل اللبناني، من جسر المعاملتين عند نهر الكلب حتى نهر الأولي شمال مدينة صيدا.

(٥) Ibid. p. 33.

(٦) Ibid. p. 33.

(٧) Ibid. p. 33.

(٨) Ibid. p. 34.

(٩) Ibid. p. 34.

(١٠) اميل خوري وعادل اسماعيل. السياسة الدولية في الشرق العربي. ص ٦١.

(١١) Charles-Rouse. op.cit. pp. (27-30).

(١٢) ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة (M. et D. Turquie) سجل رقم ٦٣.

(١٣) انشئت حكومة الادارة في ٢٥ حزيران ١٧٩٢، وهي هيأة من خمسة أشخاص تمارس السلطة التنفيذية، انشيء بجانبها مجلسان تشريعيان مجلس الشيوخ ومجلس الخمسمائة يختار اعضاؤهما عن طريق انتخاب محدود النطاق.

(١٤) رغم ان التوقيع على المعاهدة قد تم في باسارينو الواقعة في النمسا، ولكن الاتفاقية حملت اسم قرية كامبوفورميو المجاورة لها، التي اعدوا فيها امر الاحتفال بالتوقيع على المعاهدة، التي نصت على تنازل النمسا عن البلجيك وحدود الراين ولمباريا واستقلال الرايخ. لمزيد من المعلومات انظر: هـ. ا. ل. فشر: تاريخ اوروبا في العصر الحديث، ص (٤٨ ـ ٤٩)؛ جلال يحيى. تاريخ اوروبا الحديث، ص (٢٧٨ ـ ٢٧٩).

(١٥) ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة (M. et D. Turquie) مجلد ٦٣ ورقة رقم ٨٣.

(١٦) Mémoires de M. de Bourienne. V. 1pp. (222-224).

(١٧) Raybaud, Louis (and others)., Histoires scientifique et militaires sur l'expedition française en Egypte. V. 3 p. 78.

(١٨) اميل خوري وعادل اسماعيل. مرجع سابق. ج ١، ص ٧٤.

(١٩) Raybaud., op.cit. V. 3, pp. (32-36); Bourienne., op.cit. v. 3 pp. (223-227).

(٢٠) Ibid., V. 3, p. 32; Bourgeois, E., Manuel historique. pp. (195-196).

(٢١) Ibid. pp. (30-32).

(٢٢) Charles-Roux, F., l'Angleterre et L,'expedition française en Egypte et en Syrie, pp. (7-19).

المصادر

اولا ـ وثائق غير منشورة

ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة:
Mémoires et Documents Turquie (M. et D.).

ثانيا ـ مذكرات منشورة

BOURRIENNE, (M. de)., «Mèmoires sur Napoleon, le direction, le Consulat, l'Empire et la Restauration». pub. par Desiré la croix. 3 vols, Paris.

Miot, jaques., «Mémoires pour Servir à l'Histoire des expeditions en Egypte et en Syrie pendant les années VI, VII et VIII de la republique français». paris, 1804.

RAYBAUDS, Louis (and others)., «Mémoires Scientifique et Militaire sur l'expeditions française en Egypte». 10 Vols et 2 Atlas. Paris, (1830-1836).

SARGY, Niello. (J.M. de)., «Mèmoires secrets et inedits pour servir à l'Histoire contemporaire sur L'expedition d'Egypte». Paris, 1825.

ثالثا ـ دراسات وابحاث

اميل خوري وعادل اسماعيل.، «السياسة الدولية في الشرق العربي». ٤ اجزاء، بيروت، ١٩٥٩ ـ ١٩٦٤. ج ٤ لعادل اسماعيل فقط.

Charles-Roux, F., «La politique française en Syrie et en palestine» Marseille, (S.D.).

«l'Angleterre et L'expedition française en Egypte». Le Caire, 1925.



● من الدول الكبرى خرجت من مؤتمر الأقطاب صغيرة!

(منديس فرانس)



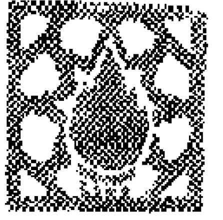
اللام ــ ١ (لا)، الحرف المزدوج من مخطوطة مغربية، تبين بوضوح ان الخط المنحني هو الأساس في تركيب الكتابة العربية وقد اسبها مظهرا حركيا.

تطوّر الكتابة العربيّة وارتباطها بالفنّ التشكيلي

عاطف مُصطفى

مرت الكتابة العربية بمراحل متعددة، وأنماط متباينة، تعرضت من خلالها للكثير من التغيير لكي تتلاءم مع العصر الذي تعيش فيه.

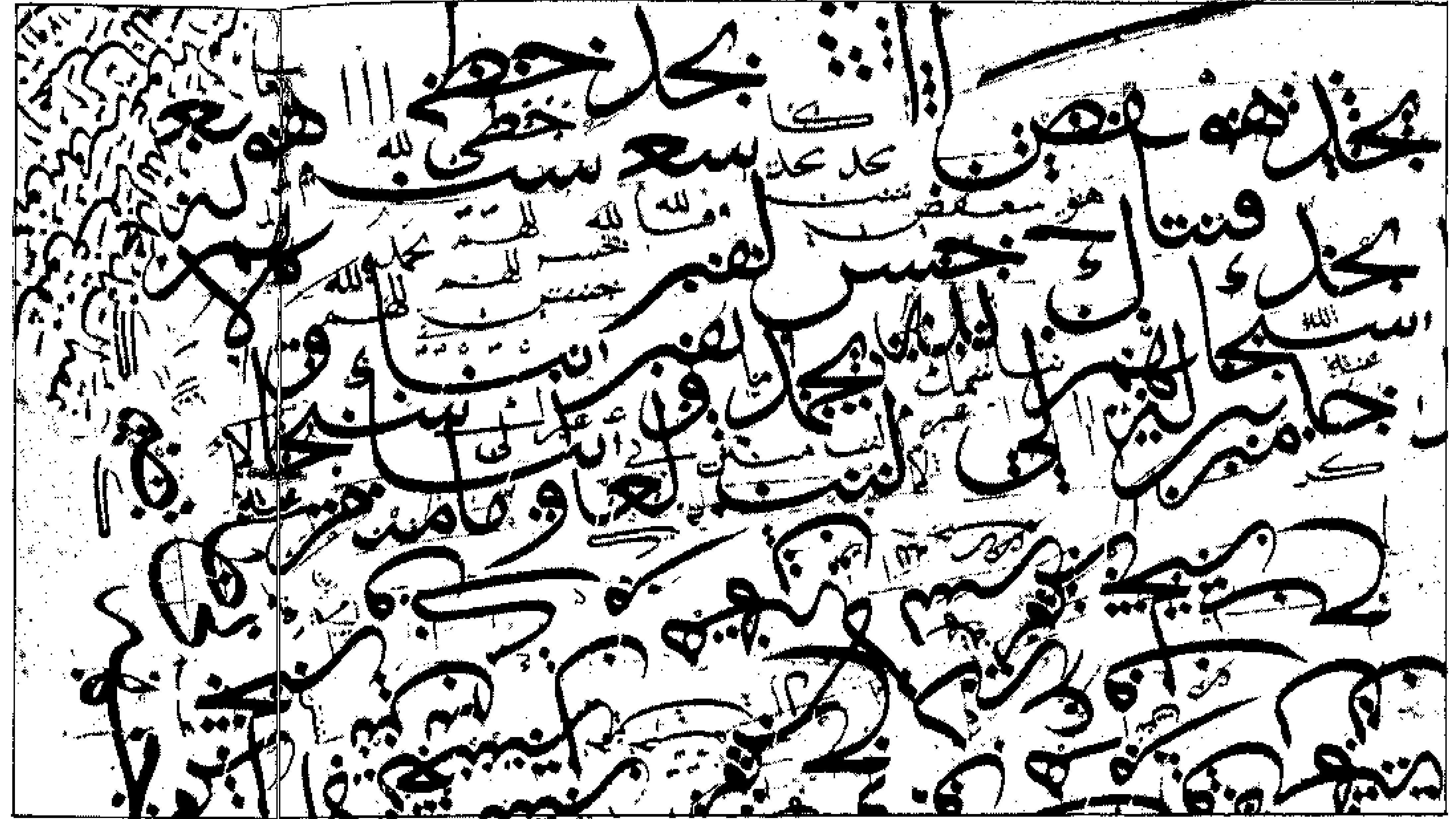
وقد تطورت الكتابة العربية منذ الفتح الاسلامي بما يتلاءم مع تلك البلدان التي دخلت الاسلام، وكان لا بد من قراءة القرآن قراءة صحيحة لأن اللسان الأعجمي مغاير للسان العربي، لا سيما أن العربي كان يقرأ ويعي لغته بالسليقة والذكاء الفطري دون شكل أو نقط.



كان حذق العرب للكتابة في الجاهلية حادثا هاما في تاريخ الفكر، لم يظهر خطره الا بظهور الاسلام، والحق أن الكتابة خدمت الاسلام خدمة جلى، ذلك أنها كانت بالنسبة له خيرا من السيف.

وقد كان النبي، عليه الصلاة والسلام، يدرك قيمتها ويفهم خطرها، ولذلك فقد جعل يطلق سراح الأسير في «بدر» اذا علم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة. وتعتبر هذه أول مدرسة في الاسلام.

وقد دون بها القرآن أول نزوله. ودونت كتب الحديث والشروح والتفاسير وغدت وسيلة تعليمية بالغة القيمة منذ بدأ تدوين المعارف بالعربية.



النقطة، ميزة من ميزات الكتابة العربية، وقد تعدت المرحلة التقليدية الى استعمالها كشكل زخرفي.

وكانت الكتابة العربية في انتشارها غازية قوية التأثير في البلاد المفتوحة يدل على نفاذها وعظم تأثيرها اتخاذها لرسم لغات الأمم المغزوة التي لم تتحول الى لغة الفاتحين.

ففي ايران حلت الحروف العربية محل الحروف الفهلوية في كتابة لغة الفرس مع زيادة حروف معينة، واستخدمها الافغانيون في كتابة لهجاتهم وكذلك البلوخستانيون.

وفي الهند حلت الكتابة العربية محل حروف اللغة الاوردية الهندوستانية ولغة أهل كشمير. وكذلك كتبت بها النصوص الدينية الاسلامية في الصين وفي بلاد كثيرة من تلك التي غزاها المسلمون مبشرين بالدين الاسلامي الحنيف وعلى رأسها بلاد أفريقيا.

واستخدمت الكتابة العربية في تدوين القرآن وكتب الدين في هذه البلاد.

وقد توغل الخط العربي في اسبانيا وجنوب فرنسا حتى بلغ مع فتوحات العرب أقاليم «اللوار».

ومنذ ذلك التاريخ قدر للعربية وكنوزها العلمية أن تبلغ الذروة انتشارا بين الراغبين في العلم من الأوروبيين في اسبانيا والأمم المجاورة ممن كانوا ينزحون الى ديار الأندلس طلبا للعلم في وقت كان العرب فيه يحذقونه ويحتفظون بتراثه. عندئذ تعلم الأوروبيون من محبي العلم لغة العرب وكتابتهم ليقرأوا بها المخطوطات، ويحفظوا بها الآداب العربية من شعر ونثر وزجل.

وبلغ من تأثير غزو الحروف العربية أن اتخذها الاسبان والصقليون وكثير من أمم أوروبا لزخرفة المباني والعملة.

والكتابة العربية من أغنى الكتابات في العالم ولا يشترك معها في هذا الثراء سوى لغات الهند والصين.

والأسباب التي تدفعنا الى القول عن مفهوم الثراء والغنى في الكتابة العربية هي:

أولا ــ فن الكتابة المصرية القديمة التي عبرت طوال سنين عصر الأسرات من الغرب الى الشرق ماسحة الجزيرة العربية من جنوبها الذي كان يتمثل في مملكة سبأ الى اليمن متجهة شمالا الى الحجاز وملتقية في شمالها الشرقي بحضارة البابليين.

ثانيا ــ المنبع المباشر الذي اشتقت منه الكتابة العربية أشكالها النهائية ونوع لهجاتها وهي الكتابة المسمارية والآشورية والبابلية والفينيقية التي تلخصت أخيرا في الكتابات المسمارية والسريانية.

ومن هذين المنبعين نشأت الكتابة العربية. واذا اعتمدنا على صحة هذين المصدرين وجب علينا أن نصف الكتابة العربية باعتبارها فنا للشكل وفنا للنقطة وامتدادها.

وتحديد فن الشكل (Forme) ضروري لأن احد أمهات الكتابة العربية وهي المصرية القديمة كانت تعمد في أساسها على ترجمة الأشكال المرئية الى معان موازية فالشجرة تعني الفلاحة، ودائرة الشمس تعني الحياة، والخط المتعرج يعني المياه، الى آخر هذه الأشكال.

وقد اعتمدت اللغة المصرية أساسا على تلخيص الأشكال البصرية برسمها رسما بليغا مركزا فوق الحوائط أو على أوراق البردى حتى تنهض بكاملها لغة وكتابة، وليس أدل على ذلك من الكتابات الغائرة والبارزة والمكتوبة بالأحماض والأحبار على الأحجار والمعابد والحوائط والتماثيل والأخشاب والأوراق وغيرها.

وهكذا كانت الكتابة المصرية القديمة فنا فريدا لا يمارسه الا فنان مقتدر، وماله لتواحي التراكيب الفنية في الأشكال التي يرسمها.

علاقة الخط العربي بالفن التشكيلي

والكتابة العربية فن للنقطة وامتدادها، لأن أحد الأمهات الأخرى للكتابة العربية وهي المسمارية كانت تعتمد في أساسها على النقطة وامتدادها، فقد كانت اللغة المسمارية تتكون من مجموعة مثلثات مقلوبة بحيث تكون القاعدة الى أعلى ورأس المثلث الى أسفل على شكل مستطيل قليلا بحيث تعطينا على نحو ما شكل المسمار.

ومن هذه الحضارات القديمة نشأت الكتابة العربية ونقصد بهذه الحضارات حضارة بابل وآشور وفينيقيا ومصر والكنعانيين.

ونظرا الى هذا النسب العريق للكتابة العربية فقد تميزت بخواص عدة من حيث الكتابة واللهجة، انفردت بها انفرادا مميزا عن لغات وكتابات العالم ومن هذه الميزات:

اولا ــ تتميز اللغة العربية بما يسمى بالتواصل الشكلي وهو ما يعرف في الفن التشكيلي بالدائرة سواء أكانت الدائرة صريحة أم موحية.

ومن المعروف أن الخط المنحني يؤدي في المنظور غير المرئي الى شكل دائري على نحو ما، فاذا استعرضنا مجموعة ال أ، ب العربية وجدناها في حقيقتها مجموعة خطوط منحنية أو متعرجة لا تقود في النهاية اذا حاولنا استكمال اطرافها الا الى شكل دائري، فحتى الألف (أ) يبدو من الوهلة الأولى خطا مستقيما، الا انه في حقيقة الأمر ليس كذلك، فكتابته الصحيحة تتحلى بشكل تاجي فوق هامة الألف، ومن الممكن احيانا أن يكون هذا التاج مجرد خط اضافي منحن، أو شبه دائرة بل ان كتابة الألف في ذاتها قد تكون على شكل منحن قليلا.

واذا استعرضنا بقية الحروف لأصبح من اليسير علينا أن نتبين كيف أن الخط المنحني هو الأساس في تركيب الكتابة العربية.

ان ذلك يعني أنها كتابة حريصة على أن تتساوى كلية مع مفهوم الاكتمال في الفن أو ما يسمى (Art of Integration).

لأن الدائرة في مفهوم الفن تعني قمة التوازن وصحة الزوايا والكمال.

ثانيا ــ اننا نجد أن الخط المنحني بشكل ما يمنح التركيب العام لمنظور الكتابة مظهرا حركيا، واستفادت من ذلك الى حد كبير اللغات اللاتينية التي انحدرت منها معظم الكتابات الأوروبية.

ثالثا ــ ان الكتابة العربية تعتمد على النقطة وامتدادها. فالنقطة هي مصدر الخط اذ أن أي خط تحدثه على سطح ليس في الحقيقة الا مجموعة نقط متلاصقة، غير أن النقطة في الكتابة العربية قد تعدت تلك المرحلة التقليدية الى استعمالها كشكل زخرفي.

ولقد أثرت هذه الطريقة في كتابة اللغة العربية في لهجاتها بحيث توازت اللهجة مع ثراء الكتابة. والكلمة الواحدة نستطيع أن نصدر مجموعة كلمات مشتقة منها، قد تجدها في الكتاب.

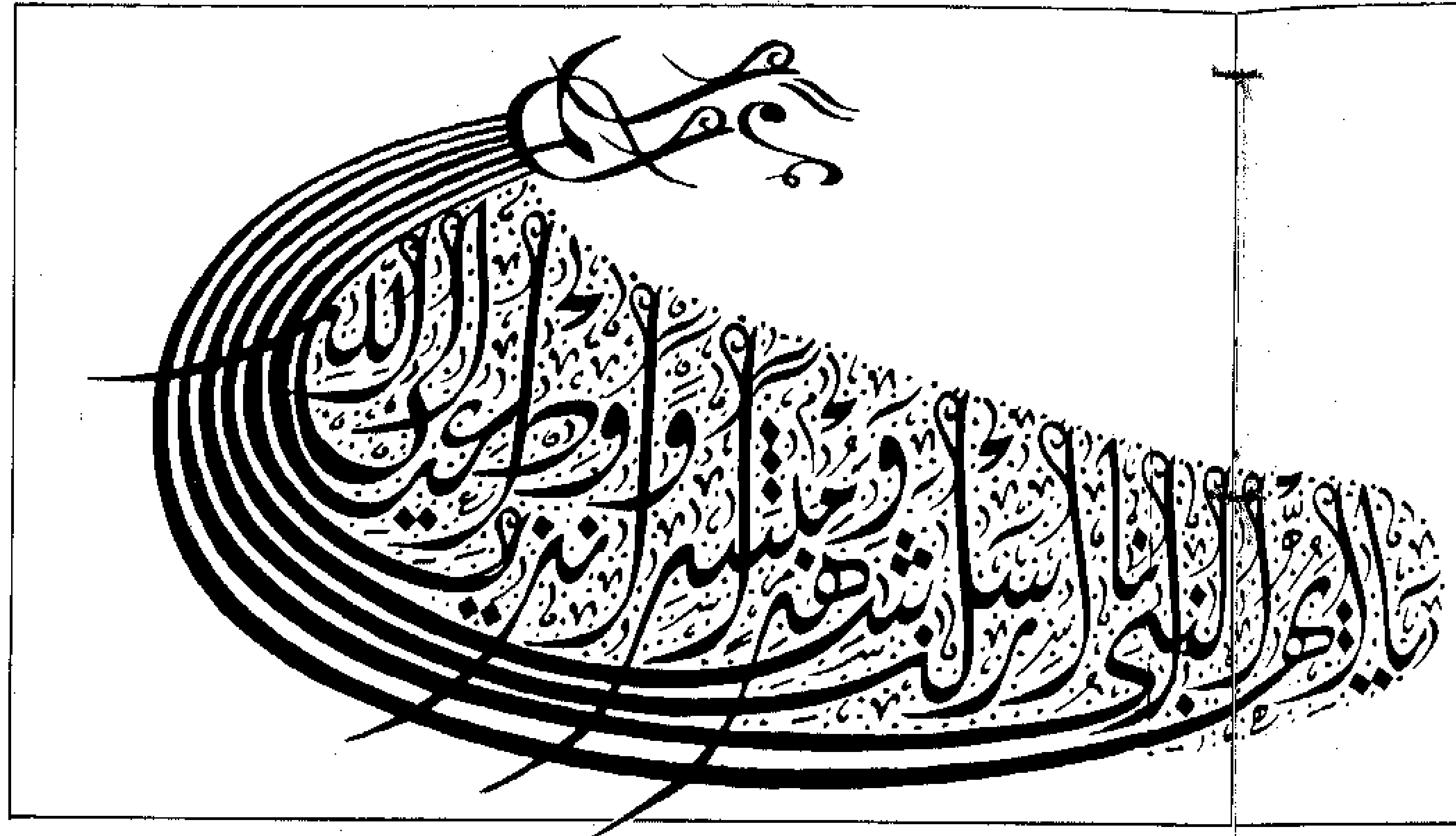
ان تفريعات الكلمة في العربية لا تلتزم بوضع مقدمة (Prefixe) أو مؤخرة (Suffixe) كما نجد دائما في معظم اللغات اللاتينية.

ان اللغة العربية قادرة على التشكل والتشكيل من ناحية الأصوات كما هي قادرة أيضا على التشكل والتشكيل من ناحية الكتابة.

ومن هنا يتضح لنا أن الكتابة العربية هي في أساسها فن أوجدته مواريث حضارية اشتركت في تخليقه وتمثيله على النحو الكائن بيننا اليوم.

استخدامات الكتابة العربية في الفن التشكيلي

الكتابة العربية على النحو الذي أوردناه هي في الواقع «بالیتة» جاهزة أمام الفنان يستطيع أن يأخذ منها ما يراه مناسبا لعمله الابداعي مضيفا اليها ميراث عصره وزمانه الذي يعيش فيه.



تشكيل فني للخط العربي، على شكل مركب فرعوني للخطاط محمد عزت الكركوكي.

فالكتابة العربية على امتداد افريقيا وآسيا ليست مجرد لغة للتفاهم، بل هي أعلى من ذلك بكثير.

انها في الحقيقة ثقافة وحضارة مشتركة بين جميع هذه الشعوب لأنها نتائج هذه الثقافات العريضة التي عاشت في المنطقة زمانا طويلا وذلك على عكس ما تجده في اللغات اللاتينية ومشتقاتها.

فاللغة اللاتينية ذات تركيبات أفقية، في حين أن الكتابة اللاتينية في أغلبها على الخط المستقيم، وتمتاز العربية بخطوطها الدائرية بحيث تعطينا الاحساس بالحركة. ولذا نجد منذ العصر العباسي تعدد استخدام الخط العربي من خلال اللوحات التي توضع على الحوائط وتكتب بأشكال مختلفة.

واعتبر الخط العربي من أهم العناصر التشكيلية نظرا لصفاته الكامنة التي تتيح له التعبير عن الحركة والكتلة، وهو لا يعبر عن الحركة بمعناها المرتبط بأشياء متحركة فقط، وانما بمعناها الجمالي الذي يتيح حركة ذاتية تجعل الخط يتراقص في رونق مستقل عن أي غرض انتاجي.

دور الخط العربي

تطور الخط العربي تطورا كبيرا، وتنوعت أشكاله، وكان لصفة الخط وشخصيته الكامنة في حروفه المستقيمة والمنحنية والرأسية والمستديرة والأفقية والمائلة ما أتاح للفنان أن يبدع في تشكيلها، لما تتصف به من مرونة وطواعية.

وكثيرا ما لعب الخط العربي دوره الرئيسي أعلى حوائط العمائر ليحيطها الاحساس بالصلابة والقوة من جهة ومن جهة أخرى كوشي يزين أعلاها.

واذا استعرضنا ما أنتجه الفن الاسلامي في مختلف أنواع منتجاته نجد أن الخطوط التي استعملت كانت تلعب دورا تشكيليا أساسيا سواء أكان ذلك في الجص والرخام أم في الحجر والمعادن أم في الزجاج والنسيج والمخطوطات حيث يراها متكاملة من الناحية التشكيلية مع الشكل العام والزخارف الأخرى.

ولعل من أبرز الدلائل المميزة للفن الاسلامي استعمال الزخارف والنصوص الكتابية، فهو دليل من الدلائل التي تيسر على الانسان التعرف على أن هذا عمل فني اسلامي.

وقد تنوع استعمال الخط كعمل تشكيلي بحيث أعطى للأقاليم الاسلامية شخصية مميزة في اطار الشخصية الاسلامية العامة.. فاستعمال الكتابة في الطراز المغربي الاسباني يختلف عن استعمالها في الطراز الشامي أو المصري أو الايراني. ولذا نجد أن الفنان المسلم في كل اقليم من الأقاليم الاسلامية قد استطاع أن يحمل الخط العربي شخصيته وشخصية اقليمه في اطار الشخصية الاسلامية.

أنواع الخطوط

يقول حفني ناصف في كتابه «تاريخ الأدب»: الخطوط كثيرة ولكنها ترجع في الأصول الى اربعة:

١ ــ الخط المصري: أقدم الكتابات الشرقية وهو ثلاثة أنواع:

(أ) الهيروغليفي: خاص بالكهنة وخدمة الدين.

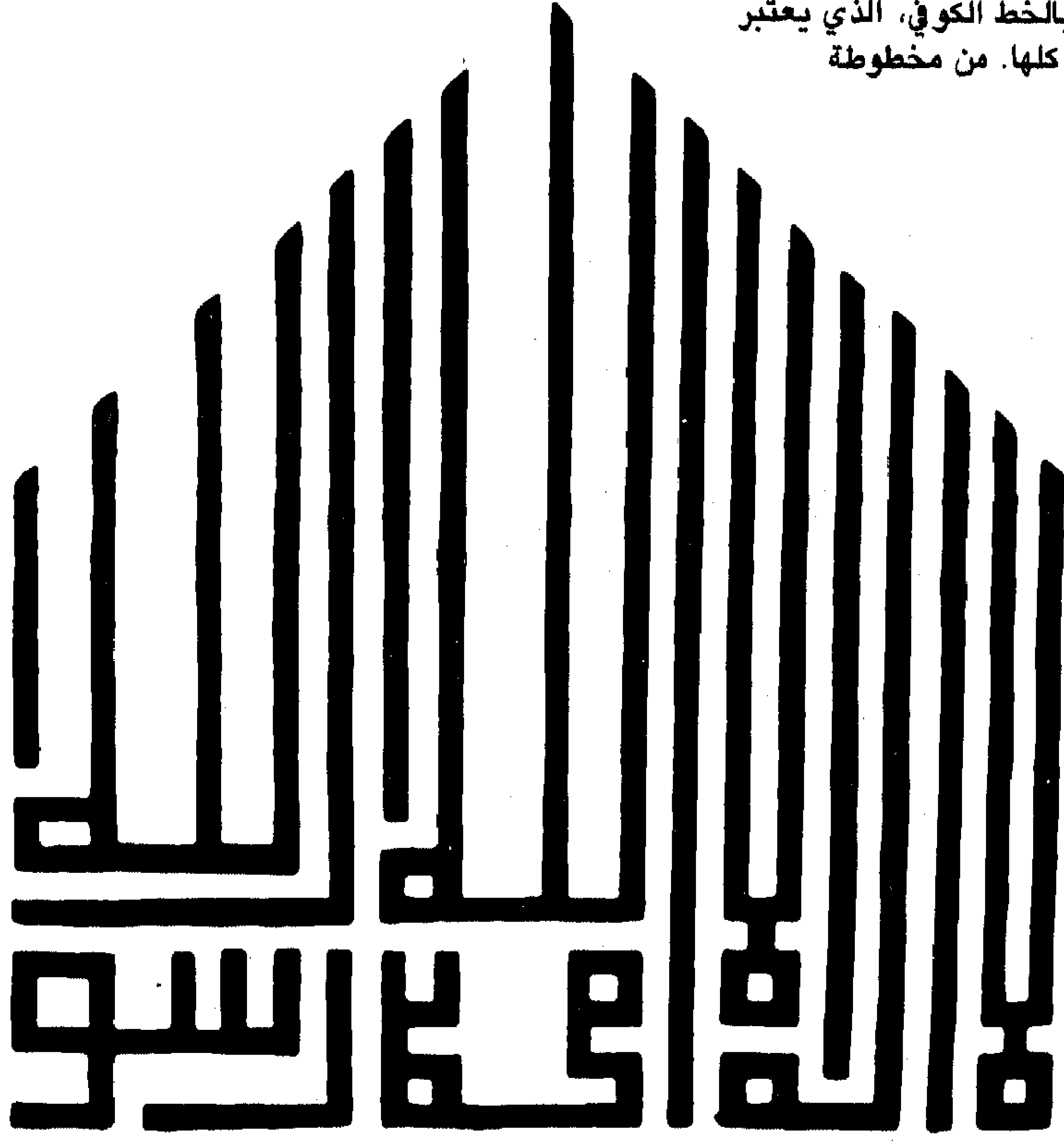
(ب) الهيراطيقي: خاص بعمال الدواوين وكتاب الدولة، وهو أبسط تركيبا من الهيروغليفي وأقرب الى الحروف منها الى الرسم.

(ج) الديموطيقي: خاص بعموم الكتبة من الشعب، وهو أبسط الأنواع الثلاثة.

٢ ــ الخط المسماري: وكان مستعملا في بابل وآشور وما حولهما، وقد انقرض الآن.

٣ ــ الخط الحثي: استعمل قديما في بلاد الشام.

٤ ــ الخط الصيني: وهو مستعمل الآن ومن



لا اله الا الله بالخط الكوفي، الذي يعتبر اصل الخطوط كلها. من مخطوطة في سمرقند.

فروعه الياباني والمغولي.

٥ ــ الخط الفينيقي: تولدت منه أربعة خطوط:

(أ) اليوناني القديم ومنه تولدت الخطوط الأوروبية والخط القبطي.

(ب) العبري القديم ومنه الخط السامري نسبة الى سامرة نابلس.

(ج) المسند الحميري ومنه تولد الخط الحبشي.

(د) الآرامي ومنه تولدت الخطوط الآتية: الهندي، الفارسي، العبري، المربع، السومري، الأنباري، النبطي، الحميري، السرياني، الحجازي، الكوفي.

واذا ألقينا الضوء على الخط العربي من خلال هذه اللمحة السريعة عن الخطوط بصفة عامة فسوف نجد أنه يعد من الفنون العربية الاسلامية والتي سخرت لخدمة الدين، والخط المسماري هو أول خط كتبت به العربية، ومنه استحدث الخط الكوفي.

أنواع الخط العربي

وعلى مر السنين تطور الخط العربي تطورا ملحوظا، ففي القرن الثالث الهجري عندما جاء ابن مقلة ورسم حروف الخط الكوفي بنسب معينة، وجاء بعده ياقوت الذي جمل الخط العربي ووصل الى حد كبير من الاتقان والروعة، وبعد ذلك جاءت خطوط كثيرة عرفت باسم القلم الذي يستعمل في كتابتها، وتعددت أنواعها ومنها خط الثلث، والثلثين، وخط المصاحف المحقق والنسخ والرقعة.

وفي القرن التاسع عشر استحدث الخط الديواني، أما الخطوط الموجودة حاليا فهي:

الثلث: من أهم الخطوط ويستعمل في كتابة أسماء الكتب والآيات القرآنية كزخارف للمساجد.

النسخ: سمي بالنسخ لأن الكتاب كانوا ينسخون به المصاحف.

الرقعــة: من أسهل الخـطوط ويستعمل في جميع الأعمال وبين العامة من الناس.

الفـارسي: خط جميـل ابتكره أهـل فـارس ويستعمله الأفغانيون والهنود في كتاباتهم.

الكوفي: من أقدم الخطوط، وقد بلغ منزلة كبيرة في العصر العباسي، ويعتبر أصل الخطوط كلها.

خطوط الاجازة والتوقيع: وهو خط خليط بين الثلث والنسخ.

الديواني: وهو خاص بدواوين الملوك وكانت تكتب به الأوامر الملكية وهو قسمـان «ديواني رقعـة» و «ديـواني حلبي» ونـشـأ في عهـد الامبراطورية العثمانية.

والخط العربي جزء مهم من التراث الحي للأمة العربية، ويرتبط بلغتنا وتطورنا الثقـافي، ويرجع اليه الفضل في تماسك العرب ووحدتهم وحفظ تراثهم.

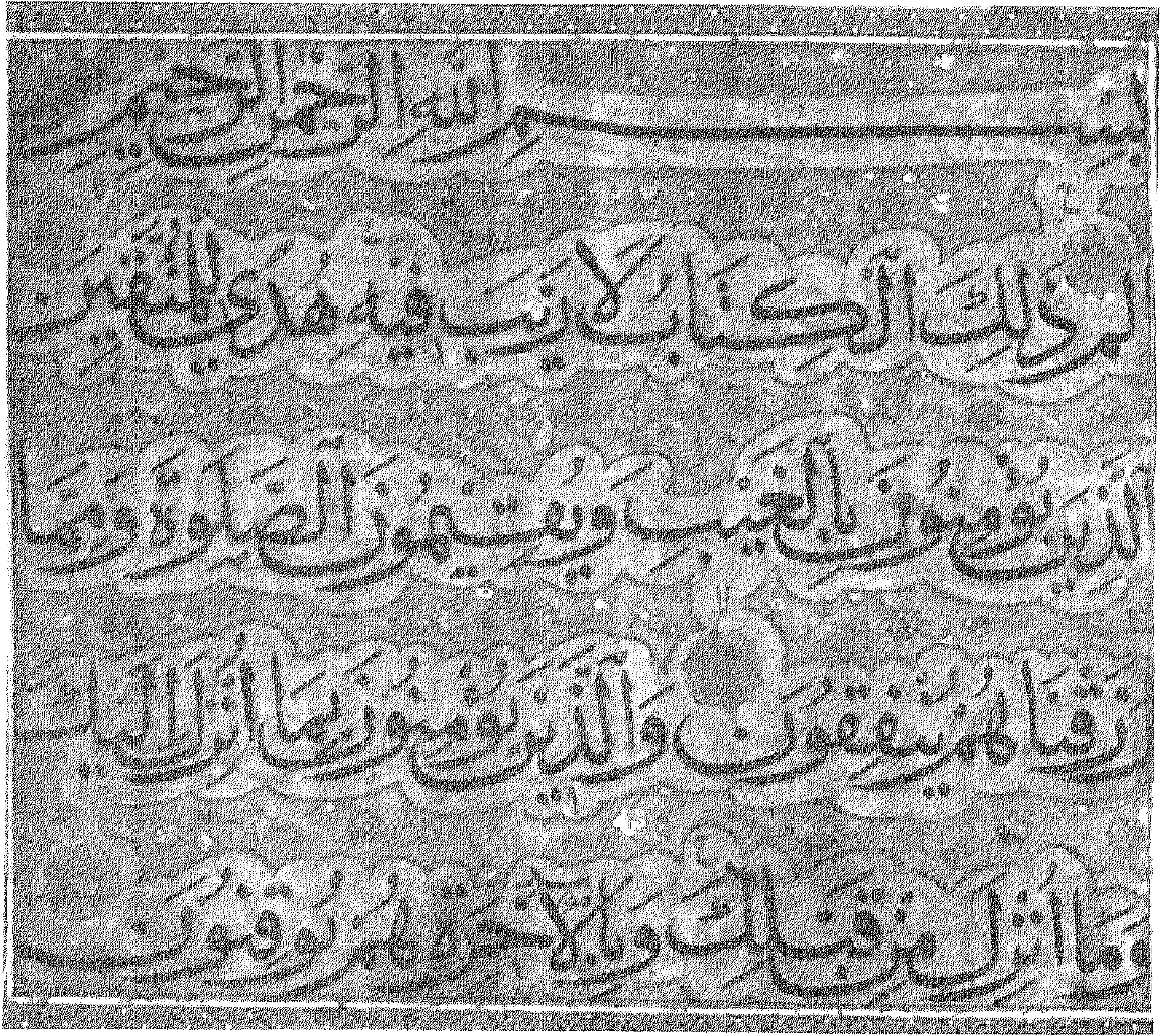
دور بارز للخط في العصر الحديث

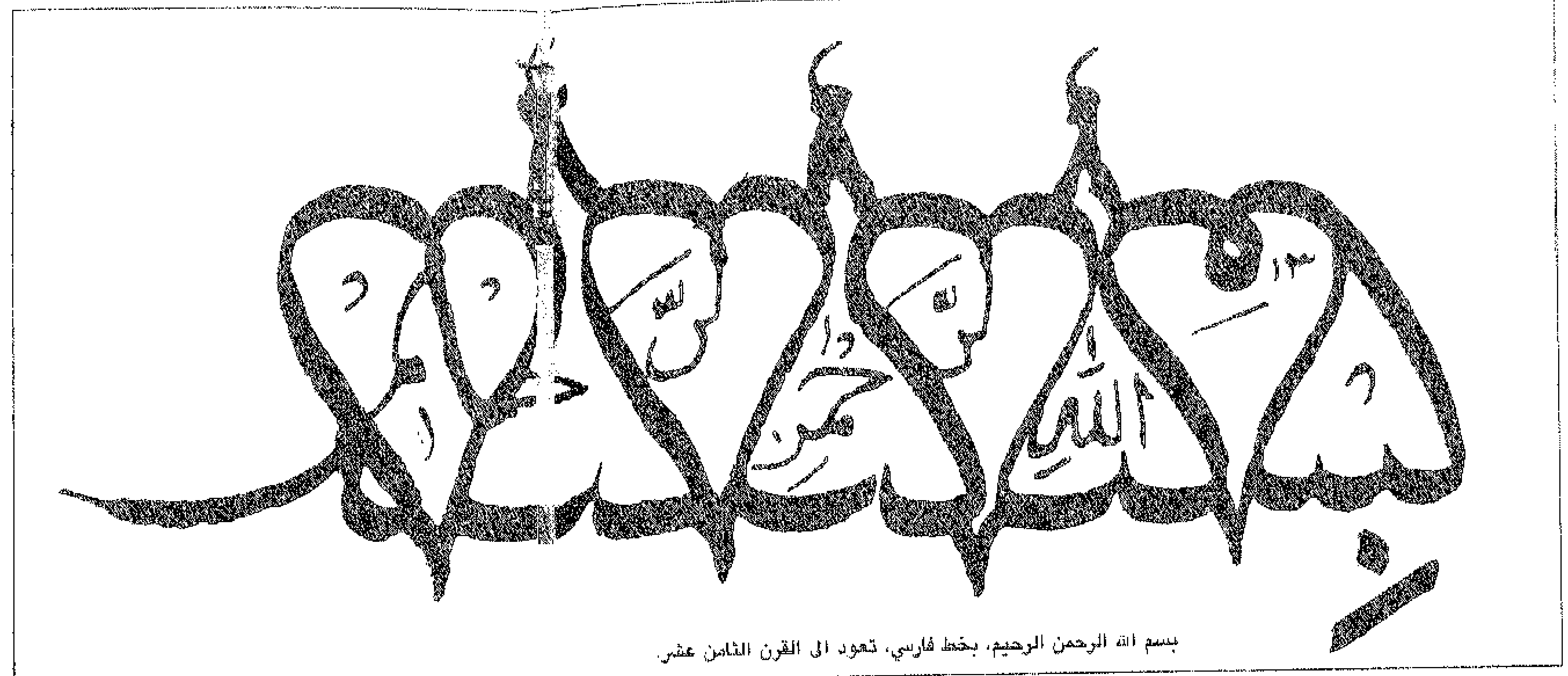
وفي الستينات بدأ فنانونا التشكيليون يقومون بدور قومي فعال عن طريق استخدام مفهـوم عصري في تشكيل الخط العربي كفن من الفنون الجميلة الراقية التي ترهف الحس، وتربي الذوق وتغري بالجمـال، شأنـه في ذلك شأن الرسم والنقش والحفر والتصوير.

وأسلوب الكتابة العربية هو الذي ساعد على ذلك فأمكن للفنان أن يحور بحرية شبه كاملة في تركيب وتشكيل الحرف العربي بحيث لا يضر ذلك بمفهوم اللفظ.

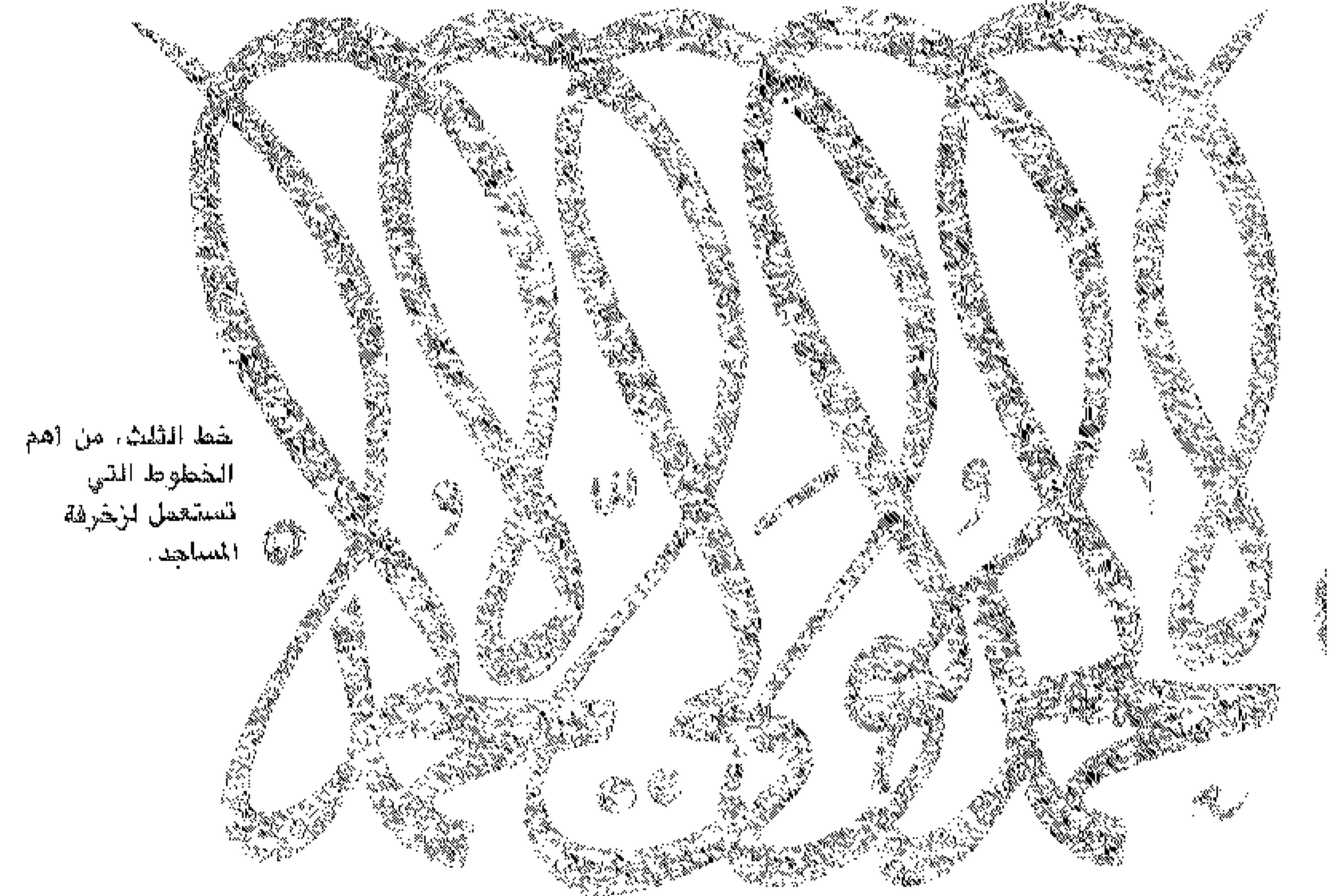
ومن هـذه الحريـة والحركـة والتشكيل تم

صفحة من القرآن الكريم «بخط النسخ»، وسمي كذلك لأن الكتاب كانوا ينسخون به المصاحف.

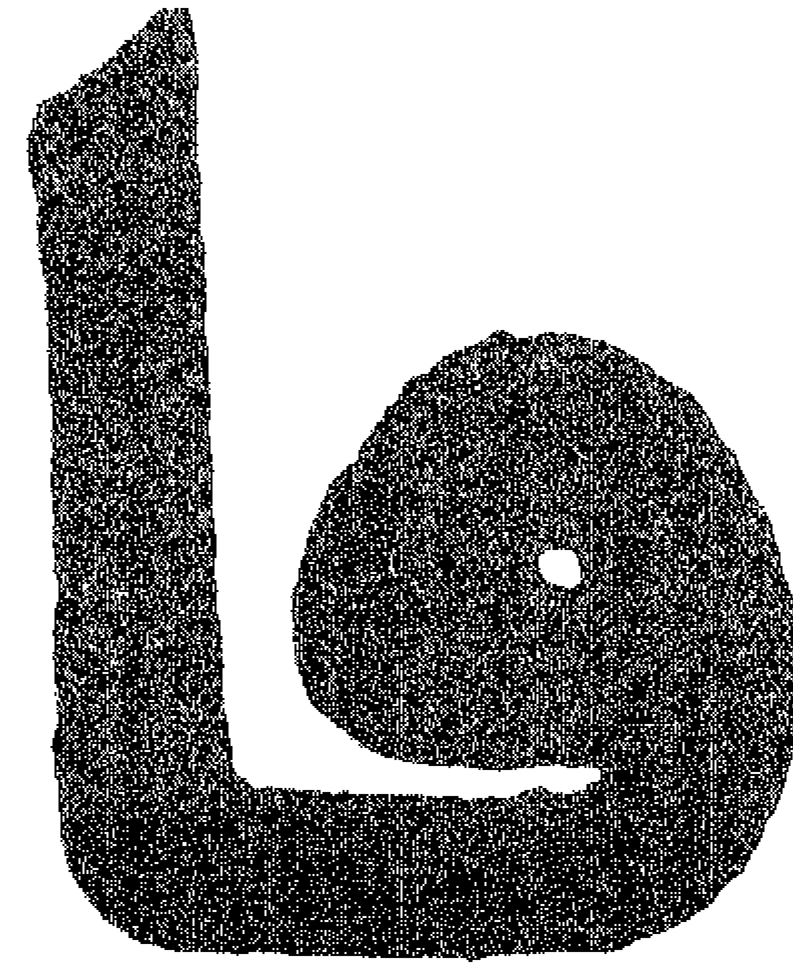




بسم الله الرحمن الرحيم، بخط فارسي، تعود الى القرن الثامن عشر.



خط الثلث، من أهم الخطوط التي تستعمل لزخرفة المساجد.



«الفاء» خط كوفي

استخدام الكتابة العربية باعتبارها لغة أعلى بكثير من لغة التفاهم اليومية بمعنى أنه تم استخدامها باعتبارها لغة للفن.

وهؤلاء الفنانون المبدعون حملوا على عاتقهم بوادر هذا الميراث، فقد تربع د. يوسف سيدة على رأس الحركة التجريدية عن طريق استعماله للكتابة العربية، واشترك معه في هذا فنانون آخرون مثل رمزي مصطفى، وعمر النجدي، وفي منتصف الستينات ظهر تيار آخر يمثل ما يسمى بمدرسة السيكوديلك (Sicodelic) ومن فناني هذه المدرسة الفنان أحمد فؤاد سليم. وتعنى هذه المدرسة باسقاط المشاعر الداخلية والنفسية، فوق الأشكال والحروف، وجعلها تمثل مع الشكل بعدا زمنيا.

وفن الكتابة من حيث استخدامه كفن تشكيلي أخذ طريقه في معظم بلدان الشرق الأوسط الناطقة باللغة العربية خاصة في ايران والعراق ولبنان وتركيا والجزائر وتونس والمغرب بحيث أن هذا الاتجاه القومي في الفن أخذ يشق طريقه بقوة جارفة، وبحيث استطاع أن يتسابق بكفاءة شديدة أمام مدارس الفن العالمية.

* * *

ان الخط العربي، هذا التراث العظيم الذي كتب به القرآن الكريم، والذي أولته الأمة العربية منذ القدم هذه العناية، فجعلت منه فنا دقيقا مفصل القواعد، ثابت الأسس، مقرر الضوابط، يحتاج منا الى اهتمام شديد وعناية فائقة، فلا بد من تدريسه بالمدارس كما كان متبعا في الماضي من خلال كراسات الخط التي كانت تعد لذلك، والتوسع في مدارس تحسين الخطوط، وضرورة اعطاء من يمارس كتابة الخط على أسس علمية راسخة اجازة تثبت أحقيته لممارسة عمله كخطاط حتى لا ينقرض الجيل الذي حفظ للخط مكانته، وحافظ على قواعده، وجود وحسن فيه. كما أؤكد على ضرورة اقامة المعارض والمسابقات الفنية لكبار الفنانين المهتمين بالخط العربي حتى يظل هذا الفن الرائع محتفظا بأصالته متجددا طالما أن الأمة مزدهرة فنونها، رائدة في الحفاظ على تراثها الحضاري الذي يعتبر الدعامة الأصيلة للتقدم الثقافي والفكري. ●

المحتسب في العصر العباسي

كتابة : كارولين ستون
ورسوم : بني ولياماس
ترجمة : "تاريخ العرب والعالم"



الموظف الحكومي والمراقبة



يتأفف الكثيرون من موظف ضرائب أو مفتش صحي أو مراقب عام أو أي موظف حكومي يضع الحد الفاصل بين المسموح والممنوع: يتأفف هؤلاء ويترحمون على أيام زمان حيث لا مراقب ولا محاسب، فيخطئون، فالموظف الحكومي عاصر الحياة المدنية منذ بدئها في دلتا النيل وضفاف الرافدين وأنهار الصين الكبيرة وكان يتدخل باسم الحكومة في أعمال المواطنين النزيه منهم وغير النزيه، بدءاً بالمقاييس والأوزان مروراً بالنظافة والصحة وصولاً إلى الضرائب وغيرها: فمن أراد العيش في مجتمع مدني مكتظ عليه تحمل الموظف الحكومي.

لم يحد العرب عن هذه القاعدة، بل تمكنوا خلال العصر الذهبي للاسلام، أي حوالي سنة ١٠٠٠م، من رفع الحياة المدنية إلى أعلى درجات الرقي، فشملت من ضمن ما شملت موظفاً واسع الصلاحية مسؤولاً عن تأمين الانضباط بكل أنواعه داخل المجتمع... هذا الموظف هو المحتسب. ومن الخطأ ربط مهمته بالتفتيش عن المقاييس والأوزان فقط لأن مهمته كانت أوسع من هذا بكثير.

نعرف الكثير عن أعمال المحتسب من خلال الكتب التي عاشت وبقيت في اسبانيا الاسلامية فسطرت الكثير عن أعمال الموظفين خلال عدة قرون. كان المحتسب مسؤولاً بالدرجة الأولى عن ضبط المقاييس والأوزان المستخدمة، إلى جانب مسؤوليته عن ضبط كل المقاييس العامة والاجتماعية وصولاً الى التصرفات الاجتماعية نفسها، ومحاطاً بفريق من المفتشين والمراقبين الذين كانوا يراقبون كل الدكاكين ويسجلون المخالفات.

مهمات المحتسب وأشكال المراقبة

ومن أصعب مهمات المحتسب آنذاك المراقبة الصحية العامة إذ كانت أصعب وادق من مجرد مراقبة الأوزان فهي معركة مستمرة لابقاء الشوارع نظيفة في الأجزاء المهمة من المدينة على الأقل الى جانب تنظيم عملية التخلص من النفايات.

ان أهمية النظام في الطعام والشراب لمنع تسرب وانتقال الأمراض كان معروفا جدا عند علماء الاسلام مما زاد القيود والشروط حول بيع وشراء الطعام والشراب وبالتالي زاد من أهمية هذا الجزء من نشاط المحتسب.

نبدأ باللحام فعليه أن يقوم بذبح الحيوان في المسلخ العام وتحت اشراف المحتسب، وعليه فصل لحم العجل عن لحم الماعز الذي يؤشر عليه بعلامة صفراء، ويبقى الذنب على الذبيحة حتى بيعها كلها وذلك للمساعدة في تحديد نوع اللحم المباع. وبالطبع كان بيع لحم الحيوانات المريضة للمطابخ ممنوعاً، فاللحم القديم يعلق خارج الملحمة ولا يخلط باللحم الطازج. وفي نهاية كل نهار على اللحام أن يرش الذبائح بالملح ويغطيها بسعف النخيل.

«وبائع السمك كان عليه غسل سلاله وأدواته وتمليحها يوميا وتجفيف أو تمليح السمك غير المباع شرط استمرار جودته، وإلا فعليهم رميها في مجمع نفايات خاص خارج المدينة. وكان تحضير السمك وغيرها من المهن «غير النظيفة» كالصبغ والدهن يجري في مناطق خاصة بكل منها.

واستكمالاً لمهمته كان المحتسب يراقب مجالس وبيوت الطعام فيأمر بطلي المقالي والطناجر النحاسية أو تغييرها كلياً إلى جانب تغطيتها مع أواني الطعام لمنع اقتراب الذباب والحشرات التي كانت معروفة كناقلة للأمراض وخاصة في ايران حيث حدد ذباب المنزل كمسؤول عن نشر الأمراض وذلك قبل ١٠٠٠ سنة.

بعد المطاعم كان المحتسب ومساعدوه يراقبون الأفران من ناحية النظافة الداخلية واتباع الشروط الصحية ونوعية الطحين المستعمل «وقد وصلت سطوة المحتسب في الأيام العباسية الأخيرة ان كان قادراً على إعدام أي شخص يكرر القيام بأعمال مضرة للمجتمع.

لم ينس المجتمع العربي الاسلامي وبالتالي المحتسب دور الماء والحليب في نقل الأمراض ونشرها. ففي بغداد كان الماء يقسم إلى نوعين الأول وهو الأفضل يؤخذ من الآبار والثاني وهو الأقل نظافة ويؤخذ من النهر. كان الماء الأفضل



يباع في جرار كبيرة توضع حول المدينة وتغطى بسعف النخيل أو غطاء ذي مسامات ويمنع منعاً باتاً الشرب مباشرة من الجرار الكبيرة، أو وضع اليد فيها بل يسكب الماء في جرار صغيرة يجلبها الشـارون. ويجب تحمية هـذه الجرار يـومياً وتغسيلها للمحافظة عليها. ويحق للمحتسب في حال مخالفة بائع الماء رمي الماء ارضاً أو اغلاق الدكان.

أما ماء النهر فكان أقل ضمانة من ماء الآبار. ولمنع التلوث الزائد قام الخليفة المقتدي في القرن الحادي عشر بمنع المسؤولين عن الحمامـات الشعبية من جر المياه الوسخة الى النهر بل الى آبار تجميع خاصة، وجرى العمل أيضاً على منع رمي النفايات في الفرات. كانت مياه النهر تباع في أدلية أو قرب جلديـة وخوفـاً من إذابة مـادة الصبـاغ الجلدية في المـاء المباع للاستهـلاك الشخصي أصر المحتسب على ضرورة استعمال هذه القرب في أعمال البناء أولاً حتى يخف خطر هذه المواد.

لم تنج الحمامات الشعبية من رقابة المحتسب فعلى الماء ان يكون نظيفاً ومنعشاً والبلاط نظيفاً ومغسـولاً الى جانب منـع غسل أي مـلابس أو أغراض ذات روائح كريهة، ويمنع المصابون بالأمراض الجلدية كالجرب والجذام من دخول هذه الحمامات. وكان على كل حمام شعبي أن يضع جرة كبيرة تحتوي على ماء خاص للشرب.

أما بيع الحليب فكان أكثر تحـديداً، فمن نظافة وتغطية الأوعية الى نظافة أماكن الحلب والتجميع إلى نوعية الحليب نفسه. فقـد منع تخفيف أو أخذ الزبدة من الحليب أو غشه بأي شكل كان وكانت تجري عدة اختبارات للتأكد من ذلك.

مراقبة الأطباء وبائعي الأدوية

«وحتى يكتمـل العقد تـوسعت صلاحيـات المحتسب من مراقبة أوجه الصحة العامة الى مراقبة الأطباء وبائعي الأدوية وكل مـا يتعلق بصحة المواطن الشخصية. قبل عام ٩٣١م كان يحق لأي كـان أن يمارس أيـة مهنـة طبيـة أو صحية يريد دون قيد أو اشتراط حتى كانت وفاة أحد أفراد حاشية الخليفة المقتدي نتيجة خطأ ارتكبه أحد الأطباء فأمر عندئذ بوجوب

امتحان المحتسب لكل من يدعي مهنة الطب واجازة الناجحين منهم فقط. وكان أن أجيز ٨٦٠ طبيباً في بغداد وحدها تلك السنة، وصار على كل من يريد أن يمارس هذه المهن أن يتقدم الى امتحان خاص. وكان طبيب العيون تحت مراقبة شديدة خاصة في مجال عمليات العين كازالة الماء الزرقاء.

لم تنجح هذه الاجراءات كثيراً وذلك لتعلق الناس أنفسهم بالكثير من المشعوذين وغير المتخصصين لايمانهم بهم من ناحية وعدم تمكنهم من دفع أجور الطبيب خاصة وان عدد الأطباء المجانين كان محدوداً.

راقب المحتسب أدوات الطبيب فكان يتأكد من وجود كافة أقسام العدة ويتأكد ايضا من نوعية المعدن المصنوعة منها، خاصة ان الحرفيين أيضاً كانوا تحت القسم بأن لا يستعملوا مواد غير صحية أو طرقا صناعية سيئة لصنع هذه الأدوات. وراقب المحتسب العطار (بائع الأدوية) فمنع غش وخلط الأدوية الغالية بالرخيصة وكان عقاب المخالفة شديداً خاصة ان المحتسب كان يظهر ساعة يشاء ليلاً أو نهاراً للتأكد من نظافة وترتيب الأدوية والجرار التي تحتويها.

واستمرت أعمال المحتسب الكثيرة عبر السنين فتشعبت وتوسعت مع تقدم المدينة ولم يخسر المحتسب من مهماته إلا مراقبة الأطباء المجازين وهم يقسمون قسم ابقراط. فهذا القسم قد وصل قبل بدء المهنة الطبية ويرجع بعيداً الى أيام اليونان والهند وايران القديمة، ومع العباسيين وأمام المحتسب أقسم الأطباء الى جانب أشياء كثيرة على عدم استعمال التخديرات أو السموم في الأدوية، وعدم استغلال ثقة المريض العمياء بطبيبه والتزام حدود الأخلاق مع المريضات». وما زالت أكثر أجزاء هذا القسم تتكرر على ألسنة الأطباء المجازين في كل أنحاء العالم باستثناء عدم وجود المحتسب الذي نعم بهذه المهمة في العصر الذهبي العباسي. ●



العربي وفرسه

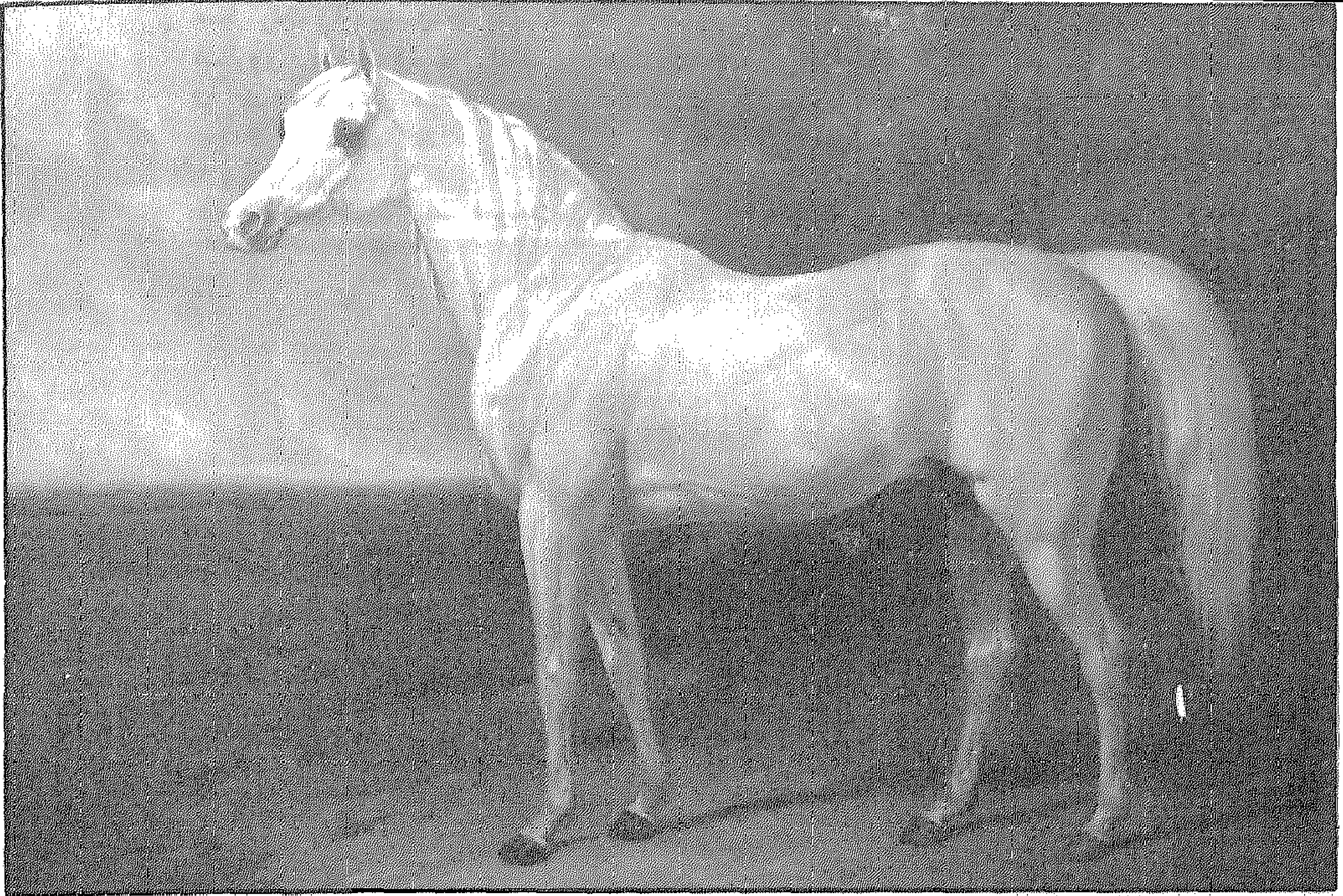
هلموت فون مولتكه

ما زلت ارميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة، اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

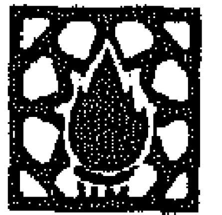
«عنترة بن شداد (المعلقة)»

صيد الأسد لـ ا.ج.هـ. فيرنيت (١٧٨٩ ــ ١٨٦٣) لوحة زيتية في مجموعة الوالس. كوليكش، لندن.





ولما عرض الله الخلق على آدم عليه السلام وسماهم قال الله تعالى: يا آدم اختر من خلقي ما احببت فاختار الفرس. فاوحى الله اليه اخترت عزك وعز ولدك باقيا فيهم ما بقوا ابداً وبركتي عليك وعليهم.
«من مخطوطة (كتاب الفروسية وشيات الخيل) لابو يوسف يعقوب».
ادونيس لـ ا.كوبر (١٧٨٧ ـ ١٨٦٨) لوحة زيتية في مجموعة خاصة.



كادت الصفقة أن تتم، فقد أعجب الباشا بالفرس، واستغرق التفاوض مع القبيلة العربية زمناً، وأخيراً اتفق الطرفان على الثمن وحدداه بمبلغ ستين كيساً، أي بنحو ستمائة مارك.

وفي الموعد المتفق عليه أقبل شيخ القبيلة الى قصر باشا «ماردين» ومعه الفرس. ولكن الباشا التركي راوده الأمل في تخفيض الثمن، فها قد حضر اليه العربي، وما عليه غير أن ينتقص من قيمة الفرس وأن يثور ويزبد إن اقتضى الأمر. ولكن الشيخ العربي رفض في انفة شديدة أن يتنازل عن فلس واحد. فما كان من الباشا التركي إلا أن ألقى اليه الثمن في غضب وهو يصيح بأن العربي يسلبه ماله ويعطيه مقابلاً أقل قيمة.

نظر اليه الشيخ العربي في هدوء دون أن ينبس. ثم جمع الأكياس ووضعها في عباءته البيضاء التي يلتحفها. ونزل الأدراج الى الحوش لكي يودع فرسه. واقترب منه وغمغم اليه بكلمات في أذنه ومسح بيده على عينيه وجبهته. ثم فحص حوافره، وسار بخطوات وئيدة حوله. ثم فجأة قبل أن يدرك اتباع الباشا ما حدث، قفز على ظهر الفرس العاري واندفع به الى الخارج.

من المعتاد في الشرق أن تظل الجياد مطقمة ليل نهار، أي تحمل سرجاً من اللباد ليل نهار، ومن المعتاد أن توجد في إسطبلات كبار القوم بعض الجياد المجهزة المعدة للامتطاء في جميع الأوقات. هذا على خلاف عرب البادية الذين لا يجهزون جيادهم بمقود أو زمام، حيث يكتفون بغمز الجياد لايقافها، وبتوجيهها الى اليمين والى اليسار بضربات خفيفة براحة الكف على الأعناق.

ومن ثم فلم يطل الأمر، إذ انطلق اغوات الباشا فوق الجياد يطاردون العربي الهارب. كادوا أول الأمر أن يلحقوا به، ففرس العربي

ليس ذا دربة على العدو فوق الأرض المبطن بالحجر. وكان على الفرس أولا أن يقطع الطريق المؤدي من قصر الباشا الى نهاية المكان. ولكن ما كاد فرس العربي أن يجتاز هذا العائق حتى اندفع مجنحاً كأنه يسبح بين الرمال والهواء. وما من عائق يعوقه. ولكن ما كان بود العربي ان يختفي عن أعين مطارديه وانما أن يظل قريبا منهم بعيدا عنهم، أن يراودهم ويقعدهم في نفس الآن. فها هم كل لحظة يأملون اللحاق به ولكن هيهات. والأغرب أن العربي لا يجهد نفسه أو فرسه، وانما يتمهل حيناً ويسرع حيناً آخر.

استمرت المطاردة على نفس المنوال حتى هبط قرص الشمس من علاه وانسحب ماضياً في دورته حتى كاد يغيب عن الأنظار. وغامت الدنيا في أجواء الغسق. في هذه اللحظة اندفع العربي



روي عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها واكفالها وقلدوها ولا تقلدوها الأوتار. وعليكم بكل كميت اغر محجل او اشقر اغر محجل او أدهم اغر محجل.

(حديث شريف)

قطعة سيراميك إسلامية في مجموعة خاصة.



قال ابن رشيق... وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد. او شاعر ينبغ فيهم او فرس تنتج.
(من كتاب «العمدة» القرن الحادي عشر)
خيمة عربية للسير ادوين لاندسير (١٨٠٢ ــ ١٨٧٣) لوحة زيتية في مجموعة الوالس. كوليكشن، لندن.

بفرسه وكأنه يودع مطارديه مخلفاً وراءه زوبعة من التراب.

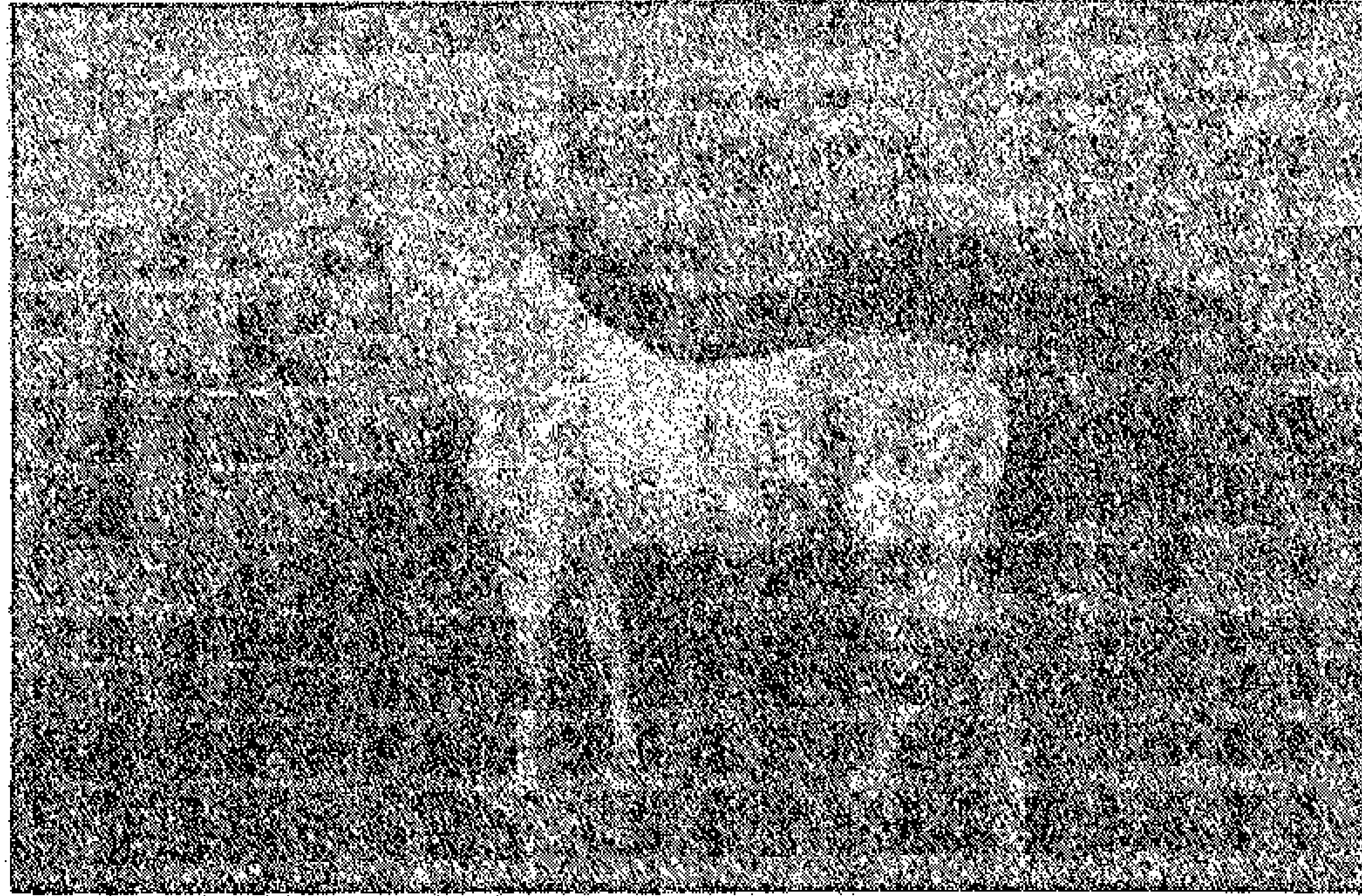
لا يدوم الشفق في الشرق إلا فترة وجيزة، وسرعان ما اختفى العربي وفرسه وهبط الظلام.

كانت قد مضت ساعات طوال على الأغوات الأتراك في تلك المطاردة الغريبة، وها هم بعد نهار كامل يقفون في منتصف الصحراء دون زاد أو ماء. فما كان لهم غير أن يكروا عائدين، ليعلموا سيدهم التركي بخيبتهم، وبأنه فقد الفرس والمال. عاد الأغوات في الليلة الثالثة، وقد كاد الجوع والعطش أن يقضيا عليهم وعلى جيادهم، ولعلهم كانوا سعداء بأنهم لم يقضوا نحبهم، ولكنهم عادوا أيضاً بغضبهم وحنقهم على



قال النبي، صلى الله عليه وسلم: عليكم بإناث الخيل فإن بطونها كنز، وظهورها حرز، واصحابها معانون عليها.
(حديث شريف)

لوحة مائية لهاريتغتون بيرد (١٨٧٠ ــ ١٨٩٣) في مجموعة خاصة.



سكون غريب يكمن في عين الحصان، كانه ينظر وبرود متعمد... انها نظرة من أعماق الحلم...
«هنس ــ هنريش ازينبارت»
حصان عربي لـ ا. كوبر (١٧٨٧ ــ ١٨٦٨) لوحة زيتية في مجموعة خاصة.

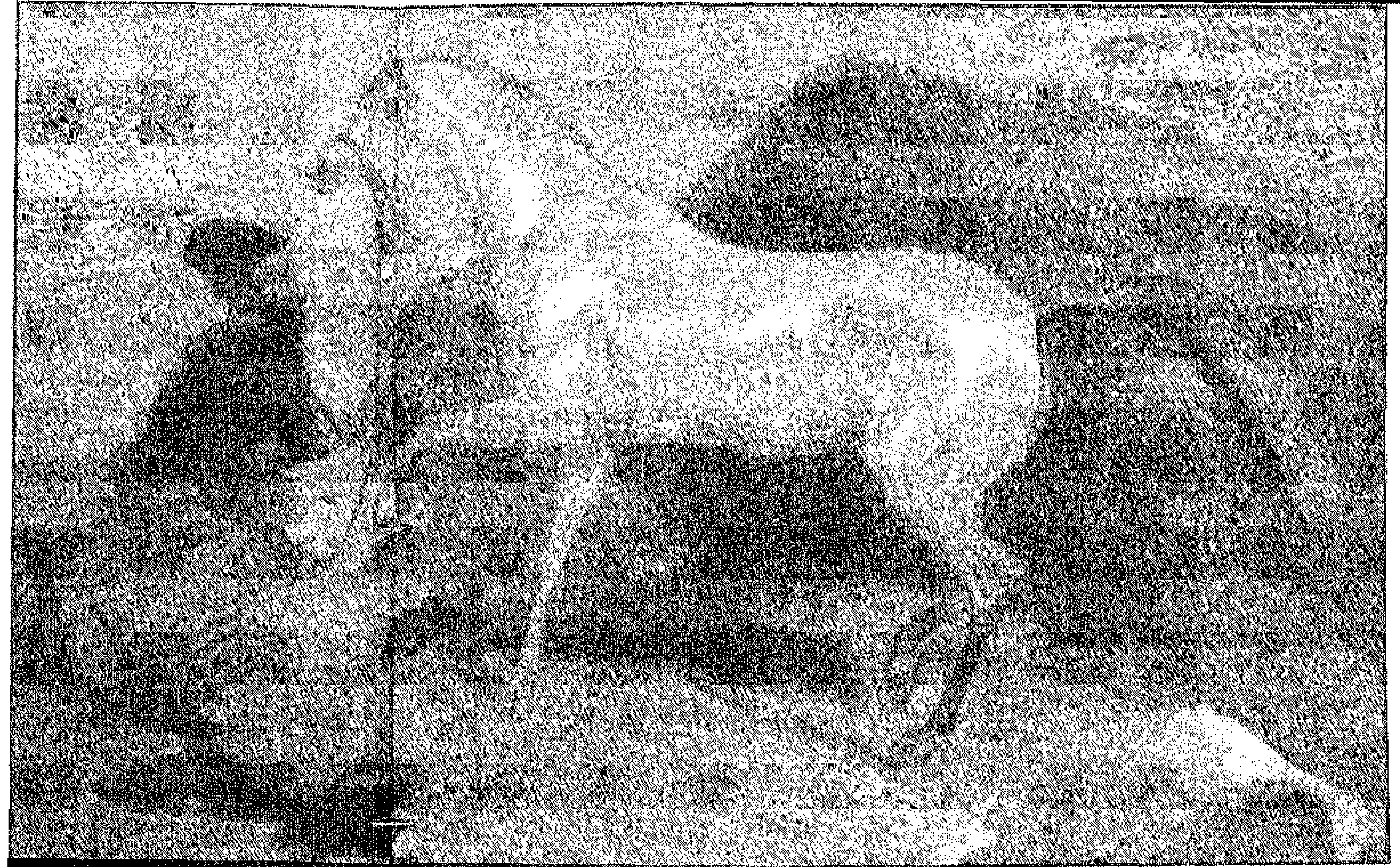
ذلك العربي الذي غدر بهم، وإن اعترفوا فيما بينهم بأن فرسه بلا ثمن وأن الباشا قد أخطأ في التهوين من شأنه.

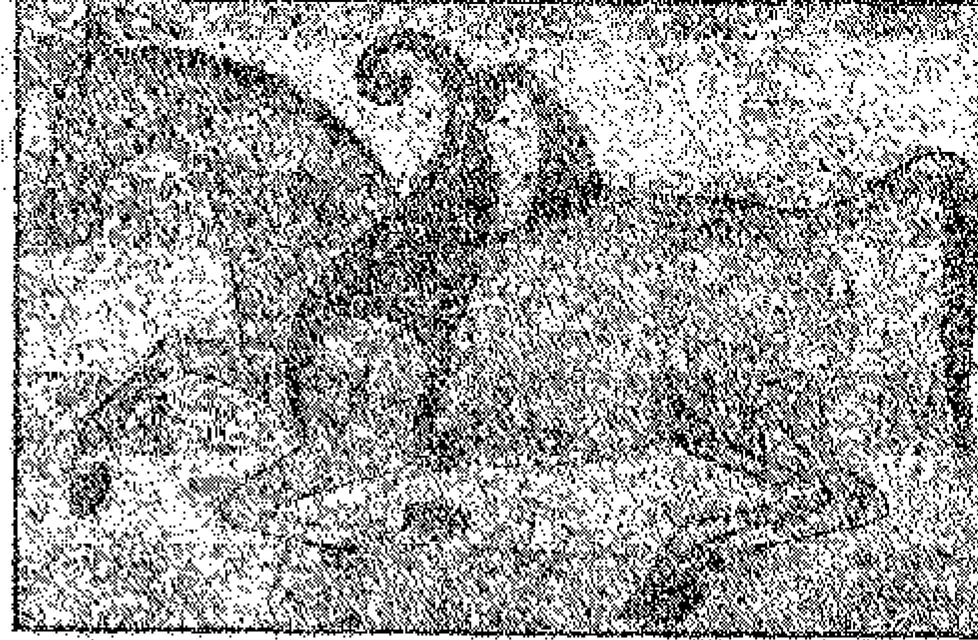
في صباح اليوم التالي بعد أن أذن المؤذن لصلاة الفجر سمع الباشا صوتاً يناديه، ثم سمع صهيل جواد في الحوش. فأطل من طاقة فرأى العربي والفرس. ثم سمع الشيخ العربي يناديه ويسأله: «يا سيد أتريد نقودك أم تريد الفرس؟».

الصور مأخوذة من روزنامة «الحصان العربي» عام ١٩٨٢م ١٤٠٢هـ التي صدرت عن شركة «مدماك»

وقد اغتدى والطير في وكناتها ... بمنجرد، قيد الأوابد، هيكل
مكر، مفر، مقبل، مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنه ... كما زلت الصفراء بالمتنزل
له أيطلا ظبي وساقا نعامة ... وارخاء سرحان وتقريب تنفل
«امرؤ القيس»

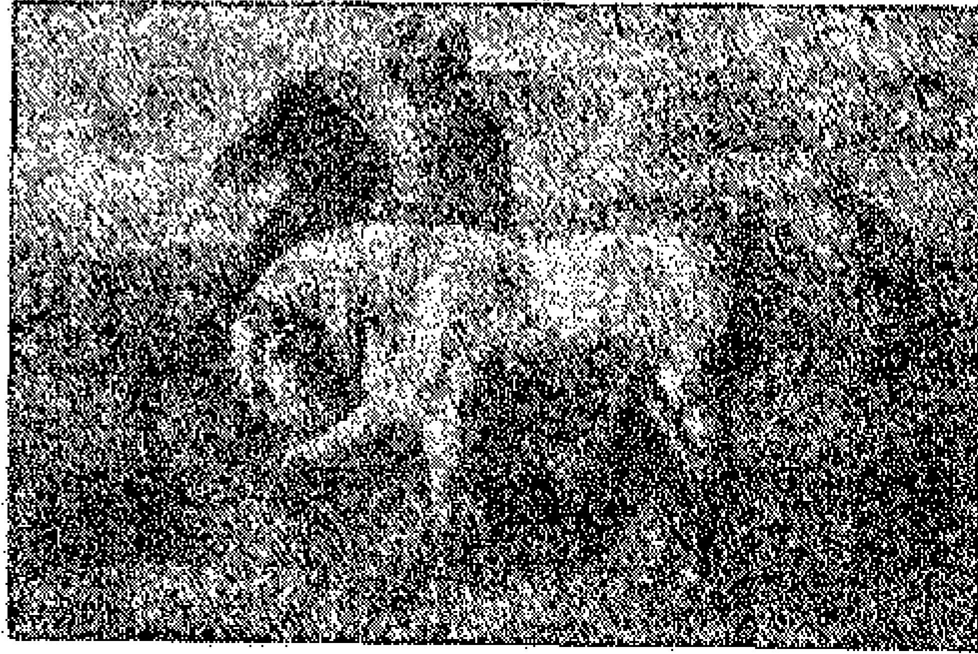
حصان عربي مع مرافق تركي للسير أدوين لاندسير (١٨٠٢ ــ ١٨٧٣) لوحة زيتية عائدة لصالة عرض أوين ــ ادغار ــ لندن.



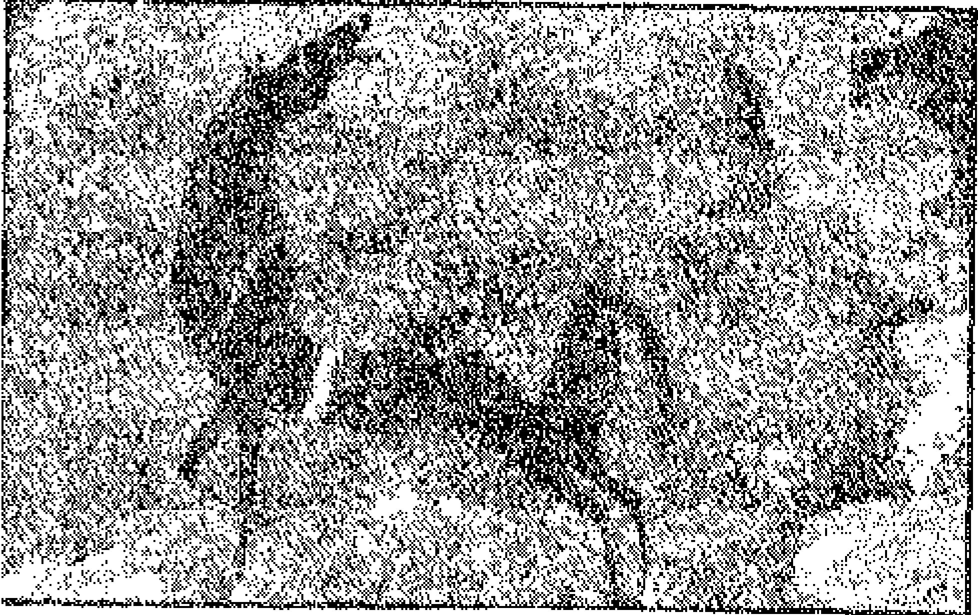


روى التغلبي: لما أراد الله تعالى ان يخلق الخيل قال للريح الجنوب اني خالق منك خلقا اجعله عزا لأوليائي ومذلة على أعدائي وجمالا لأهل طاعتي. فقبض منها قبضة فخلق فرساً. فقال اني خلقتك وجعلت الخير معقود بناصيتك والغنايم مجموعة على ظهرك، عطفت عليك صاحبك وجعلتك تطير بلا جناح.

الفرس عن مخطوطة عجائب المخلوقات للقزويني.
(العراق، أواخر القرن السابع عشر)
محفوظات المكتبة البريطانية ـ لندن.



الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة وأهلها معانون عليها والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة. (حديث شريف)
عربي وخيول ــ ج. ج. بفور (١٧٤٥ ــ ١٧٩٨) لوحة زيتية على القماش



أعز مكان في الدنى سرج سابح ... وخير جليس في الزمان كتاب «المتنبي»

الحصان في مخطوطة إسلامية في القرن السادس عشر. محفوظات المكتبة البريطانية ــ لندن.

أقوى حركة شعبيّة بيروتيّة

من ذكرياتي عن الانتداب الفرنسي على لبنان

مُقاطعة الكهرباء والترامواي سنة ١٩٣١

جان سرور



ويظهر جلوسا من اليمين: عمر الداعوق، المسيو بيرار رئيس مجلس ادارة «شركة الجر والتنوير» الشيخ محمد الجسر، المسيو فاسلين مندوب المفوضية الفرنسية. وقوفا من اليمين: اسكندر البستاني فؤاد حبيش، الشيخ خليل الخازن قائد الدرك، موسى مبارك، خليل تقي الدين والنواب جورج يعقوب، الامير خالد شهاب، ابراهيم حيدر، وديع نعيم، الدكتور حليم قدورة ثم اسكندر الرياشي وجميل بيهم وشارل تيان. □ عن مجلة «المعرض» ٢٦ نيسان ١٩٣١



ومع حلول الثلاثينات أخذت الشكوى تتزايد من شتى اوساط الشعب اللبناني حتى تنبه الانتداب للامر واخذ يحسب لنقمته ألف حساب ويرتاب في كل تحرك شعبي حتى ولو كان طابعه اقتصادياً بحتاً، وهذا ما بدا واضحا كل الوضوح عندما طالب سكان العاصمة بيروت بتخفيض اسعار الكهرباء والتراموي فرفضت «شركة الجر والتنوير» تخفيض الاسعار اعلن البيروتيون من ثم مقاطعة الشركة وكان ذلك في شهر آذار ١٩٣١.

وكانت هذه المقاطعة اقوى حركة شعبية قام بها البيروتيون في نضالهم ضد الانتداب. فهبت المفوضية الفرنسية لافشال الحركة. فالقصد السياسي كان واضحا من خلال محاربة شركة

ان الانتداب الفرنسي على لبنان الذي نعم برضى فئة كبيرة من المواطنين في بداية عهده، لم يدم له هذا الرضى طويلا، لان من رغب فيه اول الامر اخذ يشعر بالخيبة مع مرور السنين وتزايد الممارسات التي كانت تصدر عن رجال الانتداب ابتداء من المفوض السامي الذي هو رأس الهرم نزولا الى مساعديه ووصولا الى المستشارين لدى الحكومة اللبنانية، في بيروت والمحافظات، والذين كان لهم الرأي النافذ في مختلف الشؤون.

الكهرباء. فأوعزت الى الحكومة اللبنانية بضرورة مساندة الشركة، وقيل في ذلك الحين ان وقفة المفوضية هذه نابعة من رغبتها في الدفاع عن مصالح الرأسماليين الفرنسيين المساهمين في الشركة البلجيكية الاصل. وقال بعض الناطقين بلسانها ان من واجبها الدفاع عن الرأسمال الاجنبي لان البلاد بحاجة الى مشاريع اقتصادية كبيرة تفتقر اليها مصلحة لبنان وتقضي بتشجيع الرساميل الاجنبية.

وكانت لجنة المقاطعة شعبية في تكوينها ليس للنزعات الحزبية اي اثر في توجيهها او عملها ولعله الاجدر بي أن أقول أنه في ذلك الزمن لم يكن للتيارات الحزبية أو النزعات الطائفية اي اثر في العمل العام. وكانت تتألف اللجنة من ذوي المصالح المتواضعة وأصحاب الدكاكين اذكر منهم الصيدلي محيي الدين المحمصاني، عبد القادر النويري فؤاد أبو راشد طانيوس واكد، جوزيف سمعان، وديع زخور، اميل عيراني، سليم العقاد، سليم فروخ، ميشال المعماري، جان صنبر، محمد قباني، جوزيف قسيس، عبد علامة، جورج وردية وغيرهم.

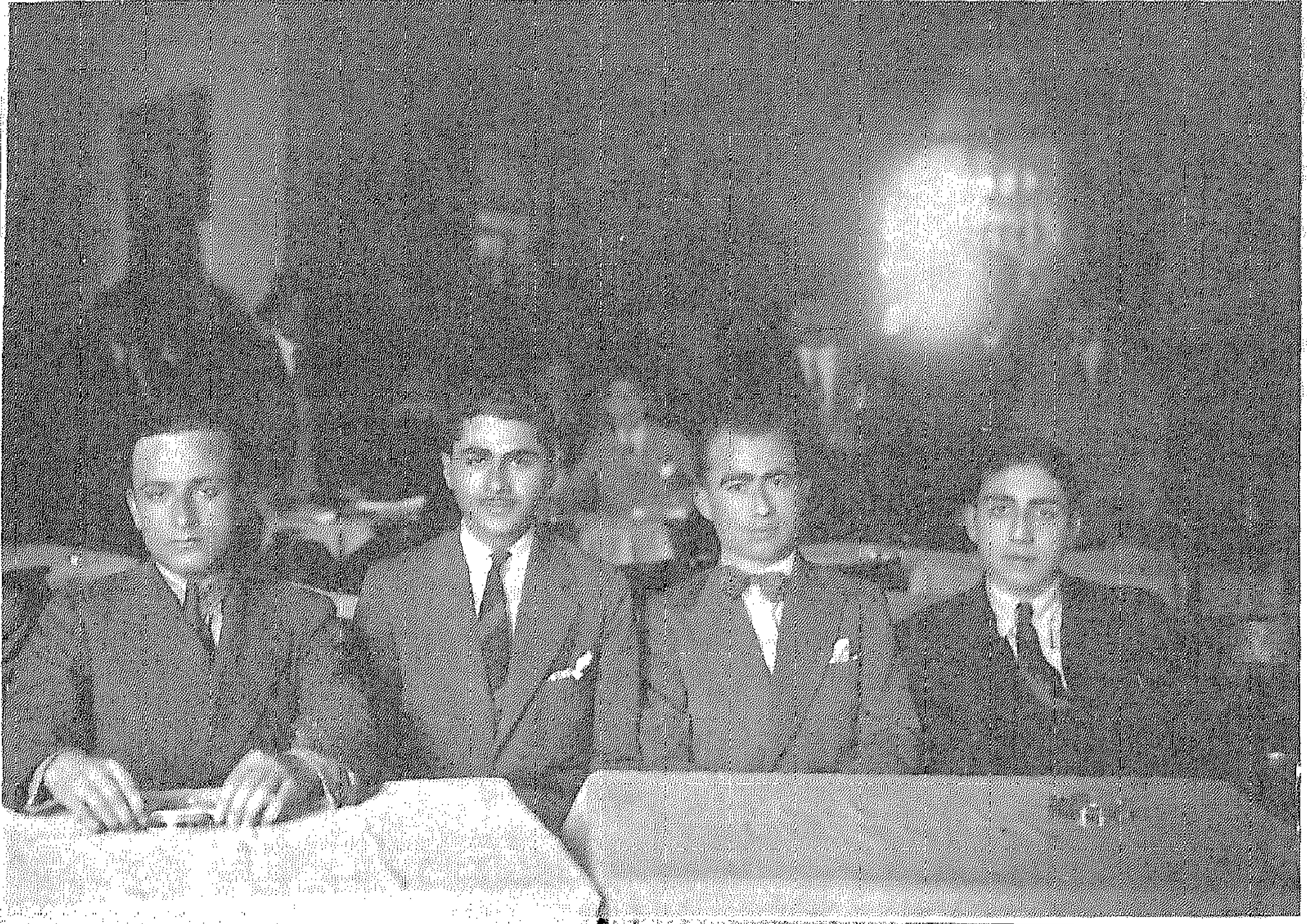
وكان الطلاب هم العصب الاساسي في هذه الحركة الشعبية ومثل الجامعية الاميركية في اللجنة جان اسطفان (فلسطيني) وابراهيم فتوحي (عراقي) ومثل الكلية العلمانية عماد الصلح وسعد الدين الغندور.

وعندما اعلنت اللجنة بدء المقاطعة لبى البيروتيون النداء بحماس شديد وانضباط متين رغم الحاجة الماسة الى الترامواي الذي كان واسطة الانتقال بين اطراف المدينة ومرافقها فاستعاض عنه الناس بالسيارات مع العلم ان خدمات «السرفيس» في السيارات كانت محدودة فتطور السرفيس منذ ذلك الوقت، كما لجأ الطلاب الى البسكلاتات وغيرها من وسائل النقل القديمة. اما في التنوير فقد اطفأ الناس قناديل الكهرباء في بيوتهم ومحلاتهم ومدارسهم واستعاضوا عنها بالشموع وقناديل الكاز بالرغم من بقاء التيار متصلا. فقد كان لاي ولد أو طفل في أي بيت ان يدير زر الكهرباء فينور البيت ولكن المقاطعة كانت تلقائية واجماعية. حتى موظفو الدولة انفسهم، وكانوا يعملون بعد الظهر في دوائرهم، التزموا بالمقاطعة.

تدخلات ووساطات

وجرت بعد تنفيذ المقاطعة مساعي ووساطات بين الشركة واللجنة، قام بها عدد من وجهاء البلد اذكر منهم عمر الداعوق، هنري فرعون، موسى نمور وكان وزيرا للداخلية، وكذلك لجنة وساطة مؤلفة من محمد جميل بيهم ووديع نعيم وغيرهما ولكن مساعيهم لم تسفر عن شيء. واخيرا تدخل الشيخ محمد الجسر وكان رئيسا لمجلس النواب فدعا لجنة المقاطعة الى مكتبه في سراي البرج، وحضر الاجتماع بالاضافة الى اعضاء اللجنة مندوب المفوضية الفرنسية ورئيس مجلس ادارة الشركة والنواب الامير خالد شهاب وعمر الداعوق والدكتور حليم قدورة وابراهيم حيدر وموسى مبارك وقائد الدرك الشيخ خليل الخازن، والشيخ خليل تقي الدين وغيرهم.. ومثل الطلبة في هذا الاجتماع عماد الصلح.

وتكلم الشيخ محمد الجسر وذكر الحلول والحد الادنى الذي توصلت اليه الشركة، فطال الجدل بين المجتمعين الى المساء فاضيئت

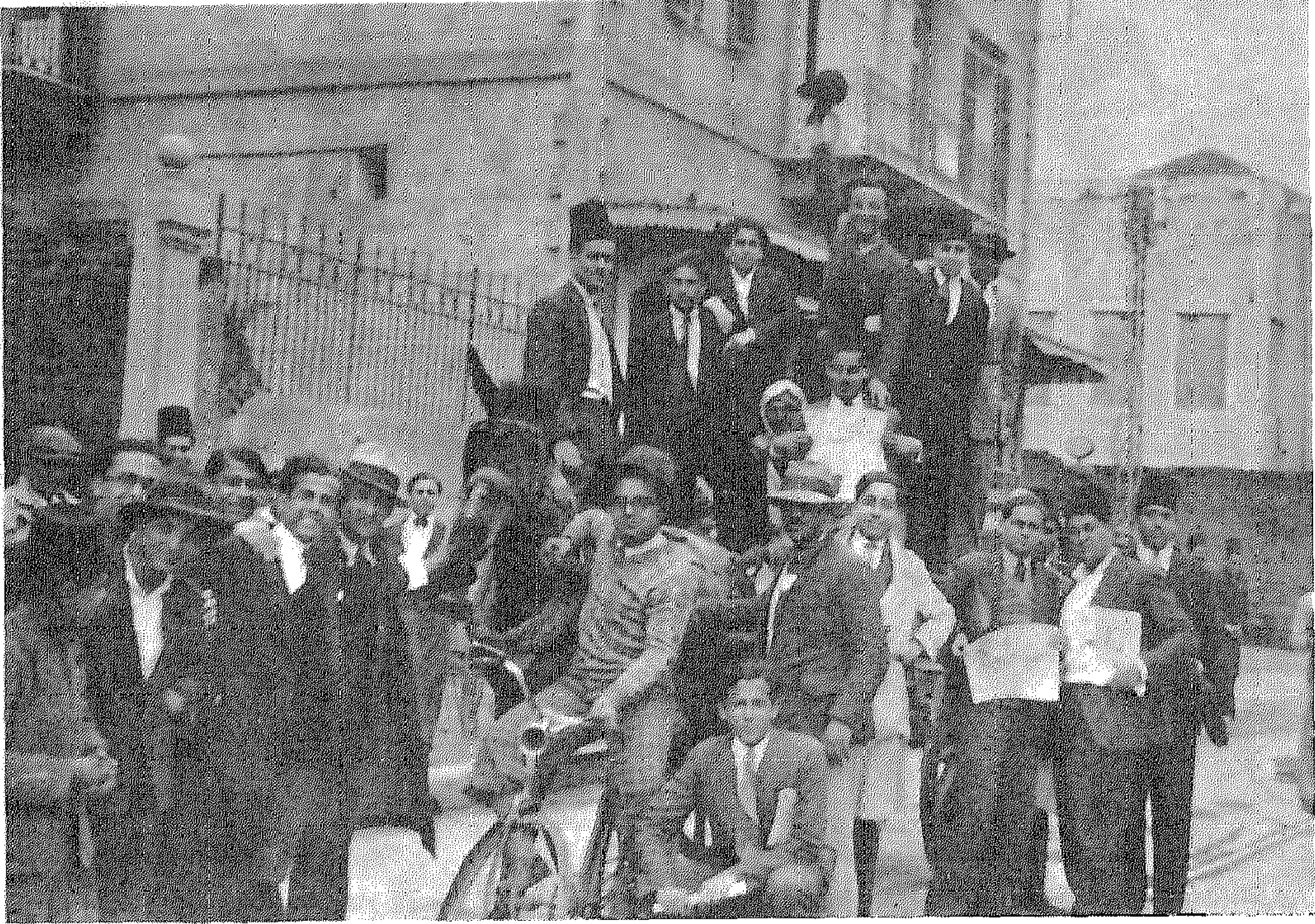


مندوبو الطلبة في لجنة المقاطعة من اليمين: سعد الدين الغندور (الكلية العلمانية) ابراهيم فتوحي (الجامعة الاميركية) جان اسطفان (الجامعة الاميركية) عماد الصلح (الكلية العلمانية).

الشموع وتباينت الآراء وظهر واضحا ان بعض اعضاء اللجنة قد لان وجرى «اقناعه» قبل الاجتماع. فاقترح مندوب الطلبة ان تجتمع اللجنة في مقرها في نادي النجار القريب من السراي لتتخذ الموقف المناسب. فانتقلت اللجنة الى النادي وهناك احتدم الجدل. وانقسم المجتمعون فكان المتصلبون هم مندوب الطلبة ومعه الاقلية في اللجنة من جهة والاكثرية التي «اقتنعت» من جهة اخرى وعندما احس ارباب الحكم في السراي ان كفة المتصلبين قد تتغلب جاء أحدهم خفية الى مكان ملاصق لمكان الاجتماع ومعه بيان بانهاء المقاطعة واخذ من ثم يجمع التواقيع الى ان حصل على تواقيع اكثرية الاعضاء ثم عاد مسرعا الى السراي فلما احس المعارضون ثارت ثائرتهم ونقل مندوب الطلبة الى رفاقه ان هناك خدعة. وما ان وصل مندوب السلطة الى السراي ومعه الورقة وهو يلوح بها حتى اضيئت السراي والمقاهي التي تدور في فلك السلطة وخرجت حافلات الترامواي على خطوطها المتشابكة في ساحة الشهداء واجراسها تدوي كأنها في مهرجان مرح وسرور بغية لفت النظر اليها، وانطلت الخدعة على الناس وبدأوا يضيئون الكهرباء فثار الطلاب وأخذوا يركضون في كل اتجاه واخذوا يصيحون: خدعة، خدعة، المقاطعة مستمرة. واذا بأنوار الكهرباء تعود فتنطفىء وتعود بيروت الى الشموع وقناديل الكاز والحافلات تنكفىء الى مرائبها.

حل اللجنة وتأليف لجنة جديدة

في هذه الاثناء كان مجلس جمعية التضامن الادبي يترقب من مكان آخر النتائج باهتمام وحذر، وما ان عرف بما حصل حتى بعث ببعض افراده للتفتيش عن اعضاء اللجنة المعارضين وعقدوا اجتماعا فوريا معهم واتفقوا فيه على تأليف لجنة جديدة معارضة للاتفاق الذي اعلن عنه وأصدروا بيانا مضاداً اعلنوا فيه عن



بعض طلاب الكلية العلمانية يركبون طنبرا في محطة الناصرة امام مدرستهم في اليوم الاول من اعلان المقاطعة. وظهر في الصورة سيارة من التي بدأ الناس يستعملونها في «السرفيس».

استمرار المقاطعة وكان تأليف اللجنة الجديدة على الشكل الآتي: ابراهيم حداد رئيسا، فؤاد عقل امينا للصندوق، الشيخ عبد الرحمن عبد الملك، يوسف سمعان، محمد القرى، طانيوس واكد، سعد الدين فروخ، سليم عقاد، اعضاء وعماد الصلح مندوبا عن الطلبة، واستقبل الجمهور بيان اللجنة الجديدة بحماس كلي. وتداركا لما يمكن ان يحصل بعد هذه النكسة للراغبين في انهاء المقاطعة تألفت لجنة ثانية برئاسة المحامي الشيخ عزيز الهائم رئيس حزب الاستقلال الجمهوري وهو الحزب الذي عرف في ما بعد بمناهضته الانتداب الفرنسي، ولجنة ثالثة برئاسة المهندس حبيب بستاني لتحل الواحدة مكان ما سبقها اذا اعتقلت وتألفت لجنة اسعاف لمساعدة من يقبض عليه من المقاطعين أو يحكم بالسجن والغرامات أو يتعرض لحادث صحي وتأمين حاجته من طعام ودخان وفتح باب التبرعات واعتمدت الصحف التالية النداء والبيرق والسيار لمناصرة اللجنة لنشر الاخبار الصادرة عنها. وكانت النداء اوسع الصحف اللبنانية انتشارا وأكثرها فاعلية في الناس وكان الناس ينتظرونها ليعرفوا اذا كان هناك اضراب ام لا وليعرفوا من هو المخلص في مناهضته الانتداب ومن هم المساير للسلطة والشركات وكان كاظم الصلح وتقي الدين الصلح هما أبرز كتابها. وقد اندفع الناس يتبرعون بسخاء وكان امين الصندوق ينشر يوميا لوائح التبرعات وأذكر بالمناسبة ان الحماس دفع بطالبين صغيرين الى كسر كل منهما (قجته) التي كان يجمع فيها النقود الصغيرة مساهمة منه في التبرع، اما التلميذان المتبرعان فكان احدهما نديم دمشقية الذي اصبح فيما بعد سفير للبنان في انكلترا والثاني رامز شحادة الذي أصبح من كبار التجار في المكسيك.

وأخذ بعض الشباب يطوفون الاحياء لمراقبة من يخالف مقاطعة الاضاءة وسلاحهم (النقيفة)



اعضاء لجنة المقاطعة امام السجن عندما افرج عنهم وهم من اليمين جلوسا: جوزيف سمعان، محمد القرى، ابراهيم الحداد، سليم العقاد وقوفا: عماد الصلح، سليم فروخ، عبد الرحمن عبد الملك احد وكلاء المعتقلين المحامي معضاد معضاد، طانيوس واكد، ميشال المعماري.

وهي آلة صغيرة من خشب ومطاط لرشق المخالفين بالحجارة.

وحدث في احدى الليالي ان رمى احدهم واجهة زجاج منزل سكنه الجنرال هانتزيجر قائد الجيوش الفرنسية في سوريا ولبنان فخرج هذا من بيته وبيده مسدس يفتش عمن حطم زجاجه، فالتقى الشاب الذي بدا وكأنه يمر امام المنزل لتوه وتظاهر بالاسف لما حصل ولما عاد الجنرال الى بيته رجع صاحبنا ليلتقط النقيفة من زاوية الطريق. هذا مثال على ما كان يجري مع بعض المخالفين.

اخذت من ثم اللجنة الجديدة تطوف في الاحياء وتعقد الاجتماعات الشعبية في البيوت لشد العزائم وتقوية الترابط لاجبار الشركة على الرضوخ لمطالب الشعب. ولما اشتد ساعد اللجنة وطالت المقاطعة رأت السلطة انه لا بد من اعتقال اعضائها فاعتقلتهم جميعا وبينهم مندوب الحركة الطلابية وكانوا مجتمعين في بيت السيد سعد الدين فروخ في رأس النبع.

فهبت بيروت في تأييد المعتقلين واضربت الاسواق واشتد ساعد المقاطعة. اما انا فكنت اثناء وجود الرفاق في سجن بيروت الكبير الذي دمرته الحرب اللبنانية الاخيرة قد توصلت الى طريقة سرية للاتصال بالمسجونين يوميا برغم الحيطة التي اعتمدتها ادارة السجن فانقل اليهم يوما بيوم المعلومات عما يجري في المدينة كما طلبت منهم ان يضربوا عن الطعام بقصد اثارة الرأي العام وتشدده في سير المقاطعة، فوافق الجماعة على الفكرة وأضربوا دون تردد، وامتد اضرابهم اياما. وكنا في الخارج نستغل الامر وننشر انباء اضرابهم مجسمة بين الناس وبشكل مثير. وتخوفت الحكومة من مغبة هذا الاضراب عن الطعام. وقلق وزير العدلية السيد احمد الحسيني الطبيب القلب قلقا شديدا، وشاء ايفاد من يتصل بالمضربين لاقناعهم بوقف صيامهم،

ووقع اختياره علي وعلى الصديق سعد الدين فروخ باعتبارنا من اصدقائهم ولنا تأثير قويّ عليهم، وكلفنا بالمهمة وطلب من المحقق الاستاذ يوسف شربل المعروف بتشدده اعطائنا اذنا بدخول السجن للاجتماع بهم. غير انه رفض ان يسمح لنا بمقابلة السجناء الا بحضوره شخصيا ولم نمانع في ذلك وادخلنا مكتب مدير السجن بانتظار مجيء المضربين للاجتماع بهم.

فشل الوساطة التي ارادها الوزير

ولما دخلوا علينا بدوا بحال من الضعف والهزال اثار اعصابنا اذ لم نكن نتوقع ان يبلغ بهم الحال الى هذا الحد، وقبل ان نبادلهم الحديث بادرنا الرئيس ابراهيم الحداد بالقول انكم خدعتم بتوقع احالة القضية للحفظ بينما الحكومة ما تزال تمارس الضغط علينا ومعالجة الامر بالعنف، فاجبته بانفعال إن ما يجري هو وسيلة خداع تمارسها الحكومة لافشال المقاطعة، وما ان سمع المحقق هذا الجواب حتى ثارت ثائرته واحتج بشدة متوعدا باحالتي على القضاء بتهمة الطعن بالحكومة في حضوره شخصيا ورفض البقاء معنا معلنا وقف المقابلة.

وهكذا فشلت الوساطة التي ارادها وزير العدل وعدنا سعد الدين وانا لمقابلة الشيخ عزيز الهاشم الذي كان ينتظر نتيجة مقابلتنا للصائمين فتخوف الرجل من وعيد المحقق وطلب مني تقديم الاعتذار له ولما رفضت عهد الى المهندس حبيب البستاني لتدارك الامر مع صديقه المحقق ووفق المهندس بتدخله. وبعد اسبوعين من الاعتقال افرجت السلطة عن المعتقلين. ولكن المقاطعة استمرت عدة اشهر.

حادث يفرض الحكم العرفي

وذات يوم طلبت الشرطة من صاحب مقهى النجار ان يضيء مقهاه بالكهرباء وامنت له الحراسة، فمرت سيارة مسرعة من امام المقهى ورمته بمفرقعة من صنع محلي كانت كناية عن مفرقعة كبيرة الحجم لها دوي كبير، فتخوفت السلطة الفرنسية ورأت في هذا العمل بداية العنف وربما الثورة، فاعتقلت مجددا عددا من اعضاء اللجنة الاولى واحالتهم الى المجلس العدلي بتهمة الاخلال بأمن الدولة وعينت القاضي يوسف شربل محققا عدليا، وهنا دخلت القضية مرحلة خطرة وتخوف الناس من تدابير قاسية تعتمدها السلطة الفرنسية للسيطرة على الوضع كما بدأت مظاهر التفسخ تلوح في افق المقاطعة والملل عند البعض، بعد ان طالت نحو ستة اشهر.

واخيرا بعد مشاورات مطولة اجرتها الحكومة اللبنانية مع المفوضية الفرنسية ثم مع الشركة اعلنت هذه عن بعض التنازلات مستفيدة من تعطيل جريدة النداء لسان حال المقاطعة ومعبئة الشعب البيروتي وراءها ووجود اللجنة داخل جدران السجن وهذا ما ساعد على قبول الشعب المضرب بالتخفيض الذي تم الاتفاق عليه.

وهكذا انتهت اطول مقاطعة وأشدها عنفا في عهد الانتداب الفرنسي في لبنان، ولم تقتصر مكاسبها على تخفيض الاسعار فقط بل على الوقفة الصامدة والتضامن الشعبي الرائع والمثير للاعجاب.

وكان تراجع الحكومة تدريجيا تجاه المعتقلين باخلاء سبيلهم اولا بموجب سندات اقامة ثم احالة القضية للحفظ بعد تجميدها بضعة اشهر.



● «ليس من شك في أن التقدم الذاتي هو في جوهره اعظم أنواع الدفاع عن النفس ضد الأخطار المتربصة، لكن علينا أن ندرك أننا نعيش في منطقة مفتوحة للأطماع الباغية، وإن من أول أهداف اعدائنا أن يحولوا دون بلوغنا مرحلة القوة الذاتية المحققة للتقدم حتى يظل دائماً تحت رحمة التهديد».

(جمال عبد الناصر)



هجرة الطائفة اليهودية من العراق

غادة المقدّم عدرة

ترك اليهود ممتلكاتهم خلفهم في العراق وهاجروا الى فلسطين وقد حملوا معهم العلم والخبرة كما قال اليهودي العراقي رافي نيسان فثلث المهاجرين من يهود العراق تلقوا تعليما لمدة احد عشر عاما على الأقل وهي نسبة تعلو على نسبة القادمين الجدد الى اسرائيل من اوروبا وأميركا.

وكانت الأسر المهاجرة أغلبها مؤلفة من الحرفيين المشهورين وأصحاب المحلات والمدراء والمحامين والمعلمين والموظفين. وهذا يعطي صورة واضحة عن حياة الأقلية اليهودية التي عاشت بسلام واستقرار في العراق.

ولكن ما هو سبب هجرتها؟ ولماذا تركت العراق؟ سؤال يطرح نفسه ولابد من الاجابة عليه بالعودة الى التاريخ. كيف جاء اليهود الى العراق وماذا فعلوا خلال هذه الفترات؟

أتى العبرانيون بالاله يهوه الى فلسطين وهو آله قبيلتهم. ولعل يهوه لم يكن الاله الوحيد ولكنه هو الذي حفظته لنا الرواية اليهودية الدينية. ومن الملاحظ أن الدين اليهودي كما نعرفه هو نتيجة أمرين: الأول تاريخ اليهود السياسي وما عانوه على أيدي الأشوريين والبابليين والفرس. والثاني ظهور الأنبياء بينهم الذين علموهم تدريجياً أن يعبدوا الها واحداً ولكن ثمة عنصراً ثالثاً أضيف عليهما وهو ما اقتبسه اليهود من الأمم التي احتكوا بها من العقائد والأساطير التي تعيشها هذه الشعوب.

وفي عام ١٣٠٠ ق.م. ترك العبرانيون عبيدا تحت سيطرة موسى. وتقول بعض المصادر التاريخية أن المصريين طردوهم لأنهم استولوا على المراكز، وقد وصلوا الى بلاد كنعان، وفي التوراة أن بلاد كنعان أعطاها الله لاسحاق ويعقوب.

وعندما جاء الأنبياء شاوول وداوود وسليمان الحكيم نظموا دولة اسرائيل، وبعد سليمان الحكيم انقسموا الى يهودا في الجنوب واسرائيل في الشمال.

وفي سنة ٥٨٦ق.م. احتل نبوخذ نصر البابلي مملكتي اسرائيل ويهودا واستعبد سكانهما وأخذهما الى بابل. وقد اختلف العلماء في الوقت الذي أرسل فيه نبوخذ نصر على بني اسرائيل فقيل: كان في عهد أرميا النبي ودانيال وحنانيا وعزاريا وميشائيل وقيل: انما أرسله الله على اسرائيل لما قتلوايحيي بن زكريا.

وقد أمعن البخت نصر ــ كما جاء في «الكامل في التاريخ» و«مروج الذهب» في قتل بني اسرائيل وأسرهم وحملهم إلى أرض العراق فأخذ ما وجد في هيكل بيت المقدس من التوراة الى كتب الأنبياء وسير الملوك فوضعه في بئر وقد سبى من بني اسرائيل ثمانية عشر الفا. فتقدم الى مصر

وقتل ملكها فرعون ثم سار نحو المغرب فقتل بها ملوكا وافتتح مدائن. من هنا وجد اليهود في العراق هربا من المجازر وحملات الاضطهاد التي تعرضوا لها خلال العصر القديم وحتى قرننا هذا.

وباستمرار هذه الحملات في اوروبا الشرقية نمت الصهيونية لتقدم مشروعا مؤاده استعمار فلسطين لتحرير الشعب اليهودي من الاضطهاد الذي لحق به. وكان للمشروع الصهيوني لانشاء دولة يهودية في قلب العالم العربي منذ البداية وجهان أساسيان متكاملان:

١ ــ فهو من جهة مشروع موجه ضد حركة تحرر الشعوب العربية.

٢ ــ وهو من جهة ثانية مشروع يعتمد على القوى الاستعمارية التي تمارس هيمنة كبرى على الشرق الأوسط.

ومع تطور الحركة الصهيونية تحولت من حركة دينية تعيش على هبات المحسنين الى حركة سياسية منظمة، فعقد أول مؤتمر صهيوني سنة ١٨٩٧م أقر وجود الحركة الصهيونية على أسس سياسية وأول ما استهدفته انشاء وطن قومي يضمنه القانون الدولي.

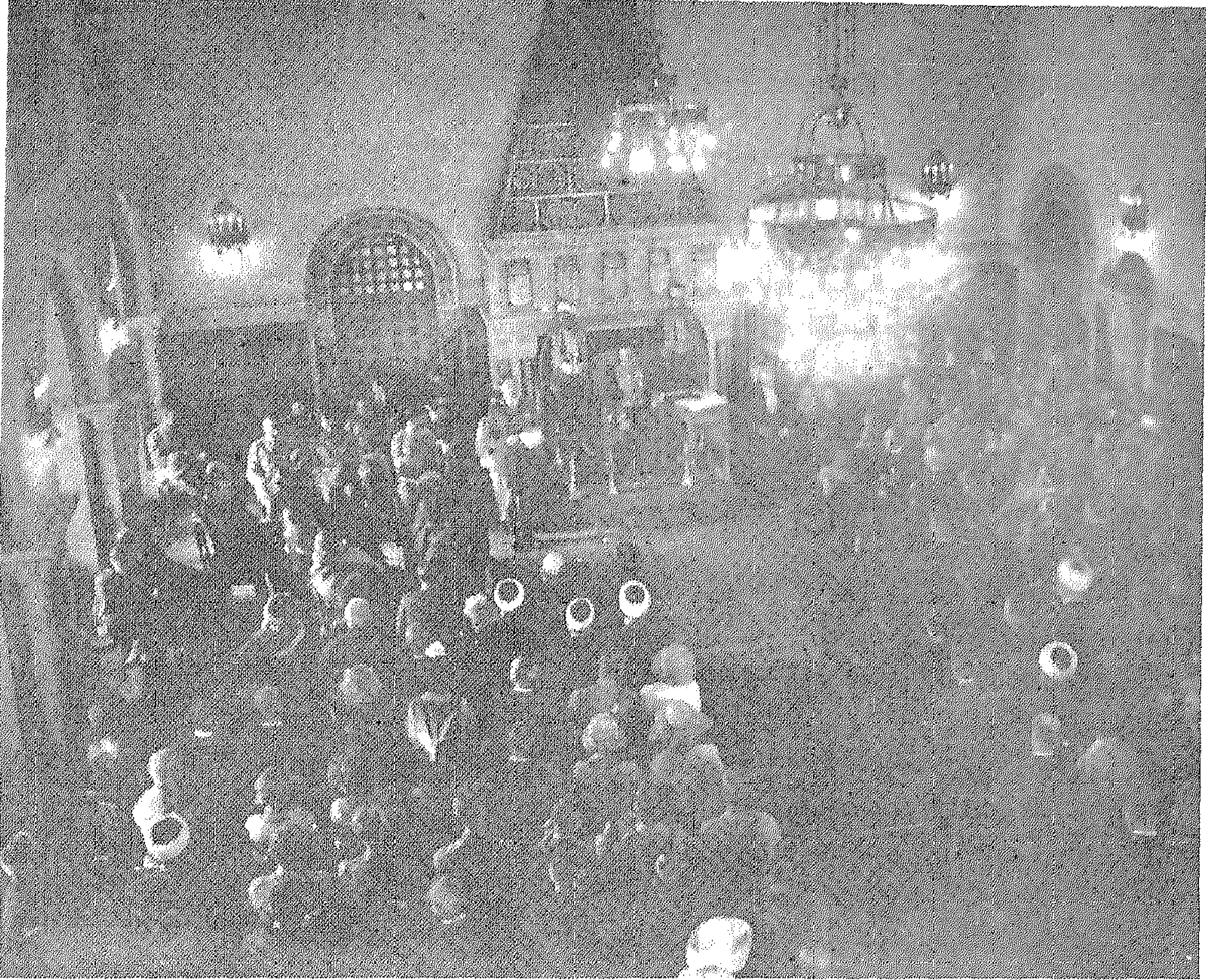
وكان لهذه المقررات ردة فعل عنيفة من قبل الدولة العثمانية قبل نشوب الحرب العالمية الأولى مما أدى الى عاصفة من الجدل والمعارضة حد من النشاط الصهيوني الدعائي والتنظيمي الى أن تم وعد بلفور عام ١٩١٧ وقبلت بريطانيا الانتداب على فلسطين غداة معاهدة فرساي.

وفي كانون الأول ١٩١٦ بدأت القوات الانكليزية الهجوم على بلاد ما بين النهرين فحطمت المراكز التركية والأسطول النهري في كوت العمارة. وتابعت الهجوم حتى سيطرت القوات الانكليزية على جميع بلاد ما بين النهرين تقريبا.

وبعد دخول الانكليز بئر السبع واحتلالهم يافا ثم دخولهم القدس سنة ١٩١٧ كان مصير هذا البلد وبموجب المعاهدات التي عقدت بين الحلفاء الانكليز مرهوناً بنوعين من الالتزامات. فباتفاقية مكماهون ــ الحسين عام ١٩١٥ وعد الانكليز بجعل فلسطين جزءاً من الدول العربية. بينما تعهدوا في الاتفاقية المعقودة مع روسيا عام ١٩١٦ باقامة ادارة دولية في فلسطين، غير أنه بعد احتلالهم لفلسطين لم يكن لديهم الاستعداد لتنفيذ أي من هذين الوعدين بل سعوا بكل قواهم الى ابقاء هذه المنطقة تحت سيطرتهم.

ولتفادي الالتزامات التي تعهدت بها انكلترا قررت استغلال الحركة الصهيونية التي نشطت في نهاية القرن التاسع عشر. وكما قلنا أن الشرق العربي وقع تحت سيطرة المستعمر الفرنسي والبريطاني حيث شدد الانكليز قبضتهم على العراق وحكموه حكما مباشرا في البداية ثم حكما غير مباشر عن طريق الانتداب والمعاهدات الثنائية. وفي الوقت نفسه عقد اتفاق مالي بين العراق وانكلترا كما وقع اتفاق قانوني في عام ١٩٣١ نص على الغاء الامتيازات ووضع نظاما واحداً للعراقيين والأجانب. ثم بعد ذلك انضم العراق إلى عصبة الأمم شرط أن يقدم تصريحا يضمن حقوق الأقليات. على الرغم من ذلك تقدم العراق تقدما كبيرا في عهد الانتداب البريطاني وتحسنت المواصلات وعم الرخاء وكان الجيش صغيرا ولكنه كان مدربا على أيدي ضباط بريطانيين واستمر انتقال الادارة الى أيدي العراقيين من عام ١٩٢٩، ومن المتعذر هنا أن نقدم دراسة مفصلة عن السياس العراقية أثناء تلك السنوات التي سبقت الحرب ويكفي أن نذكر أن البرلمان كان ضعيفاً وأنه قبل تعديل القانون الأساسي لم يكن للملك أي حق في إقالة الوزارة مما أدى بطريقة غير دستورية لاجبار الوزارات على الاستقالة.

وفي هذه الفترة كثرت الخلافات بين الأوساط الشعبية التي كانت قد تغلغلت فيها الدعايات الشيوعية والنازية والفاشية فظهر في العراق اتجاهات متعددة: فئة ترى نظام أتاتورك بتركيا مثلا أعلى ــ فئة ثانية اتجهت نحو النظام النازي نتيجة لردة فعل عاطفية ضد سياسة بريطانيا الاستعمارية وسعيها المستمر في اقامة الدولة



الانتداب البريطاني على فلسطين

المندوب السامي الأول هربرت صموئيل يجمع في دار الحكومة بـ أوغوستا فيكتوريا على جبل الزيتون رؤساء الطوائف من مسلمين ومسيحيين ويهود، ويتلو عليهم صك الانتداب ويوضح أهدافه: وفي مقدمتها «أن الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في احوال سياسية وإدارية واقتصادية تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي...» إلى اخر ما جاء في المادة الثانية من الصك. ومن اهدافه ايضا «الاعتراف بهيئة يهودية مناسبة كهيئة عمومية لتشير وتعاون في ادارة فلسطين...» الى اخر ما جاء في المادة الرابعة... وقد نفذ صك الانتداب اعتباراً من ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٣.

اليهودية بفلسطين على حساب حقوق أبنائها ــ وفئة ثالثة تعلقت بالفلسفة الماركسية ونظامها الاجتماعي فأصبحت لا تتحمل الأوضاع الاقطاعية في العراق لهلهلة الحكم فيه وتعاقب الوزارات عليه مرة كل ستة أشهر على الأقل. ومن سوء الحظ أن النتيجة الطبيعية لذلك كانت ازدياد الدور الذي يلعبه الجيش العراقي في السياسة فظهر هذا في سنة ١٩٣٦ عندما قام الجيش بقيادة الجنرال بكر صدقي بانقلاب وأرغم وزارة الجنرال ياسين الهاشمي على الاستقالة بتهديد لضرب بغداد من الجو. وقد حل البرلمان وفر كثير من زعماء العراق وسيطر الجيش على البلاد لمدة قصيرة ثم اغتيل بكر صدقي في آب ١٩٣٧ وسقطت الوزارة الصورية التي كان يرأسها حكمت سليمان.

هذا بالنسبة للوضع العام في العراق، ولكن ما هو دور يهود العراق وكيف كانوا يعيشون؟

كانت خطة نقل اليهود المشتتين في أنحاء العالم، تتخذ شكلا عنيفا، وقد وصف «ستون» احد الجوانب الهامة في الصهيونية بقوله ان الحركة الصهيونية تترعرع على مآسي اليهود أي عندما لا يوجد العدد الكافي من الكوارث فان

الواقع يتم تغييره ليتفق مع الرؤية وهذا تقريبا ما حدث ليهود العراق.

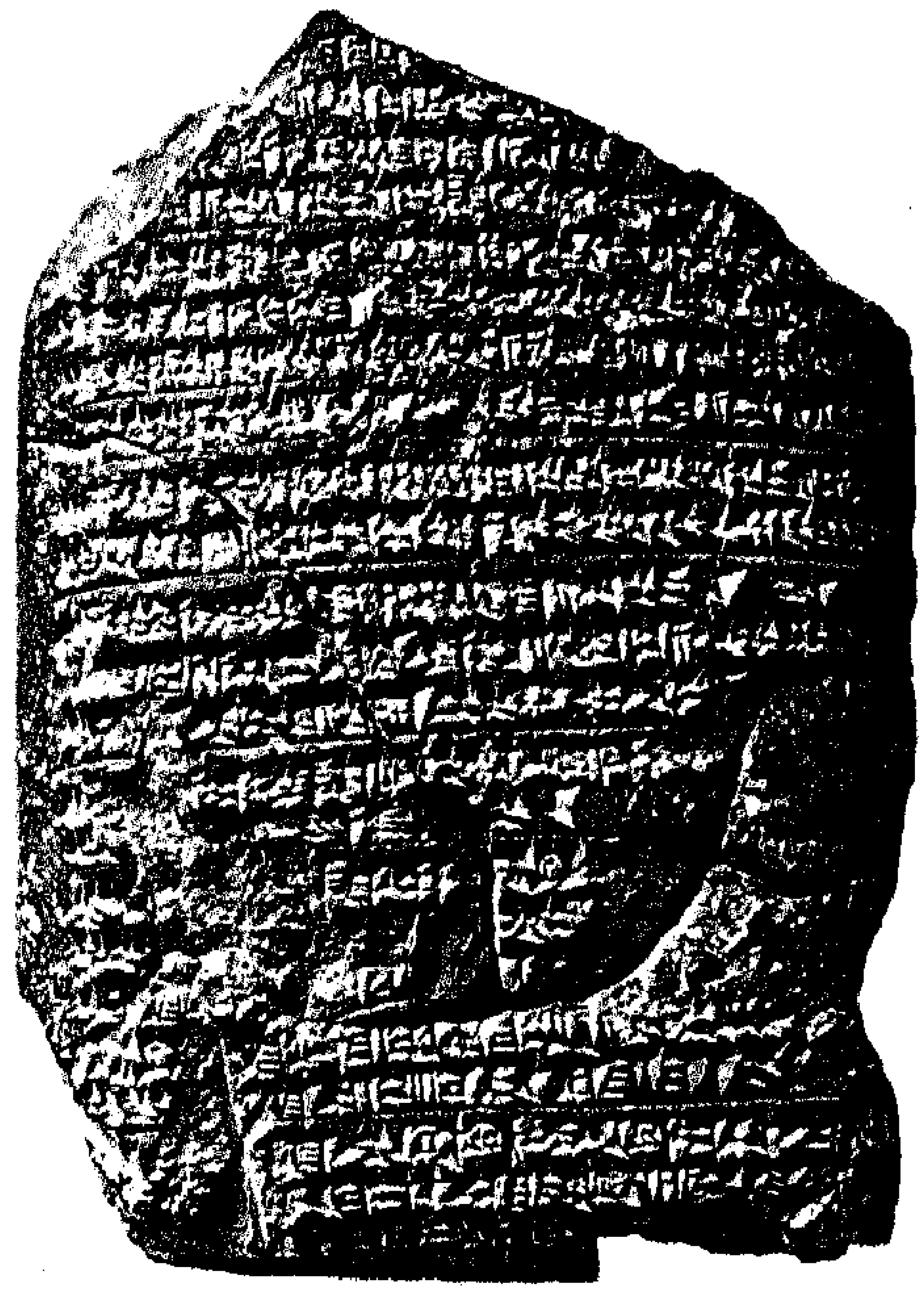
ولا يعني ذلك أن يهود العراق كانوا يعيشون حياة مثالية ولكن كان عدد كبير منهم يتمتع برخاء نسبي لاجتهادهم بنشر العلوم والمعارف وعدم تدخلهم بالشؤون السياسية وقد قالت جريدة العالم الاسرائيلي: ان الاسرائيليين في بغداد تمثال للسعي في هذه البلاد وأنك لتراهم جميعا صغيرا أم كبيراً يدأبون ليلا ونهارا في تحصيل العلوم والمعارف ولا أغالي إذا قلت أنك تكاد لا ترى في هذه الطائفة أميا فضلا عن أن لكل عائلة غنية شخص أو أكثر يدرس أو يتاجر في بلاد المغرب.

كانت مدارس الاليانس الاسرائيلية تدرس اللغة الفرنسية بكل ضبط واتقان وقد ازدادت ازديادا عظيما في المدة الأخيرة حتى أنه في سنة ١٩١٢ كان في مدرسة الاليانس في الموصل ٣٥٠ طالبا وفي بغداد ٢٤٠٠. وهذا يوضح أن نسبة قيد الصغار من يهود العراق في المدارس والكليات أعلى بكثير من النسبة العامة في البلاد.

أما فيما يتعلق بالمشاركة في الحكومة فقد أعلنت الحكومة العراقية حرية الدين والتعليم والتوظيف ليهود بغداد الذين لعبوا دوراً هاماً للغاية في تحقيق رخاء المدينة وتطورها. وكان هناك ستة أعضاء يهود في البرلمان العراقي وعلى الرغم من هذا السلام والاستقرار اللذين كانت تتمتع بهما الأقلية اليهودية قرر الصهاينة جعل العراق هدفا محتملا لخطة الاستيطان الصهيوني الأمر الذي كان كافيا في حد ذاته لاثارة التوتر بين أغلبية السكان والأقلية اليهودية، وعندما اقتصرت المخططات الصهيونية على فلسطين تحولت الصهيونية عن أرض العراق وتركزت على يهود العراق، فأسس أهارون ساسون سنة ١٩١٩ جمعية في بغداد تدعى «اللجنة الصهيونية» وانشأت هذه المنظمة فروعا لها في عدة مدن عراقية نحو ١٦ فرعا بل أرسلت وفدا عنها الى المؤتمر الصهيوني الثالث عشر الذي عقد في سنة ١٩٢٣، كما قامت بتنظيم جماعات لاعداد الشباب المهجرين، وقامت بطبع عدة نشرات شهرية بالعبرية والعربية وأسست مكتبة صهيونية. وكان الصهاينة يقومون احيانا بتسميم العلاقات بين يهود العراق وباقي الشعب العربي العراقي بتوزيع منشورات في المعابد تحتوي على شعارات مثيرة «لا تشتروا من المسلمين» متعمدين أن تصل هذه المنشورات الى أيدي المسلمين». ونجحت الدعاية الصهيونية الى حد ما، في بذر الشقاق وكما أشار السفير البريطاني في برقيته السرية سنة ١٩٣٤، وبين أن منع النشرات الصهيونية من الصدور قد يكون في «صالح اليهود أنفسهم». كما قال السفير البريطاني في بغداد، انه ليس هناك عداء طبيعي بين اليهود والعرب في العراق، ويبدو أن تقريره كان دقيقا، فيهود العراق كانوا مؤمنين بأنهم عراقيون أساسا، يرجع نسبهم الى أيام النفي البابلي،وكان عدد كبير منهم يتمتع برخاء نسبي.

وفي الأربعينات كان المجتمع العراقي يمر بمرحلة انتقالية وكانت هناك صعوبات تكتنف حياة جميع الأقليات الدينية أو العراقية هناك بما فيها الأقلية اليهودية، وفي سنة ١٩٤١ قامت مظاهرات معادية للجالية اليهودية وان كانت «الأولى من نوعها» كما تقول موسوعة «الصهيونية واسرائيل»، وعلى الرغم من ذلك استأنف اليهود العراقيون — بجذورهم الثابتة في البلاد — حياتهم الطبيعية، فأقاموا حيا يهوديا واستثمروا مبالغ ضخمة في مجال البناء في مدينة بغداد. فقد جاء في كتاب لمؤلفة اسرائيلية «أن المبعوثين الصهاينة في العراق أدركوا ان الأيديولوجية الصهيونية لن تلقى قبولا في معظم الدوائر اليهودية». وقد حاول أحد هؤلاء المبعوثين تجنيد اتباع من بين المثقفين، إلا انه فشل. ثم جاء قيام الدولة الصهيونية والهزيمة العربية الأمر الذي أدى كما هو متوقع الى تعقيد الأمور بالنسبة للجميع فقد أعفي اليهود العراقيون الذين كانوا يتولون مناصب تتطلب الاتصال بدول أجنبية من مناصبهم. وباستثناء مثل هذه الحالات، فان رد الفعل العراقي كان يتسم بضبط النفس إذا ما نظر إلى أبعاد الموقف.

وقد كان من الممكن أن تنتهي المتاعب سنة ١٩٤٨ وان يتابع يهود العراق حياتهم، وكان الزمن كفيلاً يجعل الجروح تلتئم، غير أن الصهاينة كان لديهم مخطط مختلف عن هذا، فقد كانت هناك خطوات أساسية للوصول إلى



نقش محفور يبين كيف احتل نبوخزنصر مدينـة القدس عام ٥٩٨ق.م.

خلاص مائة وثلاثين ألف يهودي ولزيادة عدد السكان في اسرائيل.

وفي سنة ١٩٤٢ تأسست منظمة سرية باسم «حركة الرواد البابليين في العراق» كانت مهمتها تعليم الشبان اليهود استخدام الأسلحة وصنع المتفجـرات. وبذلك تكـون حركـة مستقلة لها أسلحتها ومجندوهـا داخل العـراق. وقد كتب ايجال آلون سنة ١٩٤٧ أن تهريب الأسلحة الى العراق هو لتشجيع كل أشكال الهجرة.

ولكن يتبـادر الى الذهن هـذا التسـاؤل ما الهدف من كل هذه الأسلحة التي عثر عليها فيما بعد؟ هل سيحارب العراق؟

وللرجوع الى التاريـخ نذكـر عدة حـوادث حصلت في بغـداد سنة ١٩٥٠ فقـد وضعت متفجرة داخل مقهى يجتمع فيه عادة اليهود، كما ألقيت متفجرة في معبد ماسودا شيمتوف وقد أدى الحادث إلى موت طفل يهودي وفقد أحد اليهود عينه. وقد صورها الصهاينة يومها على أنها مذبحة ضد اليهود، ولكن أظهرت الحقيقة بعد ذلك المخطط الصهيـوني الذي نظم هـذه الأعمال التخريبية.

وفي سنة ١٩٥١ أي بعد الانفجار الذي حصل في المعبد رأى لاجىء فلسطيني من عكا أحد الضباط العسكريين الاسرائيليين في بغداد، فأبلغ اللاجىء الشرطة عن الضابط الاسرائيلي الذي تم القبض عليه وعلى خمسة آخرين من أعضاء المنظمة السرية الصهيونية وقد فضح المخطط الصهيوني وأخبر الشرطة العراقية عن مخابىء الأسلحة في المعابد. كما حوكم هؤلاء باثارة ذعر اليهود العراقيين لدفعهم للهجرة الى اسرائيل وقد كانت الأدلة واضحة وقوية حين أنه لم يستطع أحد أن يمنع صدور حكم الاعدام على اثنين من هؤلاء العملاء وبالسجن على الباقين، وقد حاول المواطن الاسرائيلي واليهودي العراقي الذي فقد عينه في حادث معبد شيمنوف أن يحصل على تعويض من الحكومة الاسرائيلية.

من هنا نرى الصهيونية وارهابها المعروف الذي تمارسه على الأقليات اليهودية في العالم العربي والعالم أجمع لحملهم على الهجرة لوطنهم القومي المزعوم.

ونخلص الى القـول ان اليهود في العـراق لم يتركوا بغـداد ويهاجـروا الى فلسطين لولا ممارسات الصهيونية وافتعالها لأحداث دفعتهم للهجرة. ذلك أن التاريخ أثبت عيشهم بسلام واستقرار داخل العراق كأي مواطن عربي له جميع حقوق المواطن. ●

المراجع:

- واشنطـن بوست ١٩٧٦.
- ليلينتال، ما ثمن اسرائيل؟
- ستون، نحو معالجة جديدة للصراع العربي الاسرائيلي في سميث الصهيونية.
- الحلم والواقع.
- موسوعة الصهيونية واسرائيل، ج١، الصهيونية في العراق.
- دوغلاس غرين من النفس البـالي الى رامان جـان اسرائيل ديجست.
- الموسوعة اليهودية، العراق.
- المربرجر، من يعرف أكثر من هذا فليتكلم.
- العالم الاسرائيلي، بيروت ١٩٢١.
- عالم المعرفة الأيديولوجية الصهيونية وهـو من أهم المراجع التي استعنت بها.
- وثائق فلسطينية.

تقرير موقّع من لويدجي غبريللي:

الطائفة اليهوديّة في العراق

يبلغ تعداد الطائفة اليهودية في العراق ما يقارب مئة ألف يهودي(1) يسكن معظمهم بغداد ما يقارب الثلثين، والثلث الباقي موزع في المدن المهمة مثل البصرة والموصل، ويعيش عدد لا بأس به من اليهود في كردستان المتاخمة لايران وتركيا موزعين في القرى الجبلية ويعملون في الزراعة.

للطائفة اليهودية قانونها الخاص بما يتعلق بالأمور الدينية التي يديرها المجلس الملي (المذهبي) وأما ما يتعلق بالأمور المدنية فيطبق قانون البلاد على اليهود كما يطبق على كافة المواطنين.

ان القانون العراقي الذي أعطى اليهود هذا التنظيم يعود لسنة ١٩٣١ (كما كان أيام العهد العثماني الذي أعطى هذه الطائفة التمتع بالهيكلية الحاخامية) كما كانت الطائفة مقسمة حسب المقاطعات وكل مقاطعة لها رئيس حاخام ومجلس عام ومجلس مدني وفي بعضها مثل بغداد كانت تدار بمجلس روحي.

والمجلس العام في بغداد يرأسه رئيس الطائفة العبرية ويتألف من ستين عضوا، ستة من رجال الدين وأربعة وخمسون مدنيا، أما في المجموعات الأخرى فيتألف من أربعين الى خمسين عضوا وهذا يهتم بالمسائل العقائدية والرعاية الروحية ومراقبة الحاخامين.

يوجد في بغداد محكمة دينية اسرائيلية تتألف من ثلاثة أعضاء من المجلس الروحي وتنظر هذه المحكمة في كافة الدعاوى العائلية الأرثية وكذلك يوجد (Apel) مؤلفة من جميع أعضاء المجلس الروحي وتحت رئاسة كبير الحاخامين الذي ينظر في استئناف كل القرارات التي تؤخذ في المجلس الديني، فالمجلس المدني تقتصر نشاطاته على مراقبة ادارة الأوقاف والأعمال الخيرية والتفتيش الدوري على المعاهد المدرسية والخيرية ومراقبة الميزانيات وتعيين موظفين في كافة الادارات ومراقبة الكنيست والمدافن وكذلك على المسالخ وأماكن بيع اللحوم. ان ميزانية كافة المؤسسات للطائفة العبرية في العراق وصلت في (٣٥ ــ ٣٦) بالدينار العراقي أي ما يساوي باللير الايطالي ٣٢ مليون لير تقريبا.

فالقسم الأكبر يأتي من ضريبة خاصة يدفعها كل عضو في الطائفة لكل كيلو لحمة يشتريها بالاستهلاك (لير ايطالية لكل كيلو) وقد أصدر المجلس المدني قراراً بزيادة هذه الضريبة مما دعا اللحامين الى اضراب عام لبائعي اللحوم.

المعاهد: في بغداد الطائفة الاسرائيلية تملك مدارس حديثة للصبيان (أسسون، شمش، (Noam)، (Nurael)، راشيل شمعون، مسعوده، سلماه، كرم وغيرها من المدارس الدينية، بلغ عدد الطلاب في هذه المدارس خلال عام ١٩٣٤ ــ ١٩٣٥ ستة آلاف طالب، أما مدارس البنات وعددها اثنتان، واحدة اسمها لوار خدوري ونعام بلغ عدد طالباتها ١٨٩٣ طالبة وعدد المدرسين بلغ مئة وثمانين، ويوجد أيضاً معاهد تربوية خاصة يؤمها حوالي ستة آلاف. وقد بلغت ميزانية المدارس العبرية لعام ١٩٣٥ ــ ١٩٤٦ (١٩,٥٠٠) دينار عراقي (الدينار = جنيه استرليني).

المستشفيات: ان المؤسسات الصحية التي تديرها الطائفة هي مستشفى مآير الياسر ومستوصف ريما خدوري وصيدلية دار الشفا ويوجد العديد من المستوصفات المدرسية وقد بلغت ميزانيتها لعام ١٩٣٥ ــ ١٩٣٦ ثمانية آلاف وخمس وأربعين ديناراً عراقياً وأغلب الكشوفات الطبية التي تجري في هذه المؤسسات هي مجانية.

المؤسسات الخيرية: الجمعية الأكثر أهمية هي جمعية مساعدة وتربية (الشاكي) التي يديرها


الارهاب البريطاني في القدس

معهد الشاكي والتي أسسها السيد ايلي قدوري من أصل عراقي وقد توفي حديثا وهذا جمع التبرعات من انكلترا ــ فرنسا ــ تركيا ــ العراق والشرقين الأدنى والأقصى. كما يوجد مؤسسات عبرية أخرى مثل جناح الأمومة في مستشفى ماير الياس ومدرسة الخياطة والتطريز للبنات الفقيرات ومدرسة مهنية مجانية تجمع حوالي ٣٥٠ طالباً.

المعابد: عددها ٤٠ في كل العراق، والاثنان الأثريان يرجع تاريخ الأول الى القرن الخامس قبل الميلاد والقرن السابع، وكنيسة الشيخ اسحاق الى القرن الخامس.

الحجاج الاسرائيليون: كان لليهود أيام الحكم العثماني في مقاطعة بغداد ثلاث أماكن للحج هي:

أولاً ــ قبر النبي يوشع بن نون ــ ويقع في وسط مدينة بغداد والأتراك يعتقدون بأنه شخص مبجل للمسلمين واسمه الشيخ جنيد ويدعون بأنه مدفون في هذا المكان ويجلسون بقرب المدفن، وبعضهم يحاول منع اليهود الاقتراب منه.

ثانياً ــ قبر النبي اسحاق (Ezechielle) في القفل على بعد ثلاث كيلومترات من مدينة الحله جنوب بغداد وقد بنى الاسرائيليون العديد من المقابر والبيوت والعديد من المراكز الأخرى يأتون إلى الحج كل سنة بعد عيد الفصح.

ثالثاً ــ الأزر: على الضفة اليمنى من دجلة وبين المرو والقرنة نقطة تلاقي دجلة والفرات.

ومن الملاحظ أنه لا يوجد في العراق أية صحيفة عبرية ويوجد في بغداد مجلة لها صبغة سياسية ينشرها محامي يهودي في العاصمة اسمه أنور شاوول وهو عنصر معاد لوجهة نظرنا وكذلك معاد للنازية الالمانية، كما ان بعض اليهود يكتبون دورياً في الصحف العربية المسلمة ولكنهم لا يوقعون المقالات بأسمائهم بل بأسماء مستعارة، أما المنشورات باللغة العربية حول المسألة اليهودية فليست ذات أهمية وقد نشرت مؤخراً: أولا: تاريخ العبرانيين في العراق ليوسف غنيما كاتب مسيحي كلداني وهو حالياً مدير البنك الوطني للزراعة. وكان عضواً في المجلس النيابي ووزيراً للمالية أكثر من مرة.

الفلاسفة العبرانيون والاسلام للشاعر والأديب المسلم رضا شبيبي رئيس مجلس الشيوخ من أعيان الشيعة ووزير التربية الوطنية.

ــ تاريخ اسرائيل لموسى شهبندر حالياً السكرتير الأول للبعثة العراقية في برلين، وإذا دققنا في اليهود العراقيين نجد العوامل نفسها لليهود الذين يعيشون في فلسطين من أجيال قديمة وعديدة هؤلاء (يعني يهود العراق) امتزجوا مع الشعب ويتبعون العادات والتقاليد وكثيرون منهم لا يلبسون الطقم. وفي العراق

R. Legazione d'Italia
BAGDAD

R. MINISTERO DEGLI AFFARI ESTERI
ROMA

Telespresso N.665/173

Bagdad, 20 Aprile 1937=XV

COMUNITA' ISRAELITICHE IN IRAK

La comunità israelita in Irak ammonta a circa 100.000 persone, di cui due terzi circa a Bagdad ed il rimanente negli altri centri più importanti come Bassora e Mossul. Un numero considerevole di ebrei vive nel Kurdistan ai confini della Persia e della Turchia sparso in villaggi montani e dedito per lo più all'agricoltura.

Le varie comunità ebraiche hanno leggi che disciplinano i loro Consigli e l'amministrazione dei loro affari religiosi; ma - a parte ciò - sono sottomesse, come tutti gli altri cittadini, alle leggi del Paese.

La legge irakiana che stabilisce la condizione giuridica degli ebrei in tutto il territorio dello Stato data dal giugno 1931; con essa la comunità ebraica (che sotto il regime ottomano era regolata dagli statuti rabbinici) viene ad essere divisa in distretti ciascuno dei quali ha un presidente, un capo rabbino, un Consiglio generale e un Consiglio laico. In alcuni, come in quello più importante di Bagdad, funziona anche un Consiglio Spirituale.

Il Consiglio Generale di Bagdad è presieduto dal Capo della Comunità ebraica dell'Irak e composto di 60 membri, di cui sette religiosi e 54 laici; quello delle altre comunità da 20 a 40 membri. Esso si occupa per lo più di questioni dogmatiche e di assistenza spirituale alle varie comunità oltre che della sorveglianza sui rabbini. A Bagdad funzionano pure un Tribunale Religioso Israelita composto di tre membri del Consiglio Spirituale dinanzi al quale sono portate tutte le cause concernenti i diritti familiari e patrimoniali; ed una Commissione d'Appello, formata da tutti i membri del Consiglio Spirituale, sotto la presidenza del Gran Rabbino, che giudica in seconda istanza su tutte le decisioni prese dal Tribunale Religioso.

Il Consiglio laico invece estende la sua attività al controllo della amministrazione dei beni Waqfs e dei lasciti per opere di beneficenza, all'ispezione periodica degli istituti scolastici e di carità, al controllo dei loro bilanci, alla nomina degli impiegati delle varie amministrazioni e in genere alla sorveglianza sulle sinagoghe, sui cimiteri e sui locali addetti al macello del bestiame.

Il bilancio delle varie Istituzioni delle Comunità ebraiche in Irak si è aggirato nell'anno 1935-36 in dinari irakeni 24.500 pari a lire italiane 32.000.000 circa; la maggior parte delle entrate proviene da una speciale tassa che viene pagata da ciascun membro delle comunità per ogni Kg. di carne acquistata per il consumo (una lira italiana per ogni kg.). Un decreto del Consiglio Laico che aumenta questa tassa ha provocato ultimamente un grave sciopero dei macellai ebrei.

SCUOLE

A Bagdad la Comunità israelita possiede nove scuole per ragazzi (A.Sasson; Shamash, Noam, Nurael, Rashel Shamun, Watania, Masuda Salman, Karm, Menasci Saleh) oltre a scuole religiose. La popolazione scolastica si aggirava nel 1934/35 sui 6.000 studenti. Le scuole femminili sono due: (Laura Kaduri e Noam) con 1893 studentesse.

I-36
13

./.

الصفحة الأولى من المخطوطة.

يحترم الدستور الحرية الدينية فغياب تأثير المهاجرين اليهود، وكذلك النقص في عدم تأثير الدعاية الصهيونية مع الأخذ بعين الاعتبار أن العرقين العربي والعبري هما بنفس المستوى ويخضعون لنفس القانون وهذا ما يجعل الحياة بينهما سهلة كما كانت في أيام الحكم العثماني في ولاية ما بين النهرين. إن تعاطف اليهود العراقيين لطبيعة انتمائهم ممكن أن يكونوا جميعهم صهاينة، ولكن سواء من الخوف في إظهاره في الحسابات التي قاموا بها بعدم مصلحتهم المساهمة في اظهار القضية. والقضية الفلسطينية تتمثل بصفة أيديولوجية، فأغلبية اليهود العراقيين الذين يعيشون مع القيادية الاسلامية السنية ويتعاملون مع كبار وصغار التجار والذين لا يسألون ماديا.

اليهود العراقيون يتحدرون من أصل سامي خالص وجميعهم بصورة عامة نشطون وحيويون وصابرون ورأسمالهم يسمح لهم بالاستفادة من جميع الفرص المهمة والمثمرة وجميعهم متمسكون بطقوسهم الدينية وبعاداتهم حتى السخيفة منها.

هذه الجالية الاسرائيلية لها أهمية اقتصادية ومالية وبصورة خاصة بحالتها الاجتماعية وهي تتحكم تقريباً بجميع العمليات التجارية والمصرفية ولها تأثير كبير على الحياة السياسية للبلاد. فهي تملك أحسن المحلات التجارية وجميع البنوك الخاصة والمعروفة ومحلات الصيرفة وقطع الغيار وهم يتقنون جميع المهن ويسيطرون عليها، وتتوقف الحياة التجارية والاقتصادية في المدينة يوم السبت وفي المناسبات الدينية. أما في الادارات العامة فليس لهم وجود تقريبا. وفي مجلس الشيوخ فهم ممثلون بتاجر غني من عائلة عراقية عريقة كان عضوا في البرلمان العثماني، وفي مجلس النواب كان لهم في أغلب الأحيان أربعة أعضاء وفي الوزارات بعض الموظفين وفي المحاكم بعض القضاة، ولكن أهميتهم وتأثيرهم تأثير اقتصادي ومالي في الأعمال الجيرية.

ميولهم السياسية غير محددة بخط معين وبصورة عامة نادرا ما يهتمون بالمشاكل التي تتعلق بالحياة العامة ولا يحاولون التأثير أو الجدل في الأشياء التي تختص بالعلاقات الدولية وخصوصاً بعلاقات الشرق الأدنى وذلك لاقتناعهم أن هذه السياسة تلفت النظر اليهم ولا تتعلق بهم مباشرة وهم يبحثون بطريقة للعيش بسلام بقدر المستطاع. الذي يهمنا من هذه المسألة دراسة العامل الاقتصادي وطريقة تنميته ويمكن تحديده بنظرتنا الى نشاطاتهم (فقط المشكلة العبرانية بمعناها العام لكي نتفحص الأهمية الاقتصادية من نشاطاتهم) أن المشكلة العبرانية تهمنا من الناحيتين العنصرية والدينية ومن ثم تأثيرهما أو مظاهرهما السياسية التي لا تتركهم مبالين ولا يتركون مناسبة للاعتراض على الدول التي لها ميول ضد اليهود والمساعدة بجمع المال من محيطهم.

إن التعاطف الذي يبدونه نحو انكلترا حيث يتذكرون ان الادارة البريطانية أعطتهم معنى للحرية والعدالة التي لم يتعرفوا عليها من الحكومات المتتالية للباب العالي ولا من سياسة حكم الدول المنتدبة في فلسطين التي ادعت الى الوفاق بين العرب واليهود بينما هي في الواقع عقدت الأمور وساءت العلاقات أكثر بدلاً من تحسينها. وطبيعي الاستنتاج من هذا الموقف أن اليهود يتبعون هذه الحكومة بسلام وهذه الحكومة تأخذ توجيهاتها مباشرة من لندن وقد ظهروا معارضين للفاشية الايطالية وهذا الشعور هو نفسه ما يظهرونه لالمانية النازية وللأنظمة الديكتاتورية ومن ثم وجدت الدعاية الروسية لدى الأكثرية اليهودية أرضاً خصبة للتأثر بها والتي انتشرت بطريقة غير مباشرة في الصحف الاسلامية كما وصلت الى بعض أعضاء الحكومة.

●

الوثيقة مصورة من الارشيف المركزي الايطالي:
ARCHIVIO CENTRALE DELLO STATO, Serie: MINISTRO DELLA CULTURA POPULARE.
Reg. N° 467 Busta 226 Fase. 31.

الهوامش

(١) تشير الاحصاءات التي وردت في اغلب المراجع مثل منديس الهجرة العراقية والحكومة الاسرائيلية، ان تعداد اليهود في العراق يبلغ ١٣٠,٠٠٠ نسمة.

معهد الانماء العربي

جذور الاقليمية الجديدة

د. نديم البيطار

الدراسات الاقتصادية والسياسية

كيف تم اغتيال كنيدي





كان مستشفى باركلاند ميموريال، عام ١٩٦٣، أكبر مركز طبي في دلاس، اذ كان يضم أكثر من ستمائة سرير، وكان جناح الاسعاف يعالج فردا واحدا، على الأقل، كل خمس دقائق. ولم يكن ثمة ما يبدل من روتين عمله الصباحي، في صباح الجمعة، ٢٢ تشرين الثاني. وكانت مسز آن فرغوزن مكلفة بتلقي المخابرات على خطوط المركز الثاني. وقلت المخابرات وقت الفطور، فراحت تتصفح إحدى المجلات.

فجأة صدرت إشارة حمراء، وأخذ الزر الأحمر يؤشر دون توقف. وتلقت مسز فرغوزن الرسالة التالية «٦٠١ قادمة، استعدوا». كان واضحا، أن سيارة رئيس الولايات المتحدة جون فيتزجرالد كنيدي، قادمة في حال طارئة قصوى.

كان الرئيس قد قدم دلاس، المحطة الهامة جدا في رحلته الى تكساس. اضاف المتحدث على الهاتف بصوت يفعمه التأثر: «الرئيس جريح، جريح» وأقفل الخط.

كانت سيارة الرئيس «لينكولن» ضخمة مكشوفة، زرقاء، تزن أكثر من أربعة أطنان، ذات محركات مضاعفة القوة. وكان بيل غرير، السائق المختص منذ خمسة وثلاثين عاما، يقودها باتقان فائق، فلم يحتج الى اكثر من ست دقائق لبلوغ المستشفى. وكانت حال الرئيس، في ما بدا، ميئوسا منها. كان يرقد دون حراك، ممددا على المقعد الغارق بدمائه. وكان الحاكم كونالي مجروحا جرحا خطيرا، ولكنه لم يفقد الوعي.

كانت الفوضى قد بلغت شأوها خلال ثوان. ولكن حاملي النقالات استطاعوا حمل الجريحين في اللحظة التي بدأت فيها سيارات المرافقين تصل، الواحدة بعد الأخرى، ويتدفق الشرطة ورجال الصحافة، والمباحث الفدرالية، وقد انتشروا جميعا في اروقة المستشفى.

كان الطبيب المناوب شارل كاريكو اول من فحص الرئيس كنيدي. كان جسد الرئيس هامدا. وبؤبؤا عينيه جامدين متسعين، ولم يكن يتنفس. كان جثة او على وشك ان يكون جثة. وقد انقطع النبض. غير ان القلب، بين الحين والحين، كان ينبض نبضة ثم يهمد.

وصل الجراح مالكولم بيري، فخلع سترته، ووضع قفازيه دون ان يغسل يديه، وبعد فحص صامت قصير، بدأ يصدر اوامره.

بُدئت عملية نقل الدم، وشق الحنجرة في محاولة لجعل الجريح يتنفس، واخذ يمسد القلب، خارجياً بحماسة بالغة. واستعان بالصدمات الكهربائية، ولكن مقياس نبض القلب استمر في الاشارة الى ان القلب لا ينبض.

كانت الساعة الواحدة حين خرج بيري يشهق وينتحب، اقترب الدكتور بوركلي، طبيب الرئيس الخاص، من جاكلين كنيدي وقال: «مات الرئيس». بعد دقائق من ذلك، كان العالم كله على علم بالنبأ الفاجع.

صعود آل كنيدي

يمكن القول إن مصير كنيدي الفاجع، هو مصير عائلة كنيدي كلها. ففي القرن السابق، ترك اجداد كنيدي ايرلندا جائعين، وقدموا الى اميركا مع قوافل القادمين الذين لم يكن احد يرغب في قدومهم. فقد كان السكان المحليون ينعتون كل وسخ او حقير بالايرلندي. وكان على القادمين، ليبقوا على قيد الحياة ان يبلغوا غرب اميركا، او القبول بأجر تافه جدا. وقد بقي آل كنيدي في انكلترا الجديدة. غير ان جوزيف كنيدي، استطاع تحقيق ثروة كبيرة، في صفقات جريئة وانصرف الى بيع المشروبات الروحية. وقد اصبح صاحب مصرف وهو في الخامسة والعشرين.

ولد جون فيتزجرالد كنيدي في ٢٩ ايار ١٩١٧. وقضى طفولته في بوسطن. في ذلك الوقت، لم يكن الغني الايرلندي يستطيع اقتحام الطبقة البلوتوقراطية المنعزلة على نفسها، المسيطرة على المدينة. كان يعد «ايرلنديا وسخا». وكانت هذه العبارة ترددها العائلات المهيمنة: «آل لويل لا يتحدثون الى غير آل كابو، وآل كابو لا يكلمون إلاّ الله».

في الثالثة عشرة ارسل جون الى مدرسة داخلية في كنكتيكات. وقد سمح له تفوقه بالانتقال من هارفارد، الى جامعة «لندن سكول اوف ايكونوميكس». ثم قام برحلة الى اوروبا دون هدف محدد. وعام ١٩٣٧، عين روزفلت اباه سفيرا في لندن، وكان ابوه ديموقراطيا متحمسا يدعم روزفلت. وقد احدث التعيين صدمة في بوسطن. ورحلت عائلة كنيدي الى لندن. فاغتنم جون الفرصة ليقوم برحلات اخرى، فزار بولونيا، وتركيا، وفلسطين، والمانيا الهتلرية. وعام ١٩٤٠ استدعي ابوه الى الولايات المتحدة، بعد مواقف سياسية خاصة!.

التحق الابناء بالجيش بعد حادثة بيرل هاربر. وقد قضى الابن جو، مع طائرته، صيف ١٩٤٤. وكاد جون يقضي حين هاجم الطراد الياباني اماجيري، البارجة التي كان يقودها، وذلك في ٢ آب ١٩٤٣، قرب جزر سليمان. وقد جرح، وبقي في البحر ١٤ ساعة، واستعان باثنين من بحارته حتى بلغ احدى الجزر، واستقر فيها سبعة ايام حتى جاء من ينقذه.

عمل بعد الحرب مراسلا صحفيا. وعام ١٩٤٦ اختير عضوا في الكونغرس عن الدائرة الحادية عشرة في ماساشوتس. وكان عمره ٢٩



كنيدي محمولاً على الأكتاف

عاما. وجدد الناخبون انتخابه عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٠. وقد تميز بمواقف «اجتماعية» ولكنه حرص على التقيد بسياسة الرئيس الديمقراطي ترومان. ورشح نفسه ضد المرشح المعروف كابوت لودج الذي لم يكلف نفسه عناء القيام بحملة ضد كنيدي، وكان أن ربح كنيدي بفارق ستمائة ألف صوت. لقد اكتشفت أميركا حيوانا سياسيا ذا دم بارد. كان جسمه جسم بلاي ــ بوي، وكان يبتسم دائماً، ولا يقوى على اخفاء جشعه الى منصب الرئاسة.

عام ١٩٥٣ تزوج جاكلين بوفيـي. وقد كللهما الكاردينال كاشينغ. وكانت السنوات التالية صعبة، اذ ان آثار الجروح التي اصيب بها في الحرب، استدعت لجوءه الى الراحة، والعناية الدائمة، وعملية في النخاع الشوكي، عام ١٩٥٥، وقد طالت مرحلة عودته الى العافية. لذلك اضطر الى لبس مشد لم يفارقه حتى قتل. وقد اغتنم فرصة الراحة ليكتب كتابه «بروفيل ان كارج» الذي فاز بجائزة بوليتزر.

استأنف نشاطه السياسي بحزم. ولكن مواقفه السياسية صدمت بعض مراكز القوى، مما حرمه ان يصبح نائبا للرئيس. ولكنه كسب الرأي العام الأميركي. وقد استعان بفريق عمل ممتاز: اخيه روبير، وسالنجر، وكاتزنباك واعد قانون تموز ١٩٦٠، في لوس انجلس. وقد نجحت جهوده اذ اختاره الحزب الديموقراطي مرشحا للرئاسة. وكانت حملته ضد المرشح الجمهوري ريتشارد نيكسون صعبة جدا، ولكن كنيدي الحاذق استطاع التقرب من الأميركيين، وكسب الرأي العام، وقد فاز بالرئاسة بفارق مائة الف صوت، من اصل ٦٨ مليون ناخب.

في خطابه المؤرخ ٢٠ كانون الثاني ١٩٦١ اطلق الشعار التالي: «لا ما يمكن ان تصنعه بلادكم لكم. ابحثوا عما يمكن ان تفعلوه لبلادكم».



INTERNATIONAL EDITION

The New York Times.

PRESIDENT'S ASSASSIN SHOT TO DEATH IN JAIL CORRIDOR BY A DALLAS CITIZEN; GRIEVING THRONGS VIEW KENNEDY BIER

الصفحة الأولى من جريدة النيويورك تايمز ٢٥ تشرين الثاني ١٩٦٣



اوزوالد

اعترضته صعاب داخلية وخارجية. ومنها تسجيل الطالب الأسود ميريديث في جامعة ميسيسيبي بقوة الحراب. وميزانية الجيش الضخمة، وميزانية صناعة المركبات الفضائية وقد احنق كل ذلك الكونغرس عليه.

وتجددت المصاعب في فيتنام، وفي خليج الخنازير، وفي قضية الصواريخ السوفياتية، التي كان لموقفه منها صدى مستحب لدى معظم الاميركيين. ولكن حظوته لدى شركائه الأوروبيين كانت اكبر.

قصة تكساس

كانت المخابرات الحريصة على حياة الرئيس وزوجته غير متشجعة لرحلة الرئيس الى تكساس. ولم تكن ترى موجبا لها. خاصة وان منطقة تكساس تناصب كنيدي العداء الشديد. ففي ٢٦ تشرين الاول اهانت الجماهير في دلاس، سفير


كنيدي والعائلة


كنيدي مع عائلة كنيدي الايرلندية

الولايات المتحدة في الأمم المتحدة ادلاي ستيفنسون. وقد خشيت المخابرات الاسوأ.

وتكساس اكبر ولاية في البلاد، واكثر شراسة وعنفا. وتقاليدها القتالية، منذ الحرب ضد المكسيك، مشهورة. لذلك يعتبر التكساسي نفسه منذ مولده مقاتلا، ولذلك لم يخترع كولت مسدسه عبثا، او للزينة. وتكساس عنصرية، حتى تجاه الولايات الأخرى. ولا ينسى احد حين سألت تكساس واشنطن: ايجب على تكساس ان تعلن الحرب على اليابان، وذلك عام ١٩٤١.

كان الحزب الديموقراطي في تكساس تجمعا من عناصر غير منضبطة عرضية. اما اكثرية الحزبيين الثابتين، فمحافظون شديدو التمسك بيمينيتهم وثمة قلة ليبرالية يتهمها اخصامها باليسارية والتطرف، بذلت كل طاقاتها لانتخاب كنيدي. ولم يكن المحافظون ليثقوا كثيرا بنائب الرئيس ليندن جونسون. رغم انه كان في نظرهم انتهازيا، ولم يكونوا يؤملون كذلك في جون كونالي، رجل الشركات البترولية.

حين اعدت رحلة الرئيس، كانت الخلافات وسط الحزب الديموقراطي شديدة. ولكن كنيدي كان يطمح الى ان يلتف الجميع حول شخصه.

وكان معظم التكساسيين يرون في كنيدي تجسيدا للشر الأعظم. فهو كاثوليكي، ايرلندي. وكانوا يكرهون منه مبادىء التساهل، والعطف على الفقراء، والتعايش السلمي مع الاتحاد السوفياتي. وكانت جريدتهم العريقة «المورنينغ نيوز» التي تمثل آراءهم، تنتقد كنيدي، بل تنال منه، الى حد الشتيمة. فقد جاء في مقال لها قبل الرحلة، يلمح الى الرئيس واعوانه: «يسكن واشنطن جماعة من المفسدين المتمردين الحقيرين». ووصفت كندي بأنه: «مجنون، خمسين مرة ابله»، وخادم الشيوعية العالمية الرديء.

وقد وزعت، صباح ٢١ تشرين الأول، في شوارع دالاس، خمسة آلاف ملصق، فيه صورة كندي وقد كتب تحتها: «مطلوب بسبب الخيانة». في الوقت ذاته كانت طائرة البوينغ ٧٠٧، المجهزة تجهيزا فخما، تحمل الرئيس نحو سان انطونيو، اول محطة في الرحلة.

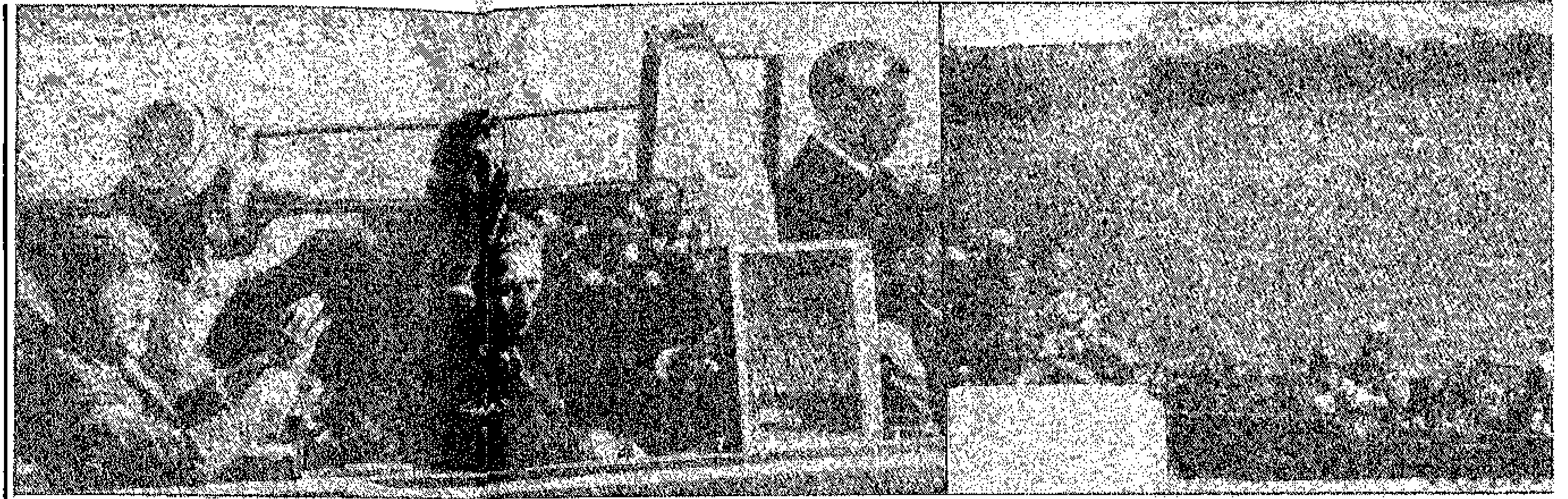
الاغتيال

كان اكثر من مائة الف، في سان فرانسيسكو يصفقون للموكب الرئاسي، موجهين اكثر هتافاتهم الحماسية لجاكي. وكان هذا الحشد من السمر، اذ اغلبهم مكسيكيون، يخفي المدينة القذرة المتربة، التي تملؤها لافتات محطات البنزين. القى الرئيس خطابا قصيرا، ثم طار، بعد الظهر الى هيوستن. وقد بدا ان الرحلة موفقة، ولم يخف ذلك اكثر مستشاري الرئيس تكتما وحذرا.

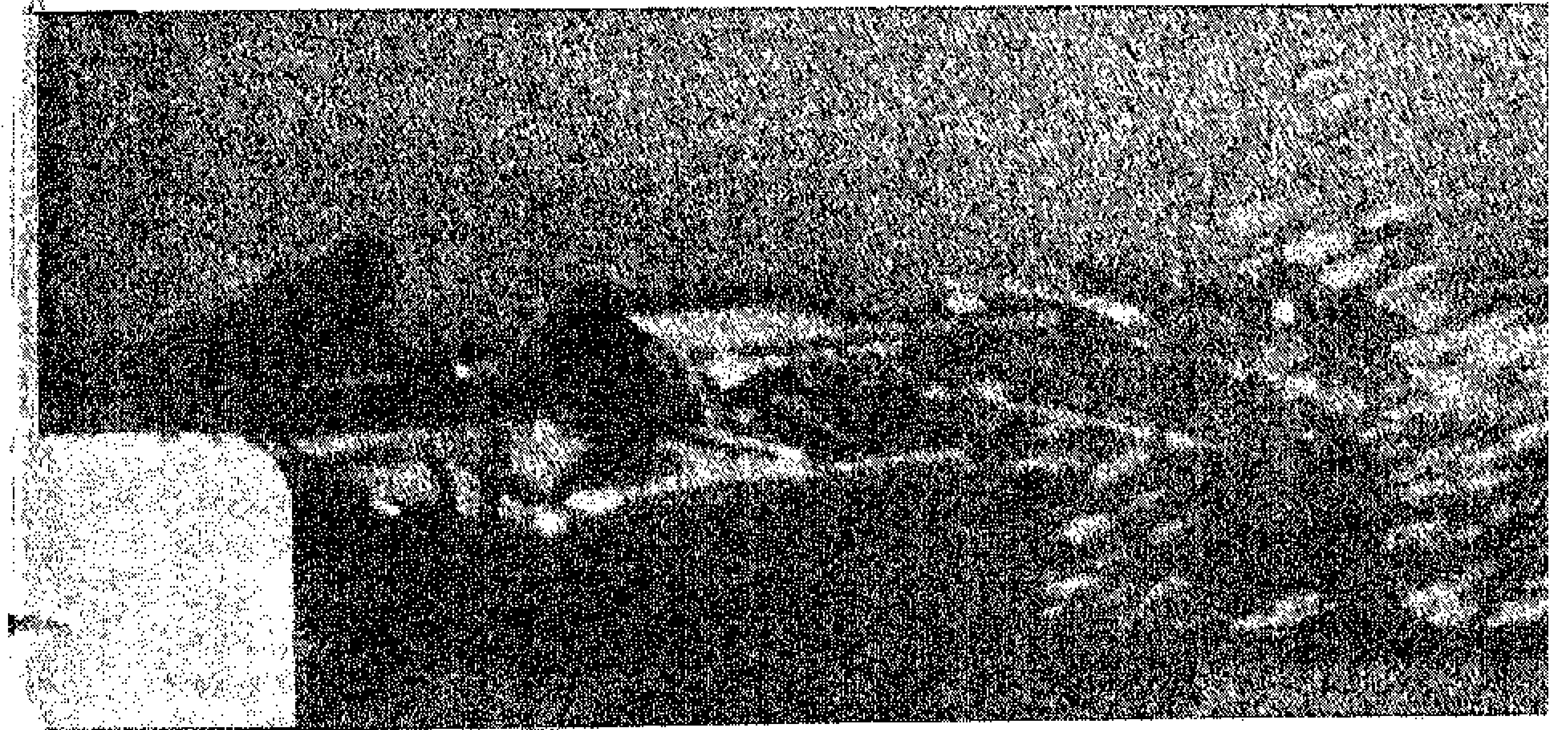
كان الحر شديدا في هيوستن، كحاله في سان انطونيو، ولكن الحفاوة كانت بالغة، رغم ان قلة كانت تحمل لافتات عليها عبارات معادية.

المساء، زار كندي مؤتمرا لاحدى جمعيات الأميركيين الجنوبيين. وقد استقبل استقبالا حارا. ثم عاد الى المطار، حيث نال مع زوجته قسطا من النوم. واستيقظ صباح الجمعة، آخر يوم له على قيد الحياة.

لم ينم رجال المخابرات ذلك الليل إلا قليلا. وجال تسعة منهم، على علب الليل في فورت ورث،



كنيدي قبل الاغتيال في سيارة الرئاسة، وإلى جانبه جاكلين ــ لحظة اصابته، جاكي تنحني عليه، وكونالي مصاب.



وهو امر مخالف للأوامر. وبقي آخرون ساهرين في الفندق. وتلقى المفتشون، في الصباح، اولى نسخ المورنينغ نيوز. وكانت صفحة كاملة منها مؤطرة بالسواد، وفي رأسها هذا العنوان: «اهلا وسهلا في دلاس، يا سيد كندي». ثم تلا ذلك مقال ينطوي على اثني عشر بنداً، تدور حول «تآمر» كندي مع الشيوعية العالمية.

افاق كندي الساعة السابعة والنصف. وكانت السماء تمطر. ساعده وصيفه على ارتداء ثيابه، وتثبيت الحزام الطبي حول وسطه. وقبل الفطور لقي مجموعة من النقابيين، وتحدث اليهم، ثم عاد الى عائلته. وبعد ان قرأ بعناية المورنينغ نيوز، التفت الى جاكي وقال: «اتعلمين؟ سنبلغ اليوم بلاد المجانين».

رحل فريق الرئيس، في نهاية النهار، الى كارسويل. وبعد ثلاث عشرة دقيقة حطت الطائرة في لوف فيلد، مطار دالاس. كان الطقس جيدا وحارا. وكان المؤيدون هناك. لم يكونوا كثرا، ولكن الحشد كان شديد الحماسة. على ان الرئيس لاحظ بعض اللافتات العدائية، وبعض الجامعيين يهتفون «يانكي، اذهب الى بيتك». وصرح الزعيم الديموقراطي في سان انطونيو، هنري غونزالس: «آسف انه لم يخترع اقنعة ضد البصاق، وانني نسيت صداري الواقي من الرصاص».

الساعة الحادية عشرة وخمس وخمسون دقيقة، اجتازت سيارة اللينكولن حدود لوف فيلد، تفسح لها الطريق دراجتان ناريتان. وكان في السيارة الرئاسية، الرئيس وزوجته والزوجان كونالي، ورجل امن. وتبع السيارة سيارة مخابرات، وسيارة نائب الرئيس المكشوفة، وبقية سيارات الصحافة والشرطة.

لم يكن الجمهور كبيرا خلال الكيلومترات الأولى. ولكنه كان يتزايد كلما تقدمت السيارات من مركز المدينة. على النوافذ والسطوح تجمع جمهور غفير. كان التصفيق مع ذلك خفيفاً. وبين الحين والحين كان بعض الجمهور يتحدث الى الموكب. وكان من جملته رجال دين، وكشاف، ومكسيكيون. وكان الرئيس وجاكي يحييان باليد.

دخل الموكب مركز دالاس. وكان الازدحام شديداً، الى حد تجاوز معه الأرصفة. وحين خرجت السيارة من هارووود ستريت انعطفت الى مين ستريت. واضطرت الى تخفيف سرعتها الى خمسة عشر كيلومترا في الساعة، بسبب كثافة الحشد، وكانت ساعة الشارع تشير الى الساعة الثانية عشرة واحدى وعشرين دقيقة. وفي ترايد مارت، حيث اقيمت مأدبة يرعاها الرئيس، كان الجميع مشغولين بالاعداد، فبعد دقائق سيصل الرئيس. وفي ديلاي بلازا، كان رجل يدعى برينان، يترقب الموكب الرئاسي. وكان بشكل آلي ينظر الى البناء المقابل. رأى في الطابق العلوي، عند احدى النوافذ، رجلا لا يتحرك. لاحظه الى حين ثم نسيه، حين سمع صخب الموكب. في هذه اللحظة كان ابراهام زابرودا يعد الكاميرا للتصوير. ولم يكن ينتظر ان فيلمه سيصبح تحفة فنية من الدرجة الأولى.

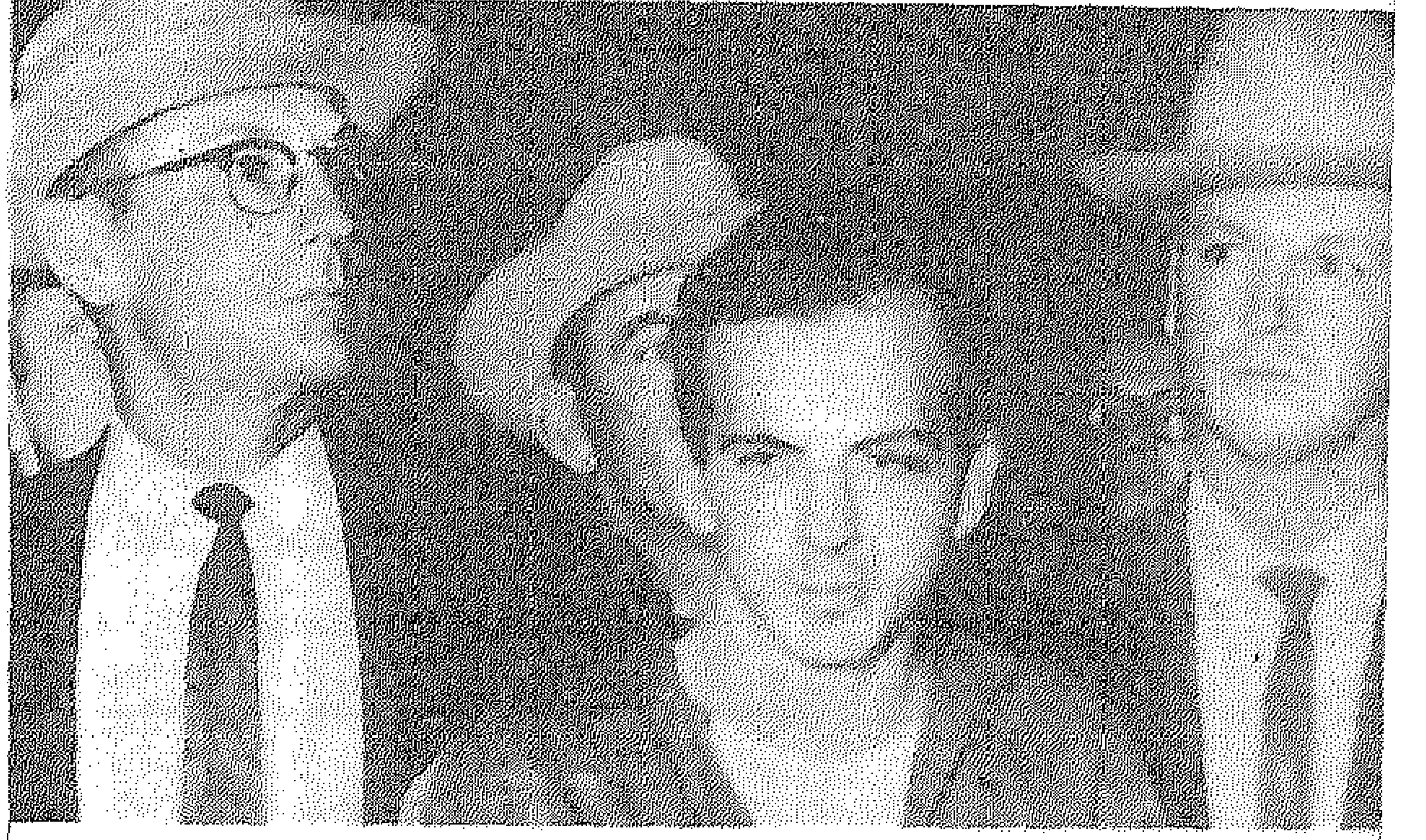
كانت اللينكولن تسير بسرعة ثلاثة عشر كيلومترا في الساعة حين بلغت مين ستريت، ثم انعطفت الى هيوستن ستريت لتنعطف بعد ذلك الى الم ستريت. رفع كندي يده ليحيي احد الأطفال.

الساعة الثانية عشرة وثلاثين دقيقة، سمع صوت انفجار. امتدت يد الرئيس الى رقبته. استمر زابرودا بالتصوير. مرت لحظة فوضى كأنها قرن، لحظة حيرت حتى اقرب الشهود الى المكان. صرخ كندي: «يا الهي لقد اصبت». وصرخ كونالي: «لا، لا، لا، لا، يريدون قتلنا سوية». فقد اصيب كذلك وفيما انحنت جاكي على زوجها، كانت رصاصة اخرى تفجر دماغه. فاذا الدم وبعض الدماغ يلطخ جاكي. لقد مات جون كندي في نظر كل من رآه. وكانت ساعة هرتز المثبتة فوق سطح مستودع الكتب في تكساس سكول تشير الى ١٢،٣٠.

توقيف المتهم بقتل الرئيس كندي لي هارفي اوزوالد ومقتله

نعرف باقي الأحداث... وفي الوقت الذي كان الجميع مشغولا بالمصابين، في مستشفى باركلاند هوسبيتال، بدأت التحريات لمعرفة القاتل.

زعم البوليس المحلي انه المسؤول عن التحريات، بينما البوليس السري والأف. بي. آي لم تكترث له. ذلك ان السلطات الفدرالية قلما







اوزوالد في المؤتمر الصحفي — اوزوالد يعود الى محبسه — روبي يقتله

تتعاون مع السلطات المحلية. وقد يجهل بعضها البعض الآخر. بل قد يبلغ الأمر في تكساس حد الاشتباك بالأيدي. فالتكساسيون يرفضون ان يتيحوا للاتحاديين الملعونين فخر اكتشاف الجرائم.

الساعة ١٢,٤٥ علم الشرطي تيبيت بمقتل الرئيس، وقد اعطى الأمر بالبحث في منطقته واك كليف. وبعد جولة اعطى تقريره الأولي: «لا شيء يثير الشبهات». فأمر بأن يكون مستعدا لكل طارىء. واعطي اوصاف شاب من البيض، اسمر، نحيل، طويل. وكانت الأوصاف غامضة، غير انه قام بجولة ثانية. الساعة ١٣,١٦ لاحظ شابا يمشي على الرصيف، شديد الاضطراب، تنطبق اوصافه على ما اخبر به. ثم اوقف سيارته، صدفة، قرب الشاب. فجاء الشاب واتكأ على باب السيارة، وجرى حوار بين الاثنين. حاول تيبيت الخروج من السيارة، واذا الشاب يستل مسدسا ويفرغ فيه اربع رصاصات، بثبات عجيب.

كان الشاب لي هارفي اوزوالد. وقد هرب بعد اطلاق الرصاص، الساعة ١٣,٤٢. رآه مدير محل احذية. فتبعه، ورآه يدخل احدى السينمات. فأخبر البوليس. الساعة ١٣,٥٠ اقتحمت السينما قوة من الشرطة واعتقلت اوزوالد.

الساعة ١٤,٣٠ بدأ استجوابه في مركز شرطة المدينة. طلبت المخابرات والأف. بي. آي. حضور الاستجواب. كان اوزوالد يبتسم للصحفيين، ويحييهم، وقبضته اليسرى منقبضة.

بعد قليل اذاعت الشرطة بعض المعلومات: اوزوالد، ٢٤ عاما، عاش في الاتحاد السوفياتي اعواما. وكان معروفا بنشاطه السياسي. وقد صرح — حسب الشرطة — بأنه «لينيني — ماركسي».

استعجلت السلطات المحلية بالتصريح ان اوزوالد القاتل الوحيد، كما استعجلت المحاكمة، كأنما لتزيل كابوس التساؤلات عن الشعب الأميركي. وقد استاء وزير العدل روبرت كندي لهذه العجلة، وصرح بأن التحقيق لم يكن سليما.

المساء نفسه، عقد مؤتمر صحفي، في الطبقة الأولى من السجن. وفيما اعتبر اوزوالد المسؤول عن محاولة القتل الثنائية، اعلن المدعي العام هنري ويد: «ان لديه الاثباتات الكافية لادانة اوزوالد». وان لديه خمسة عشر شاهدا يدينونه، ويؤكدون انه المسؤول الوحيد عن الاغتيال. في نهاية المؤتمر، صعد شخص الى المنبر يريد التحدث الى المدعي العام، الذي خيل اليه انه



كنيدي مع خروتشيف

يعرف وجه هذا الرجل، الذي قال له: «ألا تعرفني؟ انا جاك روبي صاحب نادي فيغاس كلاب». فسأله المدعي العام عن قضية اخلاقية اتهم بها من قبل. وفي هذه الأثناء كان روبي يوزع بطاقات دعوة على الشرطة للحضور الى ناديه. كان يبدو مرتاحا تماما. فقد تركه الشرطة يتصرف كما يشاء.

الساعة ١١,٢١ انقض جاك روبي على اوزوالد، وقتله، بكل بساطة. وقد صورت القناة ن. ب. ث المشهد.

نقل اوزوالد الى باركلاند هوسبيتال. ولكن الأطباء اعلنوا الساعة ١٣,٠٧ موته.

ثم اختفى جاك روبي دون ان يترك اثرا!؟.

تقرير وارن نتائج مشكوك فيها

٩ كانون الأول ١٩٦٣، وضعت اللجنة الفدرالية للتحقيق في مقتل كندي، برئاسة وزير العدل وارن، تقريرها بين ايدي الجمهور. وقد اثار التقرير مناقشات وشكوكاً كثيرة.

التقرير في تسعمائة صفحة. بالاضافة الى ٢٦ مؤلف. حول الموضوع. واستجواب ٥٥٢، وعقد ٢٦٥٠٠ جلسة استماع للشهود، وشهود الضد.

وحتى اليوم ما تزال قضية اغتيال كندي، توحي بالشكوك والتساؤلات. فما هي الحقيقة وراء كل ذلك؟. ●

أبوظبي وعلاقاتها الحضارية

في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد

قسم التوثيق والأبحاث

ألقت التنقيبات التي أجريت في هيلي وأم النار ضوءا جديدا على مدى انتشار الفخار الاحمر والرمادي المحزز مع اظهار العلاقة والتشابه بين هذه الفخاريات وتلك التي سبق وان عثر عليها في مدافن شاهي تامب في مكران وكلي في بلوجستان وبامبور في جنوب شرق ايران. وتمتاز الزخارف التي زينت بها هذه الفخاريات بأنها مصبوغة بلون اسود على ارضية حمراء فاتحة اللون وبعض من اللون القهوائي والارجواني والتبني. وتتألف أغلب هذه الزخارف من خطوط متعرجة أو متوازية أو حزوز متقاطعة أو مثلثات. ومما يجدر ذكره فيما يخص فخاريات هيلي عدم العثور على أي رسم للثور المحدب بينما عثر في أم النار وفي كلي في بلوجستان على جرتين فخاريتين يظهر عليهما الثور ذو السنام وقد اعتيد على رسم ثور أم النار بلون أسود على ارضية حمراء. ومن الميزات الاخرى لفخاريات هيلي عدم وجود اي نوع من الطلاء أو صور للنباتات. اذ ان مثل هذه الفخاريات سائدة في مدافن العصر الحجري المعدني في منطقة مكران في بلوجستان حيث تتشابه من حيث اللون وطريقة الصنع والزخرفة الهندسية.

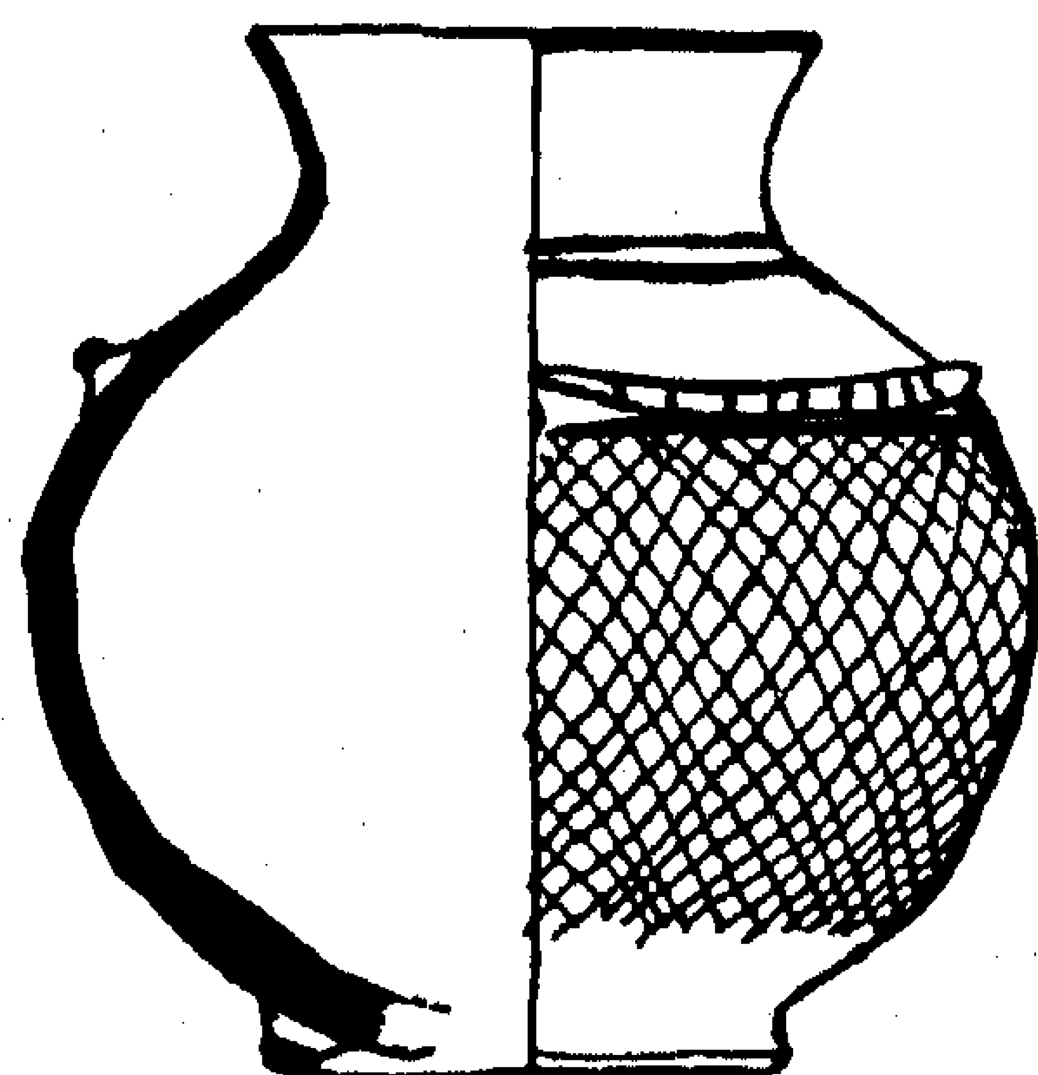
وفي الطبقة الرابعة من موقع بامبور في جنوب شرق ايران عثر على مواد ذات علاقة بحضارة كلي. ويبدو من الواضح وجود تشابه عام بين اواني أم النار وبين اشكال ونقوش في بامبور، وكذلك الحالة بالنسبة الى موقع مندكاك في جنوب افغانستان.

ان اقرب الاشكال المتشابهة بين هذه الحضارات هي في الفخاريات الرمادية اللون (Grey ware) الملونة بالاسود وهي تمثل اواني صغيرة ذات اشكال جؤجؤية (Carinated) عليها زخارف هندسية أو افاريز من الغزلان أو الماعز لونت بلون قهوائي أو أسود.

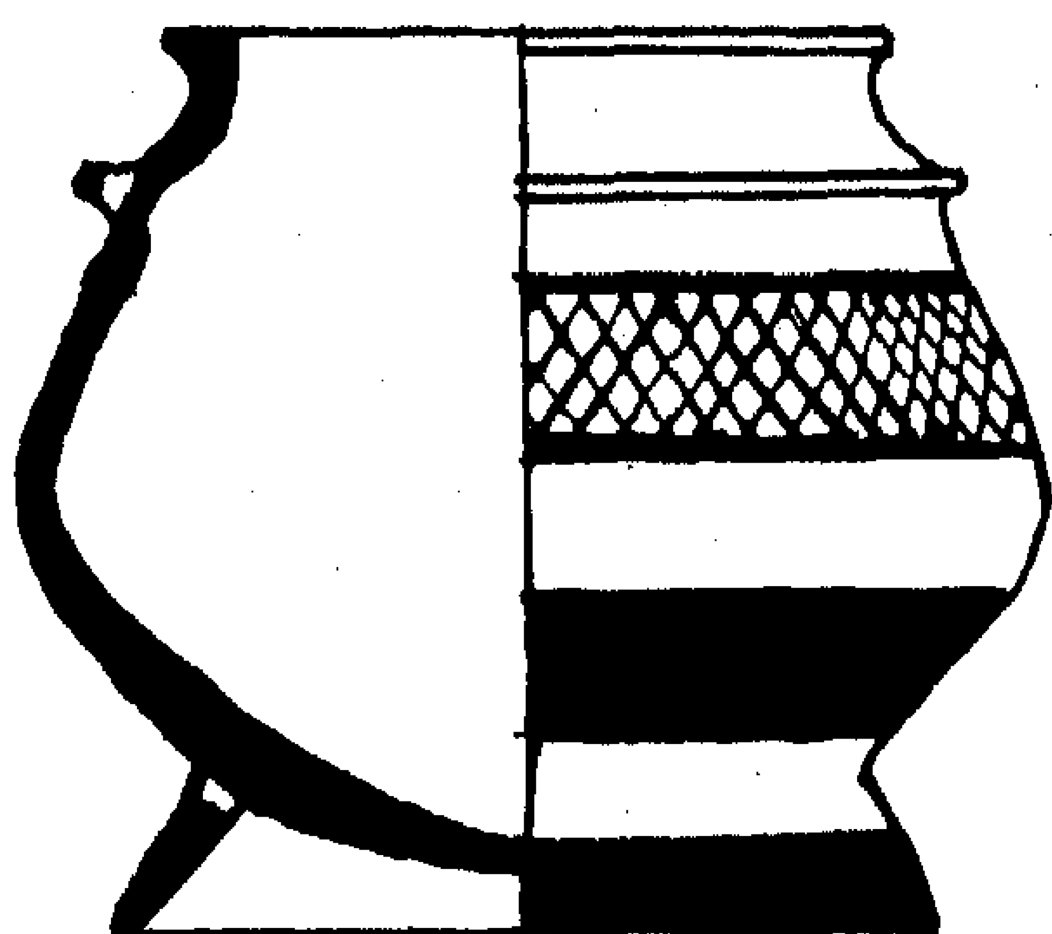
وفي التنقيبات التي أجريت مؤخرا في المدفن (ب) في هيلي عثر على كميات كبيرة من كسر الفخار الرمادي مزخرفة بلون اسود بأشكال هندسية كالخطوط المتوازية والمائلة والمثلثات وهي تتشابه مع مثيلاتها في مدافن شاهي تمب وبامبور. ومن الاشكال الاخرى التي تشاهد على هذا الفخار رسوم حيوانات محورة ذات قرون بصفوف متراصة متتالية وقد تمثل ذلك في جرة كبيرة واحدة وثلاث اقداح صغيرة. وقد وجدت كذلك صور للماعز يستدل منها على التحول الى الرسم الزخرفي للحيوانات بشكل دقيق أقرب الى الطبيعة. لقد عثر على فخاريات تحمل مثل هذه الزخارف في موقع شاهي تمب وكلي وتشمل زخارف هندسية وافاريز وأحزمة ذات طابع متميز حيث يتكرر منظر حيوانين أحدبين مع أرضية وخلفية من الشجيرات والاعشاب مع صفوف الماعز المحورة.

اما فيما يخص موقع ماهي في الباكستان فتتشابه فخارياته مع فخاريات هيلي وأم النار ولمثل هذه الفخاريات أرضية حمراء خفيفة تمثل أوعية عالية وواسعة وجرار كروية مع اقداح وجرار ذات قواعد مسطحة أما زخارفها فتسود عليها الخطوط المتوازية التي تشكل أحزمة

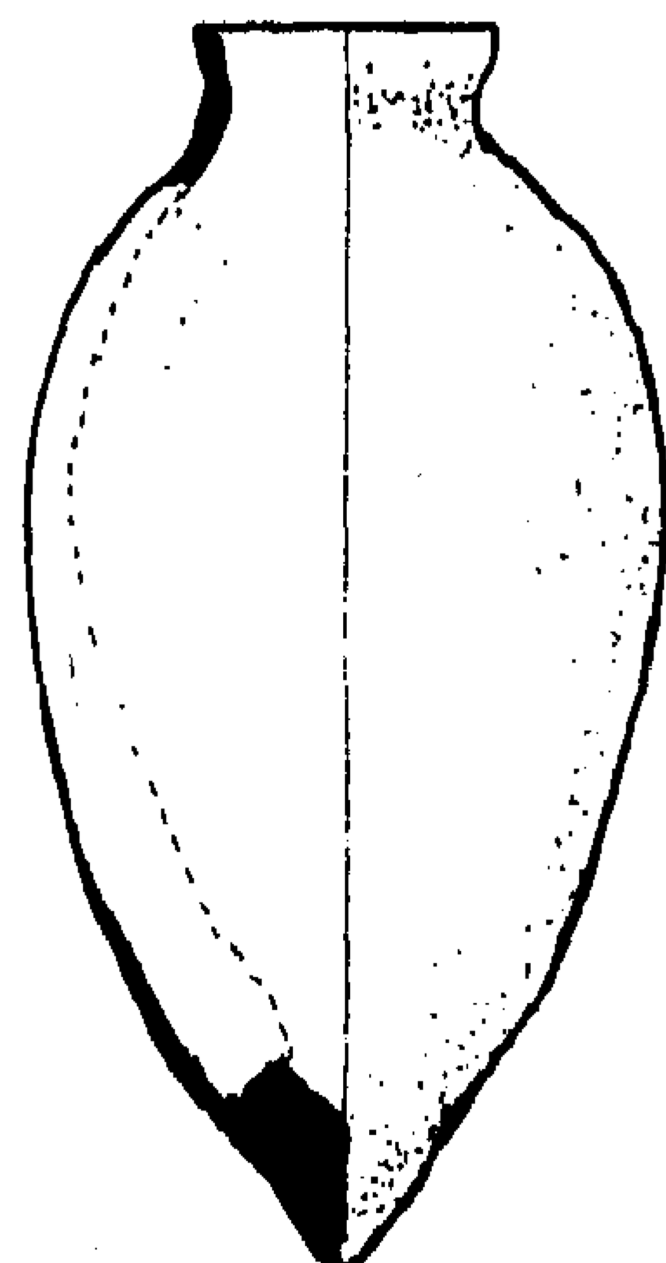
لحضارة هيلي وأم النار في أبوظبي علاقة قوية بالحضارات التي سادت في المنطقة في حوالي منتصف الالف الثالث قبل الميلاد، وكما ذكرنا لم تكن هذه الحضارة بمعزل عن حضارة وادي الرافدين أو جنوب ايران أو حضارة وادي السند. لقد اثبتت الحفريات التي جرت في هذين الموقعين (هيلي وأم النار) وجود مثل هذه العلاقة من خلال التشابه المعروف في الاواني الفخارية أو الحجرية بجميع أنواعهما. وسنقدم فيما يلي استعراضا لهذه العلاقات التي توصل اليها من خلال نتائج التنقيبات في جميع المواقع التي سترد في هذا البحث.



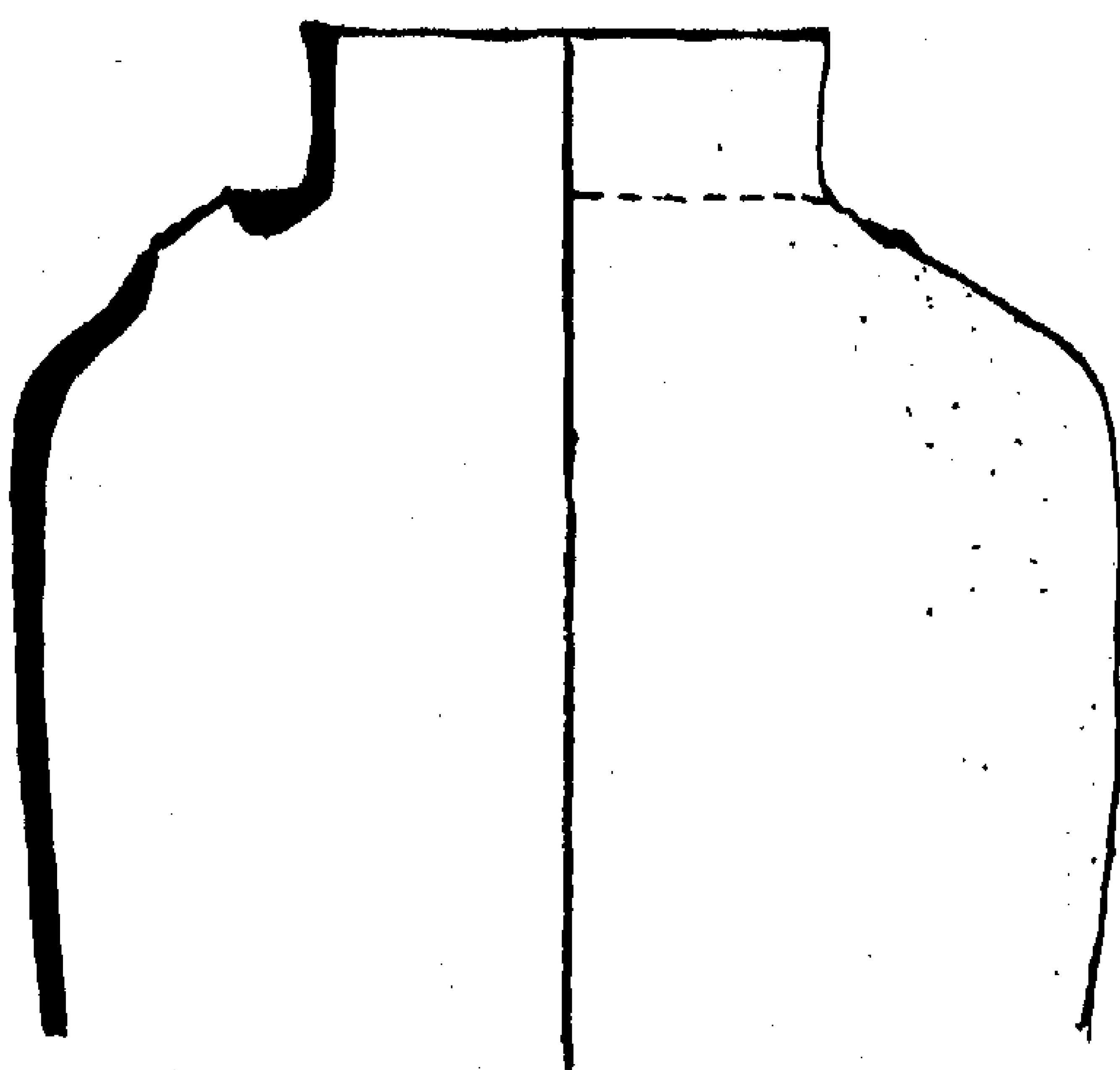
شكل (ا) رسم جرة فخارية من هيلي.



شكل (ب) رسم جرة فخارية من تل اجرب.

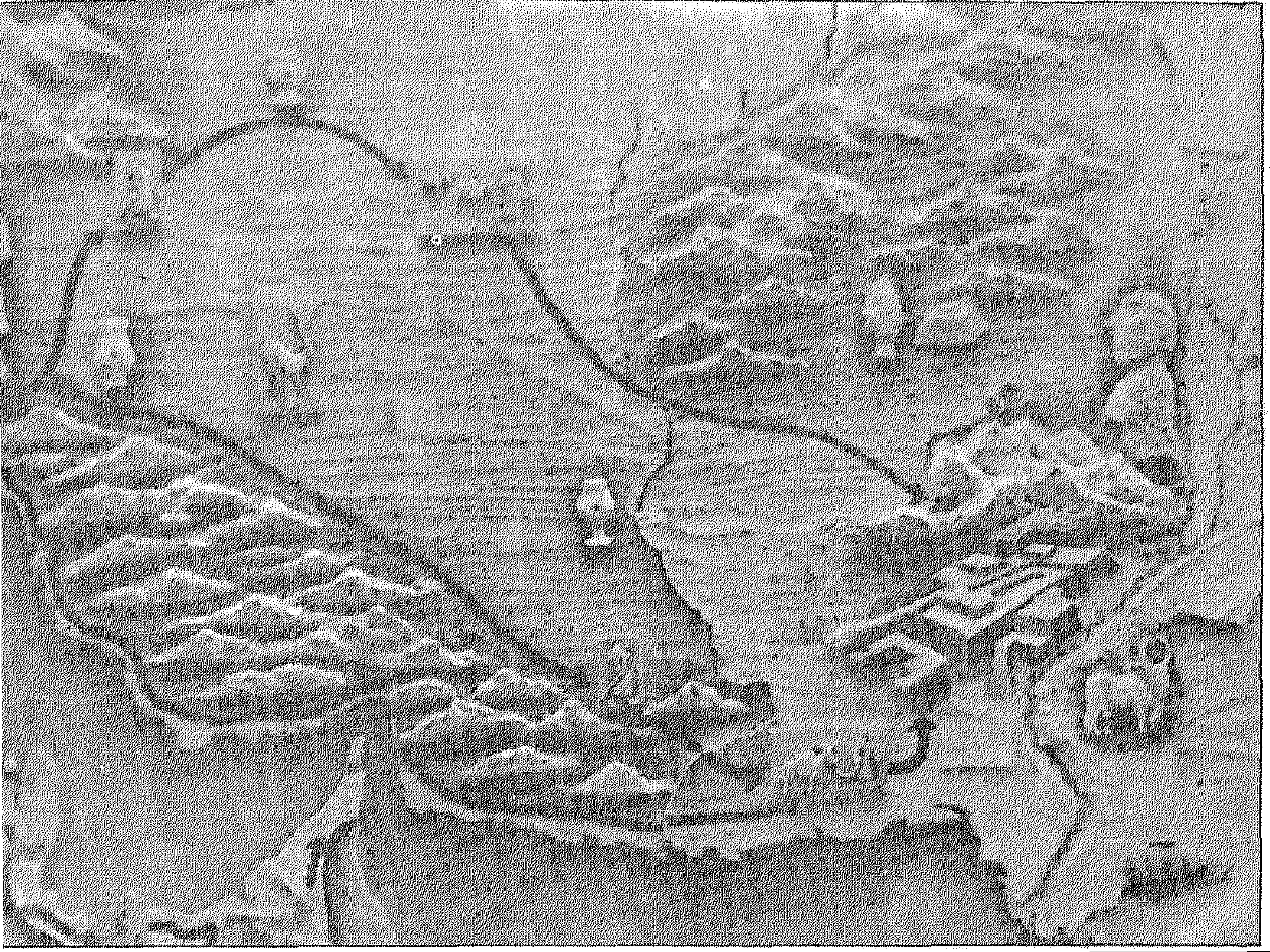


شكل (ج) رسم جرة فخارية من جبل حفيت.



شكل (د) رسم جرة فخارية ذات مصب من ام النار.

اخذت عن مجلة (Kuml) ١٩٧٠



خارطة عامة تبين طرق انتقال الحضارة في الألف الثالث قبل الميلاد.

وخطوطاً متموجة تدور حول الاناء نفسه. وكذلك الحال بالنسبة الى موقع شاهي تمب، فطريقة صنع هذه الاواني وزخارفها وأشكالها شبيهة بما وجد في هيلي وأم النار ويسود بينهما طابع عام هو الفخار الكروي الشكل والاقداح الحمراء الصغيرة ذات الجدران الرقيقة. ومثل هذا النوع من الفخار لا يستعمل ضمن الادوات البيتية بل يستعمل في المدافن والطقوس الدينية فقط لان قابليته للكسر كبيرة.

ولو أردنا ان نبحث في فخاريات هيلي وأم النار لوجدناها واحدة تقريبا مع اختلافات بسيطة جدا فكلاهما معمولان بواسطة العجلة ويغلب عليهما اللون الاحمر، وقد استعمل الصبغ الاسود في تزيينهما. وبالاضافة الى الفخاريات الرمادية الملونة بالاسود والتي سبق ذكرها فهناك الفخاريات الرمادية المحروقة بشدة والتي تحمل زخارف محززة ومن المتحمل ان تكون تقليدا لاواني الحجر بصفات معينة. وتجدر بنا الاشارة الى ان مثل هذه الفخاريات عثر عليها في اماكن متعددة اعتبارا من وادي السند الى وادي الرافدين وحتى مدينة ماري في أقصى الغرب، ويغلب على هذه الفخاريات الشكل الاسطواني. اما الزخارف فأغلبها هندسية قوامها مثلثات مخططة أو خطوط متموجة ومتقاطعة وكذلك زخارف معمارية تمثل مداخل وشبابيك جانبية. لقد أرخت مثل هذه الفخاريات والتي عثر عليها في وادي الرافدين بنهاية فجر السلالات الثاني في حدود ٢٦٠٠ قبل الميلاد وكذلك فجر السلالات الثالث حوالي ٢٦٠٠ ــ ٢٣٧٠ قبل الميلاد. وقد عثر على قسم قليل من هذه الفخاريات في أم النار. وكذلك بالنسبة الى هيلي فالفخاريات المكتشفة فيها لا تمثل الا نسبة قليلة من عموم الفخاريات وهي لا تزال غير معروفة الاصل تماما ولكنها معروفة في وادي الرافدين وجنوب شرقي ايران وبلوجستان. وفي موقع بامبور عثر على كميات من الستيتايت جنبا الى جنب مع الفخار

لجرة اخرى وجدت في تل أجرب في منطقة ديالي قرب بغداد (الشكل ب). ولهذه الجرة شريط مضاف يدور على أعلى البدن عليه أربعة ثقوب للتعليق وكذلك القاعدة اذ تلاحظ عليها أربعة ثقوب أخرى.

لقد أرخت جرة تل أجرب بعصر فجر السلالات الاول ٢٩٠٠ ــ ٢٧٠٠ قبل الميلاد. ولم تكن جرار التعليق معروفة في أم النار لكن كسرا من هذه الجرار وجدت في المستوطن المجاور.

ولا بد في هذا المجال من التطرق الى جرتين مفيدتين للمقارنة أحداهما ذات مصب كشفت في أحد مدافن أم النار (الشكل د). ورغم ان القاعدة والجزء السفلي من هذه الجرة مفقود الا ان الرقبة المستدقة والكتف الجؤجؤي الشكل وكذلك المصب الملاصق للرقبة تذكرنا بجرار اخرى مشابهة عثر عليها في خفاجي وتل أجرب في وادي الرافدين وقد أرخ هذا النوع من الجرار بفجر السلالات الاول ولكنه استمر في فجر السلالات الثاني والثالث. ومن الجرار الاخرى التي تشير الى وجود علاقة حضارية بين منطقة أبو ظبي ووادي الرافدين هي الجرة المبينة في الشكل (ج) وهي ذات بدن كمثري الشكل وقاعدة مدببة ورقبة طويلة مائلة للخارج لونها يميل بين الاحمر والقهوائي. اما طينتها فممزوجة بدقائق الحصى الناعم، ومثل هذه الجرار معروفة في المقبرة الملكية في أور، حيث أرخت أغلب هذه المدافن والبالغ عددها ٣٦ مدفنا لفترة أقدم وهي في كل الاحوال ليست أقدم من فخر السلالات الثاني ربما تكون من عصر فجر السلالات الثالث (٢٦٠٠ ــ ٢٥٠٠ق. م) وفي أبو ظبي عرف هذا النوع من الفخاريات في أم النار فقط حيث عثر على عدة قطع فخارية من هذا النوع في احد المدافن بينما عثر على حافات من هذا النوع في المستوطن المجاور.

اما بالنسبة الى البحرين فقد كانت في تلك الحقبة حضارية تمثل مركزا مرموقا في عالم التجارة ومما يجدر ذكره لم يعثر في أبو ظبي على أية فخاريات من عصر باربار المعروف في البحرين، بينما العكس فقد وجدت فخاريات من هيلي وأم النار في البحرين. ●



جرة من الفخار الاحمر مزينة بزخارف هندسية اكتشفت في أحد مدافن ام النار (الألف الثالث قبل الميلاد)

المحزز، بينما عثر في الطبقة الرابعة من موقع تبه يحي في جنوب ايران على كميات كبيرة من الستيتايت دون ان يعثر على فخار رمادي محزز. اما هيلي وأم النار فقد عثر في مدافنهما على كسر قليلة من الستيتايت اضافة الى الفخاريات الرمادية المحززة. ان أشكال اواني الستيتايت من هذين الموقعين اما أن تكون اواني صغيرة مزينة بدوائر منقطة أو كسر من اواني مقسمة (أنظر الشكل أ) تحمل نفس النقوش الهندسية.

ومن مكتشفات هيلي غير الاعتيادية اناء من حجر الستيتايت الاسود الصقيل ولهذا الاناء نظير عثر في المقبرة الملكية في أور. وفي أربعة قبور من مقابر المقبرة الملكية عثر على أربعة أشكال مشابهة لاناء هيلي لكنها صنعت من حجر مختلف، وقد وجدت ثلاثة من هذه الاواني جنبا الى جنب مع فخاريات معروفة في أم النار. وفي مدفن هيلي الكبير عثر على جرة فخارية مشابهة

العلاقات التجارية بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البندقية (١١٧١ - ١٢٥٠م)

محمد الفاكياني


صلاح الدين الأيوبي.

تعتبر العلاقات التجارية، بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البندقية، من الموضوعات ذات الأهمية في تاريخ العصور الوسطى، وأن هذه العلاقات قامت في فترة كان فيه الصراع العربي ـ الفرنجي ـ الصليبي ـ من ناحية، والنزاع بين القوى البحرية والتجارة الأوروبية، للسيطرة على التجارة الشرقية من ناحية ثانية. وفي غمرة هذا الصراع السياسي والعسكري وفي المحادثات الاقتصادية والثقافية، الذي نتج منها عن الاحتكاك بين الشرق والغرب في عصر الحروب الصليبية.

قامت العلاقات التجارية بين السلطنة الأيوبية، وبين الجمهورية البندقية، التي تصدت لها بنجاح كبير للخطر الصليبي، وبين الجمهورية البندقية التي لعبت دورا كبيرا وخطيرا في الحركة الصليبية، سواء كان في نقل الصليبيين إلى الشرق على سفنها وأساطيلها، أو في مساعدتهم على احتلال بعض المدن والمواقع في الساحل الشامي، (في تثبيت الوجود الصليبي وحمايته عن طريق الاتصال البحري بين الامارات الصليبية والغرب الأوروبي من جهة، ونقل المؤن والأسلحة والقوات إلى هذه الامارات في المدن الصليبية، من جهة أخرى).



من هنا تأتي أهمية هذه العلاقات، التي تضاربت فيها المصالح والأهداف مرة، والتقت وتقاربت مرات، وتآلفت واندمجت وتنافرت وتباعدت في بعض الأحيان، وفقا لمقتضيات الظروف والأحوال، وتبعا لتغير ميزان القوى في الصراع العربي ــ الصليبي، في الشرق الأدنى.

الحالة الاقتصادية لمصر والشام في العصور الوسطى

لعبت مصر والشام في العصور الوسطى، دورا هاما لتنشيط الحركة التجارية ولجذب التجار الفرنجة وتجار البنادقة للاستفادة من هذه الفئة الاقتصادية ولتنشيط وتشجيع الحركة التجارية داخليا وخارجيا فموقع مصر الاستراتيجي التي جعلها أن تكون حلقة وصل بين الشرق والغرب، وسوقا عالميا للتبادل التجاري بين أفريقية وآسية وأوروبة. هذا كان قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح، في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي.

وقد احتل البحر الأحمر أهم الطرق التجارية التي تدفقت من خلاله تجارة الشرق الأقصى إلى موانىء الغرب الأوروبي. وفضلا عن ذلك فضل التجار الفرنجة التوجه إلى أسواق مصر للحصول على التوابل الهندية والحرير الصيني، عوضا عن الارتحال إلى شواطىء الخليج العربي لبعد المسافات الطويلة وغير الآمنة.

ولم تقتصر أهمية مصر على موقعها في حركة التجارة الدولية، وإنما امتدت هذه الأهمية لتشمل الثروة الاقتصادية التي امتلكتها مصر، وبخاصة مادة حجر الشب. وقد تطلبت الصناعات النسيجية في الغرب الأوروبي، في العصور الوسطى، استخدام حجر الشب بشكل واسع النطاق: وذكر ابن مماتي (أن الشب حجر معروف بمصر يستعمل إلى أشياء كثيرة أهمها لصبغ الألوان وخاصة اللون الأحمر، ولشدة فائدته عند الأفرنج والبنادقة هو حاجة أساسية إليه لا بد عنه، هذا مما جعل البنادقة يميلون إلى الأسواق المصرية). للتفتيش عن السلع والحاجيات مثل السكر والنطرون والبلسم وغيرها من السلع التي كانت موضع اهتمام التجار البنادقة، وغيرهم من التجار الفرنجة، في العصور الوسطى.

أما بالنسبة إلى بلاد الشام فإنها لم تكن أقل من أهميتها التجارية عن مصر في العصور الوسطى: فقد لعب التجار الشاميين دوراً عظيماً مما لفت أنظار العالم نحو الشام لجلب بضائع الشرق الأقصى إلى المدن الشامية عن طريق الخليج العربي وآسية الصغرى ومصر: وقد شكلت هذه المدن بدورها محطات تجارية بالغة الأهمية ما بين الشرق والغرب. وفضلا عن ذلك فإن ثروات بلاد الشام، وبخاصة القطن والسكر والزجاج وغيرها من السلع، التي كانت موضع الاهتمام بالنسبة لتجار الفرنجة بصفة عامة وتجار البندقية بصفة خاصة.

وعلى الرغم من أنه لا تعرف البداية الحقيقية للعلاقات التجارية بين جمهورية البندقية ومصر والشام، إلا أن هذه العلاقات تعود إلى القرن التاسع الميلادي، حيث حمل البنادقة، خلال ذلك القرن، إلى موانىء هذين البلدين المنتجات المتوفرة في المناطق المحيطة بمدينة البندقية مثل الأخشاب والحديد وغيرها. وفي القرن العاشر الميلادي قد توغل التجار البندقيون في الشرق الأوسط مما جعل علاقات ودية بين البنادقة والفاطميين (٣٥٨ ــ ٥٦٧هـ = ٩٦٩ ــ ١١٧١م). مما شجع التجار الفاطميين لاستيراد مواد البناء لمصر والشام مثل الحديد والأخشاب للبناء وبناء السفن. وقد استشاطت الدولة البيزنطية غضبا من الجمهورية البندقية، وراحت توعز إلى الحكومة البندقية بأن لا تسمح بتصدير الأخشاب إلى أسواق مصر والشام، وبالإضافة إلى ذلك فقد هدد الامبراطور البيزنطي حنا تزيمسكيس (٩٦٩ ــ ٩٧٦م) بالانتقام من البندقية إذا لم تمتنع عن مد الفاطميين بالخشب الذي يصلح لعمارة السفن، وذلك كله حتى لا يشتد ساعد الأسطول الفاطمي الذي كان يقف للبحرية البيزنطية بالمرصاد.

فقد اختارت الجمهورية البندقية حفظا على مصالحها الاقتصادية في مصر والشام، وإرضاء أباطرة الدولة البيزنطية، أجازت لتجارها نقل خشب اللبخ والسنديان، على ألا يتجاوز طول اللوح الواحد خمسة أقدام: وأرسل دوج



الرمز والمضمون: في حملات الدعاية الصليبية، ظهر الأسد، وهو شعار يرمز به الاوروبيون لأنفسهم ــ يلتهج الجمل على ثوب التتويج الذي اختاره روجر الثاني.

البندقية بطرس أورسيلو سفيرا إلى مصر من أجل معاهدات تجارية بين مصر والجمهورية البندقية عام (١٩٩ ــ ٢٩٩م)، وبواسطة هذا السفير الدبلوماسي تمكنت الجمهورية البندقية من الحصول على امتيازات تجارية واسعة النطاق في الموانىء المصرية.

سياسة صلاح الدين الأيوبي التجارية

كان السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧ ــ ٥٨٩هـ = ١١٧١ ــ ١١٩٣م) قد وضع قواعد أساسية لسياسته التجارية، استهدفت منها إقصاء التجار الأوروبيين جميعا من التجارة الداخلية في دولته: والتزم سلاطين الأيوبيين والمماليك بهذه السياسة، من بعده، عدة قرون. وجاء في المصادر العربية المعاصرة أن السلطان صلاح الدين الأيوبي كان يدرك تماما بأن محاولات الفرنجة الصليبيين، تحت قيادة أرناط (رينوددي شاتيون) وأن أرناط فارسي صليبي الأصل كان في خدمة الملك الفرنسي لويس السابع عندما وصل إلى الشرق حاكما لحصن الكرك، وأخذ بمهاجمة قوافل الحجاج المسلمين وهم في طريقهم إلى الديار الحجازية. وفي عام ١١٨٢ أقدم أرناط على مشروع خطير استهدف به تحقيق سيادة الفرنجة الصليبيين على البحر الأحمر وغزو مكة والمدينة. ولم يقف صلاح الدين الأيوبي مكتوف الأيدي حيال هذا التهديد للحرمين الشريفين مما جعله يجهز الأسطول البحري في البحر الأحمر وتمكن الأسطول الأيوبي من تحطيم السفن الصليبية وإفشال مشروع أرناط للنفاذ إلى منطقة البحر الأحمر، عام ١١٨٢ ــ ١١٨٣م) وبما أن الصليبيين لا يرغبون في الاستيلاء على الأراضي المقدسة في بلاد الشام فحسب وإنما يطمعون ايضا بتوسيع نفوذهم إلى الحجاز والاستيلاء على البحر الأحمر ومحطاته التجارية.

وقد أرسل صلاح الدين رسولا من طرفه يحمل رسالة إلى الخليفة العباسي في بغداد، يشرح بها أهداف الفرنجة من محاولتهم غزو منطقة البحر الأحمر، قائلا: (كان للفرنج مقصدان: أحدهما قلعة أيلة، التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله، والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله، وانقسم الافرنج إلى فريقين، وسلكوا طريقين: فأما الفريق الذي قصد قلعة أيلة فإنه أراد أن يمنع أهلها من الماء الذي به قوام الحياة، ويقاتلهم ويستعمرهم بنار العطش. أما الفريق الثاني القاصد سواحل الحجاز واليمن، فأراد أن يمنع طريق الحاج من حجه، ويحول بينه وبين

مقصده. وذهبت فئة من تجار اليمن وأكارم عدن الذين هم مجموعة من التجار المسلمين الذين قاموا بنقل سلع وبضائع الشرق الأقصى من اليمن إلى مصر، وخاصة التوابل والفلفل والبهار. وقد استمر نشاط تجار الكارم ما بين القرن الثاني عشر وأواخر القرن الخامس عشر وهم يعملون بهذه التجارة (حتى سموا بتجار التوابل والفلفل والبهار).

وفي عهد صلاح الدين لعبت جمهورية البندقية دورا مزدوجا في علاقاتها مع الأيوبيين والصليبيين، فمن جهة كانت تمد يد المساعدة للصليبيين لمواجهة السلطان صلاح الدين، وذلك حرصا على امتيازاتها التجارية في المدن والأمارات الصليبية: ومن جهة أخرى كانت تقوم بنقل السلع والبضائع، وخاصة منها الأسلحة وأدوات القتال، إلى الأيوبيين في مصر والشام. ولقد أشار السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى هذه الحقيقة في الرسالة التي بعثها إلى الخليفة العباسي، الناصر لدين الله، في بغداد، عام ٥٧٨هـ = ١١٨٢م، والتي جاء فيها: (ومن هؤلاء البنادقة والبياشنة والجنوية) كل هؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضرهم، وتارة يجهزون سفارا يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة. وما منهم إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده، وربما هذا يفسر السياسة السمحة، التي عامل بها السلطان صلاح الدين الأيوبي الجالية البندقية في عكا عندما اقتحمها عام ٥٨٣هـ = ١١٨٧م.

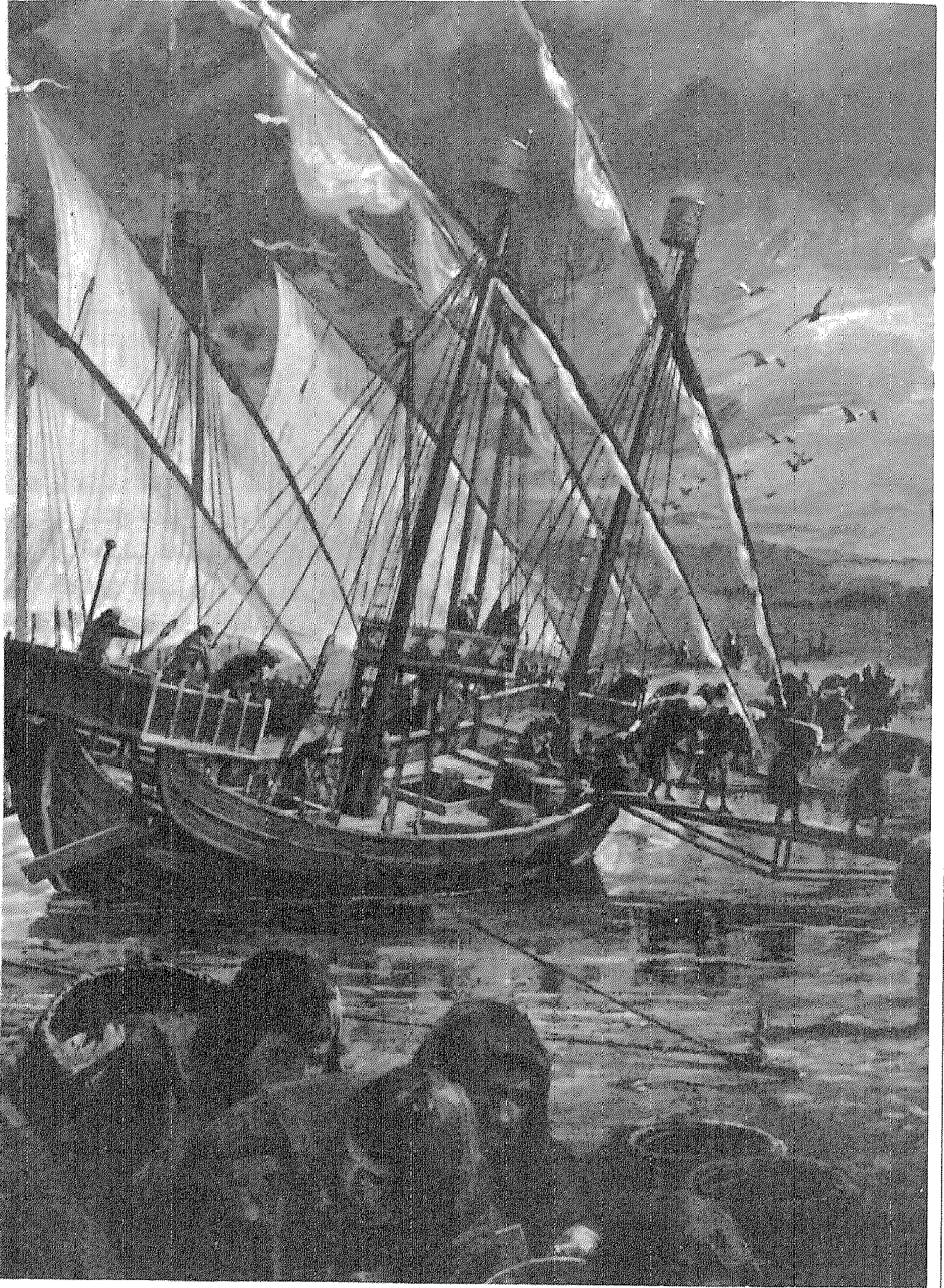
وفي أعقاب فتوحات صلاح الدين الأيوبي وفشل الحملة الصليبية الثالثة في استرداد بيت المقدس ضعفت العلاقات التجارية بين البندقية والأيوبيين، وذلك نتيجة ضغط البابوية، والرأي العام الصليبي والأوروبي، على الجمهورية البندقية لقطع علاقاتها التجارية مع العرب والمسلمين في مصر والشام، وقد حرصت البابوية أشد الحرص على الجمهورية البندقية وبخاصة منذ قيام الحركة الصليبية، الذي دفع البابا إلى أخذ هذا القرار عندما هزمت الصليبيين في حطين، وعندما وقع أرناط أسيرا في قبضة السلطان صلاح الدين الأيوبي قتله وفاء بوعده الذي قطعه على نفسه. وعندما فتح صلاح الدين بيت المقدس عام ١١٨٧م وكان لهذا الانتصار أيضا رد عنيف في المغرب الأوروبي. وسرعان ما قامت الحملة الصليبية مرة أخرى اشترك فيها فردريك بربروسا امبرطور ألمانيا وفيليب اغسطس ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا. وقد فشلت هذه الحملة في تحقيق هدفها وهو إعادة احتلال بيت المقدس واسترداد ما حققه صلاح الدين الأيوبي.

والواقع أن المراسيم البابوية لم تفلح في قطع العلاقات التجارية بين البندقية والأيوبيين، وفي أعقاب الفتوحات التي حققها السلطان صلاح الدين الأيوبي: فكثرة الأوامر والمراسيم البابوية المتعلقة بتحريم المتاجرة مع العرب المسلمين، التي صدرت حينذاك، تدل دلالة قاطعة على أن العلاقات التجارية بين الجمهورية البندقية والأيوبيين لم تتوقف بتاتا، وهذا مما دعا البابوية إلى تكرار مثل ذلك. وفضلاً عن هذا كله فقد أثبتت هايد أنه خلال شتاء عام (١١٨٧ ــ ١١٨٨م) أي في العام الثاني على فتح صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس كان في ميناء الاسكندرية حوالي سبعة وثلاثين مركبا تجاريا من جنوة وبيزا والبندقية، ومن الواضح أن أكثر التجار الفرنجة كانوا يأتون إلى مصر في فصل الربيع والخريف. لقضاء العطلة والاستجمام والراحة.

وإذا كانت البندقية قد استجابت، في بعض الأحيان، لنداءات البابوية ومراسيمها بشأن تحريم المتاجرة مع العرب المسلمين، فإنها لم تفعل ذلك خوفا من الحرمان الكنسي أو الرأي العام الصليبي والأوروبي، وإنما رغبة منها في توسيع امتيازاتها التجارية في المدن والأمارات الصليبية: وإن هذه الامتيازات التي كانت تمنح للبنادقة بوجه خاص لتقديمها المساعدات للصليبيين ووقوفها إلى جانبهم في القتال ضد الأيوبيين.

المعاهدات التجارية

احتفظت البندقية بعلاقات ودية مع السلطان الملك العادل الأيوبي (١١٩٩ ــ ١٢١٨م) خاصة وأن الملك العادل كان يرغب في تعزيز العلاقات



جبهة على الماء: لعبت اساطيل الصليبيين دوراً أساسياً في معارك عكا وبيت المقدس، ووقع عليها عبء توفير ادوات الحصار وايصال الامدادات وتامين زحف الجيش على طول سواحل الشام، لكن الغريب ان الأسطول المصري، الذي كان قادراً على تحطيمها بيسر، لم يقرر أن يتصدى لها بأي قدر من الجدية.

التجارية بين سلطنته وجمهورية البندقية، فإحدى الوثائق التي تعود إلى عام ١٢٠٠م، تؤكد استمرار نقل البنادقة، على سفنهم التجارية للأسلحة والأخشاب إلى الموانىء المصرية، كما أن البندقية أبرمت مع السلطان الملك العادل الأيوبي أقدم معاهدة تجارية، مع مصر، وذلك عام ١٢٠٨م، على يد السفيرين مارنبوا داندولو، وبطرس ميخائيل. واشتملت هذه المعاهدة على منح البنادقة امتيازات وتسهيلات تجارية في الموانىء المصرية، وقد تعهد السلطان بحماية البنادقة في المناطق التابعة له، ومعاملتهم كأبناء أمة صديقة.

بهذه المعاهدة لعبت البندقية دورا كبيرا في تحويل الحملة الصليبية عام ١٢٠٢ ــ ١٢٠٤م عن هدفها الأساسي، وذهب بعض الباحثين المحدثين. أمثال (ماس لاتري، وكارل هويف) إلى القول أن البندقية قامت بتحويل الحملة عن مصر نتيجة الاتفاق السري. الذي تم توقيعه بين الحكومة البندقية والسلطان الملك العادل الأيوبي، وذلك في تاريخ ١٣ مايو عام ١٢٠٢م، اشتملت هذه المعاهدة على منح البنادقة امتيازات تجارية سخية في الاسكندرية، مقابل أن يقوم البنادقة بتحويل الحملة الصليبية عن مصر.

وقد استغلت الجمهورية البندقية تحويل الحملة الصليبية عن مصر لمصالحها التجارية، وقامت بإرسال سفير من قبلها إلى حلب، يدعى مار ينياني، حيث أبرم هذا السفير معاهدة تجارية مع صاحب حلب آنذاك، وهو الأمير غياث الدين غازي بن صلاح الدين. وحصلت البندقية بموجب هذه المعاهدة على فندق وحمام وكنيسة، كما حددت فيها الرسوم الجمركية التي يتوجب على تجار البنادقة دفعها في حلب بواقع ١٢ ٪ من قيمة السلع والبضائع، وتعهد أيضا الأمير الأيوبي بتقديم كافة التسهيلات والمساعدات للتجار البنادقة في مدينة حلب. وكان في عام ١٢٠٧ ــ ١٢٠٨م.

ويلاحظ أن نشاط البنادقة مع الأيوبين في مصر والشام كان نشاط بالغ الأهمية مما وضع البنادقة في الامبراطورية البيزنطية بموقف حرج بصفة عامة وفي القسطنطينية بصفة خاصة، هذا وقد بدأت البندقية تبحث عن البديل والتعويض في ميدان آخر، ولهذا قامت البندقية باتصالاتها الآنفة الذكر مع حلب والقاهرة.

وكان في عام ١٢١٧م قد جاء وفد من الجمهورية البندقية يحمل رسالة إلى الملك العادل الأيوبي وتقدم إليه الوفد البندقي بمطاليب مغرية وأعرب الملك العادل عن رغبته في تفضيل البنادقة على بقية الأمم الفرنجة الأخرى.

وبدأ التجار البنادقة يتدفقون إلى الموانىء المصرية، على أثر توقيع معاهدة عام ١٣٠٨م بين البنادقة والملك العادل الأيوبي، حتى أن الأيوبيين أخذوا يشعرون بالقلق من جراء هذا التزايد المستمر من قبل تجار البنادقة على الاسكندرية. وقد بلغ عددهم ما يقارب الثلاثة آلاف رجل، وهنا استغل التجار البنادقة هذه المعاهدة وهذا التدفق الزائد وراحوا يعبثون بالأمن حينما علموا أن المعاهدة هي لصالحهم وصالح تجارتهم وقد ثاروا بأهل الاسكندرية وافتعلوا القلاقل والفتن.

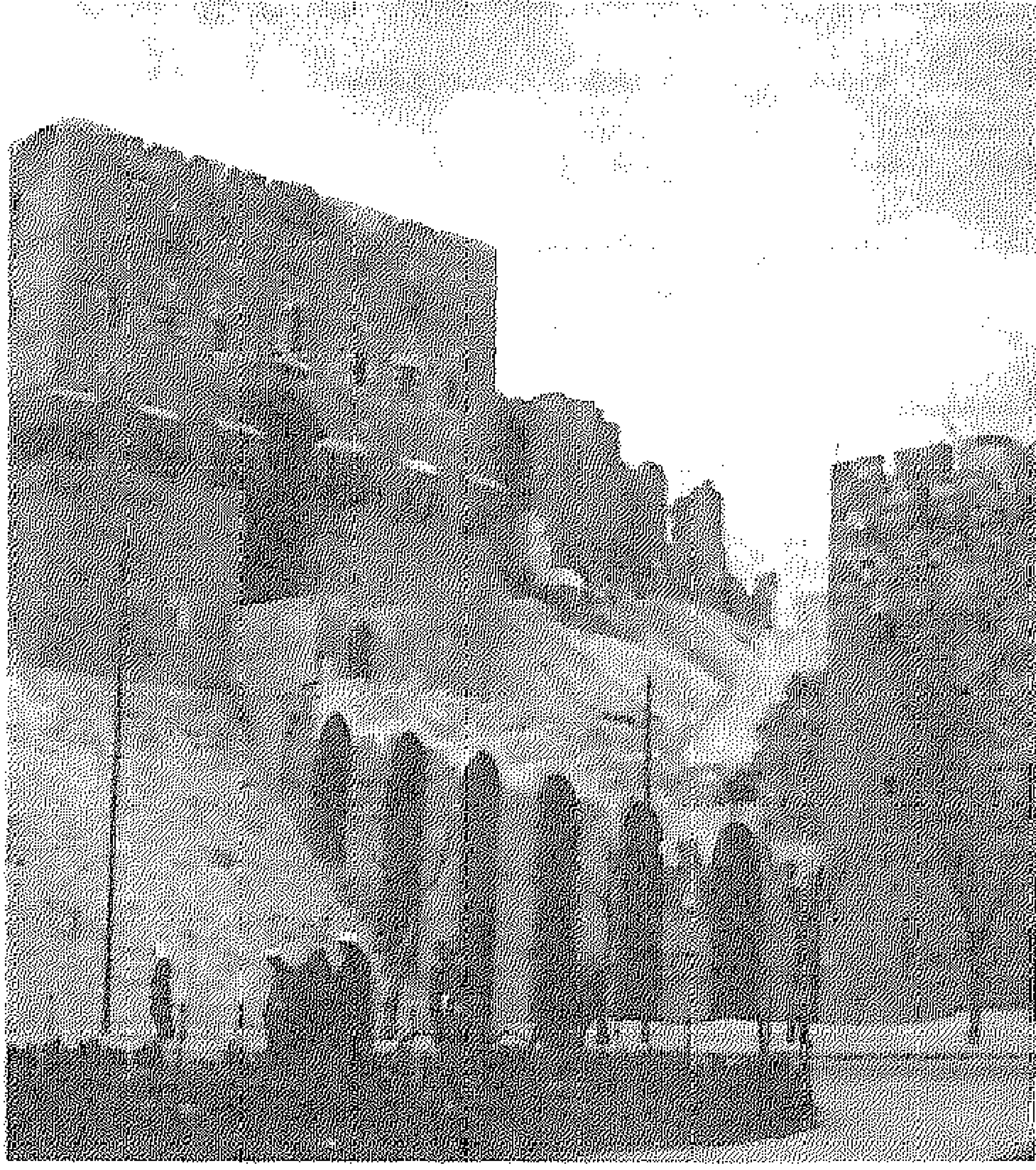
وقد توجه في الحال الملك العادل إلى الاسكندرية، واجتمع مع وفد من التجار الفرنج والبنادقة وبعد المحادثات المتبادلة دون الوصول إلى أمر يتناسب والدولة، أمر الملك العادل بإلقاء القبض على كافة التجار الفرنج والبنادقة ومصادرة أموالهم المنقولة وبضائعهم وعاد الملك إلى القاهرة. فلحق بهؤلاء التجار الأضرار الفادحة من جراء عملية الاعتقال والمصادرة التي قام بها الملك العادل.

وهنا تدخلت الحكومة البندقية في الأمر وحاولت إيجاد تسوية عادلة مع الملك العادل والتجار، وقد أفرج عن التجار وأعاد لهم بضائعهم وأموالهم. فاستغلت الجمهورية البندقية هذا الأمر فأرسلت وفداً إلى الملك الكامل، ابن السلطان الملك العادل ونائبه في مصر وقد استقبل هذا الوفد استقبالا رسميا وكان برتبة سفير. ولو أن السفارة لا تشير إلى الكيفية التي تمت فيها معالجة حادثة الاسكندرية في عام ١٢١٥م ولا إلى الإفراج عن التجار البنادقة وأموالهم، إلا أنها تدل على عودة العلاقات الودية بين البنادقة والأيوبيين، وبالتالي استئناف البنادقة نشاطهم التجاري في مصر.

ولكن سرعان ما ساءت العلاقات التجارية بين البندقية والأيوبيين مرة ثانية، وذلك نتيجة مشاركة البنادقة في الحملة الصليبية الخامسة التي قادها (جان دي برين على مصر) سنة ٦١٥ ـ ٦١٨هـ = ١٢١٨ ـ ١٢٢١م. فعندما احتلت هذه الحملة مدينة دمياط رحب البنادقة، الذين كانوا يعيشون في هذه المدينة، بقدوم الصليبيين واستيلائهم على دمياط وذلك لأن البنادقة فرحوا الى سقوط دمياط في أيدي الصليبيين واعتبروا أن هذا انتصار تجاري عظيم أكثر من كونه انتصاراً عسكرياً، يضاف إلى ذلك أن البنادقة كانوا من المتحمسين والمشددين لرفض مشروع الصلح الذي تقدم به الملك الكامل للصليبيين مقابل الانسحاب من دمياط، بحيث أن التجار البنادقة كانوا يرغبون في جعل دمياط مركزا تجاريا لهم. وعندما أخذ العرب المسلمون يقاتلون لاسترداد دمياط من أيدي الصليبيين وقف التجار البنادقة إلى جانب الصليبيين يحاربون دفاعا عنهم.

وبعد أن استرد العرب المسلمون مدينة دمياط وطردوا الصليبيين منها، لم تتخذ الحكومة الأيوبية أي إجراء ضد التجار البنادقة في مصر والشام، رغم الدور الذي قامت به البندقية في الحملة الصليبية الخامسة. في حين اتخذت الجمهورية البندقية إجراءات معنية، نتيجة إخفاق الصليبيين في الاحتفاظ بدمياط: وقد منعت رعاياها من تصدير الخشب والحديد والقار إلى مصر، وقامت بمراقبة تجارها وسفنهم وفرضت عقوبات قصوى على التجار والسفن إن نقلت مواد أو ما شابهها إلى مصر والشام. ولا شك أن البندقية كانت تدرك أن مثل هذه الإجراءات تلحق بمصالحها التجارية في مصر أبلغ الأضرار وأفدحها، إلا أنها اضطرت إلى ذلك تحت ضغط البابوية والأمراء الصليبيين.

ويبدو أن البندقية رغبت في أن تعوض عما لحق بتجارتها من خسائر نتيجة إخفاق الصليبيين في الاحتفاظ بدمياط من جهة، والإجراءات التي اتخذتها بحصر المتاجرة مع مصر من جهة أخرى، لهذا نجد مجلس الشيوخ (السناتو) البندقي يأمر بإرسال وفد رسمي



قلعة حلب الأيوبية، ببوابتها الاسلامية تعود لعام ١٢٠٠م

دبلوماسي إلى مدينة حلب وكان عام ١٢٢٥م برئاسة توماس فوسكاريني. ونجح هذا الوفد في توقيع معاهدة تجارية مع الملك العزيز ابن الملك الظاهر غازي، صاحب حلب، اشتملت هذه المعاهدة على منح البنادقة تسهيلات تجارية في المدينة وتخفيض الرسوم الجمركية، بحيث أصبحت ٦٪ بدلا من ١٢٪، كما اشتملت المعاهدة على ضمانات حكومية بشأن سلامة ممتلكات البنادقة في حلب وفي حالة الوفاة والكوارث.

ولم تمض أربع سنوات (١٢٢٩م) حتى وصل وفد رسمي آخر من البندقية إلى حلب، وعقدت معاهدة تجارية أخرى مع الملك العزيز نفسه واشتملت المعاهدة على تجديد الامتيازات التي حصل عليها تجار البنادقة في معاهدة عام ١٢٢٥م. وفي عام ٦٣٦هـ = ١٢٣٨م أرسل دوج البندقية وفداً إلى القاهرة برئاسة (روموس كيورينو ويعقوب باروشيو) ووقع هذا الوفد معاهدة تجارية مع السلطان الأيوبي العادل الثاني. وتعتبر هذه المعاهدة على جانب كبير من الأهمية لأنها كانت أساسا لكل المعاهدات التجارية التي وقعتها جمهورية البندقية مع السلاطين الأيوبيين والمماليك حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي.

ومما يبدو أن العلاقات التجارية بين الأيوبيين والبنادقة، في السنوات الأخيرة من حياة الدولة الأيوبية كانت مزدهرة، والدليل على ذلك عدم اشتراك جمهورية البندقية في حملة الملك الفرنسي، لويس التاسع على مصر والشام، وهي الحملة التي أطلق عليها اسم الحملة الصليبية السابعة من عام ١٢٤٨ ــ ١٢٥٠م فقد كان على لويس التاسع أن يختار لضمان حملته الصليبية على مصر، أن يستعين بالبندقية التي تمتلك بحرية قوية في حوض البحر المتوسط. فأرسل لويس برسول خاص من طرفه إلى جمهورية البندقية وأبدى دوج البندقية استعداده لمساعدة الحملة الفرنسية، غير أن الشروط التي وضعها دوج البندقية كفيلة بأن تظهر عدم استجابتها لرغبة فرنسا. وهي تدل دلالة قاطعة على أن الدوج قد بالغ في الشروط التي وضعها للوفد الفرنسي، مقابل تقديم البندقية مساعدتها للحملة الفرنسية، وذلك ليكون الرفض من جانب فرنسا، لا من جانب البندقية، وليضمن في الوقت ذاته، بقاء علاقاته الودية مع الأيوبيين، وتعزيز صداقاته وامتيازاته التجارية التي يتمتع بها البنادقة في الدولة الأيوبية.

وكانت معارضة البندقية مهاجمة مصر، نظرا للمعاهدات التجارية التي أبرمها الأيوبيون مع البنادقة فضلا عن مصالحهم الاقتصادية الضخمة في مصر والشام.

الخلاصة

إن عصر الأيوبيين، في مصر والشام كان زاهرا وقد حرص الأيوبيون أشد الحرص على إقامة علاقات ودية وتجارية مع جمهورية البندقية. ويتضح من هذه المعاهدات التجارية، التي وقعها سلاطين الأيوبيين مع حكومات البندقية هي لأمور سياسية بحتة. وفي ظل هذه المعاهدات والعلاقات التجارية بين الطرفين حصل الأيوبيون على تحقيق أهداف رئيسية وطيبة من خلال علاقاتهم مع الجمهورية البندقية، منها:

الحصول على السلع والبضائع التي كان العرب والمسلمون في الشرق الأدنى بحاجة ماسة أليها، ومنها الخشب والحديد والأسلحة والدروع، وغيرها من المواد الرئيسية، التي تمكنهم من الاستمرار لخوض المعركة ضد الصليبيين.

ثانيا ــ زيادة الواردات المالية للدولة عن طريق تشجيع التجار البنادقة على القدوم إلى الموانىء المصرية والشامية.

ثالثا ــ العمل على أخذ الجمهورية البندقية، وكسب صداقتها لأنها كانت في مقدمة القوى البحرية في البحر الأبيض المتوسط، في العصر الأيوبي، لاتخاذها الموقف الحيادي إزاء الصراع العربي الصليبي في الشرق الأدنى.

وقد لعبت الجمهورية البندقية بسياستها بين الأيوبيين والصليبيين لتحقيق مصالحها الاقتصادية في مصر والشام، كما استطاعت أن تعدل ميزان القوى في الشرق الأدنى لمصالحها، خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الذي كان يميل تارة لصالح الصليبيين، وتارة لصالح العرب المسلمين.

وعندما تسلم صلاح الدين الأيوبي السلطنة في مصر والشام، أخذت البندقية موقعها الرسمي مع العرب المسلمين. كما عدلت سياستها مع العرب والمسلمين واستطاعت بهذه السياسة وهذا الموقف أن تكسب صداقة الأيوبيين وأن توطد علاقاتها التجارية والاقتصادية مع الأيوبيين وتمدهم بالمواد الاستراتيجية على الرغم من نداءات البابوية والرأي العام الأوروبي، وذلك كله حرصا على مصالحها التجارية الكبرى في مصر والشام وامتيازاتها التجارية. ●

مصادر البحث

(١) العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى. دكتور عادل زيتون.
(٢) قوانين الدواوين. أمين معاني.
(٣) خطط المقريزي. جزء أول.
(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. آدم متنز.
(٥) الفاطميون. حسن ابراهيم.
(٦) السلوك لمعرفة الدول والملوك. المقريزي.
(٧) الحملة الصليبية الخامسة. محمود سعيد عمران.
(٨) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. ابن شاهين.
(٩) العدوان الصليبي على بلاد الشام. جوزيف نسيم يوسف.

الفقيه المغفل



قال الجاحظ: خرجت يوماً أتريض، فلما جاوزت حدود البلد، رأيت رجلا حسن البزة، وضيء الوجه، يجلس على باب كتاب وأمامه صبيان يعلمهم الكتاب، فسلمت عليه فرد سلامي في بشر رغبني فيه، ودعاني الى الجلوس فلبيت، وتحدثنا فرأيت منه اطلاعاً غزيراً في فن القراءات، وتبحراً في تاريخ الحفاظ، فأحببته وأنست إليه، وكنت أختلف الى مجلسه كل يوم فأقضي معه ساعة من الزمن، ثم أعود مشروح النفس من مجلس هذا الصديق الجديد.

وذات يوم ذهبت الى الكتاب كعادتي، فوجدت بابه موصداً، فسألت عن صاحبي، فقيل لي: إن مصابا نزل بساحته، واختطف الموت عزيزاً عليه، فرأيت من الوفاء أن أقوم له بواجب العزاء، وقصدت الى داره فعلمت أنه منطو على نفسه، وأن الحزن قد برح به، فلما لقيته قلت: يا أخي هون عليك فإن كان الذي مات ولداً فالله يجعله لك في الجنة ذخراً، وإن كان أخاً فليعوضك الله عنه وإن كان، وإن كان، وطفقت أعدد له.. فقال: إن الذي فقدت غير هؤلاء جميعاً.. إنها حبيبتي! فقلت في نفسي: هذه أول سقطة.. ثم أجبته: تعز فان الباقيات لمن صبر.. فقال: أوتظن أني رأيتها؟ فقلت: وكيف إذن عشقتها.. قال: كنت أجلس في مكاني هذا، فاذا بي أسمع من هذه الطاقة صوتاً يقول:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ... ردي على فؤادي كيفما كانا

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه غاية في الجمال، ما قال فيها الشاعر هذا القول، فعشقتها. قال الجاحظ: فضحكت في كمي، وقلت لصاحبي: النساء غيرها كثير.. فقال: وهل تظن أني عرفت نبأ موتها؟ قلت: فلماذا تبكيها؟. قال: كنت أجلس في مكاني هذا، فإذا بصاحب الصوت الأول يقول:

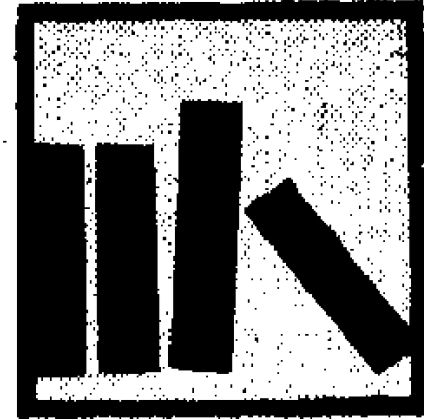
إذا ذهب الحمار بأم عمرو ... فلا رجعت ولا رجع الحمار

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو ماتت، ما قال الشاعر فيها هذا القول، فأقمت لها هذا المأتم، وانقطعت عن الكتاب، أبكيها وحيداً حزيناً.

قال الجاحظ: فانصرفت وأنا أعجب من غفلة هذا الفقيه، الذي لم أر في حياتي أقل عقلاً منه، ولا من يماثله، إلا أنا الذي ظللت أختلف إليه أياماً ظناً مني انه على علم غزير.

الأسرة المحترمة!

□ دخل أبو دلامة الشاعر المعروف على أمير المؤمنين المهدي فأنشده قصيدة، فقال سل حاجتك، فقال: يا أمير المؤمنين هب لي كلباً، فغضب المهدي وقال: قلت لك سل حاجتك تقول هب لي كلباً! فقال أبو دلامة: يا أمير المؤمنين الحاجة لي أو لك؟ قال بل لك. قال: اني أسألك أن تهب لي كلب صيد. فأمر له بكلب، فقال: يا أمير المؤمنين هبني خرجت للصيد أأعدو على رجلي؟ فأمر له بدابة. فقال ومن يقوم عليها؟ فأمر له بغلام؛ قال: يا أمير المؤمنين هبني صدت صيداً وأتيت به المنزل فمن يطبخه؟ فأمر له بجارية. قال: فهؤلاء أين يبيتون؟ فأمر له بدار، قال: قد صيرت في عنقي عيالاً فمن أين لي ما يقوت هؤلاء؟ قال المهدي أعطوه جريب نخل. ثم قال: هل بقيت حاجة؟ قال نعم أن تكون راضياً عن الأسرة وأن تأذن لي بأن أقبل يدك. فضحك المهدى ومد اليه يده قائلاً: قد رضيت عنك وعن أسرتك المحترمة!.



الكتب المهداة إلى مجلة «تاريخ العرب والعالم»

□ **الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية**
اصدارات المكتبة الوطنية ــ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م .... تأليف: رشيد بوريبه
ترجمة: ابراهيم شبّوح

□ **بحث في مفهوم التاريخ ومنهجه**
دار الطليعة للطباعة والنشر .... الدكتور طريف الخالدي

□ **مشروع قناة البحرين في ضوء القانون الدولي العام**
منشورات اتحاد الحقوقيين العرب .... الدكتور محمد المجذوب

□ **الجذور التاريخية للمسألة الزراعية اللبنانية**
(١٩٠٠ ــ ١٩٥٠)
منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات التاريخية .... بقلم: د. مسعود ضاهر

□ **السجل الشهري لأحداث العالم**
العدد الثالث ــ مركز التوثيق الاعلامي وزارة الاعلام والثقافة
ــ دولة الامارات العربية المتحدة ....

□ **السجل الشهري لأحداث دولة الامارات العربية المتحدة**
العدد السابع والأربعون ــ مركز التوثيق الاعلامي وزارة
الاعلام والثقافة ــ دولة الامارات العربية المتحدة..................................

□ **دراسات قومية ودولية**
مؤسسة ناصر للثقافة .... الدكتور محمد المجذوب

□ **وثائق المؤتمر العربي الأول (١٩١٣)**
دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع .... تقديم ودراسة: د. وجيه كوثراني

□ **قناة البحرين المتوسط والميت ــ المشروع الاسرائيلي وأخطاره**
مؤسسة الدراسات الفلسطينية .... اعداد: سمير جبّور
بولا البطل ــ رندة حيدر

□ **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق**
الجزءان الأول والثاني ــ المجلد السابع والخمسون ربيع
الأول ــ جمادي الآخرة ١٤٠٢هـ كانون الثاني ــ نيسان
١٩٨٢م ....

□ **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق**
الجزء الثالث ــ المجلد السابع والخمسون شوال ١٤٠٢هـ ــ
آب ١٩٨٢م ....

□ **دليل الصحف والمجلات الصادرة في دول الخليج العربية**
مكتب التربية العربي لدول الخليج الرياض ــ المملكة العربية
السعودية الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م) .... اعداد: إدارة الثقافة والوثائق
والاعلام المكتبة



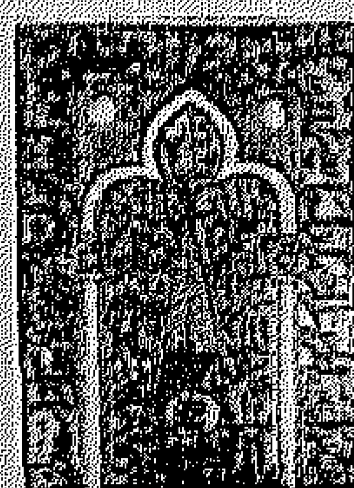
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الخامسة • العدد ٥٥ • أيار (مايو) ١٩٨٣م • الموافق شعبان ١٤٠٣هـ.



□ زخرفة عربية قديمة، عبيه — لبنان



الغلاف الأول

كوة محراب، تزينها زخرفة قرآنية تعود إلى القرن الثالث عشر ميلادي من كتاب «روائع الاسلام» برنار لويس

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العدد ٥٥ ـــ أيار ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للافراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للافراد ١٢٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الاشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت لبنان • بناية أبو هليل شقة ١١ • شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 5, No. 55, MAI 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥-١٩٢٧

د. ادمون ربّاط

تعريب: د. محمّد المجذوب

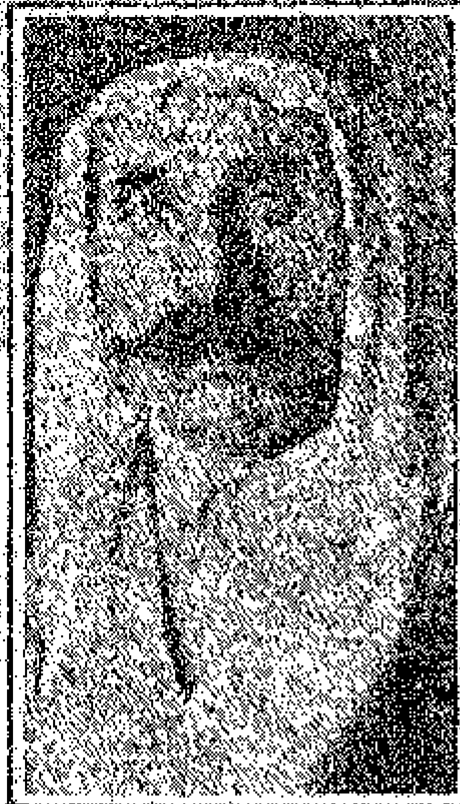
شكلت الثورة الوطنية التي اندلعت في سوريا، في عام ١٩٢٥، الفترة الأشد عنفاً في تاريخ النضال الطويل الذي خاضه الشعب السوري ضد الانتداب الفرنسي، غداة معركة ميلسون التي حدثت في ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٠، على أبواب دمشق، والتي كان من نتائجها المباشرة سقوط المملكة الهاشمية التي أسست على أثر انهيار الامبراطورية العثمانية.



وبعد محن وتضحيات لا حصر لها، استطاعت سوريا، في عام ١٩٤٣، أن تنال استقلالها، وتحرر بعد ثلاث سنوات، أرضها من كل احتلال أجنبي. وهذا يعني أن ثورة عام ١٩٢٥ قد أصبحت في ذمة التاريخ. ولكنها، مع ذلك، تمثل صفحة مثيرة جدا تستحق الذكر. ومن هنا تتجلى فائدة العودة إليها ومحاولة سد فجواتها في ضوء بعض وثائق العصر.

(الحلقة الأولى)





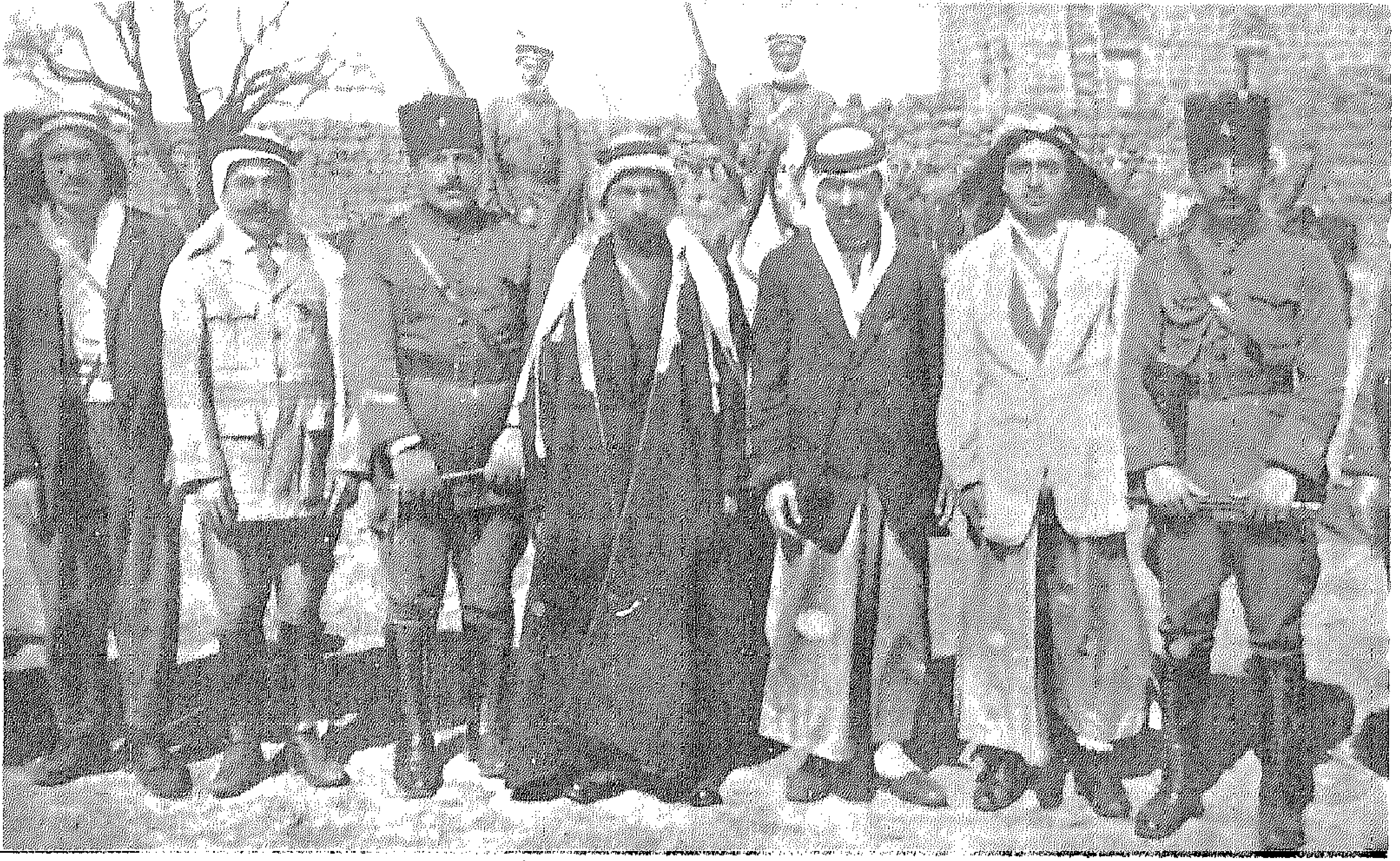
سلطان باشا الأطرش

أولا — قضية كاربييه (Carbillet)

تعود الجذور المباشرة للثورة إلى هذه القضية. وقد نشأت الثورة، في عام ١٩٢٥، في منطقة حوران، حيث شكلت فرنسا، وهي الدولة المنتدبة، في عام ١٩٢١، وبشكل اعتباطي، كيانا سياسيا تحت إسم: **الحكومة الذاتية لجبل الدروز.** وامتدت الثورة، شيئا فشيئا إلى دمشق لتشمل، فيما بعد، كل الأراضي السورية تقريبا.

وحملت وفاة سليم باشا الأطرش، حاكم جبل الدروز، النقيب (كاربييه)، مستشاره الإداري، على أن يحكم مكانه، بالنيابة أولا، ثم، في أواخر





□ سلطان باشا الأطرش قائد الثورة السورية (أول صورة فوتوغرافية له).

عام ١٩٢٤، بالتعيين من قبل مجلس «الجبل» الذي تم انتخابه آنذاك بالاقتراع العام على درجتين. وصدر عن المفوض الفرنسي السامي، الجنرال ويغان (Weygand)، مرسوم بالتصديق على هذا التعيين. وبعد ستة أشهر طالب الدروز الذين عيل صبرهم باستدعائه.

إن الازدهار المادي الذي تحقق بفضل إدارة النقيب (كاربييه) أمر لا ينكر، فنشاط هذا الضابط الفرنسي لم يهمل شيئاً. لقد اهتم بالطرق، والمدارس (الفرنسية)، وضبط الإدارة، والإصلاحات القضائية واقتصاديات الموازنة. غير أن جميع هذه الاصلاحات لا يمكن أن تتم دون دكتاتورية ثقيلة ومتشددة تولد استياء خفيا لدى السكان. وإذا كانت أهداف الحاكم جديرة بالثناء فان الوسائل التي استخدمت لبلوغها قد أثارت، بحق، الاحتجاج والمقاومة، فالمجهود الذي طلب من السكان تقديمه، لتنفيذ الأشغال ذات المنفعة العامة، كشق الطرق وحفر القنوات، التي كان «الجبل» في أمس الحاجة إليها، «قد أحدث شيئا من الاستياء لدى الجماهير. فلم يكن بالامكان تنفيذ هذه الأشغال بالاعتماد فقط على موارد ميزانية لا تتجاوز وارداتها الثمانية ملايين من الفرنكات. ولهذا كان من الضروري إنجاز القسم الأكبر من هذه الأشغال بمساعدات يقدمها السكان بجوار قريتهم. وبالنسبة إلى بعض الأشغال فقد طلب منهم بذل مجهود كبير»[1].

وللقيام بهذه المهمة، كان يجب أن يكون هناك رئيس كالنقيب (كاربييه). «ان استبداديته كانت الشرط الضروري لتحقيق تقدم سريع في بلد كهذا البلد: ان وكلاء الانتداب عليهم غالبا أن يختاروا بين ممارسة سلطة مباشرة وفعالة تتدخل في كل شيء، ولكنها تحصل على نتائج، وبين سياسة متساهلة ترى استمرار الفوضى... التي ترتكبها سلطات محلية نحرص على عدم ازاحتها... ان حكومة جبل الدروز قد اختارت السياسة الأولى وتمادت فيها، ولكن خطأ هذه السياسة أنها كانت تفرض على من يتبعها التخلي عن المناهج الخاصة الملائمة للانتداب... وكان من سيئات هذه السياسة، ذات القصد السليم، انها كانت خطرة... فالحاكم المقتنع بأنه كان يعمل لمصلحة الجمهور كان يضطر بحرارة القمع، إلى جعل نفسه مرهوبا...»[2].

ان هذه الأسطر الرسمية، الصادرة عن الحكومة الفرنسية، تدين في الحقيقة، تحت غطاء

من الاعتدال الدبلوماسي، سياسة النقيب (كاربييه). وهي تبرر، خصوصا، شكاوى الدروز، ولا سيما تلك الشكاوى التي كانوا يوجهونها ضد الموظفين المتأثرين بعقلية سيدهم ومناهجه. «وكان لدى مساعديه من سكان البلد... ميل إلى التجاوزات، ففي حالات كثيرة كان رجال الدرك، بلا شك، قساة، واستطاع المعلمون الإفادة. من العلاقات التي كانت تربطهم بالحاكم لتحقيق مكاسب على حساب الشعب»(٣).

فمن المؤكد، أن النقيب (كاربييه) قد أساء استعمال دكتاتورية واقعية اجازتها وحمتها القوة الفرنسية. والسلطات الفرنسية قد اعترفت، في النهاية، بمعظم هذه التجاوزات التي قد يصعب علينا تعدادها. وفي العرائض المرفوعة إلى المقدم تومي ــ مارتان (Tommy-Martin)، الذي ارسل إلى «الجبل» ليحل محل النقيب رينو (Reynaud)، الحاكم بالنيابة، «ذكر عدد من التهم الواضحة والأساليب الجائرة والقسوة المتناهية، المنسوبة إلى الحاكم الذي كان في إجازة وإلى عدد من مساعديه. وفتح تحقيق أثبت أنه إذا كان بالإمكان تبرير عدد من هذه الاتهامات، فان بعضها، على الرغم من المبالغة فيه، لم يكن دون أساس»(٤). وهذه الوقائع أضفت المشروعية على احتجاجات الدروز وجعلت من المعقول تحقيق رغبتهم في تغيير المسؤول عن شؤونهم.

ومنذ الأشهر الأولى لعام ١٩٢٥، ظهر الاستياء بوضوح، دون خشية من التدابير الانتقامية. «ولم يتسع الا ابتداء من اللحظة التي خفت فيها سطوة هذا القائد (كاربييه)، الذي أجبر، في ٢٣ أيار (مايو) ١٩٢٥، على أخذ إجازة استجمام كان في أشد الحاجة إليها. ورفعت إلى النقيب (رينو)، الضابط المكلف بأن ينوب عنه، عرائض ممهورة بتواقيع عديدة، تطالب باستبدال الحاكم»(٥).

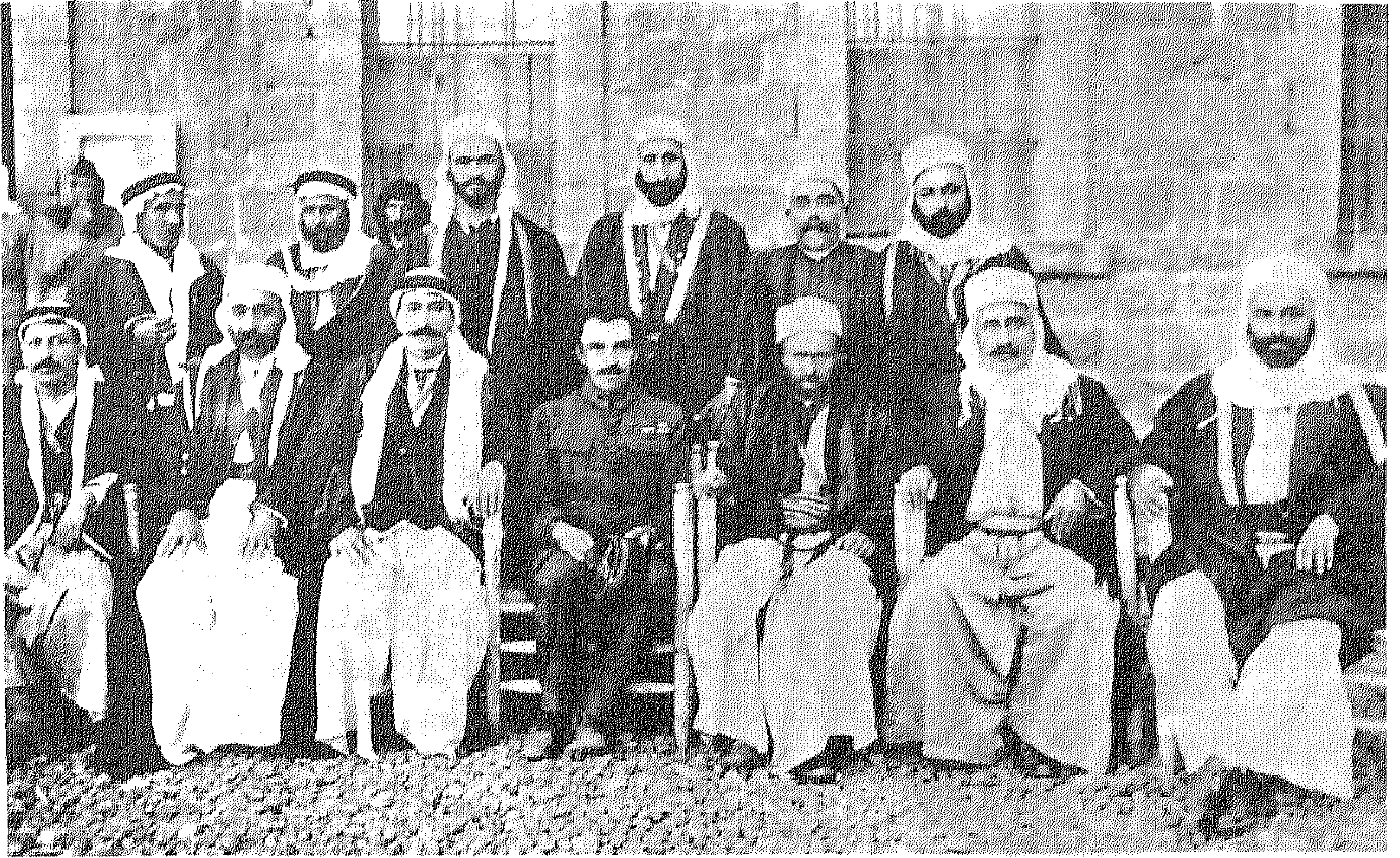
والحملة التي برزت بمثل هذه الضخامة، وادت إلى إجماع «الجبل»، كان لها طابع من الخطورة الحقيقية حملت النقيب (رينو)، في ٢ حزيران (يونيو)، على رفع تقرير إلى مندوب المفوض السامي في دمشق، وهو رئيسه الأعلى، وصف فيه الوضع بموضوعية وأشار إلى كراهية القادة والشعب لسلفه. وقد ورد فيه «أن هناك



متعب بك الاطرش

حملة موجهة ضد النقيب (كاربييه)، حملة لا يشارك فيها فقط أفراد عائلة الأطرش الذين أعلنوا المعارضة في الفترة الأخيرة، بل تقوم بها كذلك الغالبية العظمى من العائلات الدرزية الأخرى... إن أفراد عائلة الأطرش الذين مثلوا، إفراديا، أمام الحاكم الجديد بالنيابة، للاعراب له عن اخلاصهم للدولة المنتدبة... قد طلبوا مني الاستماع اليهم بطريقة كفيلة، كما قالوا، بإزالة سوء التفاهم الذي كان قائما بينهم وبين المندوب في دمشق والجنرال المفوض السامي...». وأضاف النقيب (رينو) قائلا بأنهم أعلنوا ما يلي: «لاظهار وفائنا وخضوعنا... فإننا لن نطالب بحاكم وطني... اننا نرغب في أن يكون لنا حاكم فرنسي، ولكن بشرط الا يكون النقيب (كاربييه)...». «ومن المناسب، في الوقت الراهن، تكليف أحد مندوبيكم ــ المساعدين مهمة القيام بتحقيق هنا. وهذا التحقيق، في رأيي، ضروري، لأنه يبدو لي أن الوقائع التي كان لي شرف سردها لكم من شأنها تعقيد عملنا المقبل في «الجبل» بشكل غريب، إذا تجاهلنا اليوم رغبات جبل الدروز...»(٦).

وفي ٢ حزيران (يونيو)، تلقى المفوض السامي



□ كابتن كاربييه مع المجلس الدرزي.

برقية «موقعة» من ٢٤ وجيها من وجهاء «الجبل» يطلبون فيها مقابلته «لدعم النقيب (رينو)، الذي عرف، كما قالوا، كيف ينعش من جديد تعلقنا بفرنسا ويبدد سوء التفاهم». ولم يرد المفوض السامي أبدا على هذا الطلب.

وفي اليوم التالي بالذات، استقبل النائب الفرنسي أوغست برينيه (Auguste Brenet)، الذي كان مارا بدمشق، وفدا درزيا يضم ٣٨ شخصية تمثل ١٧ عائلة من أكبر العائلات في «الجبل»، وسبقه أعضاء من المجلس التمثيلي في السويداء، وواحدا من الزعماء الدينيين الأربعة الذين كانت لهم الهيمنة على عقل الدروز. واستمع إلى شكاواهم ووعد بنقلها إلى المفوض السامي.

وفي ١٥ منه، توجه هذا الوفد الجليل إلى بيروت. غير أن المفوض السامي، الجنرال ساراي (Sarrail)، رفض مقابلته(٧)، فغادر الوفد بيروت مهانا غاضبا.

وبعد ثلاثة أيام، رفع تقرير ثان من النقيب (رينو) إلى دمشق لدعم مطالب الوفد الدرزي. وقد ورد فيه «أن هناك حركة عامة تحملنا على توجيه أعظم الانتباه إلى الأحداث»(٨).

وأخيرا، وفي ٢٧ حزيران (يونيو)، طالبت رسالة جماعية كذلك، موقعة من الزعماء الذين ظلوا حتى الآن على الحياد، باستبدال (كاربييه). وجرت محاولات أخرى، باشرها دروز لبنان بزعامة الأمير فؤاد أرسلان، ولكنها أجهضت ايضا.

وجميع هذه الجهود كان الغرض منها، حتى الآن، وإلى حد كبير، استبدال (كاربييه). وحينئذ ظهر في الرأي العام الدرزي، نتيجة رد الفعل، تيار أكثر جذرية. وكان وفد أتى دمشق، في أيار (مايو)، للترحيب بالمفوض السامي، بعد رحيل الحاكم، قد تجرأ وطالب بتطبيق اتفاق عام ١٩٢١، الذي كان ينص على التزام الدولة المنتدبة بتسمية حاكم درزي «للجبل». ولكن الجنرال (ساراي) أعلن عدم اعترافه بصحته. وقال الدروز: «إن الظروف تقودنا الآن إلى مطالبتكم بالحقوق التي تمنحنا إياها معاهدتنا». وأجابهم الجنرال (ساراي): «معاهدتكم!! معاهدتكم!! قبل كل شيء، إنها لم توقع الا من قبل واحد من زعمائكم الدينيين». ورد المندوبون الدروز: «طبعاً، ان هذا الزعيم كان منتدبا من قبل الآخرين، كما كان السيد كيكس (Caix)

(الذي وقع المعاهدة عن الجانب الفرنسي) منتدبا من قبل الزعماء الفرنسيين. وبالنتيجة، فإنه لم يكن بإمكان المندوب الفرنسي وضع توقيعه في أسفل وثيقة كهذه ما لم يدقق في صلاحيات مندوبنا»(٩).

وبعد عدة أيام، أوضح الجنرال، في رسالة إلى مندوبه في دمشق، أن اتفاق ٤ آذار (مارس) ١٩٢١ كان لاغيا، لأن «واحدا فقط من الزعماء الدينيين الدروز الأربعة قد وقعه»، وألمح إلى المقابلة التي عقدها مع الوفد الدرزي في دمشق وقال: «لقد استنتجت أن هذه الورقة ليس لها الا قيمة تاريخية، وقلت إنهم، إذا لم يعتبروها لاغية ودون مفعول، سيثيرون شغبا ويعرضون أنفسهم للمعاملة كمتمردين»(١٠).

ومع ذلك، وللحقيقة، فهذه المطالب لم تبلغ أبدا من الحدة ما بلغته المطالب الرامية إلى استبدال النقيب (كاربييه). وكان بالإمكان تهدئة اضطراب «الجبل» بالإعلان، أو على الأقل بالوعد، باستبداله النهائي. غير أن كل الوسائل أخفقت في التغلب على إصرار المفوض السامي على الاحتفاظ برجل في مكانه بعد أن أجمع مساعدوه على اعتباره خطرا على السلام العام.

واتسعت الحركة. و «في بداية تموز (يوليو)، أشار الوفد الفرنسي في دمشق إلى الخطورة التي يمثلها الغليان في المنطقة الدرزية. وبدا له أن الحركة، سواء أكانت مبررة أم لا، تستحق انتباها رصينا، فقد امتدت بالفعل، إلى أوساط لا تخضع لعائلة الأطرش (المتهمة بالتحريض عليها)، كما أثبتت ذلك عريضة موجهة في ٨ تموز (يوليو) إلى المفوض السامي، تحمل مئة من الأسماء المعروفة في (الجبل)»(١١).

ورفض المفوض السامي الرضوخ. وبلغ الهيجان في «الجبل» ذروته. وفي ٣ تموز (يوليو)، وقع في «الجبل» حادث خطير أثار الخشية من حدوث اضطرابات قريبة، فقد تعرض الملازم موريل (Morel)، أحد المعاونين المباشرين للحاكم، للضرب واطلاق النار عليه. وبفضل نفوذ النقيب (رينو) أعيد الهدوء. ولكن مدينة السويداء، التي كانت مسرحا لهذه المناوشات الأولى، عوقبت بغرامة مقدارها ٢٠٠ ليرة ذهبا.



□ المفوض السامي «سراي» في دمشق.

ومع ذلك، فقد ساء الموقف وساد شعور بأن شرارة الحرب تلوح في الأفق. غير أنهم في بيروت استمروا في اعتبار هذا الهيجان، الذي كانوا يقللون من شأنه، عملا يرتكبه بعض المشاغبين الذين لا تأثير لهم في الجماهير، والذين أظهرت الحكومة المؤقتة تجاههم تسامحا مشجعا إلى حد بعيد.

وبعد أن أصبح النقيب (رينو) مشبوها، حل محله المقدم (تومي ــ مارتان)، رئيس مصلحة الاستخبارات في دولة سوريا. وقد وصل السويداء، في ١٦ تموز (يوليو)، وسط هتافات السكان المقتنعين بأن هذا التغيير يشكل التفاتة كريمة من جانب الدولة المنتدبة التي سيكون لمبعوثها الجديد مهمة التحقيق على الطبيعة في التهم الموجهة إلى (كاربييه)(١٢). وبذلك أصبحت العرائض التي رفعت والوفود التي استقبلت عديدة وصلبة في اتهامها لهذا الأخير، وأصبح إجماعها مقلقا إلى درجة جعلت المقدم (تومي ــ مارتان)، الذي اعتبر الوضع خطيرا، يعرب لرؤسائه في بيروت عن هذه الخطورة ويحدد، في نفس الوقت، التدابير الفورية التي يجب اتخاذها لتلافي التمرد المنذر بالخطر(١٣).



□ حمد بك عامر احد زعماء الثورة البارزين.

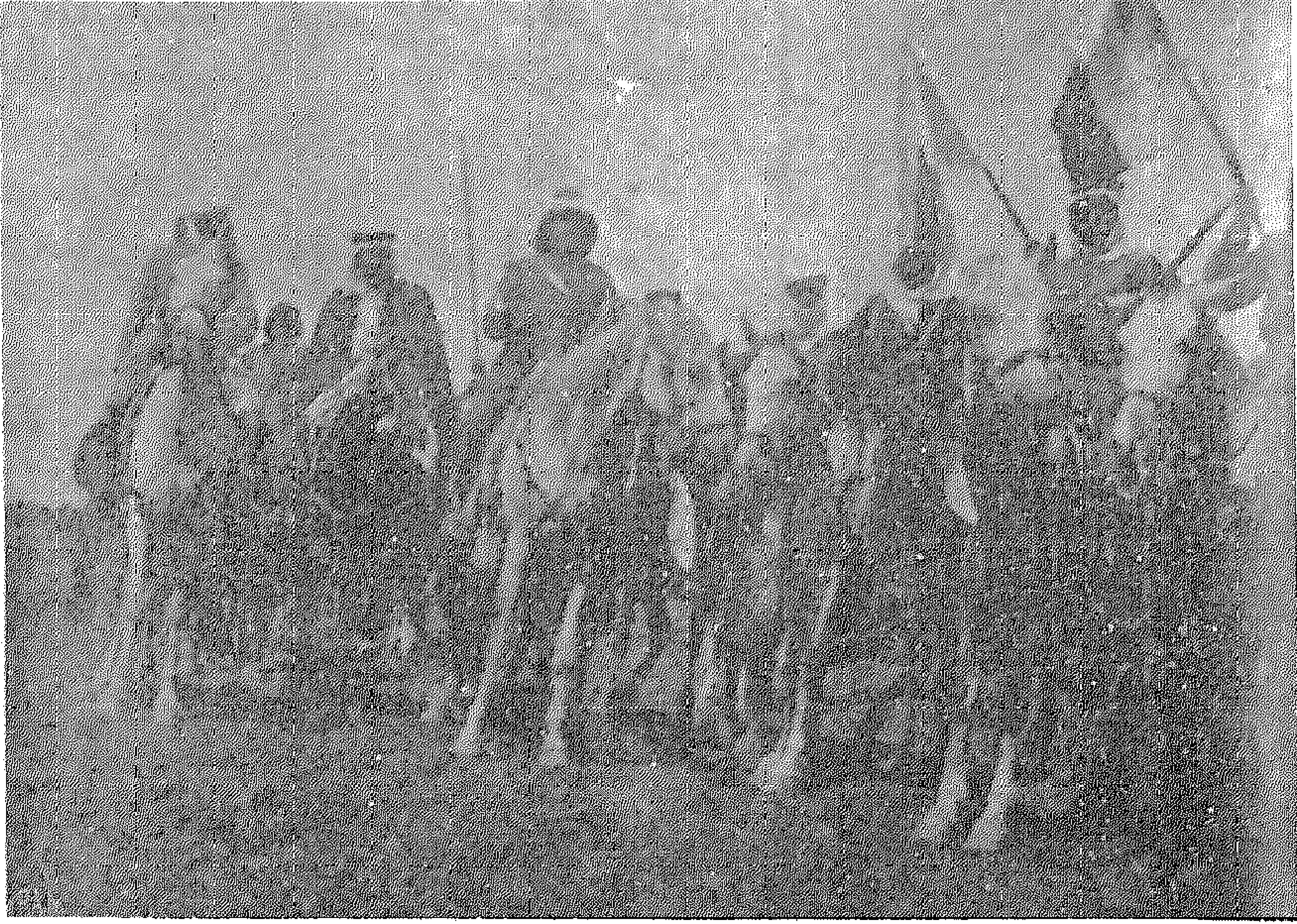
وعلى الرغم من هذه البوادر التي كانت تنبىء بانفجار قريب، فقد صدر عن الجنرال (ساراي) امر موجه إلى المندوب في دمشق يعلن، باقتضاب، «بأن النقيب (كاربييه) سيعود إلى مركزه». ويبدو أن هذا الأمر كان ينطوي على رغبة في أن يبقى بلا جواب. وأمر المفوض السامي باعتقال الشيوخ الخمسة البارزين في عائلة الأطرش، معتقدا أن هذا كفيل بوضع حد لدسائس المشاغبين. «ولذلك، لجأ إلى طريقة اعتبر بول بانلو فيه (Paul Painlevé)، رئيس مجلس الوزراء آنئذ، أمام لجنة الشؤون الخارجية، أنها تنطوي على نية سيئة ليست من عادات فرنسا»[١٤].

واستدعي الخمسة من آل الأطرش إلى دمشق، بحجة السماح لهم بشرح مطالبهم. ولم يحضر إثنان منهم: متعب وسلطان باشا. الأول ادعى المرض، والثاني، وهو أكثر الجماعة تمرسا بالقتال، لم يقدم أي اعتذار. والثلاثة الآخرون: نسيب وحمد وعبد الغفار، الذين وصلوا دمشق، أرسلوا فورا إلى تدمر واعتقلوا.

وهذا التصرف العنيف لم يكن الا نتيجة منطقية لسياسة طويلة من التسلط العصبي والغيور، الذي لم يسمح الانتداب دائما بالانطلاق منه، منذ حلوله في سوريا. والجدير بالملاحظة أن الجنرال (ويغان) هو الذي عين النقيب (كاربييه) وسانده. وهذا ما فعله، في تلك الفترة، الجنرال (ساراي). ولو وضع سلفه في نفس الظروف لكان تبنى نفس الموقف. والانصاف يقضي بالاعتراف بأن الجنرال (ساراي) لم يكن بوسعه الامتناع عن اتباع تقليد استبدادي متين الجذور في المفوضية السامية. لقد أعلن دوريو (Doriot)، في مجلس النواب: «لقد فوجئت لإرادة الجنرال (ساراي) في اتباع مناهج أسلافه في سوريا. وسمعته يتلفظ بالعبارات التالية: (لم أكن أرغب في تغيير ما فعله اسلافي)، أو (لم أستقبل الدروز، وكذلك فعل أسلافي). وبالنسبة إلى موضوع معاهدة عام ١٩٢١، قال: (لست أنا الذي انتهك حرمة الاتفاق. إنه من الواضح أن أسلافي هم الذين انتهكوا حرمته قبلي)»[١٥].

وكان الفرنسيون الموجودون في سوريا يرون، للدفاع عن هيبة أسيء فهمها وكثر الحديث عنها، إن الكلمة الأخيرة يجب أن تبقى للدولة المنتدبة. وهذا الخط من السلوك قد اتبع دائما. ومن وجهة النظر الفرنسية، فان الإهمال الوحيد الذي ارتكبه الجنرال (ساراي) يكمن في أنه تسرع في الحكم على مشاعر السوريين تجاه دولة الانتداب. وهنا أيضا، وعلى غرار جميع الفرنسيين آنذاك، فان كل ما فعله هو الإيمان باسطورة نداء سوريا لفرنسا. وهكذا عرض نفسه للمفاجأة في وقت كانت فيه سوريا، بعد خمس سنوات من الاحتلال العسكري، الدقيق والثقيل، مجردة من الفرق العسكرية اللازمة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف المعنوية والسياسية والاقتصادية للبلد، فقد كان على الثورة أن تنفجر في هذه اللحظة. وقد أشعل (كاربييه) الحريق الذي كان كامناً، وخصوصا في جبل الدروز، ذلك المركز السوري للمقاومة الأشد عنفا، ومن هنا الهبت جذوة الحرب سوريا الوسطى، حول دمشق، مركز العروبة الذي لا مثيل له، والنقطة الحساسة للإسلام. وقد تم ذلك بسرعة ما زالت مستعصية على التعليل إذا اكتفينا بالأسباب السطحية التي قدمتها آنذاك الصحافة الفرنسية، كطموح بعض الزعماء، أو ما سمي بالتحريض الخارجي.

ومع ذلك فان الزعماء الدروز بذلوا الجهد، حتى آخر لحظة، لكي تبقى إرادتهم سلمية. ولكن اعتقال الكثيرين من رفاقهم جرح كرامتهم وأجج


□ الامير سليم الأطرش مع قوات الثورة.

شعلتهم القتالية، الموروثة عن الأجداد، التي ظلت خامدة لفترة من الزمن. والمسؤولية تقع، دون ريب، على ممثلي الانتداب في بيروت[١٦]. وقد أطلق ضابط فرنسي صرخة قبل المعركة فقال: «لقد خضت الحرب كلها، ولم يعد يعنيني منها إضافة مسألة أو إنقاص أخرى، ولكنني في هذه المرة أشعر بضيق في قلبي لأن هذه الحرب كان بالإمكان تحاشيها. ثم إن هؤلاء الناس يشتكون من تجاوزات حقيقية... ويطلبون الاستماع إليهم. ألم يكن ذلك حقهم؟ لقد أغظناهم. وعندما ندرك ذلك نجد من القسوة إطلاق النار على عدونا. آه، لو كانوا في فرنسا يعلمون ما يجري هنا»[١٧]...

ثانيا ــ الحرب

وفي اليوم التالي لاعتقال الزعماء والدروز صادف النقيب نورمان (Normand)، الذي لقي مصرعه بعد ثلاثة أيام وكان محبوبا من الدروز لعدالته وتجرده، أحد السكان في شوارع السويداء، فسأله عما يجري، فرد عليه قائلا: «لقد ألقوا القبض على أسيادنا». وأجابه النقيب (نورمان): «هذا ليس ممكنا، فالمفوض السامي جنرال في الجيش الفرنسي، وليس مؤهلا للقيام بعمل من هذا النوع».

والمؤسف أن الدرزي كان يجهر بالحقيقة. ولم يكد الخبر المحزن ينتشر حتى أعطى إشارة الهيجان العام في «الجبل» ضد دولة الانتداب. وتسلم سلطان باشا الأطرش زمام القيادة.

وأذاع على الشعب السوري بيانا جاء فيه ما يلي:

«إننا لم نطلب من الظالم الا استبدال حاكم فرنسي غير انساني بحاكم آخر من جنسه. ولم يكف أن أمنيتنا لم تستجب، بل أن مندوبينا قد طردوا كالخراف، واعتقلوا ظلما وبهتانا... لقد قضي الأمر. وحربنا هي حرب مقدسة. لقد شهرنا السيف ولن نعيده إلى غمده الا بعد تحقيق آمالنا، وهي:

١ ــ الاستقلال الكامل لسوريا العربية، الواحدة وغير المجزأة، بساحلها وداخلها.

«٢ ــ تعيين حاكم وطني وإجراء انتخابات حرة لاختيار جمعية تأسيسية من أجل وضع النظام الأساسي[١٨].

«٣ ــ إجلاء جيش الاحتلال الأجنبي عن البلاد وإنشاء جيش وطني للحفاظ على النظام والأمن.

«فإلى السلاح... والله معنا!

«عاشت سوريا المستقلة!».

وفي ١٧ تموز (يوليو)، شوهدت تجمعات

مقلقة، واضطرت إحدى الطائرات التي كانت تقوم بمهمة استطلاعية إلى الهبوط، تحت الرماية الدرزية، في امتان، على بعد عدة كيلومترات من الحدود الفلسطينية. وحاصر القرويون جنود الاحتلال، ولم ينقذهم الا زعيم شاب من آل الأطرش شملهم برعايته. وبعد يومين، احتل سلطان باشا، دون أن يلقى مقاومة، مدينة صلخد، وهي المدينة المهمة الثانية في «الجبل»، وأحرق السراي تلويحا بالعصيان.

غير أن أول هجوم جدي على الجند الفرنسيين لم يحدث الا في ٢١ تموز (يوليو)، وكان ضد النقيب (نورمان) نفسه، الذي كان معروفا من الدروز، فقد توقفت الفرقة التي كان يقودها (بغية انقاذ حياة الطيارين الموجودين في إمتان) في الكفر، وهي موقع مياه استراتيجي في جنوب غربي السويداء. وعرض سلطان عليه التراجع. وعندما رفض القائد، وهو أمر طبيعي، هاجم سلطان الفرقة وأهلكها، فمن بين ١٦٦ رجلا تتكون منهم الفرقة، قتل ٨ ضباط و ١٠٧ جنود في مجابهة جسدية شرسة[١٩].

وفي مساء اليوم الذي وقعت فيه المجابهة، بدأ حصار الثكنة المحصنة في السويداء، حيث لجأت بقية فرقة (نورمان) والحامية العسكرية وسلطات المدينة.

ولفك الحصار عن السويداء، ومعاقبة سلطان، والثأر لقتلى قرية الكفر، شكل، برعاية الجنرال ميشو (Michaud)، الذي كلفه المفوض السامي تسوية هذا «الحادث»[٢٠]، طابور كبير «مكون من جميع العناصر التي أمكن جمعها في سوريا»[٢١]. وعلى الرغم من الرأي المعارض الذي أبداه بعض القادة ممن كانوا أحسن اطلاعا على الحالة السيئة لوحداتهم، فقد تورط الطابور، الذي تكون بانفعال، في معركة «الجبل»، في ٣ آب (أغسطس)[٢٢]. وفي موكب في عين المزرعة، هوجمت قافلته وتكبدت خسائر فادحة. وعندما شطر أفراد الطابور إلى نصفين، وحرموا بذلك من الذخائر، وأرهقوا من قبل الدروز، تقهقروا باتجاه قاعدتهم في حالة مريعة من الارتباك. وأدى قنوط القادة، وهلع الجنود، وجهل الملغاشيين (وهم أفراد الطابور) العاجزين عن استخدام أسلحتهم، والموت البطولي للمقدم (أو جاك)،



□ نسيب بك الاطرش

وبسالة الدروز وصيحاتهم الغريبة... أدى كل ذلك إلى تحطيم القوة الفرنسية وتحويل التقهقر إلى كارثة. «ولم يعد القادة يعرفون رؤساء الفرق، ولم يعد الضباط يعرفون رجالهم ولا يتحدثون بلغاتهم، ولم يعد الرجال يعرفون ضباطهم ولا يستوعبون أوامرهم»[٢٣].

وكانت الخسائر باهظة، في الرجال والعتاد[٢٤].

إن اندحار طابور (ميشو)، الذي أعقب الفشل المهني الذي حل بطابور (نورمان) جعل من سلطان سيدا مطلقا «للجبل»، الخالي من الفرنسيين، وقائدا بلا منازع للثورة الدرزية. ولكن «يبدو أن هذا النجاح غير المنتظر قد أذهب، بل أفزع، في البداية، كثيرا من الدروز أكثر مما أثار حماستهم... لقد أرادوا ممارسة السياسة، والأعراب عن استيائهم، ولكنهم وجدوا أنفسهم، رغما عنهم، وبالصدفة تقريبا، أمام قطيعة مع فرنسا»[٢٥].

وفورا، بعد ٣ آب (أغسطس)، باشر النقيب (رينو) مفاوضات معهم. وكان الدروز يطالبون بالإضافة إلى العفو العام والشامل، بحاكم وطني منتخب من السكان، وباجتماع جمعية تأسيسية لوضع النظام الأساسي «للجبل».

ورفض وكلاء الانتداب هذا الشرط الأخير الذي بدا لهم كفيلا بإحباط سلطانهم السياسي، واختاروا الحرب، ناقضين بذلك هدنة كانوا قد طلبوها لدفن موتى ٣ آب (أغسطس).

وعادت المعارك. ولم يعد «الجبل»، بعد إخلائه من السكان غير المؤهلين لحمل السلاح الذين نقلوا إلى الأردن، الا معسكرا تاسعا، فيه يتم انتقاء المجاهدين باستمرار. وبقيت قوات سلطان، المكونة من ٢٠ إلى ٣٠ الف رجل، هادئة في «الجبل» الذي أمسى حرا بعد معركتي الكفر والمزرعة. وقد استحوذت على سلطان، خارج نطاق المواكب المتوحشة، إغراءات كثيرة وفرت له النصر. وكانت الإغراءات تأتيه من شعبه الذي هيجه نضال قصير ومجيد، ومن الدروز الذين كانوا يعيشون خارج «الجبل»، ومن دمشق المضطربة، ومن سوريا الوسطى بكاملها التي كانت تضج بوطنية حدت معركة ميسلون من انطلاقتها دون القضاء عليها.

والثورة، التي كانت درزية حتى الآن، أصبحت سورية. وتلك كانت المرحلة الثانية، الأطول والأعنف. وبعد أن انطلقت من أصول محلية وإدارية في الدرجة الأولى، اتجهت بغتة نحو صيغة وطنية تستمد أنصارها من الشعب، كما تستمدهم من المثقفين والطبقات المالكة... نحو نضال من أجل الاستقلال شبيه بأشكال النضال التي هزت وصدعت، هنا وهناك، خلال السنوات الأخيرة، الهيمنة الأوروبية في الشرق.

وانتشر السيل، بموجات مباغتة، خارج «الجبل»: في الشمال، عن طريق وادي العجم، وهو ممر ذو منحدرات زلقة، تمتد على طوله مجموعة متراصة من القرى الدرزية تصل إلى ضاحية دمشق؛ وفي الشمال الغربي، عن طريق السفح الغربي لجبل حرمون (جبل الشيخ) ووادي التيم حيث يرتبط عشرة آلاف درزي بمجموعات من نفس الطائفة تقيم في المنطقة الجنوبية الشرقية من لبنان (حاصبيا، وراشيا...). «لقد اتسعت الحركة بسرعة... والعصيان، إن لم يشمل كل السكان، فانه شمل على الأقل كل مساحة سوريا الجنوبية»[٢٦].

وخلال شهري آب وأيلول (أغسطس وسبتمبر)، لم تتوقف صفوف الثوار عن



□ عبد الغفار باشا الأطرش.

التضخم، جاذبة إليها الجبليين في حرمون، والفلاحين في السهل، والعوام في المدن، والطلاب الوافدين من دمشق أو من الجامعات الأوروبية.

وكانت دمشق هدف الثوار. ومنذ ١٤ آب (أغسطس)، هوجمت القرى المحيطة بها من الجنوب. وفي ٢٤ منه، وجه ١٥٠٠ رجل، دون نجاح، أول ضربة ازميل إلى المدينة. وتتابعت، بعد ذلك، الهجمات. وتعطلت المواصلات. وكانت سكة حديد الحجاز، ما بين دمشق ودرعا، على الحدود الفلسطينية، عرضة للهجمات المتواصلة.

وبعيدا إلى الغرب، وحتى القنيطرة، كانت الجماعات المسلحة تنمي نشاطها. وفي الشمال، داخل الحدود اللبنانية، كانت بعلبك، التي يقطن معظمها مسلمون شيعة، في هيجان كامل. وكذلك في الشوف حيث يعيش الدروز، على السفح الغربي من لبنان، وعلى بعد عدة كيلومترات من بيروت، فقد لوحظ وجود تحرك خطير. وكان ثوار «الجبل» على علاقة ثابتة بهذه الأوساط التي كانت تنتظر فرصة لتنتفض. وإلى الشرق من دمشق، كان البدو ينتظرون، جماعات جماعات، ساعة الاشتباك والنهب، بدلا من التوغل في الصحراء مع اقتراب فصل الشتاء. وكان عدد منهم يقاتل إلى جانب الدروز. وقد ظهروا عند



□ حمد الاطرش.



□ الجنرال ويغان.

أول هجوم على دمشق. وهكذا انفجرت الثورة، بعفوية وقوة، حول العاصمة، وفي كل مكان.

وخلال هذا الوقت، «اقتصرت التدابير العسكرية على حراسة الخط الحديدي، وقصف جبل الدروز بقنابل الطائرات، وإرسال الكتائب إلى قرى كان ينبغي معاقبتها لاستقبالها جماعات من الثوار، أو لاشتراكها في أعمالهم العدوانية»[٢٧].

وبقيت السويداء محاصرة من قبل الثوار. «واستطاعت الحامية أن تتمون بواسطة الطائرات، ولكنها تكبدت بعض الخسائر، فقد نجح الدروز في إطلاق عدد من القذائف على الثكنة التي تمركزت فيها الحامية، وذلك بواسطة المدافع التي استولوا عليها من الطابور الذي مني بالفشل في ٣ آب (أغسطس)»[٢٨].

ولم يفكروا في إنقاذها الا عند وصول النجدات المنتظرة. واحتلت قرية مسيفرة، الواقعة على طريق أسهل من طريق ازرع. وفي ١٤ أيلول (سبتمبر)، تسللت إلى «الجبل» كتيبة طليعية كبيرة. وفي ١٧ منه، ولدى مهاجمة قرية مسيفرة، حاول الدروز، عبثا، ورغم معركة دامية[٢٩]، ايقاف تقدم الكتيبة. وفي ٢٤ منه، وبعد معركة قاسية في تل ـ حديد، انقذت أخيرا حامية السويداء. ولكن النقص في المياه، واقتحامات الدروز، وضرورة تجميع الجند حول دمشق، حتمت، بعد ثلاثة أيام، الجلاء عن السويداء، فعادت الكتيبة إلى قاعدتها في مسيفرة، وبقي «الجبل» غير محتل خلال الأشهر اللاحقة. وتفجرت، في كل مكان من السهل تقريبا، بؤر عصيان لم تزدها خمس سنوات من الانتداب الا اشتعالا.

وفي غوطة[٣٠] دمشق، وفي الصحراء إلى الشرق، وفي الغرب، في وادي التيم وحرمون، وعلى امتداد المعابر الجبلية المتعرجة، حيث يتربص درزي خلف كل صخرة، وفي كل مكان... لم تلبث الثورة الهادرة، بعنف متصاعد، يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة، أن تدفقت متجهة شطر الشمال لا تلقى أمامها الا قوى مبعثرة وواهنة وخائرة العزيمة.

وسقطت القرى والضواحي، خارج «الجبل»، بين أيدي الثوار.

وكانت دمشق تترقب، وهي تلهث أمام الأحداث المتسارعة. وباستثناء ستة وضعوا في الإقامة الجبرية، فقد غادر العاصمة رجال حزب



□ قوات الاحتلال الفرنسي في ساحة النجمة بدمشق.

الشعب، المطاردين، والذين أصبحوا مسؤولين عن التمرد، وانضموا إلى صفوف الثوار، حاملين اليهم قيادة سياسية ومعلومات استراتيجية كانت تنقصهم. وكان معظمهم من الضباط القدامى في الجيش التركي، أو من الطلاب القدامى في الجامعات الأوروبية.

وبين عشية وضحاها، طرأ تبديل على الثورة، لقد انتقل مركز قيادتها من «الجبل» إلى الغوطة.

الهوامش

(١) تقرير فرنسا إلى عصبة الأمم للعام ١٩٢٥، ص ١٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩.

(٣) نفس المرجع، ص ٢٠.

(٤) نفس المرجع، ص ٢٣. راجع، بهذا الصدد، منشورات الوفد السوري الفلسطيني إلى جنيف، وخصوصا الكراس الذي صدر بعنوان: **سوريا في عصبة الأمم في عام ١٩٢٥**.

(٥) تقرير عام ١٩٢٥، المذكور، ص ٢٠.

(٦) تقرير النقيب رينو (Reynaud)، ذو الرقم ١٣٥، الذي استشهد به السيد فري (Ferry)، في مجلس النواب الفرنسي (المناقشات النيابية، عام ١٩٢٥، ص ٤٤٤١).

(٧) «وصلت لمقابلة الجنرال فقال لي قبل أن أنبس بكلمة: «لقد جمعت، بطريقة جميلة، ثلاثة من دروزكم الذين شاهدتهم واقفين في الممشى ينتظرون، وقلت لهم إنني سأرسلهم، إن لم يعودوا فورا إلى ديارهم، إلى تدمر (الإقامة الجبرية) حيث يقيم الزعيم المسيحي عقلة القطامي»... وفي ٤ أو ٥ تموز (يوليو)، تلقيت من نجيب باشا الحلبي، عميد السن للزعماء الدروز، رسالة مؤرخة في ٢٩ حزيران (يونيو). وفي هذه الرسالة اكد لي مشاعر الولاء التي يكنفها جميع الدروز لفرنسا، وانهم جميعا، باتفاق لا سابق له، يفضلون الموت على تحمل عودة (كاربييه)، ورجاني أن اتدخل للإبقاء على النقيب (رينو)، الذي تفاهموا معه وتعهدوا، من اجل ذلك، بالخضوع والوفاء لفرنسا...» [رسالة شخصية من الأمير فؤاد ارسلان إلى صديق من فرنسا، استشهد بها فري (Ferry)، في المرجع السابق، ص ٤٤٤٢].

(٨) فري (Ferry)، نفس المرجع.
(٩) (L'Echo de Paris)، في ١٩٢٥/٩/٢٩. وبالإضافة إلى تأكيد الجنرال (ساراي) نفسه [راجع رسالته إلى مندوبه في دمشق، التي ورد ذكرها في النص]، فان الشهادة اللاحقة للسيد (Coblentz) في كتابه «صمت ساراي» (Le Silence de Sarrail)، ص ٢٣٤، تؤكد، بصورة مطلقة، صحة الوقائع.
(١٠) فري (Ferry)، المرجع المذكور، ص ٤٤٤١.
(١١) تقرير عام ١٩٢٨، ص ٢٣.
(١٢) «كانت مهمة المقدم (تومي — مارتان) قمع الحركة، دون التعمق في أسبابها، والإعداد، قبل كل شيء، لعودة النقيب (كاربييه)» [فري (Ferry)، المرجع المذكور، ص ٤٤٤٣].
(١٣) «وكتب يقول: ليس هناك أدنى شك. فلو توجه النقيب (كاربييه) إلى السويداء لواجهنا:
١ — هجوما على سيارته في الطريق بين السويداء وازرع.
٢ — تمرد مدينة السويداء.
٣ — انتفاضة جبل الدروز.
وتلك حقيقة. وسأثبتها في التقرير» [فري (Ferry)، المرجع السابق].
(١٤) وهذا هو نص الأمر: «ارجوكم ان تستدعوا المشاغبين إلى دمشق، وبينهم حمد بك، ونسيب بك، ومتعب بك، وعبد الغفار، وسلطان الأطرش، بحجة تسلم مطالبهم. وعندئذ تقولون لهم إنني أعتبرهم المسؤولين عن كل فوضى واحتفظ بهم في الإقامة الجبرية، وفي مكان تعينه لي». الإمضاء: (ساراي) [ذكر ذلك الجنرال بورجوا (Bourgeois) في مجلس الشيوخ الفرنسي. المناقشات النيابية لعام ١٩٢٥، ص ١٧٣٥]. وقد رد المندوب دو لسليه ديه لوج (Deleslé des Loges) على الأمر برسالة مطولة، في ١٢ تموز (يوليو)، جاء فيها: «هذا تدبير لا يتخذ دون أن يكون هناك نوع من الاضطرابات الداخلية، وبعد الإصغاء إلى هؤلاء الأشخاص الذين أتوا يعرضون عليكم، برصانة بالغة، قضيتهم... الذين لا يطلبون الا شرح وجهة نظرهم أمام المفوض السامي، وعند الحاجة بحضور النقيب (كاربييه)، الذين يقولون لكم إنهم تعرضوا لمضايقات، ولكنهم ليسوا جبناء...» [الجنرال (بورجوا)، المرجع المذكور، ص ١٧٣٥].
(١٥) جلسة ١٩٢٥/١٢/٢٠.
(١٦) ويبدو أن ذلك كان رأي اللجنة الدائمة للانتدابات التي ورد في تقريرها إلى مجلس عصبة الأمم، بعد دورة روما (شباط (فبراير) ١٩٢٦)، ما يلي: «ويبدو من الواضح أن أحد أسباب انتفاضة هؤلاء السكان يجب البحث عنه في تجاهل هؤلاء الذين مثلوا فيما بعد دولة الانتداب في جبل الدروز للظروف الخاصة التي حتمت إبرام اتفاق عام ١٩٢١. ويظهر أن أحدهم قد أثقل كاهل الجبليين... في جبل الدروز بسلطته القاسية للغاية، بدلاً من توفير الحكم الذاتي والحرية لهم، بعد الاعتراف لهم بهذا الامتياز. ان اللجنة قد تأثرت، بشكل خاص، بقصة الاستياء المتصاعد، والتحذيرات المتكررة والمتجاهلة، وعناد الجنرال (ساراي) المتفاقم أكثر فأكثر، والذي أدى، بعد الطرد القاسي لوفد درزي جديد، إلى اعتقال... وفد من الوجهاء استدعي (بحجة تسلم مطالبه)...».
(١٧) (L'Echo de Paris) في ١٩٢٥/٩/٢٩.
(١٨) وهو النظام الأساسي الذي نصت عليه المادة الأولى من «إعلان الانتداب» الصادر عن عصبة الأمم في ١٩٢٢/٧/٢٤ [راجع، بهذا الصدد، كتاب المؤلف: **«التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري»** منشورات الجامعة اللبنانية. بيروت، ١٩٧٣، ص ٣٣٢ وما يليها].
(١٩) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٤. والجنرال جيرو (Girod) يسرد تفاصيلها المأساوية في خطابه أمام المجلس النيابي [المناقشات النيابية. مجلس النواب. الجزء الخامس، ص ٤٥٠٣]. راجع كذلك (فري)، المرجع المذكور، ص ٤٤٤٥.
(٢٠) برقية الجنرال (ساراي) في ٢٥ تموز (يوليو)، في باريس (فري، المرجع المذكور، ص ٤٤٤٥).
(٢١) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٤.
(٢٢) حول تشكيل طابور (ميشو) وتنبؤات المقدم أوجاك (Aujac)، راجع (Ch. Desjardins) [مناقشات مجلس النواب لعام ١٩٢٥، الجزء الخامس، ص ٤٥٠٨ وما يليها]. وقد وصل تقرير (أوجاك) إلى الجنرال (ساراي) فأحاله على قيادة أركانه للدراسة والمشورة، ولكن التقرير لم يبلغها الا بعد فترة طويلة. ولعل هذا التأخر هو سبب الفشل في ٣ آب (اغسطس) [راجع (جيرو)، المرجع المذكور، ص ٤٥٠٤] ويبدو أن أقرب المساعدين للجنرال قد خانوه [حسب رواية (Bonardi)، المرجع المذكور، ص ٨٥. راجع كذلك (Colbentz)، المرجع المذكور، ص ٢٤٧].
(٢٣) (Desjardins)، المرجع المذكور، ص ٤٥١١.
(٢٤) قتل ٢٨ ضابطا، وجرح ٢٨ ضابطا، وقتل ٦١٢ جنديا، من بينهم ١٢٢ فرنسيا [جيرو، المرجع المذكور، ص ٤٥٠٣]. واعلن وزير الحرب (P.Painlevé)، فوق منصة مجلس الشيوخ، أن السوريين من أفراد الفرقة الأجنبية قد تسببوا، بفرارهم الهائم، في حدوث الهزيمة الفرنسية. ورد (Desjardins)، في مجلس النواب، على هذا التبرير بقوله: «إنني أحتج، يا سيدي الوزير، على الحكم، البائس حقا، الذي أصدرته عليهم من منصة مجلس الشيوخ، في اليوم الفائت، عندما قلت أن

هؤلاء الناس كانوا مدربين وراثيا على الخوف من الدروز، وكانت لديهم بالتالي موهبة خاصة في فن الهرولة. وإذا كان السوريون قد فروا في ذلك اليوم فلأنهم كانوا واحدا مقابل عشرة. وقد شعروا بدعم سيء، وبأنهم قد خذلوا، لأنهم كانوا يعرفون أن الجنرال كان في المقدمة، محميا، في سيارة مصفحة» [المناقشات النيابية، المرجع المذكور، ص ٤٥١١، وما يليها]. ان السوريين، الملتصقين بمدافعهم، والموضوعين في مواجهة خط النار، كانوا يتلقون جميع الطلقات من جانب أشقائهم في العرق. ولمساندتهم، كان الملغاشيون، وراءهم، ينبطحون كالمخبولين تحت رشقات النار. وعلى مسافة قريبة، كان تشتت الرؤساء. وتابع الخطيب (Desjardins) كلامه قائلا: «لقد نسيت، يا سيدي وزير الحرب، ما فعلوه في ساحات الوغى الفرنسية أثناء الحرب الكبرى». وسيذكره مجاهدو دمشق بذلك.

(٢٥) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٥.

(٢٦) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٦.

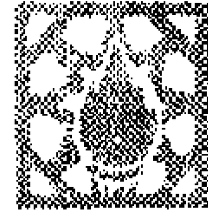
(٢٧) التقرير المؤقت لعام ١٩٢٥، ص ١٨.

(٢٨) المرجع السابق، ص ١٥.

(٢٩) ربما كانت معركة مسيفرة ــ إذا استثنينا كارثة طابور (ميشو) ــ الفصل الأكثر دموية من الثورة، والأرقام الرسمية تشير إلى سقوط ٤٧ قتيلا و ٨٣ جريحا من الجانب الفرنسي، و ٣٠٠ قتيل من الجانب الدرزي [التقرير المؤقت لعام ١٩٢٥، ص ١٩]. ولكن الأرقام المتعلقة بالخسائر الفرنسية هي أقل من الأرقام الحقيقية [راجع رواية شاهد عيان في مجلة (Le Phénixe) القاهرية، الصادرة في ١٩٢٦/١/٧، ص.٥٣].

(٣٠) الغوطة (ومعناها، بالعربية، العمق) هي حدائق تحيط بدمشق ويصعب التسلل إليها، استخدمها الثوار، لمدة عامين، كملجأ لهم ومركز لنشاطهم.

*** دراسة نشرت في «المجلة التاريخية» (Revue Historique) في عددها الثاني لعام ١٩٨٢.**



تصريحات وأقوال

■ علينا باستعمال القوة مع العرب، لأن معاملتهم بالطريقة الديمقراطية الأوروبية لا تتلاءم مع واقعهم الشرقي.. هناك العديد من مخيمات اللاجئين.. ماذا سيحدث إن أضفنا إليها مخيمن أو ثلاثة.

(مراسل ها آرتس ــ تسفي باريل ــ على لسان عضو مستوطنة حول القدس)

■ تستخدم إسرائيل المساعدات الاقتصادية الأمريكية في منح مستوطنيها في الضفة الغربية قروضاً طويلة الأجل ذات فوائد منخفضة.. [٣١٠٠ مليون دولار تطلبها إسرائيل كمساعدات للسنة المالية ١٩٨٣/١٩٨٤م].

(السناتور مارك هاتفيلد ــ رئيس لجنة المخصصات في مجلس الشيوخ الأمريكي)

■ إن الولايات المتحدة لا تريد حرمان إسرائيل ثمار انتصارها العسكري في لبنان.. هناك اختلافات بيننا ولكن يجب أن نناقشها بصفتنا حلفاء وألّا ندع الغضب والعواطف تطغى على أحكامنا..

(صموئيل لويس ــ السفير الأمريكي في إسرائيل)

■ ... بارك هنري كيسنجر والسيدة كير كباتريك الغزو الإسرائيلي على أساس أنه سيعمل على تعزيز المصالح الأمريكية على كافة الجبهات..

(جيمس ايكنز ــ السفير الأمريكي الأسبق في السعودية)

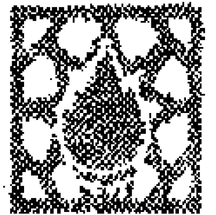
١٥ أيار ١٩٤٨



□ الحاج امين الحسيني.

السفير د. حليم أبو عز الدين

ما زلت أذكر جيدا ذلك اليوم، لخمس وثلاثين سنة خلت. ١٥ أيار ١٩٤٨.
اليوم الذي انتظره العرب كثيرا، انتظروه ثلاثين عاما.
انتظروه ليكون يوم الانقاذ، ويوم التحرير،
يوم انقاذ فلسطين من براثن الصهيونية،
ويوم تحريرها من الانتداب البريطاني.
كان ذلك اليوم، في الواقع، يوم نشوة قومية، يوم كبرياء وشموخ.
وكان من المفروض أن يكون ذلك اليوم من أيام العرب المحجّلة، وأن يدخل التاريخ كيوم اليرموك، أو يوم حطين.
ولكن،
ولكن، لنعد إلى تاريخ ذلك اليوم.



في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧، وقبل أن تصبح صاحبة القرار في فلسطين، أصدرت بريطانيا بيانا عن سياستها التي تزمع تنفيذها في فلسطين. وجاء ذلك في تصريح وجهه اللورد بلفور، وزير خارجيتها في ذلك الحين، إلى اللورد روتشيلد رئيس المجلس اليهودي البريطاني تضمن أن بريطانيا تنظر بعطف إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، على أن لا يؤدي ذلك إلى الاضرار بالمواطنين غير اليهود في فلسطين، أو بالجاليات اليهودية المنتشرة في العالم.

صدر هذا التصريح في الوقت الذي لم تكن

فيه بريطانيا تملك السيادة على فلسطين. وعندما أوكلت عصبة الأمم، فيما بعد، إلى بريطانيا الانتداب على فلسطين، فإن ذلك التوكيل لم يشمل حق السيادة، بل اقتصر، قانونا، على حق الادارة. فالسيادة على فلسطين، وعلى سائر الدول التي وقعت تحت نظام الانتداب، كانت لسكان فلسطين، ولسكان سائر الدول التي قامت على أنقاض السلطنة العثمانية.

فلم يكن، إذن، بوسع بريطانيا، قانونا، أن تتصرف بفلسطين وبسكانها وبمصيرها،كما تريد.

ولكن بريطانيا، العظمى والجبارة في ذلك الحين، تمكنت، في مؤتمر الحلفاء في سان ريمو، من فرض انتدابها على فلسطين؛ كما تمكنت من فرض تصريح بلفور على صك الانتداب. وبات، من جراء ذلك، الانتداب البريطاني يعمل، خلال ثلاثين عاما، على تحقيق سياسة الوطن القومي اليهودي، وعلى فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية إليها.

وكانت سنوات الانتداب البريطاني الثلاثون على فلسطين سلسلة من الثورات العربية والاضرابات والاصطدامات، أعقبتها سلسلة من المؤتمرات واللجان الملكية والقرارات السياسية التي، في أكثريتها، لم يتم تنفيذها.

وفي نهاية المطاف، وبعد أن أعدت بريطانيا فلسطين للعمل اليهودي، وأدخلت مئات الألوف من المهاجرين اليهود، وحققت بذلك أهداف سياستها، أعلنت، عام ١٩٤٧ أنها ستحمل القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة، بعد أن صرح وزير خارجيتها ارنست بفين في مجلس العموم البريطاني «أن بريطانيا فشلت في تطبيق الانتداب لما احتواه من التزامات متعارضة».

وطلب الوفد البريطاني لدى الأمم المتحدة، في ٢ نيسان ١٩٤٧، تدوين «قضية فلسطين» على جدول أعمال الدورة الثالثة للجمعية العامة للأمم المتحدة، كما طلب دعوة الجمعية العامة في دورة خاصة، وبأقرب فرصة، من أجل تشكيل لجنة خاصة تعد لعرض الموضوع على الجمعية العامة في دورتها العادية.

ودعيت الجمعية العامة، في دورتها الخاصة الأولى، للاجتماع في ٢٨ نيسان ١٩٤٧.

وفي ٢٢ نيسان تقدمت سوريا ولبنان ومصر والعراق والمملكة العربية السعودية بطلب إضافة البند التالي على جدول أعمال الدورة الخاصة: «إنهاء الانتداب على فلسطين، وإعلان استقلالها». ولكن، لدى افتتاح الدورة الخاصة، وافقت اللجنة العامة للجمعية العامة على إدراج البند الذي تقدمت به بريطانيا، ورفضت إدراج البند الذي تقدمت به الدول العربية.

وكانت الجمعية العامة للأمم المتحدة تخضع، في ذلك الحين، للهيمنة الأميركية ــ البريطانية.

وفي ١٥ أيار ١٩٤٧ قررت هذه الدورة الخاصة تشكيل لجنة خاصة للتحقيق في القضية الفلسطينية مؤلفة من استراليا، كندا، تشيكوسلوفاكيا، غواتيمالا، الهند، إيران، هولندا، يوغسلافيا، السويد، بيرو، ويوروغواي.

وتبين جليا من تشكيل هذه اللجنة ميلها إلى تحقيق الأطماع الصهيونية وتقسيم فلسطين.

وفعلا، وضعت هذه اللجنة تقريرا رفعته في ١٩٤٧/٨/٣١ إلى الجمعية العامة وحوى مشروعين: الأول اقترحته الأكثرية، ويقضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، وإقامة كيان خاص منفصل لمدينة القدس وجوارها تقوم على إدارته الأمم المتحدة، وجمع الكل في وحدة اقتصادية. والثاني اقترحته الأقلية، ويقضي بإنهاء الانتداب، وإقامة دولة فدرالية فلسطينية تضم العرب واليهود، على أن تكون القدس عاصمة الدولة الفدرالية التي يكون لها جنسية واحدة فلسطينية.

رفض العرب مشروع التقسيم، وطلبوا إحالة الموضوع إلى محكمة العدل الدولية، وطعنوا في حق الأمم المتحدة في تقسيم البلد، ولكن الضغوط الأميركية ــ الصهيونية أدت إلى تجاوز الطلب العربي.

وفي ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين بأكثرية ٣٣ صوتا ضد ١٣ صوتا وامتناع ١٠.

كان قرار تقسيم فلسطين مؤذنا باحداث جسام سرعان ما انطلقت بمظاهرات وإضرابات، وتطورت إلى اضطرابات ومعارك دموية عنيفة كان

الفريقان تهيأوا لها، وإنما على درجات متفاوتة من الاعداد والتدريب والتسليح.

العرب استعدوا للقتال، ولكن بوسائل محدودة وقديمة. وتدريبهم كان في مجمله غير كاف، برغم ما أظهروه من البطولة والاقدام. إلا أن اليهود كانوا أكثر تدريبا وأحسن تسليحا. تدربوا في الجيش البريطاني، وفي التنظيمات العسكرية اليهودية. وتسليحهم كان أقوى وأحدث. فأكثر تسليح العرب كان من بقايا ثورة ١٩٣٦، وأحسنه من مخلفات الحرب العظمى الثانية في الصحراء الغربية، في الوقت الذي كان فيه اليهود يتسلحون من ثكنات القوات البريطانية ومن أوروبا الشرقية والغربية.

وسرعان ما تفاقم القتال بين العرب واليهود. وانضوى العرب الفلسطينيون في قوات الجهاد المقدس، كما هرعت قوات المتطوعين العرب من خارج فلسطين في جيش الانقاذ للمشاركة في الدفاع عن الحقوق العربية.

وبلغ من اشتداد المعارك أن لفتت لجنة فلسطين الخاصة، التي أقامتها الأمم المتحدة بقرار التقسيم، مجلس الأمن إلى اضطراب الحال في فلسطين.

وطلب ممثل الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة، في ١٩٤٨/٣/١٩، وقف إجراءات التقسيم. كما طلب من مجلس الأمن الدعوة إلى عقد دورة خاصة جديدة للجمعية العامة لدرس الوضع واقتراح حل جديد. وفي ١٩٤٨/٤/١٦ اجتمعت الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورة خاصة ثانية حول فلسطين، وخيم على تلك الدورة جو من الشك حول إمكانية تقسيم فلسطين.

وعارض اليهود العدول عن التقسيم. وعينت الجمعية العامة في ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨ — عشية انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين — وسيطا يكلف بالعمل على إيجاد تسوية سلمية لقضية فلسطين. وكان ذلك الوسيط هو الكونت فولك برنادوت.

انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين في منتصف ليل ١٤ — ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، وغادر ميناء حيفا من تبقى من رجال الادارة البريطانية والقوات البريطانية المسلحة، ودخلت، إذ ذاك، قوات عربية من مصر وسوريا والأردن ولبنان والعراق وفلسطين لحماية العرب الذين كان الارهاب الصهيوني قد أجلى بعضهم عن البلاد، ولاعادة الأمن والنظام إلى فلسطين.

وأعلن اليهود قيام الدولة اليهودية، التي سارعت كل من الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي للاعتراف بها.

وتقدمت القوات العربية في فلسطين، تساندها، من الداخل، القوة العربية الفلسطينية وقوى المتطوعين العرب.

وكان وضع العرب العسكري حسنا، عندما بادر مجلس الأمن، في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٨ إلى إقرار هدنة لمدة أربعة أسابيع.

تلك الأيام عشتها بفكري وقلبي وآمالي. عشتها في موقع المسؤولية في قلب الأحداث.

كنت إذ ذاك قائما بأعمال السفارة اللبنانية في القاهرة، وأمثل لبنان لدى جامعة الدول العربية.

هكذا عشتها، في ١٥ أيار ١٩٤٨، النشوة والكبرياء والأماني، التي تحدثت عنها في صدر هذا المقال.

وكانت القوات العربية تتقدم من أطراف فلسطين باتجاه القلب. الجيش اللبناني في الجليل الغربي والمالكية والناصرة. والجيش السوري في الجليل الشرقي وطبريا وسمخ والحمة. والجيش الأردني ومعه القوات العراقية في قلب فلسطين، في القدس، والرملة واللد والمثلث والخليل. والجيش المصري في النقب وبئر السبع باتجاه بيت لحم.

هناك كانت القوات العربية عندما أقر مجلس الأمن هدنة الأسابيع الأربعة.

كانت القوات العربية في مواقع متقدمة داخل الأراضي الفلسطينية، عندما باشر برنادوت، وسيط الأمم المتحدة لفلسطين، مهمة إقناع الأطراف المتقاتلة بقبول الهدنة ووقف الأعمال الحربية.

ومع أن القوات العربية كانت متقدمة داخل فلسطين إلا أنها لم تكن بعد قد استعادت المدن والمناطق التي كان اليهود قد استولوا عليها قبل ١٥ أيار.

لذلك كان الفلسطينيون وبعض الدول العربية رافضين للهدنة، كما كان بعض العرب قابلين بها.

وإنني أذكر تماما ذلك اليوم — يوم ٧ حزيران (يونيو) ١٩٤٨ — الذي دعيت فيه مع



□ معركة مشمار: القاوقجي يراقب الهجوم في مشمار.

زملائي ممثلي مصر وسوريا والأردن لمقابلة الكونت برنادوت في مقره في فندق شبرد القديم في القاهرة، حيث سلم إلى كل منا رسالة موجهة إلى حكومته، بعد أن كانت الحكومات العربية قبلت قرار مجلس الأمن القاضي بإعلان الهدنة لمدة أربعة أسابيع.

وكان من قدري أن أتسلم من برنادوت شروط الهدنة الموجهة إلى الحكومة اللبنانية، تلك الشروط التي حملها، في اليوم ذاته، أحد رجال السفارة إلى بيروت وسلمها إلى وزير الخارجية.

هذه الهدنة، الأولى، التي ارتأى كل من سوريا ولبنان رفضها ـــ وأنا هنا أسجل للتاريخ ـــ عادت جميع الدول العربية المحاربة وقبلت بها، بعد عدة اجتماعات، البعض قبلها طوعاً، والبعض الآخر كرهاً.

هذه الهدنة الأولى كانت بداية النهاية، فبعد أن كانت القوات العربية في مواقع عسكرية متقدمة وسليمة، وكانت إمكاناتها العسكرية عندئذ ـــ أي قبل الهدنة ـــ أوفر من إمكانات اليهود؛ جاءت الهدنة وأتاحت لليهود، خلال أربعة أسابيع، أن يتسلحوا من الولايات المتحدة أو من تشيكوسلوفاكيا، ومن أوروبا الغربية، في الوقت الذي لم يتمكن فيه العرب خلالها من تقوية طاقاتهم الحربية، وكانت النتيجة قوة لليهود وضعفاً للعرب.

وخلال تلك الأسابيع الأربعة من الهدنة، وبينما كان اليهود يستقوون ويتسلحون، تقدم برنادوت بـ «أفكار» اقترح فيها تعديلات إقليمية



□ جلوسا من اليمين: المجاهد كامل عريقات، المجاهد الكبير عبد القادر الحسيني والمجاهد قاسم الريماوي.

على قرار التقسيم الصادر في ١٩٤٧/١١/٢٩. وانطوت «أفكار» الوسيط على البنود التالية:

١ ـــ ضم النقب ـــ كله أو جزء منه ـــ إلى الاقليم العربي (بعد أن كان قرار التقسيم ألحقه بالقسم اليهودي).

٢ ـــ ضم الجليل الغربي ـــ كله أو جزء منه ـــ إلى الاقليم اليهودي (بعد أن كان قرار التقسيم ألحقه بالقسم العربي).

٣ ـــ ضم مدينة القدس إلى الاقليم العربي، مع منح الطائفة اليهودية حق الاستقلال بشؤونها البلدية؛ ووضع تدابير خاصة لحماية الأماكن المقدسة.

٤ ـــ النظر في نظام مدينة يافا (وكانت ستبقى عربية).

٥ ـــ إنشاء ميناء حر في مدينة حيفا تدخل فيه معامل تكرير البترول ومصباته.

٦ ـــ إنشاء مطار في اللد.

هذه «الأفكار» الحاملة بعض التلطيف للتقسيم لم يتح للفرقاء دراستها بجدية، إذ أن القتال لم يلبث أن انفجر إثر انتهاء الهدنة الأولى.

ففي أوائل تموز (يوليو) ١٩٤٨، وقبل موعد انتهاء فترة الهدنة في ٩ منه، سأل برنادوت الدول ذات العلاقة عما إذا كانت ستستأنف القتال بعد انقضاء أجل الهدنة.

وقد أجابت الدول العربية المقاتلة، في ٧ تموز، أن أوضاع فلسطين، وعدم احترام اليهود لشروط الهدنة، واستمرار تدفق اللاجئين العرب، ورفض اليهود الاندماج في دولة فلسطينية موحدة، كل ذلك «يحتم على الدول العربية ألا تستمر في إيقاف القتال على الشرائط الحالية، وأن تتخذ التدابير الكفيلة بوقف هذا العدوان، على أن ذلك لا يغلق الباب بوجه الجهود التي يبذلها الوسيط، ولا في وجه المقترحات التي يتقدم بها بتلك الصفة»[1].



□ كونت فولك برنادوت.
اغتاله الاسرائيليون في ١٧ ايلول ١٩٤٨.

في ١٠ تموز (يوليو) ١٩٤٨، استؤنف القتال بضراوة. وكان اليهود قد أكملوا استعداداتهم، واستحصلوا على ما كانوا يحتاجون إليه من سلاح وعتاد.

والواقع أن تلك الهدنة الأولى ما فرضت على العرب إلا لاتاحة الفرصة لليهود لاكمال تسلحهم.

فحصلوا على السلاح الثقيل من تشيكوسلوفاكيا وفرنسا، وحصلوا على طائرات «القلاع الطائرة» من الولايات المتحدة الأميركية مع طياريها، كما تدفق عليهم مقاتلون يهود محترفون من أوروبا ومن أميركا. وشعرنا، منذ عودة القتال في ١٠ تموز، بتغير مجرى الحرب. وتقدم اليهود وتجاوزوا حدود التقسيم، واستولوا على الجليل الغربي، وعلى اللد والرملة، وعلى جزء من المثلث العربي في وسط فلسطين.

وظهر تفوق اليهود العسكري. وفرض مجلس الأمن هدنة جديدة بدأ مفعولها في ١٨ تموز (يوليو). وكانت هدنة غير مقيدة بزمن.

ولكن اليهود استغلوا قوتهم المستحدثة وخرقوا الهدنة، واستولوا على أراض جديدة. وقاموا، في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) بهجوم على الجهة الجنوبية التي كان يحميها المصريون، واستولوا على بئر السبع وبيت جبرين والنقب.

وكانوا قد قاموا بهجوم، في ٣١ تشرين الأول على الجبهة اللبنانية، واحتلوا خمس عشرة قرية في جنوبي لبنان.

وعادوا واحتلوا، في جنوبي فلسطين، العوجة، وساروا في اتجاه خليج العقبة، واحتلوا قرية «أم الرشاش» التي أصبحت الآن «ايلات» احتلوها بعد إعلان الهدنة ووقف القتال.

ووضعت الحرب الفلسطينية الأولى أوزارها. وسعت الأمم المتحدة، ممثلة بنائب الوسيط الدولي، رالف بانش — بعد أن كانت عصابات يهودية اغتالت الوسيط فولك برنادوت في القدس — إلى عقد اتفاقات هدنة بين الدول العربية المقاتلة وإسرائيل. وتم عقد تلك الاتفاقات وفقا للتسلسل التاريخي التالي: الاتفاقية الأولى كانت مع مصر، وتلتها الاتفاقيات مع لبنان، ثم مع الأردن، ثم أخيرا مع سوريا.

وهكذا خسر العرب الحرب الفلسطينية الأولى، وخسروا معها فلسطين.

وتحولت النشوة القومية إلى نكبة قومية. وأعقبت تلك النكبة نكبات، وقد لا تكون آخرها نكبة لبنان.

واليوم، ونحن في ١٥ أيار ١٩٨٣، أي بعد خمس وثلاثين سنة من تلك الأحداث، نتساءل: اين نحن من تلك النكبة، بل من النكبات المتعاقبة؟ هل استفدنا منها؟

هل استوعبنا دروسها؟

هل نحن اليوم في وضع أفضل؟

للقارىء أن يساهم بالاجابة على هذه الأسئلة!

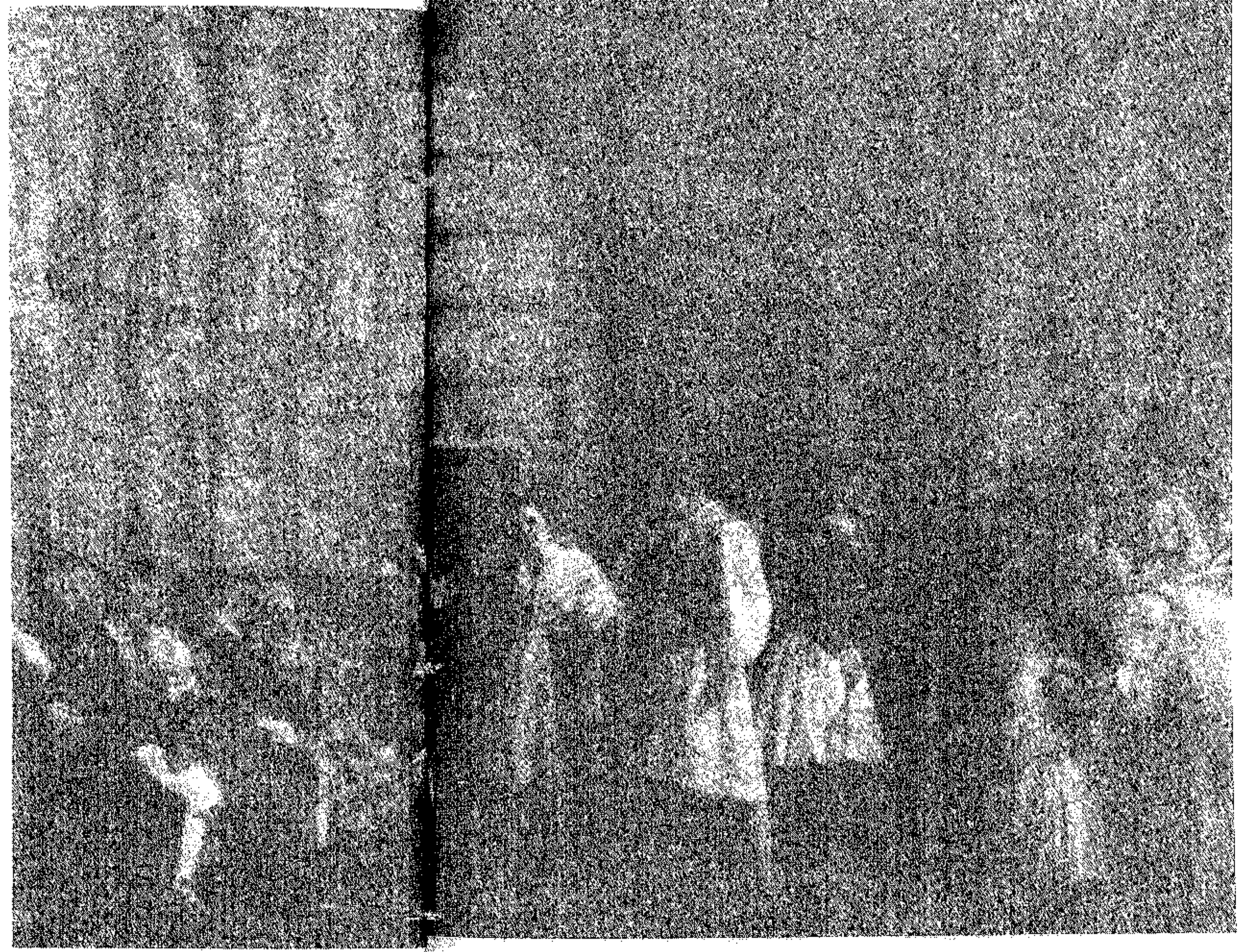
الهوامش

(١) «تلك الأيام: مذكرات وذكريات»، صادر عن دار الآفاق الجديدة، بيروت، صفحة ٣٠٨

أقدم محكمة في العالم قوانينها عربية

د. رياض العالي

□ اوحت محكمة بلانسيا إلى الفنانين باعمال رائعة، والفنان «فرانديز» خلد هذه العدالة الشعبية في لوحة شهيرة لا تزال حتى يومنا هذا معلقة في «قصر الجنرالات» في بلانسيا.



بلنسية الخميس، الساعة تعلن الثانية عشرة ظهرا: وثمانية رجال ارتدوا ابرادا سوداء، يتقدمون من بوابة الرسل في الكاتدرائية. فجأة، يصمت الجمهور، ويزحم بعضهم بعضا في حركة إجلال، ليفسحوا للموكب حتى يمر ويجلس على المقاعد الجلدية الثمانية، قرب الباب. وقد افتتحت جلسة محكمة المياه في «فيغا» بلنسية، حين دقت الثانية عشرة، تماما. هذا الحدث، يتكرر كل خميس، منذ اكثر من الف عام.

ينتسب هؤلاء الثمانية، إلى أقدم محكمة في أوروبا، بل، أغرب محكمة في العالم، دون ريب. ليس بين هؤلاء الثمانية قاض واحد. فهم مجرد فلاحين من سهل بلنسية المرع، ولكنهم ينعمون بسلطة مطلقة وتاريخية: سلطة الريّ. هم حراس ثماني سواق تخصب سهل بلنسية، والمشرفون على توزيع المياه العادل، بين الفلاحين، ويفضون النزاعات بين مالكي الأراضي.

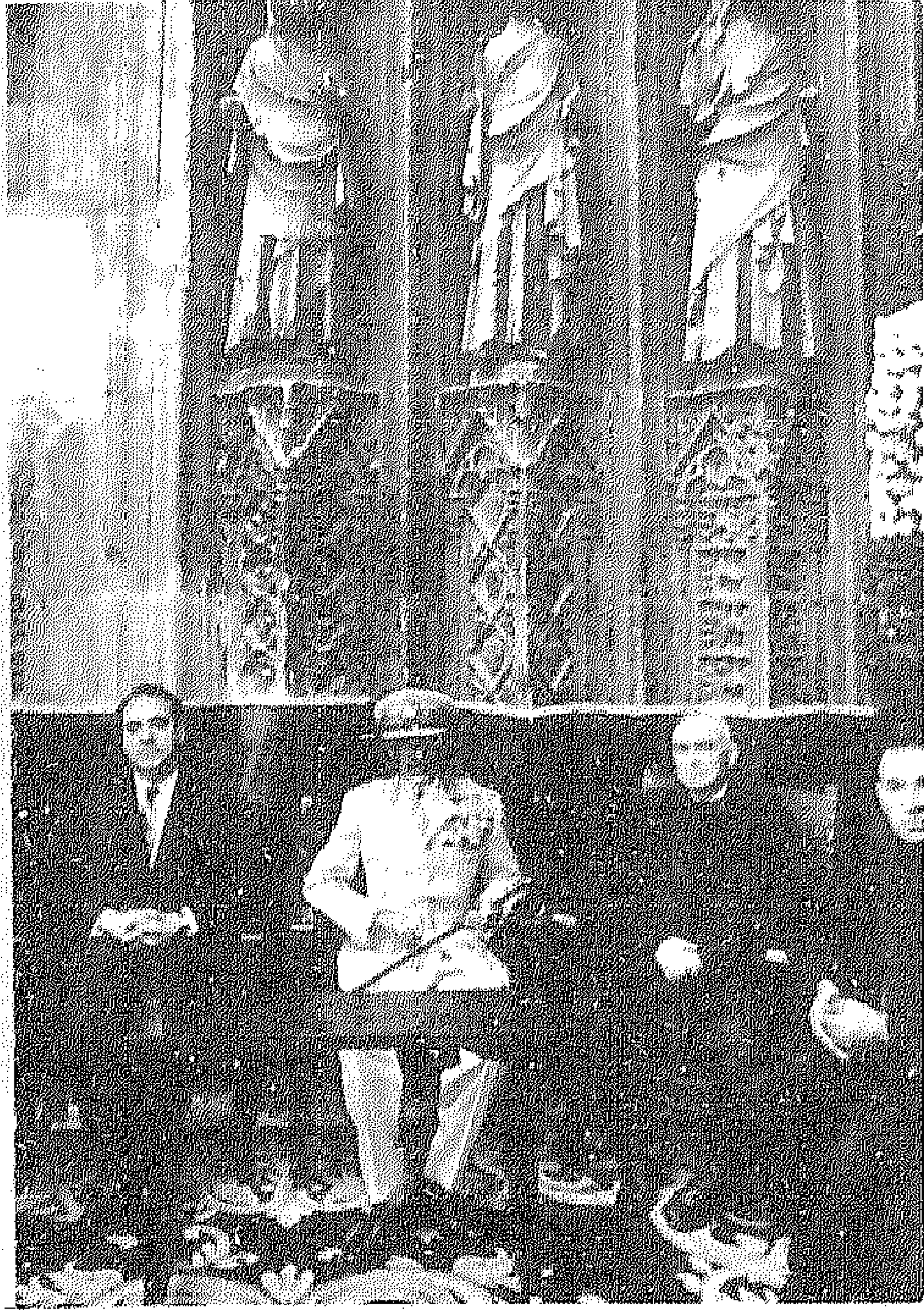
وإذا كانت بلنسية اغتنت من زراعتها، فإن ارضها تكاد تكون مجردة من الماء. فالمطر يسقط خلال خمسة واربعين يوما في السنة، فحسب، وثمة نهر توريا، الذي لا يجري في مجراه إلا خيط ضئيل من المياه، مع ذلك، ورغم هذه الشروط غير الملائمة، فإن شجر البرتقال ينحني تحت ثقل ثماره، وغير غريب أن تغل ثلاثة مواسم أو أربعة في العام. وإذا كانت خبرة المزارعين تسهم في هذا النجاح الواسع، فإن إدارة الريّ الرائعة قد مهدت لهذا الوفر في الغلال.

لابدع أن تكون هذه المياه الغالية سببا في خلافات بين المزارعين. حجر الأساس في النظام: أن المحكمة، وهؤلاء القضاة الثمانية، وهم أنفسهم من الفلاحين، ينتخبهم زملاؤهم. القاعدة الأولى في هذه الادارة: أن الماء للكل ولكل واحد، لا فرديا وإنما جماعيا. ولا تنفصل الأرض عن حقها في الري. يحسب هذا الحق بالتناسب مع

مساحة الأرض المزروعة. القاعدة الثانية: استعمال الماء. إذ تعطى إشارة فتح قناة ريّ الحقول وإغلاقها، من جرس كاتدرائية بلنسية. خارج هذه الأوقات يمنع منعا باتا إجراء المياه، وكل مخالفة تحال على المحكمة. فإذا تحقق مزارع من خطأ جاره، وجب عليه أن يخبر حارس القناة. في الخميس التالي تدرس المحكمة القضية، وبعد التداول تحكم على المخالف. لقد اختبرت هذه الصيغة التعاونية المائية منذ عشرة قرون، فأتاحت الحفاظ على النظام، ونمو السهل «الهويرتا».

عكف عدة مؤرخين على أصل مثل هذه المؤسسة. وظلوا زمنا طويلا ينسبونها إلى الاستعمال الروماني. ولكنهم، منذ زمن يسير، اتفقوا جميعا على أصلها العربي. وقد أكد هذه النظرية، فيسانت جينر بوارا، المساعد القضائي في المحكمة ومؤسس جمعية عالمية لحقوق الريّ. فمنذ أكثر من عشرين سنة، وهو يجمع كل المؤلفات المتصلة، من قريب أو بعيد بالمحكمة. ومكتبه القائم على بعد خطوتين من الكاتدرائية، يفيض بكنوز أجيال الباحثين المتراكمة. لقد كرس هذا السبعيني النشيط حياته لتاريخ بلنسية ومحكمتها. وقد كشف بلغة فرنسية سليمة، وباعتزاز، أسراره فقال:

— يمكن أن يفسر تاريخ المحكمة بتاريخ اسبانيا. وإن تنظيم الري في بلنسية، إرث من الشعب العربي. ولا بد أن نتذكر، مع ذلك، أن الرومان من أنشؤوا شبكة الأقنية، منذ ألفي عام. وما تزال أقسام من الأقنية موجودة في شمالي المدينة. وقد اكتشف الجيولوجيون، حديثا، خمسة «سكور Tabutos» رومانية كانت تستخدم في قطع المياه. أما المحكمة، فنعلم اليوم علم ثقة أن خليفتي قرطبة، عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني، من أسسا المحكمة، عام ٩٦٠. وحين استعاد جاك الأول، عام ١٢٣٨، بلنسية من المسلمين، أقر بقاء المحكمة. لقد قرر الحفاظ على القانون العربي ودونه في «أوامره الملكية» المشهورة. ولو لم نحصل على هذا الدليل، لكفتنا ثلاثة تفاصيل: منها الاجتماع على باب الكاتدرائية. ففي فترة حرب الاستعادة، دمر الاسبان الجامع ليبنوا مكانه كاتدرائية. وكان



□ هيلا سلاسي امبراطور الحبشة يشهد إحدى جلسات المحكمة.

العديد من الفلاحين عربا. ولما كانوا غير معمدين، فلم يكن يسمح لهم بدخولها. ومن أجل محاكمتهم، وقد بقي منهم عدد كبير في بلنسية، كان لا بد من «إخراج» المحكمة. تفصيل آخر، هو أن المحكمة لم تكن تعقد قبل الظهر. **ويجب أن نعلم ان النهار في الديانة المحمدية. كما هي الحال في عدة أديان اخرى، لا يبدأ منتصف الليل وإنما حين تبلغ الشمس السمت.** التفصيل الثالث: يوم الاجتماع. فالخميس في روزنامة العرب، يشبه السبت لدينا. لقد ترك لنا العرب مؤسسة عظيمة، فهي سريعة، اقتصادية، وفعالة. ومنذ ذلك الحين، حاول الكثيرون اقتباسها، ولكني لا أدري لِمَ فشلت كل المحاولات.

الخميس التالي حضرت جلسة المحكمة. منذ الثانية عشرة، تجمع جمهور غفير في ساحة العذراء التي تحيط بالكنيسة. وكان خليطا من سائحين، وفلاحين قدموا من السهل. ذلك أن جلسة المحكمة مناسبة للقاء. وكانت الفيضانات الفظيعة قد أتلفت حديثا قسما كبيرا من



□ المحكمة، والجمهور، والمتهم ماثل امام القضاة.

المزروعات، لذلك كانت موضوع المناقشات. كان كل امرىء يقدر الخسائر، وكان القضاة الذين يعرفهم كل السهل، يناقشون. وبين الحين والحين كانوا يلقون نظرة سريعة على ساعاتهم، فحين تدق الثانية عشرة، يجب عليهم أن يحتلوا أماكنهم تحت الباب. يخرج الحاجب المقاعد الجلدية الثقيلة التي تعود إلى القرن السابع عشر، واحدا واحدا، وقد حفرت عليها أسماء الأقنية الثماني.

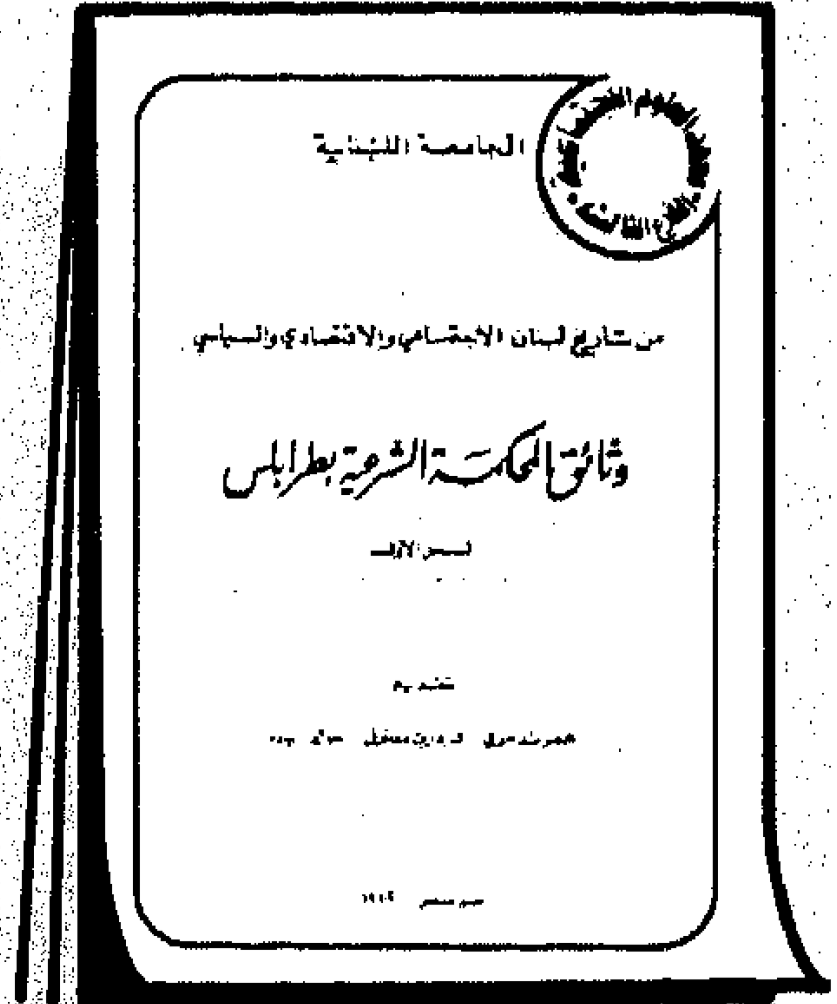
الثانية عشرة، يدخل الرجال الثمانية، بوجوههم المتجهمة، يتقدمهم الحاجب، حلقة المداولات الصغيرة. يطلب الحاجب الاذن بالبدء، فإذا أذن له، صاح بصوت قوي معلنا على الجمهور: «الاتهامات المتعلقة بالساقية كذا...». ثم يتلو أسماء السواقي الباقية. يسرع إثر ندائه المتّهَمون والمتّهِمون. فإذا مثل الجميع أمام المحكمة، تبدأ المحاكمة. وتجري المداولات باللغة البلنسية. لا يدون شيء، لا الشكاوى ولا الحكم. ولا حاجة لمحام، فالمتهم يدافع عن نفسه شخصيا. وإذا شاء، استدعى شهودا، أو طلب تحقيقا، ولكن جرت العادة أن يمثل المتهم وحده أمام قضاته. يوجه الرئيس وأعضاء المحكمة الأسئلة الضرورية للحصول على أفضل المعلومات عن القضية، ودون شكليات، وبحضور المعنيين، تتداول المحكمة وتصدر الحكم. وحتى يتفادى أي انقسام، لا يسهم القاضي المعني بالقناة في المداولة. فإذا تقررت إدانة المتهم، لفظ الرئيس الكلمات المعهودة: «بناء على القوانين المرعية، قررت المحكمة أن تصلح الأعطال التي سببتها». وإذا استعيض عن ذلك بغرامة، فإنها تفسر بـ (Illures) أي، بليرات قروسطية. وللمحكوم أن يحولها إلى بزيتا.

خلال ألف عام، ليس ثمة مثل واحد، على متهم حاول التخلص من الغرامة، أو قدم قسما من أرضه، إذا أدين بتصليح الأعطال. كان يعلم كم يكلفه أن يعرض قضيته على محكمة أخرى. ولم يجرب أي مزارع أن يجادل في سلطة القضاة. فهم ينتسبون إلى مجتمعه نفسه، وهم مرتبطون بروابط التقدير والثقة المتبادلة.

●

نصوص مختارة من سجلّات المحكمة الشّرعيّة بطرابلس

اختارها : د. عمر عبد السلام تدمري



والتي تمتد حدودها الساحلية من اللاذقية شمالا، حتى جونية، قرب بيروت، جنوبا. وتمتدّ حدودها الداخلية لتشمل قلاع الدعوة، ونواحي صافيتا شمالا، حتى جبال الجرد والعاقورة جنوبا، مرورا بإقليم صافيتا، والبقيعة، والشعرا، والهرمل، وعكار، والضّنّيّة، والزاوية، والجبّة، والكورة، والبترون، وجُبَيل. ولا يَخْفَى ما لهذه السجلّات من قيمة علميّة في توضيح المسار الحضاري لتاريخ طرابلس وإيالتها في العصر العثماني.

وتغطّي السجلّات حقبة زمنيّة تمتدّ من بُعَيْد النصف الثاني من القرن السابع عشر بقليل، وبالتحديد من سنة ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م. حتى الآن. ويزيد عدد السجلّات على المائة، بحيث أن السجلّ الواحد لا يقتصر على قضايا سنة واحدة فقط، بل قد يحتوي على وقائع سنتين او اكثر. كما انّ كلّ سجلّ يتألّف في المتوسّط من نحو (٣٠٠) ثلاثمائة صفحة من القطع الطويل، بمعدّل (٤٠ سم). للورقة الواحدة. والسجلّ بدوره يشتمل على نحو (٥٠٠) خمسمائة قضيّة في المعدّل. وهذه القضايا تختلف وتتنوّع، وتطول وتقصر، بحسب موضوعها، وهي تندرج تحت اكثر من مائة عنوان، مثل:

قضّية بيع وشراء، قضيّة دعوى، قضيّة التزام، قضيّة احتكار، إجارة، مقاسمة، فرمان (مرسوم سلطاني شريف)، بيورلدي (مكاتبة ديوانية رسمية)، فراغ وظيفة، تقرير في وظيفة، تنصيب مشيخة، إقرار أصناف الحِرَف، نفقة، وصيّة، عِتْق، ترميم، بناء، وَقْف، تَوْلِيَة، إثبات، كشْف، وكالة، صُلْح، إبراء، منْع، حَجْر، إخبار، إلزام، تنفيذ وصيّة، مُصَادَقَة، مَواجِب قلعة وأبراج، مقاطعة، تقييد بالطلب، مكاتبات رسميّة، تحرير تركة، دفتر متروكات، إحصاء الحارات، البوّابات، الأفران، الخانات، القناقات (الفنادق)، الطواحين، أسعار الخُضْرَاوات والبُقُول، كفالة، تمسُّك، تعهُّد، نقل، قرض، نسب، تقسيط، أمر شريف، فتوى، طلاق.. إلخ.

وهذه العناوين العامّة يتفرّع عنها مئات العناوين الأخرى، فقضيّة البيع أو الشراء، مثلا، يتفرّع عنها نوع المبيع او المُشْتَرَى، مثل : دار، أو حانوت، أو طبقة، أو بستان، أو أرض، أو حمّام، أو طاحون، أو شجر، أو قماش، أو صابون، وغير ذلك مما يُباع ويُشترى.

وقضيّة الدعوى يندرج تحتها عشرات العناوين بحسب أنواع الدعاوى، ومثل ذلك ينسحب على جميع العناوين الأخرى.

وهذه المجموعة الهائلة من عناوين الموضوعات والقضايا بحاجة ماسّة إلى فهرستها وتصنيفها فهرسة وتصنيفا علميا وأمينا. وحتى يستقيم هذا العمل ويؤدّي المحصّلة المرجوّة منه، والتي تيسّر للباحثين سُبُل البحث والدراسة، يقتضي وضع فهرس تفصيلي يضاف إلى الفهرس العام، يختص بالأماكن والمواقع والبلدان، إذ انّ المادّة المدوّنة في السجلّات

تحتفظ المحكمة الشرعية في طرابلس بكمية ضخمة من السجلات الرسمية ذات القيمة التاريخية والتراثية والوثائقية التي لا تقدر بثمن، لغزارة المواد والمعارف الانسانية والمعلومات والقضايا التي تشتمل عليها، والتي يمكن أن تقدم معينا ثرا من المعلومات التاريخية، والسياسية، والاقتصادية، والتجارية، والاجتماعية، والعمرانية، والثقافية، والدينية.. الموثقة والرسمية — خلال حقبة طويلة من العصر العثماني —، ليس عن مدينة طرابلس فحسب، بل عن معظم ساحل بلاد الشام، باعتبار أن طرابلس هي عاصمة الولاية العثمانية على هذا الساحل.

لا يقتصر نطاقها على حدود مدينة طرابلس وحاراتها وأسواقها فحسب، بل يشمل كل ولاية طرابلس التي أشرنا إلى نطاقها الجغرافي، وأحيانا كثيرة تتعدّى بعضُ القضايا الحدودَ الاقليمية لبلاد الشام، فنرى ملامح من العلاقات مع فلسطين ومصر واسطنبول، وحتى مع الافرنج الأوروبيين، سواء عن طريق القناصل المقيمين في المدن الساحلية، أو عن طريق القراصنة في البحر المتوسّط.

والفهرس التفصيلي يُراد به أن يكون كشّافا سريعا للامكنة، وهذا له اهمّيّته القصوى لدى الباحثين، إذ أن سجلّات المحكمة في طرابلس هي سجلّات لكل مدن وقرى الولاية، ولكل رعاياها على مختلف طوائفهم ومذاهبهم، من مسلمين، ونصارى، ويهود، وأجانب من غير العرب.

وينبغي أن تُتَّخَذ الخطوات التالية قبل الفهرسة:

١ — ترقيم السجلّات.
٢ — ترقيم صفحات السجلّات.
٣ — ترقيم القضايا في كل سجلّ.
٤ — ترقيم أسطر الصفحات.

امّا الملحوظة التي يجدر أن نسوقها هنا فهي أنّ المرء يعتقد لأول وَهْلة أنّ سجلّات المحكمة الشرعية تقتصر على قضايا الزواج والطلاق وما يتبعهما فقط، ومن يتصفّح السجلّات سيُفاجَأ بأنّها لا تتناول أيّ قضيّة لعقد زواج على الاطلاق، ويبدو أنّ معاملات الزواج كانت تُقَيَّد في أوراق خاصّة يحتفظ بها صاحب العلاقة دون أن تُحفظ صورتها في ديوان المحكمة، وهذا يؤكّده «ابن محاسن الدمشقي» المتوفّى سنة ١٠٥٣هـ والذي قام برحلة إلى طرابلس في أوائل سنة ١٠٤٨هـ حيث ترك معلومة مهمّة عن محكمتها، قال فيها ما نصّه:

«.. وقد رأيت لهم في محكمتهم اختراعات عجيبة وأحوالا غريبة، منها، أنّ الرجل إذا أراد أن يتزوّج، فيأتي إليهم، فيكتبوا في صدر ورقة بياض: أَذِنَ مولانا — بعد أوصاف تحضرهم باردة، وقيود غير لازمة زائدة — القاضي بمدينة طرابلوس، لفلان الفلاني — ويسمُّون رجلا يعقد العقد، إمّا من العلماء أو من الجُهَلاء — بأن يعقد عقد فلانة على فلان من غير مانع شرعي. ويجعل القاضي إمضاءه في أعلا الورقة، ويدفعونها لمن يريد أن يعقد العقد. ويقبض القاضي على ذلك ما صدر عليه الوعد من غير تسجيل لذلك، ولا العلم بتفصيل ما هنالك. ومنها انّ غالب ما يصدر عندهم يكتبونه من غير تسجيل، فيقضي ذلك إلى ضياع حقوق الناس فحسبنا الله وَنِعْمَ الوَكِيل[1].

* * *

وقد اخترت نشر النصوص التالية في هذه الحلقة، إمّا لطرافتها، وإمّا لأهميّتها. واودّ أن انوّه بالنصّ الأول، لما يُسْتَخْلَصُ منه من مفاهيم حضارية، ومؤشّرات لها دلالاتها العميقة، كانت معروفة لأجدادنا وطبّقوها قبل

مئات السنين، وكان يُظَنُّ أن تلك المفاهيم هي وليدة الحضارة الغربية الحديثة.

ولنقرأ النصّ بحروفه:

ـ (١) ـ

قضيّة إخبار

«سبب تحريرها وموجب تسطيرها، هو أنّه حضر بالمجلس المشار إليه، كلٌّ من: الحاج مصطفى بن علي، والحاج حجازي ابن حسين، والحاج حجازي بن عبد الرحمن ابن رافي البخّور، والحاج علي ابن كسكس، القيّاسة[٢]، كانوا صُحبة القيّم حسن بن أبي زلعوم، حين جرى في شهر حزيران من طرابلس إلى الشجرة القايمة بالقرب من تلّ خليفة[٣]، من طلوع الفجر، وعاد دخلها قبل العصر بنصف ساعة، وعلى كتفه مشعل يتوقّد، معلّقٌ عليه ثلاثة وثلاثون رطلا مصريا[٤]، وناصر الدين بن الدالي، الأمين كان عليه في ذلك، وفخر السادات السيد علي البابا ابن السيد جمال، وشاطر باشي صاحب الدولة والسعادة حضرة محمد باشا والي طرابلس، دام إقباله، والمقدّم شاهين المشعلجي باشي عند صاحب الدولة المشار إليه، والمقدّم علي بن بيده مقدّم العتّالين، والحاج منصور بن محمد مقدّم السُعاة بطرابلس، وأخبروا على طريق الشهادة جمعا وفُرادى، بأنّهم يعرفون جميع من تقدّم من المجرية[٥] الذين جروا من قَبْل حسن المزبور إلى الشجرة المرقومة، المشتهرين عند أهل هذا الفنّ بالشطارة، منهم الأستاذ قيّم مصر والشام المسمّى بالدبّور، ووالد القيّم حسن المزبور الشهير بأبي زلعوم، والقيّم قينين، والحاج محمد بن المكش، والمعلّم أحمد بن جميع، المعرفة الشرعية، وأنّ القيّم حسن بن أبي زلعوم قد فاق جميعهم بسبب أنّه غطّا[٦] عليهم، لكونه جرى إلى الشجرة من طلوع الفجر وعاد إلى البلدة ودخلها قبل العصر بنصف ساعة، وما أحد من الذي جرى قبله بلغ هذه الصناعة، ولا دخل إلى البلد بعد العصر بساعة، وأنّه رجح على المجريّة الذين سلفوا بقوّته وجرْيه الخاطف، والسلام. سيما وقد شهد له بالفضل في ذلك جميع أبناء طرابلس من الخاصّ والعامّ، الاخبار الشرعي. فلمّا أخبروا بذلك كذلك، التمس القيّم حسن المزبور من الحاكم الشرعي المشار إليه[٧]، أن يسطّر له بذلك صكا شرعيا ليكون بيده شاهدا في المآل عند الاحتياج لدى الاحتجاج.

فسُطّر بالطلب والسؤآل، في اليوم الثامن والعشرين من شهر جُمادى الأولى لسنة ثمان وثمانين وألف[٨].

شهود الحال

مولانا الشيخ محمد الكاتب زيد فضله	مولانا عبد الرحمن جلبي الكاتب	كاتب أصله مولانا الشيخ مصطفى زيد فضله	محمد جلبي الترجمان
حسين بن بلوكباشي	محمد بن منصور المحضر	وغيرهم من الحاضرين[٩]	

ونحن نترك هذا النصّ برسم أبطال الماراثون والألعاب الأليمبية!! وبرسم الهيئات المختصّة بتسجيل الأرقام القياسية!.

ـ (٢) ـ

قضيّة نصب جاويش العلما

حمدا لك يا من جعل العلم لسبيل الخير منارا، وجعل أهله هُداة وعلى الخير أنصارا. نحمدك بالمحامد التي ترضاها على نِعَم منك مُبْتَداها وإليك مُنتهاها. ونصلّي ونسلّم على نبيّك وحبيبك الذي جعلته إنسان عين الوجود، ومعدن الفضل والكرم والجود، وعلى آله وأصحابه المُوفين بالعهود.

وبعد،

فلما كان العلم أشرف المناصب، دنيا

وأخرى، وأهله أشرف العالم سرا وجهرا، وكانت الطايفة الموسومين به من أعظم الطوايف قدْرا، وكانوا أوْلَى الناس بانتظام الأمور ورعاية الآداب، إقتداء بقوله صلى الله عليه وسلم: «أدّبني ربّي فأحسن تأديبي»، فكان ذلك أصلا قويّا في انتظام الأمور عند ذوي الكمال والأحساب.

حضر قدوة العلماء المحقّقين، زبدة الأفاضل المدقّقين، مولانا الشيخ علي أفندي مفتي الديار الطرابلسية(١٠)، لا زال سابقا إلى الفضايل السَّنِيّة، وفخر الأفاضل والخُطَبا الواعظين مولانا الشيخ مصطفى الخطيب(١١) بالجامع الكبير المنصوري(١٢)، ورديفه فخر الفضلاء والأكابر مولانا فضل الله جلبي الخطيب الثاني بالجامع المزبور، وفخر الأفاضل المدّرسين مولانا الشيخ عبد القادر(١٣) الخطيب بجامع البرطاسية(١٤)، وفخر الخُطَبا مولانا الشيخ مصطفى الخطيب بجامع الأويسيّة، وفخر الأفاضل المتورّعين،

سليل العلماء المحقّقين مولانا الشيخ أبي حامد[١٥] الخطيب بجامع العطار[١٦]، زيدت فضايلهم، وباقي زمرة العلماء والخطباء والأيّمة بمدينة طرابلس الشام، وسألوا من المولى الحاكم الشرعي المشرّف هذا الكتاب بتوقيعه المُسْتطاب، أن ينصّب عليهم جاويشا يكون رئيسا إليهم لاحضارهم إذا اقتضى الأمر لاحضارهم لمجلس الشرع الشريف، أو إلى الديوان المنيف، أو لأيّ محفل كان، واقتضى حضورهم أو حضور بعضهم، واختار خواصيهم لهذه الوظيفة حامل هذا الكتاب الشرعي فخر الصُلَحاء والطلبة، الشاب الفاضل والنجيب الكامل الشيخ رجب ابن الشيخ يوسف[١٧].

فأجابهم المولى المومى إليه إلى سؤالهم، ونَصَّب الشيخ رجب المذكور جاويشا على جميع العلما والخطبا والأيمّة وزمرتهم المزبورة بطرابلس، وأذِن له بمباشرة هذه الخدمة، مراعيا شروط آدابها مع كل إنسان بما يليق به على كلٍّ منهم أن يعامله بالبِرّ والاحسان بما يليق بمقام كل منهم.

نصّبيا وإذنا شرعيين مقبولَيْن من الشيخ رجب المزبور القبول الشرعي.

وجرى ذلك وحُرّر في أواخر شهر جمادى الآخرة من شهور سنة تسع وسبعين وألف[١٨].

شهود الحال

فخر المدرسين والنواب المتشرعين مولانا جلال الدين أفندي زيد فضله		مولانا صنع الله أفندي زيد فضله	مولانا الشيخ أحمد العكاري كاتب أصله زيد فضله
مولانا الشيخ مصطفى زيد فضله	رجب آغا محضر باشي	مولانا الشيخ محمد لحاج زاده	مولانا عبد الرحمن جلبي مغربي زاده
مولانا الشيخ محمد بن الشيخ ناصر الدين		مولانا الحاج عبد الله جلبي زيد فضله	وغيرهم من الحاضرين[١٩]

صورة أمر حكمداري في حادثة الكواتلة

بمطالعة حضرتكم صورتي قايمة الباب العالي والفرمان السامي الخديوي المشروحين أعلاه، يصير معلومكم كيفية صدور الأمر العالي في اكتسا بطاركة وأساقفة الروم الكاثوليك، إسكوفة وعليها غطا أسود وألْبِسَه بلون مورَّد، ويعلّقوا صليب بزنجير في أعناقهم، والكُهَن العادة، يلبسوا عوض الأسود الوان أزرق لا جوجد أو كتتباوي مع إسكوفة، ويضعوا عليها غطاأسود أيضا.

وبموجب منطوقهم المنيف تبادروا لاجرا العمل، غبّ قيْد ذلك بسجلّ المحكمة بطرفكم وبمحاكم الايالة بمديريتكم (كذا) حسب اقتضاه، بموجب الارادة السَّنِيَّة.

والله يحفظكم.

في ١٠ ل[٢٠] مع الختم الشريف.

من سعادة المدير لوكيله بطرابلس الشام.

جناب الأخ الأكرم وكيلنا بطرابلس حالا السيد محمد أفندي عادلي المحترم بتشريفكم بمطالعة صُوَر الأوامر العليّة الموشحة أعلاه، يصير معلومكم مضمونهم السامي، فيقتضي إجراء العمل بموجبهم وقيدهم بالسجلّ المحكم، حكم الأمر العالي.

يكون معلومكم.

في ١٢ ن[٢١] سنة ٥٥[٢٢] مع الختم الشريف.

* * *

- (٤) -

هذه المراسلة الشريفة

من مجلس الشرع القويم، إلى فخر الملّة المسيحية المطران القاطن بكنبيه النصارى ووجوه أهل ملّته، وباقي أهل الذمّة من سكان

طرابلس الشام وأسكلتها — ختم الله عواقبهم بالخير — نُعلمكم أنّه لما أطلعنا على ما بيدكم من الفرمان العالي الخاقاني المُعَرَّب مضمونه المنيف، أنّه إذا لم يكن منكم وارثا قاصر أو قاصره أو غائب، فمن مات منكم، بل كانت الوَرَثة بالغين حاضرين ولم يطلبوا توزيع التركة

سنة ثمان وسبعين [illegible]

بمجلس الشرع الشريف ومحفل الحكم المنيف بطرابلس المحمية أجله الله تعالى لدى متوليه مولانا وسيدنا
المولى الحاكم الشرعي الموقع خطه الكريم أعلاه دام علاه [illegible] حافظ هذا
الكتاب الشرعي فخر الصلحاء الحاج طاهر بن [illegible] في خدمة القلايجة للمحكمة الشرعية
[illegible] بطرابلس المحمية ان يكون خادما للسادة الموالي من حكام الشريعة المطهرة
ويبذل [illegible] غاية الاتقان على حسب الامكان ويتوهل بجميع ما يلزم لذلك
من [illegible] ماله على ان يكون له الحماية والصيانة والرعاية [illegible] المولى الحاكم
الشرعي المشار اليه على كل واقف على هذا الكتاب المدفوع اليه وناظر اليه من جباة
الاموال العرفية كشيخ محلته وشيخ القلايجة وغيرهم بان لا يتعرضوا للحاج طاهر
المذكور بطلب شيء من الاشياء العرفية اذ هو في خدمة خدام الشريعة المحمدية
نصبا وتعيينا [illegible] او قوة بالطريق الشرعي وجرى ذلك وحرر في
اواسط شهر جمادى الاخرة من شهور سنة ثمان وسبعين [illegible]

فيمـا بينهم ممن فوّضـه في رويه القسـامـة العسكرية بالمحميّة، فلا يتعرّض لهم. وكـانت القسمة العسكرية ورويتها بين الورثة مفوّضة لنا، فمن له تفويضهـا بموجب مـا بيدنـا من السندات المنيفة ورغبته والتمستم أنّه لا تحرّر تركة لميْت منكم سوا كان قاصرا أو قـاصره أو غايب أو غايبه، وأن تدفعوا لنا بمقابله رسم القسمة العسكرية عن كل رأس ميْت ثلاثة قروش إلّا ربـع، وتقسيم الورثـة والتـركـة بعلمكم، فأجبناكم للالتماس، ورضينا بذلك منكم برضاكم واختياركم، وإنْ كان غير واف برسم القسمة العسكرية المعتادة قصدا لراحتكم وعدم أخذ انكساركم، فمن الآن وصاعدا لا تدفعـوا لنا، ولا نكلفكم سوى ثلاثة قروش إلّا ربـع التي حصل الاتفاق بيننا وبينكم عليها، ولا مصرية الفرد.

وحرّرنا لكم هذه المراسلة مطمنين منا بذلك خاطركم.

تحريرا في أوايل محرم سنة أربع وتسعين ومايه وألف.

الفقير أبو النصر محمد[٢٣]
المولخلافة بطرابلس الشام
مع الختم المعتاد[٢٤]

— (٥) —

صورة كشف

كشف بالالتماس من طرف الشرع القويم، بأمر سعادة مصطفى بيك ميراللوا، على أودة صرّاف خزينة طرابلس الشام الكاينة في خان الصاغة[٢٥]، بحضور جناب السيد محمد أفندي عادلي زاده وكيل لسعادة المدير المعظّم، وجناب عثمان آغا سرجي بكباشي بلطيجية[٢٦]، ومحمد أفنـد باش محـاسبجي[٢٧] عشرجي[٢٨] آلاي بيـاده[٢٩]، ودرويش أفنـدي سرجي صقـول آغاسي عشرجي بياده، ومباشر آلاي المذكور. وحضـور جناب الحـاج صالح أفنـدي نـاظر الشون[٣٠] الذخايـر والحاج عمـر التدمـري. وحضـور معاون صـرّاف اللاذقيـة الحـاضـر بالخزنة، الخواجه حنا فاتول، فـدخلوا (كذا) المذكورين جملة. غبّ فتح باب الأوده المذكورة، فإذا هي فارغة ليس بها سوى أربع فردات تحت الحزم وبأعلاهم ورقة بخطّ الصرّاف تتضمّن أصناف العملة التي داخل الفردات المذكورة، وهي:

ريال مصري عـ ٢١، أكلك عـ ٧٦٤,٥[٣١]، قرش حميدي قديم عـ ٢٠٠، زهراوي عـ ١٥٤، بكشلك قنداق عـ ٣٨٩٥، بشلك طُرَّه عـ ٢١١٤، نـاقشلي عـ ٢٠٢١٠,٥[٣١]، قـرش مصـري عـ ٧٠٧,٥، بارة عـ ١.

فهذا ما حَوَتْه القايمة المذكورة لدى حضرات المذكورين أعلاه، وقد وُضعت بالقلعة صحبة الدراهم المحضرة مع معاون صرّاف اللاذقية. وقد خُتمت الصُرَر المذكورة بالشمع الأحمـر بختم كاتبه الفقير إليه سبحانه، كـرامه زاده السيد عمر النايب[٣٢] بمدينة طرابلس الشام حالا.

حُرِّر في ١٤ شعبان سنة ١٢٥٦[٣٣].

شهود الأسماء المرقومين اعلاه

جناب عثمان آغا سرجي
بكباشي بلطجية. مع الختم

جناب محمد أفندي
باش محاسبجي مع الختم

جناب درويش أفندي سرجي
صقول آغاسي. مع الختم

جناب الحاج صالح أفندي
ناظر شون مع الختم

الحاج عمر آغا
التدمري مع الختم

الشيخ محمد أفندي
مباشر عشرجي آلاي

الخواجه حنا فاتول
معاون صرّاف اللاذقية
مع الختم

وغيرهم[٣٤]

عبد الرحمن ...
... زادة

محمد ...
...

محمد ... كاتب
...

وغيرهم من الحاضرين

سبب تحرير هذا الوقيع الذي هو على نهج الشرع الكريم هو انه

تقرير وظيفة

بمجلس الشرع الشريف ومحفل الحكم المنيف بطرابلس الشام المحمية لعله ... قرر متوليه

مولانا وسيدنا المولى الحاكم الشرعي الموقع خطه الكريم باعاليه دامت فضائله امين

حسنا بامره ولديه حامل هذا الكتاب الشرعي وناقل الخطاب المرعي فخر

الفضلاء الشيخ مصطفى بن المرحوم الشيخ محمد في وظيفة النظارة على وقف جامع

طيلان المعمور بذكر الله تعالى الكائن بطرابلس المحمية لهاء المعلوم

في صحة ... وقف الجامع المذكور اليه كل يوم ثلاث عثمانيات فضيات

واذن له بمباشرة الوظيفة المزبورة وتناول معلومها المزبور اسوة من تقدمه

وذلك بعد ان عزل الشيخ مراد بن الشيخ محمد ... في المعترك ... عن الوظيفة

المزبورة لكون تولية وقف الجامع المذكور اليه تقريرا الان عليه ووظيفة

النظارة والتولية ممتنعة الجمع لعزل شرعي تقريرا واذنا ... مقبولين من

الشيخ مصطفى المذكور ... القبول الشرعي تحريرا في اليوم الخامس

من شهر رجب الفرد من شهور سنة ثمان وسبعين ...

شهود الحال

مصطفى ... | عبد الرحمن ... | ... | محمد ...

... | ... | ... | محمد ...

محمد ... | ... | ...

الهوامش

(١) المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية، يحيى بن أبي الصفا المعروف بـابن محاسن، تحقيق د. محمد عدنان البخيت، ص ٨٠، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١.

(٢) المقصود خبراء القياسات والمسافات.

(٣) لم نستطع تحديد هذا المكان، ويُحتمل انه في نواحي البقيعة على طريق حمص.

(٤) الرطل المصري يساوي الكيلو وربع الكيلوغرام (١٢٥٠ غراما).

(٥) يقصد أبطال الجري والسباق.

(٦) بمعنى تفوّق.

(٧) هو القاضي عبد الله المعبّر عنه بالنائب.

(٨) يوافق آخر شهر تموز من سنة ١٦٧٧ ميلادية.

(٩) سجلّ رقم ٣، ص ٢٦، قضايا سنة ١٠٨٨هـ.

(١٠) هـو الشيخ أبـو هبة الله علي البصيـر الحموي الطرابلسي، مفتي طرابلس الحنفي، ولد بحماه وقرأ بها، ثم رحل إلى طرابلس وعمره ٤٠ سنة وتوطّنها، وولي الافتاء بها مدّة حياته. له تآليف كثيرة في الفقه وغيره، منها: «شرح الملتقى» سمّاه «قلائد الانحر شرح ملتقى الأبحر» و«نظم الغُرَر» في آلْفَيْ بيت، و«نظم العوامل الجرجانية»، و«نظم قواعد الاعراب» و«حُور العين» وهو منظوم في الغاز الفقه يشتمل على الف سؤال واجوبتها، لقي الشيخ عبد الغني النابلسي ابنه هبة الله مفتي طرابلس ايضا عند رحلته إلى طرابلس سنة ١١١٢ هـ. وقد انشده من شعر أبيه. توفي علي البصير في شهر ذي الحجة سنة ١٠٩٠هـ. ودُفن بجبّانة الغُرَباء ظاهر طرابلس. (انظر عنه: خلاصة الأثر ٣/٢٠١ و٢٠٢، التحفة النابلسية ٦٣ و٦٤، كشف الظنون ١٢٠٠، هديّة العارفين ١/٧٦٢، تاريخ حماه ١٤٩، مختصر تاريخ سورية ٢/١٩٢، معجم المؤلّفين ٥/٧٨، ٧/٤٤ وقد وضعنا له ترجمة في موسوعة العلمـاء المسلمين في تاريـخ لبنان الاسـلامي، المجلّد ١٣، حرف العين).

(١١) هو مصطفى بن عبد الحيّ الشافعي. اجتمع به الشيخ رمضان العُطيفي في رحلته إلى طرابلس سنـة ١٠٤٣هـ. كما اجتمـع بـه ابن محـاسن الدمشقي في رحلته إلى طرابلس سنة ١٠٤٨هـ. كانت له حجرة في الجهة الغربية من الجامـع الكبير. (انظر عنـه: رحلة العطيفي ١٨ ــ ٢٠، المنازل المحاسنية ٧١ و٧٢، واثبتنا ترجمته في مـوسوعـة العلماء المسلمين، مجلّد ١٤، حـرف الميم).

(١٢) بنـاه الملك الأشـرف خليـل بن قـلاوون سنـة ٦٩٣ هـ/١٢٩٤م. (انظر عنه كتابنا: تاريخ وآثار مسـاجد ومـدارس طرابلس في عصر الممـاليك ٥٧ ــ ١٣٤).

(١٣) هـو عبـد القـادر بن عبـد الحي الشهيـر بـابن الجـاموس. كـان خـطيبـا وإمـامـا في مسجـد البـرطاسي. لقيه ابن محـاسن في رحلتـه إلى طرابلس سنة ١٠٤٨هـ (المنازل المحاسنية ٧٠).

(١٤) بناه الأمير شرف الدين عيسى بن عمر بن عيسى البرطاسي الكردي، شادّ الدواوين بطرابلس، بين سنتي ١٤ ــ ٧٢٥ هـ. (انظر كتابنا: تاريخ وآثار.. ص ٢٠٧ ــ ٢١٦).

(١٥) هو محمد بن محمد بن محمود بن عبد الحق بن محمـد بن محمـد الشـافعي الأزهـري الخَلْوَتي المحدّث، الجدّ الأعلى لآل الحامدي بطرابلس. كذا جاء نسبه في الوثائق الخطّية المحفوظة في مكتبة الشيخ عبد الحميد الحامـدي رحمه الله. (دفتـر مقتـطفات المخـطوطات، للسيد ظهيـر عـطفـات بازرباشي، ص ٥ و ٨ و ٩).

(١٦) أنشأه بدر الدين العطار قبل سنة ٧٣٥هـ. وليس في سنة ٧٥١ هـ. كما جاء في المراجع الحديثة وقد توفي بدر الدين في سنة ٧٤٩ هـ. (انظر: تاريخ وآثار.. ص ١٩٠ ــ ٢٠٦).

(١٧) هو خطيب جامع القلعة بطرابلس. كان لا يزال حيّا في سنة ١٠٨٨هـ. (انظر السجل رقم ١، ص ١١ و ١١٨ و ٣/٩٧).

(١٨) يوافق شهر تشرين الثاني من سنة ١٦٦٨م.

(١٩) سجلّ ٢، ص ١٦٠ (سنة ١٠٧٨ و ١٠٧٩هـ).

(٢٠) اختصار لشهر شوّال.

(٢١) اختصار لشهر شعبان.

(٢٢) سنة ١٢٥٥هـ. (انظر سجلّ رقم ٣٧، ص ٦٦).

(٢٣) لعله الشيخ الفاضل الأديب، الذي ذكره المرادي في سلك الدرر، ٣/١٢٤ و ١٢٥.

(٢٤) سجلّ رقم ٣٨، ص ١ على ظهر الصفحة، (سنة ١٩٤٤ هـ) الموافقة لسنة ١٧٨٠م.

(٢٥) يُعـرف الآن بخان الصـابون، ويقـع في سـوق الصاغة، من وقف خاصكي سلطان.

(٢٦) راس فرقة حاملي البلطات.

(٢٧) رئيس المحاسبين.

(٢٨) صاحب العُشُور.

(٢٩) الفرقة العسكرية للجنود.

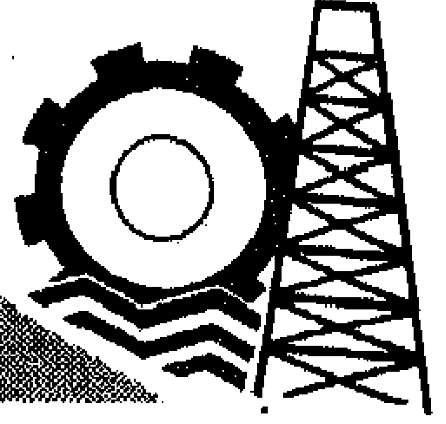
(٣٠) المخزن الكبير أو المستودع المُعَدّ لحفظ البضائع.

(٣١) في الأصل كتبت النصف هكذا (√)، وقد كتبناها في الموضعين (٠,٥).

(٣٢) هـو حفيد مفتي طرابلس عمـر بن مصطفى بن أبي اللُطف الحنفي الطرابلسي الشهير بابن كرامة.

(٣٣) يوافق شهر أيلول من سنة ١٨٤٠ ميلادية.

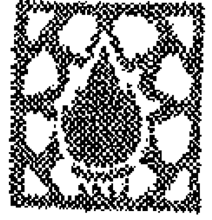
(٣٤) سجل رقم ٥٦، ص ٣٤ (سنة ١٢٥٦هـ).



د. يوسف صايغ عن

«أزمة النفط ومستقبل الاقتصاد»

الآتي قاتم إذا لم نستوعب العبر



توقع الخبير الاقتصادي الدكتور يوسف صايغ «مستقبلا قاتما للوطن العربي بأكمله إذا لم يسارع إلى استيعاب العبر والدروس من الأزمة النفطية الحالية واحلال النفط في موقعه السليم من المسار الاقتصادي العام.

جاء ذلك في محاضرة ألقاها الدكتور صايغ في مركز «النادي الثقافي العربي».

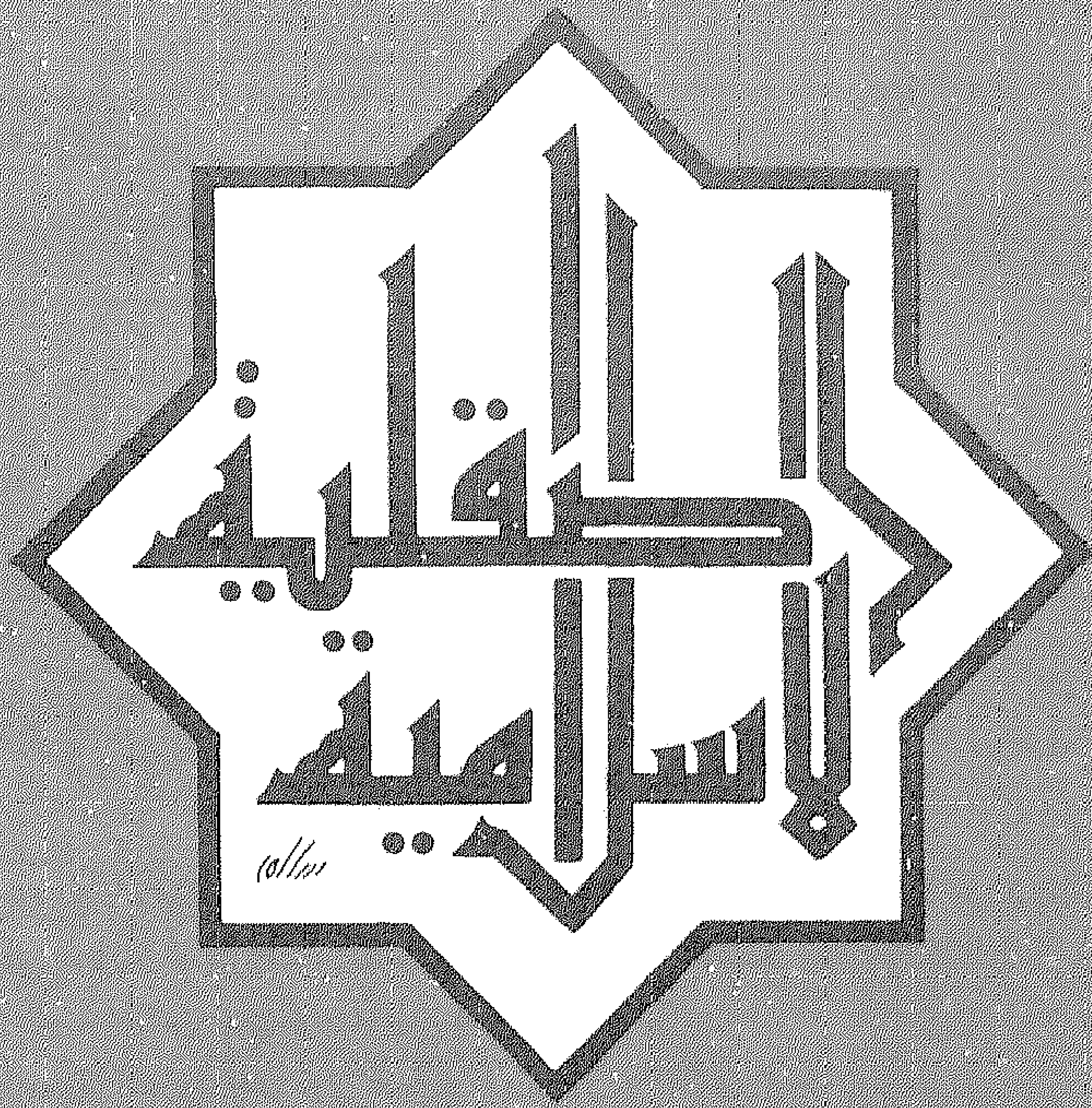
وتحدث صايغ في محاضرته بعنوان «أزمة النفط الراهنة ومستقبل الاقتصاد العربي» عن الأزمة النفطية الراهنة والمحاولات الحثيثة لضرب منظمة «أوبك» مشيرا إلى النتائج السلبية التي تعكسها هذه الأزمة على أصعدة الزراعة، التنمية، التصنيع، العائدات، الاستهلاك، الاستثمار وغيرها.

وقال: ان احتمالات المستقبل الاقتصادي العربي تفترض مسارين الأول: هو إحجام العرب عن استيعاب العبرة من الأزمة النفطية الحالية والاستمرار في الانبهار بالعائدات النفطية وهذا ما يدفعهم للمسارعة إلى المنافسة السرية في ما بينهم فينتج عن ذلك، حرب الأسعار وعدم التمسك بنسبة معينة من الانتاج وعدم الانضباط الاستهلاكي، والانفلاش الاستثماري، وكل ذلك يؤدي إلى تبعية اقتصادية وسياسية.

المسار الثاني: يفترض مسارعة العرب إلى استيعاب العبرة وهذا يعني العودة إلى الأصول فيؤدي ذلك إلى تنمية زراعية وصناعية وإلى انضباط استهلاكي وتحكم بالإنتاج وعدم الانزلاق نحو المغريات كما يؤدي إلى تحمل المسؤوليات القومية والدولية.

وقال: الأمن هو سياج الانماء إذ لا يمكن (لأية دولة أن تقيم المشاريع ما لم تؤمن الحماية اللازمة لها فهل هذا الأمر موجود في الدولة العربية؟ وهل هناك أقطار عربية تستطيع أن تدافع عن إنجازاتها الانمائية من أطماع اسرائيل مثلا؟ لذلك نقول بأنه يجب تضافر الجهود القطرية التي تفيد في الأمن والانماء القوميين والعكس صحيح، كما يجب ترشيد المسارين الانمائي والاستهلاكي.

وعدد صايغ شروط إحلال النفط لموقعه السليم بالآتي: عدم الرضوخ للابتزاز الغربي، القبول بحجم انتاج نفطي معتدل، تصنيع النفط والغاز، استخدام الثروة في الانماء، فهم النفط والانماء على حقيقتيهما، تشجيع الابداع الفكري، فهم التشرذم العربي، رفع مستوى المشاركة السياسية في الوطن العربي، وضع التصورات السليمة للانماء القطري والقومي، بذل الجهود لتحقيق هذه الشروط التي توفر لنا الاضاءة الكاملة على درب الكرامة.



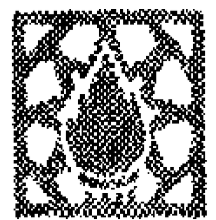
ومهد الحضارة العربية النورماندية

جيان لويجي سكارفيوتي وبول لاند

ظل العرب، منذ أسد بن الفرات فاتح صقلية، يحكمون هذه الجزيرة الجميلة مائتي عام. وقد حظيت بعنايتهم، ونشاطهم، فانعكست حضارتهم آثارا، ما يزال بعضها قائما، خاصة في باليرمو التي كانت عاصمتهم، وسموها المدينة.

وقد حافظ النورمانديون الذين انتزعوا صقلية من العرب على الطابع العربي واستقدم روجرز الثاني، ثاني ملوكهم العلماء والمفكرين العرب ـ ومنهم الادريسي ـ حرصا منه على متابعة الخط الحضاري العربي.

ولم يحظ تاريخ العرب في باليرمو، باهتمام الباحثين الحديثين. الموضوع الذي ننشره يلقي ضوءا على الآثار العربية في صقلية.



في طريق عودتها من الحج إلى المغرب سنة ١١٨٤م. تحطمت سفينة الحجاج، التي كانت تقل الرحالة الشهير ابن جبير، في مضيق مسينا على شواطىء جزيرة صقلية فانتهز سكان مدينة مسينا الحادثة مستقلين قواربهم لانقاذ الركاب المهددين مقابل أجر مرتفع. فأصبح المسلمون في مأزق حرج لا يحسدون عليه وخاصة الفقراء منهم حتى أتت شخصية مسؤولة مرموقة من مسينا، كما يخبرنا ابن جبير، وأمرت بنقل كافة المسلمين مجانا إلى الشاطىء.

لم يخف ابن جبير استغرابه وقام هو وجماعة



شخصيات عربية تزين منذ القرن السادس عشر البورتابنوفا (احد مداخل باليرمو)

من المسلمين بزيارة المنقذ وشكره على فعلته فاندهشوا عندما عرفوا أنه حاكم صقلية الذي استقبلهم ووعدهم بالحماية بالرغم من كونه نورماندياً مسيحياً.

دهش ابن جبير أمام هذه المعاملة خاصة أن النورمانديين المسيحيين كانوا قد استولوا على صقلية منذ مئة عام (حين قضوا على الحكم الإسلامي فيها) ولم يعرف ابن جبير آنذاك أن هذه الجزيرة ستحمل له الكثير من المفاجآت غير المنتظرة فقد وجد أن المسيحيين يتكلمون اللغة العربية وأن أغلبية موظفي الحكومة يدينون بالإسلام وأن آثار مئتي عام من الحكم الإسلامي ما زالت واضحة المعالم.

* * *

أما النورمانديون وهم رجال عسكريون... فأتوا من اسكندينافيا واتجهوا جنوباً بحثاً عن ارض جديدة يستولون عليها وكان أن وصلوا إلى جنوب ايطاليا واعجبتهم الأرض فلم يتأخروا في الحصول عليها بالرغم من قلة عددهم وكانت الجزيرة الجميلة الخضراء الخاضعة للحكم الإسلامي منذ مئتي عام ابرز ما أرادوا.

كانت المملكة النورماندية نقطة بيضاء في صفحة العصور الوسطى السوداء فبالرغم من تطابق بداية الحكم النورماندي مع الحملات الصليبية التي انطلقت بعد أربع سنوات فقط من استيلائهم على الجزيرة، بالرغم من ذلك رعى هؤلاء شعبهم المنتمي إلى أصول أتنية ودينية ولسانية مختلفة بكثير من العناية والعطف ما زال مفقوداً منذ العصور الوسطى وحتى الآن. أما انجازاتهم الفنية والإدارية والمعمارية والزراعية والعلمية فهي وليدة بل وريثة الماضي الإسلامي العريق في هذه الجزيرة دون أن ننسى جهود وخيال روجرز الثاني الذي رعى الادريسي، أكبر جغرافيي الإسلام.

* * *

يعود الاهتمام الإسلامي بصقلية إلى بداية

التاريخ الإسلامي، فإلى جانب المعارك البرية في الشرق التي واجه فيها المسلمون أكبر عدو لهم، الامبراطورية البيزنطية، قام معاوية، والي دمشق، بطلب من الخليفة الراشدي عثمان بن عفان (بعد حوالي ٢٠ سنة من وفاة الرسول (ص)) بإرسال حملة بحرية إلى جزيرة صقلية هذه المقاطعة البيزنطية ذات الموقع الاستراتيجي الكبير في البحر المتوسط التي مكنت البيزنطيين من السيطرة على الملاحة البحرية غرب المتوسط والقيام بغارات بحرية على مدن افريقيا الشمالية وشرق المتوسط الإسلامية.

استمر المسلمون بغزو صقلية حتى تمكنوا من فتحها في حزيران من سنة ٨٢٧ م عندما احتلوا مدينة المزارة على الطرف الغربي للجزيرة.

انطلقت الهجمة الأولى من المقاطعات الإسلامية الإفريقية على سواحل تونس وكانت تحت حكم الأغالبة الذين اتخذوا قرارهم هذا بعد ازدياد الضغط البحري البيزنطي عليهم واقتناعهم بأهمية موقع صقلية الاستراتيجي. قاد هذه الحملة رجل لم يحمل سيفا في حياته قط وهو اسد بن الفرات القاضي المحترم وعلم من أعلام القيروان. وتوجه هذا القائد إلى جيشه قبل الانطلاق بكلمة فريدة افتتحها بـ: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له!» مقسماً أنه لم يوكل بهذه المهمة من قبل أبيه أو جده ولم يعرف أحدا من قبله حصل له ما حصل فقد أوكلت إليه بسبب انجازاته وبواسطة العلم لا السيف وحث جنوده على عدم اضاعة أي جهد إلا في البحث عن الحكمة والعلم مطالبا إياهم بالمحافظة عليها وحمايتها بالرغم من كل المصاعب لأنها ستضمن لهم الحياة الدنيا والحياة الآخرة!.

استغرق فتح صقلية خمسة وسبعين عاما بعد احتلال المزارة وكانت أصعب من فتح اسبانيا. ولكن الفتح توافق مباشرة بالهجرة إليها والتمركز فيها فقسمت الجزيرة إلى ثلاث محافظات. الأولى فال دي مزارة في الطرف الغربي وعاصمتها باليرمو والوسطى وهي فال دي نونود وفيها مدينة سيراكوز، والثالثة التي تحتل بقية الجزيرة وآخر جزء تم فتحه وهي فال دميمون وشملت كاتانيا ومسينا.

عكس تاريخ صقلية السياسي تحت الحكم الإسلامي المتغيرات السياسية في شمال افريقيا وفي الشرق فمن خلافة الأغالبة إلى الفاطميين إلى الزيديين، ولكن الإنجازات المتميزة في هذه الفترة لم تكن سياسية ولم تدرج تحت أعمال التاريخ. فصقلية الإسلامية كانت أهراء للعالم كما كانت من قبل اهراء روما. وبالرغم من اكتفاء الرومان والبيزنطيين بزراعة القمح فقط فلقد أدخل العرب إليها مزروعات جديدة كالقطن والنخيل وقصب السكر والحمضيات وذلك بعد أن طوروا نظام الري في الجزيرة والقيام ببعض الإجراءات الأخرى كضرب الاقطاعيات الكبيرة وتوزيع الأراضي وانهاء سنين طويلة من الجمود الاقتصادي والاجتماعي... فازدهرت الجزيرة.

أدت الثورة الزراعية في صقلية إلى إنشاء عدد من الصناعات الزراعية كالنسيج وصناعة السكر والحبال وحياكة الحرير وصناعة الورق الذي دخل إلى أوروبا عبر صقلية. وأصبح الحرير الصقلي ذا شهرة عالمية وأفضل الأردية لزعماء العالم مسلمين أو مسيحيين. واستمرت حياكة الحرير بالازدهار تحت الحكم النورماندي وكان يحمل تطريزا أعطاه مركزا مميزا وما زالت عباءة روجرز الثاني الموجودة حاليا في المتحف الوطني في فينا شاهداً على غنى وجودة هذه الصناعة.

وكعادة المسلمين في كل أرض فتحوها، قام مسلمو صقلية بتوسيع وبناء المدن الجميلة كمسينا وسرقوسة وسياكة ومزارة وكاسترو جيوفاني، وأجمل المدن آنذاك كانت باليرمو المسماة المدينة عند المسلمين والتي وصفها ابن جبير بقوله:

«هي بهذه الجزائر أمّ الحضارة الجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة فما شئت من جمال مميز ومنظر ومراد عيش يانع أخضر عنيقة أنيقة مشرقة مؤنقة تتطلع بمرأى فتان وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان فسيحة السكك والشوارع تروق الأبصار بحسن منظرها البارع عجيبة الشأن قرطبية البنيان مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكدان يشقها نهر معين ويطرد في جنباتها أربع عيون قد زخرفت فيها لملكها دنياه... تنتظم بلبتها قصور انتظام العقود في نحور الكواعب ويتقلب من بساتينها وميادينها

كاتدرائية.
مونريال ١١٧٢)
الأثر المعماري
العربي ما زال
واضحا

٩٣٧م حيث بني خط دفاعي خارجي لحماية المدينة من أي هجوم بحري، وكان إسمها العربي «الخالصة» ومن هنا إسمها الحالي. أحيطت الخالصة بسور مرتفع فيه أربعة أبواب وكانت المركز الإداري لصقلية، وداخلها بني مسجد رائع وأماكن إقامة للجنود ومقر قيادة الوزارات.

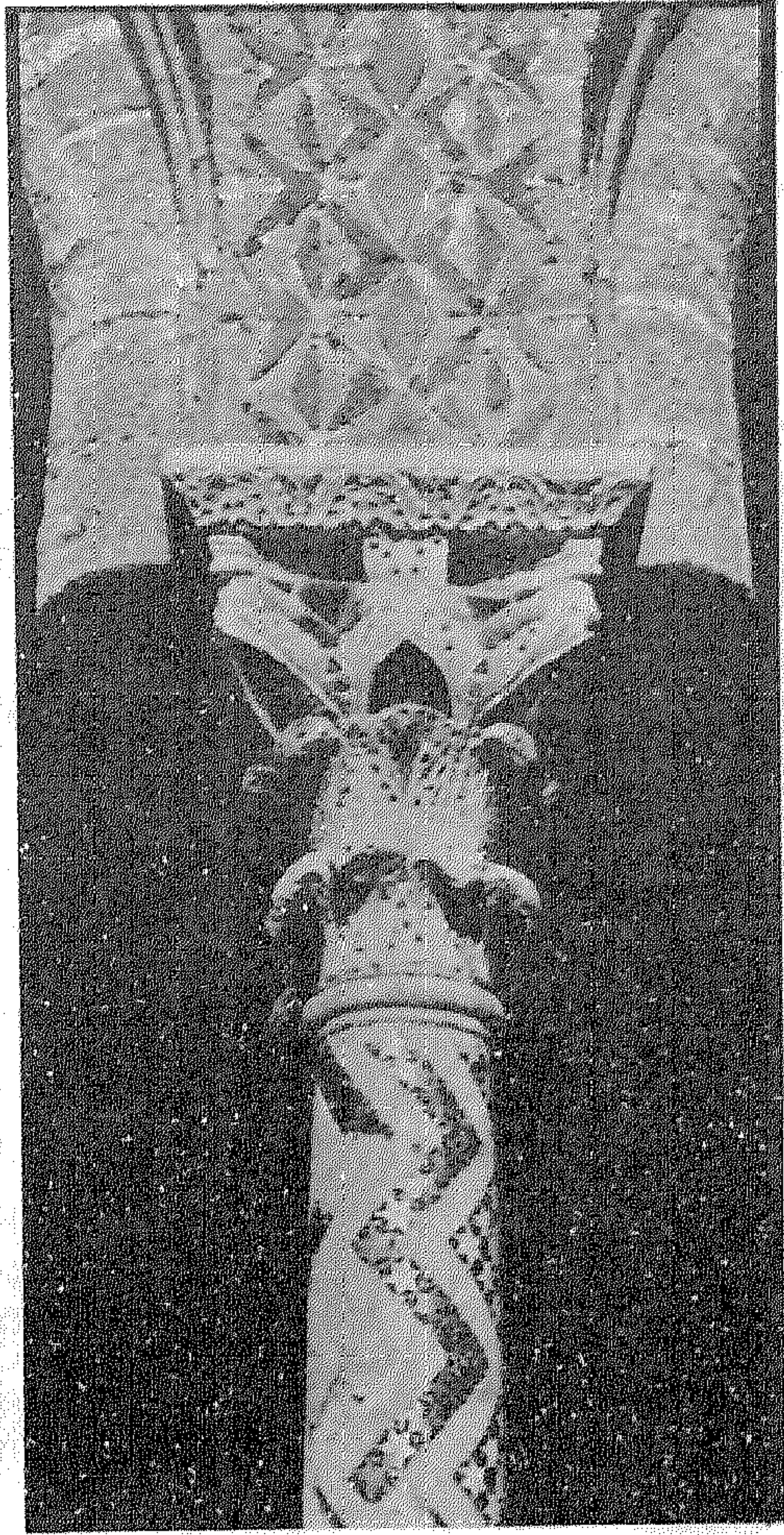
* * *

وأكثر ما تحس بصقلية العربية عندما تجوب أسواق باليرمو الخارجية التي ما يزال يحافظ القليل الباقي منها، بسبب توسع المدينة، على مظاهر «السوق» في شمال إفريقيا وخاصة في مدينتي كابو وبالارو. ولو تخيل أحدنا سكان باليرمو الحاليين بأردية طويلة فضفاضة لاكتملت الصورة الخيالية لأن ملامح الشعب وسفن البحارة ورائحة المنطقة تذكرك بالعالم العربي.

إلى جانب الأسواق تنتصب أسماء الشوارع العربية الأصل أو الدالة على المهنة فتسمع بمنطقة لاتاريني (Lattarini) حيث تباع وتصنع العطور منذ القرن التاسع وكان العرب يسمونها بسوق العطارين على مقربة من مسجد ابن سقلاب الذي وصفه ابن حوقل في القرن العاشر.

ولا نجد فنا معماريا إسلاميا خالصا بسهولة لأن العمارة الصقلية والفنون الأخرى في هذه الجزيرة تميزت بامتزاج أساليب عصور وحضارات متلاحقة فنجد. على سبيل المثال، قصر ريالي مرتكزا على أعمدة فينيقية شاد الرومان على أساسها ثم شاد البيزنطيون فالعرب فالنورمانديون فالسوابيون فالاسبان.. وما زالت كاتدرائية باليرمو البيزنطية الأصل والتي حولها المسلمون إلى مسجد تحمل على أحد أعمدتها آية قرآنية كريمة، وهذا العامود بذاته حمل من قبل سقفا لمعبد روماني سابق.

لا يوجد في صقلية غير عملين معماريين عربيين أحدهما قلعة لافافارا (La Favara) المشتقة اسمها من الإسم العربي الفوارة وكانت مقر الأمير جعفر (٩٩٧ ــ ١٠١٩) الذي أعطي اسمه لأحد الشوارع المؤدية للقلعة، ثم امتلك القلعة الملك روجرز الذي بنى كنيسة في أرجائها. أما الأثر المعماري العربي الآخر فهو حمامات كفالاديانا (Cefala Diana) على بعد ثلاثين كيلومترا من باليرمو على الطريق إلى المريفنتو



منقوشات إسلامية في كاتدرائية مونريال.

بين نزهة وملاعب... وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بآذان مسموع وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن... تحار الأبصار في حسنها».

ما زالت باليرمو تحمل الكثير من تلك الروعة رغماً عن تلك الأزمنة المعتمة التي مرت عليها وروعتها لا تنحصر في المقامات فقط بل في أرصفة الطرقات وتخطيط المدينة العربية الذي أعاد تنفيذه ببراعة البروفسور روساريو لا دوقا. ويحتل قصر ريالي (Palazzo Reale) قلب المدينة النورماندية وهو معروف بـ «الكاسرو» نسبة إلى كلمة القصر العربية، وعلى مقربة من المرفأ تقع منطقة الكالسا التي ترجع إلى العام

وبالرغم من عدم صلاحيتها وسوء حالتها الحالية استمرت هذه الحمامات بالعمل حتى خمسين سنة خلت وكانت قد شيدت في القرن الحادي عشر وزارها الرحالة ابن جبير.

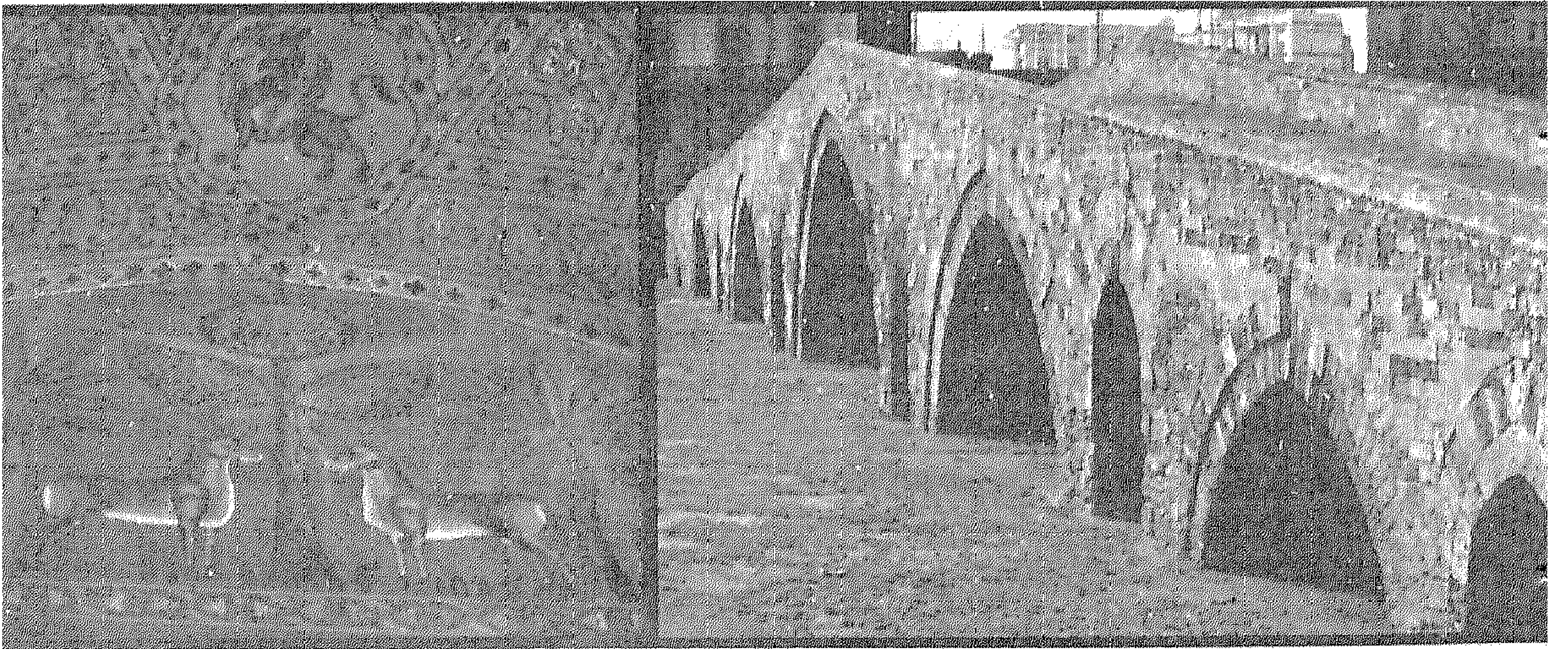
* * *

اعتمدت صقلية النورماندية على التراث العربي الإسلامي في الجزيرة فكان الوجود العربي حافزا كافيا للاندفاعة المعمارية والفنية الكبيرة التي ميزت صقلية أيام النورمانديين خاصة أيام روجرز الثاني. لذا من المفضل أن يطلق على الحضارة الصقلية اسم «الحضارة العربية ــ النورماندية» لاختلاطهما واستمرارهما حتى بعد انهيار الحكم النورماندي في صقلية.

اعتبر الرعيل الأول من الأعلام أن العمارة الصقلية نورماندية أكثر منها عربية، أما الآن فلقد كثر من يتحدث كما كتب البروفسور جيسوب بللافيور، عميد التاريخ المعماري في جامعة باليرمو، في كتاب له «ان العنصر النورماندي في العمارة العربية ــ النورماندية اقل مما يدل عليه الوصف الأخير، فلقد كان النورمانديون على قدر كبير من الحنكة عندما امتلكوا نظرة مستقبلية للأمور بقبولهم بل باعجابهم وتقديرهم لما وجدوا في الجزيرة مع الحفاظ على الخيوط التي تربطهم بأرضهم الأولى. فامتازت قوة وفعالية الإدارة النورماندية بسياسة المرونة التي اتبعها هؤلاء مع النظام الإسلامي السابق وبذلك لا تدين الثقافة بشكل عام والتقاليد الفنية بشكل خاص إلا بالقليل لأرض الجدود النورمانديين».

انطلاقا من هنا يمكننا استنتاج مدى عمق التأثير العربي في الفنون والعمارة، ولو عممنا لأمكننا القول أن كل النصب والكاتدرائيات والقصور والقلاع التي شيدت في الحكم النورماندي هي عربية لأن الصانع كان عربيا والمعماري كان عربيا. ولكن لا يجوز أن نغفل عنصرا ثالثا مؤثرا في هذا الخليط وهو العنصر البيزنطي الذي ساهم في خلق أسلوب معماري خاص في صقلية. وها هي الكابيلا بالاتينا (Cap-pella Calatina) في قصر ريالي تنتصب مثالا واضحا على امتزاج العناصر الثلاثة في عمل جديد ومثير من روعة السقف المنحوت والمزين بالألوان على أيدي الصانع العربي إلى الفسيفساء التي ترصع جدران الكاتدرائية وهي من عمل الصانع البيزنطي.

من أروع استراحات الملوك النورمانديين استراحة الزيسا (Zisa) التي اشتقت اسمها من كلمة العزيز، وهي حاليا قيد الترميم. أما استراحتا الكوبا (Cuba) والكوبولا (Cubula) اللتين شيدتا خارج أسوار مدينة باليرمو فلقد أصبحتا الآن داخل أسوارهاواسمهما مشتق من المكعب (Cube).



جسر الأدميرال في باليرمو عربي التصميم سنة ١١١٣.

فسيفساء في كابيلا مالاتينا.

وينتصب الماضي العربي في كل أرجاء الفال دي مزارة كتخطيط المدن كمدن قراباني، مارسالا، ومزارة نفسها التي تشير بوضوح إلى جنسية بانيها وما زالت إحدى نواحي مدينة مزارة تحمل اسم لاكسبا (La Kasbah) وكانت مقرا للمهاجرين التونسيين والجزائريين في السنوات الأخيرة. فعلا، الدولاب يدور دورة كاملة.

تضج صقلية بالأسماء العربية فالكنترا من القنطرة وجبلينا من جبل وهكذا دواليك. كما تسمع كثيرا من الكلمات الصقلية العربية الأصل ككلمة زغارة (زهر الليمون) وقد دخلت هذه اللفظة إلى اللغة الإيطالية بشكل رسمي.

* * *

لكن الماضي العربي في صقلية الذي يخرج إلى النور بصعوبة إذا اعتمد على الأدلة المادية التي ما زالت منتصبة، يتوضح بل يضيء إذا اعتمد على التراث الثقافي والعلمي الذي انتقل عبر صقلية إلى إيطاليا ومنها إلى أوروبا. فتحت حكم روجرز الثاني الفريد من نوعه أصبحت صقلية مضافا مفتوحا للأعلام الشرقيين والغربيين وهي المرة الأولى منذ سقوط الامبراطورية الرومانية فساهم لقاء هؤلاء الأعلام في جو من التقدير المتبادل على انتشال أوروبا من رهبة العصور السوداء دافعة إياها إلى عصر النهضة. إن انفتاح العرب التقليدي على الأديان الأخرى، الذي شجعه الملوك النورمانديون، دفع إلى خلق نقاش حر ومناخ فكري متحرر طالما بحث عنه العالم. فكانت علوم الفلك والطب والفلسفة والرياضيات مواد نقاش وترجمت على أثرها كثير من الكتب العربية إلى اللاتينية لتصبح الكتب الدراسية الأساسية في جامعات أوروبا التي

من "رحلة ابن جبير":

رحلته الى صقلية



«وفي يوم مستهله (الأول من رمضان) مع الصباح أبصرنا أمامنا جبل النار وهو جبل البركان المشهور بصقلية.. ثم حركتنا من ذلك الموضع ريح موافقة فلما كان عشى يوم السبت ثاني الشهر المذكور اشتد هبوبها... حتى أدتنا إلى أول المضيق... وهذا المضيق.. يعترض من بر الأرض الكبيرة إلى بر جزيرة صقلية والبحر بهذا المضيق ينصب انصباب السيل العرم ويغلي غليان المرجل لشدة انحصاره وانضغاطه..

فلما كان مع نصف ليلة الأحد الثالث للشهر المبارك.. دهمتنا زعقات البحريين بأن المركب قد أحالته الريح بقوتها إلى أحد البرين وهو ضارب فيه فأمر رئيسهم بحط الشراع للحين فلم ينحط شراع الصاري المعروف بلاردمون وعالجوه فلم يقدروا عليه لشدة ذهاب الريح به فلما أعياهم مزقه الرائس بالسكين قطعا قطعا.. وفي أثناء هذه المحاولة سح المركب بكلكله على البر.

ثم تمكن الشروق فجاءتنا الزواريق مغيثة ووقعت الصيحة في المدينة فخرج ملك صقلية غليام بنفسه في جملة من رجاله متطلعا لتلك الحال... إن هذا الملك الرومي المذكور أبصر فقراء من المسلمين يتطلعون من المركب وليس لهم شيء يؤدونه في نزولهم لأن أصحاب الزواريق أغلوا على الناس في تخليصهم فسأل عنهم وأعلم بقصتهم فأمر لهم بمائة رباعي من سكته وخلص جميع

ابتدأت بالتواصل خلال القرن الثاني عشر وأصبحت جامعة ساليرنو المؤسسة في القرن الثالث عشر أهم جامعة للطب وهناك قام العلماء بترجمة مؤلفات ابن سينا الطبية إلى اللاتينية واعتمدت أولى العمليات التشريحية العلمية.

لم ينس سكان صقلية ماضيهم الإسلامي الذي ما زال يعيش في أخبار المعارك والأساطير التي تتناقلها أسواق باليرمو ومسينا منذ عقود طويلة وتقوم الدمى الكبيرة التي ترتدي أفخر الملابس بتمثيل أدوارها في مسارح الدمى المتحركة. وما زال الحكواتي (الراوي) المعروف عند العرب يتلو الحكاية تلو الأخرى عن أبطال عظماء تتسامر بأخبارهم الألسن وترسمهم الأيدي في نواحي صقلية.

عاد موضوع ماضي صقلية العربي إلى الازدهار مجددا بعد أن أهمل لمدة طويلة، بالرغم من أعمال ميشيل عماري مؤرخ القرن التاسع عشر، وفي سنة ١٩٥٩ افتتحت جامعة باليرمو قسما خاصا باللغة العربية وآدابها.

ان ماضي صقلية ما زال مهملا وبحاجة إلى الكثير من البحث والتمحيص ولكن زائر الجزيرة ما زال يشتم رائحة مميزة وبعيدة عن أوروبا ازدهرت يوما قرب قلب القارة الأوروبية، ولقد كتب الشاعر العربي الصقلي ابن حمديس وهو الذي عرف ألم فراق جزيرته بعد نفيه منها، كتب قبل سبعة قرون:

«عندما الفظ كلمة صقلية تختلج الأشواق في قلبي. ان الإنسان المنفي من الجنة لا يمكنه إلا التحدث عن الأشياء التي خسرها». ●

عن مجلة: «Aramco World», Magazine Nov — Dec 1978

المسلمين عن سلام وقيل الحمد لله رب العالمين.

هذه المدينة (مسينة) هي موسم تجار المسيحيين، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار.. تغص بقاطنيها وتكاد تضيق ذرعا بساكنيها.. لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان، وان كنت غريب الوجه واليد واللسان.. ومرساها أعجب مراسي البلاد البحرية لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه.. فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد في مرابطها واصطبلاتها.. وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف وكفى بانها ابنة الأندلس في سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة.

— وأحسن مدنها قاعدة ملكها والمسلمون يعرفونها بالمدينة والنصارى يعرفونها ببلارمة. وفيها يسكن الحضريون من المسلمين ولهم فيها المساجد والأسواق المختصة بهم في الأرباض كثير وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها..

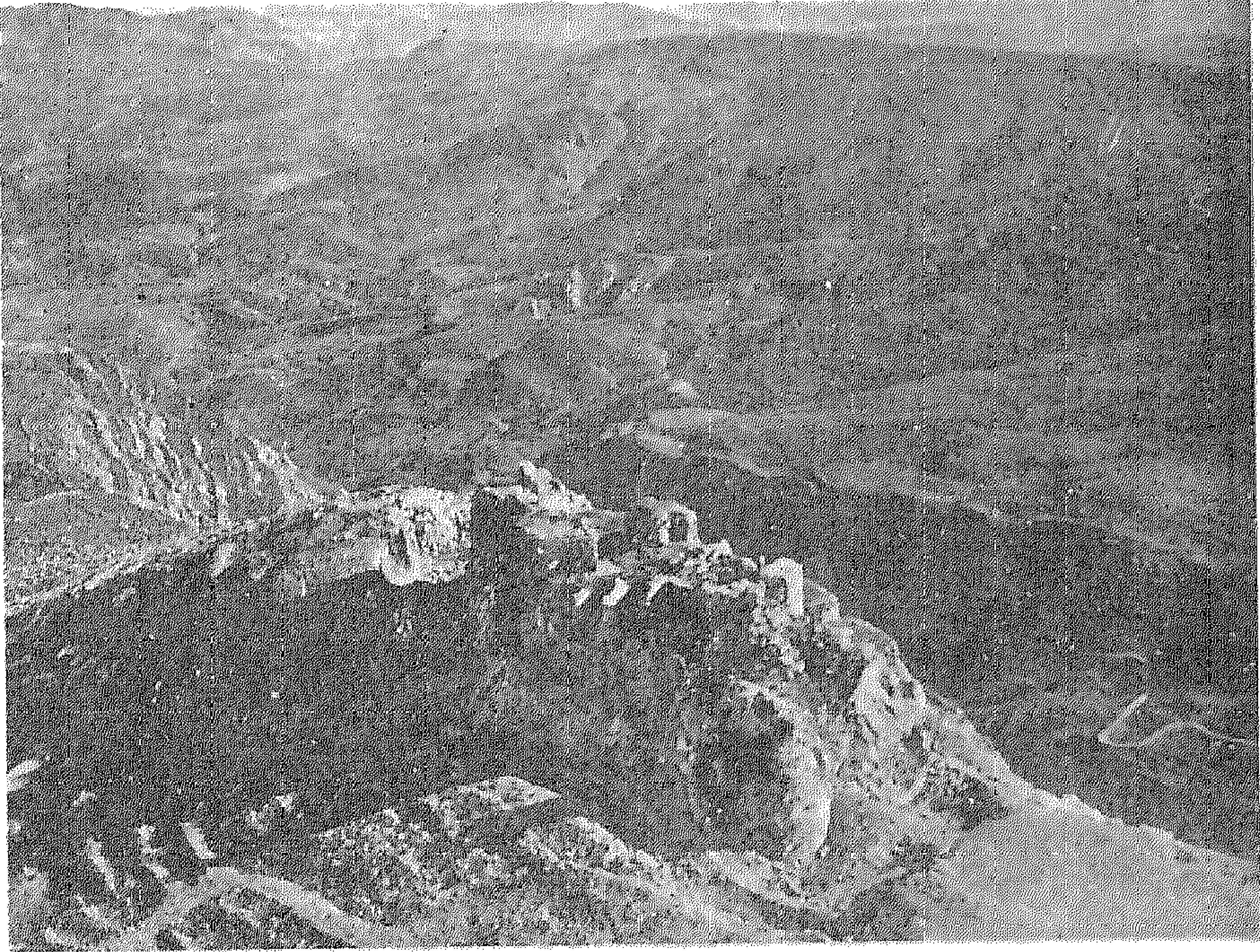
وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها.. ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه.

.. وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين فصيحات الألسن ملتحفات متنقبات خرجن في هذا العيد (عيد الفطر) وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبة..

... ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين ولا سيما بحضره ملكه المدينة المذكورة وله بمسينة قصر أبيض كالحمامة ومطل على ساحل البحر.. وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتوسيم مراتب رجاله وتضخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين. وملكه عظيم جدا وله الأطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى أنه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بإمساكه وأدر له ارزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه.. ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية».

من «رحلة ابن جبير»
مصر، مطبعة السعادة، سنة ١٩٠٨

صفحة مطويّة من تاريخ جبل عامل النضالي


قلعة الشقيف.

مقاومة سياسة الجزّار التدميريّة

(١٧٧٥ - ١٧٨٥)

د. حسين سلمان سليمان

الموقع


كان جبل عامل يشكل القسم الثاني من ولاية(*) صيدا، وامتدت حدوده من نهر الأولي شمالاً حتى الرأس الأبيض جنوباً، ومن البحر المتوسط غرباً حتى بحيرة الحولة بعرض ثمانين كلم شرقاً. وهي منطقة منبسطة تشمل هضاباً وسهولاً داخلية وساحلية وتخترقها أنهار وجداول.

وفصل مجرى نهر الليطاني هذه البلاد الى قسميه جنوبيه وشماليه، ضم القسم الأول منها مقاطعات تبنين وهونين وقانا ومعركة، أما الشمالية فهي الشقيف والشومر والتفاح.

وقد كان لتكوين جبل عامل الطبيعي وموقعه، أثر هام في تطور حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فموقعه كحلقة اتصال بين جبل الدروز وفلسطين وسوريا، جعله يتأثر الى حد كبير بتقلبات ميزان القوى في المناطق المجاورة

له. فتوزعت قراه في الداخل وعلى هضاب هذا الجبل، بعيداً عن الساحل حيث الصراع على امتلاك مراكز التقاء المواصلات الداخلية. كما كان لهذا الموقع أثره على السكان، فكون هذه البلاد تشكل حلقة اتصال مع جيرانها، حتم عليها الاستفادة من النهضة الاقتصادية التي شهدتها قراهم في القرن الثامن عشر، فنتيجة لنجاح زراعة القطن والتبغ ومن ثم حصولهم على التزام مرفأ صور سنة ١٧٥٩، سعى زعماء تلك البلاد الى مضاعفة قوتهم العسكرية وزيادة نفوذهم السياسي، فاهتموا بتحصين القلاع والحصون المنتشرة في ربوع وشواطىء بلادهم، كقلعتي الشقيف وتبنين وغيرهما نظراً لما تتمتع به هذه القلاع من أهمية ستراتيجية.

وكانت مدينة صور بمثابة سوق لجبل عامل، والمنفذ البحري الذي يصدر منه السكان منتجاتهم الزراعية الى الخارج، ويستوردون عن طريقه مايحتاجون من سلع. ويكتنف المدينة سهل خصب مروي كان يزرع بالقطن والذرة والشعير والقمح والتبغ، ونظراً للرواج الذي كانت تلقاه السلعة الأخيرة في دمياط، اهتم السكان بزراعتها للغاية.

السكان

ومعظم سكان جبل عامل من الشيعة الامامية «الاثني عشرية» باستثناء بعض القرى المسيحية وتبلغ نسبتهم العشر تقريباً. وعرفت هذه البلاد في العصور الحديثة باسم بلاد بشارة، و«بلاد المتاولة»، منذ ان أطلقت هذه التسمية على شيعة هذه البلاد، وقد راجت التسمية الأخيرة بين القناصل الأوروبيين، في التقارير التي كانوا يرسلونها الى حكوماتهم (Pays du Mutualis).

وكان يحكم هذه البلاد في القرن الثامن عشر مجموعة من المشايخ الاقطاعيين المتاولة، يتولى كل منهم ادارة احدى مقاطعاتها. ويقيم فيها مع اتباعه المزارعين، الذين يتعهدون أرض المقاطعة لحسابه، في مأمن بعيداً عن أي تصد مفاجىء من قبل السلطات العثمانية. وينتمي هؤلاء المشايخ الى ثلاث عائلات اقطاعية، كانت لها السيادة الأولى في جبل عامل، وهم بنو صعب في مقاطعة الشقيف وبنو منكر في الشومر والتفاح وبنو علي الصغير في بلاد بشارة، وكانت زعامة البلاد في البيت الأخير.

وكان بإمكان كل شيخ ان يجند عند الحاجة من مئتين وخمسين الى ثمانمئة رجل، اذا اجتمعوا معاً يشكلون قوة قتالية قوامها ألفان وخمسمائة خيال. وثلاثة آلاف وخمسمائة مشاة تقريباً[١]. وقد اشتهروا بشجاعتهم في كل سوريا، وعند الحاجة تصدر الأوامر الى جميع القرى بالاستعداد للمسير ضد الأعداء. والوحدة الدينية تكاد تكون هي الرباط الوحيد لاتحادهم السياسي، وأشار الدبلوماسي الفرنسي (Paradis)[٢] بأنه شاهدهم يقاتلون بترتيب ونظام، مما جعلهم ينتصرون على أعدائهم الذين يفوقونهم عدداً. ويخضع هؤلاء المشايخ لسلطة شيخ أعلى يدعى «شيخ المشايخ»، يقيم في قلعة تبنين، أمنع مواقع هذه البلاد، يجمع الميري منهم ومقدارها مئتا كيس ويدفعها لوالي صيدا، وكان يأتي في الأهمية بعده الشيخ قبلان حاكم مدينة صور. وحين كانت تسوء علاقة هؤلاء المشايخ مع الباشا العثماني، كانوا يتمنعون عن دفع الضريبة ويهددون بالاصطدام مع قواته، وقد نقل الينا القنصل الفرنسي في صيدا صورة لعصيانهم، ومدى ضعف سلطة الوالي عليهم.

«...طلبت من الباشا الحاكم ان ينصفني، لكنه أبدى لي استياءه من تصرف هذا الشيخ المتمرد (أي ناصيف النصّار) الذي يتمنع عن دفع الميري المتوجبة للسلطان...»[٣]

«...أرسل الشيخ (أي ناصيف النصّار) مائة وخمسون فارساً لمصادرة البضائع، وأمرهم بمصادمة قوات الباشا اذا حاولت منعهم...»[٤]

وتحالف زعماء هذه البلاد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، مع قوى محلية تمردت على السلطة العثمانية في بلاد الشام الجنوبية ومصر (ظاهر العمر وعلي بك الكبير)، فانزلوا معاً هزائم مذلة بقوات كل من والي دمشق وأمير جبل الدروز يوسف الشهابي، لكن مالبث هؤلاء الزعماء أن سقطوا الواحد تلو الآخر.


احمد باشا الجزار يصدر حكما في احد القضايا.

أحمد باشا الجزار والي صيدا

وبنهاية الشيخ ظاهر العمر في أواخر آب (أغسطس) سنة ١٧٧٥ استولى الأميرال العثماني حسن باشا على عكا وحكمها بنفسه، ومع اقتراب عواصف الخريف فكر الأخير في سلامة أسطوله الراسي في ميناء حيفا الغير أمين. وفي هذه الأثناء وصل الى عكا محمد باشا العظم، واقترح على الاميرال جعل ميناء عكا تابعاً لادارة والي صيدا، وكاد أن يتم ذلك لو لم يصل أحمد(*) بك الجزار الى عكا في التاسع عشر من أيلول (سبتمبر)، فسلمه القبطان بنفسه ادارة المرفأ وجعله محافظاً للمدينة، ولم يكن يحمل في ذلك الوقت رتبة الذيلين(*)، وعين الأميرال والياً على صيدا محمد ملك باشا.

وعند استلام محمد ملك باشا مهام ولايته الجديدة، حاول ان يجمع الميري المفروض على جبل عامل، لكن مشايخ هذه البلاد امتنعوا عن اعطائه سوى ما كانوا يدفعونه سابقاً، وهو أقل بكثير مما طلب منهم. وظلت المنطقة الواقعة خلف عكا في الداخل، وأغلب الجليل تحت سلطة أبناء ظاهر، وخشي السلطان العثماني ان يبقى الميناء في عزلة عن المناطق الداخلية، فقرر توسيع وظيفة الجزار وترقيته الى رتبة أعلى.

وفي الثامن عشر من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٧٧٥ نقل محمد ملك باشا الى ولاية مرعش، وحضر بعد ذلك بيومين فرمان بترقية الجزار الى رتبة بيلر بك ولاية صيدا (أي باشا بذيلين)، وبدلاً من ان يحضر ليقيم في مدينة صيدا، أرسل اليها متسلماً من قبله، في حين بقي هو في عكا وجعلها مركزاً للولاية.

ما هي الأسباب التي دفعت الوالي الجديد الى التخلي عن مدينة صيدا، التي تعاقب جميع الباشاوات الذين حكموا الولاية، على الاقامة فيها وادارة الحكم منها منذ تاريخ انشائها؟

الواقع ان أحمد باشا الجزار كان على معرفة تامة بما يصيب الولاة العثمانيين، حين تشعر الدولة بأنهم قد أثروا وأصبحوا يشكلون خطراً

عليها. ونظراً لأنه كان قد قرر في قرارة نفسه، ان يحتفظ بمنصبه بارادة الباب العالي أو رغماً عنه، وبما ان عكا كانت منيعة الجانب نظراً لما أقامه فيها ظاهر العمر من أسوار وتحصينات ومدفعية، في حين كانت صيدا مهددة من كل الجوانب وبدون تحصينات، فهي لا تناسب مخططات الباشا، فاختار الأولى لتكون لادارة الولاية.

وما لبث ان رقي الجزار الى رتبة الذيل الثالث، وامتلأت خزائنه بالمال وأمن القوة العسكرية اللازمة لفرض هيبته على رعاياه، فلم يبق أمامه سوى هم واحد وهو التخلص من أبناء الشيخ ظاهر العمر، فقد كان يشعر بأنه ما دام هؤلاء أحرار فلن يجد الراحة. وكانوا قد حاولوا ان يفرضوا حصاراً اقتصادياً على عكا، فمنعوا وصول المؤن اليها من البر، لعل ذلك يدفع الجزار الى التخلي عنها لكن الأخير صمد. وحين عين والياً على صيدا أصبح شرعياً سيد الجليل، وكان على يقين تام بأنه اذا لم يتخلص من أبناء ظاهر فستظل سلطته اسمية.

وبدلاً من ان يجهز حملة مباشرة لتصفية اخصامه هؤلاء، سعى الى اضعافهم عن طريق التفرقة فيما بينهم، بالرغم من ان ذلك مخالف لأوامر الباب العالي، وحاول أن يكسب بعضهم الى جانبه، عن طريق الخداع والمسالمة والصداقة والعروض السخية، وسمح لهم ولأنصارهم بدخول عكا والخروج منها ساعة يشاؤون، بل ذهب بعيداً الى حد الاعتراف رسمياً بهم حكاماً على المناطق الخاضعة لهم.

وكان الشيخ علي ظاهر العمر هو العقبة الكؤود التي واجهت الجزار، فقد كان من أقدر المحاربين ويقود قوات كفوءة وتثق به، وقد انتصر بها في معارك عديدة. وتأكد للباشا بأنه لن يتمكن من ان يكون سيد ولايته ما لم يتخلص من هذا الشيخ، وتمكن بوسائل متعددة ان يجرد الأخير مساندة أخوته، وفي شهر حزيران (يونيه) سنة ١٧٧٦ كتب الجزار الى الباب العالي يبلغه بان عثمان وأحمد وسعيد، قد استجابوا لنداء الأمان.

وبعد ان جرد الجزار الشيخ علي الظاهر من مساندة اخوته، سعى الى كسب مشايخ جبل عامل نظراً لما يتمتع به هؤلاء من قدرة قتالية، فانتقل الى مدينة صور واجتمع الى حاكمها حمد العباس، ثم حضر اليها ثانية واجتمع مع الشيخ ناصيف النصّار، ويبدو بأنه قد تصالح مع العامليين في هذه الاجتماعات، ودليلنا على ذلك مرافقة هؤلاء للباشا في حملته التي كان يستعد لها.

وبتخلص الجزار من خطر الشيخ المذكور، شعر بأنه لم يعد بحاجة الى باقي أخوة الأخير الذين تعاونوا معه، فقبض عليهم وسجنهم مع أولادهم ونسائهم ثم تخلص منهم تباعاً. وحين رأى العامليون ما حلّ بأبناء ظاهر العمر، توقعوا ان تكون الحملة التالية على بلادهم، فانسحبوا اليها وحشدوا حصونهم بالمقاتلين والأسلحة واستعدوا للقتال. وبالفعل فقد صدق حدسهم، فما لبث القبطان حسن باشا ان قرر الاستفادة، من الرعب الذي ألقاه جنوده وبحارته في بلاد الشام، لتحصيل الأموال الأميرية المتأخرة المستحقة للدولة. فاتفق مع والي صيدا بتجهيز حملة على جبل عامل، لتهديم قلاعه وحصونه وجمع الميري من ملتزميه. لكن مشايخ الجبل اتفقوا على تجنب العاصفة القادمة، التي قد تسبب في تدمير ونهب بلادهم والقضاء عليهم، فقرروا مفاوضة الأميرال العثماني.

وخشية أن يصيبهم ما أصاب أبناء ظاهر العمر، اذا حضروا لعكا للتباحث حول شروط الصلح، تطوع الشيخ قبلان للقيام بهذه المهمة، فقدم الى عكا بالنيابة عن باقي المشايخ ونجح مسعاه في الوصول الى الاتفاق التالي.

أولاً — ان يقف زعماء جبل عامل على الحياد بين المتنازعين على النفوذ في المنطقة.

ثانياً — ان يدفعوا الميري بصورة منتظمة وتقسيط المتأخر منها على الشكل التالي

(أ) أن يفوا فوراً أي في شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٧٧٦ مبلغ ١٥٠ كيساً(*).

(ب) أن يدفعوا ١٥٠ كيساً خلال سبعة أشهر و ٣٠٠ كيساً خلال سنة ١٧٧٧.

ورضي الأميرال عن هذه الاتفاقية، ووجدت هوى في نفسه وحفظت ماء وجهه، لأنه كان يخشى مهاجمة جبل عامل، نظراً لانتشار القلاع والحصون في ربوعه، وما عرف عن سكانه من

شجاعة وفروسية ومهارة في القتال وتعلق بالحرية. وفكر بأنه قد يلاقي نجاحاً أكثر مع أمراء ومشايخ جبل الدروز، وطلب من زعماء عاملة الاشتراك بقواتهم في تلك الحملة. لكن هؤلاء اعتذروا للأسباب التالية.

أولاً ــ وجدوا ان مصلحتهم تقضي بأن يبقى جبل الدروز متمرداً على الوالي، فخضوع وولاء هذه البلاد للسلطة، سوف يؤدي بهم الى العودة لحياة الكر والفر، التي كانت سائدة قبلاً في النصف الأول من القرن الثامن عشر بين جبل الدروز وجبل عامل، حين كان ولاة صيدا يحرضون الأمير الشهابي الحاكم الزحف على قرى عاملة، كلما امتنع سكانها عن تلبية طلبات الباشا الابتزازية. فاذا تمكن العامليون في ذلك الوقت من الصمود، ومنعوا أمراء ومشايخ جبل الدروز من تحقيق أي نصر نهائي، فمرده الى عدم وجود اي خطر قائم على حدودهم الجنوبية، لأن ظاهر العمر كان في ذلك الوقت منهمكاً في اقامة دولة قوية في الجليل، ثم ما لبثوا ان تحالفوا معه.

ثانياً ــ تبدل الوضع على حدود جبل عامل الجنوبية، فقد أقام الجزار دولة قوية مرهوبة الجانب، تمكنت من تدمير دولة ظاهر العمر أعني أعتى قوة سياسية في بلاد الشام خلال الربع الثالث من القرن الثامن عشر.

ثالثاً ــ الاشتراك في الحملة المرتقبة على جبل الدروز يحتاج الى مصاريف باهظة، هم في غنى عنها الآن لأنها لن تعود عليهم بالنفع، بل بالعكس سوف تؤدي الى مضاعفة نفوذ والي صيدا.

رابعاً ــ كانوا على ثقة تامة ان نجاح حملة الباشاوات على جبل الدروز، وارتفاع هيبة والي صيدا سوف تدفعه الى اجتياح جبل عامل، وفرض سيطرته على هذه المنطقة الفتية.

ويبدو ان الباشاوات قد قبلوا هذا الموقف السلبي من المشايخ العامليين، ولم يلحوا عليهم في طلب المساعدة، كما لم يحاولوا تأديبهم على تصرفهم هذا بانتظار فرصة أنسب. وذلك لاضطرارهما الى نقل الجانب الأكبر من قواتهما الزاحفة على جبل الدروز عبر بلاد عاملة، ومن الضروري عدم عرقلة سيرها أو التصدي لها في تلك البلاد الوعرة. فقبلا اعتذار المشايخ العامليين، واكتفاؤهم بالوقوف على الحياد في الصراع المقبل، وعدم التصدي للقوات المتنقلة في بلادهم الى جبل الدروز.

وبالفعل فقد احترم العامليون تعهدهم، وسمحوا للقوات الغازية بالانتقال من عكا عبر جبل عامل الى صيدا، ولم يعترضها أحد من سكانه وأقام أحمد باشا الجزار معسكراً عند مدخل المدينة. ثم ما لبث ان حضر اليها القبطان بحراً في ٣ آب (أغسطس) ١٧٧٦، وكتب الى الأمير يوسف يطالبه بالميري، واستطاع الأخير بعد مصاعب شاقة ان يؤمن له المبلغ وانتظره في بيروت، لكن عساكر الجزار استولت على المال، ونهبت وذبحت عدداً من سكان المدينة، فأثار ذلك غضب القبطان حسن باشا ويؤكد الذين شاهدوه، بأنهم لم يشاهدوا انفجار غضب يشبه ذلك الانفجار. ونظراً لأنه لم يعد بامكانه العودة الى عكا واجبار الوالي تسليمه المبلغ، فقد استدعى الأمير يوسف وترك له الأخير حملاً من الحرير قدرت قيمته بحوالي المليون ليرة فرنسية.

اقتتال في يارون

وشهدت الفترة الممتدة من (١٧٧٦ ــ ١٧٨١) سلسلة من الفتن الداخلية في جبل الدروز، استفاد منها مشايخ جبل عامل فامتنعوا عن دفع الميري المتوجبة على بلادهم، وتعدوا على القوافل التجارية التي كانت تجتازها من صيدا في طريقها الى فلسطين وبالعكس، فصدر فرمان سلطاني الى والي صيدا يأمره بالسير على جبل عامل وتدميره للأسباب التالية:

١ ــ تمردهم أيام ظاهر العمر (تعاونهم مع علي بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب)، ومشاركتهم في الحملات على والي دمشق (دورهم في هزيمة عثمان باشا الكرجي على جسر بنات يعقوب).

٢ ــ غزواتهم على منطقة دمشق اذ هاجموها بقوة مؤلفة من ٣٠٠ الى ٥٠٠ خيال.

٣ ــ امتناعهم عن دفع الميري بالرغم من تعهدهم السابق بدفعها سنوياً.

٤ ــ الاستيلاء سابقاً على أماكن متعددة من ولاية صيدا مثل شفا عمر وحيفا وعكا.



علي بك الكبير.

وكان الجزار قد ازدادت ثقته بالتعامل معهم بحزم، فقرر الاستفادة من الفرمان المذكور لتحقيق عدد من المكاسب.

أولاً ــ تعزيز مركزه وزيادة قوته عما كانت في السنوات السابقة، واقامة حكم مركزي فعال في الولاية.

ثانياً ــ عدم استمرار بقاء مراكز قوى مستقلة، وحكم ذاتي في المنطقة يعيق خططه تلك.

ثالثاً ــ تحقيق مكاسب مادية، بالسيطرة على بلاد جبل عامل الغنية بمواردها الزراعية واحتكار تجارتها والاستيلاء على ثروات وكنوز مشايخها.

ونظراً لما يعلمه عن مدى شجاعة وكفاءة السكان القتالية، ووعورة البلاد وما تتضمنه من حصون وقلاع، قرر تجهيز حملة قوية قادرة على تحقيق آماله. فجمع قوة تقدر بحوالي الثلاثة آلاف رجل، وجعلها بقيادة معاونه سليم نظراً لأن الباشا لا يعرض حياته في مغامرة خطرة غير مأمونة العواقب.

وفوجىء الشيخ ناصيف باجتياح قوات الجزار لبلاده، فخرج على رأس ألف فارس للتصدي للحملة، والتقى بالعساكر المهاجمة عند قرية يارون الداخلة ضمن بلاد بشارة، وجرى اقتتال بين الفريقين في ٢٣ أيلول (سبتمبر) سنة ١٧٨١ انتهى بمقتل الشيخ العاملي وحوالي ثلاثمائة الى أربعمائة من مقاتليه، من بينهم أخوه الفارس أحمد وعدد من القادة في حين خسر سليم باشا ثلث قواته، ثم تقدم الأخير بعساكره في بلاد بشارة لتحطيم القلاع السبع الرئيسية فيه (هونين وتبنين ويارون وميس وصربا وجباع وشمع). واستولت العساكر على ميناء صور.

وخشي مشايخ جبل عامل ان يتعرضوا للذبح والقتل والاهانة عند توغل قوات الجزار في بلادهم، ففروا بعيالهم وأنصارهم واختفى

بعضهم في بـلاد بعلبك لـدى مشـايـخ آل الحرفوش، والبعض الآخر في بلاد عكار لدى محمد بيك المرعبي (الأسعد)، وقدم اثنان منهم الطاعة للجزار، في حـين صمد الشيـخ حيدر الفـارس برجـاله الستمائـة في قلعة الشقيف، وفشلت جميع جهود الجند لاحتلال تلك القلعة.

وعادت قوات الباشا وهي تحمل معها ثروات هائلة، جمعوها من مقتنيات مشايخ وسكان جبل عامل التي خضعت لهم وسبى الجند النساء والأطفـال وباعـوهم في الأسواق للراغبـين في الشراء. كما نقلوا كميات كبيرة من مـؤلفات ومخطوطات نادرة، كان قد وضعها علماء تلك البلاد، الذين غادروها عقب تعرضها للاحتلال، وتوجهوا الى البلاد الإسلامية النائيـة كالهنـد وايران وأفغانستان. فقدموا بتعاليمهم خدمات جلّـى إلى الإسلام والشيعة الامامية.

وكان فرح الجزار كبيرا بنجاح حملته، نظراً لأن هذه العملية سوف تكسبه مكانة ونفوذاً في الأستانة وفي ولايته، لأنه أخضع واستولى على منطقة استعصت على معظم ولاة صيدا، كما أصبح سيد بلاد مزدهرة وأراضي خصبة غنية. تضم مدينة ومرفأ صور التجاري التي غادرها جميع سكانها، حين علموا بالنكبة التي حلت بالشيخ ناصيف النصار، خشية أن تأتي قوات الباشا وتحتل المدينة، ويصيبهم ما يصيب عادة البلاد التي تحتاجهـا قوات الجـزار، من قتل وذبح ومذلة ونهب.

وشعر والي صيدا أنه لن يستفيد من أهمية هذه البلاد الاقتصادية، ما لم يبادر الى إعـادة سكانها لكي يقوم بحمايتها واحتكارهـا، لأنها سوف تملأ خزائنه بما سيجمعه من ثرواتها. فحضر الى صور لكي يؤكد بشخصه، بقاء كل ما يخص زعماءها، وتأمـين ممتلكات السكـان. وأشارت الى ذلك الوثائق الفرنسية الصادرة عن صيدا بقولها.

«...أذاع هنا وفي كل الأمكنـة التي لجأوا اليها، أن بامكان جميع الذين خرجوا العودة الى صور دون خشية أو خوف، سواء منه او من أي شخص آخر...»(٥).

واستبـدل الباشا مشايخ مقاطعات جبل عامل الذين فروا من البلاد بمتسلمين مؤقتـين من قبله، لأنه من سياسته عدم ابقاء أحد مـدة طويلة في المراكز ذات الأهمية، وزودهم بوحدات عسكرية قادرة على السيطرة بفعالية على القرى، وعامل هؤلاء المتسلمين رعاياهم بقسوة لانتزاع الدراهم التي قد تكون معهم.

وأظهر السلطان العثماني رضاه الكامل عن عملية تدمير مشايخ عاملة، وأرسل للجزار أحد موظفيه ومعه هديـة مكونـة من سيف وخلعة ثمينة، لكن مظاهر الشرف هذه لم تجعله بعيداً عن مطالبة الباب العالي له، بتأدية الحساب عن الثروة التي استولى عليها في هذه الحملة.

وقد انعكس تأثير هذه الحملة عـلى تجارة الفرنسيين في صيدا، وسببت في بروز عاملين متناقضين الواحد للآخر.

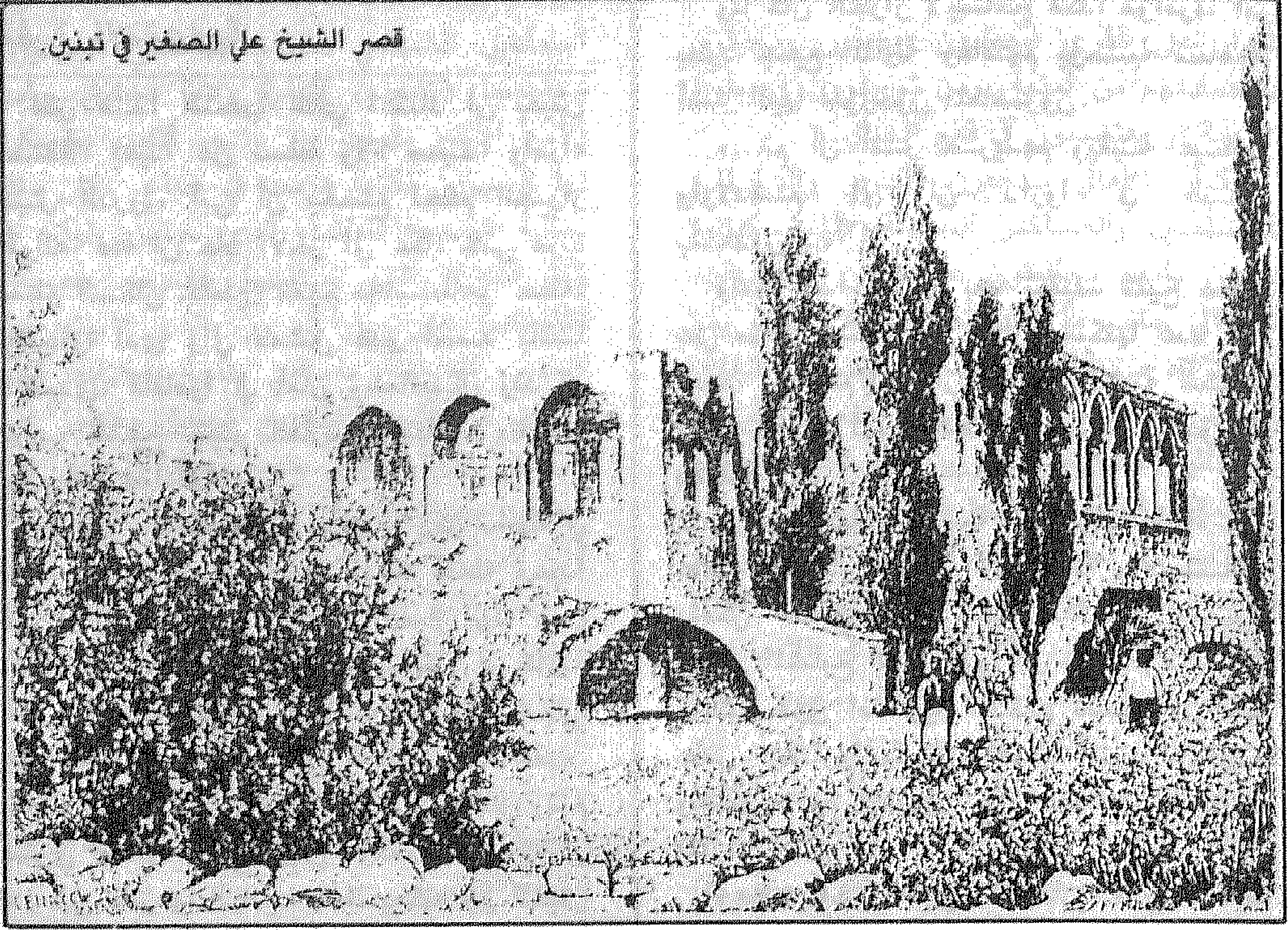
١ ــ تقلص حجم التجارة الفرنسية في تلك البلاد، ولم يعد يجني التجار الفائدة نفسها التي كانوا يحققونها، من استهلاك المشايخ لكميات كبيرة من الأقمشة والسلع الأخـرى، ولم يعد بامكان التجار ان يبيعوا شيئاً بعد هرب هؤلاء.

٢ ــ زادت قيمة القطن المغزول المرسل الى فرنسا، وصدّر التجار الفرنسيون في سنة ١٧٨٢ خمسمائة بالة زيادة عن السنة التي قبلها، لأن أحداً ممن تبقى من السكان لم يعد يجرؤ ان يبدو عليه أي مظهر ثراء، كما غادر البلاد عدد كبير من المشايخ الأثرياء، ورافقهم في هروبهم عائلاتهم واتباعهم خوفاً من الاهانة.

حصار قلعة الشقيف

وبتركيز الجـزار لسلطته في مقاطعـات جبل عامل، عاد ووجه عساكره لتفرض حصاراً على قلعة الشقيف التي كان معتصماً بها الشيـخ حيدر الفارس مع أتباعه، وبالرغم من القصف المدفعي الذي كانت تتعـرض له القلعة، فقـد صمد الشيخ شهراً كاملاً. ولم تستطع عساكر الباشا تحقيق أي كسب، بسبب رداءة القنابل المستعملة وجهـل المدفعجية بأصـول استخدام سـلاحهم، وشجاعـة المحاصـرين الذين أبدوا بسالة فائقة في الدفاع عن أنفسهم، خشية أن يصيبهم ما أصاب أبناء ملتهم.

وحين فشلت خطة البـاشا لاحتـلال القلعة


قصر الشيخ علي الصغير في تبنين.

بالقوة، سعى الى تحقيق ذلك بالوعود المغرية للأسباب التالية.

١ ــ خشي ان تطول فترة الحصار أكثر، ومايتطلبه ذلك من نفقات باهظة.

٢ ــ صمود العامليين فترة أطول يؤدي الى ازالة الهيبة والمكانة والخوف، التي كان يثيرها اسمه في ولاية صيدا، بعد احتلاله حصن دير حنا(*)، وانتصاره على الشيخ ناصيف النصّار في معركة يارون.

٣ ــ خطر بقاء قواته في هذه البلاد المعادية له، واقتراب فصل الشتاء ومايصحبه من برد قارس في هذه المنطقة الجبلية.

٤ ــ من مصلحته أن يتم تسليم الحصن عن طريق المفاوضات، ليضمن سلامة محتوياته من نهب قواته فيما لوسقط عنوة، لأنه كان يعلم ان القلعة تحوي ثروات هائلة وضعها فيها العامليون، لانقاذها من أعدائهم نظراً لمناعتها.

وقد أكد هذا الاعتقاد الأخير سلوك الباشا، الذي حضر شخصياً الى الشقيف في الرابع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٨١، عندما أكدوا له بأن المحاصَرين مستعدون أن يستسلموا له شخصياً، مما سبب في تذمر قواته التي كانت تمني النفس، بأنها كما اعتادت ستكون مكافأتها القيام بنهب ما تجده.

واستسلم الشيخ حيدر الفارس ورجاله وسلموا الحصن للباشا، وكان يقيم فيه مايقارب ثلاثماية عائلة أظهر الجميع لهم الاحترام عند خروجهم، وأعطى والي صيدا تعليمات صارمة بعدم إذية أي فرد من المستسلمين، بحيث أن أحداً منهم لم يتألم من أي شيء. واقطع للشيخ واتباعه الذين كانوا معه من سكان القرى المجاورة للشقيف والتي كانت قد تدمرت كلياً ــ اقطاعاً ليعيشوا فيه ويكون لهم كملك. وقد اتبع هذه السياسة السلمية ليضمن تأهيل المنطقة بالسكان، وزراعة الأرض الخصبة التي تحولت الى بور، بسبب الهجرة الجماعية التي نفذها الأهالي بعد اقتتال يارون، وبالتالي ستعود عليه بفوائد اقتصادية عظمى.

الفرق الانتحارية

لكن هـذا الشعب الذي اعتـاد ان يعيش مستقلاً، بعيداً عن تسلط ولاة صيدا وأمراء جبل الدروز، أبى أن يخضع لحكم الجـزار وقواته. فما ان عاد الآخر الى عكا، حتى هرب معظم السكان حاملين معهم ما استطاعوا حمله، والتجأوا لدى والي دمشق عدو أحمـد باشـا التقليدي، فأقاموا في أمان وطمأنينـة، وقد تم هروب الشيخ حيدر الفارس واتباعه، بتفـاهم سري مع هذا الباشا.

وفي هذا الوقت كان الجزار قد ركز سلطته في مدينة صور، ووجد شيخ المدينة نفسه وحيداً بعد فراره منها، وانقطع كل اتصال بينه وبين عائلته واتباعه، فـاضطر ان يـدخل في طاعـة الجزار. فأمنه الأخير واستقبله بحفاوة لتشجيع باقي المشايخ واتباعهم على العودة الى مناطقهم، ومنحه التزام قرى بالقرب من صور مقابل رسم سنوي مقداره ألفي قرش، وكانت هذه القرى تدر على ملتزمها الجديد دخلاً يمكنه من العيش بيُسر.

ومع ذلك فقد ظل هذا الشيخ مـع سكان اقطاعه، يترقبون الفرصة المناسبة لنيل حريتهم والتخلص من الجزار، والعودة الى حكم بلادهم بأنفسهم كما كانوا سابقاً. وظنوا أن حلمهم بات وشيك التنفيذ، حين بدأت تنتشر في بلاد عاملة اشاعات، بأن الباب العالي سوف يرسل حملة بحرية وبرية لتـدمير الجـزار، وصار السكـان يتصورون ان عزل البـاشا سيتم بـين لحظة وأخرى.

وفي اليوم الثامن من أيار (مايو) ١٧٨٢ مرّت من أعـالي شاطىء مـدينـة صـور، البـارجـة الفرنسية الملكية (Auror) يرافقها سبعة عشر مركباً تجارياً. فظن العامليون أنها حملة القبطان المزعومـة، فأعلنـوا عن فرحتهم بـدون تحرز، واتفق الشيخ مع جميع أبناء ملته للانقضاض على قوات الجزار الموضوعة في جبل عامل، عند أول نبأ عن نزول الأميرال في عكا. ولكن وصلت أنباء هذه المؤامرة الى مسامع الباشا. فعـزل الشيخ واقتيد مع أعوانه مكبلاً بالحديـد الى عكا، ووضعهم على هذه الحالة في أحد سجونها.

ولما كان الجزار لا يسامح هكذا مؤامرة، أمر بطرد جميع المتاولة وعاملهم بوحشية متناهية، أشار اليها المؤرخون المعاصرون.

«...ثم آل أمـر حـريمهم وبقيـة عيـالهم وأولادهـم الى ان داروا في البـلاد يشحذون...»(٦).

وامتد هذا التدبير بعد توقيف شيخ صور، على متاولة صيدا التي كان يسكنها عدد كبير منهم، لكنه لم يلبث ان أعادهم خشية استنكار الباب العـالي لهذا العنف نحو شعب لا حول له ولا قوة.

ورغم النكبات القاسية التي نزلت بأبناء جبل عامل، فقد أبى هؤلاء الاستكانة والاستسلام، وتمكن الشيخ فارس ناصيف النصّار واخـوته وباقي المشايخ الذين فروا الى بعلبك وعكار، من تشكيل فرق انتحارية أخـذت تتسلل الى جبل عامل، وصاروا يكمنون لعمال الجزار وجنوده، ويفتكون بهم ويغيرون على القوافـل التجاريـة المارة.

وعرفت هذه الفرق الانتحارية لدى العـامة باسم «طياح» أي قطاع الطرق، وكانوا يطلبون من البلاد مال الميري والذخائر والمؤن، فالقرية التي تـدفع المـطلوب فيهـا تسلم من اذيتهم وشرهم، والتي تتردد في ذلك أتوا إليها ليـلاً ونهبوها وقتلوا مشايخها، ثم يختفون بسرعـة قبل قدوم العساكر.

وفشلـت جميـع محاولات الجـزار للايقـاع بهؤلاء الطياح، وأقام مراكـز عسكريـة كثيرة كانت تدعى «السردلة» أرسلها للبحث عنهم في بلاد عاملة لكنها كانت تعود خائبـة. ثم عين عساكر من العامليين أنفسهم، ومع ذلك لم يجده ذلك نفعاً، لانهم حين كانوا يحضرون للبحث عن المشايخ العصاة، يكون هـؤلاء قد انتقلوا الى مناطق أخرى وعرة أو الى اطراف البلاد، في حين يكون جنود الجزار في أول البلاد. وأشار الى ذلك المؤرخ ابراهيم العورة بقوله .

وقد عانت بلاد عاملة كثيراً من هجمات أولئك الطياح، لأنها وقعت بين نارين نار متسلمي الجزار وجنوده ونار الثوار. فكان الباشا يرسل متسلميه وجنوده السردلة لملاحقة العصاة، فيعيثون في البلاد فساداً ويضيقـون على السكـان، ويغير

الثوار على القرى فيسلبون وينهبون ويحرقون مايصادفهم من أمتعة، ومن ثم يفرون في بطون الأودية او يعتصمون في قمم الجبال.

وكان الأهالي يدفعون الميري والذخائر للمتسلمين والعساكر السردلة، الذين كانوا يدّعون بأنهم يحافظون عليهم من التعديات، هذا الى جانب ماكانت تعانيه البلاد التي يمر بها هؤلاء من أعمال السخرة ومصادرة الغلال والمواشي والدواب. كما كانوا يدفعون الميري والذخائر للمشايخ المذكورين وأتباعهم، بحجة ان البلاد بلادهم وأهاليها عبيد لهم.

وبعد ان أخضع الجزار جبل عامل، وأقام ضباطه حكاماً على مقاطعاته، وحكم تلك البلاد حكماً مباشراً، ازدادت مكانته في الأستانة. فصدرت إليه أوامر سنة ١٧٨٤ بتجهيز حملة لتدمير دولة المماليك في مصر، على اعتبار أنه الوحيد القادر على تنفيذ هذه المهمة، نظر لثرائه الفاحش وكفاءة ووفرة قواته. وفي الوقت نفسه الذي تلقى فيه تلك الأوامر، وصلته رسائل من المماليك ينذرونه فيها، بتنفيذ تعهداته والتمرد معهم ضد السلطان العثماني. ولكن الجزار تمكن من التخلص من هذا المأزق، بايهام كلا الطرفين بحدوث تطورات في ولايته، تستدعي عدم مغادرته لها.

فسعى الى اثارة حرب أهلية في جبل الدروز، عن طريق التفرقة بين ذوي النفوذ فيها، أو التلويح للطموحين في الأسرة الشهابية بمنصب الأمير الحاكم، أو عن طريق اثارة الكراهية والعداء فيما بينهم بمختلف السبل والوسائل. ووجد في ذلك فرصة لتحقيق عدة أهداف كان يتطلع الى تنفيذ بعضها، منذ ان أوكلت اليه مسؤولية الولاية.

١ ـ خداع السلطان والحفاظ على صداقته مع مماليك مصر.

٢ ـ التغلب على مشكلة وعورة الجبل وصعوبة اختراقه.

٣ ـ تنفيذ حلمه القديم بالقضاء على نفوذ أمراء ومشايخ جبل الدروز، وجعل ضباطه متسلمين على مقاطعاته.

ونجح الجزار باثارة العداء بين ملتزم جبل الدروز الأمير يوسف الشهابي وخاله الأمير اسماعيل الشهابي متسلم مقاطعتي مرجعيون وحاصبيا التابعتين لإدارة ولاية دمشق، وأمد الأمير الأخير بقوات من عنده، أقامت معسكراً لها في جزين لكنها هزمت في جباع. وكان ذلك بمثابة الصدمة للباشا، الذي لم تهزم قواته في كل المعارك التي خاضها، ففرض حصاراً اقتصادياً على جبل الدروز، الذي لاينتج من الحبوب الغذائية مايكفي حاجة سكانه، لعله يتمكن عن طريق التجويع تحقيق ماعجز عنه عسكرياً أي بتأليب جميع رعايا الجبل على أميرهم حين يشعرون بالجوع، وبالتالي الضغط عليه لقبول شروط الباشا.

ولم يكتب لهذه السياسة النجاح مما دفع الباشا في الأول من حزيران (يونيو) ١٧٨٤ الى تسيير قواته ورجال الأمير اسماعيل نحو جبل الدروز، وماكادت تلك العساكر تتوغل وتقيم لها معسكراً، حتى جاءها امر بالانسحاب فوراً، وسيرها الباشا الى جبل عامل الذي ازداد فيه نشاط الثوار.

فقد استغل الطياح انغماس الجزار في القتال الدائر بين امراء آل شهاب في الشوف، وسحبه أعداداً كبيرة من قواته المتواجدة في بلاد عاملة لمساندة حليفية الأميرين الشهابيين اسماعيل وسيد أحمد. فزادوا من غاراتهم وهجماتهم على القوات القليلة المتبقية في بلادهم، وتشجع فتيانهم الذين فروا الى دمشق فحضر حوالي ستماية فارس منهم، وشكلوا مع الطياح قوة مهاجمة انضم اليها حوالي ألف من فلاحي جبل عامل. وشجعهم الأمير يوسف الشهابي وتحالف معهم، وسهل امدادهم بالسلاح والمؤن والمقاتلين.

وتقدم الشيخ عقيل ناصيف النصّار ومعاونه مرعي فدوني، بهذه القوة في الجبال المؤدية الى قلعة تبنين، وكان هدفه استخراج الثروة التي كان قد تركها والده مطمورة تحت شجرة في الحصن، وكانت قد فشلت جميع جهود الجزار للعثور عليها.

وفوجيء الشيخ الشاب بوجود قوة مسلحة من المغاربة، كان قد تركها الباشا في القلعة لحفظ الأمن في البلاد المجاورة، فأفنى تلك القوة ونقل الكنز الى مكان أمين. ولم يقتل من رجاله

سوى أربعة، ثم غادر القلعة بعد ان ترك فيها حامية من رجاله، وأحرق ونهب عدة قرى وتابع زحفه نحو عكا.

وأصيب الجزار بالهول حين ترامى اليه، النصر الذي أحرزته قوات الطياح في تبنين، وخشي من انتفاضة سكان جبل عامل والتفافهم حول الشيخ الشاب. مما قد يؤدي الى استقلالهم وتعرض قواته للفناء، نظراً للتحالف القائم بين العامليين وأمير جبل الدروز، وما يلي ذلك من قطع الامدادات عن عساكره التي تقاتل في الشوف. فقرر اخماد الفتنة في مهدها، والحيلولة دون ازدياد نفوذ متمردي جبل عامل بين ابناء ملتهم، وبالتالي تدهور مكانته بين رعاياه.

أنكر أحمد باشا تعرض قواته للهزيمة في تبنين، وأطلق في الأول من حزيران (يونيه) ١٧٨٤ مدافع قلعة صيدا، احتفاء بانتصار جنوده على عصاة جبل عامل. وأغلب الظن بأنه تصرف على هذا الشكل لتأكيد نفي الهزيمة، اذ لا يعقل أن تتحرك عساكره من معسكرها على بعد ساعة من صيدا، وتتوجه الى بلاد عاملة وتحارب الطياح وتنتصر عليهم في خلال ساعتين قبل حلول الظلام.

وعند الساعة الرابعة من مساء الأول من حزيران (يونيه) سنة ١٧٨٤، أصدر أمراً الى القوات التي كان قد سيرها في ذلك اليوم لاجتياح جبل الدروز، بالانسحاب وأرسلها من جديد الى جبل عامل. واضطر الأمير اسماعيل الشهابي العودة باتباعه الى صيدا، وقصف الباشا أربعة قرى عاملية ودمرها تدميراً كاملاً، كما تمكنت قواته من الانتصار على الطياح. وفي الثاني من حزيران (يونيه) عرض الباشا رؤوس القتلى المتمردين خارج أبواب المدينة، كما أمر بخوزقة أحد الزعماء العامليين. وقد تصرف بهذا الشكل لتحقيق هدفين مهمين في تثبيت سلطته.

١ ــ اثارة الرعب والخوف لدى سكان الولاية، فلا يجرؤ أحد على مخالفة أوامره لأن ذلك سوف يكون مصير كل متمرد.

٢ ــ ترهيب أنصار الأمير يوسف فيتخلون عن نصرته.

وبعد أن أعاد النظام في جبل عامل، ترك والي صيدا جانباً من القوات التي أرسلها الى هناك للحفاظ على الأمن فيها وسحب ما تبقى لاستخدامه في حملة جديدة على جبل الدروز المتمرد عليه، وعزل الأمير يوسف الشهابي وأقام عمه الأمير سيد أحمد وخاله الأمير اسماعيل كحاكمين على تلك البلاد، رغم معارضة جميع السكان واعتبارهم الأميرين المذكورين كمغتصبين للسلطة. وتوقع القنصل الفرنسي في صيدا ان تفشل الحملة اذا استمر مشايخ الجبل متحدين.

«...سوف يصدونه اذا استمروا متحدين...»(٧).

وشعر أحمد باشا الجزار بأنه لن يتمكن من تحقيق ما يصبو اليه، واذا عاند واستمر عدوانه فسوف يواجه مخاطر ومضايقات كثيرة وذلك للأسباب التالية.

١ ــ ضآلة حجم قواته البالغ عددها أربعة آلاف جندي.

٢ ــ ضخامة عدد مقاتلي الأمير يوسف البالغ عددهم عشرين ألف مقاتل.

٣ ــ اتحاد أخصامه واندفاعهم للدفاع عن مقاطعاتهم باخلاص وحُسن نية.

٤ ــ صعوبة التوغل في تلك البلاد المغطاة بالجبال العالية، والتي تخترقها الأودية الوعرة.

فتخلى عن مشروع اخضاع جبل الدروز بالقوة، وسعى الى استعمال الحيلة عن طريق استقطاب بعض الزعماء من ذوي النفوذ. ونجحت خطته هذه واضطر الأمير الحاكم يوسف الشهابي الى التخلي عن الالتزام لصالح خاله الأمير اسماعيل وعمه الأمير سيد أحمد على ان يحكما معاً، وتعهد الأميران المذكوران ان يدفعا بالتقسيط للجزار ألفاً وثلاثماية كيس. وبالطبع فان مبلغاً كهذا سوف يجبى من السكان عن طريق استحداث ضرائب جديدة، لكن أمراء ومشايخ الجبل رفضوا دفعها، وفشلت كل الجهود التي قام بها الحاكمان بالرغم من مساندة الجزار لهما.

فاستجاب الأخير لنصائح مستشاريه وأعاد في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٨٤ الأمير يوسف الشهابي، ملتزماً على جبل



الأميرال العثماني حسن باشا قيصرتي.

الدروز بالاضافة الى مقاطعتي حاصبيا ومرجعيون وفقاً للشروط التالية:

١ ــ يتعهد الأمير بأن يدفع للباشا مقابل التزام البلاد المذكورة مبلغاً مقداره ألف كيس سنوياً.

٢ ــ يتعهد الأمير بأن يدفع بدل الالتزام الذي كان في عهدة الأميرين اسماعيل وسيد أحمد والبالغ قيمته ألفاً وثلاثماية كيس.

٣ ــ ان تقسط الأموال على دفعات مؤلفة من خمسماية كيس كل ثلاثة أشهر.

٤ ــ ان يسترهن الباشا لديه الشيخ سعد الخوري الى حين تسديد كامل المبلغ المقرر.

وفي هذه الأثناء ساد اقتناع بالاستانة بقوة الجزار العسكرية والاقتصادية، وأنه أحد الولاة القلائل القادرين الاعتماد على أنفسهم لتمويل وقيادة قافلة الحج بفعالية. فصدر فرمان آخر يوم السبت في الأول من أيار (مايو) ١٧٨٦ بجعل اثنين من مماليكه سليمان باشا والياً على طرابلس وسليم باشا والياً على صيدا. وأشارت التقارير الدبلوماسية الفرنسية الصادرة عن عكا الى ذلك بقولها.

«...أصبح الجزار سيد سوريا الأوحد، تخضع لأمره البلاد الممتدة من اللاذقية شمالاً الى غزة جنوباً ومن البحر المتوسط غرباً الى بادية الشام شرقاً، يحكم هذه البلاد الشاسعة بواسطة ضباط...»(٨).

وكان قد بدأ يسود التذمر والشكوى، لدى مشايخ وأعيان القرى المجاورة لمدينة صور، والخاضعة لحكم ضباط الجزار. وصاروا ينتظرون الفرصة المناسبة للتخلص من حكامهم، والعودة الى حياتهم السابقة للأسباب التالية:

● معاناتهم من ظلم هؤلاء المتسلمين، والضيق الواقع عليهم لاضطرارهم الى دفع

□ **مصدر الوثيقة: دار الوثائق القومية في باريس.**
عنوانها: ظاهر العمر الزيداني يطلب من القنصل الفرنسي في عكا إبقاء طبيب القنصلية نظراً لإجادته في معالجة الأمراض المنتشرة في البلاد.

الميري والذخاير والمؤن مضاعفة للحكومة والطياح.

● لم يعد لهم أملاك شاسعة يعتاشون منها، ولا يجيدون مهناً للعمل بها، ولا تعودوا ممارسة التجارة، ولا يمكنهم التسول، بل يفضلون الموت على ذلك.

● يتحدّرون من طبقة اجتماعية اعتادت رفاهة العيش، وان تكون حاكمة لا محكومة.

وشعر هؤلاء المشايخ ان انتقال الجزار من عكا الى دمشق، ومن ثم توجهه بالدورة(*) الى منطقة نابلس، فرصتهم التي كانوا يتحينونها لاستعادة سيادتهم على قلاعهم ومقاطعاتهم السابقة. نظراً لتوزع قوات الجزار في ولايات صيدا وطرابلس ودمشق، واضطراره لاصطحاب اعداد وافرة منهم في الدورة. وأشار الى ذلك القنصل الفرنسي في عكا (Regnault) بقوله.

«...الاستفادة من ابتعاد الوزير لاستعادة حريتهم...»(٩).

وعقدوا اجتماعات متعددة لهذا الغرض، تم فيها الاتفاق على الانقضاض على عمال وجنود الوالي في جبالهم، وقرروا ان يستهلوا مخططهم بالهجوم على صور وذبح عساكر ومتسلم الجزار فيها.

ولكن علم سليم باشا بالمؤامرة قبل تنفيذها، فأصدر أمراً الى متسلم مدينة صور باعتقال المشايخ والأعيان المتآمرين وارسالهم الى عكا، وفي اليوم الرابع عشر من أيار (مايو) ١٧٨٥ نفذ الباشا بهم عقوبة الاعدام، فخوزق أربعة وثلاثين منهم على أبواب المدينة، على مرأى من القنصل الفرنسي في عكا (Regnault)، الذي كتب الى حكومته قائلاً:

«...لا يزالون حتى الآن ويشاع بأنهم سوف يستبدلون بعدد من أبناء وطنهم، الموقوفين كذلك والمتهمين بالتحالف مع المتمردين...»(١٠).

وعلم سيد سوريا بما حدث في صور وجوارها، وكان يستعد للخروج بقافلة الحج من دمشق الى مكة، وكانت جماعة من العامليين، من آل علي الصغير قد فرّت الى مشغرة، وأقامت فيها باذن وحماية الأمير يوسف الشهابي. فخشي ان يستغل هؤلاء فرصة غيابه، وتوزع قواته بين ولايات طرابلس وصيدا ودمشق، ومرافقة عدد من تلك العساكر لقافلة الحج الشامي، فيتوجه هؤلاء المشايخ الى جبل عامل بمساعدة الأمير الشهابي الحاكم، للانتقام لما أصابهم على يد الباشا وقواته. فقرر ان يزيل مخاوفه بالقضاء عليهم عن طريق الأمير يوسف، والفرصة متاحة أمامه الآن نظراً لوجود الشيخ سعد الخوري مربي ومستشار الامير يوسف — مرتهناً لديه، وبذلك سوف يجبر الأخير على

تنفيذ ما يطلب منه، ولن يجرؤ مطلقاً على معارضته خشية تعرض الشيخ سعد لأي أذى، كما يتمكن من تحقيق هدفين مهمين في وقت واحد:

● ضرب التحالف العاملي الشهابي وزرع بذور الفتنة والانشقاق بينهما والحيلولة دون اتحادهما ثانية.

● القضاء على آل الصغير اللاجئين في مشغرة دون أن يتكلف شيئاً.

وقبل خروج الجزار بقافلة الحج أصدر أمراً الى الشيخ سعد الخوري، أن يكتب الى سيده أمير جبل الدروز بالقاء القبض على مضيفيه العامليين، وارسالهم الى والي صيدا سليم باشا. واستجاب الأمير يوسف للأمر وسلم العامليين الى عدوهم، وقد أثار تصرفه هذا استنكار المعاصرين، لأنه يتنافى وتقاليد المنطقة التي تحث على حماية اللاجيء والدفاع عنه، وأشار الى ذلك المؤرخ حيدر الشهابي[١١] بقوله:

«...لم يحفظ الجوار ويرعى الذمام... ولام الناس الأمير يوسف على ذلك...».

وبوفاة أحمد باشا الجزار سنة ١٨٠٤ سعى مشايخ جبل عامل للاستفادة من الاضطراب السياسي الذي ساد بلاد الشام، فطردوا المتسلمين من مقاطعاتهم واستعادوها كما كان الحال سابقاً. لكن تمكن خلفه سليمان(*) باشا من توطيد سلطته كوالٍ لصيدا، فأعاد المقاطعات العاملية الى حكمه المباشر وعين عليها متسلمين من قبله، وفشلت كل السبل التي لجأ اليها العامليون للعودة الى حكم بلادهم حتى سنة ١٨٢٢. ففي تلك السنة نتيجة لتمرد عبد الله (*) باشا على سلطات الاستانة، سعى الى مواجهة الخطر الذي يهدد حكمه، عن طريق تكتيل العصبيات المحلية في المنطقة الى جانبه. ونظراً لمعرفته الأكيدة بالقدرات القتالية التي يتمتع بها المشايخ العامليون، سعى الى التقرب منهم عن طريق التلويح لهم، بتحقيق حكم طالما كافحوا من أجله بكل السبل، فأرسل الى الشيخ فارس ناصيف النصّار يبلغه برغبته، رفع المتسلمين المعينين من قبله في اقليمي الشومر والشقيف، واعادتها لتكون بتصرف المشايخ كما كانت سابقاً في يد آبائهم مقابل.

● أن يقوم المشايخ العامليون بايراد الأموال الأميرية، التي يرسلها عادة متسلموه من جبل عامل،

● أن يجند المشايخ عند الحاجة الفي خيال وعدداً من المشاة، يحضرون لخدمة الوزير والقتال الى جانبه عند الطلب.

● يتعهد الوزير للمشايخ بأن يتخلى لهم عن مبلغ خمسمئة كيس ومئتي غرارة شعير.

ووافق العامليون على هذه الشروط فاستعادوا حكم بلادهم، واحترموا تعهداتهم للوزير فحاربوا الى جانبه، ولعبوا دوراً هاماً في الانتصار الذي أحرزه في معركة المزة على خصمه درويش باشا والي دمشق.

●

الهوامش

(١) تباينت الأرقام لدى مؤرخي هذه الفترة. راجع: فرنسوا فولني. سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. تر. حبيب السيوفي. أنظر ج ١ ص ٦٣؛ عبود الصباغ. الروض الزاهر في تاريخ ظاهر. مخ. مسجل في مكتبة يافت في الجامعة الأميركية في بيروت، تحت رقم (M.S/956/Z/7mA) انظر ص ١١.
MARITY, Giovani Abbé. Voyage dans L'isle de Chypre, la Syrie et la Palestine avec L'histoire générale du levant, tradui de l'italien. voir V.2 p. 26.
اعتمدنا على تقرير نائب القنصل الفرنسي في صيدا مجموعة (AEB 1) سجل رقم ١٠٣٥ تاريخ ١٧٧٢/٦/٢٨.

(٢) PARADIS (Jean Michel Venture de) Mémoires sur les Druses peuples du Liban. MS. publié dans (Les Annales de voyage), T. IV p. 334.

(٣) مترجم من الباحث عن تقرير القنصل الفرنسي في صيدا مجموعة (AEB 1) سجل رقم ١٠٣٠ تاريخ ١٧٥٥/١١/٤.

(٤) مترجم من الباحث عن تقرير القنصل الفرنسي في صيدا مجموعة (J) ملف ٧٩٥ تاريخ ١٧٥٤/١٢/٤.

(٥) مترجم من الباحث عن تقرير القنصل الفرنسي في صيدا مجموعة (AEB1) سجل رقم ١٠٤٠ تاريخ ١٧٨٤/٦/٢.

(٦) حيدر رضا الركيني. جبل عامل في قرن. مخ. نشرته مجلة العرفان. أنظر م ٢٨ ص ٩٥٢ سنة ١٩٣٩.

(٧) مترجم من الباحث عن تقرير نائب القنصل الفرنسي في صيدا مجموعة (AEB1) سجل رقم ١٠٤٠ تاريخ ١٧٨٤/٦/٢.

(٨) مترجم من الباحث عن تقرير القنصل الفرنسي في عكا مجموعة (AEB1) سجل ٩٧٩ حالة القنصلية العامة في سوريا وفلسطين خلال عام ١٧٨٦.
(٩) المصدر نفسه.
(١٠) مترجم من الباحث عن تقرير القنصل الفرنسي في عكا مجموعة (AEB1) سجل ٩٧٩ تاريخ ١٧٨٥/٥/٦.
(١١) لبنان في عهد الأمراء الشهابيين. ج ١ ص ١٤١.

المصادر والمراجع

اولا — وثائق غير منشورة

● دار الوثائق القومية في باريس مجموعة (AEBI) الصادرة عن قنصلية فرنسا العامة في عكا، ونيابة قنصلية صيدا.
● أرشيف غرفة التجارة والصناعة في مرسيليا مجموعة (J).

ثانيا — وثائق منشورة

● Ismail, Adel., Documents Diplomatiques et Consulaires Relatif`a E'histoire du Liban et du pays du Proche-orient. Beyrouth: ed. des Ocuvres politipue et historipue, 1975-1983, 28 vols.

ثالثا — مخطوطات

● عبود الصباغ: الروض الزاهر في تاريخ ظاهر. مخ مسجل في مكتبة يافت بالجامعة الأميركية في بيروت تحت رقم (MS /956/Z17 MA).

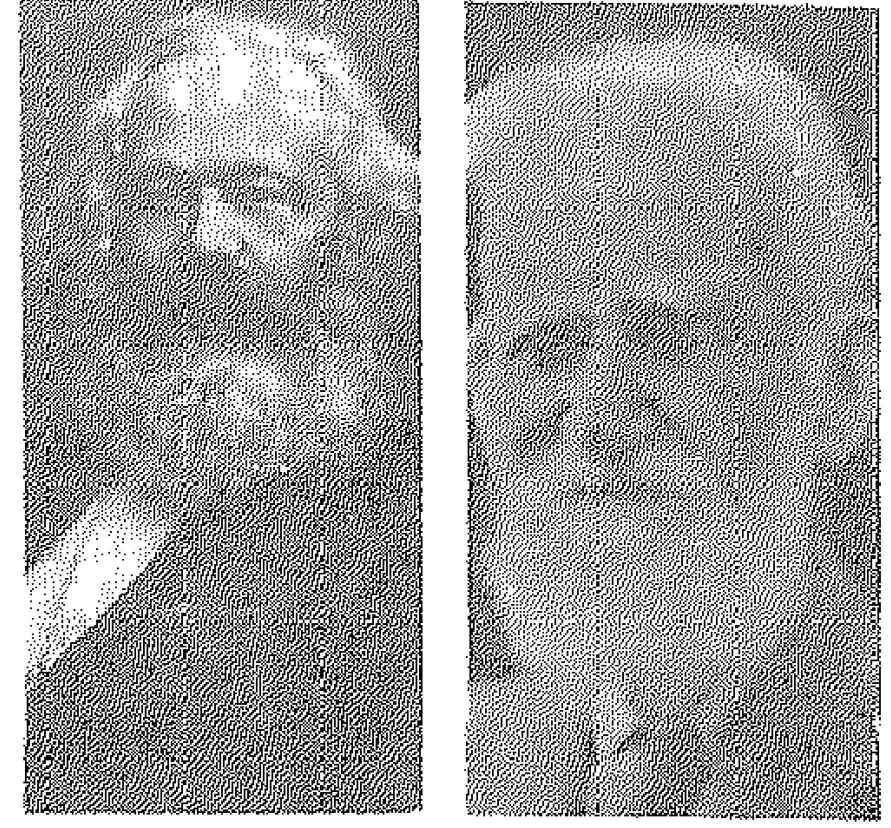
رابعاً — مصادر أصلية

● إبراهيم العورة: تاريخ ولاية سليمان باشا العادل. مخ. نشره الأب قسنطين الباشا، صيدا، ١٩٣٦.
● حيدر الشهابي: لبنان في عهد الأمراء الشهابيين. مخ. نشره د. أسد رستم ود. فؤاد افرام البستاني. بيروت، ١٩٣٣، ٣ ج.
● حيدر الركيني: جبل عامل في قرن. مخ. نشرته **مجلة الوفاق** ابتداء من المجلدات رقم ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ من عام ١٩٣٧ — ١٩٤٠.
● رنسوا فوني: سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. تر. حبيب السيوفي، صيدا، (١٩٤٨ — ١٩٤٩)، جزءان.
● مخايل بريك: تاريخ الشام (١٧٢٠ — ١٧٨٢). مخ. نشرة الأب قسنطين الباشا عن النسخة الوحيدة الموجودة في مكتبة برلين من مخطوطاتها العربية رقم (٩٧٨٦)، حريصا، ١٩٣٠.
● مخايل الدمشقي: تاريخ حوادث الشام ولبنان. مخ. نشره الأب لويس المعلوف عن نسخة المتحف البريطاني. بيروت، ١٩١٢.
● مخايل الصباغ: تاريخ الشيخ ظاهر العمر حاكم عكا وبلاد صفد. مخ. نشره الأب قسنطين الباشا. حريصا (لات) يتضمن مقدمة للناشر حول نظم الحكم والإدارة في الولايات السورية.
● Moruti Giovani Abbé. Voyage dans l'isle de chypre la Syrie et la Palestine avec l'histoire generale du Levant trad. de l'talien. Paris, 1791. 2 vols.
● PARADIS, (J.M.de) Mémoires sur les druses Peuples du Liban. M.S. Comuniqué par m. Lascaris Publié dans (Les Annalles des Voyages), t. 4, pp. (324-71) Paris. 1809. see. ed.

خامسا — ابحاث ودراسات أكاديمية

● ادوارد لكروي: احمد باشا الجزار وأعماله في سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. تر. حبيب السيوفي، ساوباولو، البرازيل، سنة ١٩٢٤.
● عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثماني إلى حملة نابوليون بونابرت. دمشق، سنة ١٩٥٦.
● عصام علي خليفة: جبل عامل والأمراء الشهابيين. رسالة دبلوم لنيل شهادة الكفاءة من كلية التربية في الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٩.
● علي الزين: مع التاريخ العاملي. صيدا، (لان).
● محمد التقي الفقيه: جبل عامل في التاريخ. بغداد، (١٩٤٥ — ١٩٤٦)، جزءان.
● محمد جابر ال صفا: تاريخ جبل عامل. بيروت، (لان).
● هنري غيز: بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن. تر. مارون عبود، الطبعة الثانية، سنة ١٩٥٠.
● Charles- Rouse, Froncois. Les Echelles de Syrie et de Palestine au XVIII Siécle. Paris, 1927.
● CHEVALLIER, Dominique. La Société du Mont-Liban à l'époque de la revolution industrielle en Europe, Paris 1971.
● Cohen, Amnon. Palestine in the 18 th Century. Jerusalem, 1973.

(*) امتدت ولاية صيدا في تلك الفترة الزمنية من جسر نهر الكلب حتى جبل الكرمل.
(*) أحمد باشا الجزار من مواليد البوسنة، اشتراه علي بك الكبير وجعله جلادا فلقب بالجزار.
(*) الذيل أو الطوخ عند الاتراك العثمانيين مزراق في رأسه كرة مذهبة يعلوها هلال، وتعلق تحت رأس الكرة خصل من ذيل حصان مصبوغة باللون الأحمر. وكان لكبار رجال السلطنة العثمانية أطواخ بحسب مراتبهم، فللسلطان سبعة أطواخ وللوزير ثلاثة أطواخ وللوالي العادي طوخان.
(*) اعتاد العثمانيون في معاملاتهم المالية استخدام **الكيس**، وهو يتسع لمبلغ مقداره ٥٠٠ قرش.
(*) حصن دير حنا يقع في فلسطين وكان بمثابة آخر مقر لعصيان الشيخ علي ظاهر العمر.
(*) سليمان باشا العادل والي صيدا (١٨٠٤ — ١٨١٩).



برنارد شو وماركس

يروي الكاتب الانجليزي برنارد شو أنه حضر مرة جلسة لاحدى الجمعيات الماركسية. وورد ذكر كتاب ماركس «رأس المال» وكانت قد ظهرت منه طبعة بالفرنسية. فلما سئل إن كان قد قرأها فلما قال بأنه لم يفعل ظهر على وجوههم الانكار لجهله والاحتقار لآرائه. فما كان منه إلا أن بادر الى الكتاب وأتى على ما فيه.

وحضر الجلسة التالية. ولم يكد يبلغ الحاضرين أنه قرأ الكتاب ووقف على ما فيه من آراء حتى بالغوا في احترامه. واكتشف بعد ذلك أن أحداً منهم لم يكن قرأ الكتاب.

مدام دي ستايل وتاليران

عرفت الكاتبة الفرنسية مدام دي ستايل بتعليقاتها الجارحة. وكانت تمقت تاليران وزير الخارجية في عهد نابليون. على أن لسان هذا لم يكن أقل مضاء من لسانها. وحدث ذات يوم أن قالت له:

ــ صدر كتاب جديد لكل منا انا وأنت فيه صورة مقنعة. ويبدو أن صاحب الكتاب لا يقدر رجولتك حق قدرها. إذ يبدو كل منا في شكل امرأة جذابة. فقال تاليران:

ــ لا أشك أنه أخطأ في الحالين.

شارل الثاني والاغتيال

جمع الملك شارل الثاني ملك انجلترا في شخصه عددا من المتناقضات. كان في منتهى الذكاء ولكنه كان يميل إلى العافية والحياة المرحة السهلة. وكثيرا ما كان يدع الأمور تأخذ مجراها غير عابىء بما يمكن أن يترتب عليها من نتائج ضارة. وبالرغم من أنه في حياته الخاصة كان يسرف في الملذات فإنه كان محبوبا من قبل الشعب. وبالرغم من تعدد علاقاته الغرامية وثمارها المحرمة فإنه لم ينجب سوى أبناء غير شرعيين. وكان وريثه الوحيد هو أخوه جيمس ديوك أوف يورك. ومن المعروف عن هذا الوريث أنه كان على عكس أخيه. اتصف سلوكه بالجد وعمل ليل نهار. لكنه كان ضيق الأفق شديد التعصب. ولم يظفر بحب الناس له.

ولاحظ جيمس أن أخاه الملك يخرج بلا حراسة ويزور أمكنة غير مأمونة. فعاتبه مرة بعد مرة على إهماله وحذره من إمكان اغتياله. وفوجىء أخيرا عندما قال له أخوه:

ــ دعك من هذا الكلام الفارغ. أنا مطمئن كل الاطمئنان على حياتي. فليس هناك أحد يحلم باغتيالي لينصبك ملكا خلفا لي.



بعد عشرين سنة من حكم موسوليني

زار سائح ايطاليا في عهد موسوليني. واستقل سيارة أجرة لتنقله من المطار إلى روما. ولفت نظره أن الناس يقفون صفوفا أمام أحد الأفران. فالتفت الى السائق وقال:

ــ لماذا يقف الناس صفوفا أمام هذا الفرن؟

وخشي السائق أن يقول له الحقيقة فرد عليه بقوله:

ــ إنهم يقومون بتصوير أحد الأفلام وهذا مشهد من مشاهد الفيلم.

وبعد دقائق رأى السائح صفوفا أيضا أمام دكان أحد الجزارين. وقبل أن يسأل السائق قال له هذا:

ــ وأمامك مشهد آخر من مشاهد الفيلم.

وبعد قليل رأى السائح الناس صفوفا أمام إحدى الصيدليات. فلما سأل السائق عنهم قال له:

ــ هذا هو المشهد الثالث من الفيلم.

فسأله السائح:

ــ وما اسم هذا الفيلم؟

ــ بعد عشرين سنة (من حكم موسوليني).

عبد الحي البعلي (١)

د. أسامة عانوتي

ليست الشاعرية وحدها هي التي تستوقفنا في حياة هذا الشاعر، المولود في بعلبك (ومنها جاءت نسبته: البعلي). فحياته تنطوي على عبث، في أوليته، ثم توبة وتصوف، بعد ذلك، على نحو تتبدى فيه ظاهرة التصعيد[٢] أو الإعلاء (Sublimation) التي قال بها «فروید» (Freud).

قال عنه المحبي: «... كان في عصرنا هذا الأخير، من أرق مَنْ عرفناه طبعاً، وألطفهم شعراً، وله قريحة سيالة، وفكرة نقادة. وكان عشّاقا، ولوعا بالجمال. يتفانى صبابة وعشقا. وتأخذه حَيْرَةُ الغرام فيسكر وجدا وشغفا. وكان سهل الألفاظ في شعره، رشيق التأدية... وكان يعرف اللغة معرفة جيدة، وحفظ من الأشعار شيئا كثيرا، وتجرد مدة عن هيئته، ودخل في هيئة الدروايش السواح (السيّاح) فطاف البلاد... واستقر بدمشق آخرا وتزوج بها، ثم انعزل في خلوة بالمدرسة العزيزية. وقد عاشرته مدة فرأيته من أكمل الناس... وكان مع خلاعته، وتولعه بالحب عَفَّ الإزار، مثابرا على الطاعة، وله تهجدات (الصلوات في الليل)، وأوْراد وخشية من الله تعالى، وحج آخر عمره، فرجع متنسكا للدنيا، متقشفا...»[٣].

ولم يرد سبب توبته الا على نحو شبه رمزي، أو شبه صوفي: «ومن نوادر أسماره ومحاسن أخباره، أنه كان في غضون الصِّبا يهوى حبيبا كأنما تكوّن من رقة الصَّبَا. وكان يذوق في تقلباته ما يحار فيه الوهم، ويعجز عن حمل بعضه الطود الأشم، على أن ما قاساه من البلايا والمحن لم يكن بمستحقها... فحدثته نفسه بأن يتخلص من هذا الشرَك، وينقل الروح من أسر ذلك المارد إلى هذا المَلَك. فعرض له طائف من الخيال، وهبت عليه نفحة من برزخ[٤] المثال. فرأى شكل حبيبه الذي شب به ضرام الجوى ينظر إليه شزرا، وهو مارٌّ في الهوى، وهو يومي إليه كالمعاتب، ويلومه بلسان الحال كما يلام القادر الكاذب. فحصل له من الحياء والحجاب ما أوقعه في أعظم مصاب... فبينما هو لا يدير لحظا، ولا يحير لفظاً، إذا برجل أعظم ما يكون، مد يده إلى فؤاده، واختطفه بسرعة عزمه، وقوة سداده وألقاه إلى ذلك المثال؛ فأخذه وولّى من حيث شاء في عالم الخيال؛ فاستيقظ، وقد أُضِلَّ قلبُه، وضيع صبره ولبه، وعقد التوبة عما جنى في شرع الهوى من الذنوب، وفي كل عين منه أجفان يعقوب...»[٥].

توفي البعلي سنة ١٠٩٩هـ/١٦٨٨م عن خمس وستين سنة، ودفن في دمشق.

قلنا في مطلع هذا المقال إن البعلي كان شاعرا مجيدا، ومن اغراض الشعر القديم التي حام حولها: الدُّوَيْبيت.. ـ أو ما يشبهه ـ. ويقارب هذا «الرباعيات»:

الأهَــمُّ الأهــمُّ إن كـان لا بـد
فـإن الزمـان فـينـا قـصـيـرُ
لا تضعْ فرصةَ الحياة فما للـ
ـعمر حيث انتهى مداه معيرُ[٦]

ففي هذين البيتين صدى من صوت «عمر الخيام»[7].

ومن عَجَب ألّا ينقل صاحب «الخلاصة» شيئا من شعره الذي قال بعد توبته.

وفي ظني أنه لا بد قال. فنقلته من حمأة الرَّفث (ما يطلق عليه اليوم: الجنس) إلى درجة من الجذب الصوفي؛ إنما هي تصعيد الغرائز (Sublimation). فهو يشبه، من هذه الناحية، محيي الدين بن عربي (الصوفي الكبير) الذي بدأ حياته غير متحرج، ثم ما لبث أن سَمَا سموه الروحي المشهور. فقد انطلق من نطاق العضوية التي تجلت في تدلهه ببنت النيسابوري واستعلى استعلاءه الروحي العظيم. ومهما يكن فلنورد شيئا من شعره[8]:

ليس جبننا أن أموِّهَ في الحب
وأُخفِي وأستشين البيانا
غير أني أُجِلُّ مالكَ رقي
أن مثلي يشدو به إعلانا
فإذا ما فخرت أفخرُ بالصبر
وأُلْفَى لسرّه صوّانا
وإذا ما شكوتُ فَلتلكَ
شكواي إليه عساه أن يتدانا
فشجاعُ الهوى الصَّبورُ على جـ
ـرح مباريه صارما وسنانا
لا الذي إنْ تَشُلَّهُ[9] بادرةُ
الطرف تراه يقرّع الأسنانا
ومراح الغزال فيه مصان
عن سواه وحقه أن يصانا

ومن قصائده[10] المتسمة بجمال الإيقاع:

ما الذي أوجب صَدَّكْ
ولِمَ أخلفتَ وعدكْ؟
أَلِشُغْلٍ دنيوي
أم عذابي كان قصدَكْ
أم دلال أم تجنٍّ
أم قرين السوء صدك
وعلى أية حال
أسْعَدَ الغفرانُ جَدَّكْ[11]
بالذي ولّاك رقي[12]
سيدي لا تنس عبدك
أنا في قرب وبعد
حافظ، بالله، عهدك
أنا مَنْ شاد كما شاء
التقى والصون ودك
كم خلونا والمروءات
وشت بردي وبردك
وعفاف الذيل قد طوّق
جيد الصب زندك
هكذا نحن فظنَّ الخيرَ
يا سائل جهدك
أنا من يتبع غيَّ[13] الحب
فاتبع أنت رشدك

الهوامش

(١) تجد ترجمة باستفاضة في «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للمحبي: ج ٢، ص ٣٢٨ ــ ٣٤٠.

(٢) «... مصطلح ابتدعته مدرسة التحليل فيما يتعلق بالدافع الجنسي من حيث أنه مزود بالقدرة على التسامي والاستبدال بالهدف الأدنى أهدافا أرفع. وأيضا: إشباع الحرمان عن طريق العمل الإبداعي. ويتضمن الإعلاء تحلل التاقة «الليبدو» من الصورة الجنسية لتنتظم في مستوى أرقى»، «المرجع» للعلايلي: ١/٢٠٥، وانظر أيضا: تسام (٥٥٣/١) وتصعيد (٥٦٩/١).

(٣) «خلاصة الأثر» ج ٢، ص ٣٢٨.

(٤) «دينيا: ما بين الدنيا والآخرة من الموت إلى البعث... صوفيا: عالم المثال، أي الوسط بين الأجسام والأرواح المجردة...» («المرجع» للعلايلي: ٣٨٣/١).

(٥) «خلاصة الأثر»: ج ٢، ص ٣٣٧.

(٦) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٣٣٩.

(٧) ليس في اللغة الفارسية (الاعلام الفارسية) «ال» التعريف. فهم يقولون «عمر خيام» لا «الخيام».

(٨) المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٣٢.

(٩) المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٣٢ ــ ٣٣٣.

(١٠) من: شاك يشوك، أي أصابته: شوكة.

(١١) الجد: (بفتح الجيم) من معانيها: الحظ.

(١٢) الرق: الأسر والعبودية.

(١٣) الغي: الضلال.

إيفا بيرون

العاشر من آب ١٩٥٢، الساعة ١٧,٣٠، دوت إحدى وعشرون طلقة مدفع في شوارع بوينس آيرس، التي خيم عليها صمت عميق لا تقطعه إلا العبرات والنحيب، تشييع جثمان إيفا بيرون المحمول على عربة مدفع، إلى وزارة العمل.

كان خمسة وأربعون عاملاً يحيطون بالنعش، وطلاب المدرسة الحربية وكلية الطيران، وكلية البحرية، فيما اصطف على جوانب الشوارع سبعة عشر ألف جندي.

توقفت الجنازة أمام وزارة العمل، وحمل النعش إلى إحدى قاعاتها، التي تحولت إلى مختبر لتحنيط جثمان إيفا بيرون.

أقسم أمين عام اتحاد نقابات العمال، جوزيه ايسبيجو أن يكون «حارسها إلى الأبد»، حارس إيفا بيرون التي دخلت الأسطورة، وغدت مثل العمال والفلاحين الأرجنتينيين المقدس.

رئيس الأمة الروحي

[illegible]

فتاة من أصل متواضع

[illegible]



□ إيفا تحيي الجماهير ووراءها بيرون واعوانه.

أن تغدو معلمة. أما أختها الثانية فوظفت في البريد. أما إيفا فتوهجت أحلامها وغدا مثلها الأعلى جين هارلو. لذلك صبغت شعرها مثل شعرها، وخبأت بعض مصروفها لتشتري حذاء ذا كعب عال. وقد اختيرت مرة في مدرستها لتمثل دورا بسيطا في مسرحية، فكانت تلك بداية تحقيق الأحلام في نظرها..

عام ١٩٣٥، الذي مات فيه مغني التانغو الشهير كارلوس غاردل، رحلت إيفا إلى بوينس ايرس، وكان عمرها خمسة عشر عاما، وعاشت مع مغن مغمور. وقد عرفت كيف تستغل مفاتنها، لتسيطر على عقول من يتعرفون إليها.

حصلت إيفا على عقد للعمل في فرقة مسرحية تديرها إيفا فرانكو. وقد قامت بأدوار متواضعة: كدور وصيفة، في مسرحية من الدرجة الثانية. ولكنها ركزت همها على اتقان كل دور يسند إليها، وعلى تعلم التمثيل، بصبر وأناة. وقامت الفرقة برحلة فنية زارت فيها عدة مدن، منها: روزاريو، مندوزا، قرطبة.

ونجحت في الحصول على أدوار في السينما والراديو، وإن تكن ثانوية. ولعل مما ساعدها على ذلك صوتها الأجش، وكان الصوت الأجش صرعة تلك المرحلة.

لقاء خوان بيرون

في الوقت الذي كان فيه العالم ينشطر إلى معسكرين، كانت إيفا توالي انتصاراتها الاذاعية. فقد مثلت، اذاعيا، أدوار اليزابت ملكة انكلترا، والقيصرة الكسندرا فيودوروفنا. وساهمت في بناء «شركة الراديو الأرجنتيني»، وهي مؤسسة نقابية أنشئت للدفاع عن حقوق العمال والتعبير عن قضاياهم. وقد برهنت خلال فترة قصيرة عن مواهب وقدرات في العمل الملتزم للصراع من أجل قضايا العمال. في هذه الفترة التقت خوان بيرون.

ففي ١٥ كانون الثاني ١٩٤٤ حدث زلزال ذهب بعشرة آلاف قتيل، وجرح اثنا عشر ألف مواطن في سان خوان.

قررت شركة الاذاعة الأرجنتينية، أن تقيم احتفالا لمساعدة المنكوبين، وذلك في ٢٢ كانون الثاني. وكانت إيفا في الاحتفال. وكان هناك كذلك رئيس الجمهورية يصحبه وزير الدولة لشؤون العمال الكولونيل خوان بيرون. وفي ختام السهرة ذهبت إيفا بصحبة الكولونيل بيرون.

كان عمر بيرون تسعة وأربعين عاما. وكان في أوج صعوده السياسي. وكان، منذ انقلاب الرابع من حزيران ١٩٤٤ الموجه الخفي للنظام الجديد. فهو الذي وقف وراء الانقلاب الذي نفذته «جماعة الضباط المتحدين»، وهم جماعة من الضباط برتبة نقيب فما دون، تضمر حقدا كبيرا على طبقة من الجشعين يستغلون الحكم لمصالحهم الخاصة.

تبعية الأرجنتين

كانت الأرجنتين، مثل العديد من البلدان الحديثة، تبحث منذ القرن التاسع عشر عن هويتها الوطنية.

تبلغ مساحة الأرجنتين ٢٨٠٠٠٠٠ كم^2. وقد حصلت على استقلالها من اسبانيا في القرن التاسع عشر. أما إنتاجها فكان يعتمد على الحبوب والفواكه، والانتاج الحيواني، خاصة اللحم والصوف والجلود. وكان اقتصادها يرتكز على تصدير هذه المنتجات، لذلك اضطرت إلى الاستيراد، وقد استغلتها الأموال الأجنبية على نطاق واسع. ويمكن القول إنها بين ١٨٦٠ و١٩٣٠ كانت مستعمرة اقتصادية لرؤوس الأموال البريطانية بدرجة أولى، ثم الفرنسية والألمانية والأميركية الشمالية. وذلك بالتحالف مع طبقة من كبار الملاكين الأرجنتينيين، الذين أفادوا من نظام يستند إلى تصدير المواد الأولية. أما البنوك، والبناء، فكانت في أيدي الأجانب.

وقد أسهمت في تشغيل هذا النظام وتحريكه الأيدي العاملة الأجنبية، إذ كانت الهجرة كثيفة جدا، ففي القرن التاسع عشر، تدفق المهاجرون من أوروبا، بالملايين، وقد بلغ عددهم أربعة ملايين خلال سبعين عاما، بينما سكان الأرجنتين آنذاك مليون فحسب. وكانت نسبة الايطاليين مرتفعة جدا تليهم نسبة الاسبان، فالفرنسيين فالألمان فالسلاف.

وكان المهاجرون يقطنون في جماعات، يجمعها الأصل. غير أن أبناءهم قرروا الاستيطان، واعتبار أنفسهم أرجنتينيين.

غير أن العائلات الأرجنتينية الأصل، كانت مسيطرة، وكانت تفتخر بعراقتها، وانتسابها القديم إلى اسبانيا. وقد فاز معظم مرشحيها لانتخابات ١٩١٢. غير أنها تخلت عن السلطة لتسيسين، نعتوا بالراديكالية. والواقع أن هؤلاء كانوا يمثلون اليمين، وإن كانوا واجهة ديموقراطية، للطبقة المستغلة.

اضطربت الموازين بعد أزمة ١٩٢٩ الاقتصادية العالمية. وأصيبت البلاد بنكسة اقتصادية خطيرة، فقد انهارت الصادرات، ولم تعد البلاد الأخرى تستورد منتجاتها. كما أنها لم تعد تستطيع شراء ما تحتاجه من معدات أو منتجات من الخارج، لفقدان المال.

غير أن هذه الأزمة حفزت الأرجنتين على تصنيع نفسها، وإن صناعة خفيفة. وقد درت هذه الصناعة أرباحا طائلة على الذين وظفوا فيها اموالهم. وجاءت الحرب الثانية لتضاعف ثروة الأرجنتين لأن الدول المتحاربة أقبلت على شراء منتجاتها.

على أن هذا التطور السريع خلق أزمة جديدة، وهي نزوح سكان الريف صوب المدن وخاصة بوينوس آيرس التي بلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين، مما أضعف انتاج الحبوب واللحوم والفواكه.

وكان العمال في المدن، وخاصة العاصمة يعانون من ظروف عمل سيئة جدا، ولم تكن لهم نقابات، ولا يشملهم أي نظام إلا نظام استغلالهم. ولم ترعو الطبقة الجشعة، بل تمادت في الاستغلال وتسلمت السلطة عام ١٩٣٦، لتحكم قبضتها على العمل والعمال والانتاج.

اندلعت الحرب العالمية الثانية، فأعلنت الارجنتين الحياد. ولكن العديد من رجالاتها كانوا يميلون إلى المحور. بيد أن الحكم كان مضطرا إلى مسايرة الولايات المتحدة والتعامل معها لخشيتهم من سطوتها وسيطرتها على الأرجنتين.

في الرابع من حزيران ١٩٤٣ قام انقلاب الضباط الذين كان يتزعمهم الكولونيل خوان

بيرون. وقد دفع إلى منصب نائب الرئيس، ثم الرئيس صديقه الجنرال فارّل. بينما احتل منصب وزير دولة لشؤون العمل.

كان الاختيار غريبا، إذ لم تكن لبيرون أية علاقة بقضايا العمل. ولا كان ميالا إليها. فقد دخل الحربية عام ١٩١٣، وتخرج برتبة ملازم عام ١٩١٥، وأصبح نقيبا عام ١٩٢٤، ثم رائدا عام ١٩٣١، ثم مقدما عام ١٩٣٦. وعين مدرسا في المعهد الحربي، ثم ملحقا عسكريا في تشيلي، ثم كلف بمهام في ايطاليا والمانيا، ورشح لرتبة عقيد عام ١٩٤١.

لم يلجم بيرون العمل النقابي، على عكس ما تصور من يعرفونه، وعلى عكس ما جرت عليه الحكومات السابقة. بل أعد مشاريع قوانين لتحسين شروط العمل، والوضع الاجتماعي والمادي، مما أكسبه صداقة العمال.

في هذا الوقت، وبالتحديد: ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٤، تعرفت إيفا إلى بيرون، وهو في أوج صعوده السياسي.

صعود بيرون

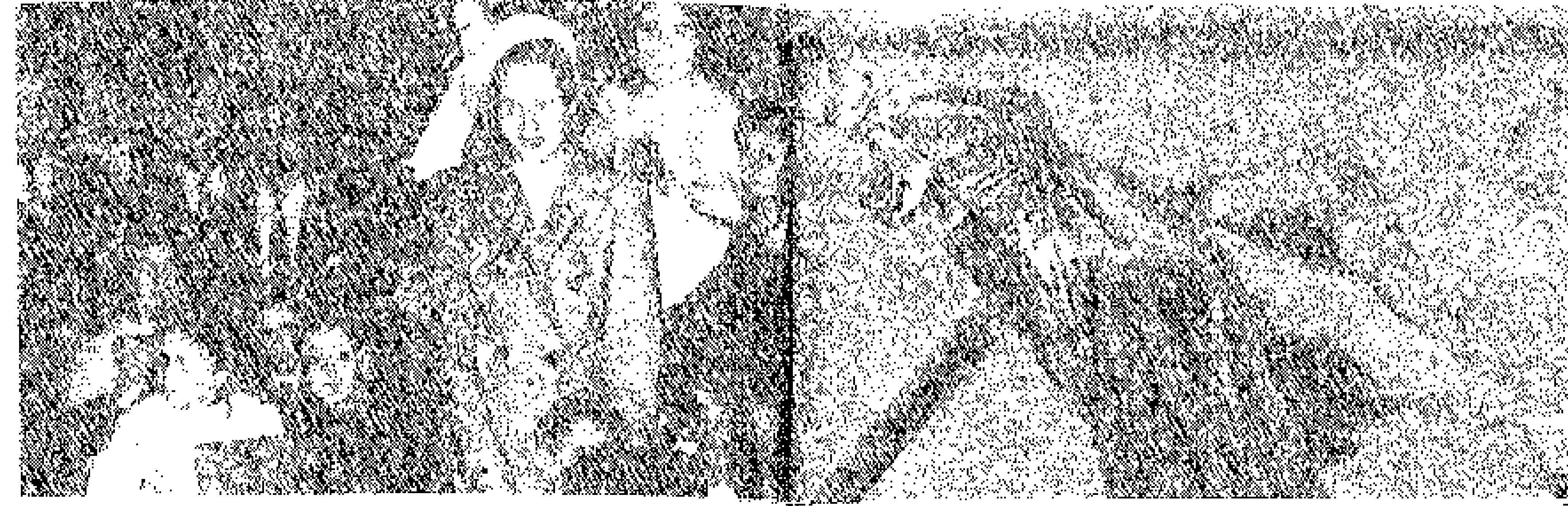
بيرون من أب إيطالي وأم إسبانية. وبالتالي فهو يمثل غالبية سكان الأرجنتين. وكان باستطاعته التعاون مع الطبقة الرجعية المستغلة، غير أنه التزم مصالح الشعب.

بدأ نجمه في الصعود، ولكنه لم يتخل عن وزارة العمل. ثم اختير وزيرا للحربية، ثم نائبا لرئيس الجمهورية. وقد خلف صديقه فارّل الذي صعد إلى سدة الرئاسة. وحلّ هذه الفترة مجموعة الضباط المتحدين، التي باتت تقلقه.

في ١٩ تموز ١٩٤٥ أعلن بيرون: «القضاء على الرجعية، وبداية عصر جديد، يؤكد حقوق الجماهير، ومسؤوليتها، وشرعية تدخلها لحل القضايا الأساسية».

أما من أذاع البيان من الراديو، فإيفا بيرون، التي غدت منذ ذلك الحين شريكة حياة بيرون.

وكانت إيفا تذيع كل يوم صباحا برنامجا موجها إلى السيدات عنوانه: نحو مستقبل افضل، تفضح فيه معاناة الشعب وشقاءه، وعذاب المعذبين، والعاطلين عن العمل، وتعد نساء الأرجنتين بيوم أغر، بفضل بيرون.



□ إيفا فتاة الغلاف.

□ إيفا مع الأطفال في مؤسستها.

الاصلاحات تثير الرجعية

أقلقت هذه اللهجة اليمين الرجعي، بينما طرح بيرون مشروع إعادة الاعتبار إلى العمال الزراعيين، والغاء السخرة عنهم، وحفظ حقوقهم كاملة.

قررت الرجعية القضاء على بيرون. فأطلقت الاشاعات حول إيفا، وعمدت إلى تحذير الرأسماليين من مخططاته. كما أن الدول الأجنبية ساهمت في الحملة ضد بيرون وإيفا. وكان سفير الولايات المتحدة، يقف وراء كل ذلك النشاط.

أصدرت السلطة، في حزيران ١٩٤٥ بيانا تدين فيه سياسة بيرون الاشتراكية. فأعلن اتحاد نقابات العمال الذي ساعد بيرون على تأسيسه ودعمه، أعلن وقوفه إلى جانب بيرون.

وقامت تظاهرات في آب دعما لبيرون. وفي ١٩ أيلول قامت «مسيرة الدستور والحرية»، وضمت ستمائة ألف شخص. ووقفت الصحافة كلها ضد بيرون. وتخلى عنه العسكريون. وتحت ضغطهم اضطر فارل إلى دعوة بيرون للتخلي عن جميع مناصبه. وأوقف في ١٢ تشرين الأول، ونفي إلى جزيرة ريودولابلاتا.

وقامت إيفا بجهود جبارة لدعم بيرون. كانت تتصل وتنظم وتسهم في تطوير النشاط الشعبي. وكانت تختبيء ليلا عند صديقتها، وتهب في النهار إلى النشاط المحموم. وقررت النقابات الاضراب العام في ١٨ تشرين الأول.

في ١٧ تشرين الأول اندفعت جماهير العمال في تظاهرة عارمة في بوينوس آيرس، وتوقفت

المعامل والمدارس عن العمل. وخلت الأبنية الحكومية من كل موظف. فكر الرئيس فارل بتدخل الجيش ولكنه عدل عن ذلك. واستشار مستشاريه، فقالوا أن بيرون أصبح سيد الموقف.

الشعب مع بيرون

طلبت منه السلطات حل الأزمة بالتدخل مع العمال، ولكنه رفض، وأعلن أنه ابن الشعب. وكانت الهتافات في ساحة روزادا تردد: «بيرون ابن الشعب، والشعب معه»، ومنذ تلك الساعة أطلق على بيرون اسم الزعيم. وقد أعلن تخليه عن كل مناصبه ورتبه ليتفرغ للعمل من أجل العمال، ووعد بيوم أفضل، ومستقبل زاهر، ورشح نفسه لرئاسة الجمهورية.

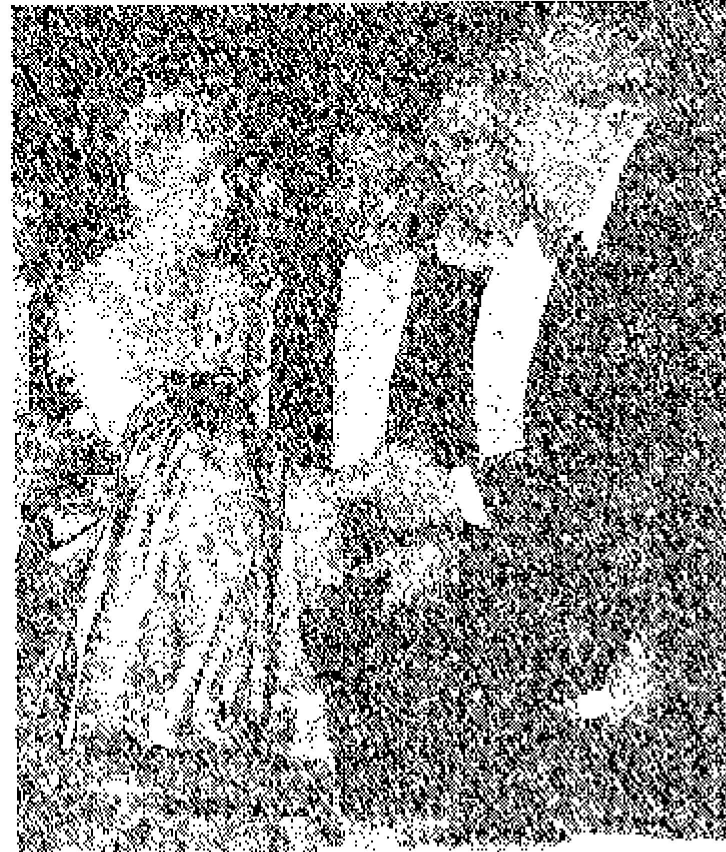
كان ١٧ تشرين الأول ١٩٤٥، يوما تاريخيا، فقد سار عشرات ألوف من العمال يحيون ويؤيدون الزعيم الذي سيحطم قوى السياسيين الرجعيين. ولكن كان لا بد من صيغة دستورية، ولهذا رشح نفسه للرئاسة.

كان موعد الانتخابات في ٢٤ شباط ١٩٤٦. في ٢٠ كانون الأول، جعل وزير العمل، ميركانتي، وهو ساعده الأول، يوقع قرارا يفرض على أصحاب العمل دفع الشهر الثالث عشر للعمال، ويحدد الحد الأدنى للأجور. رفض أصحاب العمل القرار. فعقد العمال اجتماعا ضم الألوف، ثم ساروا في الشوارع يؤيدون القرار. وأعلن من ١٤ إلى ١٧ اضراب عام. لذلك أذعن أصحاب العمل.

ساهمت إيفا في حملة الانتخابات. وقد أصبحت زوجة بيرون في ٢٢ كانون الأول. وهاجم التحالف المعادي لبيرون، بكل وسائل الاعلام بيرون وزوجته، تدعمهم الولايات المتحدة دعما مكشوفا. ولكن بيرون نجح بنسبة ٥٥ ٪ من المقترعين، وحصل أتباعه، في الانتخابات نفسها على ثلاثة عشر مركزا من أربعة عشر من مناصب حكام المقاطعات. وعلى ثلثي أعضاء البرلمان، وكل مقاعد مجلس الشيوخ.

وهكذا بدأ عصر البيرونية.

وكان لا بد لبيرون من أن يستميل الشعوب الأوروبية وحكوماتها التي قامت بحملة كبرى



□ إيفيتا يستقبلها رئيس الوزراء الفرنسي بول راماديه وجورج بيدو.

ضده، فأرسل زوجته مبعوثة من قبله إلى أوروبا، ففرضت بلطفها وذوقها ووعيها على كل المحافل الحكومية التي استقبلتها باحترام كبير. وبرزت سيدة مجتمع وسياسية محنكة، وحازت على اعجاب الطبقات الارستقراطية في فرنسا خاصة، بذوقها الرفيع في الثياب والحلي.

إيفيتا وزيرة دولة للعمل

حين عادت إلى الأرجنتين استقبلت استقبالا شعبيا ورسميا حافلا. وعينت وزيرة دولة للعمل، فكرست وقتها لرعاية مصالح العمال، وسنت



□ إيفيتا تهم بدخول مقر البابا للاجتماع إليه.

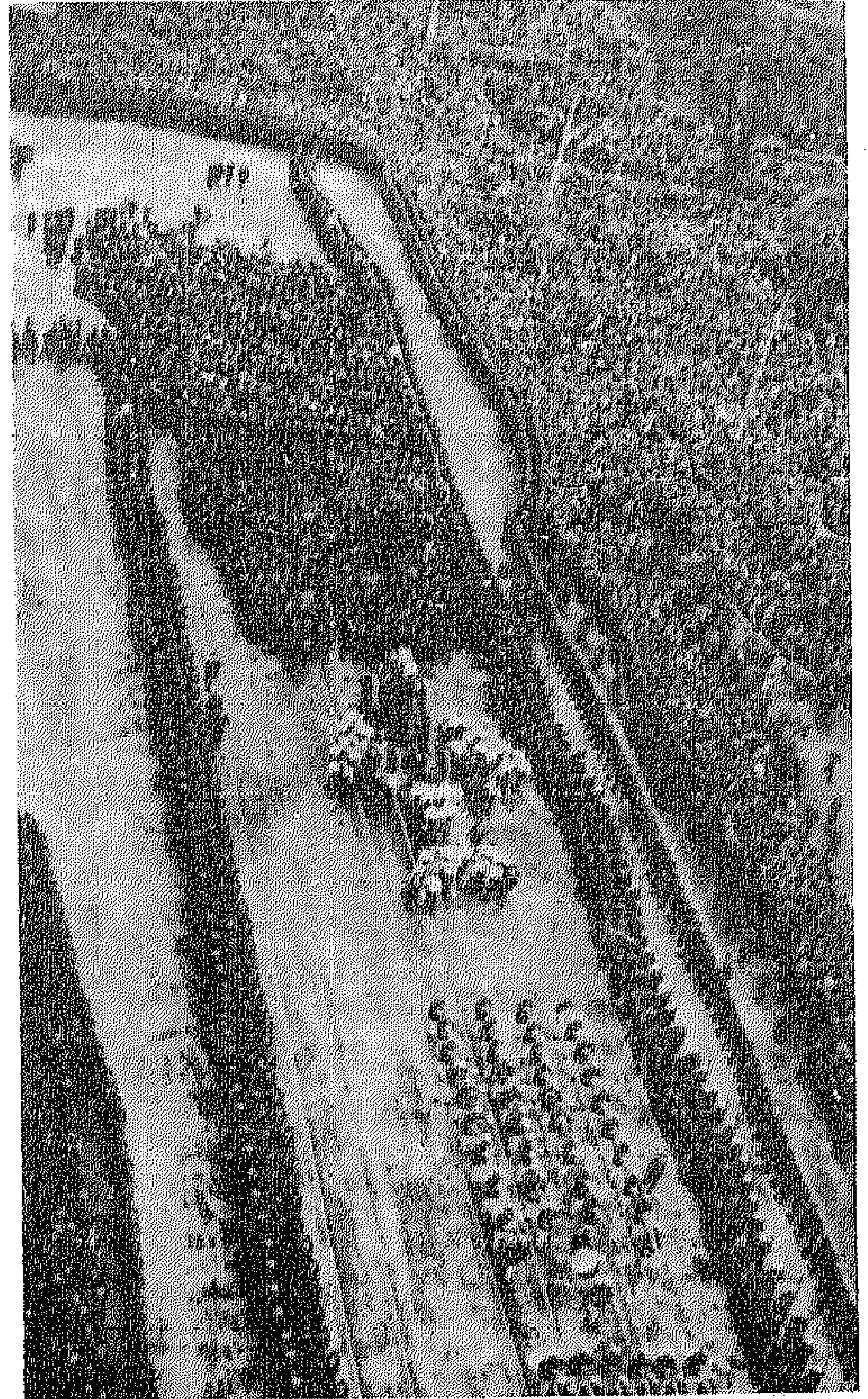


□ إيفيتا على فراش المرض.

قوانين لخيرهم. وأمرت ببناء المستشفيات لتطبيب العمال، ودور نقاهة، ومرابع صيفية وشتوية يقضون فيها إجازاتهم. وجعلت للنقابة وسائل خاصة بالاعلام، من صحف واذاعة وغير ذلك. وأنشأت مؤسسة بيرون لمساعدة المحتاجين في كل البلاد، ودعم حقوق العمال.

وعنيت عناية خاصة بالنساء، فأنشأت لهن فرعا من الحزب خاصا بهن. فكان لهذا الفرع أثره الكبير في انتخابات ١٩٥١. ذلك أن الأرجنتين مرت بأزمة حادة، إذ قل التصدير بسبب انخفاض الطلب الأوروبي، والمحاربة الأميركية. واضطر بيرون إلى تخفيف حدة الصدام مع الولايات المتحدة. وقد أثر ذلك على علاقات بيرون مع بعض حلفائه في الداخل. ولكن دور إيفيتا كان حاسما، رغم بداية شعورها بالعلة. وقد دعمتها نساء الأرجنتين. وعرفت كيف تصلح ذات البين بين بيرون وحلفاء الأمس.

□ الجنازة.





الصفحة الأولى من جريدة لو سوار ديمانش الفرنسية ٢٧ تموز ١٩٥٢.



□ صور إيفيتا ممزقة خلال الانقلاب على بيرون.

ونجح بيرون ثانية بنسبة ٦٥٪. وقد ساعد على ذلك نمو الصناعة الاستهلاكية التي غطت حاجات البلاد، تقريبا، وبأسعار معقولة.

موت إيفيتا وأفول نجم بيرون

تفاقمت علة إيفيتا التي أصيبت بالسرطان، ولكنها ظلت تكافح وتتابع جهودها، رغم نحولها واصفرار وجهها.

غير أن العلة تغلبت أخيرا على إيفيتا. وبدأ نجم بيرون يأفل. وقام انقلاب أطاح به، ونفي إلى خارج الأرجنتين.

ولما عاد إلى الأرجنتين رئيسا، اصطحب معه زوجته الجديدة. فاستقبله الأتباع يمجدون ايزابلا التي «ستحل محل إيفيتا الخالدة». ولكن إيزابيلا لم تكن عند حسن الظن، وخاب أمل الأتباع. ●

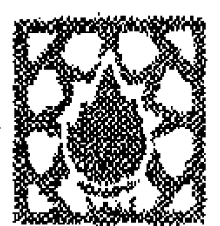


أهمية الوثائق العربية في الدراسات التاريخية

بشير عثمان أحمد

امتدت الدولة العربية، بعد الاسلام، وخاصة في العهد الأموي، إلى الصين شرقا، والأطلسي غربا، وجنوب أفريقيا وآسيا جنوبا، وأعالي القسم الشرقي من روسيا شمالا. وذلك خلال عدة قرون. وتركت من الآثار والمؤلفات والوثائق ما لا حصر له. وقد ضاع الكثير، وشوه الحكام الأجانب في فترات من التاريخ، الكثير من تلك المستندات، وزوروا تاريخنا أيما تزوير، حتى بتنا لا نتبين الكثير من ملامحه. كل ذلك يستدعي العودة إلى دراسة تاريخنا وتخليصه من تلك الشوائب، بالاعتماد على تلك الوثائق. لذلك لا بد من جمعها ودراستها دراسة دقيقة على أسس علمية، وحفظها في دور للتوثيق ليتسنى للباحثين الرجوع إليها، عند البحث عن حقائق تاريخنا وحضارتنا.

حركة تجميع الوثائق في الوطن العربي



إذا نظرنا إلى الوثائق نظرة وثائقية نجدها أما وثائق عامة وهي التي تصدر عن السلطان أو الأمير أو دواوين الدولة أو وثائق خاصة وهي التي تصدر عن الأفراد مثل وثائق البيع أو الوقف والهبة وكلها تكتسب صفتها القانونية أو الشرعية بعد التصديق عليها بواسطة الشهود: وتوثيق القضاة لها اعترافا بأن ما جاء فيها صحيح لا لبس فيه ولا زيف.

ولما كانت الوثائق كمصدر أصيل ومنبع بكر في الدراسات التاريخية على اختلاف أنواعها، تحتم على المؤرخ أن يرجع إليها مفتشاً وباحثاً وجامعاً، وذلك لأن دراسة التاريخ تقوم في الدرجة الأولى كعلم على النقد والتحليل والتفسير لما ورد في الوثائق التاريخية، كما فعل مؤرخو الغرب وما زالوا..

على أن حركة تجميع الوثائق وإنشاء دور الأرشيف في العالم العربي بدات تتضح معالمها وصولا إلى ما وصلت إليه رصيفاتها في العالم الغربي الذي سبق الشرق في هذا الميدان وقطع



□ مخطوطات إسلامية قديمة.

شوطاً كبيراً، حيث اعتبر الوثائق مصدرا أصيلا للبحث التاريخي.. وكما يجدر بنا في معرض حديثنا عن أهمية الوثائق العربية أن لا ننسى الدور العظيم الذي قام به الخط العربي منذ أن كان خطا كوفيا بسيطا في العهد الأموي إلى أن صار خطا كوفيا مزدهرا في العصر الفاطمي حيث انقسم إلى قسمين خط المغرب وهو الخط الذي عرف فيما بعد بالخط القيرواني الذي انسلخ منه الخط الأندلسي والخط السوداني «خط تمبكتو أو الصحراوي» وخط المشرق وهو الخط الكوفي الذي تطور فأصبح فيما بعد بالخط الفارسي والديواني وينبغي أن لا ننسى أهمية هذا الخط في نشر ودراسة الوثائق العربية في مختلف العصور...

فالمؤرخ العربي يفتقر إلى الميزات والإمكانات التي أتيحت للمؤرخ الغربي، والذي تنبه لأهمية الوثائق في دراسة التاريخ وعمل على تنظيم ارشيفه ووثائقه مع الاهتمام بالخطوط التي كتب بها وثائقه.. وذلك لعدم اعتماد المؤرخ العربي على وثائقه وعدم قيام دور الأرشيف بالمستوى المنشود، اللهم الا في بعض الدول العربية التي لا تتعدى دولتين أو ثلاثاً مثل دار الوثائق التاريخية في جمهورية مصر العربية ودار الوثائق بجمهورية السودان الديمقراطية. وكما أنشيء الفرع الإقليمي للوثائق بالعالم العربي في بغداد في الآونة الأخيرة.. ويعزي عدم اهتمام المؤرخ العربي بالوثائق إلى تفرق الوثائق العربية في أكثر من مكان بالبلد الواحد والأدهى من ذلك أننا نجد كميات هائلة من الوثائق العربية قد تسربت إلى الدول الغربية أبان الاستعمار أو على حين غفلة من الدول العربية، ولا سيما في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فإننا نجد أمهات الوثائق العربية متفرقة في الآفاق في متاحف ودور الوثائق والمكتبات الأوروبية ولا سيما في المانيا وبريطانيا وفرنسا وأميركا بل وجد بعض الوثائق سبيله إلى الهند واستانبول...

كما أننا نجد بقية الوثائق العربية التي لم تصل إليها يد الأجانب ولم تتسرب إلى خارج العالم العربي، لم تجد حظها من العناية والحفظ الجيد حيث لم يراع في تنظيمها الأساس العلمي من حيث الحفظ والترتيب الأبجدي أو الزمني أو الموضوعي...

والأرشيفات التاريخية فيها خلط كبير من حيث الترتيب بل أن بعضها قد وضعت في غير أماكنها

الطبيعية «دور الوثائق أو دور الأرشيف» فمعظم الوثائق العربية في العالم العربي إما توجد في دور الكتب ملحقة بالمكتبات العامة أو الجامعية أو في مكتبات البلديات أو في المحاكم الشرعية ووزارات الأوقاف أو المتاحف أو بيد أصحابها أو وارثيها.. وهذا أدى إلى إصابة بعضها بأضرار جسيمة، مما أدى إلى ضياع بعض قيمتها وفائدتها بسبب وجود تمزق وثقوب في بدن الوثائق أو الهوامش بوجه خاص[١]...

كل هذا بسبب قدم العهد وسوء الحفظ والحشرات، زيادة على تقلبات الجو.. بل أن بعضها حرقت أو دمرت في عهد الثورات والانقلابات.. كما تدخلت قلة الإمكانيات المادية والفنية في العالم العربي كعائق آخر للحفاظ على هذا التراث التاريخي، الأمر الذي جعل العمل صعباً في ميدان الوثائق العربية بخلاف ذلك بالنسبة للوثائق في الغرب...

ولو استطعنا أن نتغلب على هذه العوائق أو البعض منها ولا سيما أن بعض الدول العربية قد بدأت تتجه اتجاها علمياً في جمع وتنظيم وثائقها وأرشيفاتها، سوف تتضح لنا الأهمية التاريخية للوثائق العربية في شتى الميادين وأن هذه الوثائق سوف تساعد المؤرخين في الوصول إلى دقائق الأمور بالنسبة للتراجم وأنساب الأسرات الحاكمة التي بلغت شأواً عظيما في العالم العربي وتوضح لنا الشيء الكثير عن هذه الأسرات وحكامها وتظهر لنا خفايا الأمور التي تدور داخل قصور الحكام مما لا يتسنى للرواة معرفته إلا عن طريق تحليل المكاتبات التي تركوها في خزانات كتبهم. الأمر الذي يوضح عناصر قوة تلك الأسرات وضعفها.. وربما تتطرق بعض هذه الوثائق إلى أخبار بعض شهيرات النساء في العالم العربي والدور الذي لعبته في تسيير دفة الحكم والسياسة العامة لتلك الحقب...

بعض موضوعات الوثائق

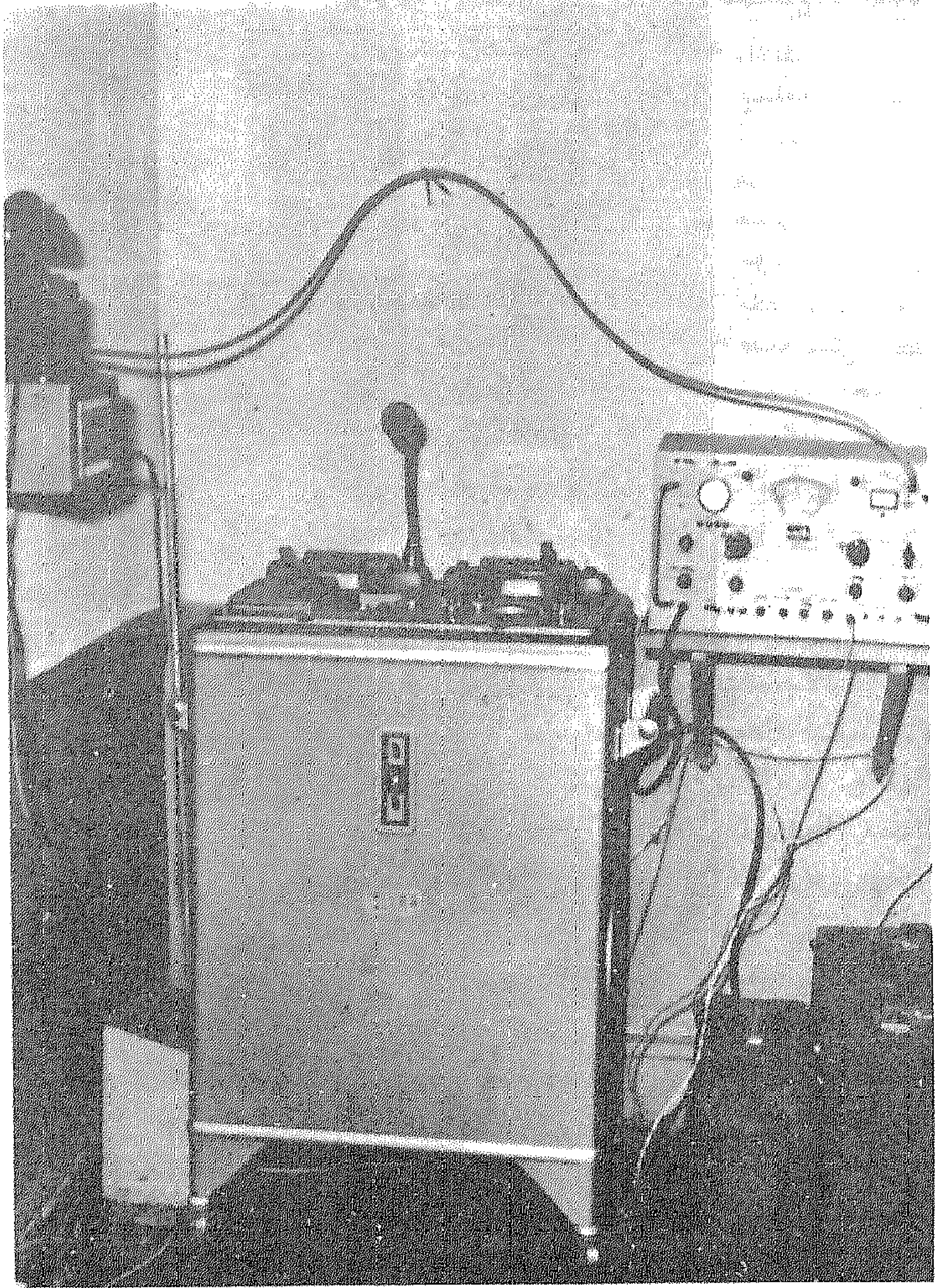
ونجد بعض الوثائق تميزت بإبراز دقائق الأمور مثل الوقائع الحربية الغامضة، مما أهمله المؤرخون أو بعضهم وأحياناً قد مسوه مسا سريعا، مثل أزمة ورق الكتابة وخاصة في عهد الخليفة عبد الله ويظهر هذا في بعض كتابات الأمير يونس الدكيم للخليفة من الجبهة الحبشية وبعض تعليمات الخليفة للتحكم في مخازن الورق المصادر من عهد الأتراك وكما توضح بعضها المنافسة المحمومة بين مصر وانجلترا وايطاليا على المحيط الهندي وجنوب البحر الأحمر حول موانىء عصب وبربرة[٢]...

لا في حين أن وثائق عربية أخرى توضح اضطرار بعض حكام المسلمين لبيع ممتلكات بيت المال لرصده للدفاع عن ثغور المسلمين والتجارة بين الشرق الإسلامي وحوض المحيط الهندي... وكما نجد البعض الآخر يكشف لنا كيف كانت مصر ترسل مؤن الحجاز واليمن بعد أن كانت توسله بغداد ولم تستطع الوفاء بذلك[٣]...

وتظهر وثائق عربية أخرى الصراع الخفي والحرب الدائرة بين رجال الطوائف، وتظهر هذه دائما في وثائق الوقف والهبة حيث تنص الوثيقة بأن هذه الأوقاف أو الهبات ممنوعة على بعض الطوائف المعادية للطائفة الواقفة أو الواهبة..

كما تكشف وثائق عربية أخرى مدى نفوذ مصر على الملاحة في موانىء جنوب البحر الأحمر والمحيط الهندي واطلاعها بمهام إصلاح تلك الموانىء والإنفاق عليها حتى تصبح صالحة للملاحة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[٤]...

ويرد في بعض الوثائق العربية عنصرية بعض الفئات الحاكمة وعصبيتها لفئتها ويظهر ذلك جليا في وثائق العصر المملوكي على مصر والشام باعتبار هؤلاء المماليك أتوا من أماكن نائية عن الوطن العربي جنوب البحر الأسود وجنوب روسيا أو لأنهم أخوة في السلاح أو التربية والسكن أو من فئة واحدة.. وكما تفيدنا بعض الوثائق في معرفة التنظيمات التي تسير عليها أو تتبعها بعض الدول في تقسيم الجيوش أو تنظيمها إلى الجهات التي أتوا منها أو حسب قبائلها. وهذه التنظيمات كانت متبعة منذ العصور الإسلامية الأولى بل منذ ظهور الإسلام وقد اتبع هذا التقسيم في العصور التالية ولا سيما في العصر المملوكي وكما نجد هذا التقسيم في بداية المهدية حيث نجد الراية الزرقاء، ويتبع لها معظم أبناء الغرب، والراية



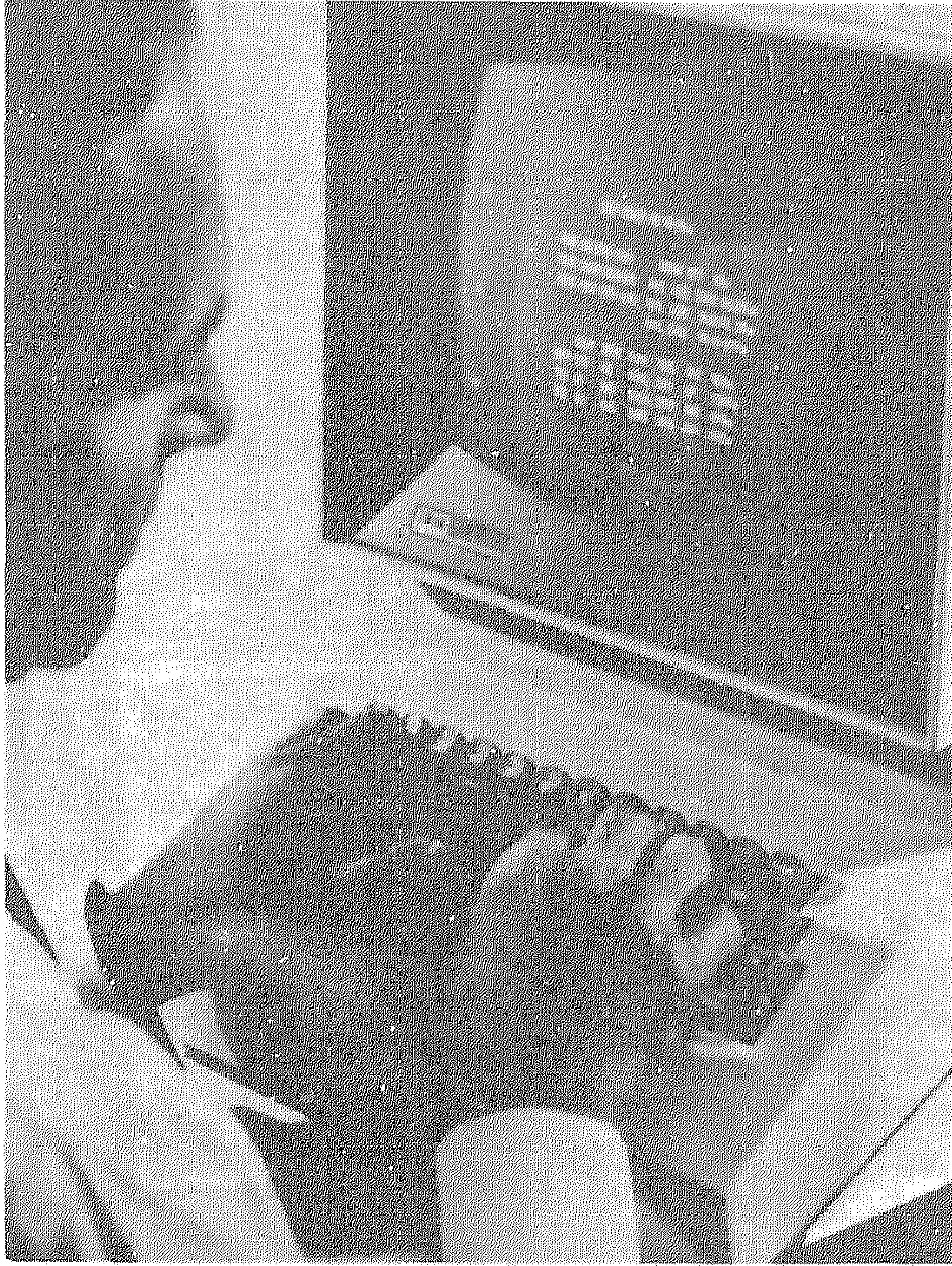
□ جهاز الميكروفيلم لتصوير الصفحات ووضعها في ارشيف خاص بدلا من الاحتفاظ بالمجموعات الكبيرة من الصحف اليومية.

الخضراء لقبيلتي كتانة ودغيم...

وهذا بالتالي يدعو إلى دراسة ومعرفة النظم والأسس التي قام عليها تكوين تلك الجيوش خلال تلك الحقب...

وتمد بعض الوثائق العربية بمعلومات شديدة الأهمية، لأنها تتعرض لبعض أسماء الخطط والأماكن التي عفى عليها الدهر وأصبحت في حكم المجهول وربما ترد في بعضها أسماء الأسواق والحارات والدروب[1] التي اندثرت وتذكر بعض أسواقها، وشوارعها المشهورة، وأسوارها المنيعة، وهذه المعلومات التي وردت في ثنايا تلك الوثائق قد تؤدي إلى الاهتمام بها واكتشافها واسترجاع أثرها ومعرفة معالمها، كما حصل في احدى المدن في غرب إفريقيا التي هجرت وطال عليها الأمد واختفت، حيث تم استرجاع معالمها بواسطة ما ورد من وصف خططها في بعض الوثائق..

والجدير بالذكر أن أغلب وثائق غرب إفريقيا، قبل الاستعمار الحديث تكتب باللغة العربية وذلك لقيام دول إسلامية في تلك البقاع، ويظهر ذلك جلياً في حركات الجهاد التي قام بها الشيخ عمر بن سعيد الفوتي في حوض السنغال والشيخ احمد محمد لبو (في ماسنة «مالي» وعاصمتها آن ذاك، حمد الله، التي هجرت الآن وأصبحت أثرا بعد عين) والشيخ عثمان بن فودي في شمال نيجريا «وعاصمتها سكوتو». هذه الحركات الثلاث تركت كميات هائلة من الوثائق العربية



□ نافذة العقل «الالكتروني»... يستطيع المحرر ان يجلس ويطلب من الجهاز اي معلومات في اي موضوع... ولا يكاد ينتهي من طلبه حتى يجد الإجابة امامه على الشاشة.

التي تزخر بكثير من المعلومات البكر التي تفتقر إلى العناية والحفظ الجيد والعمل على فهرستها وتصنيفها وإعدادها للباحثين خاصة في مجال تاريخ إفريقيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين...

وفي هذه الوثائق قد ترد أسماء غير عربية دخلت العربية مثل كلمة بيمارستان «مستشفى» في وثائق الفاطميين والأيوبيين وترد هذه الأسماء في الغالب الأعم في وثائق البيع والهبة والوقف وأحياناً يحدد البائع أو الواقف المكان بالجهات الاربع كما ورد في وثيقة التمليك التي كتبها السلطان بادي لتمليك الفقيه عبد الرحمن بن خوجلي الدار التي ذكر حدودها في الوثيقة(٦)... وهذا بلا شك قد يساعد كثيراً في معرفة جغرافية وتاريخ تلك المناطق...

وتورد بعض الوثائق العربية وصفا للحالة الاجتماعية في القرى والمناشط والمنافع العامة ونظام الزراعة والري ومشاكل ماء الشرب وتجارة الملح.. وكما يرد في ثنايا بعض هذه الوثائق بعض المصطلحات التي سادت في تلك العصور واندثرت مع الزمن(٧)...

وأحياناً تذكر بعض الوثائق خطط بعض المدن الإسلامية الكبرى التي كانت حواضر للدويلات الإسلامية التي لا يزال البعض منها بينما اندثر البعض الآخر وأصبح أثرا بعد عين. وتفصل تلك الوثائق التقسيمات الدقيقة لتلك الخطط على أن هذه التفصيلات قد لا ترد في كتب الخطط او كتب التاريخ(٨) مما يضفي على هذه الوثائق اهمية كبيرة، لأنها قد تفيد في دراسة تاريخ بعض المدن الهامة في العالم الإسلامي مثل تاريخ القاهرة

ودمشق وبغداد والإسكندرية والقدس وسواها..

هناك وثائق عربية تساعد في الدراسات الأثرية التاريخية التي لا نظير لها ولا سيما للآثار التي اندثرت وجاء وصفها في بعض الوثائق مثل مسجد اندثر أو قلعة(٨).

هذا بالإضافة إلى بعض الوثائق الخاصة بوصف الآثار الإسلامية التي تفيض بالمصطلحات الفنية والأثرية المعمارية وهذه لها أهميتها في دراسة المصطلحات الخاصة بالعمارة والفنون والزخرفة العربية الإسلامية وهذه نجدها بكثرة في الوثائق المملوكية والعثمانية.. وكما يرد أيضا فيها وصف العمائر الحربية والقلاع والأسوار..

كما تزخر بعض الوثائق العربية بألوان من الحياة الاجتماعية والتعليمية في بعض العصور ولا سيما العصر الوسيط حيث توضح تلك الوثائق أثر الدين على حياة الناس وقد اشتهر العصر الوسيط بأنه عصر دين وحرب(٩) الأمر الذي جعل أكثر وثائقه تدور حول الأوقاف والهبات والأسبلة وبناء المساجد والإنفاق على طلبة العلم وإنشاء مدارس القرآن.. وكما يظهر أيضا أثر الحرب عليهم من خلل وثائقهم التي تطفح بوصف الحروب وإعداد الجيوش لها وذكر الرباط في الثغور ويرد وصف الحلاوي والعلماء ونظام التعليم الديني ومكانته في نفوس الناس حكاما ورعية وأجلال العلماء وأغداق الأمراء والسلاطين الهبات والصدقات عليهم ولا سيما في عهد مملكة الفونج الإسلامية(١٠). وكما يتطرق البعض الآخر منها إلى نظام الوراقة والوراقين وحياة الصوفية ونظام الرقيق وأسواق النحاسة في تلك الحقب وعلاقة الدول الإسلامية مع بعض الدول الأخرى.. مثل العلاقات الودية بين خديو مصر والسلطان برغش سلطان زنجبار في القرن التاسع عشر(١١)..

وهناك وثائق عربية تمدنا بمعلومات قيمة عن التاريخ الاقتصادي في العصر الوسيط وأنواع المقاييس والموازين والسكوكات من الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والنقود النحاسية وعن شتى الصناعات السائدة في مختلف الأزمان مما يساعد في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في العصر الحاضر.. ●

مصادر البحث

(١) التونسي، محمد بن عمر: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان. القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للنشر، ١٩٦٥..

(٢) د. شوقي عطا الله الجمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر على البحر الأحمر ١٨٦٣ ــ ١٨٧٩م. القاهرة، مطبعة لجنة البيان، ١٩٥٩..

(٣) د. عبد العزيز عبد المجيد: التربية في السودان. القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٤٩..

(٤) د. عبد اللطيف إبراهيم: محاضراته على طلبة الوثائق بجامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٧٠م..

(٥) د. محمد إبراهيم أبو سليم: الفونج والأرض. وثائق تمليك، الخرطوم، شعبة ابحاث السودان، ١٩٦٧م..

(٦) المقريزي، تقي الدين: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. ج ٢، القاهرة، مؤسسة الحلبي، بالاوفست...

(٧) نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان. بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧م...

الهوامش

(١) د. عبد اللطيف إبراهيم: محاضرات القاها على طلبة الوثائق بجامعة أم درمان الإسلامية، عام ١٩٧٠م..

(٢) د. شوقي عطا الله الحمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر، ١٨٨٣ ــ ١٨٧٩، ص ١٩٥ ــ ٢٤٥..

(٣) د. شوقي عطا الله الحمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر، ١٨٨٣ ــ ١٨٧٩، ص ٢٠١...

(٤) نفس المصدر، ص ٤١١...

(٥) المقريزي ــ تقي الدين: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. ج ٢، ص ١٠...

(٦) د. محمد إبراهيم أبو سليم: الفونج والأرض ــ وثائق تمليك ــ الوثيقة رقم ١٨، ص ١٠١...

(٧) د. عبد اللطيف: محاضرات القاها على طلبة الوثائق بجامعة أم درمان الإسلامية، عام ١٩٧٠...

(٨) نفس المرجع...

(٩) د. عبد اللطيف إبراهيم: محاضراته على طلبة الوثائق بجامعة أم درمان الإسلامية، لعام ١٩٧٠م...

(١٠) د. عبد العزيز أمين عبد المجيد: التربية في السودان. ص ١١٤.

(١١) د. شوقي عطا الله الجمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحز الأحمر ١٨٦٣ ــ ١٨٧٩. ص ٣٣٩.

المدافن الأثرية في جزيرة أم النار

قسم التوثيق والأبحاث

أم النار جزيرة صغيرة تقع في الزاوية الجنوبية الشرقية لجزيرة أبو ظبي العاصمة مقابل جسر المقطع الذي يصل اليابسة بجزيرة أبو ظبي عبر مياه ضحلة [illegible]

تبلغ مساحة الجزيرة ثلاثة كيلومترات طولا وكيلومترا واحدا عرضا. والجزيرة مقفرة خالية من السكان كما أنها حجرية خالية تماما من الخضرة والأشجار ما عدا شجرة يتيمة حارسة الجزيرة والظل الوحيد فيها، وخزان ماء بني من الأسمنت في الاونة الأخيرة لتجميع مياه الأمطار التي لا يزيد معدل سقوطها في هذه المنطقة عن خمس بوصات. وطبيعة الجزيرة صخرية خشنة تتوسطها هضبة مكونة من احجار جيرية كلسية وسواحلها رملية عريضة ذات جمال أخاذ يمكن الاستفادة منها كبلاجات سياحية.

□ مدافن حجرية منقبة في أم النار.

وتعج الهضبة المذكورة الآن بالعمل المتواصل لانشاء مصفاة للنفط التي أمر صاحب السمو الشيخ زايد بانشائها وقام بوضع حجر الأساس لها. وبهذا تكون الجزيرة مركزا لصرحين حضاريين — المدافن الاثارية ومنطقة الاستيطان لسكان ما قبل التاريخ وصرح حضاري حديث يتمثل في آخر التطورات العصرية الصناعية وهي الصناعة النفطية. ومن المحتمل أن تكون تسمية هذه الجزيرة قد أتت نتيجة لعمليات الصهر بالنار التي كانت تجري في العهد البرونزي لما قبل التاريخ وذلك لأجل صناعة نصال الرماح والخناجر والسكاكين والأوعية البرونزية.

وقد قام صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة وحاكم أبو ظبي بزيارته الأولى لمنطقة الآثار في جزيرة «أم النار» اثناء قيام البعثة

الدنماركية للتنقيب عن الآثار بحفرياتها الاثارية عام ١٩٦٠. ومنذ ذلك الحين أظهر سموه اهتماما خاصا بتاريخ وآثار أبو ظبي، وقد تجلى اهتمام سموه في زياراته المتكررة للمناطق الأثرية في كل من أبو ظبي والمنطقة الشرقية بالعين من جهة وفي السهر على راحة البعثات الاثارية الاجنبية والمحلية وتشجيعها مادياً ومعنوياً من جهة ثانية.

قامت البعثة الدنماركية بأعمال الحفريات والتنقيب في الفترة الواقعة ما بين ١٩٥٩ ـ ١٩٦٢ في تسعة مدافن واستطاعت أن تحصل على نتائج قيمة ساعدت على تحديد تاريخ وحضارة هذه المنطقة. وفيما يلي استعراض لأهم النتائج:

يوجد في جزيرة أم النار مدافن أثرية يقارب عددها الخمسين تقع على التل الشمالي الشرقي للجزيرة، ومنطقة سكنى اثارية على مقربة من منطقة المدافن على المنحدر الشرقي للتل الذي تقع عليه المدافن على قرب من مياه البحر الضحلة.

وهذه المدافن تزيد في الحجم والارتفاع نسبيا حسب أهمية الشخص المدفون ومقامه الاجتماعي. ولهذا نلاحظ كثرة المقابر الصغيرة وقلة المقابر الكبيرة حسب التدرج الاجتماعي الذي كان سائداً في العهد البرونزي لما قبل التاريخ.

تتكون المدافن الأثرية من أكوام من الأحجار المنقورة والمقطوعة مصفوفة على بعضها بتنظيم هندسي يتناسب والشكل للمدفن. وهذه المدافن مستديرة الشكل ولها جدار خارجي مبني على أحجار كلسية صغيرة مقطوعة بدقة ومركبة فوق بعضها البعض باتقان تام دون استعمال الطين أو أي مادة ربط أخرى. ويتألف القسم الداخلي لكل من هذه المدافن من عدد من اللحود يفصلها عن بعضها البعض جدران، أحجارها خشنة غير منقورة ويتراوح قطر هذه المدافن الدائرية ما بين ثلاثة أمتار إلى اثني عشر مترا كحد أقصى ولا يزيد ارتفاعها في الغالب عن مترين.

تمتاز الجدران الخارجية بالازدواجية، والاختلاف في الصقل الخارجي للأحجار حسب حجمها وأهميتها. ففي المدافن الكبيرة نجد أن الجدران الخارجية مبنية من احجار كبيرة مصقولة صقلاً جيداً ذات تشكيل وتثبيت دقيقين

رصت فوق بعضها دونما حاجة إلى استعمال مادة للربط، بينما نجد هبوط مستوى أعمال النحت والتشكيل والصقل في المدافن الصغيرة.

ونلاحظ كذلك أن الحجارة المنحوتة المصقولة تكون أكبر في أدوار البناء السفلي، وتصغر في الحجم كلما ارتفع البناء. أما الجدار الدائري الخارجي فيستند على قاعدة من قوالب حجرية كبيرة ارتفاعها ٢٠ سم تقريبا، أما ارتفاع الجداران الدائرية فيبلغ ٧٠ ـ ١٤٠ سم تقريبا فوق القاعدة، ويبلغ عدد مداميكه في أقصى الحالات عشرة مداميك حيث تميل هذه إلى الداخل. أما الجدار الدائري الداخلي فيتصف بالجرشة والخشونة ويوجد في الجدار الدائري لكل قبر فتحة كبيرة نسبياً تؤدي إلى نهاية الممر الأوسط الذي يفصل حجرات الدفن. وقد تكثر هذه الفتحات حسب الفواصل الداخلية، وقد اعتيد أن تنحت الأحجار المستعملة للمداخل نحتاً خاصاً ودقيقاً، وقد وجدت بعض أحجار هذه المداخل في وضع سليم وكان بعضها ذا فتحة كبيرة إلى درجة تكفي لدخول شخص. أن بعض القوالب الحجرية التي استعملت في البناء كانت مزخرفة بصور حيوانات كالثيران والغزلان والماعز والمها والجمال والثعابين وصور الإلهة.

إذا انتقلنا إلى داخل المدافن نجدها قد قسمت إلى قسمين متساويين يفصلهما ممر ويعاد تقسيم كل منهما إلى قسمين آخرين متساويين بجدار يمتد من الجدار الدائري إلى جدار الممر الأوسط في زاوية مستقيمة ثم يعاد تقسيم الأربعة أقسام إلى قسمين لكل منهما بجدران منحنية بطريقة هندسية بحيث تكون لحوداً منفصلة للدفن وهي عبارة عن عنابر واطئة تشبه الصناديق.

أما سقوف هذه المدافن فتتكون من مساطب كبيرة تستند على أحجار بارزة يقارب ارتفاعها ما بين ٧٠ ـ ٩٠ سم وقد عثر على أحد هذه المساطب السقفية، وهي لا تزال في موضعها الأصلي، أما بقية الأماكن فقد هدمت كلية وبقيت في أماكن سقوطها. وكانت مساطب التسقيف توصل بأقرب نقطة ممكنة لها، إذ كلما ازدادت مساحة التسقيف ازدادت بالتالي الجدارن التي تستند عليها السقوف.

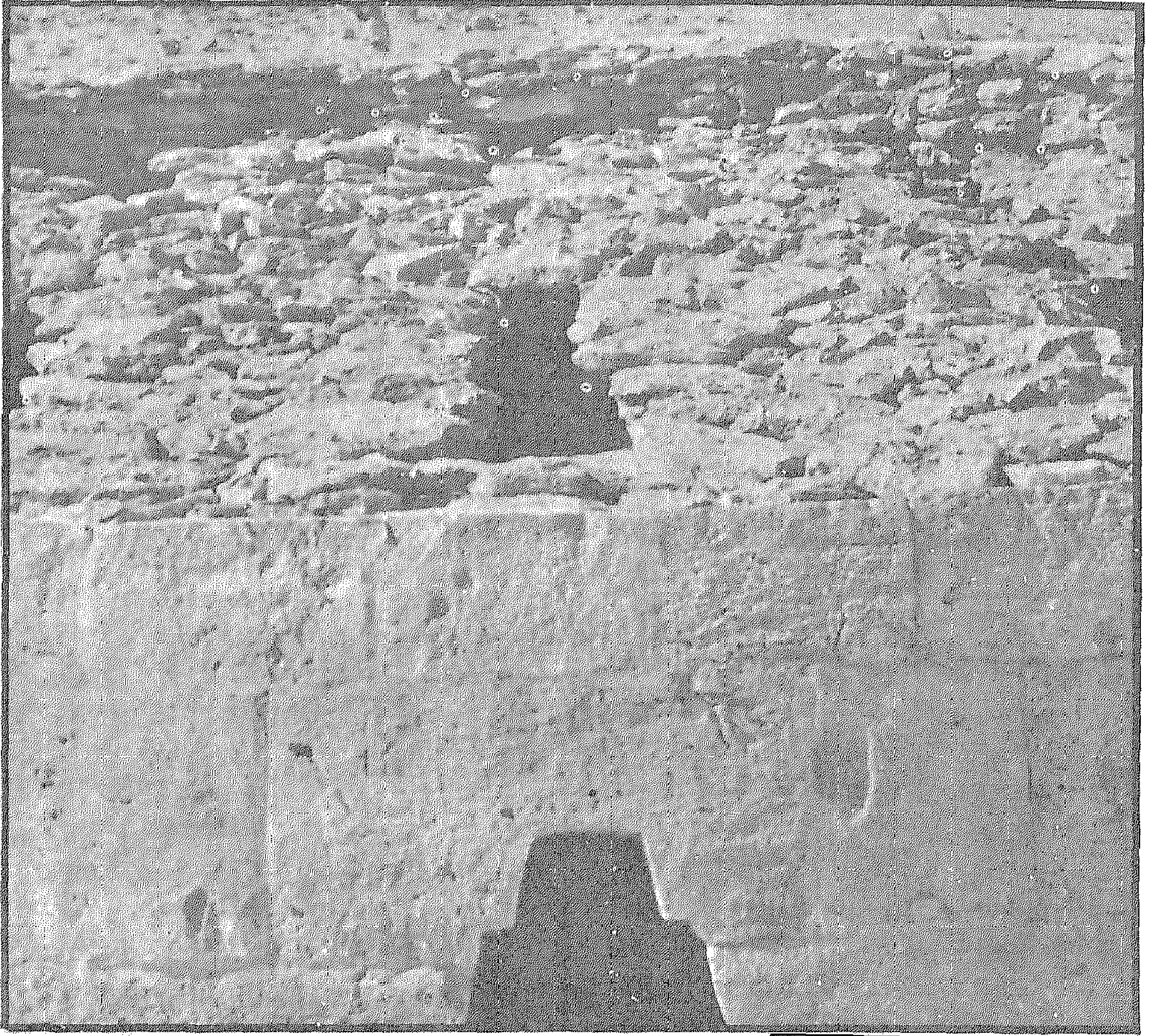
وقد كثر العثور على الرسوم البارزة التي تزين القوالب الحجرية لمداخل القبور، ومما يستحق الذكر تكراراً رسم الثور الأحدب. ويمثل هذا الرسم رسوم مشابهة عثر عليها في الخضارة الكلية وشاهي تمب في وادي السند وكذلك رسوم الحيوانات الأخرى كالقطيع والغزلان والظباء والمها والأفاعي والجوال.

وقد عثر في جميع عنابر الدفن الممتلئة بالرمال والأحجار المتساقطة على بقايا هياكل عظمية آدمية وتتميز طبقة المواد العضوية المتحللة بلونها الأسمر الغامق أو بقايا العظام المتناثرة على البلاط الحجري لعنابر الدفن «اللحود». لم يكن هناك نظام معين للدفن بل كان كل شيء مكوماً على بعضه بدون تنظيم ظاهري على الأقل وقد تهشمت معظم الهياكل العظمية نتيجة تساقط الأحجار عليها، ولم يكن هناك اتجاه خاص في وضع الجثة كما هي الحال عند المسلمين حيث توضع متجهة للكعبة الشريفة.

ففي احدى القبور مثلا وجدت هياكل عظمية أحدها مقرفص الرأس إلى الشمال، والآخر ممتد والرأس إلى الشمال كذلك. وهذا ولا تتخذ الجثة مكاناً معيناً في اللحد إذ قد تتوسطه أو تلاصق الجدران وقد تستند على قاعدة جدار المدفن.

لقد استدل من تراكم بقايا الجثث عند مدخل العنابر على أن اللحد كان يستعمل عدة مرات، ففي كل مرة تدفن جثة واحدة فقط. إن كل عملية دفن جديدة تتطلب إخلاء البقايا العظمية وكنسها إلى العنبر الأمامي، ويختلف عدد الموتى من مدفن لآخر ويعتمد كذلك على حجم المدفن وسعته وعدد لحوده. وقد بلغ عدد الذين دفنوا في أحد المدافن ١٥ شخصاً.

والأمر الذي يسترعي الانتباه هو تقديم الضحايا الآدمية عند الدفن كقرابين، وقد يكون تفسير ذلك أن يصاحب الميت خدمه أو زوجاته في مماته كما كانت الحال في بعض البلدان الأخرى. وقد عثر على البعض من الهياكل العظيمة خارج جدار المدفن الدائري يمكن أن تكون قرابين قدمت لمن دفنوا داخل القبر. وقد اكتشف مع الهياكل العظيمة الادمية كميات كبيرة من الخرز المختلفة الأشكال والأحجام بعضها منضد في صفوف مع قطع قماش مما يدل على أن الميت



□ واجهة احد مداخل جزيرة ام النار بعد الصيانة ـ لاحظ المدخل.

كان يدفن بلباسه، ويتميز هذا الخرز بكونه صغير الحجم أجوف واسطواني الشكل من الحجر الرمادي.

وقد عثر مع الجثث المدفونة على أواني فخارية مصنوعة من الطين الأحمر أو الطين الرملي الأجرش. وتتميز هذه الأواني الفخارية بأنها مصقولة صقلاً جيداً عدا الكبيرة منها وهي بشكل عام جيدة الصنع نظرا لاستعمال العجلة الدوارة. أما الأواني الصغيرة فمصنوعة من طين ناعم ذو لون رمادي نتيجة للاحتراق، ولها جدار رقيق أما الأواني الكبيرة فقد صنعت من طين رملي ولهذا فهي خشنة الملمس جرشاء بدون صقل. وهذه الأواني الفخارية أما أن تكون كروية الشكل تستند على قاعدة قوية، وأما مخروطة الشكل بأكتاف مائلة وقاعدة عريضة وجميعها مزخرفة وملونة وعليها رسومات صور حيوانات أغلبها يمثل شكل الثور الأحدب السائد في حضارة وادي السند. وقد عثر مع الفخار على خناجر برونزية ونحاسية ذات مقابض ونصال حادة وأوعية رخامية وأدوات غزل نصف كروية مصنوعة من العظم.

وبالإضافة إلى المقابر المذكورة تم اكتشاف منطقة استيطان تقارب من ٢٠٠ ـ ٣٠٠ متر طولا ومن ١٠٠ ـ ١٥٠ متراً عرضا وقد غطي قسم منها بآثار استيطان من العهود التاريخية المتأخرة كما يوجد على هضاب الجزيرة عدد كبير من حجارة الصوان المدببة ذات اللون الأخضر جمعت لغرض استعمالها كنصال رماح.

أما عن العلاقة التاريخية لهذه الحضارة مع الحضارات الأخرى فنود أن نقول هنا أنه نظراً للتقارب الجغرافي والاجتماعي في المنطقة حتى العهود التاريخية الغابرة، فقد تبين أن هناك تشابهاً كبيراً بين هذه المدافن وتلك التي اكتشفت في «أم الماء» بقطر وتلال الدفن في أقصى الجنوب الشرقي بالبحرين قرب منطقة المطلة والمدافن الواقعة قرب طريق البديع من حيث إحاطتها بجدار دائري من حجارة جيرية كلسية. ويعود تاريخ هذه المدافن وأماكن الاستيطان إلى العهد البرونزي منذ ٣٠٠٠ ق. م. تقريبا عهد الأسر التاريخية القديمة أي عصر فجر السلالات. وهناك تشابه كبير بين الفخار الذي عثر عليه في «أم النار» والفخار الذي سبق اكتشافه في كلي جنوب منطقة بلوجستان، وحضارة كلي هي إحدى الحضارات التي سادت في وادي السند في العهد البرونزي وكان لها صلة قوية بحضارة وادي الرافدين والمناطق البحرية الواقعة بينهما ومن ضمنها جزيرة «أم النار».

إن أوجه الشبه بين الحضارة التي سادت في كلي من جهة وأم النار من جهة ثانية تبرز في الأواني الفخارية المتميزة بالزخارف السوداء المتشابهة على أرضية حمراء.

وقد اتخذت تلك الزخرفة أشكالاً هندسية كالمثلثات والتعرجات والخطوط المتموجة وبعض صور الحيوانات وخاصة الثور الأحدب الذي وجدت صور منه مشابهة له في حضارة أم النار. وعثر بمنطقة شاهي تمب في الباكستان على مقابر تحوي جثثاً في وضع مقرفص وضعت إلى جانبها أدوات تتكون من أوان فخارية محززة وأدوات نحاسية وبرونزية وتماثيل آلهة وهي تعاصر الحضارة الكلية وحضارة أم النار.

إن المواقع المتوسطة بين وادي السند ووادي الرافدين كجزيرة أم النار والبحرين وفيلكه تمثل المحطات الرئيسية للتجارة القديمة والصلات البحرية. أما المواقع البرية مثل كلي وشاهي تمب وبامبور في جنوب شرقي ايران فقد كانت تمثل الشرايين البرية لتلك المواصلات والتجارة. كانت بلدة كلي في وادي السند أحد هذه المراكز الرئيسية وهي في طابعها وشخصيتها الطبيعية المادية والحضارية تتشابه مع المدنيات الغابرة في الشرق الأوسط التي تميزت بكونها تقع في واد خصيب تحيط به الصحارى أو الجبال كمانع طبيعي ضد أخطار الغزوات. لقد تركت التجارة بين وادي الرافدين ووادي السند آثارها على الجانبين في الطرق التي مرت بها سواء في ابو ظبي أو جزيرة فيلكه بالكويت أو ديلمو (البحرين) حيث أن طبيعة التقارب الجغرافي تفرض التقارب الحضاري والمادي نتيجة لسهولة الانتقال.

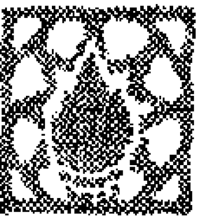
وقد يكون انتقال مثل هذه المميزات الحضارية المادية قد تم أما شرقاً عن طريق البحر مباشرة من وادي السند إلى سواحل عمان ومنها ساحل عمان الشمالي الشرقي ثم إلى جزيرة «أم النار» في أبو ظبي، أو عن الطريق البري بواسطة «بامبور» (وكرمان) إلى الساحل الشرقي للخليج العربي حول منطقة بندر عباس الحالية ومنها بحراً إلى هذه المنطقة. وقد عثر على مناطق أثرية ممتدة بين وادي السند ووادي الرافدين تكمل بعضها في المميزات الحضارية، ولا يعني ذلك مطلقاً أن أهالي تلك البلدان التي سادت فيها الحضارة المذكورة قد عاشوا في هذه المنطقة بل يعني تشابهاً ظاهراً في المميزات الحضارية نتيجة الاتصالات التجارية. وقد تسود حضارة مادية وتنتشر إلى المناطق المجاورة، كما تنتشر اليوم الموضة والصناعات المتطورة لتفرض نفسها فرضاً حضارياً لا إكراه فيه.

إن اكتشاف مثل هذه المواقع والعثور على الأدوات المحكمة الصنع والزخرفة والتي استعملها الإنسان الظبياني الأول في حياته اليومية ومئات المدافن الحجرية الأخرى أمدتنا بمعلومات قيمة عن التقدم الحضاري الذي ساد هذه المنطقة، وألقت ضوءاً ساطعاً على حقبة منسية من تاريخ هذا الشعب. وقد دلت هذه المدافن والمناطق السكنية والأدوات التي استعملت على أنها بنيت ووضعت في عصر ساد فيه الرخاء وانتشرت فيه الصناعات المحلية ومنها صناعة الفخار والملابس المطرزة بالخرز والسيوف والخناجر والتطور المعماري في البناء.

●

سباق سيارات بين بكين وباريس عام ١٩٠٧

د. سامي زكي



ما يزال عام ١٩٠٧، في سجل السباقات العالمية، موضع زهو الايطاليين في تلك السنة. فقد برهنت «فيات» على كفاءتها، وثبتت للتجربة الكبرى في سباق حول العالم، وفازت بالجائزة الكبرى لنادي سيارات فرنسا، فقد حلت «ايتالا»، السيارة عابرة الجبال، في المركز الأول، في امتحان طويل كان يعتبر ذلك العهد، مستحيلا، وهو امتحان قطع المسافة ما بين بيكين وباريس.

وكان واضحا ان التنافس في ذلك الامتحان الصعب، قائم بين صناعة السيارات الفرنسية وصناعتها في ايطاليا بين التقنيين الايطاليين والفرنسيين، ومن منهم استطاع التفوق في مجال تحسين الصناعة، وخاصة صناعة سيارات السباق. كما ان الامتحان فتح الباب واسعا امام السباقات حول العالم، وهو امر لم يحدث قبل ١٩٠٧.

لقد ظهرت فكرة السباقات الطويلة المدى في الأوساط الصناعية الكبرى، واتخذت المبادرة

جريدة «لوماتان» على نحو اقتراح، عده القراء في البدء مزحة سخيفة. وقد جاء الاقتراح على النحو التالي: باريس ــ بكين، بالسيارات، انه تحد ضخم.

وقد كتب رئيس التحرير، داعما الاقتراح، مندداً بالذين يتصدون للسباقات حول العالم، فقال: «ما يجب ان نبرهن عليه اليوم هو اننا نستطيع الذهاب بالسيارة الى اي مكان في العالم. نحن نسأل المصممين الفرنسيين، وغير الفرنسيين: هل بينكم من يفكر في الذهاب بالسيارة الى بكين هذا الصيف؟».

أهي مزحة؟

كذلك ظهر الاقتراح في جريدة «لوماتان» في ٣١ كانون الثاني ١٩٠٧ واذا الرأي العام الفرنسي يبدي حماسا منقطع النظير. ومنذ صباح اليوم التالي، بدأت الرسائل ترد على قلم التحرير، معلنة تسجيل اسماء اصحابها في السباق. وكانت بينها رسالة من احد اكبر صانعي السيارات المركيز دو ديون. مما جعل بعضهم يعتقد انه كان وراء الاقتراح.

وكان اول المنافسين مصمم دراجات بثلاثة دواليب. ولكن السباق لم يطرح لمثل دراجاته، فاستبعد طلبه، وأعتبر إعلانه عن المساهمة، من باب الدعاية لصناعته.

خلال اسبوع واحد، تم تسجيل عشرة اسماء انطبقت عليها مواصفات من يساهم في السباق. وشكلت لجنة عليا، رئسها احد الوزراء الفرنسيين القدامى في بكين، لوضع خريطة مسار السيارات المتسابقة، ونظام لتموين السيارات والسائقين خلال الرحلة الطويلة.

وسرعان ما انعكس مسار الرحلة. فبدل الذهاب من باريس الى بكين، اصبحت نقطة البداية بكين، على ان يبدأ السباق في حزيران، ويستمر السباق ثلاثة اشهر، وتقطع السيارات المنطقة الصعبة في اشهر الصيف وقبل تساقط الثلوج وتراكم الأوحال.

ومنذ مطالع شباط، احتلت اخبار السباق الصفحات الأولى من الجرائد والمجلات. ورغم ان المعنيين بشؤون السباق كانوا «يسهّلون» مهمة المتسابقين، فان الوضع ما بين الصين وروسيا، عبر سيبيريا، لم يكن حسنا، بل كان سيئا جدا، اذ كان عدد كبير من الجنود الروس، غداة انكسار روسيا في حربها مع اليابان، قد سرحتهم اليابان بعد اسرهم، فشردوا في تلك الأرض المقفرة تقريبا، فشكلوا جماعات للسطو، وفرضوا الخوة على القرى النادرة، واعملوا السرقة والنهب في كل مكان، لذلك كان يخشى اذاهم على المتسابقين. كما ان بوادر التحرك الثوري كانت واضحة في روسيا كلها. ولم يكن الوضع افضل من ذلك في منغوليا ومنشوريا والصين، التي اتجهت اليها مطامع الغرب التجارية. وقد ارسلت دول الغرب بعثات تجارية، تعرضت لكمائن مسلحة فقتل العديد من افرادها. وكان وجود الأجنبي على ارض الصين يعتبر اهانة كبرى. وعُدّ سلوك السيارات الأجنبية على طريق الصين المقدسة تدنيسا للمقدسات. واتخاذ بكين نقطة بداية للسباق، اثار شكوك رئيس وزراء الصين، الذي طرح السؤال التالي: «كم سيارة ستحاول ربط باريس ببكين؟». واعتبر سلوك طريق الصين منغوليا «غير عملي».

وارتأى البنك الروسي ــ الصيني المرور من بكين الى اورغا، لاحياء طريق القوافل القديمة.



صورة للمتسابقين مجتمعين.

مع العلم ان الطريق في اورغا تشبه السلالم ويكاد يستحيل حتى على الدواب الدربة قطعها.

اوشكت اللجنة العليا ان تلغي فكرة السباق.

ولكن رسالة وردت على جريدة «لوماتان» من الديبلوماسي الايطالي الأمير سيبيون بورغيز، يرجو فيها تسجيل اسمه في قائمة المتبارين، بسيارة «ايتالا».

في ١١ شباط ١٩٠٧ عقد اجتماع عام ضم اعضاء اللجنة وكل المتسابقين، في مكاتب «لوماتان»، لوضع تفاصيل السباق. الوحيد الذي لم يحضر هو الأمير بورغيز، ولكن وكيل سيارات ايتالا ناب عنه. تقرر إرسال السيارات بطريق البحر الى بكين، من مرسيليا، الرابع عشر من شباط، بينما يسافر المتسابقون في قطار سيبيريا ليكونوا في بكين، في اوائل حزيران. ولكن الأمور جرت على عكس التقديرات.

قطع الطريق على الجواسيس

واذا كانت لجنة الشرف المجتمعة في سان بترسبورغ، قد بذلت جهودا محمودة، واذا كان القيصر نفسه ابدى اهتماما كبيرا بالسباق، فان الأمر في الصين كان مختلفا.

وضع الروس انفسهم في خدمة المتبارين الشجعان، وقدموا اليهم تسهيلات كبرى، واعفوهم من الموجبات الجمركية على السيارات، وقطع الغيار، وسمحت لهم باستعمال البرق مجانا، ليلا ونهارا، والانتقال مجانا بقطار سيبيريا في حال تعطل السيارات. واعدت الوسائل لابلاغ المتسابقين باحوال الطرق، خاصة حين تصبح غير سالكة لسبب من الأسباب.

اما في الجانب الصيني، فقد ظهرت التعقيدات منذ اللحظة الاولى. اذ اعتبرت سلطات «مجلس الامبراطورية المقدسة الكبير» السباق مقدمة لغزو روسي، ولهذا كان على رأس المتسابقين ديبلوماسي عسكري ايطالي، يعتزم عبور الجدار العظيم.

لذلك مارس الوزراء الفرنسيون والروس ضغوطهم حتى وافق الصينيون، شرط سلوك المتسابقين طريق منشوريا. والا، فانهم لن يكونوا مسؤولين عن امن المتسابقين، اذا عبروا منغوليا.

ولكن السفير الفرنسي اصر على طريق منغوليا متحملا مسؤولية الخطر. فوافق الصينيون، ولكنهم منحوا جوازات مرور للسائقين وحدهم، مما يعرضهم لحرمانهم حتى من سياراتهم، فلا يستطيعون قطع المسافات دون مساعديهم. خاصة وان قطاع الطرق قد يفاجئونهم في اية ناحية. وقامت محاولات جديدة لاقناع السلطات الصينية. وفي هذا الوقت كانت السيارات قد وصلت بكين، وقامت بجولة في شوارعها. ورضخت السلطات الصينية، ولكنها رفضت ترجمة الجوازات الى المنغولية.

هل يتم السباق؟

كم كان على المتسابقين ان ينتظروا انجاز الجوازات، في حزيران من عام ١٩٠٧؟ وهل كان عليهم ان يتأخروا طويلا قبل حلول فصل الأمطار والثلوج؟

سجلت خمس وعشرون سيارة في الرهان. وقد سجلها صانعوها او مالكوها. وكان اولهم المركيز دوديون، الذي قدم للسباق سيارتين (١٠ احصنة وخمسة عشر حصانا. ثم سجلت الأخيرة بعد زمن). وشاءت الشركة البلجيكية المعدنية ان تشترك بسيارتين (٤٠ حصانا و٣٠ حصانا).

اما البارون دوكيسن فسجل سيارته البانهارد (١٨ حصانا). واوصى الكونت غروبيلو الارستقراطي الايطالي ــ وهو من محبي الفيات ــ على سيارة خاصة.

وفي شباط سجل اناس جدد اسماءهم وسياراتهم، ووقعوا نوعا من العقد يعلنون فيه خضوعهم للقوانين المرعية. ومن ابرزها منع السفر بالخط الحديدي، ودفع الفي فرنك عن كل سيارة مشتركة.

في النهاية، بلغت خمس سيارات بيكين في حزيران ١٩٠٧. ومن ابرز الواصلين الدبلوماسي الارستقراطي الايطالي المعروف برحلاته ومغامراته، الأمير سيبيون بورغيز، الذي كان قد عاد حديثا من رحلة الى اواسط آسيا، واجتاز اواسط الألب متسلقا. كان عمره ستا وثلاثين سنة، وقت السباق. وكان له اخ دبلوماسي في العاصمة الصينية. لذلك استعجل الرحيل، بعد ان اعد المؤن، واللوازم، والمعلومات الكافية عن الطريق.

وانضم الى المتسابقين شارل غودار، المعروف بانتصاراته العديدة، ولكن بين مدينة ومدينة تليها، لا بين بيكين وباريس. اما السيارة التي اشترك فيها فتخص الشركة البلجيكية المعدنية. ولكنه بعد يسير وقت عرف أن اسمه غير موجود على اللائحة. فسافر الى هولندا ليقابل صاحب شركة سبايكر، فاذا اخوه، مدير الشركة قد توفي. ولم يقنعه بالمساهمة الا بعد جهد، وبعد ان افهمه ان جريدة لوماتان تتولى نقل السيارات الى بكين، وان دفع مبلغ ٢٠٠٠ فرنك سيكون في بيكين، وان اشتراك سيارة مصنعة يعني دعاية كبيرة ومجانية، اذ كل الصحف ستكتب يوميا عن السباق.

رافق غودار في الرحلة الصحفي المعروف آنذاك، جان دوتاييي، المعلق في جريدة لوماتان، والمشهور بمغامراته الصحفية، ورحلاته الى العديد من اقطار العالم.

ومن بين المشتركين المغامر اوغوست بونس، مع سيارة من شركة كونتال، وقد رافقه ميكانيكي من الشركة.

واشتركت شركة دوديون بسيارتين (١٠ احصنة) وسائقين معروفين هما: فيكتور



كولينيون، وجورج كورميي الذي رافقه الصحفي الايطالي ادواردو لونغوني مراسل صحيفة ايل سكولو الايطالية.

شهر في البحر

ابحرت السيارات المتسابقة بطريق البحر: من مرسيليا، ومن جنوى. وقد استغرقت الرحلة شهرا كاملا.

في هذا الوقت كان بعض المتسابقين قد وصلوا



ثلاث صور لما عاناه المتسابقون.

الى بكين، وبدؤوا يستكشفون الطريق التي سيسلكونها في السباق.

وقد فوجيء الكثيرون ان الخرائط الموضوعة للطريق غير صحيحة، ذلك ان الدولة الصينية مدت خطا حديديا غير معالم الطريق، وحولها الى اماكن اخرى.

وفي الواحد والثلاثين من ايار وصلت السيارات الى مرفأ تيان تسين، على ظهر الباخرة فون تيربيتز.

واجه شارل غودار مشكلة جديدة، اذ لم يكن يملك الفي فرنك يدفعها للقيمين على السباق. ولجأ الى سفير هولندا الذي ضمن المبلغ.

وكان على المتبارين استكشاف الطريق الجديدة، وما طرأ على القديمة من تحويرات وتعديلات. وقد تبين لهم انها تعبر مناطق صعبة جدا، منها الصخري، ومنها الموحل، عدا المنعطفات الخطرة في بعض المرتفعات. هذا الى جسور على بعض الأنهر، اضطروا الى اصلاح بعض اجزائها بأنفسهم. يضاف الى كل هذا ان الصينيين حين اقاموا الخط الحديدي الذي حور الطريق الأساسية، قد تركوا في الطريق الجديدة، احيانا، ركاما من الصخور والأتربة، فاذا هي عوائق صعبة التذليل.

حين عاد الأمير بورغيز من رحلة استكشاف الطريق، كان جد متشائم لاستحالة عبور السيارات العوائق. لذلك قرر مع اخوانه شراء جنازير، ودواليب، واستخدام الجرارات، لسحب السيارات عند الضرورة، ولازالة العوائق ان امكن، او تحوير بعض المعابر.

الأسبوع الحاسم

اجرى الجميع الفحوص على سياراتهم. وغدت جميعها جاهزة خلال الأسبوع الأول من حزيران (٢ ــ ٩)، الا ايطالا التي وجد الأمير بورغيز انها ثقيلة جدا، فخفف منها قرابة (٥٠٠) كغ اذ تخلص من معظم الزوائد في الجسم.

وقدمت سفارات فرنسا وايطاليا وهولندا الضمانات المطلوبة الى حكومة بكين. غير ان صعوبات جديدة نجمت، اذ رفضت الحكومة الصينية اعطاء جوازات مرور عبر جدار الصين المقدس. كما أن بونس لم يتلق كتاب الاعتماد ليحصل على المال الضروري، وان غودار لم يكن ينتظر اي كتاب اعتماد، ولكنه كان يعول على الأصدقاء ومن يعنيهم نجاحه في السباق. ولكن كل هذه الصعاب حلت. فوافق الصينيون على عبور الجدار بعد تدخل الوزير الفرنسي. ودفع رئيس شركة سبايكر المال لغودار، ووصلت بونس الأموال اللازمة.

وقد لام الكثيرون بورغيز لاستقلاليته في تدبير شؤون رحلته، من تأمين البنزين بواسطة الجمال، وتأمين المؤن على طول الطريق بين بكين ونهاية سيبيريا.

غير ان الحكومة الصينية، ضمانا لحياة المتسابقين، جعلتهم جميعا يوقعون على عقد، يقرون فيه التعاون طوال الطريق. فقد تتعطل سيارة، او تغور في الأوحال، او تصطدم بعقبات.

انتهت معاملات الجوازات في التاسع من حزيران. وحدد موعد الرحيل في العاشر من حزيران.

باريس على بعد ١٦٠٠٠ كم

بدأ السباق الساعة السابعة صباح العاشر من حزيران. كان النهار غائما وممطرا. وقد امتلأت ساحة الانطلاق (فوبيرون) رغم ذلك، بجمهور كبير جدا. وكان كل الأوروبيين المقيمين في بكين هناك، وقد حملوا الهدايا والزهور للمتبارين. وحضر حفل الانطلاق مدير بوليس بكين الذي امر باخلاء كل الشوارع التي تمر بها



سيارتا دوديون والسبايكر تجتاز قرية من قرى الصين.

السيارات. واكثر ما اثار اعجاب الجمهور سيارة دوديون الصغيرة المحملة بالحقائب، وقطع الغيار، والأدوات، والواح الخشب، والمزالج، والخطافات، والرفوش والفؤوس. اما السبايكر فلم تحمل الا الدواليب.

واعطت زوجة السكرتير الأول في السفارة الفرنسية اشارة الانطلاق، بكسر زجاجة شمبانيا على سطح ايطالا. واتخذت السيارات الخمس طريقها الى باريس، تحف بها آلاف الصينيين الواقفين على الأرصفة، وهم يصفقون ويطلقون الهتافات.

ضياع اثنين

لم تمش السيارات مئات الأمتار حتى اكتشفت القافلة ضياع اثنين (دوديون الثانية، وسيارة كونتال ذات الدواليب الثلاثة). رفض بورغيز التوقف، وتابع مسيرته، بينما كلفت السبايكر (غودار) البحث عن السيارتين. وقد استغرق ذلك ثلاث ساعات.

عند مخرج المدينة، صادفت السيارات موقعا رمليا موحلا غاصت فيه. وقد استخدمت الثيران لاخراجها من المأزق، ولكن الثيران خافت من صوت المحركات، ولم تنفع معها المحاولات. ونصح كونتال بالتخلي عن السباق، والسفر بالقطار الى نان كييو، حيث تتجمع السيارات في نهاية اول مرحلة ففعل. ولم تستطع السيارات الباقية الخلاص من البؤرة الموحلة الا بعد جهد كبير.

جسور المرمر

التقت السيارات بسيارة بورغيز عند الجسور القائمة فوق نهر شا ــ هو. وكانت متهدمة بسبب تقادم الزمن والاهمال. فقد انهارت مسطحاتها جميعها تقريبا. وباتت بلاطات المرمر الجميلة مبعثرة.

حاول بورغيز بواسطة الألواح الخشبية، والواح من التنك طويلة، ان يرمم الأمكنة الواطئة، ويكون منحدرا خفيفا، يسهل انزلاق السيارة عليه. ولكن، ما ان انطلق، حتى تطايرت

الألواح وراء السيارة، وضاع الجهد، فاضطر بورغيز الى الاقلاع عن تلك الطريقة.

وقام غيزاردي بمحاولة مختلفة. اذ مد على جزء من الجسر الواحا من المطاط المسمر، وجعل يصعد ببطء شديد، رغم خطر الانهيار. ولكنه تخطى القسم الصاعد، وبدأ ينحدر ببطء اشد، فاجتاز العقبة. وعلى بعد كيلومترات واجه الجسر الثاني، ففعل ما فعل في الجسر الأول فتخطاه. اما السيارات الباقية فاستغرق عبورها الجسر الأول قرابة ساعتين، ووقتا اقل في عبور الجسر الثاني.

بعد فحص السيارات: الكاربوراتور، المحرك، البوجيات، تبين ان السيارات بطيئة جدا. وكان الليل قد اقترب، واشتد المطر. وخطر لكولينيون خاطر. فقام الى الايشاكيمان فثقبه، واخرج ما تجمع فيه من رمال ووحل، فاذا السيارة تنطلق بقوة. ولكن القافلة عسكرت في مكان لا تعرف عنه شيئا بسبب اشتداد المطر والضباب. وفي الصباح تبين لها انها على بعد كيلومترين من نان كييو. وهناك استقبلها الجنود الفرنسيون بحفاوة، واقاموا مأدبة عامرة للسائقين. وفي هذا الوقت وصل بونس وفوكو بالقطار.

جر السيارات بالحبال

لم يكن ممكنا قطع المسافة بين نان كييو وكالغان بواسطة المحركات. وذلك لكثرة المنحدرات والمنعطفات والصخور، وتقارب المطبات. وقد حاول بورغيز المضي لوحده، بعد ان ودع زوجته التي رافقته من بكين ولكن الأمر استحال.

اضطر الجميع الى الاستعانة بحمالين اتي بهم من بكين، بالقطار.

تخطى بورغيز الجدار المقدر قبل غياب الشمس. ولكن السيارات الباقية خيمت في قرية قريبة من الجدار. وهكذا بات بورغيز، خلال خمسة ايام، متقدما على السبايكر والسيارات الأخرى.

ارض العشب

بعد آخر منعطف من المنعطفات الصعبة التي واجهتها السيارات، افضت الى سهل متسع معشب.

اغتنم بورغيز الفرصة واقلع باتجاه هضبة مونغوليا، دون ان يتوقف الا للتزود بالماء.

اما السيارات الأخرى فلقيت صعوبات جمة، خاصة ذات الدواليب الثلاثة. وبلغ بورغيز كالغان قبل الجميع. وهناك اعاد غيزاردي ما انتزعه من جسم السيارة اليها، ومن الخزانات. اما السيارات الأخرى فلم تصل كالغان الا في الغد (١٦ حزيران). وقام السائقون ومعاونوهم بفحص السيارات. واقام لهم مدير البنك الروسي ــ الصيني حفلة عامرة.

كانت المرحلة التالية بلوغ اورغا، على مسافة ثمانمائة كيلومتر، مع انهم لم يبتعدوا خلال كل الأيام السابقة الا ٢٤٠ كيلومترا عن بكين. وكان على السيارات ان تعبر مسار شلال جاف، ذا انحدار شديد.

تعاون الجميع لقطع المسافة التي تفصل كالغان عن ارض العشب في منغوليا. ذلك ان بعض السيارات، خاصة ذات الدواليب الثلاثة، كانت تعوق التقدم.

وحين تخطت السيارات المسافة الأولى افضت الى منطقة صحراوية، لا يستهدي فيها السائقون الا بأعمدة الهاتف.

كانت الكيلومترات التسعون الأولى سهلة. وقد قضى الجميع ليلة هادئة. في الصباح، سارت السيارات، وقد تقدمتها ذات الدواليب الثلاثة. وتأخرت ايطالا. غير ان السيارة الأولى تخلفت، ولحق بها بورغيز وتخطى الجميع الى بونغ كونغ، حيث مكتب تلغراف وبئر. وشاء الصحفي بارزيني ارسال برقية الى جريدته، فأعطاه المسؤول ورقة عليها الرقم واحد، فاذا هي البرقية الأولى منذ اسس المكتب قبل ست سنوات.

مشكلة بونس ومشكلة غودار

كان بورغيز قد تخطى بونس. هل كان بونس بحاجة الى مساعدة؟ ظل الأمر سرا حتى اليوم. لم يكن بونس في منطقة صعبة على كل حال. وقد اتفق الجميع على انه لا يستطيع الاستمرار، فهل يقتنع؟ سيساعدونه ولكنهم لا يستطيعون التوقف من اجله كل مرة. والسباق هو السباق!.

ضحى غودار ببعض المحروقات واعطاها لبونس. وطلب من بورغيز ان يبرق الى مدينة اود ــ مركز التخييم التالي ــ لتحضر له البنزين، ولم يكن يعلم ان مدخرات بنزينه لا تكفي لقطع اخطر مرحلة من الصحراء.

تقدم بورغيز المتسابقين. وبعد مائة كيلومتر بلغوا صحراء غوبي. كان عليهم قطع عشرات الكيلومترات، في ارض قاحلة جافة صعبة المسالك، لا تقطعها القوافل نهارا ابدا.

بدأ العطش يضغط عليهم. واشتد التعب. ولكنهم التقوا قافلة تحمل البنزين مع برقية دوتايي. وادركوا ان السبايكر تعاني من نقص البنزين.

والواقع ان غودار نفدت محروقاته. فأعاره سائقا سيارتي دوديون بعض ليترات البنزين، على مضض. وبعد بضعة كيلومترات نفدت ثانية. وقد اكد دوتايي، فيما بعد، ان لديهما خزانين احتياطيين فيهما ثمانون ليترا، لم يمسا طوال الرحلة.



وصول بورغيز الى جريدة لوماتان.

اما بونس وفوكو فكانا وحيدين في الصحراء، يعانيان الجوع والعطش والحر. وقد حاولا جر سيارتهما الى اي مخيم بدوي ممكن. ولكن المنغوليين وجدوهما بعد يومين على وشك الموت. وبعد ان استعادا نشاطهما عادا الى بكين، وخلفا سيارة الدواليب الثلاثة في الصحراء.

التقى غودار ودوتايي القافلة التي حملت اليهما البنزين، فأنقذتهما. وبعد ثلاث ساعات بلغا اود. وتخطيا ستمائة كيلومتر وبلغا اورغا على بعد ستمائة كيلومتر. وابرق دوتايي الى جريدته معبرا عن فرحه بالانتصار: «تركنا اود، في قلب صحراء غوبي، الأحد، السادسة صباحا. ومضينا دون توقف الى اورغا، التي بلغناها الخامسة من الاثنين، قاطعين مسافة ٦١٧ كم بثلاث وعشرين ساعة».

علم دوتايي ان بورغيز انطلق نحو كياكتا، المدينة السيبرية. فقرر عدم الابطاء في الرحيل.

سيبيريا

لقي المتبارون بعض الصعوبات في منطقة الدالاي لاما، الذي اوشك ان يرفض السماح لهم باجتياز منطقته. ثم حاول شراء سيارة دوديون، فأقنعه كورمييه بأن يوصي الشركة على سيارة

جديدة، لأن سيارته لم تعد صالحة للعمل.

تخطى المتسابقون بعد ذلك الحدود النهائية للصين، ودخلوا سيبيريا. وكانوا يتوقعون يسرا وسهولة في اجتياز الطرق، اكثر من ذي قبل. ولكن صعوبات جمة واجهتهم. فالسبايكر اضطرت ان تجتاز احد المعابر المنحدرة الصخرية، راجعة الى الوراء، بينما دوديون جرتها الثيران. اما ايطالا فغرزت، لثقلها، في الوحل، وكاد بورغيز يعزف عن السباق. ولكنه استعان بالثيران، فلم تفلح. وخطرت لغيزاردي فكرة، فقد ادار المحرك، فخافت الثيران، وجمحت، فاقتلعت السيارة معها. وهكذا نجت من الفناء في الوحل.

وكان على السيارات قطع نهر بيرو. واستخدمت كل الوسائل الممكنة، فالمعبر مرمل حينا، موحل حينا. وبقيت السيارات ثلاث ساعات تقريبا حتى تخطت مسافة ثلاثمائة متر.

اخيرا بلغ الجميع كياكتا الروسية. فاستقبلوا بالشمبانيا والرقصات الفولكلورية. واعفى القيصر المتسابقين ورفاقهم من كل المعاملات التقليدية، وسمح لهم بالعبور بحرية.

وبدأت المرحلة الجديدة من السباق، تحمل ايطالا رقم (١) ودوديون الاثنتان الرقمين (٢ و ٣) والسبايكر الرقم (٤).

استؤنف السباق تحت وابل مطر مبكر ذلك العام. كانت الطريق موحلة، ذات مزالق. وتمكنت ايطالا من المتابعة ببطء، وعمدت السبايكر الى السير القهقرى. اما دوديون فاحتاجتا الى من يجرهما من الرجال.

باريس تستقبل المنتصر بورغيز على سيارة ايطالا.



ارتفعت معنويات المتبارين حين شهدوا قطار سيبيريا السريع، واتجهوا نحو بحيرة بايكال. وقد شعروا انهم انجزوا المراحل الصعبة الخطرة.

واذ بلغوا البحيرة سمح لهم بحمل سياراتهم على المراكب الى الجناح الآخر. ولكن صعوبات جديدة واجهتهم، وهي قطع الأنهار التي بدأت تفيض، وغدت جسورها فخاخا للسيارات.

فكر بورغيز بقطع الأنهر على جسور القطارات. وابرق الى سان بطرسبورج يطلب الاذن بذلك. فسمح له. وهذا ما حدا ببعضهم الى الاعتقاد انه تخطى الأنهار بالقطار.

ولكن بورغيز، بعد اجتياز الجسور الحديدية، انهار تحت سيارته الثقيلة جسر خشبي، وغدت معلقة كأنها رقاص ساعة. ولزم عون عدد كبير من السيبيريين لرفع السيارة التي استأنفت السباق.

وعانت سيارتا دوديون الكثير من الصعوبات. ولكنهما بلغتا ايركوتسك في الثالث من تموز.

اما غودار فوجد، بعد المصاعب، ان المحرك لم يعد يعمل. فأبرق الى الصناعي سبايكر، الذي ارسل اليه ميكانيكيا مع قطع غيار. ولكن غودار كان قد نقل سيارته بالقطار الى تومسك، حيث قام طلاب مدرسة البوليتكنيك باصلاح العطل. وكان غودار يود الارتداد شرقا الى حيث تعطلت السيارة، ولكن كورميي ابرق الى الجهات المختصة لحرمانه من متابعة السباق، ظنا منه ان غودار استخدم القطار في السباق، وهكذا التبس الأمر على اللجنة المنظمة.

رجع غودار مسافة (٨٥٠ كم) الى تومسك التي تركتها دوديون نحو موسكو. وكان على غودار ان يعوض المسافة والوقت اذ سبقه بورغيز باثنين وعشرين يوما. وابرق الى الميكانيكي الذي ارسله سبايكر لينتظره في اومسك.

٣٠ تموز، دوديون اجتازتا الحدود الأوروبية. في السابع من آب فوجىء الجميع ان غودار قطع مسافة ٥٥٠٠ كم في اقل من خمسة عشر يوما، متخطيا في اسبوع ما انجزه بورغيز. ولو كان غودار يملك حسن التنظيم والمعرفة الميكانيكية، لبلغ باريس قبل الجميع.

أخيرا أوروبا

تابع بورغيز خطته في اتقان شديد، رغم العقبات والوحل والمزالق، وخطر العصابات المسلحة، ورغم اشتعال النار جزئيا في سيارته. ولكن رفاقه انهاروا من التعب في اومسك. مع ذلك اجرى غيزاردي فحصا على السيارة، وغير الدواليب.

ثم اجتاز الأورال. ولكن الدولاب الخلفي تحطم. وكان على بورغيز ان يتخلى عن السباق. ولكن حدادا محليا صنع للسيارة دولابا بديلا. وقد انجزه في ثماني ساعات.

بلغ قازان، ثم نيجنينيفغورود، العاصمة القديمة. ثم موسكو التي جرى له فيها استقبال فخم. واغتنم غيزاردي الفرصة لفحص السيارة، وغير الدولاب الذي صنعه له الحداد المحلي.

ترك موسكو في ٣١ تموز. فلم يتجه مباشرة الى فارسوفيا وانما الى سان بطرسبورغ، ليقدم تحياته للجنة السباق الروسية فيها. في هذا الوقت كانت دوديون في الأورال، والسبايكر في سيبيريا. وقد واجهت السيارات الثلاث التي التقت في قازان أمطاراً شديدة، ووحولاً جارفة، فانخفضت السرعة الى عشرة كيلومترات في الساعة. ولم تتحسن الطريق الا بعد نيجنينيفغورود.

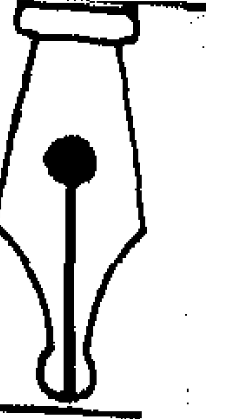
بلغت السيارات موسكو في ١٤ آب، بتأخير اسبوعين عن بورغيز. اما اجتياز بولونيا والمانيا وبلجيكا وشرق فرنسا فكان نزهة بالقياس الى ما لقيه المتبارون في الصين وسيبيريا.

مساء التاسع من آب قضى بورغيز الليل في (مو) بينما كان جمهور ضخم جدا ينتظره في باريس للاحتفاء بانتصاره وسيارته، رغم تخلف السيارتين الفرنسيتين دوديون!.

اما غودار فقد حرمته اللجنة من المرتبة الثانية. واقامت لجنة «لوماتان» للسباق الدعوى عليه وسجنته، ولكن المحامي انقذه.

ورغم ان غودار تصالح مع سبايكر فانه فضل العمل مع دوديون. اما دوتاييي ففضل السبايكر.

وحين دخلت السيارات باريس منع بعضهم غودار من الدخول. ونعت بالمحتال. فبكى بكاء حارا!. ●





جمال الدين الأفغاني الثائر.. العظيم

صبحي منذر ياغي

كان الاستعمار وما زال يتكالب على وطننا مستعملاً شتى الوسائل والأساليب لتجزئة الوطن العربي والدفع بأبنائه إلى حضيض الجهل والتخاذل. وكانت القوى التحررية الثائرة، وما زالت، تقف بوجه هذا الاستعمار القذر، تحطم مخططاته الخبيثة هادفة إلى توعية أبناء هذا الوطن العربي من المحيط إلى الخليج للوقوف صفاً واحداً بوجه القوى الاستعمارية الرامية للنيل من وطننا.. واستغلاله، والسيطرة عليه اقتصادياً وثقافياً.. وسياسياً..

وفي عام ١٨٣٨ وعندما استطاع الاستعمار الانكليزي احتلال عدن في جنوبي اليمن ولد الثائر «جمال الدين الافغاني» في بلدة تدعى (اسعداباد) وكان ينتمي إلى أسرة عربية الأصل والنسب يصل نسبها للامام الحسين بن علي بن ابي طالب! ولذلك كان جمال الدين الأفغاني يوقع مراسلاته باسم (جمال الدين الأفغاني الحسين).

لقد كان جمال الدين الأفغاني منذ نعومة اظفاره ميالاً إلى الذكاء يفتش عن المعرفة. فعندما انتقلت اسرته إلى ايران بعدما طردها امير افغانستان لخوفه من نفوذها، كان جمال الدين الافغاني يتردد إلى طهران ويجلس إلى علمائها يستمع للدروس العلمية ويشترك معهم بالأسئلة والمناقشة حتى نال اعجاب كبير هؤلاء العلماء فاشترى لجمال الدين الافغاني عمامة صغيرة وعباءة رجل دين!! وذلك لشجاعته وأدبه. وهكذا ارتدى جمال الدين الافغاني زي الرجل الديني رغم صغر سنه. لقد تلقى الأفغاني علومه في اللغة العربية في النجف عام ١٨٤٩ وذلك عندما سافر إليها مع والده. وقرأ الأحاديث النبوية والفلسفة الاسلامية.

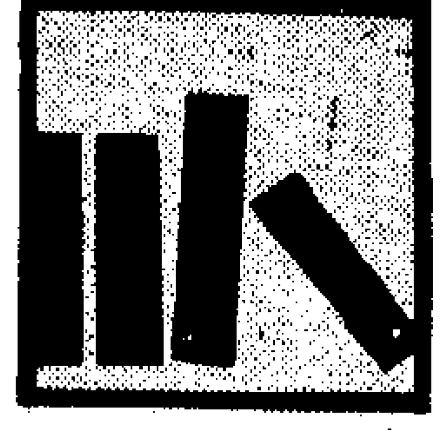
وهكذا كانت الأيام تتوالى.. وجمال الدين الأفغاني ينظر إلى العالم الاسلامي! كيف يتكالب عليه الاستعمار رامياً إلى احتلاله والسيطرة عليه، وكانت عزيمة التحرر تغلي في ذاته.. وكان قد بدأ ينشر أفكاره ومبادءه بين الشباب في كافة الاقطار العربية والاسلامية. وكانت أفكاره تلاقي، ترحيباً.. وتأييداً.. وهكذا انشأ الافغاني في مصر اول تنظيم سري دعاه (الحزب الوطني الحر) وذلك سنة ١٨٨١م ضد الاستعمار وقد أثار هذا الحزب خوف الخديوي توفيق حاكم مصر فسارع إلى نفي جمال الدين الأفغاني إلى الهند.

وعندما حدثت الثورة العرابية في مصر كان للحزب الوطني الحر الدور الأكبر فيها فسارعت الحكومة الانكليزية التي كانت تحكم الهند إلى

نفي الأفغاني إلى (بمباي) ومنها إلى (كلكتة).
وهكذا سافر جمال الدين إلى باريس فلحقه إليها تلميذه الشيخ محمد عبده، وكان هذا الأخير الرجل المدافع عن الحق دفاعاً حقيقياً وقال قوله الشهير: (من عرف الحق عزا عليه أن يراه مهضوماً). وهنالك أسس جمال الدين الأفغاني تنظيمه الجديد «العروة الوثقى» وقد استمد مبادئه من تراث الحضارة العربية الاسلامية وكان هذا التنظيم سرياً وكان أعضاؤه منتشرين في كافة أرجاء الوطن العربي والاسلامي وقد أصدر هذا التنظيم جريدة تنطق باسمه (العروة الوثقى) وكانت هذه الجريدة تساهم مساهمة فعالة في نشر أفكار ومبادىء التنظيم وإثارة المسلمين والعرب لتحقيق قضاياهم ولاسترجاع حقوقهم وتثبيت أقدامهم بعزيمة وبأس. وعندما توقفت جريدة العروة الوثقى عن الصدور ظل الناس ينسخون مقالاتها بأيديهم ويتناقلونها فيما بينهم. وكان جمال الدين الأفغاني يوقع كتاباته في أكثر الأحيان باسم (مظهر بن وضاح).

وبعد انتقال جمال الدين الأفغاني إلى تركيا بعد أن دعاه إليها السلطان (عبد الحميد) توفي فيها عام ١٨٩٧ بعدما قضى حياته داعياً الشعوب المستضعفة إلى نيل حريتها وكرامتها وإلى التحرر من نير الاستعمار والعبودية.

حقاً مات جمال الدين الأفغاني لكن أفكاره كانت وما تزال وستظل مشعل الحقيقة الذي يضيء لنا الطريق ويبدد أمامنا دياجير الجهل والتخلف. ●



الكتب المهداة إلى مجلة «تاريخ العرب والعالم»

□ **تلك الأيام مذكرات وذكريات (١)، (٢)**
● سيرة انسان، ومسيرة دولة، ومسار أمة
منشورات دار الآفاق الجديدة — بيروت .... الدكتور حليم سعيد أبو عز الدين

□ **الجوهر النفيس في سياسة الرئيس**
دار الطليعة — بيروت .... تأليف: ابن الحداد
تحقيق ودراسة: الدكتور رضوان السيد

□ **الأسس البيولوجية لسلوك الإنسان**
منشورات دار الآفاق الجديدة — بيروت .... الدكتور ابراهيم فريد الدُّر

□ **شرح لامية العرب**
لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري
٥٣٨ — ٦١٦ هـ
دار الآفاق الجديدة .... تحقيق وتقديم:
الدكتور محمد خير الحلواني
كلية الآداب — جامعة الرياض

□ **التقاط الدرر، ومستفاد المواعظ والعبر**
من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر
لمحمد بن الطيب القادري ١١٢٤ — ١١٨٧ هـ
دار الآفاق الجديدة — بيروت .... تحقيق:
هاشم العلوي القاسمي

□ **العسكرية العربية الإسلامية**
عقيدة وتاريخاً، وقادة وتراثاً، ولغة وسلاحاً
دار الشروق.. تأليف:
اللواء الركن محمود شيت خطّاب

□ **رسائل في الفقه واللغة**
الطبعة الأولى — ١٩٨٢
دار الغرب الاسلامي — بيروت .... تحقيق:
الدكتور عبد الله الجبوري

□ **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**
طبعة جديدة فريدة ومنقحة — ١٩٨٢
دار الغرب الاسلامي — بيروت .... محمد العمروسي المطوي

□ **تراجم المؤلفين التونسيين (الجزء الأول)**
الطبعة الأولى — ١٩٨٢
دار الغرب الاسلامي — بيروت .... محمد محفوظ

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا



نيويورك

لندن
باريس
كوبنهاغن
فرانكفورت
بروكسل
جنيف
مدريد
زوريخ
تونس
نيس
مونروڤيا
ميلانو
ابيدجان
روما
لاغوس
اثينا
كانو
اسطنبول

بيروت

مسقط
القاهرة
رأس الخيمة
لرنكا
أبوظبي
انقرة
دبي
عمان
الدوحة
بغداد
البحرين
جدة
الظهران
الخرطوم
الكويت
عدن

معهد الإنماء العربي

شكيب أرسلان
مقدمات الفكر السياسي

د. محمد شفيق شيّا

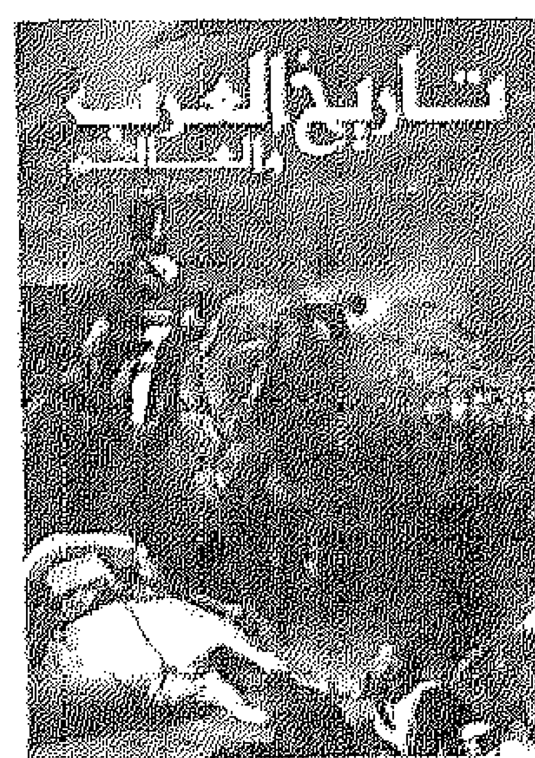
كتاب الفكر العربي ٤

تاريخ العرب والعالم

السنة الثامنة • العدد ٥٦ • حزيران (يونيو) ١٩٨٣م • الموافق رمضان ١٤٠٣هـ



روائع الفن الاسلامي في غرناطة



الغلاف الأول

□ نابليون بونابرت يقود الفرنسيين في معركة «ريفولي» ١٤ ك٢ ١٧٩٧

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العدد ٥٦ ــ حزيران ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ١٢٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدما نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 5 — No. 56 June 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION: $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزَّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

الثورة السورية الكبرى

الحلقة الثانية

د. ادمون رباط

تعريب: د. محمد المجذوب



تحدث الدكتور رباط في القسم الأول من دراسته (المنشور في العدد الماضي) عن اندلاع الثورة السورية وانتشارها وانتقال مركز قيادتها من جبل الدروز إلى غوطة دمشق ويتحدث الآن عن القمع الوحشي الذي مارسته قوات الانتداب ضد مدينة حماة، والاشتباكات الدامية التي جرت في الغوطة والقصف الهمجي الذي تعرضت له أحياء دمشق وهز مشاعر الناس، داخل الوطن العربي والإسلامي وخارجه

ثالثاً ـ القمع في حماة

وهكذا وصلنا إلى الأيام الأولى من شهر تشرين الأول (اكتوبر)، فبلغ غليان الخواطر أوجه، وامتدت الثورة باتجاه الشمال، كبقعة زيت زاحفة. وبعد عدة أيام، تفجر في مدينة حماة هياج شعبي «أثاره نقيب في الفرقة الأجنبية السورية»، هو فوزي القاووقجي[٣١].

وفي الساعة التاسعة من مساء ٤ تشرين الأول (اكتوبر)، انقض فوزي على المدينة، وكان على رأس عدد من رجاله ومن البدو الذين كانوا مخيمين في الضواحي منذ مدة، وحاول احتلال السراي حيث كان يقوم مستودع للأسلحة والذخائر. وكان النقيب يأمل في جر كل أفراد سريته إلى مسيرته، ولكنه اصطدم بقسم من رجاله كان بامرة ملازمين فرنسيين وظل، طوعا أو كرها، على ولائه. وبعد معركة حامية دامت ساعتين، احتل فوزي السراي واستولى على الأسلحة. وتوجه الثوار، بعد ذلك، إلى الثكنتين اللتين كانت تدافع عنهما حامية سورية بقيت خاضعة لامرة ضباط فرنسيين. واستغرقت المعركة الليل بكامله. وعند الفجر، دُكّت الأبواب، غير أن الحريق، الذي شب، كما يبدو، بفعل انفجار القنابل اليدوية التي ألقتها الحامية المهزومة، كان قد التهم المباني المحتلة وامتد إلى الجوار[٣٢]. وتحولت السراي، مع مبنى البلدية، وبنايات أخرى، وسوق بكامله، إلى ركام.

وفي اليوم التالي، وصلت سريتان من السنغاليين وانقضتا على المدينة بمساعدة الطائرات ودبابات الاقتحام والقذائف، فسمح ذلك باعادة النظام إلى نصابه.

ونهار الثلاثاء في ٦ تشرين الأول (اكتوبر)، أعلن بيان صادر عن القيادة العسكرية الأحكام العرفية، ومنع التجول في المدينة من الساعة السادسة مساء حتى السادسة صباحا، كما حظر الاجتماعات العامة، وأخطر السكان بأن بوسع الجنود إطلاق النار على كل شخص يخالف هذه الأوامر.

وتضاعفت الاعتقالات في الأيام التالية، وظلت، بلا عقوبة، انتهاكات المنازل والاعتداءات على الأشخاص والأملاك، والتي ارتكبت غالبا في ظروف غير انسانية. ونهار الأربعاء في ١٤ تشرين الأول (اكتوبر)، فرضت القيادة غرامة جماعية على المدينة، فكان على السكان، خلال فترة ٢٤ ساعة، تسليم مئة بندقية مع كمية محددة من الذخائر، وإلا تعرضوا للقصف. وعندما استحال على المدينة الحصول على الكمية المطلوبة، منحها المستشار الفرنسي مهلة جديدة، ولكنه ضاعف مقدار الغرامة. وبما أن الشرط لم ينفذ في اليوم الموعود، فقد أمر بقصف المدينة، فهدمت أحياء بكاملها، وسقط ضحية القصف عدد غير محدود من السكان، من كلا الجنسين ومن كل الأعمار[٣٣]. ولم يكن قمع حماة إلا مقدمة للأعمال القمعية التي ضرجت (والكلمة ليست شديدة جدا) سوريا بالدماء، خلال أشهر طويلة.

وهناك وثيقة تسرد، بموضوعية، مراحل القمع الذي أعقب قضية ٤ تشرين الأول (اكتوبر). وهي تقرير موجه إلى المفوض السامي من قبل متصرف (محافظ) حماة نفسه، فيضي بك الأتاسي. وقد ورد فيه ما يلي:

«... أعتبر أن من واجبي أن أطلع سعادتكم على الأعمال الوحشية التي ارتكبت على أثر أحداث ٤ و ٥ تشرين الأول (أكتوبر). وأعتقد أن هذا الواجب يقع على كاهلي لسببين اثنين: أولا، لاعتباري مواطنا وموظفا سوريا، ثم لاعتباري مؤيدا مؤمنا بالانتداب، وحريصا على سمعة فرنسا في المشرق...

«... إن الأخطاء المتراكمة، والفظائع المقترفة، قد أدمت، بلا شك، كل القلوب في حماة، وهي فظائع لا يبررها شيء وتدينها قوانين البلاد وقوانين فرنسا.

....

«... وعندما أعيد الهدوء في اليوم التالي (للتظاهرة)، بدأت السلطة الفرنسية في حماة بإلقاء القبض على الناس واعتقالهم، دون أدنى اهتمام برأي السلطات المحلية. ولم يميز بين الوجهاء والمثقفين ولصوص حماة والموظفين، فاعتقلوا دون أسباب وجيهة في أغلب الأحيان. ولولا الخوف من أن يصبح هذا العرض طويلا جدا، لقدمت إلى سعادتكم تحليلا للدوافع التي بررت هذه الاعتقالات وكانت أحياناً قليلة الرصانة والنزاهة.

«... وباختصار، فقد فرضت على المساجين، منذ ان جرت الاعتقالات، أوضاع لا أستطيع الامتناع عن وصفها بالمخزية: ان هؤلاء المساجين الذين زج بهم في أمكنة ضيقة قد تعرضوا لأسوأ أعمال التعذيب وأسوأ أنواع التحقيقات التعسفية. وفرضت عليهم كل ضروب السخرة... وكانوا يعرون أحيانا بشكل كامل ليضربوا. وكان الضرب بالعصا يستمر إلى أن يغمى عليهم. ومن بين الذين تعرضوا لهذه المعاملة، أذكر لكم على

وجه الخصوص: شمسي بك العظم... وأبو الهدى اليافي... وقد أخلي سبيل الاثنين الآن... وكان هذا الأخير قد طلب تزويده بصحيفة، فوصل الأمر إلى الملازم (...)، وهو ضابط استخبارات بالنيابة، فأمر باحضاره وتعريته وضربه دون شفقة. وقال له: «أتريد أن تطلع على مجرى أحداث دمشق؟ حسنا! إعلم أننا سنهدم كل المساجد، وأنه لن يبقى في سوريا إلا الراية الفرنسية...». فهل هناك شريعة في العالم تجيز إنزال أعمال وحشية مماثلة وإهانات مماثلة بمتهم ما؟ وهل سينسى سكان حماة هذه الفظائع التي شهدوها؟

«وبحجة... أن رصاصة أطلقت، بعد التظاهرة بعدة أيام، على الثكنة، من أعلى المئذنة في أحد المساجد، فرض على المدينة تسليم عدد معين من البنادق في مهلة محددة. وعند انتهاء المهلة كان عدد البنادق غير كامل. وكانت النتيجة: قصف المدينة بالمدفعية والطيران...

«وهذا، يا صاحب السعادة، جزء من الوقائع التي جرت في حماة. وغرضي هو اطلاعكم على مجرى الأحداث»(٣٤).

وعلى الرغم من تأكيدات وجهاء مدينة حماة، التي كانت تهدف إلى استدرار شفقة المنتصر، فليس بالامكان اعتبار التظاهرة عملا قام به بعض البدو بقيادة فوزي القاووقجي. «إذا كان النقيب قد أحضر عددا منهم... فانهم كانوا من القلة بحيث لم يكن من الصعب على قبضة من الجنود والدرك ردهم فورا... لقد برهنت حماة دوما على كراهيتها الصارخة للانتداب... وكان من السهل إثارة تظاهرة ما في مدينة كهذه. وكان بالامكان أن تترتب نتائج خطيرة على نجاح التظاهرة وسيطرة الثورة، ولو لعدة أيام، على حماة والاستيلاء على مستودع الذخيرة فيها... لقد سلم النظام في هذه المنطقة بفضل إخفاق الحركة والتدابير القمعية التي أعقبته...»(٣٥). وهكذا تفجرت الثورة، في حماة أيضاً، كما في كل مكان، بصورة عفوية ودون سابق تصميم.

وبعد قمع حماة، تمركز الثوار في الضواحي وحاولوا التقدم نحو الشمال بهدف توسيع رقعة الثورة حتى الوصول إلى الأماكن المقفرة لمنطقة حلب. وبتحريض من القاووقجي، هاجمت قبيلة الموالي كوكب والحمدانية، وهما محطتان على طريق سكة حديد رياق ــ حلب، وحاصرت، لمدة ساعات، معرة النعمان. ولكن الثوار ردوا عنها، كما ردوا عن إدلب، القصبة الكبيرة التي تقع على بعد ٤٠ كلم من حلب. وساعدت أوضاع الأرض، المسطحة والخالية من الملاجىء، الطيران على إنهاك الثوار وإجبارهم على الانكفاء بسرعة إلى الجنوب، وإكراه البدو على الارتداد نحو الشرق.

ولم يبق في المنطقة إلا عدة مجموعات مسلحة فقط، عدد المغامرين فيها يفوق عدد الثائرين، اعتادت، منذ عام ١٩٢٠، على التجمع في الأراضي التركية، على بعد كيلومترات من حلب، لابتزاز أموال المسافرين والتفرق عند ظهور أصغر دورية. إن حالة من اختلال الأمن النسبي كانت دوما تسود المنطقة وتسبب، منذ سنوات، لفلاحي الأرض الآمنين المقيمين حول المدينة قلقا مستمرا. وكان من المنتظر أن تؤدي جهود الثوار، عاجلا أم آجلا، ورغم هذا الاخفاق الأول، إلى إدخال هذه العناصر غير النظامية في نطاق نشاطها.

رابعاً ــ ثوار الغوطة

وخلال هذه الفترة، اشتد الغليان حول دمشق. وفي الغوطة، كانت الجماعات المسلحة، المكونة محليا والمتضخمة باستمرار بانضمام المجندين الجدد الوافدين من المدن إليها، تتصرف كأنها في مقاطعة محتلة، فتجوب الحدائق، وفي غياب الجند الفرنسيين تتحالف فيما بينها لتخضع لقيادة موحدة وتنشىء حكومة وطنية ثائرة. وأصبح سلطان الأطرش قائدها العسكري الأعلى، وتولى الدكتور شهبندر القيادة السياسية للحركة.

وغدت هذه الجماعات، يوما بعد يوم، أكثر عدائية. وباستثناء الجماعات التي كانت تضم دروز «الجبل» فقط، الهابطين إلى السهل، والتي كانت اكثر انتظاما، فان معظمها كان يختار، قادة وجندا، من بين صفوف الشعب البسيط. واحداها، وقد أصبحت اسطورية، كانت بقيادة حارس ليلي بسيط في دمشق، اسمه حسن خراط، لم يكن لديه، كمرتب يعيش به، إلا بضع ليرات بائسة.



□ فوزي القاوقجي، وهويته العسكرية.

وبعد صرفه من الخدمة بسبب تصرف لا نعلم مقدار تفاهته، سارع إلى الغوطة، على رأس بعض الأنصار الذين تكاثروا بسرعة.

وخلال العمليات العسكرية لشهر تشرين الأول (اكتوبر)، وإلى أن قصفت دمشق، فان أكثر المضايقات التي تعرضت لها السلطات كانت تأتي من جماعته. وحاولت يوما كتيبة درك، مكونة من ٦٢ عنصرا، تطويقها. فبعد جولة في القرى، وصلت الكتيبة في الليل، دون مضايقة، إلى ضاحية مليحة الغارقة في الحدائق الكثيفة. وغفا الرجال آمنين مطمئنين بعد أن أنهكهم السير لمدة ١٢ ساعة. وفي الليل أسرتهم جماعة خراط وهم في الفراش.

ويبدو أن هذه الحادثة الهزلية[٦٦] قد أقلقت السلطة العسكرية كثيرا، لاسيما وأن إشاعة انتشرت آنذاك مفادها أن جبل الدروز ترك لمصيره وجرد كليا من الجند الفرنسيين. لقد تجمع هؤلاء الجند، وكان عددهم غير كاف، حول دمشق، حيث كان كل شيء ينبىء بأحداث خطيرة، بهدف تطهير ضواحيها، إن كان ذلك ممكنا. وخلال الأشهر التالية، استخدم الجبل، بالفعل، بعد أن تخلص من هجمات الطوابير الفرنسية، كقاعدة عسكرية للثوار، وملجأ لهم عند الاخفاق، وخزان لا ينضب من المحاربين[٣٧].

وفي ١٢ تشرين الأول (اكتوبر)، غادر دمشق، بأبهة، طابور بقيادة النقيب مورو (Moreau) لمطاردة الجماعات المسلحة. وكان الطابور مكونا من عناصر هجينة يختلط فيها المشاة بالخيالة الفرنسيين. وكان يساند الطابور جراكسة وزهاء ١٢ دركيا سوريا.

وعلم، فيما بعد، أن هذه القوة خاضت، صباح ١٣ تشرين الأول (اكتوبر)، ضد حسن خراط، معركة حامية استمرت حتى مغيب الشمس. وفي اليوم التالي، أعلن بيان رسمي أن جماعة خراط أبيدت، تاركة فوق أرض المعركة زهاء مئة قتيل، وأنها لم تعد تضم إلا مئتي مناصر. وعاد الطابور منتصرا إلى دمشق، يتبعه رتل من الجمال على ظهرها ٢٤ جثة ملفوفة بسجاد مثقوب. وجاب بها الجركس، بوجوه تنضح بالنصر، شوارع المدينة لمدة طويلة. وحملت جمال أخرى غنائم وافرة، لوحظ بينها سجاد وأدوات فضية وأجهزة من



□ نسيب بك البكري: رشح لامارة سوريا سنة ١٩٢١ واحد زعماء الثورة السورية.

الحاكي (الفونوغراف). وسار في نهاية الموكب قطيع من الحيوانات والجياد والبقر. ولكي تدرك دمشق ما كان يتهددها، فقد توقف الموكب أمام دار البلدية وبقي معروضاً أمام أنظار الجمهور لمدة خمس ساعات متواصلة.

وأكد، فيما بعد، قرويون التجأوا إلى دمشق أن الجركس قاموا، في القرى التي دخلوها، ولاسيما قرى مليحة ودير مجدل ويسرين، بأعمال السلب والحرق والقتل على مشهد من الضباط الذين كانوا يقودونهم[٣٨].

وبعد عدة أيام، عرض وفد، مكون من وجهاء دمشقيين، كان بينهم الأميران سعيد ومحمد الجزائري، حفيدا البطل الجزائري عبد القادر، شكواه على بريفا ـ أوبووار (Privat-Aubouard)، مندوب المفوض السامي بالنيابة. ولكن هذا الموظف السامي أجابهم بأعصاب هادئة: «ذلك كان قرار رئيس دولتكم، صبحي بك بركات، وقد أخذه بموافقة وزرائه. وفيما يتعلق بنا فنحن من رأيه»[٣٩].

وشجع هذا الحديث، الذي تناقلته الألسن في كل مكان، أعمال القمع التي كانت تقوم بها «فرق مساعدة» تعمل بامرة ضباط فرنسيين. وعلم، بعد أيام، أن القرية الدرزية جرمانا قد نهبت ودمرت كالعديد من القرى الأخرى قبلها. وشوهدت في أسواق دمشق وبيروت غنائم الأيام الأخيرة معروضة للبيع بأبخس الأثمان[٤٠].

ويمكننا القول أن مثل هذه التجاوزات لم يرتكب إلا حينما دخل الجركس على الخط، ومعهم، بعدد أقل، المساعدون الأرمن[٤١]. ولكن المسؤولين الحقيقيين هم هؤلاء الذين استغلوا همجيتهم الفطرية فسلحوهم وأطلقوهم ينهبون ويقتلون. ومهما يكن سبب هذا التصرف (النقص في الفرق النظامية أو الذعر العام)، فان استخدام مثل هؤلاء المرتزقة كان خطأ لا يغتفر. والأحداث التي ستجري في دمشق، ستكون، جزئيا، نتيجة السخط الذي سببته آثامهم التي أدت إلى إخلاء الغوطة من السكان وألقت في أحضان الجماعات المسلحة أولئك الذين كانوا ضحاياها[٤٢].

خامساً ـ قصف دمشق

تواصلت الهجمات، لعدة أسابيع، على تخوم العاصمة. وبرهنت الغزوات التي بلغت الضواحي على إرادة الثوار الثابتة في اقتحامها. وكان من السهل عليهم، افراديا، التسلل اليها في وضح النهار، والانصراف إلى أعمالهم فيها، ثم العودة مساء إلى جماعاتهم المسلحة المناوشة... وكانت المدينة الكبرى التي يحرسها عدة مئات من الجنود ويقيم فيها شعب محموم، ولكنه وطني على الأخص، توحي، إلى أقل الناس فطنة، بوجود هياج غير عادي. وكانت الخواطر التي هزتها بشدة انتصارات الدروز واتساع العصيان المباغت، والتي بقيت دون قيادة منذ فرار أو اعتقال الوجهاء السياسيين الذين كانوا يشكلون الثقل في «حزب الشعب»... كانت هذه الخواطر ترتاع لأقل إنذار. وكان يسود، هنا أيضا، شعور بأن الحرب كانت وشيكة. «وفي ١٥ تشرين الأول (اكتوبر)، أعلن أن هناك مجموعة من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ فارس ومئة رجل يمتطون الجمال، بالقرب من المدينة، حيث لوحظ كثير من الهيجان. وأرسلت كتيبة لتفريق المجموعة المشار

إليها. ولكن عددا من الدروز المسلحين تسلل، خلال هذه الفترة، إلى الحيين الجنوبيين (الميدان والشاغور) حيث يقطن القسم الأكثر فقرا والأكثر شغبا من السكان»[٤٣].

وانتشر عندئذ نبأ مفاده أن السلطات عازمة على قصف هذين الحيين لوضع حد لأعمال الثائرين الذين يتنقلون فيهما بحرية وبتواطؤ من السكان. وساد المدينة بعض الهلع. وتوجهت العائلات القادرة نحو بيروت. وصدر بيان رسمي ــ وهو أمر مستغرب ــ نفى النبأ وحاول منع النزوح. ولكن ما حل بحماة جعل الوجهاء يرتابون، فقام وفد منهم يطلب من رئيس الدولة، صبحي بك بركات، التدخل لدى السلطات العسكرية بغية الحيلولة دون قصف دمشق، وصد هجمات المسلحين خارج المدينة نفسها. ووعد الرئيس بركات، الذي كدرت تجاوزات الجند المساعدين في القرى المحتلة علاقاته بدولة الانتداب، على ما يبدو، بأن يعمل اللازم. وقيل أنه ألمح ــ ولكنها بادرة غير مؤكدة ــ إلى وجود معارضة شديدة تحاول التحريض على استدعاء الجنرال (ساراي) بكل الوسائل، ولو تم ذلك بتكرار مأساة حماة على نطاق أوسع.

وتشكل وفد، بالاتفاق مع رئيس الدولة، لمقابلة المفوض السامي، الذي كان آنئذ في دمشق، ومطالبته بالحفاظ على المدينة في حال حدوث اضطرابات. ولكن الأوان كان قد فات، لأن أحداث اليوم التالي أتت تتسبب في حدوث ما لا سبيل إلى إصلاحه[٤٤].

فحوالي العاشرة من صباح الأحد في ١٨ تشرين الأول (اكتوبر)، حصلت مشاجرة بين الجركس في فندق في سوق الخيل، وأصابت رصاصاتهم الطائشة بعض المارة. وأعقب ذلك هلع أقفلت المحلات على أثره، وتجمع السكان في منازلهم، وظهرت في جادة جمال باشا سيارات مصفحة. وجاب المدينة فارسان مجهولان يصرخان: «وصل الجند»، ثم انسحبا. ولم يعد، بعد ذلك، يسمع أو يرى شيء[٤٥]. وهبت زوبعة، وغطت دمشق سحابة من الغبار. وأقفرت الشوارع.

وحوالي الرابعة مساء، لعلع صوت رصاص



□ الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، القائد السياسي للحركة السورية.

قوي، مصدره، كما بدا، الأحياء الجنوبية للمدينة.

وظهر ثوار في باب الجابية، فهاجمتهم القوات السورية التي نقلت إلى جادة جمال باشا، وفرقتهم في بضع دقائق. وانسحبت فورا جماعة نسيب بكري التي كانت قد وصلت إلى حي الميدان[٤٦].

حينئذ ظهر حسن خراط فجأة في حي الشاغور واتجه نحو قصر العظم، مقر المفوض السامي، معتقدا أن بوسعه أسر هذا الأخير. ولكن الجنرال (ساراي) كان، في هذه اللحظة العصيبة، في القطار عائدا من أزرع إلى دمشق التي وصلها حوالى السادسة وتوجه مباشرة إلى مرتفعات الصالحية المحصنة. ولولا غيابه في ذلك اليوم لأسرته جماعة خراط بسهولة.

ومن هذه الناحية، وفي حين أن أية مقاومة لم تحاول عرقلة مسيرة الثوار، فان الدرك السوري، المدعوم بدبابة واحدة فقط، والموجود في حي الدرويشية، على بعد كيلومترات من قصر

العظم، استطاع دحر جماعات أخرى وإجبارها على الفرار.

وخارج نطاق هذا الموقع حيث جرت محاولة للرد، بالاضافة إلى ما حدث في جادة جمال باشا، فقد سادت في كل مكان لا مبالاة، بدت أنها مصطنعة، سهلت اقتراب المجاهدين(٤٧).

وفجأة، ووسط البلبلة العامة، ودون إنذار مسبق، وبلا أي إخطار، وسواء أكان الدافع في النهاية إنجاز خطة موضوعة سلفا أم اليأس من الوضع، فقد دوت المدافع حوالى الخامسة من مساء الأحد في ١٨/١٠/١٩٢٥. ومن المواقع المحصنة في حي الصالحية في الشمال، المحاط بالأسلاك الشائكة والمتاريس، تساقطت القذائف، دون انقطاع، على بقية المدينة، وبشكل خاص على الأحياء الجنوبية: الشاغور والميدان والدرويشية. غير أن الثوار كانوا قد غادروا المدينة مع اطلاق القذائف الأولى للمدفعية.

ولم تصمت مدافع الحصون إلا في الليل. أما أزيز القذائف المنطلقة من الدبابات فاستمر حتى الصباح.

غير أن مدافع القلعة الواقعة في قلب المدينة عاودت، فجر الاثنين، إكمال المجزرة، فانهارت المنازل والقصور القديمة والآثار على سكانها. وكانت الأوساط المكتظة بالأهالي، والأحياء التجارية في المدينة، هي المقصودة، بصورة خاصة. واستمر هذا الجحيم، حسب أقوال السكان، حتى الثلاثاء في ٢٠ تشرين الأول (اكتوبر)، ولم يتوقف إلا قبيل الظهر(٤٨).

وفي صباح ذلك اليوم، جابت الحي دبابات الاقتحام، مطلقة النار يمنة ويسرة، وناشرة الموت والارهاب. وفي نفس الوقت، كان يتم القبض على كل مارّ يصادف في زوايا حي الصالحية، سواء أكان هاربا أم ثائرا، ويقاد إلى حديقة الكركي ويعدم على الفور بطلقة مسدس(٤٩).

وحوالى الساعة العاشرة، التمس وفد من الوجهاء من الجنرال غاملان (Gamelin) إيقاف القصف، فأجاب ــ والواقعة رواها الوفد نفسه ــ بأنه لن يأمر به إلا بعد تحقيق الخطة المرسومة التي تقضي بقصف دمشق حتى الظهر(٥٠).

وفرض الجنرال، في نفس الوقت، على المدينة تعويضا مقداره مئة ألف ليرة ذهبا، وتسليم ثلاثة آلاف بندقية بذخائرها. وقبلت الشروط فورا. وبعد نصف ساعة توقفت المجزرة. وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة والنصف. وكان القصف قد دام ٤٨ ساعة(٥١).

وأنجز الجنرال، خلال نهارين وليلتين، مهمة تدميرية مشؤومة، وحصد أناسا، دون تمييز من حيث العمر والجنس. لقد فاجأهم الموت في مآويهم التي تقوقعوا فيها من شدة الفزع، وباغتتهم القذائف دون إنذار مسبق. وعندما أصبح الفرار مستحيلا، تحت نيران المدفعية والرصاص، المتزامنة والمتقاطعة، سقطوا بغزارة ضحية أشنع مجزرة عرفها تاريخهم المعاصر.

وجاء الحريق الذي سببته، بلا شك، القنابل المحرقة والقذائف الصاروخية، الموجهة إلى أكواخ الأحياء الفقيرة، يكمل عملية الموت التي أنجزتها المدفعية الفرنسية. لقد دمرت أسواق بكاملها، ودفنت تحت أنقاضها جثث سكانها المفحمة(٥٢).

ومن العسير إحصاء الخسائر في الأرواح والأملاك، فلم يجر يوماً إحصاء للجثث. ولكن الرأي العام يقدرها بعدة مئات. أما الخسائر المادية فانها فادحة. وكان يكفي، خلال سنوات، القيام بجولة بسيطة في الأحياء المتضررة لادراك مدى الدمار الحاصل. وقد أعلن الجنرال (ساراي) في لجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب أن «ثلاثمئة منزل من اللبن قد انهارت أرضا في حي الشاغور وحي الميدان». وهذا الرقم ضخم إذا فكرنا في أن ثلاثمئة مأوى مدمر تمثل، على أقل تقدير، ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ شخص دون مأوى(٥٣).

غير أن هذه الأحياء، التي وجهت إليها تهم كثيرة ودمرت كليا تقريبا، ليست هي الوحيدة التي تضررت، فهناك أحياء تجارية في وسط المدينة، كسوق مدحت باشا، وباب الجابية، وباب السروجة، والقنوات، وباب البريد ، وأعمدة بأكملها، كانت فريسة اللهب والقذائف، وانهارت أرضاً. وهي تثبت، لأكثر العيون غشاوة، مقدار الخراب الذي أحدثه القصف. إنها وقائع فاضحة عجزت الادعاءات الرسمية عن إنكارها.

ومع هذا فلم يكن هناك أية ضرورة حربية تبرر مثل هذه الوحشية(٥٤). لقد اعتبروا أن الدافع إليها هو الصعوبة، التي كانت تمثلها حرب الشوارع، في مقاومة عدو كثير العدد كان يجب القضاء عليه لتجنب مجزرة يذهب ضحيتها المسيحيون والاوروبيون الموجودون داخل المنطقة المجتاحة(٥٥).

لقد استطاعت جماعات من زهاء مئة رجل التسلل إلى المدينة. وسهل السكان عملية تقدمها. وكان ذلك يمثل كل أفراد التظاهرة، وهو عدد ضئيل إذا ما قيس بعدد الذين يبثون الفوضى في المدن الأوروبية. وأعلنت البيانات الرسمية أن هذه الجماعات تسللت منذ الصباح إلى المدينة. ونحن نعجب، في هذه الحالة، لعدم تعرضها، حتى المساء، لأية مقاومة، باستثناء المجابهة التي تلقتها من بعض الدرك السوري في جادة جمال باشا وحي الدرويشية.

وكان ضيق الشوارع يمثل، على الأصح، عاملا ملائما للقوات النظامية. فالأحياء القديمة، التي كانت مشتل التظاهرة، محاطة بمسالك عريضة من الشوارع والجادات التي شقت حديثا. وكان يكفي، للتغلب على الثوار، سد منافذها ومحاصرة جوانبها.

وبالاضافة إلى ذلك، فالاضطرابات كان يمكن تلافيها فيما لو اتخذت التدابير اللازمة. فقد علمت القيادة العليا، منذ ٢٤ آب (أغسطس)، بهجمات الجماعات على دمشق، التي تكررت أكثر من مرة، وكان بمقدورها تجنب عودة هذه الهجمات وانقاذ المدينة من النكبة والخراب. وساد المدينة، ما بين ١٥ و ١٨ تشرين الأول (اكتوبر) جو من الترقب. وما زال السكان يتذكرون تلك اللحظات التي كان القلق فيها يتفاقم ساعة بعد ساعة، والهواجس تهصر القلوب، وكل شيء ينبه السلطة إلى الكارثة الوشيكة. ولكن السلطة لم تقم بشيء، أو أنها لم ترغب في القيام بشيء. لقد كانت هناك خطة مرسومة. وكان تدمير جزء من المدينة (الشاغور والميدان اللذين يمثلان في دمشق ضاحية شبيهة بضاحية سانت انطوان في باريس) أمراً متوقعاً.

أما الحجة التقليدية فكانت: التذرع بمقتل بعض الأرمن، مساء ١٨ تشرين الأول (اكتوبر)، لاتهام الثورة بمتابعة إبادة المسيحيين والاوروبيين. وكان من السهل تنفيذ هذا المخطط غير المقبول لو كانت تلك هي نية الثوار. فخلال القصف كان حي باب توما، حيث كان يتجمع العنصر المسيحي، وسيبقى، خلال الأيام المقبلة، خالياً كليا من الجند. وكل من يعرف تنظيم المدينة يدرك أن الحي المسيحي كان من الأحياء المعرضة أكثر من غيرها لرصاص الجماعات المسلحة. وخلال فترة الثورة كلها، لم يُنكل بأي مسيحي، ولم يُنهب أي بيت مسيحي. وكان من الواضح أن الثوار قد تعمدوا عدم إثارة القلق في نفوس المسيحيين، في الوقت الذي لم يتوانوا فيه عن النهب والتخريب في الأحياء الاسلامية عندما كان يدفعهم إلى ذلك ثأر شخصي أو حدة المعركة.

وبالاضافة إلى كل ذلك فهناك رد رسمي، ذو أهمية كبرى، على كل الاتهامات التي وجهت إلى الجماعات المسلحة، وعلى كل المبررات التي أعطيت للقصف. إنه احتجاج السلك القنصلي في دمشق، الذي رفعه عميده، في ٢١/١٠/١٩٢٥، غداة المأساة، إلى مندوب المفوض السامي. وهذا هو نصه الكامل:

«السيد المندوب،

«كلفني السلك القنصلي أن أنقل إليكم المعلومات التالية عن أحداث دمشق.

«إن سلطات الانتداب، بالتبليغات الشفهية والمكتوبة، الموجهة، في عدة مناسبات، إلى القناصل، وبالبلاغات المنشورة التي أعلنت استتباب الهدوء التام في دمشق، قد تعهدت للأجانب بضمان سلامتهم في هذه المدينة. وعلى أثر هذه التعهدات الرسمية الصادرة عن السلطة التي تعتبرها عصبة الأمم والحكومة الأميركية مسؤولة، لم ينصح القناصل، رغم قلقهم، رعاياهم بمغادرة المدينة.

«ومن ١٨ إلى ٢٠ من الشهر الجاري، وعلى أثر غارة قامت بها **جماعة ضئيلة العدد تساعدها عناصر قليلة من السكان، ارتأت سلطات الانتداب، دون توجيه أي إخطار إلى الأجانب لتمكينهم من حماية أنفسهم، سحب فرقتها العسكرية من المدينة تاركة، دون حماية، الأجانب، بمن فيهم النساء والأطفال،**



□ كابتن كاربيه: احد الأسباب الرئيسية لاندلاع الثورة السورية.

وكذلك السكان المسيحيين والاسرائيليين من أهل البلد.

«وأخضعت المدينة، في نفس الوقت، ودون **توجيه أي إخطار، لقصف طويل وشامل** لا تتعرض له عادة إلا الأماكن الحصينة. وتركت الأجانب تحت وطأة هذا القصف، في الوقت الذي أبعد فيه الفرنسيون عن الخطر. وبسبب صعوبة التنقل، لم تحص، بعد، الخسائر في الأرواح والماديات، ولكنه علم أن عدة منازل أجنبية قد تضررت وعدة أجانب قد قتلوا بالقذائف الفرنسية.

«ونظرا للظروف المذكورة، فان السلك القنصلي ملزم باعتبار السلطات الفرنسية مسؤولة عن الأملاك والأرواح الأجنبية التي فقدت خلال الأحداث الراهنة.

«وبما أن الضمانات المشار إليها في بداية هذه المذكرة لم تتحقق، ونظرا لتصرف الفرق الفرنسية المذكور أعلاه، فانه لم يعد بامكان السلك القنصلي أن يتحمل مسؤولية نصح رعاياه **بالاعتماد على حماية سلطات الانتداب.** إنه ينصح رعاياه إذن بمغادرة دمشق، ويسأل السلطات الفرنسية أن تتفضل بوضع وسائل نقل مضمونة وكافية تحت تصرف الأجانب الراغبين في العمل بهذه النصيحة.

«ومع ذلك، فمن المؤكد أن هناك عددا من الأجانب لا يستطيع مغادرة دمشق.

«ومن واجب دولة الانتداب أن تؤمن لهم حماية ملائمة بواسطة قوات كافية وأن لا تعرضهم لأخطار القصف. فالسلك القنصلي ملزم إذن **باعتبار سلطة الانتداب مسؤولة عن الأرواح والأملاك في دمشق.**

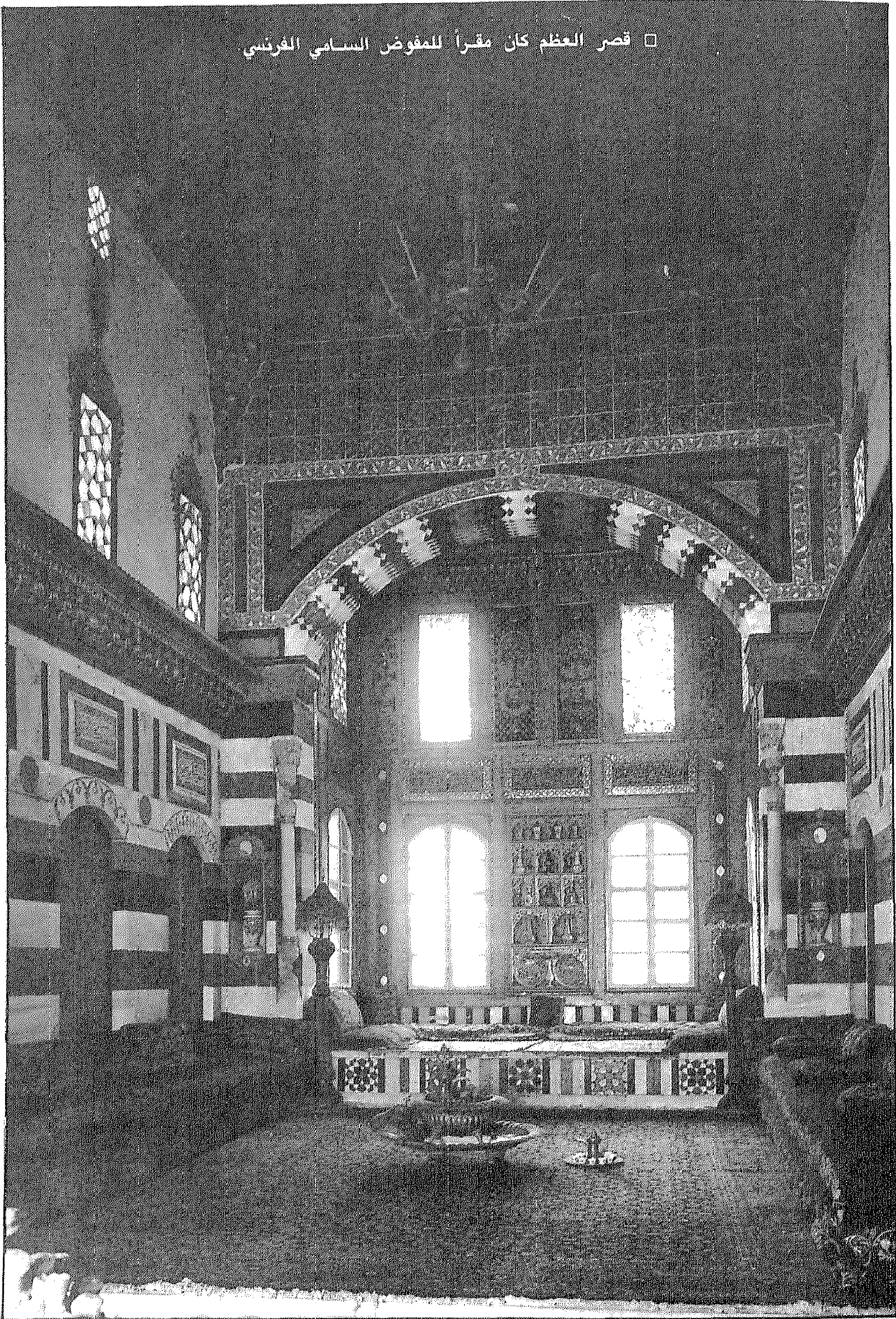
«وبهذه المناسبة، فان السلك القنصلي يأمل في أن يتم تأمين حماية العاصمة السورية في المستقبل، **على جبهة عسكرية، خارج المدينة.**

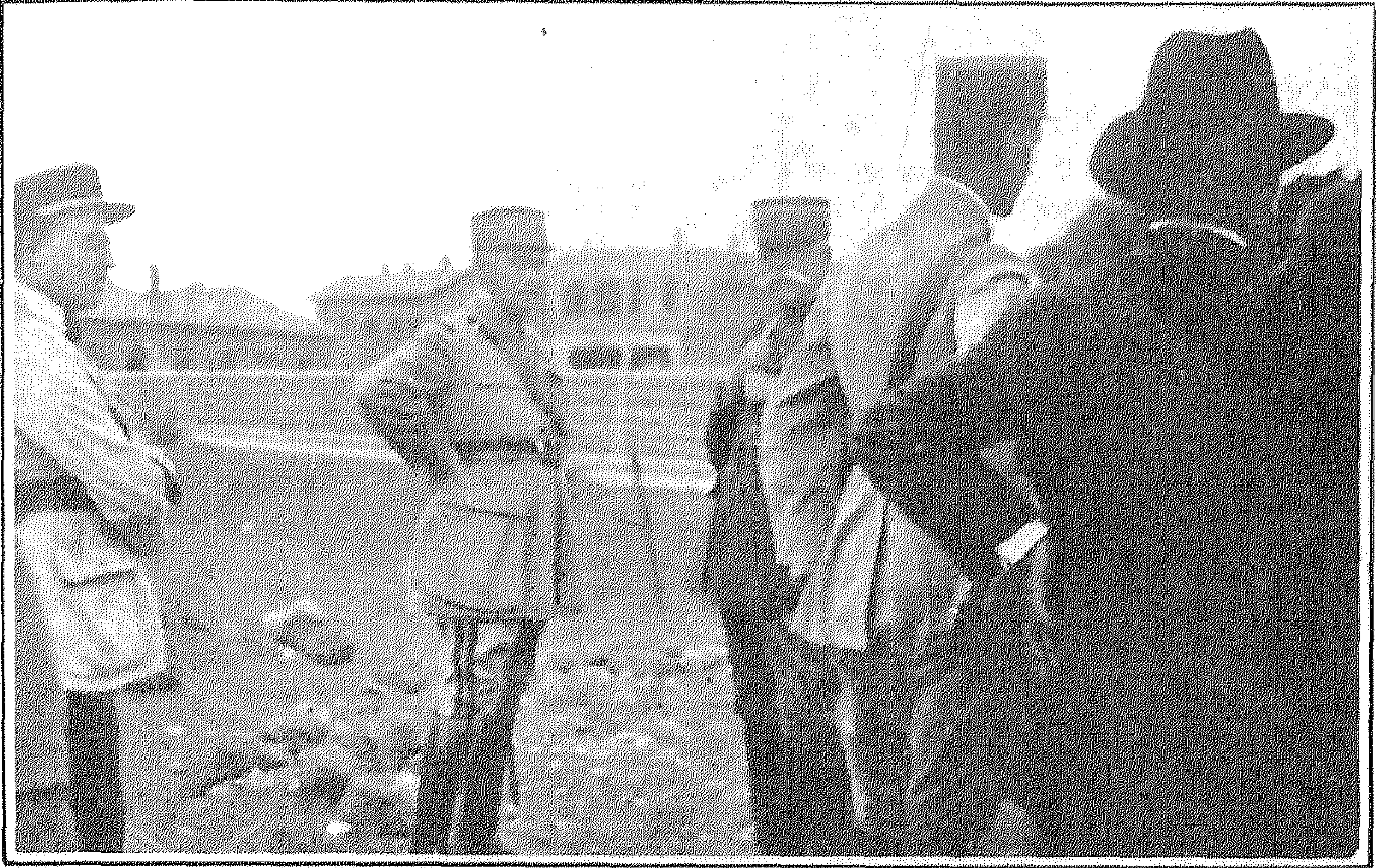
«ومن الواضح، في غياب مثل هذه **الحماية الخارجية**، ألا يكون هناك ما يحول دون دخول جماعات أخرى مسلحة إلى المدينة التي ستصبح، مجددا، مسرحا للعمليات العسكرية يعاني منها الأجانب الذين أقاموا في المدينة واثقين بالحماية الفرنسية.

«ومن الملاحظ أن الخسائر التي سببها القصف والحرائق في الأوساط التجارية الرئيسية في المدينة سيكون لها انعكاسات على المؤسسات الاوروبية والأميركية التي تتعامل تجاريا مع التجار المتضررين من هذا الخراب. ومن جهة أخرى، فمما لاشك فيه أن هناك، في المحلات المدمرة، بضائع يملكها أوروبيون وأميركيون.

«لقد سرت إشاعات مفادها أن السلطات الفرنسية تنوي، في ظروف ما، **معاودة قصف المدينة.** ومثل هذا القصف سيتسبب حتما في خسارة أرواح وممتلكات أجنبية أخرى.

«ان السلك القنصلي، إذ تحدوه مشاعر إنسانية عامة وشعور خاص بوجوب الاهتمام برعاياه، لا يسعه إلا أن يعرب عن أمله في إمكان تحاشي مثل هذا القصف وفي إمكان إخضاع أعمال القمع، إن غدت ضرورية، **للمناهج الأكثر استعمالا في حالات الفوضى في المدن، والأكثر ملاءمة لمعاقبة المذنبين دون إصابة الأبرياء، بمن فيهم النساء والأطفال.** والسلك القنصلي لا يعتقد أن بوسعه إسكات هذا الانفعال الانساني لأن **سكان دمشق المسلمين بشكل عام**، مهما تكن شرور بعض العناصر، **قد حموا المسيحيين والاسرائيليين، بمن فيهم الأجانب،**


□ قصر العظم كان مقراً للمفوض السامي الفرنسي



□ جنرال غاملان (Gamelin) بصحبة الجنرال ساراي في دمشق، والذي اصر على قصف دمشق من الصباح حتى الظهر، بالرغم من الالتباس الذي قدمه وفد من وجهاء المدينة.

برعاية كبيرة جدا حينما لم يعد بمقدورهم، بعد سحب الفرق الفرنسية، ترقب أية حماية.

«إنني مكلف أن أحيطكم علما بأنني وزملائي سنبعث إلى حكوماتنا بنسخ عن هذه المذكرة.

«وأغتنم هذه الفرصة، يا سيدي المندوب، لأجدد لكم تقديري البالغ.

الامضاء: عميد السلك القنصلي»[٥٦].

من النادر أن تصل وثيقة دبلوماسية إلى هذه الدرجة من الحدة. إنها تحتوي على حقائق قاسية أنكرتها سلطة الانتداب في تصريحاتها وتقاريرها الرسمية للصحافة الفرنسية وعصبة الأمم.

ومن المتفق عليه اليوم أنه كان بالامكان تجنب القصف بتكوين «جبهة عسكرية» خارج المدينة. «على أثر غارة قامت بها جماعة ضئيلة العدد تساعدها عناصر قليلة من السكان، ارتأت سلطات الانتداب، دون أي إخطار... سحب فرقها من المدينة تاركة، دون أية حماية، الأجانب، بمن فيهم النساء والأطفال، وكذلك السكان المسيحيين والأسرائيليين».

كذلك، وبعكس الادعاءات اللاحقة والتأكيدات الواردة في التقريرين المرفوعين إلى عصبة الأمم عن أحداث سوريا لعام ١٩٢٥[٥٧]، فان سلطات الانتداب «أخضعت المدينة، دون أي إخطار، لقصف طويل وشامل». والشاغور والميدان ليسا الحيين الوحيدين اللذين دمرا، فالمدينة بأكملها تقريبا قد هدمت.

وأخيراً، فإن احتجاج السلك القنصلي في دمشق قد وضع حدا لأسطورة مقيتة أذيعت لتبرير الخراب المتراكم بمفعول رجعي. «... إن سكان دمشق بشكل عام قد حموا المسيحيين والاسرائيليين، بمن فيهم الأجانب، برعاية كبيرة جدا حينما لم يعد بمقدورهم، بعد سحب الفرق الفرنسية، ترقب أية حماية». وبفضل هذا النص التاريخي تم الاعتراف بفضل ثوار عام ١٩٢٥.

ونحن ملزمون بالقبول ــ لأننا لا نستطيع التهرب من ذلك ــ بأن النقص في القوى العسكرية، والبلبلة في قيادة الأركان، وإرادة بعض عناصر الجيش في انهاء مشكلة المدينة المضطربة، هي وحدها التي أدت إلى قصف العاصمة السورية. وكان لمصيبة دمشق، قلب العالم العربي ودماغه، واحدى عواصم الاسلام الروحية، والمركز الثقافي للشرق، دوي أليم في

نفوس العديد من الناس. وقد أثار النبأ، حسب المستويات والعروق، الاستنكار أو الحقد أو الذعر.

ولوحظ، في الأيام التالية، تصاعد في الثورة. وكان من نتائج التدمير الذي أحدثه القصف، وأعمال القمع المنفردة التي أعقبته، ان انضم إلى صفوف الثوار في الغوطة جميع هؤلاء الذين تركتهم القذائف بلا مأوى أو مقر. وجاءت تعزز صفوفهم مجموعات من الشباب متحدرة من طبقات رفيعة من السكان.

ولم تلبث الغوطة أن أصبحت معسكر الثوار الحر على الاطلاق. وانتهزت لجنة قيادة الثورة فرصة عجز الجيش النظامي الواضح عن البقاء فيها، فنزلت من جبل الدروز ونظمت نفسها فيها، في حمى الجداول المتعددة التي تخترق البساتين الكثيفة والتلال الجبلية في تلك المنطقة المثالية. وأدخلت عدة تعديلات على الحكومة المؤقتة التي تكونت سابقا في السويداء. وكان الدكتور شهبندر يتولى رئاستها بمساعدة مجلس من القادة العسكريين. وبقي سلطان القائد الأعلى لجماعات الأنصار. وكان يشرف على تحركاتها ويلهم أعمالها بمقدار مناسب من المرونة والشدة. وجاءت «محكمة الاستقلال» تكمل النظام، وهي محكمة مماثلة لجميع المحاكم الثورية التي تتكون بفعل الحاجة، فتحاكم بسرعة وتهتم بالجرائم السياسية بوجه خاص.

وحاولت الثورة السورية التي بنيت على هذه الأسس أن تعيش من الضرائب البسيطة التي كانت تجمع من قرى الغوطة أو من الأماكن المحتلة. ولكن الضرائب، التي تحملت نفقات الجند خلال الأشهر السابقة، لم تتمكن إلا من سد قسم يسير من حاجات المسلحين. فالقسم الأوفر من إعاناتهم كان يأتي، بشكل خاص، من المبالغ التي كانت تجمع من الأوساط العربية في مصر وفلسطين والعراق، ولاسيما من الأميركيتين(٥٨). وقد لاقت الحركة السورية، في هذه الأقطار، منذ الساعة الأولى لانطلاقها، تعاطفا متصاعدا بلغ ذروة الهيجان بعد نكبة دمشق.

وبفضل هذا المصدر الذي لن ينضب أبدا استطاعت الثورة أن تستمر وتتصدى للقوات التي كانت تعززها يوميا دولة الانتداب، المصممة على تجاهل الاضطرابات الأكيدة التي كانت، بالأساليب التعسفية المستعملة، تنعكس على فرنسا نفسها.

ولحماية دمشق أخيراً من الغارات الجديدة، أحاطتها سلطات الانتداب، من جهتها، بالأسلاك الشائكة والمتاريس، وعززت بعض المواقع الاستراتيجية، وأعلنت الأحكام العرفية التي كانت قائمة بالفعل منذ أسابيع، وراقبت السير داخل المدينة وخارجها.

وكان لدمشق، التي كانت تغادرها يوميا عائلات كاملة بمجموعات متراصة، مظهر المنطقة القفراء التي تتعرض جوانبها دون انقطاع لهجمات غاضبة من قبل أعداء لدودين حقودين. وخلال أسابيع، وليل نهار، عاش السكان المساكين الذين ظلوا في المدينة على دوي السلاح المصم، لا يرون إلا تحركات فرق عسكرية ساخطة ومواكب من الأموات والجرحى. وانعزلت العاصمة القديمة عن بقية البلد. ولم يكن بالامكان المجازفة بالخروج إلى الخارج إلا في حماية الطائرات والسيارات المجهزة بالرشاشات. وحتى القطارات المصفحة التي كانت تتوقف غالبا في وسط الطريق لم تعد تعمل إلا بشكل غير منتظم لتؤمن اتصالا، عسكريا فقط، ببيروت. ومن ناحية الشرق توقف التغلغل الحضاري للشركات العاملة عبر الصحراء، وأصبح البدوي من جديد ملكا في البلاد الواسعة.

للبحث صلة

الهوامش

(٣١) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٨. راجع تفاصيل عصيان حماة في التقرير، رقم ٢، المقدم إلى عصبة الأمم من قبل وفد لجنة القاهرة السورية ـ الفلسطينية، في جنيف.

(٣٢) لقد أكد الثوار دوما أن المحاصرين قد أشعلوا الحريق لايقاف تقدمهم (تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٩).

(٣٣) التقرير، رقم (٢)، للجنة السورية ـ الفلسطينية يقدر، دون تعداد الجرحى، عدد الأموات بـ ٣٤٤، والخسائر بـ ١١١ مخزنا و ١٧ منزلا، مهدما أو محروقا. وهذا التقرير، على غرار التقارير الأخرى التي أعقبته، وضعه أشخاص يقيمون في المدينة، كانوا شهود عيان للأحداث.

(٣٤) ولنذكر ايضا، على سبيل التوثيق، احتجاج نساء حماة، في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٥، لدى دو جوفنال (M. de Jouvenel)، المفوض السامي، عند مروره بحماة. لقد قلن له: «إن البلد لم يرتكب الأخطاء التي تستحق هذه العقوبات القاسية التي لم يدون التاريخ مثيلا لها في سجلات العصور الأولى. إننا نعرض عليكم جزءاً من الآلام التي قاستها حماة... ان السلطات العسكرية أجازت لجنود الجيش أن يقتلوا وينهبوا... وأطلق الجنود العنان لغرائزهم. وكانوا، إذا صادفوا أحدا قرب نافذته أو مارا في طريقهم، من أي جنس كان، يقتلونه دون رحمة... وكل ما ذكرناه، يا حضرة المفوض السامي... لا يعد شيئا إذا ما قارناه بحالة الأطفال والهلع الذي يتملكهم في كل لحظة. ويكاد هؤلاء الأبرياء الصغار يموتون من الفزع بسبب دوي القنابل، وبسبب القصف الذي كان يمطر المدينة، دون إنذار، بالشظايا ويحصد أرواح السكان المساكين لأنهم لم يسلموا كمية البنادق التي طلبتها السلطات العسكرية...» [**الأحد الجديد**، وهي صحيفة بيروتية، في ١٩٢٥/١٢/١٩].

(٣٥) تقرير عام ١٩٢٥، ص ١٩.

(٣٦) وقد سردت تفاصيل الحادثة في تقرير غير منشور، وتحت عنوان: **أسباب الأحداث المشؤومة في دمشق وجبل الدروز**، رفعه إلى الحكومة الفرنسية جميل بك الألشي، وهو رئيس سابق لمجلس الوزراء (عام ١٩٢٠)، وضابط سابق في قيادة أركان الجيش العثماني، ووزير سابق للمالية في حكومة الشيخ تاج...

(٣٧) جاء في تقرير الرئيس الألشي، ص ١٢، ما يلي: «إن عملية ترك جبل الدروز لمصيره قد عززت كثيرا وضع الجماعات المسلحة في ضواحي دمشق، وكانت السبب في امتداد الثورة إلى عدة أماكن».

(٣٨) تقرير الألشي، ص ٤.

(٣٩) المرجع السابق، ص ٤.

(٤٠) «كان وجهاء دمشق يشاهدون جيادهم وأبقارهم تباع بالمزاد العلني دون التجرؤ على المطالبة باسترجاعها من أصحابها، خوفا من التعرض للاهانة من قبل أناس غير مسؤولين، ولأن السلطات كانت تقول: هذه الأملاك هي لآخر المالكين، ونحن الذين سمحنا لهم بامتلاكها [المرجع السابق، ص ٥].

«في ١٤ تشرين الأول (اكتوبر) أحرقت، بتدبير انتقامي، قرى جرمانا وكفربطنا ويام ومليحة ويسري. ووجهت إلى سكانها تهمة ايواء قطاع الطرق. والحقيقة أن وضع هؤلاء المساكين كان رهيباً، فهم كانوا معرضين إما للحرق والذبح من قبل قطاع الطرق ان رفضوا، وأما للذبح والعقاب من قبل الفرنسيين إن فعلوا...» [راجع الخبر الذي نشره أحد المقيمين المعروفين في دمشق، في مجلة (Phénix)، عدد ٧، تاريخ ١٩٢٦/١/٧. ومن المستحسن قراءة بقية الخبر الذي تضمن ملاحظات، سجلت ساعة بساعة، تسرد مراحل «آلام» دمشق حتى ٢١ تشرين الأول (اكتوبر)].

«كانت جماعات تخلع الأبواب وتقتحم البيوت. وكان بامكانك متابعة تقدمها من صوت تحطيم الزجاج والأواني والأثاث المهشم. وكان أفراد الفرقة الأجنبية ينهبون القرية الغنية... وعندما ينقلب كل شيء رأسا على عقب، يخرجون محملين بالأقمشة، وقوارير العسل الكبير، وخبز الزبيب الجاف. وكانوا ينقلون المجوهرات والدمى وساعات اليد والحائط. ويعلم الله ماذا...» [راجع كتاب دوتي (Doty): (La Légion des Damnés)، باريس ١٩٢٩، ص ١٥٣].

(٤١) كان الجركس يختارون محليا من منطقة القنيطرة على الأخص، التي أقاموا فيها برعاية السلطان عبد الحميد، أو بسبب سياسته الحذرة، بعد عام ١٨٧٨، عندما اضطروا إلى الرحيل عن منطقة قارص التي ضمها الروس إلى أراضيهم. أما بالنسبة إلى الأرمن الذين لاقوا، أثناء الحرب وبعدها، ترحيبا، متعاطفا على الأغلب، من عرب سوريا، وعلى الأخص من عرب حلب حيث تقوم تجمعاتهم الكثيفة، فقد انخرطوا في الفرق المساعدة تلبية لطلب دولة الانتداب.

(٤٢) تقرير الألشي، ص ٥.

(٤٣) تقرير عام ١٩٢٥، المذكور، ص ٣١.

(٤٤) تقرير الألشي، ص ٦.

(٤٥) المرجع السابق، ص ٦ ـــ ٧.

(٤٦) لقد حدث صدام، في المعسكر الأرمني الذي ترك بلا حماية، بين الأرمن والثوار، فقد اقتحمت الجماعات المسلحة التي أثارتها وحشية المساعدين الأرمن أولى منازلهم، انتقاما منهم، وردا على بعض الرصاصات التي أطلقت من المعسكر نفسه وعرقلت مسيرتهم. وسقط رجال من الطرفين، وحمل الثوار، حسب عاداتهم، موتاهم، ولكن الأرمن، أثناء تقهقرهم، خلفوا موتاهم هناك. ووصفت هذه المعركة، فيما بعد، بالمجزرة، وأريد اعتبارها، بنية مبيتة، كمقدمة للابادة العامة للأرمن. وإذا كان الدم الأرمني قد سال هذه المرة «فان مسؤوليته تقع على عاتق هؤلاء الذين أدخلوا أرمن حلب في صفوف المجموعة الجركسية. وكان مما حرض الثوار على هؤلاء المساكين ذلك التصريح الذي أدلى به (ساراي) لوجيه من وجهاء دمشق طالبه بالتدخل لاحلال سلام مشرف مع الدروز: «سأبيد سكان جبل الدروز وأستبدل الأرمن بهم» [تقرير الألشي، ص ٥].

(٤٧) «ان الدرك المحلي الذي تصرف أولا، في بداية شهر آب (أغسطس)، بشكل لائق، سرعان ما تخلى عن التزاماته وراح يسهم، علانية، في مساعدة الثوار...» [تقرير عام ١٩٢٥، ص ٣١]. ان الفرق السورية كانت، مع ذلك وكما رأينا، الوحيدة التي دربت، منذ بداية الحركة، على حرب الشوارع التي كانت، على صعوبتها، دائما محتملة. ولكن القصف الذي بدأ بغتة كشف عن عزلتها وألقى بها في أحضان اليأس الذي سيطر، على ما يظهر، على القيادة. وفي هذه الفترة استسلمت.

(٤٨) تقرير الألشي، ص ٧. ان التقارير العديدة التي كانت اللجنة السورية ـ الفلسطينية في القاهرة تتلقاها من مراسليها المحليين لترفعها إلى عصبة الأمم تتضمن تفاصيل مسهبة عن هذه الأحداث المشؤومة، لا تختلف بشكل عام عن العرض الذي ورد في تقرير الرئيس الالشي. وقد أحجمنا عن اقتباس مراجعنا منها لئلا نتهم بالمبالغة.

(٤٩) أصبح هذا الأسلوب شائعا. «... عندما يمسك الفرسان (السباهيون)، صدفة، بمواطن مسلح، يلصقونه بالجدار ويعدمونه... وفي الطريق نهبت احدى القرى وأحرقت. والجركس المتوحشون الذين يتحملون المسؤولية عنا لا يخضعون لأية مراقبة. إننا نسمع من بعيد صراخ النساء، وهذا ليس بالأمر الجميل...» [Doty، المرجع المذكور، ص ١٦٢]. حول التنكيل بدمشق راجع على الأخص كتاب:

Alice Poulleau, Damas sous les Bombes, Paris, 1930.

(٥٠) تقرير الألشي، ص ٩.

(٥١) صحيفة (Le Temps) في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر): ولكن «الجنرال (ساراي) يعترف في تقريره أن القصف دام يوما ونصف اليوم» (هذا ما قاله (Buré) في مجلس النواب الفرنسي في ١٩٢٥/١/١٨).

(٥٢) يتهم تقرير عام ١٩٢٥، على طريقته، الثوار باشعال الحريق عمدا (ص ٣٣). ويكفي، لاثبات بطلان هذا الزعم، أن نفكر في أن معظم الثوار كانوا مكونين من العنصر الحضري، فبكري وخراط... ورجالهم هم من دمشق وكانت عائلاتهم في المدينة لدى هجومهم.

(٥٣) كان هناك ما يناهز الألف قتيل وجريح، حسب مجلة (L'Asie Française)، عدد أكتوبر ١٩٢٥، ص ٣٢٣. وقيمة الخسائر المادية، حسب R. de Caix) مندوب فرنسا لدى اللجنة الدائمة للانتدابات، ترتفع إلى ١٨٢,٠٠٠ ليرة ذهبا للأملاك المحروقة، و ٢٣٦,٠٠٠ للأملاك المنهوبة. ولكن جميل بك الألشي، في تقريره المذكور، يقدر الخسائر المادية بمليون ليرة استرلينية (ذهب).

(٥٤) إن قصف مدينة مفتوحة، ليست في حالة حرب مع السلطة العسكرية، دون إخطار أو إجلاء مسبق، يعتبر خرقا لقانون الأمم.

(٥٥) راجع البيان الصادر عن وزارة الخارجية، في صحيفة (Le Temps)، عدد ١٩٢٥/١١/٥، وشهادة الجنرال (ساراي) التي نقلتها نفس الصحيفة في ١٩ منه.

(٥٦) إن الفقرات المطبوعة بالأسود هي نفس الفقرات التي وضع تحتها خط في النص الأصلي. وقد استطاع كاتبها، في عهد الانتداب، الحصول على نسخة منه بواسطة مستشار فرنسي في المفوضية السامية في بيروت.

(٥٧) التقرير الموقت لعام ١٩٢٥، ص ٢١ وما يليها. وتقرير عام ١٩٢٥، ص ٣١ وما يليها.

(٥٨) ويشكل المسيحيون الغالبية فيهما.



إلى المشتركين الكرام

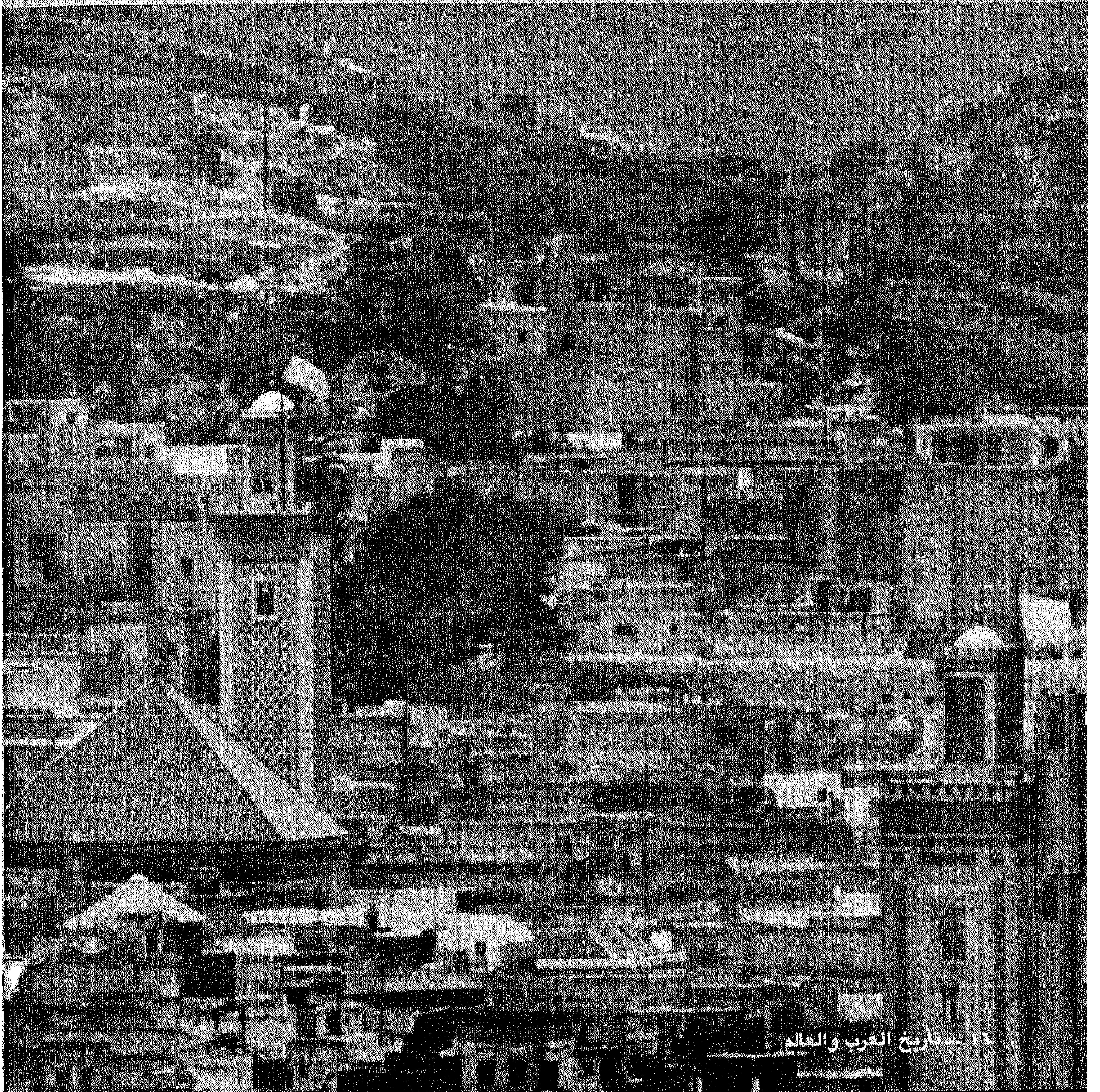
نرجو من جميع مشتركينا في الخارج، إفادتنا عن أي نقص يحصل لديهم في اعداد المجلة، خلال مدة أقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور العدد، وخلال شهرين بالنسبة لمشتركينا في الداخل.

وذلك، لتعذر تأمين الأعداد لهم بعد هذه المدة، بسبب تحويلها إلى قسم التجليد.

الإدارة

الرّوابط الثقافيّة المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب افريقيا خلال العصر الحديث*

د. عبد الجليل التميمي



إن موضوع تبادل التأثيرات بين تونس وليبيا من جهة وبين وسط وغرب افريقيا، يعتبر من المواضيع التي وجب استيفاء دراستها والتوقف عندها كثيرا لأهميتها البالغة، خاصة ونحن نسعى لخلق قنوات جديدة بيننا وبين الشعوب الافريقية التي ارتبطنا وإياها في الماضي بأكثر من رابطة، وأنه من غير الانصاف أن لا يتصور كل منا مدى حيوية وثراء وتواصل العلاقات بيننا على ممر العصور وفي مختلف المجالات، ويكفي الباحث مواكبة الأحداث التاريخية وإدراك حقيقتها وأبعادها، ليندهش لطمس تلك الحقائق والمعطيات وجهلنا لها، وتعتبر الجسور العلمية والثقافية التي يسعى المخلصون من الأفارقة والعرب على إعادتها، استجابة تاريخية ووفاء أصيلا لكل أولئك الذين قدموا أثمن ما لديهم لتعزيز تلك الروابط وتعميقها.

وعلى ضوء ذلك سوف تتناول هذه الدراسة مدى عمق وتأثر المد الثقافي بين تونس وليبيا ووسط وغرب أفريقيا انطلاقا من أواخر العهد الحفصي[١].

لقد تمتعت الدولة الحفصية خلال القرن الخامس عشر الميلادي بتقدير واحترام كبيرين من العالم الاسلامي والعالم المسيحي على حد سواء[٢]، وقد امتدت رقعتها الترابية لتحتضن، في فترات معينة، المغرب الأوسط وطرابلس ومنطقة الزاب[٣] وغدامس[٤] وغات[٥] بل ان التأثير الحفصي كان قويا جدا في جنوب الصحراء الكبرى، وهذا بفضل قوة العلاقات القائمة بين سلاطين بني حفص وامراء بورنو مثلا: وقد عززت تلك العلاقات مكانة أمراء بورنو في كل الصحراء[٦] بل ان السلطان أبا فارس توغل كثيراً في الصحراء[٧] والسلطان المعتمد زار مدينة توات سنة ١٤٣٠[٨]، وهذا ما يترجم تاريخيا على وجود ترابط قائم بين الشمال الأفريقي وشعوب جنوب الصحراء، ويذكر المؤرخون أنه ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادي دخل بلاد دارفور عنصر مغربي من تونس يتمثل في شعب التنجور[٩] وأن أخوين هما علي وأحمد من أهل تونس قد استقرا بالتشاد[١٠] كأمراء، أما أمراء الحساوونة فقد جاؤوا من طرابلس[١١].

تتحدث جميع المصادر تقريبا، نقلا عن ابن خلدون، أن أمراء الكانم وبورنو قد توثقت علاقتهم بالحفصيين، وأن ذلك كان يتوج من حين لآخر بارسال الهدايا، وقد أرسل الماي دونمة دياليمي أمير كانم وبورنو إلى السلطان الحفصي أبي عبد الله المستنصر سنة ١٢٥٧، هدية اشتملت على زرافة، وهذا ما أثار دهشة التونسيين الذين تزاحموا لرؤية هذا الحيوان العجيب الشكل[١٢]، ثم تلتها سفارة الماي عبد الله بن كادي سنة ١٣٢٧ وسفارة الماي ادريس ابن علي سنة ١٥٠٢ والذي من عهده استمرت العلاقات طيبة ليرسل سفارة أخرى سنة ١٥٢٦، أما ابنه فقد بعثه إلى طرابلس سنة ١٥٣٤[١٣].

وقد استمرت تلك العلاقات خلال القرن السادس عشر حيث عرفت البعثات دفعا جديدا بين شعوب جنوب الصحراء والولاة العثمانيين الذين تمركزوا بكل من طرابلس وتونس والجزائر وحيث اكتسى الشمال الافريقي أهمية جديدة عن طريقهم، تمثلت في مواكبة أحداث البحر الأبيض المتوسط وتنشيط قنوات الاتصال عن طريق التجارة والحج والتعليم والزواج والهجرات

د. عبد الجليل التميمي:
استاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية/ الجامعة التونسية/ ومدير «المجلة التاريخية المغربية».

المختلفة وزيارات الرسميين لكلا الجانبين.

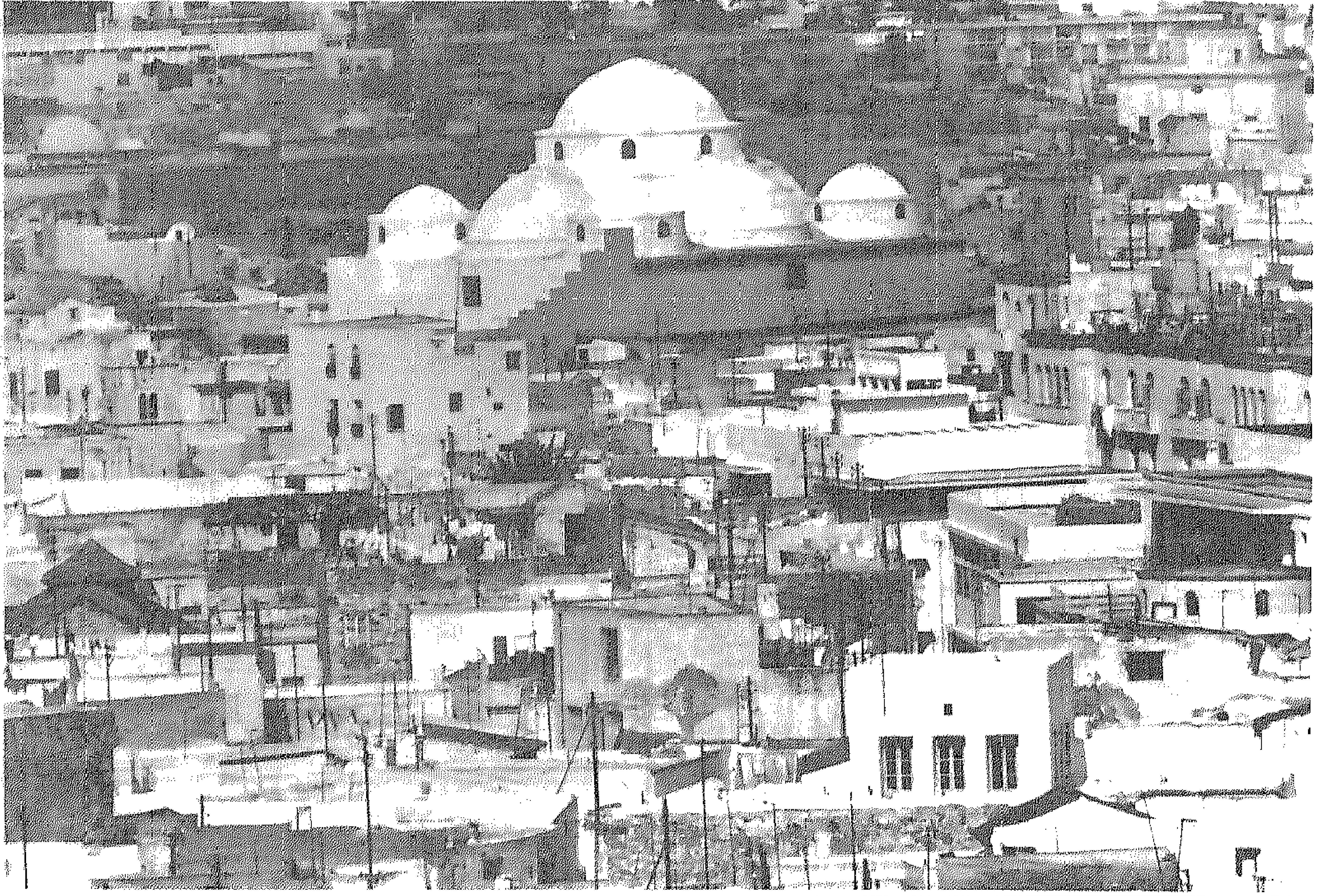
بعثات متبادلة

وقد أرسل ماهر موسى بعثة إلى طرابلس سنة ١٥١٢ لتعزيز التبادل بين البلدين عن طريق فزان[١٤] ومن ذلك أيضا أن الملكة الوالدة عائشة التي حكمت البلاد في النصف الأول من القرن السادس عشر، قد أمرت بارسال بعثة هامة إلى طرابلس[١٥]، وقد ورث ابنها ادريس الوما الذي ولي العرش سنة ١٥٧٠، حسن هذه العلاقات، وقد أمر هو الآخر بارسال بعثة إلى كل من بيلرباي تونس وطرابلس والسلطان العثماني باستنابول، وقد كشفنا في أرشيف رئاسة الوزراء باستنابول على نص رسالتين كان الباب العالي قد وجههما إلى الملك ادريس الوما[١٦]، وقد جاء في أحداهما أنه نظرا لـ : (فرط الموالاة وشدة المصافاة واستدعائكم أن يكون أساس المودة بينا مشيدا وبنيان المحبة والصداقة مؤكدا... وأهالي دياركم في ولايتنا من شاء من الواردين والصادرين وغيرهم من التاجرين والزائرين، حتى يصير سببا لكمال الوداد وباعثا لشدة الاتصال[١٧]...)، وقد أظهر الباب العالي استعداده لمد يد المساعدة للملك ادريس وتقديم أي عون. على ضوء ذلك حرص الملك ادريس من السلطات العثمانية بالشمال الافريقي، وخصوصا من تونس، أن تمده بفريق من الجنود[١٨] لتدريب جيشه على مختلف الأسلحة الحديثة والنارية منها على الخصوص[١٩] والتي كانت متداولة بحكم حركة المد والجزر بين الامبراطوريتين العثمانية والاسبانية طوال القرن السادس عشر. وقد تمكن الملك ادريس بفضل تعليم وخبرة هذا الفريق، أن يكسب جيشه تفوقا ملحوظا مكنه من القضاء على نزاعات القبائل والسيطرة على كامل الجنوب الصحراوي وتنشيط حركة الاتصال التجاري والثقافي بين الجنوب والشمال.

أما في عهد محمد باي، والي طرابلس الغرب، فقد اتصل هو الآخر بسفارة من أمير بورنو مع أوائل القرن السابع عشر[٢٠] وانطلاقا من أواخر القرن السابع عشر عدد امراء بورنو الزيارات لفزان، من ذلك زيارة الملك ماي ادريس الآن وصل إلى مرزق سنة ١٦٩٦ مصحوبا بأكثر من ٧٠٠٠ من عبيده[٢٠]، بل أن أمير بورنو يقوم شخصيا بزيارة تونس صحبة زوجاته الثلاث في أواخر القرن الثامن عشر ولينزل بعد ذلك بطرابلس[٢١]، وهذا ما يؤكد على تواصل الاتصالات على جميع المستويات. ويكفي الباحث دلالة على ذلك تتبع حركة القوافل المغربية والتي كانت تضم سنويا أكثر من عشرة آلاف شخص، مفضلة الطريق الصحراوي للتحول إلى البقاع المقدسة[٢٢]، وكذلك خروج ركب يتألف من خمسمائة جمل من بنغازي ويضم تجار أهل طرابلس ومسراطة في اتجاه واداي[٢٣]، هذا فضلا عن وصول ثلاث قوافل سنويا، من قلب الصحراء إلى تونس، وهو ما أطلق عليها بالقوافل الغدامسية[٢٤]، وهذه كلها لتزيد من أحكام ربط الصلات وتعميقها وتزاوج عناصرها المختلفة لتكون سببا وراء هذه التأثيرات المتعددة والتي سنأتي على شرحها.

الإدارة العثمانية وحسن العلاقات

إن تعدد الزيارات بين شعوب جنوب الصحراء وتونس وطرابلس قد عرف دفعا جديدا خلال القرن التاسع على الخصوص، وقد نقل الينا الرحالة التونسي المشهور أحمد بن عمر التونسي أن والده كان كثير التنقل بين تونس وطرابلس ومصر والصحراء الكبرى، بل أن والده كان وزيرا للأمير صابين، أمير واداي، وقد خلفه في ذلك الشريف أحمد الفاسي[٢٥]، ومن جهة أخرى نرى أن الادارة العثمانية بطرابلس كانت هي الأخرى حريصة على إقامة حسن العلاقات مع شعوب جنوب الصحراء وتواصلها، وقد كتب والي طرابلس إلى حاكم زندر الشيخ تنميموني بن سليمان[٢٦] وكذلك الشيخ هاشم بن عمر الكانمي، حاكم بورنو بدعوتهما إلى (استمرار المراسلات والمخابرات بيننا، وأن تدوم عواطفكم الكريمة في حق أهالي طرابلس الغرب...)[٢٧]، بل أن السلطان العثماني عبد العزيز قد أرسل هدية بواسطة واليه علي رضا باشا الجزائري، إلى سلطان بورنو[٢٨]، كذلك كان ملك فزان يوفد من حين لآخر سفراء وملك برنوح، وذكر أنه في سنة ١٨٧٥ كان سفيره فوق العادة أحد تجار



□ مدينة تونس.

طرابلس الغرب ومن أسرة بارزة[٢٩].

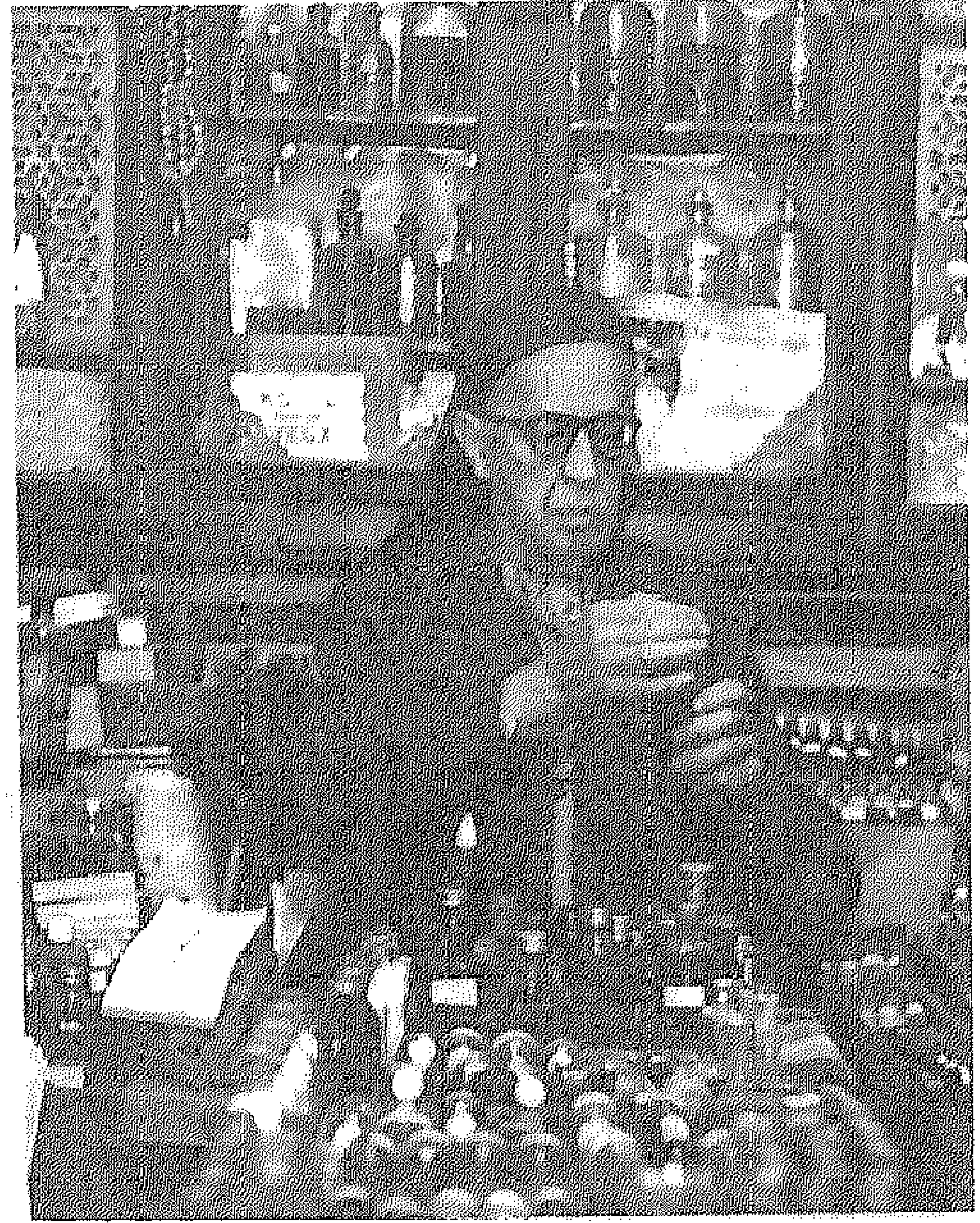
على أن الدور الذي لعبته الادارة العثمانية انطلاقا من طرابلس الغرب، في خلق حركية تأثيرية حضارية في وسط افريقيا وفي قلب الصحراء، يعتبر رئيسيا وكبيرا، ومع هذا ما زلنا نجهل أبعاده وتفاصيله وخلفياته[٣٠] وهو الدور الذي شوهته الدراسات الغربية وغطت عنه.

أقليات أفريقية في طرابلس وتونس

على أن تونس وطرابلس كانتا تحتضنان، باستمرار، أقليات افريقية، وخاصة من غدامس، تعيش بين ظهرانيها، وأن حاكم غات كان كثير التواصل مع بايات تونس، وكان يرسل هدية إلى محمد باي المرادي وحيث استمرت تلك المواصلة مع مرور الزمن[٣١]، بل ان الجالية الأفريقية التجارية كانت تنزل بفندقها المسمى بالطبرية جوار باب العلوج داخل تونس[٣٢]. والذي يؤكد هذا التداخل بين هذه الأقليات الافريقية المقيمة بتونس مثلا، نشرنا لنص في أسفل هذه الدراسة وهي عبارة عن رسالة مخطوطة صغيرة بعنوان: **هتك الستر عما عليه سودان تونس من الكفر(*)**، كان قد حررها أحمد التنبكتي[٣٣] بتاريخ ٢ رجب ١٢١٥/٢٠ نوفمبر ١٨٠٠، ورفعها إلى الباي حمودة باشا التونسي، وقد تحدث فيها عن الأساليب الغريبة التي يتبعها أهالي السودان لكل ما يتعلق بأخلاقهم وسلوكهم السيء وعدم اتباعهم الدين الاسلامي وقد شنع بسلوكهم وفساد أخلاقهم وإخلالهم بالأمن، هذا فضلاً عن ممارستهم طرقا وثنية بحتة[٣٤] وعلى الرغم من القيمة الثانوية التاريخية لهذه الرسالة الصغيرة، فانها من جهة أخرى كشفت لنا ولاشك عن الحرية التي تتمتع بها هذه الأقلية ومحافظتها على مميزاتها وطقوسها، على الرغم من عيشها في وسط إسلامي صرف.

على أن البايات التونسيين كثيرا ما أكرموا هذه الجاليات في أشخاص رؤسائها من ذلك أن (أبي الربيع سليمان بن جلاب، عزيز قومه من تقرت من بلاد الصحراء، ويسمى بالباي، وبيتهم من بقايا بني مرين ملوك المغرب... قد أجرى له جراية... وكذلك أبو عبد الله محمد البامري...)[٣٥] أما المشير أحمد الأول فقد جعل

* انظر الهامش رقم ٣٣



□ تجارة العطور بين الشمال والجنوب.

منهم حراسا للبلاد مثل أولاد البلاد يسمون باللواجة وكان لهم مركز للعسة في المكان المعروف اليوم بسباطات نجم قرب بير الأحجار، داخل تونس ولهم عوائد على الدولة يأخذونها كل عام هي خمسة رؤوس من البقر، قفيزان من الملوخية، أربعة أقفزة من القمح...)(٣٦).

ومن جهة أخرى لابد أن نلاحظ أن الوضعية الاجتماعية لهؤلاء الزنوج بتونس كانت مرتبطة بالعائلات التونسية المترفهة شيئا ما(٣٧)، وقد وجد منهم من وصل إلى درجة الولي أمثال سيدي سعد الشوشان الذي أصبح حامي العبيد وأن بركته عمت وشملت مجموع التونسيين كما أصبحت زاويته بعد وفاته بمرناق، ضواحي تونس، مركز تعبد وذا طقوس افريقية(٣٧م). وعندما يعتق بعضهم لدى وفاة صاحبهم سرعان ما يدمجون في الزعيم المجتمع التونسي ويصبحون ملاكا للأراضي والدور(٣٨)، وحتى الحاج عمر فقد كان يملك مئات من شجر التمر بقفصة وبيتا بتونس(٣٨م).

ومن الطبيعي جدا أن يكون الزواج أحد عناصر هذا التداخل بين الأقلية الافريقية وأهالي تونس وطرابلس، ويكفي دلالة على ذلك أن بعض المسؤولين كانت نساؤهم من الزنجيات، هذا فضلا عن المواطنين أنفسهم فمثلا كان يوسف باشا قرما زلي متزوجا من الليلاء مريومة البيضاء ومن ثلاث أخريات كن عبدات قبل الزواج وحررهن، بل ان احداهن وهي زهيرة السوداء كانت تتمتع بشخصية قوية وغير عادية كما جاء في تقرير أحدى الاوروبيات كانت قد زارتها سنة ١٨٣٠(٣٩)، وكذلك تزوج أحمد بن أبي الضياف المؤرخ التونسي من زنجية وهذا ما يؤكد على عدم وجود أي حائل دون اختلاط شعب الشمال الافريقي بشعوب جنوب الصحراء على الاطلاق.

ومن جهة أخرى تزوج الفقيه محمد الأمين الكاتمي، أصيل فزان والذي عرف برحلاته العديدة من احدى بنات أحد الأمراء ببورنو(٤٠) كما تزوج الماي أحمد، أمير بورنو من السيدة زيلة الطرابلسية(٤١)، ويذكر أحد المؤرخين أن ملوك بورنو كانوا يزوجون بناتهم من الأقلية المغربية العربية المقيمة بالمدينة(٤٢).

النسب العربي

على أن دراسة تأثير مختلف هذه العوامل على المجموعتين سيكون مهما جدا وأول ما يلفت انتباهنا أن أمراء بورنو المتأثرين باشعاع ومكانة أمراء الدولة الحفصية، قد قلدوهم في تبني تلقيبهم بالأمير وبالخليفة(٤٣)، وقد ظهر هذا اللقب في الوثائق والسجلات الرسمية لامراء بورنو. ثم أنهم ارجعوا انتسابهم إلى نسب عربي وسلاطين ملي يدعون مثلا الانتساب إلى عبد الله بن صالح بن الحسن بن علي، وانتسب سلاطين كانم وبورنو إلى حمير، كمااتخذ سلاطين سنغي نسبا عربيا(٤٤) وقد كان اللباس التونسي إلى عهد قريب جدا، سائدا في جهة غات وغدامس حيث كانت (تلبس أعيانهم الجبة التونسية والبرنس المصنوع بالحرير والحرملة والصدرية والمنتان والشاشية التونسية والحزام التونسي وسيوفهم تونسية الأصل وجميع ما يعز عليهم من الأثاث تونسي، حتى إذا أرادوا مدح شيء من السلع قالوا هذا تونسي الأصل)(٤٥)، وقد أكد هذه الظاهرة، من قبل، الرحالة الألماني بارث وكثيرا ما أشاد بلباسه التونسي الجميل وبرنوسه الأبيض(٤٦) أما الرحالة الفرنسي كايي فينقل لنا أن أكلة الكسكسي مألوفة بمدينة تمبكتو(٤٧) وأن

البندقية التونسية الصنع هي التي يحملها الناس هناك(٤٨) بل أن الطوارق يعتقدون أنه لا يوجد بلد في العالم أعظم من مدينة تونس ويرون أن سلعها أحسن سلع مدن الدنيا، بحيث أن التاجر إذا أثبت لهم أن الشيء الذي يريدون شراءه أصله من تونس، اشتروه بما يطلب من غير مساومة)(٤٩) ويضيف الرحالة بارث أن (البضائع التي يرغب فيها الناس بكانم ويقدرونها، هي تلك التي تستجلب من تونس)(٥٠).

وقد سرى هذا التأثير إلى الرغبة في جودة الملبس والمأكل والتطيب بالروائح الطيبة رغم استعمال البخور في كل البيوتات في تمبكتو، قدوة بتونس وفاس وغدامس(٥١). كما انتقل حب المغاربة للحصان إلى بقية شعوب جنوب الصحراء، وتعددت رغبة الأمراء الأفارقة في الحصول على الجواد العربي الأصيل(٥٢).

أما ميدان التعليم وتبادل الكتاب وتقصي أخبار المخطوطات فتعتبر من المواضيع الهامة جدا لتفسير التحرك الفكري والثقافي المتبادل بين شعوبنا والشعوب الأفريقية، والتي على ضوئها يتحدد مدى الارتباط العضوي بين جذور ثقافتنا المتفاعلة مع الثقافات الافريقية.

التبادل الثقافي

لاشك أن حركة الدعوة الاسلامية قد لونت ابتداء من مطلع العصر الحديث حياة الشعوب الافريقية المتاخمة للشمال الأفريقي بالطابع الاسلامي وأصبح الاسلام يحتل (البنية الأيديولوجية لكل الأنظمة القوية والتي استمرت حتى القرن التاسع عشر)(٥٣)، وهذا خلافاً للرحالة الفرنسي ماج (Mage) الذي ذهب إلى أن أكثر الأمراض التي تعاني منها افريقيا مردها إلى الاسلام(٥٤).

وقد نشطت تلك الدعوة خصوصا بعد اقصاء المسلمين من غرناطة، وقد خرجت جموع كثيرة من المرابطين يدعون سلميا إلى الاسلام مستعملة في ذلك اللغة العربية، وقد التجأ نتيجة لذلك عدد من العلماء والشعراء الأندلسيين عن طريق تونس، إلى مدينة تمبكتو والتي كانت خلال القرن السادس عشر أهم مركز تعليمي في وسط وغرب افريقيا(٥٥)، بل ان جامعة تمبكتو تمثل أحدى المنارات للتقدم الفكري والثقافي في العالم الاسلامي(٥٦).

ومما لاشك فيه أن الوضع الجغرافي للصحراء الكبرى وامتدادها الطبيعي، للشمال الافريقي وحرص القوافل التجارية المغربية على اتباع الخط الصحراوي، هذا فضلاً عن قوافل الحجيج قد ساعد على تطعيم وتغذية الجو التعليمي بما يحمله هؤلاء الرحالة من أنباء وأفكار وأخبار عن العلم والعلماء والكتب والتآليف الجديدة وحلقات التدريس والمناظرات وغيرها من الأنباء التي تؤكد على مدى التواصل الفكري والتتبع الدقيق لكل ما هو جديد، ولاشك أيضاً أن شعوب وسط وغرب افريقيا حتى السودان والتي تبنت المذهب المالكي، محمولة أصلا إلى التطلع الى الشمال الافريقي ذي المذهب المالكي، بدل المشرق، وعلى ضوء ذلك فهناك مؤلفات مغربية كانت قد عرفت وتداولها المثقفون في السودان، ولم تعرف على ذلك العهد، مثل مؤلفات المغيلي، وجامع المعيار الونشريسي)(٥٧) بل أن هؤلاء الأساتذة كانوا قد تبنوا نفس النسق المنهجي للتعليم بأصنافه وباحتضانهم نفس الكتب التي كانت تدرس بتونس أو القاهرة(٥٨) وأن الكتب التاريخية أو الجغرافية المغربية أو التونسية أو القاهرية كانت معروفة لديهم(٥٩).

كذلك كان علماء تمبكتو خلال رحلاتهم كثيري الزيارات لجامع الزيتونة وفاس والقاهرة وأن علماء فاس وتلمسان كانوا يستشارون في القضايا العلمية والقضائية(٦٠) وأن الشريف أحمد الفاسي الذي كان وزيرا للأمير صابين قد استشار علماء طرابلس وأخذ فتوى منهم حول قضية شرعية(٦١) وقد اشتهرت عالميا مدينة تمبكتو ببيع المخطوطات المغربية والتي أصبح التجار عن طريقها، يتحصلون على أكبر ربح على الاطلاق وهو الربح الذي فاق بكثير ما يتحصلونه من السلع الأخرى(٦٢).

والذي يزيدنا اقتناعا بمدى عمق هذا التبادل المعرفي أننا لا نجد شخصية علمية كأحمد بابا التمبكتو(٦٣) على الساحة العربية الاسلامية لها من الادراك والمعرفة في عمقها واتساعها للثقافة الاسلامية والمغربية على الخصوص، ويكفي دلالة

على ذلك في كتابه **نيل الابتهاج بتطوير الديباج**، ليندهش الانسان لشبكة المعلومات الضخمة التي جمعها والتي لا نجد أحدا سواه في عصره، تمكن من ذلك(٦٤)، وتصل دقة المعلومات إلى ذكر مخطوطة **(الرد على الشابية: المرابط عرفة وصحبة)** تأليف الفقيه عمر بن محمد الأنصاري القسنطيني المتوفي سنة ١٥٥٢م. وقد انفرد بذكرها وهي تتناول أحداثا محلية تونسية، كان قد أطلع عليها وعلق عليها، وهي الآن في حكم المفقودة(٦٥).

كذلك كانت جامعة سنكوري قد تمتعت بسمعة كبيرة جدا وأن شهرة أساتذتها قد تجاوزت حدود افريقيا الزنجية لتصل إلى مشارف افريقيا العربية(٦٦).

استمرار التبادل المعرفي

وقد استمر التبادل المعرفي باقتناء الكتب وطلب العلم بين الشمال الافريقي وغرب ووسط(٦٧) وحتى شرق افريقيا، قويا. وقد ذكر لنا ابن أبي الضياف أنه وفد على حاضرة تونس، النحرير الفهامة أبو العباس أحمد السناري مهاجرا لطلب العلم وهو ابن أخي أمير سنار، من أرض الحبشة، وأنه وصل إلى تونس لأخذ العلم على أبي اسحاق ابراهيم الرياحي الذي سمع عنه وبعلمه، وقد أخذ عنه وعن الامام أبي محمد حسن الشريف مقدارا صالحا من صحيح مسلم بشرح الأبي وعن الشيخ اسماعيل التميمي مقدارا وافرا من شرح المحلى لجمع الجوامع، وأخذ عن الشيخ طاهر بن مسعود شرح القطب على الشمسية، وأخذ عن الشيخ الذي قصده شرح السعيد عليها، وله يد طولى في علم الكلام، وخالط علماء تونس وامتزج بهم، شأن الأذكياء، وأعجب بتونس وبأخلاق أهلها مع الواردين اليها، وكان شافعي المذهب، سني العقيدة مع تشيع في حب آل البيت... كما أخذ عن عالم القيروان ابن عبد الله محمد بن بكار الصدام واستجازه، فأجازه...)(٦٨) ولدى مغادرته تونس، استضاف أعيانا من العلماء بداره واحتفل في ضيافتهم احتفال الملوك واشترى غالب التآليف التونسية (كذا)(٦٩).

ولعل أبرز مظهر لهذا التبادل وهذه الملاحقة من أجل العلم والمعرفة ذلك المثل الشعبي الغدامسي المشهور: (غدامس تولد وتونس تربي)... ذلك إذا ازداد مولود لأعيانهم يمكث عندهم بغدامس إلى أن يبلغ سنة سبع أو ثماني سنين إلى العشرة، ثم يرسلونه إلى تونس لقراءة جانب من القرآن العظيم وتعلم الكتابة(٧٠). فلا غرو إذن ان كان المد الثقافي متواصلا وتأثير ذلك كان عميقا على جميع المستويات ومنها اللباس والمأكل كما أشرنا سابقا.

أما والد الرحالة أحمد بن عمر التونسي، فانه عندما قرر الرجوع إلى واداي، وكان وزيرا لأميرها، فانه قد اشترى هدية تتركب من ساعة دقاقة واقتنى أيضا عددا من الكتب(٧١) خاصة وأن الأمير صابين قد اشتهر بحبه للعلم والعلماء(٧٢)، كذلك عندما مر أمير شنقيطي بمصر ثم بتونس أهدى له ثلاثة صناديق مملوءة بأحسن الكتب من طرف والي مصر وباي تونس وبعض الشخصيات العلمية الأخرى(٧٣).

الرحالة التونسي

لا يمكن أن نمر الآن دون أن ننوه بالرحالة الشهير أحمد بن عمر التونسي الذي جاب الصحراء أكثر من مرة وأقام بدارفور وواداي سنين عديدة، ونفذ إلى تلك المجتمعات بحدس وحس المنتمي إليها قاريا ودينيا وثقافيا، وكتب لنا رحلتين تعدان اليوم أهم مادة تاريخية وأساسية للتاريخ الاجتماعي لدارفور وواداي. وأنه لم يفقه اي رحالة شرقيا كان أو أوروبيا في أمانة النقل والوصف وتنوع المادة التي سجلها.

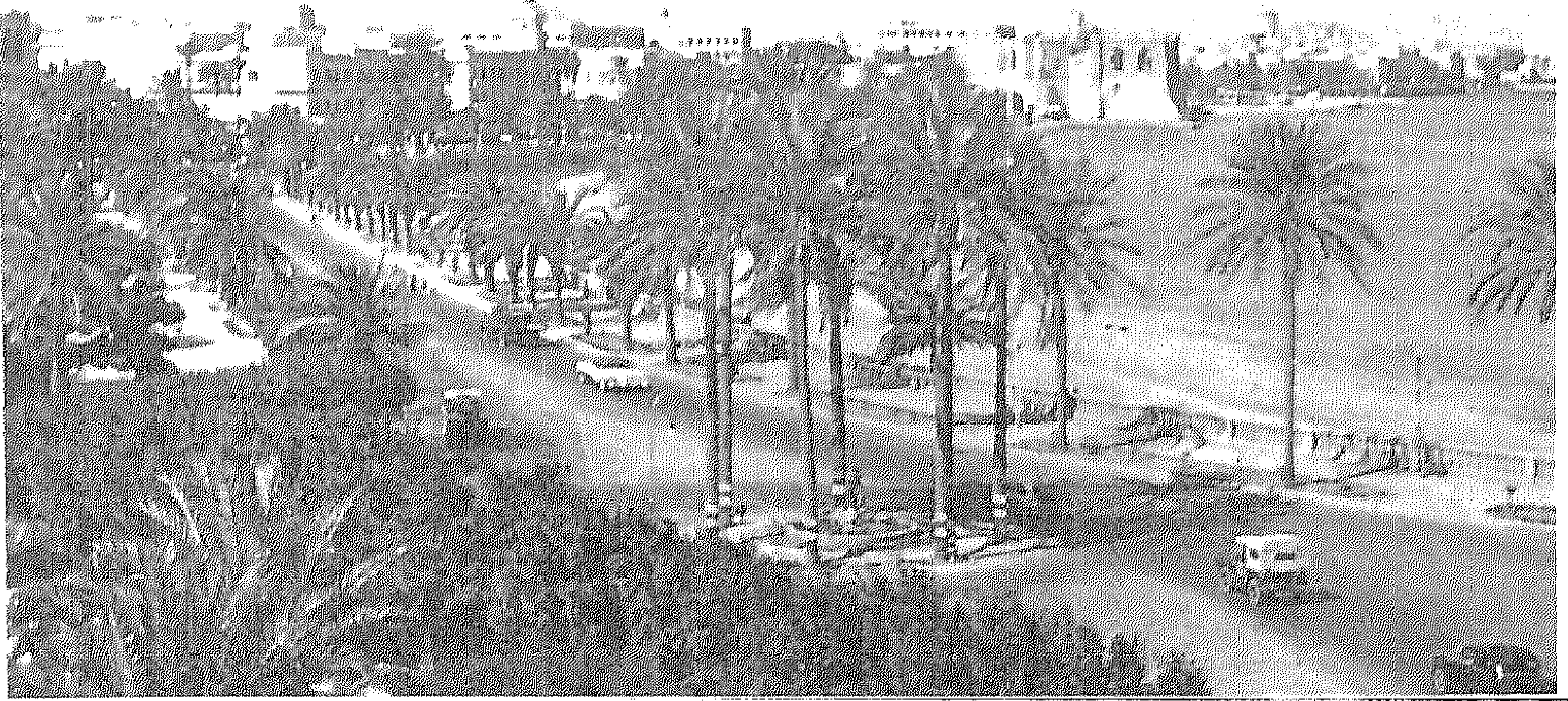
وينقل رحالتنا كيف أنه التقى بالقاضي الطاهر وأخيه زين العابدين والشيخ بن عيسى والشيخ بن غلبون في طرابلس، وكيف أنه حضر بمدينة مرزق دروس هذا العالم الأخير لتفسير القرآن، وقد لعبت مدينة مرزق، وهي محطة القوافل الصحراوية، دورا في هذا الاشعاع المعرفي، وهو الدور الذي ما زلنا نجهل عنه الكثير.

ويذكر الرحالة بارث أنه التقى بشخصية من سنار، كانت قد استخدمت في الجيش العثماني،

ليتولى بعد ذلك بمنطقة واداي تدريس فن استعمال السلاح الناري[٧٤]، وأنه التقى بالحاج بشير الذي أدهشته فيه أهمية المحادثات التي أجراها معه حول بعض المسائل العلمية كدوران

□ جامع الزيتونة.





□ مدينة طرابلس الغرب.

الأرض والنظام الفلكي وقد عبر عن عميق سروره لتلك المجادلات العلمية[٧٥]. وقد لاحظ الرحالة اهتمام الناس بالمخطوطات مقدما لنا وصفا شيقا لأحد قضاة أغادس المسنين وحيث وجده في أحد أركان الجامع يقرأ مخطوطا كانت أوراقه متقطعة[٧٦]. أما الرحالة كايي فيؤكد أن الناس في مدينة جنى لا يعرفون إلا الكتابة العربية وكلهم يستطيعون قراءتها ولكن القليل منهم يدرك معانيها[٧٧]، وهذا ما يؤكد على أن اللغة العربية أصبحت لغة العلم والتبادل التجاري والسياسي، وقد تباهى الأفارقة بها والاعتزاز بها وبحبها مع الملاحظة أن انتشارها لم يقض على اللهجات الوطنية المحلية، وحيث احتفظت بها إلى اليوم[٧٨].

إلا أن حركة الاتصال الفكري بين طرابلس وجنوب الصحراء ستعرف دفعا جديدا عن طريق السنوسيين عندما أنشأوا زاوية الجغبوب[٨٠] والتي أصبحت من أهم المراكز العلمية على الساحة العربية الاسلامية، ونشر تعاليمه السمحة، وقد بثوا تعاليمهم عن طريق عدد من المراكز مثل زراياقرو وجنقه الكبيرة وجنقة الصغيرة وبير العلايلي وكانو وزندر وبارادي وجاجدونا والغاشر وعين كلك وقانت وجيل مراح والبرقوات وون وعبيش وغيرها بحيث بلغت مائة وثلاثين زاوية يضاف إليها ست زوايا بتونس[٨١]، وقد اقتنى لهذا الغرض مكتبة هامة بحيث لا يطبع كتاب في العالم باللغة العربية إلا ويبحثون عنه ويظفرون به[٨٢] وقد اعتبر السنوسيون أنفسهم جنودا لنشر الاسلام واللغة العربية خاصة بين الطوارق الذين يتكلمون لغة بربرية، (وأن هؤلاء منذ اعتقلوا بالطريقة السنوسية صار منهم من يحفظ القرآن العظيم مع حسن مشاركته في العلوم الاسلامية، وكان تخرج منهم أناس عالمون فقهاء كالشيخ الغدامسي صاحب شركة الحزب الكبير للامام الشاذلي، رضي الله عنه)[٨٣] ومن جهة أخرى سهلوا الاتصال عن طريق الحج[٨٤].

المظهر الطرقي

ولا شك أن المظهر الطرقي، هو صيغة أخرى تلقائية لنموذج السلوك الديني والتفكيري المتبادل بين المنطقتين، وأن هذه الطرق كانت وراء أهم التحركات الشعبية[٨٥] والذي كان أحد أقطابها الحاج عمر الذي يعد رمزا للتغيير الاجتماعي والسياسي لكل أفريقيا الصحراوية، خاصة عندما لاحظ لدى رجوعه من جدة عن

طريق القاهرة أنه (لم يشاهد في رحلته من السنغال إلى بورنو رجالا بل أبقارا وغنما)[٨٦].

إن عوامل التأثيرات كانت كثيرة ومن الصعب حصرها ويكفي أن نذكر تأثير القضاء وتشريعاته ونماذج بناء الأسواق السائد في المدن المغربية حيث أقيمت المدن الافريقية في أيام معلومة هذا فضلا عن تخطيط وبناء المخازن والمتاجر والحوانيت التي تتمركز حول المسجد الجامع[٨٧].

الموسيقى

على أنه وجب أن لا نغفل الحديث عن عامل لعب هو الآخر دورا في تغذية الأخذ والعطاء التي اتسمت بها الروابط الثقافية بين الشمال والوسط والغرب الافريقي، وتمثل ذلك في تلوين الموسيقى في كل من تونس وليبيا بالطابع الزنجي البحت، وأن الطبل والمزمار الافريقيين كانا مألوفين جدا، بل أن الغناء الزنجي في طرابلس كان هو السائد في حفلات الأعراس والتي كان يقوم بها مغنيات يعرفن باسم (الزمزمات) ويصاحبه رقص وثيق الصلة بالرقص الافريقي[٨٨].

أما في تونس، فقد اشتهرت المغنيات الزنجيات[٨٩] ولا شك أن (بوسعدية) التي تعتبر مزيجا فولكلوريا افريقيا كان شائعا جدا في الوسط والجنوب التونسي، بل أن طابع الرقص المصاحب للذكر الديني في الزوايا وغيرها، يترجم تماما عن عمق التأثير الافريقي في هذا القطاع[٩٠]. بل ان الحضرة التي تتم اليوم بسيدي منصور الشرياني بصفاقس يقوم بها الرجال والنساء السود، وهو ما أطلق عليه بالحضرة الستانبالية.

إنه من المستحيل علينا في هذه الدراسة السريعة، أن نأتي على مجموع التأثيرات الثقافية المتبادلة بين الشمال والوسط والغرب الافريقي إذ ذلك موضوع متعدد الجوانب وطويل النفس، ويتطلب مجهودا جماعيا، نأمل أن تتعهد مراكز البحث العربية والافريقية القيام به، غير أننا نود عن طريق هذه اللقاءات العلمية أن نسعى إلى إبراز رؤيتنا وشرح منهجيتنا وفرض اختياراتنا لدراسة التاريخ العربي الافريقي، هذا التاريخ الذي ركز أساسا من طرف المدرسة الغربية، على الفترة الاستعمارية دون غيرها[٩١] وأنه آن الأوان أن نولي العلاقات العربية الافريقية اهتماما جديا ومتواصلا. ●

الهوامش

(١) أن تناول المد الثقافي منذ الفتح العربي، يحتاج هو الآخر إلى دراسة مستقلة لتعدد جوانبه، ولذا فضلنا عدم إثارته هنا.

(٢) Robert Brinschvig «La dynastie hafcide. Les Hafcides aux XIIIe et XIV siècles. La Tunisie hafcide. Le XV ème siècle» in, *Initiation à la Tunisie,* p. 95. *Paris 1950*

(٣) ابن أبي الضياف، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج ١، ط ٢، ص ٢٢٨ الدار التونسية للنشر، ١٩٧٦.

(٤) Jean-Leon L'africain, *Description de L'afrique,* t. II, p.446, Edition A. Epaulard, Paris, 1956.

(٥) محمد بن عثمان الحشائشي التونسي، رحلة الحشائشي إلى ليبيا (جلاء الكرب عن طرابلس الغرب) تقديم وتحقيق علي مصطفى المصراتي، ص ١١٤، بيروت، ١٩٦٥.

(٦) Dr. Henri Barth, *Voyage et dècouvertes dans L'Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 à 1855,* traduit de L'allemand par Paul Ithier,.. t.II, p. 97, Paris, 1860.

(٧) Rishmond Palmer, *The Bornu Sahara and Sudan*, p. 224, London 1936.

(٨) **المصدر نفسه.**

(٩) حسن ابراهيم حسن، انتشار الاسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى، ص ١١٢، منشورات معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٥٧.

(١٠) P. Robert Cornevin, *Histoire des peuples de L'Afrique noire,* 2 édition, p. 154 Paris, 1962.

(١١) **المصدر نفسه.**

(١٢) Joseph M. Cuoq, *Recueil des sources arabes concernant L'Afrique Occidantale* du VIIIe *au Siècles* (Bilad Al-Sudan) p. 209 et p. 352, Paris, 1975.

— Palmer, op.cit., p. 186

راجع أيضا:

— الشاطر بصيلي عبد الجليل، **تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط من القرن**

السابع الى القرن التاسع عشر للميلاد، ص ٤١٨، القاهرة ١٩٧٢.
— ابن أبي الضياف، نفس المصدر، ج ١ ص ٢، ص ٢٠٤.
— ابراهيم علي طرخان: **امبراطورية البونو الاسلامية**، ص ٨٦، القاهرة، ١٩٧٥.

(١٣) **المصدر نفسه**، ص ١٧٤.

(١٤) Charles Féraud, *Annales Tripolitaines,* p. 34, Tunis, 1927.

(١٥) الشاطر بصيلي عبد الجليل، **نفس المصدر**، ص ٤٢٠.

(١٦) راجع نص هاتين الوثيقتين رقم ١ و ٢ والمنشورتين أثر هاته الدراسة، ص ٠٠٠٠٠.

(١٧) راجع متن الوثيقة ١ أسفله، ص ٠٠٠٠.

(١٨) R. et M., *Histoire de L'Afrique, des Origines à la 2e guerre mondiale,* p. 205, 4e édition, Paris.

(١٩) د. عبد القادر زبادية، **مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين ١٤٩٨ — ١٥٩١**، ص ٩٠، الجزائر ١٩٧١. راجع أيضا د. ابراهيم علي طرخان، **نفس المصدر**، ص ١٦٨.

(٢٠) Féraud, op.cit., p. 100.

(٢٠ م) Michel Abitbol, Tombouctou et les Arma, p. 214, Maisonneuve, Paris, 1980.
نلفت الانتباه إلى أهمية هذا الكتاب الذي أطلعنا عليه بعد تحريرنا لهاته الدراسة.

(٢١) Hallet, Robin, *The Penetration of Africa. European Interprise and* Exploration Princopally in Northern and Western Africa, Vol. 1, London, 1965.
مذكور في: مصطفى عبد الله بعيو، **المختار في مراجع تاريخ ليبيا**، ج ٢، ص ١٣٢ بيروت، ١٩٧٢.

(٢٢) Le Cheikh Mohamed Bin Omar El-Tounsy, *Voyages au Ouaday,* traduit de L'arabe par le Dr. Perron, p. 704, Paris, *1851*
وهذا مأخوذ من تعليق المترجم على كلام الشيخ الرحالة.

(٢٣) الحشائشي، **نفس المصدر**، ص ٩٤.

(٢٤) Dr. Louis Frank, *Tunis, Description de cette Régence,* p. 122, Paris, 1850.

(٢٥) Cheikh Mohamed Bin Omar El-Tounsy, *op.cit.,* p. 500.

(٢٦) **وثائق تاريخ ليبيا، الوثائق العثمانية ١٨٨١ — ١٩١١**، ترتيب ومراجعة وجمع أحمد صدقي الدجاني، جمع وترجمة عبد السلام أدهم، ص ٥٠ بنغازي، ١٩٧٤.

(٢٧) **المصدر نفسه**، ص ٥١، رسالة بتاريخ ٦ شعبان ١٣٠٣/ ١٠ ماي ١٨٨٦.

(٢٨) أتوري روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١**، تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي ص ٤٠٤، بيروت، ١٩٧٤.

(٢٩) د. محمد المدني الخضيري: (الطريق من طرابلس إلى فزان) المنشور في: **مجلة البحوث التاريخية**، السنة الأولى، العدد ١ ص ١٠٧، طرابلس، ١٩٧٨.

(٣٠) مصطفى عبد الله بعير، **نفس المصدر**، ج ٢، ص ١٥، يذكر نقلا عن أحد المراجع أن منطقة يفرن كانت مركزا للسنجق العثماني وكانت نالوت وغدامس وفساطو وزوارة والجوش تابعة للادارة العثمانية.

(٣١) الحشائشي، **نفس المصدر**، ص ١١٥.

(٣٢) **المصدر نفسه**، ص ١١٦، راجع أيضاً:

د. حبيب وداعة الحسناوي (ظروف وأبعاد امتداد الادارة العثمانية الجديدة لغدامس سنة ١٨٤٢ كما ترويها رسالة غدامسية)، المنشور في: **مجلة البحوث التاريخية**، السنة الثانية عدد ١، ص ٤١ — ٤٣، منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي، طرابلس، ١٩٨٠، وحين نلاحظ تعدد الزيارات الفردية للغدامسيين لتونس، هذا ما يترجم عن قوة واستمرارية هذا التبادل.

ومن جهة أخرى ذكر لنا الحشائشي، **نفس المصدر**، ص ١٣٠ — ١٣١، أن أعيان الغدامسية بتونس يفوق عددهم الثلاثمائة نفس، وأخص منهم بالذكر... الحاج عمر الوحشي، محمد الطاهر الوحشي الحاج الطاهر بن هارون، الحاج محمد بن الحاج أحمد الثيني، محمد بن بلقاسم بن الواحد، أبو بكر بن الحاج، الحاج محمد بن عزي واخوانه، البشير بن الامام، قاسم بن علي محلا، محمد بن وليد، محمد بوزمالة واخوانه، الحاج محمد هيبة واخوانه، متيضن القنجي واخوانه، الحاج علي الثيني واخوانه، الحاج محمد الثيني عرف الناظر، محمد بن جميع، محمد بن سالم ابن علي، قاسم بن موسي بن موسى بن عنكس، محمد بن عمر الوحشي، أحمد بن الحاج قاسم وأبناء عمه، محمد بن محمد الزملي، محمد بن عبد الرحمن بن رشيد، محمد بن أحمد بن رشيد، ابناء محمد بن محمد بن رشيد، أبناء الحاج علي بن رشيد، أبناء الحاج علي ديفو، خميس بن علي وادة، الحاج محمد بن خالد، محمد وأحمد أبناء القاسم بن أحمد محمد وخميس أبناء جردو، الحاج علي مسوي، محمد بن علي بن عمر الثيني، القاطنين بالممالك السودانية ولهم خبرة عظيمة بأحوال السودان وممالكه وجدودهم منذ أحقاب متطاولة بتونس يرون انفسهم كأبناء تونس في جميع الحقوق...).

(٣٣) **المكتبة الوطنية التونسية** ٩٥٦٤ مجموع ٦٣ ب وتوجد نسخة أخرى تحت رقم ٢١١٨٣ مجموع ٥ ب. لقد أحاطني الزميل الأستاذ محمد الحبيب الهيلة بوجود هاته الرسالة، ليتفضل بتقديم شكري وامتناني له.

(٣٤) د. رشاد الامام، **سياسة حمودة باشا في تونس، ١٧٨٢ ــ ١٨١٤**، ص ٢٤١ ــ ٢٤٢، منشورات كلية الآداب، تونس، ١٩٨٠.

(٣٥) ابن أبي الضياف، **نفس المصدر**، ج ٤، ص ١٧٥، تونس، ١٩٦٣.

(٣٦) الحشائشي، **نفس المصدر**، ص ١٣١.

(٣٧) Lucette Valensi, «Esclaves Chrétiens et esclaves noires à Tunis au XVIII siècle in, Annales. E.S.C., 22/6, p. 1279, Paris, 1968.

(٣٧ م) M.H. Cherif, «Homme et pouvoir dans la Tunisie de L'époque moderne» in *Annales E.S.C.* n° 34, 1980, pp. 585-586.

(٣٨) **المصدر نفسه.**

(٣٨م) Michel Abitbol, *op.cit*, p.211.

(٣٩) مصطفى عبد الله بعيو، **نفس المصدر**، ج ٣، ص ١٢١ ــ ١٢٢.

(٤٠) Palmer, op.cit., p. III.

(٤١) **المصدر نفسه**، ص ٢٥٨.

(٤٢) Marcel Emerit, «Les Liaisons terrestres entre le Soudan et L'Afrique du Nord au début du XIXe Siècles» in, *Travaux de L'Institut de Recherches* Sahariènnes, t.XI, 1954, p. 38.

(٤٣) — Palmer, *op.cit.*,p. 186

(٤٤) حسن أحمد محمد، (دور العرب في نشر الحضارة في غرب افريقيا) المنشور في **المجلة التاريخية المصرية**، عدد ١٤، ص ٧٩ ــ ٨٠، القاهرة، ١٩٦٨.

(٤٥) الحشائشي، **نفس المصدر**، ص ١٢٣.

(٤٦) Barth, *op.cit.*, t.II, p. 9.

(٤٧) René Cailli, *Journal d'un voyage à Timboctou* et à Jenné, dans L'Afrique Centrale, p. 301 Paris 1830.

(٤٨) **المصدر نفسه**، ص ٢٩٧.

(٤٩) الحشائشي، **نفس المصدر**، ص ١٢٣.

(٥٠) Barth, *op.cit*, t.II, p. 28.

(٥١) Félix Dubois, *Tombouctou, la m Mystérieuse, p.* 300, Paris, 1947, Léon L'Africain, op. cit., t.II, p. 468.

(٥٢) راجع أيضاً:

Barth, *op.cit., T.II, p. 105.*

(٥٣) Ibrahim Baba Kadé et Elikia M'Bokolo, *La Dislocation des Grands Empires,* p. 9 Paris, 1978.

(٥٤) Eugène Mage, *Voyage au Soudan Occidental* (1863-1866), p. 303, èditions Karthela, Paris, 1980.

(٥٥) عبد القادر زبادية، (ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو خلال القرن السادس عشر)، المنشور في: **المجلة التاريخية المغربية**، عدد ٧/٨، تونس، ١٩٧٧.

(٥٦) Galbararth Welch, *L'Afrique avant la colonisation,* p. 13, Paris, 1970.

(٥٧) عبد القادر زبادية، **مملكة... نفس المصدر**، ص ١٤٨.

(٥٨) A. Cherbonneau, «Histoire de la Littérature arabe au Soudan» in, *Journal Asiatique,* **t. IV, 1855.**

(٥٩) Dubois, *Op.cit.*, **p.** 317.

(٦٠) **المصدر نفسه**، ص ٣١٥ و ٣٢٩.

(٦١) Ahmed bin Omar El-Tounsy, *.op.cit.*, p. 221.

(٦٢) راجع أيضاً:

Léon L'Africain, *op.cit.*, T.II pp. 468-469.

احمد بابا التمبكتو **نيل الابتهاج بتطريز الديباج** ص ٧٧ ضيف القاهرة ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م، فقد ذكر لنا هذه القصة الطريفة والتي تعكس حرص الناس، فضلا عن المسؤولين على اقتناء الكتب: (إن أحمد بن محمد اليسيلي، الشيخ العالم المفسر، أخذ عن الامام ابن عرفة وأبي الحسن البطروني والولي ابن خلدون وأبي مهدي عيسى الغبريني وغيرهم، له تقييد جليل في التفسير قيده عن ابن عرفة فيه فوائد وزوائد ونكت ووقع له فيه قصة، وذلك لما ألفه سمع بذلك الأمير الفقيه الحسين بن السلطان أبي العباس الحفصي، فراسله فيه وطلبه منه، فامتنع وماطله أياما، ثم أرسل إليه رسله أن لا يفارقوه حتى يسلمه لهم... (وقد بيع هذا التقييد) في شركته، فسافر به مشتريه إلى بلاد السودان فبقي أهل تونس لا شعور لهم به، فكذلك كان أصل نسخة من نسخة السودان ومن هناك انتشر...).

(٦٣) E. Levi-Provençal, «Ahmed Baba» in, *Encyclopédie de L'Islam,* nouvelle édition ٩.I, P.288.

راجع أيضاً الرسالة الجامعية التالية:

Mohmoud A.Zouber, *Ahmed Baba de Tombouctou* (1556-1627) *sa vie et son oeuvre,* 213p Maisonneuve, Paris, 1977.

(٦٤) من المدهش حقا أن نعثر في هذا الكتاب على سجل دقيق لكل الاعلام التونسيين الزيتونيين وتآليفهم من العصر الإسلامي الأول حتى أواخر القرن السادس

عشر الميلادي. وهذا ما لم يقم به أحد سواه.

(٦٥) أحمد باب التمبكتي، **نيل الابتهاج... نفس المصدر** ص ١٩٧، نقلناه عن: د. علي الشابي، **العارف بالله احمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية**، ص ٧٧، تونس، ١٩٧٩.

(٦٦) Dubois, *op.cit.*, pp. 254-255.

(٦٧) Denise Bouche, *L'Enseignement dans le territoire français de L'Afrique Occidentale de 1817 à 1920, Lille,* 1975.

إننا نستغرب أن تخصص رسالة دكتورا دولة عن التعليم في غرب افريقيا منذ سنة ١٨١٧ ولا تعرج المؤلفة عن حيوية هذا الارتباط الثقافي والتعليمي بين الشمال الافريقي وغربيه، وكل ما ذكرته أن الحكام الفرنسيين قد قاموا بارسال بعض تلاميذ الزعماء المحليين إلى تونس عندما طبق النظام العربي ــ الفرنسي على بعض المعاهد في أواخر القرن الماضي، راجع الصفحات ٣٥١ و ٣٥٤، من الرسالة المذكورة أعلاه.

(٦٨) ابن أبي الضياف، **نفس المصدر**، ج ٣، ص ٢، ص ١٦٠ ــ ١٦٢.

(٦٩) **المصدر نفسه**، ص ١٦٢ ــ ١٦٣.

(٧٠) الحشائشي، **نفس المصدر**، ص ١٢٧.

(٧١) El-Tounsy, *op.cit.*, p. 589.

(٧٢) **المصدر نفسه**، ص ٥٠١.

(٧٣) Pierre Boyer, «Un roi de Changuiti à Alger en 1832», in, *Le Sahara. Rapports et Contacts Humains,* p. 78, Aix, 1967.

(٧٤) Barth, *op.cit.*, t.II, p. 122.

(٧٥) **المصدر نفسه**، ص ١٢٨.

(٧٦) **المصدر نفسه**، ج ١، ص ٢٥٤.

(٧٧) (Caillé *op.cit.*, t.II, p. 209) وهذه هي جملته:

Les Jennés ne reconnaissent d'autre écriture que celle des Arabes, Presque tous peuvent la Lire, mais peu en connaissent la signification.

(٧٨) جمال زكرياء (الروابط العربية الافريقية قبل حركة الكشوف الجغرافية وبدء حركة الاستعمار الأوروبي في القرن الخامس عشر) المنشور في: **العلاقات العربية الافريقية: دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار**، ص ٧، القاهرة، ١٩٧٧...

(٧٩) **وثائق... نفس المصدر**، ص ٥٠.

(٨٠) أحمد صدقي الدجاني، **الحركة السنوسية، نشاتها ونموها في القرن التاسع عشر**، ص ٢٨٥، بيروت، ١٩٦٧.

راجع أيضاً: جمال زكريا، الأصول... نفس المصدر، ص ٣٢٢ ــ ٣٢٦.

(٨١) **الدجاني، الحركة... نفس المصدر**، ص ٢٨٠.

(٨٢) الحشائشي، **نفس المصدر**، ص ١٥١ ــ ١٥٢.

(٨٣) **المصدر نفسه**، ص ١٢٧.

(٨٤) Marc Fournel, *La Tripolitaine. Les routes du Soudan*, p. 216, Paris, 1887.

(٨٥) Fernand Dumont, «Ahmadou Bomba (1850-1817). Apôtre de la non -violence» in, *L'Académie des Sciences d'Outre-Mer,* tXXXVI, 1976.

(٨٦) E. Mage, *op.cit,* p. 88.

(٨٧) نعيم فراح، حضارة الاسلام وحضارة أوروبا في افريقيا الغربية، ص ١٤٠ ــ ١٤٦ الجزائر، ١٩٧٥.

(٨٨) أحمد صدقي الدجاني، **ليبيا قبيل الاحتلال الايطالي او طرابلس الغرب في أواخر العهد العثماني** ١٨٨٢ ــ ١٩١١، ص ٢٩١، القاهرة ١٩٧١.

(٨٩) *Le Domaine colonial français,* t.II, p. 136, Paris, 1946.

نشرت صورة، من أصل ملون، لنموذج المغنين والمغنيات الزنوج بتونس خلال القرن ١٩.

(٩٠) يحتاج هذا الموضوع بحثا مستقلا، نأمل أن يقوم به ذوو الاختصاص.

(٩١) Jean Devise, «L'Histoires de L'Afrique. Enseignement et Recherche» in *L'Académie des Sciences d'Outre-Mer,* t XXXVI, 3, p. 616.

(*) **نص المحاضرة التي القيت في الخرطوم في نطاق المؤتمر الذي نظمته المنظمة العربية للتربية والثقافة حول العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الافريقية من ٢١ إلى ٢٤ فيفري ١٩٨١. وقد حصرنا بحثنا لكل ما يتعلق بتونس وليبيا كما طلبت منا المنظمة ذلك، وهذا وفقا لتوزيع الاختصاصات بالنسبة لكل المشاركين، وقد التزمنا تماما بذلك.**

كما نشر هذا البحث بادىء الأمر بالعربية والفرنسية في: المجلة التاريخية المغربية عدد ٢١ ــ ٢٢، تونس ١٩٨١ ثم في كتيب مستقل ضم نفس الدراسة باللغتين، مع ملاحقها وفهارسها في منشورات المجلة التاريخية المغربية عدد ٧، تونس ١٩٨١.

الفكر العربي الإسلامي

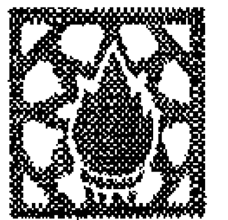
أعلاماً ومؤلفات ٧

د. نقولا زيادة

ابن خلدون

في عصر كاد فيه الحكم العربي ينهار في كل أقطار الوطن العربي، وتسلم زمام الأمور أعاجم، وتشرزمت الدولة إلى دويلات، واندحر الفكر، وجمدت الحضارة والثقافة، وغلب الزيف، فيما الحكام مشغولون بصراعات دمرت كل شيء، حتى بنى المجتمع الأساسي، ظهر عبقري عربي من أصل حضرمي، حداه الواقع إلى التفكير والتأمل في الأسباب، وما جرت من نتائج، فاستقرأ الماضي والحاضر، واستشرف المستقبل، فكان حصيلة كل ذلك، كتاب في التاريخ، تعتبر مقدمته أول كتاب ـ في العالم ـ في الفكر الاجتماعي. لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن بعض آرائها سبقت كونت، وهيجل، وماركس، وما تزال ذات قيمة كبرى لشمولها وعمقها.

ـ ١ ـ



في القرن الثامن/ الرابع عشر كان المغرب العربي، من طرابلس إلى مراكش، تتنازعه دولتان على شيء من المنعة والقوة هما بنو مرين في المغرب وبنو حفص في تونس، إلا أنه لم يكن لأي من هاتين الدولتين سيطرة مستمرة على الرقعة التي كانت تخضع لها بين الفينة والفينة. فكثيراً ما كان يقوم الطامعون بالعرش على صاحب الأمر، فتقع حروب أهلية يهلك فيها المتقاتلون وهم أبناء أسرة واحدة من حيث زعامتهم، وأبناء قبيلة واحدة من حيث الاتباع. وقد يقتتل الأخ والأخ في هذه الحروب. وكانت الرقعة الواقعة بين المغرب وتونس، وهي التي كانت تسمى قبلا المغرب الأوسط وهي الجزائر اليوم، تتعرض لكل ما يمكن أن يقدره المرء من خلاف ومطامع وحروب وفتن. وإذا أضفنا إلى هذا ما كانت



□ ابن خلدون.

تعانيه أسبانية الاسلامية من خسارة في المدن والدساكر بسبب الفتوح الاسبانية، أدركنا مدى ما كان يضيق به المعاربة، على أوسع تعبير، من آثار الحروب والقتال والغرم والتشريد والمصادرة.

وقد كانت الحالة في الشرق العربي ادعى إلى الطمأنينة بعض الشيء. فان قيام دولة المماليك منذ أواسط القرن السابع/ الثالث عشر في مصر، وامتداد نفوذها بحيث شمل ديار الشام والحجاز، وسيطرة سلاطينها على الأمور وامتلاكهم ناصيتها كل ذلك أدى إلى استقرار في الحكم والادارة. ومع أن الفترة لم تخل من ثورة أو عصيان، فإن أثر أي من هذين لم يكن يتعدى جزءا صغيرا من الامبراطورية الواسعة.

والخطر الوحيد الذي كان يهدد الشرق العربي، وخاصة ديار الشام، هو المغول (التتار). ذلك بأن هؤلاء القوم، بعد أن دمروا بغداد سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨، أخذوا يغيرون على البلاد الواقعة إلى غربها. فكان لهم غزوتان عنيفتان على ديار الشام الواحدة بقيادة غازان (قازان) سنة ٦٩٩/١٢٩٨ والثانية بقيادة تيمورلنك سنة ٨٠٣/ ١٤٠٠ ـ ١٤٠١.

في هذا العصر المضطرب، القرن الثامن/ الرابع عشر، عاش واحد من كبار مفكري العرب اطلاقا هو ابن خلدون. وقد امتدت حياة الرجل زمنا من سنة ٧٣٢/ ١٣٣٢ إلى سنة ٨٠٨/ ١٤٠٦، أما الرقعة التي شملتها هذه الحياة النشيطة فتمتد من فاس إلى دمشق.

ـ ٢ ـ

ولد ابن خلدون في تونس سنة ٧٣٢/ ١٣٣٢، وهو متحدر من أسرة من مهاجرة الأندلس، هبط جده الأعلى إليها من أشبيلية، لما رأى الخطر الاسباني يحدق بها في أواسط القرن السابع/ الثالث عشر. (والأسرة تنتمي أصلا إلى حضرموت، ومن ثم فكثيرا ما كان ابن خلدون يضيف الحضرمي إلى اسمه). ونال على يد آله وعلماء تونس خير ما كان عندهم من علم وثقافة، فقد حفظ القرآن الكريم ووعاه تفسيرا، وعرف الحديث اسنادا ومعنى، وتفقه في الشرع، وثقف النحو والبلاغة ودرى الشعر مبنى ومحتوى. ولم يكن ذلك غريبا. فقد كانت المدينة يومها تعج بأهل العلم والمعرفة ممن لجأ إليها من الأندلس وغيرها. وكان ابن خلدون ذا المعية لم تخف على أولي الأمر. لذلك نجد أنه لا يكاد يبلغ العشرين من عمره حتى يكون «صاحب العلامة» لوزير تونس ابن تافراكين، الذي استبد بالأمر نيابة عن السلطان الحدث. وكان ابن خلدون قد فقد أبويه في الطاعون المعروف في اوروبة باسم الموت الأسود (الذي انتشر سنة ٧٤٩/ ١٣٤٨ وما بعدها من سمرقند إلى المغرب، كما عصف بمعظم البلاد الأوروبية) وهم بمغادرة تونس إلى فاس لاحقا بالعديد من أساتذته وشيوخه، إلا أن أخاه حال دونه وتحقيق رغبته، فظل وأصبح كاتب العلامة.

وفي سنة ٧٥٣/ ١٣٥٢ انكسر عسكر ابن تافراكين وابن خلدون فيه، فخشي هذا على نفسه وهرب وطوف في البلاد حتى وصل بسكرة (في الجزائر). وكان أبو عنان المريني قد تولى عرش فاس (٧٥٢/١٣٥١) واستولى على تلمسان لاعادتها إلى سلطان آبائه (سنة ٧٥٣/ ١٣٥٢)

فسعى ابن خلدون إلى لقائه وانتهى به الأمر أن ضم إلى حاشيته (٧٥٥/١٣٥٤) عضوا في مجلسه العلمي ثم كاتبا وموقعا. وهذا يسر له راحة واطمئنانا بحيث أنه صرف بعض وقته في طلب العلم والمطالعة والكتابة في بعض الموضوعات المألوفة. وقد ذكر ذلك نفسه في التعريف فقال «وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب وأهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة وحصلت من الافادة منهم على البغية».

وشغل ابن خلدون نفسه، وهو في بلاط فاس، بالسياسة لا عملاً ورأياً فحسب، ولكن مؤامرات أيضا، فانتهى به الأمر الى قضاء سنتين في السجن. (٧٥٨ ــ ٧٦٠/ ١٣٥٦ ــ ١٣٥٨).

وعندخروجه من السجن ظل في فاس، في الكتابة والتوقيع، إلى سنة ٧٦٤/١٣٦١، مع أنه تقلب في العمل مع سلطانين ووزيرين!

وهكذا ففي الفترة الممتدة من ٧٥١/١٣٥٠ إلى ٧٦٤/١٣٦١ أتيح لابن خلدون أن يجرب وظائف الدولة ويختبر السجن ويتقلب في صحبة ثلاثة أمراء وثلاثة وزراء. وكان هذا كافيا لأن يجعل منه رجل سياسة فيما تبقى من عمره، وإن لم يفقده الرغبة في متابعة الدرس والتحصيل والنظر والتأمل.



□ واحة بسكرة (الجزائر)

ــ ٣ ــ

خرج ابن خلدون من فاس إلى سبتة في طريقه إلى غرناطة ٧٦٤/١٣٦١) فجاز إلى جبل الفتح (جبل طارق). وكان بينه وبين سلطان غرناطة صداقة، كما كانت تربط ابن خلدون ووزير غرناطة لسان الدين بن الخطيب صلة ود. فلما وصل غرناطة احتفى به سلطانها ووزيره وجعله السلطان من خواصه. وانتدبه في السنة التالية في سفارة إلى ملك قشتالة الاسباني، فقام بمهمته خير قيام، وأدت سفارته إلى عقد صلح بين المدينتين.

لكن ابن خلدون تعرض هنا للسعايات والوشاية، كما تعرض لذلك من قبل ومن بعد في مصر. ولعل مقدرة ابن خلدون وطموحه هما اللذان كانا يثيران حوله الريب والشكوك، فينتهي الأمر به إلى سجن أو عزل أو إقصاء. وشعر ابن خلدون باظلام الجو بينه وبين ابن الخطيب، وخشي عاقبة الأمور فرحل عن غرناطة.

ووافق ذلك أن دعاه أمير بجاية الحفصي ليكون في بلاطه، فاستأذن سلطان غرناطة في ذلك، وانتقل إلى بجاية (٧٦٦/ ١٣٦٤) حيث استقبل استقبالا حافلا وولي الحجابة. كما ولي الخطابة بجامع القصبة، فكان له أرفع مناصب السياسة والعلم.

وقد دامت هذه الحالة سنة وبعض السنة. ثم قضى ابن خلدون نحو سبع سنين في بسكرة وهو يعمل في المؤامرات وتحريض الاعراب على الثورة والقتال متنقلا من جانب إلى جانب. وانتقل بعدها إلى فاس حيث قضى سنتين بعيدا عن وظائف الدولة. وأجاز سنة ٧٧٦/ ١٣٧٤ إلى غرناطة ثانية لكن زيارته هذه كانت قصيرة.

— ٤ —

عاد ابن خلدون إلى تلمسان وفي نفسه أن يعزف عن السياسة. لكن سلطانها أبو حمو ندبه للطواف بين العرب داعية له. فخرج من تلمسان واستقر في منازل أصدقائه بني عريف الذين أنزلوه في قلعة ابن سلامة (في مقاطعة وهران). فأقام فيها أربعة أعوام منقطعا إلى التأليف والدرس. هناك بدأ العمل في تاريخه الكبير الذي سماه «كتاب العبر»، بادئا بالمقدمة. يقول ابن خلدون عن هذه الفترة التي أقامها في قلعة ابن سلامة: «فأقمت بها أربعة أعوام متخليا عن الشواغل كلها وشرعت في تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة. فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها. وأتم المقدمة، في صيغتها الأولى طبعا، في خمسة أشهر فقط. ثم انتقل إلى التاريخ نفسه. لكنه لم يلبث أن أدرك أنه بحاجة إلى مكتبة عامرة ومصادر للتاريخ وافرة، فاعتزم الرجوع إلى تونس والاستقرار فيها. وأذن له سلطان تونس بذلك فدخلها في سنة ٧٨٠/ ١٣٧٨، بعد غيبة دامت عشرين سنة.

صرف ابن خلدون أربع سنوات في تونس منقطعا إلى الكتابة والتأليف حتى فرغ من كتابه ورفع نسخته إلى سلطان تونس (السلطان أبي العباس). وفي أثناء إقامته بتونس صحبه السلطان في أحدى حملاته، وخشي أن يتكرر طلب السلطان وأن يعود إلى خدمة الدولة. فقرر الخروج من تونس، بل من المغرب كله، فذهب إلى مصر.

— ٥ —

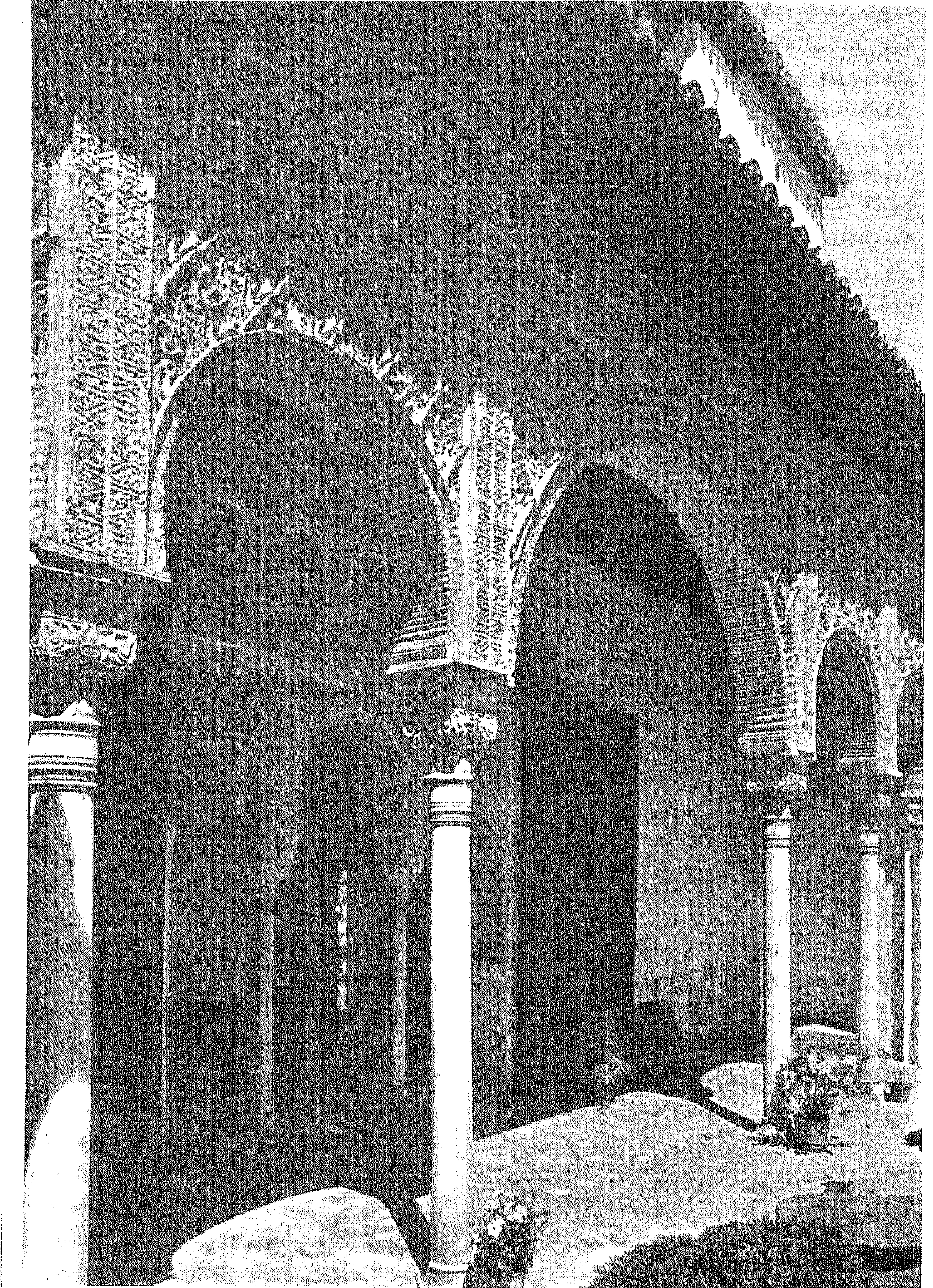
في سنة ٧٨٤/ ١٣٨٢ استأذن ابن خلدون صاحب تونس، السلطان أبا العباس، في اداء فريضة الحج، وما كان مثل هذا الطلب ليرفض. وكانت في الميناء سفينة تبغي الاقلاع إلى الاسكندرية، فذهب معها. إلا أنه، لما بلغ القاهرة، لم يذهب إلى الحجاز رأساً، بل ظل فيها وتحين الفرص حتى قدم إلى السلطان برقوق صاحب مصر. وأكثر الذين درسوا ابن خلدون يرون أنه هو الذي سعى إلى السلطان. وقد أحسن إليه برقوق فولاه التدريس في المدرسة القمحية ثم في الصرغتمشية. ولم يلبث ابن خدون أن ولي قضاء المالكية، وهو المنصب الذي تولاه ست مرات، عزل في خمس منها، وتوفي وهو في الولاية السادسة.

وبالاضافة إلى عمله في التدريس وتوليه خطة القضاء، فقد كان دائم الاتصال بأصحابه وأصدقائه في المغرب، بحيث أنه كان صلة الوصل بين السلطان برقوق وبين كبار المغاربة. وكان هؤلاء إذا هبطوا القاهرة شعروا بأن ابن خلدون كان وكيلا لهم.

ومن القاهرة أدى ابن خلدون فريضة الحج غير مرة واحدة، كما أنه زار دمشق وبيت المقدس.

في سنة ٨٠٣/ ١٤٠٠ ــ ١٤٠١ وصل تيمورلنك بجيوشه إلى حلب واتجه بعدها نحو دمشق. ففزع الناصر فرج (وكان قد خلف أباه برقوق على العرش) وخرج بجيوشه من القاهرة للدفاع عن دمشق. وكان فيمن أخرج معه ابن خلدون وغيره من القضاة والفقهاء. إلا أن الناصر فرج لم يلبث أن عاد أدراجه لأنه بلغه خبر مؤامرة في القاهرة لاقصائه عن العرش. وقد وصف ابن خلدون ما جرى بعد ذلك بقوله:

«وجاءني القضاة والفقهاء، واجتمعت بمدرسة العادلية، واتفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير تمر (تيمورلنك) على بيوتهم وحرمهم، وشاوروا في ذلك نائب القلعة، فأبى عليهم ذلك ونكره. فلم يوافقوه. وخرج القاضي برهان الدين ابن مفلح الحنبلي ومعه شيخ الفقراء بزاوية (...)، فأجابهم إلى التأمين، وردهم باستدعاء الوجوه والقضاة. فخرجوا إليه متدلين من السور بما صحبهم من التقدمة، فأحسن لقاءهم وكتب لهم الرقاع بالأمان، وردهم على أحسن الآمال. واتفقوا معه على فتح المدينة من الغد... وأخبرني القاضي برهان الدين أنه سأله عني، وهل سافرت مع عساكر مصر أو أقمت بالمدينة، فأخبره بمقامي بالمدرسة حيث كنت. وبتنا تلك الليلة على أهبة



□ روائع الفن الإسلامي في مدينة غرناطة.

الخـروج. فحدث لبعض النـاس تشـاجـر في المسجـد الجامـع، وأنكر البعض مـا وقع من الاستنامة إلى القول. وبلغني الخبر في جـوف الليل، فخشيت البادرة على نفسي، وبكرت سحرا إلى جماعة القضاة عند الباب، وطلبت الخروج أو التدلي من السور، لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر فأبوا علي أولا، ثم اصخوا لي، ودلوني من السور. فوجدت بطانته (بطانة تيمورلنك) عند الباب ونائبـه الذي عينه للولايـة على دمشق، واسمه شاه ملك، من بني حقطاي أهل عصابته. فحييتهم وحيوني، وفديت وفدوني، وقدم لي شاة ملك مركوبا وبعث معي من بطانة السلطان من أوصلني إليه. فلما وقفت بالباب خـرج الاذن باجلاسي في خيمة هنالك تجاور خيمة جلوسه. ثم زيد في التعريف باسمي أني القـاضي المالكي المغربي. فاستدعاني، ودخلت عليه بخيمة جلوسه متكئا على مرفقه، وصحاف الطعام تمر بين يديه ويشير بها إلى عصب المغل (المغول) جلوسا أمام خيمتـه حلقا حلقـا. فلما دخلت عليـه فاتحت بالسلام، وأوميت ايماءة الخضوع. فرفع رأسه ومد يده إلي فقبلتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت. ثم استدعى من بطانتـه الفقيه عبـد الجبار بن النعمـان من فقهـاء الحنفيـة بخوارزم فأقعده يترجم بيننا...».

وعمل ابن خلدون وهو في مصر على تنقيح المقدمة واتمام التاريخ بعد اطلاعه على أخبار الأمم والشعوب الأخرى. كما أنه وضع كتابه «التعريف».

وانتقل ابن خلدون إلى رحمته تعـالى سنة ١٤٠٦/٨٠٨.

— ٦ —

لابن خلدون دراسات صغيرة لعله وضعها في مطلع شبابه، لكنها ليست بذات قيمة، حتى أنه هو لم يذكرها في عداد مؤلفاته الحرية بالاهتمام. أما الكتب التي يعنينا أمرها فهي ثلاثة: المقدمة (وهي أصلاً الجزء الأول من كتاب التاريـخ) والتاريخ وهو الذي أصبح اسمه بعد إتمـامه «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريـخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر». أما الأثـر الأدبي الثالث الهـام لابن خلدون فهو «التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا».

والتعريف هو ترجمة ذاتية وضعها ابن خلدون لتعريف الناس بحياته وأعماله وما مر به. وهي في مقدمة التراجم الذاتية التي انتهت إلينا من أيام السلف الصـالح. وابن خلدون فيها صـريـح لا يداور ولا يحاور. فيها أخبار شيوخه وأخبار تنقله وأعماله وفيها، هنا وهناك، لمحات خاطفة لشخصيته بقلمه. والشيء الوحيد الذي نفتقده فيها هو هـذه النواحي الخـاصة والشخصيـة والعائلية التي كنا نحب لو أن المؤلف أعارها شيئا من العناية.

والقسم التـاريخي من كتاب العبـر يتناول المؤلف في نصفه الأول تاريخ الدول العـربية والاسلامية الشرقية مع المقدمات اللازمة، بينما يخص جزأه الثاني بالحديث عن دول البربر. وهنا فضل ابن خلدون المؤرخ، إذ لولا ما وضعه لجهلنا الكثير الكثير عن دول المغرب.

أما المقدمة فهي كتاب وضع فيه ابن خلدون أساس علم جديد عليه هو «علم الاجتماع».

والمقدمة تشمل على ديباجة الكتاب أو خطبته وقد عرض فيها ابن خلدون لما وضعه المؤرخون قبله ومـا تعرضـوا له من النقص في البحث والتمحيص، وما ارتكبوه من أخطاء وسبب ذلك بشكل اجمالي.

يلي هذه الديباجة ستة أقسام رئيسية هي: (١) في العمران البشري على الجملة؛ (٢) في العمـران البدوي والأمم الوحشيـة والقبائـل؛ (٣) في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانيـة؛ (٤) في البلدان والأمصار وسـائر العمــران؛ (٥) في المعـاش ووجـوه الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله؛ (٦) في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهـه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال.

فالمقدمة، عندما ينظر إليهـا نظرة اجمـالية فاحصة، تبدو وكأنها أتم تنظيم فكري للعوالم الانسانية عرفة العرب. وقد وصفها ف. روزنتال، الذي نقلها إلى الانكليزية مؤخرا، بأنها مرتبة ترتيبا منطقيا وأنها تلتزم الصرامة المتناهية في

الموضوع من أولها إلى آخرها. تبدأ المقدمة بدرس البيئة الطبيعية التي يعيش فيها الانسان وتأثيرها في حياته. ثم تتناول الانسان في منظماته المختلفة، بدوية كانت أم حضرية، وقيمة الزعامة أو القيادة في هذه الأمور. وتعرض بعد ذلك للدولة بأشكالها المختلفة، والحياة الاقتصادية وما يعتمل فيها وما تتأثر به من أمور وعوامل. وكل هذا يتناوله ابن خلدون في مقدمته في اطار من الفكر المنظم والمنطق الآخذ بعضه بأسباب البعض الآخر.

— ٧ —

في هذه المقدمة وضع ابن خلدون أسس علم الاجتماع وأسلوب البحث فيه، وهو الذي سماه العمران البشري. فقد كان يرى أن الانسان هو أصل العمران، وأنه، في تكوينه للعمران وقبوله للنظم المختلفة وتطور الظواهر الاجتماعية، إنما يعتمد على البيئة. وأن الأمور الربانية تؤثر في الفرد، أما المجتمع فيخضع في تطوره إلى قوانين عامة طبيعية تفعل فعلها في كل مكان وزمان. وحري بالذكر أن النظريات التي استنتجها ابن خلدون كانت مبنية على المشاهدة والعيان وقراءة التاريخ والعمل السياسي بين الحضر والبدو، وأنها اقتصرت على الشعوب الاسلامية في الدرجة الأولى.

والنقاط الأساسية التي انطلق منها ابن خلدون في سبيل وضع علمه الجديد أجملها الأستاذ شارل عيساوي في الأمور التالية:

١ — إن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين ثابتة بحيث تسير الأحداث الاجتماعية في طريق سوي ونظم محددة المناهج والنتائج.

٢ — إن هذه القوانين تفعل فعلها في الجماعات ولا يمكن أن تتأثر بالأفراد. فالمصلح الذي يحاول إحياء دولة مهترئة لن تنجح محاولته لأن جهوده تطغى عليها قوى اجتماعية لا سبيل إلى مقاومتها.

٣ — إن مثل هذه القوانين لا سبيل إلى الكشف عنها إلا بجمع الحقائق الأساسية الكثيرة والكشف عن النتائج التي ترتبت عليها. وسبيل الحصول على هذه الحقائق هو استقراء الماضي وملاحظة المجتمعات ومحاولة سبر أغوارها. وهنا يتوجب على الباحث الاطلاع على القضايا النفسية والبيولوجية والاقتصادية وما إلى ذلك.

٤ — ان القوانين الاجتماعية تفعل فعلها في المجتمعات التي قد يفصلها عن بعضها البعض الزمان أو المكان.

٥ — ان المجتمعات ليست جامدة، أي أن الظواهر الاجتماعية تتبدل وتتطور.

٦ — ان هذه القوانين هي اجتماعية وانها ليست انعكاسات لاندفاعات بيولوجية أو عوامل طبيعية. فالصناعة والثروة وما إلى ذلك لها الأثر الأول في تطوير المظاهر الاجتماعية وتبديلها.

ويرى ابن خلدون أن العصبية هي الرابط الأقوى في حياة المجتمع. وفي ذلك يقول:

«أعلم ان كل حي أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم، مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو أخوة بني أب واحد لا مثل بني العم الأقربين أو الأبعدين. فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العام. والنعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام، إلا أنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحمة. والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل. ولما كانت الرياسة إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها وتتم الرياسة لأهلها. فإذا وجب ذلك تعين أن الرياسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم، إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الأخرى النازلة عن عصابتهم في الغلب لما تمت لهم الرياسة. فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم إلى فرع، ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه، لما قلناه من سر الغلب. لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون، والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر، فلابد من غلبة أحدها وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية. ومنه تعين استمرار



□ جامع الأزهر حيث تلقى ابن خلدون علومه.

الرياسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه.

«وذلك أن الرياسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه. فلابد في الرياسة على القوم أن تكون عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالاذعان والاتباع. والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب، إنما هو ملصق لزيق، وغاية التعصب له بالولاء والحلف، وذلك لا يوجب له غلبا عليهم البتة، وإذا فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتنوسي عهده الأول من الالتصاق، ولبس جلدتهم ودعي بنسبهم، فكيف له الرياسة قبل الالتحام أو لأحد من سلفه. والرياسة على القوم إنما تكون متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصبية. فالأولية التي كانت لهذا الملصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك ومنعه ذلك الالتصاق من الرياسة حينئذ، فكيف تنوقلت عنه، وهو على حال الالتصاق؟ والرياسة لابد وأن تكون موروثة عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية. وقد يتشوف كثير من الرؤساء

على القبائل والعصائب إلى أنساب يلهجون بها، اما لخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم، أو ذكر كيف اتفق، فينزعون إلى ذلك النسب، ويتورطون بالدعوى في شعوبه، ولا يعلمون ما يوقعون فيه أنفسهم من القدح في رياستهم والطعن في شرفهم. وهذا كثير في الناس لهذا العهد».

فاذا قام المجتمع والدولة التي تلزمه نشأ العمران بكل ما فيه من عوامل النمو. فهو يرى أن الدول أقدم من المدن والامصار وأنها إنما توجد ثانية عن الملك. وفي ذلك يقول:

«وبيانه أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة كما قدمناه. وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها. وأيضا فالمدن والأمصار ذات هياكل واجرام عظيمة وبناء كبيرة. وهي موضوعة للعموم لا للخصوص، فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون. وليست من الأمور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى، حتى يكون نزوعهم إليها اضطراراً، بل لابد من إكراههم على ذلك، وسوقهم إليه مضطهدين بعصا الملك، أو مرغبين في الثواب والأجر الذي لا يفي بكثرته إلا الملك والدولة. فلابد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك».

ثم إذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها، وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها، فعمر الدولة حينئذ عمر لها. فان كان عمر الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند إنتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت، وان كان أمد الدولة طويلا ومدتها منفسحة، فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد، ونطاق الأسواق يتباعد ويفسح، إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها.

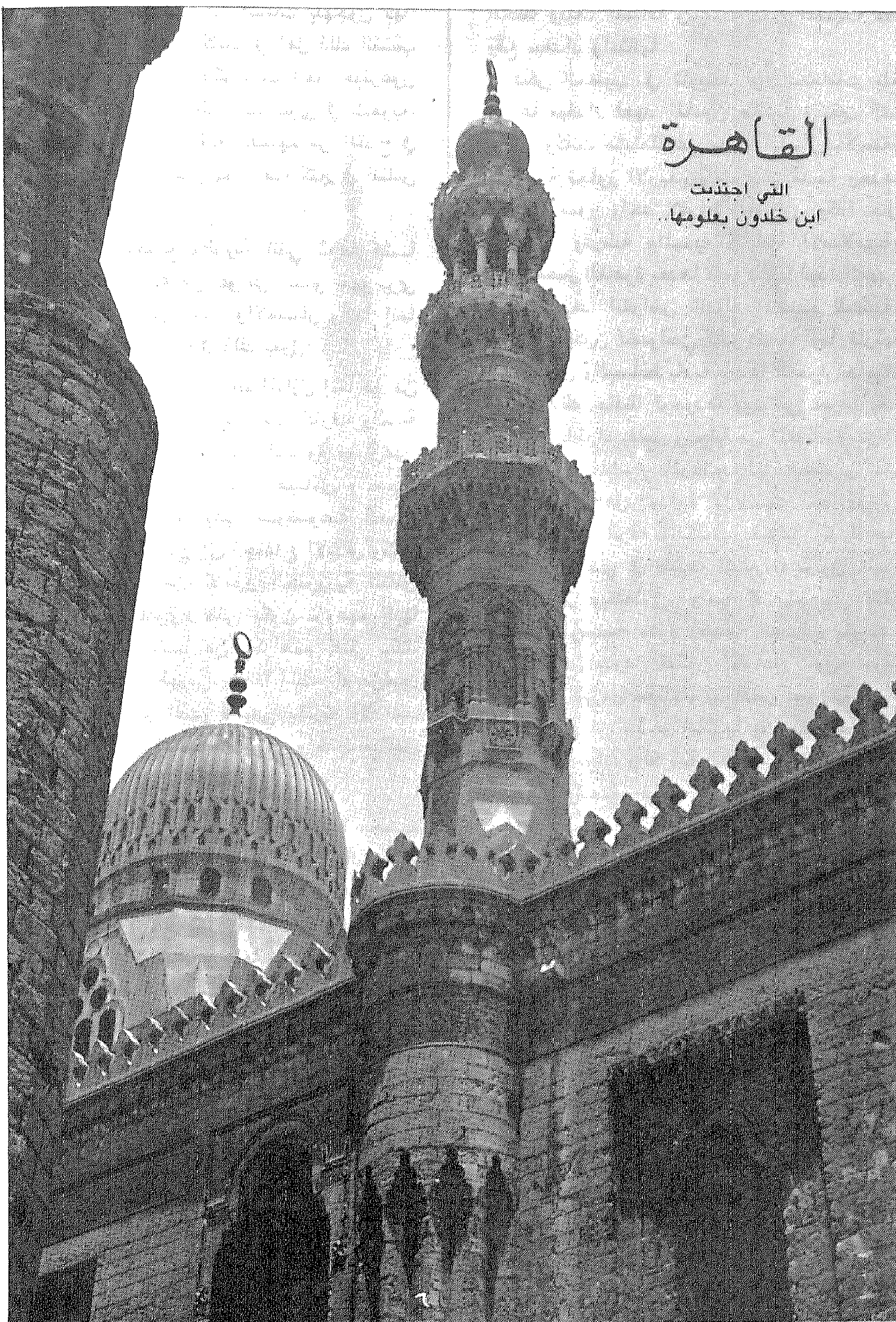
ذكر الخطيب في تاريخه أن الحمامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام، وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين، ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لافراط العمران. وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية في الملة الاسلامية، وحال مصر القاهرة بعدها فيما يبلغنا لهذا العهد.

وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة: فاما أن يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية يمدها العمران دائما، فيكون ذلك حافظا لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب، وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال، لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرفه والكسب، تدعو إلى لدعة والسكون الذي في طبيعة البشر، فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون. وأما إذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها، فيكون انقراض الدولة خرقا لسياجها، فيزول حفظها، ويتناقص عمرانها شيئا فشيئا، إلى أن يبذعر ساكنها وتخرب، كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب، وأمثالها فتفهمه. وربما ينزل المدينة بعد انقراض مختطيها الأولين ملك آخر ودولة ثانية، يتخذها قرارا وكرسيا يستغني بها عن اختطاط مدينة ينزلها. فتحفظ تلك الدولة سياجها، وتتزايد مبانيها ومصانعها، بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها، وتستجد بعمرانها عمرا آخر، كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد. والله سبحاله وتعالى أعلم، وبه التوفيق».

— ٨ —

كان ابن خلدون عبقريا. فجمع خبرات الماضي عبر التاريخ وخبرات المجتمع المعاصر له خلال التجربة والعمل في السياسة وغيرها، ولاحظ ما اعتور المجتمعات التي عرفها، وخرج بعلمه الجديد. وكان الرجل يعرف أنه يكتب في علم جديد.

وقد عرف معاصروه والذين جاءوا بعده مباشرة فضله. لكن المقدمة لم تلبث أن اصبحت شيئا في عداد الماضي. وكان أول من أفاد منها في القرنين العاشر والحادي عشر/ السادس عشر والسابع عشر رجال الحكم والسياسة من الأتراك العثمانيين، أمثال ويصي أفندي وطاش كبرزاده



القاهرة

التي اجتذبت
ابن خلدون بعلومها.

وحاجي خليفة ونعيما. وقد نقل بيري زاده القسم الأكبر من المقدمة إلى اللغة التركية في سنة ١١٤٥/ ١٧٣٠.

وفي القرن الماضي والقرن الحالي نقلت المقدمة إلى اللغات الفرنسية والايطالية والالمانية والانكليزية أما كلا أو أجزاء. وقد بلغت الدراسات التي كتبت عن ابن خلدون ومقدمته المئات.

وقد ظهر في أوروبة عدد من العلماء الذين تناولوا نواحي مختلفة من شؤون المجتمع درسا وبحثا مثل ماكيافللي وبودان وفيكو وكوندورسيه وأوغست كونت. وهذا الأخير يعتبر واضع علم الاجتماع الحديث.

ولكن مما يؤسف له أن هؤلاء الغربيين لم يكونوا قد عرفوا بما قام به السابق لهم جميعا أي ابن خلدون. ولو أنهم عرفوا ذلك وبدأوا من حيث انتهى هو لكانوا وفروا جهودا كبيرة.

فابن خلدون هو واضع أسس علم الاجتماع لكنه لم يكن أبا لعلم الاجتماع الحديث مباشرة.

ولعله من المفيد أن ننقل هنا رأي الدكتور علي عبد الواحد وافي. فقد عقد فصلا للمقابلة بين أوغست كونت وابن خلدون ختمه بقوله:

«هذا إلى أن أوجيست كونت نفسه قد اعترف بأن أساليب التفكير وفهم الأشياء في عصره كان يتنافر بعضها مع بعض كل التنافر، وان هذا قد سبب اضطرابا وتنافرا بين مظاهر الحياة الاجتماعية. فكيف يتفق هذا مع ما قرره في هذا القانون من أن التضامن أو الانسجام هو القاعدة في مظاهر الاجتماع الانساني.

«ومن هذا يظهر أن أوجيست كونت قد جانبه التوفيق في جميع ما انتهت إليه دراسته، سواء في ذلك ما انتهت إليه دراساته في الديناميك الاجتماعي وهو قانون الحالات الثلاث وما انتهت إليه دراساته في الستاتيك الاجتماعي وهو قانون التضامن.

«أما الأسباب التي أدت إلى إخفاقه هذا فيرجع أهمها إلى أنه لم يستنطق الحوادث ولم يلاحظ الوقائع والتاريخ ملاحظة أمينة صادقة، وإنما استوحى مبادئه الفلسفية وما كان يدين به من آراء في شؤون الكون والتفكير. وقد تصيد لهذه الآراء ولهذه المبادىء ما يؤيدها من الحوادث، وحال هواء بينه وبين النظر إلى مئات الشواهد الواقعية التي تدل على بطلانها.

«وأما ابن خلدون فانه لم يحاول كما فعل أوجيست كونت أن يستخلص قانونا عاما لناحية التطور ولا لناحية الاستقرار. وإنما درس كل طائفة من طوائف الظواهر الاجتماعية على حدتها واستخلص من دراسته لها ما هدته إليه ملاحظاته من أفكار وقوانين كما سبق بيان ذلك.

«وجميع قوانين ابن خلدون وأفكاره مستمدة من ملاحظاته لظواهر الاجتماع في الأمم التي شاهدها أو عرف تاريخها، بدون أن يستوحي مبدأ فلسفيا أو يتأثر برأي مبيت من قبل كما فعل أوجيست كونت.

«ومن ثم كان منهجه أدنى إلى المنهج العلمي من منهج أوجيست كونت، وكانت قوانينه أقوى أساسا وأقرب إلى طبائع الأمور وإلى الواقع من القوانين الخيالية التي انتهى إليها أوجيست كونت.

«غير أن معظم القوانين والأفكار التي انتهى إليها ابن خلدون لا تكاد تصدق إلا على الأمم التي لاحظها وهي شعوب العرب والبربر والشعوب التي تشبهها في التكوين وشؤون الاجتماع. بل لا تصدق على هذه الأمم نفسها إلا في مرحلة خاصة من مراحل تاريخها وهي المرحلة التي شاهدها أو انتهى إليها علمه.

«فالخطأ الذي وقع فيه ابن خلدون في هذا الصدد يرجع إلى نقص كبير في استقراء الظواهر، فهو لم يستقرىء الظواهر إلا عند أمم معينة وفي عصور خاصة، وانتهى من هذا الاستقراء الناقص كل النقص إلى أفكار وقوانين ظن أنها عامة تصدق في كل مجتمع وفي كل زمان.

«ولكن خطأه هذا ليس شيئا مذكورا بجانب الأخطاء التي وقع فيها أوجيست كونت. فانحراف ابن خلدون عن المنهج السليم في استنباط القوانين كان انحرافا شكليا يسيرا يمكن علاجه بتوسيع نطاق الاستقراء، على حين أن أجيست كونت قد انحرف في ذلك عن المنهج السليم انحرافا جوهريا كبيرا لا سبيل إلى إصلاحه إلا بهدم جميع ما بناه وأنشأه على أسس أخرى».

●

فـردريـك الأكبـر وطوال الأجسام

عرف عن فردريك الأكبر ملك بروسيا في أوائل القرن الثامن عشر أنه كان يفضل استخدام جنود طوال القامة ذوي بنية قوية تميل الى الضخامة. وخطر بباله ذات يوم أن يؤلف فرقة منهم تحرس قلعته وتحرس شخصه. فأمر بتأليف الفرقة ولكنه اشترط أن يكون أفرادها ممن يعرفون اللغة الألمانية.

ووجد رجاله صعوبة في تأليف الفرقة بسبب شرط اللغة. ولهذا قرروا التساهل في الأمر واكتفوا بتعليم الجند من الالمانية ما يكفي للرد على الأسئلة التي توجه إليهم. وكانوا قد لاحظوا أن الملك يطوف بالحرس في الليل ويطرح عليهم ثلاثة أسئلة واحداً بعد الآخر ووفق ترتيب معين وهي: متى دخلت الفرقة؟ كم عمرك؟ هل أنت راض عن المسكن والغذاء. فدربوا الحرس على الاجابة عنها بذات الترتيب. وكان الغرض بالطبع ايهام الملك انهم يعرفون الألمانية.

وحدث ذات ليلة أن أخذ الملك يطوف ببعض الحرس



□ فريدريك الثاني الكبير

ووقف عند أحدهم وبدأ يوجه الأسئلة ولكن وفق ترتيب آخر. وبدأ كما يلي:

ـ كم عمرك؟ قال الحارس:

ـ ثلاثة أشهر. وفوجيء فردريك فقال:

ـ ومتى دخلت فرقة الحرس؟ قال الحارس:

ـ منذ ثلاثين سنة. فقال فردريك بغضب

ـ إما أنا مجنون أو أنت، فقال الحارس:

ـ كلاهما.

السفير وملك اسبرطة

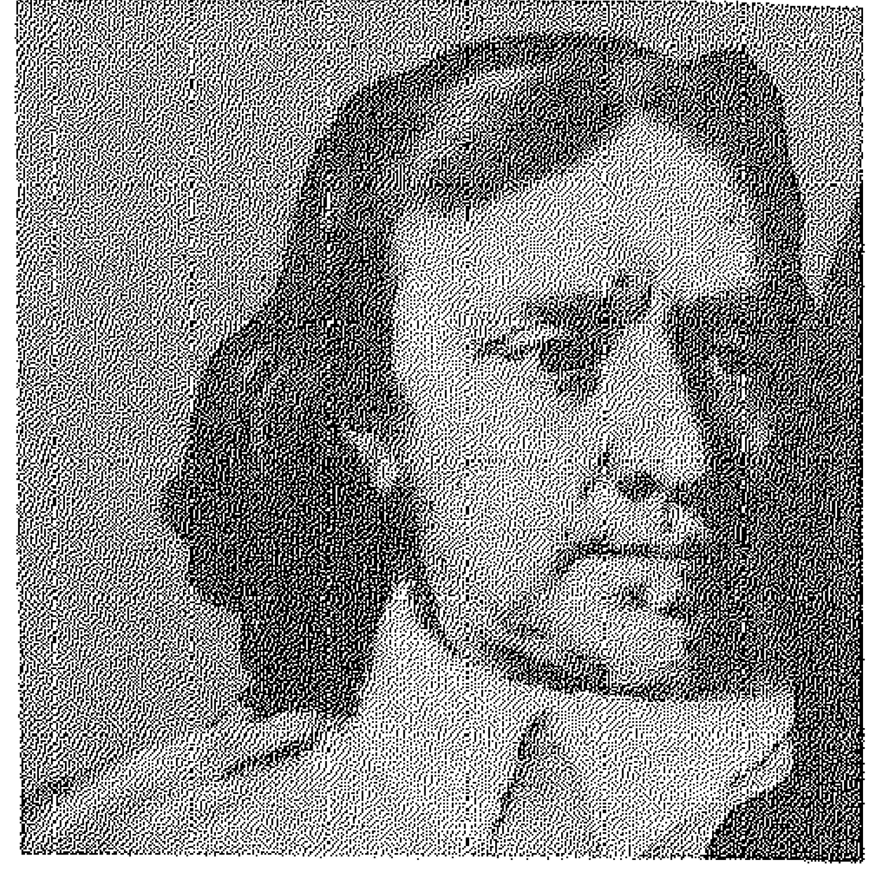
أوفدت مدينة برينثوس الاغريقية (اليونانية القديمة) احد سفرائها إلى ملك اسبرطة في مهمة خاصة. وتكلم السفير وأطال الى درجة الاملال. وأخيرا قال للملك:

ـ والآن ماذا أقول لأهالي برينثوس يا مولاي؟ قال الملك:

ـ قل لهم بأنك تكلمت وتكلمت، ولكنني لذت بالصمت، ولم أفه بكلمة واحدة.

اسلوب في الدكتاتورية

حدث في القرن السادس عشر أن استولى توماس كرومويل (١٥٩٩ ـ ١٦٥٨) بانجلترا على السلطة، وأعلن نفسه حامياً للكومنولث، وحكم حكما دكتاتوريا بالتعاون مع الجيش. على أنه أثار معارضة قوية لتسلطه وبخاصة بين رجال الكنيسة البرسبتارية (المشيخية). وذات يوم قام أحد كبار رجال هذه الكنيسة بمصارحة كرومويل بموقفه المعارض له، ووصف استيلاءه على السلطة بأنه إجراء غير شرعي وغير عملي. فقال له



□ كروموبل

كرومويل:

ـ ولماذا تقول بأنه غير عملي؟ فأجاب رجل الدين:

ـ لأنه ضد إرادة الشعب.

قال كرومويل:

ـ وماذا يحدث نتيجة لذلك؟

قال رجل الدين:

ـ سيكون تسعة من كل عشرة منهم ضدك. فقال كرومويل:

ـ حسنا يا سيدي. لكن ما قولك إذا استطعت أن أجرد التسعة من السلاح وأن أسلح العاشر؟ ألا تعتقد بأنني سوف أنجح في التغلب على المعارضة؟

اقصر رسالة في التاريخ

لعل أقصر رسالة في التاريخ هي رسالة بعث بها الاسبرطيون إلى فليب المقدوني. وقصتها كما يلي.

كان فليب المقدوني قد بدأ بالتوسع وضم المدن اليونانية واحدة بعد الأخرى. وأذعن جميعها له ما عدا اسبرطة. وغضب فليب لا لعدم ضمها ولكن لرفضها الاذعان له. فبعث لهم برسالة يهددهم فيها. ومما جاء فيها قوله:

ـ أيها الاسبرطيون. الأفضل لكم أن تبادروا إلى الرضوخ لسلطاني. لأنني إذا زحفت بجيشي عليكم فانني سوف أدمر بلادكم وأقتل رجالكم.

وكان الاسبرطيون معروفين بشجاعتهم وعنادهم. فأجابوه برسالة تشتمل على كلمة واحدة جاءت في انذاره لهم وهي كلمة «إذا» فجاءت هذه الرسالة أقصر رسالة عرفها التاريخ. ومن الطريف أن فليب ترك اسبرطة وشأنها.



الانتماء الاجتماعي والمسألة الحضارية في فكر جبران

د. وجيه كوثراني

عاش جبران أقل من نصف قرن (من ١٨٨٣ إلى ١٩٣١): سنوات قليلة في مرحلة تاريخية لا تزال تعيش فينا في قلق البحث عن التاريخ الضائع، ونعيشها في البحث الحثيث عن صورتنا في الذاكرة التاريخية المنسية... تعيش فينا سؤال انتماء، ونعيشها ازمة اختيار لموقع في ثقافة ما...

ذلك أنه منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين يشهد المشرق العربي تشكلا تاريخيا لمرحلة لم تنجز بعد ولم تستقر على ثوابت.

فلا الدولة التي تم عنها البحث في الحرب العالمية الأولى التي عاصرها جبران شابا تحققت وفق الارادات الداخلية لأبناء الوطن. ولا الاستقلال الذي سعت نحوه القوى البريئة رأى النور في مشروع مستقل، ولا النهضة التي انتظم فيها جبران وكان أحد رموزها المتألقة تمكنت من التجذر في مشروع حضاري أصيل وجديد وانساني.

ذلك أن هوة كبرى بعدت بين الحلم والواقع.. الحلم الذي ينبع من ضمير الانسان المقهور، والواقع الذي يصوغه عقل الطواغيت الكبار.

وكأن جبران عرف بحدس صوفي وبشفافية المنجذب دائما إلى المثال الأعلى عمق هذه الهوة التي تفصل الحلم عن الواقع، ففضل أن يخلق لنفسه في حينه عالما خاصا عبر اللون والشكل والقصيدة والكلمة والقصة والخاطرة.. ومع هذا، لم يكن نتاج جبران «طوبى»، هروب إلى الأمام أو إلى الوراء..



□ جبران خليل جبران بكاميرا موريتا

فجبران ينفرد عن العديد من مفكري النهضة في أنه لم يندرج في مدرسة تفسير الواقع أو ادعاء تغييره في عمل سياسي مباشر أو تبرير ما يجري، أكان هذا الذي يجري «مأساة» أو «هزيمة» أو «انتصارا». بل يمكنني أن أقول: إن نتاجه كان يصدر عن قلبين «قلب يتألم وقلب يتأمل» مستعيرا هذه الصورة من قولته هو:

«للرجل العظيم قلبان: «قلب يتألم وقلب يتأمل».

فجبران عاش الحلم والواقع معا. عاش بداية عذوبة الحلم وبداية مأساوية الواقع. وكان يشعر أن ثمة تفارقا يحصل بين الوضعيتين وبأن هوة تحفر بينهما... لكن جبران لا يغادر معايشة الوضعيتين. فهو لا يهرب من الواقع ليعيش طوبى الفيلسوف، طوبى مدنيته الفاضلة ولا يغادر الحلم ليغرق في اللهاث وراء فهم الحدث كالمنظر أو المحلل السياسي.

تلك هي مأساة الازدواجية في المعاناة: معاناة الألم والأمل معا، وهي معاناة يمارسها جبران من موقع الحب الكبير.

وهذا الحب على لسان جبران:

«هو أن تذوب وتكون كجدول متدفق يشنف آذان الليل بأنغامه.

«هو أن تخبر الآلام في العطف المتناهي.

«هو أن يجرحك إدراكك الحقيقي للمحبة، في حبة قلبك، وأن تنزف دماؤك وأنت راض مغتبط.

«أن تنهض عند الفجر بقلب مجنح، خفوق، فتؤدي واجب الشكر ملتمسا يوم محبة آخر. أن تستريح عند الظهيرة وتناجي نفسك بوجد المحبة.

«أن تعود إلى منزلك عند المساء شاكرا: فتنام حينئذ والصلاة لأجل من أحببت تتردد في قلبك وأنشودة الحمد والثناء مرتسمة على شفتيك.».

من خلال هذا الحب يمارس جبران التزاما حيال كل القضايا السياسية والاجتماعية المعاشة في مجتمع ساءت فيه علاقات السلطة، فتحولت إلى عسف واستبداد. وساءت فيه علاقات التعامل بين الأفراد داخل الجماعة فساءت الفردية والأنانية والاستغلال، وساءت فيه قيم التعليم وأساليبه ومدارسه وتوجهاته فتحولت إلى نزعات مدمرة لوحدة المجتمع وتوازنه وهويته الثقافية والحضارية، وساءت أيضا في التطبيق المشاريع البديلة لمرحلة الانتقال إلى الدولة الحديثة، فتحولت المشاريع المنشودة إلى مشاريع سيطرة غربية وتجزئة اقليمية وتقاتل مذاهب وطوائف وتجارة بالدين...

كل هذا يستوعبه جبران، وبدل أن يحلل ذلك بعقلانية المؤرخ أو عالم الاجتماع أو المفكر السياسي. يطلق صيحات معبرة:

— فهو معا وفي نفس الوقت مع عدالة السلطة وثورة الفقراء: «أقرب الناس إلى قلبي ملك لا مملكة وفقير لا يعرف أن يتسول».

— أنه أيضا ضد التسلط والاستكانة معا: «إنما الرجل العظيم ذلك الذي لا يسود ولا يساد».

— وهو ضد تقديس السلطة ضد الموقف الذي أرسته الهجلية في الفكر السياسي الأوروبي في مفهوم الدولة، يقول: «الحكومة اتفاق بيني وبينك. وأنت وأنا في الغالب على ضلال».

وفي مكان آخر: «الأنانية يا أخي أوجدت التنافس الأعمى، والتنافس ولد العصبية والعصبية وضعت السلطة وكانت هذه داعيا للمنازعات والاستعباد.

«النفس تقول بسلطة الحكمة والعدالة على الجهالة والظلم، ولكنها تنكر تلك السلطة التي تستل من المعارف قواضب وبواتر لتعميم الجهالة والمظالم. تلك السلطة التي هدمت بابل وقوضت أركان أورشليم ودكت مباني رومية.. السلطة الحقيقية هي الحكمة المحافظة على الشريعة الطبيعية العامة العادلة. فأين عدالة السلطة إذا قتلت القاتل وسجنت الناهب ثم زحفت بذاتها إلى بلاد مجاورة وقتلت الألوف ونهبت الربوات..».

هذه الصيحات التي يطلقها جبران في كلماته، تصدر كما قلت عن قلب متألم ولكن أيضا عن بصيرة نافذة في الواقع. أنه لا يفارق الواقع الذي آلت إليه البلاد بعد الحرب الأولى فهو يتابعه من مهجره، ويتطلع إليه فلا يحاول أن يجمل المعطيات الجديدة فيه أو يبررها في صيغ «الأخذ بالمدنية الجديدة» أو مظاهر الاقتباس الحضاري عن الغرب أو الخضوع لدولة الحضارة أو المدنية ريثما يتسنى لنا اللحاق بركب المدنية الحديثة.. وهي صيغ امتلأت بها أدبيات النهضة الفكرية في مرحلة ما بين الحربين...

إن جبران، وبلا مقدمات سياسة نظرية يبصر أن هذه الصيغ ما هي إلا تبريرات لواقعات يسميها بأسمائها: استهلاك الذات عبر استهلاك سلعة الغرب واستعباد الذات عبر الخضوع للأجنبي.. والشعوذة الفكرية عبر تقليد الآخر والتفتيت القومي عبر الانتفاخ القومي للأجزاء وتجزؤ الذات إلى أمم وطوائف.

يقول في حديثه النبي:

«يا أصدقائي ويا رفاق طريقي، ويل لأمة تكثر فيها المذاهب والطوائف وتخلو من الدين.

«ويل لأمة تلبس مما لا تنسج، وتأكل مما لا تنتج وتشرب مما لا تعصر.

«ويل لأمة تحسب المستبد بطلا. وترى الفاتح المذل رحيما.

«ويل لأمة لا ترفع صوتها إلا إذا مشت في جنازة ولا تفخر إلا بالخراب ولا تثور إلا وعنقها بين السيف والنطع.

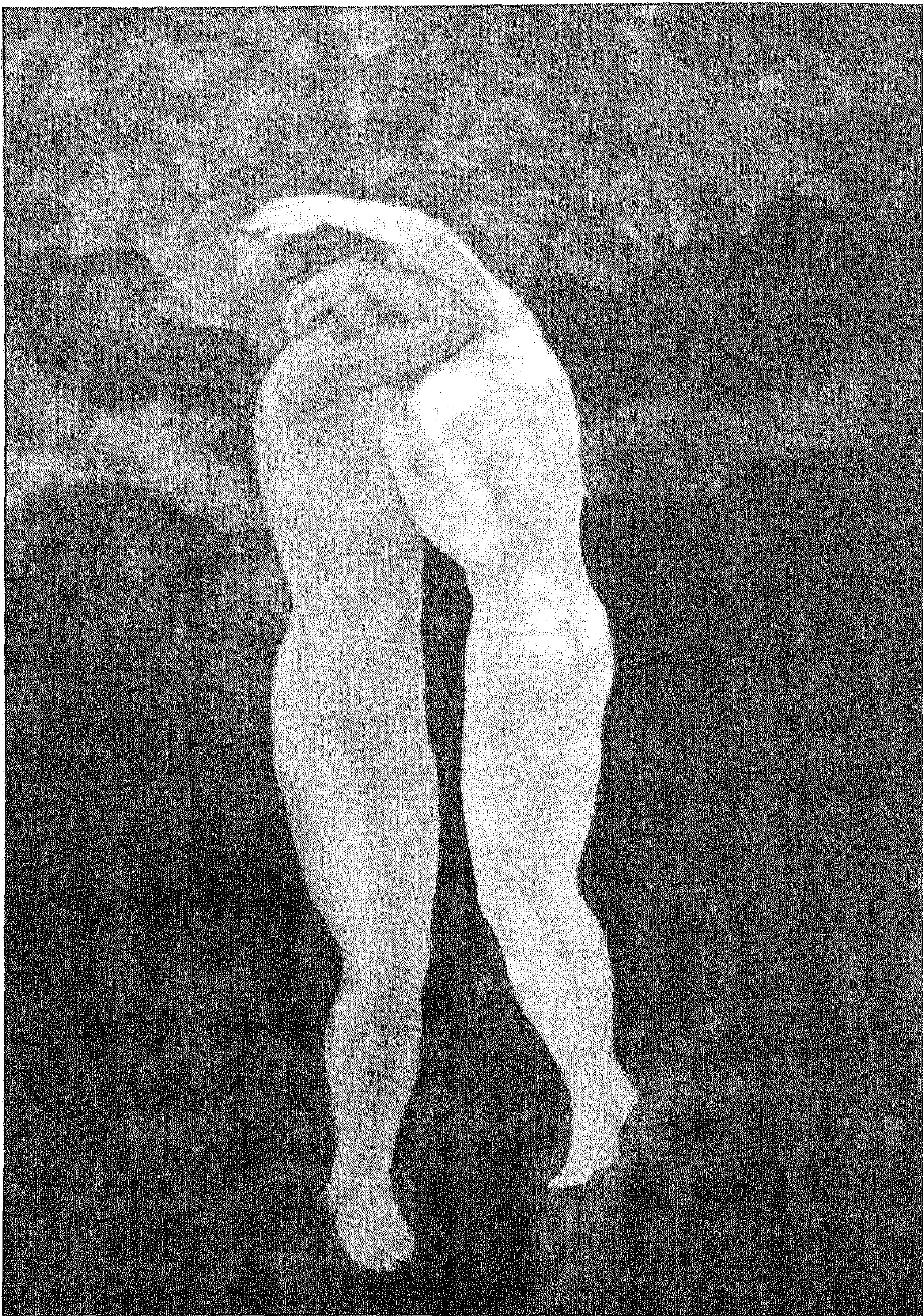
«ويل لأمة سائسها ثعلب وفيلسوفها مشعوذ وفنها فن الترقيع والتقليد.

«ويل لأمة تستقبل حاكمها بالتطبيل وتودعه بالصفير لتستقبل آخر بالتطبيل والتزمير

«ويل لأمة حكماؤها خرس من وقر السنين ورجالها الأشداء لا يزالون في أقمطة السرير.

«ويل لأمة مقسمة إلى أجزاء وكل جزء يحسب نفسه فيها أمة».

ومع أن جبران كان مشبعا بالحضارة الغربية، إلا أنه لم يكن مستهلكاً بها أو مستلبا بجاذبيتها.. فهو يعرف حدودها، ويعرف التمايز، بين ما هو علم وانساني وبين ما هو ثقافة



□ المحبة.

توسعية وسياسة استعمارية.. وحيز التمييز خيط دقيق لا يدركه إلا من انطلق من قاعدة العفوية والفطرة والطبيعة في السلوك الانساني. وهي القيم الأصيلة في الحضارة الشرقية التي أنتمي إليها جبران انتماء مركزيا.

إن دوائر الانتماء عند جبران تتسع من مسقط الرأس إلى الدائرة العالمية. وذلك ضمن حلقات ربط نجدها تبدأ عند جبران من لبنان وتتسع تدريجيا لتصبح دائرة مشرقية، سورية ثم دائرة إسلامية ثم دائرة شرقية. وفي سياق هذا التدرج يرى جبران وهو الانسان الذي نال قسطا كبيرا من ثقافة الغرب، ضرورة الارتباط الأصيل بالشرق، مع امكانية اللقاء الانساني عبر الهضم والاستيعاب.

يقول في زمن الحرب الأولى:

«أنا لبناني ولي فخر بذلك.. ولست عثمانيا ولي فخر بذلك أيضا.. ولي أمة أتباهى بمآسيها، وليس لي دولة أنتمي إليها وأحتمي بها، وأنا مسيحي ولي فخر بذلك ولكنني أهوى النبي العربي وأكبر اسمه وأحب مجد الاسلام وأخشى زواله.

أنا شرقي ولي فخر بذلك، ومهما أقصتني الأيام عن بلادي أظل شرقي الأخلاق، سوري الأمال، لبناني العواطف.

أنا شرقي ومهما عجبت برقي الغربيين ومعارفهم يبقى الشرق موطنا لأحلامي ومسرحا لأماني وآمالي».

هذه الوطنية المنفتحة عند جبران ترتكز إلى أصالة شرقية تبرز رموزها عبر التماهي مع أنبياء الشرق والتمثل بحكمة الشرق. وهي، من هذه الزاوية تكتسب إنسانيتها وشموليتها. فهي ليست إنسانية بمعنى الكوسموبولتيه التوسعية أو الأخوية الماسونية أو ليبرالية العالم الرأسمالي، أو أممية العالم الاشتراكي، فهي لا تحاول أن تطمس سمات الأقوام وخصائصها الذاتية والمحلية. وهي أيضاً ومن جهة أخرى ليست وطنية اقليمية شوفينية بالمعنى الذي اكتسبته القوميات التوسعية في عهده. لنسمع صوته في صوت الشاعر يقول في «دمعة وابتسامة»:

«أحن إلى بلادي لجمالها وأحب سكان بلادي لتعاستهم. ولكن إذا ما هب قومي مدفوعين بما يدعونه وطنية وزحفوا على وطن قريبي وسلبوا أمواله وقتلوا رجاله ويتموا أطفاله ورملوا نساءه وسقوا أرضة بدماء بنيه وأشبعوا ضواريه لحوم فتيانه كرهت إذ ذاك بلادي وسكان بلادي.

«أتشبث بذكر مسقط رأسي وأشتاق إلى بيت ربيت فيه، ولكن إذا مر عابر طريق وطلب مأوى في ذلك البيت وقوتا من سكانه ومنع مطرودا استبدلت تشبيبي بالرثاء وشوقي بالسلو وقلت بذاتي: ان البيت الذي يضن بالخبز على محتاجه، وبالفراش على طالبه فهو أحق البيوت بالهدم والخراب.

«أحب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي، وأحب بلادي بقسم من محبتي لأرض وطني. وأحب الأرض بكليتي لأنها مرتع الانسانية وروح الألوهية على الأرض».

إذن أن البوصلة التي تعين موقف جبران من القومية أو الوطنية هي جاذبية نصرة المستضعفين. فحدود وطنه تتسع كما قلنا من دائرة مسقط الرأس إلى حدود الانسانية المستضعفة. وهي في داخل وطنه حدود قائمة بين العدل والظلم، بين الحق والباطل بين الجوهري والعرضي: بين لبنانه ولبنان الآخرين...

الا تعكس كلمته أو أغنيته الوجدانية في لبنان هذا الهم الانساني الكبير «لكم لبنانكم ولي لبناني». «لبنانكم مرافىء وبريد وتجارة، أما لبناني ففكرة بعيدة وعاطفة مستقلة وكلمة علوية تهمسها الأرض في أذن الفضاء».

...

...لكم لبنانكم وأبناؤه ولي لبناني وأبناؤه.

ويسأل جبران: ومن هم يا ترى أبناء لبنانكم؟

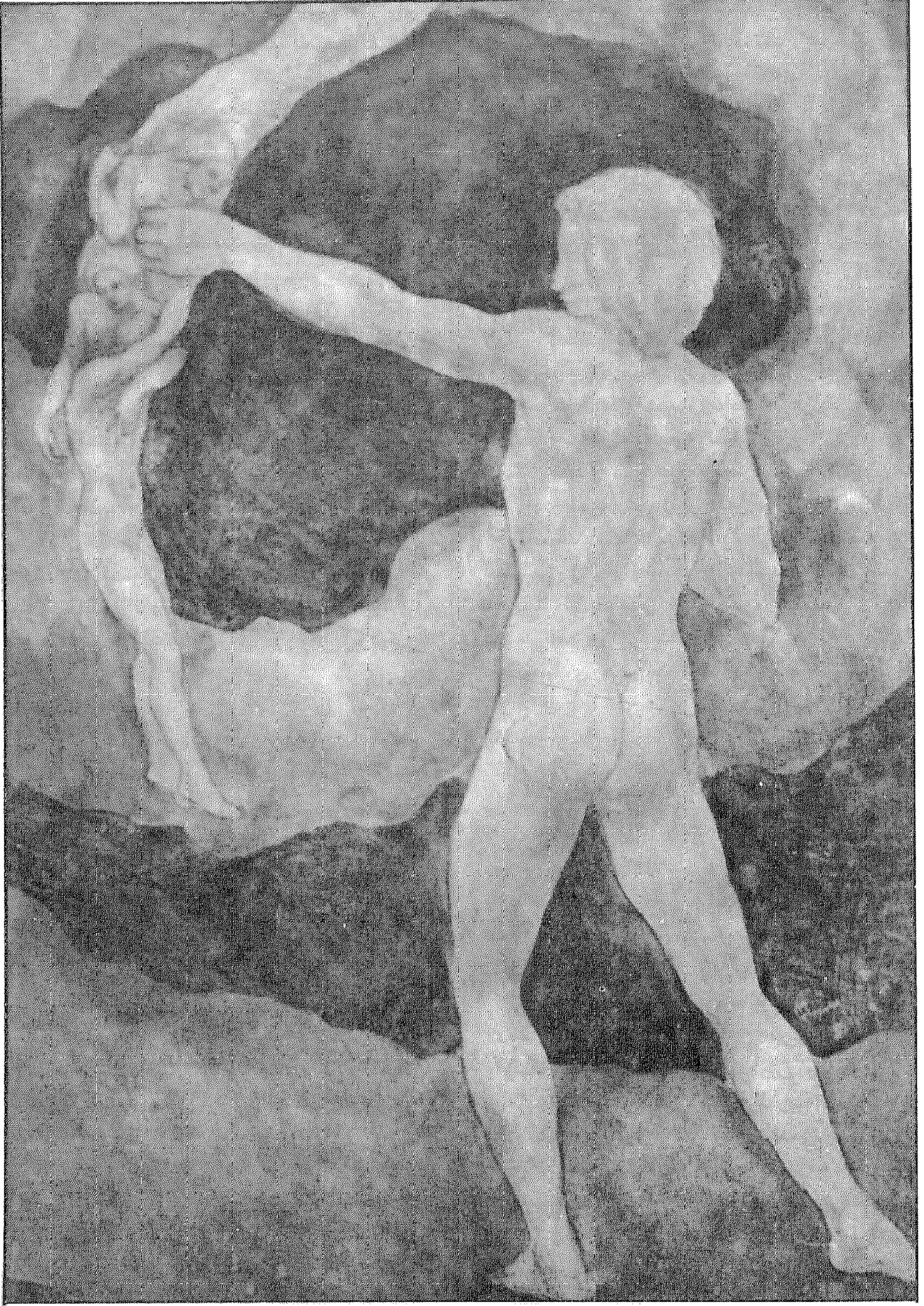
ويجيب: «هم الذين ولدت أرواحهم في مستشفيات الغربيين.

«هم الذين استيقظت عقولهم في حضن طامع...

«وهم تلك القضبان اللينة التي تميل إلى اليمين وإلى اليسار...».

وأما أبناء لبنان جبران:

«فـ «هم الفلاحون الذين يحولون الوعر إلى حدائق وبساتين.



□ الأولاد.

«هم الرعاة الذين يقودون قطعانهم من واد إلى واد فتنمو وتتكاثر وتعطيكم لحومها غذاء وصوفها رداء.

«هم الكرامون الذين يعصرون العنب خمرا ويعقدون الخمر دبسا.

«هم الأدباء الذين يربون أنصاب التوت والأمهات اللواتي يغزلن الحرير.

«هم الرجال الذين يحصدون الزرع والزوجات اللواتي يجمعن الأغمار.

«هم البناؤون والفخارون والحائكون وصانعو الأجراس والنواقيس.

«هم الشعراء الذين يسكبون أرواحهم في كؤوس جديدة وهم شعراء الفطرة الذين ينشدون العتابا والمعنى والزجل»...

«وهم الذين يولدون في الأكواخ ويموتون في قصور العلم...».

وهذا التمييز عند جبران يبقى قائما على الأصل والمضمون لا على الشكل والمظهر. فالاستقلال الذي يدعو إليه عن الغرب هو استقلال في المضمون، في الارادة، في الروح وفي الابداع والخلق...

لنسمعه يحدثنا عن ذلك الأديب السوري الذي رفض خلع طربوشه أثناء جلوسه إلى مائدة الطعام على باخرة فرنسيةفكتب مقالا يحتج فيه على ربان السفينة.

يقول: «أجل يعجبني أن أرى الشرقي متمسكا ببعض مزاعمه قابضاً ولو على ظل من ظلال عاداته القومية.

«ولكن اعجابي هذا لا ولن يمحو ما وراءه من الحقائق الخشنة المستتبة المتشبثة بذاتية الشرق ومنازع الشرق ومزاعم الشرق.

«لو فكر ذلك الأديبّ الذي استصعب خلع طربوشه في الباخرة الافرنجية بأن ذلك الطربوش الشريف قد صنع في معمل افرنجي لهان عليه خلعه في أي مكان وبأية باخرة افرنجية.

لو فكر أديبنا بأن الاستقلال الشخصي في الأمور الصغيرة كان وسيكون رهن «الاستقلال الصناعي وهما كبيران لخلع طربوشه ممتثلا صامتا.

«لو فكر صاحبنا بأن الأمة المستعبدة بروحها وعقليتها لا تستطيع أن تكون حرة بملابسها وعاداتها لو فكر بذلك لما كتب مقاله معترضا.

«مصاب أديبنا الشجاع أنه قد اعترض على النتائج ولم يحفل بالأسباب فتناولته الأعراض قبل أن يستميله الجوهر، وهذا شأن أكثر الشرقيين الذين يأبون أن يكونوا شرقيين إلا بتوافه الأمور وصغائرها مع أنهم يفاخرون بما اقتبسوه من الغربيين مما ليس بتافه أو صغير».

وسبب هذا الضياع في صياغة موقف مستقل عن الغرب في رأي جبران هو تبعية الأقطار العربية إلى المحاور السياسية الغربية، مما يؤدي لا إلى الاستتباع فحسب بل إلى التجزئة والتفتت. يقول: «وأنى للأقطار العربية التضامن وقلب كل قطر يخفق ولكن بصدر عاصمة من عواصم الغرب؟ وكيف تستطيع الألفة والتفاوت وكل منها يستمد ميوله السياسية والعمرانية والاقتصادية من زاوية بعيدة عن زوايا الغرب؟

ويضيف متهكما على عبثية طرح التضامن السياسي في ظل التبعية الاقتصادية المطلقة للغرب: «ألا تعلمون أن الغربيين يسخرون بكم عندما تظهرون رغبتكم في التضامن السياسي والاقتصادي مع أنكم تطلبون إليهم أن يبدلوا المواد الخام التي تثمرها أرضكم بالابرة التي تخيطون بها أثواب أطفالكم والمسمار الذي تدقونه في نعوش أمواتكم».

وبعيداً عن المناورات السياسية والتكتلات ولعبة المحاور والتكتيكات اليومية لمارسات الدولة يقترح جبران صيغة ثقافية حضارية لتحقيق التضامن والوحدة بين الشعوب العربية وهي الصيغة التي لا يزال يشكل غيابها مأزقا معيقا للتقدم والاستقلال الفعليين.

يقول: «أما الصورة الايجابية لتضامن الأقطار العربية فهي تنحصر في أمرين أساسيين: «أولهما تثقيف الناشئة في مدارس وطنية بحتة وتلقينها العلوم والفنون باللغة العربية فينتج عن ذلك الالفة المعنوية والاستقلال النفسي.

وثانيهما استثمار الأرض واستخراج خيراتها وتحويل تلك الخيرات واسطة الصناعة الشرقية إلى ما يحتاجه القوم من مأكل شرقي ومأوى شرقي، فينتج عن ذلك التضامن الاقتصادي ثم الاستقلال السياسي».

ويطرح جبران هنا مسألتين هما من أهم



□ الألم

المسائل التي تواجهها الشعوب المستعمرة والبلدان النامية اليوم وهما مسألة الثقافة الوطنية من جهة والصناعة الوطنية والتحديث من جهة أخرى.

فالتعريب الذي يطرحه جبران والذي يثار الجدل حوله واسعاً في بعض البلدان، فيرى فيه البعض تجربة فاشلة ومعيقة للتقدم العلمي، ويرى فيه البعض الآخر خشبة الخلاص القومي — التعريب الذي يطرحه جبران يتخطى الشكل من حيث هو ترجمة واستغناء عن اللغة الأجنبية. أن جبران يدعو لتعريب العلم على قاعدة هضمه في وعاء حضاري هو: اللغة العربية وعلى قاعدة الابتكار والخلق والبحث يقول: «ان مستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن — أو غير الكائن — في مجموع الأمم التي تتكلم اللغة العربية».

هذا الموقف الذي يتضمن الدعوة إلى هضم المدنية الغربية والمشاركة في الابتكار الانساني في



□ الوداع.

وعائنا الحضاري الذي هو اللغة العربية يرتبط أيضا بموقفه من التحديث والتصنيع الوطني. ان ما تسميه جبران: «مأكلاً شرقيا ومأوى شرقيا» و «صناعة شرقية» يتواصل مع أحداث نظريات التنمية للعالم غير الصناعي، وهو موقف يدعو إلى ربط التصنيع بالثقافة المحلية، أي بالحاجات والأذواق وأنماط الحياة التي يعيشها الشعب دون الدخول في متاهات الاستهلاك السلعي الذي قدمته المجتمعات الغربية الاستهلاكية على مستوى الحاجات الوهمية في العالم.

وهنا يطل جبران على اشكالية حضارية لا تزال تشكل احدى النقاط الحارة في الصراع الحضاري والسياسي في الشرق العربي والاسلامي.

ففي استفتاء أجرته مجلة الهلال عام ١٩٢٣ حول موضوع نهضة الشرق العربي والموقف إزاء المدنية الغربية أجاب جبران على السؤال التالي: «هل ينبغي لأهل الأقطار العربية اقتباس عناصر المدنية الغربية وبأي قدر وعند أي حد يجب أن يقف هذا الاقتباس؟ أجاب: «في مذهبي أن السر في هذه المسألة ليس مما ينبغي أن يقتبسه الشرق أو لا يقتبسه من عناصر المدنية الغربية، بل السر كل السر هو ما يستطيع الشرق أن يفعله بتلك العناصر بعد أن يتناولها.

«قلت منذ ثلاثة أعوام أن الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه فيمضغونه، ويبتلعونه محولين الصالح منه إلى كيانهم الغربي. أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولكنه لا يتحول إلى كيانهم الشرقي بل يحولهم إلى شبه غربيين. وهي حالة أخشاها وأتبرم منها لأنها تبين لي الشرق تارة كعجوز فقد أضراسه وطورا كطفل بدون أضراس.

هذا الشعور العميق بالأزمة الحضارية التي يعانيها الشرق ينبع من المعاناة السليمة التي ترافق عملية خضوع المغلوب لحضارة الغالب، فالغرب أصبح في داخلنا بعد قرون السيطرة الطويلة والتوسع الرأسمالي الكثيف وهيمنة النماذج الحضارية الغربية في الفكر والمناهج والسلوك.

لذلك يصبح موقف جبران هو الأسلم بين موقفين: بين موقف مجذوب ومستلب بالغرب وبين موقف آخر لا يحاول صاحبه أن يرى ما في داخله من اختراق وتأثير فينطوي ويطوي رأسه كما تطوي النعامة رأسها في الرمل.

وجبران في هذا الموقف لا يفرط أبداً في الجانب الوطني. لا يفرط في حق المغلوب باسترداد حقه في الاستقلال. إنه يرفض أن يصبح التعليم الغربي وسيلة تدمير وتجزئة. واختلاف في بيئة مجتمعنا ومعول تهديم لوحدته، ويريد أن يكون استيعاب التعليم الغربي وسيلة بناء للذات واستنهاض للداخل وتواصل مع الأصيل فينا. ولذلك شروط لا تتحقق إلا بالاستقلال لنسمعه جيدا وهو يصف حالة التعليم في سوريا عام ١٩٢٠:

«في سوريا مثلا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضورون. ولقد أحيانا ذلك الخبز ولما أحيانا أماتنا. أحيانا لأنه أيقظ جميع مداركنا ونبه عقولنا قليلا وأماتنا لأنه فرق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب كل مستعمرة منها تشد في حبل احدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها.

فالشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أميركية قد تحول بالطبع إلى معتمد أميركي، والشاب الذي تجرع رشفة من العلم في مدرسة يسوعية صار سفيرا فرنسيا، والشاب الذي لبس قميصا من نسيج مدرسة روسية أصبح ممثلا لروسيا... إلى آخر ما هناك من المدارس وما تخرجه في كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء.

«وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع في الوقت الحاضر في مستقبل سوريا السياسي. فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الانكليزية يريدون اميركا أو انكلترا وصية على بلادهم؟ والذين درسوها باللغة الفرنسية يطلبون فرنسا أن تتولى أمرهم والذين لم يدرسوا بهذه اللغة أو بتلك لا يريدون هذه الدولة ولا تلك بل يتبعون سياسة أوفى إلى معارفهم وأقرب إلى مداركهم.

«وقد يكون ميلنا السياسي إلى الأمة التي تتعلم على نفقتها دليلا على عاطفة عرفان الجميل في نفوس الشرقيين ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجرا من جهة واحدة وتهدم جدارا من الجهة الأخرى، ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يوما وتميتنا دهرا؟».

لذلك يرى جبران ضرورة أن نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا» أي بتعليم وطني باللغة العربية وعلى نفقة الأمة لأن المتسول المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدق الأريحي ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب فالموهوب مسير دائما والواهب مخير دائما».

ويمكن أن نضيف وفق منطق جبران: المغلوب لا يستطيع أن يختار ما هو نفع له إلا إذا نزع الغلبة عن كاهله. والغالب لا يختار إلا ما ينسجم مع منفعته. تلك العلاقة غير المتكافئة بين الطرفين هي جوهر المشكلة وأساس المأزق الحضاري الذي تعانيه الأمم المغلوبة، والسباق الذي يدعو له البعض على أرضية الغالب، سباق خاسر سلفا، خسرناه في سباق «نهضتنا» في مطلع القرن، ولا زلنا نجر ذيول الخسارة حتى اليوم. إن الدعوة إلى استيعاب الغرب أو هضمه على حد تعبير جبران، لا تستنتج الدخول في سباق على أرضه ووفق قوانين لعبته. وتأملات جبران، لا سيما تلك التي تحمل روحية الدعوة وحرارة الايمان في النبي» ويسوع بن الانسان تدعو إلى موقف تبصر في هذا الشأن. فهو على لسان عساف الملقب بخطيب صور يقارن بين خطاب خطباء روما وأثينا والاسكندرية، وبين خطاب يسوع. يقارن بين عقلانية يسوع وعقلانية أولئك... يقول: قد سمعت في حداثتي خطباء روما وأثينا والاسكندرية ولكن الناصري النذير كان يختلف كل الاختلاف عن جميعهم...».

«حصر أولئك همهم بترتيب الكلام بصورة تسحر الآذان ولكنك إذ تسمع الناصري تشعر بأن قلبك يفارقك في الحال ويسير هائما في أصقاع لم يزرها أحد بعد.

«قد عرف الناصري ينبوع ذاتنا القديمة وخبر الخيوط التي حاك القديم نسيجنا منها.

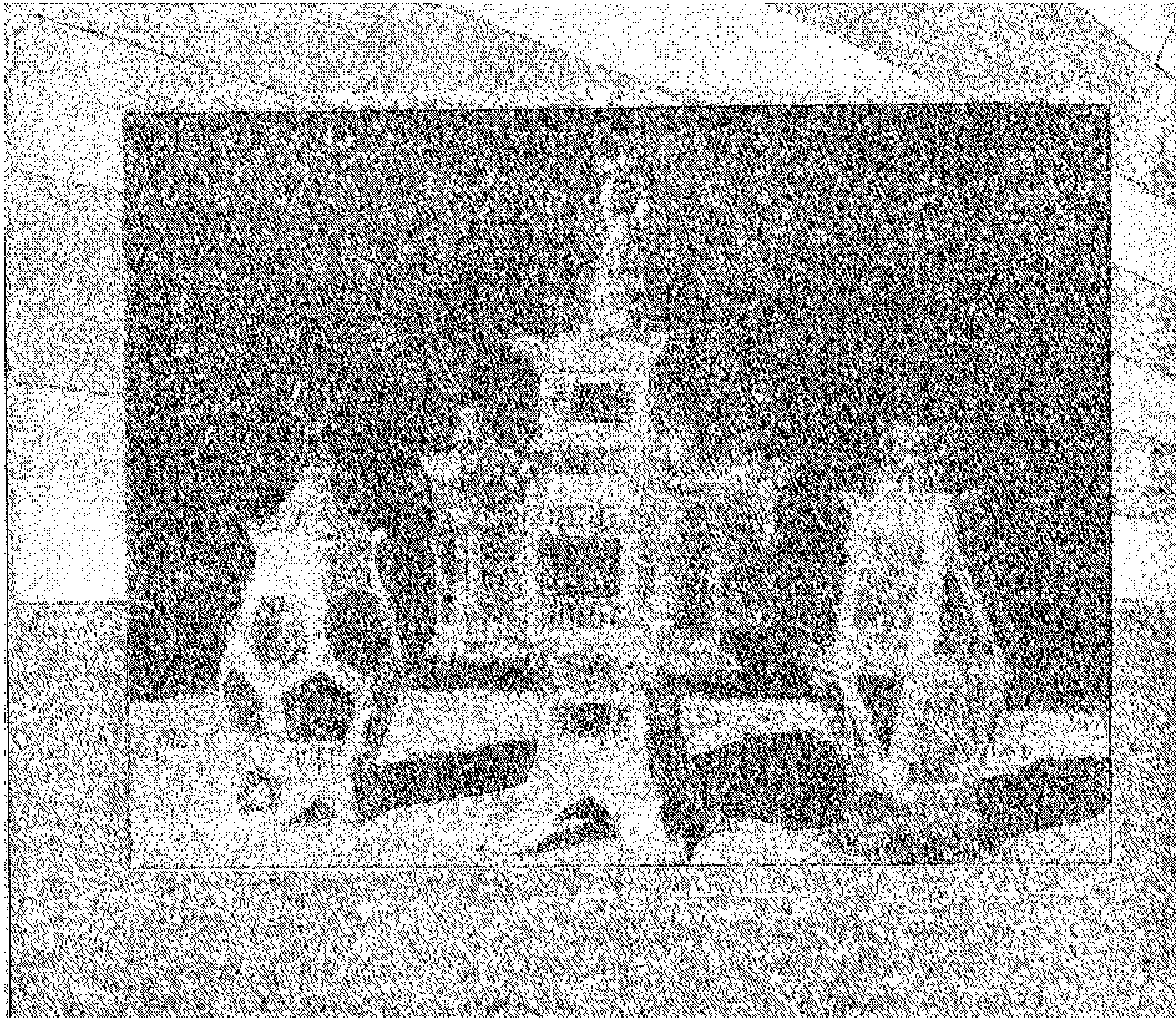
«إن خطباء اليونان والرومان خاطبوا الناس عن الحياة في نظر الفكر ولكن الناصري تكلم عن حنين كائن في أعماق القلب.

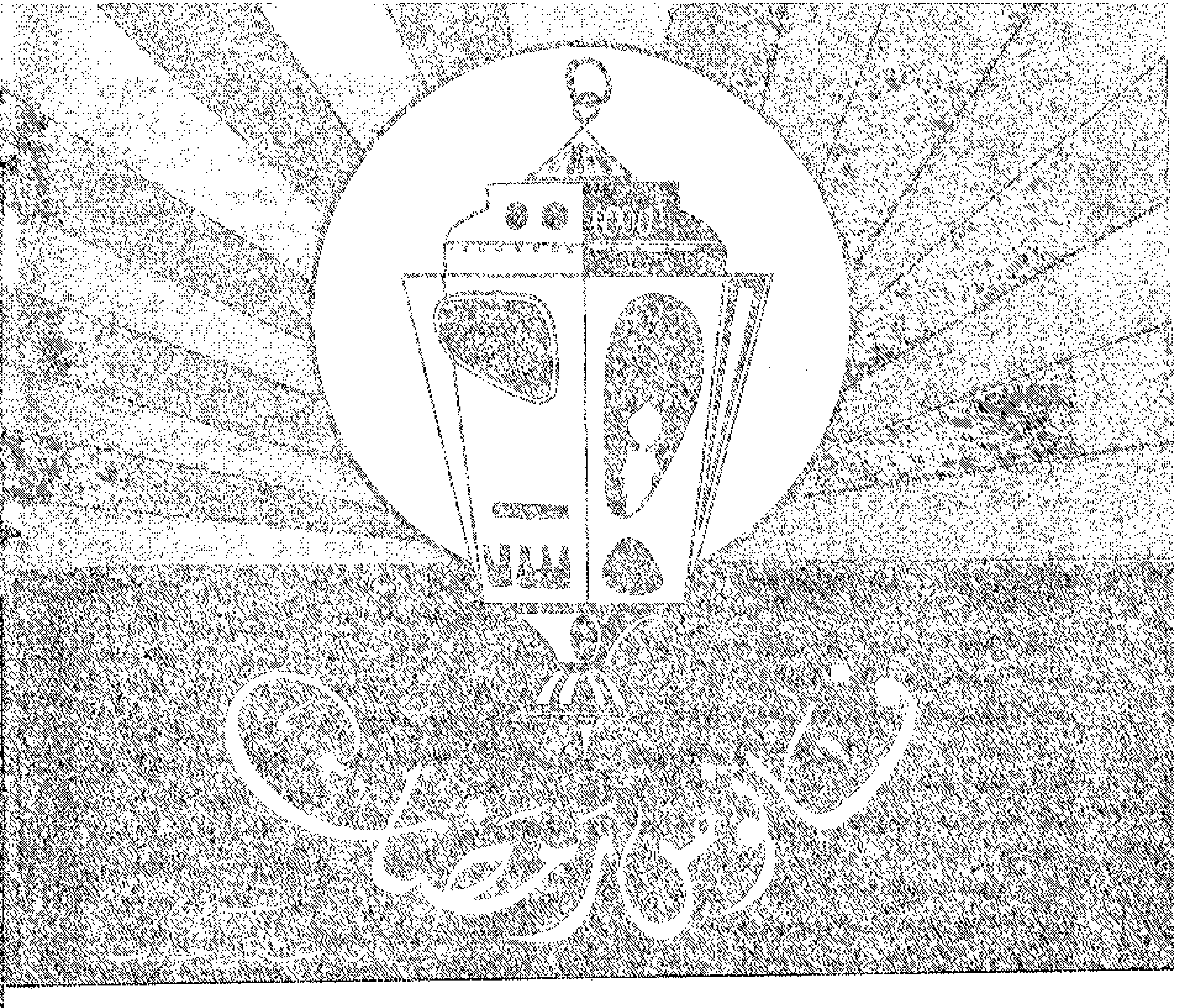
«أولئك رأوا الحياة بعيون قد تكون أنقى قليلا من عينيك وعيني أما هو فقد رأى الحياة بنور الله.

«وكثيرا ما أفكر في أنه خاطب الجموع كما يخاطب الجبل السهل الوسيع وكان في خطابه قوة لم تصل إليها أفكار أثينا وروما».

إن الخطاب الذي يصدر عن جبران ويتوجه دعوة انتماء وأسلوب عمل ومنهج ينبع من عقلانية الفطرة والطبيعة والحب، لا من عقلانية السياسة المدينية الحديثة وهمومها وحساباتها المعقدة أو الدقيقة. وهو في هذا الخطاب منحاز إلى أهل الفطرة وإلى من هم أهل للحب. وأولئك هم المستضعفون. ولعل أفضل ما أختم به كلمتي هو قول مخائيل نعيمة في انتماء جبران:

«لعل أحب الناس إلى قلب جبران هو ابن الفطرة وابن الطبيعة أكان راعي أبقار أم كان حراثاً أم عاملاً لا سلاح في يده غير المعول. ولعل أبغض الناس إليه هم الذين يتظلمون أبناء الفطرة والطبيعة فيهضمون حقوقهم ويمتهنون كرامة الانسان فيهم». ●





اعتاد المسلمون أن يهنىء بعضهم بعضا بحلول شهر رمضان المبارك. واعتدت بدوري أن أرفق التهنئة بواحد من فوانيس رمضان، وأن أقدم مع الكلمات هذه التحفة الرقيقة المعبرة التي أصبحت رمزا لهذا الشهر الخالد ترافق أيامه كلما حل. وفانوس رمضان قطعة فنية أبدعتها يد الصانع الشعبي، ففي شكله مغزى، وفي بساطته معنى، وفي ألوان زجاج واجهاته بهجة وفي اقتنائه والاحتفاظ به بركة.

وذهبت كعادتي كل عام وقبل حلول شهر رمضان إلى شارع تحت الربع قرب بوابة المتولي لأقتني عددا من هذه الفوانيس، فقد أصبح هذا الشارع أهم سوق لبيعها والاتجار بها. وراعني أن أرى حوانيت اكتظت الفوانيس بداخلها واصطفت على واجهاتها كأنها عرائس الموالد في أشكال متعددة يحتار بينها البصر وألوان متباينة يتوه خلالها النظر، وكأنها مهرجان رائع وحشد فني شعبي يكتمل شمله كلما أقبل شهر رمضان ثم ينفض بحلوله، فسرعان ما يقبل الناس من شتى الجهات على شرائها لتنير شموعها الأيادي في المدن والكفور والقرى.

ورجعت بفوانيسي من شارع تحت الربع وصففتها أمامي أرقبها وأتأملها، فإذا بي أعود الزمان، وسبح أمام ناظري طيف ذكريات عزيزة وعادات وتقاليد جميلة ولت الآن واندثرت، منها اثنتان ما زالتا باقيتين في مخيلتي عالقتين بذاكرتي. أولاهما، احتفاء فتيات الريف بفيضان النيل ووفائه وحضورهن إلى القاهرة من القرى القريبة يطرقن أبواب البيوت ويدخلن أفنيتها وقد ارتدين ثيابا فضفاضة زاهية تطول حتى القدمين وأكمامها تكاد تغطي الكفين، وفي أيديهن رايات طال جريد أياديها وتباينت ألوان بيارقها وأطباق من الخوص يقدمنها هدية تقليدية ترمز إلى خيرات النيل تحوي ثمار البلح والجوافة والرمان. ثم يرقصن رقصتهن الشعبية الريفية مهتزات ممسكات بذيول ثيابهن منشدات (البحر زاد عوف الله ــ غرق البلاد عوف الله).

أما الذكرى الثانية فكانت تتكرر طيلة ليالي شهر رمضان، فيبارح صبية الأحياء الشعبية أولادا وبنات دورهم بعد تناول وجبة الأفطار وفي أياديهم فوانيس صغيرة ملونة أشعلوا الشموع بداخلها ويمرون على البيوت محيين أصحابها داعين لسكانها. وكنت أنتظر كل ليلة لقاءهم وأهرع إليهم بفانوسي لأشاركهم حفلهم، وكانت الفوانيس تهتز في أياديهم لما يهتزون وترسل خلال زجاجها الملون أضواء بيضاء وصفراءوحمراء وخضراء تلف معهم لما يلفون وتدور لما يدورون وهم ينشدون معا نشيد رمضان التقليدي:

وحوي	وحوي	إياحا
وكمان	وحوي	إياحا
بنت	السلطان	إياحا
لابسة	قفطان	إياحا
بالأخضري		إياحا
بالأصفري		إياحا

يـا لمـونـي إياحا
يـا دوا عـيـونـي إياحا
يـا رب خـالـي سي (عثمان)
خالي نينته سي (عثمان)
لولا سي (عثمان) لولا جينا ياالله الغفار
ولا تـعـبـنـا رجلينـا ياالله الغفار
يـحـل كيـسـه ويـدينـا ياالله الغفار
ويـدينـا يـامـا يـدينـا ياالله الغفار
ويـدينـا يـامـا يـدينـا ياالله الغفار
يـدينـا مـتـين ريـال ياالله الغفار
نروح بهم على بـر الشام ياالله الغفار

فاذا ما اختتموا نشيدهم، كرروا الدعاء، بعد أن يجزل لهم العطاء. وأن كانت كلمات هذه الأغنية الرمضانية الشعبية واضحة مفهومة، إلا أنها تبدأ بكلمتين تسترعيان النظر وهما (وحوي) ثم(اياحا). ولو أن الكلمة الثانية (اياحا) قريبة من (أيوح) وهو اسم القمر في اللغة المصرية القديمة، إلا أنه من المرجح أن كلمة (وحوي) تحورت من مناداة أولاد (الحي) بعضهم بعضا ليكتمل شملهم، وأن كلمة (اياحا) تحورت بالمثل من كلمة (تحية)، حيث أن الغرض من اجتماعهم ومعهم فوانيسهم المرور على بيوت الحي لتحية ساكنيها.

وصحوت من غفوتي، بعد أن بهرني فانوس رمضان بجماله وذكرياته ورقته، وجذبني لأستطلع قصته وحكايته، وبدأت أسطر هذه السطور عن شهر يفضل باقي الشهور.

فشهر رمضان هو الشهر الذي بدأ فيه نزول القرآن، وفيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وهو شهر الصيام والقيام والبر والاطعام والتسبيح والتراويح، تصفو فيه النفوس وتسمو الأرواح. ولذا ينتظر المسلمون حلوله في كافة الأقطار عاما بعد عام، ويحيطونه لقدسيته بشتى نواحي التعظيم والتكريم، ويحيونه بصنوف العبادة، ويغدقون فيه الخير على الفقراء والمعوزين.

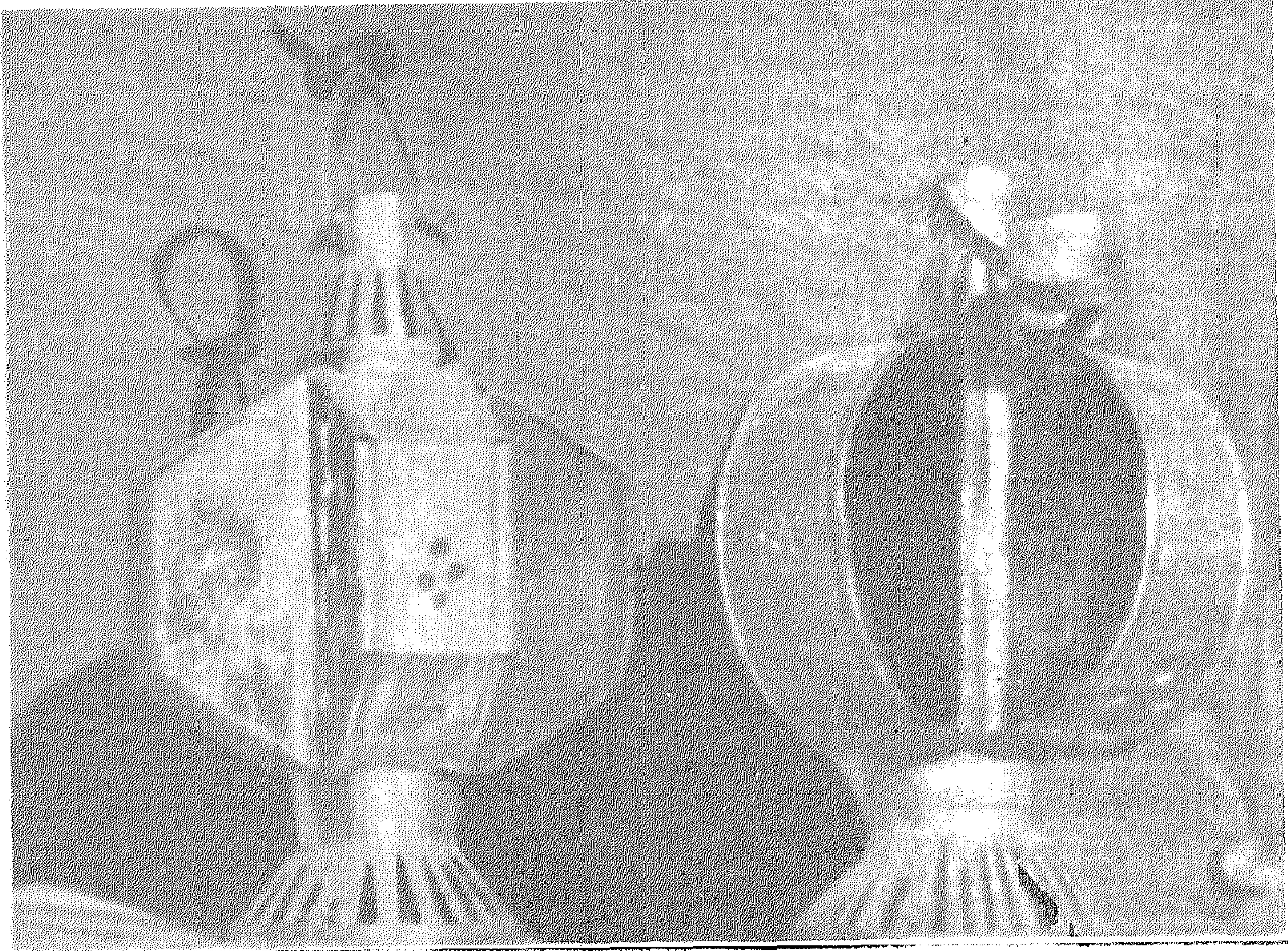
ولمصر عناية بتكريم هذا الشهر وخاصة في عصر الدولة الفاطمية التي كانت أيام حكمها مواسم وأعيادا. وكانوا يخصونه بالحفلات احتفاء لقدومه وبالمواكب لاعلان حلوله إذا ما هل هلاله الذي كانوا يرصدونه من فوق المنارات، ثم تمتد أيامه عامرة بمظاهر الايمان من صلوات ودعوات وابتهالات، شاملة لنواحي البر من زكاة وصدقات وخير وفير.

ورمضان شهر تشعر خلال أيامه بروحانيته وبهجته وجلاله وسطوته، فاذا ما حان وقت الغروب ترى الطرقات على ازدحامها تكاد أن تقفر والحركة أن تسكن، ويستقر الناس في بيوتهم وقت الأفطار. فإذا ما أرخى الليل سدوله بدأت الأنوار تسطع هنا وهناك وينقلب الليل نهارا وتدب الحركة من جديد في الحواري والطرقات ويفوح في أرجاء الشوارع والأسواق شذى البخور من العود الهندي والمسك والعنبر والكافور.

وفي الماضي كانت تسبق هذا الشهر مقدمات تبشر بقدومه والاحتفاء بحلوله أهمها الاستكثار من سبل الاضاءة من المشاعيل والقناديل والفوانيس والشمعدانات والثريات النحاسية تنزيها لبيوت الله من وحشة الظلمة وانسا للسائلة واضاءة للمجتهدين. وكان النشاط يدب في سوق الشماعين بالنحاسين في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، وتعلق على واجهات الحوانيت وعلى جوانبها أنواع الفوانيس المتخذة من الشمع وأشكال الشموع ما بين صغيرة وكبيرة ومنها شموع المواكب التي تزن عشرة أرطال ومنها ما يحمل على عربة يجرها عجل ويصل وزن الواحدة منها قنطارا.

وكان حكام مصر يولون اضاءة المساجد عظيم اهتمامهم، ومما يذكر أن الحاكم بأمر الله كان يعد للجامع الأزهر تنورا من الفضة و ٢٧ قنديلا ولجامع راشدة تنورا و ١٢ قنديلا، واشترط اضاءتها في شهر رمضان على أن تعاد هذه بعده إلى مكان أعد لحفظها فيه. فتتدلى من سقفها قناديل مسرجة، وتنتشر في نواحيها ألواح من الخشب برز منها صفوف من مسامير مدببة الأطراف غرس فيها الشمع، وتعلق على مداخلها وحول شرفات مآذنها مصابيح تطفأ عند موعد السحور ايذانا بالامساك.

وكانت حوانيت الأسواق التي تظل مفتوحة إلى ما بعد منتصف الليل تسطع نورا لكثرة ما يشترى وما يكترى منها، وبالمثل حجرات



□ فانوس شقة البطيخ مربع ومدور.

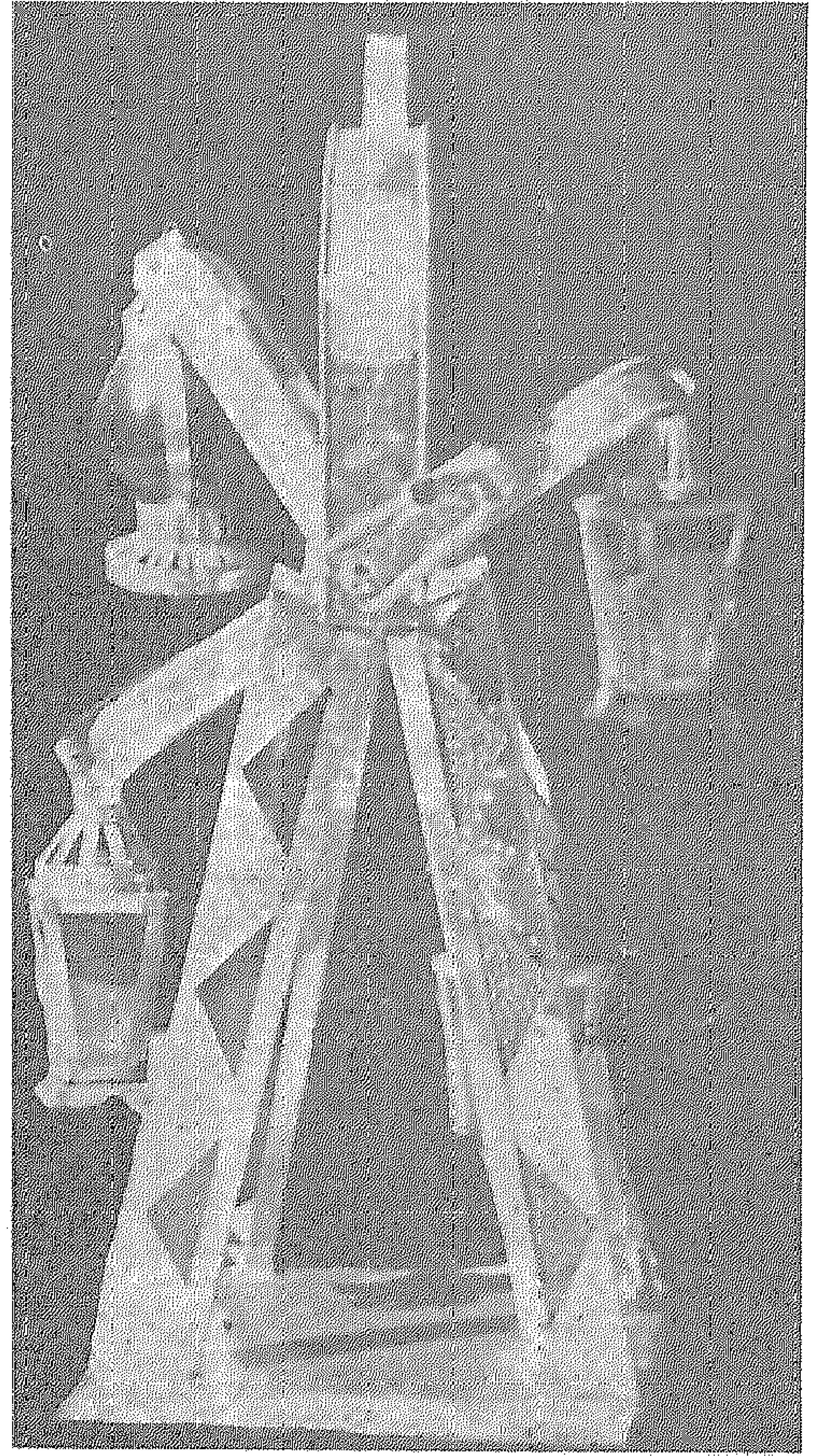
الدور والمنادر حيث يجتمع الناس لسماع ترتيل القرآن من المقرئين وحيث تصطف حلقات الذكر أو تعقد الندوات، أما الأزقة والحارات فكانت تزدحم بالناس الذين يخرجون جماعات للتزاور وقضاء السهرات حاملين شموعهم ومشاعلهم وقناديلهم وفوانيسهم لتنير لهم طريقهم. وهكذا كانت ليالي رمضان تتلألأ نورا وتسطع ضياء فلا تقع العين فيها إلا على نور.

فإذا ما حان موعد السحور خيم الهدوء وعاد السكون، فلا تسمع إلا أصوات المؤذنين يتجاوبون على المنارات في فترات متقاربة من الليل بتذكير النيام بالسحور بأشعار وأهازيج متعددة. والمسحر يطوف على البيوت طارقا ابوابها مناديا أصحابها وفي يده طبلة صغيرة يدق عليها دقات رتيبة لايقاظ النيام كي يتسحروا ويشربوا قبل فوات الوقت منشدا مواعظ ومحييا لسكانها راويا لهم الأقاصيص ثم يختتمها بقوله (يا صايم وحد الدايم ـ السحور). فاذا ما قارب شهر رمضان من نهايته ردد المسحر كلمات وداع للياليه الخالدة.

ويقال أن المسحر في صدر الاسلام كان يمسك بقنديل به شريط طويل ينير له الطريق عندما يوقظ النيام، وكان الصبية يحيطون به في جولاته وقد أمسك كل منهم بقنديل مثله على سبيل التقليد. ثم حل الفانوس محل القنديل فاذا أشعل الشمع بداخله توزع نوره وبقيت شعلته دون أن يداعبها أو يطفئها الهواء، وأصبح فانوس السحور موضع مساجلة بين الأدباء والشعراء يتبارون في وصفه بخيال رائق، ومن ضمن ما قيل فيه:

هذا لواء سحور يستضاء به
وعسكر الشهب في الظلماء جرار
والصائمون جميعا يهتدون به
كأنه علم في رأسه نار

وأصبح الفانوس أبرز وسائل الاضاءة وقتئذ وأكثرها شعبية وشيوعا لدى الأهلين، وكان له في ليالي شهر رمضان أمر وشأن لما يتطلبه الاكثار



□ المرجيحة.

من سبلها، ولذا كان الصناع من السمكرية يهتمون اهتماما بالغا بصنعه واعداد كميات كبيرة منه قبل حلول شهر رمضان، ولم يفتهم أيام الدولة الفاطمية أن يصنعوا فوانيس صغيرة ملونة يزينون بها واجهات حوانيتهم ليحملها الصبية وقد أوقدوا الشموع بداخلها يرافقون بها المسحر في جولاته ويلهون بها عقب الأفطار ويطوفون على البيوت محيين أصحابها. ومن تلك التقاليد قد يكون المسحر صاحب فكرة فانوس رمضان فمن فانوسه انتقلت هذه العادة إلى الصغار وأصبح لهم فانوس صغير مزركش متعدد الألوان.

* * *

وتنطوي صفحات الماضي، ويختفي الشمع والمشاعيل والقناديل، إلا أن عادات شهر رمضان وتقاليده لم تتبدل ولن تتغير ومن أبرزها فانوس رمضان الذي سيبقى دائما رمزا شعبيا وتحفة رقيقة معبرة لهذا الشهر المبارك.

ولوجه الحق، ان كنت قد ألقيت بعض الضوء على قصة فانوس رمضان، إلا أنني كنت أرجو أن أوفي الموضوع حقه وهذا الفانوس ما يستحقه فالمراجع لم تشر إليه إلا إشارات عابرة، ولم يفكر أحد من المقتنين في جمع نماذجه على مر السنين اللهم إلا بضع نماذج منه ضمها المتحف الأثنوجرافي للجمعية الجغرافية المصرية، حتى نتعرف على ما كان عليه وما صار إليه وأصبح عليه فمنه أشكال عديدة اختفت وأخرى بقيت وسواها تحورت وتطورت. وكما سبق وذكرت في مقال سابق، يا ليت عملية اقتناء التراث الشعبي بشتى نواحيه كانت دائمة متصلة تتلقفها يد من يد على مر السنين لا منفصلة على فترات فيتخللها الكثير من الفجوات والثغرات وتغيب أسطر وصفحات وتصبح القصة ناقصة غير مكتملة.

ولم أجد أمامي لأضيف إلى قصة فانوس رمضان سطورا إلا أن اتوجه ثانية إلى شارع تحت الربع وأسأل بائعيها عن مقر صانعيها. وعثرت على أحدهم في شارع الدرب الأحمر وكان كهلا بلغ من العمر السبعين، وجلست معه أمام دكانه نتجاذب أطراف الحديث. وجبت بنظري في اركان حانوته المتواضع وما يحويه من أدوات بدائية لا تتعدى عدة ألواح من الصفيح وأخرى من الزجاج ومقصا وزرادية وكاوية وقصدير والفونية للحام والماظة لقطع الزجاج ثم عدة أوعية تحوي من الألوان الأصفر والأخضر والأزرق والأحمر يلون بها الزجاج الأبيض بقطعة من القطن بعد أن شح من السوق الزجاج الملون. وعجبت كيف يخرج هذا الحانوت البسيط، وهذه الأنامل المرتعشة تلك الفوانيس الرائعة وهذا الفن الشعبي الدقيق.

* * *

ومنه علمت أن هذه الحرفة التقليدية يتوارثونها أبا عن جد، وأن صانعي فوانيس رمضان تستقر حوانيتهم في أحياء الدرب الأحمر وبركة الفيل وشارع السد بالسيدة زينب والجيزة، وأنهم يبدأون في صنعها قبل حلول شهر رمضان بثلاثة أو أربعة أشهر وفي شهر

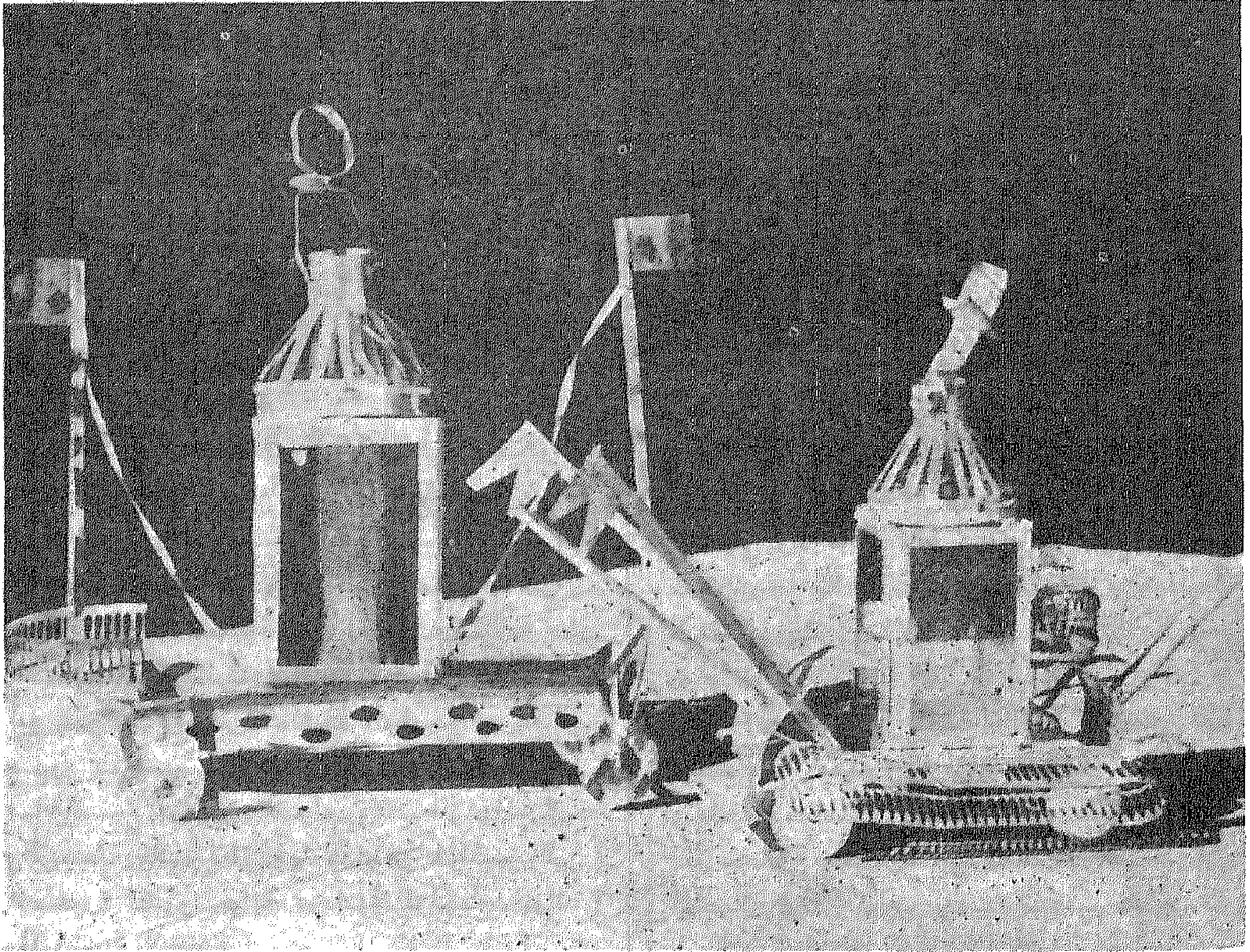
ربيع الثاني بالذات، وأن في قدرة الصانع منهم أن ينتج من ٤٠ إلى ٥٠ فانوسا في اليوم الواحد ثم يرسلون حصيلة انتاجهم إلى شارع تحت الربع فتزدان معظم حوانيت هذا الشارع بشتى نماذج هذه الفوانيس ومختلف أنواعها وألوانها وأشهر من يتجرون بها أولاد أبو العدب والحاج محمد شتا. ومن هناك توزع على العديد من حوانيت القاهرة وخاصة في الأحياء الشعبية وترسل إلى المدن والقرى والكفور في سائر المحافظات، كما يصدر إلى السودان وسوريا وليبيا وبلاد الحجاز كميات كبيرة منها.

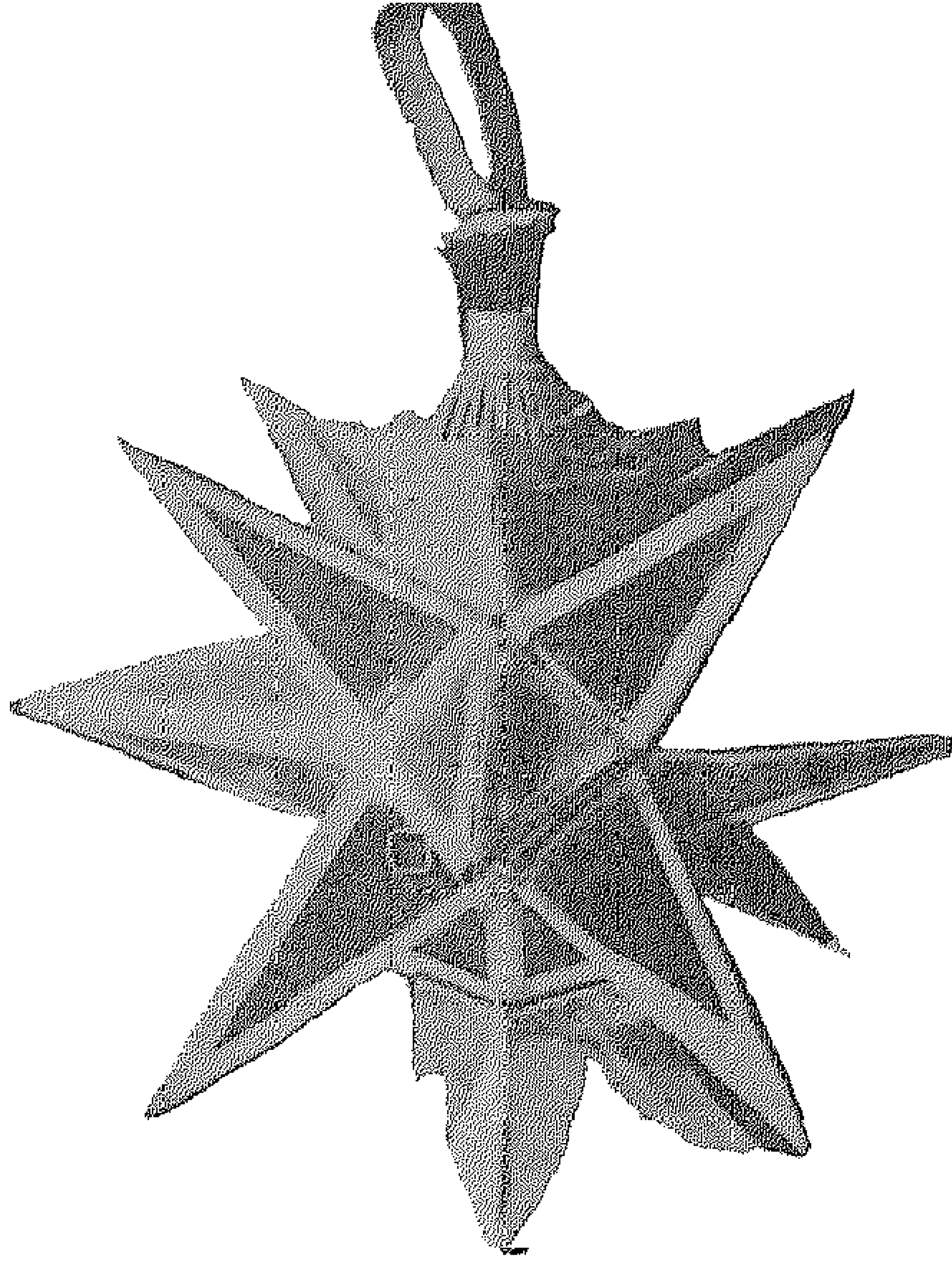
* * *

ومن الفوانيس ما هو (عدل) ويتساوى اتساع قمته مع قاعدته، ومنها ما هو (محرود) وتنسحب قمته بضيق نحو قاعدته. ويصنع هيكل الفانوس جميعه من الصفيح لسهولة قصة وخفته ويزين بنقوش دقيقة عند قاعدته وقمته، ويعلوه (علاقة) مستديرة لحمله، يليها (القبة) وتتكون عادة من شرائح رقيقة عديدة قصت لتصطف إلى جوار بعضها بدقة ومهارة واتقان، وقد يتدلى من حواف هذه القبة كحلية عدة شرائط مستطيلة تسمى (دلايات). وقد يكون للفانوس باب يفتح ويقفل لوضع الشمع في (الشماعة) بداخله، وقد يكون دون باب ويحل محله ما يسمى (عرق) وهي قاعدة يسهل فصلها عن الفانوس تسمى (كعب) يعلوها الشماعة ثم ترشق في الفانوس عقب وضع الشمع مرة أخرى. ويبدأ زجاج الفانوس من مقرنص ــ شقة البطيخة (مربع أو مدور)، شمسية ــ بدلاية. ومن الفوانيس ما يصنع أعلى بشرائح مثلثة تسمى (مشطوبة)، يليها زجاج واجهاته وهو إما عدل أو محرود أو بيضي الشكل ويسمى (لوح) وكله ملون بصبغات يتبادل فيها مع اللون العادي الأبيض اللون الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر.

ويتراوح ثمن فوانيس رمضان ما بين الثلاثة

□ فانوس مربع عدل بشكل دبابة وآخر بشكل مركب.





□ فانوس ابو نجمة.

قروش لأصغرها حجما وستين قرشا لأكبرها، ويتفنن الصانع الشعبي في اعدادها في أشكال شتى وأنماط متعددة لكل منها اسم معين، وقد لاحظت في الفوانيس الكبيرة الحجم أن صانعها قد حرص على تسجيل اسمه عليها فمنها ما هو مكتوب عليه (كمال أو طه). ومن هذه الأشكال ما اختفى واندثر كفانوس (طار العالمية ويسمى أيضاً أبو نجمة - والشيخ علي - وعبد العزيز)، ومنها ما يتداول حاليا في السوق.

وأصغر فوانيس رمضان حجما يسمى (بز) وقد يكون له باب أو كعب ولا يتعدى طوله العشرة سنتميترات، أما أكبرها فيسمى (كبير بأولاد) وهو مربع عدل وفي أركانه الأربعة فوانيس أخرى أصغر حجما، و (مقرطس أو مبزبز كبير) وهو بشكل نجمة كبيرة متشعبة ذات اثني عشر ذراعا.

وتتعدد أسماء الأشكال الأخرى لفانوس رمضان، فمنها: مربع عدل - مربع محرود - مسدس عدل - مسدس محرود - مربع بشرف (أي له شرفة منقوشة من الصفيح حول قمته) - أبو حشوة (وله حلية منقوشة من الصفيح أسفل شرفته) أبو لوز - أبو حجاب - أبو عرق - مقرنص - شقة البطيخة (مربع أو مدور - شمسية بدلاية، ومن الفوانيس ما يصنع بشكل الترام والقطار والمركب والمرجحية وهذه يعلق بها عدد من فوانيس البز الصغيرة لتدور حولها مشابهة لمراجيح الموالد والمواسم والأعياد.

وعلاوة على هذه الأشكال فهناك أشكال أخرى كان يقوم بها صناع من القاهرة ثم استقروا في بورسعيد والاسماعيلية فأصبحت تنسب إلى هاتين المدينتين وترسل لتباع في أسواق القاهرة وتخرج في شكلها عن الطابع التقليدي المعروف إلى شكل فانوس الهواء وفي كون زجاجها الملون قطعة واحدة كروية أو بيضية مستطيلة حسب تدرج أحجامها، ويسمى أصغرها (سهارى) ثم تتدرج في الكبر لتسمى على التوالي (فنيار نمرة ٣ و ٤ و ٥ و ٧).

وللأحداث تأثير كبير على الصانع الشعبي حتى في اخراج فانوس رمضان، فقد انطبعت مشاعره بأحداث العدوان الأخير فأخرجت أنامله فوانيس بشكل (الدبابة والطيارة) وفانوسا زاده طولا فازداد رشاقة وجمالا اسماه (الصاروخ) وآخر اسماه (علامة النصر).

وأخيراً، لا أجد ما اختتم به هذا المقال سوى أننا إذا تركنا ما قد اندثر من تراثنا الفني الشعبي وما فات، وجب علينا أن نولي بالأهمية ما تزخر به بلادنا حاليا وما هو آت، وأن يتحقق الحلم ونشيد في بلادنا متحفا كاملا شاملا يضم شتى نواحي تراثنا الفني الشعبي، وأن نحرص على الاستمرار في الجمع والاقتناء لتكون هذه النماذج الأصيلة وتلك المقتنيات خير مادة فكرية وثقافية لجماهيرنا، تحكي قصة ماضينا وتكون خير سجل لحاضرنا ومستقبلنا، ولنستمد منها الأصالة في كل تطوير جديد وتصميم حديث.

●

قراقوش...

والفكاهة في حياة المصريين!

د. محمّد أمين فرشوخ

قراقوش مضرب المثل، حتى اليوم، بسوء أحكامه، وقلة تدبيره، وطريقة فهمه العجيبة للأمور. ولكن، لا أحد يعلم، أن قراقـوش، كان «مـوضـوعـا» يثير فن «الكاريكاتور». فقد اتخذه الفنانون المصريون في عصره «نموذجا» يمارسون في السخرية منه فنهم، سواء بالرسم أو النكتة اللاذعة، أو الطرفة الفنية.

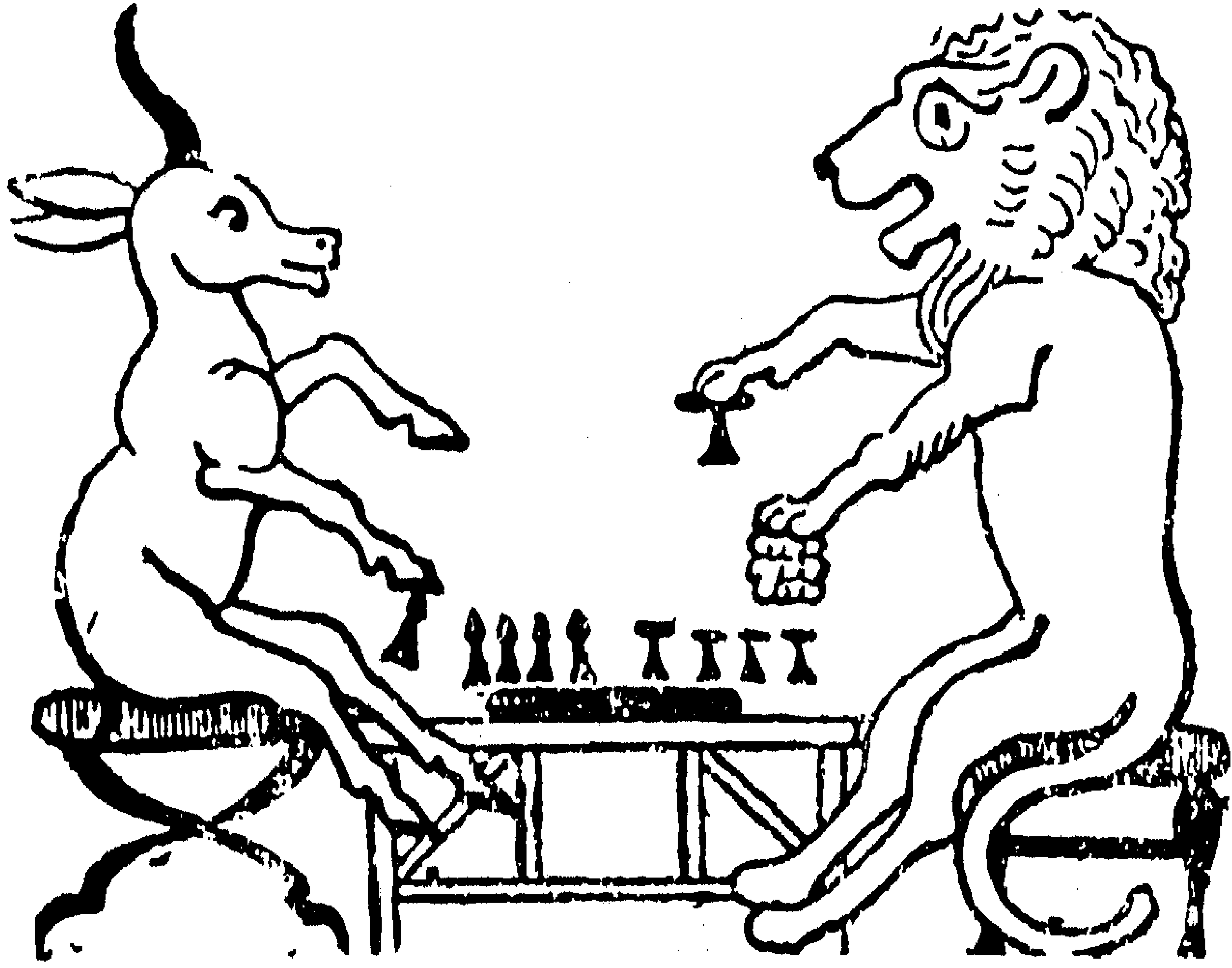
فمن كان قراقوش، ومن كان أولئك الفنانون؟ المقال التالي يعرفنا بكل هؤلاء!



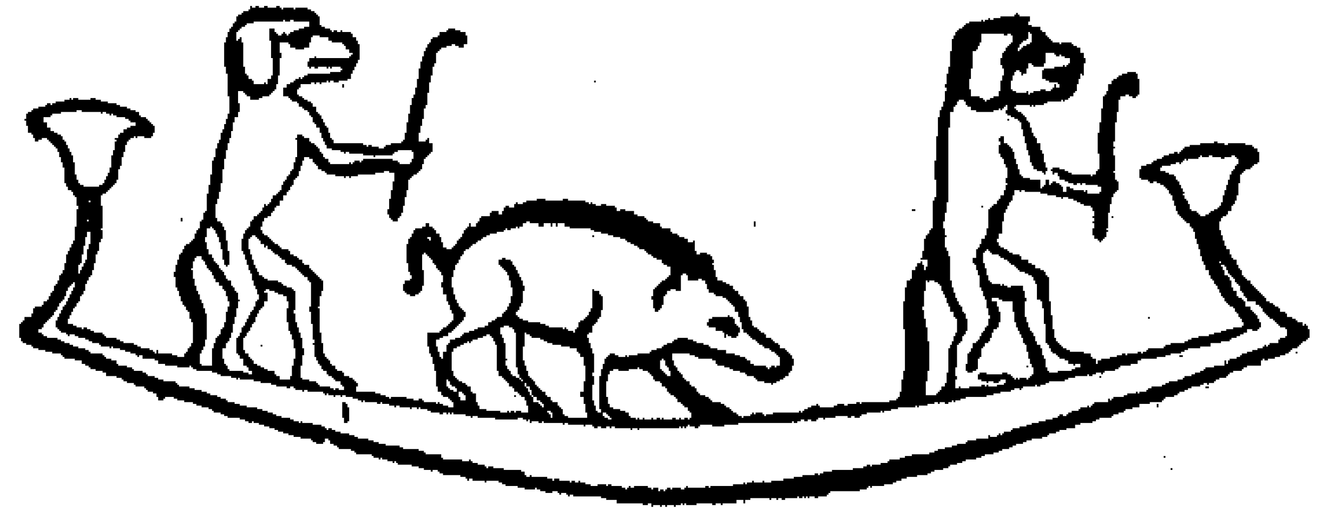
يعتبر قدماء المصريـين والاغريق من اوائـل مَن استخدم الرسم السـاخر (الكاريكاتور) على جدران الكهوف. فقد صوَّر المصريون رجلاً اسمه «ست» في صورة وحش وأطلقوا عليه لقب «ست الملعون» لأنه قتل أخاه ورمى جثته في النيل، وتفننوا في تصوير عظمائهم بأوجه حيوانات صغيرة وكبيرة، جميلة وقبيحة، بحسب أخلاقهم وميولهم وطباعهم[1].

ومن ثم نجد الفكاهة في بطون كثير من الكتب القديمة، دينية كانت أم أدبية أم علمية، ونجدها أيضاً في تلافيف اللغات العامية، تتناقلها الألسن امثلة وأساطير، وتجسدهـا عادات واحتفـالات شعبية، حتى باتت جزءا مهما من الفـولكلور الخاص بكل أمة.

ولأن الفكاهة اللاذعة كانت وما تزال الأكثر قدرة على البقاء وعلى الاضحاك، فقد كان للفكاهة في الجانب السياسي دور بارز. حتى الفراعنة، منذ ما قبل الميلاد استخدموا الفكاهة للسخرية



□ غزال واسد في لعبة من العاب التسلية وقد علا وجههما الابتسام.

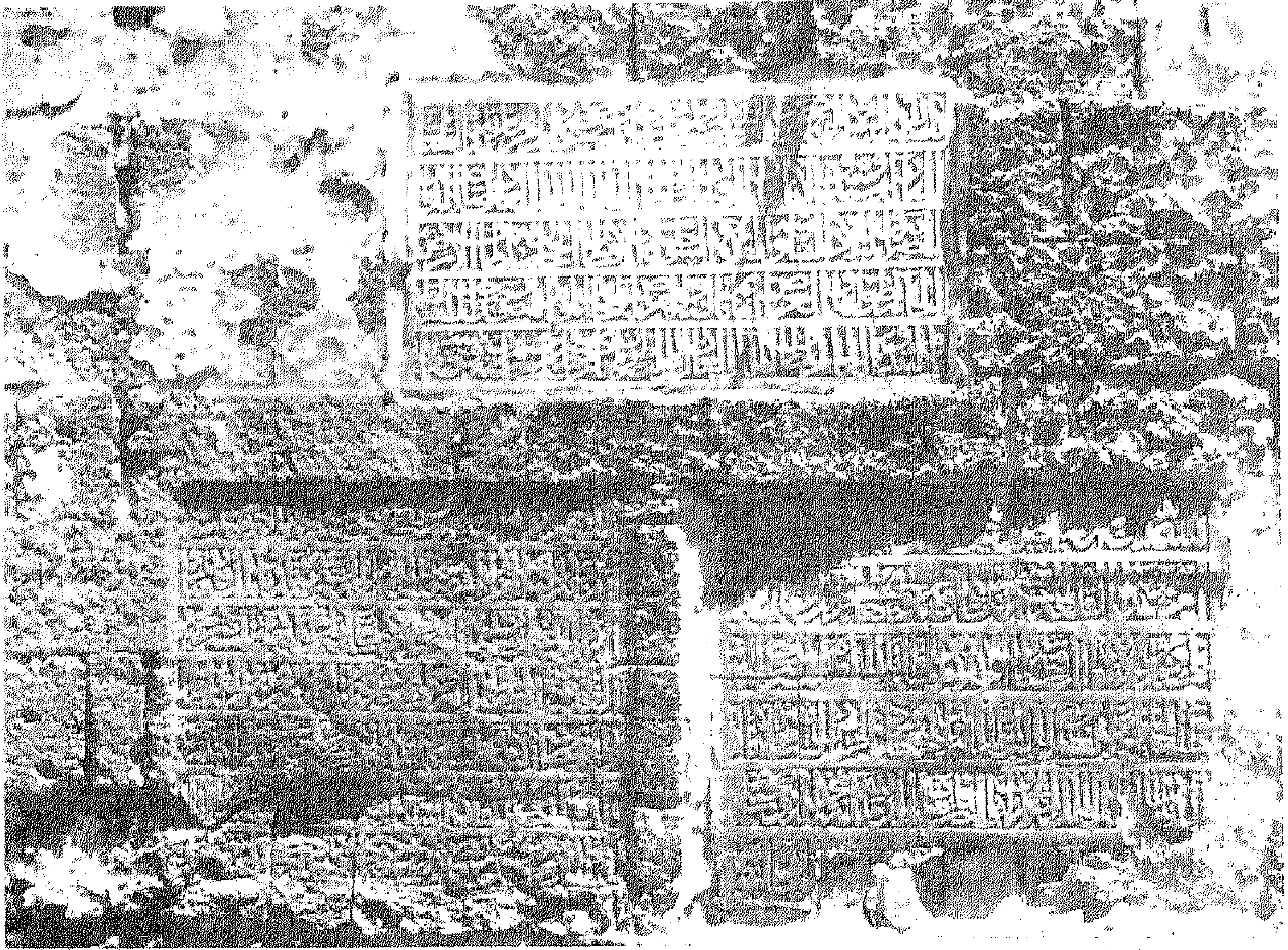


□ محاكمة روح ملعونة مثلها الفنان على هيئة خنزير (عن مقبرة رمسيس الثالث).

من بعض إدارييهم المرتشين أو المستغلين، وهناك صورة على جدار معبد قديم في مصر تمثل ذئبا يرعى الغنم، وكأنها تقول: «حاميها حراميها».

«فالفكاهة ليست دائماً أمام الباحثين طرائف للهو وجلب السرور فحسب، بل هي في كثير من حالاتها تصوير للحالة السياسية بألوان فيها تهكم أو سخرية أو نقد أو دعابة أو غيرها، وذلك لأن الناس لا يستطيعون أحياناً أن ينالوا من حكامهم بالأسلوب الجدي، فيلجأون الى الأسلوب الفكاهي، لأنه مأمون العاقبة»(٢).

ويذهب المؤرخون الى القول انه عن طريق الفكاهة في بلد ما يمكن استخراج صورة للحياة السياسية والاجتماعية فيه في تاريخ محدد. وهنا تكمن أهمية النص الفكاهي أو الكتاب الفكاهي الجامع، أمام الباحث أو المؤرخ، فأشكال الفكاهة المتداولة في بلد ما هي تنفيس طبيعي للتوتر الذي يصيب الناس من جراء المعاناة أو العلاقات مع الآخرين. وهي هنا تأكيد لشخصية الشعب، يظهر فيها احساسه. وهكذا فالانسان العادي — ودون تفكير — لا ينتظر أن يضحك فقط من المختص بهذا الفن، «فليس من الضروري أن نفتش عن رجل يحسن صناعة الضحك ليضحكنا وأمثاله قليلون، فان في كل رجل من الذين نراهم او نعاشرهم موطناً للنقص، وفي كل عمل موضعاً للكلفة والتصنع»(٣)، لذا يكون رجال السياسة او الأعيان الوقورون في تعاطيهم الادارة او تصريف شؤون الناس مدار فكاهة الشعب حين يخطئون، بخاصة، حين لا تكون هناك إمكانات أخرى لتصحيح اخطائهم أو مجابهتها.



□ الكتابات المنقوشة عند باب المدرج

في مصر، وهي موضع حديثنا هنا، تميز الشعب بالفكاهة والطبع المرح. ويقول المؤرخون أن مرد ذلك الى ابتعاد مصر عن الكوارث الطبيعية والسياسية، ولايمان المصريين، ولتمتعهم بالاطمئنان والتفاؤل بخيرات النيل الوهّاب. واذا أردنا ألا نغالي ووافقنا «غوستاف لوبون» على قوله: «اذا كان المصري قد شعر بالسآمة من سهولة الوضاءة المحرقة فانه قد جهل الآلام المفزعة التي تنشأ على شواطىء البحار الموحشة وفي ظلال الشفق الأغبر تحت السماء المتقلبة الغادرة»(٤)، لأمكن القول أن الفكاهة المعتمدة على الطبخ والمناخ متوفرة بين المصريين ولا تنتظر الفرص للظهور، بل هي دائمة الاعلان عن نفسها. يقول ابن خلدون أنه لحظ ميل أهل مصر للفرح والخفة والغفلة عن العواقب حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة مآكلهم من أسواقهم(٥).

وفي الكتب الكثير من فكاهات المصريين في تصوير الفرس واليونان والرومان ــ الغزاة الطامعين ــ حتى قال فيهم الشاعر اليوناني ثيوكريتوس: «انهم شعب ماكر لاذع القول روحه مرحة». وكذلك في العصور الاسلامية لم يدع المصريون ظالماً أو فاشلاً من الحكام الطولونيين أو الأخشيديين إلا وتفكهوا عليه، وكذا في العصرين الفاطمي والأيوبي.

وهنا يأتي دور قراقوش... وهو أحد وجوه الفكاهة المصرية.

قرّاقوش

المعلومات التي تعرف بقراقوش قليلة جداً. وكأنما ترك أمر تعريفه للفكاهات التي تنوقلت عنه، واعتقد أنها كافية وافية. أما المعلومات التاريخية فهي ان بهاء الدين قراقوش تركي الأصل كان أحد القادة العسكريين في جيش صلاح الدين، وكان نائبه في حكم مصر إذا ما غاب عنها في محاربة الصليبيين، وقد عرفت عنه القسوة والصرامة والغلظة، فضلاً عن الغفلة، وربما تعزى هذه الصفة الأخيرة إلى عدم

من هو ابن مماتي؟

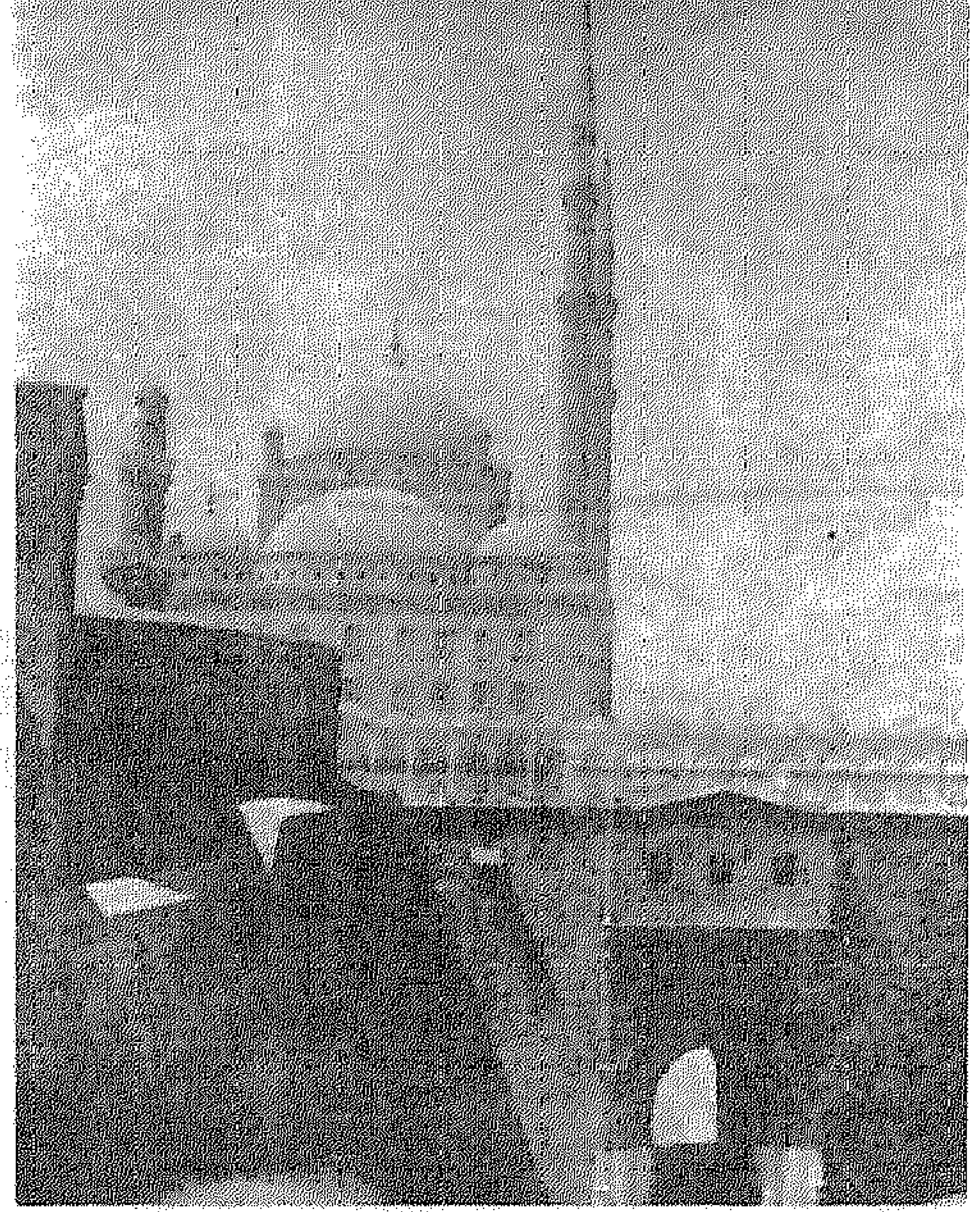
أسعد بن مماتي من عائلة نصرانية نزحت من أسيوط الى القاهرة في زمن الفاطميين، وكان بينهم أعيان مثقفون، فقربهم الحكام منهم وولوهم إدارة كثير من أعمالهم، وبقيت حالهم كذلك حتى قدوم «صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه من قبل نور الدين صاحب الشام وأصبح اليهم أمر مصر، فوجدنا هذه الأسرة تدخل في الاسلام. رعاها صلاح الدين، فجعل رئيسها الخطير ابن مماتي قيماً على ديوان الجيش، فلما توفي خلفه ابنه أسعد في عمله ثم أسندت اليه الشؤون المالية فأحسن تدبيرها وتصريفها»(٧).

والأسعد هذا اشتهر في عصره بسرعة البديهة وحضور الفكاهة. وقد تعلق بشخص قراقوش ــ وهو كما عرفنا ــ فألف فيه الحكايات المضحكة التي تصور حمقه في أحكامه، وجمع هذه الحكايات في كتاب سماه «كتاب الفاشوش في حكم قراقوش»، وهو من أقدم الكتب الفكاهية، بالمعنى الدقيق للكلمة، في تاريخ مصر الاسلامية.

يقول ابن مماتي في مقدمته: «انني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة فاشوش، قد اتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدي بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، والشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدي لمن صدق. ولا يقدر أحد من عظم منزلته، أن يرد على كلمته، ويشتط اشتطاط الشيطان، ويحكم حكماً ما أنزل الله به من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين».

لقد رسم ابن مماتي في هذا الكتاب صورة كاريكاتورية للحاكم الأحمق، حتى باتت هذه الصورة «النموذج» لما قد يرد من مشابه لها، ونالت من الشهرة ما حمل الكثيرين على تقليدها في كتبهم، فلقد الف السيوطي في عصر المماليك كتاباً آخر في أخبار قراقوش جعل له العنوان نفسه، ولكن ابن مماتي يبقى السباق الأصيل، رغم ما زيد على «نموذجه» من حكايات...

يقول المستشرق كازانوفا الذي عني بنشر هذا الكتاب ان ابن مماتي لم يؤلفه لغرض السخرية من ظلم قراقوش وغبائه فقط، بل الفه سخطاً على الدولة الجديدة التي خلفت الفاطميين. فابن



□ باب القلعة المتوسط.

خبرة قراقوش في السياسة وتمرسه بها، من جهة، وعدم قدرته على تقليد صلاح الدين، الحاكم الأصيل، والقيام بجميع مهامه السياسية والادارية في أثناء غيابه، من جهة أخرى.

وكان ذلك يوقعه في مآزق حرجة، بخاصة، حين ندرك أنه عسكري قاسي الطبع، فيحاول أن يتخطى جهله أو يداري قسوته بفظاظة مقصودة تظهره في صورة الأحمق أو المجنون. وليس مستبعداً أن يكون قد عرف صدى مواقفه عند الشعب فاستغل ذلك وتمادى فيه، ظاناً أنه يتوخى العدل حين يطلب الحق دون الرجوع الى العرف والقانون المعتمد. وأخيراً، قد يكون بحق مجنونا تمادى به خياله فراح يبتدع القوانين ويوقع العقوبات ويتصرف في شؤون الناس والادارة دون ترابط منطقي أو اعتماد على ما تعارف عليه الجميع من أسس الحق والعدالة، «والفكاهة هنا هي في المفارقات الحاصلة والتي يمكن اعتبارها لوناً من الشذوذ في التفكير مما اصطلح عليه الناس، فالمجنون في حل مما أصبح بحكم العادة تقليداً سارياً»(٦).

ومعظم الفكاهات التي أطلقت على قراقوش كانت من اختراع ابن مماتي في كتابه «الفاشوش».

مماتي لم يصور فقط ما كان يشعر به تجاه قراقوش بل صوّر سخط المصريين كلهم على حكامهم الأيوبيين، بخاصة هذا الحاكم الذي كان يتصرف في القضايا بحمق غريب، فيه ما يذهل وما يحير، بل فيه ظلم صارخ مضحك، لقد لجأ ابن مماتي الى سلاح الفكاهة، فكان أمضى سلاح يمكن أن يشهره. فالفكاهة سلاح الضعفاء حين يعجزون عن مواجهة الأقوياء بما يمنعهم عن غيهم ويحد من ظلمهم.

ولم يزل المصريون يرددون: «ده ولا حكم قراقوش» وانتقل المثل لكل العرب حتى صار تعليقاً على كل حكم جائر: «حكم قراقوش»!...

من نوادر قراقوش

● توقف النيل في مصر أياماً، فنظر قراقوش فرأى جمال السقايين وهي تسير في شوارع القاهرة عشرين عشرين، فقال: يا علمان نادوا في المدينة «قد أمر بهاء الدين قراقوش أن لا يملي أحد من ماء البحر إلا جملاً واحداً، ففعلوا ذلك فأوفى النيل، فقال: «يا هؤلاء كيف رأيتم رأيي عليكم؟ ما هو إلا رأي مبارك».

● ذكر ان رجلين من ذوي اللحى الطويلة شكوا اليه رجلا أجرد لأنه يعبث بلحيتيهما، فنظر قراقوش اليه فلم يجد له لحية فظن أن الرجلين الآخرين هما اللذان اعتديا عليه بنتف لحيته، فصاح في غلمانه: «خذوهما الى السجن ولا تخرجوهما حتى تطلع ذقن هذا الرجل».

● يحكى أن حداداً قتل شخصاً، فحكم عليه بالشنق، فشفع فيه بعض المقربين إلى قراقوش، وقالوا له: «انه حداد يخدمك، وينعل لك الفرس، فان شنقته لم تجد غيره». فنظر قراقوش الى ناحية الباب، فوقعت عينه على رجل قفاص، فقال: «لا حاجة بنا الى هذا القفاص فاشنقوه بدلاً من الحداد».

● شكا الفلاحون اليه برداً أصاب قطنهم فأتلفه، والتمسوا منه أن يعفيهم من الضريبة ذلك العام. فأبى، لأن القطن أصابه البرد لاهمالهم، ولأنهم لم يزرعوا معه صوفاً يدفئه.

● تقدمت له سيدة سوداء تشكو جارية لها مملوكة، فعجب قراقوش أن تكون امرأة بيضاء مملوكة لسيدة سوداء، فرد شكواها عليها، مدعياً انها ليست السيدة، بل هي الجارية، والجارية هي السيدة، وهم بحبسها لولا أن تدخلت الجارية فعفت عن سيدتها.

● نشر قميصه فوقع القميص من الحبل، فتصدق بألف درهم، وقال: «لو كنت البسه ساعة وقوعه لانكسرت».

● ويحكي السيوطي أنه «كان بمصر رجل تاجر وكان بخيلاً، وكان ولده يقترض على موته قدرا معلوما فزاد عليه الدين، وما مات والده، فاتفق مع الغرماء أن يدفنوا والده بالحياة، فدخل هو والدائنون عليه، وغسلوه وكفنوه ووضعوه في النعش وهو يستغيث فلا يغاث، وجاءوا حول تابوته بذاكرين بصيحون حوله، فلما دخلوا للصلاة عليه في المسجد، اتفق أن قراقوش كان ماراً فنزل وصلى عليه فلما سمع الميت بذلك قال: «الحمد لله جاءني الفرج»، فجلس في التابوت وقال: «يا مولانا السلطان خلص حقي لي من ولدي، فانه يريد دفني بالحياة»، فقال له: «كيف تدفن والدك بالحياة؟» فقال الولد: «كذب يا مولانا السلطان ما غسلته إلا وهو ميت ولا حملته إلا وهو ميت، وهؤلاء يشهدون بذلك». فقال للحاضرين: «أتشهدون بذلك؟» فقالوا: «نشهد بما قاله الولد». فالتفت قراقوش للميت. وقال: «أنا جننت، أصدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين. روح اندفن بلا شفاعة لئلا تطمع فينا الموتى، ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم». فحملوه ودفنوه بالحياة في ذمة قراقوش». ●

هوامش

(١) للتوسع، راجع منى جبر، فن الكاريكاتور، القاهرة.
(٢) د. احمد محمد الحوفي، الفكاهة في الادب، القاهرة، ص ٣١٩.
(٣) العقاد، جحا الضاحك المضحك، القاهرة ص ٢٦.
(٤) غوستاف لوبون ـ الحضارة المصرية القديمة ـ ص ٧٥.
(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٩٢.
(٦) د. عطية الله، سيكلوجية الضحك، القاهرة ص ٣٢٢.
(٧) د. شوقي ضيف، الفكاهة في مصر، الهلال، القاهرة ص ٣٥.
(*) الفاشوش هو ضعيف الرأي والعزم. معنى الكتاب: الخراب والخسارة في حكم قراقوش.

□ اليعاقبة يهاجمون نابوليون في مجلس الخمسمائة...



بقلم
ألان دوكو
من «الاكاديمية الفرنسية»

انقلاب ١٩ برومير

الذي حمل نابليون إلى سدّة الحكم

تعريب: د. رياض العالي

يعتبر انقلاب ١٨ ـــ ١٩ برومير، الذي كرس صعود نابليون إلى سدة الحكم، مرحلة حاسمة في تاريخ فرنسا! كما أن «سييس» أول من فكر في الانقلاب، خوفاً من تطرف اليسار اليعقوبي، واحتمال إعادة الملكية. لذلك كان لا بد له من الاعتماد على الجيش. أي على نابليون بونابرت العائد حديثا من مصر. وقد اتفق الاثنان على الخطة، فحصل سييس على استقالة زملائه في «حكومة الادارة» (غوهيـي، مولان، بارّا، وجورج دوكو). وسعى نابليون إلى نقـل الجسم التشـريعي (المكـون من مجلس النـواب والشيوخ) إلى سان كلو، بعيداً عن باريس، وقد رضخ المجلسان للطلب، ثم حلا نفسيهما بعد ذلك. ولكن، سبق ذلك دخول نابليون إلى قاعة اجتماع المجلسين، فأحاط به حشد ناقم، هذا يشتم، وذاك يصرخ في وجه الجنرال النحيف، بل إن احدهم كاد يخنقه، إذ عصر عنقه بكفيه القويتين، فتهاوى نابليون، وكاد يغمى عليه، فحمله جنود المدفعية إلى خارج المجلس، والصيحات تتردد: خارج على القانون، خارج على القانون. غير أن نابليون ربح الجولة. على كل حال، ما الذي حدث قبل الانقلاب.



التاسع من تشرين الأول ١٧٩٩، رسا قارب مقابل سان رافاييل، وقد حمل من مصر الجنرال بونابرت، ولم يمض شهر على ذلك حتى حدث الانقلاب.

التقى بونابرت «المدير» سييس، واتفقا على الانقلاب. وكان نابليون آنذاك بطلا في نظر الشعب كله، خاصة إثر انتصاراته في ايطاليا، وحملة مصر. وكان الشعب يتذمر من سوء الأحوال في عهد حكومة الادارة، ولم تكن حاله قبل ذلك أحسن.

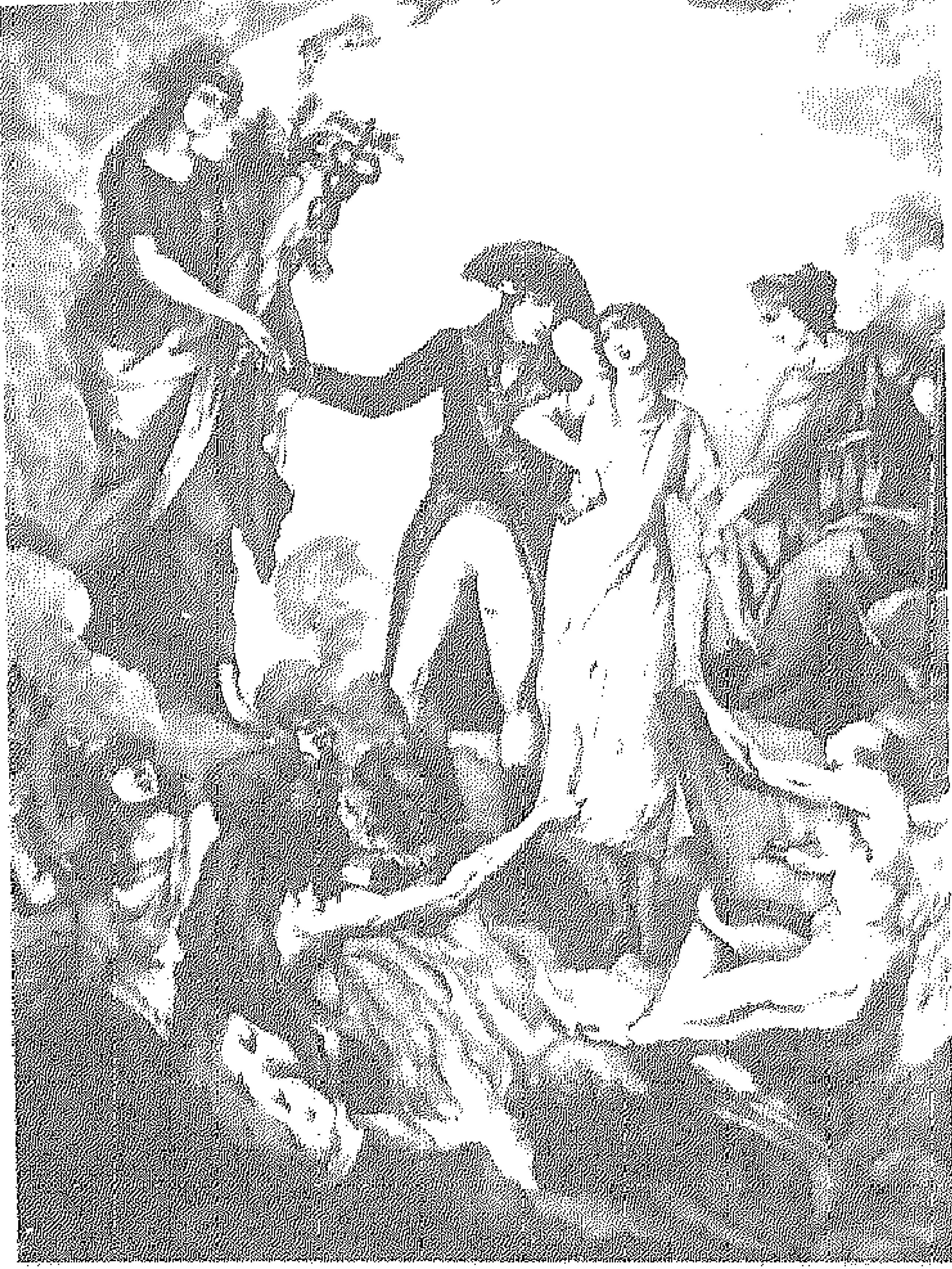
واتفق الاثنان على نقل مجلسي النواب والشيوخ إلى سان كلو، فقد كانا يخشيان خضوع المجلسين لفورات الشعب المتوالية، التي يمكن أن يستغلها خصوم نابليون. والواقع أن الشعب، منذ الثورة الفرنسية لم ينفك يقوم بالفتن، والعصيان، والثورات، الصغيرة، فيفرض على المجلسين اتخاذ قرارات تحت ضغط الخوف.

وكان مجلس النواب قادرا على تقرير الانتقال، لأن أصواته تمثل الغالبية، وقد توصل سييس إلى إقناعه باتخاذ ذلك القرار الذي كان المقدمة لأنهاء خدماته. وكان لسييس أصدقاء كثر في المجلس اعتمد عليهم في إقناع الآخرين.

أما نابليون فأخذ على عاتقه أمر إقناع الجيش. اتصل بسيباستيان ومورا. فأيدا رايه، وأكدا أن الجيش كله يؤيده. بقي ضروريا إقناع قائد فرقة باريس، لوفيڤر، المعروف بعناده. وقد زاره نابليون، وقدم إليه السيف الذي كان يحمله وهو قرب الأهرام: «عرفانا بفضله، وثقة منه به». فتأثر لوفيڤر، وأعلن: «لنلق بالمحامين إلى النهر» ويقصد النواب.

أما برنادوت، فاختلف الحال معه. فبرنادوت، طامع آخر بالسلطة. وكان من شأنه أن يقف مع الغالب ضد المغلوب. مع ذلك كان لابد من محاورته.

ومن جهة ثانية كان على نابليون الاتصال بوزير الشرطة، جوزيف فوشي، الذي لم يحاول لقاءه منذ عودته من مصر. وسعى إلى خداعه ومراوغته، فاستعان بريال، مفوض الادارة، في قطاع باريس. غير أنه اضطر إلى لقائه. وقد أذهله فوشي بمنطقه السديد، ووضوح فكره، وقد



□ بونابرت يعيد الامل والسلام إلى فرنسا. لوحة عن ١٨ بروميير.

ضمن نابليون صمت فوشي وعدم معارضته الانقلاب.

الخامس عشر من بروميير، اقيمت في كنيسة سان ــ سولبيس مأدبة فخمة على شرف نابليون، ضمت ٧٥٠ مدعوا. وكان بونابرت يأكل صامتا. وفي نهاية المأدبة اختلى بسييس الذي أنبأه أن كل شيء قد تم، وحدد ليل ١٧ بروميير موعدا للانقلاب. ولكن هذا الموعد أجل، في ما بعد، إلى ١٨ بروميير.

وافق نابليون على الذهاب، يوم ١٨ بروميير، إلى منزل غوهيي، للغداء عنده. وزيادة في الخديعة دعا نابليون غوهي وزوجته للفطور عنده الساعة الثامنة صباحا.

في هذا الوقت تناهت إلى بارّا معلومات أقلقته، فنشط لقطع الطريق على أية محاولة للقضاء على الجمهورية، ولكن نابليون استعان بالخديعة مرة أخرى، فوعد بارا أن يزوره سرا، ليل ١٧ ــ ١٨ بروميير. وحين حل الموعد، أرسل نابليون سكرتيره، يعتذر من بارا، بحجة أن الجنرال يعاني من «الشقيقة». ويؤكد أنه قادم اليوم التالي لزيارته. ولكن بارّا شعر أن الجنرال لن يأتي

أبداً. وقال لبوريين ـــ سكرتير نابليون: «مع هذا فان بونابرت يدين لي بكل شيء». ونقل بوريين الخبر كما هو لنابليون، فقال هذا: موعدنا غدا مساء، الساعة السابعة.

الجمهورية في خطر

السابعة من صباح الثامن عشر من برومير، التأم في قاعة التويلري، مجلس النواب ـــ وكان يدعى مجلس القدماء ـــ فقد دعي منذ الليل، بدعوات خاصة، وأغفلت دعوة من كانوا يشكلون خطرا. ومن المقاعد تواترت الهمسات: لماذا هذا الاجتماع الصباحي الطارىء؟

صعد المنبر، صديق سييس، النائب كورني، وكان شديد الاضطراب، وأعلن أنه يجب إنقاذ الوطن والجمهورية من خطر داهم ـــ يقال اليوم إن اليعاقبة سرّعوا في انهيار النظام ـــ.

صعد المنبر صديق آخر، هو النائب رينيي. وأكد أن ثمة مؤامرة تحاك ضد الوطن والجمهورية. وطالب بنقل الجسم التشريعي إلى مكان آمن، بعيد عن باريس. فوافقت الجمعية، وتقرر الانتقال إلى سان كلو. ومن أجل الحفاظ على الدستور، خوفا من «العقبان» كلّف بونابرت الذي لا يشك في تعلقه بالجمهورية، بالسلطات الحربية.

هتف رينيي: لا تخشوا يا ممثلي الشعب، ولا تقلقوا، فبونابرت ساهر.

ولكن همهمات تعالت من المقاعد، وطلب نواب يساريون الكلام، وصرخ بعضهم محتجا، داعيا إلى تبرير هذه المؤامرة الجديدة. ولكن الأكثرية قطعت عليهم الطريق، وعلت أصواتها على أصواتهم، وطرح المشروع على التصويت، ففاز بالأغلبية، وأعلن بونابرت قائداً للقوة العسكرية.

لم تدم الجلسة أكثر من ساعة. وقد نجحت خطة سييس، نقطة بعد نقطة، حتى تلك الساعة، فجأة أقبل حاجب لينبىء نابليون أن عدداً من الضباط ينتظرونه في بيته منذ الصباح.

كانت السيدة غوهيي قد قدمت مع زوجها، فلما رأى جمع الضباط، أرسلها وحدها، وعاد من حيث أتى، فسارعت جوزيفين تستقبلها بحفاوة، وتسألها عن سبب عدم حضور زوجها، فأخذت السيدة ورقة، وكتبت رسالة زعمت أنها تدعوه فيها للاسراع بالمجيء، والواقع أنها أوصته الا يأتي!

في هذا الوقت كان نابليون يطير على حصانه الأسود، تحيط به حاشية ضخمة من أركانه، إلى التويلري، ليقسم أمام المجلس يمين الاخلاص للدستور الذي انتهك حرمته الغد.

على أن قرار المجلس كان يجب أن يوقعه غوهيي رئيس حكومة الادارة، ولكن أين غوهيي؟ قيل إنه في اللوكسمبورغ، مقر الادارة.

الاستقالة الاجبارية

استفاق غوهيي صباحا ليرى حرس الادارة، يغادرون المقر ليضعوا أنفسهم في تصرف نابليون. هذا في الوقت الذي كانت فيه زوجته قد غادرت المقر لتفطر مع جوزفين. حاول أن يسأل عما يجري فلم يتلق جوابا. دعا زملاءه فلم يستجب إلا مولان. وكان سييس وروجي دوكو، قد ذهبا إلى التويلري ليقدما استقالتهما. أما بارّا فقد أجاب بأنه يستحم.

قرر غوهيي ومولان أن يذهبا إلى التويلري، فوجدا هناك كل الوزراء وسييس ودوكو. وقد وضع غوهيي ختم الادارة في تصرف نابليون، وقد خيل إليه أن الحركة لا تهدف إلا إلى إقالة بارّا، ثم يعود كل شيء إلى حاله السابقة.

وحين طلب إليه أن يستقيل رفض، فقد أقسم حين تسلم منصبه على الحفاظ على الجمهورية، والدستور، فكيف يتخلى عن واجبه؟

حمل مع مولان إلى اللوكسمبورغ، وفرضت عليهما حراسة مشددة، بحرس تحت إمرة مورو. في هذا الوقت كان بارا ينتظر أن يقبل نابليون لزيارته، كما وعد. ولما طال الانتظار أرسل سكرتيره إلى التويلري، فلما وصل وجد نابليون يعرض القوات المسلحة. ولمحه هذا فدعاه إليه، وحمله أمام كل الجمهور، مسؤولية كل بؤس الوطن. فعاد بوتو إلى بارا ينبئه بما حدث، فيما أمر نابليون تاليران باعداد نص استقالة بارا. وحين حمل كتاب الاستقالة إلى بارّا، مع وعد بعشرة ملايين، وقع هذا الكتاب دون احتجاج، ودون أن يبدل أية كلمة. ولكنه طلب أن يسمح له بالعيش في مزرعته في غروبوا، بعيدا عن مشاغل السياسية.

وهكذا بدا أن الثامن عشر من برومير، قد أعد إعداداً تاماً.

حشد في سان كلو

بدا أن التخطيط للانقلاب وتنفيذه تما في حذق وبراعة. وهذا خطأ. الواقع أن الخطوة الأولى كانت وحدها الموفقة، وهي نقل المجلس إلى سان كلو. ذلك أن معدي الانقلاب، لم يكونوا يعلمون ما سيفعلون، بعد نجاح الخطوة الأولى.

التاسع عشر من برومير، السنة الثامنة، تدفق النواب في كل أنواع وسائط النقل، وبعض قوات التنين والقناصة، وبعض الفضوليين.

لم تكن القاعة لتتسع لمجلس «القدماء» فكيف بمجلس الخمسمائة؟ لقد تجمعوا على مسطح القصر في سان كلو، وراحت المناقشات تعلو حيناً، وتنخفض حيناً، حسب حرارة الموضوع. وكان بعضهم يشرب، كأنما ليهرب مما يشعر به من توقع، أو خوف، أو أسى. وكان السؤال الأثير لدى الجميع: إلى أين سيمضي نابليون؟ وكان بعض الفضوليين يسألون الجند: ما الذي يحدث؟ فيجيب بعضهم إجابات مبهمة، بينما يرد آخرون: إن نابليون سيخلصنا من التافهين، وسيعيد مجد فرنسا.

قدم سييس، وتاليران، ودوكو، ولاغارد سكرتير الادارة. وفي الوقت ذاته كانت المقاعد تصف في قاعة البرتقال إذ لم تكن القاعة الأولى كافية للحضور.

فجأة، حدثت ضجة: فقد دخلت عربة يحرسها الجند، وضباط على خيولهم، وترجل الضباط ثم نزل نابليون من العربة، فتعالت هتافات: يعيش نابليون. فيما تعالت، من جانب آخر، هتافات: عاش الدستور.

مضى نابليون بخطوات واسعة عبر المنبسط أمام القصر، ودخله يتبعه عدد من الضباط.

انقضت ساعات قبل الظهر بطيئة، رغم أن الكثيرين وجدوا السبيل إلى ازجاء الوقت بالجدل والشرب. وقد ثمل بعضهم، فصاح أحدهم: «أرجوكم، هل رأسي ما يزال بين كتفي؟».

الساعة الواحدة بعد الظهر، جلس النواب على المقاعد التي أعدت في قاعة البرتقال، وجلس لوسيان نابليون، على مقعد الرئاسة، في مكان مشرف على المجتمعين، لم يكن عمر لوسيان أكثر من أربعة وعشرين عاما، ولكنه كان أكثر اخوته ذكاء بعد نابليون.

افتتاح الجلسة

افتتح لوسيان الجلسة. ولكن الضجة لم تهدأ. طلب غودان الكلام، حسب الخطة التي وضعها مخططو الانقلاب، فأعطاه لوسيان الكلام. فاقترح تشكيل لجنة لدرس الأخطار التي تتهدد الجمهورية. ولكن النواب الذين كانت لهم تجربتهم، والذين قاتلوا وسجنوا وعذبوا، قطعوا عليه الكلام، فقد أدركوا إلى أين يقود اقتراحه! وتعالت الصرخات:

— نرفض الدكتاتورية.
— ليسقط كل ديكتاتور.
— نحن هنا أحرار، ولا تخيفنا الحراب.

حاول غودان الاستمرار، ولكنه لم يستطع. وكان عليه ترك المنبر. وفيما حاول البعض التهدئة استمر الآخرون في تعنتهم. وسيطر اليساريون على الخمسمائة. وبدأ اليعاقبة، بعد نزول غودان عن المنبر يهاجمون لوسيان، وتحولت هجماتهم إلى تهديدات، ولكنه حافظ على هدوئه وصفاء ذهنه. وواجه الهجمة بالدعوة إلى الهدوء. فهجم اليعاقبة وطوقوا مقعده هاتفين: الدستور أو الموت. وطالب ديلبرل بصوته الجهوري الذي غطى على كل الأصوات، بأن يقسم كل نائب، من جديد، على الحفاظ على الدستور. فتعالى التصفيق في المكان.

أدرك لوسيان بذكائه، أن القسم الافرادي وسيلة لكسب الوقت، فاغتنم المبادرة وطلب من النواب أن يقسم كل منهم على الحفاظ على الدستور. فاصطفوا في صف طويل، وجعل كل واحد يقبل ليقسم.

ولكن ما الذي كان يفعله «القدماء» في تلك اللحظات؟

في بدء جلستهم طرحت أسئلة حول «المؤامرة»، والغاية مما حدث، وأسئلة أخرى في نطاق ذلك. وفجأة صعد لاغارد ليعلن أن أربعة من أصل خمسة مديرين قدموا استقالاتهم، وعلى المجلس اختيار حكومة جديدة؟



□ جوزفين ترسم القنصل الأول بونابرت

كان القدماء يعلمون أنهم لا حق لهم في الاقدام على هذه الخطوة دون موافقة الخمسمائة. تفاقم الوضع! لقد خيل للكثيرين أن القدماء سيطلبون من نابليون وسييس تولي الأمر. ولكن هؤلاء ترددوا طويلا في اتخاذ قرار. كانوامسؤولين عن الدستور، ولا يريدون التحلل من المسؤولية.

في الطابق الأول، كان نابليون مجتمعا إلى دوكو وسييس، كان ينتظر، وكان قلقا. وبدأ يقتلع بثورا في وجهه لانفعاله، فسال الدم منها. وفي الممرات، وعلى الأدراج، كان قلق الضباط يتصاعد، وصل في تلك اللحظة، الجنرالان أوجيرو وجوردان، ولم يكن نابليون واثقا منهما، وكان القدماء يراوحون في مكانهم.

شعر نابليون أن كل لحظة تضيع بعد ذلك الوقت، تعني الاقتراب من الفشل، كانت الساعة بين الثالثة والنصف، والرابعة. مثل أمام القدماء، تحيط به حاشية صغيرة: شقيقة جوزيف، الجنرال برتيي، وسكرتيره بوريين. ساد الصمت. لم يكن نابليون قد أعد شيئا. تكلم، فلم يفهم أحد ما يريد، ولم يقترح شيئا. وقوبل خطابه بصمت. وترك المكان دون أن يحصل على القرار المنقذ.

يسقط الدكتاتور

وقف صامتا خارج القاعة. ثم قرر الهجوم، فاتجه إلى قاعة البرتقال، ثم دخلها، فيما كان آخر من يقسمون يمين الولاء للدستور، يقتربون من المنصة. كان لوسيان يتوقع دخول رئيس القدماء بالقرار المنقذ. فاذا نابليون يتبعه حرس قليل، وعدد من الجنرالات والضباط.

ترك حاشيته وتقدم من المنصة، فأحاط به النواب من كل صوب. وارتفعت أصوات:

ــ يسقط الدكتاتور.

ــ يسقط الطاغية.

ــ خارج على القانون.

أحاط به اليعاقبة، وشتموه، وأهانوه. وأمسك أحدهم بخناقه، وراح جمعهم يدفعه، ويشده، حتى سقط أرضا، وغشت بصره سحابة حمراء، وأغمي عليه. ووجه إليه دسترم الثمل لكمات على وجهه. في هذه اللحظة اندفع الجند والضباط لانقاذ نابليون. وحملوه وهو يوشك أن يفارق الحياة.

لوسيان يحافظ على رباطة جأشه

استفرد لوسيان. ودقت قبضات على المنصة. وعلت صرخات: خارج على القانون. ولكن لوسيان، بكل رباطة جأشه، وقف هادئا، ففرض بهدوئه الصمت، وابتعاد النواب عن المنصة. قال: لم تكن من حاجة لما حدث هنا. كان الجنرال يريد تقديم أيضاحات لمجلسكم الموقر عما حدث. ولكن أحد النواب صاح:

ــ لقد سود نابليون صفحة انتصاراته.

وقال آخر: لقد تصرف نابليون كملك.

وتقدم عدد من النواب باقتراحات، معظمها متناقض. ولكن لوسيان تابع كلامه:

ــ أرى أن الشكوك التي عبرتم عنها، لا تستند إلى أساس. لقد قمتم بعمل غير نظامي، ونسيتم كل الخدمات في سبيل الجمهورية.

وأجاب بعضهم: بل لن ننساها.

وتابع لوسيان: أطالب، قبل اتخاذ أي إجراء استدعاء الجنرال.

ولكن أحدهم صرخ: لا نعترف به.

وقال لوسيان: حين يعود الهدوء إلى هذا المكان، ويزول سوء التفاهم الذي حدث، ستجدون أنفسكم مقتنعين بانصاف من يجب إنصافه.

واكن اليعاقبة تعددت صرخاتهم منددة بالجنرال. فحاول لوسيان عبثاً الكلام، ولكنه أخفق. عندئذ خلع القلنسوة، وثوب الرئاسة، والمنديل المطرز بالذهب، بحركة مسرحية، ووضعها على المنصفة وهتف:

ــ لقد أعياني أن تستمعوا إلي. لذلك أطرح شارات الرئاسة التي منحني إياها الشعب.

فوجىء النواب بالموقف. وتساءل المعتدلون: هل يرجع المتطرفون عن غيهم، بينما عاد اليعاقبة إلى الصراخ: خارج على القانون.

قبل قليل، كان لوسيان قد همس في أذن الجنرال فريجفي: قبل مرور عشر دقائق يجب فض الاجتماع.

ترك فريجفي المكان، ثم عاد مع عشرة جنود، وسار إلى المنصة، وحملوا لوسيان معهم.

على قرع الطبول

وجد لوسيان حصاناً ينتظره، فاعتلى صهوته. وفي هذا الوقت كان نابليون قد قرر استخدام القوة. وكان الجند على أتم استعداد لمؤازرته. وقد فوجئوا بظهور لوسيان إلى جانب أخيه. وما لبث أن أعلن: أنا رئيس مجلس الخمسمائة، أعلن أن غالبية المجلس تخضع لارهاب بعض من يطوقون المنصـة، ويهددون بسـلاحهم رفاقهم بالموت، ويصـوتون عـلى أمور لا يحق لهم أن يصوتوا عليها. لذلك أكلفكم بانقاذ الأكثرية. فإذا أصر الآخرون على البقاء فإني أطلب منكم طردهم بالقوة، لأنهم لصوص لا يمثلون إرادة الشعب.

واستل لوسيان سيف نابليون ووضع رأسه على صدر أخيه وصاح بحركة مسرحية: «سأمزق هذا الصدر إذا خطر لصاحبه أن يكون طاغية».

استـل الضباط سيـوفهم. ووضع الجنـود



□ لوسيان بونابرت.

□ بونابرت بين نواب مجلس الخسمائة.





□ بونابرت بين لوبران وكامباسيري، عند إقامة مجلس الدولة في اللوكسمبورغ. (٢٥ أيلول).

الحراب في بنادقهم، وتسلم مورا ولوكلرك زمام القيادة، وتعالى قرع الطبول، وارتفع صوت مورا:

ــ إلى الأمام.

اجتاح الجند مكان الاجتماع، بينما الضباط يصيحون:

ــ أيها المواطنون، حل مجلسكم!

فيما كان مورا يصيح:

أخرجوا هؤلاء خارجا!

وراح النواب يقفزون من النوافذ، وأثوابهم الأرجوانية تطير خلفهم، في فوضى عجيبة. لقد هربوا وتبعثروا يتولاهم الرعب.

وهكذا نفذ الانقلاب.

المساء، اجتمع عدد من النواب (يقارب الثلاثين) وصوتوا على قنصلية مؤقتة.

الثالثة صباحاً كان نابليون على طريق باريس، يتحدث إلى بوريين:

ــ يبدو أني لم أحسن القول في مجلس القدماء.

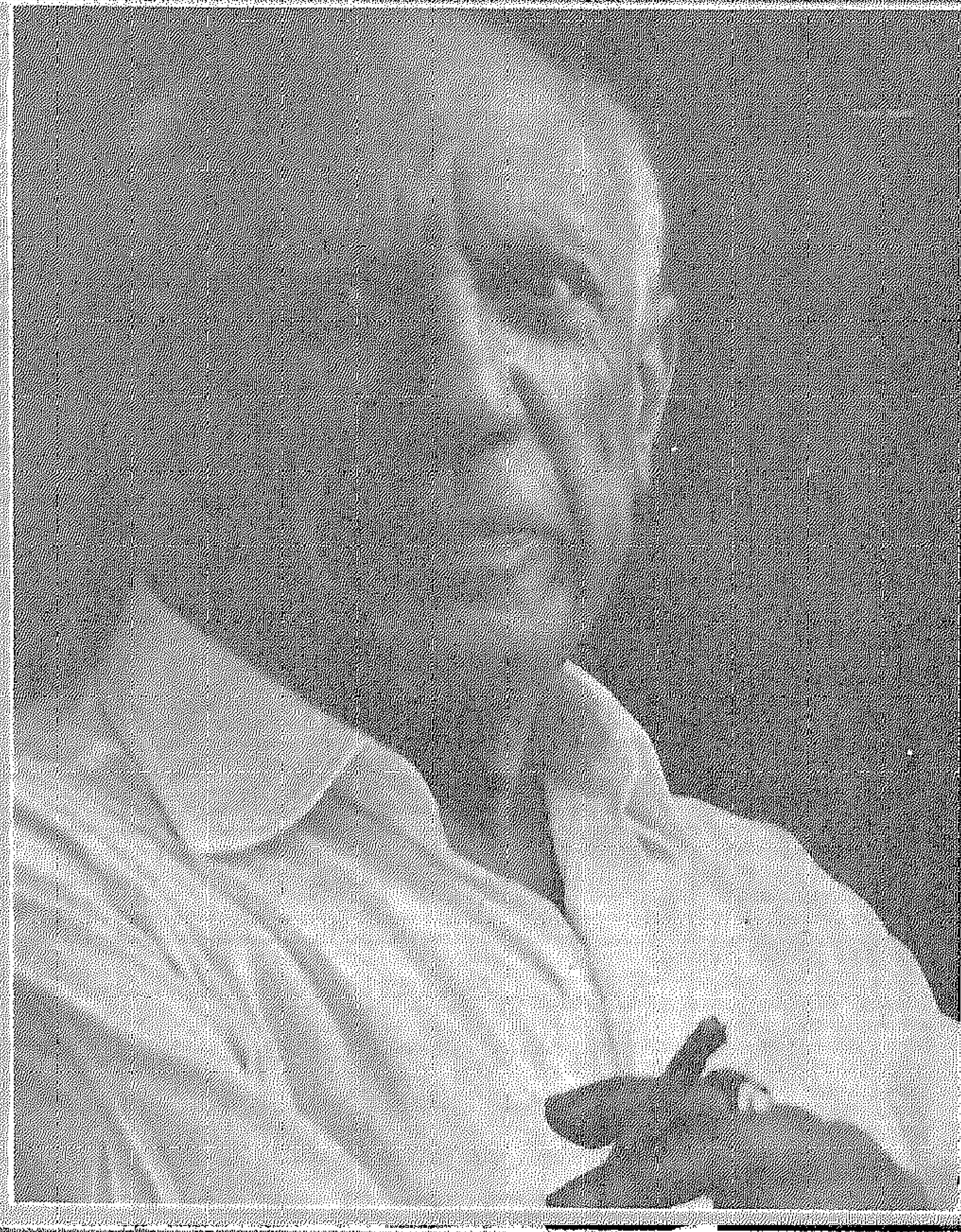
ــ لا بأس عليك يا جنرال.

ــ إني أفضل التحدث إلى الجند، على كل حال. ●

بيكاسو

كما عرفته...

موريس ريمز
من «الأكاديمية الفرنسية»



علاقة بيكاسو بلوحاته حالة عشق وولَه

تعريب
د. سامي زكي

كيف كانت علاقة بيكاسو بلوحاته؟ هل كان ينظر إليها جميعاً نظرة واحدة، أشبه بنظرة الأب إلى أبنائه؟ كيف كان يحفظها ويرعاها؟ ثم هل كانت نظرته إلى لوحات كبار الفنانين، نظرته عينها إلى لوحاته؟ أين كان يحتفظ بكل هذا العدد الكبير من اللوحات التي احتفظ بها حتى آخر حياته؟

ولد بيكاسو منذ أكثر من مائة عام (٢٥ تشرين الأول عام ١٨٨١)، في ملقة في اسبانيا. كان أبوه أستاذ رسم، وكان يرسم لوحات لتزيين جدران البيوت، وكان يعهد إلى ابنه بابلو باكمال بعض لوحات وضع خطوطها الأساسية. ولكن بابلو ما لبث أن بدأ يرسم لوحاته الخاصة.

في التاسعة عشرة انتقل إلى باريس، وبعد ست سنوات استقر فيها نهائيا، وفيها توفي، في موجان الثامن من نيسان ١٩٧٣.

بعض الناس يتميزون بفضول خاص، كل ما يرونه يسترعيهم، ويستأثر بتفكيرهم، أحياناً، إلى زمن، رغم أنك تكاد لا ترى فيه ما يغري النظر. كان أحيانا، يستبد به بريق حصاة، أو خضرة ورقة عشب، أو زهرة غير الزهور، أو لون ما في أفق أو سماء أو فضاء. ولكنه كان يغريه الجمال حيث كان، سواء كان في الانسان أو الطبيعة أو الأشياء. على أن مقاييس الجمال عند بيكاسو، غيرها عند الآخرين.

خذ مثلا، ذوقه في لوحات كبار الفنانين، ظل زمنا طويلا يحتفظ بلوحات دوانيي روسو، ورونوار، ولكنه كان أبعد من أن يستسلم للانتقائية، أو للتقديس الأعمى. ولم يكن يعرف شيئا عن لعبة جامعي اللوحات المادية. بل كان يكره أن يتعرف إلى هذه اللعبة. كان يشتري اللوحة حين تعجبه، ليتأملها، ويستوعب جمالها، ويفرح ذلك الفرح الداخلي الفني كلما نظر إليها. أما ما عدا ذلك فلم يكن يعنيه، في كثير أو قليل. وإذا عدت إلى مرحلته «الحمراء» (١٩٢٠ — ١٩٢٤) أدركت سبب ميله إلى لوحات رونوار الضخمة. كان يعتبر رونوار الأستاذ، ولكنه بعد مرحلة من الزمن، شعر أنه انفصل عنه فنيا، ولم تعد تلك اللوحات الكبيرة تسترعيه. فلماذا يحتفظ بها، وقد استنفد حتى عصارتها. لقد أرسل كل تلك اللوحات إلى غرفة استأجرها في قبو أحد المصارف، وبقيت هناك حتى وفاته.

الحق أن بيكاسو كان يحب لوحاته الخاصة، أكثر من حبه أية لوحة أخرى. كان يعتبرها مثل أبنائه. ولم يكن يستطيع أن يحتفظ بها في مكان بعيد عنه. فمكان الأطفال في بيوت ذويها. كان يبيع منها أحيانا، ولكن على الرغم منه. ولم يكن



□ بيكاسو في محترفه في «كي دي غران اوغوستان» خلال حرب (١٩٣٩ — ١٩٤٥). حيث كان يستضيف اصدقاءه ريفردي، كوكتو، براساي.. على الجدران لوحات لبيكاسو.



□ اللوح الخشبي الذي كان يمزج عليه الالوان في محترف كان، في الستينات.



□ الفتى «بول» بلباس «الارلكان» من مجموعة «بيكاسو»



□ محترف كان. على منصة الرسم دراسة عن «آنسات افينيون».

تعلقه باللوحات المكتملة فحسب، بل حتى بتلك المشاريع التي خطها بقلم الرصاص، أو بقلم الحبر، أو بالأكواريل، أو الغواش.

كانت لوحاته موزعة في كل مكان من بيته، حتى لتحسب أنها عوائق تعوق تنقله بين الغرف وعبرها. بل تشكل خطرا خارجيا عليه نفسه، من لص لوحات، أو طامع في ثروة، ولكنه كان يحب دائما أن يظل محاطا بلوحاته، وكأن وجودها حوله يشعره بالأمان، وذلك التعاطف الأنساني الحميم.

مع ذلك، إذا أتيح لك أن تدخل «كليفورنيا» — وهذا اسم بيته في كان — وتنحدر إلى مغارة «علي بابا»، ألفيت كل شيء مرتبا منظما، كما لو كان ثمة مكلفون بالعناية باللوحات. ولولا مسحة خفيفة من غبار لحسبت أن المكلفين يقومون يوميا بالحفاظ على «طمأنينة» اللوحات.

غير أن بيكاسو اضطر إلى ترك ذلك البيت الذي أحب، بعد أن اشترت إحدى الشركات البناء، لتقيم مكانه بناء ضخما، وفقد بيكاسو ذلك المنظر المطل على خليج كان، المنظر الذي كان يعشقه عشقا.

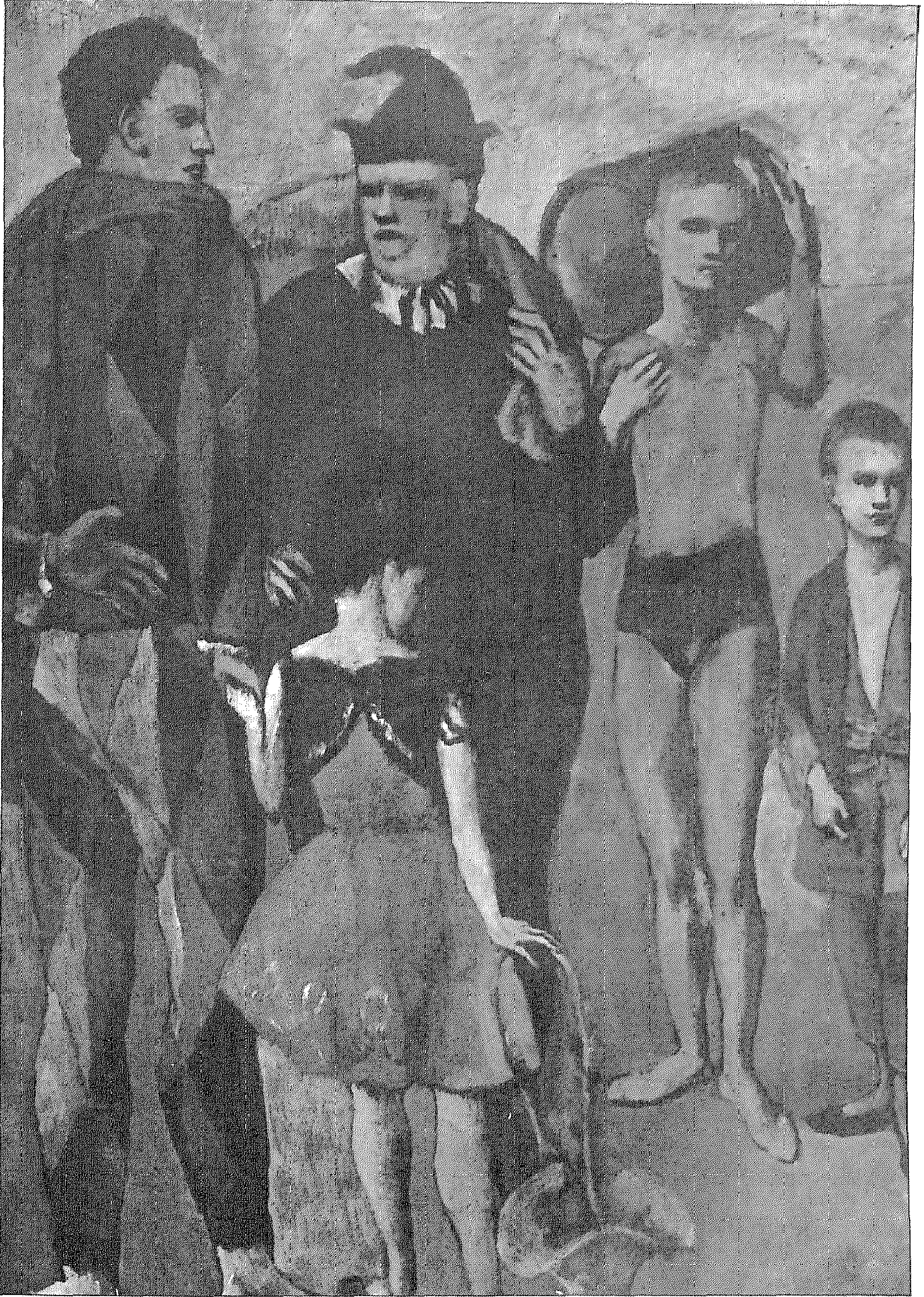
حين غادر بيكاسو البيت، ترك كل شيء في مكانه، ورفض أن يحمل معه لوحاته التي تعتبر تحفا فنية، من المرحلة الزرقاء، والمرحلة التكعيبية، ومحفوراته، بل حتى مطبعته التي كان يستعين بها في الحفر، وعشرات الحقائب التي كانت تضم ثيابه منذ كان شاباً، وكان من عادته أن يحملها معه إلى حيث ذهب.

هذا الانسان الذي ظل يجر ماضيه وراءه، من مرحلة إلى مرحلة، قرر فجأة أن يتخلص من شهوده، مقتنعا أن الماضي لا يقاس بالوزن، وإنما بالبصمات العميقة.

وتشعر بفضوله من خلال علاقاته بالآخرين، وخاصة الرسائل. كانت مائة منها، تقريبا، ترده كل يوم. وكانت الفرص تسنح له أحياناً بفضها وقراءتها. فكان يقص أطراف مغلفاتها بعناية فائقة، ويرسم على الغلافات شكل نظارتين، فاذا انتهى من ذلك، جمع كل ما قرأه أو تصفحه، في



□ بيكاسو بريشته «متحف فيلادلفيا للفنون»



□ العائلة ـ صالة العرض الوطنية ـ واشنطن

رزمة واحدة، وربطها بشريط، وأحالها على الحفظ. ولكنه لم يجب يوما على أية رسالة. كان بعض هذه الرسائل يرجو موعدا، وبعضها يتحدث عن أبناء يرسمون على طريقة بيكاسو، وبعضها يحمل عواطف نساء تعشقن الرسام دون أن تلقينه... ويظل بيكاسو صامتا.

وترد على بيكاسو نماذج من رسوم، رسمها هواة، ورسامون، يؤكد أصحابها أنهم من مدرسة الفنان. يبتسم، يضحك أحيانا، ولكنه لا يجيب.

كل هذه الآلاف من الرسائل والرسوم، وجدت في مغارة «علي بابا» في دارته «كاليفورنيا».

على أن أهم من كل ذلك، أن بيكاسو لم «يتورط» في الرغبة في تجميع المال. يمكن القول أنه كان مرتاحا ماديا منذ ١٩٠٧. لذلك لم يكن يعنى بالمال كثيرا. فلماذا المال، ولو شاء، عندما تدعو الحاجة، لوقع على ورقة أو صحن، فاشتراها أي غني بمال كثير.

كان بعض محبي فنه، يحاولون شراء بعض لوحاته، كان يرفض بحث الأمر، ويحيلهم على التاجر الذي يعنى بأمر بيع لوحاته. وذلك حتى يتجنب الخلط بين الفن والمال.

بل إن بيكاسو، الذي باع بعض لوحات تعود إلى بداية حياته الفنية، كان يشتري سرا تلك اللوحات، بواسطة بعض أصدقائه، ويعيدها إلى مغارته الفنية.

ولم يكن يسجل على لوحاته تاريخ السنة التي اكتملت فيها، فحسب، وإنما كان يذكر أحياناً، الساعة التي ولدت فيها.

وكانت رسومه ولوحاته ومحفوراته وتماثيله، موزعة في المغارة، وفي الغرف، ويحتفظ بالمفاتيح، في علاقة لم تفارقة أبدا. وكان يعرف، بالتحديد، في أي مكان توجد اللوحة كذا، أو التخطيط الفلاني، أو المحفورة، أو التمثال... بينما كان ينسى أحيانا أين ترك لوحة لأحد الفنانين الكبار.

وكان بيكاسو يرفض أن يترك وصية. وكان يقول: «أعتقد، في ما أعلم، أن معظم الفنانين لم يتركوا وصية. فهذا تيتيان، وفيلاسكين، وغيرهم كثير، لم يتركوا وصية. فلندع لورثتنا تدبر شأن الارث بأنفسهم».

●



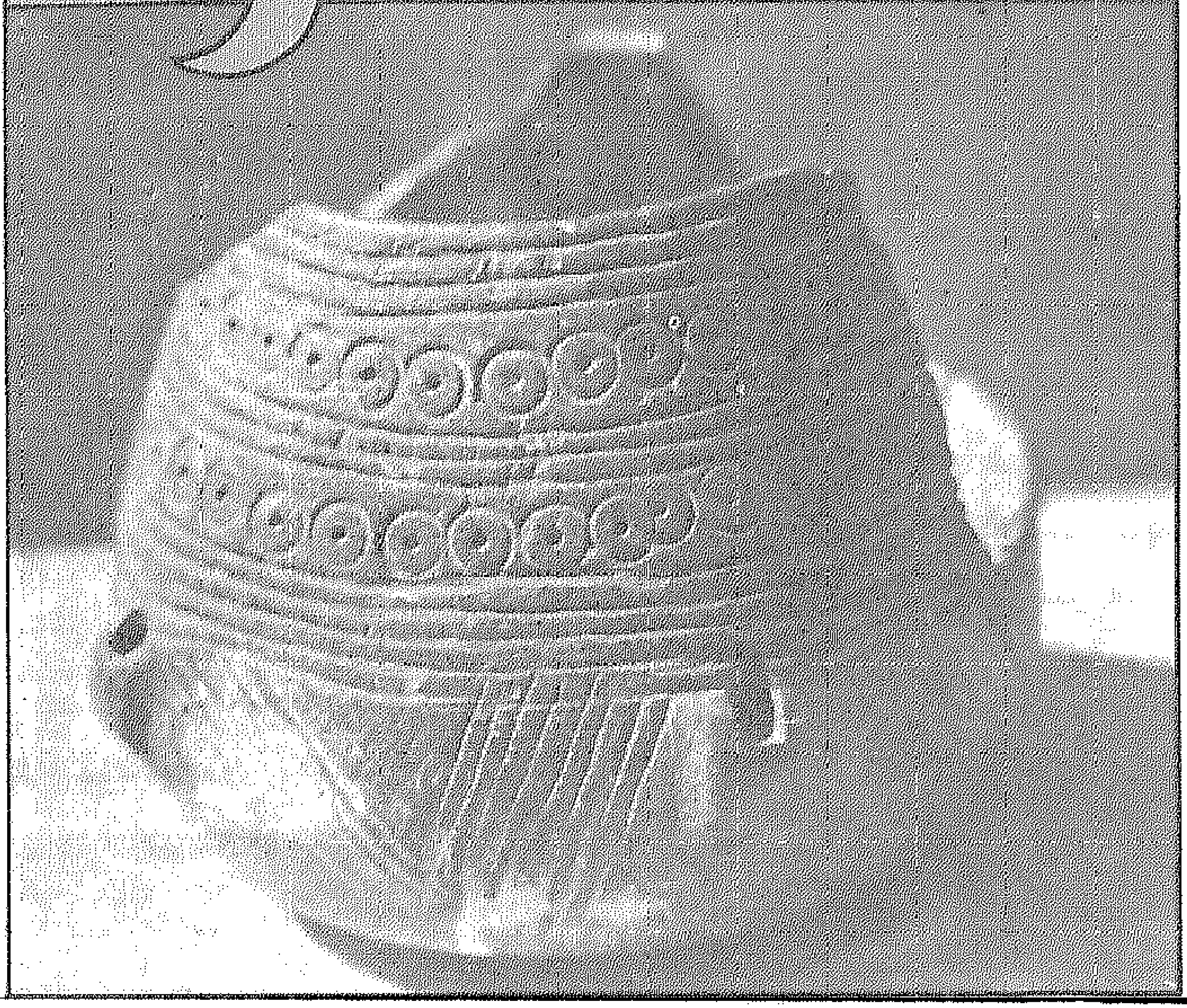
□ جانب من محترفه في كان. على الجدار لوحتان لزوجته جاكلين.



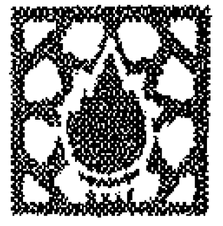
□ صورة شخصية، رسمها لنفسه، وكأنما لتحرس الرسائل المبعثرة على أرض المحترف.

التنقيب في موقع قطارة

قسم التوثيق والأبحاث



وعاء حجر ستيتايت مزين بزخارف هندسية عملت بطريقة التحزيز لهذا الوعاء أربعة مقابض مثقوبة بشكل عمودي (الألف الثالث ق. م).

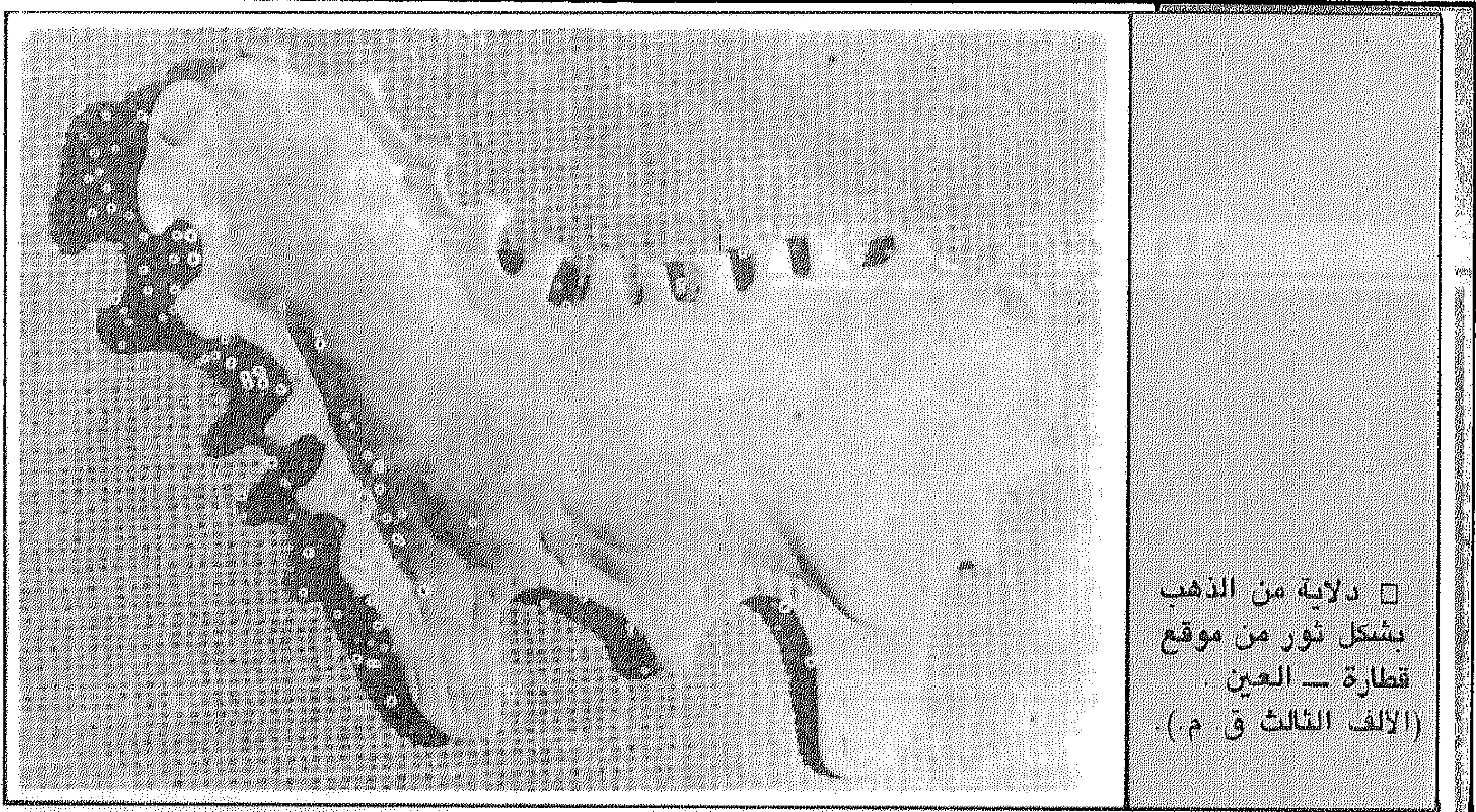


تقع منطقة قطارة على مسافة خمسة كيلومترات غرب منطقة هيلي الأثرية ضمن واحة البريمي المعروفة وتعتبر امتدادا لها. وفي هذه المنطقة تكثر المزارع والبساتين إضافة إلى الدور السكنية العديدة. أثناء عملية حرث التربة وتوسيع رقعة إحدى المزارع المنتشرة في المنطقة، عثر على لقى أثرية هامة تمثل قطعا لسيوف نحاسية أو برونزية وأواني حجرية وفخارية كاملة وعددا كبيرا من أدوات الزينة كالخرز والأساور. ولما علمت دائرة الآثار والسياحة بذلك، بادرت وعلى الفور بوضع يدها على الموقع حيث أجرت تنقيبات سريعة هدفها التعرف على طبيعة الموقع وتاريخه. وقد توقفت أعمال التنقيب بعد فترة قصيرة لحلول موسم الصيف، ثم استؤنف مرة أخرى في موسم ٧٤/٧٥ ونستعرض فيما يلي وصفا للموقع مع ذكر نتائج التنقيب:

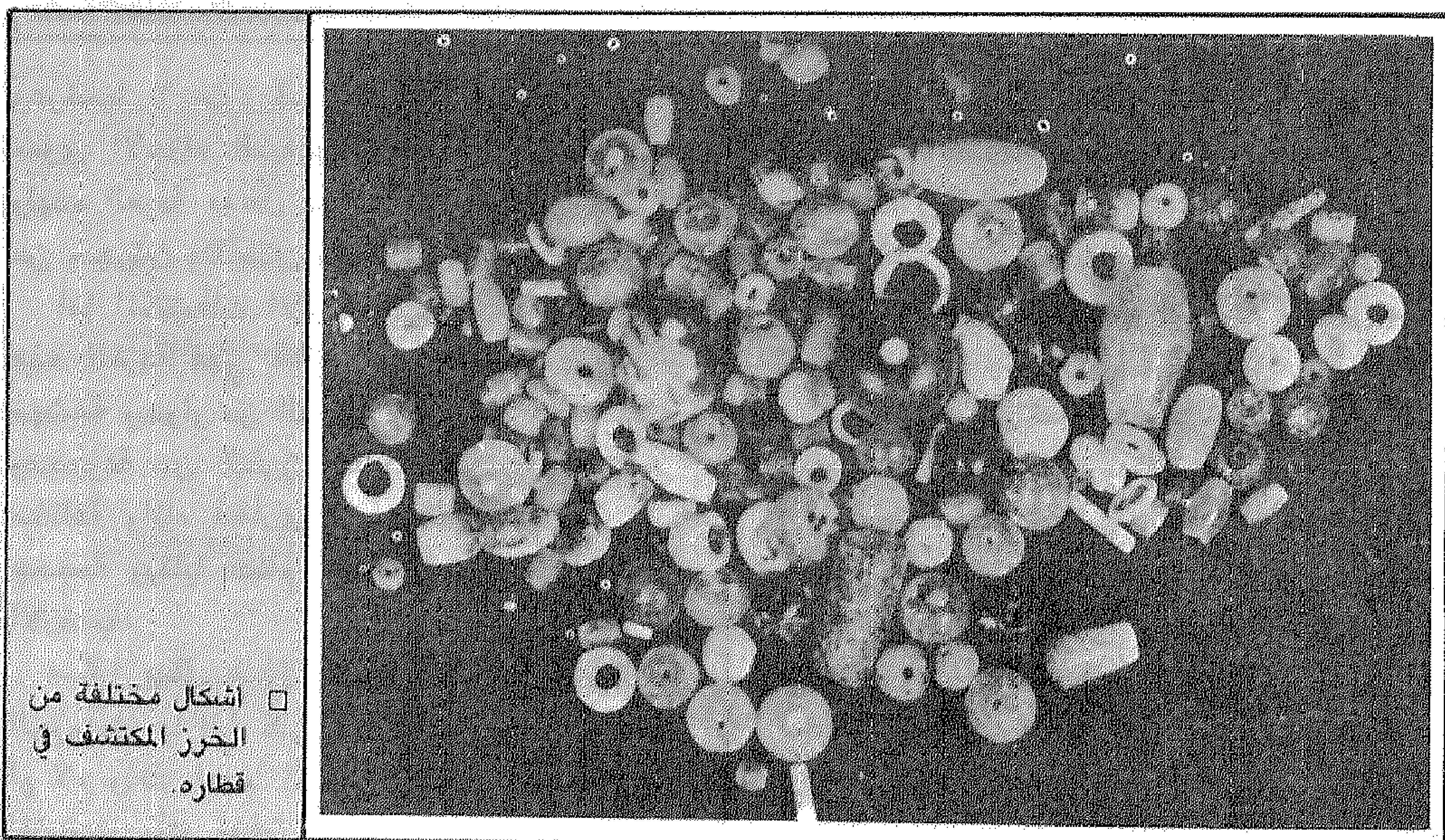
موقع قطارة عبارة عن تل بيضوي الشكل، ارتفاعه لا يزيد عن ثلاثة أمتار، جرت أعمال الحفر في أحد سفوحه ضمن منطقة طولها ٢١ مترا وعرضها ٧ أمتار. ورغم تلف معظم أجزاء هذا السفح نتيجة لحفر الآلات الميكانيكية فقد كشف عن لقى أثرية عديدة مبعثرة بين الأنقاض التي خلفتها هذه الآلات. وتشمل هذه اللقى عددا كبيرا من السيوف النحاسية أو البرونزية ومجموعة كبيرة من أدوات الزينة كخرز العقيق والكريستان والحجر والعظم، وهناك نوع آخرا من الخرز عمل من حجر طباشيري بأشكال كروية أو بصلية أو برميلية غلف فيما بعد بصفائح رقيقة من الذهب، إذ يبدو أن خرز

الذهب هذه كانت تكون قلادة ذهبية واحدة. أما الأواني الحجرية والفخارية فقد عثر على قسم منها بأشكال كاملة في حين عثر على قسم من أواني أخرى مهشمة. تمتاز هذه الأواني بكونها منقوشة بأشكال هندسية محززة على غرار أواني هيلي الحجرية. ومن أهم المكتشفات قطعة فريدة تمثل أداة للزينة أو دلاية من الذهب عملت بشكل ثور. مثل هذا الثور بشكل بارز حيث أجاد الفنان في إبراز عضلاته القوية ويظهر في الجانب المقعر من هذه القطعة ثقبان كانا يستعملان للتعليق.

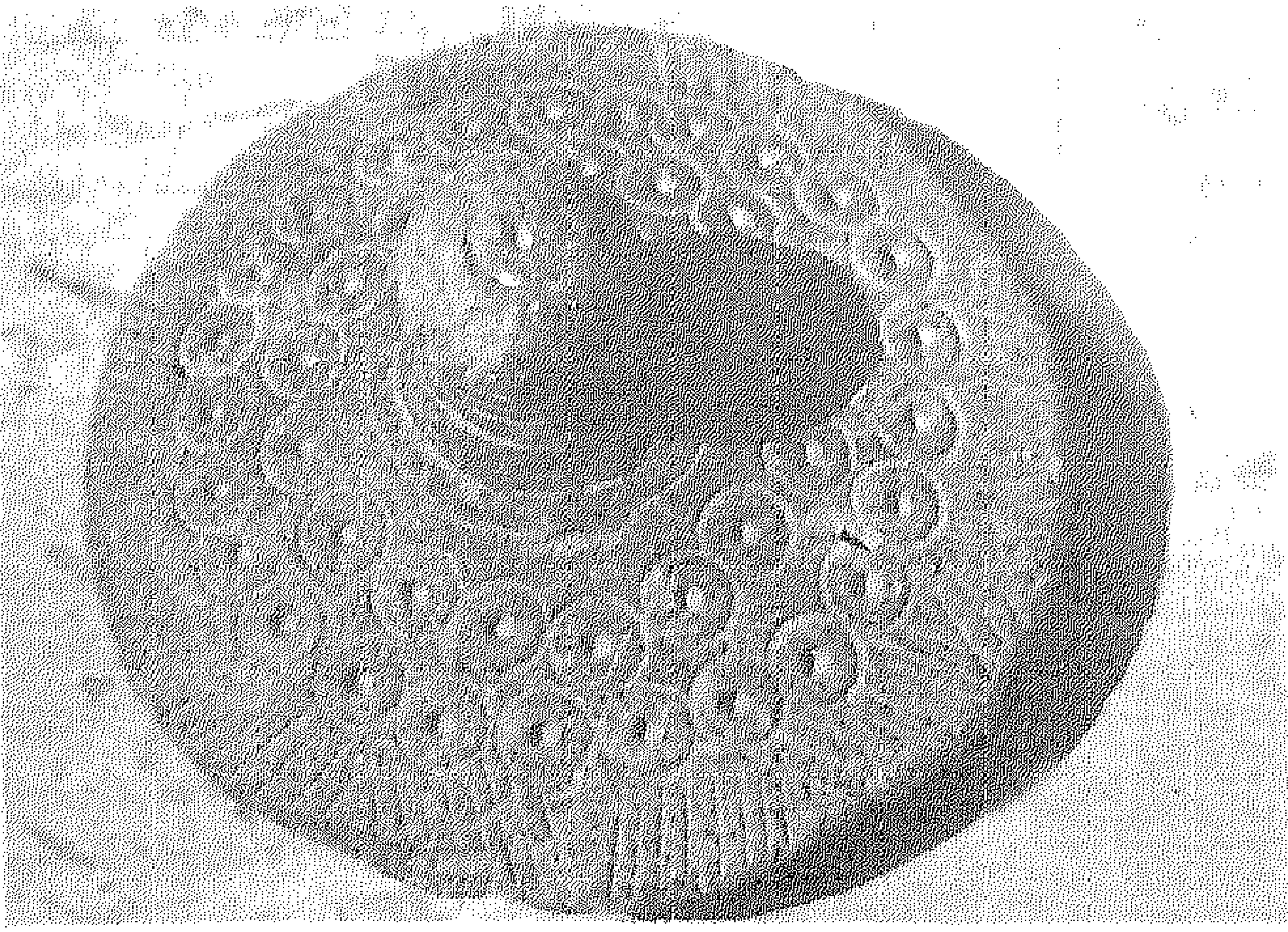
ونتيجة للخراب الكبير الذي أصاب هذا الجزء من الموقع فلم يعثر على أية بقايا معمارية عدا بعض الأحجار المتناثرة. لذلك فتح جزء أقل ضررا حيث ظهرت فيه أسس حجرية من ثلاثة صفوف تشكل غرفة مستطيلة الشكل (شرق — غرب) طولها المكشوف لحد الآن يبلغ ٩,٧٠م



□ دلاية من الذهب بشكل ثور من موقع قطارة — العين. (الألف الثالث ق. م).

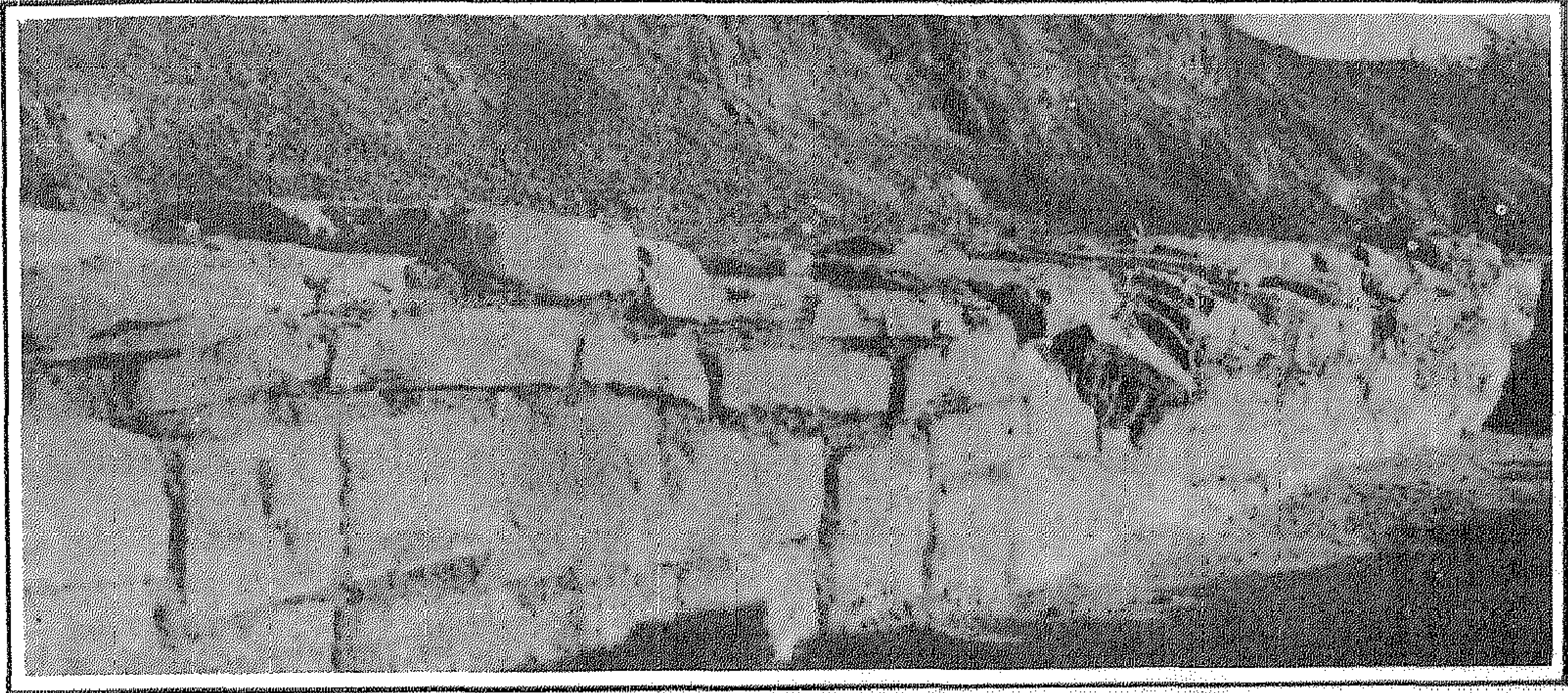


□ أشكال مختلفة من الخرز المكتشف في قطاره.



□ غطاء ستيتايت مزين بصفين من الدوائر وحزوز متجاورة من موقع قطارة ـــ العين (الألف الثالث ق. م.).

□ احد جدران غرفة قطارة ـــ العين، الأحجار السفلى منحوتة ومنقولة من مدافن هيلي على الأغلب.



وعرضها ٢ متر. أما جدرانها فلم يتبق منها سوى الأجزاء السفلى بارتفاع ٥٠ سنتمترا ولهذه الغرفة مدخل عرضه ٨٥ سنتمترا يتكون من حجرتين متقابلتين قطعتا بشكل جيد.

اما المكتشفات الأثرية التي عثر عليها داخل هذه الغرفة فهي قطع من أسلحة برونزية مهشمة وسوار من البرونز وجرة فخارية صغيرة ومجموعة من الخرز المعمول بأشكال ومواد مختلفة واناء فخاري أسود اللون إضافة إلى جمجمة وبقايا عظام آدمية وجدت مبعثرة على الأرضية.

ماذا يمثل هذا البناء؟ لا يمكن حاليا الجزم في ما إذا كان هذا البناء يمثل مدفنا أم لا، وذلك لعدم اكتمال التنقيب فيه، وإذا افترضنا بأنه مدفن فسيكون نوعا جديدا من مدافن غير معروفة سابقا. إن كل ما يمكن قوله في الوقت الحاضر وجود تشابه في الأحجار المستعملة في بناء الأجزاء السفلى من غرفة قطاره مع أحجار مدافن هيلي، حيث استعملت في كلا الموقعين الأحجار المهذبة والمقطوعة بشكل جيد. وربما تكون أحجار غرفة قطاره منقولة من مدافن هيلي الحجرية وإن صح ذلك فلابد أن تكون أبنية قطاره أحدث بقليل من مدافن هيلي.

أما من حيث المكتشفات فهي الأخرى تشابه مكتشفات هيلي لحد كبير فأواني الحجر (الستيتايت) المكتشفة في قطارة لم تكن غريبة لكونها معروفة في مدافن هيلي التي تعود إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ٢٧٠٠ ــ ٢٥٠٠ق. م.

●

النص الرسمي الكامل للاتفاق اللبناني - الإسرائيلي

فيما يلي النص الرسمي للاتفاق بين لبنان واسرائيل الذي جرى توقيعه يوم الثلاثاء في ١٧ ايار ١٩٨٣ كما وزع على النواب.

اتفاق بين حكومة الجمهورية اللبنانية وحكومة دولة اسرائيل.

إن حكومة جمهورية لبنان وحكومة دولة اسرائيل.

إذ تستذكر ان اهمية وتعزيز السلام الدولي المرتكز على الحرية والمساواة والعدالة واحترام حقوق الإنسان الاساسية.

انطلاقاً من إيمانها بأهداف شرعة الامم المتحدة ومبادئها وإقرارا بحقهماوواجبهما في العيش بسلام مع جميع الدول وبعضها مع البعض داخل حدود آمنة ومعترف بها.

اتفاقا منهما على إعلان إنهاء حال الحرب بينهما.

رغبة منهما في اقامة أمن دائم لبلديهما وفي تلافي التهديد واستعمال القوة في ما بينهما.

رغبة منهما في انشاء علاقاتهما المتبادلة بالطريقة المنصوص عليها في هذا الاتفاق.

وبعدما زودتا مندوبيهما المفوضين الموقعين ادناه بصلاحيات مطلقة لتوقيع هذا الاتفاق، بحضور ممثل الولايات المتحدة الاميركية.

اتفقتا على الاحكام الآتية:

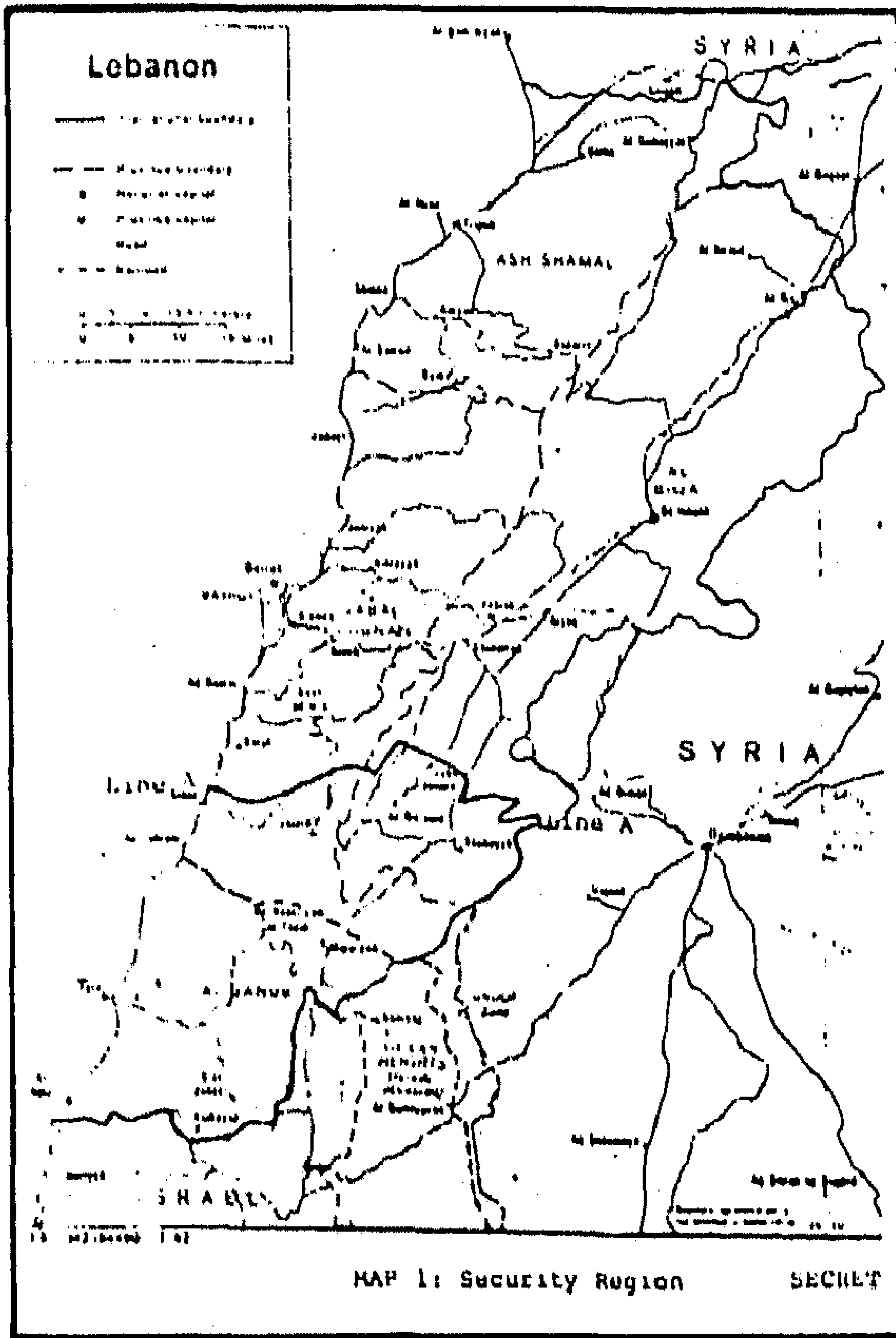
المادة ١

١ ــ يتعهد كل من الفريقين احترام سيادة الفريق الآخر واستقلاله السياسي وسلامة اراضيه. وهما يعتبران الحدود الدولية القائمة بين لبنان واسرائيل غير قابلة للانتهاك.

٢ ــ يؤكد الفريقان إن حال الحرب بين لبنان واسرائيل انهيت ولم تعد قائمة.

٣ ــ عملا بأحكام الفقرتين الاولى والثانية، تتعهد اسرائيل أن تسحب قواتها المسلحة من لبنان وفقا لملحق هذا الاتفاق.

(*) نشر في جريدة النهار ــ الاثنين ١٩٨٣/٥/١٦.



□ خريطة المنطقة الامنية كما وردت في ملحق الاتفاق.

المادة ٢

يتعهد الفريقان، مسترشدين بمبادىء ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي، تسوية خلافاتهما بالوسائل السلمية وبطريقة تؤدي إلى تعزيز العدالة والسلام والأمن الدوليين.

المادة ٣

في سبيل توفير الحد الأقصى من الأمن للبنان واسرائيل، يقيم الفريقان ويطبقان ترتيبات امنية، بما في ذلك انشاء منطقة امنية، وفقا لما هو منصوص عليه في ملحق هذا الاتفاق.

المادة ٤

١ ــ لا تستعمل أراضي أي من الفريقين قاعدة لنشاط عدائي أو ارهابي ضد الفريق الآخر، أو ضد شعبه.

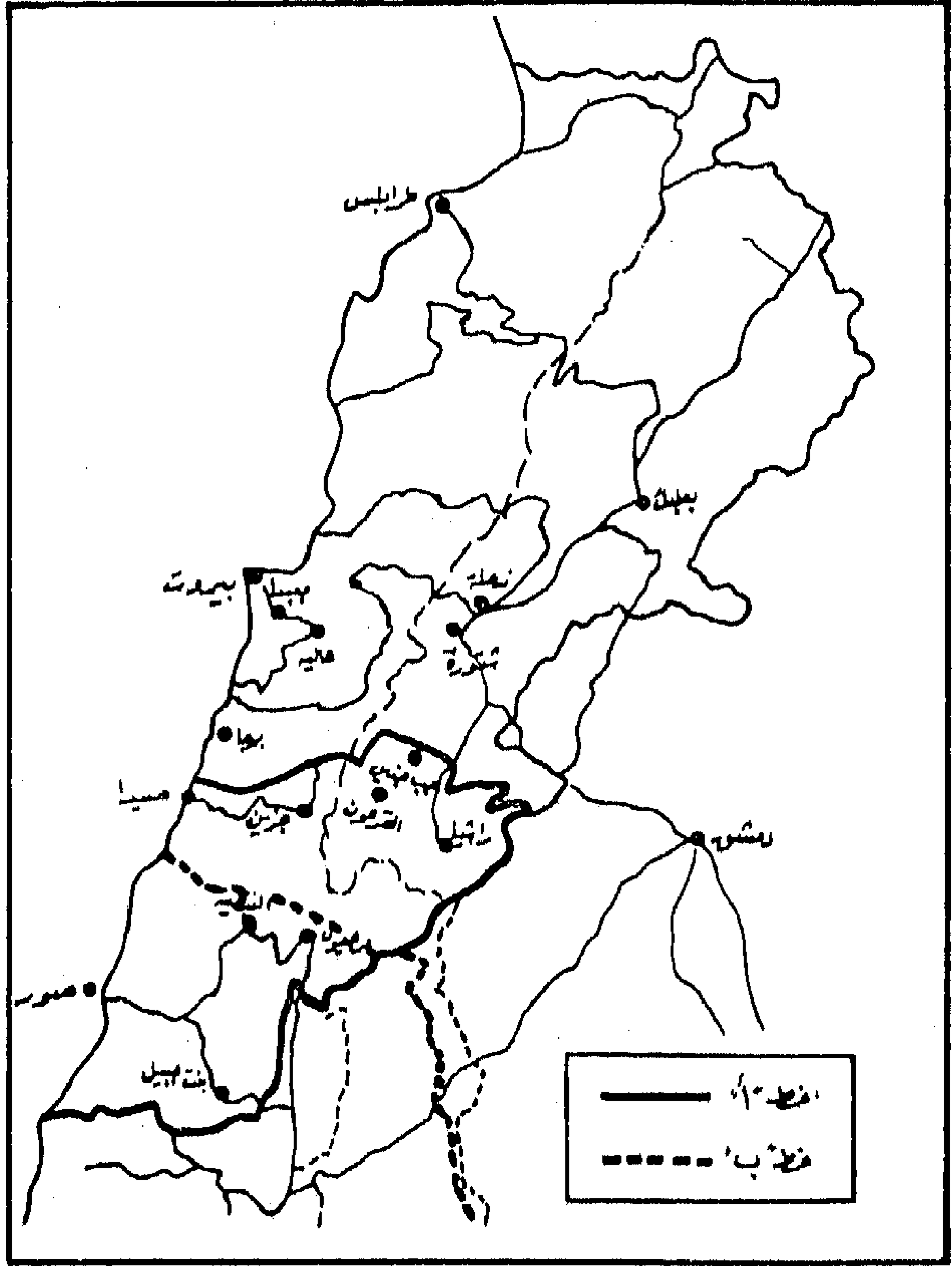
٢ ــ يحول كل فريق دون وجود أو انشاء قوات غير نظامية أو عصابات مسلحة، أو منظمات أو قواعد أو مكاتب أو هيكليات تشمل اهدافها او غاياتها الاغارة على أراضي الفريق الآخر او القيام بأي عمل ارهابي داخل هذه الاراضي، او اي نشاط يهدف إلى أن يهدد او يعرض للخطر أمن الفريق الآخر او سلامة سكانه. لهذه الغاية، تصبح لاغية وغير ملزمة جميع الاتفاقات والترتيبات التي تخول، ضمن اراضي اي من الفريقين، وجود وعمل عناصر معادية للفريق الآخر.

٣ ــ مع الاحتفاظ بحقه الطبيعي في الدفاع عن النفس وفقا للقانون الدولي، يمتنع كل من الفريقين:

(أ) عن القيام او الحث أو المساعدة او الاشتراك في تهديدات أو أعمال حربية أو هدامة، أو تحريضية أو عدوانية ضد الفريق الآخر، او ضد سكانه او ممتلكاته، سواء داخل اراضيه أو انطلاقا منها، أو داخل أراضي الفريق الآخر.

(ب) عن استعمال اراضي الفريق الآخر لشن هجوم عسكري ضد اراضي دولة ثالثة.

(ج) عن التدخل في الشؤون الداخلية او الخارجية للفريق الآخر.



□ **المنطقة الامنية.. مترجمة.**

٤ ــ يتعهد كل من الفريقين اتخاذ التدابير الوقائية والاجراءات القانونية في حق الاشخاص والمجموعات التي ترتكب أعمالاً مخالفة لاحكام هذه المادة.

المادة ٥

انسجاماً منهما مع انهاء حال الحرب يمتنع كل فريق، في إطار أنظمته الدستورية، عن أي شكل من الدعاية المعادية للفريق الآخر.

المادة ٦

يحول كل فريق دون أن تدخل أرضه أو تنتشر فيها أو تعبرها، بما في ذلك مجاله الجوي وبحره الاقليمي، في ما عدا حق العبور البري وفقاً للقانون الدولي، قوات عسكرية أو معدات أو تجهيزات عسكرية لاية دولة معادية للفريق الآخر.

المادة ٧

باستثناء ما هو منصوص عليه في هذا الاتفاق، لا يكون هناك ما يحول دون أن يجري بناء على طلب الحكومة اللبنانية وموافقتها، نشر قوات دولية على الأرض اللبنانية، لمؤازرة الحكومة اللبنانية في تثبيت سلطتها. ويتم اختيار الدول الجديدة التي تساهم في المستقبل في هذه القوات من بين الدول التي تقيم علاقات ديبلوماسية مع الفريقين.

المادة ٨

١ ــ أ ــ حالما يسري مفعول الاتفاق، ينشىء الفريقان لجنة اتصال مشتركة تبدأ ممارسة وظائفها من وقت انشائها وتكون للولايات المتحدة فيها صفة المشارك. يعهد إلى هذه اللجنة في الاشراف على تنفيذ هذا الاتفاق في جميع جوانبه. وفي الشؤون التي تدخل فيها الترتيبات الامنية، تعالج هذه اللجنة المسائل غير المفصول فيها والمحالة عليها من قبل لجنة الترتيبات الأمنية المنشأة بموجب الفقرة (ج) أدناه. تتخذ اللجنة قراراتها بالاجماع.

ب ــ تهتم لجنة الاتصال المشتركة في صورة متواصلة بتطور العلاقات المتبادلة بين لبنان واسرائيل، بما في ذلك ضبط حركة البضائع والمنتجات والاشخاص، والمواصلات، الخ...

ج ـــ في اطار لجنة الاتصال المشتركة تنشأ لجنة الترتيبات الأمنية. تشكيلها ووظائفها محددة في ملحق هذا الاتفاق.

د ـــ يمكن انشاء لجان فرعية للجنة الاتصال المشتركة في لبنان واسرائيل مداورة.

هـ ـــ تجتمع لجنة الاتصال المشتركة في لبنان واسرائيل مداورة.

و ـــ لكل من الفريقين، إذا رغب في ذلك، وما لم يحصل اي اتفاق على تغيير الوضع القانوني، ان يقيم مكتب اتصال على أرض الفريق الآخر، لأجل القيام بالمهمات المذكورة أعلاه في إطار لجنة الاتصال المشتركة وللمؤازرة في تنفيذ هذا الاتفاق.

ز ـــ يكون على رأس اعضاء كل فريق في لجنة الاتصال المشتركة موظف حكومي كبير.

ح ـــ تكون جميع الشؤون الأخرى المتعلقة بمكاتب الاتصال هذه، وبموظفيها، وكذلك بالموظفين التابعين لاي من الفريقين والموجودين على ارض الفريق الآخر لسبب ذي صلة بتنفيذ هذا الاتفاق، موضوع بروتوكول يجري عقده بين الأفرقاء ضمن لجنة الاتصال المشتركة. في انتظار عقد هذا البروتوكول تعامل مكاتب الاتصال والموظفون المشار إليهم وفقا للاحكام المتصلة بهذا الموضوع الواردة في معاهدة البعثات الخاصة تاريخ ٨ كانون الأول ١٩٦٩، بما فيها الأحكام المتعلقة بالامتيازات والحصانات. ولا يلغي ما سبق أي تحفظات ممكنة للأفرقاء على تلك المعاهدة.

٢ ـــ خلال فترة الستة الاشهر التالية لانسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من لبنان وفقا للمادة الأولى من هذا الاتفاق،وبعد الاعادة المتزامنة لبسط السلطة الحكومية اللبنانية على طول الحدود الدولية بين لبنان واسرائيل، وفي ضوء انهاء حال الحرب، يشرع الفريقان، في اطار لجنة الاتصال المشتركة، في التفاوض، بنية حسنة، بغية التوصل إلى اتفاقات حول حركة السلع والمنتجات والاشخاص، وتنفيذها على أساس غير تمييزي.

المادة ٩

١ ـــ يتخذ كل من الفريقين، في مهلة لا تتعدى عاما واحدا من بدء سريان هذا الاتفاق، جميع الاجراءات اللازمة لالغاء المعاهدات والقوانين والانظمة التي تعتبر متعارضة مع هذا الاتفاق، وذلك وفقا للأصول الدستورية العائدة إلى كل من الفريقين وتقيدا بها.

٢ ـــ يتعهد الفريقان عدم تنفيذ أي التزامات راهنة تتعارض مع هذا الاتفاق، كذلك عدم الدخول في اي التزام وعدم تبني قوانين أو أنظمة تتعارض مع هذا الاتفاق.

المادة ١٠

١ ـــ يتم إبرام هذا الاتفاق من قبل الفريقين طبقا للأصول الدستورية لدى كل منهما، ويسري مفعولها من تاريخ تبادل وثائق الابرام، وتحل محل الاتفاقات السابقة بين لبنان واسرائيل.

٢ ـــ كل المرفقات بهذا الاتفاق (اي الملحق، والذيل، والخريطة، والمحاضر التفسيرية المتفق عليها) تعتبر جزءا من الاتفاق لا يتجزأ.

٣ ـــ يمكن تعديل هذا الاتفاق أو تنقيحه او استبداله برضى الفريقين.

المادة ١١

١ ـــ الخلافات الناجمة عن تفسير هذا الاتفاق أو تطبيقه تجري تسويتها بطريقة التفاوض ضمن لجنة الاتصال المشتركة. وكل خلاف من هذا النوع يتعذر تسويته بهذه الطريقة يجري اخضاعه لاجراء متفق عليه بغية الفصل فيه في صورة نهائية.

٢ ـــ على رغم أحكام الفقرة الأولى، يفصل في اطار لجنة الترتيبات الأمنية في الخلافات الناجمة عن تفسير الملحق او تطبيقه، وإذا تعذر ذلك فتحال هذه الخلافات، بناء على طلب أحد الفريقين، على لجنة الاتصال المشتركة لحلها بالتفاوض.

المادة ١٢

يبلغ هذا الاتفاق إلى أمانة الأمم المتحدة لتسجيلها وفقا لأحكام المادة ١٠٢ من ميثاق الأمم المتحدة.

وضع هذا الاتفاق في خلدة وكريات شمونة في اليوم.... من أيار ١٩٨٣، على ثلاث نسخ بأربعة نصوص رسمية باللغات العربية والعبرية والفرنسية والانكليزية. في حال اي اختلاف في التفسير يعتمد على حد سواء النصان الانكليزي والفرنسي.

عن حكومة الجمهورية اللبنانية

عن حكومة دولة اسرائيل

بشهادة عن الولايات المتحدة الأميركية.

ملحق

الترتيبات الأمنية

١ ـــ المنطقةالأمنية:

أ ـــ تقام منطقة أمنية تتعهد الحكومة اللبنانية أن تنفذ ضمنها الترتيبات الأمنية المتفق عليها بموجب هذا الملحق.

ب ـــ يحد المنطقة الامنية وفقا لما هو مرسوم على الخريطة المرفقة بهذا الملحق من الشمال خط يشكل «الخط أ» على الخريطة المرفقة ومن الجنوب والشرق خط الحدود اللبنانية الدولية.

٢ ـــ الترتيبات الامنية:

تتخذ السلطات اللبنانية تدابير امنية خاصة لكشف النشاطات العدائية ومنعها، كما لكشف ومنع ادخال او تحرك المسلحين غير المسموح لهم وكذلك ادخال أو تحرك التجهيزات العسكرية غير المسموح بها في المنطقة الأمنية او عبرها. في ما عدا المستثنيات المنصوص عليها، تطبق على حد سواء في المنطقة الامنية كاملة الترتيبات الأمنية الآتية:

أ ـــ القوات والعناصر المسلحة المنظمة الوحيدة المسموح بها في المنطقة الامنية هي الجيش اللبناني، والشرطة اللبنانية، قوى الأمن الداخلي والقوات اللبنانية المساعدة (الانصار) المنشأة تحت سلطة الحكومة اللبنانية المطلقة، وذلك باستثناء ما هو مبين في مكان آخر من هذا الملحق.

للجنة الترتيبات الامنية أن توافق على أن تتمركز في المنطقة الأمنية عناصر مسلحة شرعية لبنانية أخرى مشابهة للانصار.

ب ـــ لا حدود عددية لقوى الشرطة اللبنانية وقوات الأمن الداخلي والانصار المتمركزة في المنطقة الأمنية. وتزود هذه القوات والعناصر بالأسلحة الأوتوماتيكية الخفيفة والفردية، كما تجهز قوى الأمن الداخلي أيضاً بمصفحات الاستطلاع أو مصفحات المغاوير وفقا لما هو مبين في الذيل.

ج ـــ يتمركز في المنطقة الامنية لواءان اثنان من الجيش اللبناني، يكون أحدهما لواء اقليميا منطقة عمله هي البقعة الممتدة من الحدود اللبنانية ـــ الاسرائيلية حتى «الخط ب» المرسوم على الخريطة المرفقة. ويكون اللواء الثاني نظاميا اعتياديا متمركزا في البقعة الممتدة من «الخط ب» حتى «الخط أ». ولهذين اللواءين أن يحملا الأسلحة العضوية والتجهيزات المدرجة في الذيل. ويمكن تبعا لتنسيق تضع اصوله لجنة الترتيبات الأمنية، نشر وحدات إضافية، مجهزة طبقا لذيل هذا الاتفاق، في المنطقة الأمنية لأغراض تدريبية، بما في ذلك تدريب المجندين، أو في الحالات العملانية الطارئة.

د ـــ تدمج الوحدات المحلية القائمة حاليا، كما هي، في الجيش اللبناني، وفقا لانظمة الجيش اللبناني المرعية الاجراء. كما يدمج الحرس المدني المحلي القائم حاليا في «الانصار» ويمنح الصفة المناسبة، بموجب القوانين اللبنانية، لتمكينه من متابعة حراسة القرى في المنطقة الأمنية. تبدأ عملية بسط السلطة اللبنانية على هذه الوحدات وعلى الحرس المدني، تحت إشراف اللجنة، فور بدء سريان مفعول الاتفاق، وتنتهي قبل اتمام الانسحاب الاسرائيلي من لبنان.

هـ ـــ لوحدات الجيش اللبناني أن تحتفظ، ضمن المنطقة الامنية، بأسلحتها العضوية المضادة للطائرات، وفقا لما هو مبين في الذيل، أما خارج المنطقة الأمنية فيمكن لبنان أن ينشر صواريخ الدفاع الجوي الكتفية وتلك ذات المدى المنخفض والمتوسط. للجنة الترتيبات الأمنية، بعد انقضاء فترة ثلاث سنوات من تاريخ سريان مفعول هذا الاتفاق، أن تعيد النظر، بناء على طلب أي من الفريقين، في الترتيب المتعلق بالبقعة الواقعة خارج المنطقة الأمنية.

و ـــ التجهيزات الألكترونية العسكرية في المنطقة الأمنية هي تلك المبينة في ذيل هذا الاتفاق. ويخضع نشر الرادارات الأرضية ضمن عشرة كيلومترات من الحدود اللبنانية ـــ الاسرائيلية لموافقة لجنة الترتيبات الأمنية، أما في مجمل المنطقة الامنية فتنشر هذه الرادارات بحيث لا يتجاوز قطاع استكشافها الحدود اللبنانية ـــ الاسرائيلية. لا يطبق هذا الشرط على الرادارات الخاصة بمراقبة الطيران المدني أو النقل الجوي.

ز ـــ يسري الشرط المذكور في الفقرة (هـ) على الصواريخ المضادة للطائرات المحمولة على مراكب القوات البحرية اللبنانية. ضمن المنطقة الأمنية، للبنان أن ينشر وحدات بحرية، وأن يقيم ويصون القواعد البحرية أو الانشاءات الساحلية الأخرى التي يقتضيها إنجاز المهمة البحرية. تحدد انشاءات الشواطىء في المنطقة الأمنية وفقا لما هو مبين في ذيل هذا الاتفاق.

ح ـــ تلافيا لامكان وقوع حوادث ناجمة عن التباس في الهوية، تعطي السلطات العسكرية اللبنانية اشعاراً مسبقا بجميع الرحلات الجوية من أي نوع كانت فوق المنطقة الأمنية، وذلك وفقا لأصول تضعها لجنة الترتيبات

الأمنية، لا تشترط الموافقة على هذه الرحلات.

ط ــ (١) ان القوات والأسلحة والتجهيزات العسكرية التي يمكن ادخالها، أو مركزتها أو تخزينها في المنطقة الأمنية أو نقلها عبر هذه المنطقة هي تلك المذكورة في هذا الملحق وذيله.

(٢) لا يمكن إقامة أو الاحتفاظ بانشاءات مساعدة أو تجهيزات أو هيكليات في المنطقة الأمنية من شأنها ان تساعد على إعداد اسلحة غير مسموح بها بموجب هذا الملحق أو ذيله.

(٣) يعمل بهذا التحديد ايضا حيثما يكون في هذا الملحق شرط يتعلق ببقع خارج المنطقة الأمنية.

٣ ــ لجنة الترتيبات الأمنية:

أ ــ تنشأ لجنة ترتيبات أمنية في إطار لجنة الاتصال المشتركة.

ب ــ تتألف لجنة الترتيبات الأمنية من مندوبين لبنانيين واسرائيليين متساوين في العدد برئاسة ضباط قادة. يشترك مندوب الولايات المتحدة في اجتماعات اللجنة بناء على طلب أي من الفريقين.

تتخذ قرارات لجنة الترتيبات الأمنية باتفاق الأفرقاء.

ج ــ تشرف لجنة الترتيبات الأمنية على تنفيذ الترتيبات الأمنية إضافة إلى البرنامج الزمني والصيغ وسائر التدابير المتعلقة بالانسحابات المبينة في الاتفاق وفي هذا الملحق.

لهذه الغاية، وباتفاق الأفرقاء، تتولى اللجنة:

(١) الاشراف على تنفيذ تعهدات الأفرقاء طبقا للاتفاق ولهذا الملحق.

(٢) انشاء اللجان المشتركة للتحقق وإداراتها كما هو مفصل ادناه.

(٣) الاهتمام والسعي لحل أي مشكلة ناجمة عن تنفيذ الترتيبات الأمنية الواردة في الاتفاق وفي هذا الملحق، ومناقشة أي انتهاك ترفع اللجان المشتركة للتحقق تقريرا به إليها، أو اي شكوى يقدمها أحد الأفرقاء في صدد انتهاك ما.

د ــ تعالج لجنة الترتيبات الأمنية أية شكوى تقدم إليها في فترة لا تتعدى ٢٤ ساعة من وقت تقديمها.

هـ ــ تعقد لجنة الترتيبات الأمنية اجتماعاتها مرة على الأقل كل اسبوعين في لبنان واسرائيل مداورة. في حال طلب أحد الفريقين عقد اجتماع خاص، فإن الاجتماع يعقد خلال ٢٤ ساعة من الطلب. ينعقد اول اجتماع في خلال ٤٨ ساعة من بدء سريان مفعول الاتفاق.

و ــ اللجان المشتركة للتحقق:

(١) تنشىء لجنة الترتيبات الأمنية لجانا مشتركة للتحقق (لبنان ــ اسرائيل) تكون تحت أمرتها وتتألف من عدد متساو من الممثلين عن الفريقين.

(٢) تتحقق اللجان في صورة دورية من تنفيذ احكام الترتيبات الأمنية. ترفع اللجان فوراً إلى لجنة الترتيبات الأمنية تقريرا بأي انتهاك مؤكد كما تتثبت من أن الانتهاك قد صحح.

(٣) عندما يطلب منها ذلك، تكلف لجنة الترتيبات الأمنية، لجنة تحقق مشتركة، تفحص الترتيبات الأمنية الحدودية المتخذة طبقا للمادة الرابعة من هذا الاتفاق، في الجانب الاسرائيلي من الحدود الدولية.

(٤) تتمتع اللجان المشتركة للتحقق بحرية التنقل على الأرض وفي البحر والجو حسب الضرورة اللازمة لانجاز مهماتها ضمن المنطقة الأمنية.

(٥) تحدد لجنة الترتيبات الأمنية جميع الترتيبات التقنية والادارية المتعلقة بتأدية لجان التحقق المشتركة لوظائفها، بما في ذلك أصول عملها وعددها وتشغيلها وأسلحتها، وتجهيزاتها.

(٦) لدى تقديم تقريرا إلى لأنة الترتيبات الأمنية أو لدى تثبيت لجان التحقق المشتركة من صحة شكوى أحد الفريقين، يقوم الفريق المعني فورا وعلى أية حال في مدة أقصاها ٢٤ ساعة من تاريخ التقرير أو التثبت، بتصحيح المخالفة، وبابلاغ ذلك فوراً إلى لجنة الترتيبات الأمنية. حالما يصلها الابلاغ، تتأكد لجان التحقق المشتركة من أن المخالفة صححت.

(٧) يتم إنهاء مهمة لجان التحقق المشتركة في مهلة تسعين يوما تلي اشعارا بذلك يتقدم به اي من الفريقين في اي وقت يختاره بعد مضي سنتين على بد سريان هذا الاتفاق. توضع قبل هذا الانهاء ترتيبات بديلة للتحقق بواسطة لجنة الاتصال المشتركة أن تقرر في أي وقت أنه لم يعد هناك حاجة إلى مثل تلك الترتيبات.

ز ــ تعمل لجنة الترتيبات الأمنية على إقامة اتصالات عملية وسريعة بين الفريقين على طول الحدود، وذلك تفاديا للحوادث عبر التنسيق بين القوات الموجودة على الطبيعة.

٤ ــ من المتفاهم عليه أن الحكومة اللبنانية قد تطلب من مجلس الأمن في الأمم المتحدة اتخاذ التدابير

المناسبة لوضع وحدة من «اليونيفيل» في منطقة صيدا، وذلك لمساندة الحكومة اللبنانية والقوات اللبنانية في تثبيت سلطتها، وتأمين الحماية اللازمة في مناطق المخيمات الفلسطينية. طوال مدة ١٢ شهرا، يكون من حق الوحدة المتمركزة في منطقة صيدا، أن ترسل، بناء على طلب الحكومة اللبنانية وبعد ابلاغ لجنة الترتيبات الأمنية، مجموعات من عناصرها لتفقد ومراقبة مناطق المخيمات الفلسطينية في جوار صيدا وصور. وتبقىٰ السلطات اللبنانية مسؤولة وحدها عن الأمن ووظائف الشرطة. كما تعمل الحكومة اللبنانية على تطبيق أحكام هذا الملحق في صورة كاملة، في هذه المناطق.

٥ ــ بعد انقضاء ثلاثة أشهر على انجاز انسحاب جميع القوات الاسرائيلية من لبنان، تجري لجنة الترتيبات الأمنية تقويما شاملا لملاءمة الترتيبات المبينة في هذا الملحق، بقصد تحسينها.

٦ ــ انسحاب القوات الاسرائيلية:

أ ــ في خلال مهلة تراوح بين ثمانية أسابيع واثني عشر اسبوعا من سريان مفعول الاتفاق، تكون جميع القوات الاسرائيلية قد انسحبت من لبنان، انسجاما مع هدف لبنان الرامي إلى انسحاب جميع القوات الخارجية من لبنان.

ب ــ تؤمن القوات المسلحة اللبنانية وقوات الدفاع الاسرائيلية اتصالا مستمرا في أثناء الانسحاب وتتبادلان جميع المعلومات عبر لجنة الترتيبات الأمنية، كما تتعاون قوات الدفاع الاسرائيلية في أثناء انسحابها مع القوات المسلحة اللبنانية وذلك لتسهيل عودة وتوطيد سلطة الحكومة اللبنانية فيما القوات المسلحة الاسرائيلية تجري انسحابها.

المحاضر التفسيرية المتفق عليها

المادة الرابعة: الفقرة ٤

يؤكد لبنان أن القانون اللبناني يتضمن كل التدابير الضرورية لتأمين تطبيق هذه الفقرة.

المادة السادسة:

من دون المساس بما ينص عليه الملحق في صدد المنطقة الأمنية، من المتفق عليه أن الطائرات العسكرية غير المقاتلة التابعة لدولة أجنبية، التي تقوم بمهمة غير عسكرية، لن تعتبر من التجهيزات العسكرية.

المادة السادسة:

من المتفق عليه أنه، في حال قيام أي اختلاف حول ما إذا كانت تعتبر دولة معينة «معادية»، وفق ما ورد في المادة السادسة من الاتفاق، فان المحظورات المفروضة في المادة السادسة تطبق على أي دولة ليست لها علاقات ديبلوماسية مع الفريقين.

المادة الثامنة: (أ ــ ب)

من المتفق عليه أن لجنة الاتصال المشتركة، ستبدأ، بناء على طلب من أي من الفريقين، في بحث مسألة حقوق الملكية التي يطالب بها مواطنو أي من الفريقين في أراضي الفريق الآخر.

المادة الثامنة: (أ ــ ح)

من المتفاهم عليه أن على كل فريق أن يقدم اثباتات للفريق الآخر حول ما إذا كان أحد عناصره يقوم بمهمة رسمية أو يؤدي وظائف رسمية في أي وقت معين.

المادة الثامنة: (٢)

من المتفق عليه أن المفاوضات ستختتم بالسرعة الممكنة.

المادة التاسعة:

من المتفاهم عليه أن هذه الأحكام ستطبق، مع تغيير ما يتوجب تغييره، على الاتفاقات التي تتم بين الفريقين وفقا للمادة الثامنة، الفقرة الثانية.

المادة الحادية عشرة:

من المتفق عليه أن يطلب الفريقان من الولايات المتحدة الأميركية أن تساعد على الحل السريع للخلافات الناجمة عن تفسير هذا الاتفاق أو تطبيقه.

المادة الحادية عشرة:

من المتفق عليه أن عبارة «اجراء متفق عليه للفصل في صورة نهائية» معناها الدور المتفق عليه الذي يتولاه فريق ثالث والذي يؤدي إلى حل للخلاف يكون ملزما للأفرقاء.

الملحق

الفقرة (١ ــ ب)

من المتفق عليه انه في ذلك الجزء من جبل الباروك، المشار إليه على الخريطة المرفقة بالملحق، لا تقام سوى انشاءات المواصلات اللاسلكية المدنية، كالمعدات التلفزيونية والرادارات الخاصة بمراقبة الملاحة الجوية.

تطبق على هذه المنطقة القيود نفسها المطبقة على العتاد والأسلحة المفصلة في الذيل المرفق بالملحق.

الفقرة (٢ ــ د)

تؤكد الحكومة اللبنانية قرارها أن يحتوي اللواء الاقليمي، الذي انشىء في ٦ نيسان ١٩٨٣ والمذكور في الفقرة الفرعية «ج»، الوحدات المحلية القائمة التي شكلت في حجم قريب من حجم لواء، إضافة إلى عديد من الجيش اللبناني مستخرج من سكان المنطقة الامنية، وذلك بما يتفق مع أنظمة الجيش اللبناني المرعية الاجراء. يتولى هذا اللواء الاقليمي شؤون الأمن في المنطقة الممتدة من الحدود اللبنانية ــ الاسرائيلية إلى الخط ب» المرسوم على الخريطة المرفقة بالملحق. وتخضع لسلطة قائد اللواء كل القوات والعناصر المسلحة اللبنانية والانصار. يعاد النظر في تنظيم الوحدات المحلية القائمة، تحت اشراف لجنة الترتيبات الامنية بما يتفق مع الجدول التنظيمي للواء الاقليمي الوارد في الملحق.

الفقرة (٢ ــ ز)

١ ــ يستمر لبنان في فرض الحظر القائم حاليا على الملاحة المدنية في منطقة تمتد من ٣٣ درجة و ١٥ دقيقة شمالا و ٣٥ درجة و ١٢,٦ دقيقة شرقا إلى ٣٣ درجة و ١٥ دقيقة شمالا و ٣٥ درجة و ٨,٢ دقائق شرقا، وإلى ٣٣ درجة و ٥,٥ دقائق شمالا و ٣٥ درجة و ٦,١ دقائق شرقا، وإلى ٣٣ درجة و ٥,٥ دقائق شمالا و ٣٥ درجة و ١,٤ دقيقة شرقا.

٢ ــ بغية تفادي الاشكالات تكون هناك اتصالات مستمرة بين القيادة الجنوبية للبحرية اللبنانية والبحرية الاسرائيلية لتبادل المعلومات حول السفن المشتبه فيها. وتحدد لجنة الترتيبات الامنية اسلوب تبادل هذه المعلومات.

٣ ــ تتدخل البحرية اللبنانية بسرعة للتأكد من هوية تلك السفن المشتبه فيها. وفي الحالات الطارئة، تتم اتصالات مباشرة بين القطع البحرية.

الفقرة (٣ ــ و)

١ ــ تقوم لجان التحقق المشتركة بمهماتها وهي على بينة من أن المسؤولية عن العمليات العسكرية وعمليات الشرطة وسائر عمليات المراقبة والتفتيش هي من صلاحيات القوات المسلحة اللبنانية والشرطة وسائر المؤسسات اللبنانية المختصة، وليست من صلاحيات لجان التحقق المشتركة.

٢ ــ على لجان التحقق المشتركة إذا كشفت عن دلائل وجود مخالفة أو احتمال مخالفة للترتيبات المتفق عليها، أن تتصل بالسلطات اللبنانية عبر «مراكز التحقق من الترتيبات الأمنية» المنشأة وفقا للمحضر التفسيري للفقرة الثالثة (و ــ ٥) من الملحق لتأمين أن تتخذ السلطات اللبنانية في الوقت المناسب التدبير الملائم لتفادي المخالفة وقمعها.

تتأكد لجان التحقيق من أن الاجراءات المتخذة قد صححت المخالفة وتقدم تقريرا بالنتائج إلى لجنة الترتيبات الأمنية.

٣ ــ تبدأ لجان التحقق المشتركة نشاطات محدودة في أقرب وقت ممكن بعد بدء العمل بالاتفاق بغية مراقبة تنفيذ ترتيبات انسحاب جيش الدفاع الاسرائيلي. أما سائر نشاطات التحقق والمراقبة التي يسمح الملحق للجان بممارستها، فإنها تبدأ مع الانسحاب النهائي لجيش الدفاع الاسرائيلي.

٤ ــ تقوم لجان التحقق المشتركة بتحققات يومية إذا دعت الحاجة، وذلك ليل نهار. وتتم اعمال التحقق في البر والبحر والجو.

٥ ــ يتولى ضابط لبناني قيادة كل لجنة من لجان التحقق المشتركة، ويأخذ الضابط في الاعتبار الطابع المشترك خلال القيام بمهمات التحقق.

٦ ــ خلال القيام بمهمة ما، يتمتع قائد لجنة التحقق المشتركة بسلطة استنسابية في مواجهة اية حال غير متوقعة تتطلب عملا فوريا. ويفيد قائد اللجنة عن اية حال كهذه وعن التدبير المتخذ.

٧ ــ لا تستخدم لجان التحقق المشتركة القوة إلا في حال الدفاع عن النفس.

٨ ــ من الأمور التي تقررها لجنة الترتيبات الأمنية نمط عمل لجان التحقق المشتركة، وتسليحها وتجهيزها، وسائل نقلها، والبقاع التي ستعمل فيها، وذلك وفق أحكام المنطق والاعتبارات العملية وتحدد لجنة الترتيبات الأمنية

نمط العمل العام مع الأخذ في الاعتبار ضرورة تفادي كل ما من شأنه أن يلحق خللا بالحياة العادية للمدنيين، وكذلك ضرورة تفادي جعل اللجان أهدافا للهجوم.

٩ — لا يمكن أن يتجاوز الحد الاقصى لعدد اللجان المشتركة العاملة في آن واحد الثماني لجان.

الفقرة (٣ — و (٥))

١ — تقيم لجنة الترتيبات الأمنية ضمن المنطقة الأمنية مركزين للتحقق من الترتيبات الامنية. تعين لجنة الترتيبات الأمنية الموقع المحدد للمركزين، مع مراعاتها لمبدأ أن يكون المركزان في جوار حاصبيا وميفدون وخارج المناطق الآهلة.

٢ — تحت الاشراف العام للجنة الترتيبات الامنية، يكون هدف كل من المركزين ما يأتي:

أ — مراقبة وتوجيه لجان التحقق المشتركة العاملة في القطاع المعين للمركز في المنطقة الأمنية، والاشراف عليها.

ب — أن يستخدم كمركز اتصالات مرتبط بلجان التحقق المشتركة وبمراكز القيادة المعنية.

ج — أن يستخدم كمحل اجتماع في لبنان للجنة الترتيبات الأمنية.

د — يقوم، من قبل لجنة الترتيبات الأمنية، بتلقي وتحليل وبلورة كل المعلومات الضرورية لعمل لجان التحقق المشتركة.

٣ — الترتيبات العملانية:

أ — يكون المركزان بقيادة ضباط من الجيش اللبناني.

ب — يعمل المركزان على مدى ٢٤ ساعة في اليوم من دون انقطاع.

ج — تقرر لجنة الترتيبات الأمنية العدد المحدد للعاملين في كل مركز.

د — يتمركز الاسرائيليون العاملون في المركزين ضمن الأراضي الاسرائيلية خارج أوقات عملهم.

هـ — تتولى الحكومة مسؤولية تأمين الأمن والدعم اللوجستي للمركزين.

و — تنطلق لجان التحقق المشتركة في مهماتها اعتياديا من المركزين بعد تلقي التعليمات المناسبة، ثم تنهي مهماتها بتقديم تقريرها إلى المركزين.

ز — يشتمل كل مركز على غرفة أوضاع، ومعدات اتصال، وتسهيلات لاجتماعات لجنة الترتيبات الأمنية، وغرفة لاعطاء التعليمات وتلقي تقارير لجان التحقق.

الفقرة (٣ — ز)

من أجل تفادي الحوادث وتسهيل التنسيق بين القوى على الأرض تشمل «الاتصالات العملية والسريعة» اتصالات مباشرة بالراديو والهاتف بين القادة العسكريين المعنيين وأركانهم في منطقة الحدود المباشرة، وكذلك المقابلات الوجاهية.

ذيل

يمكن القوات المسلحة اللبنانية، طبقا لأحكام الملحق أن تحمل أو تدخل أو تمركز أو تخزن أو تنقل عبر المنطقة الأمنية جميع الأسلحة والعتاد العضوي لكل لواء اعتيادي من القوات المسلحة اللبنانية. لا تكون محظرة بموجب هذا الذيل الأسلحة الفردية والاجمالية، بما في ذلك الأسلحة الأوتوماتيكية الخفيفة، التي توجد عادة في حوزة وحدة المشاة المؤللة.

١ — انظمة الاسلحة المدرجة أدناه والعضوية حاليا لكل لواء في المنطقة الأمنية، يكون مسموحا بها وفقا للأعداد المبينة:

دبابات:

— دبابة عدد (٤٠) اربعين.

— عربة اخلاء متوسط عدد (٤) اربعة.

سيارات مصفحة:

— ا م ل — ٩٠/ سلادين/ الخ عدد (١٠) عشرة.

حاملات جند مصفحة:

— م ١١٣ ١ ١/ف س س — ل عدد (١٢٧) مابة وسبع وعشرين حاملة. زائد (٤٤) اربعا وأربعون حاملة من صنف م ١١٣.

مدفعية/ هواوين:

ـــ قـذاف مقطور ١٥٥ ملم عدد (١٨) ثمانية عشر (أيضاً ١٠٥ ملم/ ١٢٢ ملم).
ـــ هاون ١٢٠ ملم عدد (١٢) اثني عشر.
ـــ هاون ٨١ ملم عدد (٢٧) سبعة وعشرين (محمولة على حاملات هاون مسرفة م ١٢٥).
اسلحة مضادة للدروع:
ـــ أر.ب.ج. عدد (١١٢) ماية واثني عشر.
ـــ اسلحة مضادة للدروع عدد (٣٠) ثلاثين (مدافع ١٠٦ ملم عديمة الارتداد/ صواريخ تو/ صواريخ ميلان).
اسلحة الدفاع الجوي:
ـــ مدافع عيار ٤٠ ملم وما دون عدد (١٢) اثني عشر (غير موجهة بواسطة الرادار).
٢ ـــ عتاد الاشارة في اللواء.
ـــ جهاز ان/ح. ر. ث. ـــ ١٦٠ عدد (٤٨٢) اربعماية واثنين وثمانين.
ـــ جهاز آن/ ف. ر. ث. ـــ ٤٦ عدد (٧٤) أربعة وسبعين.
ـــ جهاز ان/ ف. ر .ث. ـــ ٤٧ عدد (١٦) ستة عشر.
ـــ جهاز ان/ ف. ر. ث. ـــ ٤٩ عدد (٩) تسعة.
ـــ جهاز ج. ر. ا. ـــ ٣٩ عدد (٤٣) ثلاثة واربعين.
ـــ جهاز ت. ا. ـــ ٣١٢ عدد (٥٣٩) خمسماية وتسعة وثلاثين.
ـــ موزع س.ب. ـــ ٢٢ عدد (٢٧) سبعة وعشرين.
ـــ موزع س.ب. ـــ ٩٩٣ عدد (٨) ثمانية.
ـــ جهاز ان/ ج. ر. ث. ـــ ١٠٦ عدد (٤) أربعة.
٣ ـــ عتاد الرصد في اللواء.
ـــ رادارات تحديد مكان الهاون.
ـــ رادارات تحديد مكان المدفعية.
ـــ رادارات رصد الأرض.
ـــ أجهزة المراقبة الليلية.
ـــ أجهزة التجسس الأرضية غير المدارة عن قرب.
٤ ـــ انسجاماً مع تدابير الملحق، تكون السيارات المصفحة التابعة لقوى الأمن الداخلي وفقاً للآتي:
سيارات مصفحة مدولبة ذات مدافع عيارها حتى الـ ٤٠ ملم عدد (٢٤) أربع وعشرين.
٥ ـــ انسجاماً مع تدابير الملحق لن تكون هناك تحديدات على المنشآت الساحلية في المنطقة الامنية باستثناء ما يعود إلى الفئات الاربع الآتية:
ـــ رادار ساحلي لمراقبة البحر عدد (٥) خمسة.
ـــ مدافع دفاع ساحلي عدد (١٥) خمسة عشر من عيار ٤٠ ملم او ادنى.
ـــ مدافع ساحلية للدفاع الجوي عدد (١٥) خمسة عشر من عيار ٤٠ ملم او ادنى. (غير موجهة بواسطة الرادار).
ـــ صاروخ بر/ بحر: لا شيء.
٦ ـــ إن تنظيم كل من لواء المشاة واللواء الاقليمي في المنطقة الامنية هو كالآتي:
قيادة اللواء وسرية القيادة ضباط: ١٤ رتباء وافراد/ ١٧٣.
ثلاث كتائب مشاة ضباط ٣١ في كل كتيبة رتباء وأفراد ٦٥٤ (في كل كتيبة).
كتيبة مدفعية ضباط: ٣٩ رتباء وافراد ٦٧٢.
كتيبة مدرعات ضباط: ٣٧ رتباء وافراد ٥٧٩.
(ثلاث سرايا مدرعات زائد سرية استكشاف).
كتيبة لوجستية ضباط: ٢٦ رتباء وافراد ٣٤٤.
سرية هندسة ضباط: ٦ رتباء وأفراد: ١٢٥.
سرية مضادة للدروع ضباط: ٤ رتباء وافراد ١١٧.
سرية مدفعية مضادة للطائرات ضباط: ٤ رتباء وافراد: ١٤٦.
المجموع: ٤٣٤١ ضباط: ٢٢٣ رتباء وافراد: ٤١١٨.



كتب وردتنا

□ **عمر الزعني ــ حكاية شعب** منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٩	فاروق الجمال
□ **الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي حتى اليوم** دار الغرب الاسلامي ــ بيروت ١٩٨١	الفرد بل ترجمة: عبد الرحمن بدوي
□ **حوار حول عبد الناصر** دار الآفاق الجديدة ــ مركز الدراسات العربية طبعة أولى (١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م)	روبرت ستيفنس محمد عودة عبد المجيد مزيد
□ **لبنان والصيغة المأساة** منشورات دار الآفاق الجديدة (١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م)	عبد العزيز قباني
□ **الشياطين الحمر والمسيرة الخضراء** دار الآفاق الجديدة (١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م).............	غالب حمزة أبو الفرج
□ **مشكلات الطفولة والمراهقة** منشورات دار الآفاق الجديدة (١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٢م)	د. ميخائيل ابراهيم أسعد د. مالك سليمان مخول
□ **صحة العائلة مع ٨٠٠ سؤال وجواب** دار الآفاق الجديدة (١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٢م).............	تعريب: اميل خليل بيدس
□ **جبل طارق والعرب...** المكتبة الصغيرة (٢) الرياض (١٣٩٧ ــ ١٩٧٧)	عبد العزيز الرفاعي
□ **مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي** **كلمات المنفلوطي** منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت	دراسة وتقديم: د. جبرائيل سليمان جبور
□ **العلاقة المتبادلة بين العبقرية والجنون** منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت	سمير عبده
□ **الشيخ احمد رضا والفكر العاملي** منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت	د. فايز ترحيني قدم له: د. فيكتور الكك

معهد الإنماء العربي

التذكرة الحمدونية

تصنيف

ابن حمدون

محمد بن الحسن بن محمد بن علي

تحقيق

الدكتور إحسان عبّاس

المجلّد الأوّل

التراث العربي

د ـ غسان تويني ـ لطفي الخولي ـ محمد سيد احمد ـ الصادق المه
يا رايت ـ بول بالتا ـ بول جابر ـ جيمس ج. ابو رزق ـ روجيه غا
بال ابو جودة ـ الشاذلي القليبي ـ صدر الدين اغا خان ـ هشام ش
شحادة ـ روبيرت ستيفنس ـ خليل حسن خليل ـ محمد عصفور ـ
و ـ جيراردو خورخي شميس ـ ريمون اده ـ نديم دمشقية ـ
مان ـ يحيى الجمل ـ بيار فايس ـ فيليب روندو ـ ميشال اكيلي ـ
ط ـ غسان سلامة ـ عصام نعمان ـ هاني فارس ـ عصام النقيب
بيليد ـ اندرياس باباندريو ـ تياري دي بوسي ـ جان لاكوتير ـ
د ـ غسان تويني ـ لطفي الخولي ـ محمد سيد احمد ـ الصادق المه
يا رايت ـ بول بالتا ـ بول جابر ـ جيمس ج. ابو رزق ـ روجيه غا



حوليات سياسية

السنة الاولى ـ العدد الرابع ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣

2, rue Christine, 75006 Paris

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جُذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا

